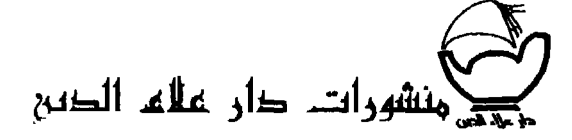
إشراف: ف. دياكوف س. كوفاليف

الحضارات القديمة

الجزء الأول

ترجمة نسيم واكيم اليازجي



دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ - ١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي والإخراج الفني: سلام أبوكرم.

التدقيـق اللغوي الأستـاذ: صالح جادالله شقير.

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨

هاتف:- ٥٦١٧٠٧١ فاكس: ٥٦١٣٢٤١ -

الفصل الأول

المجتمع البدائي

المقدمة

النظام المشاعي البدائي: يدرس الفصل الأول من التاريخ ولادة، تطور وتفكك النظام المشاعي البدائي. نقصد بهذا التعبير التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشت حقبة طويلة من الزمان، أي منذ ظهور المجتمع البشري حتى تشكيل الدول الأولى. وبينما قسم تاريخ المجتمع الطبقي(عبودية، إقطاعية، رأسمالية)ولم يتجاوز خمسة آلاف سنة، فقد استمر النظام المشاعي البدائي مئات آلاف السنين.

ما هي سماته المتميزة؟ في المجتمع البدائي، بنيت علاقات الإنتاج على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وعلى رأسها، الأرض. بسبب ضعف مستوى القوى المنتجة، الذي يحول دون الامتلاك الفردي لوسائل العيش الضرورية: كان الناس ملزمين بالعيش والعمل سوية والعمل الجماعي يولد الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج وثمار العمل. ما يجنيه الناس معا يخصهم معا. لم تكن قد ولدت بعد فكرة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ولا استغلال الإنسان للإنسان، ولا الطبقات.

فالنظام المشاعي البدائي مرحلة واسعة من تاريخ البشرية وعامة، هذا يعني أن كل الشعوب مرت من هنا، وان المجتمع المنقسم إلى طبقات غير خاص بشعب دون آخر، وأن المجتمع بني على بقايا النظام المشاعي البدائي.

يخص تاريخ المجتمع البدائي العصور الغابرة، التي تخولنا دراستها إلقاء الضوء على مسائل هامة مثل أصل الإنسان، ولادة الدين، والفنون والعلوم، تشكل الطبقات والدولة، كما يتقصى الدرب الصعب الذي شقته البشرية، والنضال البطولي الذي خاضه جدودنا لمواجهة الطبيعة.

إن تاريخ المجتمع البدائي، كغيره، عام: غرضه دراسة قوانين ارتقاء النظام

المشاعي البدائي. ولا أحد يستطيع دراسة هذه القوانين إلا على ضـــوء المادية الجدلية والتاريخية.

لقد توقف بناة الماركسية على قضايا التاريخ البدائي في العديد من أعمالهم. في "الإيديولوجيا الألمانية"التي كتبت في ١٨٤٥ ــ ١٨٤٦، أشار ماركس وانجلز، عند بداية نشاطهما الاجتماعي، أن الناس، منذ فجر المجتمع البشري، يوم كانوا يعيشون على الصيد والقنص والزراعة، وتربية الدواجن، عرفوا ملكية العشيرة، أي هيمنة الملكية التعاونية. "ورأس المال"، "انتي دوهرينغ"وأعمال أخرى مثل رسائل ماركس وانجلز تتضمن ملاحظات قيمة في مختلف مشاكل نظام المشاعية البدائية. وفي العام ١٨٧٦، كتب انجلز"دور العمل في انتقال القرد إلى إنسان "الذي يعطي شرحاً معمقاً علمياً ومادياً، للتطور المعقد لظهور الإنسان.

كان العلم البورجوازي قد كدس حوالي العام ١٨٨٠ كمًّا من الوثائق؛ ولدى دراستها بطريقة نقدية، شرع ماركس وانجلز بعمل توليفي حول تاريخ المجتمع البدائي. بدأ العمل ماركس الذي اطلع وعلق على أهم ما جاء في كتاب للعالم الشهير الأمريكي ل.هـ. مورغن. وبعد موت ماركس، تابع انجلز العمل وأنجزه؛ ونشر في العام ١٨٨٤ كتابا هاما بعنوان: "أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة"، يكشف، استناداً إلى وقائع عديدة، عن القوانين الأساسية لارتقاء المجتمع البدائي ويعطي تاريخه الأول الجاد العلمي.

لم يكتف ماركس وانجلز بنقد النظريات اللا-علمية وتعليل قوانين ارتقاء المجتمع البدائي، بل دللا على الخاصة المؤقتة لمؤسسات مثل الطبقات، الملكية الخاصة والدولة. وهكذا أفادا من تاريخ المجتمع البدائي ليبينا نظرية الإشتراكية العلمية.

كان لينين قد عمق علم المجتمع البدائي. وظهرت ملاحظات هامة، تتعلق بالسمات الأساسية للنظام المشاعي البدائي، في أعماله من هم أصدقاء الشعب"وكيف يناضلون ضد الإشتراكية الديموقراطية، والقضية الزراعية و"ملاحظات ماركس"ومؤتمره"في الدولة".

مصادر أخبار النظام المشاعي البدائي

لدراسة المجتمع البدائي خواصها. فبينما تركت لنا حقب التاريخ البشري التالية نصوصا عديدة ومتنوعة(مخطوطات، مدونات، وغيرها)،كان النظام المشاعي البدائي، بعامة، يجهل الكتابة، الأمر الذي يلزمنا البحث عن آثار من نوع آخر.

لقد استقينا المعلومات الأساسية حول المجتمع البدائي من مصدرين تاريخيين: علم العاديات وعلم العراقة. الأول يعيد تركيب ماضي البشرية استناداً إلى آثار الثقافة المادية؛ بهدف البحث عنها، وضعها وتصنيفها. تتضمن هذه الآثار معلومات عن العمل، والأسلحة والأواني، مخلفات السكان والسكن، الأعمال الفنية ومواد الطقوس والشعائر. وتميز بقايا العاديات أيضاً، إلى مدى ضيق، أيديولوجيا الماضي. يسبر علماء الآثار التجمعات القديمة (محطات، قرى) ونقوشات وأنصاب شخصية أو اجتماعية؛ يحفرون الطبقات الأثرية، أي الأرض التي تضم المخلفات اللاعضوية والعضوية للحياة والنشاط البشري،والتي يتجاوز عمقها أو سماكتها أحياناً عشرات الأمتار. في هذا المجال، تمكننا الجيولوجيا، البقايا الحيوانية القديمة،وكذلك النباتية من تحديد دقيق لتتابع الحضارات. ولقد أعدت حديثاً سبل فيزيائية ــ كيماوية لمعرفة عمر اللقى. سبل مؤسسة على دراسة التحولات التي تعرضت لها البقايا العضوية خلال آلاف السنين. كما يكشف الباحثون في العظام، في فضلات المحارق، وغيرها، كمية التظير الكربوني المشع، المسمى"كربون *14*". ولدى معرفتهم أنه يعود لحوالي ٥٥٠٠ سنة، يحددون تاريخ النقش أو الحفر أو التجمع.

يدرس علم العراقة ثقافة وأخلاق القبائل والشعوب، بخاصة، الشعوب القديمة. ففي القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين، كانت مناطق أفريقية، أمريكية، أسيوية، محيطية، وبعض أقاليم روسيا، تسكنها شعوب ما تزال تحافظ على بقايا من النظام المشاعي البدائي. كانت هذه التجمعات الشعبية كثيرة جداً منذ ألفي عام، في زمن هيرودوت، سترابون، تاسيت وكتاب آخرين من العصور الغابرة، الذين تحدثوا عن أشياء هامة.

يعالج علم العراقة: الإنتاج، الثقافة المادية، النظام الإجتماعي والحياة الروحية لهذه الشعوب،ويعيد تركيب سمات المجتمع البدائي استناداً إلى بقاياه؛ وكذلك المعطيات الآتية هي الوحيدة التي تنير تاريخ الأسرة، التنظيمات الإرشادية، التقاليد الشفهية والحق في المجتمع البدائي. ولجمع وثائق غنية، يجب على علماء الشعوب أن يبقوا مدة طويلة في كنف هذه القبيلة أو تلك، يتعلمون لغتها، يتعرفون عاداتها. مثلاً، كان ل. هـ. مورغن ضيف قبيلة السينكواز، وعاش الرحالة الروسي الشهير ميكلوكوف ــ ماكلاي مدة طويلة عند البابو في غينيا الجديدة، يدرسان عاداتها وحتى يجهدان في الدفاع عنها ضد الاضطهاد الاستعماري.

تشكل المواد الاثنية، على قيمتها الكبرى، نواقص عميقة. بداية، كانت القبائل الأكثر تخلفا التي لم يدرسها أي اثنوغرافي قد تطورت فعلا لدى اتصالها بالشعوب المتحضرة وخضعت للتأثير المدمر الذي تنشره الرأسمالية. فأخلاقها وعاداتها توفر غالبا مزيجا غريبا من التشبه بالقديم ومن العناصر الجديدة.

بالتالي يعطي العلماء الذين درسوا تجمعات شعبية من مستويات ارتقاء متباينة، سمات عامة. أما كيف نعرف أشكال اقتصادها وتنظيماتها الاجتماعية والايديولوجية، وأيها أقدم، وكيف ننتقل من الوصف البسيط للأدوات، للمساكن، للنقوش إلى تاريخ المجتمع. دون تحديد الوثائق المتوفرة في سرير ***DE PROTUSTE***[1] للمخطط التحكمي؟ لا يمكن تخطي هذه العقبة إلا بتعاضد مواد العاديات مع المواد الأثنية.

حقب تاريخ المجتمع البدائي

خلال آلاف السنين، تعرض المجتمع البدائي إلى تبدلات هامة اقتصادية واجتماعية. فلا بد إذن من تمييز عدة مراحل في تاريخه. لنعرف حسب أي مبدأ يتم هذا.

منذ النصف الثاني من القرن الماضي، أدخل عالم الآثار الدانمركي ش. تومسون في تصنيف اللقى فكرة ثلاثة "أعمار" أو"عصور: عصر الحجر، "البرونز والحديد، حسب المادة الأساسية المستخدمة في صناعة الأدوات،واختار هذا المبدأ لتقسيم ما قبل التاريخ. وبالتالي قسم كلا من هذه العصور إلى محطات: مثلا، في عصر الحجر، ميز الحجر القديم ***PALEOLITHIQUE***، الحجر الأوسط ***MESOLITHIQUE***، والحجر الجديد ***NEOLITHIQUE***، التي تختلف من حيث عمل الحجر ومهمة أو وظيفة الأدوات. وقسمت هذه المحطات إلى حجر قديم أبعد وأقرب وإلى مراحل أو حضارات تمتاز بهذه الآثار المادية أو تلك؛ تسمى المرحلة بشكل عام باسم المكان الذي اكتشفت فيه المواد الخاصة به (شاليان، أشليان، موستريان، الخ).

يقدم هذا التصنيف مكاسب أكيدة قبلها علماء آثار ومؤرخو العالم قاطبة. لكنها تعاب كونها وحيدة الجانب، وترجع الفرق بين مراحل التاريخ البدائي إلى طبيعة المادة الأولى بأداة وأسلوب عملها: قد يفضي هذا إلى تفسيرات آلية للتاريخ، وإلى فصل التطور التقني

---

[1] – *de procuste* أسطورة يونانية تقول إن بروكست هذا كان ينهب ويعذب المسافرين.

عن تطور المجتمع. وهكذا، تخص نفس الحقبة الآثارية غالبا شعوبا من مستويات تطور، بينما انحل وتفكك النظام البدائي في أمكنة أخرى وفي بعض الأمصار تكون الزراعة وتربية الدواجن في بدايتها ويستمر النظام القبلي في الحياة. وهكذا لا يمكن ربط هذه النماذج الثلاثة بنفس المحطة التاريخية.

وحوالي العام ١٨٨٠، اقترح ل.هـ. مورغن تصنيفا آخر، في كتابه"المجتمع القديم"بخلاف التصنيف الأول، لا يكتفي التنصيف الجديد بالمعيار التكنولوجي بل يبنى على الخصيصة العامة للثقافة المادية لكل حقبة. يميز مورغن محطتين في التاريخ البدائي: الوحشية والبربرية. تنتهي الأولى مع اختراع القوس والنشاب؛ وتبدأ الثانية باختراع الفخار وتشمل ولادة وتطور الزراعة والتدجين. تقسم كل محطة إلى ثلاث درجات: سفلى، وسطى، وعليا.

يعتمد انجلز تصنيف مورغن في الفصل الأول من كتابه"أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة. لكنه يراه غير كاف ويشير إلى أن جمع المواد الأولى تكرهه على إفساح المجال لنهج آخر.

وفي الوقت الراهن، يرى بعض العلماء أن التقسيم المورغاني لتاريخ المجتمع البدائي عفى عليه الزمن،ولم يعد ينسجم مع المكتشفات الأخيرة لعلمي الآثار والعراقة؛ لكن ليس ثمة حل شامل عام حتى الآن.

يرى كل المؤرخين ضرورة إيجاد مكان خاص للمحطة الأولى للتاريخ البدائي، في أثنائها يتم التشكل البيولوجي للإنسان ذاته؛ يسمى اتفاقا محطة القطيع البدائي[1].

ولقد تلت محطة القطيع البدائي محطة النظام القبلي، الذي ترافق أوجهه بعامة مع نظام الأمومة، أي المساواة بين الرجل والمرأة.

أخيرا، وشم تطور القوى المنتجة، ولادة التدجين، حراثة الأرض بالسكة الحديدية ومعالجة المعادن(البرونز والحديد)، بداية مرحلة الاستغلال الأولى والملكية الخاصة: استبدلت الأمومة بالأبوة، والديموقراطية القبلية بالديموقراطية العسكرية التي هيأت إرساء أسس الدولة.

---

[1] ـ إقرأ ف. انجلز"أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة، المنشورات الإجتماعية، باريس ١٩٥٤ ص ٢٨، ولينين، الأعمال الكاملة، مجلد ٣٥، ص ٩٣،(منشورات ـ روسية).

طبعا، لا يجوز أن ننظر الآن إلى هذا التصنيف المبني علىسمة العلاقات الاجتماعية إلا كفرضية.

فالتقسيم إلى مراحل أو محطات يمكن من تقديم تنسيق التطور التاريخي. والصعوبة الأخرى الكأداء هي التسلسل التاريخي لهذه المحطة أو تلك. وغالبا ما نكون أمام استحالة تحديد دقيق لبداية أو نهاية هذه المرحلة أو تلك مما قبل التاريخ: فكلما توغلنا في الزمن، كان التسلسل التاريخي المطلق غير أكيد.

نظرة في التأريخ

لمدة طويلة، بقيت حياة الإنسان الأول غامضة. كان كتاب التاريخ القديم يرددون خرافة"العصر الذهبي"الذي كان في فجر البشرية، أو يرسمون كائنات حيوانية سلاحها يداها، أسنانها وهراواتها. ففي العصر الوسيط، حالت هيمنة الكنيسة دون تطور الأفكار العلمية حول الأزمنة البدائية: يعلم اللاهوتيون أن الناس الأولين، آدم وحواء، خلقهم الله، وتؤكد الكنيسة سلطتها بطردهما من الجنة، والطوفان وحكايا التوراة الساذجة. وكانت الأنباء حول أخلاق الشعوب المتخلفة مجرد خيالات: كانوا يتصورون هؤلاء الناس برؤوس كلاب أو حتى بدون رأس، والعينان في الصدر.

فقط، المكتشفات الجغرافية الضخمة التي تمت من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر، بدءا برحلات كولومبوس وماجلان(وبخاصة رحلات المستكشفين الروس كراتشنينكوف، بالاس، ميللر)، التي أطلعت علماء أوروبا على حياة الشعوب المتخلفة، دشنت علم العراقة وسهلت طرح مسألة التاريخ البدائي.

ففي بداية القرن الثامن عشر، كان المبشر لافتو، الذي عاش طويلا في كنف هنود أمريكا الشمالية، أول من نشر فكرة تقول :إن عادات الأوربيين تقدر أن تعلل وتجلو تاريخهم البعيد. مع ذلك، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، اكتفى العلم بالفرضيات التحكمية حول ما قبل التاريخ، وتحدث كثير من المتشككين بالعزوف عن دراسته، بدعوى أننا لن نعرف المرحلة الغامضة، بل الطلاسم، التي سبقت اكتشاف الكتابة.

لقد اصطدمت أولى الحفريات الأثرية التي كشفت أدوات الناس بين الحيوانات المتحجرة في بداية العصر الرابع(مسنري في انكلترا حوالي١٨٣٠ وبوشردي بيرش في فرنسا حوالي ١٨٤٠)، اصطدمت بالجحود، بل الموقف المعادي بصراحة، رغم أنها

طرحت أسس علم الآثار وإناسة العالم البدائي وانتقال الفرضيات النظرية إلى وثائق جادة حول مجتمع ما قبل التاريخ. ولم يعرف العالم المثقف القيمة الصحيحة لأعمال مسنري وبوشردي بيرش إلا بعد كشوفات داروين.

كان تاريخ المجتمع البدائي موضع اهتمام عميق لدى الديموقراطيين الثوريين الروس، وفي مقدمتهم تشرنثفسكي، الذي قال: إن المجتمع الأبوي الذي افترض العدالة بين الناس، كان محطة شاملة. واهتم بخاصة بانتقال مشاعية الأرض إلى الملكية الخاصة، فسهل عليه فهم تاريخ الزراعة الروسي.

في القرن التاسع عشر، أسهم العلم البورجوازي بسعة بتنهيج المعارف حول المجتمع البدائي. ولقد اعتمد القانوني السويسري ج.ج. باشوفن على دارسي العصور القديمة للتدليل على وجود عهد الأمومة، الذي تلاه عهد الأبوة. وتقصى ل.ه. مورغن كنصير للمادية العفوية أو الطبيعية طبيعة النظام القبلي، فأيد فكرة وحدة ارتقاء البشرية وجهد في إجلاء التطور التاريخي لليونان والرومان مستنداً إلى دراسة التنظيم الاجتماعي لدى هنود أمريكا الشمالية. وطرح العالم والسياسي التقدمي الفرنسي ج. موتليت وعالم الآثار السويدي او. موتليوس أسس تصنيف آثار العصر الحجري والبرونزي. ودرس العالم الروسي م. كوفالفسكي المجتمع الأبوي وبرهن أنه كان شكلاً انتقالياً بين الأمومة والأسرة وحيدة الزواج المعاصرة. أخيراً، كتب ن. سيبر، الذي كان أول من عمم في روسيا نظرية ماركس في الاقتصاد، مقالات حول الثقافة الاقتصادية البدائية التي لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا.

لقد جمع علماء العراقة والآثار البورجوازيون في القرن العشرين وثائق واسعة وفيرة حول تاريخ المجتمع البدائي، الأمر الذي خولهم تقويم الكثير من بيانات أسلافهم النظرية، التي كانت بالضرورة تقريبية، بسبب نقص الوقائع المعروفة. وبينما أشار مورغن ومورتليت إلى خط واحد لارتقاء المجتمع البشري، استطاع علماء القرن العشوين ترسم طرق معقدة وعديدة لتقدم الإنسان، حتى في العصر الحجري الأقدم *PALEOLITHIQUE* إذ أنجز المؤرخ الإنكليزي ج. كلارك ميزان الأعمال المنجزة قبله ودلّ إلى التطور الاقتصادي لحياة مختلف التجمعات البدائية في أوروبا انطلاقاً من العصر الحجري الوسيط *MESOLITHIQUE* .

لكن بعض مؤرخي الحقبة الامبريالية، بنقدهم الأفكار البيانية لعلماء القرن التاسع عشر حول الارتقاء البشري، أنكروا إنكارا قاطعا مبدأ الارتقاء. وحسب نظرية الروابط الثقافية، لعالم العراقة الألماني ف. غريبنر لم تكن الثقافة البشرية، عوضا من التطور عبر الزمن، سوى ثقافة متنوعة، وكانت البشرية كلها جملة من الحلقات الثقافية الجامدة. كما لجأ العالم الألماني او. مانجن إلى علم الآثار لنشر أفكاره ناكرا عملية الارتقاء. ترك فلسفة المعطيات، ويقدم تاريخ المجتمع البدائي كمحصلة لهجرات القبائل المنتسبة إلى مختلف الحلقات أو الروابط الثقافية. أفضت هذه النظريات إلى المفاهيم الرجعية المكشوفة لصاحبها ج. كوسينا، الذي جعل من تاريخ المجتمع البدائي تمجيدا لحملات وغزوات أسلاف"العرق الآري".

يبرهن العديد من علماء العراقة البورجوازيين على الطبيعة الأبدية والثابتة للملكية الخاصة، لاستغلال الإنسان للإنسان، والدور التابع للمرأة في الأسرة وفي المجتمع والكثير من قاذورات النظام الرأسمالي الأخرى، ونسبوا وجود الطبقات في المحطات الأقدم من المجتمع البشري. كما ساهم علم العراقة البورجوازي في تبرير الاضطهاد الامبريالي في المستعمرات.

لكن علماء الآثار والعراقة التقدميين في القرن العشرين، مثل أ. اردلسكا، ج. ليبس، ف. بواس، رفضوا هذه النظريات الرجعية وهاجموها ودافعوا عن خيرة تقاليد تطوريي القرن الماضي. علماء الطليعة أمثال ج. شيلد، أنصار أفكار ماركس.

والمؤرخون السوفيات، الأوفياء للماركسية-اللينينية، حققوا نجاحات ضخمة في دراسة ما قبل التاريخ. فأعمال علماء الآثار ف. غورودتسوف، ب. إفمانكو، أ. برسوف، ت. باسيك، ب. بوفتين، س. كسليف، ف. رافدوننكا، وآخرون مكنوا من متابعة التاريخ في مناطق عدة خلال آلاف السنين، منذ مراحل المجتمع البدائي الأول حتى ولادة المجتمع الطبقي. إذ أعطوا كمية من المواد والوثائق من أجل الدراسة النظرية لأهم تطورات ما قبل التاريخ. ونشرت نتائج أعمال علم الآثار بانتظام في دوريات"علم الآثار السوفياتي" و"أنباء" معهد تاريخ الثقافة المادية.

وساهم علماء الإناسة السوفيات إ. روغنسكي، ف. بوناك، م. نستورك، وسواهم بعمق بإيضاح أصل الإنسان، العنصر الأساسي للدراسة الجادة للمحطة الأولى للمجتمع

البشري، وتقصوا أيضا مسألة تشكل الأعراق ودللوا علــى ضحالــة النظريــة العرقيــة. وعززت معرفة ما قبل التاريخ بأسلوب م. غيراسمون الذي أعاد تركيب الوجــه البشــري استنادا إلى عظم الجمجمة. خلق غيراسمون عشرات البورتريــهات_ ***PORTROITS*** ، لأناس عاشوا منذ آلاف السنين.

وأعمال علماء العراقة الســوفيات س. تولســتوف، م. كوســفنن د. أولــدروج، س. توكريف، وسواهم، ساهمت بوضوح بدراسة نظام المشــاعية البدائيــة" أصــل الزراعــة والتدجين، ولادة الأديان أدركت بروح مادية، وبرهن أن الأمومة كانت مرحلة عامة مــن تاريخ البشرية، وعرفت بالتالي السمات المحددة لتفكك نظام القبلية وتشكل المجتمع التــالي، وغير ذلك. ودوريات علم العراقة عندنا هي مجلات"العراقة السوفياتي"،"أعمال معهد علــم العراقة وحولية متحف الاناسة والعراقة".

الفصل الثاني

القطيع البدائي

ظهور النظام القبلي

ظهور الإنسان: يبدأ تاريخ البشرية بظهور الإنسان والمجتمع الإنساني. لقد دعم العلماء المثاليون طويلا نظرية الحد المغلق بين الإنسان و الحيوان. تشتق هذه النظرية من الأسطورة التوراتية. عارضها داروين بفرضية تقول:إن الإنسان انحدر من عرق قردي راق يشبه البشر .والمكتشفات اللاحقة أكدت رأيه وأثبتت أنه في نهاية العصر الثالث أو بداية العصرالرابع عاشت فعلا قرود مشابهة ،يمكن اعتبارها أسلافا للإنسان.

هكذا، في جنوب أفريقيا ، اكتشف كثير من عظام القرود العالية سميت *AUSTRALOPITHEQUES*. كانت تعيش في مغارات حراجية أو شبه صحراوية، تمشي على قوائمها الخلفية، وتقنص الحيوانات الأصغر، وللهجوم والدفاع، كانت تستخدم عصاة أو عظاما ضخمة طويلة، وقد أفضى الغذاء اللحمي، الوقوف واستخدام الأطراف الأمامية لتناول الأشياء إلى كبر حجم دماغها.

إن مسألة معرفة إن كان القرد الاسترالي سلفنا المباشر، أو يشكل "فرعا جانبيا" في تكوين الإنسان، تبقى معلقة. لكن الأمر الأكيد هو أن الإنسان المتحجر ينحدر من قردة مشابهة،اكتشفت عظامها في أمكنة عديدة من العالم القديم، بخاصة في القفقاس. ومن زرافات القردة الشبيهة بالإنسان انحدر،في بداية العصر الرابع(أي منذ مليون سنة)،قطيع الإنسان البدائي.

لقد كان موضوع مكان إتمام تحول القرد إلى إنسان مجالا لمناظرات حادة وحيوية:تبنى بعض العلماء نظرية التعددية ، وأكدوا أن التطور حدث بالتوازي في أماكن عدة وأن الإنسان انحدر من أنواع مختلفة من القردة. ليس العلماء السوفيات من هذا الرأي، بل هم يرون أن القرد تحول إلى إنسان في إقليم من الأرض الواسعة التي تشمل

جنوب آسيا ، الشرق الأدنى، شرق القفقاس و بقاع واسعة من أفريقيا؛ والوضـــع الراهـن للعلوم يسمح بتحديد التطور بدقة كبرى.

يعلل بعض الباحثين ظهور الإنسان بأسباب طارئة ، خارجية. هكذا يقدم الأكـــاديمي ب. سوشكين اختفاء الغابات كعنصر أساسي: فاضطرار القرد للعيش على الأرض خلـــق تباينا في أطرافه وجعله يمشي منتصبا. تتكر هذه النظرية تحول القرد إلى إنســان تحـــولا منتظما.

إن تعليلا علميا فعلا للظاهرة زودنا به انجلز في كتابه"دور العمل في تحويــل القـــرد إلى إنسان". حيث يشير المؤلف إلى أن العنصر الأساسي هو العمل."العمل خلق الإنســـان نفسه[1]". لكن بم بدا هذا العمل البشري؟ كانت القردة تتناول حجرا أو عصاة كما كان يفعـــل القرد الأسترالي، لكن أحدا لم يستطع صنع الأداة الأكـــثر بدائيـــة. فبصنـــع الأدوات يبـــدأ العمل.

إن النشاط الجاد المثابر، صنع الأدوات البدائية ،أفضى إلى تقســـيم الوظـــائف بيـــن الأعضاء الأمامية والخلفية. وتصير صناعة الأدوات المهمة النوعية للطرفين الأمــــاميين، الأمر الذي زاد مهارتهما وحولهما إلى يدين. وبكلمة، لم تكن"اليد عضو العمل فقـــط، بـــل أيضا ثمرة العمل[2]".

كلما أطلقت اليدان وتخصصتا بمهمة العمل، تدعمت عادة المشـــية المنتصبـــة أكـــثر فأكثر، وهذا أدى بدوره إلى تطور اليدين وحررهما من أجل النشاط الجاد، وعزز بالتـــالي تطور الحنجرة والحبال الصوتية. ولقد أثبتت دراسة عظام الإنسان المتحجـــرة أن تبـــاين الأطراف يسبق ارتقاء الجمجمة، وهذا يؤكد تماما فكرة انجلز حول دور العمـــل فـــي دور ظهور الإنسان.

البشر المتحجرون

لقد اكتشفت في جاوا في الأعوام١٨٩١-١٨٩٤، أقدم بقايا الإنسان المتحجر المســـمى إنسان جاوا. ومؤخرا وجدت في جاوا عظام أنواع أخرى. وحوالي١٩٢٥، اكتشف عــــالم

---

[1]- ف. انجلز، ديالكتيك الطبيعة، دار المنشورات الاجتماعية، باريس١٩٥٥، ص١٧١.

[2] - المصدر ذاته، ص١٧٢.

الآثار الصيني بي اوان-تشونغ في كهف شوكو- تيان، قرب بكين، رفاة عظمية لحوالي٢٥ نموذجا لرجل متحجر سمي إنسان بكين. كما كشفت عظام مبعثرة عديدة، أكثرها افكاك وأسنان لكائنات قريبة من إنسان بكين، في وسط فيات- نام، في جنوب أفريقيا وقرب هيلدبورغ، في ألمانيا. وفي العام١٩٥٤، عثر علماء فرنسيون في الجزائر على بقايا من نموذج إنسان آخر مما قبل التاريخ، سمي اتلانتروب.

إن الأحفاد المباشرين للناس المتحجرين هم النياندرتاليون ونموذجهم إنسان نياندرتال، وقد سمي هكذا لأن رفاته وجدت في وادي بهذا الاسم، قرب دوسلدروف. كان النياندرتاليون يسكنون العالم القديم، وصودفت بقاياهم في جاوا، في أفريقيا، في الشرق الأدنى ومناطق أخرى أوروبية. وعلى الأرض الروسية عثر عليهم علماء الآثار السوفيات: ففي١٩٢٤، اكتشف ج. بونتش _ اوسمولوفسكي أجزاء من هيكل عظمي في مغارة تشيك _ تشاك، في جنوب أوزبكستان.

يتميز الناس المتحجرون عن البشر الحاليون بجبهة مائلة وتجويف جمجمي منخفض؛ وأقواس حواجب متينة فوق العينين، العظام الوجهية بارزة، وفقدان الذقن.

كانوا يمشون بسيقان ملتوية ويركضون وقد انحنوا كثيراً إلى الأمام؛ تشبه أيديهم القوائم، أي أن الإبهام كان أقل تعارضاً مما لدى إنسان هذه الأيام. غير أنهم يتميزون بوضوح عن القرود العليا بالمشية وسعة العلبة الجمجمية. من حيث الحجم، يتجاوز دماغ ابن جاوا (٩٠٠سم٣) كثيراً دماغ الغوريلا أو الإنسان الأوسترالي، ودماغ ابن بكين أكبر (حتى١٢٠٠ سم٣) ودماغ إنسان نياندرتال (قرابة١٤٠٠ سم٣) يقترب من السعة الوسطى لجمجمة الإنسان الحالي (١٤٠٠ -١٥٠٠سم٣).

بخلاف الإنسان الأسترالي، ما كان البشر المتحجرون يكتفون باستعمال بعض المواد(عصا أو عظم)، بل كانوا يعرفون صناعة الأدوات. إذ وجدت بين رفاة ابن بكين والنياندرتاليين، أدوات حجرية بدائية. وفي كثير من المناطق، اكتشف علماء الآثار أدواتاً ليست من عظام الناس المتحجرين.

عاش ابن جاوا، ابن بكين وابن نياندرتال في العصر الأبعد أي الأدنى – الأقل تطوراً.

العصر الحجري الأدنى

في بداية العصر الرابع، عند تشكل المجتمع البشري، كـان المنـاخ ألطـف وأكـثر رطوبة. كانت أوروبا مغطاة بغابات شبه اسـتوائية تسـكنها الماضغـات، الخرطوميـات ووحيدات القرن غير الموجودة في هذه الأيام. لكن شـيئا فشـيئا صـار المنـاخ أقسـى: الجليديات تزحف آتية من الشمال. طبقة كثيفة من الجليد غطت مسـاحات شاسـعة مـن أوروبا وأمريكا الشمالية. وجليديات أخرى كانت تهبط من سلاسل جبال الألب وهملايا.

وفي الجوار المباشرة للجليد استبدلت الغابات شبه الاستوائية بالتوندرا حيث ترعـى الماموث الوبري، الأحقب والحصان الوحش. يشمل العصر الحجـري الأدنـى بـالتحديد مرحلة تمتد من بدء العصر الرابع حتى نهاية العصر الجليدي(قرابة أربعين ألف سنة).

كانت صناعات العصر الحجري الأدنى بدائية. عدا الـهراوات، اسـتخدمت شـظايا الحجارة ذات الحواف الحادة. وشيئا فشيئا، تعلموا أن يصنعـوا مـن الصـوان قبضـات سميكة، بشكل اللوزة، تزن أحيانا أكثر من كيلو. كانت تقطع بواسطة صوانـات أخـرى. أفادت هذه الأداة البدائية بتفصيل أوتاد خشبية، لقلع الجذور، لتحطيم تلعات الأرض، لذبـح حيوان جريح؛ لا شك أنها لم تستخدم في الصيد بخاصة، فأي عصي تقوم بهذا الغـرض. فضلا عن هذا، كان الناس يعدون صفائح من الصوان الحاد.

بهدوء، تتكدس الخبرة وتتحسن التقنية: في بقاع عديدة وسبل متباينة، ينتقـل النـاس إلى صنع أدوات أصغر وأنعم. وتصير أهم الوسائل الصوانية النياندرتالية صفـائح مثلثـة الشكل: مروسة للقص أو الثقب، مكاشط لسلخ الحيوانات الذبيحة. أداة القنص هي المـذراة والرمح الخشبي المصنوعان من الخشب.

طبعا، لم يكن لإنسان بكين مساكن ثابتة و لا ألبسة. كثيرا ما كانت الأشجار ملاجـيء للإنسان تقيه من الحيوانات المتوحشة. وانتهى إلى تعلم إعداد ستائر أو حواجز تحميه مـن تقلبات الجو، ثم احتل كهوف الحيوانات المفترسة التي يسـتخدم جلودهـا لصنـع سـرير وثوب، نوع من غطاء الرأس مجهز بأربطة أو علاقات.

لقد تعلم أناس العصر الحجري الأدنى إيقاد النار. ربما كان أولا يستخدم ويحفظ النـار الطبيعية وبعدئذ أوقدها بصدم قطعتي صوان ببعضهما أو بحك قطعـة خشـبية بقضيـب خاص. والنثار الناتج يحمى ويشتعل؛ وآنئذ تمد فتيلة صوفية أو ليفة نباتية تلتهب، ثم ينفـخ

على النار لتتقد. كانت صعوبة العملية تكره الناس البدائيين على معاملة النار بعناية.

كان استخدام النار ذا أهمية بالغة: فهي تقي البشر من البرد والكواسر، وتمكنهم من شوي أغذيتهم، الأمر الذي يسهل التمثل الغذائي ويغني الوجبة. إن اختراع النار"... أعطى الإنسان لأول مرة السيادة على قوة طبيعية، وبهذا، أبعده عن مملكة الحيوان[1]".

في الاتحاد السوفياتي، كانت قد اكتشفت أقدم أدوات الإنسان المتحجر فوق تلة ساتاني _ دار، في أرمينيا، واكتشفت آثار أخرى من العصر الحجري الأدنى في القفقاس، في أبخازيا وفي جنوب أوسيتي، في القرم، في حوض الدنبير والدنستر وفي المجرى الأوسط للفولغا.

أخلاق أول تعاونية بشرية وتنظيمها الاجتماعي

كانت التجمعات الأكثر تخلفاً، التي لم يدرسها أبداً علماء العراقة، أرقى بكثير من البشر المتحجرين من العصر الحجري الأدنى. و لا يمكن معرفة حياة أول تعاونية بشرية إلا استناداً إلى المواد الأثرية، الأمر الذي يجعل آراءنا حول تنظيمها الاجتماعي ناقصة جداً وفرضية.

كان إنسان العصر الحجري الأدنى يعيش من القطاف والصيد. يقتات بالثمار، بالجذور والعنب البري، يأسر بعض الضرعيات الصغيرة، الضب والحشرات. وبدأ مبكراً بصيد الحيوانات الضخمة: في محطات قبل التاريخ، يكشف علماء الآثار غالباً، بين الأدوات البدائية، عظام الماموث والبيزون، الأحصنة والغزلان، التي بقر أغلبها ليأخذ نخاعها. كان الإنسان البدائي يأكل كل شيء، الأمر الذي مكنه من العيش في كل مكان.

كانت حياته قاسية: ما كان يستطيع منافسة الكواسر الرهيبة في بداية العصر الرابع لا بسرعة الركض، ولا بالقوة الجسدية. كان الجوع يترصده أبدا، وكذلك الموت بين مخالب الحيوانات. وعقد زحف الجليد نضاله ضد الطبيعة. بقي الإنسان القديم على قيد الحياة بفعل سببين اثنين: بداية، صار كائنا واعيا يصنع أدوات، ثم، عمل منذ البدء متعاونا.

إن صنع الأداة نفسها غير ممكن إلا تعاونيا، لأن هذا الأخير هو الذي يصون ويعضد

---

[1] – أنجلز، أنتي دوهرينغ، دار المنشورات الاجتماعية، باريس١٩٥٦، ص١٤٧.

الانجازات، الخبرة البدائية بمادة الانتاج، ويؤمـــن توريثـــها. والصيـــد، بخاصـــة صيـــد الحيوانات الضخمة التي تخاف النار وتدافع برشق الحجارة نحو وهدة أو سبخة، كان يتـــم جماعة.

هذا هو تجمع إنسان العصر الحجري الأدنى الذي سمي اتفاقا القطيع البدائـــي. كـــان قليل العدد وغير مستقر ولا شك: كان يستطيع بأعضائه الانتقال إلى قطيـــع آخـــر. كـــان يرأسه مشرف، رجل أو امرأة. وتسود حياته الجنسية البلبلة والاختلاط، مع إمكانيـــة قيـــام علاقة بين اثنين فقط، رجل وامرأة، مستقرة إلى هذا الحد أو ذاك.

إن شكل الأداة البدائي، مستوى الاقتصاد المتخلف، والنضال الضاري مع الطبيعـــة، كلها عاشت في قلب القطيع البدائي"الفردية الحيوانية" الموروث من الأســـلاف الحيوانيـــة، التي تتبدى أحيانا بصراعات دامية، بفصول من الكفاح من أجل الوجـــود. كمـــا عرفـــت حالات من أكل لحوم البشر.

تدريجيا، ومع رسوخ التنظيم الاجتماعي في التجمع البشـــري ومضاعفـــة منجـــزات الانتاج، تراجعت الغرائز الحيوانية؛ كما قال لينين، أخمـــد القطيـــع البدائـــي والمشـــاعية البدائية"الفردية الحيوانية" لدى البشر الأقدمين[١]".

ولادة الفكر واللغة

تنجم ولادة الفكر من نشاط الناس المنتج. والعبور من الاستخدام الغريـــزي للـــهراوة والحجر إلى صناعة الأدوات، على جلافتها، أفرز النشاط العقلي لدى الإنسان، والوعـــي. وشكلت منجزات الانتاج الخبرة الأولى عنده واستقرت في ذهنه.

والعمل التعاوني صان منجزات الانتاج وبصم الفكر البدائي بسمته النموذجيـــة: فـــي الأزمنة الأولى، ما كان الإنسان ينفصل عن التجمع التعاوني.

واللغة قديمة أيضا كالفكر"... اللغة هي الوعي العملي، حية لدى الجميـــع، حيـــة إذن عندي، واقعية، واللغة لا تولد، كما الوعي، إلا من الحاجة، من ضرورة المتاجرة مع الناس الآخرين"، كتب ماركس وانجلز. والمفاهيم الأولى العامة لا تعرف في التجمع التعـــاوني إلا إذا حددتها الأصوات. والتلاقي بين الناس والعمل التعاوني يستحيلان بدون اللغة.

---

[١] - لينين، الأعمال الكاملة، المجلد٣٥، ص٩٣(منشورات روسية).

ليس لدينا أي فكرة عن بنية اللغات البدائية. بل يفترض العالم السوفياتي ف. بونـــاك أنها وُلدت من الإشارات الصائتة لدى القرود شبيهة الإنسان، وتنامت مع تكديـــس خـــبرة الإنتاج، وتطورت الحنجرة بفعل الوضع العمودي وتراجع حجم الفك الأسفل.

كانت هذه اللغات تتألف من عدد متواضع من الكلمات أو، بكلمة أدق، من عبـــارات وحيدة المقطع، منعزلة وعديدة الدلالة. وكان كلام الإنسان البدائي يترافق مع حركـــات لا تلعب مع ذلك سوى دور ثانوي.

الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى

لقد أتى بعد العصر الحجري الأدنى، حسب التصنيف المقبول في علم الآثار، العصـــر الحجري الأعلى(دام من الألف الأربعين حتى الألف الثاني عشر قبل الميلاد).

تبدلت الشروط المناخية مرارا في أثناء هذه الحقبة. تراجع الجليد وصار المناخ فـــي أوروبا وسيبيريا الجنوبية معتدلا. ثم عاد الجليد، هذه الهجمة الرابعة والأخيرة، الأقل عتـــوا مما سبق، جعلت المناخ مع ذلك قاسيا جدا. بادت الماموث، انتشر الأحقب علـــى شـــاطئ البحر الأبيض المتوسط، والقرم والقفقاس.

تم الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى بتطورات هامة في بنية الإنســـان الجســـدية، وكذلك بطبيعة الإنتاج والتنظيم الاجتماعي. والنموذج البيولوجي المعاصر: الإنسان العـــاقل *HOMO SOPIEMS*، تشكل نهائيا؛ وتطورت تقنيات واقتصاد التجمع التعاوني وظـــهرت بخاصة أدوات نوعية، مخصصة لصنع أدوات أخرى، ووسائل من الخشب والعظم أو مـــن الخشب والعظم معا؛ غادر الناس الكهف ليعيشوا في ملاجئ مصنوعة ومدفـــأة؛ وتشـــكل نمط جديد من التنظيم الاجتماعي:القبيلة البدائية؛ أخيرا، ظهرت الفنون. كـــل هـــذا خـــول العالمين السوفياتيين إي. روغنسكي وف. إياكموف اعتبار الانتقال إلى العصر الحجـــري الأعلى، وانتقال إنسان نياندرتال إلى الإنسان العاقل، كوثبة نوعية تبقى أهميتها التاريخيـــة مع ذلك أقل من انتقال القردة من النموذج الاسترالي إلى الإنسان المتحجر مـــن النمـــوذج الجاوي. وكان الانتقال إلى نوع جديد قد أعده ارتقاء المجتمع البشري في نهايـــة العصـــر الحجري الأدنى.

تثبت بقايا العصر الحجري الأعلى في أوربا الغربية والشرقية تنامي القوى المنتجـــة. وتتجاوز تقنيات هذه الحقبة كثيرا تقنيات العصر السابق؛ اتقنت صناعة الأدوات الصوانيـــة،

وضغطت مساحتها: بمساعدة قضيب عظمي، يؤخذ ببساطة، من شظية صوانية، صفيحات ناعمة، للحصول على أداة مشذبة ذات حواف حادة ومتينة. وعدا الحجر، صنعوا العظم والقرن.

كانت الوسائل المستخدمة لجني الغذاء متنوعة جدا: صنعت الرماح القصيرة ذات الرأس العاجي أو الصواني، والخناجر من القرون، والخطافات للصيد والقنص، والمكاشط والصفائح لسلخ الحيوانات الذبيحة ومعالجة الجلود؛ وخيطت الثياب من جلود المواشي بإبر عظمية. وأعدت الأزاميل لحفر أو نحت القرن أو العظم.

اتسع صيد الحيوانات اتساعا لم يسبق له مثيل: في المحطات، يكتشف علماء الآثار بقايا وفيرة من الأسلاب. ففي بردقوست (تشكوسلوفاكيا) مدفن عظام لألف ماموث. وحوالي نهاية هذه الحقبة، مورس الصيد أيضا بسعة. حدد هذا التطور في الإنتاج أسلوب حياة أكثر حضارية، نشهد شاهدا رائعا عليه في غنى آثار العصر الحجري الأعلى.

يبدأ الإنسان باحتلال ملاجئ مصنوعة، ذات طنف، أخصاص وملاجئ محفورة في الأرض. كشف علماء آثار(ب. أفمانكو، س. زامياتنين وسواهما)عن أكواخ من العصر الحجري الأعلى على ضفتي الدون وغيرها. كانت مساكن من التراب المقولب، بشكل بيضوي. أفخاذ الماموث تدعم السقف المغطى بالتراب. في وسط الكوخ توضع موقدة أو أكثر تغذيها عظام الحيوانات. إلى جانب المساكن حفروا حفرا لحفظ الطرائد والأغذية الأخرى.

على أرض روسيا. عثروا على آثار من العصر الحجري الأعلى في شرق القفقاس، في حوض الدنيبر والدون، وعلى مجرى تشوسوفايا وفي سيبيريا.

تشكل ثقافة القبائل التي كانت تعيش بعيدا عن مناطق الجليد سمات فريدة. في أفريقيا الشمالية ازدهرت حضارة سميت كابسا(الآن غافسا، في تونس)؛ وبخلاف صيادي وقناصي الشمال، كان تجمع كابسا يعيش على القطاف؛ ما كانوا يخشون مهاجمة الوحوش كالأسد والفهد، لكن المكان الرئيسي لاقتصادهم يرجع إلى جمع الرخويات الأكولة، السلاحف، بيض النعام، وغيرها. وشروط اقتصادية مشابهة كانت، يومئذ، في شرق الأبيض المتوسط، في القرم وفي القفقاس.

تشكل القبيلة

لقد وطد التطور التدريجي لقوى الإنتاج والانتقال إلى الحياة المقيمة التجمع التعاوني البشري، ونجم عن هذا كبح"الفردية الحيوانية". وبارح القطيع البدائي المكان لتنظيم إجتماعي أرقى.

ارتقت البنية القطيعية أساسا في ثلاثة مناحي. بداية، مكن نمو إنتاجية العمل الناس من الحياة في تجمعات أقل عددا، أتت من القطيع لكنها استمرت في إقامة علاقات اقتصادية معه. تعتبر هذه التجمعات متقاربة ويمكن أن تساعد بعضها، بل تتبادل الدعوة إلى حقول الصيد.

ثم، منع التجمع البدائي العلاقات الزوجية الداخلية. يرتبط هذا التدبير المسمى الزواج الخارجي، بشكل متين مع التطور الاقتصادي. ولم يعد الزواج ظاهرة بيولوجية بحتة، بل مؤسسة نظمها المجتمع.

لم يدم الزواج الخارجي سوى حقبة معينة، لأن القطيع البدائي كان تعاونية مغلقة، لا تتصل بغيرها. وصار الزواج الخارجي ممكنا بعدما اعتبرت تجمعات الأمومة والتبني ذات علاقات قربى واستمر أفرادها يتزاوجون فيما بينهم. إذن، عدا المبدأ السلبي: منع الزيجات ضمن التعاونية، أدخل الزواج الخارجي مبدأ إيجابيا: الالتزام بالزواج من أعضاء تعاونية أخرى، لكنها تعاونية معينة. فمن الآن فصاعدا، ارتبط تجمعان متقاربان بعادة الزواج المتبادل: لا يمكن الزواج إلا من تجمع بنوي. سميت هذه العادة التي تنص على الزواج في حدود التعاونية الكبرى الزواج اللحمي.

هكذا تكون في الوقت ذاته قبيلة خارجية الزواج ،وعشيرة لحمية الزواج مؤلفة من مشاعيتين متقاربتين. اعتبر انجلز هذا الزواج المزدوج الشكل الأول لمجتمع الزواج الخارجي المبني على القبيلة. ثمة شواهد من مستويات أرقى بكثير: رآها علماء العراقة لدى شعوب معاصرة، مثل التركمان، الايفانك، القرغيز وكراكلبك. كانت تجمعات القبيلة خارجية الزواج تتكاثر ببطء.

كان الزواج في هذه المرحلة جماعيا، أي نساء مشاعية ما هن نساء فعليات أو مفترضات لكل رجال مشاعية أخرى من القبيلة. رغم أن هذا النظام لا يلغي الصيغة المؤقتة للزواج المستقر إلى هذا الحد أو ذاك، ليس لأحد حق منع شريكه.

شواهد الزواج الجماعي مستمرة لدى الشعوب التي درسها علمـــاء العراقـــة، لـــدى الاستراليين، مثلا، الذين تنقسم قبيلتهم إلى جماعتين أو أربع جماعات مرتبطـــة زواجيـــا؛ وفي روسيا، لوحظت القضية لدى النيغكس(غولياك)؛ وفي نهاية القرن التاسع عشر لاحـــظ ل. سترنبرغ أن الحكومة القيصرية نفتهم إلى الشرق الأقصـــى لنشـــاطهم فـــي صفـــوف "منظمة إرادة الشعب".

أخيرا، تتعقد بنية القطيع البدائي نتيجة ارتقاء التقسيم الطبيعي للعمل. ربما كان تقسـيم العمل حسب العمر موجودا منذ ولادة المجتمع البشري، لكن رجال ونســـاء آنئـذ كـــانوا يلعبون ذات الدور في الاقتصاد. فقط في نهاية العصر الحجري الأدنى انقسم العمل حســب الجنس :تخصص الرجال بالصيد وتركوا القطاف للنساء والفتيان.يفترض عالم الآثـــار ب. فمانكو أن الأدوات النياندرتالية تخـــص الجنســين: فكـــانت الشـــظايا الحـــادة ســكاكين للرجال،وللنساء المكاشط.

يلحظ علماء العراقة تقسيم العمل حسب الجنس والعمر لدى مختلف الشعوب.هكـــذا، في استراليا، النساء و الفتيان يصيدون ويقطفون عطاءات الطبيعة. بينما الرجال يقنصـــون. ينتج من هذا فرق معين أكيد بين رجال ونساء القبيلة: يخيمون منعزليـــن، لا يعـــدون ذات الطعام، يتكلمون لهجات مختلفة. على هذا، يضع مبدأ تقسيم العمـــل علـــى رأس القبيلـــة جماعة من الشيوخ ،كنوز الخبرة والتجربة الاجتماعية.

في بداية العصر الحجري الأعلى، فقدت التعاونية البشرية إذن بنيتها الجماعية البكـــو: بحسب تطور القوى المنتجة وتقسيم العمل، يترك القطيع مكانـــه لتنظيـــم أرقـــى: الشـــكل البدائي للمشاعية المبنية على القبيلة.

تشكل النموذج البيولوجي للإنسان المعاصر

يتميز إنسان العصر الحجري الأعلى جسديا عن مثيله النياندرتالي. تثبت بنية عمـــوده الفقري المشية بالوضع المنتصب مطلقا. لا يتجاوز حجم دماغه(١٤٠٠ سم٣)أبـــدا ســـعة قحف سلالته، لكن شكله بدل الأجزاء الصدغية، الجبهية والجدارية، أي الأجزاء المتعلقـــة بتطور الكلمة. التي تميز الإنسان كائنا اجتماعيا، كبرت بشكل محسوس. وبالتالي، صـــارت الجمجمة مستطيلة، تحررت الجبهة، لم تعد أقواس الحاجبين كثيفة. وأخيرا، الفك الأســـفل أقل ثقلا وتشكل الذقن، على أثر تطور اللغة المستخدمة.

لقد حاول العلم التاريخي البورجوازي مرارا أن يثبت أن"الإنسان العاقل"كان قد ظهر منذ الزمن السحيق وأنه"كان يعمر الأرض"مع اليناندرتالي في حقبة واحدة.وهكذا كان المؤرخون البورجوازيون يحاولون بتر الإنسان المعاصر عن أسلافه ويقدمون ظهوره كأعجوبة.إذن، ينحدر"الإنسان الحكيم **L'HOMNE SAGE** " مباشرة من إنسان يناندرتال في نهاية العصر الحجري الأدنى. معروف اليوم أن أعمدة فقرية عديدة لليناندرتاليين تقدم سمات انتقالية كثيرة. اكتشف أحدها في العام١٩٥٣ العالم الأثري أ.فورموزوف في ستاروسليا،في القرم.

إن عوامل عديدة تعلل تشكل النوع البيولوجي للإنسان الحالي. فكثافة الصيد والنمو المكافيء لنسبة الغذاء اللحمي عززت التطور الجسدي لأسلافنا؛وتعقيد النشاط المنتج طور وحسن الفكر والكلام؛ والكبح المتدرج"للغرائز الحيوانية"وتحديد الروابط الجنسية داخل القطيع ساهم أيضا بارتقاء الكائن البشري. وانتهى التطور بظهور"***LHOMO S APIEMS'***.

إن عددا من النماذج العرقية تمثل إنسان العصر الحجري الأعلى. ففي أوروبا، ثمة النموذج الأوروبي"***EUROPAIOLE***"المسمى أيضا كرو ــ ماينون(نسبة إلى كهف في الميدي الفرنسي)؛ وجد منه بقايا على الأرض الروسية. كان إنسان كرو_مانيون كبير القامة، عريض الوجه، ناتيء الذقن. وفي إفريقيا(في جنوب الصحراء وفي أوروبة الجنوبية(إيطاليا)، اكتشفت هياكل عظمية بشرية تشابه كثيرا نموذج العرق الزنجي الحالي. سكن زنوج العصر الحجري الأعلى في وقت ما أوروبا الشرقية، منها الحجري الأعلى لنهر الدون. وفي الصين، في المغارة العليا لشو كو_تيان، وفي سيبيريا، ليس بعيدا عن كراسنويارمك، اكتشفت رفاة إنسان من النموذج المنغولي.

إن مسألة العروق قضية إيديولوجية وسياسية حادة جدا، فقد سعى علماء رجعيون من العالم الرأسمالي إلى النظرية العرقية محاولين تبرير العدوان على الشعوب الأخرى واستعبادها. ونشروا نظرية مغلفة بغلاف العلم حول وجود عروق عليا وأخرى دنيا. وحاول مؤرخون بورجوازيون "تلقيحها" بمفاهيم خاطئة.يدعي البعض أن الأعراق وجدت في كل الأزمنة، وأن أوروبا مسكونة أبدا بإنسان النموذج الراهن. بينما الزنوج وأعراق أخرى "أدنى" انحدرت من أنواع أقل رقيا:ابن جاوا، ابن بكين واليناندرتالي. وهكذا نرى ضرورة وضع النقاط على الحروف.

لقد قرر العلماء التقدميون أن العروق البشرية الثلاثة الكبرى(زنجي، أروبي، منغولي) لا تتميز عن بعضها إلا بالمظهر الخارجي،الثانوي(لون الجلد، شكل العينين، والشعر، وسواها). لكن حجم القحف، هيكل اليدين، الكفاءات الذهنية والجسدية متشابهة. فلا فوقية أو غلبة لعرق على آخر.

لقد كشف علماء الطبيعة أن الأعراق لا تشكل استمرارا للارتقاء التاريخي. النياندرتاليون المنتشرون في أمصار عديدة من العالم القديم يتشابهون فيما بينهم أكثر من تشابه الأعراق المتشكلة أخيرا في هذه المناطق. وبالتالي، لم تعرف النماذج العرقية إلا منذ العصر الحجري الأعلى.

كيف يعلل تشكل الأعراق؟منذ نهاية العصر الحجري الأول، لمست فوارق في الثقافة المادية في بعض الأقاليم، نابعة من تفرد الشروط الطبيعية وبخاصة المادة المتوفرة لصنع الأدوات. وتنامت هذه الفوارق في العصر الحجري الأعلى، والنظام الاقتصادي التعاوني. يذكر عالم الآثار الروسي، س.زمياتنين تميز ثلاث مناطق كبرى، خلال هذا الزمن، بسمات نوعية في ثقافتها المادية: المناطق الأفرو-أوسطية، الأوروبية غير الجليدية والصينية-السيبيرية. لسبب أو آخر، كانت معزولة في بداية العصر الحجري الأعلى، الأمر الذي حدد الفوارق الثقافية. فقد أثار انعزالها بالضرورة تكدسا تدريجيا لتمايزات خارجية، ثانوية، مرتبطة إلى حد ما بالشروط الطبيعية لهذه المنطقة أو تلك.

هكذا، يتلاءم تشكل النوع البيولوجي للإنسان المعاصر مع ولادة التجمع المبني على القبيلة، الذي بلغ أوجه في الحقب الأثرية التالية.

الفصل الثالث

أوج النظام المشاعي البدائي

الخصائص الأساسية لتجمع الأمومة

كانت قمة المجتمع البدائي، الشكل الاجتماعي الأساسي، هي التجمع المبني على العشيرة أي التعاونية المتحدة بمصالح اقتصادية وروحية، ذات الأصل الواحد وروابط القربى. ولما كان الزواج من الخارج هو القانون الأساسي، فلن يتيسر للعشيرة الوجود إلا بالاتصال بالعشائر الأخرى من ذات القبيلة.

التجمع البدائي العشائري، الذي ولد في ظل النظام الأمومي الجماعي، لن يكون إلا أموميا ، أي مبنيا على وشائج القربى لجهة الأم. هذا يعني، في الزواج الجماعي، أي قيام رابطة أمومة بين عدة نساء لعدد من الرجال، عدم إمكانية قيام رابطة أبوية: الابن يعرف أمه، لكنه لا يعرف أباه، فالأبوان ينتسبان بالضرورة إلى عدة عشائر، والابن جزء من عشيرة الأم دوما.

إن عشيرة الأم هي نقطة الانطلاق في التجمع العشائري وبالتالي، هي حقبة أساسية في ارتقاء المجتمع البشري. في ظل الأمومة، المرأة تساوي الرجل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

يجهد مؤرخون بورجوازيون لنفي هذه الفكرة التي يتبناها انجلز. هكذا، ابتغى عالم العراقة الألماني هـ. شورتز التدليل أن الرجل كان دوما رأس الأسرة،"حامل المبدأ النشط، الخالق"، وليست الأمومة إلا شذوذا. إن هذه المزاعم التي تهدف البرهنة على أبدية دور المرأة تابعا أو مرؤوسا، تناقض الواقع. دحضها الأدب السوفياتي في"الأمومة" بقلم م.كوسفن. وذكر علماء العراقة السوفيات أ.أنسموف، أ.زولاتريف وآخرون شواهد أمومة لدى مختلف شعوب شمال آسيا(ايفانكس، اولتش، وسواها). إن العلم البورجوازي يعتبر ممثلا كلاسيكيا للعلاقات الأبوية.

يبدأ أوج نظام العشائر مع العصر الحجري الوسيط ويستمر إلى العصر الحجري الجديد.

تطور القوى المنتجة في العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الجديد الأدنى

منذ بداية العصر الحجري الأعلى، يتراجع الجليد، وتتغطى مساحات واسعة من أوروبا وآسيا، الصحراوية والسهبية حتى آنئذ، بغابات كثيفة. وتباد القطعان العشبية الضخمة، التي كانت ضحايا صيادي العصر الحجري الأعلى، أو تهاجر نحو الشمال. وفي نهاية العصر الجليدي(حوالي اثني عشر ألف سنة قبل الميلاد)وتوسع الغابات، ألغيت الشروط المألوفة لإثارة الطرائد: اقتصر الإنسان على صيد الطرائد الصغيرة والأنعام غير الجماعية، كالأيل. جعلت هذه الشروط (القاسية) الحياة المستقرة التي اختبرت في أيام صيد الماموت الوفير، مستحيلة. فاضطر الإنسان من جديد العودة إلى الترحال بحثا عن الغذاء.

تطلب هذا الوضع في المقام الأول تحسين وسائل الصيد: لذا انتشر القوس والنشاب منذ العصر الحجري الأعلى عند إنسان كابسا والقبائل القريبة منها، وبخاصة في العصر الحجري الوسيط(من الألف الثاني عشر حتى الألف السادس قبل الميلاد، طاردا الخطاف. فالسهم سلاح أكثر إتقانا من الرمح القصير أو المزراق. وهو عند الرمي أقدر على إصابة الهدف وعند الفشل، يمكن في الحال إطلاق قوس آخر. ويؤمن القوس والنشاب صيد الطيور.

تضم محطات العصر الحجري الأوسط عددا ضخما من الأدوات المصنوعة الصخور البركانية الثلاثية، بشكل شبه منحرف أو بشكل الهلال، بيد خشبية أو قرن، وتساهم بخاصة بترويس السهم. كشف الكثير من محطات العصر الحجري الأوسط في القرم. وعلى نهر الدونتز وغيرها.

في هذه الحقبة أتى الصياد بمؤازر هام هو الكلب. تعود أقدم عظام الكلب الأليف التي عثر عليها، إلى العصر الحجري الأعلى(أفونتوفا غورا، قرب كراسنويارسك)؛وتصادف كثيرا عظام الكلب في محطات العصر الحجري الأوسط، في القرم، كان هذا أول حيوان دجنه الإنسان وآلفه.

ولقد أكره تراجع توفر الصيد الإنسان على البحث عن مصادر غذاء جديدة.وسيكون القطاف أغناها: جمعت الرخويات القابلة للأكل، الثمار، الجوز، عسل النمل البري، وسواها.لدى قبائل الساحل، كان جني الرخويات النشاط الاقتصادي الرئيسي،كما تشهد الأكوام الضخمة من الأصداف المكتشفة في أمكنة عديدة وسميت"فتات المطبخ".

مع بدء العصر الحجري الأدنى(حوالي الألف الخامس قبل الميلاد)يأخذ القنص أهمية كبرى. يقيم الصيادون والقناصون على شواطىء البحار وضفاف الأنهر، في جزر البحيرات، ويبنون غالبا مساكنهم على الأعمدة، قرب الشطآن. في هذه الحقبة أتقن الناس عمل الخشب. بالبلطات والمطارق الضخمة يصنعون الطوافات، القوارب، والمساكن الخشبية. ومن العصر الحجري الأدنى جمعت بقايا بيوت ومراكب في روسيا البيضاء، استونيا، على مجاري الفولغا العليا وسواها.

حسب تراجع الجليديات، يعمر الصيادون والقناصون أقاليم جديدة: في العصر الحجري الوسيط سكنت استراليا وأمريكا، ومضيق بهرينغ؛ وفي تقدمهم نحو الشمال، وصل الناس إلى شواطىء المحيط المتجمد الشمالي قرب مورمانسك.

إن معطيات علم العراقة تخولنا الحديث بصورة أصح عن المجتمع البدائي خلال العصر الحجري الأوسط والعصر الحجري الجديد الأدنى، لأن بعض التجمعات البشرية التي درست حفظت لنا بعض آثاره. لا شك أنهم ساروا دربا طويلة تاريخية صعبة؛ فعلاقاتهم الاجتماعية وأيديولوجيتهم تختلف بوضوح عن الأشكال البدائية للمجتمع والأيديولوجيا التي تكونت في أوج عصر الأمومة. لكنهم في الشروط الطبيعية القاسية، مارسوا تقنية واقتصادا قديما.لا بل عادوا أحيانا إلى أدوات العصر الحجري القديم.

إلى الجماعات الأثنية الأكثر تخلفا ينتسب التسمانيون، الذين أبادهم المستعمرون الانكليزفي ١٨٨٠ ،وسكان أستراليا الأصليون ،والفوجيون،بوشيوجنوب أفريقيا وقبائل أخرى. كانوا يتغذون من الصيد والقطاف،وبعضهم يهتم بالقنص،وكانوا يعيشون جماعات صغيرة وعشائر أتلفتها الشروط القاسية. الأستراليون خير من يمثل هذه الأفخاذ.

كانوا يستخدمون في الصيد الهراوة المقذوفة والنصال الحادة التي طرقها الحداد، ولرمي السهام كانوا يستخدمون أداة خاصة تقوي الضربة وتزيد مداها، كما استعملوا البلطة الحجرية.

عدا الصيد، كانوا يجمعون بيض اللقلق ،الحلزون، الضفادع، والجذور ،واستنادا إلـــى أحد علماء الأعراق،كانوا يعرفون قرابة ثلاثمائة نوع من النباتات القابلة للأكل.

كان تقسيم العمل يخضع لمبدأ العمر والجنس: الرجال يصطادون، والنساء والأبنـــاء، مسلحين بالعصي، يبحثون عن الغـذاء فـي التربـة. و كـان الصيـد والقنـص يتمـان جماعة.كانت شروط القارة الأسترالية الطبيعية القاسية تكره السكان على الترحال المسـتمر بحثا عن الماء و الغذاء، ولاتقاء البرد كانوا ينصبون أكواخا أو أخصاصا بسيطة، فضـــلا عن قدرتهم على بناء نوع من البيوت المتينة بأغصان و قشـــور الأوكالبتوس[1]. وثيابـهم، البسيطة جدا، تنحصر أحيانا بأنواع من النبات الكثيـــف المربـوط عنـد البطـن. كـان الأستراليون يعيشون أسرا من أربعين فردا يتنقلون على "أرض غذائية" محـــددة، محرمـــة على "الغير". وعلى رأس الأسرة الشيوخ.

العصر الحجري الأعلى

يتميز هذا العصر بتقنية جديدة لعمل الحجر: الصقل، الثقب، والنشر. يتم الصقل على شرائح من البلاط المصنوع من الصلصال المبلل. ويتم الثقب بواسطة حجـــر صـــوان أو أنابيب من سيقان الخيزران المقاوم، أو العظام المجوفة، تبرم باليد أولا، ثم بواسطة حبـــال مقوسة؛ على الخشب المروس يصب الرمل الرطب. أن صقل وثقـــب الصخـــر الصلـــب تطور طويل جدا: فصنع بلطة جيدة، بهذه الطريقة، يدوم عدة سنين.

استمرت غالبية قبائل العصر الحجري الأعلى بالحياة على الصيد، القنص والجمـــع. ففي شمال القسم الأوربي من الاتحاد السوفياتي، كانوا ينكبون بخاصة على صيد وقنـــص الطيور المائية.كانت المحطات الحجرية في هذه المنطقة تجاور الماء بشـكل عـام: كـان الناس يسكنون كهوفا محفورة في الأرض أو بيوتا مرفوعة على أوتـــاد، علـى ضفـــاف البحيرات.وكان صيد الطرائد الضخمة(كالأيائل، وسواها)يلعب دورا اقتصاديا هاما.

وكان الاقتصاد المؤسس على الصيد والقنص، في العصر الحجري الأعلى، معروفـــا في مناطق أخرى من الاتحاد السوفياتي: على شطآن بحر آزوف، حول بحيرة بايكال، فـي آسيا الصغرى. وعلى شواطىء آمر–داريا، اكتشف العالم السوفياتي س_تولسـتوف آثـار

---

[1] – شجر حراجي يزرع في المناطق الحارة – المترجم.

ثقافة مبنية على الصيد والقنص، سميت حضارة كلتمينار(من نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن الثالث الألفي قبل الميلاد).

إن مناطق عديدة من الكرة الأرضية سكنتها قبائل ماتزال ثقافتها تحافظ على خصيصة العصر الحجري الجديد. هكذا، في نهاية القرن السابع عشر، صادف الرحالة القوزاقي ف.أتلاتوف في كاماشاتكا الايتلمن الذين وصف نظامهم وبدقة المستكشف الشهير س.كراشنينكوف. كانت قبائل الايتلمن قد صنعت البلطات الحجرية، انشغلت بالصيد، بالقنص وبالالتقاط. ولقد دجنوا وربوا أعدادا ضخمة من كلاب الجر وعاشوا حياة مستقرة وثابتة في مخيمات محصنة.

توفر لنا مواد علم العراقة فكرة تامة عن الصيد، والقنص والالتقاط لدى القبائل البدائية. كان الصيد يتطلب جهودا شاقة، ومهارة ودما باردا: يبقى الصياد فترة طويلة يترقب ويكمن للطريدة لمسافة واسعة. ابتكر الصيادون العديد من أنواع الشرك: فخ مطمور بالتراب، أي أجهزة يكفي أن تلمس لكي ينطلق النّبوت إلى الحيوان ويرميه أرضا؛ المقلاع والشباك للطيور والأيائل. كانوا مهرة بالتقرب من الطريدة، مقنعين بجلد الدواب، فيشدونها بتقليد صوتها. ومن أهم نجاحات صيادي الشمال هو ابتكار التزلج الذي يخولهم مطاردة الحيوان عبر حقول الثلج.

ومن أجل صيد السمك، كانوا يقيمون السدود على الأنهار، والشباك والصنارات(المعروفة منذ العصر الحجري الوسيط)؛ ويأسرون السمك بالقفف، والرماح القصيرة والخطاطيف.

ولقد أفضى تحسين القطاف إلى تشكل القبائل التي يسميها ج.ليبس"القاطفون". ومنذ نهاية العصر الحجري الوسيط، سكن الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط شعب ينتسب للحضارة المسماة"ناتوفيين"(الألف الرابع قبل الميلاد)، شعب حصد سنابل الحبوب البرية؛ ولقد تكاثرت هذه القبائل في العصر الحجري الحديث.

يطلعنا علم العراقة بوضوح على أخلاق"القاطنين"الذين حصدوا بانتظام الرز البري والتقطوا ثمار الصنوبر والسنديان. وفي أيام نضج البلوط، كان هنود كالفورنيا يرتحلون جميعا(كل القرية)إلى غابات السنديان، يسقط الرجال الثمار ضربا بالعصي، تحمله النسوة بالسلال، ينزعن قشرته، يجففنه ليصنعن منه مؤونة يحفظ في خصائص مبنية على الشجر

أو الأوتاد، يعد الخبز ومشتقاته من البلوط المسحوق. كان القاطفون يعرفون طرقا عديدة لحفظ الحبوب؛ بخاصة التخمير. لكن القنص يبقى المصدر الأهم للغذاء.

ومن جهة أخرى، يتسم العصر الحجري الأعلى بالزراعة والتدجين البدائيين.

.لقد صاغ عالم الجغرافيا والعراقة الألماني ي. هاهن نظرية مثالية في ظهور الزراعة والتدجين، هادفا لتعليل هذا التقدم بالأفكار الدينية. يرى أن التدجين نجم من عبادة الحيوانات، وبدأ بتأهيل الحيوان المقدس. أما الزراعة، فقد ولدت من عبادة الأرض ـ الأم، واشتق الحرث من نحلة تقديس خصوبة التربة.

لكننا لسنا بحاجة للجوء إلى النحل والطوائف لنفهم كيف ترك"الحصاد البري" المكان تدريجيا للزراعة البدائية، ولتنمية النباتات؛ فبالإنتقاء الاصطناعي، التهجين وخلق الشروط المناسبة(تعمير الأرض، الري، الاصلاح والتحسين)، عدل الناس الأنواع شيئا فشيئا وحسنوها. بداية، كان الحراث يحرثون بالعصا المروسة المستخدمة في اللقط؛ ثم ابتكرت المجرفة. وخلق القاطفون أيضا سكين الحصاد وجرن الحبوب.

كانوا يبذرون غالبا الأراضي السبخية، الغنية بالطمي والمغمورة بالفيضان. وكانت الأرض الخصبة، المشربة بالماء، تمونهم بمحاصيل وفيرة. لذا كانوا يعتدون على الغابات. كان العمل هنا قاسيا: يمكن قطع العليق والأغصان بالبلطة الحجرية، لكن قص الأشجار الضخمة مستحيل؛ كانوا يعرونها من قشورها والجذوع تشخص هنا وهنا في الحقول. ثم يحرقون الخشب اليابس ويذرون الرماد كسماد. وبعد أعوام، عند استنفاد التربة، يستصلحون قطعا آخر. كان هذا يسمى زراعة الفرج[1].

أصول التدجين غير واضحة. على كل حال، يفترض أسلوب حياة مستقرة، ظهر بوضوح لدى القاطفين. بداية، كانت الحيوانات المقنوصة تشكل مصدرا هاما للغذاء: تزرب في الأحواش، حيث يتدجن هذا أو ذاك فجأة. ولقد مضى زمن طويل قبل أن ينجح الناس في جعلها تتكاثر عندهم. مع ذلك، لم يكن التدجين أبدا ذا قيمة اقتصادية. فالتدجين الفعلي بدأ مع بدء تأهيل الأنعام، وخلق عروق جديدة، أليفة. فكانت هذه النقلة، الناجمة عن نشاط الإنسان الواعي بطيئة جدا.

---

[1] – بعكس زراعة السهول. حيث لا أشجار.

لقد اطلعت المرأة بالزراعة البدائية المتولدة من عملية القطاف، أما التدجين، المشتق من القنص، كان أساسا مهمة الرجل. وهكذا، حرض تطور هذين المنهلين الاقتصاديين على تقسيم العمل حسب الجنس.

كان التدجين والزراعة في البداية جنينيين. ارتقاؤهما وانتشارهما في الاقتصاد لا يلحظان إلا نادرا في العصر الحجري الحديث: أيا كان الأمر، إنها بداية مرحلة جديدة تاريخية.

يدعي أنصار نظرية"الحلقات الثقافية"، مثلا، الأثني الألماني أو ما نجن، أن الزراعة والتدجين تشكلا في نفس المكان، ومنه انتشرا إلى أقاليم أخرى. بينما بدأ العمل في الأرض وتأهيل الحيوان في بقاع مختلفة في العالم القديم والجديد.

تقع المواطن الأولى للزراعة والتدجين في الشمال الشرقي من أفريقيا، وفي غرب إيران وفي وادي الهندوس. تشهد آثار العصر الحجري الأعلى في وادي النيل، التي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد، أن الشعب المقيم في شمال شرق أفريقيا كان يربي الخراف، البقر والخنازير، ويبذر القمح والشعير. لكن الصيد والقنص استمرا طويلا في لعب دور هام.

كانت أقدم آثار الزراعة والتدجين قد اكتشفت في تركمانيا، في طبقات هضبة أنوو(في الألف الرابع قبل الميلاد)، حيث عثر على عظام بقرة، خنزير وخروف، وبقايا قمح وشعير. وعند تخوم الألفين الرابع والثالث، ظهرت الزراعة في شرق القفقاس وفي الأورال: يشهد الكثير من المعاول المصنوعة من العظم والقرون في محطة العصر الحجري الجديد للـ"سهم"(قرب نجني ــ تاغي، في الأورال)أن الزراعة وجدت هناك في زمن بعيد مما قبل التاريخ.

ففي القرن الثالث قبل الميلاد، كانت بعض قبائل اوروبا تبذر القمح، الشعير، الذرة البيضاء، العدس، الحمص، الجزر، وبدون ريب التفاح. وكانت شعوب الشرق الأدنى تعرف آنئذ كثيرا من النباتات البقلية والمثمرة: البلح، الزيتون، الكرمة، التين، اليقطين، البصل، الثوم، الخس والسمسم.

أول الحيوانات الأليفة المنتشرة في منطقة الغابات هي الخنزير والبقرة؛ ولقد تأخر تدجين الخروف.

وشعوب قديمة من أمريكا والمحيط مارسوا طويلا الحرث البدائي للأرض، قبل أن يقدروا على تربية الحيوان، لقلة الحيوانات القابلة للتأهيل وأسباب أخرى طبيعية غير مناسبة. هكذا، البابوس في غينيا الجديدة الذين درسهم العالم الشهير ميكلوكو ـ ماكلي، كانوا أرقى من الايتلمن، لأنهم زرعوا البقول. ووجدت بذور الزراعة لدى العديد من قبائل الصيادين في البرازيل: أما بعض قبائل الهنود في شمال أمريكا، فقد عرفوا الفاصوليا، الذرة، اليقطين، والتبغ.

أدوات وسلاح قمة نظام العشائر

تطلعنا معطيات علم الآثار والعراقة على بعض نقاط المجتمع البشري في أوج نظام العشائر. إنسان تلك الحقبة أرقى بوضوح من أسلافه المتحجرين، الذين اقتصرت أداتهم على سلاح صواني بدون تسوية. لكن تجربة وخبرة الأجيال أفضت إلى خلق أدوات متنوعة ومعقدة.

إن أدوات وأسلحة كانت قد صنعت من صخور مختلفة، بخاصة من الصوان، العظم القرون، الخشب، القواقع، الأوتار والجلد وسواها. ففي الصيد، تستخدم كل الوسائل. كان للمزراق والرمح رؤوس حجرية وعظمية، مصنوعة بعناية ومهارة؛ ولزيادة قوة الضربة ومداها، كانوا يستخدمون شطيرة قذف تشبه الشطيرة الاسترالية. كان الابتكار الأهم هو البوميران، المعروف لدى الاستراليين وبعض شعوب الهنود وأمريكا الشمالية: إنه قطعة خشب مقوسة تطير وهي تدور وتضرب الطريدة فجأة؛ ومنها ما يعود إلى قدمي الصياد إذا أخطأت الضربة.

القوس والنشاب هما السلاح الأكثر انتشارا في ذلك العصر. ثمة أقواس خشبية بسيطة ذات قبضة، وأخرى مؤلفة من نصل خشبي، من قرن وعظم. أبعادها متباينة جدا، تبلغ أحيانا قامة الإنسان. يصنع الحبل من القنب أو الألياف النباتية؛ والسهام مصنوعة عادة من الخشب أو الخيزران، مع ترويسة حجرية أو عظمية وريشة تنظم التحليق. كانت أساليب القذف متباينة جدا. للتسديد على طير، مثلا. ينام بعض الصيادين على ظهورهم، القوس مضغوط بين الساقين، ويمدون الحبل باليدين. كثير من القبائل يسمم أسهمه، ويستعمل هنود شمال أمريكا أسهما مشتعلة.

لم يكن ثمة فرق كبير بين أسلحة الصيد والمعركة؛ كانت فؤوس الهنود الحمر

مستخدمة كبلطات بيتية. وكان السلاح الدفاعي يلعب مع ذلك دورا نوعيا قتاليا: كالدرع ذي الأشكال والأبعاد المتباينة جدا، المصنوع من الخشب، والأكمام المجدولة من الجلد، وسعف النخيل، والخيزران، وسواها.

لم تكن الأدوات الزراعية أقل تنوعا. كانت التربة تنكش بمنكاش يقتصر على عصا بسيطة معقدة ومصنوع في حالات أخرى من نصل حجري أو من قرن الأيل ومن ذراع خشبي. وللحصاد، تؤخذ السكاكين والمناجل الحجرية أو الغضارية، تركب عليها صفيحة قاطعة، يضرب القمح بالعصي، ولطحن الحبوب يستخدمون الأجران، حجارة واسعة عالية الحواف أحيانا، وأيدي الأجران البيضوية.

كان إنسان العصر الحجري الحديث يصنع أدوات نوعية، صقيلة دوما أو تكاد: أزاميل، بلطات، سكاكين، صحون وغيرها. تتكيف البلطة الصقيلة مع ذراع مكوع يضغط نوعا من الحجر؛ ثم يثبت بالأحزمة والقطران. وتركب البلطة المثقوبة على ذراع مستقيم. لقد عزز ظهور هذه الأدوات التي مكنت الإنسان من قطع الأشجار الضخمة، عزز ارتقاء المسكن وصقل فن العمل بالخشب.

ولصناعة النسيج، ابتكر مغزل جهز طرفه الأدنى بمعزل حجري أو غضاري؛ ظهرت مهنة النسيج، كما تثبت لقى العصر الحجري الجديد في وادي النيل؛ كانت الألبسة تخاط بإبر عظمية.

في أثناء الهجرات، كان الناس يحملون متاعهم؛ كانت وسيلة النقل الأبسط عربة تجرها الكلاب، تحمل الخيمة وأوعية المنزل الصلبة. ومنذ الألف الرابع قبل الميلاد، استعمل الحمار كدابة، ولركوب متن الأنهار والبحيرات، صنعت، منذ العصر الحجري الوسيط، فلوكات من جذوع الأشجار المحفورة أو من الخشب والقشور.

المسكن، الأثاث، الألبسة

بقيت المغارة المحفورة في الأرض، المستخدمة في العصر الحجري القديم، الشكل الرئيسي للسكن في الإقليم المعتدل في العصر الحجري الحديث.

فضلا عن هذا، كانت الخيمة القائمة على أعمدة مغطاة بالجلود، بلحاء الشجر، وفي المناطق الاستوائية، بسعف النخيل. ثم ظهر البيت المستطيل أو البيضوي، بجدران وسقف. كان سكان المناطق المعتدلة في أوربا يبنون بيوتهم بعامة بالعصي الضخمة؛

أحيانا كانت الجدران من حصر الصفصاف المطلية بمزيج من الغضار والروث. وكانوا يغطون البيوت بالقش، بالخيزران، بلحاء الشجر وبتلع الأعشاب؛ وكان السقف مائلا تسهيلا لانسياب ماء المطر. وفي شبه جزيرة البلقان تبنى البيوت بالآجر؛ وفي جزيرة كريت، من الحجارة الكلسية؛ هنا، كان السطح منبسطا، مخصص لجمع ماء المطر وليس لتسريبه. وكانت أرض البيت مغطاة بقشر السندر أو حصير القصب.

كانوا يرفعون البيوت على أعمدة خشبية، غالبا في المناطق المستنقعية، وعلى البحيرات، وفي الأمكنة الجافة، ليتقوا الوحوش والعداء. تثبت على الأعمدة شرائح خشبية وفوقها يقوم العرزال. كشف التنقيب في سويسرا عن آثار هذه الأكواخ، التي صنعها السكان بأدوات العصر الحجري الحديث، العائشين على الزراعة وتربية المواشي والطيور.

لم تكن المساكن الأولى مجهزة بأبواب أو نوافذ: حصيرة بسيطة تسد المدخل. أما في أثناء العصر الحجري الحديث، جهزت قبائل الشرق _ الأدنى بيوتها بأبواب تدور في أجران حجرية. وإن كان الموقد في الداخل، يفتحون ثغرة لتهريب الدخان. يستضيئون بفتيلة تسبح في كوب مليء بالشحم أو المشاعل.

ينام الناس على الأرض، على طبقة من الأغصان، من الجلد والحصر، أو في أراجيح. والوسادة تكأة خشبية. لم تعرف مناطق الشمال السرير إلا في العصر الحجري الحديث. وكانوا يقعدون على الحصر أو الجلود؛ وتعود المقاعد إلى زمن أبعد. كانت آنية المائدة من الجلد، من الخشب، من الأغصان المحفورة أو من القشور؛ وجذع الخيزران المحفور والكرنيب يستخدم كوعاء أو آنية. لكن ابتكار صناعة الخزف أو الفخار مكن الناس من طهي الغذاء بشكل منهاجي، الأمر الذي أغنى إلى مدى بعيد انتقاء الأغذية وجعلها أكثر قابلية للهضم. وأقدم طريقة لصناعة الفخار تكمن في الحصول على خليط من الفخار والرمل، لصنع مكاو نابضية تتضد بشكل حلقي أو حلزوني. وهذه الأواني تشوى بالنار. وكان عندهم قدور مدببة أو دائرية.

كانت النساء تمارس هذا الفن: ولدى بعض الشعوب، كان محرما على الرجال الاقتراب من أمكنة صناعة الأواني حيث تزين النسوة أوعيتهم بصمت مطلق. فأفضت صناعة الفخار إذن إلى تقسيم العمل حسب الجنس.

يثبت ظهور الأوعية الغضارية أسلوب حياة أكثر استقرارا، إذ يستحيل نقل هذه الأوعية الثقيلة وسريعة العطب مرارا متتالية.

وتستخدم الألبسة لوقاية الجسم من البرد والهواطل(المطر والثلج وسواه). أشكالها الأقدم هي الصدار، القبعة، المريلة والتنورة، لكن هذا لم يكن متوفرا لدى كل الشعوب. مثلا، يقتصر لباس الغوجيين على مريلة ومربع جلدي مرمي على الكتفين. وبعد هذا _ وفي بعض الأمكنة فقط _ ظهرت الأكمام والسراويل. السترة والسروال هي أيضا من أصل أحدث. والمادة الأولية المتنوعة لصنع الثوب، ترتبط بشروط طبيعية: الجلد، أوراق الشجر ولحاؤه، والأسل؛ وبعد ابتكار الغزل والنسيج، صنعوا ثيابا من الصوف وأنسجة من ألياف النبات: كالقراص، الكتان، القنب والقطن.

استخدام الحذاء، الذي تخلف عن اللباس، تحدد في بعض الأمصار، وقد صنع من الجلد والفرو، وأحيانا من الخشب والتيل.

تنظيم الإنتاج

في أوج النظام العشائري، كان الشكل الأساسي للإنتاج هو التعاون البسيط، العمل المشترك من كل عناصر العشيرة. غارات الصيد، والصيد بالشبك، والقطاف المنظم _ ما كان يمكن تحقيق كل هذه الأشكال من العمل إلا تعاونيا.

لم يلغ تطور الزراعة البدائية الصفة التعاونية للعمل، بل رسخه: لأن صعوبات حرث التربة بأدوات بدائية صلبة (بلطة من حجر لإصلاح الأرض. منكاش من خشب أو عصبي بسيطة لتسوية التربة وتمهيدها) كانت تفرض وحدة الجهود.

عاش العمل التعاوني في الأرض مع كل الشعوب التي مارست الزراعة؛ بابوغينيا _ الجديدة بدأوا بتسوية التربة بالعصى المدببة؛ وخلف صفوف الرجال المكلفين بهذا العمل، تأتي النساء المسلحات بمعزقة بدائية، ثم الأبناء الذين يفتتون الكدر بأيديهم ويرفعون الحصى. وكل العمل اللاحق(البذر، العزق، التسييج، الحماية من الطفيليات، الطيور والقواضم، والجني) تقع على كاهل النسوة فالعمل إذن مشترك وتعاوني.

العمل الجماعي يفترض الملكية الجماعية. ترى العشيرة حقل صيدها ملكية مشتركة وتصد بحزم دخول الغرباء والطفيليين إليه. للعشيرة(أو جزء منها) المساكن وأحيانا حتى بعض الأدوات(المراكب الكبيرة، وشباك الصيد)؛ بداية، كانت الدواب ملكية جماعية، هي

الأخرى. أخيرا، تثبت المخلفات الأثنية أن بعض التجمعات الشعبية(مثلا، النيفيك والايفيك) كانوا يعتبرون النار ملكية جماعية و لا يتركونها إلا للأقرباء.

بينما كانت غالبية الأدوات ملكية شخصية. القوس والسهام، المناكيش، البلطات، الخ. تخص من استعملها وصنعها. وكذلك الحلي ووسائل الزينة. وانتقل هذا بسرعة إلى المواشي. غير أن الملكية الشخصية لوسائل العمل، كالأنعام والحلي كانت خاضعة للملكية الجماعية لوسيلة الإنتاج الأساسية: الأرض، وانتقال الأشياء الشخصية لم يتم بإرادة صاحبها: التركة تبقى بشكل عام في العشيرة؛ وعلى من يذبح خنزيره أن يوزع اللحم للأهل؛ ليس لأحد أن يكتنز، لأن الرأي العام يريد أن تقسم الفضلة بين أعضاء العشيرة.

التدبير المنزلي كان أيضا ذا طبيعة مشتركة. كانوا يسكنون في بيوت تتسع حتى لمئات الناس. الشكل الأولي للمسكن الضخم تمثله مساكن حضارة كلتمنار في المجرى الأسفل لنهر آمو _ داريا، التي أعاد تشكيلها س. تولستوف؛ كان بيتا واسعا بمخطط دائري، في وسطه تتقد النار باستمرار. تبني الأسر فيها مطبخها قرب مواقد مقامة حوله وهنا يبيتون.

في تلك الحقبة، كانت قبائل العصر الحجري الحديث في أوروبا الوسطى، الذين يعملون في الأرض بالمنكاش في المناطق الغابية للدانوب والرين، تبني بيوتا واسعة(حتى ٣٥م طولا) بجدران من حصر الصفصاف قامت على أعمدة. وتدريجيا، في أثناء الألف الثالث قبل الميلاد، تقلصت أبعاد المسكن، وفي نهاية العصر الحجري الحديث عم الكوخ الصغير المصنوع من الأغصان.

يطلعنا علم العراقة على تربية وأخلاق سكان"البيوت الضخمة". يقص مورغن أن الإروكو كانوا يعيشون جماعات كبيرة العدد في بيوت شاسعة مصنوعة بالأعمدة، مخصصة لخمس حتى عشرين أسرة. لكل أسرة حيز يشرف على الرواق العام حيث أقيمت المواقد. الجماعة الكبرى تدير بيتها شراكة: كل ثمار الصيد والقنص والزراعة تحت تصرف التعاونية. لكنه لاحظ لدى الإروكوا بداية فردانية الإنتاج، فالصيد بالقوس خول الإنسان أن يجني غذاءه بشخصه وحده. كانت ثقافة عهد الفخار فردية جزئيا، وما تزال توزع الأنصبة بين الأسر. إنما ما تزال القبيلة تحافظ على حقوقها في ملكية الأرض. لكل شاب هندي يتزوج، قطعة من الأرض لا يجوز له التصرف بها، مقتطعة من الأرض المشتركة.

هكذا إذن، في أوج نظام العشير، كان يهيمن الإنتاج والإدارة التعاونيان؛ لكن مع تطور القوى المنتجة يتفرد الإنتاج، الأمر الذي أفضى إلى انعزال الأسر. تشهد على هذا الأكواخ الصغيرة لأبناء الدانوب في العصر الحجري الأعلى. ومع ذلك، بقيت وسائل الإنتاج الأساسية بيد العشير.

اقتسام العمل حسب الجنس، الذي يعود إلى العصر الحجري الأدنى، تدعم أكثر فأكثر مع تطور أشكال الاقتصاد الجديدة. فالصيد والتدجين المشتقان منه هما مهمة الرجل، بينما تضطلع المرأة بالقطاف والجمع، بحرث التربة وتتفرغ للشؤون الإدارية والتدبيرية، بما فيها صنع الفخار. ينجم من هذا روابط ذكرية وأنثوية متميزة، لها محالّها وأعيادها وطقوسها الخاصة.

العشير الأمومي

كانت الوحدة الأساسية للمجتمع هي العشير الأمومي. أعطت الزراعة والفخار أهمية واسعة للدور الاقتصادي للمرأة، وفي أوج نظام العشير، شغلت المرأة أحياناً موقعاً أوسع من موقع الرجل.

وكما دل مورغان، كانت عادات الإروكوا تمثل سمات الأمومة بوضوح؛ فبعد الزواج، ينتقل الزوج إلى عشير زوجته ويقيم في"بيتها" الواسع. وإن لم يستطع تأمين غذائه يمكن طرده، حتى ولو كان والد أسرة عديدة الأبناء، إلا إذا ناصرته خالة أو جد متنفذ. وأبناء الإروكوا ينتسبون إلى عشير الأم.

في أوج النظام العشيري، تدعمت الأسرة، دون أن تصير مع ذلك الخلية القائدة في المجتمع. وبسبب الزواج الخارجي، كان الأزواج ينتسبون إلى عشائر عديدة، وبعد تفكك العائلة كانت أرزاقها توزع بين التعاونيتين. لم يكن للأسرة بشكل عام حقل مغذي: تبقى الأرزاق منفصلة؛ كان الزوج غالباً مرتبطاً بمصالح اقتصادية بأعضاء عشيره ويشترك بنشاطهم الإنتاجي. تؤخذ الأسرة إذن من اتحاد زواجي غير مستقر، مؤقت؛ يعقد الزواج دون صيغ وطقوس متميزة، وينفسخ بسهولة بطلب أحد الزوجين. وكانت تستمر بقايا الزواج الجماعي بشكل زنا مشروع، زواج السلف(إلزام الأرملة على الزواج من أخ المتوفى) أو زواج من الأخت الصغرى (حق ممنوع للرجل أن يتزوج شقيقة زوجته، بعد موتها).

كان أبناء العشير يقطنون سوية أو يشكلون عدة بيوت أو أسر، تسمى"اسر كبيرة أمومية: وكان لهم حقوق محدودة. للرجل والمرأة حق الانتخاب، وحسب الحاجة، يخلعون رئيسهم والقائد العسكري المسمى أو المعين لمدة الصراع أو الخصام. كان أفراد العشير مستعدون للتآزر والدفاع المتبادل. وللعشير أعياده الدينية ومقابره.

وثمة تنظيم اجتماعي أوسع هو الأخوة المؤلف من عدة عشائر (في الأصل، عدد زوجي). كان عشيرا كبر ثم تفتت. كان تضامنه يتبدى بمجلس عام وأعياد مشتركة؛ وفي أثناء النزاعات المسلحة، تصير الأخوية وحدة مقاتلة. والوحدة التي تلت المجتمع البدائي كانت القبيلة التي تملك أرضا خاصا بها تجاور منطقة محايدة، عادة غابيسة، لها لغتها وعبادتها. ومجلس القبيلة، الذي يضم قادة العشائر والقادة العسكريين، يعلن الحرب ويعقد السلم، لكن القرارات تؤخذ بالضرورة بالإجماع. ورئيس القبيلة، وهو عادة رئيس العشير، لم يكن ذا سلطة واسعة.

نفوذ الرئيس يتعلق بمناقبه الشخصية: مهارة في الصيد، يقظة في المعركة، الحكمة، الاريحية، وسواها. وسلطته غير وراثية، بل مبنية على رضى الجمهور وليس على القوة البدنية: الرئيس معرض دوما للإزاحة. ليس أغنى من الآخرين. يقتسم مع ذويه حصته من الصيد والمنتوج الزراعي. وهذا يساهم بتوطيد مقامه.

يعترف للمرأة باحترام واسع، إنها التي تضطلع بإدارة المنزل وقد تكون المنظم الفعلي للنشاط الإنتاجي للعائلة الأمومية الكبرى؛ والرئيس نفسه يشركها في شؤون العشير. وتنظيم العشير ديموقراطي كليا: لا ميزة لأحد والكل أحرار. الإنسان البدائي لا يميز بين واجباته وحقوقه: اشتراكه بالإنتاج، الاجتماعات، وبالمعارك الحربية حق وواجب. رغم أن هذا النشاط تطوعي، رفضه يعرض الرافض عمليا للابعاد الاجتماعي. لكننا نخطئ إن نظرنا إلى هذا العهد نظرة مثالية. فالافتقار إلى القوى المنتجة، والاكراه الشخصي في الصراع الضاري مع الطبيعة، تترجم بعادات قاسية، فظة، بخاصة وأد حديثي الولادة المشوهين جسدا وذهنا.

العشير والقبيلة مؤسستان مغلقتان. وبينما تسوى الخلافات الداخلية بمشاركة كل عناصر العشير، تستوجب الأضرار التي يسببها عشير آخر الثأر أو الانتقام: الكل يدافع عن المتضرر. والقبيلة مغلقة هي الأخرى: كل شيء خارجي،هو خارج القانون.في

الحديث عن الحرب في المجتمع البدائي، يلذ للكتاب البرجوازيين الرجعيين أن يذكروا "وحشية" قصص سلخ الرأس، وصيادي البشر، وأكل لحم البشر، والتعذيب وسواها. رغم ندرة هذه الواقعات أصلا، فهي تكثر فقط بتأثير المستعمرين الأوربيين، المستفيدين من إثارة القبائل ضد بعضها. وليس صدفة أن يتحدث مكلوكو- ماكلي عن مزاج البابو المسالم.

وإن بالغ العلماء البرجوازيون بدور الحروب في المجتمع البدائي، فذلك ليثبتوا أنها قائمة أبدا وليبرروا ايدلوجية الفتن غير الإنسانية. في الحق، ليست الحرب ظاهرة طبيعية. فالأستراليون ، مثلا، لا يقتتلون تقريبا أبدا وتدور معاركهم تحت نظر شيوخهم الذين يوقفونها ما أن تذهب الأمور بعيدا . ونادرا ما كانت هذه "الحروب" دموية. فقط في نهاية العصر، يوم وصل نظام العشير إلى أوجه، كثرت النزاعات المسلحة و توحشت. فمع توطد أسلوب الحياة المستقر و تكديس المؤن، كانت القبيلة الحبيسة ضمن تخوم محددة ،

تبدو أكثر عدائية تجاه الجوار. و تجر الحروب غالبا الدمار و المذابح. و ليس بدون سبب أن تحاط القرى من الآن فصاعدا بالأسوار أو تبنى في أمكنة حصينة صعبة المنال.

أحيانا، يلتحق المنهزمون بعشير من القبيلة المنتصرة . وفي أثناء الاحتفال، يأخذ أحد الأسرى ثدي امرأة عجوز، رمزا لتكوين القرابة عن طريق الأم.

و لقد ظهر أخيرا أن ضيق نظام العشير، في الواقع، و تقاليده تخنق مصالح الفرد، تحد حريته، وروح المبادرة لديه. فكان لا بد من تفكك النظام المشاعي البدائي.

الثقافة الروحية في أوج نظام العشير

لقد أكد تنامي قوى النتاج تطور الحياة الروحية للبشرية. فتجويد وسائل الصيد والقنص، وتدجين المواشي، وثقافة المزروعات، وتنفيذ ثقب، نشر وصقل الحجر، وبناء البيوت، وصنع الفخار، والنسيج -كل هذا وسع شيئا فشيئا تجربة وخبرة الإنسان التقنية وأغنى روحه وفكره.

يتبدى تقدم الفكر الإنساني بخاصة بتكوين الآراء المجردة، التي ساهمت بتعميق مبادرة فن الحساب. ففي فجر التاريخ، لم يكن الإنسان يحسب أو يعد ١،٢،٣ على الأكثر. لكن الذاكرة الأريبة طورت هذه الطاقة الحسابية إلى مدى جيد: كانوا يتذكرون كل خروف من القطيع، كل شجرة مثمرة، لكنهم لم يتوصلوا بعد لفهم تجريدي لعدد الأشجار أو

الخراف. ولم يتطور الحساب إلا في مرحلة متقدمة من ارتقاء الفكر.

الخبرة المكتسبة في مجال الإنتاج أثرت مباشرة على اللغة. تكشف أعمال مؤسسي الماركسية-اللينينية جوهر وخصيصة اللغة كظاهرة اجتماعية وتجلو إشكالية تطورها المعقد. ولما كانت اللغة مرتبطة صحيحا بنشاط وطاقة الإنسان الإنتاجية، فقد تأثرت مباشرة بالتبدلات التي عرفها الإنتاج. بداية، تمتاز اللغة بطبيعتها المحددة، بسبب التطور البطيء للفكر المجرد. يشير علماء العراقة أن لغات غالبية الشعوب المتخلفة المعاصرة فقيرة بالمفهومات المجردة. إنها تخلو من كلمات مثل"سمكة"،"طير"،"حيوان"، بينما تكثر فيها التعابير المتنوعة التي تدل على أنواع (ونماذج) الأشجار، الحيوانات، الطيور وسواها. وتظهر هذه السمة الوصفية أيضا في بنيتها القواعدية، مثلا، في وجود المثنى والمثلث، في مضاعفة الأنواع (الصفوف) والأغراض، وغيرها. ونمو مكتسبات العمل يوسع المفردات ويجود البنية القواعدية. وارتقاء الفكر يولد باستمرار تعابير مجردة. والخبرة التي ادخرتها الأجيال مكنت الإنسان البدائي من التلاؤم في الوسط المحيط: يعرف الصياد، استنادا إلى البصمات أو الإمارات، مع أي حيوان يتعامل، ذكرا أم أنثى، شابا مغفلا أو شيخا مدربا. وقد خبر كل عادات الطريدة، ينصب الصياد بمهارة الأشراك في الأمكنة الملائمة. ومشية الحيوانات وهيئته تنبئه بمجيء الربيع. إن روابط عديدة وعلاقات منطقية، تكون خبرة البشرية البدائية.

هكذا تطورت معارف الإنسان الإيجابية، وأفكاره حول نفسه وحول العالم المحيط. والمسير الطويل في السهوب والأحراج ألزمه أن يسترشد بالنجوم، وبالتالي استنادا إلى"الخريطة الكوكبية"، وضع النجوم في السماء. وتعلم بسرعة أن يرسم على الرمل أو القشور خرائط جغرافية بدائية.

عودت الزراعة الإنسان على الفصول التي يجب معرفتها لتنفذ في الوقت المعين الأعمال، والبذور، مثلا، وأفضت مراقبة الفصول إلى خلق تقويم بدائي، شهوره(القمرية بعامة) غير متساوية.

لعلاج الأمراض لجأوا إلى الأمور البسيطة، كالتدليك وسواه. لكن هذا الطب البدائي، التجريبي تماما، غير مؤسس بعد على معرفة الجسم البشري.

لم يتوصل الإنسان إلى تركيب الخبرة التي جمعها جيلا بعد جيل إلا ببطء شديد: فقد عرف تحضير سم زعاف دون تعليل فاعليته.

وفي أيام نظام العشير عرف أول أشكال الكتابة:*LA PICTOGRAPHIE*(الكتابة بالرسم).

لرسم حصان مغطى بالبقع يتصور الإنسان البدائي موتان الفحم. وثمة طرق أخرى للنقش أو الحفر: صفائح، أوتار أو حبال معقدة. في هذه الحالة، لكل شارة معناها التوافقي. وظهور أول أشكال الكتابة تشهد على تطور كبير في الفكر المجرد.

تنتقل الخبرة في مجال الإنتاج وبذور المعارف العلمية في العشير أو القبيلة إلى الجيل الجديد بواسطة التربية. وفي ظل نظام العشير، التربية نفسها ذات طبيعة عامة: يوضع الذكور والإناث تحت رقابة كبارهم. يستقل الأبناء بسرعة ويساهمون وهم صغار بنشاط العشير الإنتاجي، بخاصة الصيد، حيث يبدون الصبر والمواظبة والمهارة الغريبة. يستطيع صغار الكنغول البقاء لساعات طويلة في الكمين دون حركة، والحبوب في يدهم المبسوطة: وما أن يقع طير على لقيته، حتى يلتقط بحركة رشيقة.

مختلف مكاسب العمل، التدريب الجسدي والصحي، بذور المعارف العلمية وتقاليد العشير _ هي العناصر المكونة للتربية في المجتمع البدائي. وعند حلول المراهقة، يخضع الصبية وأحيانا البنات لسلسلة من الاختبارات تسمى"المبادرة". تتم في أيام الأعياد وفي جو رسمي. إنها فريضة موروثة في أثناء أدائها يلتزم الصبية أن يثبتوا ليس فقط أنهم يعرفون تقاليد العشير والقبيلة، بل أيضا أنهم يتحملون جيدا مصاعبها: يصفعون، تكسر أسنانهم، تشرط أجسامهم بعمق، ويكرهون أيضا على التمدد فوق محطبة مغطاة بالأغصان الخضراء، ويستمرون رغم الحرارة وأذى الدخان، حتى يأمر الشيوخ بإنهاء العذاب.

فقط، ذاك الذي عبر المحنة أو المبادهة يصير عضوا كامل العضوية في العشير، بينما يحال الضعفاء إلى الامتهان العام.

في المجتمع البدائي، ظهرت بدايات الفنون التشكيلية. وفن العصر الحجري الأعلى تعبيري بحت. ففي عمق الكهوف المظلمة، على ضوء الجمر الشاحب، وضع الفنانون رسوما ملونة: أحصنة غضوب، بيزون تخب أو تنام نوما هادئا، ومناظر صيد واسعة. وفي الحقبة ذاتها، نقشت بالعاج أو بالقرن تماثيل لأيائل منطلقة بأقصى سرعتها أو كائنات بشرية(بخاصة نساء) يعتمرن قبعات غريبة ويتدلى من كفلهن حزام أشبه بالذيل. وبدءا، من العصر الحجري الأوسط، فقدت الفنون في الغالب واقعيتها: صارت الرسوم تشابكا

من الشارات التوافقية التي لا تشبه أحيانا الكائن الذي تمثله.

الإنسان البدائي يهوى الزينة والمظهر: يشم وجهه أو يديه، يحمل الأساور والأطواق لا بل يصقل أسنانه، يخضب جلده ويصبغ شعره. يزين بعشق مسكنه، أواني المنزل وبعض أثاثه. وخزفه بعامة مفتول أو مضلع أو محفور. الأعمدة والأواني الخشبية منقوشة وملونة. للوشم والنقش على الخشب معنى رمزي: الدوائر والزخارف عليه تلخص أساطير وخرافات عائلية وملاحم.

الموسيقى البدائية غير معروفة طبعاً إلا من المعطيات الأثنية. الوسيلة الموسيقية الأقدم هي القوس: أحد أطرافه يدخل الفم المستخدم كصندوق رنين، بينما يؤخذ الصوت من الوتر بضربه بقضيب صغير. ثم أعطي القوس صندوق رنين مصنوع، الأمر الذي أفضى إلى ابتكار أدوات وترية. كما حاز الإنسان البدائي أدوات وترية ينقرها الهواء والصدم. كانت الطبلة-الصغيرة (الطنطن) أكثرها انتشاراً. وكان الرقص المديد يرافق الموسيقى البدائية في أغلب الأحيان. وكثيراً ما يستبدل هذا الرقص برقص إيمائي.

والتقليد الشفهي(الفولكلور)يتميز بتنوع واسع.لكل القبائل أساطيرها التي تستدعي أصل العالم والناس الأولين، وماضي القبيلة، نضال الإنسان ضد الطبيعة وانتصاراته على الوحوش والعمالقة. أساطير مليئة عادة بالتفاؤل والثقة بانتصار الإنسان على القوى المعادية.

الدين البدائي

عدا الآراء الصحيحة حول العالم، كان لدى الإنسان مفاهيم خاطئة، خيالية، أو معتقدات دينية. لإيضاح أصل الدين، نشر ي.ب.تايلور، العالم الإنكليزي للقرن التاسع عشر، نظرية مثالية تقول إن المعتقدات الدينية صدرت من تأملات الإنسان البدائي. وبدفع التفكير بالأحلام والموت، خلص الإنسان إلى أنه له مثيل، روح قادرة على ترك الجسم، ثم بسط هذه الفكرة على الطبيعة، ووهب أرواحاً أو نفوساً للحيوانات، للنباتات وللحجارة. إنما، في الحق، لا ينبع الدين من تأملات لغو، لا نفع فيها، بل من نشاط الإنسان المنتج: نتيجة تطور بسيط، غير كاف في الخبرة والفكر البشري، تتكون في الأغلب آراء خطأ حول موقفه من الطبيعة.

في ظل نظام العشير، كان الإنسان يزعم أنه جدير بممارسة سلطة فوق _ طبيعية

على الطبيعة، والحيوانات والنباتات، بواسطة حركات سحرية، تولد مع المعتقدات الدينية. وثمة إيماءات تقلد الصيد حفظت حتى نهاية القرن التاسع عشر لدى عدد كبير من التجمعات الشعبية، بما فيها تجمعات شمال روسيا. الاتلمن، مثلا، يعدون قبل صيد الحوت مجسما له، مصنوعا من الأعشاب، يوضع على ظهر امرأة. وهذه تزحف حول الموقد، وينقض الأبناء عليها ويحيلون المجسم إلى نثار. الأمر الذي يؤمن نجاح المشروع. وينظم الهنود الحمر قبل صيد البيزون رقصات تدوم أياما مستمرة، يجب أن تؤثر على الحيوانات، وتقنعها بالاستسلام للقتل. ولمشاهد الصيد المرسومة في مغائر العصر الحجري الأعلى مغزى سحري.

في الشعائر الأقدم، كثيرا ما تذكر أنواع الطرائد. وتدريجيا، ومع تطور هذه العبادة، يميز من بين جملة هذه الحيوانات(أو النباتات بالنسبة لمن ينكب على القطاف)نوع معين يدعى أنه عضو في العشير المقصود. هو الطوطم، الذي يتصور العشير أنه انحدر منه. هكذا كانت الطوطمية، وهي عبادة الحيوان المصطاد، ثم ترتبط بتطور الإنتاج بشكل مغلوط.

نحن نتصور أفكار الاستراليين التي تتصور أن كل جمع اقتصادي قريب هذا الحيوان أو النبات أو ذاك(أمو[١]، كنغر[٢]، وسواها). والشعيرة الأساسية لهذه العبادة تكمن في أن أحد الأقدمين يداعب بطن الناس بحجر خاص، مرددا:"ليكن غذاؤكم وفيرا" يعني هذا، بداية، تأمين نجاح النشاط المنتج عن طريق السحر.

لكن المعتقدات الطوطمية تحوي التناقض الذي اشترط تطورها اللاحق: فالطوطم(المعبود)هو بنفس الوقت غنيمة الصياد والجد العام للعشير. إذن، الصيد للطوطم هو صيد لأحد الأهل، وقتل الحيوان الموقر يجب أن يعرض سمعة الصياد للثلم أو يعرضه هو للخطر، بل يدينه. تتبدى هذه الثنائية بخاصة في عبادة الدب، التي يمارسها الايفانك وكثير من شعوب سيبيريا الأخرى العائشة على الصيد، التي تندم وتطلب عفو وغفران الحيوان الذي اصطادته.

---

[١] – طائر من فصيلة النعاميات.

[٢] – جنس حيوانات أسترالية من فصيلة الجرابيات، ذو أيد قصيرة وأرجل طويلة.

ثمة عنصر رئيسي آخر في العبادة في ظل نظام العشير هو فكـرة"الإلهـة"، المـرأة الخبيرة في العرافة والسحر والرقي. يكمن هذا في أساس عشير الأمومـة، حيـث تجسـد المرأة اتحاد التعاونية. بينما ينتسب الرجال إلى فخذ أو عشير آخر أو حتى إلى عدد مـن الأفخاذ الغريبة. والاعتقاد بقيم المرأة السحرية يعود إلى العصر الحجري الأعلـى، كمـا يثبت النصب النسوية لتلك الحقبة، المكتشفة في أوروبا وجنوب سيبيريا. وبترمـيز سـحر النساء، تشهد هذه النصب على العبادة المنحدرة من الجدة، مؤسسة العشيرة.

في ذات العصر تتشكل عبادة"الروح"أو"النفس"التي تحيي الطبيعة. وهذا مـا يسـمى الإيحائية[1]. فالنفس، حسب المفاهيم البدائية، كحيوان مستنفر، يسكن كل الأشياء.

لدى إنسان العصر الحجري الأعلى فكرة مشوشة جـدا حـول المـوت: بدايـة، لا يفصلون العالم الواقع عن"الغيبي". والخوف من الموتى أتاهم شيئا فشيئا، حسـب الشـعائر التي تهدف تلطيف الأمر، وحماية الأحياء من الأموات.

في أثناء تطور الزراعة والتدجين، انزاحت الطوطمية، الديانة المهيمنـة فـي أيـام الصيد والقطاف، إلى المقام الثاني لتحل محلها أفكار شـديدة التعقيـد. فـالأرض، طاقـة الخصب، تصير مطرح العبادة التي، في شروط نظام الأمومة، تختلط مع تقديس الإلهـة؛ هذا هو أصل عبادة الأرض المرضع، الهادفة المسـاهمة بخصـب التربـة والمتجسـدة بممارسة سحر خصبها.

ارتقاء الاقتصاد والفكر يدفع الإنسان إلى تمييز قوى الطبيعة المعتـبرة حتـى آنئـذ ككل. ويسند مقام هام إلى القوى الفضائية والظاهرات الطبيعية: الشمس، المطـر وغـيره، التي تؤمن المحصول، ومن هنا كان المجتمع البشري. مع ذلك، كثيرا ما اختلطت عبـادة الطبيعة مع بقايا الطوطمية، فتولدت صور هجينة مثل الشمس _ الحيـوان أو الشـمس _ الطير.

من جهة أخرى، غير توطيد نظام العشير ،عبادة الموتى. فلا ينظـر إلـى المتوفيـن كقوة معادية يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن: بل بدأوا يرون فيها أصولا تحميهم. نجـم هذا من أن الإنسان، وقد عرف شيئا عن الطبيعـة بالتجربـة، انتقـل مـن عبـادة الجـد

---

[1] – الاعتقاد أن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في وقت واحد.

الحيوان، الطوطم)إلى عبادة الجد البشري. في هذه الحقبة بدأت خرافات انتصار الإنسان على أخوته -الطيور والحيوانات- والتجسيم، خلع الصفات البشرية على الله وتشبيهه بالإنسان).

وفي عبادة الأرض، وقوى الطبيعة والجدود، يعود الدور الأول إلى التضحية والصلاة. والصلاة هي التعبير المباشر عن الرغبة: تسأل أرواح الحيوانات، والأطفال، موسما وفيرا. وتكمن التضحية الأولى في تغذية الروح لكسب رعايتها. تروي الخرافة الساذجة لدى هنود الشيبويز ،أن الشمس عندما تجوع ترمي فتى جميلا بحجر وتمرضه؛ فلا يشفى حتى يقدم لها تضحية.

وهكذا، بالأصل، كانت الشعائر ترتبط بتطورات المنتوج وتطرح هدفا لها التأثير على الطبيعة عن طريق السحر. وفي الوقت ذاته، كانت المنعكس الخيالي للقوى المهيمنة على الناس في حياتهم اليومية.

اعتقادا بقدرتهم على التأثير على الطبيعة بالسحر لتأمين نجاح الصيد، القطاف، والقنص، ما كان للناس، بالمحصلة، إلا تعزيز علاقتهم بالطبيعة: وكان السحر يحول اهتمامهم عن الحاجات الفعلية، ويحجم طاقتهم الخلاقة. وهكذا كرس الدين البدائي عجز الإنسان أمام الطبيعة، العجز الذي كان هو نفسه منعكسا.

الفصل الرابع

تفكك النظام المشاعي البدائي. تشكل الطبقات والدولة

الزراعة والتدجين الراقيان. بداية التعدين

إن تفكك نظام العشير وتشكل مجتمع منقسم إلى طبقات هدف أولاً إلى تطور القوى المنتجة وبخاصة الزراعة والتدجين، وقد صارا فرعي النشاط الاقتصادي الرئيسيين.

ففي بعض البلدان ترجع ولادة الزراعة والتدجين الراقيين إلى العصر الحجري الأعلى؛ لكن اتساعهما بدأ في عصر النحاس. يبدأ العمل بالنحاس في الشرق الأدنى حوالي الألف الرابع قبل الميلاد. وصل إلى أوروبا متأخراً، في الألف الثالث. بداية، استخدم الناس النحاس الطبيعي وعالجوه بارداً. واكتشاف إمكانية صهره وجعله بالشكل المطلوب، طور صناعة الأدوات. كان المعدن المنصهر يصب في قوالب، وبعد تبرده تخضع الأداة إلى التشذيب والتمليس بالمطرقة الحجرية.

مع ذلك لم يستطع النحاس إبعاد الحجر، الذي لم يكن آنئذ أقسى منه. فمن أجل أعمال الزراعة، وقطع الأشجار وحتى العمل بالنحاس، كانوا يستخدمون دوماً أدوات حجرية من العصر الحجري الحديث، أو العظم أو الخشب.

ذكر أنجلز طريقين أساسيين لتطور المجتمع في تلك المرحلة. عن الطريق الأول، يذكر قبائل نصف الكرة الغربي. كان لدى هنود المكسيك الجديدة وقبائل أخرى أمريكية، أثناء الغزو الإسباني، تقنيات راقية، مبنية على حرث الأرض بالمعول؛ حيث تزرع النسله الذرة المروية... وكانوا يبنون منازل واسعة بالآجر أو الحجر، تحوي حتى خمسمائة غرفة؛ مع استمرار صناعة الفخار وتطورها بوضوح؛ لكن العمل بالنحاس، كان قد عرف.

واتبعت الطريق الثاني قبائل من العالم القديم، كان اقتصادها مبنيا على التدجين الراقي، بينما لعبت الزراعة دورا مساعدا واستعمل الدخن علفا رئيسيا.

تثبت المعطيات الأثارية المكتشفة بعد موت أنجلز هذا التحديد للأمور؛ فقد اكتشف، بخاصة في العالم القديم، آثار حرث التربة يشبه حرثها في المكسيك الجديدة، وقد انتشر في أمصار عديدة: وادي النيل، الفرات، الهند وهوانغ _ هو، آسيا الصغرى، شبه جزيرة البلقان، آسيا الوسطى(حضارة أناوو)، وأوكرانيا.

في الألف الرابع قبل الميلاد، كان وادي النيل آهلا بحراث مقيمين يعرفون صنع السكاكين، الأبازيم والصنارات من النحاس، مع استخدامهم بخاصة البلطات والسكاكين من الصخور الصلبة، ومرتدات من خشب وأغراض من العاج. وعرفوا تقنية مياه النيل نحو حقولهم، وكان هذا الري الملائم لخصب التربة وحرارة المناخ يضمن محاصيل وفيرة ونموا سريعا للقوى المنتجة. وكانت أعمال المصريين الهدروليكية مع ذلك بدائية: وكانوا يحفرون أقنية في أجراف النيل لتسهيل وصول الماء إلى الحقول، وأقاموا سدودا لتسوية أمور البيع.

عندما لا تسمح الشروط الطبيعية للحراث في العصر الحجري الجديد أن يروي أرضه، كان يتباطأ نمو القوى المنتجة طبعا. ففي الألف الثالث قبل الميلاد، كان في أوكرانيا، رومانيا، وبلغاريا حضارة زراعية، سميت تريبوليية، اكتشفها عالم الآثار الروسي ف. كفويكو، ودرسها بعمق العلماء السوفيات، وعلى رأسهم ت. باسيك. كان عمل التريبوليين الأساسي حرث الأرض بالمنكاش؛ لكنهم كانوا يربون أيضا أنواعا عديدة من الدواب. كانت معاولهم ومناجلهم بعامة من الحجر أو القرن؛ وكان النحاس يستخدم لصنع البلطات. وبيوت الآجر، الواسعة والمستطيلة، كانت تتألف من عدة بيوت مبنية حول ميدان مركزي.

كانت مادة الأثاث الأساسية هي الآجر: صنعوا منه المناضد، المقاعد، والأفران. كانت فخاريات التريبوليين غريبة تثير الفضول، شديدة التنوع، مع قواعد منبسطة(فالقدر المدبب لا يمكن وضعه على المائدة أو في الفرن)عدا أواني المطبخ الضخمة، عثر على الكثير من القدور المدهونة، المزدانة بالحلزنات وأحيانا برسومات تمثل وجوه الحيوانات.

بين المواد الأكثر تمايزا لهذه الحضارة، كان ثمة نصب آجرية تمثل الجدود، وتؤكد

عهد الأمومة، طبعا في شروط الزراعة البدائية، التي تمارسها النساء أساسا.

يعود تشكل قبائل الأبوة إلى عهد أقل قدما: عهد البرونز. والبرونز، خليط من النحاس والقصدير أو مواد أخرى، اكتشف في الألف الثالث قبل الميلاد. كانت الأدوات البرونزية امتن وأرق من الأشياء النحاسية، لكن انتشارها كان بطيئا: بداية، استخدم هذا المعدن لصنع الأسلحة والحلي. فالنحاس، القصدير، والرصاص التي تشكل البرونز، نادرة في الطبيعة واستخراجها صعب. فقط إتقان الصناعة المنجمية المكشوفة، قليلة العمق في منتصف الألف الثاني، سمحت بحفر مناجم بعمق حتى مائه متر. وحتى هذا العصر استخدم المنكاش والمناجل البرونزية، لكن هذا الخليط، كما النحاس، لم يستطع أن يطرد الحجر.

ساهم استخدام الأدوات المعدنية بإتقان العمل بالخشب. فصار نجارو عصر البرونز يقدرون أن يبنوا بيوتا متينة، بربط العوارض بالأسنان أو الحدود. لكن الابتكار الأهم هو ابتكار العربة. التي ظهرت في الشرق الأدنى قبل ٣٠٠٠ عام من الميلاد. ومنذ منتصف الألف الثالث، كانت قد عرفت في سهوب أوربا الشرقية: في ***kourgane*** من شط الدنيبر المستقيم، اكتشفت بقايا عربة خشبية، ذات عجلتين، تعود لتلك الحقبة. كانت عجلاتها الكثيفة، المستديرة، المصنوعة من قطعة، ذات ثقوب دائرية من اجل المحور. إلى هذه العربات الثقيلة كانوا يقرنون الثيران. وحوالي بداية الألف الثاني ابتكرت العجلة الدائرية، الذي مكن من صنع عربات خفيفة، تجرها أحصنة رشيقة.

لم تكن الأشكال القديمة لتربية الطيور والمواشي الموجودة أكثر أيام السنة ترعى في الغابة، الأوراق والبلوط، لم تكن توفر النمو السريع لهذه الأنعام. وكان ارتقاء هذا الفرع الاقتصادي عنصر تشكيل الشعوب المتنقلة التي تربي قطعانها في الوديان في أثناء الشتاء، والمناخ معتدل، وفي الصيف في الجبال. وكان استخدام الحصان كراحلة ركوب وابتكار العربة شروطا طبيعية للانتقال إلى حياة الترحال، وبتعبير آخر، ولادة تدجين واسع. وإلى عنصر الزنك بالضبط يعود تشكيل شعوب هيكسوس، كاسيت، الآيين، الذين ربوا الخيول والحيوانات الأخرى وتميزوا بترحالهم. وفي الألف الثاني كانت المنطقة الغابية في روسيا آهلة بالقبائل الرعوية لحضارة فاتيا نوفو، التي كانت تربي الأبقار، الخراف، الخنازير والخيول. وحتى على الجانب الشمالي للبحر الأسود، صارت تربية المواشي أساسا

اقتصاديا: كان أحفاد التريبوليين، مع الحياة المستقرة، يفضلون التدجين على الزراعة.

لكن وضع التدجين كان مغايرا في سهوب جنوب سيبريا، الآهلة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد بالمدجنين والزراع القاطنين كهوفا واسعة مستطيلة ذات عدة مواقد. ففي نهاية الألف الثاني، صارت تربية الأغنام الشاغل الأساسي: كان سكان السهول ينتقلون بالعربات، خلف قطعانهم. وهكذا، تحولت التربية التي كانت في البداية مستقرة ومرفقة بزراعة مساعدة، إلى تربية راحلة واسعة.

في هذه الحقبة، كان التدجين في مداه الأوسع في القفقاس، أحد مراكز صناعة البرونز. وعصر البرونز في آسيا الوسطى لم يدرس بعد جيدا، وثمة مجال لاكتشافات هامة فيه.

كانت بعض شعوب الاتحاد السوفييتي في مستوى من التطور الملائم المماثل عند بدء اتصالها مع الروس. فالتشوكتش، الذين حافظوا على تقنية العصر الحجري الحديث. كانوا يربون قطعانا واسعة من الرنة[1]، معها يتجولون عبر السهول الواسعة في الشمال.

عرف الإنسان الحديد بعد البرونز. والاستخدام المتفرق للحديد النيزكي قد وجد حتما منذ الألف الثالث والثاني، لكن صناعة الحديد الفعلية لم تظهر إلا في نهاية الألف الثاني. انتشر هذا المعدن انتشارا واسعا، وأبعد الحجر والبرونز إلى الخط الثاني. صفتان أمنتا له الانتصار على المواد الأولية الأخرى: بداية، يعطي أدوات أصلب وأرق؛ ثم، هو واسع الوجود في باطن الأرض ولا يتطلب استخراجه أجهزة معقدة.

لقد أمن تطور صناعة الحديد للناس أدوات متينة وفيرة. صنعوا البلطات والمعاول، المناجل، الرفوش، عدا الأسلحة. وسهل استخدام الأدوات الحديدية العمل بالحجر وأتقنت تسوية الحجارة تقنية البناء. والبلطة والرفش مكنا من استئصال أرومات الأشجار، واستصلاح مساحات واسعة من الغابات من أجل الحرث والرعي.

يتلاءم عصر الحديد مع حرث مناطق واسعة بواسطة سكة الحديد. فالمحراث البسيط، الذي ظهر بدون شك في الشرق الأدنى في الألف الرابع، كان من الخشب، لكن صناعة هذه الأداة، المؤلفة على الأقل من جزئين مترابطين، لم تكن ممكنة إلا بعد انطلاق

[1] ـ حيوان مجتر من فصيلة الآيليات.

النجارة، الناجم من استخدام أدوات معدنية. في أوربا، لم يعرف المحراث قبل العصر البرونزي. كان يخدش التربة فقط، وكانوا يضطرون لحرث الأرض طولا وعرضا. ولم تعرف سكة المحراث المعدنية إلا في بداية عصر الحديد، واستئصال الجذور الكثيفة نشر استخدام السكة في كل المناطق معتدلة المناخ. وكانت أهم حيوانات الجر الثور والحمار.

العبودية البطزيركية

إن حرث الحقول والمراعي بالمنكاش في الأراضي المروية، والتدجين الواسع وبخاصة العمل بالأرض بالسكة الحديدية، زاد كثيرا من إنتاجية العمل: صار بوسع الإنسان من الآن إنتاج كثير من الأشياء تؤمن له صيانة قواه وتربية الأبناء. وبدأ الحراث والمربون يجنون من المنتوج أكثر من الصيادين والقناصين؛ وكان نتاجهم أكثر أمانا من الطريدة المعرضة للهرب بسهولة. وراحت القبائل الزراعية تدخر كمية من المؤن تحفظ في حفر أو صناديق خشبية؛ وتجني القبائل الرعوية من قطعانها الحليب واللحم، الصوف والجلد، اللباد لبناء المسكن، العظام والروث الجاف للتدفئة. وهكذا توصل الإنسان لإنتاج أكثر ما يستهلك. نجم عن هذا الاستغلال، تمكين الإنسان من تملك ملكية منهاجية لأكثر مما يستهلك، وهو منتوج عمل شخص آخر. وعوضا عن قتل المساجين لتقديمهم ضحايا للآلهة أو لأكلهم، أو بشكل أصح ضمهم إلى الفخذ أو القبيلة، مكنت من زيادة الإنتاج من استغلال جهدهم، واستثمارهم كأسرى.

تطلعنا مخلفات الأعراق على العبودية البدائية، التي تذكر بالعلاقات الاجتماعية الوليدة في أثناء تشكل أولى الطبقات. تطور هذا بشكل ملحوظ لدى الهنود صيادي شمال غرب أمريكا الشمالية (جزيرة فانكوفر، جنوب ألاسكا). كانت هذه التجمعات تستخدم بعض الأدوات الحجرية، يدخر النحاس لصناعة الحلي فقط؛ كانت زراعتهم متخلفة ويعيشون أساسا على الصيد، لكن وفرة السمك مكنتهم من إنتاج فضلات ضخمة. فكان المردود الكبير للصيد الأساس الاقتصادي لتطور العبودية لدى الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.

حسب إحصائيات علماء العراقة بلغ عدد العبيد في ذاك البلد ٧/١ السكان ولا غرابة، وفي بعض الأحيان الثلث. كان المصدر الأساسي للعبودية هو الحرب؛ كان الهنود يهاجمون جيرانهم غالبا في الليل ويقتادون الأسرى، نساء ورجالا. ومن يؤسر أثناء القتال

يتحول إلى عبد. وتشكل العبيد بطريق النخاسة. كان جهدهم يستغل في مختلف فروع الاقتصاد: يقيمون الحواجز من أجل الصيد، يجدفون على المراكب، ينظفون الأسماك، ويقومون بأعمال إدارة المنزل الصعبة. ونادراً ما اشتركوا بالأعمال النبيلة: صيد الحوت، بناء المراكب، وصنع السهام. كان العبد محروماً من الحقوق وليس لحياته أي قيمة. وكانوا يذبحون في مآتم القيادات. يقص الضابط البحار الروسي ج. دافيدوف، الذي تواجد في ألاسكا في بداية القرن التاسع عشر، يقص أن الهنود في أثناء الاحتفاء بهذه المآتم، يُرقصون عبيدهم ويطلقون عليهم السهام. ويقتل العبيد لدى بناء بيت جديد وعند وصول القائد؛ وكان أكل لحوم البشر يمارس أيضا. كانت هذه المذابح واحدة من بقايا فترة عدم الإفادة من عمل أسرى الحرب. وكانت غزوات الشباب الهنود ذات طبيعة أخرى: يرهبون العبيد بحرق وسلب أكواخهم.

العبودية هي الشكل الأول لاستغلال الإنسان على يد إنسان آخر. وظهورها حادثة طبيعية ومنطقية، ناجمة من تطور القوى المنتجة. على ذلك، عرف هذا العهد تطورا واسعا. فاستغلال العبيد ساهم بتكديس الخيرات الناتجة حتما من النمو اللاحق للإنتاج؛ كما غززت العبودية تقسيم العمل.

أقدم أشكال العبودية هو ما يسمي العبودية الأبوية(أو الأهلية)؛ في ذلك الزمن، لم يكن للعبودية بعد دور في الإنتاج، كان العبد يعمل إلى جانب الرجل الحر، كمساعد له. كما كان له أن يمتلك خصا، وقطيع خنازير وقطفة أرض. وكان يرتدي ثيابا مشابهة لثياب الحر وأبناؤهما يلعبون سوية؛ ولم يكن التزاوج بينهما نادرا: ليست المرأة فقط تتزوج من حر وتنجب له أطفالا أحرارا، بل العبد أيضا يتزوج حرة ويعيش معها في بيته. على ذلك، كان ملكا لسيده الذي له حق الحياة والموت.

الإنتاج البضاعي

لقد نتج عن تطور الزراعة والتدجين زيادة إنتاجية العمل، وولد تبادل المنتوجات بانتظام. التداول المتفرق، النادر عرف منذ عصور قديمة، أما الآن فقط تعمم هذا النهج إلى هذا الحد أو ذاك.

من حيث أن القبائل الرعوية تمتاز عن كتلة البربر، رأى انجلز أن بذور التقسيم الاجتماعي الواسع للعمل، يختلف عن تقسيمه حسب العمر والجنس، الذي عرف في أيام

نظام العشير. "إن القبائل الرعوية، يقول انجلز، تنتج ليس فقط أكثر، بل تنتج أغذية أخرى غير بقايا البربر."[1] "وبدأ القاطفون والصيادون يكثرون من تبادل منتوجهم مع القبائل الرعوية المجاورة.

لكن التقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي قواهم وحثهم، فافترقت المهنة عن الزراعة. وعقد اكتشاف البرونز ومعالجة فلزات الحديد صناعة الأدوات بشكل ملحوظ. كان فلز النحاس قد استخرج من المناجم، نقلته العربات في دلاء جلدية وحطم بمطرقة حجرية؛ ثم صب مع الفحم الخشبي في أفران محفورة في التربة، يصلها الهواء بأنابيب آجرية. وللحصول على الحديد بدءا بالفلز، استخدموا موقدا واطئا من حجر وآجر. لكن لا بد من تحديد هذه العقدة الضخمة للحصول على معدن صلب، لهذا يحمى حتى الاحمرار ويطرق بسكبه فوق الفحم الخشبي. يستخدم الحداد كل أنواع الأدوات السندان،المطرقة، القارص، النصل، وسواها. تطلب تعقيد تطور التعدين توفر صاهرين وحدادين مختصين.

جعل تطور التعدين التقنية المهنية أكثر تعقيدا، وهذا ما أفضى إلى تباين المهن.

ففي الهند، في فارس، فيما بين النهرين، في مصر، ظهر منذ الألف الثالث الفخاريون الحرفيون الذين، عوضا من صنع القواعد باليد، صنعوها بوضعها على قرص يدور، سمي"قرص الفخار". وفي البلقان، لم يعرف هذا القرص إلا في الألف الثاني. وتعود أقدم الأوعية المكتشفة في تركمانيا إلى الحقبة ذاتها. واستخدم الفخاريون أيضا فرنا خاصا للطهي والخبز. وإلى الفخاريين، الصاهرين والحدادين أضيف النجارون، النساجون، الصائغون، ومعدو الحجارة وغيرهم. وهكذا، تفرعت من الاقتصاد الخدمي عدة فروع كي يصل إلى أيدي المختصين؛ وانفصلت الحرفة عن الزراعة.

سابقا، لم تتم أغلب المبادلات بين أشخاص منعزلين، معرضين للأخطار والأخطاء، بل بين عشائر يمثلهم الرؤساء أو الشيوخ. وكان التبادل البدائي يتم بين مختلف المشاعيات، لأن كلا منها تنتج ذات الشيء، الأمر الذي يجعل التبادل محالا. كانوا يتبادلون بخاصة مواد الزينة والحلي، وأوعية من النحاس والسبائك. ولدى تطور التبادل بين القبائل، لعبت بعضها، بفعل موقعها الجغرافي، دور الوسيط.

غير التقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي من طبيعة التبادل وأفضى إلى الإنتاج

---

[1] ـــ ف. انجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٤.

البضاعي، يعني صنع منتوجات معدة خصيصا للتبادل. فالحرفيون (الحدادون، الفخارون، والنساجون، الخ) لا يستطيعون الحياة إلا بتبادل ثمرة عملهم مع مواد أخرى. وكلما انتظم التبادل برز أكثر مفهوم القيمة والسعر. بداية، كان التبادل تحكميا: اليوم خنزير مقابل حقين، وغدا ستة خنازير. ويستقر التبادل المعادل شيئا فشيئا، ويساهم تطور المهن فيه إلى حد بعيد. ففي العمل الحرفي (الأكثر استقلالا عن الصدفة من الصيد والقطاف من الزراعة والتدجين البدائيين، حيث يلعب الحظ والوقت دورا واسعا) يتعلم الإنسان ويعرف العلاقة بين كمية العمل المبذول وكمية البضاعة الناتجة. فالحرفي هو أول من قاس قيمة المنتوج بكمية العمل المبذول لإنتاجه.

يسعى الإنتاج البضاعي إلى تكديس الثروات، الأمر الذي يولد الحاجة لبضائع قابلة للحفظ والتخزين. فالحبوب، الثمار، السمك والمواد الغذائية الأخرى سريعة التلف، بينما الماشية، القواقع النادرة والمعادن الثمينة تقوم تماما بهذا الدور. يشير ماركس إلى أن تداول البضائع منذ حالتها الجنينية، يولد الميل إلى تقليد ليس المنتوج نفسه، بل شكله المتبدل "خروجه" الذهبي[1]. عوضا عن تكديس الاحتياط بشكله الطبيعي، يسعى الناس إلى استبداله بالقواقع النادرة أو المعادن الثمينة، التي، عند الحاجة، يمكن تبديلها بمواد غذائية، ألبسة، أوعية، الخ. وبعبارة أخرى، تهدف فضلة المنتوج إلى التحول إلى كنز، إلى مال. والكنوز المكدسة شاهد فعلي على قدرة الأسرة الأبوية.

كلما تطور التبادل وحدد مفهوم القيمة، صار المال مقياس القيمة ووسيلة التداول. وتترك المقايضة المكان للتبادل النقدي. بداية، استبدل النقد بالماشية، ثم بالقواقع أو المحارات، والمعادن الثمينة، وغيرها.

تحول الأمومة إلى أبوة

لقد بدل تطور التدجين الرعوي وحرث الأرض بالسكة الحديد والتقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي نظام العلاقات الأسرية. يصف أنجلز هذا التبدل فيقول: ثورة في رحم الأسرة. فبينما كانت المرأة في ذروة نظام الأفخاذ تتمتع بحقوق الرجل ذاتها و، لدى

---

[1] - ك. ماركس، رأس المال، المجلد الأول، الكتاب الأول، دار المنشورات الإجتماعية، باريس، ١٩٥٠، ص١٣٦.

المزارعين البدائيين. كانت تتمتع حتى بالهيمنة كونها ترشد الاقتصاد وتديره، أمن تحــول الزراعة والتدجين إلى فرعين اقتصاديين أساسيين، أمــن للرجــل، الراعــي والحــارث، الأفضلية وتصدر المجتمع. وألغيت مواقع المرأة حتى في المنزل، الذي انتقل كثــير مــن فروعه إلى مجال عمل الصناع الحرفيين(الرجال). وهكذا، استبعدت المرأة نــهائيا مــن الإنتاج، ولم يبق لها سوى مهام منزلية لا أهمية لها. فضلا عن اســتخدام المــنزل العبيــد أكثر فأكثر، الأمر الذي زعزع أعمال المنزل وساهم أيضا بتحجيم المرأة إلى وضع قريــب من العبودية."حتى في البيت، يقول أنجلز، أخــذ الرجــل بيــده الإدارة؛ أبعــدت المــرأة، استعبدت، وصارت عبدة ملاذ الرجل وأداة عادية من أدوات الإنتاج[١]".

في بعض الحالات تيسر للأبوة أن تقوم لدى شعوب ليســت مــن الرعــاة ولا مــن الحراث، بل حيث يحوز عمل الرجل _ صيادا كان أم قناصا _ لســبب أو آخــر، قيمــة اجتماعية أعلى بوضوح من قيمة العمل المنزلي الباقي في يدي المرأة. بالعكس، حيث بــدأ تفكك نظام الأفخاذ في شروط الزراعة البدائية(مثلا، في قبيلة الآشانتس الأفريقية)، كــانت المرأة تساوي الرجل أو تفضله. أخيرا، فقد بقيت المرأة، لدى بعض الشــعوب، محترمــة مكرمة. هكذا، كانت نساء مربي الخيول السومرية تحمل السلاح، الأمر الذي سهل خلــق الخرافة الأغريقية حول قبائل الأمازون.

تم انتقال الأمومة إلى أبوة ببطء، وبأشكال منوعة. بدايــة، بقيــت أرومــة الأمومــة وتعايشت مع أرومة الأبوة: أعتبر أعضاء عشير الأب أهلا للأبناء، دون أن يفقــد عشــير الأم حقوق الأهل. نجم من هذه الخؤولة، نظام علاقات يحتل الخال الدور الأول فيــه، أي الذكر الأقرب من جهة الأم. فلا الأب ولا الأم، بل أخ الأم هو المكلــف بتربيــة وحمايــة الأبناء: وهو أهم من الأب. وتمركز الزواج يتبدل رويدا رويدا. في الأمومة، كان الــزواج أموميا: يقيم الزوج في كنف عشير زوجته(أو في عائلة الأمومة الكبرى)؛ وعنــد الانتقــال إلى الأبوة، صار أبوي المركز: تقيم المرأة لدى عشير زوجها.

لا يقتصر تشكل علاقات الأبوة على تغيير تمركز الزواج ومفهوم القرابة، بــل ولــد نظام أسري جديد: الأسرة الأبوية. تتألف الأسرة الأبوية الكبرى مــن عــدة أجيــال مــن

---

[١] – ف. أنجلز، أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص٥٧.

الرجال، من صلب أب واحد، يقطنون مع نسائهم في دار واحدة، يتغذون ويلبسون من نفس المصدر ويشتركون في كل ما يملكون. وكما دل العالم الشهير الروسي م. كوفالفسكي، الأسرة الأبوية الكبرى هي انتقال أسرة الأمومة إلى أسرة أحادية الزواج.

على رأسها أحد الشيوخ، سيد البيت، الذي يرشد ويوجه كل حياة المشاعية البدائية. وسيد البيت هذا غالبا منتخب؛ يحد سلطته مجلس الأسرة، المؤلف من نساء ورجال راشدين، يقدم الحساب لهم. الشؤون الهامة: نقل الأرزاق، التدابير الانضباطية التي يفرضها على أعضاء الأسرة، زواج الشابات، الخ، من اختصاص المجلس.

في الأسرة الأبوية، الهيمنة للرجل. ويبدو دور المرأة الثانوي في الزواج الذي تراجع في الأغلب إلى شراء الخطيبة من أبيها. والزواج الواحد مفروض على المرأة فقط: عدم وفاء الزوجة ثمنه عقوبة صارمة، بينما يحق للزوج اتخاذ خليلات له من الأسرى. بوسع الزوج إرسال زوجته، دون أي دعوى، إلى دار والدها، بينما لا يحق للزوجة الطلاق إلا نادرا. فضلا عن هذا، عند وفاة الزوج، على الحليلة أو الخليلة أن تضحي أحيانا، لتدفن مع الحصان، والسلاح وأغراض الميت المفضلة.

لم تتجم إزاحة المرأة عن أفضلية الرجل"الطبيعية"، كما يدعي بعض المؤرخين البورجوازيين؛ بل هي محصلة ثورة اقتصادية. يكتب أنجلز في هذا أيضا:"ليتحقق عتق المرأة وتحررها، يجب عليها أولا أن تشارك في الإنتاج على نطاق اجتماعي واسع وأن لا يشغلها العمل المنزلي إلا في حدود ضيقة[1]". ولا يمكن ممارسة هذا المبدأ إلا في ظل الاشتراكية التي تؤمن المساواة الفعلية بين المرأة والرجل.

من جهة أخرى، حفظت أسرة الأبوة بقايا من الأمومة: المرأة الأكبر سنا التي توجه عمل النساء الأخريات والبنات الشابات، تتمتع بسلطة واسعة. وتضم الأسرة الأبوية أيضا العبيد.

لقد هدم تشكلها البطيء، نظام العشير. وفي البداية كان العشير الأبوي الذي حافظ على عناصر المشاعية والوحدة: ملكية العشير للأرض، ميراث متبادل في رحم العشير، عند عدم وجود ورثة مباشرين من جهة الأب. الأرزاق، على رأسها الأرض، يجب أن

---

[1] – ف. أنجلز، أصل الأسرة، الملكية الفردية والدولة، ص١٤٨.

تبقى مشاعية روحية: واجب المعاضدة، الواصل حتى الثأر، الأعياد المشتركة والمقبرة المشتركة. لكن العشير الأبوي يمتاز بعمق عن مشاعية الأمومة، لأنه كان يرهص ببذور الملكية الخاصة.

ولادة الملكية الخاصة

أفضى نمو انتاجية العمل إلى جعل الإنتاج فرديا. فالتدجين والزراعة المتطوران، عدا الصناعة الحرفية، لا تفترضان التعاون البسيط إلا في حالات استثنائية، مثلا، لبناء وترميم منشآت الري. فالإنتاج الفردي هو المبدأ الاقتصادي الذي أنتج الملكية الأسرية وتكديس الثروات بين يدي بعض الناس.

يمكننا أن نرى المرحلة الأولى من التطور لدى هنود شمال غرب أمريكا الشمالية، حيث ما يزال العشير يملك مجاري المياه وأرض الصيد والقطاف، بينما تمتلك الأسر الأدوات، السلاح، العبيد وحواجز الصيد على الأنهار، القوارب والفراء.

ما يزال الاقتصاد الفردي يتطور لدى القبائل الرعوية والزراعية. فيعطي مردود التدجين كل أسرة إمكانية مصارعة الطبيعة. وسمحت البلطة الحديدية لاستصلاح الأرض وسكةالمحراث الحديدية المقرونة إلى ثورين، سمحت للأسرة أن تحرث الأرض التي لم يكن حرثها سابقا إلا على أيدي ومساعدة التعاونية الزراعية المجهزة بالمعول فقط.

كما نجم عن الإنتاج الفردي تمركز الوفر بين أيدي بعض الأسر، التي حققت الغنى. ومنذ انهاية الألف الرابع قبل الميلاد، ظهرت في وادي النيل أسر غنية لم تعد تضع موتاها في حفر بسيطة تعلوها طبقة عليا هشة من الآجر، بل في قبور فخمة، مؤلفة من عشرات الغرف. وعلى الأرض الروسية، أقدم أثر يثبت وجود أسر غنية، هو ***KOURGANE*** مايكوف، الذي يعود إلى الألف الثالث. فقد كشفت التنقيبات، تحت ردم سماكته أحد عشر مترا، بقايا رجل بثياب تزدان بسبائك ذهبية تمثل أسودا وثيرانا، يحيط رأسه إكليلان؛ ستة أنابيب من الفضة، ونصب ضخمة لثيران، كانت تحمل سرادق في السابق. ويضم الرمس أوان ذهبية، فضية، وحجرية، وأغراضا نحاسية(خنجر، بلطات،الخ)، وجثتين لامرأتين، ضحيتين ولا شك للمأتم لمرافقة المتوفى إلى العالم الآخر.

، عدد كبير من الآثار المماثلة يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، لدى انطلاقه صناعة البرونز والتدجين. لقد نقب ب. كوفتين في جيورجيا عن رموس رعاة في بداية

الألف الثاني، كان موتاها محمولين على عربات خاصة. وعدا عظام الحيوانات والفخاريات، وجدت أوان ذهبية وفضية مزدانة برسوم حيوانات وعظام. ووجدت قبور غنية أخرى من عهد البرونز في السهوب الجنوبية لشاطيء البحر الأسود وحوض الغولغا.

في الأصل، لم تكن الثروات المكنوزة ملكا حصريا للأسرة. فقوانين الضيافة والتعاضد تلزم الأغنياء الجدد بترك جزء من أرزاقهم إلى أعضاء القبيلة الآخرين: فالرؤساء، والشيوخ. كانوا يلتزمون من حين إلى آخر بذبح الماشية للأعياد وتوزيعها: وعند وفاة أحد الأثرياء، ينفق جزء من ثروته لوجبة المأتم، وجزء آخر يدفن مع الجدث، وجزء ثالث يعود ليوزع في العشير. فالثروة الشخصية، المعارضة لتقاليد النظام العشيري، كانت بداية مقسمة.

مع ذلك، ولد تكديس الثروات بين يدي الأسر الملكية الفردية التي، بخلاف الملكية الشخصية التي تشكلت في أوج النظام العشيري، استخدمت لاستثمار عمل الآخر. فالملكية الفردية في الأسرة تتناول الماشية، المسكن، الثروة، بينما بقيت الأرض طويلا ملكية تعاونية، جماعية. والسمة المميزة للملكية الفردية هي بعامة قابلية التصرف ب: العبيد، الماشية، المراكب، الخ .، التي تخص الأسرة الأبوية، تصير بضائع يمكن بيعها أو تبديلها.وهكذا هربت الملكية الفردية من مراقبة المشاعة.

تفكك نظام العشير

أفضى تطور الإنتاج إلى نشر اللامساواة التي تمثل بداية الصفة الجمعية: تشكل في القبيلة ثلاث شرائح تتمتع بحقوق متباينة. كان هذا إحدى محصلات قسمة العمل: كما أشار ماركس وانجلز، ولدت قسمة العمل البدائية نظام الفئات المغلقة. وبالفعل، حولت قسمة العمل الاجتماعية الكبرى المهنيين، وعلى رأسهم الحدادون، إلى فئة مغلقة، متميزة في بعض الحالات، مهانة في حالات أخرى. وكان المحاربون يقدرون أن يشكلوا فئة خاصة بهم. وهكذا تشكل، شيئا فشيئا نظام التراتب.

تراكم المدخرات الكبير والمتعاظم ، منذ ظهور الكنوز ،وتحوله إلى نقود، خلق الفرق بالثروة بين أفخاذ وعائلات أبوية في نفس العشير. إذ امتلكت بعض العائلات الكبرى أخصب الأراضي وأوسعها، القطعان العديدة، والكثير من العبيد. وافتقرت عائلات أخرى، فقدت مواشيها، وأرهقتها الفاقة في السنين القاحلة. كما ولد اتساع الملكية الخاصة التناحرات التي ساهمت أيضا بتفكك العشير. فمن جهة، يسعى قائد العائلة إلى امتلاك كل ما يخص المشاعة الأبوية، والتأثير على أرزاق ومصائر أعضائها؛ أوصل هذا السعي،

في النهاية العائلة الضخمة إلى العبودية، رابطا إياها بسلطة رب البيت المطلقة. ومن طرف آخر، هدم تزايد فردية الإنتاج على أثر تطور الزراعة بسكة الحديد، العائلة الكبرى من الداخل. ففي أحشائها، ولدت الأسر الصغيرة التي حصلت على ملكيتها الخاصة، و مسكنها و غذائها.حدث تجزؤ العائلة الكبرى بالضرورة قبل هذا: فمن المشاعة الأبوية المتضخمة، انفصلت مشاعة بنوية، كبرت و تجزأت بدورها. لكن كلما تأكد الاقتصاد الفردي و توطد، ازداد توزع و تجزؤ العائلة الكبرى و أفضى إلى انفراط منهجي للعائلات الصغرى المزودة بملكيتها.

قضى تطور الملكية الفردية بالتدريج على عادة توزيع الأرزاق و أرسى حقوق الأبناء الوراثية. ينجم من هذا أن العائلة الصغرى، أو العائلة الفردية، تأسست على هيمنة الرجل و هدفت إلى ولادة أبناء لا ريب في انتسابهم الأبوي.

إن تبدد المشاعة إلى عائلات صغيرة أغلبها سيعيش وحده، كان كثيفا بخاصة في المشاعات الفقيرة، الأضعف من وجهة نظر الاقتصاد .بالمقابل، تجهد المشاعات الغنية في الحفاظ على تقاليد العشير، وهذا لعدة أسباب أهمها الإبقاء على طاعة عبيدها.و بالتالي، يأخذ تعاضد العشير في أثناء تشتت المشاعة معنى آخر.وبينما كان في السابق يتوجب على أعضاء التعاونية الأوفر حظا أن يقتسموا مع الآخرين نتاج عملهم، كلما كانت الثروة أكبر، يطلب هؤلاء الذين يقومون بهذا التوزيع هدايا بالمقابل. وينظم رؤساء العائلات الكبرى الغنية ما يسمى"بوتلاتش[1]"، يوم توزع الأدوات، المواشي، الجلود، الخ، على رجال العشير والقبيلة. وبعد فترة زمنية، يعيد من أخذ ما أخذ وزيادة. وفي حالات أخرى، يفترض الرجل من الرئيس أو سيد البيت. وإن لم يستطع إيفاء دينه، سقط في حظيرة الدائن. أخيرا، يتيسر للرؤساء والأعضاء الأغنياء، الأغنى أرضا، ومصائد ومراعي، أن يعتمدوا دوما على مساعدة الآخرين الذين، لهذا الواقع، يعملون مجانا. وهكذا تصير مبادئ التعاضد، المنحدرة في أثناء تفكك نظام العشير ونمو الثروة، وسيلة استغلال الأغنياء للفقراء. من هنا كان صالح الأثرياء في الحفاظ على علاقات كانوا هم أنفسهم أدانوها منذ برهة.

هكذا كانت الأسر الأبوية الغنية بالضبط هي التي تحافظ على التقاليد وترعاها بالظاهر. وبينما كانت المشاعات الفقيرة تتفتت إلى أسر صغيرة تنتقل إلى أفخاذ أجنبية، ينعزل الأغنياء كنبلاء بالولادة. وهم وحدهم يتذكرون أصلهم ويفخرون به، ويتحدثون

---

[1] ـــ مهرجان ديني عند الهنود الحمر، تتبادل فيه الهدايا.

دوما عن جدودهم الأماجد وهكذا تلتحق الثروة ب"النبل" الوراثي. في هذه الحقبة من الزمن كان الغنى يرافق النبل أبدا. والفقراء، ما أن يخرجوا من العشير، حتى يفقدوا دعم المنظمة التي كانوا آنئذ قوتها الواقية الوحيدة. لذا يشتد ارتباطهم بالأغنياء، بالنبلاء: يدفعهم عوزهم الاقتصادي والاضطهاد الذي يمارسه أغنياء العشيرة إلى وضع أنفسهم تحت"حماية" الرؤساء والشيوخ، فيتحولون أخيرا إلى شبه عبيد. ويتفاقم التناقض بين الأغنياء والفقراء من الآن ومعه بين العبيد والرجال الأحرار. وعقبت فوارق الثروة في رحم العشير والقبيلة شراكة المصالح البدائية، مخلفة الاستثمار والتناحر.

بداية، بقيت الأسر المستقلة، المنحدرة من العشير الأبوي، على تواصل. لكن فوارق الثروة والتناحر بين غني وفقير قطع كل أواصر القربى. أحيانا، كانت إقامة العائلات الصغيرة عند عشائر أخرى تتم التفكك. فذابت وحدة العشير والأرض، وهي إحدى أهم سمات المجتمع المشاعي البدائي. ولم تعد الأفخاذ الجديدة تبنى على أساس القرابة الدموية، بل على أساس الجوار؛ الأمر الذي نسميه مشاعيات"الجوار"أو"الأرض".

يمكن أن تتكون من أسر كبيرة وصغيرة متقاربة، وأيضا من أسر انحدرت من أفخاذ مختلفة، لكن في الحالين لا يعتبر أعضاؤها أقرباء. فخلق مشاعيات الجوار سهل النشاط الاقتصادي؛ وعند تفكك العشير، كانت الشكل الوحيد الممكن للاتحاد بين الناس، تحفظ في بنيتها بعض سمات العشير: المشاعة تتمتع، مثلا، بحق الأفضلية على أراضي أعضائها، الحق الذي يمكن أن يترجم أحيانا إلى تقسيم جديد دوري، له موظفوه الخاصون. إذن، تتضمن كل مشاعة ثنائية، كانت تسمى تناقضات بين ملكية الأرض المشتركة والملكية الخاصة لكل عائلة: البيت والباحة، الماشية والأدوات. ففي رحم مشاعة الجوار"الزراعة المجزأة ، والملكية الفردية للثمار، تعطي الفردية انطلاقة لا تقاس بتنظيم مشاعات أكثر بدائية"[1]وتصير هذه الثنائية مع الزمن مصدر تشتيت مشاعية الجوار

. وحسب الشروط الطبيعية والتاريخية، تشكلت نماذج عديدة من مشاعيات الجوار المتميزة بدرجة تطور الملكية الخاصة.

الديموقراطية العسكرية

إن تفكك نظام العشير كان يثور العلاقات الاجتماعية القائمة ولا يمكن أن يتم سلميا. ويشير مؤسسو الماركسية أن الاضطهاد هو قابلة المجتمع القديم، وأم المجتمع الجديد. كان

---

[1] ــ١ــ ك. ماركس و ف. انجلز، محفوظات، ي باند، ص ٣٣٧، معهد الماركسية اللينية.

النبل الولادي بحاجة لتنظيم يتكفل بالدفاع عن الثروات وكبح كفاح العبيد والفقراء؛ أي بحاجة لبناء فوقي سياسي يعزز مجيء مجتمع جديد طبقي.

بداية، اضطلعت بهذه المهام اتحادات سرية ذكرية. في تلك الحقبة والثروة تحتل أهمية بالغة، لم يكن القبول في الاتحادات السرية مشروطاً بالمبادرة، إنما بالولائم والهبات: فالشاب الذي لا يستطيع أبوه أن يذبح لمأدبة ما كفاية من الخنازير، أبواب الاتحاد مغلقة في وجهه. إذن، في ذلك العهد، لم تكن الاتحادات السرية ترفض العبيد والنساء فقط، بل أيضاً الفقراء الأحرار. ويعارض الاتحاد كلياً من ليس عضواً فيه ويجهد، بالتالي، أن يؤثر على السر. وتعمل الاتحادات السرية على إخافة الجهلاء، وتقتص منهم، وتذلهم.هيمنت هذه الاتحادات على ظاهرات الحياة الاجتماعية الجديدة، وفي رأسها الأبوة والثروة.

كان لها الحق في أن تعلن قداسة ملكية أعضائها وتعاقب بقسوة وفظاظة من يجرؤ على الاعتداء عليها. وبالمقابل، كانت ملكيات الجهلاء أو الدنيويين غير محمية وتتعرض للنهب. ويضطهد الاتحاد المرأة والعبيد، ويبرز سطوة الرجل والسيد. يلزم المدينين المتخلفين بالوفاء وفي حال العجز يصادر أرزاقهم. وقد يتولى القضاء أحياناً للنظر في الخلافات بين القرى. تمنع إراقة الدم أثناء جلساته القضائية العليا. لكن القرية المدانة كانت تعاقب بلا رحمة: محاربون مقنعون يهاجمونها ليلاً، على ضوء المشاعل وصخب الصاخبين المتسكعين، ويسيئون معاملة الناس ويسطون على المواشي.

كلما توطد تفوق الأغنياء والنبلاء، تترك الديموقراطية القديمة المكان لفوقية سياسية جديدة: الديموقراطية العسكرية. يقودها، كما العشير، قائد، مجلس شيوخ وجمعية شعبية. لكن هذه التنظيمات كانت ذات طبيعة أخرى. الرئيس الأكبر يختار من الرؤساء الأغنى في الأسر الأبوية؛ ثم تصير مهمته وراثية في حدود هذه الأسرة النبيلة أو تلك. تستند سلطته إلى غناه، وعدد ذويه وعبيده وناس قبيلته، قبل مناقبه الشخصية. وكثيراً ما دعم سطوته بتصرفات بربرية. هكذا، عند موت زعيم داهومي(أفريقيا الغربية)، يقتل على القبر أولئك الذين حفروه؛ فضلاً عن دفن نسائه، ثمانون راقصاً وخمسون مقاتلاً أحياء؛ وطيلة ١٦ شهراً التالية ترسل له رسائل للاطلاع على أحداث البلد. يقر الزعيم ومجلس الشيوخ دوماً كل القرارات، بينما يقتصر دور الجمعية الشعبية، المكونة فقط من المحاربين، على الإصغاء لهما منفعلة بالصراخ وقعقعة السلاح.

إن سمي البناء الفوقي السياسي لزمن تفكك العشير ديموقراطية عسكرية، فذلك لأن

الحرب وتنظيم الشعب لهذه الغايات يصير آنئذ وظائف عادية للحياة البشرية. وتبدل الحرب طبيعتها: سابقا كانت تنشب الحرب للثأر من خرق الحدود أو لبسط حقول الصيد، أما الآن تهدف الحرب النهب؛ ويصير الإغتناء مهنة.في هذه الحروب، تتشكل الاتحادات القبلية، يأمرها زعيم منتخب من بين رؤساء القبيلة.وتعزز حروب السلب سلطتها التي تنبسط لتتحول إلى سلطة أبدة. وفي الوقت ذاته، نرى ولادة المؤسسة التي تدعم جدا سلطة الزعيم: جمعية السلاح. فحرب السلب تهيء مكانا لشركات أو حلقات خاصة تتعرض للأخطار والأهوال، مستقلة عن العشير. يجمع الرئيس حوله رجالا يعشقون السلب ويتحدون بالوفاء وليس بالقربى.كان ثمة أبناء نبلاء وعبيد أيضا. وبدعم من جمعيته، يصل الرئيس العسكري أخيرا إلى السلطة المطلقة. هكذا تنفصل المنظمات التي توجهها الديموقراطية العشيرية من الشعب وتصير نقيضه: منظمات هيمنة واضطهاد موجهة ضد الشعب.

ولادة الدولة

ليس في التأريخ البورجوازي مسألة أكثر ضبابية من مسألة الدولة. فالمؤرخون الفلاسفة والحقوقيون البورجوازيون يقدمون الدولة كمنظمة تهدف الخير العام. ويجهدون في تجميلها وجعلها مثالية، المحامي عن كل الناس، أيا كانت طبقتهم.

في الحق، الدولة هي"...جهاز مرهون للحفاظ على هيمنة طبقة على أخرى"[1]. آلة مؤذية تولد حيث تكون الطبقات قد وجدت؛ يشهد تأسيسها تناقضات لا حل لها من أجل منظمات النظام العشيري. وبعبارة أخرى، ما أن تتشكل طبقات من عبيد وأناس أحرار، ويظهر التناحر بين العبيد والأحرار، بين الأغنياء والفقراء، حتى تظهر الحاجة للمنظمات التي عوضا من إخماد هذه التناقضات، تضغط على مصالح طبقة لمصلحة طبقة أخرى، تضطهد العبيد والفقراء لمصلحة النبل العبودي.

لقد نهضت الدولة على أنقاض نظام العشائر، الذي ربى في رحمه منظمات الدولة. تتميز الدولة بسمتين:بداية، وجود سلطة عامة منعزلة عن المجتمع وتعارضه(أركان هذه السلطة هم أخوة السلاح والمحكمة المكونة من الزعماء والشيوخ)؛ وبالتالي، يتحد الناس حسب مبدأ الأرض وليس مبدأ القربى. تقوم الدولة بمهمتين أساسيتين: كبح مقاومة الجماهير الشعبية(أولا) وتوسيع حدودها أو تدافع عنها ضد الجوار.

يجد تباين الطبقات والدولة تعبيره الإيديولوجي في الدين. ففي أيام انهيار نظام

---

[1] – لينين، الدولة، للنشر باللغات الأجنبية، موسكو ١٩٥٤، ص ١٥

العشائر، كانت عبادة الأجداد تقدس وتمارس بحماس في كنف الأسر النبيلة، بينما يفقد الفقراء، الزاحفون بأفخاذهم وأخلافهم، بشكل طبيعي حتى ذكرى أصولهم. تنبع من هذا فكرة الفرق بين أقدار مصائر المتوفين بالنسبة للأغنياء (النبلاء) والفقراء. يتصور بعض الشعوب أن الفقراء يتحولون بعد الوفاة إلى حيوانات، بينما يؤول الأغنياء إلى أرواح إنسانية الشكل. وتعتقد قبائل أخرى أن أرواح الأغنياء والقادة فقط خالدة بينما تتفسخ أرواح الفقراء والمرؤوسين. في أثناء تفكك نظام الأفخاذ، يعود دور يزداد بروزا لعبادة الرئيس والقبيلة. ينتقل هذا منذ الآن كرمز لرفاه التعاونية. ويطلب منه أيضا النقاء المطلق: لا وجود للعاهات والجروح؛ لا تناول إلا الغذاء الخاص، مثلاً حليب قطيع معين. والقيافة تشهد على الازدهار العام: تزدهي قبائل الزولو المحاربة ببدانة زعمائها المفرطة، فبعضهم ينتقل أو يتحرك بصعوبة بدون معونة. لا ينشغل هؤلاء القادة بالإنتاج، تطول أظافرهم وتطول. وروح القائد المتوفى قوة سحرية واسعة، قادرة على مؤازرة الآخرين. فتطلب عبادة فخمة وتقديساً فريداً وفي أثناء محو ذكرى الوجود الحقيقي للزعيم، تصير روحه روح حامي القبيلة . هو ذا تعدد الآلهة الممزوج بالمعتقدات القديمة: فكرة السلف الحامي الإنساني الشكل تختلط بفكرة الطوطم وقوى الطبيعة. من هنا أدرك الله بداية إلهاً ـ حيواناً، إلهاً ـ شمساً، إلهاً ـ قمراً، الخ.فتشكلت تدريجياً شريحة مغلقة مهنتها إدارة العبادة. هي الاكليروس الذي يدعي أنه الأقرب إلى أرواح الجدود ويطلب لهذا السبب حق التأثير عليهم. فمن الآن وصاعداً، التأثير على الأرواح، أي على الطبيعة، هو امتيازها. مرتدياً ثياباً باذخة مزدانة بالتمائم، خافي الوجه وراء قناع حيوان، يصير الكاهن، المسلح بالطبلة وقضيبها الموروث، وسيطاً بين المجتمع وقوى الطبيعة: ومحتكراً هذا الحق، يحول الأفكار السانجة في تمكنه من التأثير بالسحر على الحيوانات والنباتات بواسطة التأثير على المجتمع ذاته. ففي أيدي فئة مغلقة قليلة العدد تدافع عن مصالح النبالة،تصير العبادة الدينية في المجتمع المنقسم إلى طبقات وسيلة ضغط. والتفسير الخيالي لظاهرات الطبيعة التي تهيمن على الإنسان، يستغلها النبلاء، لاستعباد الكادحين، إخضاعهم لقوى فوق ـ طبيعية وللقوى الاجتماعية الجديدة. ويصير الدين أداة هيمنة في يد طبقة على أخرى.

لقد ولدت الطبقات والدولة في شروط وفترات متباينة. وهكذا، بفضل الري، يتوصل سكان وادي النيل، قبل اكتشاف البرونز إلى إنتاجية عمل تمكّن من تشكل طبقات. وفي هذه المنطقة، وكذلك فيما بين النهرين، تشكلت الدولة في العصر الحجري الجديد، أي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. في حالات أخرى، أمّن ارتقاء الزراعة واتساع التدجين

انقسام المجتمع إلى طبقات في عصر البرونز، كما لدى الحثيين وبعض شعوب آسيا الأخرى. إنما الأمر بالنسبة لأغلب شعوب أوروبا، آسيا وأفريقيا، يتفكك النظام العشائري ولا تظهر الطبقات إلا بعد خلق صناعة الحديد. وفيما يخص العالم الجديد، انتقل عدد صغير فقط من القبائل(بخاصة في المكسيك والبيرو)، عند اكتشاف أمريكا، إلى تفكك النظام العشائري وأسس أولى الدول. مع أن الحديد لم يكن قد عرف بعد.

اللوحة الأولى: تاريخ المجتمع البدائي

الأزمنة الجيولوجية	تاريخ مطلق	عصور وحقب	تشكل الإنسان	طبيعة العلاقات الاجتماعية
بليئستوسين		العصر الحجري الأدنى		
محطة قبل الجليدية	منذ مليون سنة	بريسليان	ظهور الإنسان	قطيع بدائي
	من ٤٠٠٠٠٠ – ١٠٠٠٠٠	سليمان		
بداية المحطة الجليدية	من ١٠٠٠٠٠ – ٤٠٠٠٠٠	آشليان	إنسان نياندرتال	
التوسع الجليدي الأقصى	حوالي ٤٠٠٠٠	موستريان		
نهاية المحطة الجليدية	من ٤٠٠٠٠ – ١٢٠٠٠	العصر الحجري الأعلى	الإنسان العاقل	بداية عصر الأمومة
الرابع....	من ١٢٠٠٠ – ٦٠٠٠	العصر الحجري الأوسط		انطلاقه نظام العشائر
	من ٤٠٠٠ – ٣٠٠٠	الحجر الجديد الأعلى		تفكك نظام العشير وظهور الطبقات في الشرق
	من ٣٠٠٠ – ٢٠٠٠	عصر البرونز		تفكك نظام العشير في المنطقة السهبية من أوروبا وآسيا
	١٠٠٠	عصر الحديد		تشكل الطبقات في اليونان وروما

الفصل الخامس

الشرق

تمهيد

بلدان الشرق القديمة:

في الشرق تكونت أولى الدول. الشرق القديم مساحة شاسعة يبدأ من مصر حتى الصين ويضم الجزء الجنوبي من آسيا وشمال ـ شرق أفريقيا. يطلعنا تاريخ شعوبه على ولادة وتطور أقدم دول العبودية، المبنية على انقسام المجتمع البدائي إلى طبقات.

يضم بلدان هذا الشرق شرط طبيعي فريد هو تتالي الوديان الخصبة مع أمصار واسعة صحراوية والسلاسل الجبلية. خمسة وديان واسعة نهرية: وادي النيل في أفريقيا الشمالية؛ وادي دجلة والفرات(ما بين النهرين)في الجنوب ـ الغربي من آسيا، قرب الخليج العربي، وديان الهندوس والغانج في الهندستان ووادي هوانغ ـ هو في الصين. تحد وادي النيل من الغرب الصحراء الكبرى؛ تتاخم بين النهرين من الغرب الصحراء العربية وفي الشرق سلسلة زاغروس؛ في الشمال والشمال الشرقي من وادي الغانج، تنتصب جبال هملايا؛ ويضم وادي هوانغ ـ هو في الشمال والشمال الغربي مناطق منغوليا الصحراوية.

إنها لوديان ملائمة جدا للزراعة. تروي فيضانات مجاري المياه هنا الحقول، المناخ حار، التربة ثرية ومهيأة للعمل. وقد بدأت الزراعة هنا قبل غيرها ـ وتطورت بسرعة.

في أثناء تاريخها، خلقت مجتمعات الشرق حضارات غابرة مارست تأثيرا عظيما على ارتقاء بلدان القديمة أوروبا. كانت الحضارات الأكثر نفوذا هي حضارات مصر، ما بين النهرين وبلدان وسيطة بين فلسطين وسوريا. أقامت

هذه البلدان، الواقعة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، علاقات تجارية وثقافية مع جيرانها، بما فيها مناطق الشاطئ الأوربي، التي أخذت قبائلها وشعوبها من مصر،ما بين النهرين،فلسطين،سوريا والهند الكثير من عناصر ثقافتها.انتقلت هذه المقتبسات إلى شعوب أوروبا الحديثة وصارت وقفا على الحضارة الأوروبية.

يبدأ تاريخ الشرق بتشكيل المجتمع العبودي والدولة، أي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. لا يريد التقليد ان ينتهي التاريخ القديم بتوقيت أو حتى بقرن محدد: ففي الغرب، وصل بنا حتى انهيار إمبراطورية الفرس (القرن الرابع قبل الميلاد)، بينما استمر تاريخ الهند والصين حتى قيام النظام الإقطاعي، الذي بزغ في القرون الأولى للميلاد.

هكذا، كانت الأطر الإقليمية والمتسلسلة زمنياً للتاريخ القديم للشرق اتفاقية: لا يشمل بعامة تاريخ الايجيين قبل-الهللينيين، الذين عاشوا في الألف الثاني قبل الميلاد ولم يقيموا علاقات مع بلدان الشرق. كان المجتمع العبودي والدولة في الشرق ذا سمات نوعية يمكن معارضتها بالسمات القديمة اليونانية-الرومانية.

هذه السمات هي:

١ ــ تطور ضعيف للنهج العبودي، استمرار طويل للعبودية الأبوية وأشكال استثمار شبه ــ أبوية. ٢ ــ تطور ضعيف في ملكية الأرض الخاصة واستقرار مشاعة الجوار. ٣ ــ بناء فوقي سياسي مبني أساساً على سلطة ملكية عاتية(الــ"استبداد الشرقي").

لكنّا ونحن نشير إلى هذه الخواص الاقتصادية والسياسية، يجب أن نتذكر أنها لم تكن دوماً ملازمة لكل الدول؛ وبالتالي، كانت تظهر هنا خصائص واضحة للمجتمع العبودي الكلاسيكي. ومن جهة أخرى، حفظت دول اليونان والرومان القديمة ــ بخاصة في بداية تاريخها ــ كثيراً من العناصر النموذجية للأنظمة الاجتماعية في الشرق.

ليس ثمة أي فرق مبدئي بين دول الشرق والقديم الكلاسيكي: الخصائص الثانوية التي تميزها لا تمنعنا من تصنيفها في نفس الشكل الاجتماعي والاقتصادي.

يقدم تاريخ الشرق فائدة كبيرة: منها ولدت أول المجتمعات المقسومة إلى طبقات

ووضعت أسس الثقافة المادية والروحية التي تشبهت بها شعوب اليونان وروما وصارت أخيرا وقفا على الحضارة المعاصرة.

مصادر تاريخ الشرق القديم

يجب تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: نصوص يونانية ولاتينية، بقايا آثار ونصوص بلغات الشعوب الشرقية.

النصوص اليونانية واللاتينية، التي درست منذ زمن، والتوراة ،الذي سنتناوله فيما بعد، تقدمتها حتى بداية القرن التاسع عشر إعادة كتابة تاريخ الشرق القديم. إنها أعمال مؤرخي وجغرافيي العصور القديمة، الذين زار بعضهم مصر، سوريا وما بين النهرين، بينما بني البعض الآخر على معلومات متداولة أو فسروا كتبا اختفت الآن. بين هؤلاء الباحثين، يعين مكان خاص لهيرودوت، الكاتب اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد، الذي ارتحل كثيرا، لا حظ وتحدث عن أعراف وعادات البلدان التي زارها؛ ويذكر أيضا خرافات كثيرة حول ماضي مصر ودول أخرى.

لكن كتابات هيرودوت أتت بأخطاء جسيمة انعكست على أعمال بداية القرن التاسع عشر. لقد عاش هيرودوت في نهاية التاريخ القديم للشرق: كان معاصرا لملوك فارس، لكن ٢٥٠٠ عام تفصله عن المراحل الأولى لتاريخ مصر وما بين النهرين؛ فضلا عن أنه لم يكن يعرف اللغات الشرقية. وإن كانت هذه الأخبار عن فارس ذات قيمة فعلية، فما يقصه عن مصر سطحي. متناقض وخرافي. فعمل هيرودوت لا يمكن أن يكون مصدرا إلا لدراسة الحقبة الأخيرة من التاريخ القديم للشرق. وينطبق هذا أكثر على باحثين أحدث(سترابون، ديودور، بلوتارك)الذين لا يقدمون سوى معلومات متفرقة غير مترابطة حول هذه المسألة أو تلك.

بين المؤرخين الذين كتبوا باليونانية، يجب تمييز الكاهن المصري مانيتون(القرن الثالث قبل الميلاد): لقد دخل دور محفوظات المعابد وأمل أن يطلع قراء اليونان على تاريخ بلدهم. للأسف، لم يحفظ كتابه ونحن لا نعرف منه إلا استشهادات واردة في أعمال لاحقة. وهذا ما وقع لأعمال الكاهن البابلوني بيروز، معاصر مانيتون، الذي حاول أن يكتب تاريخ ما بين النهرين.

إن نصوص الباحثين القدماء لا تتضمن إلا معطيات عجفاء حول التاريخ القديم

للشرق الأدنى؛ وقليلا ما تناولوا الهند(ثمة بعض الأخبار حول النظام الاجتماعي والسياسي لهذا البلد في حدود القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد في كتاب ميغاستيم، سفير اليونان لدى الهند، لكنه لم يصلنا إلا ناقصا)؛ أما الصين، يكاد مؤرخو القديم لا يعرفون عنها شيئًا. لذا بقي العلماء حتى بداية الحفريات الأثرية في الشرق بدون وثائق حول تاريخه فلا يقدرون إنجاز دراسة معمقة عنه.

بدأت التنقيبات المنهجية في الشرق الأدنى في منتصف القرن التاسع عشر. كشف بوتا ولايار آثارا في القصور الملكية الآشورية. ثم سبروا خرائب مدن ما بين النهرين الأدنى، منها بابل ولاغاش. وشرع بأعمال ضخمة في مصر، حيث تدرس بقايا المعابد والقبور.

زودتنا حفريات نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ببعض المعارف الشرقية. فقد عثر ج. مورغن في مصر وغرب إيران على آثار سبقت ولادة المجتمع الطبقي؛ ودرس الإنجليزي فلاندر بتري بخاصة مدينة كاهون، ليس عنواحة الفيوم وفي آسيا الصغرى،قرب بوغاز_ كووي، سبر واكلر وماكريدي بي هاتوزا، عاصمة الحثيين.

كان نشاط علماء الآثار كبير الفائدة بخاصة فيما بين الحربين ١٩٢٠ ــ ١٩٣٠. ففي هذه الفترة اكتشفت حضارة الهند القديمة (تنقيبات موهاندجو ــ دارو وهارابا في حوض الهندوس)، وتنقيبات عن مدينة صينية قرب آنيان، مقابر ومدن سومرية تخص المجتمع البدائي وأول مجتمع طبقي، دراسة المدن الأكادية (كيش، آشنوناك، الخ)، واكتشاف مملكة ماري في المجرى الأوسط للفرات ومدينة أوغاريت الفينيقية، وتنقيبات في شمال سوريا(مدينتا ألالا وسامال)وكثير من اللقى الأخرى التي غيرت بعمق أفكارنا حول تاريخ الشرق. وأعمال العشرينات والثلاثينات، المنفذة بمهارة رائعة كالتي وردت الآن، كشفت عن تجليات حضارة منسية حتى آنئذ أو يشار إليها لماما.

وتمت مكتشفات هامة في تلك الحقبة في مصر: نجحوا منذ ١٩٢٢ في العثور على رمس سليم لأحد الفراعنة، وقبيل الحرب العالمية الثانية اكتشف رمس آخر في تانيس. ورغم أن الرمس الأول (توتأنخامون) لم تعش سوى عدة سنوات وماتت شابة. ،والثاني(شيشانك الأول) الذي حكم في نهاية تاريخ مصر القديمة، يوم لم تعد البلاد تستطيع ادعاء السيادة في الشرق–الأدنى، فللرمسين أهمية استثنائية لدراسة تاريخ وثقافة مصر. وفي شامكارا

سبرت رموس أقدم ملوك وكبار موظفي مصر، أهمها رمس هيماكي الذي يعد أكثر من خمسين حجرة.

ليس لمكتشفات العقد الأخير أن تنافس لقى ماري وأوغاريت، هارابا وآلالاه، لكنها أضاءت بعض قضايا التاريخ القديم: لقد حددت تنقيبات تل-حسون (الآشوري) وأمكنة أخرى آراءنا حول بدء الزراعة والتدجين وحول ظهور مدن في الشرق-الأدنى، وتشهد حفريات جيزير، هاتسور، بيت-تسور مراكز أخرى في فلسطين على الثقافة الرفيعة لهذا البلد في العصر الكنعاني وتسهل بعمق إلقاء نظرة جديدة على تاريخه. وفي حلوان (مصر) بدأوا حفريات لمدينة أموات واسعة تعود إلى أيام تشكل الدولة المصرية، وفي الصين، قرب دانيان، اكتشف قبر ضخم من النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد.

تزودنا أعمال علماء الآثار السوفيات في شرق القفقاس وآسيا الوسطىأيضا بمواد رفيعة الأهمية: حرر ب.بيوتروفسكي خرائب حصن أورارتي في كارمير -بلسور قرب ايريفان، ثم اكتشفت في نفس المنطقة بقايا قلعة أورارتي آخر على هضبة آريسن-بيرد. وعثر س.تولستوف وزملاؤه على عدد كبير من الآثار التي تتحدث عن تاريخ القبائل الرعوية وولادة دول عبودية في آسيا الوسطى.

فقد أغنى علم الآثار بعمق معارفنا حول معرفة الشرق، وأزال النسيان عن حضارات مهولة أو تكاد تكون غير معروفة. فحفريات مراكز قديمة ثقافية شرقية تأتي دوما بأنباء جديدة تدرس وتعمق معرفتنا. تضيء الحفريات قبل كل شيء الآثار المادية التي توضح بذاتها تاريخ الشرق الاجتماعي والاقتصادي: الأدوات، الفخاريات، عظام الحيوانات، وبقايا أخرى تكشف ارتقاء الاقتصاد؛ وترسم خرائب القصور والمساكن البسيطة صورة عن المدينة القديمة. فقد أعطت حفريات عالم الآثار م.زغوتيم، الذي كشف سنة ١٩٥٤ قبر سحماجيت، أحد فراعنة الأسرة الثالثة غير المعروف حتى آنئذ، أعطت موادا هامة حول مصر. وأتاحت أعمال باروت في ماري إعادة تركيب قصر ملكي، ومعبد للإلهة عشتار، ومدرسة ملحقة بالقصر.وكانت البيوت الشعبية مبنية بطمي الأنهار.

وتشهد مقبرة ماري على فارق كبير في الثروة: فإلى جانب قبور بسيطة ترابية، وجدت قبور فخمة من البلاط الحجري. ولوحة مشابهة قدمتها مدن قديمة أخرى في الشرق، منذ كاحون في واحة الفيوم حتى آنيان على ضفة هوانغ-هو.

لكن البقايا المادية لم تميز العلاقات الاجتماعية إلا باختصار: فللحصول على صورة صحيحة لمجتمع العبودية، ولأشكال الملكية أو البنية الفوقية السياسة، لابد من الكلام عن التاريخ المدني. ونحن نولي أهمية خاصة لمعرفة الرسوم الموجودة على المواد الأكثر تنوعا: معدن، حجر، عظم، ألواح آجرية، البردي والرق. فلم تحظ أغلب نصوص لغات شعوب الشرق القديم بالدراسة إلا بعد حفريات القرن التاسع عشر والعشرين. بل إن بعضها فقط عرف (بخاصة باللغتين الصينية والهندية) استنادا إلى مخطوطات محفوظة في بعض المكتبات، وهكذا كان وضع التوراة.

إن التوراة، أحد أعقد مصادر تاريخ الشرق-الأدنى، فهو جمع لتقاليد من كل نوع ،خرافات سامية وبخاصة عبرانية، وجدت في حقب متباينة بدءا بالألف الثاني وجمعت حوالي القرن الثاني قبل الميلاد. تعرض قسم أساسي منه ولاشك لتحريفات وتعديلات مقصودة، خدمة لمصالح الكهنوت. التوراة هو كتاب العبرانيين المقدس، وبعدهم لبعض المسيحيين: وبعد زمن طويل اعتبر من وحي الله نفسه. فمن الطبيعي أن تقبل المعلومات الواردة فيه حول تاريخ العبرانيين وجيرانهم، في العصر الوسيط دون شكوك أو انتقادات. فقط، نقد التوراة، الذي تطور في النضال ضد الصورة للعصر الوسيط، الاقطاعي، عن العالم، هو الذي رفع الأقوال المكررة، والتناقضات والأخطاء الواردة في هذا الكتاب "المقدس". كان المبادر الأول لهذا النقد هو الفيلسوف المادي للقرن السابع عشر ب.سبينوزا، وقبله، آبن ايزرا، أحد علماء القرن الثاني عشر، الذي أشار إلى تناقضات في النص التوراتي. وتابع باحثون بورجوازيون آراء سبينوزا، (ج.ويلهوزن، س.مونكل وآخرون)، وخطا مؤرخون سوفيات (ن.نيكولسكي، آ.رانوفيتش) خطوة أخرى على هذا الطريق: عوضا من الاكتفاء بالنقد الأدبي البحث للنص، جهدوا في تحرير الآراء الاجتماعية في كل كتاب والأصول الاجتماعية للتعديلات والتحريفات التي أدخلها المنقحون لأغراض معينة ،أولها خدمة الأكليروس قديما وخدمة للسياسة حاليا. ولقد دعمت نقد التوراة النصوص العبرية القديمة المكتشفة في العام ١٩٥٠ في الأردن؛ تعود هذه النصوص إلى الحقبة الممتدة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثاني بعد الميلاد ،وتتضمن فيما تتضمن أجزاء من التوراة تختلف بشكل ملموس عن النص التقليدي، المعروف في نسخات القرن الوسيط.

يدل هذا أن معطيات التوراة لاتساهم في دراسة تاريخ الشرق الأدنى (مبدئيا في الألف الأول قبل الميلاد) إلا بشرط تمحيصها بحذر وأستذة.

أهم بما لايقاس، من وجهة النظر التوثيقية، الكتابات المصرية، السومرية، الأكادية، الحثية، الأورارتية ،وغيرها التي عثر على أغلبها في أثناء التنقيبات. كان علماء من القرن الثامن عشر قد اطلع على هذه الآثار (نقوش على الصخر والجدران، والبردي)، لكن أحدا لم يستطع أن يتقصاها، لأن فن قراءة الهيروغليفية (وهي كتابة أغلب شعوب الشرق الأدنى) كان قد أهمل تماما وقبل دراسة هذه النصوص، كان يجب تعلم إزالة رموزها.

كان شامبوليون قد حل إشكالية الكتابة المصرية المعروفة بثلاثة أشكال، منذ العام ١٨٢٢. اعتمد على نقش مسمى "حجر الرشيد، أو صخرة روزيت"، الموجود في مرفأ مصري بهذا الاسم. تكرر النقش ثلاث مرات: باليوناني، بالهيروغليفي القديم وبحروف ديموطية (سريعة مصرية من أصل أحدث).

كشفت قراءة النص اليوناني أن هذا قرار الفرعون بتوليمية الخامس، بنقوش على الصخرة باللغة المصرية (مرتين) وباليونانية. فحصلنا على ترجمة النص المصري. كان معروفا قبل شامبليون، أن الأسماء الملكية محاطة بإطار بيضوي، اسمه "كرتوش" بفضل كرتوش، حدد شامبليون الحروف الهيروغليفية التي تشكل اسم الفرعون ووجد مفتاح الكتابة المصرية.

وبالطريقة ذاتها، قرأ في نقوش أخرى أسماء كليوباترا، بيرينيه، الكسندر، ثم حلل رموز الأسماء المصرية تحوتمس ورمسيس. وبامتلاكه عددا كبيرا من الشارات قرأ الأسماء ونصوصا كاملة. ومعرفة اللغة القبطية (لغة مصرية مسيحية)، والعربية والعبرية أعانته على تذليل هذه المهمة. وضع معنى لكثير من التراكيب الهيروغليفية وأنشأ كتاب صرف ونحو (قواعد) مصرية. ومنذئذ، صار للغة المصرية أساس متين.

ولقد تم حل رموز الكتابة المسمارية على يد غروتغاند واولنسون.

في العام ١٨٠٢، نجح غروتغاند، بقوة المثابرة والطروح المبتكرة، بترجمة القسم الأعظم للنقش الفارسي لأيام كيركسس، المرسوم بثلاثة أنماط من الحروف المسمارية. لكنه لم يجد معنى لكل الإشارات، المسألة التي أقلقت علماء العالم قاطبة طيلة نصف قرن

تقريبا. كان نص بابل هو النص الأصعب، الذي تمثل شاراته مقاطع وكلمات كاملة، دون الاهتمام أن كل شارة لها عدة معاني. وكانت الكتابة المسمارية البابلية قد حلت رموزها نهائيا حوالي العا م١٨٥٠م، حصيلة لاكتشاف راولنسن نقشا ضخما للملك داريوس بثلاث لغات -*susienne*، الفارسية القديمة والبابلية- على صخرة بأستون *b e'histoun*. كان النص الفارسي، وقد قرئ بدون صعوبة، يتضمن حوالي ٢٠٠ اسم ملك، وبلد وشعب. الأمر الذي مكن راولنسون ، هانكس وأوبيرت من حل لغز الجزء الفارسي أولا، ثم الجزء البابلي من النقش؛ باستخدام لويحات مدرسية، وجدت آنئذ في بقايا قصر آشور بانيبال. كانت تحمل، إلى اليسار، شارات تمثل كلمات تامة (رموز فكرة)، وإلى اليمين، ذات الكلمات مرسومة بمقاطع وشارات صوتية. فالكتابة المسمارية المستخدمة فيما بين النهرين كانت إذن بالغة التعقيد وتبدو بثلاثة أنواع من الحروف: رموز فكرة، مقطعي وصوتي-رمزي *phonogramme*.

كانت قراءة النصوص الحثية والأوراتية سهلة، لأنها كانت بالحروف الأكادية؛ لكنها كانت صعبة على الفهم، لأن العلماء كانوا يجهلون هاتين اللغتين. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر حاول العالم الانجليزي سايس قراءة وترجمة عدة نقوش أوراتية؛ فقد أقام عالم الأسلحة ك.كاتكوف لدراسة هذه اللغة وساعده عالم الآشوريات المعروف م.نكولوسكي والعالم السوفياتي ج.فلكشفيلي. وبدأ ب.هروزني بدراسة اللغة الحثية في أثناء الحرب العالمية الأولى؛ وفي العام ١٩٥٢، نشر ج.فريدرك اول قاموس حثي. والآن تحقق تقدم واسع في قراءة النصوص المسمارية. وبالتتابع حل أربعة علماء رموز الرُّقم الفينيقية لكتابة الأبجدية.

كانت الهيروغليفية الحثية صعبة على الفهم؛ لكن تنقيبات كارا-تيبي (في سيليسيا) التي جرت في العام ١٩٥٠ زودت العلماء بنقوش مزدوجة اللغة من القرن السابع قبل الميلاد، بحروف فينيقية وهيروغليفية حثية. وهكذا وضعت القاعدة اللغوية الضرورية لهذه الدراسة.

لم تحل رموز الكتابة الهيروغليفية للغة الهندية القديمة، التي اكتشفت آثارها في أثناء التنقيب في موهاندجر-دارو وهارابا. فضلا عن ضرورة بذل جهود كبرى أخرى من اجل لغات الشرق الباقية: تحديد القواعد، تأليف المعاجم، تحقيق صحة القراءة. فليس بدون

سبب يرى العلماء أنفسهم مضطرين باستمرار على تغيير تدوين أسماء العلـــم، التعـــابير، وتصحيح الترجمات الموجودة.

إن النصوص بلغات الشرق القديمة بالغة التنـــوع. يمكـن تصنيفـها فـي عينتيـن رئيسيتين: وثائق وأخبار. ينتسب للعينة الأولى قبل كل شـــيء القوانيـــن. عـدا التشـــريع العبراني، الملحق بالتوراة، يجهل علماء القرن التاسع عشر قوانين دول الشـــرق القديمـــة: ففي عامي ١٩٠١-١٩٠٢ اكتشفت شريعة حمورابي، ملك بابل. ثم، اغتنى العلم بشـــرائع أخرى (مقاطع متناثرة غير كاملة ولا مترابطة) من ملـــوك مـــابين النـــهرين، الحثييـــن، الآشوريين؛ وقد اكتشف حديثا في توما الجبل (هرموبولس القديمة) أجزاء مـــن الشـــريعة المصرية تخص الملكية، الإيجار والميراث.

تتألف أغلب المصادر الوثائقية من نصوص رسمية: علاقـــات الموظفيـــن، عنـــاوين الشراء، كتب العبادة، أعمال التبادل، عقود الإيجار، قرض وإيداع، إلخ. في أثناء التنقيـــب في مدن ما بين النهرين المنخفضة (شورباك، لاغاش، لارسا وغيرهـــا)، جمعـت مئـات آلاف الرقم الآجرية تحمل وثائق من هذا الشكل، التي تتيح -بسبب عددها ذاته- التغلغـــل في حياة البلاد الاقتصادية في الألفين الثالث ةوالثاني قبل الميـــلاد. واكتشـــف أرشـيفات مشابهة في مدينة كحوريت دي نوزي، في ماري، في مركـــز مقاطعـــة غـــانيز وغـــيره. وظهرت بعض الرقم في حفريات كارمير-بلور. وقد نشرت الرقم المسماة "الكنز"، أصـــول بيرسبولس، مصادر ثمينة لدراسة موضوع ما يزال مجهولا: وضع المنتجيـــن المباشـــرين في فارس القديمة. أما الوثائق المصرية، البردي أو الحجارة والصخـــور المنحوتـــة، فقـــد وصلتنا بعدد أقل بكثير من عدد الرقم الآجرية؛ فضلا عن أنها تعود إلـــى أيـــام السـيطرة الفارسية.

المكان الهام تحتله الوثيقة المسماة "اكتشاف حـــران"، لائحـــة بمواطـــن المعمريـــن الآشوريين في هذه المنطقة، بما فيها المواشي، الأعمال الهيدروليكية، والعبيد، إلخ.

تتضمن المصادر الوثائقية أخيرا رسائل الأشخاص المتميزين، الموظفيـــن والملـــوك، الواصلة إلينا بعدد كبير؛ أهم هذه المراسلات هي رسائل حمورابي، التي تعـــالج مختلـــف القضايا الاقتصادية، الإدارية والمالية. وثمة مجموعتان من الرسائل لها أهمية كبرى لفـــهم تاريخ السياسة الخارجية في الشرق الأدنى: أرشيفات ملوك ماري التي تجلو العلاقات بيـــن

بابل، بلد ماري، وآشور في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، والرسائل المسماة تل الحمارنة، المرسلة إلى الفراعنة آمنوفس الثالث وأخناتون (نهاية القرن الخامس عشر-بداية الرابع عشر قبل الميلاد) من المتنفذين السوريين وملوك آشور،بابل، ميتاني ودول أخرى. وجدت في مكان عاصمة أخناتون، التي تقع خرائبها قرب تل الحمارنة.

تشكل بعض النصوص التاريخية أهم المصادر الإخبارية. هي النقوش الموقوفة للحملات العسكرية، التي نحتها الفراعنة على جدران المعابد الخارجية؛ سير أو تراجم شخصية كاملة للملوك، مثل سيرة إيدريمي، ملك آلاش (القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، منقوشة على نصب؛ وقائع تاريخية تشبه واقعات الحثيين، تتحدث بالتفصيل عن النزاعات في السياسة الخارجية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

ونموذج آخر من المصادر، النصوص الادبية، الأخبار، الحكايات والخرافات التي تطلعنا ليس فقط على تاريخ الثقافة الروحية، إنما على العلاقات الاجتماعية أيضا.

هكذا، يمتلك العلماء الآن نصوصا متنوعة مكتوبة بعدة لغات شرقية. يزداد عدد هذه النصوص من عام إلى آخر. وهي المصادر الرئيسية لدراسة تاريخ الشرق.

دراسة تاريخ الشرق القديم

رغم الأعمال الحثيثة، منذ القرن الثامن وبداية التاسع عشر، لمباشرة دراسة تاريخ الشرق القديم، لم تتمكن هذه المحاولات أن تنجح؛ فنقص المصادر جعل الكتابات خيالية وسطحية. فقط تكديس المعطيات الأثرية وحل رموز الكتابة خولت العلماء في النصف الثاني من القرن الماضي الانتقال من المخططات النظرية إلى محاولة إعادة كتابة تاريخ مصر ومابين النهرين استنادا إلى معطيات ملموسة ومحددة. اكتفى بعض دارسي مصر وآشور بعامة بنشر النصوص والتعليق عليها، لكن في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت مؤلفات توليف جمعي لـ آد.إيرمن، ج.ماسبيرو وغيرهما.

في هذه الحقبة إذن انبعثت قضية العلاقات بين الحضارة المكتشفة وحضارات الشعوب القديمة الأخرى؛ أرادوا حلها بنظرية الوحدة البابلية، لواضعيها العالمين ف.ديليتزش وهـ.وينكلر. تتضمن هذه النظرية ولاشك فكرة صحيحة: بمقارنة الخرافات البابلية بالأساطير التوراتية (وفيما بعد، بعد اكتشاف شريعة حمورابي، الحق البابلي إلى

الحق العبري، استخلص ديليتزش ووينكلر أن التشريع والخرافات الـواردة فـي التـوراة ولدت بتأثير الثقافة البابلية، الأقدم جدا من العبرية. إنه استنتاج هام يساعد بخاصة في نقـد التوراة. لكن أنصار هذه النظرية (الوحدة البابلية) لم يقفوا عند هذه الملاحظـة الصحيحـة (بل الفريدة): إنما عمموها مدعين أن الحضارة الإنسانية كلها تأخذ جذرها من بابل، التـي كانت مهد الثقافة المصرية، اليونانية، الصينية وحتى البيرووية (نسبة إلى البيرو).

هكذا وصلوا إلى خلاصة خاطئة كليا ،وهي أن القيم الرئيسية للحضارة خلقت حتـى نقطة معينة (في بابل)، لتشع بالتالي في أنحاء العالم قاطبة.

ليس هذا كل شيء. بل على تخوم القرنين التاسع عشر والعشـرين، حينمـا كتـب وينكلر أعماله، لم تكن الثقافة القديمة السومرية قد كشفت بعد وكان العلماء يجـهلون ولادة الحضارة السومرية البابلية. لذا اتسمت الثقافة البابلية، كما يتصورهـا وينكلـر، بصبغـة أسطورية: وكأنها سابقة الوجود، انبعثت جاهزة في لحظة معينة، كما أثينا التـي خرجـت من رأس زيوس مسلحة.

وبعبارة أخرى، العيب الأساسي في نظرية الوحدة البابلية، هو جحودهـا الارتقـاء؛ الأمر هام جدا بالنسبة لنظرية ظهرت في ظل الامبريالية.

لقد انتقدها بعض العلماء البورجوازيين، في مقدمتهم إد.ماير، مؤلف تاريخ العصـور القديمة (١٨٨٤-١٩٠٢) في عدة مجلدات، الذي يتضمن فضلا عن الشرق الأدنى اليونـان وروما. استنادا إلى دراسة مصادر عديدة، يتضمن كتاب ماير الكثـير مـن الملاحظـات والخلاصات الهامة. كان المؤلف محقا في استقائه وجهة نظر التاريخ العام ليدلـل علـى طريق التطور الوحيد لشعوب العصور القديمة. لكنه أخطأ الدرب، لأنه عصـرن التـاريخ القديم، غير مبال بطبيعة مجتمعاته العبودية وقدمها كإقطاعية في الحقبة الأولى من عـهدها وكرأسمالية في الحقبة التالية. إن هذا التحليل اللا-تاريخي للنظام الاجتماعي لبلدان الشـرق القديمة اتبعه كثير من الباحثين، مثل ج.هـ.بريستد الذي يجد في تـاريخ مصـر، حقبـة التفكك الإقطاعي والاستبداد المستنير. ولقد عاشت نظرية الإقطاع الشرقي فـي العصـور القديمة حتى يومنا هذا وهي بادية في مؤلفات ل.ديلابورت "شعوب شرق البحر الأبيـض المتوسط" (١٩٤٨) وكتاب ي.درتون وج.فياندير "مصر" (١٩٥٢).

ثمة علماء في الغرب يتبنون التأريخ الفاشي، ويدرسون تاريخ الشرق القديم بـالروح

العرقية، ويقيمون من القبائل الهند-أوربية (الآرية) عرقا متفوقا، حامل التقدم، ومن جهة أخرى، ينادون بالملكية المستبدة باعتبارها خير الأنظمة.

يحاول آخرون بعفوية إعطاء دورة التاريخ تعليلا ماديا فتوصلوا، بدراسة ذات المصادر، إلى وعي خصائص ارتقاء مجتمع الشرق القديم أو نظامه السياسي. نذكر هنا ت.هـ.جاكوبسون الذي شكك، في كتابه المخصص للنظام السياسي لأولى الدول السومرية، بالنظرية الرجعية حول خلود الاستبداد الشرقي. ويهتم المؤرخون الأجانب الحاليون بحيوية بولادة الحضارة في الشرق؛ وأعمال المؤرخ الانكليزي ج.شيلد تعالج هذه المسألة. ويهتمون أكثر فأكثر بالبلدان الواقعة وراء "الشرق الكلاسيكي": الهند والصين.

لكن رغم النتائج القيمة، ورغم وفرة الوثائق، لم يستطع العلم البورجوازي المعاصر أن يؤلف التاريخ القديم للشرق؛ يشهد على ذلك المجلد الأول من "تاريخ الحضارات القديمة" المنشور في باريس ١٩٥٣، ومؤلفات مثل "تاريخ العالم" (بيرن، ١٩٥٢-١٩٥٦)، "شعوب وحضارات" (باريس، ١٩٣٦-١٩٥٣). والنظرة المثالية للعالم، المبالغة بدور الدين، إهمال قضايا العبودية، الملكية، المجتمع المجاور: الفعاليات الاجتماعية، الحفاظ على نظرية الركود، وغيرها من السمات النوعية لأغلب المؤلفات المعاصرة حول تاريخ الشرق.

تسلسل الأحداث (تاريخيا)

إن تسلسل الأحداث واحدة من أعقد قضايا تاريخ الشرق. فالشعوب الشرقية تؤرخ الأحداث استنادا إلى سني الملك أو غيرها من الظاهرات الطارئة (" السنة التي تلت تأسيس دورماتي")؛ فليس ثمة نقطة انطلاق عامة. ولتثبيت تسلسل الأحداث في الشرق تستخدم لوائح الملوك والأسر المالكة مع إشارة لمدة الملك؛ لوائح الملوك الآشوريين، مثلا كاملة وتتيح تدوين واقعات التاريخ الآشوري انطلاقا من العام ٩١١ قبل الميلاد. تستخدم وثائق مشابهة لتسلسل الأحداث في أزمنة غابرة. هكذا وضع مانيتون لائحة الأسر المالكة المصرية، وبردي تورين تعطي لائحة الفراعنة (مع ثغرات ضخمة، لغير هذا، وليس لتاريخ مصر كله). والعلماء أيضا لم ينجحوا بإعادة كتابة إلا تسلسل الأحداث النسبي (تتابع) أحداث الألف الثالث والثاني قبل الميلاد؛ وذكر الظاهرات الفلكية في النصوص

القديمة كانت تخول الباحث من تحديد تسلسل الأحداث المطلق لبعض الفترات التاريخية؛ لكن بخصوص الألفين الثالث والثاني لاتذكر منها سوى القليل. والتزامن الوارد في بعض الوثائق (منها رسائل تل الحمارنة) يذكر رجال السياسة المعاصرون وسبل تحقيق التواريخ.

ساهمت كل هذه العوامل لوضع التسلسل الحدثي العام الذي حدد، مثلا، ملك حمورابي في القرن الواحد والعشرين ،أو العشرين قبل الميلاد. لكن المراسلة الديلوماسية التي وجدت في ماري و"اللائحة الملكية كورساباد" التي نشرت في١٩٤٢-١٩٤٣ مكنت من مراجعة كل التسلسل الحدثي في الشرق. وكما دل و.ا.ف.البرايت، يجب "تقليصها" و،بخاصة، حكم حمورابي يعود إلى القرن الثامن عشر. أيدت هذه النتيجة الطبقية لما اكتشف في ألالاه وأوغاريت، التي تشهد على تشابه كبير بين فخاريات أيام حمورابي والقرن الخامس عشر قبل الميلاد. لايمكن قبل فارق ٥٠٠ عام، فضلا عن العثور على آثار من عهد حمورابي في طبقة أرضية أحدث من تلك التي حوت الأشياء المصرية من عهد أمينمحيت الثالث، وإن دراسة التقويم المصري حددت منذ زمن بعيد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

حتى اليوم لم تحل كل قضايا الخلاف حول تسلسل الأحداث في الشرق، وكثير من العلماء يفضلون على التسلسل "القصير" لأولبرايت التسلسل "الوسطي" الذي يطرحه س.سميث وأ.أنياد. لكن القول بثقة أن التسلسل "الطويل"، المعمول به قبل الحرب العالمية الثانية، فات زمانه. وستفضي مكتشفات جديدة إلى تحديد أكيد لتسلسل الأحداث في مابين النهرين ومصر.

لم يعد تسلسل أحداث البلدان الأخرى للألف الثاني (مملكة الحثيين، ميتاني، سوريا، إلخ) إعدادا مرضيا، وسيوضح في الأغلب بفضل التزامن مع تاريخ بابل ومصر.

الفصل السادس

ســـومر وأكـاد

جغرافيا مابين النهرين

إن وادي دجلة والفرات، الذي حمل الاسم الإغريقـي ميزبوتـامي ("بلـدان مـابين النهرين")، هو مهد الدول التي تعد بين الأقدم في العالم.

ينبع دجلة والفرات من جبال أرمينيا. في البداية، يكونان قريبين جداً من بعضهما، ثـم يتباعدان جداً ولايقتربان مرة اخرى إلا عند دخولهما أرض العراق الحالي. هنا يبدأ الوادي المسمى ميزوبوتامي. يقسم الوادي قسمين، الأعلى والأدنـى، يختلفـان فـي شـروطهما الطبيعية.

في الغرب، يتاخم ما بين النهرين أرض العرب على طول الوادي تقريباً؛ في الطرف الشمالي الغربي فقط، في القطع الأقرب إلى البحر الأبيض المتوسط، ينضاف إلـى وادي أورانت الخصب. في الشرق، على طول ميزوبوتامي، تنتصب جبـال زاغـروس التـي تفصلها عن إيران. يصب ميزوبوتامي في الخليج العربي. لعب هذا الوضع الجغرافي دوراً هاماً في تاريخ البلاد القديم. كانت الشعوب التي تقطنه في صراع مستمر مع القبائل الجبلية والسهبية الراغبة في ولوج الوادي الخصب واحتلاله. أما العلاقات التجارية والثقافية، كانت شعوب الميزوبوتامي تباشرها مبدئياً مع بلدان البحر الأبيض المتوسط (عن طريـق وادي الأورانت).

تتألف تربة الميزوبوتامي- الأسفل بخاصة من الطمي. من الألف الرابع حتى الألـف الأول قبل الميلاد، كان الشط الذي يحده الخليج العربي إلى الشمال مما هو عليـه الآن ب ٢٥٠ كم تقريباً، وكان لدجلة والفرات مصباتها الخاصة. في الأزمنة الغابرة، كانا يصبـان ولاشك في البحر في النقطة الأكثر تقارباً بينهما الآن. وتربة الطمي للميزوبوتامي الأسـفل خصبة جداً. لكن حراثتها تكلف الناس بذل جهود مضنية.

تتأتى الصعوبة أساساً من جفاف الصيف ، والاجتياحات التي يسببها الفيضان. فتفيض الأنهار على مساحة أرضية واسعة تبقى غارقة حتى شهر تموز. وأثناء الفيضان وبعده، حتى تشرين الثاني، يكون الطقس جميلاً، وتجف التربة بالتدريج، لكن بصورة غير منتظمة أبداً. في المناطق العالية، يتم الجفاف عاجلاً، وتقسو التربة كالحجر، وتتشقق؛ وفي المنخفضات، بالعكس، يتجمع الماء ويشكل أهواراً، مواطن للحميات. إن لم تحارب هذه الشروط السلبية يعاني الشعب الجوع والأمراض التي تهلكه. هذا مايكشفه لنا التاريخ الحديث والمعاصر للميزوبوتامي. لكن الجزء المنخفض من هذه المنطقة كان في العصور القديمة مناطق خصبة تغذي جماهير غفيرة؛ وفي ذلك العصر، كان عمل الأجيال العديدة قد خلق شبكة معقدة من المنشآت التي تنظم الفيضانات وتؤمن احتياطات من الماء من أجل الفصل الجاف.

كان فقدان المواد الأولية (الحجارة والمعادن)، بشكل تام تقريباً، وهو مالا غنى عنه لتطوير الاقتصاد، إحدى سمات هذه المنطقة. ومن حيث الشجر، لاينبت هنا سوى النخيل، ثماره غذاء، لكن خشبه ليس مادة بنائية. كان الغضار هو الثروة الوحيدة: يصنع منه الآجر، والأواني وحتى الرُقم للكتابة.

أما في الميزوبوتامي الأعلى، التربة والمناخ شيء آخر، فيضاناته أقل إيذاء. وحياته الاقتصادية أيضاً وأخلاقه مختلفة.

تشكل الطبقات والدول في الميزوبوتامي-الأسفل

أقدم قرية اكتشفت في الميزوبوتامي هي تل-حسون، في شمال البلاد: من العصر الحجري القديم والألف الخامس تحديداً. في هذه المنطقة سارع الناس نحو الزراعةالبدائية. وهنا أقام أوائل المزارعين والمدجنين. ويرى كثير من العلماء أن الناس انتقلوا من هنا في بداية الألف الرابع إلى ميزوبوتامي-الأسفل (سومر) وشرعوا يصلحون الأراضي السبخية في مجرى الفرات الأدنى.

لقد استقر الشعب السومري قديما على المرتفعات التي لاتصلها الفيضانات. كانوا يعيشون من الصيد، من الزراعة بالمنكاش، ومن تربية المواشي، و يصنعون الخزف الملون وأدوات نحاسية (الخطاطيف، السكاكين، إلخ). كان الناس يقطنون أكواخا من آجر وخيزران وكانوا أيضا يجهلون الفارق الاجتماعي والرزقي، كما تشهد وحدة شكل القبور

والمأتم. ونصب المرأة الآجرية المكتشفة، تجعلنا نقول أن عهد الأم في ســومر دام حتــى النصف الأول من الألف الرابع.

لقد وسعت منشآت الري كثيراً القوى المنتجة، لأنها أمنت سقاية الحقول بشكل منتظم، لمنع التربة من الانهيار والسبخية. وكانت المياه الزائدة تساق من الأمكنة المغمــورة نحــو مجمعات وغدران، وفي وقت الجفاف، يصل ماء التجمعات والأنهار نفسها إلــى الحقــول بالأقنية. ولاتقاء اجتياح الأراضي المنخفضة، تحاط بالسدود. بداية، كانت أعمال الري تتــم بمآزرة هذه المشاعة العشيرية أو تلك، لكن إنجازها على مدى واسع كان يتطلــب توحيــد جهود عدة تعاونيات.

لقد أفضى التطور اللاحق للقوى المنتجة إلى تفكك النظام المشاعي البدائي وإلى تشكل طبقات اجتماعية. فالأعمال الفنية في النصف الثاني من الألف الرابع تمثل معارك، مقـاتلين على العربات، واتخاذ أسرى. ثم ينحدر الأسرى إلى عبيد ويستخدم عملهم فــي اقتصــاد النبلاء أو في بناء منشآت للري.

ترافق هذا التقدم الاجتماعي الهام مع تبدلات ثقافية عميقة: ظـــهور الكتابــة (بدايــة نقشية)، بناء صروح دينية (معابد) من الطمي الغضار. ولقد وصلتنا من ذاك الزمن نقــوش عديدة تمثل مشاهد الصيد أو العبادة وأختام دائرية، الأولى في ميزوبوتــامي: يدحرجونــها على الآجر الطري حيث تترك بصمة تخدم مثلا كإشارة على الملكية الخاصة.

يربط مؤرخون بورجوازيون مثل سبيسر وباروت هذه التطورات الاقتصادية والثقافية بغزو عروق جديدة: وإلى هذا الزمن يرجعون غزو السومريين، الآتين من الخارج، حاملين الكتابة، النقش أو الحفر والأختام وفق البناء الدقيق والجميل. إن هذه النظرية التــي تنكــر ،إجمالا، فكرة الارتقاء التقدمي وتقيم مقامه تقدم هجرة شعب ما هجرها بعض الأخصــائيين الغربيين بخاصة فرانكورت وشيلد اللذين أثبتا وجود استمرارية بين الســكان الزراعييــن البدائيين لميزوبوتامي الأسفل وسومري النصف الثاني من الألف الرابع. لذا يدعــو شــيلد سكان هذه المنطقة الأقدمين قبائل جدود السومريين.

تظهر طبقية المجتمع ثابتة في الحفريات التي كشفت مدينة الأموات الملكية فــي أور، في جنوب سومر (بداية الألف الثالث). بخلاف قبور العشير. كانت مدينة الأمــوات هــذه مبنية بالآجر، مؤلفة من عدة غرف؛ والميت المزدان بالحلي كان مدفونا مع عربات مقرونة

إلى ثيران، ومحاربين مسلحين، وفصيل من العبيد من الجنسين. وقبور الملـــوك فـــي أور (ومراكز أخرى من ميزوبوتامي، مثل كيش وماري) تشهد على تشكل الدولة في هذه البلاد في بداية الألف الثالث.

في الأصل، تشكلت هنا دول مستقلة (أريدو، أور، شوروباك، أوما، لاغاش، ليـــش، ماري، إلخ)، كان سكانها غير متجانسين: أكاد، الواقعة في شمال سومر، والمجرى الأوسط للفرات تسكنهما قبائل تختلف عن السومريين، من حيث الشكل واللغة. تتكلمان لغة ســامية (الأكادية) وتقرب قبائل السهوب التي تعيش في غرب ميزوبوتامي؛ لاشك في أن ســـامي أكاد أتوا من الغرب.

مع ذلك، لم يكن السومريون والاكاديون في بداية الألف الثالثـــتيختلفون مـــن حيـــث مستوى التطور الاقتصادي: كان الشعبان يشكلان دولا عبودية في محطتها الأولى.

اقتصاد ومجتمع سومر وأكاد

إن نصوصا عديدة رسمية (آتية بخاصة من أرشيفات شـــوروباك ولاغـــاش تطلعنـــا بالتفصيل على اقتصاد ميزوبوتامي في منتصف الألف الثالث. أساس الزراعة يقوم علـــى الري، شبكة واسعة من الأقنية، السدود والحراجز التي تتيح سقاية منتظمة للحقول. ويتـــم العمل بالأرض بواسطة محراث بسيط من الخشب، تجره الحمير أو الثيران؛ وكان المنكاش مستخدما بتوسع. والمنجل منشار من صوان بغمد آجري. يقطع ساق القمح بعامـــة تحـــت السنبلة تماما، وبعد الحصاد تجلب الماشية إلى الحقول. لدرس السنابل، تدوسها على البيـــدر الثيران والحمير. يجمع الحب في أكوام، يذرى بالمذراة وينقل إلى الاهراء. ثم يـــهرس أو يسحق بالحجر.

كانت الحبوب الأكثر انتشارا هي الشعير والحنطة الرومية التي تستخدم لصنع الخـــبز والجعة. وكان السومريون يزرعون الكتان، العدس والسمسم لاستخراج الزيت. والشـــجرة المثمرة الأهم هي النخيل؛ من خشبها تصنع الأوعية المنزلية، وبأليافها –الحبال والحصـــر؛ تشكل ثمارها أغذية منوعة. وبذورها المنقوعة بالماء تستخدم علفا. وتـــأتي الكرمـــة مـــن سومر، وكان خمر الشمال هاما بشكل عام.

كانت تربة المواشي أيضا متطورة في ميزوبوتامي السفلى: فالنصوص الأقدم تذكـــر وفرة الغنم. ترعى المواشي في المراعي المستنقعية والجبليـــة؛ وفـــي الزرائـــب، تغـــذى

بالحبوب. وتعطي الأبقار اللحم والحليب الذي يصنعون منه الزبدة والجبن؛ وتربى الخراف للحمها وصوفها؛ وكما قلنا آنفا، تستخدم الحمير والثيران دابة ركوب. لم يعرف السومريون الحصان. أخيرا، لعبت تربية البط والحبش دورا واسعا.

ينتج من هذا أن الأشكال القديمة بحثا عن الغذاء -الصيد والقنص- تراجعت إلى المقام الثاني، رغم أن جمهرة من الميزوبوتاميين استمرت في العيش على الصيد.

بقيت الأدوات حتى الألف الثالث بدائية جدا: أغلبها من الحجر والآجر، كان النحاس قد ظهر منذ الألف الرابع، لكنهم لم يتعلموا صنع البرونز إلا في النصف الثاني من الألف الثالث. بالمقابل، كان الفخار السومري، الحرفي حتما، يستخدم في صنع الأواني والأوعية المشوية. وكان النجارون يعرفون صناعة العربات والقوارب، ويطرق صناع السلاح الخناجر والسهام. والثياب منسوجة من الصوف والكتان، وأسلحة الوقاية هي من جلد. ويتقن الجواهريون صناعة الحلي من الذهب والفضة والحجارة الثمينة.

تقنية بناء المسكن بدائية تماما: البيوت البسيطة من الغضار والخيزران، وتشاد المعابد والقصور فقط من الآجر الغريني. تزدان هذه الصروح بنقوش قليلة البروز استمدت عناصرها من الأسطورة والتاريخ.

طبعا، لم يكن الحرفي منعزلا أبدا عن الزراعة وتجهيز الإنتاج البضاعي. على ذلك، ومنذ الألف الثالث، يستورد السومريون من بعيد المعدن والصخور أو الحجارة، وخشب الأرز والخمر. كانت طرق المواصلات الرئيسية هي الفرات ودجلة وكذلك الأقنية الواسعة الفاصلة بينها. وتنقل كل الأحمال على ظهور الحمير.

والشكل الاستثماري الأقدم، الناجم عن التطور الكبير بقوى الإنتاج، هو استغلال عمل العبيد. وحسب إحصائيات (تقريبية جدا طبعا) لـ أ.دياكونوف، كان عبيد لاغاش يشكلون نصف السكان، في أواسط الألف الثالث، وعدد النساء يتجاوز عدد الرجال. كانت المصادر الرئيسية للعبودية الحروب وشراء العبيد من البلدان المجاورة (بعامة قليلة العدد)؛ واستثناء، كانوا يشترون الفتيان. وتحول الناس المدنيين الأحرار إلى عبيد، لم يكن في البدء موجودا: أشير إلى هذا الأمر لأول مرة في وثائق القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

كانت العبودية في سومر وأكاد ذات طبيعة أبوية: لايحتل العبيد حيزا خاصا بهم في الإنتاج ويعملون بالتساوي مع الناس الأحرار، وغالبا في عمل واحد. كان كدحهم مستغلا

في المنزل؛ ويرسلون أيضا لبناء منشآت الري، وإلى حراثة أرض البقول وبساتين الثمار؛ كان ثمة عبيد رعاة وعبيد حصادين.ويخصص عدد كبير منهم للمعابد وحكام المدن، وكان الأعيان يمتلكون عبيدا أيضا.

تتألف جمهرة السكان من مالكين عقاريين، وأعضاء المشاعة. ولقد ولدت مشاعة الجوار السومرية الأكادية عند تطور الزراعة المروية: كان التنظيم الاقتصادي العادي في ميزوبوتامي السفلى يرتبط بالتوزيع المنتظم للماء. كانت مشاعة الجوار إذن شديدة الاهتمام بان تبقي بين يديها الملكية العليا لمصادر الماء –قطاعات الأنهار والأقنية، أكثر من اهتمامها بالإدارة العليا للأرض. وفي الوقت ذاته، كان إنشاء منشآت الري، فتح وإغلاق السدود، تنظيف الأقنية –كان كل هذا يعضد المشاعة، لأنه يفرض التعاون البسيط، العمل المتكاتف بين أعضائها: وكانت هذه الاهتمامات تتطلب الإنجاز بوقت قصير وتحتم توافر جهود مئات الأيدي. والدور المهيمن لملكية الماء في ميزبوتامي السفلى سمح بتسمية مشاعة السومريين–الأكاديين مشاعة المياه والأراضي.

كانت مشاعة المياه والأراضي تضم عائلات كبيرة وصغيرة؛ وكانت هذه العائلات دوما ذات طبيعة أبوية، تحددها هيمنة الزراعة بسكة حديدية للمحراث وتربية الدواجن، رغم نفوذ الكثير من بقايا عهد الأمومة، بخاصة في جنوب البلاد. كانت المواشي والأراضي ملكية خاصة للأسر الصغيرة، لكن الأسرة الكبيرة كالمشاعة لها حقوق واسعة تحدد حقوق المالكين. يتضح هذا في عقود الشراء في شوروباك (القرن السادس عشر والرابع قبل الميلاد). فحسب هذه العقود يبيع الأرض عدد من الشركاء المشايعين، بينما يتلقى ذووهم (أ, جوارهم) هدايا لقاء خسارتهم حقوق تملكهم الأرض المباعة. تطلق عليهم الوثائق التعبير المعبر "آكل–مساهم بالسعر". وعرفت أيضا انتقالات حيث تبيع الأسرة الكبيرة مشاعة الجوار الأرض: بدون شك، كان جزء من الأرض يخص مشاعة الجوار والأسر الكبيرة.

لم تكن إعادة توزيع الأرض، المواشي والأرزاق الأخرى بين أعضاء المشاعة عادلة: كان نبلاء الدم يمتلكون أراضي واسعة تبلغ ١٠٠–٣٠٠ هكتارا. وكانت ملكية الأشراف تبقى في يد العائلات الكبرى. وكان النبلاء بالولادة يعملون على دعم تقاليد نظام العشير في المرحلة الأخيرة، ويستند نفوذهم غالبا إلى الحفاظ على علاقات الأسر الكبيرة والعشير.

وكان النبلاء يشغلون في أراضيهم ليس العبيد فقط، بل أيضا ذويهم الذين كـانوا أحـرارا وافتقروا.

كانت ملكية المعابد تحتل مكانا هاما في اقتصاد البلاد: حوالي منتصف الألف الثـالث، كانت المعابد في لاغاش تمتلك نصف أراضي المملكة المحروثة. تتكون سيادة الاكلـيروس من النبلاء، وتفيد ملكية المعابد إذن في دعم سلطة النبلاء بالولادة.

كانت أملاك المعابد تستغل بطريقتين: يؤجر قسم إلى مزارعين أحرار، يتلقون غالبـا أيضا المواشي وحبوب البذار ويؤدون لقاء التمتع بهذه الأرض جزءا من محصولها؛ وكـان القسم الثاني، الموضوع تحت رقابة المعبد المباشرة، يحرثه العبيد ومزارعـون أحـرار، يتوجب عليهم تسليم كل الموسم إلى أهراء المعبد ويستلمون حبوبا لقـاء تعبـهم وأحيانـا منتوجات أخرى.

يضم جهاز المعبد، عدا الكادحين، حرفيين، كتابا، مرتلين، وسواهم. ويوظف رهطـا يشكل جزءا هاما من مرتزقة الدولة. لاتنفصل الأراضي المؤجرة للخدم، كونـها أمـلاك معبد، لكن العلاقات الأبوية، وهي دوما في خدمة مشاعات الجـوار، قـد فقـدت دورهـا الرئيسي هنا.

يتمتع كبار القسس أيضا بأراض واسعة إلى هذا الحد أو ذاك، يحرثها عبيد، رجـال أحرار ومأجورون ومزارعون. ويسلب النبلاء حصة الذئب من مردود تربيـة المواشـي ويتلقون حصصا ضخمة مما يعتبر احتياط المعبد.

النظام السياسي لسومر وأكاد

في منتصف الألف الثالث كان في ميزوبوتامي كثير من الدول الصغـرى المسـتقلة. لاتتجاوز مساحة إحداها، المسماة لاغاش، (بما فيها الأراضي غير المروية)، ٣٠٠٠كـم٢ وتضم دستة محلات هامة إلى هذا الحد أو ذاك، محاطة بأسوار، وعدد الناس الإجمالي ليس أكثر من ١٥٠٠٠٠ إنسان. وفيها ٢٠ معبدا ومحرما، وقفا على عدة مقدسات.

على رأس الدولة عاهل يسمى باتيزي (يقرأ بعض العلماء هـذه الكلمـة السـومرية "أنزي"، وأحيانا لوغال (السيد:بالمعنى الأدبي). بشكل عام، يجب اختيار هذا الباتيزي مـن أسرة شهيرة، بحيث يكون خلفه أحد أبنائه. كان يمارس مهام الكاهن الأكبر ويمثل الآلهـة؛ يقود مرتزقة المعبد، يحكم اقتصاد المعبد، أهمها أعمال البناء والري. بداية، كـان يعتـبر

الملك-الكاهن، وأيضا عادة القتيل أو المصير الشعائري للملك، المرتبط بهذه الفكرة، التي عاشت طويلا في ما بين النهرين، لاتتبدى إلا بشكل"طهارة" دورية للشخص الملكي.

في منتصف الألف الثالث لم يكن الباتيزي بعد هو المالك الأعلى لكل أراضي الدولة. وأحيانا كان ملوك سومر وأكاد يشترون أراض من الأسر الكبرى أو المشاعات المجاورة. ولايسمح للباتيزي أن يتصرف بأملاك المعابد.

في المدن، كان يوجد جمعيات شعبية ومجالس شيوخ، تتولى الحقوق الفعلية: تنتخب (وتقيل ربما) العاهل، تحقق العدالة، تتخذ التدابير الإدارية، تناقش مع الباتيزي المسائل السياسية الأساسية (إعلان الحرب، مثلا)، يقبلون مواطنين جددا في المشاعة، تدير الأملاك العامة، إلخ. ومن مجلس الشيوخ يسمى ممثلو الإدارة، مثل مرعى المشاعة.

كان الجيش ما يزال منظمة شعبية: كان جنوده بنفس الوقت حراثا، رعاة، مزارعين في أرض المعابد. كل هذا يخولنا أن نؤكد استمرار مظاهر هامة من الديموقراطية العسكرية في الميزوبوتامي السفلى-على الأقل حتى منتصف الألف الثالث.

من جهة أخرى، بزغت خصائص سياسية جديدة: ظهرت وظيفة إدارة المعابد، التي يديرها الموظف، الذي يصدر توجيهاته لفصيل من الكتاب؛ وتشكل حرس خاص للبلتيزي. كل هذا النهج، المرتبط مباشرة بالباتيزي، يختلف جذريا عن تقاليد الديموقراطية العسكرية.

لقد أثارت الحاجة للاستفادة الحكيمة من شبكة الري، وحصر العلاقات الاقتصادية بين المناطق التوجه إلى توحيد سومر سياسيا. وشددت ضرورة تعميق السلطة على العبيد هذه الحركة المركزية. ادعت بعض الدول المسيطرة ونجحت بضم أراض واسعة. وبدأ ملك كيش أور هذا الدور، لكن ايناتوم، عاهل لاغاش (القرن الخامس عشر)، نجح في دحر هذين الخصمين وبسط سيطرته حتى حدود ماري. غير أن هذه الإلحاقات لم تكن مستقرة.

الصراع الاجتماعي في سومر وأكاد

لقد ترافق تشكل الطبقات والدول فيما بين النهرين الأسفل طبعا بنضال ضار بين العبيد والسادة، بين الناس الفقراء ونبلاء الدم. وبالعنف والاضطهاد مورست السيطرة على العبيد المزارعين، الهيمنة التي تثير غضب ومقاومة المنتجين المباشرين. أخيرا، كانت نبالة الدم القديمة، المستقوية بأرزاقها الشاسعة وبموقعها المتميز في المعابد، تناقض وتعارض الارستقراطية الحديثة، الناشئة من غزوات القتال والإدارة. للأسف، المصادر التاريخية

لاتقول شيئا هاما في هذا المجال.

إن أحد النصوص التي تعكس بحيوية النضال بين الشرائح الاجتماعية في لاغاش هو نقش الملك أوروكاجينا. نقرأ في هذا النص أن سلفه، الباتيزي لوغالندا، آذى حقوق المشاعات لصالح "المتنفذين"، مزق "قرارات الماضي"، أقام رقباء في كل مشاعات لاغاش، الذين فرض عليهم ضرائب تعسفية لمصلحته ومصلحة كهنته. وهؤلاء الرقباء، غير المكتفين بالضرائب، راحوا ببساطة ينهبون الناس. انتزعوا من الفلاحين مواشيهم، طيورهم، الأواني النحاسية، الألبسة، خيرة الأشجار وأطيب الثمار، ويطلبون أسعارا باهظة لدفن موتاهم أو إقامة المآتم أو الولائم. ويصادر الباتيزي ورجاله صوف أجمل الخراف البيضاء ، ويفرضون على الخراف الأخرى فريضة خمسة شيكلات من الفضة لكل رأس؛ويدخلون أيضا حقوق الجمارك على الوثائق والأعمال القضائية. ولدى مجيئه (حوالي ٢٣٧٠ قبل الميلاد) أعاد اوركاجينا ضوابط الضرائب القديمة، منع الابتزاز ودفع المال، وعزل المراقبين من المشاعات. وكان يزدهي، في نصه المنقوش، بأنه "أرسى الحرية". لكن النبلاء حافظوا، حتى بعد هذه الإصلاحات، على سلطة واسعة اقتصادية لم يستطع الباتيزي أن يلغيها. واستمر تفكك مشاعية الجوار. وبعيدئذ، فقدت لاغاش استقلالها. وجدد باتيزي أوما ولوغالجيزي الصراع ضد أوركاجينا، مستفيدا من الاضطرابات التي نشبت في هذه الدولة، هزم جيشها وألحق لاغاش. جعله هذا النصر قويا ليخضع مؤقتا كل سومر. وجعل مدينة أوروك القديمة عاصمة لدولته.

ميزوبوتامي تحت حكم ملوك أكاد

في غضون ذلك، صار عواهل أكاد عتاة أقوياء في شمال البلاد. كانت مدينة أكاد واقعة بين الفرات ودجلة، في نقطة اقتراب النهرين من بعضهما كثيراً. وليس بعيداً منها، على الفرات، كانت مدينة سيبار، مع معبد إله-الشمس شاماش، الذي شيده السومريون لكن الساميين احتلوها ووسعوها؛ وعلى دجلة بنوا مركزاً هاماً، أوبيس. وفي جنوب سيبار، أيضاً على الفرات، أنشئت كيش، أقدم مدينة في ميزوبوتامي. وبين دجلة والفرات، وجد معبر قوافل في غربه طرق أرابيا وفي الشرق الطرق الواصلة إلى جبال زاغروس. ويقدم موقع أكاد المركزي مكسباً كبيراً لملكها، مكنه من احتلال أراضٍ تقع بين سيبار وأبيس. وكان سارغون، ملك أكاد أول من نجح هنا حوالي ٢٣٦٩ قبل الميلاد.

لم يكن سارغون من سلالة باتيزي أكاد؛ فأسس أسرة جديدة. غير معروف بالضبط

ظروف وصوله إلى السلطة. بل كباقي قادة العصور القديمة، استوحى خرافـات يصعب إرجاع بذورها إلى التاريخ.

اعتمد سارغون بعد وصوله إلى حكم أكاد على الجيش: خلق جحفلا من ٥٤٠٠ مقاتل محترف. وبينما كانت ميليشيا المعابد السومرية المؤلفة من جنود ثقيلي السـلاح، يقـاتلون بأرتال متراصة ويرمون الأعداء بحراب طويلة، كان الدور الأول في جيش سارغون يعود إلى السهام ورماتها. كان أكثرها محروما من ملكية الأرض، قطعوا صلاتـهم بمشـاعاتهم وصاروا رصيدا للملك.

في هذه الحقبة، نضجت ميزوبوتامي السفلى لتبني المركزة. فبدونـها، لـن يتيسـر التطور للاقتصاد المبني على لاري؛ فالاقتصاد معوق بحدود الدولة الصغرى التي تملك كل منها قطعا مختلفة القياس والمساحة. أخيرا، كان توسع العبودية يفرض منظمـة سياسـية قادرة لتأخذ في قبضتها الصارمة شرائح العبيد.

بدأ سارغون توحيد أكاد. فبعد أن صار ملك كيش ورئيسا لكل الدول الأكادية، شـهد هجمات موفقة على الجنوب. انتصر على لوغالزاجيزي، استولى على أور ولاغاش، بلـغ الشط وأخضع جنوب البحر كله. فتحت سلطة سارغون وأتباعه خلقت أول مملكة موحـدة في ميزوبوتامي.

اشتد ساعد أكاد بشكل فريد في أيام حفيد سـارغون، نارامسـين (القـرن الثـالث والعشرون قبل الميلاد)، الذي لقب بـ"ملك أقطار العالم الأربعة". أخضع منطقـة مـاري وقبائل جبال زاغروس ومدن عيلام. وفي الشمال، بلغت قواته جبال أرمينيا.

بدأ ملوك أكاد أعمالا إنشائية ضخمة؛ أعاد سارغون بناء كيش، احتل قصـر أكـاد، وبنى عدة معابد. وأخذت أعمال الري بعدها الأوسع: بخاصة، حفرت قناة وصلـت دجلـة بالفرات. فتأزم وضع المشاعات التي أكره أفرادها على المشاركة بأعمال القصر؛ بنفـس الوقت، وسع ملوك أكاد حقولهم، بإلزام المشاعات ببيع أراضيها. فقد عثر على نقش أكـادي يتحدث عن شراء أراضي الناس من قبل الملوك؛ كانت الأراضي مقسمة إلى أسهم واسـعة تقيس حتى ٢٠٠٠ هكتار. ورغم أن البيع قرر في الجمعية الشهبية (ذكر هذا فـي النقـش الملكي)، كان سعر الشراء (من الحبوب، النقود، الثياب، العبيد، إلخ)، يدفـع إلـى عميـد العشائر وقرابته.

لقد أثار توسع الأعباء، احتكار أراضي المشاعات، وأخيرا، حروب الغزو الضاريـة،

نقمة الشعب. ثمة مصادر، أحدث، تتحدث عن عصيانين نشبا في نهاية مُلــك ســارغون. وكانت انتفاضة هامة في أيام نارامسين. قاد الانتفاضة النبـــلاء الذيــن خشــوا اســتيلاء الأرستقراطية الجديدة العسكرية والإدارية، مدعومة من السلطة الملكية في أكـــاد، وأبــدوا غضبهم من اتساع الأملاك الملكية على حساب المدن والمعابد. واصطـــدم الملــك أيضـــا بمقاومة الحكام السومريين، المعادين لمركزة دولة كهذه.

كبح نارامسين كل التمردات، لكن أتباعه لن ينجحوا بالحفــاظ علــى وحــدة مملكــة "الأقطار الأربعة"؛ وإلى الاضطرابات السياسية الداخلية، أضيف التهديد الأجنبي. وحوالــي العام ٢٢٠٠، هوجمت أكاد وسومر من قبل *LesGouti*، الــذي ســماهم الميزوبوتــاميون "أبالسة الجبال". سحق الغوتي مملكة أكاد، استباحوا مدنها (بخاصة مدن الشمال)، وفرضــوا على الناس ضريبة باهظة. كانت معاناة مدن الجنوب السومرية أخف لأنهم عرفوا كيـــف يحافظون على استقلالهم. قادوا النضال ضد الغوتي، هزموهم ودحروهم من البلاد. وبعـــد زمن، توحدت سومر وأكاد من جديد، بزعامة أور هذه المرة.

زعامة أور (٢١١٨-٢٠٠٧ق.م)

سمي ملوك أور الذين وحدوا تحت سلطتهم ميزوبوتامي-السفلى "ملوك سومر وأكاد"؛ ثم سموا أسرة أور الثالثة. كان أشهرهم شولجي، الذي حكم قرابة خمسين عامـــا. ونجـــح باخضاع آشور (على دجلة) وحقق عدة انتصارات على محاربي عيلام.

في أيام أسرة أور الثالثة، استمرت الزراعة المرويـــــة والمــــهن بـــالتطور؛ أصلـــح السومريون والأكاديون مساحات واسعة من الأرض على طول مجرى دجلـــة، لـــم تكـــن تغمرها الفيضانات: أقاموا تقنيات نوعية لرفع الماء إلى مستوى "الحقول العالية".

مارسوا الزراعة بالسكة الحديد في كل مكان؛ فعوض المحراث البسيط الذي لايتجاوز "هرش" التربة، استخدمت سكة الحديد التي تقلب التربة؛ وعوض الحمير، قرنوا الثـــيران. وأصلحت سومر الكثير من الحقول لزراعة النخيل وفي أكاد غرسوا الكروم.

تشير نصوص عديدة من الألف الثالث إلى ورشات البرونز، الفخار، النجارة الدقيقـة، النسيج ومستودعات المعادن، الصوف، الخشب، إلخ. ووسع ارتقـــاء الزراعـــة والمـــهن والإنتاج البضاعي ومتن العلاقات بين مختلف مناطق البلاد.

خلق التطور الاقتصادي في نهاية الألف الثالث تيارين للتقدم الاقتصادي والاجتماعي. قبل كل شيءـــ تدعمت الملكية الخاصة للأرض، في الحقول العالية والتي تسقى طبيعيـــا.

وراحت الملكيات العامة تنتقل شيئا فشيئا إلى أيدي الأسر الصغيرة والكبيرة، الأمر الـــذي أفضى إلى فوارق الثروة. وفقد كثير من الناس أرضهم وصـــاروا أجــراء أو مزارعيــن صغارا يعملون في حقول المالكين الكبار ويباعون أحيانا كعبيد يؤمن لهم الحد الأدنى مـــن الغذاء واللباس ، ويحدد حجم الأعمال.

تفاقم تطور الربا الناجم عن اتساع الإنتاج السلعي، وضع النـــاس الأحــرار؛ فــراح المقرضون(بخاصة الرهبان والراهبات) يضاربون على المراعي، الحقـــول، والبيــوت، يقرضون الفقراء الحبوب، المال، الآجر، بربا فاحش؛ فيتحول المدين العاجز إلى الخدمـــة: يعمل عندهم هو أو ذووه.

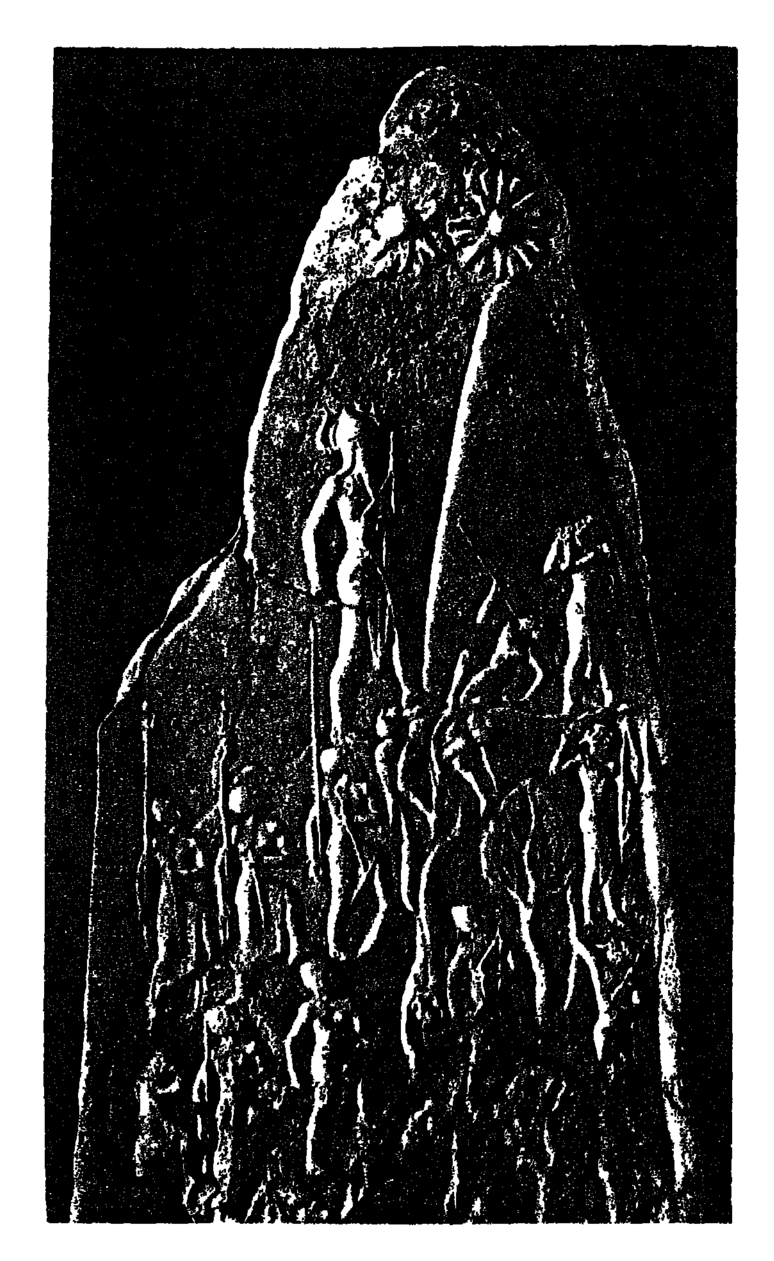
كرس تشريع أسرة أور الثالثة تطور الملكية الفردية. والتيار الآخر هو ترسيخ اقتصاد القصر. واستمراراً لسياسة أسلافهم احتل ملوك الأسرة الثالثة أراضي المعابد وأخضعوهـــا كلياً لإرادتهم. وألحق العاهل عدداً كبيراً من أرزاق المشاعة. وجعلها ملكيات كبرى تعمـــل فيها جمهرة من النساء العبيد والـــ"غوروشي". كان الغروشي (الأسرى وأبناء البلد) يعملون في المجال الملكي طيلة العام، فتعزلهم وسائل إنتاجهم.

عدا الغروشي، كان القصر يستخدم، بخاصة أثناء الحصاد، جمهرة مياومين أحراراً.

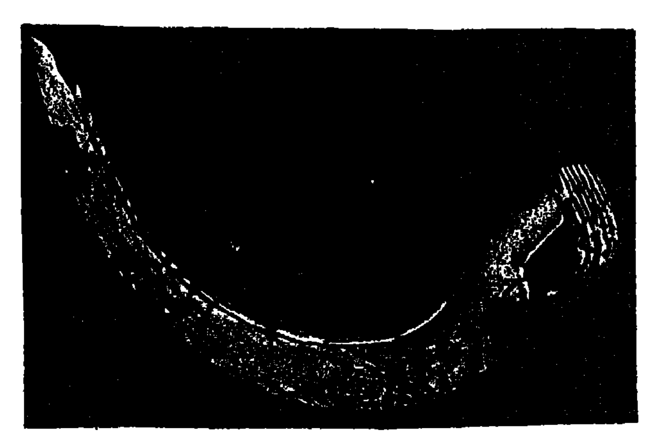
وكان الغروشي، والنساء العبيد يخدمون في ورشات الملك.

إن توطيد الاقتصاد الملكي ، وملكية الملك العقارية ساهمت بمركزة البلـــد سياســياً. كانت سلطة الحكام في مدن سومر وأكاد عملياً باطلة: إذ لم يكونـــوا إلا موظفيـــن يعينـــهم ويسرحهم عاهلم؛ وهكذا أطلقت طلقة الرحمة على ســـلالات النبالـــة القديمـــة. ولإرســـاء سلطتهم، أله ملوك أسرة أور الثالثة أنفسهم: وشلغي وابنه أعلنا إلهين. والأعمال الفنية لتلـك الحقبة تقدم غالباً الآلهة يسلمون إمارات السلطة الملكية وشعاراتها إلى عاهل سومر وأكاد.

لكن الاتساع غير المحدود للاقتصاد الملكي، حوّل العمال الأحـــرار إلـــى غروشـــي محرومين من كل الحقوق، وطور الربا والخدمة لقاء الدين، كل هذا كان يضعف المملكـــة. كان خلفاء شولغي يصدون بصعوبة قصوى ضغط الجوار: كانت عيـــلام التـــي مـــاتزال تعترف بسلطة ملوك أور، قد استعادت استقلالها وانتقلت إلى الهجوم؛ وفي الغرب، تغلغلت في البلاد قبائل رحّل من الصحراء السورية، كانوا يتكلمون إحـــدى اللـــهجات الســامية، العمورية. وفي العام ٢٠٠٧ هدم العيلاميون المدن السومرية وسجنوا آخر ملوك الأســـرة. ثم أسس العموريون في مدن أكاد وسومر عدة أسر مستقلة.



مسلة لانتصار نارامسين من القرن ٢٣ ق.م



منجل يده من خشب ونصله من الصوان



إنينا إلهة الخصب

الفصل السابع

بـــابـــل

تأسيس الامبراطورية البابلية

بعد سقوط أسرة أور الثالثة، أقام العموريون في ميزوبوتامي-السفلى. وأسسوا فيها مملكتين، بعاصمتين هما :إيزن ولارسا. ثمة وثيقة تلفت الانتباه من السلطة الملكية في إيزن هي القانون الذي كتبه ليبيتشتار، باللغة السومرية. وإلى الشمال قليلا، وجدت دولة ماري وآشنوناك. كانت هذه الدول تتحارب من أجل السيطرة فيميزوبوتامي السفلى والوسطى. ولم يحقق أحد مشاريعه: وحد جزء واسع من البلاد على يد عاهل بابل، المملكة الصغيرة العمورية، التي أسست في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. أفاد ملوك بابل من موقع هذه المدينة المناسب، المبنية عند نقطة اقتراب دجلة والفرات من بعضهما، عند تقاطع الطرق التجارية للشرق الأوسط؛ فضلا عن دعم الوضع السياسي لملوك بابل: كانت ماري وآشنوناك قد ضعفتا جراء الصراع ضد آشور التي كانت سطوتها تتسع، بينما كانت لارسا تواجه ضغط العيلاميين حتى احتلتها إحدى أسرهم بدورها (نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد).

إن حقبة وجود امبراطورية بابل القديمة (١٨٩٤-١٥٩٥ق.م) هي فصل هام من تاريخ ميزوبوتامي. تشكلت هذه الجنسية البابلية وكذلك حضارة بابل، التي امتصت كل ماكان أنجز سابقا في ميزوبوتامي. ومدينة صغيرة لاشأن لها في عهد أوائل الملوك العموريين، صارت بابل مركزا هاما تجاريا، سياسيا وثقافيا، وحافظت على دورها حتى العهد الهليني، رغم الثانيات والعداوات.

لم تتم وحدة ميزوبوتامي تحت سلطة بابل إلا بعد صراع دام مائة عام وفي أيام الملك السادس للأسرة، الشهير حمورابي. كان الهم الأول لملوك بابل هو دحر الإمارات العمورية الأخرى المحتلة من مراكز أكادية ضخمة.

أنجز حمورابي الوحدة في منتصف القرن الثامن عشر. بدأ بضم المدن السومرية أوروك وإيزن. لكن جنوب سومر بقيت تحت سيطرة العيلامي ريمسين. وفي الشمال كانت السلطة البابلية غير مستقرة، رغم اتحاد حمورابي وملك ماري زيمريلين. لم تكن الظروف لصالح بابل. أخيرا، وبعد أن دحر مملكة أنوناك وصان الحدود الشمالية في ثلاثينات حكمه الأولى، تصدى حمورابي لريمسين في العام التالي ووحد كل الجنوب. وخوفا من سطوة بابل القادمة، تخلى زيمريلين عن مواجهته. وبينما كان حمورابي يشن حملة ضده، احتل ونهب مدينة ماري.

ثم تابع تقدمه نحو الشمال وأخضع مملكة أشور الصغيرة.

خلقت هذه الظروف امبراطورية بابلية مستبدة مركزية. لأنها وحدتها. وقد نجم تلازمها عن عوامل عديدة.

أضعف ملوك أور نبلاء سومر وأكاد، لكن العموريين والعيلامين قضوا عليهم نهائياً. لم يعد أمام ملوك بابل إلا القبائل العمورية والمشاعات الحضرية والزراعية لسومر وأكاد، التي يسهل حكمها ضمن المناطق، أو الأقاليم التي يديرها موظفون ملكيون.

لم تعانِ أكاد، وهي القطر الزراعي الرئيسي في ظل سارغون، ماعاناه الجنوب السومري من الاحتلال. كان الاحتلال العموري تسرباً تدريجياً. وكان شعب أكاد قريب المحتلين، يتكلم لغة يفهمونها، يبجل نفس المقدسات، وذا عادات مشابهة. فكانت سومر، المدمرة، رزقاً وشعباً، تابعة تماماً لاقتصاد أكاد.

أفاد ملوك بابل من الخبرة الإدارية والسياسية التي كونها ملوك أسرة أور الثالثة وملوك إيزن ولارسا. تحقق هذا بوضوح فريد فيما يخص الحق. فقانون حمورابي عكس كثيراً من شريعة ليبيتشتار؛ نصوص البيع والشراء والدين حافظت على الصيغ والعبارات السومرية. على ذلك، أوجدت شريعة حمورابي مؤسسات جديدة.

خلقت ايديولوجيا جديدة لتبرير التصرف المطلق، وعبادة جديدة أرسيت في كل أنحاء الامبراطورية: عبادة مردوخ، الإله الأعظم. كان مردوخ سابقاً إله بابل. وبعون كهنته ومساعيهم، خلقوا له أساطير جديدة، أضيفت إلى الخرافات السومرة القديمة وأحيتها. وهكذا صار مردوخ الإله المعظم.

حكومة وشريعة حمورابي

قدر الملك السادس من الأسرة البابلية الأولى، حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد)، إن يوحد ميزوبوتاميا ويكون الامبراطورية البابلية.

كانت الامبراطورية مقسومة إلى إقليمين إداريين حسب مبادئ مختلفة. حكم أكاد وشمال سومر حكام يحملون ألقابا متنوعة، حسب منطقة عملهم ومهامهم. عينوا للأقاليم والمدن؛ ولقبهم "شوكالو"، رجال مكلفون بجمع الضرائب، بإرسال الناس إلى الورشات الملكية، وعند هؤلاء جهاز ضخم من المفوضين ومجندي اليد العاملة. يهتم الشوكامو أولا بالضرائب، بـ"أعمال للقصر" وتنظيم الجيش. في أيام حمورابي (وقبله أيضا) كان ثمة جيش دائم، مكون من محاربين من مختلف الرتب. من أجل عملهم، يملكون قطعا من الأرض. تذكر الوثائق أربع مراتب عسكرية: ديكوم ولوبتوم للضباط، ريدوم وبيروم للجنود (حتى هنا لايعرف بالضبط مايميزهم).

نصف الامبراطورية الآخر، سومر الجنوبية، يحكمه الوزير سينيدينام. يضم الاقتصاد الشخصي للملك، أرزاق عقارية وقطعان ضخمة كانت تخص ريمسين. يراقب الوزير المدراء والموظفين الآخرين، ويصرف كل المكاتب الإدارية والمالية التابعة.

هكذا ظهرت بكل وضوح مهمة الاستبداد الشرقي الذي وصفه ماركس سرقة الشعب. والمهمة الثانية، سرقة الشعوب الأخرى، كانت أقل أهمية في حكم حمورابي مما كان في مملكة سومر وأكاد في ظل أسرة أور الثالثة، أو، بعدئذ، في آشوريا. والمهمة الثالثة، الري، يكمن بخاصة بمراقبة وصيانة الأقنية والقناطر. أعمال هذا النوع مذكورة في قرارات حمورابي. وكان تنظيمها مسندا إلى رجال مختصين، اسمهم "رجال الأقنية". فتحت إدارتهم ثم خفر القناة العظمى المسماة إكراما للملك "خير-حمورابي".

لم يكن النهج الإداري الموصوف آنفا، إجمالا، جديدا، لأن قواعده كانت قد وضعت في أيام أسرة أور الثالثة. واقتصر عمل ملوك بابل على التنفيذ والتلاؤم مع شروط الشمال والجنوب النوعية.

كان الحدث الرئيس هو إعلان وتنفيذ شريعة جديدة. ولقد فرض هذا التدبير ضرورة تبديل الشريعة السومرية، التي وضعتها أسرة أور الثالثة، وملوك ليبيتشتار، التي لم تعد تتجاوب مع الشروط الاقتصادية والاجتماعية في الامبراطورية البابلية. فضلا عن أن هذه

الشريعة كانت قد كتبت بالسومرية التي لايفهمها الشعب. فشريعة حمورابي أثر تاريخي هام لميزبوتامي ، ووثيقة ثمينة تكشف بنية المجتمع في ذلك الزمن، تظهر الشرائح الاجتماعية التي كان يعتمد عليها ملوك بابل ، وعن أي مصالح يدافعون في المقام الأول.

كما أطلعتنا شريعة حمورابي على الطبقات والفئات الاجتماعية في مجتمع بابل وعلاقاتهم الحقوقية. تتألف الشريعة من ثلاثة أبواب: مقدمة، متن وخلاصة. تتضمن المقدمة عبارات تفخيم لمؤسسة "العدالة والسعادة" لكل رعايا الملك. ضم التشريع ٢٨٢مادة، ضاع منها ٣٣ مادة بسبب التلف الذي لحق المسلة البازلتية التي نقشت عليها: وحفظ بعضها نتيجة العثور على أجزاء من النقش وجدت في أمكنة أخرى. نص التشريع على الجرائم، الأسرة، الملكية، الميراث والالتزامات، عدة مواد للحق العام وغيرها للعبودية. نرى فيها، من أولها إلى آخرها، ضرورة صيانة حقوق الملكية العقارية، والكهنة، والتجار والمرابين، بخاصة حقهم في تملك العبيد. سرقة العبد وإخفاء العبد الهارب عقوبتها الموت. وفي الخلاصة، يزدهي الملك مرة أخرى بالحماية التي يحيط رعاياه بها؛ يسمى "ملك الحق" ويلعن أولئك الذين يتجرؤون على تخريب المسلة حيث نقشت القوانين. تدافع هذه القوانين عن حقوق ومصالح أعيان المجتمع البابلي.

عدا الشريعة، بقي لنا من امبراطورية بابل القديمة مئات الوثائق ورسائل الشؤون الخاصة، التي تخولنا تمييز أخلاقهم واقتصادهم، رغم بقاء العديد من قضايا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبابل محل نقاش.

الزراعة، الملكية العقارية، والتمتع بالأرض

كان شعب امبراطورية بابل يعيش أساسا من الزراعة. ولم تكن تربية المواشي الواسعة قد انتشرت إلا في الجنوب، كما في السابق، على الشط الذي يقدم مراع واسعة للأمكنة السبخية.

بين المزروعات، يخصص المقام الأول للقمح، للشعير والحنطة الرومية. وأهم شجرة مثمرة هي النخلة. كانت الحقول تعطي، في الشروط العادية محاصيل وفيرة تكفي حاجات السكان وتخلق فضلة أيضا، يذهب جزء منها لتعريم مخازن الملك والمعابد، بصفة فريضة عينية، وكان الباقي يباع في السوق. كان احتياطي قمح القصر والمعبد يوضع جزئيا في التداول (عند عبور القبائل الرعوية في الصحراء السورية). وكانت الحبوب تشكل أيضا

القيمة الأولى في التداول الزراعي.

كان الملك اسميا المالك الأعلى لكل أرض الامبراطورية. لكـــن امتـــداد المجـــالات الموضوعة تحت مراقبة القصر المباشرة أقل فعليا بالنسبة لأيام أسرة أور الثالثة. وكـــانت المجالات الملكية الواسعة (في الجنوب، مثلا) في الغالب مقسمة إلى أسهم صغيرة بـالأجرة للموظفي الكبار، للمحاربين أو المزارعين، الذين يدفعون عينا (قمحا). وكانت هذه الأســهم لاتنفصل عن الأرض العامة.

قسم من الأرض يخص المعابد، لكن أبعاده أقل مما كانت في الألف الثالث.و ينطبــق هذا أيضا على مشاعات الجوار: وتشير المصادر أيضا إلى الأراضي العامة التي يديرهـــا الشيوخ، لكن لم يبق منها شيء يذكر. للمشاعات حقوق حصرية علـــى قطاعـــات الأقنيـــة (حتى منع الصيد فيها على الأجانب)، لكن الأرض كانت تنتقل إلى أيدي الأسر.

من المستحيل أن نحصي الآن المساحة الكلية للأرض التي تخص العائلات الأبويـــة والعائلات الصغيرة. والأمر البيّن، هو أن تطور الإنتاج البضاعي والنهج العبـــودي كـــان يساهم بتوطيد الملكية الخاصة. ولقد عثر على أرشيفات المرابين الذين كانوا يعتمدون علـــى الحقول والبساتين. لكن بعكس الأُسر النبيلة للدول السومرية الأولى، التـــي كـــانت تملـــك الأملاك الشاسعة، كان الملاّك البابليون مغبونين. واستناداً إلى إحصاءات تقريبية، لم يكـــن ٩٠% من المالكين الفرديين يملكون سوى ٨,٥ هكتاراً مربعاً، والحقول التي تمسح عشرات الهكتارات تعد بالوحدات، وأوسع ملكية عرفت يومئذ كانت تمسح ٣١,٥ هكتار.

كان الملاك الخاصون يؤجرون قسماً كبيراً من أراضيهم، بالأســـهم، إلـــى منتجيـــن صغار. وعلى المزارعين أن يدفعوا حتى ثلثي المحصول. لم تكن زراعة الحبـــوب فـــي الحقول الخاصة تكفي بشكل عام وسوى تغذية المالك نفسه، وعبيده وأجرائه. وكل المالكين كانوا موظفين ممتازين ملكيين، وكهنة أو تجارياً كباراً ومرابين. لايأتي دخلهم الرئيسي من الأراضي بل من وظيفتهم (لدى القصر أو المعبد) أو العمليات التجارية والربويـــة. كـــانت الشريحة العليا من الموظفين الإدارة أو القصر يعيشون على حساب البلاط ويحظون مـــن حين إلى آخر على هدايا قيمة من الملك. وكانوا يغتنـــون بـــابتزاز مرؤوســـهم. ويقتســـم الاكليروس عائدات المعابد المأخوذة بداية من الخزينة الملكية من أجل الصيانة. ثـــم مـــن تربية المواشي والربا، أخيراً من احتفالات الأضاحي، التي يدفعها الخواص والعوام.

هكذا إذا، كما في الألف الثالث، كانت هذه الشريحة من مستغلي المجتمع البابلي تعيش على حساب المشاعات الريفية والعبيد. فالمجتمع العبودي في الشرق القديم يتسم بالاستثمار المزدوج.

حرف وتجارة

تتخطى الحرف في دولة بابل إطار المشاعات. فقد ظهر، في المدن، حرفيون يعيشون من حرفهم. كان لهم في باحة السوق حانوت أومنقش حيث يأخذون الطلبات وينفذونها. لكن. إلى جانب الحرفين المقيمين على نفقتهم، كان ثمة منهم من يعمل في ورشات تخص أفرادا. تنص شريعة حمورابي، في عداد هؤلاء الحرفيين، الفخاريين، قصاصي الصخور، الخياطين، الحدادين والدباغين. لم تكن شروطهم جيدة دوما، لأن الملك التزم بتعيين لهم الحد الأدنى من الأجرة اليومية.

كانت التجارة تتطور بشكل محسوس. الملك والكهنة يستسلمون لتجارة الجملة بواسطة الموظفين المحظوظين والمرابين، الذين يستغلون هذا الأمر لإتمام مضارباتهم. لهم زلمهم ومندوبوهم الذين ينتهي أمرهم إلى تاجر. يبيع المندوبون والمرابون القمح، الصوف، زيت السمسم، البلح المواشي، الفضة والنحاس. يزاول كثير منهم الربا، يقرضون بفوائد باهظة الحبوب والنقود: ٢٠% للدراهم، ٣٣.٣% (قرابة الثلث) للحبوب. لم يكن الكهنة رجال المعابد يخجلون بهذا العمل. تتم التجارة بالمفرق في السوق، في مجال النقش أو يدا بيد.

التصنيف الاجتماعي للناس الأحرار

تميز شريعة حمورابي عينتين من الناس الأحرار: ١- إنسان بلا أهمية (موشكنو)؛ ٢- "إنسان" أو "ابن إنسان". عبيد ومالكون. لكن غير متساوين بالحقوق. ينجم الفرق في بعض القرارت من التعويضات. هكذا، في حال سرقة الماشية، التعويض على الأميلو أعلى بثلاثين مرة من سعر المادة المسروقة، بينما لاتساوي أكثر من عشر مرات في حال التعويض على الموشكنو؛ ومن يعور أميلو أو يكسر له عظما، يخضع للأذى ذاته، وإذا وقع هذا الأذى على موشكنو، يحتاج تنفيذ العقوبة إلى وكالة.

كيف يعلل هذا الفرق؟ وضع المؤرخون الروس عدة فرضيات. يرى الاكاديمي ستروفي أن "الأميلو"، المواطن البابلي المتمتع بكل الحقوق، هو المنتصر أو الفاتح العموري ،وأن مصطلح "موشكنو" يعني شعب سومر وأكاد الحر الخاضع؛ وحسب

دياكونوف، الأميلو هو عضو المشاعة، بينما الموشكنو، مزارع الملك، هو من استعبده العجز عن تأدية ضرائب الدولة. وفي هذه العينة، يصنف الحراثون الذين يتوجب عليهم أن يؤدوا أتاوات قمحا مايدفعه الموظفون المحظيون والمرابون والكهنة الذين تلقوا أراضيهم من الملك. فقط المحاربون، رغم أن أرضهم من الملك، كانوا يبقون أعضاء المشاعات ولم يكونوا موشكنو.

أيا كان تفسير هذه المصطلحات، يمكن أن نعرف، استنادا إلى شريعة حمورابي ووثائق الشؤون العامة، العديد من أنواع المواطنين الأحرار. فهم أعضاء المشاعات، المزارعون الملكيون الذين يؤدون ضريبة عينية، المحاربون الذين يتلقون أراض غير قابلة للتصرف، الحرفيون، الموظفون المحظيون والمرابون الذين كانوا في وقت معا تجارا، مرابين ووكلاء، أخيرا الكهنة والأرستقراطية العليا.

وضع المشاعات

كانت المشاعات الريفية، المؤلفة من الحراثين الأحرار، مرتبطة قبل كل شيء بالحقوق والواجبات المشتركة الخاصة بالري. وكان الري المنتظم، وبالتالي، الموسم يرتبطان بصيانة المنشآت: الأقنية، تجمعات المياه والسدود. كان يتوجب على كل عناصر المشاعة أن يساهموا بالأعمال، وهذا يعطي الحق لكل منهم أن يروي حقله بقنوات وخزانات مياه المشاعة. وتصلح المشاعة أيضا التلف والضرر الذي تسببه مشاعة الجوار أو أي نفقة أخرى، إن بخطئها خربت المياه السدود وغمرت الحقول والمراعي. وكان رفع الضرر يوزع بين كل الأعضاء.. وتتعهد المشاعة ماديا دم القتيل أو السرقة التي تقع على أرضها ولم يكتشف الجاني.

كل عضو في المشاعة، أو بالضبط، كل مشاعة عائلية تدير حقلها الخاص. وليس ثمن معلومات محدودة حول الحق الذي تأخذه لقاء هذا. ولقد وصلتنا عقود بيع حقول عقدها الحراثون، لكن الصعوبة في عدم معرفة نوع القطعة التي بيعت: موروثة أم مملوكة حديثا. وكان تفكك المشاعات يتم بخاصة جراء دمار الناس، الذين يفقدون أرضهم أو لم يحصلوا على أرض عند التوزيع على أعضاء الأسرة الكبيرة. هؤلاء الصعاليك يصيرون مزارعين أو يضافون إلى فئة الأجراء التي يشير إليها تشريع حمورابي. ويعملون رعاة، حراثين، وبستانيين؛ "تعرفة الملك" تقدم لهم أدنى الأجور؟ لكن عددهم لم يكن يكفي طلب المالكين

أثناء الأعمال العاجلة الموسمية أو غيرها،كالحصاد، جني البلح أو غرس حقـــول جديـــدة بالنخيل. فيضطر المالكون آنئذ أن يتوجهوا إلى المشاعات، ليعقدوا معها عقودا للحصـــول على اليد العاملة المطلوبة. كثيرا ماعقدت هذه العقود مسبقا. يصرف المستخدم مبلغـــا مـــا ليلزم عددا من الشغيلة ليأتوا بالوقت المحدد. في حال عدم التنفيـــذ، تقـــام دعـــوى علـــى المشاعة. وهكذا كثيرا مايخضع المالكون للمشاعات في الأوقات الحرجة.

في الوقت نفسه، كان أعضاء المشاعة يحرمون من الحقوق في بعـــض المناســـبات، فعندما يكون العمل في بيت الملك، مثلا، لايهتم القانون بمدة السخرة ولابطبيعتها. يطلـــب منهم حفر الأقنية الملكية وترميمها أوتنظيفها، بناء وإصلاح القصور والمعابد، جز الماشية، ونقل الأحمال، إلخ. ويسهر زلم الملك على ماتقدم التعاونيات من رجال راشدين وأشـــداء. كانت شروط العمل متساوية لدى الاحرار والعبيد. فالسوط يداعب ظهور هؤلاء وأولئـــك. لاتستحق السخرات الملكية أي أجر أو ثواب؛ فقط العمال الأحرار يحظون بجعالة غذائيـــة، كالعبيد.

الأسرة الأبوية

في الامبراطورية البابلية، كان يوجد، عدا مشاعات الجوار، مشاعات أسرية. ولم تكن التبدلات الجارية عندهم، منذ أسرة أور الثالثة، ذات أهمية.

فالمشاعة الأسرية البابلية ذات طبيعة أبوية. الرئيس هو الأب؛ نادرا، عنـــد وفاتـــه، ينتقل دوره إلى الأم. والأسرة الأبوية مؤلفة من الأب، ونسائه، وأبنائه وأحيانا أحفاده. كـــان اسمه الموقوف عليه "بيت الأب"، "البيت الأبوي"؛ ورزقه يســـمى "رزق البيـــت الأبـــوي". لايستخدم تشريع حمورابي إلا هذا التعبير، لايوجد في القانون أي عبارة تشير إلى الملكيـــة الشخصية. يتضمن "رزق بيت الأب" الأرض، البيت ومنشآت الاستثمار، الماشية، العبيـــد، الأوعية، منتوج الحقل، النحاس، الفضة والذهب.

لقد ترجمت التبدلات في وضع المشاعة العائلية بإرساء دعائم الملكية الفردية واتجـــاه الجيل الجديد نحو إضعاف القيود التقليدية التي كانت تقف حائلا في وجه الغنى الشـــخصي لأعضاء المشاعة. كان هذا واضحا في الأوساط العبودية الغنية. كانت شريعة حمورابـــي تشجع هذه الاتجاهات وتنص على تغييرات في الأوضاع الأسرية.

يقدر كل عضو في الأسرة أن يمتلك رزقا يخصه، يسمى سيبتو، الغنيمة (أي الـــرزق

الذي كسبه أو حازه الإنسان بنفسه، بجهده الشخصي أو وسائله الخاصة). فقد خضع قانون التملك في الأسرة إلى تبدل أساسي: من الآن، يحق للأب ترك جزء من ثروته لولده، "الأول في نظره". تصير هذه الحصة سيبتو من جناها. ثم، توطد شرعة حمورابي القسمة وتعدلها بالتفصيل. تعين حصة الأم، البنات العازبات، الأبناء الذين لهم خليلات، مع الاحتفاظ دوما على تساوي حصص الأبناء. لكن هذه القاعدة الأخيرة غير مرعية الإجراء دوما. فاتفاقات بين الورثة تخلق قسمة غير متساوية، فيحظى الابن البكر بأكبر نصيب أو أجود حصة. يفضل الأبناء الآخرون أن يبيعوه نصيبهم أثناء القسمة. ويحدث أحيانا أن تحرم البنات وكذلك الأمهات. وهكذا أرست الملكية الفردية تفكك المشاعة العائلية؛ لكن هذه الأخيرة استمرت بالوجود، لأن الأخوة الأبكار، بعد أن يسلبوا أخوتهم الأصغر وأخواتهم ويتزوجون، يصيرون قادة مشاعات جديدة. وينجم عن هذا، كما الأمر في المشاعات الريفية، استبعاد من الإرث له، ومنهم يؤخذ موظفو الملك العزبان، الأتباع ،ومنهم يخرج مرتكبو الجرائم، إلخ.

في الأسرة الأبوية، المرأة أقل امتيازا من الرجل. وعقوبة المرأة الزانية أشد كثيرا من الرجل غير المخلص. طلب الزوجة بالتفريق صعب. وينص القانون على حالات تخضع المرأة فيها لمساكنة المرأة الثانية، أو الخليلة المختارة من العبيد. على ذلك، المرأة البابلية غير محرومة من كل الحقوق. فالمرأة الشرعية، المتزوجة بعقد، ترث، عند وفاة الزوج، مهرها، وحصة تساوي حصة الابن، إلا إذا كان الميت قد أعطاها هبة ما. ويقدر الزوج أن يطلق متى يشاء المرأة العاقر، لكنها عندئذ تأخذ مهرها. وتحصل البنات، غير المتزوجات حتى وفاة الأب، نصيب الذكر. وبعض شرائح النساء، بعامة، الراهبة والأرملة، مسموح لهن مزاولة مختلف الأعمال المشروعة باسمهن، وحيازة أملاك، وامتلاكها، ويصرفن شؤونهن، يشترين أرزاقا منقولة وغير منقولة ويمارسن الربا.

العبودية

في الامبراطوزية البابلية، حافظت العبودية إجمالا على ماكانت عليه في الألف الثالث. وحفظت العبودية الأليفة أهميتها. العبد ملكية مطلقة للمالك، يستطيع بيعه و"مبادلته بالنقود"، وأن يوصي به، وأخيرا، أن يرهنه كأي سلعة. وفي حال رفض الطاعة، يسمح القانون للمالك أن يشوه عبده كأن يبتر أحد أعضائه (المادة ٢٨٢). بعض العبيد يوشمون

واللحية التي تخفي الوشم بدون إذن عقوبتها قطع الأصابع (المادة ٢٢٦). وعند قتل عبـد الغير بدون قصد، يفدي الجاني جنايته ببساطة بعبد ما (المادة ٢٣١). يمكن عتـق العبـد بالتخالص أي الوفاء وبالتبني.

تتمتع المرأة العبدة بمكان خاص في المشاعة العائلية. إن كانت المـرأة المشـروعة عاقرا حق للزوج أن يتخذ له خليلة، وهي غالبا عبدة؛ أحيانا، تختارها المرأة المشروعة من عبيدها. في هذه الحالة لاتعتق العبدة، لكن هذا لايمنعها، إن توفرت الفرصة السانحة، مـن أن تحكم الأسرة، وتستبعد المرأة المشروعة إلى المقام الثـاني. أبناؤهـا أحـرار، لكنـهم لايرثون إلا إذا وافق الأب على صيغة "أنتم أبنائي".

ثمة الكثير من الوثائق الخاصة بالمعاملات التجارية أو سواها: كان العبيـد يبـاعون ويشترون، يقدمون هدايا، يتركون إرثا، ومطرح تأجير. في بعض الحقول كـان عددهـم كبيرا،ولايتجاوز مع ذلك العشرات. بعامة، يحتفظ البيت بخمسة منهم كحد أقصى. كانوا في الأغلب، أسرى حرب،أو عبيدا مشترين، وأحيانا مدائنين.

في أيام حمورابي، ازداد عدد العبيد لعدم وفاء الدين، على أثر استبعاد المحرومين من الإرث ومن ازدياد المشاعات التي لاتملك أرضا. يحدد القانون الاستبعاد لدين بثلاث سنين. ولقد حرضت على هذا التدبير الاضطرابات الناجمة عن اتساع هـذا النـوع مـن العبيـد وازدياد عدد المفتقرين والعاطلين عن العمل، علما أن المصادر التاريخية لاتذكرهم.

الخصائص العامة للامبراطورية البابلية

في القرن السابع عشر قبل الميلاد، كانت ميزوبوتاميا في قمة الازدهار الاقتصـادي والسياسي. حسنت طرق إدارة شبكة الري واستخدمت آلات الرفع علـى نطـاق واسـع، وطورت سكة الحراثة؛ واستخدم الحصان كحيـوان أليـف. تقدمـت الحـرف، بخاصـة البرونزية: استخدمت المناجل والأدوات البرونزية الأخرى، التي تسهل العمل في الحجـر والخشب. اتسع الإنتاج البضاعي، تطورت التجارة في داخل بابل وامتـدت إلـى البلـدان المجاورة: عيلام، سوريا، آشور وسواها.

وطد نمو الإنتاج البضاعي الملكية الخاصة للأرض والعبد. لكن الملكية الفردية بقيـت محدودة (بخاصة فيما يخص الوصية) وحافظت العبودية على الخاصة الأبوية (بوسع العبـد أن يتزوج من حرة).

الحقول الشاسعة التي بتصرف الملك، المعابد ونبلاء الدم، التي كانت تميز تاريخ ميزوبوتاميا، تقلصت جدا أو اختفت تماما.والشكل النموذج للاقتصاد هو الملكية الصغيرة أو المتوسطة المؤسسة على استغلال عدد بسيط من العبيد. وتوارت الأشكال الأبوية لارتباط الناس الأحرار، عدا عبودية الدين؛ وعاش الغورشي أيضا أيامهم.

تزعزت القسمة في مشاعات الجوار،إذ حافظت إجمالا على حقوقها في أعمال الوي، لكن المشاعة العائلية بقيت هي خلية الاقتصاد الرئيسية. والفرق بالثورة الذي فاقمه الربا والضرائب الباهظة، فكك مساحات شرائح واسعة من محرومي الإرث الذين آل بعضهم إلى خدمة الملك كمزارعين أو محاربين، وانحدر الآخرون إلى عبودية الدين.

حاول حمورابي كبح تحكم التانكاروم:حددت عبودية الدين بثلاث سنوات، ألغي حق المرابي بالدخول إلى بيت المدين، واضطره التانكاروم على أخذ وكالة في عدم مساعدته. كانت هذه التدابير تهدف إلى تمتين وحدة الفئة الحرة وتوحيد مختلف شرائحها ضد العبيد. لكنها لم تنجح: تطلعنا رسائل العصر عل حالات خرق قوانين حمورابي من قبل التانكاروم، بخاصة وضع اليد أو حجز أراضي مزارعي ومقاتلي الملك التي لايجوز التصرف بها.

فالمجتمع البابلي لم يعرف التناحر بين الأحرار والعبيد فقط، بل أيضا التناقضات بين مختلف الشرائح الحرة.

كانت دولة العبودية، المدافع عن مصالح الطبقة المهيمنة، استبدادية، ملكية مطلقة حيث يحكم الملك بواسطة العديد من الموظفين والقضاة.

سقوط امبراطورية بابل، عصر الكاسيت

انهارت امبراطورية بابل على عهد آخر ملكين من الأسرة البابليةالأولى، هاجمها أربعة أعداء،الواحد بعد الآخر: ساميو المناطق البحرية من سومر، عيلاميو زاغروس، الحثيون الآتون من الشمال، أخيرا مربو الخيول الكاسيت الذين كانوا يعيشون في شمال عيلام. تحقق النصر على يد القبائل البحرية التي احتلت جنوب الامبراطورية، والكاسيت الذين أقاموا في وسط وشمال بابل.

أسس الملك الكاسيت غانداش فيها أسرة. وأخضع خلفاؤه القسم الجنوبي من البلاد. دامت السيطرة الكاسيت حتى ١١٦٥ قبل الميلاد.

انحدر الكاسيت من الجبال وصاروا سادة بابل، واحتلوها بالمشاعات العشيرية. وبعد أن احتلوا مساحات واسعة منهوبة وخالية من السكان جراء الغزوات والحروب، سارعوا إلى الزراعة المقيمة، التي أخذوا أساليبها من البابليين. اعتمد الملوك الكاسيت على جنودهم ومجنديهم، لكنهم أوجدوا أيضا حلفاء بين كهنة بابل، بخاصة كهنة المدينة المقدسة نيبور.

انقسم العهد الكاسيت إلى مرحلتين، خلال المرحلة الأولى، حتى الربع الأخير من القرن الخامس عشر، عاشت البلاد دمارا رهيبا وكسادا اقتصاديا. إذ شرعوا بأعمال ضخمة لترميم شبكة الري، وأعادوا بناء السدود وأداروا خزانات جديدة.

في نهاية القرن الخامس تبدأ المرحلة الثانية. خلالها تتطور الحياة الاقتصادية بسرعة قصوى. أقيمت تجارة منتظمة مع مصر وغيرها، الأمر الذي دفع ملوك الكاسيت إلى إصلاح دروب القوافل. وبذلوا جهودا جبارة لحماية هذه المسالك من اللصوص. وفي الوقت ذاته، أعيد تشييد المعابد. تفككت مشاعات الكاسيت، لذا أرسيت دعائم الملكية الخاصة. كافأ الملوك "إلى الأبد" النبلاء بالأراضي التي انتزعوها من المشاعات. القرارات الملكية في التمليك والمكافأة منقوشة بشكل عام على الحجارة والصخور المسماة كودورو، الموضوعة على حدود الأراضي المقصودة. كانت أبعاد هذه الحقول الجديدة أكبر بكثير مما كانت في أيام امبراطورية بابل القديمة (من ٢٠-٢٠٠ هكتار)؛ لكن عددها كان حتما أقل بكثير من زمن حمورابي.

لقد نجمت انطلاقة الاقتصاد الملكي والفردي من نهب المشاعات وأعضائها، الذين ما ارتاحوا بعد من الحروب والدمار. وافترض ازدهار الحضارة الملكية تجدد الاضطهاد، وأفضى فتح ورشات لبناء معابد جديدة إلى تفاقم السخرات خدمة للقصر. وانتزاع أملاك الناس العاديين سلب أسر للفلاحين، الذين لايتلقون شيئا لقاء هذا، لأن الأداء، إن حدث، يأخذه الشيوخ. أفادت هذه المظالم المرابين. وصارت عملياتهم اللصوصية أكثر توحشا حتى أن بعضهم راحوا يجنون الضرائب الملكية ويسرقون الناس بدون رحمة.

الفصل الثامن

الحضارة البابلية

أهمية الحضارة البابلية

يعني هذا التعبير حضارة ميزوبوتاميا-السفلى. تشكلت في أثناء ارتقاء هـــذه البـــلاد تاريخيا، في القرن الرابع قبل الميلاد عند أفول امبراطورية بابل القديمة. عواملها الرئيســة هي أنجازات سومر الثقافية، التي قبلها الأكاديون وطوروها، وتبعهم في هـــذا البـــابليون. فالأصح إذن أن نسميها: الحضارة السومرية- البابلية. أسســـت الحضارتـــان الآشـــورية والكلدانية، اللتان تلتاها ولم تتخطياها. مارست الحضارة البابلية منذ الألـــف الثانيــة قبـل الميلاد تأثيرا واسعا وعميقا على البلدان المجاورة: سوريا، فينيقيا وفلسطين، وعلى الحثيين وغيرهم. في الحقبة الآشورية والكلدانية، امتد نفوذها إلى الشمال الغربي، في البلدان التـي يغمرها بحر إيجة، وإلى الشمال (أورارتو) وإلى الشرق (إيران). ولقـد نقـل العـبريون، اليونان والرومان بصمات عميقة من الحضارة البابلية إلى شعوب أوربـا، مـانزال نـرى تجلياتها في الحضارة الأوربية المعاصرة.

الكتـــابـــة

كل النصوص المكتشفة في ميزوبوتاميا هي الكتابة المسماة مسمارية، المؤلفة حروفها أساسا من زوايا مرسومة أفقيا أو عموديا. ولدت هذه الكتابة في النصف الأول من الألـــف الثالثة قبل الميلاد، مشتقة من الصور المنقوشة في الشارات المســمارية. تخمــن بســهولة الرسوم المقصودة: إنسان، حيوان، أغراس، جبال، غابات، مياه، أوعية منزليـــة وأدوات. تختلف رسمة هذه الحروف حسب المواد المفيدة، ومعنى الشارات وبهدف توسيع الكتابـــة. وأهم وأقدم المكتشفات هي رموز فكرة منقوشة على صفـــائح صخريـــة أو حجريـــة، أي شارات يمثل كل منها كلمة أو فكرة. ثم صارت المادة الأكثر تداولا لكتابـــة مـــن شـــرائح الفخار؛ النص المنقوش على الشريحة الرطبة بحيث تترك شارة بشكل زاوية.

هكذا استعيض عن الرسوم القلمية بشارات مسمارية، لكن بعضها استمر حتى منتصف الألف الثالث.

في الوقت ذاته تبدل معنى الحروف، والرموز تتغير شيئا فشيئا إلى الشارات المقطعية التي تشكل من الآن أغلب شارات الكتابة المسمارية. لكن عددا من الشارات المصورة بقيت وظهر غيرها يمثل أصواتا أبجدية. فالنهج المسماري إذن شديد التعقيد وصعب الدراسة. يعد قرابة ٦٠٠ حرف لكثير منها عدة معاني.

إن مؤسسي الكتابة المسمارية هم السومريون. تعلمها الأكلديون، ثم انتقلت إلى العيلاميين، والبابليين، والآشوريين والحثين. وأفاد منها الفينيقيون ليصنعوا أبجديتهم الأولى. واقتبسها الأورارتيون، الذين كانوا يقطنون أرض أرمينيا الحالية؛ واستوعبها وعدلها الفرس الذين غزوا ميزوبوتاميا حوالي العام ٣٥٠ قبل الميلاد.

الـديـن

الدين البابلي، كما وصلنا في نصوص الألف الثالث، هو توليفة من العوامل السومرية والسامية. وثمة عبادات أخرى ذات اسم مزدوج؛ ولغيرها اسم سامي أو سومري.

البانتيون[1] البابلي، كبير العدد، لاأقل من ١٠٠ إله. في رأسهم "الآلهة الكبار" الذين كانوا المعبود المحلي في مدن سومر وأكاد. وهم: أنليل، الإله الأكبر عند السومريين وهو أيضا إله أرضي: آنوم، إله أوروك؛ إيا، إله إيرودو. في الالف الثالث جمعهم الكهنة في ثلاثي أسمى، وأعطي آنوم مملكة السموات، وإيا مملكة البحار والمياه الجوفية.

عدا هذا الثالوث، ثمة حلقة أخرى من العبادات معروفة ومعترف بها في أرجاء البلاد قاطبة: إله الشمس شاماش (إله مدينة سيبار)، إله القمر سن (إله مدينة أور) وإلهان زراعيان: تموز وزوجته عشتار.

كان تموز وعشتار إلهي النبات والخصب. تقام كل عام أعياد موت وبعث تموز، المترافقة بالأسرار التي تقدم عشتار تبكي زوجها، نزولها "نحو الأرض دونما عودة" للبحث عن المتوفى، ونضالها ضد إلهة مملكة الظلمات أرشكيغال، وبعث تموز وظهوره ثانية على الأرض. وفي مشاعات الجوار، تسجل هذه الأعياد بداية ونهاية أعمال الحقول؛ وكانت

---

[1] - مجمع الأرباب عند القدماء.

الطقوس والشعائر الدرامية، المدن الكبرى، تجرى الاحتفالات الشعبية بأبهة وإجلال، مع أضاحي لاتحصى.

ترتبط عبادات شاموش وسن سوية أيضا بالإنتاج: عبادة شاموش ترتبط بالزراعة، وعبادة سن ترتبط بتربية الدواجن. لكن شاموش يمارس في البانتيون الرسمي وظائف إله العدالة. كان معبده الرئيس، في سيبار، مقر محكمة اعلى الدعاوى ويوجد إلىجانبها مركز للعقود والإجراءات القضائية.

تمثل الآلهة عشتار في المثيولوجيا الرسمية الكوكب عطارد؛ بهذا الشكل، يشكل الكهنة الكوكبة الأولى من الآلهة النجوم: شاماش، سن، عشتار.

بعد تأسيس امبراطورية بابل القديمة، صار ملك الآلهة مردوخ، الذي هو أصلا إله بابل. وأعطى لقب بل (سيد)، لقب أنليل حتى آنئذ؛ ومنحه الكهنة مهمات أنليل وتموز.

باسمه، تحتفل بابل في الربيع بعيد رأس السنة، المسمى زاغ-موك. ذكرى نصر مردوك على تيامات، ومجيئه إلى العرش الإلهي، خلق العالم والناس وإرساء سماء بابل.

تنفذ طقوس درامية لدى قراءة قصيدة الخلق، التي تعرض الحلقات الرئيسة. في معبد منعزل، اسمه "قاعة الأقدار"، يرأس الكهنة المستقبل أمام أنصاب الآلهة، أي بحضورهم. ولقد لعبت هذه التكهنات دورا هاما، لأن الملك مضطر لاستيحائها في ممارسة سياسته. ينهي العيد بشعائر مستقاة من طقوس تموز وعشتار. يمثل أحدهما الموت وبعث بل-مردوخ. ويقرأ نص يذكر بشكل فريد بقصة موت وقيامة يسوع. وطقس آخر، يرمز إلى زواج مردوخ من زوجته ساربانيتو، وذلك لتأمين خصب الأرض.

لايقتصر الدين البابلي عند عبادة "الآلهة العظام" وآلهة الزراعة. ليس الشعب فقط، بل أصحاب العبيد أيضا كانوا يؤمنون بالإحيائية وماقبلها، التي ترجع إلى عهد المجتمع البدائي. كانوا يقبلون تعدد الأرواح، طيبة كانت أم سيئة، التي تحكم ظاهرات الطبيعة، ترسل الأمراض والموت، تؤازر الناس في عملهم وحياتهم. من هذه الأرواح، نذكر أرواح الأنهار والقنوات التي تمارس عبادتها في الدين الرسمي والأرواح الأليفة، وأرواح الأموات التي تقدم لها الأضاحي بانتظام. أخيرا يولي المجتمع البابلي كله أهمية بالغة لطقوس السحر، المستقاة من فكرة أرواح الخير والشر. ولقد تمثل علم الأبالسة والسحر الشعبي في الدين الرسمي وطورها. وإلى جانب المعابد، أنشئت المعاهد الخاصة للتعزيم التي تؤلف

علم الأبلسة وتنشر أسطورة خضوع الأرواح إلى الآلهة "الكبار" أنوم، أنليل وإيا.

وتقيم هذه المعابد الاحتفالات الرسمية لإقناع الناس بالصيغ والشعائر السحرية وهدايتهم إليها، حيث تقدم الأضحيات. وعلى أثر هذا التبدل، تتشكل طوائف خاصة، تكتمل فيما بعد على يد العبادة الآشوية.

كان إكليروس المعابد الرسمي لبابل والمدن الأخرى غفير العدد، ويقسم إلى عدة مراتب، حسب التصنيف والوظيفة. وكان ثمة راهبات من مستويات عديدة، يخدمن في معهد شاماش في سيبار، حيث بنى لهن ملك أكاد مسكنا ضخما مع استثمارة مساعدة وحديقة أشجار مثمرة واسعة. في أثناء الاحتفال يساعدهن مرتلون ومرتلات، وموسيقيون وكل أنواع الخدم. ومهنة الكاهن، الجزيلة العطاء تنتقل بالوراثة في المشاعة الأسرية؛ عند اقتسام أرزاق البيت الأبوي، كانت مهنة الكهنة توزع بين الأبناء، بحيث يمارسها كل منهم لمدة سنة، ومن كان دوره يجتني أرباح تلك السنة. وإن انتقلت المهام الكهنوتية للابن البكر، ينال أخوته حصة تحسم من باقي الإرث. كان الاكليروس يتمتع بنفوذ واسع، لأنهم يتولون شؤون السلاح الأهم وهو التأليه في الحياة الدينية في تلك العهود، وكذلك مناهل خيرات المعابد الوفيرة المتسعة باستمرار عن طريق أعمال الربا.

الأدب السومري-البابلي

لقد وصلنا عدد لابأس به من الأعمال الأدبية السومرية والبابلية من الألف الثالث والثاني. ينسب مضمونها بطريقة أو بأخرى إلى الدين. أغلبها نصوص طقسية أو سحرية، والأعمال الأخرى التي لاتخص العبادة، تعالج مع ذلك مواضيع دينية، بخاصة ميثيولوجية. والكتابات التي تخص موضوعات أخرى نادرة.

ميثولوجيا الدين الرسمي هي خلاصة الميثولوجيا الشعبية، أحد أهم عناصر التقليد الشفهي أو الفولكلوري. لا نجد في الاعمال السومرية البابلية مقاطع فولكلورية عديدة. تستخلص بكل وضوح من الأساطير المتحدة عن أصل العالم، الناس، الزراعة، الحياة الأبدية، بشكل خرافات ساذجة تشبه قصصا شعبية من المضمون ذاته.استخدم شعراء بابل هذه الخرافات السومرية لخلق أعمال رائعة. أهم هذه الأعمال هو القصيدة المعنونة، حسب كلماتها الأولى، الخلق. مستلهمة من القصيدة السومرية خلق العالم، ويطلها أنليل؛ لكن الكهنة البابليين استبدلوه بمردوخ. وأجمل إنجاز من الأدب البابلي هو القصيدة الملحمية

جلجامش. كانت النصوص الأولى التي تتحدث عن مآثر هذا المقدام الشهم بالسومرية؛ أخذها كتاب بابليون، من طبقة الكهنة على الأرجح وحوروها. وهكذا ظهرت ملحمة جلجامش البابلية، مكتوبة على إثني عشر رُقما كبيرة، تتضمن كل منها نوعا من الغناء المنفرد. تخولنا فكرته ومواصفاته الشعرية بتصنيفه بين ألمع أعمال الأدب العالمي.

ليس القصيد أبدا من الأعمال الطقسية. ولايرتبط بأسطورة معينة، ولابشعيرة ما. استخدم المؤلف الخرافات والحكايات الشعبية لإبداع عمل مستقل عن الحياة والموت.

كان هذا الموضوع يشغل منذ زمن بعيد المجتمع السومري-البابلي. وكان ثمة أساطير تعمل لإيضاح سبب خلود الآلهة وموت البشر. تقول إحداها: إن علة الموت البشري هي جنون الإنسان الأول، أدابا، الابن الأعز عند الإله إيا الذي أعطاه الحكمة العظمى، وليس الحياة الخالدة. قدمت مناسبة حيازة الخلود يوما لأدابا، لكنه رفضها. أنذر بالمثول أمام الإله آنوم لأنه كسر جناحي ريح الجنوب. فأخطره إيا أن غذاء وماء الموت سيقدمان له وليس له أن يذوقهما.وأثناء المحاكمة، أخذ الآلهة الآخرون الدفاع عنه وآنوم، رقيق القلب، حمل له غذاء وماء الحياة؛ لكن ادابا رفض تناولها. دهش آنوم وسأله السبب. فأجاب: "الآخر قال: لن تأكل ولن تشرب." آنئذ أمر آنوم بعودته إلى الأرض. تسعى هذه الخرافة، التي ابتكرها الكهنة إلى الوفاق بين الناس وقدرهم ولإقناعهم بعجزهم أمام الآلهة. لكن هذا التعليل لم يرض مفكري المجتمع البابلي. فطرحت ملحمة جلجامش القضية مجددا. ولم تعط جوابا شافيا.

جلجامش هو الملك الخرافي لأوروك، المدينة السومرية الأقدم. أله بعد موته وأقيمت في يأوروك عبادة لمجده. تقدمه الملحمة كمقدام جبار، جميل وعاقل، إله العوام. أنجز أنكيدو، صديقه ورفيق السلاح، مآثر لامثيل لها جعلته يحظى بحب الإلهة عشتار. لكن جلجامش رفض هذه الهبات. غضبت عشتار وأرسلت ضده الثور السماوي الذي يخرب حقول القمح، لكن جلجامش وأنكيدو قتلاه. آنئذ، بناء على طلب عشتار، أنزلت الآلهة بأنكيدو مرضا مميتا. ارتعب جلجلمش لموت صديقه، وأخذه خوف فيما يخصه هو:

جـجامش على قبر أنكيدو، صديقه،

يبكي بمرارة ويهرب من المعمعة:

"وأنا أيضا سأموت مثل إيباني[1]؟

تغلغل الألم إلى أحشائي،

إني أخشى الموت وأهرب من المعركة."

يقرر جلجامش كشف سر الحياة والموت. فقد علمته الخرافات القديمة أن ثمة أناسا منحتهم الآلهة الخلود: أوتنابشيم وزوجته. فيشرع برحلة خطرة عبر البلدان المقدسة بحثا عن أوتنابشيم ليسأله كيف حصل على الخلود. وبعد تجول طويل، يجتاز عقبات رهيبة تعترض دربه ، ويبلغ شاطيء البحر السماوي. وهنا صابئية تعترضه (عابدة الشمس) وتنبئه أنه يتابع هدفا خياليا، فالخلود وقف على الآلهة فقط. وتنصحه العودة على أعقابه والتمتع بالحياة. لكن هذه القناعة، المنتشرة جدا بين علية القوم البابلي لم ترض جلجامش مطلقا. فيتابع سبيله ويلقى أوتنابشيم الذي لايملك شيئا يعزيه يقوله له. بل يقص عليه أن الآلهة، الغاضبة على البشر، أرسلت إلى الأرض طوفانا. الكل هلك، سوى أوتنابشيم وأسرته، وأن الإله إيا، الذي كان يحدب عليه اتقى النازلة وحرص على بناء مركب. وينتهي الطوفان، وتستقبل الألهة في كنفها الزوجين الملكيين وتمنحهما الخلود. استخلاصا، يطلب أوتنابشيم من جلجامش: "أي إله ضمك إلى المجموعة، لتلقى الحياة التي عنها تبحث؟" ولما لم يكن أحد الآلهة كلف بهذه المهمة، يحاول جلجامش، بناء على نصيحة أوتنابشيم، قهر الموت بمختلف الطرق السحرية لكنه يفشل في هذا أيضا، منهكا، محطما، يعود إلى مسقط رأسه ويستدعي من مملكة الموتى أنكيدو ليعترف "بقانون الحياة" وبالحظ التعس لعناصر نرغال وأرشكيغال. نهاية الملحمة مفقودة. يجب الإقرار أن جلجامش ملت. دون أن يحل لغز الموت والحياة، لكن عمله هام، لأنه أول محاولة لنقد الدين. يجرؤ جلجامش على تحدي الآلهة ويتفوق عليها أحيانا، وتضطر الآلهة للصفح عن هذا التمرد.

لقد أثرت هذه الملحمة تأثيرا عميقا في أدب الشعوب الأخرى في العصور الغابرة. وبين الكتابات الإرشادية، أهمها "حوار السيد والعبد" الذي يعكس لاأخلاقية سادة المجتمع العبودي.

عاش السيد حسب مبدأ: "استغل الحياة مادمت على الأرض". وينتهي بالقرف: الحرب، الطرد أو الصيد، الحب، بناء البيوت، المكائد كل هذا يقززه. خائب الظن بالآلهة،

---

[1] – تسمية أخرى لأنكيدو.

يستخلص أن لا الأضاحي ولا السحر تمكن الآلهة من "جعل الإنسان يتبعها كالكلب". فلم يبق له سوى: "أن يكسر عنقه ويرمي نفسه في الماء".

كان لدى البابليين أيضا ثروة وفيرة من الحكم والأمثال والقواعد الأخلاقية، التي يرجع أحدها بالتأكيد في مجمله، إلى أيام الامبراطورية القديمة. يزخر بالخوف من المؤامرات والاضطرابات الداخلية. يعظ بأخلاق عالم التناحر والخضوع للمستغلين. تنتهي هذه التوصيات، الموجهة في الأرجح إلى أعضاء المشاعة، بنصيحة بليغة المغزى، التضرع إلى الآلهة: "التضحية تطيل الحياة، والصلاة تكفر عن الخطيئة".

في الادب الدنيوي، يجب تصنيف بعض النقوش الملكية للألف الثالث والربع الأول من الألف الثاني. تقص هذه النصوص القريبة من الخرافات بمضمونها، أحداثاً تاريخية. مثل نقش أوركاجينا العظيم الذي يتحدث عن بؤس سكان لاغاش عند توليه العرش ويحكي عن ثروته. ونقش حاكم لاغاش، إيناتون، حول غزوته المظفرة ضد عاهل أوما.

بذور المعارف العلمية

في عهد امبراطورية بابل القديمة، كان في ميزوبوتاميا-السفلى بذور علمية، تمارس في الحياة اليومية والاقتصاد. تفيد بخاصة في الفلك والرياضيات وتنفع في حساب الزمن، مسح الأراض، تسوية شبكة الري، وكذلك في أعمال التبادل والربا.

كانت عوامل الفلك، المعدة والمعدلة في ميزوبوتاميا في الألف الثالث وفي بداية الألف الثاني، والتي تطورت في أثناء العصور التالية، أساس الفلك اليوناني، ثم العربي، الذي أخذ منه الفلك الأوري جذوره.

الأفكار الفلكية لدى كهنة بابل مشتقة من علم الفلك البدائي. كانت الأرض، السماء والمحيط، في نظرهم، هي عناصر العالم الأساسية. الأرض نوع من الجبل الدائري، منتصب في وسط المحيط الأولي. وفوق الأرض يقوم، ككوب مقلوب، الفضاء السماوي أو الهوائي، الذي يهيمن عليه سد سماوي، تسكنه الآلهة، محاط بمحيط سماوي تصل أطرافه السفلى المحيط الأرضي. بداية، شبهت النجوم بخراف ترعى في السد السماوي، والشمس والقمر فلكان خلقهما الآلهة. وتحدث الكسوفات لأن أرواحاً شريرة خبأت القمر أو الشمس. وفي بداية الألف الثاني، ميز علماء الفلك من النجوم الثابتة خمسة كواكب معروفة اليوم بأسمائها اللاتينية: فينوس، مارس، جوبتير، مركوري وساتورن. في نفس الحقبة تكونت

مجموعات نجومية؛ ثم، ميز اثنا عشر مجموعة نجومية "على درب الشمس" (الكسوفي)، المسماة زودياك، وأقر أنه قرب "دب الشمس" هذا تقع الكواكب المسماة أعلاه. لايعرف الكهنة تفسير الكسوف أو الخسوف يومئذ ويخلطون الظاهرات الفلكية والتغيرات المناخية. وعلى قاعدة الملاحظات الفلكية البدائية، أعد تقويم يشبه التقويم الذي وضعه الصينيون؛ والمناهج الأمريكية القديمة تمت لهم أيضاً. وقد لعب التقويم البابلي دوراً فريداً في تاريخ الحضارة، وخدم جزئياً نموذجاً متطوراً لدى الشعوب الأوروبية.

كان كهنة بابل يجهدون في تفسير المستقبل استنادا إلى الظاهرات السماوية والفلكية. لايمكن وصف هذا النهج بترو بعلم فلك، لأن التفاسير تستند إلى تطابق النبوءات الأرصادية-المناخية والفلكية. مثلا: "إن غضب أداد (إله العاصفة) يوم اختفاء القمر، سيكون الموسم وفيرا وتستقر الأسعار". وكان التقديس بعامة ذا أهمية سياسية عميقة.

لقد أفضت متطلبات الحياة، في بداية الألف الثانية، إلى تطوير ملحوظ بعلوم الرياضيات. وكان الانجاز الهام الذي اضطلع به الرياضيون البابليون هو ماعرف بـ "نهج الوضع القائم": الاعتراف أن رقما واحدا يمكن ان يكون ذا قيم مختلفة، حسب وضعه في العدد. بهذا الصدد، سبقت بابل اليونان والرومان. لكن العد الستيني عرقل التطور جدا. إن المصدر الفعلي لهذه الموضوعة مجهول:ربما كانت مرتبطة بالعينات العددية "المقدسة"، المستخلصة من حساب الزمن:٧، استنادا إلى عدد أيام المرحلة القمرية، و١٢، استنادا إلى أشهر السنة. فوجود العدد ستون=١٢×٥ في هذا النهج يكشف أنه مأخوذ أيضا من الحساب أو العد على أصابع اليد، الممارس بسعة في العصر البدائي. أما المعارف الرياضية، فقد عرف البابليون في بداية الألف الثاني العمليات الحسابية الأربعة، والتربيع والتجذير المربع، وكذلك مبادئ الهندسة الضرورية لقياس السطوح. وكانت الصيغ الهندسية مستخدمة في قياس الأراضي، الحقول، المراعي والأملاك. ولقد عثر المنقبون على خرائط ومخططات مترافقة بالحسابات المناسبة.

وأخيرا، استقر العد الستون على يد البابليين، في علاقته المرجحة بقياس الدائرة التي ترسمها الشمس في السماء. كانوا يحسبون أننا إذا رتبنا جنبا إلى جنب، على خط السير النهاري للشمس، أقراصا مساوية للقرص الشمسي، نحصل على ١٨٠، إذن٣٦٠ لليوم الكامل. يتضح الأمر بالصيغة التالية: تخطو الشمس في اليوم ٣٦٠ خطوة. هذه القسمة،

المطبقة على كل الدوائر، اقتبسها الرومان وتبنتها فيما بعد الهندسة الأوروبيـــة: هـــي ذي قسمة الدائرة إلى ٣٦٠ درجة و(في اللاتيني *gradus*، الخطوة).

كان البابليون قد حددوا ١٢ ساعة للنهار ومثلها لليل؛ وفيما بعد قسمت الســاعة إلــى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ٦٠ ثانية. ينسب هذا التفريغ إلى تاريخ العلم الأوربي.

قسم البابليون الشهر إلى أربعة أجزاء، حسب مراحل القمر؛ لكن إعطـــاء الأســبوع سبعة أيام، لم يأت قبل منتصف الألف الأول قبل الميلاد، تأسيس الآلهة الســـبعة "الكبـار" الأفلاك: الشمس، القمر، والكواكب الخمسة المرئية بالعين المجردة، التي منها أخذت الأيـام اسمها. وعن طريق الرومان، انتقل الأسبوع بأيامه السبعة إلى شعوب أوروبا وعم العـــالم قاطبة.

الفنون التشكيلية

السومريون هم أصحاب أولى نماذج الفن التشكيلي والمعماري في ميزوبوتاميا؛ قلدت أكاد وبابل وطورت الطرق والأسلوب التي أبدعت في سومر. وتؤرخ أغلب الأعمال الفنية التي وصلتنا بالنصف الأول من الألف الثالثة. لكن هذ لايثبت أن الفن في ظل أســـرة أور الثالثة وفي أيام امبراطورية بابل القديمة قد انهار بالنسبة إلى العصور السابقة. المقصـــود هو الظروف الخارجية، بخاصة الـــهزائم الحربيـــة التـــي أتـــت علـــى يـــد مملكـــة أور والامبراطورية البابلية. خلال هذه الحقب المضطربة، أتلف الكثير مـــن الأعمـــال الفنيـــة، وأغلب الأعمال الفنية التي حفظت حتى هذه الأيام نقلها المحاربون العيلاميون والحثيـــون إلى العواصم.

مثلت الفنون التشكيلية أساسا بالمنمنمات والنحت. أسلوب المنمنمات بدائـــي: جـــذع بشري مواجه، وجه مجانب، أفخاذ مجانبة والواحد وراء الآخر. كل الشـــخوص بنمـــوذج واحد، لكن الألبسة السومرية تختلف بوضوح عن الأكادية. تماثيل الحكام والملوك تتمـــيز بكثافة الجذع؛ ورؤوسها متقنة وتوحي بالحياة.

صور الحيوانات طبيعية تماما، أنيقة وجيدة التناسب الجسدي. يتأتى هذا من أن الفـــن المحيوني[١] ذو تقاليد قديمة جدا، تعود إلى العصر الحجري الأعلى.

---

[١] - الذي يشبه الحيوانات.

إن أجمل المنحوتات السومرية هي لوحات الثيران، البقر والعجول مع رعاتها، التي تزين معبدا من محيط أور (بداية الألف الثالث). نذكر أيضا منحوتات "مسلة النسور"، مع نصب لايناتوم وغزوته المظفرة ضد أوما. للأسف لم يصلنا سوى جزء منها. ونرى فيها أرهب كتيبة من محاربي لاغاش، برئاسة إيناتوم. بحماية الدروع، والرماح المروسة، يدوسون بالأقدام الأعداء الصرعى. وفصيلان آخران يمثلان هرما من محاربي لاغاش سقطوا في ساحة الشرف وكلفوا بحرق الأموات، وسرب من النسور ينهش جثث محاربي أوما. وعثر المنقبون أيضا على آنية رائعة فضية لأنتمينا، حاكم لاغاش، منحوتة بدقة على نقد إله الصيد إيمجيج، الطير المقدس ينشب مخالبه بأسدين. وبين أنصاب الحكام الأهم، ثمة ثلاثة لغوديا الذي حكم لاغاش في أيام سسيطرة أسرة غوتي؛ اثنان جالسان، الثالث واقف. الثلاثة للأسف مشوهة ومقطوعة الرأس؛ وقد عثر المنقبون على رأسين منفصلين.

بين أعمال أكاد الفنية، نذكر "مسلة انتصار نارامسين" وتمثال لحمورابي. الأولى ذكرى لإرسالية في بلاد جبلية: العاهل، محاط بمحاربيه، يجلس قرب قمة. وحمورابي على المسلة التي حملت شريعته، يمثل بين يدي الإله شاماش ليسلمه القانون.

الرسم الجداري معروف منذ نهاية الألف الثالث. لدينا منه نموذج رائع، وجد في قصر ملكي في ماري. يعرض هذا الرسم احتفالا حيث يراق الخمر تكريما لاستجابة الآلهة لابتهال الناس بأن يكون الموسم وفيرا.

هكذا إذن، منذ الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد، عرفت حضارة ماجدة في بلاد ميزوبوتاميا-السفلى: السومريون والأكاديون يمتلكون بذور المعارف العلمية، كتابة متطورة، وأدبا رائعا. لكن الانعكاس المخلص للواقع غير ممكن في زمن يهيمن فيه مفهوم للعالم يتبناه الكهنوت، حيث يمجد الدين السلطة الملكية وينذر الإنسان لإحساس الإحباط الناجم عن ضآلته.

الفصل التاسع

مصر القديمة

الشروط الطبيعية

تشغل مصر الوادي الضيق للنيل المحاط بالجبال من الغرب والشرق؛ يتراوح عرض الوادي بين ١٥-٢٥كم. تفصله الجبال الغربية عن الصحراء، المسماة في العصر القديم الصحراء الليبية. خلف الجبال الشرقية، يمتد شاطئ البحر الأحمر. في الجنوب تقطع مجرى النيل سيول تجعل الإبحار صعب وتعزل مصر عن بلدان الجنوب. وفي الشمال، يعرض الوادي وينتهي بدلتا النيل. في الماضي، كانت المنطقة غير مزروعة، مستنقعية ومحرومة من الموارد الملائمة.

الوضع الجغرافي لوادي النيل يوفر له مكاسب ضخمة نسبة إلى وادي مابين النهرين -ميزوبوتاميا- الجبال المحيطة به غنية بحجارة البناء: غرانيت، بازلت، كلكير. الجبال الشرقة وبخاصة جبال النوبة تحوي مدخرات ثرة من الذهب. تنمو في الوادي جواهر ثمينة، كالنخيل، والأثل، والجميز -تين فرعون- تستخدم جذوعها في بناء المراكب النهرية وكل أنواع الهياكل. يصب النيل في البحر الأبيض المتوسط، الشريان الرئيس في تجارة العصور القديمة. أخيراً، الزراعة هنا أكثر منها في ميزوبوتاميا.

مصر نوع من الواحة في طرف الصحراء؛ المطر نادر جداً هنا، وينظر إلى هذا المطر النادر نذير شؤم. لكن فيضان النيل يؤمن للبلاد رطوبة كافية وأجود أنواع السماد، أي الطمي. والنهر الذي يبدأ يطفح في شهر تموز، يغمر كل الوادي. يبقى الماء حتى تشرين الثاني، ثم ينخفض بالتدريج. وبعد الشح، يبقى على التربة طمي خصب، مركب من بقايا النباتات المائية العفنة والجزئيات المعدنية. وفي كانون الثاني، تفلح الأرض وتبذر. وبفعل الغرين الذي يغطيها، تعطي محاصيل وفيرة. فمن الطبيعي أن يقدس المصريون النيل منذ أقدم العصور.

تقي الرمال والبحر مصر من الهجمات المفاجئة. ومن هذا الطرف، كان موقعها أفضل من موقع ميزوبوتاميا سهلة البلوغ. على هذا، لم تكن مصر بمنجى من الغزوات، لكنها كانت أقل بكثير مما تعرضت له ميزوبوتاميا. ومصر لم تصب بالدمار الرهيب الذي تحملته بابل، مثلا.

سكان مصر الأولون

في العصر الحجري القديم، يوم كانت الأمطار الغزيرة تحمي النمو السريع للأشجار والنباتات حيث تنبسط اليوم رمال الصحراء الرتيبة، لم يلج الناس أبدا وادي النيل، الذين إذ كانوا يعتبرون فيضانه الصاخب داهية دهياء. وأدوات العصر الحجري القديم لم تكتشف إلا في الجبال الواقعة على ضفاف الوادي. فقط، تطور الجني جيد التنظيم وزراعة الأرض المروية طبيعيا، شدت الناس إلى أرض ضفاف النيل، لكن هذا كان في العصر الحجري الحديث والوسيط.

كانت قبائل العصر الحجري الحديث تعمر مصر في الألف الخامسة قبل الميلاد، تعيش من الصيد والقنص، لكنها تهتم أيضا بالزراعة وتربية المواشي والطيور: كانت تزرع القمح، الشعير والكتان، تربي الخنازير، الأبقار والأغنام. بداية، أقام الناس في أرباض الوادي حيث كانت الواحات (الفيوم)، حيث تسيل السيول الجبلية التي توفر الماء الضروري للحقول.

تنتسب قبائل وادي النيل إلى مجموعات أثنية مختلفة، كما تثبت أبحاث تكون الإنسان التي تكشف أن سكان مصر الأولين يضمون جماعات تمت إلى الليبيين، والزنوج وربما إلى قبائل سامية من جنوب فلسطين.

لقد توثقت معطيات الانتروبولوجيا[1] - بالمواد الأثرية التي تشهد على وجود مختلف نماذج القبور: على المجرى الأوسط للنيل، كانت قبائل الحضارة "التازية *taienne*" تدفن موتاها في مقابر خاصة، تاركة أباريق مترعة بالغذاء، بينما يدفن سكان شمال مصر (مناطق حلوان، مريمدي) وفياتهم تحت تراب أكواخهم، على الخاصرة، باتجاه النيل، ولايمونونهم، مفترضين على الأرجح أن أرواح الموتى تقاسم كل يوم الأحياء وجبتهم.

---

[1] - تكون الإنسان.

أخيراً، تثبت دراسة اللغة المصرية القديمة –استناداً إلى الآثار التي تعود إلى حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد– أنها تتضمن، عدا العناصر *chamitiques*[1]، عناصر سامية.

يمنحنا كل هذا الافتراض أن الأمة المصرية تكونت في وادي النيل بعد اتصال جماعات أثنية أتت من الغرب، والجنوب والشرق.

في الالف الرابعة قبل الميلاد، حققت القبائل المصرية تقدماً عميقاً في مختلف فروع الاقتصاد: فنضوب الواحات وجفاف السيول أكرههم على حراثة الأراضي التي يرويها النيل؛ ولصنع الادوات والحلي استخدموا المعادن (الذهب، النحاس)، الأمر الذي دفع المصريين على إقامة وشائج متينة مع البلدان المجاورة؛ وإتقان صناعة الصوان والخزف. أفضى كل هذا إلى زيادة السكان، وتعزيز وضع القبائل من جهة، ومن جهة أخرى، إلى ظهور عدم المساواة بالثروة والشروط، وقسمة المجتمع إلى عبيد، أحرار وأرستقراط. وتفكك نظام العشير.

مشاعية الجوار والقبائل (مشاعية الجوار *les nomes*)

في المرحلة التي تلت الارتقاء الاقتصادي، اتجه الناس لتشييد منشآت بدائية للري لتنظيم وصول مياه النيل –مصدر الماء الوحيد– إلى الحقول. ومع الزمن، كون الطمي، على طول النهر، هضاباً عالية كونت في سنة الفيض الضعيف، عقبات في وجه الغمر، وحالت دون تصريف المياه من الأراضي: وفقدان المصرف سبب المستنقعات.

كانت أولى أعمال الري كانت حفراً بسيطة في جروف النيل، حيث السدود الخاصة تنظم الصبيب. وفيما بعد، تعلم المصريون إدارة الأقنية التي تحول المياه وتسقي بالدور الحقول المحيطة بالسدود.

رفع استخدام المحراث مردود العمل الزراعي، وابتكار الدوران حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد يثبت أن صنع الفخار كان قد صار حرفة مميزة. وظهر صناع مهنيون –باعة الخردوات، قصاصو الحجارة– في الأرجح في الفترة ذاتها. وأقيمت علاقات غير منتظمة مع البلدان المجاورة، وربما حتى مع سومر.

وأخيراً كان ابتكار الكتابة الرسمية إنجاز العصر الأهم.

---

[1] – مجموعة لغات: مصرية، بربر، وفي أفريقيا، كوشتيك *couchitique*.

المعطيات الأثرية التي تميز تطور العلاقات الاجتماعية شديدة الإيجـــاز. يمكــن أن نقول: إن العبودية بدأت في الألف الرابعة: فالتماثيل الصغيرة للأسرى وقد قيدت أيديهم إلى ظهورهم هي البرهان على هذا، كما يبدو. وإلى جانب الملكية على الشيوع، ولدت الملكيــة الخاصة: شاراتها، المسماة تامغا، نقشت بعامة على الدوارق؛ في الغالب، دوارق نفس القبر تحمل ذات التامغا. وتطور تربية الأنعام والطيور، والزراعة بالسكة الحديد، والمهن، قلـص الدور الاقتصادي للمرأة في الإنتاج وأفضى إلى إرساء عهد الأبــوة. وقــد انتــهت هــذه التطورات إلى هدم نظام العشير وولادة مشاعية الجوار، المؤلفة مــن الأســر الصغــيرة والكبيرة. وكما هو الامر في ميزوبوتاميا، مشاعية الجوار هي مشاعية المياه والأرض، أي الملكية المشتركة بالأرض والماء خاصة.

شكلت بعض المشاعيات جزءا من اتحادات أرضيــة أوســع، طبعــا مــن القبــائل السابقة؛كان اسمها في مصر (سبات)، لكن المؤرخين اعتادوا إعطاءها الاسم اليوناني قبيلـة *nome*. ومن الملفت أن الكتابة النقشــية-التصويريــة *pictagraphique* المصريــة تمثــل الــ(السبات) بصورة حقل مقطوع من القنوات، وكان تنظيم شبكة الري واحدا مــن أهــم اهتمامات القبائل.

بالأصل، كانت القبائل منفصلة عن بعضها، بخاصة في الدلتا، حيث تشكل أفرع النيل والمستنقعات حدودا طبيعية.

ربما كان لكل قبيلة لهجتها؛على كل حال كان لها أساطيرها وخرافاتها، كانت أكــــبر القبائل هي القبيلة الفيلية[1] في أقصى الجنــوب، و*hie*، *raconpolis, Abidos,* *Memphis et Bouto* كانت القبائل تتحارب، من أجل توزيع الأسلاب أو العبيد، أو بســبب النزاعات التي يثيرها شح المياه. ثمة نقوشات على صفائح من العاج أو الحجر تمثل مشاهد المعركة؛ وتكشف أنهم كانوا يتخاصمون بشأن الماء والأرض.

يرأس كل قبيلة رئيس، أحدهم هو الملك العقرب، الذي وضع تحت سلطته مســاحات من الارض تبدأ من هياراكونبوليس حتى مامفيس. قبضة أسلحته الحجرية المكتشــفة فــي هيارا كونبوليس، مزينة بصوز أبو منجل[2] مربوط، يرمز إلى أعداء الــ"الملك". ورايــات

---

[1] – نسبة إلى الفيل.

[2] – طائر مائي طويل القائمتين والمنقار.

مزينة بحروف هيروغليفية تخفق فوقه: يذكر هذا المشهد على الأرجح بانتصار العقرب على العواهل الخصوم.

تحمل هذه القبضة رسم العقرب يمارس مهام الملك-الكاهن: المنكاش باليد، يحرسه اثنان من ذويه يهشان بالمروحة، يرسم الثلم الأول لتأمين موسم وفير، ورجل آخر يرمي الحب في الثلم، يأخذه من سلة.

المعطيات التي بين يدينا عاجزة عن تمييز سلطة الملك العقرب. وبما أن الدولة لم تكن قد وجدت بعد، كان لابد من اعتبار العقرب رئيس قبيلة وليس ملكاً باتساع الكلمة. ينتج من هذا أن محاولات توحيد وادي النيل سبقت تشكل الدولة. وفي هذه الحقبة الزمنية، على الأرجح، تشكل اتحادان كبيران من القبائل، يحكم الأول الدلتا الإقليم المتاخم لممفيس (سمي مصر-السفلى)، والآخر (مصر-العليا) يمتد نحو الجنوب حتى الفانتين *Ele'phontine*. بداية، كان مركز مصر-السفلى بوتو *Bouto*. ومركز مصر-العليا هياراكومبوليس.

الإمبراطورية الثينية

تتشكل الدولة بعيد ملك العقرب، في أيام الأسرتين المالكتين الأُولى والثانية (نهاية الألف الرابعة). قبور هذا العهد تشهد على مساواة واضحة في الثروة والشروط: الناس البسطاء مدفونون في حفر بسيطة تضم سحلية بسيطة، بينما قبور الملوك والسادة صروح معمارية فعلاً. فقبر حيماكي، مثلاً، يضم ٥٠ غرفة وجد فيها حوالي ٢٠٠٠ مادة (رغم سرقتها فيما مضى من الزمن). ومنحوتات وأنصاب العصر تقدم عامة الشعب عارياً تقريباً، الشعور حليقة، مع أن النبلاء يرتدون أفخم الثياب والشعور المستعارة للرأس واللحى. وكان عبيد الملوك والنبلاء مدفونين قرب سادتهم.

المحطة الأولى من وجود الدولة المصرية سميت الإمبراطورية الثينية. تدوم تقريبا من القرن الثلاثين حتى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد. وربما ولدت الدولة في نهاية الألف الرابعة؛ لكن الثابت أنها وجدت في العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. تثبت الآثار النادرة لاتحاد الشمال والجنوب أن النضال الذي سبقها كان طويلا وضاريا. ونحن نجهل اسم الملك الذي وحد البلاد. وحسب موروث جمعة هيرودوت، كان مؤسس الأسرة الأولى هو مينيس. لكنه كان اتحادا غير مستقر. شريحة حجرية تقص حكاية انتصار نارمير، ملك مصر-العليا، على مصر-السفلى؛ وبعد هزيمة العدو، أسر نارمير ٦٠٠٠ مقاتل. ربما كان

الحديث يدور حول إبادة تمرد نشب في الشمال.

في نهاية حكم الأسرة الثانية أعلن عصيان آخر في مصر-السفلى، كلفت إبادته خمسين ألف قتيل.

الفصل العاشر

إمبراطورية مصر القديمة

الاقتصاد والنظام الاجتماعي

عاشت دولة العبودية المصرية قرابة ألفين وخمسمائة سنة: من نهاية الالف الرابعة حتى العام ٥٢٥ قبل الميلاد يوم قهرها الفرس. وينقسم تاريخ الدولة المصرية إلى خمس محطات: الإمبراطورية الثينية، الإمبراطورية القديمة، الإمبراطورية الوسطى، الإمبراطورية الجديدة والعهد الأخير. وتميزت أيضا حقب انتقالية. تقسم العهود إلى أسر مالكة. الإمبراطورية القديمة التي تمتد تقريبا من القرن ٢٨ حتى ٢٤ قبل الميلاد، تبدأ مع الأسرة الثالثة وتنتهي مع الأسرة الثامنة (لانعرف شيئا تقريبا عن الأسرتين الأولى والثانية).

في مصر كما في ميزوبوتاميا، يؤسس الاقتصاد على حراثة الحقول وتربية المواشي والطيور، وري معقد، زراعة الكرمة، والأشجار المثمرة، مواد زراعية بدائية، من نموذج العصر الحجري الجديد. كان المنكاش والقفف لنقل التراب الأداتين الوحيدتين المستخدمتين في حفر الترع وتشييد السدود؛ كانوا يحرثون بالمنكاش أو المحراث الخشبي، تجره البقر؛ وفي الحصاد استخدم نصل الصوان ذو المقبض الخشبي؛ يداس العنب بالأقدام ويدرس القمح بوطء البهائم الصغيرة على السنابل المنتشرة على البيدر.

كانت أدوات الحرفيين من الحجارة من الخشب ومن النحاس؛ كان أغلب الأدوات النحاسية مطروقا وليس مصبوبا أو مسكوبا. وكانت الأدوات النحاسية تستخدم بسعة لتسوية الخشب وبخاصة الحجارة الطرية.

بواسطة السكاكين والبلطات النحاسية، صنعوا المراكب (التي وجد بعضها قرب القبور الملكية، وسكةالمحراث الحديدية، ومواد أخرى؛ كان قاطعو الحجارة المصريون، المسلحون بهذه الأدوات البدائية نفسها، يصنعون صفائح كلسية قابلة للإتقان.

لقد وصلتنا أعمال هامة، نحوت وجداريات قبور تخص الارستقراطية المصرية، تمثل أنواعا من الأعمال الزراعية ونشاطات الورشات الحرفية. بعض هذه الورشات متخصص: النجارة الضخمة والدقيقة، مدابغ، نسيج منفذ أعمال دقيقة لكنها من نوع محدد؛ هكذا صنعت ورشات النجارة حاجات دقيقة من الخشب وكذلك المراكب الضخمة.

وحلقات أخرى من مهن مختلفة: باعة الخردوات والصاغة، الدباغون، قاطعو الحجارة، إلخ. أغلب الحرفيين ذكور؛ فقط النساجون، في زمن الإمبراطورية القديمة، نسوة. ومكان خاص يعود للمهن التي تعالج المنتوجات الغذائية، على رأسها الأفران ومعامل الجعة.

رغم تطور المهن يستمر الوفر في الاجمالي الطبيعي؛ إن نزل جزء من المنتوجات إلى السوق، يظل التبادل بدائيا: يبادل منتوج بآخر؛ السمك، مثلا، يبادل بالحذاء أو الخضار لقاء النسيج. ولما كانت النقود لم تعرف بعد، يبادل النحاس بالوزن. على هذا، ترسخت العلاقات الاقتصادية مع البلدان المجاورة، بخاصة مع سوريا، فمنها يأتي خشب الأرز. والسلع الآتية من سوريا وأثيوبيا هي بعامة المواد الكمالية التي لاتهم طبقة الكادحين.

العلاقات الاجتماعية في الإمبراطورية القديمة غير معروفة: فلم يعثر تقريبا على وثائق الشؤون المصريةن المماثلة لرقم الفخار السومرية للألف الثالثة؛ أما المشاهد التي تزين جدران القبور تشير جيدا إلى تقنيات الإنتاج، لكنها لاتخولنا معرفة وبالضبط لمن تخص الأرض، ولم تكن الشرط الاجتماعي للرعاة، الحصادين أو قاطعي الطرق.

في المجتمع المصري، انتشرت العبودية. شكلت الحرب مصدراً للأسرى وبالتالي للعبودية (من الاثيوبيين والليبيين) الذين يأتي بهم الملوك من غزواتهم. يختال عاهل من الأسرة الرابعة، في نقوشه، انه أسر مرة مائة ألف أسير ومرة أخرى سبعة آلاف. لكن ماعدا هؤلاء الأسرى، كان بين العبيد مصريون استعبدوا: فانحدار الناس الأحرار إلى عبيد مذكور في النقوش العائدة إلى نهاية الإمبراطورية القديمة. ومعروف أيضاً أن العبيد كانوا يشرون ويباعون.

ليست حياتهم أكثر من مكان للفرضيات. وفي كل حال، تبقى العبودية أبوية: فالعبيد لايشغلون مكاناً خاصاً في عملية الإنتاج؛ الناس الأحرار وحتى الارستقراطيون -سادة وكهنة- يشاركون بالأعمال الزراعية وغيرها.

أنباء الملكية ضئيلة جداً. في الأرجح، كانت النواة الاقتصادية للمجتمع دوماً هي مشاعية الجوار التي تنظم توزيع المياه على الأراضي. وربما حفظت المشاعية المصرية أنواعاً من العمل التعاوني في تقسيم أعمال الري ومنشآته أو درس القمح: وتدرس القرى حبوبها على بيدر مشترك. وليس واضحاً أمر التنظيم الداخلي للمشاعية المصرية، لكن الثابت ان الأرض والأنعام كانت، في زمن الإمبراطورية القديمة، تباع أو تترك إرثاً. وحسب ف.أفدييف، كانت جمعية خاصة تضطلع بشؤون المشاعية (توزيع المياه، والدعاوى وسواها).

كانت المشاعية تتضمن أسرا أبوية صغيرة وكبيرة. وكان المالك الرئيس هو الابن البكر، الذي يحصل على الثروة كلها أو الجزء الأهم؛ على ذلك، لرئيس الأسرة الحق في أن يوصي بأرزاقه لشخص غريب. تتمتع سيدة البيت بنفوذ واسع: المصري هو ابن هذه وليس ابن ذاك؛ وبقايا الأمومة كانت تبين أيضا في قدرة المرأة على حكم البلاد و(نظريا) ينتقل عرش مصر من الأم إلى البنت. وفي حقول وورشات الملك، والمعابد والسادة، لايعمل العبيد فقط، بل أيضا الناس الأحرار، المشار إليهم في بعض النصوص باسم ميرتو *mertou*. ويشكلون عادة طواقم يديرها رؤوساء. ورسوم ونقوش القبور، تقدم هؤلاء الرؤساء مسلحين بسوط او هراوة. لانعرف إن كان الـ(ميرتو) أعضاء في المشاعية أم أنهم تركوها لسبب ما. يفترض بعض العلماء أنهم كانوا عبيدا، لكن غير معروف كيف يحدث هذا.

كان الحسبة يراقبون بدقة عمل العمال. وفي أثناء تنفيذ المهمة، كان هؤلاء يتلقون أغذية: خبز، بيرة وخضار. ولانعرف كيف كانت تنظم السخرة؛ أما المؤكد، أنها لاتستغرق كل وقت الشغيلة: لهم أن يعملوا لحسابهم ويبيعون في السوقماينتجون.

تشمل الطبقة السيدة نبلاء القصر وارستقراطية القبائل (النوم)، الذين انحدر أغلبهم من حكام النوم). كان السادة يملكون أراض شاسعة تشمل قرى منفصلة. وكان يدير الاقتصاد العديد من الموظفين والحسبة. كان قسم من هذه الأملاك ميراثا، لكن النبلاء يتلقون أيضا أراضي من الملك، مكافأة لخدمتهم. كان علية الكهنة ينتسبون أيضا إلى الطبقة المهيمنة.

عدا أعيان الارستقراطية، كان ثمة موظفون صغار وكهنة يملكون عبدين أوثلاثة عبيد (بعامة من النساء). ليس لهم ان يبنوا قبورا فخمة، بل يسكنون أقبية مزدانة بالنقوش والنحت.

النظام السياسي للامبراطورية القديمة

في أوج الإمبراطورية القديمة، كانت الدولة المصرية هيئة استبدادية تدافع عن مصالح النبالة المستعبدة. وكانت أعتى وأشد مركزية من دولة سارغون في ميزوبوتاميا؛ يعلل هذا بخاصة في الشروط الطبيعية لوادي النيل، حيث تقيم القبائل في بقعة ضيقة على حوافي نهر فريد. والتوزيع المعقلن للمياه والاستثمار الطبيعي لوسائل النقل غير ممكنة إلا في مصر موحدة.

كانت ممفيس عاصمة الإمبراطورية القديمة، في مصر-السفلى. وكما تدل المعطيات الأثرية، كانت أملاك وقصور الأرستقراطية في هذه المنطقة. فحول ممفيس (في الجيزة، أبوصير، ساكاراه، إلخ.) عثر على الشهود الرئيسيين لازدهار الإمبراطورية القديمة، بينما لم يعثروا في باقي بقاع البلاد سوى على آثار منعزلة.ومصر-السفلى (بخاصة الدلتا)، المنطقة التي احتلها نارمير وملوك آخرون من الأسر الأولى، كانت تشمل غالبية المراعي والكروم الملكية، بينما كانت مروج الدلتا تغذي قطعانا ضخمة من البقر والأغنام. وكانت الأملاك الملكية القاعدة المادية للسلطة الحاكمة.

كان الملك، الذي دعي فيما بعد فرعون (*depeaa* التي تعني بالمصرية "البيت الكبير") يحكم حكما مطلقا يعين الموظفين الكبار، يعزل الحكام، يفرض الأتاوات، يرسل الجيوش إلى البلدان المجاورة، إلخ. يقدر أن يصادر أرزاق رعاياه ويحكمهم بالموت بدون محاكمة. ليدعم نفوذه، قدس وأعلن "الإله الأكبر" :تعبد ابتهالي يقام حول شخصه. ويعتبر حتى تقبيل حذائه يعتبر شرفا عظيما. يقدمه فنانو مصر معادلا للآلهة.

كان الفرعون يرتكز إلى جهاز واسع من الموظفين يديرهم الوزير الأول، المسمى بالعربية الـ":فزير". كان الوزير قائد الجيوش ، والقاضي الأول؛ فرض الضرائب، أعمال الري ومنشآته، وبكلمة، كل المهام الرئيسة للحكومة المصرية تصدر عنه. تحت إشرافه "ست قاعات" تحقق العدالة، و"غرف" أخرى ترأس مختلف فروع الاقتصاد.

كان عدد خدمات الدولة المصرية الاستبدادية الرئيسة ثلاثا: العامة التي تتولى بخاصة أعمال الري؛ الجيش ("قاعة السلاح") التي تسرق الشعوب الأخرى. كان الجيش المصري ميليشيات مؤلفة من فئات تجهزها القبائل (النوم) ومتطوعين أثيوبيين. يمكن الظن أن هذه الوحدات تفتقر للانضباط؛ وفي كل حال، يذكر أحد القادة بفخر أن فصائله لاتسرق

المصريين، لاتحطم الأبواب لتنهب الخبز والحبوب. كان المحـــاربون مسـلحين بــأقواس وأكوام من الحجارة،وفيما بعد استخدموا الخناجر والبلطات البرونزيـــة كســلاح دفـــاعي، وتدرعوا بدروع مصنوعة من جلد الحيوانات. وكانت التكتــات تشـكل منشـآت دفاعيـــة حصينة: هكذا، كانت القلعة القريبة من أبيدوس ذات سورين من الآجر، تقيس من الداخــل ١٢م ارتفاعا وسماكة القاعدة قرابة ٦م.

كانت المعابد تساهم بنشاط بتعزيز السلطةِ الملكية. وعند أفول الإمبراطورية القديمــة، تلقى بعضها الوثائق التي توزع المرتبات الملكية على، ليس فقط الكهنة، بــل علـــى كـل الجهاز، الأحرار والعبيد.

لقد أثارت قضية الوثائق جدلا عنيفا: اعتبرها اغلب العلمـــاء امتيـــازات ورأوا فيـــها برهانا على وجود الإقطاع في مصر القديمة. إن وثائق الإمبراطورية القديمة لاتمت بصلــة إلىامتيازات العصر الوسيط: فهي لاتعطي المعابد أي اســـتقلال، أي حــق مدنـــي علـــى جهازها، بل تهدف إلى حرمانها من سلطة الحكام الذين يفرضون السخرة علـــى الســكان المحليين، وبهذا تجعل المعابد دعاة لسياسة الفرعون.

انطلاق سياسي للإمبراطورية القديمة

إن التاريخ السياسي للامبراطورية القديمة غير معروف معرفـــة كافيـــة؛ فـــالنقوش المحفورة على القبور لاتعطي سوى معلومات جزئية عن هـــذا الحــدث أو ذاك (أحيانـــا رئيسي)؛ والنصوص الأحدث على البابيروس المصري والمانتون تتضمن بخاصة خرافات تصعب غربلتها وأخذ الوقائع التاريخية منها. هذا إذا لـــم نذكـــر أن التسلســل التـــاريخي للامبراطورية القديمة مستقر استقرارا تقريبيا.

كان فراعنة الأسرتين الثالثة والرابعة فاتحين غزاة. يتميز سينفرو، من الأسرة الرابعة يتميز بشكل فريد: حملة إلى إثيوبيا جلبت له الكثير من الأســـرى و٢٠٠٠٠٠ رأس مـــن الماشية؛ وانتصر على ليبيا، وضم إلى مصر سيناء الغنية بمعدن النحاس وأرسل حملة إلى فينيقيا لتأمين خشب الأرز. وعلى تخوم مصر أقام حصونا حصينة لحمايـــة البـــلاد مـــن الغزوات.واستمرت حروب الغزو في حكم ابنه شيوبس (خوفو باليونانية) الذي غـــزا هـــو الآخر سيناء.

ويشرع ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة بأعمال بناء ضخمة، على رأسها، الأهرامات،

التي رتبها اليونانيون مؤخرا بين عجائب العالم السبع. الأهرامات قبور رائعة للملوك، مبنية بالكتل الحجرية. أضخمها (قرب قرية الجيزة، في أنحاء ممفيس) بني من أجل خوفو؛ يبلغ طول ضلع القاعدة ٢٣٠م، وارتفاعه ١٤٦,٥م ،ومكون من مليوني حجر زنة الواحد منها ٢,٥ طنا. في داخل هذا الصرح العملاق أروقة وقاعات.

كان الأهرام الذي ضم جثمان الفرعون، مخصصا للطقوس الإلهية التي، حسب المعتقدات المصرية، تؤمن بعث الملك ودخوله مقام الآلهة في السماء. إلى جانب الأهرام تقام المعابد حيث يحيي الكهنة احتفالات سحرية.

كانت الأهرامات محاطة بقبور الملوك التي تسمى بالعربي مصطبة *mastaba*. في زمن حكم الأسرتين، الأولى والثانية، ماكان يسمح أن تكون قبور السادة أوسع من قبور الملوك.ومصاطب الإمبراطورية القديمة، وهي صروح حجرية، تبدو ضئيلة قياسا مع الأهرامات الضخمة؛ يشير هذا الفرق بشكل ما إلى عتو ملوك مصر وسعة نفوذهم واستبدادهم.

لبناء الاهرامات كانوا يجندون فصائل من العمال الذين يتلقون من المخازن الملكية مواد الإعاشة والثياب. وجدت شارات على الأهرامات خولت الأثريين حساب عدد هذه الورديات. نعرف، مثلا، أن أهرام خوفو كان يشغل أربعة ورديات، مكونة من قاطعي الحجارة المهرة، يقودها مهندس معماري من لدن الملك ورئيس عمال. كان يساعد البنائين جماهير من اليد العاملة، كان يوجد بينهم بالتأكيد أعضاء من المشاعات، انتزعوا من العمل الحقلي وأرسلوا إلى الجيزة لقص الحجارة، وحملها حتى الورشة على ظهورهم ورفعها، بواسطة صقالات خشبية وحبال، إلى علو مذهل.

كان البناء يتطلب جهودا جبارة. سمع المؤرخون اليونان أحاديثاً عن غضب الشعب الناتج عن هذه الأعمال: حسب ديودور، رمى المتمردون رفات الفراعنة خارج قبورهم الفخمة.

أيا كان الأمر، فقد عزف فراعنة الأسرة الخامسة عن بناء أهرامات ضخمة: فقبورهم المبنية في سكاراه، متواضعة جدا قياسا إلى قبور الجيزة. مع ذلك، رفع هؤلاء الملوك على شرف راء، إله هليوبوليس، معابد مزينة بالمسلات البيضاء بارتفاع سبعين مترا.

تابع فراعنة الأسرة الخامسة حروب الفتوح: تتحدث نقوشهم عن نزاعات مع قبائل

سيناء، الرازياس في ليبيا. تعززت مع سوريا العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية: وجـــدت منحوتة تمثل مراكب آتية من شواطيء فينيقيا ويفترض بعض الباحثين تمثيل وصول أميرة سورية تزوجت الفرعون ساهورا. وفي أيام بيبي الأول، من الأســرة الخامســة، نظمت بعثات ضخمة: كانت الجيوش المصرية تتغلغل من حين إلى آخر في شمال أثيوبيا وجنوب فلسطين. والمنحوتة أووي تقص عن الدمار المرتكب في فلسطين: دمر الغــزاة المحـال، قطعوا أشجار التين والعنب ، ورجعوا بمساجين يسميهم المصريون اسما معــبرا "الموتـى الأحياء".

تنامي نفوذ أرستقراطية الـ(نوم) وتراجع سياسة مصر

في أيام حكم الأسرتين الثالثة والرابعة، كانت السلطة الملكيـــة تتوطـد: كـان هـذا ضروريا لتوحيد مصر وتأمين مسار طبيعي لنهج الري؛ وسحق مقاومة العبيد والمشـاعات والحصول على سرايا العبيد من أثيوبيا، ليبيا وفلسطين؛ أخـيرا لتكنيـس بقايـا النظـام العشيري. كان الفراعنة سنيفرو، خوفو وأخلافهما قد نجحوا، إجمالا، بتحقيق هذه المهام.

بدءا بمنتصف الألف الثالث، لوحظ اتساع سلطة النبلاء، بخاصة حكام الـ(نوم). وفي أيام الأسرتين الخامسة والسادسة، صارت قبور السادة أفخم. لم تعد تقـاس فـي منطقـة ممفيس، بل في الـ(نومات). كان حكام الـ(نوم) يعززون مواقعهم في الأقاليم ويصـيرون سادة وارثين ومستقلين. وكوفور، حاكم اليبانتين، الذي حكم في أيـام الاسـرة السادسـة، يخاطر ويرسل حملات إلى أثيوبيا للحصول على العاج، البخور وجلود الحيوانات. يعترف بالسلطة الاسمية للفرعون ويهديه قزما للتعبير عن الفرق، لكنه يحتفظ بأضخم الأسلاب.

كيف يعلل نمو سلطة الحكام؟ المصادر التي نملكها حاليا لاتعطينا سوى الافتراضات.

من الطبيعي أن يغضب استغلال البلاد في مصلحة شريحة ضعيفة من النبلاء تقيم في ممفيس، أن يغضب الشعب غضبا جديا، وخاصة في مصر العليا. ومن جهة أخــرى، أن يقلص التوزيع المستمر للأرض على السادة والمعابد (بخاصة في أيام الأسرتين الخامسـة والسادسة)، ان يقلص بوضوح الأملاك الملكية ويضعف السلطة الفعلية للفراعنـة. ولقـد أفضى تطور الملكية الخاصة وتفكك المشاعة المجاورة إلى اتساع أملاك الحكـام؛ وكـان هؤلاء يستغلون الغضب العام الذي تسببه الأعمال الضخمة الملكية، وسياسـة الموظفيـن الضريبية. وفي نقوشهم، كان الحكام يقفون مدافعين عن الشعب: يفخر أحدهـم ويتبـاهى

بتقديم الخبز، الجعة والثياب للبؤساء؛ ويعلن حاكم آخر أنه الأخير في المدينـــة، انــه نيــل الـــ(نوم).وكان تعزيز وتوطيد نفوذ الحكام، يترجم إلى ضعف وتراجع لســـلطة الفراعنـــة. لابل فقد آخر ملوك الأسرة السادسة كل نفوذ، ويقول لنا مانيتون: إن سبعين فرعونـــا مـــن الأسرة السابعة حكموا إجمالا سبعين يوما. على احتمال أن الأسرة السابعة لم توجد أصـــلا، فالخرافة التي ينقلها لنا مانيتون تنبئنا عن جو تلك الحقبة المضطرب. ولم يدم ملك الأســـرة الثامنة طويلا. وفي نهايةِ المطاف، آلت مصر إلى نومات، أي إيالات.

لقد انعكس تصدع البلاد بعنف على الري: في كثير من الأمكنة أهملـــت المنشـــآت، وركدت المياه، مشكلة المستنقعات. ونشبت النزاعات بين النومات، ونجم أغلبها عن توزيع الماء. كان الحكام يهاجمون في الأغلب المناطق المجاورة التي يبحث سكانها عن ملجأ لـــهم في المستنقعات.

وترافق تخلخل امبراطورية مصر مع نضال طبقي حـــاد: كتابـــات بعـــض الحكـــام لاتتحدث إلا عن "الاضطرابات" التي تقلب المدن؛ ويفخر هؤلاء الحكام بكبح الاضطرابـات بمؤازرة سرايا المحاربين.

وفي هذه الحقبة، على الأرجح، أفادت قبائل سامية من الصحراء السورية من خـــور الدولة المصرية لتتغلغل في شرق الدلتا.

الفصل الحادي عشر

امبراطورية مصر الوسطى

إعادة توحيد مصر

أدى تفكك البلاد إلى مناطق منعزلة إلى انهيار الري، انـــدلاع الحـــروب الداخليـــة، وبالتالي، الجوع. تشير مدونات العصر إلى الفقر المدقع الذي دفع إلى أكل لحـــوم البشـــر. فكان توسيع حقول القمح، وإعادة الأرض إلىالإنتاج مسألة في غاية الإلحاح. وفي الأرجح، في حقبة الانتقال إلى الإمبراطورية الوسطى يبدأ المزارعون المصريون باستخدام الحقـــول الـــ"العالية" بسهولة، أي الحقول التي لايغمرها النيل في أثناء الفيضان. كانوا ملزمين علـــى سقايتها بواسطة الآلات الرافعة التي كان الشادوف أبسطها. وربما كانت حراثـــة الحقـــول العالية سببا في ظهور سكة حديد متقنة، مزودة بمقبض يسهل عمل الفلاح.

طيلة المرحلة الانتقالية، تختفي الحقول الواسعة من أرستقراطية العاصمة، فقد تعبـــت كثيرا فرق ***demertou*** العديدة. وصارت أملاك السادة أقل اتساعا وحرثها بشكل عام عبيـــد سموا "رؤوسا". في النصوص القديمة. يملك السيد ٢٠-٣٠ "رأسا أغلبهم نساء. كان قســـم من العبيد أجانب، سوريين، مثلا.

في الوقت ذاته، تأخذ العناصر الغنية في المشاعة نفـــوذا أوســـع فأوســـع: تســـميهم المصادر ***puissanta nezes*** ("***nezeses***" تعني "صغير"): أي الأقوياء الصغار. امتلك هـــؤلاء الأقوياء الصغار أراض واسعة، ومواش وعبيدا؛ وأحيانا صاروا سادة ***seigneuss***، في هـــذه الحالة، كانوا يعلنون في مدوناتهم التوصل إلى النبل بطرقهم الخاصة وليس بالولادة.

وهكذا،في هذا العصر المضطرب، تتغير بنية الطبقة المهيمنة:في الإمبراطورية القديمـــة، كان المقام الأول وقفا على أصحاب الرتب العالية الذين يقطنون عادة العاصمة ويستغلون فـــي أطيانهم الشاسعة المصريين الأحرار،أما الآن تتألف الطبقة الحاكمة من أصحاب العبيد، الذيـــن يملكون أراض أضيق وكان بعضهم منذ مدة بسيطة أعضاء بسطاء في المشاعات.

كانت هذه الأرستقراطية الجديدة -بخاصة الأقوياء الصغار- مشغولين بتوحيد مصر، الأمر الذي يعدهم ليس فقط بإصلاح شبكة الري ونهاية الحروب الأهلية، بل أيضا بتوطيد جهاز الدولة ؛ فكانوا بحاجة لحكومة قوية لتثبيت وضعهم في البلاد وزيادة عدد عبيدهم في أثناء الامتداد.

بداية، تحقق التوحيد حول هيراكليوبوليس، التي نجح أمراؤها بإخضاع ممفيس؛ وفي الجنوب، امتدت أراضيهم حتى أبيدوس . ثمة نص محفوظ ملفت، يرسم العلاقات الاجتماعية تحت حكم هيراكليوبوليس: هو تعليمات الملك كحيتي. يدافع كاتب هذا النص السياسي -وهو الملك بالذات أو مستشاره- يدافع بوضوح عن مصالح الطبقة الحاكمة. المحروم من الملك، متمرد أبدا. ويجب على الملك أن يكون قاسيا مع الشعب. أما السادة ورثة التاج عليهم أن يصونوا ملكهم وحياتهم. لأن "ثروتهم تفيد التاج". بين الارستقراطية التي يعتمد عليها ملك هيراكليوبوليس، يشغل الأقوياء الصغار مقاما هاما. ينصح كحيتي الثالث وريثه برفع الناس حسب مهنتهم، بحسب "أهليتهم" وليس بناء على أصلهم.

تدل هذه الوثيقة أن كحيتي الثاني يؤسس سلطته على طبقة محددة. ويذكر أيضا السند المادي لهذه السلطة: جيش ممتهن من الشباب (ربما كانوا أولئك الذين تركوا أسرهم الأبوية المتصدعة).وتكشف وصايا كحيتي الثالث عن مفهوم جديد للسلطة الملكية: لم يعد الملك "إلها"، بل هو راع صالح، حكيم يهتم بشعبه. يقدم كاتب النص عاهل هيراكليوبولس مدافعا عن "الأرملة واليتيم".

لكن الجيش المحترف والديماغوجية لم تؤمن الاستقرار لهذه الأسرة: فالوحدة أتت من الجنوب، من حكام طيبة؛ فالتناحرات الاجتماعية فيها يجب أن تكون أقل حدة مما في الشمال حيث سلطة الحكام تتجاوز غالبا سلطة الفرعون. وعواهل طيبة الذين سموا مانتوحوتيب، حكموا مصر كلها: والرواية التاريخية تربط مانتوحوتيب طيبة بالأسرة الثانية عشرة (من القرن العشرين حتى بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد).

السياسة الداخلية والخارجية للامبراطورية الوسطى

إن مؤسس الأسرة الثانية عشرة أمنحيت الأول هو الذي قضى نهائيا على التوجه الانفصالي لدى الحكام وخلق دولة وطيدة. لكن رؤساء القبائل (النوم)، مع الاعتراف بسلطة الفرعون المركزية، حافظوا على استقلال محلي. وحافظت القبائل على إدارتها،وعدالتها

وخزينتها، التي تأسست في أيام الأسر السابقة، والقوى المسلحة المستقلة. كان الفراعنة مضطرين للاكتفاء بإرسال الرجال إلى الأعمال الملكية. واحتفظ أعيان القبائل بفرض الضرائب وتجنيد اليد العاملة للملك ولأنفسهم.

من وجهة النظر الضريبية، كانت أملاك بعض الـ(نومات) الضخمة تقسم إلى منطقتين: منطقة الملك ومنطقة الحاكم. وكان على الحكام -رؤساء النومات، بناء على أمر فرعون، أن يتبعوه في الحملات العسكرية. لكنهم كانوا يتصرفون كملوك صغار، سموا "السادة" يبنون قبورا، ويشيدون معابد للآلهة المحلية.

كان فراعنة الإمبراطورية الوسطى يمارسون وظائف ويتخذون تدابير في مصر كلها. نذكر بهذا الصدد، الهم الذي يعانونه من ترميم وإصلاح نظام الري. تم أكبر هذه الأعامل على بعد ٥٠كم جنوب-غرب ممفيس، حيث كان يوجد من زمن سحيق القدم منخفض واسع أوطأ من البحر بـ٤٠كم. كانت فيضانات النيل قد حولته إلى بحيرة شاسعة -بحيرة موريس- المحاطة بالمستنقعات. بدأ أمنمحت الثالث (١٨٤٩-١٨٠١) أعمالا ضخمة لتجفيف المنطقة. بنيت حول البحيرة حواجز سميكة وحفرت قنوات لتغذيتها وتصريف المياه الزائدة. جففوا أكثر من ٢٥٠٠ هكتار وصارت قابلة للزراعة. وأقيم فيها نصبان هائلان للفرعون، وقصر، ومعبد، بل ولدت هنا مدينة كاملة.

اتخذت تدابير أخرى على مستوى الوطن تهدف الدفاع عن الحدود. فحوالي نهاية الإمبراطورية القديمة كانت النومات السامية قد بدأت التغلغل في مصر. وإلى هذا التهديد الآتي من الشرق، أضيف خطر غزو الأثيوبيين من الجنوب. وليتفادوا كل هذا، دعموا الحدود الشرقية خلف الدلتا. نشبت الحروب مجددا؛ وانتهت في حكم سنوسرت الثالث، والد أمنمحت الثالث، بإخضاع القبائل الأثيوبية على طول ٣٠٠كم من مجرى النيل. وعلى الحدود الجديدة، قرب المحال الحالية كومح وسمح، بنى سنوسرت الثالث قلعتين ضخمتين، مازالت بقاياهما شامخة حتى اليوم. كانت حماية الحدود تحتاج إلى جيش دائم. واحتاج الفراعنة الجيش لحماية سلطتهم أيضا في داخل البلاد. تشكل هذا الجيش من المصريين حصرا؛ نجهل تجنيده ونفقاته ومرتباته.

أرسل فراعنة الإمبراطورية الوسطى أيضا بعثات تجارية، أساسا إلى فينيقيا: إلى جبيل وأغاريت، في شمال البلاد. وأرسوا أيضا حركة العبور مع البلدان الإيجية. وكانت

التجارة أنشط منها في زمن الإمبراطورية القديمة، فقد وجدت في أيام الأسرة الثانية عشرة طبقة تجارة ومحاسبة هامة.

أفضت كل هذه العوامل إلى انطلاق القوى المنتجة، انطلاقة لم تعرفها الإمبراطورية القديمة. وساهم ترميم وإصلاح نظام السقاية في ازدهار الزراعة؛ وإتقان المهن. تضع التنقيبات بين يدينا معلومات هامة حول المدن المصرية. دعم ارتقاء المهن والإنتاج والتجارة الإنتاج البضاعي بخاصة في نهاية الإمبراطورية الوسطى، وصار الذهب أساس القيمة. ولقد أمن نفوذ هذا المعدن في مصر بالاستيلاء على مناجمه في أثيوبيا.

العلاقات الاجتماعية

تفاقمت التناحرات الاجتماعية في أيام الإمبراطورية الوسطى. تطورت العبودية؛ إذ لم يعد أصحاب الأطيان الواسعة –النبلاء– هم فقط من يملكون عبيدا، بل أيضا صار الموظفون الصغار وحتى الناس العاديون صار عندهم عبيد. واتسعت اليد العاملة العبدة بفعل الحروب التي تأتي بالمساجين من سوريا، فلسطين وأثيوبيا. لكن عموم الشعب المصري –الزراع وأعضاء المشاعات– لم يستفيدوا من تحسن وضع الدولة ولا من نقص الفرائض والأتاوات الملكية، لأن استقلال السادة أثقل كاهلهم بنير مزدوج، نير الملك والسادة. ونجم عن هذا فقر شديد لدى الفلاحين. وتحدثت أعمال العصر الأدبية عن بؤسهم: الجوع يجوس حول أكواخ الحراث، فالعمل المضني لايكفي لتأمين حياة العامل. كل الناس تسرقه، ينتزعون منه الحبوب التي يخصصها للسوق، ويصادرون حميره، وشعيره، ويضربونه بدون رحمة ويمنعونه من الاحتجاج.وإن ذهب ليشكو الابتزاز والاغتصاب والقهر، لايجد العدل في أي مكان، حتى لدى كبار الموظفين الذين يحاول استدرار عطفهم بشكاويه وتفجعاته.

كان هذا قدر الصناع، النساجين، الحدادين أيضا، المدانين بحياة لا راحة فيها، بعمل مهلك، وبالعوز والجوع. لا أحد سعيد سوى الموظفين والمدونين الذين يدبجون لوائح بالقادرين على المساهمة ،واليد العاملة والذين يرافقون ملاحظي ومراقبي ورشات الملك والسادة. ولقد تحدثت تنقيبات مدينة الفيوم، قرب بحيرة موريس، في أنحاء كاحوم، المدينةالحالية، عن حي فقير يسكنه صغار الحانوتيين، الصناع وباقي أصناف الكادحين. وكانوا يأوون إلى الأكواخ الترابية، حيث يعيشون فوق بعضهم. والأحياء المجاورة،

الموقوفة على الكهنة والموظفين، تضم عمارات من ٥٠-٧٠ غرفة، في وسط حقول واسعة مزروعة على الأرجح بالكروم والأشجار المثمرة. فظهور عدد ضخم من الصناع في المدن سببه فقر الفلاحين الذين غادروا الريف بحثا عن عمل. وحي الأغنياء، في كاحوم، كان منعزلا عن حي العمال بسور سميك وكان محميا بسرية عسكرية قوية. تشهد هذه السمة المتميزة على الجو السائد الذي يخيم في مصر الإمبراطورية الوسطى. كان المتنفذون يخشون تمرد الفلاحين المضطهدين، والصناع والعبيد. وكانوا يحسون الأرض تميد تحت أقدامهم، ومن ضعف سلطة فرعون "الإلهية" والخوف من الآلهة بالذات. فالدين الرسمي، باحتفالاته الفخمة واكليروسه الضخم، كان غريبا عن الشعب. فالكهنة أيضا يعيشون من عمل الفلاحين المقهورين والعبيد والضرائب العالية التي تهدر على المعابد.

أفضى هذا الضنك والتوتر، بعيد الأسرة الثانية عشر، إلى اضطرابات انتهت بانهيار الإمبراطورية الوسطى.

انتفاضة الفلاحين والعبيد في منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

سرعان مانشبت الاضطرابات بعد موت أمنمحت الثالث، آخر ملك قوي من الأسرة الثانية عشر. وعاشت البلاد فترة تمرد وحروب داخلية، دامت قرابة ثمانين عاما. لانملك أي معلومة موثوقة حول هذا الموضوع. وإن كشفت بعض الأخبار المبعثرة أن الملوك حكموا فترات قصيرة، وأن أحدهم لم يملك سوى ثلاثة أيام ناقصة وأن ملكا آخر دعي مير-ميشو، أي رئيس الـ"عسكر".

ربما في هذه الحقبة وقعت الأحداث المذكورة في نصين أدبيين. هما "نبوءات نفرتيتي" المحفوظة في متحف الأرميتاج، في لينينغراد، والثاني إنذار حكيم (جامعة ليد) في هولندا، وصف حي لوقائع توجب على المنشيء أن ينقلها إلى الملك. إيبور يطلع الفرعون على الكوارث الرهيبة التي، كما يرى، أصابت مصر بسبب حكومة ملحدة، أهملت الإجلال المتوجب للآلهة والواجبات التي فرضها الدين. واستنادا إلى لغته، يعود هذا العمل إلى عهد الإمبراطورية الوسطى. يرى الأكاديمي ستروني أن الأحداث التي ذكرتها نفرتيتي وإيبور تعود إلى حكم الأسرة ١٣، أي نهاية الإمبراطورية الوسطى؛ لكن بعض الباحثين السوفيات والأجانب يشكون بالأمر ويفترضون أن النصين أقدم من هذا.

ويقص "إنذار حكيم" انتفاضة جماهيرية للفلاحين، الحرفيين والعبيد، عمت مصر

قاطبة. المتمردون بؤساء لايملكون شيئا، سجنوا الملك، طردوا الأغنياء من قصورهم، رموا موميااءات الفراعنة خارج القبور، احتلوا المعابد ودمروا المكاتب الدينية. احتلوا المخازن الملكية، الأميرية والاكليركية، وأعلنوا القمح المخزون ملكية عامة. واحتل العصاة مساكن الأغنياء، ولبسوا ثياب السادة وتزينوا بحليهم وألزموهم أن يعملوا لمصلحتهم. وحسب تعبير إيبور، "دارت الأرض كدورة الفواخيري". واحتل المنتفضون قصر العدل، دمروا أثاثه، ورموا في الشارع لفائف القوانين، أبادوا المدونين ولوائح الموسم. وهكذا بقي بيت الملك بدون مدخول، والمعابد بدون قرابين. لسوء الحظ، لم تذكر المصادر السلطة التي حلت محل الفرعون المخلوع.

استغلت القبائل الرحل الأسيوية ضعف وتصدع مصر، واحتلت في العام ١٧١٠ قبل الميلاد شمال وادي النيل. يسمي مانيتون هؤلاء المحتلين بالـ"هكسوس". عاصمة مليكهم هي أفاريس، في مصر السفلى. وفرضت ضرائب ثقيلة على المصريين، وصار الفلاحون عبيدا لدى الغزاة الأغراب. قدم الهكسوس براهين على التسامح تجاه أرستقراطية البلد؛ في الجنوب وجزئيا في الشمال، تركوا السلطة في أيدي الحكام السابقين، وأخضعوهم إلى مراقبتهم. سلبت المعابد ودمر بعضها. دام نير الهكسوس أكثر من مائة عام ولم يرحلوا إلا في أيام الفراعنة الأوائل للامبراطورية الجديدة.

الفصل الثاني عشر

إمبراطورية مصر الحديثة

طرد الهكسوس وتوحيد مصر

بدأت حركة التحرر في الجنوب، حيث كانت سلطة ملوك الهكسوس أضعف مما كانت في الشمال. كانت الحركة وطنية. استلم ملوك طيبة القيادة. في البداية، لم يجدوا أي سند حول ملوك الجنوب الآخرين؛ لكنهم بمؤازرة المليشيا الشعبية قاموا شيئاً فشيئاً بمهمتهم وهم يقاتلون دفعة واحدة خصومهم والهكسوس. حفظ الشعب ذكرى مبادرة التحرر، ملك طيبة كاميس.

بعد نضال طويل، تحررت مصر وتوحدت في حوالي العام ١٥٦٠ قبل الميلاد على يد ملك طيبة أحمس الأول، الذي أخضع قادة متمردي الجنوب، ومشى نحو الشمال، دحر الهكسوس،احتل أفاريس وطرد غزاة البلاد. وبهذا الملك بدأت الأسرة الثامنة عشر، التي في ظلها بلغت مصر الموحدة قمة نفوذها وحضارتها.

وسم توحيد مصر في عهد الإمبراطورية الجديدة بتنامي القوى المنتجة. اتقنت آلات الإنتاج. ازداد مردود الزراعة والحرفة، قويت التجارة وانبسطت في داخل البلاد وراء تخومها. ولقد توطد توحيد مصر وتدعمت السلطة الفرعونية بلجوء أحمس الأول للحركة الشعبية في مناضلة الهكسوس والسادة الانفصاليين. ولم يبق في قيادة الأرياف سوى الحكام الطيعين والذين أعيدوا إلى حالة الحكام البسطاء، بدون حق التوريث. وتولى رجال من الفراعنة حكم الأمصار.

وهكذا، في أيام الأسرة الثامنة عشر، تمركزت حكومة مصر. يجدد أحمس تنظيم جيشه وينشره في كل المناطق. يعيش المحاربون على حساب الفرعون ويتلقى الضباط، فضلا عن هذا، أراض ذات أبعاد متواضعة. جندت القوات من الشعب المصري الريفي والمديني. لم يفتقر المتطوعون، لأن البلد الذي دمرته الاضطرابات، ونهب الهكسوس

والحرب، في هذا البلد فقد مئات الناس أملاكهم وفقدوا القدرة علـــى اسـتعادتها. تشـكلت الوحدات من المشاة، الذين يختلفون عن مشاة الإمبراطورية القديمة والوسطى في أن الجنـد بعهدة الدولة ويتسلحون من المخازن الملكية. كل الأسلحة المعروفة حتى آنئـذ -أقـواس، أسهم، خناجر- أتقنت؛ وظهر السيف. التجديد الرئيس هو تأهيل قوة متمــيزة مـن قـادة الدبابات، مؤلفة بخاصة من النبلاء والأغنياء. وللدخول إلى مدرسة الدبابات، كان لابد مـن توفر حماة متنفذين. الجيش إذن هو ركن السلطة الملكية.

لقد مكنت إعادة تنظيم الجيش أحمس من الرجوع إلى شن حملات خارجية. وسـجلت غزواته بداية فتوح الأسرة الثامنة عشرة، التي أفضت إلى خلق دولة عسكرية ضخمة.

فتوح فراعنة الأسرة الثامنة عشرة

تمت غزوات أحمس بعد توحيد مصر بهدف الفتح والنهب. وبمطـــاردة الهكســوس، تغلغل الفرعون في أسيا، لكننا لانعرف تفاصيل هذه العمليات. معرفتنا أحسن حول غــزوة النوبة التي هدفت إعادة السلطة المصرية على الأملاك الفرعونية القديمة في هذه المنطقــة. ولقد أولى أوائل خلفاء أحمس هذه المهمة. لكن الفراعنة التاليين لم يكتفوا بهذا. بل باشــروا حملات جديدة غلى فلسطين وسوريا، بغاية السيطرة على الدول الفينيقية وغيرها للحصــول على الذهب، الفضة، الخشب، الخمر، المواشي، والعبيد، وليس بالتبــادل التجــاري، بــل كضريبة، مستمرة وبكميات ضخمة. كانت هذه الحملات تــهم قمــة المجتمــع العبــودي: فرعون، أسرته، موظفوه الكبار، الاكليروس والجنرالات. وأفاد جنود الجيـــش المصــري أيضا من هذه الحروب، لأن كلا منهم حصل على شيء من الغنيمة.

لم يتم فتح فلسطين وسوريا إلا بعد حملات صعبة، بدأه اخلفاء أحمس. وأخيرا سـقطتا بأيدي الفراعنة في أيام تحوتمس الثالث (١٥٢٥-١٤٩١).

كانت حقبة هذه الحروب قاسية، أولا، لأن الجيش المصري لم يكن جرارا يقاتل ضـد عدة تحالفات من المدن والأراضي. كان عدوه الأهم دولة قوية، تشكلت حول قادش علـــى العاصي، المدينة التي قامت في أخصب منطقة في سوريا وأكثرها ازدهارا. بمؤازرة ملوك قادش، انتفضت المدن والإمارات الخاضعة لفلسطين وجنوب سوريا ضد الهيمنة والاحتلال المصري، واضطر تحوتمس الثالث إلى إرسال عدة حملات لتهدئة إلى هذا الحـد ، أو ذاك أمراء فلسطين وعدد من المدن الفينيقية. وبهذا فقط تمكن من الالتفاف حول قادش. كـــانت

المدينة جيدة التحصين، قد احتلت ودمرت بعد حصار طويل ومعارك ضارية. ثم انطلق فرعون نحو الشمال وأدرك الفرات بعد حملتين متتاليين. وهكذا خلق احتلال فلسطين وسوريا من مصر أقوى دولة في الشرق الأدنى, ولقد أرسل ملك الكاسيت في بابل وملك الحثيين إلى تحوتمس الثالث هدايا رائعة. كما فعلت الكنوز المنهوبة من فلسطين وسوريا فعلها في مصر.

لتقدير ضخامة نهب البلدان المحتلة على يد تحوتمس الثالث، يكفي ذكر بعض الأرقام: جلبت الحملة ضد المدينة الفلسطينية ماجيدو للفرعون مئات المساجين، ٩٢٤ دبابة، ٢٢٣٨ حصانا، ٢٠٠٠ رأس بقر، ٢٢٥٠٠ رأس من المواشي الصغيرة، ١١٣٠٠٠ صاع من القمح، ٢٠٠ قطعة سلاح فردي، حوالي ٢٠٠ كغ ذهب وفضة. وفضلا عن هذا، خضوع الإمارات والممالك لدفع ضريبة سنوية.

نال الجيش قسما من الأسلاب، لكن القسم الأكبر والضريبة وضعت تحت تصرف الفرعون الذي وزعها حسب رغبته. الغنائم، المواشي والعبيد ذهبت أولا إلى المعابد، في رأسها معبد الإله الرسمي آمون، في طيبة. استنادا إلى المدونات الملكية لذلك العهد، كان هذا المعبد يتلقى بعد كل حملة عددا كبيرا من العبيد، من المواشي "التي لاتحصى"، سبائك الذهب، الفضة والحلي؛ فضلا عن تلقيه جزءا من جبل لبنان وثلاث مدن، هدية. وكنوز مماثلة تذهب إلى المخازن والأهرامات الملكية؛ وعدد من العبيد وآلاف الدواب كانت في طريقها نحو أملاك الفرعون.

لكن تحوتمس الثالث، رغم انتصاراته، لم يستطع ان يبقىذا سطوة في سوريا وفلسطين. فبعد هذه البلاد والمناطق الصحراوية التي تفصلها عن وادي النيل حرمته من توطيد وجوده وتأمين مراقبة صارمة. فكان يضطر، من حين إلى حين، ان يرسل حملات لكبح التمردات. وبنهاية ملك تحوتمس الثالث الطويل، ينظم أمراء قادش ضده انتفاضة واسعة المدى. وليهزم المتمردين، أرسل الحملة الأخيرة إلى آسيا، احتل من جديد قادش وأرسى سلطته. لكن الصراع، في أيام خلفائه، عاد وتتابع دون انقطاع.

عدا حملته إلى آسيا، اندفع تحوتمس الثالث نحو الغرب، وراء النيل، وأخضع جزءا من ليبيا. وفي نهاية ملكه، دخل النوبة ووسع حدود مصر باتجاه الجنوب حتى الشلال الرابع.

وتحت ملك تحوتمس الثالث تشكلت الدولة العسكرية المصرية. دامت ٢٠٠ عام، لكنها، في القرن الثاني لوجودها اضطرت أن تتصدى لنضال شرس انتهى باندحارها.

العلاقات الاجتماعية بعد الفتوح

لقد أفضت السياسة العدوانية لفراعنة الأسرة الثامنة عشرة إلى توسيع الدولة. فنظام الحكم السابق الذي لم يعد يلائم الشروط المستجدة. عوضا عن وزير واحد، اقيم اثنان: واحد للجنوب، والثاني للشمال. لكن وزير الجنوب حافظ على السلطة وطرح القضايا التي تهم كل البلاد. خدمت حكومته بواسطة جهاز ضخم من الموظفين والمدونين، ووحدت كل المصالح: إدارة، ري، الأملاك، العدل والجيش؛ وتوجب على الخدمات، ومصالح الدولة المحلية والعامة أن تقدم للوزير تقارير دورية؛ كان يدرس الشكاوي، يناقش شخصيا الشؤون الهامة، يحل الخصومات العقارية، ويصادق على الوثائق. كانت القضايا العقارية هامة بشكل فريد، لأن الأرض كلها نزعت من يد فرعون.

مارست الفتوح تأثيرا حادا على العلاقات الاجتماعية. احتلت زمرتان من هذه العلاقات مقام الصدارة. شملت الزمرة الأولى نبلاء القصر والإكليروس. اللذين اغتنيا بشكل خرافي على حساب البلدان والشعوب المحتلة وكانا، فضلا عن هذا، قد دعما سلطتهما بتوسيع أملاكهما. فقسم واسع من الأرض ترك بسكانه للمعابد.

وهكذا، صارت المعابد مالكا عقاريا كبيرا. أوطدها وأغناها، معبد آمون في طيبة، والذي كان يتلقى باستمرار أراض جديدة. أعطى تحوتمس الثالث آمون خيرة الحقول والمروج في مصر العليا والسفلى، والأراضي العالية، والمساجين الآسيوين والزنوج الذين يجب عليهم أن يملؤوا أهرامات الإله". كان معبد آمون يمتلك من الأرض والعبيد والفلاحين أكثر من كل المعابد الأخرى مجتمعة. لعب هذا التمييز دورا هاما في تاريخ مصر اللاحق.

كانت الزمرة الثانية من العلاقات الاجتماعية الهامة هي الشريحة العسكرية، حديثة الأصل والمنبت، المؤلفة من ضباط قادة وأمراء.كان الضباط الأمراء، الذين يعينهم الفرعون في الوظائف الإدارية العليا والمركزية ويسميهم القصر، قادرين على التأثير في رسم السياسة الداخلية. وكان الضباط القادة ومرؤوسيهم يتلقون أراض لقاء خدماتهم، ونظرا لعددهم الكبير، كانوا يشكلون دعامة متينة للسلطة الملكية. فمن الطبيعي أن يكون فرعون مهتما برغباتهم.

كان شرط الفلاحين يبقى إجمالا على حاله. كان أعضاء المشاعات مرهقيـــن دومـــا بالضرائب والسخرة وخدمة الملك والمعابد. وتثقـــل الفتوحـــات هـــذا النـــير، بتخريـــض المنتصرين على إعادة بناء وعلى نطاق واسع المعابد والقصور: كـــانت مصـــر عـــامرة بصروح ضخمة، بعظمة وروعة لاسابق لها، تدهش أطلالها حتى اليـــوم زائريـــها. امـــا الفلاحة في الإمبراطورية الجديدة، ترزح تحت وزر هذه الأعمال. فينظر إلـــى الفرائـــض الملكية كأمر مقيم أبدا.

كان أسرى الحرب وسكان البلاد المهزومة يضخمون عدد العبيد. كان يصعب تحديـــد عددهم؛ فكانوا يحصون بعشرات الألوف. وكان العبيد موزعين بغير عدل. الملك والمعـــابد يمتلكون الغالبية. ونبلاء القصر والأرستقراطية العسكرية يملكون منهم الكثير. فبعـــد كـــل حملة كان فرعون يوزع المساجين بكرم. تثبت النصوص أن جنودا بســـطاء، ومزارعيـــن وصناعا كانوا يملكون عبدين او ثلاثة. يستخدمون في الحقول، في المقالع في نقل الأحمال، وخدما في المعابد، إلخ.

كما عززت الفتوح أيضا التجارة الخارجية، واحتكار الفرعون وكهنة آمـــون. كـــانت التجارة تتم بإرسال حملات خاصة إلىالجنوب، إلى بونت ***pount***، وإلى جزر بحر إيجـــة، لأن ماكان يريد الملك والكهنة الحصول عليه، كان يسلم، منذ فتح فلسطين وسوريا، بشـــكل ضريبة سنوية. فقط مدينة صور الفينيقية حافظت على حق إقامة علاقـــات تجاريـــة مـــع مصر.

أرسلت حملتان ضخمتان إلى الجنوب، أرسلت الأولى الملكة حاتشبســـوت، وأرســـل الثانية تحوتمس الثالث. أهمها حملة حاتشبسوت، عادت بكمية كبيرة من العـــاج، الراتنـــج العطر، الأبنوس، الفضة، الذهب، الريحان الشامي، القردة، الكلاب والعبيد.

كان الفرعون والكهنة يبادلون ثمار الاسلاب بسلع يستوردها التجار الملكيـــون مـــن بابل، قبرص، كريت وجزر إيجية أخرى. وكان يتوجـــب علـــى التجـــار أن يقدمـــوا أولا عروضهم للفرعون والـــ"إله آمون" ولايبيعون إلا ماتبقى. كان هذا يغضب كهنـــة المعـــابد الأخرى، والتجار أنفسهم، الذين كبر عددهم بوضوح في أيام الإمبراطورية الجديدة. وكـــان حديثو النعمة، مالكو العبيد السابقون الصغار، أثرياء الحروب، يعارضون نبـــلاء القصـــر الشيوخ والإكليروس.

هكذا، في المجتمع المصري أيام تحوتمس الثالث، يتفاقم التناحر ليس فقط بين المستعبدين والعمال، بل أيضا بين المستعبدين أنفسهم.

إصلاح أخناتون الديني والصراع الاجتماعي والسياسي الذي تلاه

في أيام حكم خلفاء تحوتمس الثالث، تنضج أزمة سياسية في الدولة المصرية العسكرية. ينشب الصراع بين الملوك الصغار لبلدان آسيا المحتلة، بينما تتغلغل فيها قبائل سامية على الأرجح ومذكورة في التقارير المقدمة إلى الفرعون تحت اسم شابيرو، آتية من الجزيرة العربية. يتقدم الحثيون في سوريا من الشمال. ولعدم كفاية السرايا العسكرية، لم يتيسر للحكام تهدئة الملوك الصغار الآخذين بخناق بعضهم البعض، ولا إيقاف لغزو الشابيرو. وكان الفراعنة عاجزين عن الرد أيضاً، بسبب استحالة استبقاء القوات الضخمة، المجندة من السكان الأحرار، في الأرض المحتلة. ولم يجرؤوا أن يرسلوا إلى سوريا الألوية المنتشرة في مصر، لأن الجو مضطرب في داخل البلاد. فمنذ نهاية ملك أمنوفيس الثالث، عبرت شرائح متباينة عن عدم رضاها عن كهنة آمون، الذين تعمق نفوذهم. اشترك أمنوفيس الرابع (١٤٢٤-١٣٨٨) بالمقاومة وحاول، مع مساعده، إنقاذ السلطة الملكية من تسلط كهنة آمون والنبلاء السابقين، الذين كانوا يرون في عبادة هذا الإله دعما ايديولوجيا هاما والذين كانوا يجهدون في إعادة السلطة لحكام الـ(نومات). أما الفرعون، كان يطمح في امتلاك واستقرار السلطتين السياسية والدينية. وجمهرة الشعب الحر، التي تشكل سلاح المشاة المصري، كانت تؤازره في مخططه وكانت لتحسين مستقبلها تعتمد انتزاع ملكية النبلاء والكهنوت.

لم يكن ممكنا تحقيق الهدف الذي يطرحه أمنفيس الرابع إلا بإصلاح ديني. حاول الفرعون بداية معارضة آمون بإله الشمس رع، الشعبي جدا. سام كاهنا كبيرا لرع وشرع ببناء هيكل له في طيبة. لكن عبادة هذا الإله، المرتبطة بمنطقة هليوبوليس قليلة الإنتاج، لم تنجح. الأمر الذي دفع أمنوفيس الرابع إلى صرم العلاقة مع كل الاكليروس وعبادة الآلهة التقليديين، ليقيم إلها وحيدا لمصر هو قرص الشمس آتون. وبرر هذه العبادة بأن الشمس تنير وتدفيء العالم كله. وسمي الملك أخناتون ("النافع من يرضي آتون")، وأغلق المعابد القديمة وابتنى محارب لآتون في أرجاء مصر. غادر طيبة، تل-العمارنة، وسماها أخناتون ("أفق آتون"). وهنا نهض معبد آتون الرئيسي الذي سمي الفرعون كبير كهنته.

أثار هذا التحول المفاجئ في السياسة الدينية مقاومة ضارية من قبل الكهنوت والنبالة القديمة. في هذا الوضع، لم يكن للفرعون سوى جيش من المرتزقة والأرستقراطية الجديدة التي أفادت من الإصلاح بابتلاع قسم من الأرض المنتزعة من الإكليروس. والفلاحون، الذين أملوا تحسين حياتهم، لم يتأخروا عن التأكيد في أن شرطهم ما زال متفاقما وليس موضع اهتمام المصلحين. فالنفقات الضخمة لعبادة آتون والقصر الملكي كانت تتلف الخزينة، وأسلاب الحرب والضريبة نضبت بسبب توقف الغزو، فانعكس كل هذا على استغلال الفلاحين. وأشعل كهنة آمون الغضب الشعبي؛ إذ نشروا تنبؤات عن غضب الآلهة، وعن الاعتداءات التي تهدد أمن البلاد، وغيرها.

كان النبلاء يدبرون مؤامرات ضد أخناتون. لكن الفرعون كبح بالحديد والنار التمردات على يد جنوده. وبعيد هذا مات، مخلفا لخليفته امبراطورية مصدعة. ونشبت الاضطرابات في الداخل، بينما كانت ضرائب كحابرو تتسرب أكثر فأكثر إلى الأملاك الأسيوية؛ كان الحثيون قد احتلوا شمال سوريا، وانفصل الملوك الصغار عن مصر، الواحد تلو الآخر. وبعد ثلاث سنين من موت أكحناتون، اضطر خليفته الثاني توتانكحاتون لمصالحة كنهة آمون. وعاد أدراجه إلى طيبة وبدل اسمه إلى توت أنخامون. وتلت موته اضطرابات رهيبة. كبحها الجنرال المصري حورمحب، سليل أسرة نبيلة سابقة. وبمساعدة كهنة آمون، صعد إلى العرش وأسس الأسرة التاسعة عشرة. اتخذ تدابير حازمة بهدف تهدئة الإمبراطورية وعمد إلى إصلاح ديني كامل. لعن أكحناتون، وألغي اسمه واسم آتون من كل مكان؛ أخليت مدينة أكحناتون وهجرت. استعادت معابد آمون أملاكها؛ وأقيمت من جديد عبادة الآلهة السابقة.

فشل إصلاح أكحناتون، لأنه كان مصطنعا. فلم تستفد منه أية شريحة من المجتمع المصري، عدا كهنة آتون والأرستقراطية الجديدة.

الأسرة التاسعة عشرة وسقوط الإمبراطورية الجديدة

نشط فراعنة الأسرة التاسعة عشرة بخاصة لاستقرار سيطرة مصر على سوريا وفلسطين، وفي جنوب النوبة، حيث كانت الانتفاضات قد نشبت في أيام أخناتون. ولقد شن سيتي الأول ورمسيس الثاني حروبا طاحنة على فلسطين وسوريا. لم يعودوا يعتمدون على الجحافل المصرية، بل على المرتزقة الليبيين والسوريين، الذين يتقاضون رواتبهم من

الاحتياطات الواسعة من القمح، الذهب والفضة. يشهد الانتقال إلى نظام الجيش المرتزق أن تجنيد المحاربين من المصريين كان قد أصبح صعبا ،وأن العمال دللوا على عداوتهم لسلطة الفرعون والكهنوت.

نجح سيتي من جديد في إخضاع صور التي انفصلت عن مصر في أيـــام اخنـــاتون وتوطيد المواصلات البحرية مع سوريا، ثم احتل مجددا شمال فلسطين ومنطقة لبنان. وبنى فيها عدة قلاع وخلق قاعدة لينطلق أبعد نحو الشمال. حاول خلفه رمسيس الثاني تحقيق هذا المشروع. كانت مهمته هذه كأداء، لأن سوريا كلها كانت آنئذ تقريبا في أيدي عدو جبـــار هوالحثيون. انتهت حملة رمسيس الثاني الأولى بالفشل: تعرض جيشه لهزيمة علـــى يـد قادش وكاد الملك نفسه أن يقع في الأسر (سنة ١٣١٢). لكن الحملة الثانيـــة حققـت هــذا المشروع. تمكن الفرعون من بلوغ المجرى الأعلى للعاصي واستقر هنا. في غضون ذلك، كان الصراع على العرش يعصف في الإمبراطورية الحثية، الأمـــر الــذي أجـبر الملـك هاتوسيل أن يبرم معاهدة مع رميسي الثاني (١٣١٧-١٢٥١)، نصت أن الفريقين ملتزمـــان بالعيش بسلام وبالمساعدة المتبادلة في حال التعرض لهجوم معادٍ. وختمت المعاهدة بـزواج الفرعون من أميرة حثية. لكن هذا النجاح لم يؤمن أبداً السيطرة المصرية علـــى ســوريا. فانتفاضات الملوك الصغار السوريين والفلسطينين تجددت في المنطقة العربية وجزر إيجة. وفي أواسط القرن الثاني عشر، تحررت سوريا وفلسطين نهائياً من ربقة مصر.

بعد موت رمسيس الثاني ضعفت سلطة الفرعون في مصر نفسها. لكـــن ميرنـــهتح، خلفه المباشر، استطاع صيانة السلطة، والتصدي ورد هجوم الشعوب البحرية والحفاظ على التاج.وبعده، خضعت البلاد للاضطرابات والفوضى: "كل يفعل مايشاء"، يحكم السادة حكماً مطلقاً في الــ(نومات). واستغل إيارسو "السوري" الوضع ليستولي على الســـلطة. وبعــد خمسة أعوام من الصراع الداخلي، تولى العرش ستنكحت، سليل الأسرة العشـــرين، التـــي اتبع فراعنتها سياسة عبادة آمون، وحاولوا عبثاً كبح الحركـــة الانفصاليـــة فـــي المنـــاطق الآسيوية. وفي هذه الحقبة بدأت تنفذ الكنوز الخيالية واحتياطات الأرزاق الواســـعة؛ حتـــى الفلاحون السخرة رفضوا أحياناً العمل، لأنهم لم يستلموا مرتباتهم. وحدثت أحداث مماثلـــة في طيبة، في ورشات المعابد.

تمرد الفلاحون الساخطون من الجوع والجور في القرى. واستمرت سلطة الفرعـــون

بالتصدع، بينما كانت تتسع سلطة الكاهن الأكبر للإله آمون. وحوالي منتصف ملك الأسـرة العشرين، كان كهنة آمون يمتلكون قرابة ٨٠٠٠٠ عبد، وكان لدى الكاهن الأكـبر جيـش كبير وعدد ضخم من الموظفين والمديرين. وتصير مهمته وراثية "تنتقل مـن الأب إلـى الابن، بشكل مؤبد". سابقاً كان الكاهن الأكبر يخضع أساساً للملك، أما الآن يوليـه آمـون بالذات ويستقل عن العاهل.

كلما ضعفت سلطة الفرعون، توطدت سلطة النبالة المحلية: كهنوت، موظفون كبـار، وتجار.وتتسع الأملاك الخاصة بشراء أرضي الفلاحين المرهقين أو الاحتكارات. نجم عـن هذا تفكك سريع في المشاعات الريفية واستقرار الحـق فـي الملـك العقـاري الفـردي. وتضاعفت انتفاضات الفلاحين التي يشترك فيها العبيد عادة.

عصر الانحطاط

لقد أفضى تصدع السلطة المركزية والاستقلال المتنامي لارستقراطية الـ(نومـات) وبعض رفاق الكهنة إلى تشتت مصري جديد، بعد أن أنهكتها الحروب الطويلة.

فقد صار حيريهو، كبير كهنة آمون، في القرن الحادي عشر قبل الميـلاد، فرعـون الأسرة الواحد والعشرين، لكنه لم يحكم مصر كلها. إذ كان لـ(نومات) الشـمال ملوكـها المحليون. وتم التوحيد في القرن العاشر، هذه المرة بقيادة أجنبية. فقد نجم عن تنـامي دور جيش المرتزقة تسليم العرش إلى سليل أسرة أرستقراطية من جنرالات ليبيـا دافـع عـن مصر: شيشانك الأول. وأفضى تدفق القوات الليبية إلى توطيـد الإمبراطوريـة توطيـدا ملحوظا. شن شيشانك حربا مظفرة على فلسطين وبنى عدة صروح، أكثرها قلاع.

لكن صراعا استجد في ظل خلفائه وتجزأت مصر إلى عدة دول مستقلة.

بفعل هذا الضعف، أخضع عواهل النوبة مصر في القرن الثامن قبل الميلاد. لم يجلب الفراعنة الليبيين شيئا جديدا إلى البلاد، والدولة النوبية نفسها تطورت بتأثير مصـر. ففـي أثناء ملك الأسرة النوبية، هاجم الآشوريون مصر، ورغم مقاومة ضارية، قهر أسـارهادون البلاد في ٦٧١. لكن الهيمنة الآشورية بقيت عارضة إذ كان المصريون يسـتغلون أبسـط الفرص ليستعيدوا استقلالهم. وفي ملك آشور بانيبال، دمر الآشوريون مصر مرتين، لأنـهم لم يستطيعوا الصمود إلا باستغلال الصراع بين عواهل النوبة والملوك الصغار لنومـات – قبائل– الشمال. كان أقوى هذه الدول تلك التي تشكلت حول مدينـة سـيناء، فـي الدلتـا، بمساعدة الآشوريين.

استغل بسامتيك الأول (حوالي ٦٥٤-٦١١) اتفاقات نشطة مع بلدان شـــرق البحـــر الأبيض المتوسط، على رأسهم اليونان، حيث تصدر مصر قمحها. فظهر العديد من التجـار والمرتزقة في مصر وأسسوا مستعمرات. إن هذه الانطلاقة القصيرة، المعروفة باسم حقبـة سايت *saite*، متميزة بتطو الإنتاج البضاعي، وبداية التـــداول النقـدي وارتقـــاء المـــهن. وساهمت بهذه الانطلاقة المبادلات التجارية والثقافية مع اليونان وآسيا الصغرى.

كانت السياسة الخارجية للفراعنة السايت تهدف إلى رفع النفوذ العالمي لبلادهم بعقـد أحلاف مع الدول العظمى،لأن ضعف مصر النسبي لم يعد يسمح للفراعنـــة أن يتصرفـــوا كفاتحين.

كانت السياسة الخارجية الأنشط هي سياسة نيشايو الثاني (نحو ٦١١-٥٩٥)، الـــذي وسع التجارة مع البلدان المجاورة (في أيامه حفرت قناة النيل على البحر الأحمر) وحـاول أن يخلق بواسطة الأحلاف العسكرية نقاط ارتكاز في فلسطين، في سوريا وعلى المجـــرى الأوسط لنهر الفرات. لكن القوات المتحالفة المصرية والآشورية انهزمت أمام البابليين فـــي كركميش وانتقلت الهيمنة في الشرق الأدنى إلى إمبراطورية بابل الجديدة.

فرضت القوة العاتية للأرستقراطية والكهنة على الفراعنة السايت أن يبحثوا عن دعم التجار والمرتزقة، الأمر الذي حجم تيار مصادقة اليونان في سياستهم الخارجيـــة. فـالمنح والامتيازات الواسعة للتجار الأجانب، ونفقات جيش المرتزقة الضخمة أغضبـــت الشـــعب المصري، الذي انتفض. واستلم جنرال من عند فرعون، قيادة المنتفضين، وهزم المرتزقـــة وتولى العرش تحت اسم أحمس الثاني (أماسيس) (٥٦٩-٥٢٥). تابع أحمس الثاني السياسة التقليدية لأسرة السايت، عزز الروابط مع اليونان وشجع إقامة المستعمرات اليونانية علـــى الأرض المصرية.

إن سحق امبراطورية بابل الجديدة والدول الأخرى في الشرق الأدنى، خول مصـــر تفعيل سياستها الخارجية لبعض الوقت. فتغلغلت قوات فرعون من جديد في فلسطين. لكـــن هذا الانتعاش كان قصير الأمد.فمنذ السنة الأولى لملك خليفة أحمس الثاني، بسمتيك الثالث، دخلت القوات الفارسية مصر، الممزقة بالصراع الداخلي، وهزمت قوات فرعون في بيلوز (٢٥٢ ق.م)، وأنهت استقلالها. ولقد مارست حضارة مصر، المدينة بازدهارها للعلاقـــات التجارية والسياسية مع اليونان، نفوذا واسعا على الحضارة الإغريقية.

الفصل الثالث عشر

الحضارة المصرية

خصائص عامة

لقد خلق الشعب المصري، خلال تاريخه الطويل حضارة رائعة. فنحن مدينون له بأعمال أدبية خالدة. إن صروحه، نقوشه ورسومه تؤخذ نماذج حتى اليوم، شأنه في هذا شأن اليونان القديمة.

تستقي الآداب والفنون المصرية من تقاليد ثرة، فالشعب المصري صان أبداً وحدته وميزاته النوعية. إن بعثات عديدة على النيل وفي البحر، مع أخطارها ومغامراتها، تغذي الخيال، تعمق وتوسع أفق الناس وتساهم بتطوير الأدب العلماني. وفي الوقت ذاته حسنت، الوفرة بحجارة البناء والمواد الثمينة، كالذهب ، والأبنوس والعاج فن العمارة والنقش والفنون التطبيقية.

من الخطأ اعتبار الحضارة المصرية كإقطاعة لأرستقراطية العبودية. فالأقاصيص، حكايات المغرامرات، قصائد الحب ومختلف أجناس الأدب تنهل بالتأكيد من منهل الفولكلور المصري الغني. والفنون التشكيلية تستند كلياً إلى تقاليد شعبية تعود إلى عهد المجتمع البدائي. وكان العديد من أروع هذه الفنون عملَ فناني الشعب الكبار.

الدين

يقدم الدين المصري نفس الثنائية التي قدمها الدين البابلي. فمن جهة، عبادة الآلهة "العظام" والميثيولوجيا الملائمة، حيث تتغلغل التأملات التي سعى إليها الكهنوت لتدعيم نظام العبودية. ومن جهة أخرى، لدينا معطيات حول وجود دين شعبي زراعي، بأساطيره واحتفالاته التي ترتبط إلى حد ما بالدين الرسمي.

كان لكل نوم إلهه، إلهه المزدوج أو الثلاثي. تعود عبادتهم إلى بداية المجتمع البدائي، لأن لآلهة النوم تمت دوما برباط القربى مع الطواطم القديمة. ينتسب الإله المحلي إلى

حيوان معين، وسمي الكثير من النومات باسم حيوانات: نوم الكركدن، الغـزال، الفحل، الصقر، الأرنب، وغيرها. وغالباً تبقى عبادة الحيوانات بشكلها البدائي: ففي ممفيس، مثلاً يعبد الثور آبيس، تجسيداً للإله فتاح؛ وفي تينيس، الصقر حوروس؛ ولقد اعتـادوا تقديم الآلهة والآلهات بشكل حيوانات أو كائنات بجسد بشري ورأس حيوان. من هذه الزاوية، يتفق الدين الرسمي مع الدين الشعبي، لأن هيرودوت يقول: إن عبادة الحيوانـات كانت منتشرة في كل البلاد. بقيت هذه العبادة حتى التاريخ المصري. لكن آلهة النومات لم تتمتع بالسحر. فقط آلهة النومات الأوسع والتي لها تأثير سياسي، يمكن أن تأخذ الصفة القومية. هذا ماكان فتاح في ممفيس، را في إيونو (هليوبوليس)، أوزيرس في أبيدوس، هوريس في تينيس، وآمون في طيبة، وغيرها. كان لبعضها، مثل را، إله الشمس، أوزيرس وإيزيس، آلهة النبات والخصب، وظائف ترجع إلى أقدم العهود؛ ولقد حافظت على مقامها في الدين الشعبي. ويأخذ بعضها نسبةً من تعاليم الدين والكهنوت: هكذا، أعلن فتاح خالقـاً للعالم، والآلهة والناس.

دور الإله الأسمى، سيد الآلهة، أسند لآمون، إله الشمس، الذي يقدم برأس فحل، في أثناء التفوق في طيبة خلال الإمبراطورية الوسطى وبخاصة أيام الإمبراطورية الجديدة؛ وصارت عبادته العبادة الرئيسة في مصر.

كانت العبادة الأكثر شعبية هي عبادة أوزورس وإيزيس. وصار أوزرس إله المملكة النباتية. تقول إحدى الأساطير: إنه سمي إله القمح والشعير. ترتبط مثيولوجيته ارتباطاً وثيقاً بالخاصة الزراعية لعبادته: سيث، إله الصحراء الشرس، قتله وقطـع جسـمه إربـاً؛ ثم هوروس، ابن أوزرس، بعثه. وأعلنه الكهنة أيضاً ملك وقاضي الأمـوات. لكـن التقليد الشعبي يثابر على تقديمه إلهاً للزراعة. وبدءاً من الإمبراطورية الوسطى، منـذ أن كـان الكهنوت أوزرس ملك وقاضي الأموات، صارت عبادته أداة اضطـهاد جديـدة فـي يـد الكهنوت والأرستقراطية الاستعبادية.

في الدين المصري، يعود دور هام إلى عبادة الفرعون، المعتبر صورة حية للشـمس. وقد كان لهذه العبادة أهمية سياسية عظمى: تقدس الدولة وتطهر العاهل. وبعد موته، يتحـد الفرعون المعبود بأوزرس. ففي النصوص الدينيـة القديمـة المرسـومة علـى جـدران الأهرامات يسمى الملك المتوفى أوزرس، والتعازيم الجنائزية تعلن دوما ان العاهل سيبعث

حياً كما الإله. وهكذا، خدمت عبادة أوزرس الفكرة السياسية المركزية في الدين المصـوي: تأليه السلطة الملكية وتقديس الدولة الاستعبادية.

كانت الطقوس السحرية منتشرة في البلاد. يمارسها كهنة المعابد العظمى، بخاصة في أثناء العبادة الجنائزية وأفكار الآخرة. جمعت هذه الصيغ في "كتاب الموتى"، العمل الضخم المتضمن أكثر من مائة فصل ووفرة من الرسـوم، بعضـها ملـوّن؛ جمـع فـي حقبـة الإمبراطورية الجديدة، استناداً إلى مدونات كهنوتية أقدم. عند جنازة الملـوك والموظفيـن الكبار، توضع لفائف "كتاب الموتى" في القبر لتقي الميت من أهوال مابعد الموت وتـأمين غبطته بعد الموت. من لايملك كتاب السحر الثمين هذا، عليه أن يحيا حياة فاضلـة؛ أي أن يخضع للأقوياء. هكذا إذن تستخدم العبادة الجنائزية أيضاً كوسيلة ضغط روحي على العمال.

الكتابة

إن الكتابة، التي يسميها اليونان الهيورغليفية -"الصور المقدسة"- مشتقة مـن النقـر التصويرية للأزمنة البدائية. فأقدم كتابة مصرية كانت نقرا تصويريا: كل شارة مرسـومة تمثل مفهوما، وربما جملة قصيرة. ولقد استمرت الكتابة الهيروغليفية في مصر حتى نهاية تاريخها القديم؛ لكن الرسم تبدل شيئا فشيئا، وإلى جانب الحروف الأولية ظهرت حـروف أخرى، مبسطة سهلة الكتابة. ومنذ الإمبراطورية القديمة، وجدت كتابـة سـماها اليونـان ***hie'ratique***. وفي القرن الثامن قبل الميلاد، ارتقت وتحولت إلى كتابةمعروفة باسم يوناني ***de'motique***.

تعد الكتابة الهيروغليفية المصرية قرابة سبعمائة شارة إجمالا. وفي ملـك الأسـرتين الأوليين اكتسب الكثير من الهيروغليف معنى مقطعيا و٢٤ حرفا سميت حروفـا صامتـة. شكلت هذه الـ ٢٤ شارة وعشرات أخرى -٧٠ إجمالا- أساسا للكتابة المصريـة. كـانت الكتابة إذن معقدة كالمسمارية البابلية. كـانوا يكتبـون علـى الحجـر، الخشـب، الـرق والقماش،لكن المادة الأكثر رواجا كانت البردي، المصنوعة من سيقان أو جذوع النخيـل، الذي ينمو على ضفاف النيل. إن الكتابة المصرية ذات أهمية تاريخية كبرى. ففي النصـف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، استخدمت كنموذج للكتابة الأبجدية الفينيقية، التي تعـد ٢٤ شارة فقط.

الأدب

إن الكتابات في الإمبراطورية القديمة أساساً دينية وتحوي بخاصة نصوصاً سحرية منقوشة على جدران الأهرامات، الأقبية والقبور. يجب الاعتقاد أنهم، منذ ذلك العهد، رتبت وكتبت طقوس الأسرار التي تلعب في أعياد أوزرس والآلهة الأخرى والألحان على شرف "كبار" الآلهة. تعود النصوص والألحان التي وصلتنا إلى الإمبراطوريتين الوسطى والجديدة. أحسنها نشيد ولحن الآمون وآتون، كتبهم أخناتون. وفي عهد الإمبراطورية الجديدة، يدبج كهنة المعابد الرئيسة نصوصاً لاهوتية تعرض نظريات نسب الآلهة وتشكل الكون، لمدارس متخاصمة مختلفة.

تبين بذور الأدب النقي منذ عصر الإمبراطورية القديمة. إنها النقوش الجنائزية التي تقص، على الشخص الأول، حياة الميت. فأقدم السيرات، التي تؤرخ للأسرة الثالثة، هي سرد جاف ومختصر لأملاك، وظائف ومناقب المتوفى. لكن في أيام الأسرة السادسة، تصير موضوعات مفصلة تقدم أحياناً بعض الخواص الادبية. مثل سيرة نيافة أوني التي خدمت ثلاثة فراعنة من الأسرة السادسة، أوني الذي شن الحملة الأولى على سادة النوملت الآسيوية، وحكم الجنوب، وقاد الحملات على النيل حتى المناطق الجنوبية وأثيوبيا. نقرأ العديد من القصص الجميلة من هذا النوع في تراجم كثيرة لموظفين كبار من الإمبراطورية الوسطى والجديدة؛ تشير إلى سيرة مانتوحوتب، معاصر سنوسرت الأول، وسيرة أحمس التي خدمت أحمس وأمنوفس الأول، وسير ركحميري وأنيوتف التي خدمت تحوتمس الثالث. تضم سيرة ركحميري، بخاصة، عرضاً رائعاً للحقوق، والواجبات وطرق حكم الوزير في الإمبراطورية الجديدة. إن قصة سنوحيه،التي ظهرت في الإمبراطورية الوسطى، تقدم أيضاً سيرة ذاتية؛ تقص مغامرات الأمير سنوحيه، الذي أصيب بنكبة في بداية ملك سنوسرت الأول ولجأ إلى سوريا. عاش أعواماً في كنف قبيلة سورية، في خدمة شيخها؛ وصفت العادات والتقاليد بموهبة. ثم، يسمح لسنوحيه بالعودة إلى مصر، حيث يستقبله الفرعون بحفاوة ويسبغ عليه الأمجاد.

يتضمن أدب الإمبراطورية الجديدة مختلف الأجناس، أشعاراً ونثراً. ونحن نعرف قصائد حب كتبت بغنائية فاتنة، وأغاني في احتساء الخمرة، وخرافات، وأحاجي. وثمة أيضاً قصص، حكايا حول روائع المرزبان الملكي، وأنباء عن رحلات غريبة في الجنوب وفي آسيا. وثمة عملان يتمتعان بتفرد هام. الأول، يؤرخ للإمبراطورية الوسطى، وهو

قصة موجزة لكنه تصوير لبعثة مصرية إلى بونت، الذي غرقت سفينته وقذفته الأمواج إلى جزيرة يحكمها ثعبان، ثم، عودته إلى مسقط رأسه. وكتبت الثانية في أيام الإمبراطورية الجديدة، وهي "قصة الأخوين" يستلهمان أساطير الآلهة. مغامرات الأخ الأصغر الذي يموت ويبعث حياً في عدة مناسبات، تذكر بخرافة أوزرس. وكانت الأقاصيص التي تستقي موضوعها من التقاليد الشعبية، واسعة الانتشار. أبرزها قصة الأمير الذي يتوقع له عند ولادته، موت مبكر. حماه أبوه ما استطاع. لكنه ماأن يشب، حتى يرحل إلى بلاد بعيدة. حيث يتزوج ابنة الملك الذي ينقذ حياته بقتل الثعبان الذي يزحف نحوه تحت جناح الليل. ويهرب بأعجوبة من كركدن كان يهدده. نهاية القصة ضاعت، لكن الأمير يلقى نهايته على الأرجح من قبل كلب مذكور في نبوءة الحيوانات الثلاثة التي تسبب موته.

إلى جانب هذه الخرافات، ثمة قصص مستندة إلى واقعات تاريخية، مثل، حكاية الملك سكنجنرا الذي بدأ الصراع ضد الهكسوس، أو رئيس تحوتمس الثالث، الذي احتل مدينة يافا. تصدر هذه القصص بالتأكد من الحوليات الملكية التي، في أيام الإمبراطورية الجديدة، تأخذ شكلاً أدبياً وتسجل أحياناً إمارة الموهبة. كانت تقص الغزوات، الفتوح وأعمال الفرعون العظيمة؛ أشهرها وأروعها، "حوليات" تحوتمس الثالث، ونقوشات رمسيس الثاني حول غزوته لقادش؛ ولقد خلدت معمعة قادش بقصيدة شهيرة، لأحد شعراء القصر، التي بدلت هزيمة الفرعون إلى نصر.

منذ الإمبراطورية القديمة، كان في مصر أدب تعليمي. وكان إما معلومات مباشرة، أو تنبؤية. تطلعنا هذه الكتابات على أخلاق علية المجتمع الاستعبادي. مثلاً، المعلومات التي تنبع من الأرستقراطية العسكرية. الخصيصة النموذجية لبعض هذه الأعمال، مثل "نشيد عازف القيثار"، وبخاصة "حوار رجل تعب من الحياة مع روحه"، الذي يعود للامبراطورية الوسطى، هي التشاؤم والخيبة. وتعكس التبدلات الاجتماعية العميقة الحادثة في المجتمع المصري وحياة الفقراء المضنية، الذين يضطهدم سادة العبيد.

الفنون التشكيلية وفن العمارة

لقد تطورت الفنون التشكيلية في مصر بشكل ملحوظ في أيام الإمبراطورية القديمة، لكن ليس في كل الأجناس.

يومئذ، حقق فن الأنصاب التذكارية إنجازات مشهودة. فأنصاب الملوك والوزراء جيدة التناسب، ولكل منها وجهه الخاص، الذي يتلاءم حتماً مع النموذج؛ لكن وقفاتها فيها

شيء من الفجاجة، مصطنع. أحسن أمثلة الحفر والنحت المصري هـــي النصـــب القـــاعد للفرعون شافرا (شفرن)، وتمثال الكاهن رانيفر والنصب المشهور لأحد النســـاخ متربعـــاً، محفوظاً في اللوفر. تأخذ الرسوم النافرة مدى أوسع. بخاصة على القبور. وتمثل مشاهد من حياة الدفين والأعمال الناجزة في ممتلكاته. تنسب إلى هذه الصور السلطة السحرية التـــي تؤمن للميت الحياة التي عاشها في الأرض. عيبها فقدان التأمل وتبسيطية الأشكال. الإنسان مقدم بطريقة توفيقية: الرأس مجانب، والجذع مواجه. لكن الطيور والحيوانات من واقعيـــة مدهشة. والمنحوتات غالباً مطلية: كان الصناع يعرفون صنع الألوان المقاومة جداً، التـــي حافظت على ألقها حتى الآن.

في أيام الإمبراطورية الوسطى، أتقن النحت والحفر وصنع التماثيل، وإلـــى جـــانب المنحوتات المطلية ظهرت الجداريات الحقيقية، التي تقدم نمـــاذج رائعـــة مـــن المنـــاظر الطبيعية، والرسوم الشـــخصية *portraits*، مشـــاهد المعـــارك وســـواها. وكـــان فنـــانو الإمبراطورية الجديدة أمهر أيضاً. إذ لم تعد تماثيلهم بليدة خرقاء وساكنة لاحركـــة فيـــها؛ وظهرت تماثيل نصفية *bustes* رائعة. وكانت رائعات الإمبراطورية الوسطى والجديدة هي تماثيل أمنمحت الأول، رمسيس الثاني ورأس نفرتيتي، زوجة اخناتون. بيـــن المنحوتـــات، تميز تركيبات دقيقة ومعقدة تذكر حملة حتشبسوت إلى بونت، معركة قـــادش، والعمليـــات الحربية لسيتي الأول. وحقق الرسم أيضاً تقدماً واسعاً. أعطى صـــوراً صادقـــة للنبـــات، للطيور للحيوانات وللوجوه البشرية. والشخوص، البعيدة عن كل تبسيط، تصـــير رســـوماً شخصية *portraits*.

لقد مارس ذوق وأستذة فناني مصر نفوذاً دامغاً في إنتاج الســـلع المتداولـــة وســـائل التعبد. ولقد عثر في قبور الإمبراطورية الوسطى والجديدة على كمية من الأنصاب الخشبية والحجرية التي تمثل العبيد، الحراث، الرعاة، الصناع، المحاربين وســـوى ذلـــك. وثمـــة أنصاب صغيرة -"متجاوبة"- تلبية نداء الدفين والعمل من اجله. هذه الأنصـــاب منحوتـــة بمهارة. فالإمبراطورية الحديثة والعهود التالية تركت لنا عدداً لايحصى من مواد الاستخدام المألوف، المرايا، الصناديق، الموبيليا المرصعة، علـــب العطـــور، الجـــرار، الصحـــون، الأواني، الحلى -كلها من الذهب، الفضة، العاج، الأبنوس، البرونز، الزجاج، إلخ. لم يعـــط هذه السلع صناع بسطاء، بل فنانون تدربوا جيداً تدريبات نوعية.

بلغ فن العمارة في مصر درجة عالية من الإتقان. آثارهم الأقدم هي القبور الضخمـــة،

وأهرامات الملوك ومصاطب السادة. المنظر المعروض يتحد فيها مع خطوط في غاية البساطة. وفي أيام الإمبراطورية القديمة، كان بناء المعابد أقل أهمية. وفي هذا الزمان استخدمت أعمدة موشورية أو بشكل النباتات. إذ ترجع أجمل المعابد إلى الإمبراطورية الحديثة. وأطلال الكرنك والأقصر -في مكان طيبة القديمة- وآثار أخرى تعطي فكرة عن عظمة ومجد هذه القبور. في المدخل تبنى الأروقة بأساليب متباينة؛ الأدراج العريضة والمدارج تزين بعنقاوات مصطنعة. يتضمن معبد الكرنك قاعة واسعة من ١٣٤ عموداً سميكة تؤلف ١٦ صفاً؛ بمساحة ٥٠٠٠م٢. مثل هذه الأبنية تتطلب مهارة واسعة من البنائين. عدا المعابد، بنوا قصوراً ملكية غاية في الإتقان. لكنها وقد كانت من الخشب، لم نستطع أن نحكم عليها إلا من خلال صور المنحوتات البارزة.

تقنية بذور العلم

إن صروح مصر الضخمة -الأهرامات والمعابد- كانت مبنية بتقنية بدائية. كل الأعمال تم باليد، بعرق الفلاحين والعبيد. لكنها تنجز دوماً بناء على مخططات وحسابات مهندسي العمارة وملاحظي الورشلات الآخرين. وتشاد التصاميم طبعاً بالخبرة المنتقلة من جيل إلى جيل، وليس على مبادئ نظرية للآلية.

كانت ضخامة الأعمال تتطلب حسابات أولية بالأرقام المدورة، أي الصحيحة بدون كسور. فمن أجل قياس الحقول بهدف زيادة الضرائب، كان يجب أيضاً معرفة حساب السطوح . لذا كان الحساب متطوراً جداً في مصر. وانطلاقاً من النهج الطبيعي للحساب باليد (خمسة أصابع) وبالنهج العشري، خلق المصريون العد العشري لتقديم الأعداد ١، ١٠، ١٠٠، إلخ. حتى ١٠ ملايين. وكانت الهندسة متطورة أيضاً. فلا تقاس مساحة المستطيل فقط بل أيضاً حجم الدائرة، بإعطاء رقم ٣,١٤، كان الفلكيون يدرسون السماء ويضعون لوائح للنجوم حسب تجمعها، دون أن يساووا البابليين. كان التقويم المصري (الموضوع في أيام الإمبراطورية القديمة) شمسياً، لكنه غير مستخلص من مراقبة حركة الشمس السنوية: وكنقطة انطلاق، اعتبروا يوم بزوغ الشمس سيريوس؛ وفي تلك الحقبة بدأت الفيضانات بعامة. وبعد عدة أعوام من المراقبة تحققوا أن الأمر يتكرر كل ٣٦٥ يوماً وأعطيت هذه المدة للسنة، التي قسمت إلى ١٢ شهراً و٣٠ يوماً لكل شهر. وخمسة أيام أعياد في آخر العام. لكن هذه السنة تتأخر حوالي ٦ساعات عن العام الشمسي؛ وفي التقويم الحديث، جرى التصحيح بواسطة سنة الكبيس من ٣٦٦ يوماً، الذي يتكرر كل أربعة

أعوام. لم يجر المصريون هذا التصحيح، وخلال قرون، سينمو الفرق ولم يكن يلغى إلا كل ١٤٦٠ عاماً. لاحظ هذه الدورة الفلكيون المصريون الذين سموه زمن سوتيس (اسم مصري لسيريوس). وقد حقق الطب في مصر تقدماً ملحوظاً. وضرورة فتح الجثة لتحنيطها حسب العادة الدينية خولهم دراسة التشريح،وهذا، بدوره، اظهر بذور علم الفيزيولوجيا وعلم الطب. ويبحث الأطباء المصريون عن سبب الأمراض في تلف الأعضاء، لكنهم لم يستطيعوا التخلص من السحر، وفي أعرافهم بل أساطيرهم تتجاور الريوع السحرية مع الوصايا الطبية البحتة.

الفصل الرابع عشر

الإمبراطورية الحثية

الأصول

تشكلت الإمبراطورية الحثية في شرق آسيا الصغرى، في حوض حاليس *halys*، الإقليم الذي سمي مؤخرا كبادوس *capadoce*. لم تكن شروط البلاد تسمح بزراعة أراض مروية. لأن حاليس نهر أقل أهمية بكثير من النيل والفرات. كان الحثيون قد تعلموا حفر أقنية صغيرة لسقاية المراعي والكروم، لكن الزراعة لعبت عندهم دورا أقل من تربية المواشي والطيور. ففي مراعي الجبل، كانوا يملكون قطعانا غفيرة من الأحصنة والخرفان: كانت هذه المنطقة تزودهم، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، بصوف ممتاز.

كانت كبادوس غنية بالمعادن (بخاصة الفضة) وشهيرة بفن التصنيع المعدني؛ وكانت الجبال عامرة بالغابات والحجارة.

كان الشعب متنافرا: في الألف الثالثة كان ثمة قبائل هاتي *hatti* التي أعطت البلاد اسمها؛ كانت لغتهم تقرب لغة ترانسقفقازيا؛ على ذلك تمثل الثقافة المادية للهاتي والقبائل القفقازية القديمة تماثلات عديدة. وفيما بعد، على الأرجح على تخوم الألفين الثالث والثاني، غزت آسيا الصغرى قبائل أخرى: النيزيت واللويت الذين يتكلمون لغات هند-أوربية. لكن بعد احتلال قبائل الهاتي البلاد سموا أنفسهم حثيين *[he'the'ens ou hittites]*.

تشكل الطبقات الاجتماعية والدولة عند الحثيين غير معروف كفاية. يمكن الافتراض أن تطور التدجين الضخم وصناعة البرونز خلقت، في بداية الألف الثاني، الأساس الاقتصادي للعبودية.

ففي تلك الحقبة تشكل في شرق آسيا الصغرى قبائل (أو اتحاد قبلي) كانت تقاتل بعضها. تجمعت هذه القبائل حول مراكز جيدة التحصين، أهمها كوسار، نيشاساح وحاتوزا. بداية، استلم القيادة ملوك كوسار الذين استعبدوا نيشاساح ودمروا حاتوزا. وبعدئذ صارت

هذه الأخيرة عاصمة الإمبراطورية الحثية.

استناداً إلى التنقيبات، كان لحاتوزا سوران. وكانت جدرانها مؤلفة من حاجز ترابي ومن البلاط الحجري والآجر المشوي؛ وزودت بأبراج تتدرج بفواصل منتظمة. كل هذا أعطى المدينة مظهر البقعة المحصنة.

القليل مما لدينا من تاريخ الحثيين الأول، يشهد على نضال شرس بين العبيد والأحرار، بلغ أقصاه في النصف الثاني من القرن السابع عشر قبل الميلاد، أثناء تمرد "عبيد الأبناء الملكيين" الذين دمروا بيوت السادة و"أراقوا دمهم". وكانت تناحرات قاسية تمزق على الأرجح الطبقة الحاكمة: كانت تتضح أولاً بالنزاع بين مدعي التاج، الأمر الذي أوجب، في القرن السادس عشر، إصلاحاً يهدف تسوية الخلافة. وأخيراً نعرف أن الملوك الحثيين شرعوا، في نهاية القرن السابع عشر وبداية السادس عشر، بحروب الفتح: كان أكثرها نجاحاً غزوات مورسيل الأول الذي احتل كحالبا (حلب) في شمال سوريا، ثم تغلغل في بابل وهزمها ودمرها.

لكن معرفتنا أحسن بكثير للامبراطورية الحثية منذ القرن الخامس عشر حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. كسرات من القوانين حفظت، تعطينا فكرة عن العلاقات الاجتماعية في تلك الحقبة، وحوليات تتضمن معلومات مفصلة عن الدبلوماسية والحروب.

النظام الاجتماعي

كانت الإمبراطورية الحثية دولة استعبادية؛ فالملك، المعابد وحتى بعض الأفراد يملكون عبيداً؛ ويعد بعض الحقول أكثر من مائة منهم. كان العبيد بخاصة صناعاً ورعاة. عند ارتكاب الجريمة ذاتها، يدفع الحر تعويضاً وعقوبة العبد الموت أو بتر أحد الأعضاء: يقطع أنف وأذنا العبد إن أحرق أو سرق. كان العبد يشبه مادة ما والرجل الحر عن قتل عبد لايعتبر قاتلاً: بل عليه ان يعوض الخسارة على المالك بإعطائه عبداً (أو أكثر).

بيد أن بعض سمات الحق الحثي تثبت قدم العبودية. وكان العبيد يقدرون أن يملكوا رزقاً أو عقاراً وأن يقتطعوا من الغرامات التي ترهقهم: وأن يتزوجوا من حرائر، ويتدخلوا -في بعض الحالات- بالمحاكم؛ عند التفريق بين عبد وامرأة حرة، يقتسم الزوجان الأولاد والأرزاق.

عدا العبيد، كان المجتمع الحثي يتضمن عينات أخرى من المنتجين المباشرين

المستثمرين. فأقرب أقرباء الحثيين الهبار *les hippars*. ربما كان هؤلاء من مناطق محتلة، أو كانوا منفيين ليعملوا سخرة لمصلحة الملك؛ وكانوا أحيانا ملزمين بالأعمال العسكرية. كان الهبار يتحدون في جماعات تحمي أعضاءها كفالات متينة. المقصود كما يبدو نوع من مشاعات الجوار.كان العبيد والهبار من أصل أجنبي وبعامة أسرى. لكن الحثيين الأحرار قد يعودون أيضا إلى العبودية: في سنة قحط، تعرضوا لخطر الوقوع وإلى الأبد في قبضة ذاك الذي "جعلهم أحياء" بسبب قرض، لولم يقدموا عاملا آخر عوضا عنهم. كان الفقراء يقدرون أن يبيعوا أبناءهم (أمر ملفت، لم يسمح بهذا الحق للهبار).

أقل قسوة كان تعلق الناس (بالنصيب الوراثي). كانوا حتما أناسا خرجوا من المشاعة واكرهوا أن يصيروا زبائن الحثيين المخولين كل الحقوق المدنية، ومحاربين وملاك عقارات يعملون في الأرض. وكان لهم بعض الحقوق في الاقتصاد حيثما استخدموا: عند فسخ العقد، يتلقون ثلث الثروة.

كانت الكتلة الأساسية من السكان الأحرار مؤلفة من أعضاء المشاعات. كان لدى مشاعات الجوار حقوقا لاتقبل القسمة، رغم انتقال القسم الأكبر من الأرض إلى أيدي الأسر الأبوية ووزعت الأسهم على الأسر الصغيرة. كان قائد الأسرة الكبرى هو المدير الأعلى للأرزاق وينفذ السخرة للدولة؛ وكان "صاحب الدم"، أي قاضي الجرائم التي يقترفها أعضاء الأسرة؛ وكانت تبدو هنا بقايا نظام العشير في أخذ الثأر، في الكفالة المتينة وزواج السلفة . كانت الأرض قابلة للتحويل، لكن البيع والشراء يعتبر إجراما، عقوبته تضحية تكفيرية. والحالة الجنينية للملكية العقارية الفردية ترجم أيضا بتفاهة السعر: حقل من ٣٥ هكتارا يساوي عشر ثور. والكروم التي صارت، بالمقابل، ملكية خاصة في عهد أقدم، كانت أحسن قيمة: كرمة تساوي أربعين حقلا قابلاللزراعة.

كان أعضاء المشاعات، الذين حصلوا على نصيب من الأرض منظم، ملزمين بكل أنواع السخرة المسماة لوزي *louzzi*، التي تشمل كل الأعمال: بناء القلاع والمعابد، إصلاح الطرق، القطاف، إلخ. وكان عليهم، أيضا، تأدية الخدمة العسكرية؛ ومن يهرب من هذا يصادر حقله. فمالك الأرض يضطلع بمهام المالك السابق.

---

[1] – قانون عبراني يفرض على الشقيق أن يتزوج زوجة شقيقه المتوفى بدون ذرية.

كان الصناع خاضعين أيضا للسخرة؛ فقط، بعض المتميزين من المحاربين، الكهنة، ومن تلقى سهما من الأرض من الملك مع إجازة خاصة، يعفى من السخرة.

كان النبلاء في قمة الطبقة المتنفذة: أعضاء الأسرة المالكة، الكهنة، القادة العسكريون، المنحدرون من أرستقراطية الدم، الذين يبقون غالبا سادة أيضا في إقطاعاتهم يملكون الأرض والعبيد ونصيبا من أسلاب الحرب.

النظام السياسي

في رأس الإمبراطورية الحثية، كان "الملك المعظم" الذي يدعى "الشمس". ويعتبر مانح الخير والسعادة للشعب، يتم طقوسا ويوجه أعيادا دينية بصفة الكاهن–الأكبر. ويعبد بعد موته. ويشغل الملك وظائف عدة: قيادة الجيش، المرشد المشرف والقاضي الأعلى.

كانت السلطة الملكية محاطة بمجلس يسمى بانك *pank*. لغويا، هذه الكلمة تعني كثرة أو حشد. بالأصل، مجلس محاربي موسار، لكن بحسب تطور النظام العبودي، تفقد منظمات الديموقراطية العسكرية سلطتها: يتقلص البانك ليصير مجلسا أرستقراطيا يمثل قمة الشريحة الحاكمة. ويتمتع البانك، المكون من أهل الملك المباشرين (ابن، أخ، إلخ)، ومن الأصهار والقادة العسكريين، بحقوق واسعة، بخاصة حق محاكمة العاهل؛ والعاهل بالعكس، لايقدر أن يحكم بالموت على عضو من الأسرة المالكة بدون موافقة البانك. صحيح أن الملك يقدر أن يعيد النظر بقرار البنك، بخاصة تخفيف عقوبة ما.

وهكذا، كان نظام الإمبراطورية، في أيامه الأولى، أرستقراطيا: القمة النبيلة (أسر الملك) التي تملك القطعان الضخمة، العديد من العبيد، والتي توجه "بيوتا" (أسر أبوية) متنفذة، تتمتع بسلطة واسعة ونجحت في تحجيم العاهل. لكن، فيما بعد، عندما صارت الإمبراطورية دولة عسكرية قوية، توطدت السلطة الملكية وفقد البانك نفوذه.

كان نظام الأرستقراطية يفرض إدارة لامركزية. بالفعل، لم تكن الشروط الطبيعية لآسيا الصغرى قادرة على المساهمة بوحدة البلاد: لكن الافتقار لشبكات الري ولد، كما في مصر، الحاجة للمركزية. وكانت بعض المناطق مستقلة كليا من وجهة نظر الاقتصاد.

كانت الدولة الحثية موزعة إلى أقاليم خاضعة لحكام، مختارين غالبا من الأسرة المالكة ويحملون لقب "ملك". وعلى تخوم الإمبراطورية، وجدت محميات سوت علاقاتها مع المالك الأكبر" معاهدات خاصة تتوقع الأحداث الخاصة في حالة الحرب، وحصة

الأسلاب وحقوق التجارة والعلاقات الدبلوماسية مع البلدان الأخرى. كان لهذه المحميات حق إعلان الحرب وتوسيع حدودها على حساب الجوار غير الخاضعين للإمبراطورية الحثية.

كانت السلطة العليا "للملك المعظم" تمتد أيضاً إلى مدن مقدسة مثل أرينا ونيريك، التي تتمتع باستقلال أكيد.وفي الأرياف، يضطلع شيوخ المشاعات بالوظائف الإدارية والقضائية.

تشكل الدولة العسكرية

في نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، مارس الملوك الحثيون سيادة خارجية فعالة، تهدف إلى توسيع الأملاك بالسلاح والدبلوماسية. يومئذ، كانت السيطرة في الشرق- الأدنى بيد الكوريت، مربّي الخيول الذين شكلوا في النصف الأول من الألف الثاني عدة دول صغيرة في شمال ميزوبوتاميا وسوريا؛ كانت الشريحة العليا من السكان أرستقراطية تقاتل على عربات. وفي القرن الخامس عشر، توحد الكوريت في مملكة شاسعة، ميتاني، ممتدة من كحالبا وألالاح حتى نوزي، الواقعة شرق دجلة. اضطرت آشوريا بالذات للاعتراف بتفوقها، جلب ملك ميتاني من آشور، عاصمة آشوريا، باباً من الذهب والفضة زين به قصره في فاشوغاني (على الخابور).وكانت الدولة الأخرى القوية في الشرق - الأدنى آنئذ هي مصر التي،في أيام تحوتمس الثالث، وسعت حدودها حتى شمال الفرات.

لكن وضع هاتين الإمبراطورتين تزعزع حوالي نهاية القرن الخامس عشر. نجهل الأسباب الداخلية التي أضعفت ميتاني، مع أن رسائل تل العمارنة تكشف أن ملوك آشوريا حققوا في هذا الزمن استقلالهم؛ وفي فاشوغاني ذاتها (عاصمة ميتاني) انطلقت ثورات في القصر وتفجر الصراع على السلطة والميراث. وفي مصر، انتهت حروب الفتح في أيام أمنوفس الثالث؛ وفي أيام أخناتون، خلفه، بدأت إمبراطورية مصر، التي أهلكها ومزقها الصراع السياسي، بالتفكك.

في ظل هذه الظروف المواتية، شرع نبلاء العبودية الحثيون بانتشار واسع. ودلل ملكهم شوبلوليوما على مهارته الدبلوماسية. فبفعل السلاح والمفاوضات، توصل إلى مد نفوذ إمبراطوريته مداً ملموساً وجعلها أقوى دولة في الشرق الأدنى.

نجح بداية بقهر الكوريت: انتصرت قواته في شمال سوريا،اجتازت الفرات ودمرت فاشوغاني. وبعد هذه الهزيمة، قلبت الاضطرابات ميتاني: أكرهت ثورة من القصر، نجهل

أسبابها وحوافزها، ماتوازا، وريث العرش، على الهرب إلى عند الكاسـيت. وباعترافـه، استقبل استقبالا باردا، وخوفا من أن يسلمه الكاسيت للآشوريين أو لأعدائه في فاشـوغاني، "استسلم مع ثلاث عربات فقط وعدد بسيط من الحواشي إلى قصـر شـوبلولياما، دون أن يكون معه بديل للثوب الذي يرتديه". أدرك شوبلولياما الفوائد التي يجنيها من التقرب مـن الوريث الشرعي لتاج ميتاني. أعطاه ابنته زوجة وأرسل قواته ضد المتمرديـن. ويصـير ماتوازا ملك ميتاني، لكن البلاد صارت محمية للامبراطورية الحثية؛ وفي معاهدة نوعيـة، عدد ماتوازا المكاسب التي قدمها له "الملك الأعظم" واعترف بتفوق شوبلولياما.

دعم هذا الأخير نفوذه في شمال سوريا. ارتبطت كحالبا وقمرقميش بالإمبراطوريـة، ووضعت تحت إمرة الأمراء الحثيين. حث شوبلولياما الملوك الصغار في سوريا وفينيقيـا على التمرد على مصر؛ وكان رجل السياسة الحثية في سوريا أزيرو، عاهل بلاد عمـورو، الذي شهر السلاح ضد خلفاء الفرعون. لم يرسل أكحناتون تعزيزات، رغم إلحـاح ملـك بيبلوس، فاحتل أزيرو هذه المدينة؛ فقد أمن غضب الجمـاهير الشـعبية مـن اضطـهاد الموظفين المصريين، أمن دعما ملموسا لأزيرو. فقدت مصر امتيازاتها في سـوريا وفـي فينيقيا، لصالح الحثين، الذين كان اشتراكهم ضئيلا في هذا الصراع: وهكذا ألحقت الدولتـان الصغيرتان سوريا وفينيقيا بدائرة نفوذ الإمبراطورية الحثية.

أخيرا، حاول سوبلولياما التدخل في شؤون مصر الداخلية بعد موت أخناتون، والبـلاد فريسة صراعات داخلية أودت بفرعون بعد أن حرم السلطة. كان سوبلولياما يرغـب فـي تزويج أحد الأمراء الحثيين من أرملة أحد الفراعنة السابقين (ربما كان توتانخامون)، آمـلا تحويل مصر -كما فعل بميتاني-إلى محمية. لكن مشروعه فشل.

لقد وسمت مملكة سوبلويلامي الإمبراطورية الحثية بالأوج السياسي. واختفت شـيئا فشيئا الخصائص الخاصة بالممالك الأولى: وسلطة الملك الذي كان يدير التوسع العسـكري في امبراطورية العبودية، تدعمت واقتربت، بطبيعتها، من الاستبداد المصري والبابلي.

كانت أسلاب الحرب الضخمة وآلاف الهبار المستقرون على الأرض الملكية الأساس المادي لسلطة "الملك الأعظم"، "الشمس".

انهيار الامبرطورية الحثية

لم يستطع ازدهار الإمبراطورية أن يستمر طويلا، لأن دولـة سـوبلولياما متراميـة

الأطراف كانت تفتقر للحمة والانسجام. كانت حروب الفتح تتطلب جهودا ضخمة وتستنفذ الاحتياط البشري: فليس بدون سبب ألزم الحثيون الهبار بخدمة الجيش. وكانت السخرة تثقل كاهل الفلاحين، أعضاء المشاعات؛ فانتهى الجوع والاستعباد إلى دمار اقتصاد الحراثين والمدجنين.

اصطدم أول خلفاء سوبلوليوما بمصاعب جديدة. كان على ولده مورسيل الثاني أن يقاتل قبائل الكسكائيين الذي يسكنون جنوب البحر الأسود، وغرب مملكة أكحياوا التي أسسها اليونان (الأثينيون)، الذين كانوا يقطنون بلوبونيز في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

في نهاية القرن الخامس عشر، نشب نزاع مسلح بين الحثيين والمصريين الذين، في ملك رمسيس الثاني، كانوا يطمعون من جديد بسوريا. انهزم المصريون أمام قادش (١٣١٢)، واستنادا إلى المصادر الحثية، مشوا بسرعة إلى دمشق. لكن هذا كان آخر نصر هام للحثيين.

لقد ترك حاتوسيل الثالث،الذي أتى إلى السلطة في بداية القرن الثالث عشر، سيرة ذاتية ملفتة، تتضمن ذاتية لاتناقش تهدف أساسا تبرير اغتصابه العرش. لم يكن لحاتوسيل، ابن حاتوسيل الثاني، أي حق بالعرش. بل كان يحكم عدة أمصار من الإمبراطورية والمدينة المقدسة نيريك. ولما صار حفيد حاتوسيل، أوركحتشوب "الملك الأعظم" كاد له عمه وظاهر أعداء العاهل الحثيني. ونجح أخيرا بقلب أوركحتشوب (باتهامه إياه في سيرته الذاتية بمخططات ضارة ومهلكة ونفيه إلى جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. وقد فاقم هذا الصراع الملكي من وضع الدولة.

كانت سياسة حاتوسيل الثالث دفاعية بحتة؛ أوقف تقدم الكاسكيين وعقد في ١٢٩٦ معاهدة مع رمسيس الثاني. كانت العلاقات مع آشوريا أقل حظا: احتل ملك هذه البلاد مناطق المجرى الأوسط للفرات، حيث كانت ميتاني، وطمح بان يعادل "الملك الأعظم" الحثيني؛ ورغب في أن يناديه حاتوسيل الثاني "ياأخ". رفض هذا. "أنحن من أم واحدة؟" أجاب. لكن هذا الجواب لم يمنع طبعا من توطيد آشوريا وأكحياوا أيضا. وفي نهاية القرن الثالث عشر؛ نشب عصيان عنيف في الأمصار الغربية وأفضى إلى انفصالها. وحوالي العام ١٢٠٠ قبل الميلاد، انهارت الإمبراطورية الحثية. وفي نفس الحقبة، احتل الأثينيون،

أحلاف الحثيين، مدينة طروادة. وهاجم هؤلاء وشعوب أخرى من "شعوب البحر" شواطئ مصر وأبحروا إلى فلسطين.

الحضارة الحثية

كانت الثقافة الحثية بالغة التنوع: يكفي القول: إن رعاياها كانوا يتكلمون عدة لغات وتستخدم نهجين من الكتابة: الحروف المسمارية المأخوذة من الساميين والهيروغليفية.

يؤمن الحثيون بعدد كبير من الآلهة، منهم ثلاثة معظمون بشكل فريد: الإلهة-الأم العظيمة، إله العاصفة وتليبينو الذي بعث حيا كما تموز البابلي.

تروي الخرافة أن تليبينو اختفى غاضبا على الآلهة والحيوانات والناس، وكونه يجسد قوى الطبيعة جلب غيابه البؤس والجوع (وهذه من بقايا العبادات القديمة لبطل التشكل الإنساني) بحثت الآلهة عن تليبينو، لكن لا النسر ولاحتى إله العاصفة استطاعا العثور عليه. فقط النحلة، مرسلة من الإلهة العظيمة، أدركته وأقنعته بنسيان الغضب.

رغم بقايا العبادات القديمة، عبادة قوى الطبيعة)، كان الدين الحثي، في مجمله، قوة ايديولوجية كبيرة تدافع عن الطبقة الحاكمة المالكة: فقد عثروا ليس بعيدا عن حاتوسا على منحوتة تمثل الإله يعانق الملك.

لقد خضع الدين الحثي إلى فنون الأديان والميثولوجيا الكوريت والسومرية-الأكادية. إذ قبل الحثيون التعبد لإله العاصفة الكوريتي تشوب ومجدوا ثيرانهم المقدسة؛ وتعبدوا أيضا عشتار، وسن وآلهة بابلية أخرى. وبدوره، أثر الدين الحثبي بالمثيولوجيا الإغريقية: فربما من هنا أتت عبادة أبولون الذي يحمي، حسب أسطورة حرب طروادة، الطرواديين من الآثنيين.

الأعمال الفنية التي وصلتنا في غالبها منحوتات حجرية. وجوه الآلهة ثقيلة وساكنة، لكن المشاهد التي رسمها فنانون ليسوا عبيدا، معبرة وحية. إن منحوتة قرقميش ذات أهمية فريدة: فيها مشاهد عن المعارك، الحيوانات، وكائنات حيوانية خيالية. ووجدت منحوتات أقدم قرب حاتوسا: حيوانات، أزهار رائعة، منقوشة بموهبة؛ وخنزير بري مخيف يهجم على صياد، ركبته في الأرض، يصده بهدوء بقوسه، إلى جانب أيل يحني رأسه الخشبي نحو زهرة غريبة.

قليلة هي الأشياء التي نعرفها عن الأدب الحثي. كان الحثيون يكتبون بعامة على

ألواح خشبية، وأغلب موجودات مكتبة حاتوسا الضخمة فقدت. وبين النذر اليسير المتبقـــي نقرأ نصوصا مستوحاة من الميثولوجيا؛ على ذلك، يعتبرها بعض العلماء تراجـــم لملاحـــم كوريت. السمة الأصيلة لهذه الحكايا قحة الآلهة، البادية بخاصة في قصة كوماربي.

كان كوماربي ملك الآلهة؛ لكن ثمة آخرون راغبون في انتزاع سلطته؛ فقــرر خلــق معين له يعتمد عليه. ولما كان أحد الشجعان يبغي الحصول على أم مناضلة شجاعة، تزوج كوماربي من صخرة أنجبت له ابنا سمي أوللكومو. خبأه أبوه في صندوق حيث كبر بــدون علم أحد. لكن الآلهة علمت بوجوده وخلصت إلى إغوائه وتضليله.والإلهة عشتار، المزدانة بأحلى الحلي، تغني أمام الصخرة الجبارة. لكن جهدها ضاع، لأن أوللكومي كـــان بــدون عينين ولا أذنيين. يئست الإلهة ورمت حليها في الأرض.

يرى بعض الباحثين أن خرافة كوماربي مارست أثرها على الأســـاطير الإغريقيــة، بخاصة على أسطورة كرونوس، أب زيوس *Zeus*.



كبير آلهة الحثيين، بصورة محارب

الفصل الخامس عشر

فينيقيا وفلسطين

أصل الدول الفينيقية

يعني اسم فينيقيا شريطاً رقيقاً ناعماً من الشاطئ السوري، يبدأ من صور حتى أوغاريت. وفي الشرق، تمتد سلسلة جبال لبنان المغطاة بالغابات الكثيفة. ثم تتقدم الجبال حتى الشاطئ وتسقط رأساً في البحر. الأراضي القابلة للزراعة ضيقة لكنها شديدة الخصب. في المنحدرات تتوفر المراعي. وفي العصور الغابرة، عرف هذا الشط أكثر من عشر مدن بحرية، كانت كل منها ضاحية للمنطقة المحيطة.

اشتهر الفينيقيون بجرأة وإقدام بحارتهم ونشاط تجارهم.

هذه التسمية "فينيقيون"، التي اختارها المؤرخون الإغريق، اصطلاحية؛ لم يعرفها السكان الأصليون. كان جدودهم يسكنون حتى الألف الثالثة جنوب وغرب فلسطين. وكانوا عدة قبائل تتكلم لغات سامية. وفي الالف الثالثة بدأوا تقدمهم نحو الشمال، على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

بنت هذه القبائل على الشاطئ السوري أولى مساكنها، التي آلت إلى أوغاريت، جبيل (بيبلوس بالإغريقية) وصيدون. وفيما بعد يظهر مستقبل تسور ***tsor*** (بالإغريقي تير ***tyr***) صور.

بداية، كانت هذه الأماكن قرى صيادين تجمعوا في مشاعات؛ لكنها سرعان ماتحولت إلى مدن، وصارت مراكز للمناطق حيث استقر المهاجرون بمشاعات الجوار.

لقد ارتبط تحول مشاعات العشير إلى مشاعات جوار بولادة طبقات اجتماعية وتأسيس دول فينيقية. ليس لدينا أية معلومة دقيقة حول هذا التطور؛ تدعي الخرافة أن مؤسس وملك صيدون الأول هو كيريت ***ke're't***، الذي امتلك جيشاً خاصاً به؛ وفي صيدون أقيمت معابد لآلهة القبائل.

نظرة في التاريخ السياسي للممالك الفينيقية

لم تتحد دول فينيقيا الصغيرة أبدا في دولة واحدة. بل عاش كل منها حياته السياسية. وعبر التاريخ، تميزت أربع ممالك: أوغاريت، جبيل، صيدون وصور، بغناها ومناعتها.

قبل أن يغزو تحوتمس الثالث فلسطين وسوريا،كانت الممالك الفينيقية مستقلة. وكانت جبيل وأغاريت تشغلان المكانة الأهم.

كانت جبيل قد عقدت، منذ الألف الثالثة، ارتباطات تجارية مع مصر. وكانت أوغاريت قد صارت في نهاية الألف الثالثة مدينة هامة تتاجر مع مصر وكريت وفي النصف الأول من الألف الثالثة، ازدهرت أوغاريت، وكانت عامرة بالمعابد والقصور؛ يقطن التجار والسادة في بيوت من حجر فخمة الأثاث ومزودة بأقبية المؤونة والطبخ. وكان تجار كريت يسكنون حيا خاصا بهم؛ ويتاجرون أيضا مع قبرص.

في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، خضعت المدن الفينيقية ثلاثمائة سنة لمصر والحثيين الذين غزوا في النصف الأول من القرن الرابع عشر شمال سوريا ، وألحقت مؤقتا أوغاريت وجبيل. ومنذئذ وحتى نهاية الألف الثانية، تعيش فينيقيا عهد انحطاط، ناجم أولا بأول عن حروب مصر والحثيين، الجارية على أرضها، ثم "دخول شعوب البحر" الآتية من الجزر الإيجية.

في نهاية القرن الثالث عشر، سمح ضعف مصر وانحطاط الامبراطورية الحثينية لممالك الفينيقية أن تستعيد استقلالها. وفي تلك الحقبة كانت المكانة الأولى تخص صور التي، كونها واقعة في جزيرة، لم تعان كثيرا من ويلات الحروب والاعتداءات. كان عاهلها الأشهر حيرام الذي ملك في منتصف القرن العاشر. كان بإمرته أسطول تجاري ضخم يستغل نفوذه في أرجاء البحر الأبيض المتوسط؛ وسع حصن صور ليجعل منها قلعة منيعة الجانب، قاومت حملة الآشوريين .

دام هذا الاستقلال حتى نهاية القرن الثامن، يوم فقدت الممالك الفينيقية استقلالها إلى الأبد على يد الآشوريين.

النظام الاقتصادي، الاجتماعي والسياسي للممالك الفينيقية

إن الوثائق التي عثر عليها في أثناء التنقيب في أوغاريت، تميز بعض مظاهر النظام الاقتصادي والاجتماعي لهذه الدولة. كانت غالبية الناس يزرعون الحبوب والكرمة في

وادي العاصي الخصبة، وخلفه، في الصحراء، تمر حدود المملكة. وكانت الأرض تعطي مواسم وفيرة؛ وكان مايزيد يباع إلى تجار أوغاريت الأجانب. وكان الزراع يعيشون نظاماً مشاعياً. مشاعات الجوار تصدر من مشاعات العشير، وقد حافظ بعضها على اسمه القديم. كانوا يدفعون مرتبات إلى الملك ويزودونه باليد العاملة لأعماله. كان كل منها ملزماً بأن يعمل من ١٣ يوماً حتى شهرين سخرة، ويقدمون للجيش رماة الأقواس. وفي المنطقة الشاطئية، كانت تقيم مشاعات الصيادين الذين يجندون في الأسطول الملكي.

كانت رعايا أوغاريت مؤلفة من صناعيين، تجار، كهنة وكبار الموظفين؛ والكل عدا الصناعيين، يملك عبيداً. ويحوز بعضهم كروماً متواضعة المساحة. فالعبودية تشكل خصيصة أليفة. وفي إحصاءات الوصيات أو عقود البيع، يذكر العبيد في خانة الدواب والمواد الثمينة كالبرونز والفضة. كان عدد العبيد قليلاً؛ والسيد الذي يفقد عبدين أو ثلاثة يتعرض للافتقار فعلاً، لا بل للدمار. وكانت أراضي الملك مخدومة جيداً: والقصور تغص بالخدم، ويعمل عبيد آخرون في مراعي وكروم العاهل أو يجذفون على مراكبه. أكثر العبيد يشترى من السوق. تطورت العبودية بخاصة في صور، في الألف الأول. وكان ملوك صور يملكون تجارة بحرية رائجة ومقاتلين أشداء كفاء، ويهتم تجاره بمعاملة العبيد المجلوبين من حيث يوجد مستوطنات لصور.

منذ النصف الأول من الألف الثانية، تشكلت شريحة غفيرة من التجار في الممالك الفنيقية. كانت لاتعمل إلا بتجارة الوساطة. بين البضائع الكثيرة المصدرة، ليذكر كمادة منتجة في فينيقيا نفسها سوى القمح، الخمر، خشب لبنان المجفف؛ ماعدا ذلك يستورد من الخارج،يشرى أو يبادل في بلاد ليباع أو يقايض في بلد آخر. وقد بقي الملوك، حتى أفول الدول الفينيقية، على رأس البائعين والشارين. وفي الألف الثانية، كان تجار فينيقيا الأشهر في العالم؛ ولقد أشار ماركس[1] إلى دورهم الهام في التجارة.

من حيث النظام السياسي، كانت الممالك الفينيقية استبداديات صغيرة. نجهل بنية جهاز الدولة ، لكنا نعرف جيدا ايديولوجية السلطة الملكية. كان ملوك فينيقيا يدعون الطبيعة الإلهية. فملوك صيدون، مثلاً، ينسبون ذريتهم إلى آلهة (كريت، الملك الخرافي، وصار

---

[1] - ك.ماركس، رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الأول، منشورات اجتماعية، باريس ١٩٥٠ ص١٣٧/ ملاحظة٣.

إلهاً)؛ ومؤسس جبيل كان يزعم الإله إل *EL*، وإله صور كان يسمى ملكارث ("ملك المدينة" بالفينيقية). ومنظمة العبادة الرسمية تتلاءم مع هذه الإيديولوجيا التيوقراطية: كان ملوك جبيل، أوغاريت، صور وصيدون في ذات الوقت كهنة الآلهة العليا لمدنهم ويرأسون شخصياً الاحتفالات الطقسية الضخمة. لكنهم لم يكونوا مطلقي السلطة كما كان ملوك بابل وفراعنة مصر.

الظلم الاجتماعي الذي توطد منذ بزوغ الممالك التجارية والعبودية الغنية، وتطور العبودية أثارا اضطرابات ومكائد لم تتوقف، وكذلك ثورات في أوساط الأسر المالكة. وحدثت تشوشات في صور حوالي نهاية القرن التاسع، عندما دبرت أخت الملك مكيدة ضده. ليس لدينا معطيات حول حقوق العبيد، عدا لقصة بالغة الغموض حول عصيان نشب في صور في القرن الخامس قبل الميلاد، يوم كانت جزءاً من فارس.

. **إبحار ومستوطنات**

يعتبر الفينيقيون أجود بحارة العصور القديمة. وقد تطور العمل البحري بفعل الوضع البحري لكل هذه الممالك، التي يعيش سكان شطآنها من الصيد ويرحلون كثيرا في عباب البحر على متن مراكب خفيفة ذات مجاذيف. فمنذ الألف الثالث كان الفينيقيون يبحرون حتى مصر وحتى بحر إيجة. وفي الألف الثانية، وصلوا، في الغرب، إلى نوميديا وإيبيريا (اسبانيا). وكان بحارة صور أول من وصل مضيق جبل طارق، ولدى رؤية بحر بدون حدود، اعتقدوا أنهم في طرف الدنيا. وسموا الصخرتين الضخمتين التي انتصبتا وجها لوجه أمامهم، على الشط الأوربي سوتا *Ceuta*، عمودي ملكارث، مفترضين أن الإله غرسهما هنا بيده بالذات من أجل تحديد الأرض. وفيما بعد، وبعد التحقق أن العالم لاينتهي هنا، تجاوزوا جبل طارق عدة مرات. لكن هذه الفكرة المرتبطة بالمضيق عاشت وأخذها اليونان والرومان، وسموهما عمودي هرقل.

في الألف الأولى قبل الميلاد، خرج الفينيقون من البحر الابيض المتوسط: وفي القرن السادس، سار البحار القرطاجي حانون على طول شواطئ افرقيا الغربية حتى الكاميرون الحالية، ووصف رحلته في نص وصلنا مترجما إلى الإغريقية.

أثناء بعثاتهم البحرية، أسس الفينيقيون مستوطنات، وعقدوا معاهدات تجارية مع سكان جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوبه. لكننا نخطئ إن نحن اعتقدنا أن هؤلاء التجار كانوا

دوما مسالمين؛ فإذا ما أتت السانحة، يسارعون إلى نهب القبائل التي تسكن شواطيء أفريقيا، أسبانيا وآسيا الصغرى. وكانت التجارة متبادلة. حيث كانوا يقدرون استقبال وباستمرار بضائع ثمينة وتأسيس مرافئ سهلة التناول، كان الفينيقيون يشيدون مستعمرات، تصير فيما بعد مدنا كبيرة. كان منها في جزر بحر إيجة ومضائق الدردنيل وأمكنة أخرى.

حوالي العام ٨٠٠ قبل الميلاد بنيت أهم مدينة، قرطاجة "المدينة الجديدة" قرب تونس الحالية وسرعان ما صارت أروج مركز تجاري في غرب المتوسط.

لقد طور الإبحار البناء البحري في صور، صيدون وجبيل. وعمر أهالي صور أسطولا كاملا لملك آشوريا سناشرب. وجهزوا سفنا لسلطان فار التي صارت تجهز المدن الفنيقية لحروبها.

الحضارة الفينيقية

تدل المكتشفات في أوغاريت وجبيل أن الفينيقين خلقوا حضارة أصيلة في كل المجالات: الدين، الكتابة، الآداب والفن.

إن الدين الفينيقي، ككل أديان الشرق القديم، يتميز بتعايش العبادة الرسمية والعبادة الشعبية، الزراعية. ولكل دولة آلهتها الرسمية: بعل وبعلات، سيد وسيدة المدينة أو المملكة. وفي جبيل، كان أدونيس واستارتيه؛ في أغاريت، آليين وآنيت؛ في صور، ملكارث (اسم "زوجته" غير معروف). وكان ثمة آلهة آخرون.ويلتقي دين الدولة ودين الشعب في نقطة: عبادة آلهة النبات والخصب. البعل والبعلات في كل مملكة موقران ليس فقط كحاميين للبلاد، بل كإلهين للخصب والنبات. وكانت تنسب هذه المقامات لأدونيس وأيضا لأليين، ملكارث، أستارتية وأنيت. يعلن العيد الرئيس للتعبد في كل مكان بدء الأعمال الزراعية ويرتبط بأسطورة البعث وظهور إله النبات والخصب.

في دين الشعب، يخص المقام الأول العبادات الزراعية، الموقوفة على "آلهة الخير" لمطر، خصب التربة، الحرث والبذر، المواسم، الحصاد، القمح والخمرة. وحسب المثولوجيا الشعبية، "تول" هذه الآلة أو تظهر في أثناء فصل الأعمال الحقلية؛ ويعطي هذا "لابن البحر" آليين، موزع المطر، الذي يهطل فجأة قبل البذر وينتصر على إله الجفاف موت *Mot*. فالحرث والبذر، الحصاد وجمع الثمار تترافق مع طقوس سحرية تؤمن وفرتها تتم كل هذه الطقوس جماعيا في المشاعات.

كان الأدب الفينيقي يؤثر معالجة الموضوعات الاجتماعهية الميثولوجية. فنصـــــوص أوغاريت تصف موت آليين، نزوله إلى المملكة السفلى لموت *Mot*، بعثه وعودتـــه إلـــى الأرض، مجيئه وبناء معبد لمجده. وعدا الشعر الميثولوجي، كان ثمـــة الأدب القصصـــي. فالتنقيب في أوغاريت كشف لنا ملحمة كيريت، ملك صيدون الخرافي. وثمة أيضا أجـــزاء من حوليات صور تحكي على الأرجح قصة المدينة منذ القديم الغابر حتى الألف الأولـــى، ووصفا لملك صيدون الذي عاش في القرن الخامس قبل الميـــلاد. وأحـــد أهـــم نجاحـــات الحضارة الفينيقية هو إبداع الكتابة الأبجدية. وتطور الإبحار والتجارة أوجب كتابة مناســـبة سهلة، أبسط من المسمارية والهيروغليفية. وفي الألف الثانية قبل الميلاد، تشـــكلت الكتابـــة الأبجدية كما يبدو بالموازاة في مختلف المدن: ففي الشمال، في أوغاريت، بنيـــت الكتابـــة على المسمارية، بينما أخذوا في النوبة نموذج الهيروغليف المصري الذي يبرز الصوت أو الرنة او اللحن *lesoase*. واستخدمت الحروف الفينيقية بدورهـــا فـــي تأسـيس الأبجديـــة الإغريقية، الآرامية، اللاتينية والروسية. وليس صدفة أن تشتق كلمة أبجديـــة ذاتـــها مـــن كلمتين فينيقيتين: ***aleph***(ثور) و***beth***(بيت)، أي ***aleph beth***(ألفا بيـــت)، لتصـــير أخـــيرا ***aleph*** و***beta*** باليونانية.

كان ينقص الأبجدية الفينيقية الشارات لتقديم الحروف الصوتيـــة ***voy elles***، المبـــدأ الموجود حتى اليوم في الكتابة العبرية والعربية.

لقد وجدوا في جبيل وأغاريت نماذج عديدة من الفن الفينيقي، أنصابا ضخمة وصغيرة للآلهة، ومسلات وعليها منحوتات، وسلعا ذهبية، فضية، برونزيـــة وخشـــبية، مشـــربيات بديكور أحمر. تعود هذه الأعمال إلى حقب عديدة ، من الألف الثالثة حتى منتصف الألـــف الأولى قبل الميلاد. وفي صيدون، وفي المعمرات الفينيقية في قبرص وغيرهـــا، اكتشـــفت كمية من الأغراض العائدة للألف الأولى. وقد خلق الفنانون أســـلوبا أصيـــلا، فينيقيـــا أو سوريا، مستقى من التقاليد المصرية والحثية-الكوريت. ومن أعمال الفن الفينيقي الرائعـــة هي منحوتات القبر الضخم لأحيرام، ملك جبيل (القرن الثالث عشر-الثاني عشر)، مســـلات أوغاريت التي تحمل صورة آليين، أوزانا من البرونز بشكل ثيران، صحون فضية تـــبرز أسطورة أدونيس. كما مارس الفن الفينيقي نفوذا واسعا على شـــعوب ســـوريا وفلســـطين، بخاصة الفن العبري.

قبائل اسرائيل وجودها وتغلغلها في شانآن *Chanaan*

لقد سمى الإغريق البلاد الواقعة في جنوب سوريا، فلسطين، استنادا إلى الفلسطسنسن الذين كانوا يعيشون منذ القرن الثالث عشر على الشاطئ الجنوبي الشرقي للبحر المتوسط. وكان نهر الأردن الذي يجتاز البلاد من الشمال إلى الجنوب ويصب في البحر الميت. يقسم فلسطين إلى منطقتين متمايزتين: غرب الوادي، الأراضي الخصبة، ووفرة النبات؛ والضفة الشرقية صخرية وجرداء. في الشمال، تنتصب ملتقيات لبنان الغربي الغابية؛ وفي الجنوب بحر الميت، تنبسط السهول التي تزهر في أثناء فصل الأمطار وتتحول إلى صحراء خلال فصل الجفاف.

في الألف الثانية قبل الميلاد، كانت فلسطين المسماة آنئذ شانآن عامرة بالشانئيين، الذين يتكلمون لغة سامية، والكوريت. كانت هذه المناطق الخصبة تثير، منذ الألف ا لثالثة، اهتمام واشتهاء المصريين أبان حكم فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، استعبدوها كما استعبدوا فينيقيا. وفي نهاية الألف الثانية بعد غزوات "شعوب البحر" فقدت مصر فلسطين التي أضحت رهان الصراع بين مختلف القبائل.

آنئذ تبدأ بالتغلغل في فلسطين، من خلف الأردن، قبائل عبرية متحدة تحت اسم اسرائيل.

لم تكن هذه الحركة حملة عسكرية منظمة، بل تسلل بطئ للقبائل المنعزلة، التي، في بعض الحالات، كانت تبيد أبناء البلد الأصليين أو تستعبدهم، وفي حالات أخرى، تقيم في أراض غير مأهولة، جنبا إلى جنب مع الشانئيين. وبعد الهجرة حافظت القبائل الاسرائيلية، وخاصة قبائل الجودا، والقبائل المجاورة، القاطنة في المنطقة شبه -الصحراوية في نوب فلسطين، حافظت على النظام العشيري لبعض الوقت. لكن أسلوب حياتهم الرعوي تحول، شيئا فشيئا، إلى الأسلوب الزراعي، الغالب في الشمال ومركز الشانآن منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وأمست القبائل المؤسسة على العشير مشاعات جوار، رغم بقاء بعض التقاليد القديمة، التي تؤثر على النظام الاجتماعي والسياسي للمهاجرين. ومع انتشارها على أرض واسعة وانتقالها إلى حياة الزراع المقيمين، حافظت القبائل طويلا على أعرافها وعاداتها العشيرية الحضرية، العسكرية والدينية. مع ذلك، خلق تطور العبودية واللامساواة المادية، منذ نهاية الألف الثانية، الشروط الاقتصادية لولادة الدولة.

في القرن الثاني عشر والحادي عشر، تغلغلت قبائل أخرى في شانآن. ساميون رحل

من شرق الأردن وصلوا من الشرق؛ وأبحر أحد "شعوب البحر" الفلسطينيون، إلى الغرب، على الشط الفلسطيني. وقف الاسرائيليون على رأس الغزاة الآتين من الشرق بوسائلهم الخاصة. أما الفلسطينيون، دلوا أنهم رهيبون. جيوش بسيوف من حديد ، احتلت الشط وبدأت غزو داخل البلاد: بنوا فيها ميادين محصنة (أهمها أشدود أو آزوت وغزة) وأسسوا عدة إمارات.

أسهمت الحرب ضد الفلسطسنسن في توحيد القبائل الاسرائيلية في دولة واحدة. نفذ المحاولة الأولى قائد من القبيلة اسمه سول *Saiil*، ما أن صار ملكا، حتى حارب الفلسطينين. واشتركت القبائل الاسرائيلية في الجنوب (بما فيها يهودا) بالصراع. ولدى موت سول، عادت المعارك بقيادة مروض ومدرب سول، دافيد، من قبيلة يهودا. وما أن استلم عرش يهودا، حتى وحد تحت سلطته القبائل الاسرائيلية من جنوب ووسط شاتأن. عرفت هذه الدولة باسم مملكة اسرائيل أو يهودا. نجحوا في دحر الفلسطينيين وطردهم من البلاد. وقد خلد هذا النصر سلطة دافيد (بداية القرن العاشر قبل الميلاد).

مملكتا إسرائيل ويهوذا

بعد دحر الفلسطينيين، قام دافيد بعدة حملات في الشمال وبسط سلطته على القبائل الاسرائيلية في تلك المناطق. واختار عاصمة له مدينة القدس القديمة (أورشليم) وبنى مقاما له في جبل صهيون، المحصن بحيث يستطيع "العرجان والعميان" الدفاع عنه. وهنا شيد لإله قبيلة يهودا يهوه معبدا بشكل خيمة، حسب عادة القبائل الراحلة.

خلف دافيد، الذي مات في بداية القرن العاشر قبل الميلاد، ولده سلومون الذي أنجز بناء القدس. كان سلومون، وكان ملكه سلميا، نموذج الاستبدادي للشرق القديم. يدفع له السكان الأتاوات الطبيعية. واستنادا إلى "كتب الملوك" وهي فصل من التوراة –كانت مملكة سلومون من خمس دوائر، تخضع كل منها فقط إلى التقسيم البلدي. على رأس كل دائرة، وضع العاهل حاكما مكلفا بحماية "الملك وبيته"، يعني الاسرة المالكة وحاشيتها، بإرسال الفرائض الطبيعية إلى القدس، المترتبة على منطقته. وكان موظف خاص مكلفا بإدارة الأعمال "لبيت الملك" المفروضة على كل "اسرائيلي". ثلاثون ألف رجل يؤدون أدوارهم بالسخرة. وهكذا بنى القصر الملكي ومعبد يهوه.

القصر والمعبد لايدهشان بأبعادهما، لكن، استناداً للنصوص، كانا آية في الإبداع من

الداخل والخارج. ولقد بنى سلومون تحصينات وقلاعاً عديدة. والتنقيبات وضعت أيدينا على بقايا من تحصينات القدس والإصطبلات الملكية في مجيدو. وألزم الملك أيضاً السكان الأصليين، الشانآن، بالسخرة. وعقد عقوداً تجارية مع فينيقيا، مصر، سوريا، الجزيرة العربية، التي صدّرت له الخيول، العبيد، الذهب، الفضة، الحجارة الثمينة، الزيوت العطرية ومواد البذخ الاخرى.

كانت ورشات سولمون الواسعة، وصيانة قصره، وبذخ حياته، تستند إلى العمل الإجباري وسلب رعاياه. فليس غريباً أن يكون الوضع في فلسطين في، نهاية حكمه، حرجاً جداً. وتفاقم الوضع أيضاً، الملك لم يكن يهتم بمصالح قبائل الشمال بل يولي ارستقراطية يهودا كل رعايته. فتبدى الغضب بخاصة لدى ايفاريحيم، أكبر القبائل الإسرائيلية، وتمردت. كبح العصيان لكن تجدد الصراع بعد موت سولمون أفضى إلى قسمة الدولة إلى مملكتين: يهودا وإسرائيل (٩٣٥ قبل الميلاد).

لقد مزقت الصراعات الداخلية مملكة إسرائيل. وبعد ٥٠ عاما من النزاعات، سقط العرش بيد قائد المليشيات الشعبية أومري (٨٩٠ قبل الميلاد. كان عهد أسرته الألمع في تاريخ المملكة. شيد أومري على قمة شومرون عاصمة جديدة وقصرا منيفا ومعبدا اكتشف بقية منه عند التنقيبات، وسمي شومرون (السامرة)، باسم الجبل. كان هذا العاهل وخلفاؤه على اتصال دائم مع فينيقيا وقادوا حملة مظفرة ضد ملوك سوريا في دمشق الذين كانوا يطمحون في إخضاع إسرائيل. إنما في الداخل، كان الوضع مضطربا. فإلى عبء الأتاوات أضيف الجوع (الذي سبقه زمن طويل من الجفاف والقحط). ويتمرد الفلاحون، يبلغ الغليان الجيش، تقلب أسرة أومري وتبدأ المملكة بالانهيار. وفي القرن الثامن، تتتابع الحروب الداخلية، بينما يظهر عدو رهيب على الحدود: آشوريا. في ٧٢٢، بعد تصد إسرائيلي يائس، يحتل الملك الآشوري صارغون السامرة ويدمرها. وهنا انتهت مملكة إسرائيل.

دامت مملكة يهودا أكثر من هذا. ففي القرنين التاسع والثامن، حاول ملوكها عدة مرار إعادة سلطتهم إلى الشمال. كانوا أضعف من أن يشنوا حربا؛ لكنهم كانوا يحاولون تأريث متاعب هذه المملكة ويبثون الدعايات الدينية، لكن عبثا. وبعد سقوط ودمار سماره، حل الفقر في القدس: وانتظرها ذات المصير. حاصرت القوات الأشورية المدينة. لكن عدة منذرات أجبرت ملك آشوريا على رفع الحصار. وأكره حزقيا، ملك يهودا على دفع ضريبة ضخمة والاعتراف بتفوقه. وبعد هذا، استمرت المملكة بالحياة قرابة قرن ونصف.

النظام الاجتماعي والنضال الطبقي في إسرائيل ويهودا.

كان الاقتصاد الفلسطيني في النصف الأول من الألف الأول يرتكز علــى الزراعــة وتربية الدواجن والطيور. كان هذا يهيمن في الجنوب، في الأقاليم السهبية والجبلية: كــانوا يربون صغار الحيوانات، الماغز والغنم. وفي شمال يهودا وإسرائيل، كان يعيــش النــاس أساسا على زراعة الحبوب، الكرمة، الزيتون والتين. وكانت الأرض تحرث بسكة حديــد، ويتم الحصاد بمناجل حديد: أدوات من حديد اكتشفت في هذه البقاع تعود للقرن التاسع عشر.

كانت المهن تتفرع من الزراعــة: الحــدادون،الفخــارون، والنجــارون صنــاعيون محترفون. وقد تسارع تطور الصناعة بتأثير المدن الفينيقية الأرقى حضارة.

كان تطور العلاقات الاجتماعية في فلسطين قد حدده واقع القبائل العبرية الرحل التــي غرست في وسط اقتصادي واجتماعي جديد، حيث حــازت الحــرف والتجــارة، الربــا، والملكية تقاليد متينة، ولدت منذ زمن في المراكز الفينيقية والشانآن. فتكــون مجــال فــي المجتمع العبري لبروز ظاهرات متناقضة من جهة، بقايا نظــام عشــيري مســتقر بكــل وضوح؛ ومن جهة أخرى، كانت الملكية الخاصة، الربى، الفــرق فــي الــثروة، يتطــور بسرعة.

كانت المشاعة هي الخلية الاجتماعية الأساسية : بداية ، يعني هذا التعبير المشــاعة المؤسسة على العشير، لكنه ضم فيما بعد مشاعة الجوار. وكانت هذه تحافظ على بقايا هامة من نظام العشير: مجلس العشير، مقبرة العشير، الثأر، إلخ. يحكم المشاعة أحــد الشــيوخ (ناشي). وكانت مشاعة الجوار مبنية على الملكية التعاونية-الجماعية للأرض. فمنذ القــرن الثامن قبل الميلاد، كان في يهودا مشاعات هيأت أرضا للزراعة تعاونيا ووزع محصولــها بين الأعضاء. لكن الأرض، في أغلب الحالات، كانت على الأرجح تقسم إلــى أســهم أو حصص فردية عن طريق القرعة؛ وكانت القسمة تتم في اجتماع عام يترافق مع طقــوس نوعية. كان هذا أمرا عاديا يدل على إعادة توزيع الأرض دوريا. وكان لكل مشاعة معبدها وكاهنها. وكان أعضاؤها متعاقدين على التزامات عديدة: إنقاذ من يقع منهم عبــدا لعجــز وفاء الدين، معاقبة جماعية للجناة والتوسط بين القاتل والمنتقم لتجنب الثأر.

رغم بقايا نظام العشير، دفنت العدالة في المجتمع العبري في النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد. كان الأغنياء يملكون قطعانا غفيرة من الغنم، الماعز، الحمير. والعبيــد من الجنسين وكل الأرزاق. وكانوا يبنون بيوتا من طابق واحد؛ والقبــو للعبيــد والعــوام،

والأعلى لأسرة السيد، التي تتناول المرطبات، مساء، على سطح المنزل.

كان تشكل الملكية الفردية (المواشي، ثم الأرض) واسع الانتشار في فلسطين: فالأرض المشاع كانت تنتقل إلى رؤساء الأسر الأبوية. وغياب نظام ري واسع تتطلب إدارته وإعادته إلى الحياة تعاونا بسيطا، أفضى إلى تفكك المشاعة: يمكن بناء خزانات لمياه المطر بعمل أفراد الأسرة وعبيدهم الخاصين. وكانت الملكية الفردية واسعة التطور في فلسطين بحيث لايملك الملك نفسه حق مصادرة الأرض.

لقد نجم عن تطور الملكية الخاصة الربا، وسبب خراب بعض أعضاء المشاعة، الذي تفاقم نتيجة الحروب والأتاوات الثقيلة. فيصير البؤساء الذين لايستطيعون وفاء دينهم عبيد دائنيهم. وكثيرا ماترك المفلسون المشاعات ليعملوا أجراء، أو يلجؤون إلى الجبال ،أو إلى غابات ضفاف الأردن، هربا من الدائنين ،أو من "وكلاء" الملك.

لم يكتف المزارعون بمقاومة سلبية. وفي ظل أسرة أومري، كان شعب إسرائيل يتململ ضد الملوك وأصحاب الحظوة لديهم. كانت هذه التمردات ذات خصيصة دينية. وكان الفلاحون الذين يأملون بالتبدل الاجتماعي، يبنون آمالهم على مجيء ملك عادل، "مسيح حقيقي"، مسيح الله ورسول الله بالذات، يلغي نير العمل الثقيل وعصا الوكلاء- المراقبين، من أجل توطيد السلام والعادلة. كان الناطقون باسمهم الأنبياء الذين يقودون أحيانا الحركات الشعببية في القرنين التاسع والثامن (على ألا يخلطوا بينهم وبين الأنبياء الذين يعملون في المعابد الملكية في القدس والسامرة كعملاء مخلصين للكهنوت والملك). كانت الحزكات الشعبية تفضي أحيانا إلى تبديل الأسرة المالكة، لكن وضع الكادحين لم يكن يتبدل. وفي القرن الثامن تبدل الغضب إلى عصيان. أنبياء يرأسون "سقوط كل البروج"، "المذبحة الكبرى" للعاطلين الذين يضطهدون الشعب: الإله نفسه حضر الهجوم الجديد، وبعد قلب العاهل الملحد وأتباعه، يلغى الملك، يهدم القصر الملكي وإلى الأبد"؛ الشعب ذاته سيصير ملكا، تتوارى الفاقة والقحط، وتغمر المملكة الجديدة بالمسرة والخير الأبدي.

دون الوصول إلى ثورة اجتماعية، كانت الحركات الشعبية إنذارا جديا للأرستقراطية المستعبدة. إذ اضطر الملوك لاتخاذ تدابير لتحسين وضع الفقراء. وسن قانون لتحديد العبودية الناجمة عن الدين بست سنوات؛ ونشرت قرارت تهدف إلى الدفاع عن الأرامل واليتامى، الذين كثروا في أيام الحرب، وحقوق المأجورين. وقانون العام "اليوبيلي" (الذي أعد، لكنه لم يطبق أبدا، كما يبدو) كان يبغي إعادة، بعد مدة معينة، الأرض المستلبة.

أفول نجم مملكة يهودا

بعد سقوط مملكة إسرائيل. أكره ملوك يهودا، كما قلنا آنفا، على الاعتراف بتفوق ملك آشوريا. واضطروا أن يدفعوا له ضريبة باهظة وقعت كلها على عنق الفلاحين. أثارت هذه الاغتصابات الجديدة في منتصف القرن السابع تمردا. قلب الشعب المتمرد الملك آمون. واستلم العرش أشعيا وهو في عامه الثامن؛ حكم إكثر من ثلاثين عاما وكان آخر عاهل كبير في البلاد.

كانت الأمبراطورية الآشورية في حالة انحطاط، في أيام الملك أشعيا، الأمر الذي مكنه من استعادة استقلال بلاده. وبعد هذا، حاول توطيد دولة الاستعباد، ومركزة الحكومة. وابتغى الإصلاح عام ٦٢١ قبل الميلاد بحرمان المشاعات استقلالها. ألغى الملك كل المهام القضائية، ووظف قضاته في كل مكان؛ وأرسل إلى كل المشاعات موظفين مكلفين بتجنيد الجنود. وأصدر قرارا بمنع تغيير الحدود، دفاعا عن حقوق المالكين الفرديين ضد محاولات المشاعات لاستعادة الأراضي المستلبة. لكن الأمر الأهم للإصلاح مركزة العبادة في القدس. كانت العبادات المحلية محظورة، والمعابد الإقليمية مدمرة؛ وصار، من الآن، المعبد الوحيد الوطني هو معبد القدس. بهذا التدبير، وافق الملك من جهة على طمع كهنوت القدس في احتكار العبادة وبحث، من جهة أخرى، عن تحجيم خطر الحركات الشعبية، التي قادها أنبياء وكهنة معابد المشاعات وأرشدوها. وفي نفس الوقت، ألغى أشعيا من القدس العبادات الأجنبية التي أدخلها أسلافه وكل العبادات التقليدية، عدا عبادة يهوه، الذي صار إله يهودا الوحيد.

لكن محاولة التمركز هذه لم تقدر أن تنقذ المملكة. فجيشان الجماهير الشعبية تتابع، وعلاقاتهم مع الملك تفاقمت أكثر فأكثر. وفي نهاية القرن السابع، مشى فرعون مصر نيشايو إلىالبلاد. خسر أشعيا المعركة. وسلم نيشابو العرش لابن أشعيا الأصغر وفرض عليه ضريبة ثقيلة. بعيد هذا، غزت قوات الملك البابلي نبوخذ نصر سوريا وفلسطين. وفي ٥٨٦ق.م احتلت القدس ودمرت، احرق معبدها واقتيد كل السكان عدا "الفقراء" (المزارعين)، أسرى إلى بابل. ولم تعد مملكة يهودا موجودة كدولة مستقلة.

حضارة إسرائيل ويهودا

لقد أثرت الثقافة التي خلفها الشعب الإسرائيلي مؤخرا على الحضارة الأوربية. فالدين الأكثر انتشارا في أوربا، المسيحية، ولد في ظل الدين اليهودي الذي ماثله في عدة عوامل؛ ولقد استلهم الشعراء، الكتاب والفنانون الأوربيون موضوعاتهم ونماذجهم من الأدب

التوراتي (أي الإسرائيلي اليهودي).

دين إسرائيل ودين يهوه هما النتيجة ذاتها للبنية الاجتماعية الفينيقية (قبيلة وعشـيرا)؛ تتضمن كلها عدة عناصر مشتركة. الإله الرئيس ليهودا كان يسمى يهوه، ولإسرائيل شـلدي ***shaddai***، عدا هذه الآلهة، كانوا يعبدون شالم، إله السـعادة، اسـترتيه، إلهـة الخصـب، وغيرهم. بداية، كان يهوه يجسد القوى الرهيبة للجبال الجرداء، وانتقل ليصير إله العاصفـة والأمطار، المحمول فوق الغيوم. وفي أثناء سيطرة يهودا على إسـرائيل ومجـيء أسـرة يهودا، تتلمذ يهوه على الكهنة في صف خلق العالم (السماء، الأرض، النبـات، الحيـوان، والإنسان)، حامي المملكة والملك. تقدم الميثولوجيا والخرافة يهوه قائدا ، مستشارا، القاضي والأب المغذي لشعبه، يعطي الخبز، الزيت والخمر، ويعاقب عند الحاجة. لقد حوفـظ إذن حتى في المجتمع الطبقي على السمات النوعية لإله قبيلة يهودية.

كان الدين الشعبي ذا خصيصة زراعية واضحة. بين الآلهة العبرية الوطنيـة، كـان أيضاً إله الشمس (شاميش)، الأرض المسماة أم الحياة، وإله القمح داغان ***Dagan***. ولكـل مشاعة أيضاً إلهها المحلي، بعل ("السيد")، الموزع المباشر للخبز، الزيت والخمر.وكـانت الشعائر الشعبية موزعة حتى الأعمال الحقلية وتمارس في أثناء ثلاثة أعياد: أولاً حصـاد الشعير، حصاد القمح، قطاف الثمار والإعداد للبذر. كان هذا الأخير هو العيد الأهم، يحتفى به في المشاعات بمناسبة انتهاء السنة الزراعية .

أدب إسرائيل ويهودا ثري جداً. فالأساطير العبرية تحدثت عن خلق العالم، عن الناس الأوائل وعن الطوفان؛ تذكر هذه ابمحتواها الأساطير البابلية، لكنها أقل إيحاءً. والجنـس الإنشائي يتضمن أعمالاً أصيلة أصالة مطلقة. في القرنين الثامن والتاسع أنشيء بـالتوازي في يهودا وإسرائيل قصتان في أصل القبائل العبرية وتاريخها قبل تشكل المملكة. اسـتوحتا الخرافات والتقاليد الشعبية ببساطة الأسلوب والوعي. ابتغى الكاتبان أموراً محددة: يسـعى الكاتب اليهوي إلى إثبات أحقية قبائل يهودا بالمقام الأول، بينما يدعي الكاتب الإسـرائيلي العكس. وتظهر في يهودا قصص ضخمة تمجد حياة دافيد وسلومون وتنصرهمـا. وفـي قصر ملوك يهودا وإسرائيل كان يوجد مؤرخون يكتبون حوليات كل مملكة. ومنذ ظـهور الأنبياء، بدأوا بجمع أقوالهم والخرافات التي تدور حولهم. وبعـد سـقوط مملكـة يـهودا، استخدمت هذه القصص أساساً لـ"كتب الأنبياء" في التوراة، أجودهـا مـن حيـث الأدب والموقف الجدلي، هي قصص أشعيا ***issais*** وجرميا ***je're'mie***. وعبادة يهوه تفسح مجـالاً للعديد من التراتيل والصلوات تسمى "مزامير". وبعد هذا، جمعـت الأغـاني والقصـص

الشعبي. وأضمومة من أناشيد الزفاف، "نشيد الأناشيد"، اشتهرت في العالم قاطبة. الكتـــاب مجهولون أو مُغْفلون؛ لاهوتيون يهود من نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ينسبونها إلى عـدة شخصيات تاريخية يهودية-إسرائيلية، قادة وأنبياء خرافيين. نخـــب هـؤلاء اللاهوتيـون وحوروا وبدلوا الأعمال الأدبية لأيام المملكة لتكون الفصول الرئيسة في التـــوراة (العـــهد القديم)، الذي يصيربعد هذاالكتاب المقدس لليهود والمسيحيين. ينسبون لموسى كل القوانيـن التي سنها ونشرها الملوك وطقوس التضحية، السحر والعيد المقام في معبد القدس.

الصحراء العربية وسورية

في شرق وجنوب-شرق فينيقيا وفلسطين، كانت تمتد ســهول مأهولـة بمسد جنيـن يتكلمون لغات سامية. ونظام العشير وحتى بقايا من عهد الأمومة اسـتمرت حتـى نهايـة الألف الأولى قبل الميلاد. لكن في بعض المناطق تتشكل دول العبوديـــة. وفــي جنــوب الصحراء العربية، ظهرت العبودية في حدود الألفين الثاني والأول؛ وتشـكلت هنـا عـدة ممالك: دولة الميديين، السبئيين وسواهما. نظامها الاجتماعي والسياسي غير معروف جيدا؛ لكننا نعرف أن العرب أقاموا في الألف الأولى علاقـــات اقتصاديــة وسياسـية مــع دول الشرق-الأدنى، مع فلسطين بخاصة : ففي القرن التاسع اشتركت قبائل عربية في صـــراع ملكي سوريا وفلسطين ضد آشوريا.

لقد عزز تدجين الجمل تطور التجارة مع فلسطين وميزوبوتاميا؛ وفي الوقـــت ذاتـــه، كان تجار الصحراء العربية يتاجرون مع الهند وأفريقيا، فمنها يجلبون العطور.

حوالي نهاية الألف الثانية، تغلغلت قبائل المدجنين الأراميين في سوريا، آتيـــة مـــن الصحراء العربية. دحروا الآشوريين وبنوا عدة دول صغيرة عبودية، كانت دمشـــق فـــي المقدمة. وفي القرن التاسع شنت دمشق ضد الآشوريين صراعا ضاريا: وفي العـــام ٨٥٤ ق.م تنتصر القوات الدمشقية، الإسرائيلية والقبائل العربية فـــي كركـــر علـــى الجيــوش الآشورية التي كانت قد دخلت سوريا. وتتشكل في شمال هذه البلاد إمارات خثية-أرامية.

لكن هذه القبائل المبعثرة، المتحاربة أبدا، لم تستطع المقاومة الطويلة للضغط البشـــري الآشوري فسقطت في قبضتها في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

الفصل السادس عشر

آشوريا، أورارتو وبابل الكلدانية

آشوريا وأصل شعبها

سميت آشوريا منطقة شمال ميزوبوتاميا، الواقعة على مجرى دجلة الأوسط. في شمال العراق الحالي. بشروطها الطبيعية، تتميز آشوريا بوضوح عن ميزوبوتاميا- السفلى. يبتعد هنا دجلة عن الفرات مسافة تتراوح بين ٣٠٠-٤٠٠كم، فيضانهما أضعف مما هو في بابل، وتتهل عملية الري هنا فقط من مياه دجلة، والآبار والمطر المجموع في خزانات خاصة. وفي الشرق، آشوريا محاطة بالجبال التي تتقدم حتى دجلة: وآشوريا، أول عاصمة للبلاد، ماكانت تبعد عن الجبال سوى أربعين كيلومترا ، وإلى الشمال، حيث انتقل تمركز آشوريا في الألف الثانية، تتاخم الجبال ضفة النهر.

أثرت الطبيعة الجبلية للمنطقة الممتدة إلى شرق نهر دجلة، في الاقتصاد والتاريخ الاجتماعي والسياسي لآشوريا. لم تكن المشاعات الجبلية تقدر على العيش من الزراعة فقط. فتربية المواشي والطيور والقنص لعبا دورا هاما في وجودها. أخيرا، كانت أطراف الجبال تؤمن الخشب، الحجر والمعادن.

كان أقدم سكان الشرق-الأدنى على الأرجح هم الكوريت، أقرباء الأورارتيين، وفي الألف الثالثة، بدأ الأكاديون التغلغل في بقاع مجرى دجلة الأوسط. أسسوا فيه عدة محال سكنية، بها سميت آشور استنادا إلى القبيلة وإلهها. كانت آشور على دجلة، إلى شمال بابل بـ٣٥٠كم. وجدت فيها منحوتات ونقوش هامة. خاصة منحوتة لملك آشور شمشي-أداد، معاصر حمورابي، الذي يحكي عن إنشاء معبد يوقف لإله آشور. ومنذ الألف الثالثة، عقدت المدينة علاقات تجارية مع المنطقة المجاورة لكابادوسيا *Cappadoce*..

آشوريا في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد

نحن لانعرف الشيء الكثير عن آشوريا الألف الثالثة. واستنادا إلى بعض الوثائق التي

وصلتنا، كان المجتمع الآشوري من نهاية الألف الثالثة وبعض قرون الألف الثانية مجتمعاً عبوديا. وسميت الدولة ب"مشاعة آشور"؛ كان في رأسها إيشاكو، العاهل الوارث الذي لم يفقد مشيخة القبيلة والعشير والذي لم يصر مستبدا شرقيا سوى في الحقبة التالية. استمرت حياة الناس في مشاعات، لكن مشاعات العشير كانت تتحول باستمرار إلى مشاعات جوار. كانت الارستقراطية العبودية التي ولدت في تلك الحقبة مؤلفة من العشائر القديمة والموظفين الملكيين الكبار الذين ظهروا بعد تشكل مملكة آشور. لم تتخلف جماعة التجار عن اللحاق بهم. فالتطور المبكر للتجارة الآشورية يعلل في أن ميزوبوتاميا-السفلى كانت محرومة من الطبقات المعدنية وتتلقى المعادن من آشوريا، من آسيا الصغرى ومن أرمينيا الحالية حيث يستخرج النحاس والفضة. كان الطريق إلى هذين المصرين يعبر آشوريا، الأمر الذي مكن ملوكها من استلام وساطة التجارة بالمعادن والأخشاب. نتج من هذا غنى سريع لأعيان المجتمع الآشوري ونمو حاد في مركزها، مدينة آشور. أسس التجار في كابادوسيا معمرات تجارية، تطلعنا وثائقها على اقتصاد وأخلاق التجار الآشوريين، سادة العبيد. كان هؤلاء قلّة . وكان التجار يشترونهم من لولوبي ***Loulloubi***، القبائل الفقيرة في سلسلة جبال زاغروس، حيث كان الأهل يضطرون لبيع أبنائهم مقابل القمح. كان العبيد يقومون بأعمال الخدمة. والتجار يختارون منهم رجالاً موثوقين يشرفون على البيت في أثناء رحيل رب البيت إلى كبادوسيا. وكان عبيد آخرون يعملون حمّالين، بغّالين وحراساً مسلحين للقوافل.

كان النظام السياسي لتلك الحقبة المسماة "آشوريا القديمة" انتقالياً بين دولة العبودية البدائية التي تقدم أيضاً سمات مشاعية، وبين الاستبدادية العبودية. وكانت سلطة عاهل آشور محدودة بمنظمة تعاونية عليا، تحمل أيضاً اسم "مشاعة آشور". لم يكن هذا المجلس يضم سوى "الكبار" بينما يعيش الشعب بعيداً عن الحكومة. وكان العاهل يحمل لقب "نائب الإله أنليل"؛ كان يرأس مجلس الكبار، يوجه الشؤون الدينية وطبعاً الحربية. العدالة، الخزينة والاقتصاد غير خاضعة للموظفين النوعيين. يشبه هذا النظام إذن من بعض الوجوه حكومة القلة في اليونان القديمة. ولم تتسع سلطة العاهل إلا بعد الفتوح الأولى، عندما لقب شامشي-أداد الأول بـ"ملك الكون".

في القرن السادس عشر انتقلت سلطة الشرق-الأدنى إلى ميتاني. إذ لم نتعرف على

النظام الداخلي لمناطق ميتاني الشرقية إلا عن طريق الوثائق المكتشفة في محلة نوزي لكوريت. وربما قامت علاقات مشابهة في آشوريا، المحكومة في منتصف الألف الثانية بحكام ميتاني.فهؤلاء، غير الراغبين في زيادة الضرائب وتنظيم السخرة للعاهل، كانوا يشغلون الشعب لمصلحتهم وينهبونه لجيوبهم وجيوب أتباعهم، بدعوى تغطية الأتاوات "النوعية". ونتيجة هذا الاستغلال الغاشم، منذ أواسط الألف الثانية؛ دمر العديد من مشاعات الكوريت: وكان المرابون يفيدون من الوضع لاستخدام الفلاحين واحتلال أراضيهم. ولما كانت التقاليد تمنع هذا، كانوا يلجأون إلى الحيل والخداع. إذ يصير المدينون المعسرون، حسب العادة، عبيداً وقتيين للدائنين. لكن القانون لم يحدد مدة هذا الاستعباد، فيدوم من ٦-٥٠ سنة، حسب الاتفاق المعقود بين المرابي والمدين، وبعد بدء المدة المحدودة يلزم الرجل المستعبد على الاعتراف باستعباده المؤبد. وكان المستغلون بنفس الطريقة يحتلون أرض ومرعى الحراث المدمرين أو المفلسين. والمحاكم المكونة من هؤلاء أنفسهم تشرع هذه "العقود وهذا الرضى" الباغي.

في القرن الخامس عشر استعادت آشوريا استقلالها وبدأت مرحلة الانطلاق، المسماة "مرحلة آشوريا الوسطى". ولقد تركت لنا وفرة من الوثائق التي تدل بكل أشكالها على العلاقات الاجتماعية والسياسية لذلك العهد. كان أساس المجتمع والدولة الآشورية النظام المشاعي، الذي تعيشه جمهرة الناس المزارعين. لم تكن المشاعات منسجمة مطلقاً، لأنها عدا الأعضاء البسطاء كانت تضم "كبار العائلات". وكانت كل أرض المشاعة محاطة بـ"رابطات أعيان الإقطاعيين" التي عقوبة من لايحترمها أو يحاول تغييرها مائة عصا، وغرامة وشهر من "الأعمال الملكية"، أقصى وأقسى عقوبة حسب القانون الآشوري. وكانت أرض المشاعة مقسومة إلى أراض قابلة للزراعة وأراض احتياط. وهذه الأخيرة موزعة إلى حصص بالقرعة ويعاد توزيعها من حين لآخر. والحصص محاطة بإقطاعات صغيرة عقوبة الاعتداء عليها ٥٠ عصا، غرامة ،وشهر من "الأعمال الملكية". وكانت أرض المشاعة تخص حقاً وفعلاً المشاعة. لكن، برضى أعضائها، كان يمكن استلاب بعض الحصص، الأمر الذي صار فيما بعد أحد أسباب تفكك النظام المشاعي. المشاعات تدفع الضرائب -"حصة الملك"- دون حساب الخدمة العسكرية والسخرات: إدارة الأقنية والطرق، إشادة المعابد، القصور والصروح الأخرى. وكان الاستغلال المفروض من الملك

والعناصر الفنية في المشاعة نفسها، يفضي إلى خراب أعضائـــها بـــل المشـــاعات كلـــها والتوسع السريع للأملاك الفردية. ففي أشوريا لتلك الحقبة، كان عدد المـــالكين العقـــاريين ومساحات أراضيهم أوسع مما كان في بابل. كان كثير مـــن المـــالكين يحـــوزون بـــالفعل أراضي المدينين الذين "اختاروهم" فيصير شرطهم أقرب إلى العبودية.

في القرنين الرابع عشر والثالث قبل الميلاد، ظهرت أول شـــريعة آشـــورية تشـــرع وتخلد التطور العملي للملكية العقارية الخاصة. عقدت هذه القوانين القسمة غـــير العادلـــة للثروة. إذ يخصص الابن البكر بنصيبين من الميراث، يختار هو نصيبـــا عـــادلا ويتلقـــى الآخر بالقرعة. يقسم الباقي بالتساوي بين الأخوة الآخرين، أيا كان عددهـــم. ثـــم، تســـلب عناصر الإفقار المتزايدة أبدا أرض ورزق المشاعات. والأخوة الصغار، الذيـــن لايكفيـــهم نصيبهم، كانوا بعامة يبيعون أرضهم ويبحثون عن كسب حياتهم بسبل أخرى. مـــن هـــذه الشرائح المعوزة، كان ملوك آشوريا يجندون الألوف من أجل حروبهم وفتوحهم. ولم تكـــن القسمة غير العادلة هي التدابير الوحيدة الملحوظة في القوانين الآشورية للدفاع عن الملكيـــة العقارية الخاصة وتشجيعها. فمن يغتصب حق التملك، كانت عقوبته أشـــد مـــن تعويـــض الضرر وأقسى. فالأصول القضائية النوعية، التي تتدخل لتثبيت أعمال بيع الأرض والبيت، تدافع عن مصالح وحقوق الحائز.

بعد أن جند جيشا جرارا،شرع ملك آشوريا سلمنصر الأول في القرن الثالث عشـــر حملات استمرت في حكم ابنه توكولتي ننورتا الأول. كانت المهمة الأساســـية لســـلمنصر السحق النهائي لميتاني، التي أضعفها الحثيون، ووقاية الحدود الآشورية من الامبراطوريـــة الحثية. نجح بهذا: دمرت ميتاني وبلغ الجيش الآشوري نهر الفـــرات. وســـعت الحمـــلات التالية تخوم البلاد إلى الغرب حتى كركميش، وإلى الشمال حتى بحيرة فـــان *Van*، وإلـــى الجنوب جتى بابل. حول توكولتي–ننورتا، الراغب في تقليص النفوذ السياسي للنيل، حـــول العاصمة إلى مدينة جديدة، سماها "حصن توكولتي ننورتي". كان هذا الانطلاق العســـكري لآشوريا قصير العمر. إذ سقط توكولتي ننورتي ضحية مكيدة؛ وبعد موته، عرفت البـــلاد عهد الانحطاط.

الدولة العسكرية الآشورية في الألف الأولى

في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كانت آشوريا تخضع لتهديد الآراميين الذيـــن

غزوا البلاد مرارا، ذبحوا واستعبدوا الناس، ساقوا القطعان، دمروا وأحرقوا المدن والقرى. لجأ سكان الوديان إلى الجبال، وخوت المدن. ثم جاء عدو آخر. قبائل كانت تعيش في أرمينيا الحالية، حول بحيرة فان *Van* وإلى الشمال قليلا. الآشوريون يسمونهم أورارتيان (أورارتو).

في القرن العاشر قبل الميلاد، ضعف هجوم الآراميين على آشوريا. قسم من الغزاة استقر بين دجلة والفرات، واندمج بالتدريج وتوقفت الغارات. فعاد الآشوريون شيئا فشيئا إلى التخريب، وفي نهاية القرن العاشر تيسر لملوكها أن ينتقلوا إلى الهجوم على الأورارتيين، والآراميين وجبليي الشرق. انتهى هذا الهجوم في بداية القرن التاسع بانتصارات آور -نذير- بعل الثاني (٨٣٣-٨٥٩).ق.م أخضع الملوك الصغار الآراميين واقتاد آلاف الأسرى، الأمر الذي مكنه من تنفيذ أعمال هائلة في كلح. بنى فيها قصرا منيفا مزدانا بالمنحوتات والزخارف، ومشاهد النصر، وشيد ميادين محصنة على حدود المملكة. ووضع آشور -نذير- بعل أسسا لمستقبل آشوريا العسكري. وفي نهاية القرن التاسع، أضعفت آشوريا الاضطرابات الداخلية، الناجمة من كره الاستقراطية التي حاولت الانتقال من نهب الأرض المحتلة إلى ضمها نهائيا؛ آزرهم في هذا الجنود البسطاء، أعضاء المشاعات، الذين يعانون من حرمان الأرض، لكن أصحاب الامتيازات وقادة الجيش الذين يبتلعون القسم الأكبر من الغنائم، ماكانوا يهتمون بتوطيد الفتوح بل يفضلون الغزو المتكرر لنفس البلاد، التي يدمرون كليا قواها المنتجة؛ فضلا عن هذا، حمل هجوم الأورارتيين (نهاية القرن التاسع -نهاية القرن الثامن) ضربة قاسية لآشوريا.

لم يستفق التوسع الآشوري إلا في أواسط القرن الثامن. فقد تبنى الملكان تيغلاث- فلازر الثالث (٧٤٥-٧٢٧) وسرغون الثاني (٧٢٢-٧٠٥) سياسة عدوانية أساسا. أعادوا تجهيز الجيش. وانطلاقا من تيغلاث-فلازر، ضمت القوات الآشورية محاربين ذوي رماح يقودون عربات تقرن زوجا من الأحصنة؛ وسلاح خيالة أضخم مرتين من وحدات العربات؛ وسلاح مشاة معزز، مسلح برماح ودروع؛ وسلاح مشاة خفيف، مؤلف من رماة سهام وأضخم مرتين من السلاح السابق. ووحدات خاصة تتلاءم مع النسف والتفجير والمدفعية، وأيضا وحدات حفر وبناء ضخمة، مؤلفة بشكل عام من العبيد، ومن مساجين الحرب السابقين. وفي أثناء القتال، تقيم هذه الوحدات المساعدة جسورا عائمة، تشق

الطرق، وتشيد معسكرات محصنة، وتحمل الأثقال،.إلخ. وخلال حصار الميادين ، تحفر الخنادق، ترمي المنجنيقات قذائفها لهدم الاستحكامات والأبراج؛ وأثناء الهجوم، يتسلقون السلالم المعدة مسبقا. وكانت العربات معروفة أيضا لدى الهكسوس والمصريين، لكن ملوك آشوريا كانوا أول من استخدم منهاجيا سلاح الخيالة. ثم تعلموا تعزيز فعل كل هذه الأسلحة؛ تبدأ المعركة بهجوم العربات، تتبعها المشاة، التي تهاجم صفوف الخصم المشتتة، المصدعة؛ ويطارد الفرسان العدو المتراجع أو المنهزم. ولقد أدخل سرغون تجديدا هاما في التجنيد: عدا الرجال الذين يؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية، طوع مرتزقة، في البداية من الآشوريين، ثم من الأجانب.

ازداد مع الزمن عدد المتطوعين أو المرتزقة بشكل محسوس؛ واستخدم ملوك آشوريا هؤلاء المتطوعين في داخل البلاد.

لقد شن تيغلات-فلازر الثالث وسرغون الثاني أقسى حروب الفتح. احتل الأول، قاهر القوات المتحالفة التابعة لملكي دمشق وإسرائيل، احتل كل سوريا. بما فيها دمشق. وألحق بابل نهائيا وسمي ملك بابل. وأخيرا، أنزل هزيمة منكرة بمملكة أورارتو، التي تكونت في القرن التاسع قبل الميلاد وصارت أنطلاقا من القرن الثامن عدو آشوريا الرئيس. ولقد خاض ملك أورارتو، أرغشتي (٧٨١-٧٦٠)، صراعا ضد عدو آشوريا وحقق نصرا على عاهلها. وصارت الحرب مع أورارتو المهمة العسكرية الأولى إذن لدى الملوك الآشوريين. كلف سرغون الثاني بحل هذا العبء. وبما أنه كان مطمئنا إلى الحدود السورية والفلسطينية، وكان قد دمر مملكة إسرائيل والإمارات الحثية-الآرامية التي بقيت في منطقة كركميش، وجه كل قواته إلى أورارتو. أضعف غزو سرغون هذه المملكة التي عاشت حتى القرن السادس قبل الميلاد، يوم أبادها الميديون.

لكن خلفاء سرغون لم يتابعوا حروب الغزو بشكل منهاجي. بل جاهدوا للتمدد نحو الجنوب الغربي، لاحتلال مصر. سحق سنحريب مقاومة البابليين واستباح مدينتهم أو عاصمتم؛ ساعدته في هذا مملكة يهودا؛ وبلغ خليفته أسارهدون في العام ٦٧١ مصر وهزمها. لكن هذا النصر كان عارضا، لأن الملك الآشوري لم يتمكن أن يترك في مصر حامية كافية؛ وبعد عشرين عاما، استعادت مصر استقلالها.

بعد أسارحدون ، انصب النشاط العسكري لملوك آشوريا مبدئيا على توطيد نفوذهم

في البلدان المحتلة والخاضعة لدفع الضرائب. إذ كانوا مكرهين على إرسال التعزيزات لكبح التمردات العديدة وزيادة الأتاوات، مع الاحتفاظ بأفواج غفيرة في آشوريا ذاتها، بسبب الغليان المتسع أبدا في داخل البلاد.

النظام السياسي في الدولة العسكرية الآشورية

كانت آشوريا في قمة الاستبداد الشرقي، لكن تنظيمها يقدم بعض الخصائص.

كان الملك يستند أولا على الجيش والارستقراطية العسكرية. ولدى قدومه، قدم نفسه أولا إلى القوات وانتظر تأييدها. وكان ملوك آشوريا يعززون نفوذهم بإعلان الألوهية أو قداسة السلطة الملكية. لكن هذا كان يضعهم في علاقة متينة مع كهنة آشوريا، بابل والبلدان الأخرى المحتلة . وفرض عليهم أوسع الاهتمام بالمعابد، في آشوريا كما في بابل، وإعفاءها من الضرائب، من السخرة وحتى من القضاء الملكي. وأوسع الامتيازات أعطيت للمعابد والكهنوت في آشور وبابل.

تتلاءم إدارة مناطق الدولة مع شروط تجعل هذه المناطق متكاملة. وفي آشوريا بخاصة، كانت الإدارة تتبع تقاليد الحكومة الملكية في بلدان ميزوبوتاميا. وكانت الأراضي المحتلة تعيش في ظل أنظمة متباينة. والبقاع الكوريت، وهي الأقرب إلى آشوريا، كان لها حكامها. وكانت بابل تخضع أيضا لمشرفين يختارهم الملك من أهله وذويه، لكنها حافظت على شريعتها وعدالتها. وكانت مدن بابل، سيبار ونيبور تتمتع بوضع خاص فيما يتعلق بالضرائب. إنما تخضع البقاع البلدان المحتلة فيما وراء ميزوبوتاميا لمعاملة أخرى. ففي مملكة إسرائيل القديمة، مثلا، وفي بعض أقاليم سوريا أبيد السكان أونفوا، وحل محلهم معمرون آشوريون؛ وكانت الإدارة في يد حكام ملكيين. وفي مكان آخر، بخاصة في صور، صيدا، يهودا وفي بعض البقاع السورية، ترك الملوك الصغار والأمراء، الذين التزموا بدفع الضريبة، بتقديم الجنود وبالخضوع لكل الأوامر السلطانية.

كانت آشوريا ومناطق الإمبراطورية كافة مرتبطة أبدا بالبريد. ولتأمين هذه المواصلات والتنقلات العسكرية، شق الملوك طرقا مزودة بمحطات تفصل بينها مسافة منتظمة، وكانوا يحاولون أيضا، لكن عبثا، مراقبة إدارة حكامهم. وكانت مستشارية القصر تتلقى شكاوى الظلم والعسف وسرقات نواب-الملك. لكن هذه الشكاوى نادرا ما حققت العدالة، وكانت السلطات المحلية، والحكام وأتباعهم، يعيشون على هواهم. وكانت المحصلة

هي المصدر الرئيس لدخول الموظفين الآشوريين من أكبرهم حتى أصغرهم.

وكانت الشريحة العليا المدنية والعسكرية والمعابد تتلقى من الملك، أملاكا مع كل الاحتياجات والعبيد وإعفاءات من السخرة ومن الضرائب. وقد تضاعفت هذه العطاءات بخاصة مع مجيء آشور بانيبال.

الاقتصاد والمجتمع الآشوري في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد

في هذه الحقبة الزمنية، عرفت الحياة الاقتصادية في آشوريا تبدلات ضخمة، ناجمة ليس من نمو القوى المنتجة، إنما من الكميات الكبيرة من أسلاب الحرب والضرائب الثقيلة التي تدفعها رعايا البلاد المحتلة. الأمر الذي أدى إلى حدة تطور التجارة. أغنت الغنائم قادة الجيش، الكهنة، كبار الموظفين والجنود؛ كانت الضريبة، قبل أن تصل إلى خزينة الملك، تمر أيضا على أيدي العسكريين والموظفين الشرهة. وكان الجنود والمنتفعون الآخرون يكدسون كثيرا من الحاجات الكمالية ويبعونها في السوق. ويتشكل سوق مشابه في نينيف، التي صارت المركز الدائم الملكي منذ القرن الثامن. في ذلك الزمن كان يوجد هنا ("من التجار أكثر مما يوجد من النجوم في السماء"). وفتحوا أيضا سوقا لتجارة العبيد الذين كانوا أسرى حرب. كانت هذه الانطلاقة التجارية، الناجمة عن الانتصارات العسكرية، مؤقتة؛ وبدأ الانحطاط منذ توقفت الحملات المظفرة.

عدا التجار، كان يوجد شريحة استعبادية غنية ومتنفذة، مكونة من كهنة، من مداهنين ومن موظفين محليين.وأصحاب الدور الأبرز هم الكهنة الذين يتلقون من الملك الأراضي الشاسعة، في آشوريا وفي البلدان الخاضعة. وكانت ملكية السادة العقارية تتضخم أيضا، وبخاصة عن طريق الهبات التي يمنحهم إياها السلطان مكافأة لخدماتهم. وتترافق أعمال المنح غالبا بوثائق تعفو الحقل من الضريبة والسيد من الخدمة العسكرية وأعمال البناء. وكما الأمر في أيام آشوريا الوسطى، كانت هذه الشريحة تستغل ليس العبيد فقط، إنما الحراث المستخدمين أيضا والسكان المنفيين من البلاد الملحقة. تمتاز آشوريا القرن الثامن بزيادة سريعة لعدد العبيد. فعشرات آلاف الأسرى الذين يسوقهم الملوك المنتصرون كانوا يسقطون في جحيم العبودية. أغلبهم يعمل لدى الملك والمعابد. ففي قصر سرغون على الأقل ٣-٤آلاف عبد.

آلاف العبيد يخدمون في الجيش، يشقون الطرق ويمهدونها، يحفرون القنوات، يبنون

صروح نينيف العملاقة، إنها العاصمة الجديدة. وكثير من هذه الصروح يخص المعابد؛ وبعض الأفراد الأعيان أيضا يحظون بالدور الفخمة. يباع العبيد جماعات من ١٠-٢٠، وبعامة، تباع الأسرة كلها. ومنتوج عملهم يتسع بشكل ملفت. بهذا الصدد ، يدنو العبد الآشوري لتلك الحقبة من النموذج الإغريقي-الروماني. كان اتساع الاستعباد موقتا ليلغى بسقوط الامبراطورية. لكن العبودية فعلت فعلها في هذه الكارثة.

أثارت الظاهرات الواردة أعلاه انحطاط النظام المشاعي. تتقلص المشاعات، تفقد استقلالها، تسقط تحت وزر الوكلاء الذين يسميهم الملك او الحكام، ويبادل أعضاؤها بالضريبة غير المؤداة وعدم تنفيذ السخرة. مع ذلك استمرت وشائجهم في المشاعة بشكل رئيس للإفادة المشتركة من المياه.

كان العدد الإجمالي لأعضاء المشاعات الاحرار أقل بوضوح من عدد الحراثين المستخدمين والعبيد من مختلف الشرائح.

سقوط آشوريا

كان فتح مصر آخر نصر عسكري يحققه الآشوريون بقيادة أسارحدون. وفي أيام ابنه أصور بنبال (منتصف القرن السابع)، تصدع نفوذ الدولة بسرعة ثم انهارت كلها، وقد ألغمتها الأزمة الداخلية وانتفاضات الشعوب الملحقة.

إن اتساع العبودية لم يقلل من إثارة الصراع الطبقي. فعدم توفر إعلام مباشر عن عصيانات العبيد، لايلغى اطلاعنا على انتشار عادة تقييد العبيد المتمردين بالحديد. وكانت الشعوب الملحقة وأعضاء المشاعات الأصليون يتمردون أيضاً. وفي أيام أصور بنيبال، قادت عبدةٌ انتفاضةً آرامية. وليس من شك أن الفلاحين الآشوريين، الذين دمرهم التجنيد، والعمل الشاق والأتاوات، كانوا ينتفضون، هم أيضاً. وفي الوقت ذاته، ضعف السند العسكري للعاهل.. فتوقف الحملات العسكرية أوقف فيض الأسلاب، وتمردات الشعوب الملحقة المستمرة هددت زيادة الضرائب. فنضب باب الإنفاق على المتطوعين؛ ولم تعد القوات المؤلفة من آشوريين موثوقة.

في هذه الظروف، كان أول نزاع خارجي يمكن أن يكون نذير انهيار. أتت هذه الساعة في نهاية القرن السابع قبل الميلاد.آنئذ، تأسست في إيران مملكة الميدين، على حدود الآشوريين. عقد ملك ميديا سياخار *Cyaxare* معاهدة مع الأمير الكلديني نبوبولسار

الذي كان قد احتل بابل. واحتلت قواهما المتحالفة نينيف في العام ٦١٢ وأبادت فلول الجيش الآشوري في العام ٦٠٥ في كركمش. وانتقلت آشوريا إلى سلطة ملك الميديين، بينما تأسست أسرة نبوبولسار الكلداني في بابل.

الحضارة الآشورية

إن نواة الشعب الآشوري كونه من أصل أكادي، كانت كتابة، دين وأدب آشوريا تكرارا أو اشتقاقا خفيفا من العناصر البابلية. والسمات الأصيلة لا تظهر إلا في الفنون التشكيلية، في أوج ازدهار الامبراطورية.

الآلهة هم نفسهم آلهة بابل. لكن السمة النوعية لمجمع الارباب الآشوري هو تفوق الإله السابق لقبيلة آشور. كانت مهامه الأولية كأب وحامي القبيلة زراعية، ومن ثم يصير إله الحرب والنصر. وفي أثناء الحملة تحمل رايات لمثاله أو رسمه؛ أثمن نصيب من الغنائم تذهب إلى معابده. وكان الموظفون العسكريون أيضا ينسبون لعشتار، ربة الخصب، التي كانت عبادتها قديمةجدا وشعبية.

ويقيم الكهنة الآشوريون الطقوس المعروفة في بابل. آشور بانيبال يجمع في قصره بنينيف كل الأعمال الأدبية البابلية. منها قصيدة "المجد لله في العلى..، الاناشيد والنصوص السحرية البابللية. في العبادة، لاشيء خاص بالآشوريين إلا استنزال المطر وأناشيد آشور.

كان فرع أدبي خاص، الحوليات الملكية وتطور جدا في آشوريا. والملوك المنتصرون يصرون على تأييد ذكرى انتصاراتهم بنقوش صخرية حيث دارت المعارك وتمت الغزوات، ويصفون مآثرهم على جدران وأبواب القصور وعلى الآثار التذكارية.

إن هذه النصوص المكتوبة بأسلوب فخم تمجيدي، بصيغ وعبارات مقدسة، هي بالنسبة لنا المصدر الرئيس لتاريخ الدولة العسكري الآشوري.

لقد بدأ ملوك القرنين التاسع والثامن بناء القصور المنيفة، التي عثر على أطلالها في أثناء الحفريات. إنها قصور كالاح ونينيف، وسرغون في دورشاروكين،إلى شمال نينيف بـ ٢٥كم. لايوجد منها اليوم سوى الخرائب التي تعطي مع ذلك فكرة عن عظمتها وروعتها. والأعمال الفنية التي تزينها باقية أيضا. أبدعها تماثيل الملوك والثيران الضخمة المجنحة،عفاريت حراس الأبواب.

كشفوا أيضا منحوتات تمثل حياة السلاطين في زمن الحرب والسلم، مع حدائقهم

وغدرانهم،و نسائهم،وأقربائهم وعبيدهم. تشكل هذه النقوش والمنحوتات عنصرا أصيلا في الفن الآشوري. فالحيوانات هنا تضج بها الحياة.

مملكة أورارتو

كانت القبائل الأورارتية تعيش في الطرف الشرقي من آسيا الصغرى، في منطقة بحيرة فان *Van* المالحة. طبيعة أورارتو شديدة التنوع. الهضبة العليا لأرمينيا مفصولة عن آسيا الوسطى بالفرات؛ في الشرق تمتد سلسلة جبال زاغروس، وفي الغرب التورس الأرمني. الأرض الخصبة والقابلة للزراعة غير متوفرة إلا في الوديان والسهول. كانت الجبال غنية بالحديد، النحاس وحجارة البناء؛ وغابات ومراع جبلية تغطي منحدراتها.

إنها شروط ملائمة بخاصة لتربية المواشي والطيور والصناعة. ولقد بلغوا في هذا المضمار شأوا بعيدا من الارتقاء، بخاصة صناعة الأدوات البرونزية والحديد. والزراعة، التي تحتم الري الاصطناعي، لم تتطور إلا بمقدار ما يهيء الأورارتيون شبكتهم المعقدة.

ذكرت قبائل أورارتو لأول مرة في نقوشات ملك آشوريا سلمانصر الأول، حوالي بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد: ثمة قضية اتحاد قبلي مسمى أورارتو ومكون من ثماني "بلدان" صغيرة. احتلها سلماناصر، دمر وأحرق محالها، أخذ الأسرى وحولهم إلى عبيد. وفرض على من بقي من الناس دفع ضريبة ثقيلة. وفي القرن الثاني عشر، اختفى ذكر أورارتو من المنقوشات، التي تتحدث مع ذلك عن عدة غزوات في بلدان نيري *Nairi*، واقعة حول بحيرة فان. كانت القبائل الملحقة تنتفض باستمرار، ويرد ملوك آشوريا بالنار والحديد.

في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، نشأت عدة دول –هوبوشيكيا، موساسير وغيرها– في منطقة بحيرة فان. إحداها أورارتو، عاصمتها توروشبا واقعة على ضفاف البحيرة. تكلل نضال هذه الدولة ضد آشوريا في القرن التاسع بتشكيل مملكة للأورارتيين وحدهم.

والاتحاد، الباديء بشاردورس الأول، ملك توروشبا، أول من سمي "ملك الجماهير *roi des multitudes*" متلقيا الضربة من "كل الملوك"، انتهى بحفيده مينوا، الذي خلف لنا ١٠١ نقشا مسماريا ٣١٠ منها تحكي عن بناء قلاع على تخوم توروشبا وفي الشمال، وكذلك القصور والمعابد و١٩ تخص حفر القنوات.

بسط ملوك أورارتو شيئا فشيئا حدودهم نحو الشرق والجنوب. وتغلغل الأورارتيون

في شرق القفقاس، في مناطق المجاري العليا لكورا وآراكس. وأقاموا حكاما يديرون البلاد المغزوة ويجنون منها الأتاوات.

بدأت أعمال ضخمة في المملكة. وبنيت حصون؛ وقد صار حصن آرجشتكنيلي على جرف نهر أراكس، في أرمينيا الحالية، المبني في ملك أرجشتي، خليفة مينوا، صار المركز العسكري والإداري لملوك أورارتو في شرق القفقاس وميدانهم لفتوحات جديدة. كانت المدينة ذات أسوار منيعة من البازلت، ماتزال بقاياها بادية حتى اليوم.

بلغت أورارتو مجدها الأعظم في النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، في ملك أرجشتي الأول (٧٨١-٧٦٠) وشارودوش الثاني (٧٦٠-٧٣٠). شن أرجشتي عدة حملات إلى الشرق، هزم آشوريا، وطد نفوذه في شرق القفقاس، في منطقة بحيرة سيفان ***Se'van***. تطلعنا منحوتة ضخمة اسمها حوليات كحوركحور ***Khorkhor***، على ضخرة فان ***Van***، على كل حملاته. كان في أورارتو آنئذ عدد غفير من الأسرى الذين آلوا إلى العبودية.

اقتصاد ومجتمع أورارتو

إن الوثائق التي وصلتنا عن مجتمع أورارتو هي حوليات حرب أو منقوشات تتحدث عن الأعمال. والنصوص التي تميز النظام الداخلي لاتحوي أبدا معلومات حول العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

كما نعلم، كان مجتمع أورارتو عبوديا، على رأس الدولة الملك الذي يستند إلى نبلاء الدم. والأرستقراطية العسكرية، المغتنية بالحرب ومالكة أوسع الأملاك، كانت قوية جدا. وعلى أرض الملك، والمعابد والنبلاء، تحرث المروج وتغرس الكروم. ولسقايتها أقيم عدد كبير من البحيرات الاصطناعية وشبكة ضخمة من القنوات توفر الماء للحقول، للقرى وإلى حصون الجبل. كان تشييد هذه المنشآت ضرورة فرضها إقليم أورارتو الذي كان بالغ القحط.

كانت تربية المواشي والطيور متطورة جدا. ظهرت في هضبة أرمينيا منذ العصر الحجري الحديث، ولم تفقد دورها الهام في العصور التالية. كان شيوخ القبائل، ثم الملوك، المعابد والسادة يملكون قطعانا وقطعانا من الأبقار والمواشي الصغيرة ذات القرون والأحصنة. في الصيف، ترعى المواشي في الجبل، يحرسها الرعاة والجنود.

كان اقتصاد الملوك وأعيان الكهنوت والعلمانيين عبوديا. كان العبيد كثرا، لأن كل

حملة ملكية تأتي بآلاف الأسرى؛ هكذا، في أثناء حروب شرق القفقاس، أسر أرجشتي أكثر من ١٨٠٠٠ إنسان. كان شغل العبيد يقتصر في الأرجح على حراثة المراعي وغرس الكروم وحراسة القطعان. وكانوا يكلفونهم أيضا ببناء الحصون وحفر القنوات أحيانا.

كانت رعايا الملك الريفية تعيش، حسب الأقاليم، من الزراعة وتربية الأنعام؛ وكانت قطعا ملتزمة بالأتاوات والسخرة المعتادة في بلدان الشرق. المؤسف أن النقوش الأورارتية المكشوفة حتى الآن لاتعطي أية معلومة حول هذا الموضوع.

لم يكن ثمة أية مدينة بمعنى الكلمة الواسع، تكون مراكز تجارة وصناعة. وكانت المهن الريفية متطورة في الضواحي الواسعة. وورشات ضخمة تخدم الملك والمعابد. وإنتاجهم، بخاصة الآيات الفنية، تنتشر على طريق التجار، ليس فقط في أورارتو، بل في الخارج.

لقد عرفنا المواطن الأرارتية بفضل التنقيبات التي قام بها ب.بتروفسكي ليس بعيدا عن إيريغان، على هضبة كرمير-بلور حيث دفنت قلعة تشبايني. كانت مؤلفة من حصن يضم قصر الحاكم ومتطلباته العديدة، من الورشات والمخازن، وسواها. يحيطها جمع من المساكن الصغيرة لايملك سكانها ماشية ولا استثمارة زراعية: هم على الارجح جنود أو صناعيون يتلقون معاشهم اليومي من أهراءات الدولة.

سقوط أورارتو

لما كان سقوط آشوريا يتسع في أيام ملك تغلاش-فلاسار الثالث، في القرن الثامن قبل الميلاد، كانت أركان أورارتو ترتج بعنف. لكن الحروب الطويلة ضد آشوريا، انتهت في ٧٤٣ بهزيمة قوات شاردورس الثاني الذي اضطر أن يطوي رايته ويتراجع على أبواب نهر الفرات. وبعد موته، عمت الاضطرابات وانفصلت بعض المناطق الملحقة عن أورارتو. لكن الضربة القاصمة أتت في العام ٧١٤ من ملك آشوريا سرغون، الذي سحق الجيش الأورارتيني. وتجدد أورارتو قواتها في بداية القرن السابع، عندما نجح الملك روزاس في عقد تحالف مع السومريين، الآتين من الشمال في القرن الثامن من شرق اقفقاس والشرق الأدنى. ويشن الأورارتيون المتحالفون مع السومريين حربا مظفرة في آسيا الصغرى. ويبدأ روزاس الثاني أيضا أعمالا ضخمة؛ ففي أيام ملكه بنيت، بخاصة، قلعة تشبايني. وكانت العلاقات مع آشوريا مسالمة: من المعروف أن روزاس الثاني وآشور بنبال تبادلا السفراء.

لم يعط التاريخ معطيات محدودة حول سقوط مملكة أورارتو. معـروف فقـط أنـها تعرضت في بداية القرن السابع لهجوم عاصف من السـيث *Seythes*: كشـفت تنقيبـات تشبايني آثار دمارها على يد السيث في بداية القرن السادس. وفي القـرن السـادس أبـاد الميديون أورارتو. وبعد زوال مملكة أورارتو، انتقلت السيادة على أرضها لبعض الوقـت إلى قبيلة أرمنية، وبالتالي أخذت البلاد كلها اسم أرمينيا. وشكل اختلاط سـكان أورارتـو الأصليون مع القبائل الآتية فيما بعد، في أثناء قرون، الجنسية الأرمنية. وهكذا في القـرن الثاني قبل الميلاد ولدت المملكة الأرمنية.

الحضارة الأورارتية

إن ثقافة أورارتو أحد روافد الحضـارة الآشـورية. فمـن هـذه الأخـيرة اسـتقى الأورارتيون الكتابة المسمارية، بعد تبسيطها وإتقانها بعض الشيء. وأعمال الفن التشـكيلي التي وصلتنا تشهد على قوة التأثير الآشوري حتى أن علماء الآثار كـانوا ينسـبون بدايـة لآشوريا منحوتات أورارتية أصلا. فالمواد البرونزية كانت تتم في الورشات الملكية حسـب أسلوب أصيل، لكن الديكور يتم حسب النماذج الآشـورية. وبيـن أجـود نمـاذج الفـن الأورارتي، نذكر من عرش: قدم تحمل صورة إله مجنح، وثيران مجنحة وكان ثمة أيضـا قناديل رائعة من البرونز. وكان الصحن مزدانا بصور نساء مجنحة؛ وكشفوا تماثيل لإلهات قاعدات. وتؤكد الأغراض الفخارية ألمعية تضاهي هذا. وتشهد أطلال القلاع الحجرية على مهارة البناة. والآثار الأروع معماريا هي حصون ضواحي إيريفان، المنتصبة فوق تـلال كرمير-بلور وآرين-بيرد، وقلعة تورشبا.

كان على رأس آلهة دين الدولة الإله الأعظم هالديا، وإله الحرب تيشيبا وإله الشـمس شيفيني. وتبدأ النقوش الكتابية بعامة بخطاب للإله هالديا، وكان الملوك يقدمون له حسـابا عن انتصاراتهم العسكرية. كان هالديا بالتأكيد إلها أورارتي الأصل، تعبـده إحـدى قبـائل المملكة الأولى. وتيشيبا، الذي يشبه اسمه اسم تيشوب، إله الحثيين والكوريت، أقرب جوار أورارتو الغربيين، كان أيضا إله الصواعق والعواصف. وشـيغيني هـو الإلـه-الشـمس التقليدي. عدا هؤلاء الآلهة الثلاثة الكبار، كان في البانتيون الرسمي قرابة عشرين غـيرهم، أقل أهمية، ويعطى المقام الأول بينهم لآلهة شفعاء المشـاعات. مـن المؤكـد أن بعـض الأساطير قدستهم، لكن العلم لم يعثر على أي منها. أما دين أورارتو الشعبي غير معـروف جيدا. ثمة معطيات حول وجود عبادة للحيوانات والأشجار. فعبادة الشجرة المقدسة خاصـة بالدين الرسمي: كثيرا مارسموا على الأختام الأورارتية شجرة ما وكان أحد هذه الأختـام يمثل احتفالا بالشجرة.

كالديا أو امبراطورية بابل الجديدة

بعد ثلاثمائة عام من السيطرة الآشورية، استعادت بابل استقلالها في العام ٦٢٦ق.م، في أيام ملك خالديا نبوبولسر. دامت الإمبراطورية التي أسسها حوالي ٩٠ عاما، حتىاحتلها الفرس في العام ٥٣٨.

القبائل الكالدية، وأصلها من الجزيرة العربية، تبدأ بالتغلغل في بابل في القرن ١٢ وتستقر في مشاعات عشيرية، يتحول بعضها إلى مشاعات جوار. لم ينجز هذا التطور في أثناء تأسيس الامبراطورية الكالدية، لأن وثائق زمن ملوك آشوريا أساحدون وآشور بنبال تثبت وجود هذين النوعين من المشاعات. وكان ممثلو النبلاء القبليون مؤتمنين في القصر وفي جيش الملوك الكالديين. ويلاحظ أيضا في بابل، طيلة هذه الحقبة اختلاط بين عناصر مقيمة وأخرى راحلة، وهي سلالات القبائل المؤسسة على العشير.

كان الملوك يستندون إلى مشاعات الكالديين التي كانت لهم احتياطاً لقوات مسلحة وتشكل جمهرة المكلّفين. وفي الوقت ذاته، كانوا يبحثون عن مساندة كهنة بابل الذين يتمتعون بنفوذ كبير بين سكان مدينة بابل. وقد وجدت سلاطين كالديا، غير الراضيين عن تجديد وتزيين المعابد التي كانت موجودة لدى قدومهم، جددوا عبادة كثير من الآلهة المنسيين. وساندهم الكهنة، لأنهم مثل المرابين العلمانيين، كانوا واسعي الثورة في أيام الدولة العسكرية الآشورية، وكانوا يأملون، منذ سقوط آشوريا، أن يروا عودة دولة مماثلة في ظل الملوك الكالديين. كان "بيت" اجيبي آنئذ، في طليعة ممثلي رأس المال المرابي؛ ولابد من الاعتقاد أن "بيتاً كبيراً" آخر قد أسس آنئذ للربى، هو بيت موراشو، في نيبور، الذي أرخت وثائقه المحفوظة حتى أيامنا في زمن لاحق. كان يدير العمليات المالية "للبيت" رب الأسرة. وكما في الماضي، كانت العقود تهتم أولاً بالقمح. لكن المرابين كانوا يحوزون أيضاً أراض، حقولاً ومراعي مؤجرة للزراعة. وكانت أصابعهم الجشعة تعري أعضاء المشاعات وكذلك كان يفعل الجند. وكانوا يستخدمون كثيراً كمصدر للربح القنوات الملكية التي يستأجروها ويحملون تبعة تمتعهم بها في المحال المجاورة.

إن خصيصة العبودية في بابل، في العهد الكالدي، بقيت تقريباً كما هي في القرنين الثالث والثاني؛ كانت العبودية أساساً خدمية والاستعباد بسبب الديون كان عارضاً، والفرق الوحيد هو في أن مدتها الشرعية لثلاث سنوات لم تكن تحترم دوماً وتستمر عقوبة المدينين

المعسرين حتى عشر سنوات في خدمة دائنيهم. ولاتلحظ التبدلات إلا فيما يخص عدد العبيد وطريقة استغلالهم. فقد وسعت حروب الفتوح التي شنها الملوك الكالديون عدد العبيد كثيراً وبسرعة كما الأمر في آشوريا. كان العبيد، هنا أيضاً، يعملون في الأملاك الملكية، في تشييد القصور والمعابد. وفي الاقتصاد الفردي، وجد مبدأ جديد: سمح للسادة بتشغيل العبيد لمصلحتهم الخاصة (بعامة في الصناعة والزراعة)، بشرط أن يدفعوا لهم كل سنة تعويضاً سمي "*mandattou*". إليكم إجراءات العمل في الصناعة: يعلّم المرابي عبده مهنة ما ويعينه في فتح ورشة، على أن يّصرف له سنوياً "تعويضاً" نقدياً. وهكذا قد يغتني العبيد العائشون من هذا الأسلوب ويصيرون أحيانا مرابين بدورهم ويحوزون إمكانية التحرر. يدعي مستشرقون بورجوازيون أن بابل حوت آنئذ "مشاريع صناعية" ضخمة كانت تستخدم عبيدا. لكن هذا حديث تحكمي، لأن الوثائق لاتتحدث إلا عن المواد الأولية التي توزعها المعابد والمرابون على النساجين العاملين في بيتهم.

كان نضال العبيد يشتد بنسبة ازدياد عددهم. وتكاثر الهرب" يطلب مالكو العبيد من البائعين ضمانا ضد :تمرد وعدم طاعة" الذين اشتروهم.

أعظم ملك في الأسرة الكالدية هو خليفة نبوبولسر، نبختنصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢). استعاد حروب الغزو، احتل سوريا، فلسطين وفينيقيا؛ لكن حملته إلى مصر فشلت. وبالأسلاب، الضرائب ومئات الأسرى تمكن من تجديد مركز بابل، الذي تضرر كثيرا في أيام سنحريب. فضلا عن هذا، بني في الضاحية الشمالية قصر استراحة شامخا. كان الشريان الرئيس للمدينة، المسمى "الطريق المقدس للانبثاق"، الذي يصل القصر بالمعابد، كان مزدانا بجدار مبني من الآجر ونحت عليه أسد، وثور وحيوانات أخرى ورموز مقدسة. عاشت بابل بعد أفول الامبراطورية الكالدية، وانتشرت شهرتها كأعظم مدن العالم أبعد بكثير من شهرة ميزوبوتاميا.

كانت نهاية الامبراطورية الكالدية بعيد موت نبختنصر. وتشكلت مكانها امبراطورية قوية، هي إمباطورية الفرس، في إيران في منتصف القرن الرابع. أخضع ملكها سيروس *Cyrus* ميديا وآشوريا التي كان قد غزاها. ثم مشى إلى بابل. جابهه ملك بابل، نبونيد، بجيشه، لكنه دحر وانهزم. وبعد أن صارت ملكا فارسيا (٥٣٨) فقدت بابل استقلالها إلى الأبد.

الفصل السابع عشر

إيــران

البلاد والسكان

تقع الأرض التي بنيت عليها أول دولة من القبائل الإيرانية في شرق مابين النــهرين- ميزوبوتاميا. وهضبة إيران الواسعة التي تشغل منها القسم الأكبر، تحدها من الغرب سلسلة جبال زاغروس، وشمالا البحر الكاسبيني *Caspienne*، وجنوبا الخليج العربي، وشرقا، تمتد حتى الهند. والجبال التي تحيط الهضبة من كل جهة، بأنهارها المندفعة، ووديانها الجميلـــة وغاباتها الغنية الوافرة، توفر أراض صالحة للزراعة و تربية المواشي والطيــور، الأمــر الذي حدد العبور المبكر إلى عالم حياة الاستقرار. لكن التقدم إلى عمـــق الهضبــة، يبــدل الشروط فجأة، تختفي مجاري المياه والبحيرات، ويصير المناخ قاريا. في فصــــل الشـــتاء الطقس بارد جدا، وفصل الصيف قائظ، الأمطار نادرة، التربة جدبـــاء تقريبـــا، والقــدرة الإنباتية بائسة.

إيران غنية بالمعادن النافعة. في مناطقـــها الجبليـــة، يســتخرج النحــاس، الحديــد، الرصاص، الذهب، الفضة، الرخام الأبيض والملون، الحجارة الدقيقة، بخاصة الـــلازورد. الغابات التي تغطي الجبال غنية بالصنوبر، بالسنديان والحور، أي المواد التي توفر خـــير خشب للبناء. كانت سفوح زاغروس مغروسة بالأشجار المثمرة: تفاح، إجاص، ســـفرجل، الكرز، الدراق، وغيرها.وعلى الأرض المروية، تنجح زراعة الحبـــوب: شــعير، قمــح، والذرة البيضاء.

لقد أخذت تربية الدواجن بعدا كبيرا. وفي البقاع الغربية، كان التدجين مستقرا؛ وفـــي الشرق راحلا. تربي القبائل حيوانات ضخمة وصغيرة ذات قـــرون، وخيــولا وجمـــالا. والغابات والسهوب الغنية بالطرائد خولت السكان الأصليين الاهتمام بالقنص.

في الأزمنة الغابرة، كانت هذه الأرض آهلة بقبائل من أصول مختلفة، تفكك نظامـــها

المشاعي البدائي. وكانت القبائل الشرقية تعيش من التدجين؛ وساكنو الشمال-الشرقي والغرب يحرثون الأرض. لم تكن الزراعة ممكنة إلا في حال تأمين نظام ري معقد. وكانت القبائل الرعوية الراحلة تهاجم غالبا الحراثين المقيمين. وبفعل حضارات الشرق الأدنى، تطورت القبائل الغربية تطورا مدهشا.

تدل التنقيبات التي جرت في جنوب شرق الهضبة الإيرانية في المدينة العيلامية سوز *Suse* وبرسبوليس (مدينة الفرس)، على تطور الحضارة المحلية منذ العصر الحجري الحديث. واستنادا إلى نصوص سومرية. تقول إن دولة عبودية تشكلت منذ الألف الثالثة قبل الميلاد في عيلام، في وديان قارون وقرقاح. وفي نهاية الألف الثالثة غزى العيلاميون مابين النهرين السفلى وأخضعوا شعبها. وليس سوى الملك البابلي حمورابي، موحد ما بين النهرين، تمكن من طردهم.

لقد عجل نمو القوى المنتجة -تقدم الزراعة، توسع صناعة النحاس والبرونز، انطلاق السيراميك والمهن الأخرى- عجل في الألفين الثالث والثاني التمايز الاجتماعي وأفرز أشكالا بدائية من العبودية، الأمر الذي نشط تفتح الحضارة. وفي الألف الثالثة، تظهر الكتابة السطرية، المشتقة من التصويرية. وتشهد آثار من الحضارة العيلامية أن الكتابة قد خضعت إلى نفوذ قوي سومري وأكادي.

. انتهازا للضعف البابلي، يحاول العيلاميون في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى، إلحاق ميزوبوتاميا مجددا.

في القرنين الثامن والسابع،ق.م خاض الآشوريون ضد الإيرانيين صراعا مريرا؛ ولم تنهزم عيلام إلا في العام ٦٤٥، على يد آشوربنبال. لكن حتى بعد هذه الهزيمة، استمر شعبها يلعب دورا هاما في امبراطورية الفرس، كما تشهد حفريات حديثة لقصر ملكي في بيرسبوليس، حيث عثروا على عدة ألوف من الرقم العيلامية.

في آسيا الوسطى، على أرض خوارزم، سوجديان، باكريان ومرجيان (إقليم بينسير-داريا ومورغاب)، كان يعيش في الألفين الرابعة والثالثة قناصون وصيادون شبه-رحل، في مشاعات عشيرية. وقد كشفت تنقيبات الآثاريين السوفيات أن زراعة الأرض بالمنكاش، والتدجين وربما بداية التعدين يعود هنا إلى بداية الألف الثانية قبل الميلاد وأن حضارة هذه القبائل تمت إلى حضارة بعض قبائل كزخستان وسيبيريا وهضبة إيران.

في الألف الثانية، تعرضت هذه البلاد لتغلغل جماعات تتحدث بلغات إيرانية امتزجت على الأرجح بالرعايا الأصليين.

في بداية الألف الأولى، ولّد نمو القوى المنتجة (ظهور تعدين الحديد، إدارة مناهج واسعة في الري، وإتقان السيراميك)، ولد الفرق الاجتماعي، العبودية وتشكل دول العبودية البدائية في خوارزم وبكتريان.

في نهاية الألف الثانية، تغلغلت قبائل تتحدث بلغات هندو-إيرانية في إيران (ربما أتت من آسيا الوسطى). ألحقت السكان الأصليين وفرضت عليهم ضريبة، وهي تمتزج بهم. كان هؤلاء القادمون الجدد يمارسون أساسا تربية الدواجن.

"أفستا *Avesta*"، الكتاب المقدس للإيرانيين القدماء، يعطينا فكرة عن نظامهم الاجتماعي. كان العشير الامومي آنئذ يتفكك, وكانت تتشكل أسرة تحت سيطرة الأب. والمشاعات المبنية على العشير تجمعت في قبائل، كونت بدورها اتحادات يرأسها شيخ منتخب. وفي هذه الحقبة يتميز انقسام المجتمع إلى طبقات. ويشغل نبلاء الدم والكهنة، مالكو القطعان الغفيرة، موقعا متميزا: يقود ممثلوهم المشاعات العائلية، العشير، القبائل والاتحادات القبلية. وكانت العبودية قد ظهرت، لكنها طيلة هذه الحقبة لم تكن متطورة ومن طبيعة أبوية.

مملكة ميديا

بدءا من القرن التاسع، تذكر الحوليات الآشورية غالبا أسماء مجموعتين من القبائل الإيرانية: الميديون والفرس. كان الأولون يسكنون شمال غرب هضبة إيران، في جنوب الغاسبيان. والمعطيات الوجيزة في الوثائق الآشورية وأنباء هيرودوت تمنحنا الافتراض أن الميديين كانوا في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد في وضع تفكك نظام العشير. فكان الفرعان الرئيسان في الاقتصاد هما الزراعة والتدجين، بينما كانت الحرف تبدأ بالتطور.

كان الميديون يجيدون العمل بالنحاس، البرونز، الذهب والالكتروم (خليطة من الذهب والفضة). والمنقوشات الكتابية الآشورية تتحدث عن حروب ضد الميديين وأسر العديد من المهنيين، وتحويلهم إلى عبيد. وكان الميديون، الشهيرون بتربية الخيول، استخدموا منذ زمن غابر العربة ذات العجلة الدائرية.

تأخذ العبودية عندهم شيئا فشيئا دورا أوسع. وتقدمهم وتطورهم على القبائل الإيرانية

الأخرى، يرجع إلى اتصالهم بآشوريا وعيلام والطريق التجاري الرحب الذي يصل ميزوبوتاميا بالهند عبر زاغروس.

التاريخ السياسي الميدي مكتوب مجدداً إلى حد ما استناداً إلى الأنباء شبه الخرافية التي دونها هيرودوت وإلى النصوص الآشورية. يقص هيرودوت أن دجوسيه *De'joee's* جمع في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد تحت سلطته القبائل الميدية وأسس مملكة ميديا. هذه الصورة أيدتها جزئياً الحوليات الآشورية التي تذكر شخصاً اسمه دجأوككو. وفي أثناء القرنين الثامن والسابع، تعرضت ميديا لعدة غزوات على يد الآشوريين ووقعت في قبضتهم إلى هذا الحد أو ذاك. وأمام التصدع الآشوري في نهاية القرن السابع، خاض الميديون معهم عدة حملات.وهكذا في العام ٦٢٥، شن الملك فرأورتس، الذي جمع كل القبائل الميدية في دولةواحدة، شن على الآشوريين حربا انتهت بهزيمة وموت فأورتس، بسبب المساعدة التي تلقاها الآشوريون من قبائل السيث التي تدخلت فجأة.

رد ابن فرأورتس، سياخار (٦٢٥-٥٨٥) هجوم السيثيين ونظم جيشه. والميليشيا الميدية التي تقاتل عشوائيا، صنفت حسب السلاح (قذيفة، سهم، مقلاع)، وأخذ كل سلاح حيزه المحدد في المعركة.

حالف سياخار ملك بابل نبختنصر، واعتبر عدوه الأول آشوريا. ومن ٦١٢-٦٠٥، وجهت القوات المتحالفة من الميدين والبابليين إلى آشوريا ضربة قاصمة. وبدمار نينيفيا أنجز انهيار الإمبراطورية الآشورية. ومن ثم احتل سياخار فارس، أورارتو وكبادوس. واصطدم هجوم الميديين اللاحق باتجاه الغرب، في آسيا الصغرى، بمقاومة ضارية من ملوك ليديا *Lydia*، الدولة القوية، الواقعة في غرب نهر حاليس *Halys*. وفي ٢٨أيلو٥٨٥، توقف القتال بين الميديين والليديين بسبب كسوف الشمس الذي توقعه، كما يقول الإغريقيون، الفيلسوف تالس *Thales*. وبعد أن كفت النزاعات، عقد سيخار صلحا مع ملك ليديا ألياتس. واعتبر نهر حاليس حدا فاصا بين المملكتين.

تابع خليفة سياخار، أستياج *Astyage* (٥٨٥-٥٥٠)، سياسة التوسع. لم يستطع أن يحتل آسيا الصغرى، فبعث قواته لغزو ميزوبوتاميا وشمال وسوريا. يترافق ملكه مع أوج مملكة الميديين، الذين تمتد أراضيهم الواسعة من أواسط هضبة إيران حتى ضفاف حاليس، إلى سوريا والخليج العربي.

أمبراطورية الفرس، غزو سيرس وقمبيز

أوقفت قبائل فارس توسع مملكة الميديين. فالحوليات الآشورية، كما أشرنا أعلاه، أشارت إلى الفرس منذ القرن التاسع قبل الميلاد. كانت هذه القبائل تقرب الميدين. وعلى الأرجح بعد سحق عيلام على يد الآشوريين، تقدمت من الشمال في المناطق التي تتاخم الخليج العربي. كان تطورهم أقل مستوى من الميديين. وفي ٥٥٨، اتحد الفرس ضد الميديين بقيادة سيرس الثاني (ذكر قائد القبائل الفارسية سيرس الأول في حوليات آشور بنبال). فيكون سيرس مؤسس مملكة جديدة، تسجل ولادتها تحولا في تاريخ الشرق القديم.

وفي ٥٥٣ تمشي قوات سيرس إلى مسديا. يدوم الصراع ثلاث سنوات وينتهي في ٥٥٠ بنصر الفرس. ساهمت أرستقراطية جيش أستياج إلى حد بعيد بهذه الهزيمة، لأنها خانت ملكها وحتى سلمته لسيرس. احتل هذا الأخير عاصمة أستياج عقبتان *Ecboutana*و، كما تقول حولية نبنيد، استولوا على "الفضة، الذهب، وكل ثروة عقبتان. وصارت ميديا من الآن جزءاً من أمبراطورية الفرس. ولقد عجل انتصار سيرس باختفاء بقايا النظام المشاعي البدائي لدى القبائل الفارسية. واحتد انقسام المجتمع إلى طبقات. وحرض الغزو العبودية. وكان على رأس الدولة ملك خضعت له كل القبائل الإيرانية.

يجاهد سيرس وأرستقراطيته، المتلهفون للأسلاب والغنائم، لتوسيع حدود الأمبراطورية. ونتيجة الحملات بقيادة سيرس، ألحقت إيران، المتخلفة من وجهة نظر الاقتصاد والمأهولة أساسا بقبائل رعوية، ألحقت دولا أرقى حضارة منها لكنها تصدعت في نهاية القرن السابع وبداية القرن السادس جراء الحروب الخارجية والصراع الاجتماعي. فضلا عن هذا، كانت أوساط التجار والمرابين في بابل، آشوريا، فينيقيا وبلدان أخرى تنوى مصلحتها في أن لايكون في الشرق الأدنى سوى امبراطورية واحدة، بحكومة قوية لكبح التمردات الشعبية، وتقوية الاقتصاد وتطوير التجارة الدولية. وكان تجديد وتنظيم جيش الفرس. ويحتل سيرس بسرعة أرمينيا وكبادوس؛ وفي ٥٤٦ اكتسح ليديا واستولى على ثروات لاتحصى من كريزوس *Cre'sus*، مكدسة في ساردس *Sardes*، عاصمة هذه المملكة. بعيد هذا، أخضع سيرس كل آسيا الصغرى تقريبا، بما فيها المدن اليونانية في جنوب بحر إيجة. وألزم الكل بدفع الضريبة.

بعد أن حاصر ميزوبوتاميا في الشرق، في الشمال وفي الغرب وطوق كل الدروب

التجارية، تمكن سيرس أن يفكر بإلحاق عدوه الرئيس، بابل الكلدانية. وأنجزت المهمة بدون عقبات كأداء. فالأرستقراطية، الكهنة، التجار والمرابون البابليون فتحوا الأبواب أمام الجيش الفارسي؛ كانوا يأملون في توسيع أعمالهم التجارية والمالية في إمبراطورية جديدة أوسع من إمبراطوريتهم. دخل سيرس بابل في العام ٥٣٨، أباد آخر فلول الأسرة المالكة وأعلن نفسه ملكاً على بابل. ونشر بهذه المناسبة بياناً وصلنا نصه المحفوظ حتى اليوم وفيه يعد بالحفاظ على النظام القائم في بابل، واحترام آلهتها، ودعم تطوير المدينة.

كان دور مصر قد أتى، مصر التي قد يخلق فتحها من سيرس سيد الشرق الأدنى كله. لكنه قبل أن يبدأ حملة ضد هذا البلد، مشى نحو الشمال الشرقي لكي يوطد هيمنة فارس السياسية. لكن قبائل الساسيين والماساجيت الذين يعيشون حياة ترحال في سهوب آسيا الوسطى قاوموه ببطولة. وقتل سيرس في إحدى المعارك في العام٥٢٩.

تلاه ابنه قمبيز. ورغبة في إرضاء شهوات الأرستقراطية الفارسية، التي تلتقي مع رغبات الأوساط التجارية والمرابية في البلدان المغزوة، كوّن هذا العاهل أهدافاً أوسع جشعاً من سلفه: كان يبغي بسط سلطته على القسم الأعظم من حوض البحر المتوسط، حتى قرطاجة. دونت حربه ضد مصر بنصوص إغريقية ومصرية. وفي٥٢٥، هزم قمبيز، المدعوم بجيش بري قوي، وأسطول وضعه تحت إمرته الفينيقيون، القبارصة والساميون هزم المصريين في بيلوز. وبعد أن احتل البلد وكبح بالحديد كل مقاومة مصرية دفاعاً عن حريتهم، أرسل قمبيز عدة حملات بهدف فتح قرطاجة وأثيوبيا، اللتين كانت ثرواتها خيالية. لكنه فشل هذه المرة. وفي أثناء إحدى هذه المعارك انتفضت مصر ضد السيطرة الفارسية. أباد قمبيز التمرد، وقضى على آخر فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، بسامتيك الثالث في المذبحة. كانت الامبراطورية الواسعة الناجمة عن فتوح سيرس وقمبيز غير مستقرة وعارضة، لأن القبائل والشعوب التي تشكل جزءاً منها كانت تعيش في عزلة، دون روابط اقتصادية متينة ولا لغة مشتركة.

تمرد الـ"مجوس" وفتوح داريوس الأول، ابن حستاسب.

كانت الحروب المستمرة التي تتطلب جهودا جبارة من كل قوى البلاد، تغضب جماهير إيران ذاتها والمناطق المغزوة. أفاد بعض النبلاء والكهنة، المعادين لمركزه السلطة الملكية من هذا الوضع. وبينما كان قمبيز يقود حملاته باتجاه الجنوب، نشب تمرد قبائل

إيرانية في ميديا؛ امتد التمرد إلى كل البلدان التي احتلها الفرس وربما أدى هذا التمرد وغيره إلى تفكك الامبراطورية. وكان موجهو التمرد هم كهنة ميديين -الـ"مجوس"- وبعض عناصر نبلاء الدم. وعلى رأس الحركة، كان المجوسي غوماتا المدعي بأنه أمير بارديا، أخ قمبيز. لكن قمبيز، وهو يستعد للحرب، قتل هذا الأخ الأصغرخشية أن يحتل العرش في غيابه. كان الهدف الرئيس للتمرد كما يبدو إعادة السلطة إلى الميديين وإضعاف نفوذ الفرس.

وضع قمبيز في الصورة، فمشى إلى ميديا بغية تسوية الحساب مع المتمردين، لكنه مات في الطريق (٥٢٣). وبقيت ظروف موته غامضة.

اضطلع بالمهمة أحد أعضاء الأسرة المالكة الأشمنيد، داريوس الأول، ابن حيستاسب (٥٢١-٤٨٦). وبعد أن هزم المجوس في ميديا وأعدم برديا المدعي، اضطر لشن هجوم ضارٍ ضد حركات انفصالية وتحررية نشبت في كل أرجاء مورغاب في تركمانيا) ونشب في ٥٢٢ تمرد شرس يبدو أن كل الشعب اشترك فيه. أبيد بأمر من داريس، بوحشية فريدة، لأن طبيعته الوطنية جعلته في نظر الفرس أخطر من العصيانات الانفصالية. دوّن داريس هذه الأحداث على صخرة شهيرة في بحستون ***Be'histoun***.

باشر داريس، الوالغ بدم المتمردين الانفصاليين والانتفاضات الشعبية، اصلاحات هامة بغيةتوطيد أركان الدولة، وسحق في البيضة التوجهات الانفصالية وساهم في تطوير الزراعة، والمهن والتجارة.

امبراطورية داريس

قسم العاهل امبراطوريته إلى محافظات سميت سترابيس ***Satrapios***، يختلف عددها حسب المناهل (٢٠وأكثر). والأرض، المعتبرة ملكا للملك، كانت بتصرف المشاعات التي تعمل بها تضم المحافظة منطقة تشكلت عبر التاريخ وسكنتها جماعة عرقية محددة. على رأس المحافظة حاكم، يسميه الملك، يقبض على السلطتين التنفيذية والقضائية، لكن كثيرا من المحافظات حافظت عل حاكمها الأصلي -ابن البلد- الذي يدير الشؤون الداخلية جزئيا ويقى مرتبطا بالحاكم. ويمسك داريس بيديه عادة في المحافظات الأشكال المحلية الإدارية والقضائية، والعبادة، لأن لايغضب الأهالي بالاعتداء على تقاليدهم. عدا الحاكم، يسمى في كل محافظة قائد حامية يرتبط مباشرة بالسلطات المركزية. كان هذا، من جهة، لتوطيد

رقابة الموظفين المكلفين بتقديم تقرير عن زملائهم ومن جهة أخرى، الحذر من أي تدبـــير انفصالي من قبل الحكام والقادة العسكريين الجشعين. وخلق داريس شـــبكة واســـعة مـــن الجواسيس يراقب عناصرها الحكام والرؤساء.

كانت المحافظات تدفع ضريبة نوعية أو طبيعية أو الاثنتين. يبلغ الدخل السنوي الـذي يجمعه داريس من المحافظات حوالي ١٤٥٦٠ تالان[1]. تمون مصر فقط بـــالقمح ١٢٠٠٠٠ محارب فارسي.

ومن أجل تطوير التجارة وتمتين الوشائج بين المحافظات، وكذلك الأهداف الاســـتراتيجية، شرع ببناء طرق واسعة. كان أهمها "الطريق الملكي من أفيز حتى سوز، الذي يجتاز دجلة والفرات وطوله حوالي ٢٤٠٠كم. وطريق آخر يصل بابل بالهند. كانت الطرقات موضـــع عناية وصيانة دائمة. كل ٢٠كم، أقيمت محطة تبديل وبريد وخانات. ثمة نـــص منحـــوت لداريس يتحدث عن فتح قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر، حفرت بأمر من الملكـــة المصرية حاتشبسوت. ولقد أنجز داريوس إصلاحا نقديا بهدف استقرار المبادلات وتســوية الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الفارسية. صكوا نقدا وحيدا، سموه "داريــك *Darique*". يحق للملك وحده أن يصكها. ومن حق الحكام صك القطع الفضية والنحاسية، وأعطي هــذا من الحق للولاة أبناء البلد.وتوجهات داريس في المركزة اتضحت تمامـــا فـــي إصلاحـــه العسكري. فقد حدد شخصيا عدد القوات في كل محافظة وفي كل حامية، وكان هو يعيـــن عناصر كل سلاح (رامي مقلاع، سهام، خيال وسواه) في الحامية. في الجيوش والحاميات، كان الفرس يشكلون النواة فقط، بينما كانت القاعدة الواسعة من الجند الذين يجنـــدون مـــن ممثلي مختلف القبائل والرعايا. وبعامة، كـــان الفـــرس يتمتعـــون بامتيـــازات فـــي كـــل الامبراطورية. وكانت قبائلهم المهتمة أساسا، عدا الخدمة العسكرية، بالزراعة والتدجيـــن، معفية من الضرائب والسخرة.

ولقد أفضت إصلاحات داريس الأول العسكرية والإدارية ووجود العديد من المراكـــز الاقتصادية الكبرى، أفضت إلى تطوير التجارة الداخلية، والخارجية العابرة، التـــي كـــانت مراكزها مدن الشرق الرئيسة، بخاصة بابل. حيـــث شـــكلوا رابطـــات ســـرقة الشـــعب

---

[1] – وحدة وزن في اليونان القديمة تساوي من ٢٠-٢٧كغ، أو وزن تالان ذهبا أو فضة.

المشروعة. تمول مصارفهم بفوائد باهظة الأوساط القائدة وحتى محافظات الامبراطورية الفارسية كلها. وكان التجار والمرابون، الذين يجنون مكاسب خيالية من استئجار المزارع والتجارة، يدعمون داريس الأول في مشاريعه العدوانية الضخمة وإصلاحاته الداخلية.

انحطاط الأمبراطورية الفارسية

وهو ينظم الحكم، كان داريس يتابع توسيع إمبراطوريته. في الغرب، بإفريقيا، ضم سرنيد وبرقة؛ في الشرق، ثبت حدودا على طول الهند؛ في الشمال، غزا عدة أمصار من آسيا الوسطى: خوارزم، سوجديان، بكتريان وغيرها. وصارت محافظة بكتريان مركز الأملاك الشرقية للفرس. كان يحكمها بعامة أحد اقرباء السلطان. تقول أبحاث س.تولستوف أن دولة عبودية تشكلت بين القرنين الثامن والسادس في خوارزم، في جنوب بحو الأورال وإلى الجنوب قليلا، مملكة سوجديان، تابعة للأولى؛ وولدت أيضا في بكتريان ومرجيان تشكيلات سياسية. والحاضرات الشاسعة ومنشآت الري الضخمة في خوارزم، التي كشفها المنقبون السوفيات، هي الشواهد الخرساء على العظمة الآفلة لهذه الدولة. كان أساس اقتصادها آنئذ، الزراعة المروية. ورغم أن الامبراطورية الفارسية كانت في ذروة مجدها، وشملت خوارزم، سوجديان، بكتريان ومرجيان، لم تكن علاقة خوارزم بها إلا إسمية، لأن ملوكها كانوا جزءا من الاتحاد العتيد بين القبائل الرحل من السيس والمسجيت. كان هذا الاتحاد على رأس القبائل الفارسية التي، لتأكيد نفوذها في آسيا الوسطى، شنوا الحرب على قبائل شواطيء الأورال. شرع سيرس في ٥٢٩ وداريس الأول في ٥١٧ حملات ضد الساس والمسجيت، التي انتهت إجمالا بالفشل، على أن داريس، في منحوتته في بحستون، يتكلم عن أسر ملك الساس. وفي ٥١٣، أرسل داريس حملة لشق طريق جديد نحو أمصاره في آسيا الوسطى ويهاجم المسجيت من الغرب. لكن هذا كان فشلا ذريعا. وقد سعت القبائل السيثية وقد حصلت على حريتها إلى تكتيك حرب المقاومة: جذبت كواكب خيالتها الجيش الفارسي إلى سهب غير مسكون، مدمرة كل شيء في طريقها. وقد يئس داريس من ملاقاة العدو في معركة نظامية والمرض يفتك بقواته، ونقص التموين والصدامات، طوى لجام حصانه إلى آسيا الصغرى. وفيما بعد، نجح بالمقابل، بفتح تراس ***Thrace***، مسدوان وجزر في بحر إيجة.

وفي بداية القرن الخامس، يحاول الفرس إخضاع اليونان القارية. لكن دول اليونان

الصغرى واجهت المعتدين بمقاومة ضارية، وكبدتهم خسائر كبيرة وحافظت على استقلالها. وفي ٤٩٠ قبل الميلاد، انزلوا هزيمة منكرة بالفرس الذين أبحروا إلى المراتون. وبعد عشر من السنين، في ٤٨٠، لقي ابن داريسن، خرخس (٤٨٦-٤٦٥)، مصرعه قرب جزيرة سلامين. ولم يعد الفرس دولة لاتقهر. وقواته غير المتجانسة، مهما كانت جرارة، لن تستطيع القضاء على فصائل يونانية صغيرة تحدوها إرادة الدفاع عن أرض الوطن ضد الدخلاء. كانت جيوش سيرس وقمبيز قوية بوحدتها، بمصالحها المشتركة. لكن جيوش أحلافهم، المكونة بخاصة من ممثلي الشعوب الخاضعة، لم تكن مبالية بفتوحات الفرس، ولابتوطيد دولتهم. في أيام حكم أرتخرخس (٤٦٥-٤٢٥) وداريس الثاني (٤٢٠-٤٠٥) تفاقمت التناحرات بين الارستقراطية العسكرية والإدارة الفارسية وشعوب الأقاليم الملحقة. فالضرائب الباهظة، والسخرات الثقيلة، وتعسفات مستأجري المزارع العامة ألهبت الغل على الفرس، فضلا عن ضعف الجيش متعدد العناصر. وهكذا فككت مؤامرات القصر، والاضطرابات، وتمرد المحافظات الانفصالي وتعسفات الموظفين، فككت دولة الإشمنيد. تصدى أرتخرخس الثاني (٤٠٤-٣٥٩) لبعض الوقت لموقف الفرس في حوض بحر إيجة بواسطة صلح سمي :أنتلسيدس" عقد في ٣٨٧ مع إسبارطة، لكنه اضطر في المناطق الأخرى من الامبراطورية إلى كبح العصيانات والإضرابات. وفي ٤٠٥، في بداية حكمه، تنفصل مصر عن الفرس وتدافع عن استقلالها خلال ٦٥ عاما (حتى العام ٣٤٠). وفي العام ٤٠١، تمرد أخ أرتخرخس الثاني، سيرس الابن، حاكم فريجي وكبادوس الكبرى، تمرد ليحتل العرش. لكنه فشل وقتل في معركة كوناخا ***Counaxa***.

ويتسارع تفكك الامبراطورية الفارسية. ارتخرخس الثالث (٣٥٩-٣٣٨) يكبح بصعوبة انتفاضة في مصر، في فينيقيا وفي قبرص؛ وفي أيام داريس الثالث (٣٣٨-٣٣٠)، سقطت امبراطورية الأشمنيد تحت ضربات دولة جديدة عبودية، أسسها المقدونيون. سنبحث بالتفصيل ظروف هذا الانهيار في الفصول الآتية.

حضارة ودين إيران

كمصادر لدراسة دين شعوب آسيا الوسطى وإيران، لدينا الكتاب المقدس أفستا ***Avesta***، وكتابات هيرودوت وبلوتارك وبعض الكتابات المنقوشة عن أيام أشمنيد. كان الدين الإيراني يعكس عز الإنسان في صراعه مع الطبيعة. وكانت القبائل تعبد الحيوانات

المقدسة، مثلا، الكلب، والثور. إن هذا النوع من العبادة التي يمارسها الإيرانيون والشعوب الأخرى هي بقايا من الطوطمية. أما الآلهة الرئيسيون، كانت تجسد قوى الطبيعة. وكانت العباداتالأكثر انتشارا هي الأرض، السماء، الماء، النار، هذه الأخيرة مرتبطة بمتانة بعبادة القبائل الإيرانية لأحورامازدا (أرموزد بالإغريقية).

دور هام يعود للنجوم، بخاصة الشمس، يجسدها الإله ميثرا *Mithra*. عبادة ميثرا مرتبطة بالزراعة وتربية الأنعام. وكرمز للقوى المنتجة في الطبيعة، تصير ميثرا حامية الموتى وإله الحرب. والدين الإيراني القديم يجهل المعابد. التعبد –صلوات وأضاحي– كانت في الأمكنة المناسبة.

مؤخرا أولي اهتمام كبير لعبادة الدولة المبنية، حسسب الخرافة ، بأمر زرثوسرا (بالإغريقية زورواستر، ومنه اسم زورواستريم، المعطى للدين). كثير من العلماء يرون أن زورواستريم ولد في آسيا الوسطى، أو بالأصح في خوارزم. كان ذا طبيعة مزدوجة. تقول نظريته أن أحوارامازدا، إله النور والرزق، في صراع أبدي مع أحرمان، إله الظلمات والشر. الأول يعلم الناس الفضائل والنظام، الزراعة والمهن؛ ويبذر الثاني في كل مكان الشر والاضطرابات والبلبلات. فكل مؤمن ملزم إذن بتوطيد قوانين أحورامازدا، أن يعيش في الرحمة، يطيع الملوك، يمارس بحماس الزراعة والتدجين، فيكافأ بعد نصر أحوارامازدا.

تعبر هذه الثنائية بوضوح عن المنحى الاجتماعي والسياسي للأغنياء الذيم يسعون أبدا إلى تشريع تفوقهم على جماهير الكادحين الغفيرة، بتقديم هذه المقولة كتجسيد لمبدأ "النور" والالتصاق والانسجام". لذا ينص الدين على الخضوع المطلق للسلطة الملكية والعمل المطيع كمصلحة الشرائع المهيمنة.

نستطيع أن نكون فكرة عن الفن الإيراني القديم استنادا إلى الآثار والنقوش والمنحوتات. فنماذج العمارة الرائعة الواصلة إلينا، مثل أطلال القصر الملكي في سوز والقاعة ذات المائة عمود في قصر برسبوليس، تدل أن هذا الفن، مابقي قوميا–وطنيا، كان يستلهم أعمال شعوب أرقى، غزاها الفرس. مثلا فكرة القصر ذي المائة عمود مقتبسة من مصر، وطنف قناطر سوز–من آشوريا، وبناء قصر على أرض منبسطة وتزيينها بالنقوش والزخارف–من آسيا الصغرى. لكنه بمجمله، فن أصيل له شخصيته الخاصة ومحياه

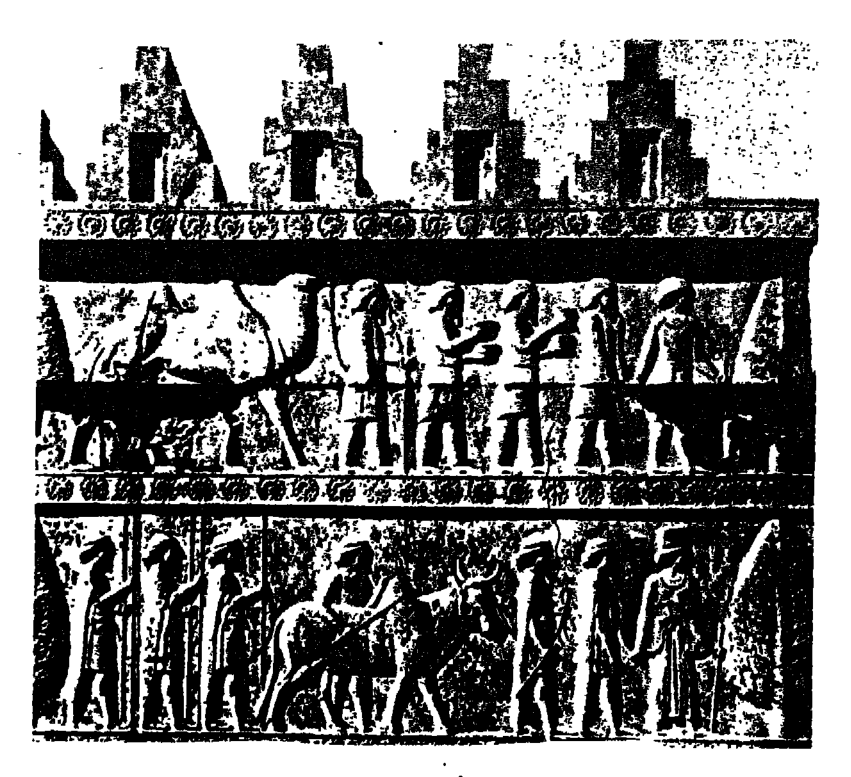
المتميز. ومدونات داريوس الأول-النحتية أو الكتابية تقص أنها بنيت بيد الأسرى الأيونيين، المصريين، البابليين، الليديين وسواهم. وفي صروحهم الشامخة، يعرض طغاة أسر الأشمنيد عظمة وغنى أمبراطوريتهم.

لم تترك لنا مصر القديمة أي أثر أدبي، سوى بعض المدونات المختصرة والوثائق على الرقم الفخارية أو الآجرية، فمن الصعب تصور ماذا كان الادب الإيراني. بل يمكن فقط الافتراض أنه تطور بتأثير النماذج التي أبدعتها شعوب آسيا الصغرى والشرق-الأدنى. فالكتابة المسمارية التي استعملها الأشمنيد على الأرجح منذ سيرس، تصدر من ميزوبوتاميا. وقد استخدمت أيضا بالمدونات الملكية الرسمية. أما أغلب نصوص عهد داريس، فهي بالأرمنية. والتقويم الإيراني، الذي جدده كله تقريبا الباحثون، يشهد، هو الآخر، على التأثير البابلي.

والقليل المعروف من حضارة الأشمنيد، يثبت الانتقائية. تعلل هذ الطبيعة العسكرية للدولة ذاتها، التي تجني باللصوصية المنجزات الثقافية للشعوب الأخرى. لكن في الوقت ذاته، عملت أمبراطورية فارس على تقريب وتفاهم الحضارات الشرقية وحضارات العهود القديمة الكلاسيكية، التي اغتنت بهذه اللقاءات.



من مشاهد الصيد



جدارية على جدار أحد قصور الإمبراطورية الفارسية

الفصل الثامن عشر

الهند

البلد والشعب

بعكس مصر وما بين النهرين، تتميز الهند بتنوع وتعقد شروطها الطبيعية.

تقع الهند في آسيا الجنوبية. تقسم إلى منطقتين واضحتين: الشمال والجنوب. تشغل الأولى شبه جزيرة ديكان (هندوستان)؛ وتقع الثانية في اليابسة. تنفصل الهند عن البلدان الأخرى بجبال منها هملايا، أعلى سلسلة في العالم، وبالبحار التي تعرقل اتصالها بالشعوب الأخرى.

ولما كان مناخ الهند حاراً، كانت العوامل الرئيسة في حياتها الاقتصادية قضية الماء. الصيف (تموز-أب) الفصل المطير، أمر يساعد الزراعة، لكن التبدلات المناخية غير متساوية أبداً: في الشمال الشرقي وفي الجنوب الهواطل غزيرة جداً، وفي الشمال الغربي وداخل البلاد تقل، وفي كثير من الأمكنة، لاتكفي للأعمال الزراعية، الأمر الذي يفرض الري بالآلة.

إن شبكة الهند النهرية كثيفة؛ لكن أغلب الأنهار تمتاز بصبيب غير منتظم، وبالتهور والاندماج في مجاري ضيقة؛ فقط نهرا الهندوس والغانج (وروافدهما) لهما عبر التاريخ أهمية اقتصادية. ولم تستخدم مجاري المياه الأخرى بالري ولا بالنقل.كانت الحواجز الطبيعية (الجبال والغابات الكثيفة) تحول دون اتصال شعوب الهند فيما بينها، فتتابع تطورها بإيقاع متنوع وبأشكال متباينة جداً. وحتى من الوجهة البدنية، تتفرد شعوب مختلف أقاليم الهند بشدة بعضها عن بعض. والألسنة مختلفة هي الأخرى، أغلبها من عائلتين لغويتين: أندو-أوربية والدراويدية[1]. يتكلم بلغات المجموعة الأولى شعوب الشمال أساساً،

---

[1] – نسبة إلى شعوب الدراويد الساكنة شمال الهند.

وينطق بلغات المجموعة الثانية شعوب الجنوب. ويرجع اقتراب لهجة شعوب شمال الهند من شعوب خارج الحدود إلى هجرة شعوب الهند التي تتكلم لغات أندو-أوربية. وشعوب شمال غرب الهند، المسماة بالـ"الآريين" معتبرون عادة دخلاء.

لكن العالم العلمي لم يحدد بعد حقبة دخولهم البلاد، أو أصلهم، ولا طبيعة دخولهم.

حضارة هارابا *Harappa*

الهند مأهولة منذ أبعد الأزمان. وهي واحدة من أقدم مواطيء الحضارة.

فمنذ الألف الثالثة، ازدهرت حضارة عظيمة في شمال-غرب البلاد، في وادي نهر الهندوس. في هذه الحقبة تقريبا، مارس الهنود الزراعة والتدجين وبدأوا العمل بالمعادن. الأمر الذي خولهم استثمار الأرض على أبعد نطاق.

كان الناس يبذرون الحبوب (شعير،قمح)، والزراعات السبخة (البطيخ)، والأشجار المثمرة (البلح)؛ وكان الهنود أول من أنبت القطن. منذ الألف الرابعة او الخامسة، كان مناخ وادي نهر الهندوس أكثر رطوبة بحيث تستطيع الحبوب النماء في أرض غير مروية. فضلا عن هذا، كانوا يستنبتون طبعا تربة غرينية تروى في أيام الفيضان. ربما كانت السقاية موجودة، لكن ليس لدينا براهين لا تدحض. وكان تدجين الدواب (الخراف، الجاموس، الدرباني[٢]، الخنزير، وغيرها) يلعب في الاقتصاد دورا ثمينا.

في نهاية الألف الثالثة وبداية الألف الثانية قبل الميلاد (أي في أيام أوج انطلاقة حضارة الهارابا كما يبدو)، كان الهنود يعرفون صناعة البرونز؛ ومن هذا المعدن صنعوا أدوات عمل (مناجل، بلطات، أزاميل، مناشير)، وأسلحة (خناجر، سهام وقذائف)، وأوعية منزلية (سكاكين، صحون، آلات حلاقة، ومرايا). وفروع أخرى صناعية (خيوط نسيج، صناعة القرميد، الفخار، الذهب والمجوهرات، إلخ) بلغت مستوى رفيعا. وكمية كبيرة من الأوزان، الأختام وأغراض متنوعة مصنوعة من مواد أولية مستوردة، تشهد على علاقات تجارية مع مناطق أخرى من الهند، ومع الأجانب.

ولقد كشفوا أكثر من ٢٠٠٠خاتم بأحرف هيروغليفية. المؤسف أن هذه الكتابة، رغم الجهود العلمية، لم تحل رموزها بعد.

---

[٢] - حيوان ضرعي ذو سنام من الفصيلة البقرية.

كانت المراكز الرئيسة لحضارة هارابا. كما عثروا على خرائب عشرات المدن التي عاشت وبادت في وادي نهر الهندوس منذ ٤٠٠٠عام. كانت هارابا أشهر المدن (التي أعطت اسمها لما سمي حضارة) وكذلك موهاندجو-دارو. كانت هذه الحاضرات العظيمة التي يعد سكانها عشرات الألوف ، كانت تمتد على ضفاف الأنهار وتسود الإقليم المحيط. كانت شوارعها مستقيمة وعمودية على بعضها البعض. وكانت بيوتها ذات الطابق الواحد أو الطابقين مبنية بالقرميد المشوي وتقدم من الخارج منظرا متواضعا ورتيبا، إنما لا تنقصه الراحة: وكان ثمة محلات خاصة بالغسل والوضوء، وتمديدات مياه بسيطة، تشكل جزءا من شبكة المدينة، رائعة بالنسبة لعصرها. وبعيدا عن مركز المدن، أقاموا حصونا تتضمن هياكل التعبد والإدارة، وأهرامات الحبوب، والطواحين وحتى مساكن للعمال.

تمكننا المعطيات التي بين يدينا من افتراض وجود، في وادي نهر الهندوس، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، المجتمع العبودي الذي، من حيث مستوى ثقافته، لم يكن يتخلف في شيء عن مجتمعات ذلك العهد فيما بين النهرين ومصر.

حول منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، بدأت هذه الحضارة تتراجع؛ وغادر السكان مدينتي هارابا وموهاندجو-دارو. وباختصار، دمرت حضارة هارابا دمرت بأيدي معتدين أندو-أروبيين، الآريين، الذين دخلوا الهند من الشمال الغربي. لكن البراهين غير كافية حتى الآن لتأكيد هذا الرأي. على هذا، لم تدمر حضارة هارابا دمارا تاما، وهي ما تزال مرتبطة بقوة بحضارة المحطات التالية.

. الهند في منتصف الألف الثانية حتى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد

لدراسة الحقبة الماضية لم يكن لدينا إلا آثار مادية، لكننا نملك الآن مدونات: إنها بخاصة نصوص استلهام ديني (الفيدا) وقصائد ملحمية (ماهابها راتا وراماياانا). إننا لا نلمس أي رابط مباشر بين هذين العهدين التاريخيين. على هذا، تخص معطيات المناهل الأدبية مناطق أخرى: وادي الغانج الأعلى وملتقيات هملايا.

في هذا العصر انتقلت الهند إلى عهد الحديد. باستخدام أدوات من حديد متينة ومريحة، يمكن التوجه بجرأة إلى استصلاح الغابات والأدغال وحراثة التربة الأقسى؛ وفي ذات الوقت، تسهل أعمال الري والتجفيف كثيرا، وأيضا تطور المهن. واستثمر بسعة وادي الغانج، وأراضي الهند الوسطى. وهنا أيضا ولدت مدن وحضارة راقية.

عندما تحدثنا عن عهد هارابا توقعنا افتراضاً فقط وجود مجتمع عبودي. لكننا الآن نقول بثقة أكبر أن ذلك المجتمع وجد فعلاً في تلك الحقبة. فأقدم فيدا، ريج-فيدا، تشير إلى عدد من العبيد. كان هؤلاء قد عرفوا باسم "داسيا *dasya*"، الذي يعني أصلاً "العدو"، "الدخيل"؛ وهذا برهان أن أول العبيد كانوا أسرى حرب. وينضم إليهم بالتالي العبيد الذين كانوا سابقاً رجالاً أحراراً سقطوا في البؤس، وكانوا قد باعوا حريتهم وحرية أبنائهم. وخضع أبناء النساء العبدات إلى نير العبودية.

كان العبيد ملكية مطلقة لسادتهم. يمكن بيعهم إهداؤهم أو تقديمهم مهرا. ويمكن أن يخدموا في أي عمل. ومضى وقت قبل أن يبدل المجتمع البنية بعد ظهور العبودية، لكن عندما يبدأ هذا التطور، يبقى مع ذلك بقايا قوية من النظام المشاعي البدائي، بخاصة، النظام نفسه يستمر ويتشبث.

وتظهر الدولة عندما ينقسم المجتمع إلى طبقات. وتستلم الأرستقراطية زمام الحكومة القبلية وتستخدمها للحفاظ على طاعة العبيد وأعضاء المشاعات الأكثر فقرا. ويصير شيخ *-radjah-* نوعا من الملك. لكن هذه الدول العبودية تبقى لمدة طويلة محافظة على أشكالها القبلية القديمة وعناصر ديموقراطية بدائية، خاصة بالنظام المشاعي.

مع تشكل الطبقات، يتجلى الظلم الاجتماعي أكثر فأكثر، وتتكون شريحة هرمية تؤبد هذا النظام. ينقسم الشعب إلى أربع فئات. وتشكل أرستقراطية الدم والقبيلة فئتين-البراهمان والكشتريان *les brahmanes & les kchatryas*. إلى الفئة الأولى تنتسب ذريات الكهنة، وإلى الثانية ينتسب النبلاء العسكريون. والجماهير العريضة لأعضاء المشاعات الأحرار تشكل فئة فيسياس *Vaicyas*. والأجانب الأحرار الذين لا يملكون شيئا في المشاعة ولا يحق لهم الاشتراك باتخاذ قارات القبيلة، ولا باحتفالات العبادة، إلخ. يشكلون الفئة الأخيرة: الكودرا *les coudras*. ولما كان هؤلاء الأخيرون "غير مطلعين على الأسرار"، ينظر إليهم كأناس "يولدون مرة واحدة"، بعكس "الولادة مرتين"، أي ولادة الفئة الأعلى (طقس المساره[3] يخلد هذه الولادة الثانية). ولما كان الانتساب إلى إحدى الفئات قد حدد بالولادة، فليس لأحد بشكل عام أن ينتقل من فئة إلى أخرى، والتزاوج بين أعضاء فئات متباينة كان

---

[3] – احتفالات تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة.

عادة ممنوعا. لا تتمتع الفئات بنفس الحقوق أمام القانون؛ والجرائم التي يرتكبها أعضاء الفئات الدنيا عقوبتها أقسى بكثير من عقوبة الفئات العليا لنفس الظروف.

كانت البراهمية دين أول مجتمع هندي عبودي، كانت المعتقدات الدينية في زمن نظام المشاعة البدائي (التي وصلتنا جزئيا عبر الفاردة) تستند إلى عبادة قوى الطبيعة والإحيائية؛ انسجمت هذه العوامل مع حاجات المجتمع الجديد. وصارت الآلهة حماة الملك والنبلاء. واستخدم الكهنة فكرة التقمص لدعم أن انتقال الروح إلى جسد إنسان يتمتع بوضع اجتماعي رفيع إلى هذا الحد أو ذاك يتعلق بسلوك الدفين. كان العامل نفسه إذن مسؤولا عن النير الذي يلحقه وعن الشروط السيئة في حياته. وبنت البراهمية الدولة على التعاليم المقدسة، وسمو شخصية الملك، وأبدية الظلم الاجتماعي (نظام الفئات *varnas*)، إلخ. وشيئا فشيئا ولد طقس معقد، وكان إتمام مختلف مستحقات العبادة يتطلب إعدادا نوعيا.

أمام تقطيع أو تقسيم الدولة وعدد القبائل الكبير لم يكن لدى البراهمية إله أعلى بل عدة هرميات من الآلهة. كان الإله الأعظم سيفا *Civa* تارة، مجسدا قوى الطبيعة (يرتبط هذا الإله أيضا بعبادات قديمة جدا للخصب)، وحينا فيشنو *VichnouK*، حارس كل الموجودات وواحدا من أقدم تشخيصات الشمس. وحاول الكهنوت أيضا أن يضع في رأس البانتيون براهما، خالق العالم، لكن يبدو أن عبادته لم تدم.

الهند في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد

لقد وسم النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد بحروب مستمرة بين دول الهند. كما بدد تطور القوى المنتجة وعلاقات العبودية بالتدريج بقايا نظام العشير وصارت الدول ذات طبيعة استبدادية. وفي أواسط الألف الأولى كان في شمال الهند عدد الدول الكبرى المستقلة قليلا نسبيا، وتتابع هذا التقلص، وشيئا فشيئا ابتلعت الكبيرات الصغيرات.

انتهى صراع مرير بين الدول الأعتى -كوسالا وماغادا- بظفر الأخيرة. وفي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، امتدت سلطة ملوك ماغادا على كل وادي الغانج وقسم من الهند الوسطى؛ وصارت ماغادا الدولة الرئيسة في الهند.

وفي أواسط الألف الأولى قبل الميلاد، ضاعفت الهند علاقاتها مع البلدان الأخرى. وفي نهاية القرن السادس احتل ملك الفرس دارس الأول قسما من وادي الهندوس. وانضمت محافظة هندية إلى إمبراطورية الأشمنيد.

وراح يزداد زوار الهند الأجانب من البحارة والتجار. وبعد رحلات طويلة في الأقاليم الجبلية، والصحارى التي تلهبها الشمس أو اتساع البحار، بدت البلاد بنظرهم أغنى وأكثر خرافة مما هي . وحدث أن ابتكروا في هذا الموضوع قصصاً ليزيدوا دهشة السامعين.

وهكذا بدأوا ، في العام ٢٠٠٠ق.م يتصورون الهند كـ"بلد العجائب"، وكان هذا التخيل قوياً بحيث حفظ جزئياً حتى أيامنا.

بهذا التقويم المفرط لثروة الهند التي، إضافة إلى عوامل أخرى، حرضت المقدونيين واليونان على غزوها في العام ٣٢٧ قبل الميلاد، بعد أن حطموا إمبراطورية الفرس. ولم يكن شمال غرب الهند يؤمئذ يمثل أي انسجام سياسي. ونجح إسكندر المقدوني أن يقيم حلفاً مع بعض ملوك الهند المتنازعين مع بعضهم البعض. ودحر بورس، أحد أقوى ملوك البنجاب، الذي رفض الخضوع، دحر في معركة ضارية. وكان الإسكندر ينوي استمرار الزحف نحو الشرق، واحتلال وادي الغانج. لكن أمام مقاومة الهنود الشرسة، رفض الجيش المقدوني، الذي أضنته المعارك، رفض الخضوع لقائده. واضطر الإسكندر أن يقاتل متراجعاً وغادر الهند.بعيد هذا، بدأ التنازع بين القادة المقدونيين والملوك الخاضعين؛ وتمرد السكان الأصليون على الأجنبي. ومنذ العام ٣١٧ قبل الميلاد، لم يبق في الهند أي حامية مقدونية.

البوذية

في منتصف الألف الأولى قبل الميلاد بينما كان نظام العبودية متطوراً في الهند انبعثت عدة دول هنا، ولم تعد البارهمية ترضي مالكي العبيد.

فانبثق دين جديد، البوذية مشتق من بوذا: الـ"ملهم"، لقب المبشر الذي كان ينسب إليه، في الخرافات، مبدع الشريعة الأساسية للدين الجديد)، انبثق في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد؛ كان رصيد النزاعات المتفاقمة أكثر فأكثر في أحشاء المجتمع، التي يستدعيها تطور العبودية، وتشكل دول الاستبداد المؤسسة على استثمار العبيد، واشتداد حدة الظلم الاجتماعي. وفي الدين البوذي، ليس للكادحين سوى أفق واحد هو روحهم، والتخلي عن كل محاولة لتبديل العلاقات الاجتماعية.

وتبنت البوذية موضوعات التقمص. وهنا، الحياة شر كلها، أن تعيش يعني المعاناة. يجب إذن الجهاد لوقف تطور انبعاثات النفس المتتابعة، المفضية إلى النرفانا، أي كبح

النفس. يتم بعث النفس حسب الأفعال التي جرت في أثناء الحياة السابقة، وسلوك الإنسان هو نفسه نتيجة لرغباته. إذن،بالعزوف عن الرغبات نصل إلى النرفانا. وأولئك الراغبون في "نجاتهم"، يجب أن يهربوا من مباذل الدنيا ويصيروا كهنة.

لا ترى البوذية أن الآلهة تحمي الناس ولا التضحية لهم؛ لا جدوى من الكهنة، فكل منا بوسعه أن ينقذ نفسه من البعث بوسائله الخاصة. والأصل الرفيع، الانتساب إلى هذه الجماعة أو تلك، أو أن تكون عضواً في فئة أو شريحة، لا تلعب أي دور في ولوج النرفانا. العبد فقط محروم منها، لأنه، حتى ولو بالرغبات، يبقى غير حر بأفعاله.

كانت البوذية تنشر السلبية، والقبول المذعن للواقع، وتجريد المضطهدين أخلاقياً من سلاحهم في نضالهم ضد مضطهِديهم، وليس فقط لم تتعرض للحرمان والمعاناة (ليس ثمة إلا بين الكهنة)، بل صارت منذ القرن الخامس قبل الميلاد دعامة للنبلاء العبوديين، بينما كانت رابطات الكهنة تتلقى عطايا وهبات أكثر فأكثر كرماً. في هذه الحقبة، لم تعد الولادة السامية، ولا الانتساب الواقعي إلى هذه القبيلة أو تلك، دوراً أساسياً. المهم الثروة، امتلاك العبيد. لهذا، قدمت البوذية، التي كانت أرقى من العبادات القبلية، أساساً أيديولوجياً جديداً للدول العبودية الكبرى التي تتشكل. فضلاً عن هذا، راح الكهنة، المنظمين جيداً والانضباطيين، يخدمون بفاعلية السلطة، الأمر لم يتيسر للكهنة البراهميين الموزعين والمنقسمين أبداً.

إمبراطورية الموريياس *Mouryas*

كان على رأس الانتفاضة ضد المقدونيين، التي شبت في شمال غرب الهند، أحد كبار رجال الدولة الذين لم تعرفهم الهند: تشانداغوبتا. رغم ان شخصيته ونشاطه ترك أثراً عميقاً على معاصريه وعلى الأجيال التالية، لا نملك سوى القليل من المعلومات لكي نفيه حقّه. كان ينتسب إلى شريحة الكودرا، أي الرابعة، حثالة المجتمع، وكان يعمل في كنف ملك ماغادا، لكنه لم ينسجم معه، هرب إلى البنجاب، حيث نظم عصياناً ضد المقدونيين. ولما تكلل العصيان بالنجاح (وحتى قبل)، قاد حملة ضد ماغادا. يذكر الباحثون عدة تواريخ مقاربة للعام ٣٢٠ قبل الميلاد)، ثم أزاح الأسرة المالكة الهانداس *Handas* واحتل العرش. كان اسم أسرة تشاندراغوبتاهو موريا، لذا سميت الإمبراطورية والأسرة اللتان أسسهما: موريياس. ثم قدر أن يخضع الشمال كله (وربما قسماً من الجنوب) وأرسى دعائم الدولة الأوسع في الهند القديمة.

أخذت إمبراطورية الموريا أوج اتساعها في أيام آسوكا (٢٧٣-٢٣٧) حفيد تشاندراغوبتا. إذ ضمت الإمبراطورية الهند كلها (عدا منطقة تقع في جنوب شبه الجزيرة) وأفغانستان الحالية.

في هذا العهد، أنجز الشعب الهندي إنجازات ضخمة في تطوير القوى المنتجة. يدحو الحديد المستخدم نهائياً المعادن الأخرى في صناعة أدوات العمل. وتصير حراثة التربة قاعدة الحياة الاقتصادية؛ ولم تعد تربية الدواجن سوى رافد للزراعة؛ ويفقد الصيد والقنص أهميتها أيضاً. ويتطور الري ويتقن. وجنى الصناعيون العاملون في المعادن، وناسجو القطن، معمرو السفن النهرية والبحرية خير النتائج. وراجت التجارة الداخلية والخارجية: التجارة البحرية مع مصر، ميزوبوتاميا، سيلان وبلدان جنوب شرق آسيا؛ وتجارة برية مع إيران وبلدان آسيا الوسطى. وتدخل في التداول نقود نحاسية وفضية. وتتسع المدن، أي مراكز حضارة الهند العبودية. ويشير اليونان الموجودون آنئذ في الهند، في كتاباتهم إلى عددها الكبير وغناها وامتداد باتالبوترا ***patalipoutra***، عاصمة ماغادا.

لم تكن الهند العبودية، حتى في أيام ملك موريا (القرن الرابع -الثاني قبل الميلاد)، متطورة مثل بلدان العصر القديم الكلاسيكية. فليس فيها مزارع كبيرة ولا ورشات واسعة توظف جمهرة من العبيد. على ذلك، كان العبيد كثراً. كانوا يعملون في أملاك الملك، النبلاء وفي الإقطاعات الصغيرة، بل بخاصة في الاقتصاد الخدمي، حيث لا يختلف شرطهم في شيء في الغالب عن شرط الخدم، وعدم كفاية الإنتاج البضائعي وقوة بقايا نظام المشاعية البدائية أعطت العبودية خصيصة الأبوية.

وما كبح بعنف تطور علاقات العبودية هو ثبات المشاعية، الناجم عن طبيعة الإنتاج: إن أعمالاً مثل تجفيف أو إرواء مساحات واسعة، وضرورة حماية حقول القمح من العصافير والدواب الأليفة، من الكواسر، واستصلاح الأدغال، إلخ.، كانت تتطلب جهوداً تعاونية جيدة التنظيم، وخاصة إذا أخذنا بالاعتبار المستوى لتلك الحقبة. كل هذا أوقف فرق الثروة والشرط وصان ملكية الأراضي الجماعية. فضلاً عن هذا، كانت المشاعة منظمة مستقلة إلى نقطة معينة: اقتصادياً، كانت قليلة الاتصال بالمدينة. والتجارة، التي كانت تتطور في الداخل، لم تكن تخصها أبداً. كان لها إدارتها الخاصة، الانتخابية أو الوراثية. وأتاوات الدولة كانت تقع على المشاعة كلها وليس على كل فرد على حدة.

كانت إمبراطورية الموريـاس مؤلفة من قبائل وجماعات أثنية متباينة جداً من حيث التطور والرقي. وبحسب مانعرف، لم يكن عندهم نظام أداري وحيد. فالقبائل والدول الخاضعة كانت تبقى مستقلة ويتوجب عليها دفع الضريبة فقط وتجهز السرايا العسكرية. ولمراقبة الملوك الملحقين، أقيمت حكومات في مختلف البقاع.

كان العاهل يستند إلى الجيش. يقول الكتّاب الإغريق أن تشاندراغوبتا يقدر، في حالة الحرب، أن يجهز جيش من ٦٠٠ ألف رجل مشاة، ٣٠ ألف خيال و٩٠٠٠ فيل. فكانت صيانة الجهاز الحكومي والعسكري تكلف غالياً. وللنهوض بهذه الأعباء كان الملك يفرض الضرائب مستغلاً المشاعات (كان المبلغ المطلوب بـ١/٦ الموسم) ويعين مكوساً على التجار. وكان العاهل يزيد الضرائب على الأراضي الملحقة ويقبض من عائدات أملاكه الشخصية. فضلاً عن هذا، كان الناس الأحرار ملزمين بأعمال السخرة.

وتصير العبودية القاعدة الايديولوجية في إمبراطورية الموريـاس في أيام ملك آسوكا. ويهتدي هذا إلى البوذية ويعمل لنشرها في الهند وغيرها؛ وقدر أن يدعم المنظمة الدينية. ومعلومات هامة تاريخية عن هذا العهد موجودة في مدونات آسوكا، محفورة بالصخر وعلى الأعمدة، حيث يمكن قراءة أوامره فيما يخص مراقبة مبادئ البوذية الأخلاقية (خضوع للسلطات، الاحترام، الالتزام بطهارة ونقاء الفكر وتجنب العار، إلخ).

رغم جهوده، لم يستطع آسوكا أن يؤسس دولة متينة وموحدة. وما أن مات، حتى سقطت الإمبراطورية في هاوية الانحطاط. وفي حوالي العام ١٨٧، أزيح عن العرش آخر ممثلي الأسرة وقتل بيد القائد العسكري الذي أرسى أسرة جديدة، هي سونغا ***Counga***.

ليست الأسباب الداخلية وحدها جلبت انحطاط إمبراطورية الموريـاس. بل الهزائم في السياسة الخارجية أفضت إلى هذا أيضا. وفي بداية القرن الثاني قبل الميلاد، توغل يونان بكتريان في الهند واستقروا في البنجاب. وفي نهاية القرن الثاني قهرهم المساجيت ***Massage'tes***، إحدى رعايا آسيا الوسطى، ودعوا في الهند الساكاس ***les Sakas***. أخضعت هذه القبائل شمال غرب البلاد وربما حتى بعض أراضي الهند الوسطى.

إمبراطورية الكوشان وإمبراطورية غوبتا

بدءا بالقرن الأول بعد الميلاد، سادت إحدى قبائل الساكاس. استقرت على ارض طادجاكستان الحالية، وعرفت في التاريخ باسم كوشان. وفي منتصف القرن الأول بعد

الميلاد، شرع الكوشان بفتح الهند، أخضعوا الدول الصغيرة في شمال البلد، حكموا بملـوك البارث أو الإغريق. وفي بداية القرن الثاني، تملك إمبراطورية الكوشـان كانشـكا (٧٨-١٢٣) مساحة شاسعة من آسيا الوسطى، من سن-كيانغ، من إيران الشرقية ومـن الـهند ذاتها؛ حتى نهر نربودا في الجنوب، وحتى مدينة بيناريس في الشرق. كـانت العاصمـة بوروشابرا (اليوم بيشاور)، الواقعة على الدرب الكبير الذي يصل هند الكوشان بأقاليم آسـيا الوسطى.

كانت هذه الدولة، عديدة القوميات، مركز تبادل ثقافي واسع النشاط والمدى. فقد أفـاء الهنود من حضارة شعوب آسيا الوسطى (في فن العمارة والفنون التشكيلية)، ومن جهتـها مارست الهند تأثيراً واسعاً على الشعوب الأخرى. ماثل الكوشان بسرعة الحضارة الهندية. وصار للبوذية أنصار بينهم. كان كانيشكا رائداً متحمساً. بنى عدة أديـرة، وأمـر بتشـييد المعابد، شجع نشاط المبشرين؛ ومن مجمع بوذي، تلقى هذا الدين صيغة جديدة: الماهايانـا. ومنذئذ، انتشرت البوذية في آسيا الوسطى والصين.

لم يتيسر لإمبراطورية الكوشان، المؤلفة من أعراق عدة، أن تعيش طويلاً. تصدّعـت بعد موت كانيشكا وحوالي العام ٢٣٠ صار أفولها أكيداً.

في منتصف القرن الرابع، ظهرت إمبراطورية غوبتا: وكانت آخر دولة كبيرة عبودية في الهند. بقي المركز في ماغادا ، و كما في أيام أسرة الموريا، العاصمة هي باتـاليبورا. ومؤسس أسرة غوبتا عاهل من المرتبة الثانية، ملك في ماغـادا: تشـاندرا غوبتـا الأول (٣٢٠-٣٣٠). نجح في بسط نفوذه على ماغادا كلها. وقد سيّر ابنـه، سـامودرا غوبتـا (٣٣٠-٣٣٨) عدة حملات مظفرة وأخضع عدة ممالك من وادي الغانج الأعلـى والـهند الوسطى. نهب الكثير من الهند الجنوبية، ودمرها حوالي منتصف القرن الرابع.

بلغت إمبراطورية غوبتا أوج مجدها في أيام ملك تشاندراغوبتا الثـاني (٣٨٠-٤١٤) الذي احتل قسماً كبيراً من البنجاب وبقاعاً من الهند الغربية؛ امتدت دولته من خليج البنغـال حتى الخليج العربي.

في منتصف القرن الخامس، تعرض شمال الهند لغزو هـانس هفتـاليت آت مـن آسـيا الوسطى، تدفق إلى إمبراطورية غوبتاوغيرها. تتابع العدوان طيلة أعوام، وبنجاح متباين. لكـن إمبراطورية غوبتا، التي بدأت العهد الإقطاعي، لم تكن قادرة على مواجهـة حـروب طويلـة. وفي نهاية القرن الخامس، اقتصرت سيطرة إمبراطورية أسرة غوبتا على ماغادا وبقـاع فـي شرق وجنوب هذه الدولة. ومنذئذ، انقطعت المعلومات الخليقة بالحديث عن هذه الإمبراطورية.

أزمة العبودية وولادة الإقطاع

تجسد القرون الأولى بعد الميلاد رواجاً اقتصادياً واسعاً في الهند. في هذه الحقبة تبدأ المنطقة الجنوبية بالتطور السريع، بينما كان تطورها حتى الآن أبطأ من تطور الشمال. إذ يباشر الهنود المناوبة الزراعية، واستخدام الأسمدة، وضم أراض جديدة من الأدغال المستصلحة؛ وتطور الري. تشهد أنصاب وأعمدة من الفولاذ والبرونز، محفوظة حتى الآن، تشهد بوضوح على المستوى الرفيع لتقنية هذا العهد. تنحت المعابد في الصخر، الأمر الذي يتطلب يداً عاملة غفيرة، وحسابات معقدة وعملاً ماهراً بالحجر. كانت تجارة الهند واسعة، بحرية وبريّة؛ تتاجر مع كبار بلدان العالم المتمدن، تصدر النسيج، الزخارف، الجواهر، العطور، وتستورد معادن غير مطرّقة، معادن ثمينة، أحصنة، عبيداً. كان الهنود بارعين بصنع النقود الذهبية.

لكن أزمة النظام العبودي ذرت قرنها، وانبثقت علاقات اقتصادية جديدة. إذ بدأ عمل العبيد الموظفين في الإنتاج. وعثر الكثير منهم على استخدام في القصور الملكية والنبلاء والأغنياء. وفي تلك الحقبة، يتبدى ميل لاستخدام الناس الأحرار، أعضاء المشاعات: إنه الإقطاع. وعزفت الدولة أكثر فأكثر عن أداء ديونها عيناً أو نقداً، بل استلم النبلاء أصحاب العبيد، والكهنة وكبار الموظفين أسهماً من الأرض؛ والضرائب المفروضة على المشاعات لم تعد تعطى للدولة، بل للأشخاص الذين تخلت لهم الدولة عن حقوقها. وشيئاً فشيئاً امتلك هؤلاء الأشخاص الأرض نهائياً واستعبدوا الفلاحين الأحرار؛ الأمر سهل فكل الوظائف الممنوحة تصير وراثية. وكثير من القبائل التي كانت متخلفة (بخاصة في الهند الوسطى والجنوبية) بدأت تجني عند انهيار الممالك العبودية من خيرات الحضارة وتدخل أبوابها، أي تنتقل إلى محطة جديدة هي الإقطاع دون إن تعرف النظام العبودي؛ في هذه الحالة كانت طبقة الإقطاعية تصدر من الأرستقراطية القبلية.

لدى دراسة التشكيلية الإقطاعية، ليس لنا أن نهمل دور المعابد والصوامع البوذية الذين كانوا يتلقون هبةً أملاكاً واسعة مع المشاعات التي كانت تعيش فيها. فيتحول الكهنوت البوذي رويداً رويداً إلى إقطاعيين، ويشكل أعضاء المشاعات التابعة لهم طبقة من الأقنان.

بقدر استعباد الفلاحين الأحرار، يتبدل وضعهم الاجتماعي: كانوا سابقاً من الشرائح الوسطى فصاروا من الدنيا.

تنبثق تبدلات هامة في المذهب البوذي. فقد تبين أن محاولات جعل البوذية دين الدولة أمر غير مجد، لأن الدول الكبرى العبودية، التي تخدم إيدلوجيتها، بدت هي ذاتها

غير وطيدة. وكان مكان انتشار البوذية بخاصة، في المدن؛ وبقي الريف أميناً للعبادات القديمة. إن اُضطرار البوذية على العيش مدة طويلة بجوار هذه التقاليد، فرض عليها التحول التدريجي. ففي ماهايانا، البوذي، الرجل الذي يتبع طريق الخلاص، يضحي إلهاً كلي-العظمة تبنى له معابد رائعة؛ ويُسعى إلى مفاهيم جديدة:الجنة والنار، وتمارس طقوس فخمة، إلخ... وينتهي الامتداد الأعظم للبوذية مع مرحلة الكوشان. ويتقلص دورها في أيام ملك غويتا. تتبدى مقاومة الإقطاعي أكثر فأكثر؛ وتأتي هذه العبادات لتستبعد البوذية. إن هذه العبادات هي نفسها التي ولدّت هذا الحشد من المعتقدات الدينية التي تسمى عادة هندويسم، الدين الأكثر انتشاراً في الهند.

الشرائح المغلقة

في أثناء القرون الأولى بعد الميلاد يتشكل تدريجياً نظام الشرائح المغلقة. إنها الشرائح المغلقة بشكل مطلق، التي تشغل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية موقعاً متميزاً بالعرف والقانون؛ كان الانتساب إلى إحدى هذه الشرائح بالولادة. وبينما ولدت الفئات أو ***Varnas*** على أثر تفاقم الظلم الاجتماعي، صدرت الشرائح المغلقة عن تقسيم العمل.

فالتقسيم الاجتماعي للعمل حتى بشكله البدائي، أفرز فئات مختلفة من الناس، يركن كل منها إلى دائرة نشاطه. طالما استمرت المشاعة الريفية وعاشت بقايا قوية من إيديولوجيا القبيلة، لن يتيسر لهذه الفئات أن توطد أقدامها إلا بالإفادة من تنظيم وإيدولوجيا المشاعة. يقرأ هذا في الاسم الذي تحمله هذه الفئات الاجتماعية: "جاتي ***Jati***" التي تعني ذرية، قبيلة أصل، ويبدو أن كلمة ***Caste*** البرتغالية هي الترجمة الأكثر دقة.

ليس لأحد أن يتزوج من شريحته المغلقة؛ مبدئياً تمارس كل شريحة مهنة محددة ولا يجوز الانتقال إلى أخرى؛ ولها إدارتها الداخلية الخاصة بها؛ التضامن المتبادل متوجب على الأعضاء، الذين يقومون جماعة بالتعبد الديني، ويسيرون دورة العمل، ويراقبون قواعد العلاقات القائمة بين الأعضاء مختلف الشرائح، إلخ..كانت الشرائح تولد في إطار الظلم الاجتماعي، بينما الفئات موجودة قبلاً. فليس لها إلا أن تشغل وضعاً اجتماعياً متناظراً. عادة، تتشكل الشرائح بداية في أحشاء الفئات التي تضم الشعب الكادح: الوسط والعامة؛ بين البراهميين، لا تتطور الشرائح مطلقاً. تشمل الفئات الوسطى شرائح يحرث أعضاؤها أرض الدولة ونبلاء العبودية ويخدمونهم كعمال مستقلين أو مختصين مهرة: مزارعين، تجار، صناعيين مرتاحين، إلخ. والشرائح التي كانت بخدمة الشرائح الزراعية (أي الرعي، حرف قروية، إلخ.)، وتلك التي تمارس في المدن مهناً أقل امتيازاً (حدادين،

فخارين، نساجين،إلخ.) كانوا من الفئات الدنيا، العوام.

القبائل المتخلفة والمنتشرة في مناطق قليلة الإنتاج من وجهة الاقتصاد، تفتقد إمكانية الانتقال إلى مرحلة أرقى اقتصاديا. كانت مكتفية بالعيش من الصيد، القنص، اقتصاد الغابة، إلخ. وإن رحلت إلى المدن أو القرى واستقرت تعمل الأعمال الأقل تخصصا، الأقل أجوا، والأكثر امتهانا (مياوم، كناس شوارع، جامع قمامة، حفار قبر، جلاد، إلخ.). شكلت هذه الثلل الاجتماعية شرائح عديدة "المنبوذون" لا يجوز لأعضاء الشرائح "النقية" أن تتعامل معها؛ وإلى هؤلاء "المنبوذين ربما انضم العبيد السابقون، الذين كان يقيمهم السادة على أراضيهم. والطبقات المستغلة، المهتمة كثيرا بعزل العمال، كانوا يشجعون ويدعمون مختلف الشرائح المغلقة، بخاصة أولئك الذين لم يرثوا شيئاً، الأكثر استثماراً: المنبوذون".

حضارة الهند القديمة

إننا مدينون لشعوب الهند مساهمتهم الجليلة في الحضارة العالمية. فقد أعطى علماء الرياضيات العالمَ نهج كتابة أعداد مقبولة بعامة حتى اليوم (نهج أو قيمة الرقم في العدد تتعلق بمكانه)، كذلك بعض الأرقام (بخاصة الصفر) التي اقتبسوها من شعوب الشرق الأدنى والمعروفة في أوربا بصيغة لا تتغير وباسم "أرقام عربية". وكان الهنود القدماء يعرفون استخراج الجذور المربعة والمكعبة، ويحسبون بشكل دقيق العدد π، وكانوا يدركون القوانين الجذرية لعلم حساب المثلثات. واقتبست الشعوب الأوربية للقرن الوسيط عناصر الجبر من العرب، لكن هؤلاء يعترفون أنهم تعلموا هذا من الهنود.

لقد ابتكر سكان الهند القدماء الكتابة التي تشكل الأساس للشكل الخطي لدى اكثر شعوب الهند الحاليين. ومنذ القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وضع عالم النحو والصرف البانيني أسس علم اللغة، المجال الذي قدم فيه الهنود نتائج ضخمة.

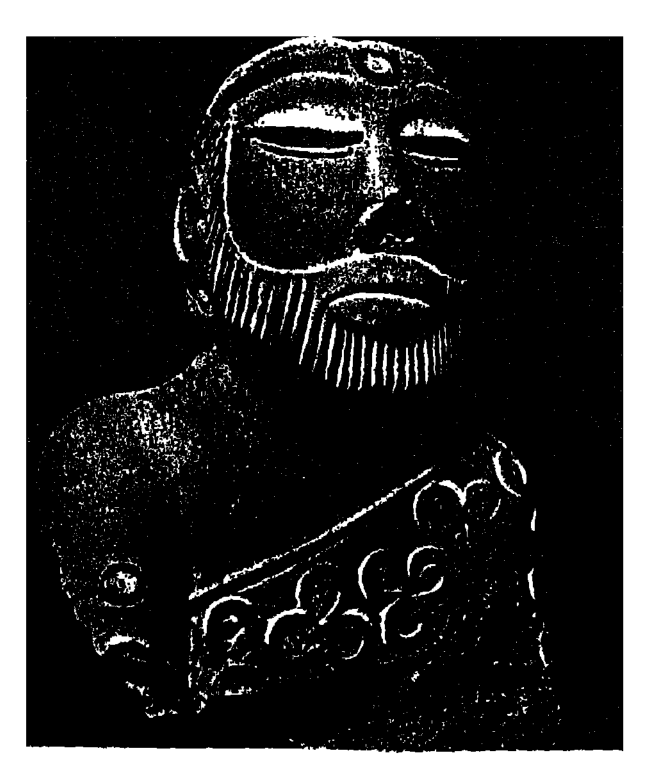
كما مهر هنود العصر القديم في الفنون التشكيلية: الحفر والجداريات. وثمة رسوم رائعة من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد محفوظة في معبد أجانتا المحفور في الصخر (دولة حيدر أباد).

أدب الهند القديمة غني ومتنوع. وفي القرن الأول بعد الميلاد كتبوا بالسنسكريتية، لغة أدب الهند متعددة الشعوب مهاراتا ورامايانا، قصائد ملحمية تقص مآثر الأبطال وتتضمن العديد من الخرافات القديمة جدا، تستلهم شعراء وفناني الأجيال السابقة. ومنذ زمن قديم أو بعدئذ، ربما، أدركوا ودبجوا لأول مرة قوانين، أشهرها ذلك المسمى "قانون مانو *Lais de Manou*"، نسبها كاتبها لسلف خيالي؛ مقولات في مختلف فروع العلم تعيش حتى اليوم؛

اللغة الشاحبة المستخدمة في كتابة الأعمال الأساسية للأدب البوذي. ولقد تفتح الأدب السنسكريتي في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد، يوم أزهرت موهبة كوكبة من ألمع الكتاب،أشهرهم الشاعر والمسرحي كالدازا

منذ زمن سحيق _ربما منذ النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد)، ولدت في الهند فلسفة مادية ترفض اللاهوت والمثالية. كان روادها يؤكدون واقعية العالم المعاش ويرون في وعي الحواس المصدر الوحيد للمعرفة والوسيلة الوحيدة للإثبات والبرهنة. وينكرون خلود النفس أو الروح، التقمص والآخرة، ويهزؤون من الطقوس والأضاحي.

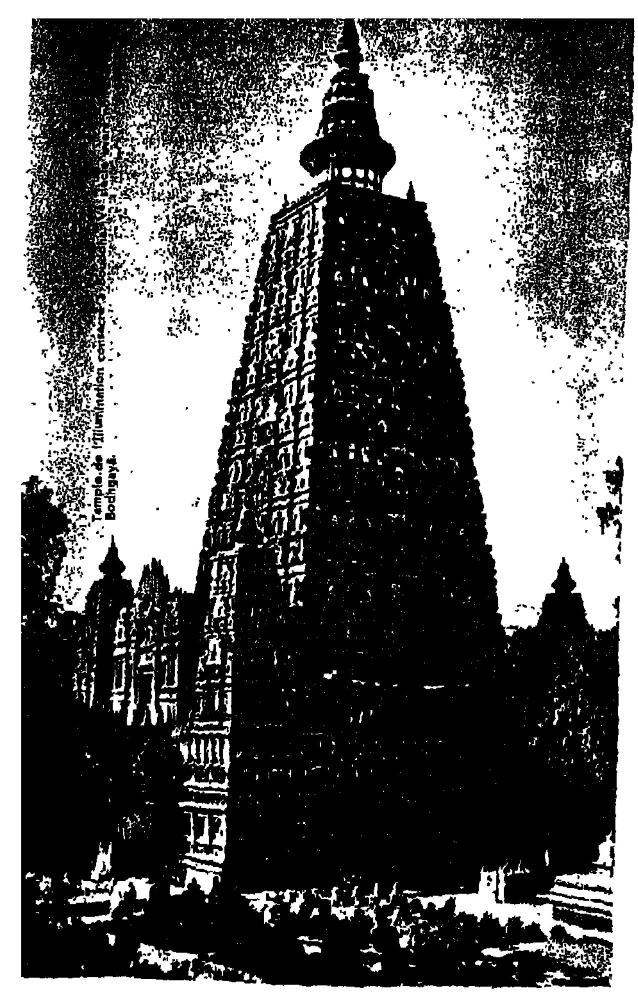
كما نقل عدد كبير من المهاجرين المستقرين في جنوب-شرق آسيا (سيلان، الهند الصينية، وأندونيسيا) إلى أبناء البلد إنجازات الحضارة الهندية. وقد أفادت شعوب آسيا الوسطى والشرق الأدنى من الروائع التي خلقتها الهند، بلد الثقافة القديمة المتألقة.



كاهن هندي



تمثال بوذا



معبد بوذا

الفصل التاسع عشر

الصين

المناهل

إن دراسة التطور الاجتماعي والاقتصادي للصين القديمة صعب بطبيعة الكتابات التي وصلتنا. كثير من النصوص ضاع نهائيا، أو تعرض لكثير من التحوير أو التحريف، بل التفسير، إلخ.، انسجاما مع مصالح الشرائح الحاكمة، ويستحيل غالبا تجديد الأصل.

غير أن أسفارا هامة لتاريخ الصين القديم مثل "كتاب الأشعار"، "كتاب الحوليات"، و"حوليات ملكة لو"، المنسوبة تقليديا لكونفوشيوس، تلائم كما يبدو النماذج الأولى السابقة. مثل "شي-كنج"، المجموعة التي تتضمن أكثر من ٣٠٠ أغنية شعبية ودينية، أبدعت بين القرنين ١١-٧قبل الميلاد. هي منعكس كدح، أفراح وأتراح فلاحين، أعضاء مشاعات، احتجاج على الموظفين الكواسر، أضمومة من الدوافع الوطنية، مشاهد حياة يومية لبسطاء الناس ونبلائهم.

السفر الأول في تاريخ الصين العام حبره قلم أكبر علماء العصور القديمة سوما-تسيو (بين سنتي ١٤٥-٩٠ قبل الميلاد). وهو ابن أحد فلكيي القصر، رحل كثيرا عبر البلاد، مسجلا بعناية بالغة التقاليد، جامعا الوثائق وكل ما يمكن أن يجلو له أعراف وعادات سكان الصين والبلدان المجاورة . كانت "مذكرات تاريخية" عمل حياته كلها. عمل عن حقبة تبدأ من الإمبراطور الخرافي هوانغ-تي حتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد؛ يتضمن السفر ١٣٠مجلدا مقسمة إلى خمسة أبواب: حياة الأباطرة، علم الأنساب وعلم تسلسل الأحداث تاريخيا، معلومات مختلفة حول الطقوس، العبادة، الري، النقد، الأسعار، التجارة، استغلال الأرض، حياة الأمراء، وحياة الأشخاص العظام. في هذا السفر يوضح سوماتسيو شجبه للنظام القائم. ونقرأ في هذا العمل أنباء تصدر من أسانيد غير موجودة لدى أحد.

وقصة آل هان ***Han*** الذين سبقوا (تستيان-هان-شو) التي كانت، بشكل ما، تتمة

لـ"مذكرات تاريخية"، كانت قد كتبتها في القرن الأول بعد الميلاد أسرة بان ***Pan***، حسب سوما-نسيان، المستخدمة نموذجا لكل التواريخ الرسمية؛ يتضمن هذا العمل ١٢٠ مجلدا. وفي القرن الخامس بعد الميلاد نشر فان إي ***Fanye*** تاريخ الـ"هان" اللاحقين، في ١٢٠ مجلدا أيضا.

نجد معلومات تلخيصية ثمينة في العديد من الأعمال الفلسفية مثل مانسيوس، هانفي-تسو أو في أعمال رجال السياسة مثل كوانج، ولدى المؤلفين المختصين بدراسة الأعمال الأدبية للعصر القديم، وأخيرا، في الأعمال الفلسفية.

إن معطيات علم الآثار والنقوش ذات أهمية كبرى بدراسة تاريخ الصين. وأرض الصين لم تسبر حتى الآن سبرا كافيا لكشف الآثار؛ فتنقصنا معطيات لكي نطرح منهاجيا تاريخ المجتمع السابق على ظهور الطبقات الاجتماعية. ومحطات يانغ-شاو وتانغ-تسي-إي التي تؤرخ لمرحلة وسيطة بين العصرين الحجريين الوسيط والحديث واكتشفت حوالي العام ١٩٢٠، تقدم فائدة فريدة. يفترض أنها تعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. وفخاريات مطلية وجدت في يونغ شاو تمثل عدة تشابهات مع التي اكتشفت في آنو (تركمانيا) وتريبوليه؛ يثبت هذا أن مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي لهذه الشعوب كان متماثلا تقريبا.

بشأن تاريخ حقبة آل شانغ (يين) تزودنا حفريات مدينة شان (قرب المدينة الحالية آنيان) بمعطيات هامة عديدة؛ فقد عثر، بين خرائب الورشات، على قصور، معابد ومساكن خاصة، وكثير من أغراض الاستعمال الخفيف، وكتابات مرسومة على العاج، على القواقع وعلى مشربيات البرونز. وقد فكت رموز هذه النصوص. كما أكدت دراية النقوش الموجودة في أرشيف آنيان في كثير من النقاط ما تقصه علينا الأعمال الأدبية.

تأتينا التنقيبات المتتابعة في الصين بعد ظفر الثورة الشعبية كل عام، خدمة للعلم، بالعديد من المعلومات حول تاريخ البلاد القديم.

شروط طبيعية. سكان بدائيون

إن الأرض التي رأت ولادة حضارة الدولة الصينية تمتد على طول وادي هوانغ-هو في مجراه الأوسط والأدنى. فمنذ ٤٠٠٠ عام، كان سهلا وحيد الشكل، محدودا من الجنوب بالجبال ومن الشمال الغربي بهضبة أوردوس ***Ordos***؛ كانت تربته الغرينية الغنية بالطمي

شديدة الخصوبة. كثيرة المستنقعات، تشقها الأنهار وتغطيها الغابات الكثيفة-العذراء.

في الشمال وفي الشمال الغربي كانت تنبسط سهوب منغوليا القاحلة؛ وفي الجنـــوب، خلف وادي يانغ-تسو-كيانغ، تبدأ المنطقة الجبلية والحراجية للصين الجنوبية. نتيجة هــذا، بقيَ الصينيون القدماء آلاف السنين معزولين عن مواطن الحضارة القديمة.

كانت غزارة المياه تفرض الري، تصريف المياه، ومصارعة الفيضانات. لــذا كــان الصينيون ينسبون لبطل أساطيرهم البدائية مآثر تتعلق بترويض الانهار، بناء السدود وحفر الأقنية.

والأرض الصينية مسكونة منذ أقدم العصور. وفي مغارة شو-كــو-تيــان (قــرب بكين)، اكتشفت بقايا إنسان الصين الذي بشكله الخارجي، يشبه إنسان جاوا. لكـــن إنســـان الصين كان قد عرف النار، وكان يصنع أدوات ضخمة من الحجارة ويقنــص الحيوانـــات الضخمة.

في الطبقات العيا لهذا الكهف ذاته، عثر بي-أوان-تشونغ على بقايا إنسان يشبهنا بدنيا وكان يعيش بين الألف ٢٥ و٥٠ قبل الميلاد.

أخيرا، كان بناة ثقافة العصر الحجري الحديث في يانغ-شـــاو بــدون شــك جــدود الصينيين. وحضارة أولئك الذين اكتشفت بقاياهم في طبقات كهف شو-كو-تيان تعود إلــى العصر الحجري الأعلى. وأدوات الكوارتز، والقواقع المجموعة في شو-كو-تيان تكشـــف وجود شكل بدائي من التبادل. بهذا الصدد، دور القواقع هو الذي يوجز أو يحدد، لأن تعبير "قوقعة" موجودة في الهيروغليفية وتشير إلى مقولات "نقد"، "تجارة"، "ثروة"، إلخ. والعصــو الحجري الحديث والحقبة الوسيطة بين هذا الأخير والحجري الوسيط معكوسة في الصيـــن في حضارة يانغ-شاو متميزة بخزفيات عديدة الألوان، وحيدة الصنع. وكان يـــانغ-شـــاو، المجتمعون في تعاونيات عائلية، يعيشون في كهوف محفورة في الأرض ويحفرون الأرض بالمنكاش (ويبذرون الذرة البيضاء والصفراء)؛ يصطادون، يربـــون الكـــلاب، الخنـــازير، الأحصنة ويأسرون حيوانات وحشية. وفي محطات يانغ-شاو الأحدث (الألف الثانية قبـــل الميلاد) تظهر أسلحة برونزية: سيوف، خناجر.

كانت القرى مبنية على التلال ويحيطها سور ترابي ليحميها من هجوم الأعداء. ومــن الملفت العثور غالبا على تعبير "تلة" في الهيروغليفية التي تشير إلى أسماء المدن القديمة.

إمبراطورية آل شانغ أو آل يين

إن انتشار استخدام الأدوات النحاسية والبرونزية، وظهور زراعة الأرز، والقزازة (تربية شرانق الحرير الخام) أفضت إلى تفكك نظام العشير، إلى تشكل الطبقات الاجتماعية وإلى ولادة دولة العبودية القديمة في أيام حكم آل شانغ (آل يين) (١٧٦٦-١١٢٢). كانت هذه المملكة تشغل وادي السرير الأوسط لهوان-هو من حيث ينعطف النهر ويتجه نحو الشرق.

ثمة عدة مصادر تخولنا تمييز النظام الاجتماعي والاقتصادي. في أساس الاقتصاد كان يوجد، كما يبدو، نكش الأرض بالمنكاش. والتربة الغرينية، الناعمة والخصبة، المشغولة بأدوات بدائية من الخشب والحجر، تعطي أيضاً موسماً وفيراً. فضلاً عن الزراعة، استمروا بممارسة الصيد والقنص. وتشير آنيان الإلهية أن القناصين أثناء الاحتيال على الطرائد لحشدها في مكان ما (فخ أو كمين، مثلاً)، كانوا يقنصون مئات الحيوانات من مختلف الاحجام: أيائل، خنازير، إلخ.

كان التدجين يلعب دورا هاما في الاقتصاد. وكان الناس يربون الكبير والصغير من الدواب ذات القرون، والخنازير، والكلاب والطيور. والنقوش التي يمكن أن نقرأها حول المواد المقدمة كضحية، تشهد على توفر الدواب. يقص أحد هذه النصوص قصة مذبحة من ٣٠٠بقرة و١٠٠خروف.

كانت المهن قد بلغت إتقانا واسعا. فالبرونز يستخدم في صناعة الأسلحة، وأوان شعائرية، وبعض القطع للعربات. وأكواب وجرار وأوعية أخرى مصنوعة على طريقة صنع الفخار، والغضار الأبيض من كمية استثنائية، كانت تشوى بعدئذ وتطلى، تشهد على تطور الخزف. والخيوط الحريرية المجتناة من الشرانق كانت تستخدم في النسيج. والإتقان الذي يميز كثيرا من مواد تلك الحقبة، يتطلب تدريبا صعبا وطويلا، الأمر الذي يبرهن على انفصال المهن عن الزراعة. وفي العاصمة، كان ثمة أحياء يسكنها الصناعيون فقط: فخارون، سباكون، نحاتون، غزالون، نساجون، وسواهم.

المصادر التي لدينا تشير إلى وجود، في إمبراطورية الشانغ، مختلف عينات العبيد. وكانت الحروب هي التي تمكن من توفرهم.

وتطور القوى المنتجة، تكديس الثروات وظهور العبودية ولدت في أحشاء العشير قلة

من الأسر المتميزة، التي تشكل الطبقة المتنفذة، المعارضة لجمهرة أعضاء المشاعة. وشيخ قبيلة أوانغ صار رئيسا وراثيا للدولة. وتدل دراسة مقبرة آنيان على وجود في مجتمع الشانغ فارق واضح في الثروة. وبين كثرة القبور الموضوعة رمس متواضع، اكتشفت صوامع تنغلق على أسلحة ومشربيات من البرونز الرائع، وأغراض من حجر اليشب. والعبيد مدفونون إلى جانب أصحابهم. فهنا أيضا اكتشفت لحود للأوانغ، مغلقة على كنوز خيالية. والمساكن المكتشفة تشهد أيضا أن الناس كانوا منقسمين إلى طبقات اجتماعية مختلفة في الملك.

كان في رأس المنتجين في مجتمع الشانغ الفلاحون المجتمعون في مشاعات جوار تحافظ على بقايا ثابتة من نظام العشير. وما تزال طريقة استغلال أفراد المشاعات غامضة حتى الآن.

في رأس الدولة كان الأوانغ (الامبراطور) الذي يجمع وظيفتي شيخ القبيلة وكاهنها- الأكبر. ورويدا رويدا، يحتل سمات الطاغية الشرقي، العاهل المطلق، مالك الأرض كلها، ممثل السماء لدى الناس. حول الأوانغ يلتئم وجوه الأرستقراطية، أفراد الأسرة الإمبريالية وأسر أخرى نبيلة من البلاد. من بينهم يعين موظفو الحكومة، والجنرالات، وغيرهم.

والملاحظات الأولى الفلكية، الضرورية لتقويم الأعمال الزراعية، وضعت في عهد الشانغ. وأحد أهم الاستحقاقات في هذه الحضارة هو ابتكار الكتابة الهيروغليفية، المنسوبة للإمبراطور الخرافي فو-هي ***Fou-Hi***؛ والتي اشتقت منها الكتابة الصينية الحديثة.

مفاهيم الامبراطور الدينية للشانغ تصدر من الإحيائية، المرتبطة حميميا بعبادة الأسلاف. فالجدود، بخاصة جدود الاوانغ، كانوا غالبا ما يمثلون بشكل حيواني، وهذا من بقايا الطوطمية. مثلا فو-هي كان بجسد أفعى، بينما كان رأس مبتكر الزراعة شن-هونغ، رأس ثور. وكثيرا ما يسعون إلى السحر، ويعطون بخاصة كل أنواع التفاسير لشقوق ظهر السلحفاة المرمية في النار.

إمبراطورية آل تشو

في غرب دولة نهر وي ***Wei***، المتفرع من هوانغ-هو، كانت تعيش قبائل التشو التي من حيث الخصائص الأثنية واللغوية، كانت تشبه، كما يبدو، آل الشانغ. في اقتصاد تشو، كانت الزراعة تلعب دورا واسعا، بينما كان الصيد والقنص أقل قيمة. وكثيرا ما كان

أباطرة الشانغ يستدعون قوات التشو العسكرية لتقاتل قبائل الشمال-الغربي الرحل.

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر قبل الميلاد خارت إمبراطورية الشانغ. تتحدث المعطيات النادرة التي بين يدينا حول هذا الموضوع عن غضب الشعب المرهق بالضرائب، ضحية الاضطهاد الفظيع والنفقات المجنونة لبناء القصور، واحتفالات الأباطرة وحاشيتهم.

وفي العام ١١٢٢ قبل الميلاد، غزا قائد التشو أو-أوانغ بجيوشه إمبراطورية الشانغ او، في معركة طاحنة في سهب موإي (شمال-غرب هو-نان) انهزمت قوات آخر عاهل من الأسرة.واستنادا إلى الرواية الموروثة، كانت المذبحة أشبه بالمطارق الخشبية التي تسحق الذرة البيضاء السابحة في مستنقعات الدم. وبعد مقاومة قصيرة خائرة، ألحقت أرض الشانغ بدولة التشو، وسقط رهط وفير من رعاياها في أتون العبودية. ونهبت عاصمة الشانغ.

وهكذا تأسست، في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الحادي عشر قبل الميلاد، إمبراطورية واسعة في الشرق الأقصى تشغل تقريبا وادي هوانغ-هو، أو بالضبط سريره الأوسط والأدنى، وحوض هان والسرير الأوسط والأدنى ليانغ-تسو لغتهم وتآلفت القبائل القاطنة هذه البقاع تدريجيا مع الصينيين وقبلت حضارتهم.

من القبائل الرعوية العديدة التي كانت تعيش راحلة في شمال وشمال-غرب إمبراطورية توطدت قبيلة الهوان بخاصة في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، وتوحدت مع رحل آخرين، وغزت عدة مرات صين التشو. لكن القبائل المستقرة في جنوب يانغ-تسو وسوتشوان حافظت على استقلالها. ومنعهم أسلوب حياتهم الفريد والفوارق اللغوية من الذوبان في الشعب الصيني.

على ذلك، لم تبق دولة التشو المستبدة بعيدة مدة طويلة عن التشقق. إذ كان أباطرتها يوزعون بسعة العبيد والأملاك على ذويهم وأسرهم، بل سلطوهم على مشاعات الناس الأحرار. وسرعان ماتفتت الإمبراطورية إلى أكثر من ١٥٠٠ دولة صغيرة خاضعة نظريا فقط للإمبراطور. أهمها، بدءا من القرن السابع قبل الميلاد، شان-تونغ، شان-سي، تشو، هو-نان وهو-بي. كانت هذه الدول تتحارب باستمرار لكسب العبيد، وضم الأراضي وتأمين السيطرة.

مختلف مراحل تاريخ الصين القديمة

حسب مؤرخي الصين الإقطاعية، انقسم تاريخ الصين القديمة بعد زوال إمبراطورية الشانغ إلى ثلاث حقب، مؤسسة على تعاقب الأسر: تشو (١١٢٢-٢٤٧قبل الميلاد)، تسين (٢٤٦-٢٠٧قبل الميلاد)، وهان (٢٠٦ قبل الميلاد حتى ٢٢٠ بعد الميلاد. وعلى غرار مؤرخي الصين للعصر الوسيط، الذين سعوا إلى تفسير أحداث قديمة جدا بروح عصرهم، رأى المؤرخون البورجوازيون أن عهد تشو-هان كان عهدا إقطاعيا. يتمثل هذا الموضوع بوضوح في كتاب المؤرخ الكبير المختص بشؤون الصين، هنري ماسبارو (الصين القديمة). يجب أن لا يغيب عن ذهننا أن ماسبارو، المؤرخ المثالي البورجوازي، لا يرى الإقطاع أبدا تشكيلة اجتماعية واقتصادية ذات قوى منتجة محددة وعلاقات إنتاجية ملائمة. إنما كان يفهم الإقطاع علاقات حقوقية تحدد الروابط بين سادة وأتباع وتنجم ومن تجزئة البلاد التي، كانت موحدة سابقا لكنها تفككت إلى إقطاعات عديدة تعيش نهجا هرميا متماسكا إلى هذا الحد أو ذاك، تحت سلطة الإمبراطورية الشكلية إلى هذا الحد أو ذاك. إن أعمال ماسبارو، بوتييه، فرانك، وباحثين بورجوازيين آخرين، الثمينة جدا من حيث توثيق ودقة بعض الملاحظات، تجعلنا نفهم أن ليس ثمة تطور اجتماعي في الصين وأن الإقطاع موجود في الصين على مدى تاريخها. على هذا الأساس ولدت فرضيات رجعية، تفرز العرقية، تقول إن الصينيين غير جديرين بالتقدم وهم مدينون للأجنبي بارتقاء حضارتهم.

إنما بفعل أعمال الباحثين الماركسيين الصينيين والسوفيات، رفضت ترهات النظام الإقطاعي القديم في الصين. فاستقر، دونما جدل، أن المجتمع الصيني تطور من النظام المشاعي البدائي إلى الإقطاعية، عبر شكل إنتاج مبني على استغلال العبيد.

صحيح أن حالة العلم الراهنة لم تسمح بعد بتأريخ العهود تأريخا دقيقا وصحيحا. وكثير من العلماء الصينيين يلحون حول الطبيعة الإقطاعية لمجتمع الهان وحتى تشو. مع ذلك ثمة أسباب للتفكير أن عهدي تشو وتسن يقع في قمة نظام العبودية، بينما يسجل عهد هان تفككه وولادة الإقطاع.

النظام الاجتماعي والاقتصادي لإمبراطورية التشو

يتميز عهد التشو بتطور سريع للقوى المنتجة. فحوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد يكتشف الصينيون الحديد، رغم تأخر استخدامه على مداه إلى حقبة أحدث، بين القرنين

السادس والرابع. وفي الحقول يبذر غالبا الرز. والانتقال إلى حرث الرز "المائي" يتطلب وسائل ري أكثر إتقانا. إنها زراعة معقدة جدا تتطلب الكثير من العمل والمهارة. وتبدأ الزراعة باستعمال محراث خشبي بدائي؛ وتظهر حدائق ومروج، وتتسع زراعة التوت، مع تربية دودة الحرير التي تتغذى بها.

التنقيبات التي حققها بحاثة جمهورية الصين الشعبية على أرض إمارة تشو القديمة، دلت أن استخدام البرونز اتسع في الحياة العادية وفي الإنتاج. والمشربيات البرونزية، بصناعتها الحلوة، مزدانة غالبا بنقوش دينية أو توثيقية. وصكت النقود. وأتقن نسج الحرير، النجارة-الموبيليا، والفخار ومهن أخرى. وفصلت، في أيام التشو، الصناعة نهائيا عن الزراعة . وعلى أثر تقسيم العمل، تتطور التجارة والمبادلات النقدية، وتتضخم المدن مثل هو *Ho* (قرب المدينة الحالية سي-آن)، ولو-بي (حاليا لو-يانغ)، إلخ.

في أيام ملك التشو استمر تشكل طبقات المجتمع العبودي. ولما غزا التشو إمبراطورية الشانغ، أهدى أو-أوانغ عائلاته عبيدا من أبناء البلد. وتحدثنا نقوش على أواني برونزية عن تطور دولة العبودية. "أهبك، نقرأ في أحد هذه النصوص للقرن الحادي عشر قبل الميلاد، من هذه الضواحي، ٦٥٩عبدا، غلمان اصطبلات، حراثا وندماء. أمنحك قادة وشيوخا من البربر، أكثر من ١٠٥٠عبدا.".

كانت الحروب بين الولايات تزود البلاد بالعبيد. واستنادا إلى سوما-تسيان، عشرات ألوف الرجال اقتيدوا عبيدا في أثناء هذه النزاعات. وتطور التجارة، والنقد وظهور الربا وطدت كلها في البلاد العبودية كديون. وكانت إدانة الناس الأحرار بتهمة انتهاك القوانين مصدرا آخر للعبيد. كان المدان يصير عبدا موقتا أو إلى الممات؛ وفي ظروف معينة كانت العبودية تطال ذرية المحكوم كلها. فعندما تكون التهمة ارتكاب جريمة، لا يكتفي بعبودية الفلاح وحده، بل كل أسرته، وكضمانة أكيدة، جيرانه أيضا.

بما أن الزراعة الصينية تتطلب من الفلاح معرفة واسعة وكثيرا من الممارسة، كان عمل العبد هنا ضيقا. فكانوا يفضلون استخدامه في بناء السدود، في حفر الأقنية، في تشييد القلاع، وتربية الدواجن، وفي المناجم. وحسب بعض المعلومات، كان العبيد يعملون ندماء. فسعة المعنى لكلمة "عبد" تعكس، كما يبدو، ليس فقط تنوع أصولهم بل أيضا تنوع الأعمال التي يكلفونه بها.

كان اقتصاد المجتمع الصيني في أيام التشو يستند إلى مشاعة الجوار، المستثمرة من الدولة والأسر الأرستقراطية. وكتابات الفيلسوف مانشيوس (القرن الرابع قبل الميلاد) هي التي أطلعتنا على هذه المشاعة. يقول:إن الأرض تقسم إلى تسعة أسهم متساوية، وهي إجمالا، تشبه هيروغليفية "تسينغ" التي تعني "بئر" لذا كل نهج تسينغ-تيان يعني "حقول الآبار". ثماني عائلات تستلم بالقرعة كل الأسهم. تستثمر كل أسرة السهم الذي استلمته، وكلهم، يستثمرون السهم التاسع الـ"كونغ-تيان" الحقل المشترك). كان هذا الأخير يحرث قبل غيره، ويخص موسمه الدولة.

في كتابات مانشيوس، إلى جانب السمة الطوباوية نقرأ مضمونا واقعيا يعكس أسلوب الاستثمار البدائي لأعضاء المشاعات. مع ذلك، ومنذ بداية عصر التشو، كما تشهد أغاني شي-كينغ، خلقت حقول واسعة تخص الإمبراطور ووجوه الموظفين حرثها وبذرها وحصدها فلاحو المشاعات المستعبدون وكذلك العبيد. وشيئا فشيئا ترك وأهمل نهج تسينغ-تيان، وفي أثناء الحقبة الممتدة من القرن السادس حتى الرابع قبل الميلاد، اختفت "الحقول المشتركة" من كل المناطق؛ وأسس بدلا عنها محاصصة عينية تصل إلى الثلث وحتى إلى نصف منتوج الحصاد. واصطدم هذا التدبير بمقاومة المشاعات الذين ضاقوا ذرعا بنير مستغليهم الغليظ. وتعكس أغنية لشي-كينغ، من قصيدة رائعة، غل الفلاحين تجاه المستغلين، والموظفين الذين يهرولون كالجرذان إلى المواسم.

"أيتها الجرذان، أيتها الجرذان، لا تقضمي قمحنا

نعيش تحت شريعتكم منذ ثلاث سنين

وأنتم لاتقدمون لنا أي خير

سنترككم بعيدا.

سنذهب إلى بقعة سعيدة

إلى بقعة سعيدة، سعيدة

وسنجد العدالة...."

كان طاغوت المستعبدين يثيرون غالبا تمرد الجماهير الشعبية.

تصدر لطبقة المهيمنة في صين التشو من المحيط المباشر للإمبراطورية (أسرته)، وكذلك طغاة كبار وصغار ونبلاء الدم. فوشائج القربى كانت تلعب دورا واسعا لتحديد

درجة النبالة. انعكس هذا في الأدب، وفضلا عن الألقاب التي تعين وظيفة ("هو": رامي السهم)، ثمة أيضا الكثير مما يشير إلى درجة القرابة ("تسو":ابن)، بوو *Pouo*": خال أو عم، إلخ). وكان ممثلو السلطة الحاكمة يرتدون ألبسة فخمة، ولهم حاشية وحرس شخصي. ويتلقون من الإمبراطور أو من قائدهم المحلي أرضا يستطيعون أن يستغلوها وتفرض عليهم الضرائب العينية. هذا إذا لم تقع الهبة على الأرض والفلاح.

وشيئا فشيئا يحرث الأرض وينميها جماعة من الناس الجدد: هم التجار والمرابون؛ قانونا، ليس لهم على الفلاح سوى حق الحراثة، اما اقتصاديا كانوا أصحاب نفوذ واسع. الصراع بينهم وبين الأرستقراطية، إحدى شرائح الطبقة المسيطرة، وشم كل تاريخ الصين القديم.

كان نظام إمبراطورية التشو السياسي استبداديا من النمط الشرقي، بمبدأ ملكية الدولة للأرض واستغلال المشاعات. "إن المشاعات القديمة، يكتب انجلز، حيثما حلت، تشكل منذ آلاف السنين أساس شكل الدولة الأكثر تخلفا وفظاظة، الاستبداد الشرقي[٤] ... وكانت الدولة التي تشكلت بعد تمزيق الصين في بداية الألف الأول قبل الميلاد، موضوعة تحت وصاية الطغاة الذين، بعون جيوشهم وإدارة عريضة، كانوا يمارسون سلطة الطبقة السائدة على المشاعات وعلى العبيد. وكانت دول الصين القديمة، كدول الشرق القديم الأخرى تغطي، حسب تعبير ماركس، ثلاث وظائف: نهب الرعايا المحلية، نهب الشعوب المجاورة وإدارة الري، التي بدونها لاوجود لأي منتوج.

صراع من أجل السيطرة. تنامي نفوذ مملكة تسين

في أثناء الحروب التي لا حصر لها، تناقصت الدول كثيرا، وحوالي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. لم يكن قد بقي منها سوى عدد ضئيل. كانت خمس دول الأوسع والأعتى تتصارع على السلطة باستمرار. وخلال هذا الصراع، برزت سلطة دولتين: دولة التسين ودولة التشو. كانت مملكة التسين تشغل تقريبا أرض إقليم شان-سي الحالية. كانت دولة غنية، لأن تجارتها كانت رائجة مع القبائل، تشتري منهم العبيد، الدواب، الجلود وتبيعهم الحديد، الحرير، الملح والمنتوجات الحرفية. ولقد قويت التسين بخاصة بعد

---

[٤] - ف.انجلز، انتي-دهرينغ، ص٢١٣.

ممارسة إصلاحات شانغ إيان، أحد رجال السياسة الأعظم في المملكة، إصلاحات أمكن تنفيذها بتطور المبادلات التجارية والنقدية وباندفاعة الاقتصاد. أهم هذه التدابير إلغاء نهج "تسينغ-تيان" (٣٥٠ قبل الميلاد)، ووضع ضريبة عينية وإجازة بيع وشراء الأرض بحرية. وهكذا دفع شانغ إيانغ إلى الأعلى قوة التجار والمرابين (النبلاء "الجدد")، وأمكن إحياء أراض كانت عذراء.

لقد أفضى إلغاء نهج "تسينغ-تيان" إلى تكديس الأرض بين يدي النبالة "الجديدة" وخراب الناس الأحرار في المشاعات. وبعد نهبهم، صار هؤلاء عبيداً. صارع شانغ. إيانغ ضد امتيازات أرستقراطية الدم القديمة وسن قانوناً، يقول إن الألقاب لا يجوز ان تعطى لأحد حسب أصوله بل حسب قيمة خدماته في الحرب. وهكذا حمى شانغ إيانغ المهاجرين الآتين من البقاع المجاورة، الأمر الذي أدى إلى نمو وبحبوحة شعبية.

لتفتيت المشاعات وإضعاف أرستقراطية الدم، اتخذ شانغ إيانغ تدابير هامة، مثلاً تذويب العائلات الأبوية وتنفيذ قسمة جديدة في الإدارة الأمر الذي قلب أراضي العشائر والقبائل القديمة. وفي هذا العهد، جندت مملكة التسين العديد من الأتباع المتطوعين من بين القبائل الرحّل. وسحبت من الناس الأسلحة البرونزية واستبدلت بأسلحة حديدية.

واتساع قاعدة طرق الاستعباد في الإنتاج، وانطلاقة الاقتصاد وتقوية الطبقة الحاكمة خول التسين العبور بجرأة إلى سياسة الفتح؛ من ثم، خلق أول سلطة ملكية متمركزة في الصين.

قامت مملكة تشو على المجرى الأوسط لنهر إيانغ تسو. اعترضت هذه الدولة الواسعة والكثيفة السكان، التي تمتلك جيشاً جراراً، اعترضت تدابير تسينغ التوحيدية، خصمها. في هذه الحالة، كانت حاجات ضاغطة تفرض التوحيد. إذ كان الصراع في أوساط الطبقة الحاكمة يمزق البلاد ويدمر قواها المنتجة؛ فلجأ الفلاحون، وقد حرموا من مصادر العيش، لجؤوا إلى الجبال والغابات وشكلوا فصائل مسلحة بذرت الرعب بين أصحاب العبيد والتجار.

فتكفلت مملكة التسين بتوحيد البلاد. وابتلعت بالتدريج الدول الأخرى.كانت الحروب تدور بقسوة غريبة. مثلاً عندما خضعت إمبراطورية التشو للتسين، أبيد جيشها المؤلف من ٤٠٠ ألف عنصر. وذبح الحكام وذووهم. وفي العام ٢٢١ قبل الميلاد، أعلن حاكم دولة تسين امبراطوراً على الصين وسمي (امبراطور تسين الأول). وتوحدت البلاد.

إمبراطورية تسين (٢٤٦-٢٠٧ قبل الميلاد).

وطد شي هوانغ-تي الملكية المركزية وخنق التيارات الانفصالية لدى نبلاء الدم الذين فقدوا دورهم منذ توحيد البلاد. قسم الإمبراطورية إلى ٣٦ ولاية ومنع ذكر اسم الممالك القديمة. وطبقت قوانين شانغ إيانغ في كل الإمبراطورية. وأدخل شي هوانغ-تي نهجا واحدا للمقاييس والأوزان لكل البلاد ووحد النقد. وألغيت الألقاب وصنف الناس الأحرار في عينتين: النبلاء والعوام. وإلى الولايات، يرسل المفتشون من قبل الإمبراطور مباشرة لرعاية وتنفيذ إرادته وتدابيره. وجمعت كل الأسلحة ليخلقوا منها أنصابا بارتفاع ١٥م لتزيين القصر الامبريالي. وتوحدت الكتابة الهيروغليفية (قبل هذا، كان لكل مملكة كتابتها الخاصة.

لقد مكن توحيد البلاد شي هوانغ-تي من تنشيط سياسته الخارجية. عبرت جيوش تسين نهر يونغ-تسو وانتشرت في أرض الجنوب الشاسعة. حتى فيتنام اعترفت بسيادة تشسين المطلقة. ولمقاومة القبائل الرحل وتقوية العلاقات القائمة معهم، شيد أعظم صرح في الحضارة القديمة: إنه سور الصين العظيم، الذي يمتد من خليج تشي-لي حتى الحدود الحالية لولاية كان-سو. وشرعوا بأعمال هامة في عاصمة تسين، هيان يونغ (قرب سي-آن).

على هذا، كانت إمبراطورية تسين سريعة الزوال. كانت الأعمال الواسعة المنفذة بأوامر شي هوانغ-تي تتطلب يدا عاملة غفيرة. وحسب الخرافة، إن لم نذكر سوى سور الصين العظيم، ٢مليون عبد وفلاح ملزمون بالسخرة، كانوا يعملون تحت رقابة ٣٠٠ ألف جندي. إن هذا العمل الشاق، والفقر بالأرض، والتعرض لخطر العبودية، والابتزاز والاغتصاب ، أفضى كل هذا إلى تمرد الفلاحين، الأمر الذي كان متوقعا في حياة شي هوانغ-تي. كانت النبالة القديمة، هي الأخرى، غير راضية، لأنها استعبدت من السلطة السياسية، دون أن تفقد نفوذها الاقتصادي وتأثيرها. وكانت رعايا الممالك القديمة يعانون الكثير من المضايقات. وبعيد وفاة شي هوانغ-تي (٢٠٩ قبل الميلاد)، انهارت مملكة تسين، بعد أن أنهكتها انتفاضات الفلاحين والعبيد، وكذلك تمردات أصحاب العبيد والأرستقراطية.

كان موت شي هوانغ-تي إمارة العصيان العام. مشى العبيد والفلاحون إلى القتال. وفي العام ٢٠٩، قاد فلاح فقير، تشانغ شانغ، من الولاية الحالية هو-نان، تلة من ٩٠٠ فلاح كانوا أرسلوا لدعم وترميم الحدود الشمالية، من ثم، عمت تمردات الفلاحين على

الأرض كلها. وأمام هذا، امتشق ممثلو الطبقة السائدة السلاح لاستلام السلطة. كان أقواهم هيانغ يو يعتمد على أراض في الجنوب الشرقي)، وموظف صغير اسمه ليو-بانغ. في أثناء الصراع، عقد هيانغ-هو وليو-بانغ اتفاقاً مؤقتاً. وبعد إخضاع الطامعين بالسلطة الآخرة وإبادة حاشية تسين بمؤزارة الفلاحين، خنقت ثورة الفلاحين. وقتل تشانغ شانغ.

لكن انتفاضة الفلاحين سقطت بسبب عدم توفر الانضباط والتنظيم. كان القادة ينتحلون الالقاب، ينفصلون عن الجماهير، وكثير منهم حاول الاعتراف بطبقة السلطة والانضمام إليهم. على ذلك، نجم من ثورة تشانغ شانغ إبعاد الحاشية المستبدة في إمبراطورية تسين وشيء من تحسن حياة العمال. وكانت هذه واحدة من أهم الانتفاضات الشعبية في تاريخ الصين.

إمبراطورية الهان *Han* السابقة (٢٠٦ قبل الميلاد حتى العام ٢٤ بعد الميلاد)

قمعت ثورة الفلاحين، وتنازع ليو-بانغ وهيانغ-يو السلطة. في هذا الصراع كان هيانغ-يو يدافع عن مصالح الأرستقراطية القديمة وعن كبار ملاكي العبيد. بينما كانت سياسة ليونانغ أمرن. ألغت تشريع تسين الصارم، الذي لأقل جنحة يهدد الفلاح الحر بالعبودية. ويمارس جيشه انضباطاً أعمى. وهكذا عرف كيف يكسب شرائح عريضة من الناس وينزل بخصمه هزيمة ساحقة _٢٠٢ قبل الميلاد). ثم أعلن نفسه إمبراطوراً. وسميت الأسرة التي أنشأها أسرة الهان[٥].

استهلكت إمبراطورية الهان عمل شي هوانغ-تي: توحيد الصين. وسمحت الحياة المديدة لدولة وحيدة تحت حكم الهان باختلاط العناصر الأثنية من أصول عديدة، كانت تعمر البلاد؛ وساهم التوحيد أيضا بصهر اللهجات والألفاظ المحلية بلغة واحدة وحيدة. وفي أيام إمبراطورية الهان أرخت الجنسية الصينية.

كان دور الهان في الصين كبيرا بحيث سماهم الصينيون فيما بينهم: رجال الهان.

كانت سياسة أوائل أباطرة الهان تهدف دعم جهاز الدولة الملكي، توسيع أملاك الإمبراطورية وإحياء الاقتصاد الذي تأزم بشدة في أواخر أيام التشو والتسين.

---

٥ – تتضمن ملكية الهان عهدين: عهد الهان الأول (٢٠٦ق.م حتى العام ٢٤ بعد الميلاد، حتى ثورة "الأهداب الحمراء" وعهد الهان الثاني (٢٥-٢٢٠للميلاد).

كانت الحكومة تشجع بناء منشآت للري، استصلاح الأراضي البائرة أو المهلة الناجم عن إنهاك الشعب. فتقليص الضريبة سيساهم في دفع الفلاح إلى تحسين حراثة الأرض وتجهيزها. وفي أثناء حكم الهان، ينتشر الحرث بمحراث تجره دواب. وتحسن نهج البذر بالمسكبة. وتتمتع شرائح عريضة من الناس بتحسن نسبي، ناتج عن استبعاد العديد من ممثلي الطبقة المسيطرة.

كما جاهدت حكومة الهان السابقين لتنظيم نشاط التجار والمرابين. جعلتهم يدفعون ثمن تمتعهم بالثروة، بحرمان ذريتهم من استلام وظائف إدارية.لكن هذا التحريم لم يرع دوما. فقد حققت التجارة والحرف تقدما واسعا. "الأصباغ والريش بمختلف الألوان يأتي من ولايات لو *Lou* وشو، الجلود المدبوغة والأمتعة العظمية والعاجية من تسين ويان *Yen*، خشب الأرز والصندل والخيزران من تسيان-نان السمك، الملح، السجاد والجلود من يان وتسي، الخيوط الملونة، النسيج الرقيق وألبسة القنب من يان ويو *You*". هذا الكلام الموثق (من معاصر) يشهد على انطلاقة التقسيم الإقليمي للعمل.

والمبادلات التجارية والنقدية تتطور بسرعة وحسب قول سوما-تسيان، كان الأغنياء يتاجرون في أرجاء الإمبراطورية كلها ويؤمنون أي بضاعة يشاؤون.

لم يخولنا الوضع الراهن لمعارفنا من إيضاح كل القضايا التي يطرحها النظام الاجتماعي والاقتصادي في إمبراطورية الهان. فهي دولة عبودية طيلة وجودها.الوثائق التي وصلتنا تتحدث عن أغنياء أصحاب مئات بل ألوف العبيد وكما في السابق، كانوا يشغلون العبيد في بناء الصروح، والمهن الصناعية والأعمال الزراعية. وكانت تجارة العبيد مع الخارج مركزة في أسواق دائمة. وتشير النصوص دوما إلى تمردات العبيد.

وتبدأ ظاهرات جديدة تبرز في حياة الإمبراطورية الاجتماعية والاقتصادية. إذ راح السلاطين يوزعون على ذويهم وأسرهم وحاشيتهم أراضي مع فلاحيها ليستغلوا. ويخضع الملاك العقاريون أراضيهم للمزارعة -أي التأجير بحصة-. وعل الأرض البائرة وفي مناطق الحدود يوطنون فلاحي الدولة الأقنان. وتظهر "بيوت متنفذة" في شخص كبار ملاك الأراضي الذين يملكون ما لايحصى من الفلاحين، ولهم جيشهم الخاص، القادر على سحق أي مقاومة فلاحية وحتى الوصول إلى السلطة المركزية. تشير هذه الواقعات إلى تطور الإقطاع في المجتمع الصيني منذ أيام الهان.

وتسجل ملكية الإمبراطور يو-ني (١٤٠-٨٦ قبل الميلاد) قمة إمبراطورية الـهان. فبعد قمع الأسر الأرستقراطية، عرف يو-تي كيف يوطد التجار أو الصناعيين بالسهر على تنفيذ التدابير الهادفة لدعم قدرة البلاد الاقتصادية، مثل تأسيس احتكار الدولة لاستخراج الملح ومعدن الحديد ومنع الأفراد من صك النقود.

منح رواج الاقتصاد الصين في القرن الثاني قبل الميلاد الانتقال إلى سياسة خارجية نشطة. فأخضع جيش الهان فيات-نام، فتح يان-نان وجنوب منشوريا. وكانت العلاقات مع الهون ***Huns*** بين أهم قضايا السياسة الخارجية. فغزواتهم المستمرة، التهديد بحلف قوي بأمرتهم وبقيادة شن يومي تي، حرض حكومة الهان للتفتيش عن حلفاء. ولهذا الغرض أرسل في العام ١٣٨ قبل الميلاد إلى الغرب سياسي قدير، الجنرال تشونغ-كيان. بمهمة إقامة صلات مع جيران الهون الغربيين، الميساجت ***les Massage'tes***.

وبعد ترحال طويل وبقائه عشر سنين سجينا لدى الهون، وصل تشانغ-كيان إلى آسيا الوسطى حيث زار خوارزم، بخارى ومدنا أخرى.

أيقظت المعلومات التي جلبها حول هذه البلاد الغربية في الصين اهتماما واسعا. ورغم أن مهمته الرئيسة: عقد حلف مع الميساجت، لم تتم، كشفت تقاريره لرجال الدولة عن وجود حضارة عظيمة تزدهر على أرض واسعة ليس لديهم عنها أي فكرة حتى آنئذ.

واستنادا إلى اتصالات تشانغ-كيان جهزت حملة نحو الغرب. وهكذا كانت رحلته نقطة انطلاق محادثات بين الصين ومواطن حضارية أخرى.

وبعد عدة معارك ضارية، نجح الصينيون بدحر الهون نحو الشمال و، في العام ١٠٤ قبل الميلاد، وبعد اجتياز صحراء تكلا-ماكان وجبال تيان شان، تغلغلوا في وادي فرغانا. هو ذا الأصل لأحد الطرق الرئيسية الكبرى في تجارة العهد القديم المعروف تحت اسم طريق الحرير العظيم الذي كان يصل الصين بالإمبراطورية الرومانية، بمملكة البارث ***Parthes*** وبالهند. على هذا الطريق صدرت الصين حريرها، حديدها، منتوجاتها المهنية واستوردت موادا هامة، الأحصنة بخاصة.

أزمة إمبراطورية الهان. إصلاحات يانغ-مانغ. عصيان "الأهداب الحمراء"

إن إطلاق اليد ببيع وشراء الأرض، وزيادة الضرائب، المتولد عن بذخ القصر المفرط واتساع السياسة الخارجية، أفضى إلى خراب الفلاحين. ورغم أن الضريبة كانت

٣٠/١ أو ١٥/١ من المحصول مبدئيا، فقد كانت، بالواقع، وبشهادة تسيان هان شو،تتجاوز النصف. وكانت تفرض ضريبة أخرى على كل رجل يرغب في الإعفاء من الخدمة العسكرية. نثبت هنا كيف يصف تسيان هان شو وضع الفلاحة في الصين في القرن الأول قبل الميلاد: "كان المتنفذون يمسحون أراضيهم بآلاف المو٦، بينما لايملك الفقراء" مرقد عنزة". الآباء، الأبناء، الازواج والزوجات يعملون بالأرض طيلة العام وثروة عملهم لا تكفي غذاء لهم، بينما يفرض على الفقراء أن يكتفوا بالنخالة".

لقد مكنت زعزعة الإمبراطورية القبائل الرحل احتلال طريق الحرير العظيم ودمار تجارة الصين الخارجية.

وتفاقمت التمردات أكثر فأكثر (في نهاية القرن الأول قبل الميلاد)، وشارك بها العبيد والناس الأحرار الذين حرموا ملكيتهم، فبرزت الإمارات الأولى لأزمة قاصمة كانت تعد لإمبراطورية الهان.

حاولت الحكومة تجنب انفجار الغضب الشعبي بإصلاحات جزئية، بوضع، مثلا، معيار يحدد الأرزاق العقارية (٥٠٠٠مو) وملكية العبيد (٢٠٠). لكن هذه التدابير ذهبت هباء.

فكرر المحاولة أحد أفراد العائلة المالكة، يانغ-مانغ، بمساعدة متآمرين، بالتصدي للأزمة بسبل أكثر جذرية. وبعد إزاحة الإمبراطور، نشر قرارا (في العام ١٠قبل الميلاد) بتدويل الأرض كلها. ومنئذ، صار العبيد يعتبرون أملاكا خاصة. كان يانغ-مانغ يهدف بهذا التدبير استبدال عمل العبيد بأساليب استثمار إقطاعية. وكان يطالب أيضا بتوزيع الأرض على كل الذين حرموا منها آنئذ. وبهذا اعتبر يانغ-مانغ تدابيره كعودة لنظام "تسين-تيان".

حاول أيضا تنظيم أسعار السوق وتنظيم رصيد للدولة بـ ١٠%في العام. فاصطدمت تدابيره بمقاومة ضارية من الطبقة الحاكمة. فاضطر بالقوة إلى التخلي عنها.

أثار فشل هذه الإصلاحات تمردا ضاغطا عرض الامبراطور للخطر. ونشبت ثورة فلاحية في عامي ١٧و١٨ بعد الميلاد في ولايات هو-نان، هو-بي وشان-تونغ. كان الثوار منظمين بفصائل لكل منها اسم وقائد. كانت أقواها فصائل "الأهداب الحمراء"، في

---

٦ - ٠,٠٦هكتار، تقريبا.

ولاية شان-تونغ، التي تدعى هكذا لأنها كانت تلوّن أهدابها. حاول يانغ-مانغ كبح هذه الانتفاضة بقوة السلاح. وفي العام ٢٣، استولى الثوار على عاصمة إمبراطورية تشانغ-نغان وقتلوا يانغ-مانغ. واشترك بالتمرد أعضاء من بيت الهان الإمبرايالي، كانوا مبعدين عن السلطة. وأعلن أحدهم إمبراطوراً. ثم، تحولت قوات أنصاره ضد المتمردين وأغرقوا العصيان بالدم.

إمبراطورية الهان الأخيرة (٢٥-٢٠٠ بعد الميلاد)

رغم ان الثورة قمعت، اضطرت الطبقة الحاكمة لبعض التنازلات. حرر الأولاد الذين بيعوا كعبيد، وأعفي عن بعض الثوار. وجزء من الأراضي القابلة للزراعة التي كانت تخص المالكين الكبار انتقلت إلى يد الفلاحين. وقلص الإمبراطور الضريبة. وصارت العبودية أقل قسوة، وتحسنت أساليب الاستثمار، فكانت، إزاء كل هذا، انطلاقة اقتصادية جديدة. رمم نظام الري واتسع، فنمت الأرض القابلة للزراعة. واتسع استخراج معدن الحديد، وكذلك الفونت. وراج الاقتصاد. وعادت الصين في نهاية القرن الأول للميلاد إلى امتلاك طريق الحرير العظيم.

وفي العام ٩١ بعد الميلاد. احتل جنرال كبير ورجل سياسة صيني، بان-تشاو، إقليم سين-كيانغ وشن حملة إلى آسيا الوسطى، التي اضطرت إلى قبول سيادة الصين. ولاقى الهون هزيمة كاملة واضطر قسم منهم إلى دفع الضريبة للصين، واكره الآخرون على النزوح إلى الغرب.

لكن ما أن توطدت اوضاعهم، حتى عزفت الطبقة الحاكمة عن التنازلات التي أعطيت للفلاحين. وأخذ تطور تكديس الأرض إيقاعا غير معروف. فامتلكت "البيوت النافذة" مئات ألوف الهكتارات التي حرثها الفلاحون المستعبدون. ودمرت من جديد منشآت الري. وتصدعت أركان الدولة.

أثار خراب الفلاحة وتفكك جهاز الدولة حركة فلاحية واسعة، عرفت في التاريخ باسم عصيان "القبعات الصفر". لم تكن هذه الثورة الناشبة في العام١٨٤، في ولاية شون-كونغ تشبه أبدا ثورة "الأهداب الحمراء".فقد انبثقت بعد أن علل قادتها أهدافهم للشعب.كانوا قد خلقوا مسبقا عشرات السرايا وحددوا يوم الهجوم. كانت الحركة مستوحاة من كتاب تاو-توكينغ.

أعلن المبشر التاوي تشانغ كيو، قائد الثورة الإلغاء الكامل للنظام القائم (سماه

الـ"سماء الغبراء") ومجيء نظام جديد، عادل (سماه اسماً خيالياً "مملكة السماء الصفراء")؛ يأتي هذا النظام عندما يتحقق (مبدأ السلم الأشمل). استلم مخطط الثـــورة أحـــد الخونـــة، فاستعجل الهجوم. كسب التمرد الإمبراطورية كلها بسرعة، حرر الثـــوار العبيـــد وقتلـــوا الموظفين المحقوقين، واقتسموا فيما بينهم السلع الثمينة التي سيطروا عليها. دامـــت ثـــورة "القبعات الصفراء" قرابة ربع قرن وأبيدت بصعوبة كبرى. وفي لهيب المعارك، انـــهارت إمبراطورية الهان التي احتفظت بشكل من الاستغلال البالي، الساقط، أي العبودية وتركـــت مكانها للنظام الإقطاعي.

حضارة الصين القديمة

إن ضرورات من النمط العملي حرضت على ابتكار الكتابة الصينية إلى أقدم القـــدم. وفي النصوص المرسومة على العظام (في الألف الثانية قبل الميلاد)، عد البحاثة أكثر مـــن ٢٠٠ هيرورغليفية، هذا يعني أن الكتابة كانت قد ولدت قبل هذا التاريخ بكثير.

يمكن مقارنة تطور النهج الهيروغليفي الصيني بالنـــهج المصـــري. وقـــد حفظـــت رسومات نقشية بدائية باعتبارها تساوي كلمات. مثل الهيروغليفيات "رجل"، "ابن"، "امـرأة"، "شجرة"، "علو"، "أسفل"، إلخ. وترتيب الـــهروغليفيات البســـيطة ســـمح أن نشـــكل منـــها هروغليفيات أخرى، هرغليفيات من كلمة "شجرة" تعني "غابة".

وفيما بعد (في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد)، يستمر الصينيـــون بإتقان كتابتهم بإضافة إلى الشارة المفتاح، التي تشير إلى أي صنف من الظـــاهرات يعـــود المفهوم المعبر عنه، شارة أخرى، ذات خصيصة صوتية، ليدلوا إلى اللفظة.

وفي أيام تسين، أول ملكية مركزية، توحدت الكتابة ؛ وفي عهد آل هان، أخذت تقريبا شكلها الحالي بفضل استخدام مادة جديدة: الحرير، ثم الورق (قبل هذا، استخدموا الرقـــائق الخشبية). وإن كان الصينيون يكتبون حتى الآن بشكل عمودي، ذلك لأنهم كـــانوا يكتبـــون على شطائر ضيقة.

كان وضع تقويم زراعي يتطلب مراقبة الأفلاك؛ وقد دل الصينيـــون علـــى مـــهارة مدهشة بهذا المجال. هكذا، قبل هيبارك بـــ٢٠٠ عـــام؛ وضـــع علمـــاء الصيـــن مبـــادرة الاعتداليين أي تبديل نقطة اعتدال الربيع حسب دائرة البروج. وفي أيام أسرة تسين وضـــع أول تقويم شمسي في العالم. صحيح أنه لم يستخدم عمليا لأن الصينيين كانوا يتبعون التقويم القمري. وكان قدماؤهم يعرفون دورية الكسوفات الشمسية.

إلى الصين يعود شرف ابتكار الفرجار. وكان لديهم أسس ثابتة في علم الرياضيات، بخاصة مبادئ الجذور المربعة والمكعبة. وقد وصلتنا أبحاث عديدة في علم وهندسة الزراعة، تمثل بيانا واضحا في معارف التقنية الزراعية لذلك الزمن، تعطي طرقا في الحراثة والتعديل والتسميد. وحول العديد من النباتات، وتصلح للمزارعين. قد تألق الحرفيون الصناعيون بنسج المنسوجات الفنية، مواد من البرونز، من الحديد، من العاج، من الراتنج ومن الحجارة الدقيقة.

وفي مجال الفنون التشكيلية، قدم الفنانون الصينيون روائع نادرة. فمنحوتات القبور، النصب، والآثار المعمارية، التي للأسف لم يصلنا منها سوى القليل، تشير إلى مواهب فائقة.

. خلقت أخطاء النظام الاجتماعي، الحروب، وتفاقم الصراع الطبقي في نهاية أيام آل تشو، خلقت كلها مناهج فلسفية ونظريات دينية طبعت بطابعها كل الإيديولوجيات الصينية.

ولقد عكست نظرية كونفشيوس مصالح أرستقراطية الدم. نحن نعرف الاسم اللاتيني لهذا المفكر الكبير الصيني القديم، لأن اسمه الصيني هو كونغ-تسو، فقد ولد حوالي ٥٥٠ ومات حوالي ٤٨٠ قبل الميلاد؛ وضع نظرية مثالية تخلط السياسة بالأخلاق وأعلنت في بحوث فلسفية، لخصها رواده. وانطلاقا من مبدأ "إنساني"، أعد كونفشيوس منهاجا للعلاقات بين الناس، يرتكز إلى احترام الكبار والإتمام الدقيق لواجبات الإنسان بهذا الشرط أو ذاك تجاه المجتمع. "ليكن الأب أبا، الابن ابنا والعاهل عاهلا"، يقول. ومع إقراره بالخضوع المطلق للأسمى سمح كونفشيوس بإبعاد أحد المتنفذين، إن دل أنه غير جدير بالإضطلاع بمهمته. وقد أفضى ربط أخلاق كونفشيوس بالتقيد الصارم لعبادة الأسلاف إلى طبع هذه النظرية بالطابع الديني.

وكتاب تاو-توكينغ (في القرن السادس قبل الميلاد) المنسوب للاو-تسو ينسجم مع بعض التطلعات الفلاحية الأبوية وصغار الملاكين العقاريين. يصيغ هذا الكتاب التاوية. ورغم أنه يتضمن عناصر من الرؤيا المادية للعالم (نفي الإله الخالق) وجدلا عفويا، ينشر العودة إلى عهد سابق، معروف بالعصر الذهبي حيث يعيش الجميع حياة هادئة. ومع نقده اللاذع والحاسم لنظام المعاش، نظام "يجعل الناس يجوعون نتيجة الابتزاز والاغتصاب والضرائب"، يوصي تاو-توكينغ بالعودة إلى عهود طوباوية حيث "لا يتكالب الناس على اقتناء الكنوز". وكانت مصالح النبالة الجديدة والتجار محمية من قبل رواد مدرسة العادلين، كثير منهم رجال دولة تسين. كان المعلمون في هذه المدرسة، تشانغ يانغ، هان في-تسو

وغيرهم يطالبون بخلق دولة موحدة، بالغة المركزية، تمسك عقوباتها الصارمة الناس من حافة الإجرام وتعيدهم إلى الطبيعة البشرية-الإنسانية. وكثيرا ماتبدى الصراع بين كونفشيوس والعادلين شرسا. ناهض الكونفوشيون ملكية هوانغ-تي و، في العام ٢١٣ قبل الميلاد، عذب الكثير منهم وأحرقت كتبهم. وفي بداية القرن الأول للميلاد، عاش فيلسوف كبير صيني مادي، يانغ تشونغ، كان يؤكد فكرة العالم المادي وينكر خلود الروح.

لقد حافظت الأعمال الأدبية التي وصلتنا على نصاعتها. ففي نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد، عاش شاعر الصين العظيم، كيو-إيوان، وكان رجل دولة شهيرا. كان العدو الأزرق للأساليب البربرية والوحشية التي مارسها تسين من اجل السيطرة؛ وكان كيو-إيوان نصيرا لوحدة البلاد العفوية، الأمر الذي كلفه النفي والإبعاد.

ولقد تحدث في كتبه حول وطنه، وحول رحمة وتسامح الناس في أيام الكره والظلم. كما قدر هذا السيد، هذا الأرستقراطي، عاليا التواصل العميق مع تقاليد القصيدة الشعبية، ووثق بعمق بقوى الشعب. وفي تعميماته المترعة بالتهكم اللاذع والحزن العميق تتجلى مع ذلك رنة متفائلة.

وحافظ نثر سوما-تسين والمؤرخ بان-كيو، خلال آلاف السنين، على قيم النماذج الخالدة. تتضمن كتاباتهم خرافات وطنية، عددا كبيرا من الأمثال، من الحكم، والأغاني الشعبية. إن السيرة الشخصية الرسمية لكبار رجال الصين تأخذ غالبا في أعمالهم شكل القصص المقتبسة من الدرامية، التي تدهش الملح والنوادر وقيمتها الوثائقية، التي تشبه الحوارات المبتكرة لصحة التسلسل التاريخي للأحداث؛ وكانت تعتبر من خلال هدفها التعليمي. والموسيقى أيضا، لعبت دورا رائعا في حياة شيوخ الصين. والرقص، الغناء المتكامل مع آلات موسيقية متنوعة، يتمتعان بشعبية عميقة.

إن دور الحضارة الصينية عند شعوب آسيا يشبه دور الحضارة الإغريقية عند شعوب أوربا. فالتقنية، الفن، الأدب والفلسفة في الصين كانت النموذج في اليابان، في كوريا، في فيتنام، وفي منغوليا. وكانت الكتابة الصينية مستخدمة حتى أمد قريب في الأعمال العلمية، في النصوص الدبلوماسية والأدب في آسيا الشرقية.

الفصل العشرون

اليونان

مدخل. مصادر معلومات وتأريخ

لقد لعبت دراسة تاريخ اليونان القديمة، بخاصة تراثها الثقافي، دوراً كبيراً في تطور علم التاريخ الحديث. ماركس وأنجلز، مؤسسا هذا العلم، أفادا جداً من تاريخ العهود القديمة. كانا أول من قدم المجتمع القديم كمجتمع عبودي، وهما يبرزان دوره التقدمي في التاريخ العالمي. إليكم ماهي، بالتالي، القضايا الأساسية في التاريخ القديم: تطور القوى المنتجة، على أساس الاستغلال العبودي، في الحرف، وبخاصة، في الزراعة؛ الطبيعة الاستغلالية في مختلف مراحل تطور المجتمع؛ ظهور الدولة وخوصها؛ الأسباب الفاعلة في تطور الحضارة القديمة؛ مراحل تاريخ المجتمع القديم بعامة والمجتمع اليوناني والروماني بخاصة.

تخص هذه القضايا أيضاً النقاط الرئيسية في دراسة تاريخ اليونان القديم. فالمكتشفات الحديثة تضيف قبساً آخر على تاريخ القبائل والشعوب التي كانت تقطن أرض اليونان القديمة، على الجو الذي ولدت فيه الحضارة اليونانية (الكريتية والمسينية). ثم تأتي الحقبة المتصلة مباشرة بتطور اليونان والمسماة "العهد الهوميري"ـ مرحلة تفكك المجتمع العبودي والدولة، والبناء الحضاري (من القرن الثامن حتى السادس قبل الميلاد)، الذي كان الاستعمار أحد مراحله الهامة، ككل هذه المرحلة من التاريخ.

كانت المرحلة "الكلاسيكية" (القرن ٥-٤ قبل الميلاد)، يوم وصل المجتمع العبودي والحضارة اليونانية إلى أوج تطورها ويوم احتدت واشتدت تناحرات هذا المجتمع، كانت في أحشاء تاريخ اليونان القديم. أخيراً، المرحلة الأهم التي ينمو دورها في علم التاريخ، هي المرحلة الهلينية، مرحلة انصهار التاريخ اليوناني جزئياً بتاريخ الشرق، ومرحلة بلوغ مجتمع الرقيق أوجه (القرن ٣-٢ قبل الميلاد).

مؤرخو اليونان

لقد ظهرت الرغبة في معرفة ماضي اليونان في القرن السادس قبل الميلاد في عمل مؤرخي العهد الأيوني من آسيا الصغرى. فقد عرض هؤلاء، بروح أدبية، الأساطير والخرافات التي تعكس بطريقة أو بأخرى أولى عصور الهلاد **Hellade**[1] هكذا، كتب ميليه حكايته (حوالي ٥٠٠ قبل الميلاد) أصوله، سير "الأبطال" (هكذا يسمي اليونان أسلافهم الأسطوريين المنحدرين من الآلهة وكانوا معروفين بمآثرهم).

لقد ولد "أبو التاريخ"، هيرودوت (حوالي ٤٨٤-٤٢٥)، في هلكرناس **Halicarnasse**. آنئذ، صارت أثينا، المنتصرة على الفرس، المركز الاقتصادي، السياسي والثقافي للكيان البحري العظيم الذي يسيطر على شرق البحر الأبيض المتوسط. وهنا ازدهر نظام ديموقراطية العبودية التي كان هيرودوت، المقيم في أثينا (يسميها وطنه الثاني)، منظرها الورع. يتضمن عمل هيرودوت تسعة كتب. تخص الثلاثة الأولى تاريخ شعوب آسيا الوسطى، الفرس، آشوريا، مصر والبلدان المجاورة؛ يصف الكتاب الرابع سيثيا **Scythie**[2]. يعطي كل هذا معلومات قيمة عن الهيلاد. وخصصت الكتب الباقية (٥-٩) للحروب الميدية. غالباً ماتكون كتابات هيرودوت ساذجة؛ يؤمن بتدخل الآلهة في شؤون الناس ويقدم لنا الأساطير والخرافات كأحداث تاريخية. لكنه من جهة أخرى يسعى إلى تعليل هذه الأحداث وأعمال البشر بعلل معقولة وطبيعية. فضلاً عن هذا، يطرح أحياناً قضايا نظرية عامة حول ارتقاء الدولة والمجتمع، الأمر الذي يثبت صلته المتينة بالنضال الإيدلوجي والسياسي العنيف الدائر آنئذ في أثينا. وكتابه منهل هام في دراسة الحياة السياسية والثقافية لليونان في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد.

ويطلعنا توسيديت الأثيني (حوالي ٤٦٠-٣٩٩)، في "تاريخ حرب البلوبونيز"، المؤلف من ثمانية كتب والذي لم يصلنا كله، على فهم أعمق للتطور التاريخي؛ ولايفتقر كتابه للفكر الثاقب. كان الهدف من كتاب توسيديت تقديم عرض لحرب البلوبونيز، الصراع الضاري بين جزئي الهلاد: آثينا، الدولة البحرية، والمجمع البلوبونيني، وعلى رأسه إسبارطة. يدل

---

[1] - الأقاليم الوسطى في اليونان القديمة.

[2] - في الجغرافيا القديمة، وبالمعنى الضيق، من الدانوب حتى الدون.

المؤرخ على اتساع هذه الحرب الاستثنائي، وإلى دورها في التاريخ: لم يخض الصراع فقط سكان الأرض الهيلينية من البحر المتوسط، بل اشترك الفرس فيه. ومدخل الكتاب الأول (فصول ١-٢١)، المسمى أثاري، حيث يعطي المؤلف، عدا الملاحظات المنهجية، معلومات هامة حول تاريخ اليونان، كتاب في غاية الأهمية. باعترافه، عمل توسيديت في تقديم الأحداث التاريخية بطريقة يجعل كتابه لايفقد قيمته. كونه مؤرخاً تحريرياً، اهتم في الوقت ذاته بكشف أسباب الأحداث ووصف الصراع السياسي الداخلي. كتب هذا الصراع بشكل خطب تخاطب قادة المعسكرين؛ ويشير المؤلف أن هذه الخطابات ألغيت فعلاً، ويقدمها، إن لم تكن كلمة فكلمة، منسجمة مع مايمكن أن يقوله هذا الخطيب أو ذاك في مثل هذه الظروف وانطلاقاً من آرائه. ولوحات الصراع الطبقي رسمتها ريشة معلم، بخاصة وصف الحرب الأهلية في كورسير التي ساهم فيها العبيد بفاعلية. والأكثر تأثيراً لوحة التدمير الناجم عن الصراع الداخلي (كتاب ٣، فصل ٨٢-٨٤). ويقدم لنا المؤلف وصفاً بارعاً للحقد الطبقي في مجتمع الرق، الحقد البالغ ذروته أثناء الحرب الأهلية.

وبعد توسيديت، يستمر العلم التاريخي في اليونان (كباقي العلوم الاجتماعية بشكل عام) بالتطور. صحيح أن دقة التحليل العلمي التي تميز توسيديت لم يستطع أحد أن يقدمها، إلا ماندر، من المؤرخين اللاحقين؛ إنما بالمقابل، ازداد عدد المؤلفات بشكل ملحوظ. في أغلب مدن هيلاد ولو كانت قليلة الأهمية (وكان منها المئات، التي ظهرت، في أثناء القرون التالية، لكثير من المؤرخين الذين تصدوا لدراسة مدنهم أو بلدانهم. للأسف، لم يصلنا أغلب هذه الكتابات؛ فالزمن لم يصن إلا النثرات، وأحياناً العناوين أو أسماء الكتب فقط. لكن لهذا أيضاً أهمية كبرى؛ شواهد مختصرات آثيدس *Athides* التي وضعها كتاب أثينيون درسوا ماضي الآتيك *Attique*، وبخاصة، التقليد التاريخي.

لكن أهمية المؤلفات التاريخية اليونانية تبقى كبيرة في أي حال وصلتنا. مثل "الهيلينيون" بقلم خنوفون، الذي ظهر بعد تاريخ توسيديت وانطلاقاً من الفترة التي توقف عندها هذا المؤرخ الكبير (العام ٤١١ قبل الميلاد). ينجز خنوفون وصف حرب البلبونيز ويتابع تاريخ هيلاد حتى العام ٣٦٢. رغم أنه اتبع نهج توسيديت، فعرض الأحداث كمن اشترك فيها، لكن خنوفون كمؤرخ كان أكثر سطحية وأضيق أفقاً. كان خنوفون مواطناً آثينياً لكنه، كونه يكره الديموقراطية الآثينية، كتب كصديق ومعجب بالسبارطيين

الأرستقراط. وفي "الهلليونيون" يهمل الواقعات الأساسية في تاريخ آثينا الديموقراطية مثلاً، الفيدرالية الثانية البحرية لأثينا؛ وبالعكس، يبرز الأمور الثانوية، والتي تقدم وتنفع السبارطيين. على ذلك، "الهللينيون" هو العمل الوحيد الذي يعرض بطريقة منسجمة ومنسقة ومنهاجية الحياة في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد. وإذا ما درس بذهن ناقد، يمكن لهذا الكتاب أن يؤازر بدراسة هذه الحقبة.

كما أننا مدينون لخنوفون بكمية من الكتابات الهامة التي تميز مختلف وجوه الحياة في هيلاد في القرن الرابع قبل الميلاد؛ مثل "أناباس"، المتعلقة بغزوة الـ ١٠ آلاف وتراجعهم أو انسحامهم. وباعتباره اشترك شخصياً بالحملة. يصف خنوفون القبائل والشعوب التي كانت تقطن في شرق القفقاس. لهذه المعلومات أهمية كبيرة في دراسة أرمينيا وجيورجيا في الزمن الغابر؛ وأعمال أخرى هامة لخنوفون هي "جمهورية إسبارطة"، "المداخيل" (مسألة الأموال في دولة العبودية). أي ماعرف بـ"مذكرات سقراط" وغيرها.

وعلى إحدى قطع البردي الموجودة في مصر (في الأقصر) وصف لتاريخ اليونان في بداية القرن الرابع قبل الميلاد. بين العلماء المعاصرين، يفترض البعض أن هذا النص ملخص للـ"تاريخ الهيليني" لتيوبومب، المؤرخ اليوناني للنصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. عدا "دستور آثينا" لأرسطو، الذي سنحكي عنه، المكتشف، هو الآخر، على بردي مصري، لم تصلنا الأعمال الأخرى لمؤرخي القرن الرابع.

وفي القرن الرابع، نشر إيفور عملاً ذا أهمية عالمية، كثيراً مارجع إليه مؤرخو اليونان. لكن لم يبق منه سوى قبسات.

وأحد أشهر مؤرخي العهد القديم، بوليب (حوالي ٢٠٥-١٢٥ قبل الميلاد)، عاش في حقبة فتوحات الجمهورية الرومانية وتحولها إلى دولة بحرية جبارة. وقد كتب في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد "التاريخ العام" يعرض فيه أحداثاً كان هو نفسه شاهدها. كان بوليب مكلفاً بالإشارة إلى الأسباب التي أسقطت كل بلدان العالم تحت النير الروماني. إنه محق تماماً بعنونة كتابه "التاريخ العام" لأنه يشتمل على الأحداث التي جرت في العالم المتحضر كله. ومثل توسيديت، لم يكتف بوليب بتقديم نتيجة الواقعات وأسبابها؛ إنما يسعى إلى كشف القوى المحركة العامة للتطور التاريخي. وجوهر هذا التطور، برأي الكاتب، في الانتقال الأكيد من نظام الدولة إلى نظام آخر، الانتقال الذي يتم حسب قوانين محددة. يقول

كل جسم، كل دولة وكل مشروع، تنتقل كلها حسب قوانين الطبيعة، بمراحل متنامية، ثم متفتحة، وأخيراً، منحدرة. رغم سذاجتها الظاهرة، كانت نظرية بوليب إنجازاً كبيراً. إذ يثبت عمله أن بلاد اليونان، وهي تخسر استقلالها السياسي، كانت تحافظ على مستوى ثقافي رفيع. ولسوء الحظ، من كتب بوليب الأربعين لم يصلنا سوى خمسة؛ وماتبقى لايزيد عن مقاطع متناثرة. على ذلك، فقد أغنى "تاريخه العام" بشكل ملموس معارفنا حول يونان القرنين الثالث والثاني.

وبعد بوليب، وفي القرن الأول قبل الميلاد، وحتى القرن الأول بعد الميلاد، تعطي اليونان، وقد صارت أحد أقاليم الامبراطورية الرومانية، تعطي العالم عدداً من أشهر المؤرخين. مثل ديودور سيسيليا، "بمكتبته التاريخية" ذات الأربعين مجلداً التي لم يصلنا منها سوى النذر اليسير. عاش ديودور في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد. رحل كثيراً وقرأ كثيراً. وفي "مكتبته التاريخية" كان يعمل على بعث تاريخ البشرية منذ أزمنة الخرافات حتى أيامه ... نقرأ في هذا السفر كثيراً من المعلومات الهامة حول تاريخ اليونان. وبجهد ومجهود ديودور الذي أفاد من وثائق عديدة مشتتة فيما بعد، يتيسر لنا أن ننقح ونتمم "الهلينيون" لخنوفون، وأن نجمع معطيات ثمينة حول حركات ثورية ضخمة في يونان القرن الرابع قبل الميلاد، وغير ذلك. لكن "المكتبة التاريخية" لديودور هي تجميع لأعمال مؤرخين سابقين أكثر منها عمل علمي برأسه. وفيما بعد، في القرن الثاني بعد الميلاد، كتب الكاتب والمؤرخ اليوناني آريان، حول حملات الاسكندر الكبير، السفر الأصح الذي وصلنا. وكمعاصر لآريان، كتب المؤرخ والجغرافي بوزانياس عملاً هاماً عنونه بـ"بيانات وتعليقات حول اليونان"، أطلعنا على مختلف المناطق، والآثار المعمارية، والشوارع، والميادين، والنقوش اليونانية كما كانت منذ ١٨٠٠ سنة. وخلف استرابون، الجغرافي الكبير، الهليني، الذي كتب في حوالي بداية الميلاد، خلف معلومات تاريخية ذات أهمية قصوى. وعمله "الجغرافيا" وهو في ١٧ مجلداً يتحدث عن بلدان حوض البحر المتوسط،أفريقيا، إيران، الهند، الجزيرة العربية، مابين النهرين، أوربا الغربية وجنوب البحر الأسود. وينحو المؤلف أحياناً نحو استطراد طويل فيتحدث عن تاريخ هذا البلد أو ذاك. فنطلع، مثلاً، على كثير من المعطيات القيمة حول ماضي مدن آسيا الوسطى ومختلف مناطق هيللاد.

كان بلوتارك، كاتب سير الشخصيات السياسية الرومانية واليونانية، معاصراً لآريان وبوزانياس. وكتاباته ذات أهمية كبرى في علم التاريخ، لأنه استخدم عدداً من الوثائق التي لم يصلنا منها شيء مطلقاً. وصف حياة ليكورغ، سولون، ثمستوكل، سيمون، أرستيد، بيكلس، ألسبياد، دموستين، ملوك إسبارطا آجيس وكليومين (القرن الثالث قبل الميلاد) وكثير غيرهم من كبار رجالات العهود الغابرة. حفظت ٥٠ من هذه السير حتى اليوم. يبدو فيها مؤلفوها كمؤرخين، وحياة أبطالها على صلة وثيقة بالوسط التاريخي؛ لكن مهمتها الرئيسة من طبيعة تعليمية، الأمر الذي يجعلها أحياناً جزئية ضيقة المدى فالسير التي كتبها بلوتارك التي تشمل قرابة ألف عام من التاريخ القديم، هي مع ذلك ذات قيمة توثيقية كبرى.

تثير أعمال فلاسفة اليونان أيضاً الحياة الاجتماعية والسياسية لبلادهم. وهكذا أوقفت "جمهورية" أفلاطون على بناء نظام سياسي رآه مثالياً. والمسائل الاجتماعية والسياسية، كمسائل التاريخ، تشغل الجزء الأعظم من عمل أرسطو. نثبت هنا اثنين من كتبه: "السياسة" و"بناء أثينا". "السياسة" بحث واسع حول أصول الدولة، جوهرها، أشكالها، إلخ. وهي ذات أهمية كبرى لدراسة تاريخ اليونان. ويقدم مؤلف "بناء أثينا" تاريخ النظام السياسي لأثينا منذ تشكلها من آتيك ***Attique*** حتى نهاية حرب البلوبونير، أي حتى ٤٠٤-٤٠٣ قبل الميلاد. لم يكتشف هذا المؤلف حتى العام ١٨٩٠. ومنذئذ، تعمقت معارفنا حول الدولة الأثينية، بخاصة أن أرسطو يقدم لنا في الجزء الثاني من الكتاب، عرضاً مفصلاً عن النظام الذي كان قائماً في أثينا في حياته.

وفي كتابه "بناء أثينا" استخدم أرسطو عدداً من الوثائق، كانت المدونات والأعمال الأدبية ذات طبيعة تاريخية: الأثيد ***Les Athies***، "تاريخ" هرودوت وكمية من الحوليات المحلية. وعندما ندرس عمل أرسطو هذا، يجب أن لاننسى أنه ما كان أبداً من أنصار الديموقراطية الأثينية، وهذا واضح في نصوصه. و"بناء أثينا" ليس سوى جزء من عمل ضخم ضاع، بشير "سياسته". لقد كتب أرسطو وتلاميذه إجمالاً ١٥٨ "سياسته"، وبحث حول تاريخ نظام العديد من الدول المذكورة.

مصادر أدبية:

الإلياذة والأوديسة، قصيدتان آبدتان عن العهد القديم الهليني بقلم هوميروس، ترسمان لوحة بليغة عن حياة الشعب اليوناني منذ فجر تاريخه من القرن ١٢-٨ قبل الميلاد (سنتكلم

عن هذا بالتفصيل في الفصل ٢٣، فقرة٣). وفي نهاية القرن الثامن والسابع نبغ عدد من الشعراء اليونان، شهروا بأعمالهم واقعات تاريخية. نثبت هنا بداية هيزيود، قارض قصائد تعليمية (حوالي العام ٧٠٠) حول حياة الكدح في القرى، والشعراء الغنائيين للقرنين السابع والسادس: أرشلوك، ألسي، تيرتي، سولون، تيونيس، وغيرهم، تتحدث أشعارهم عن الصراع الاجتماعي والسياسي لزمانهم وهي، في الوقت عينه، ذات قيمة تاريخية. أشيل، الكاتب التراجيدي الكبير في بداية القرن الخامس، يرسم في قصيدته "الفرس" معركة سالامين التي اشترك فيها وأتم هكذا قصة هرودوت. فالكوميديات اليونانية القديمة، بخاصة كوميديات أرستوفان، معاصر ثوسديد، كوميديات عبقرية، مقتبسة من الهجاء السياسي القاسي، ولها أيضاً قيمة كبرى باعتبارها مصادر تاريخية.

يفضل المؤرخون اليونان أن يكتبوا عن تاريخ بلادهم السياسي. وأعمال الخطباء ورجال السياسة تخولنا كشف الحياة الاجتماعية والنضال الطبقي. وخطابات العديد من الخطباء، مثل أندوسيد، ليزياس، إيزاكرات، دموستين، إشين، هبريد (القرنين ٥-٤ قبل الميلاد)، محفوظة حتى اليوم. إنها تقودنا إلى خفايا الحياة البشرية؛ والخطباء مثل ليزيلس، يكشفون أعماق الحياة الخاصة لخصومهم. وغيرهم، مثل الذين يتدخلون في الحلقات الشعبية أو ينشرون مقالات عن الشعب، يختارون موضوعاً لهم قضايا ذات راهنية اجتماعية وسياسية؛ مثل ازوكرات ودموستين اللذين عالجا القضية الدقيقة للعلاقة بين ماسدوان واليونان في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

وثائق، آثار مادية

إن المنحوتات (وأكثرها على الحجارة) هي المصادر الأكثر دقة. ك منحوتة تقدم واقعة محددة من الحياة السياسية، الاجتماعية أو الخاصة بالعصر. ولقد عرف الآن عشرات الآلاف من هذه المدونات المنحوتة القديمة؛ ضمّ أغلبها في 'منحوتات يونانية" بـ١٥ مجلداً (في طريقها للنشر، بعد التنقيح والتصحيح). بعضها أفعال دولة، مثل، قوانين الشرع الأثيني دراكون، القوانين القديمة لكريت، وتقارير، كشوف عن خزينة الدولة، وسواها. وغيرها شواهد قبور، يتحدث بعضها عن الحياة الخاصة. ولقد أثارت اهتماماً فريداً المنقوشات المكتشفة على الأرض الروسية، بخاصة على ضفاف البحر الأسود. وهكذا اكتشف نص اليمين المدني لشرشوزون (قرب سيباستبول الحالية)، الذي يثبت

المستوى الرفيع للحياة الاقتصادية والسياسية لهذه المدينة القديمة أيام القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد؛ ويشهد على هذا قرار مجلس الشعب على شرف المواطن بروتوجين، الذي وجد وجمع في أنقاض أولبيا القديمة (ليس بعيداً عن نيكولايف). ولقد جمع الباحث الروسي ف.لاتشيف في "مدوناته المنحوتة"، التي نشرت بثلاثة مجلدات في أعوام ١٨٨٥-١٩١٦، مدونات عن اليونان القديمة وجدت على الساحل الشمالي للبحر الأسود.

والآن، تحرر من الأنقاض المصرية نصوص كتبت على ورق البردي، أي وثائق تاريخية من نوع آخر، عثر عليها في مصر أثناء التنقيب. إنها،أولاً، حسابات لاحصر لها، ومخالصات، وغيرها، مثلاً المراسلة الواسعة لأبولونيس، الموظف الكبير والمالك العقاري واسع الثراء، مع وكيله زينون). وإنها أيضاً رسائل، وتمارين طلاب، وأوامر ،وسواها. كتب عليها نصوص قضائية تميز المحاكم والعلاقات بين مختلف فئات الناس. وتتضمن بعض أوراق البردي أعمالاً أدبية عن اليونان القديمة، لم تكن سليمة، بل فقرات مشتتة. هكذا نص "بناء آثينا" لأرسطو، ما كان قد وجد في العام ١٨٩٠ على ظهر ورقة بردي (ترجع إلى العام ٧٨ قبل الميلاد) تتضمن تقريراً لمدير الملكية. وعلى أوراق البردي هذه وجدت بعض النصوص الأدبية الهلينية (كوميديات ميناز، مثلاً).

على ذلك، هي ذي مواد علم الآثار، بقايا المدن، والصروح المبعثرة ومنشآت أخرى، وأيضاً مواد الاستهلاك الأهلي، هي خير من يطلعنا على اليونان القديمة. وكل أرض البلقان تقريباً،والعديد من جزر بحر إيجة، وشواطئ آسيا الصغرى، وسواحل البحر الأسود، وسيسليا وجنوب إيطاليا هي نوع من متحف واسع في الهواء الطلق. يحقق فيه علماء الآثار من مختلف البلدان تنقيباتهم منذ زمن بعيد. لكن أعمال التنقيب لم تأخذ مداها إلا في النصف الثاني من القرن ١٩.

تمكننا الحفريات الأثرية من إعادة تركيب مقبرة دلف الشهيرة، بمعابدها، ونزلها، وشارعها، وطريقها السري، وكنوزها العديدة، التي بنتها الدول اليونانية لحماية السهيات. ولقد رفع الركام عن مدن بكاملها بشوارعها، ميادينها، قاعاتها، مسارحها، مدارسها، معابدها ومساكنها. وكانت المؤسسات التعليمية تضم أيضاً لوائح الطلاب، بأسمائهم ومناقبهم التي يدونها المعلمون. وأيضاً، في الجهة الصحراوية اليوم من آسيا الصغرى، حررت مدينة بريان *priene* الصغرى، ومدينة أولينث *olynthe* وغيرها، عادت كلها إلىالنور مرة أخرى.

لقد عثر علماء الآثار السوفيات: ب.فارمكسـفي، ف.بلاتفسـكي، ف.غيدوكفتـش، ت.كنبوفتش وغيرهم على الساحل الشمالي للبحر الأحمر شوارع، أسوار وأبـراج مـدن اليونان القديمة الكبرى، مثل أولبيا، شرزونيز وغيرها. وتمت مكتشفات هامـة علـى يـد البحاثة السوفيات في شرق القفقاس (أرمينيا وجيورجيا) وفي آسيا الصغرى. وقـد حـرر الأستاذ تولستوف، مثلاً، في خوارزم أنقاض ميادين منيعة، وحقولاً مغطاة بنثار الخـزف، ووثائق من كل نوع مطبوعة على الجلد ومحفورة على الخشب يسمح حل رموزها بكشف سر هذه الحضارة المنسية التي كانت، كما هو معروف اليـوم، مرتبطـة ارتباطـاً متينـاً بحضارة اليونان.

والنقود القديمة والصور المحفورة عليها، ووزنها وكمية المعدن فيها، إلخ. يُتم كل هذا معرفتنا بتاريخ اليونان القديم. وعلم المسكوكات، أثمن مساعد للتاريخ، قدم منـذ عشـرات السنين إنجازات هامة في الاتحاد السوفياتي، في مجال دراسة النقود ***Historiog raphie***.

نتاج المؤرخين

منذ عصر النهضة، أي يوم شكلت البورجوازية طبقة، يتحقق هـدف إعـادة إحيـاء تاريخ اليونان القديم، الذي حاولت البورجوازية احتكار تراثه الثقافي الثر. فمنذ هلّ القـرن التاسع عشر بدأ بوضوح الاهتمام الكبير بتاريخ اليونان القديم؛ وقد دفع النضال من أجـل الديموقراطية البورجوازية الساسة، القضاة، المؤرخين ونقاد الأدب إلـى دراسـة النظـام الديموقراطي في دول يونان العبودية، بخاصة في آثينا. وهكذا، رأى ج.غروت، المـؤرخ الانكليزي المعروف في النصف الأول من القرن ١٩، الذي تحدث في "تاريخ اليونان" الذي في ١٢ مجلداً (١٨٤٦-١٨٥٦) عن نظام آثينا، رأى أن هذا النظام يمكن أن يكون نموذجـاً لكل ديموقراطية بورجوازية. وفي "التاريخ الهليني" بثـلاث مجلـدات، للعـالم الألمـاني درويزن، والذي سبق "تاريخ اليونان"، يصور مقدونيا القديمة نموذجاً أول لبروسيا. مـع أن هذه التشويهات للتاريخ القديم تفقر كثيراً المنتوج التاريخي البورجـوازي للقـرن ١٩، لـم يتوان أحد عن دراسة المناهل الأولى، وتطوير النقد، وعلى هذه القاعدة شيد تاريخ اليونان.

كانت قضايا الحياة الساسية والثقافية في اليونان القديمة هي التي تشد الاهتمام قبل كل شيء. أما في روسيا، كان علم العهود القديمة، حتى في فجر وجوده، أكثر تقدمية مما فـي الغرب، لأنها كانت تطرح مسائل أعم؛ وكان النتاج التاريخي الروسي أول من تصدى لمـا

يخص الحياة والنضال الاجتماعي في اليونان القديم. فمؤلفات م.كوتورغا، الأستاذ في جامعة بطرسبورغ (١٨٠٩-١٨٨٦)، اشتهرت حوالي ١٨٤٠-١٨٥٠. حدد كوتورغا الواقعات الرئيسة في نظام آثينا السياسي ووضع لوحة عريضة للحياة الشعبية في اليونان. وفي كتابه "وضع العبيد والمحررين في الجمهورية الآثينية، كان أول باحث في العالم نهض لهذه الموضوعة وعمقها. وأبرز أيضاً العلاقة بين تطور الثقافة الروسية وحضارة اليونان القديمة. وفي العام ١٨٦٩، يظهر مؤلف هام لـ ف.فاسيلفسكي "الاصلاح السياسي والحركة الاجتماعية في اليونان القديمة في زمن الانحطاط" الذي لم يفقد قيمته حتى يومنا هذا.

وفي النصف الثاني من القرن ١٩ تشب ثورة حقيقية في دراسة تاريخ اليونان، وفي علم التاريخ بشكل عام، انبثقت بسبب نشر الأعمال العبقرية لكارل ماركس وفريدريك أنجلز، بخاصة "رأس المال" (ظهر الكتاب الأول في ١٨٦٧)، وكتاب فريدرك أنجلز "أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة"، المنشور في العام ١٨٨٤. ولقد أوقف الفصلان الرابع والخامس من هذا الكتاب على ("العشيرة اليونانية") و"انبعاث دولة أثينا") اللذان يتحدثان عن القضايا الجذرية في تاريخ اليونان.

في هذه البحوث الهامة، يؤسس مؤسسا الماركسية القوانين الرئيسة لتطور المجتمع ويضعان حجر الزاوية للتاريخ باعتباره علما قائما برأسه. وكان ماركس وأنجلز أول من مزق النقاب عن صورة العبودية للإنتاج اليوناني، وبالتالي، الخصيصة العبودية للمجتمع اليوناني وثقافته. لكن هذا لم يمنعهما عن تقويم عاليا أهمية هذه الحضارة. "لكن الصعوبات ليست في وعي أن الفن اليوناني والملحمة مرتبطان ببعض أشكال التطور الاجتماعي. إنما تكمن الصعوبة في أنهما يقدمان لنا متعة وجمالية وهما لنا، من بعض الوجوه، قيمة المعايير والنماذج العصية.١"

وحوالي نهاية القرن التاسع عشر، يشد التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لليونان أكثر فأكثر اهتمام المؤرخين الغربيين. وقد ظهرت نشرات جديدة لمنحوتات يونانية تسمح بتعميق التغلغل في اقتصاد الهلاد. (نشر هذه المدونات والنقوشات لأول مرة جزئيا أوغست

١-ك. ماركس. "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"، ص ١٧٥.

بوك الذي كان قد بدأ هذه المهمة في بداية القرن التاسع عشر).

وليس قليلاً ماكتب حول التطور التاريخي لمختلف فروع الاقتصاد في اليونان القديمة: الزراعة ، المهن، التجارة وغيرها. وتشغل هذه المسائل، ومسائل النضال الاجتماعي والعلاقات الطبقية، من الآن فصاعداً حيزاً واسعاً في المؤلفات حول تاريخ اليونان. وفي أثناء انتقال الرأسمالية إلى محطتها الأعلى، الامبريالية، ظهر من جديد انعطاف لتحديث التاريخ القديم. هكذا، كتب البحاثة الألماني إد.ماير "تاريخ العصور القديمة بـ٥ مجلدات (كانت النشرة الأولى في العام ١٨٨٤)، حيث يرسم لوحة مزامنة لتاريخ الشرق، اليونان وروما من الأصول حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. وهو يحلل ويدرس المجتمع والاقتصاد في اليونان، يرى المؤلف فيها "علاقات اقطاعية" في محطتها الأولى وحتى "الرأسمالية" في المرحلة التالية، مع الـ"معامل"، الـ"مصانع"، الـ"مصارف"، وغيرها، كمؤسسات تبعثها الرأسمالية ليس إلا. فضلاً عن هذا، يقدم النظرية الدورية القائلة إن البشرية، في مختلف الأزمنة والأمكنة، تعبر المراحل ذاتها من ارتقائها، المفضية إلى الرأسمالية؛ ويرى أن التقدم يقف هنا، وليس له سوى العودة على عقبيه، الالتفاف إلى علاقات أكثر بدائية. إن النظرية الدورية، بدون نقاش، سلاح إيديولوجي للبورجوازية الإمبريالية في نضالها ضد الثورة البروليتارية والاشتراكية. وروبير بوهلمن، كاتب "تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمتين"، هو الآخر من أنصار هذه الرجعية؛ فهو "يكتشف" في العالم القديم، ليس فقط، هذه الحرمات المعاصرة، بل يجهد للبرهنة أنها بالضبط سببت انحطاط الحضارة القديمة العظيمة. و"التاريخ اليوناني"، العمل الضخم للمؤرخ الألماني ج.بلوش (ظهرت الطبعة الثالثة بأربعة مجلدات في العام ١٩١٢ و١٩٢٧) رغم طبيعته المعتدلة لايقل عن غيره حداثة. ومثل ماير وبوهلمن، ينكر بلوش الطبيعة الرقيّة للاقتصاد اليوناني؛ بل يحجم عدد العبيد في اليونان طيلة حقبة الازدهار، ويبالغ بدور الإجارة.

لكن العالم الفرنسي غلوتز ينطلق من مفهومات مغايرة تماماً، وأكثر صحة. بعيداً عن نصرة الماركسية، اتبع في مؤلفاته مبادئ فوستل دي كولانج، وهو يشير إلى دور المشاعية والتنظيم الوثني في تاريخ اليونان. وبوضوح يتعاطف في كتاباته مع الشعب الكادح.

كان الـ"علم" التاريخي الفاشي في ألمانيا يسعى إلى مثالية إسبارطة بنظامها العسكري والعبودي، وتمجيد الغزاة "الكبار" أمثال إسكندر المقدوني. ويرى مؤرخ ألماني أن انهيار

الحضارة الكريتية ناجم عن تحرير النساء. إجمالاً، يهمل المؤرخون البورجوازيون الحديثون المسائل الاجتماعية والاقتصادية والقضايا العامة في تاريخ اليونان. إن المؤلفات حول تاريخ اليونان ذات طبيعة وثائقية أكثر منها بنائية. وحتى العمل الضخم –بأربعة مجلدات– لآرثر إيفانس "قصر منيوس"، الذي ظهر في لندن بين عامي ١٩٢١-١٩٢٣، يزودنا بواقعات ثمينة، دون أن يحدد العلاقات الاجتماعية في كريت، وكذلك "تاريخ كمبريدج القديم" المؤلف التعاوني لمؤرخين إنكليز (الطبعة الثانية ١٩٢٣)، الذي خصصت كتبه ٢-٧ لتاريخ اليونان. و"تاريخ اليونان" لبجستون يغرق في نفس العيوب. نثبت هنا النجاح الضخم الذي حققه في هذه الأيام العلماء الأجانب في مجال علم الآثار والكتابة النقشية. مثلاً، كان المؤلف ذو الأربعة مجلدات لميريت، وواد-جيري وماكغرغور "اللوائح الأثينية لأتاوة الأحلاف (كمبريدج، ١٩٣٩-١٩٥٠) كان ذا قيمة كبرى، لأنه يطلعنا جيداً على تاريخ أثينا والقسم الأعظم من هيللاد في القرن الخامس. وكان لحل رمز الكتابة ***B*** ميسينين على يد العالمين الإنكليزيين فانترس وشادفيك أهمية ضخمة جداً: فقد ألقى قبساً على التاريخ اليوناني من الحقبة الميسيني، التي لم تكن معروفة إلا من البقايا الأثرية.

لقد قدم العلم الروسي من نهاية القرن ١٩ حتى بداية القرن ٢٠ عدداً من العلماء الكبار، الأخصائيين بالعصور القديمة وخاصة اليونان. فقد نشروا عدة مؤلفات كان بعضها ذا طبيعة عامة وعالج بعضها مسائل نوعية. وأتت المساهمة الكبرى على يد الأكاديمي ف.لاتشيف، مؤلف الأعمال المؤسسة على دراسة النقوش القديمةالمكتشفة على الساحل الشمالي للبحر الأسود (انظروا ما ورد أعلاه)، مثل "دراسة في تاريخ أولبيا القديمة ونظامها السياسي (١٨٨٧) ومقالات حول تاريخ مملكة البونت ***pont***[١] (١٩٠٩). وله أيضاً نحن مدينون بـ"بحث في عهود اليونان القديمة في مجلدين (١٨٨٠-١٨٨٩). تفيد الطبعة الثالثة من هذا الكتاب (١٨٩٧-١٨٩٩) اليوم أيضاً كدليل بين يدي المهتمين بدراسة تاريخ اليونان القديم. ومهمة جداً أيضاً مؤلفات س.جبليف "أثينا في ٢٢٩-٣١ قبل الميلاد" صدر

---

١ – مملكة في شمال-شرق آسيا الصغرى، على جسر أوخن، أعلن استقلالها عن الفرس في العام ٣٠١ قبل الميلاد. كانت منيعة جداً في أيام مثريدات السادس، عرفت بصراعها ضد الرومان، الذين احتلوها في العام ٦٣ بعد الميلاد.

في العام (١٨٩٨) وأكاي *Achaie* (١٩٠٣) وبقلم م.كفوستوف "التجارة الشرقية بين مصـر واليونان والرومان" (١٩٠٧)، وف.بوسسكول "بيركلس" (١٨٨٩).

العلم السوفياتي استوعب بفكر ناقد التراث الغني للمنتوج التـاريخي الروسـي قبـل الثورة، خلق على أساس الماركسية-اللينينية أسلوباً جديداً، علمياً حقاً لكشف التاريخ القديـم، بخاصة تاريخ اليونان. هذا الأسلوب هو أساس الدراسات الشاملة لتاريخ اليونـان، مثـل: س.كوفاليف، "تاريخ المجتمع القديم". "اليونان" (الطبعة الثانية ١٩٣٧)، و"تـاريخ العـهود القديمة" (١٩٣٧)؛ س.لوريه، "تاريخ اليونان" (١٩٤٠) ؛ ف.سرغيف،"تاريخ اليونان القديم" (الطبعة اثانية ١٩٤٨). يتضمن هذا الكتاب الأخير جملة من التراجم الشخصية لكل حقـب تاريخ اليونان القديم.

وفي الأعوام التي تلت الحرب ظهر "اليونان القديمة" (١٩٥٦)، سفر لمجموعة مـن من الباحثين السوفيات، و"بحوث في تاريخ اليونان القديـم" (١٩٥٨)، بقلـم ك.كولوبـوف ول.غلوسكين. وعشرات المؤلفات الأخرى.

الفصل الواحد والعشرون

طبيعة اليونان

كانت اليونان القديمة تشغل متسعاً من الأرض يبلغ (٦٤٥٠٠ كم٢ فقط) لكنه شديد التنوع من الزاوية الجغرافية. كانت تضم: ١) جنوب شبه جزيرة البلقان؛ ٢) الجزر الإيجية والأيونية؛ ٣) الأضلاع الغربية من آسيا الصغرى. وكانت تشغل اليونان القارية (البلقانية ربع اليونان كلها ولم تكن سوى شبه جزيرة مقسمة بين خلجان وسلاسل جبلية إلى ثلاثة أقاليم متمايزة: الشمال، الوسط والجنوب أو بلبونيز. ويتألف اليونان الشمالي نفسه من منطقتين: إيبيريا وتساليا. والبقعة الأهم من اليونان الأوسط من الزاوية السياسية هي الأتيك وبيوتيا، وهما في الشرق. وكانت أهم مناطق البلبونيز الأرغوليد، لاكونيا، مسينا، إيليد وأركوديا.

تعلل هذه القسمة المتمايزة لليونان القارّي بأن الجبال تشرخها في كل اتجاه، بخاصة السلاسل الأعلى من ٢٠٠٠م المتجة من الشمال إلى الجنوب. وتقسم اليونان إلى قسمين: الغربي والشرقي؛ في شمال اليونان، تقع سلسلة البند *Pinde*؛ وفي الجنوب (بلبونيز)، وكتلة أشاي العريضة وأركاديا تتفرع في الجنوب إلى سلسلتين: في الشرق، البارنون، في الغرب، التايجت. من هذه السلسلة الرئيسة، تنطلق نحو الشرق عدة ملتقيات متوازية. وهكذا، في شمال اليونان، بين مقدونيا وتساليا تنتصب عدة قمم أعلاها الأولمب، ٣٠٠٠م. تحجز الجبال فيما بينها الوديان التي يتبع أغلبها مصبات الأنهار. تشكل السهول إجمالاً أقل من ١/٥ اليونان القارية. وفي الشرق مضائق ومعابر (وادي تامبي في الشمال، وتوفر ترموبيل إمكانية واسعة لتواصل وتنشيط بالتالي التطور الاقتصادي والاجتماعي.

وبينما تعزل الجبال المناطق والدول، يعزز البحر المواصلات الخارجية بين المشاعات اليونانية. تفضي الشواطئ المتعرجة إلى تطوير مبكر بالإبحار. من هذه الزاوية تصادف الشروط الجغرافية الأكثر مواءمة في شرق شبه الجزيرة وفي غرب آسيا

الصغرى، ذات الشواطئ المقطعة والتي تقدم عدداً كبيراً من الخلجان الصغيرة التي تسكنها رياح الجبال. في اليونان الوسطى والجنوبية لا يوجد أرض تبعد عن الشاطئ بأكثر من ٥٠كم. ومن كل قمة عالية يشاهد البحر. فضلاً عن هذا، تشكل جزر بحر إيجة الكثيرة (الأرخبيل) سلاسل مستمرة، من شبه جزيرة البلقان حتى شواطئ آسيا الصغرى، حتى أن البحارة القدماء الذين يتبعون خط السير هذا، لايفقدون رؤية الأرض.

الجزر الإيجية مقسمة إلى مجموعات. في الغرب جزيرة أوبي الكبرى، التي تمتد بالتوازي على الشط الشرقي لليونان الوسطى. غنية بخاصة بالقمح، كانت تمون به حتى الأتيك. وإلى الشمال، على طول شواطئ تراس، تتابع جزر ثاسوس، ساموتراس، ليمنوس، إيمبروس وتندوس؛ وفي الشرق، بعض الجزر الواسعة تمتد أمام شاطئ آسيا الصغرى: لسبوس، شيووساموس.

في القديم، كانت جزر بحر إيجة تقسم إلى مجموعتين: السيكلاد والسبوراد. في السيكلاد تتكوكب ٢٤ جزيرة كبيرة و٢٠٠ صغيرة، نصفها يحيط بديلوس. كانت هذه الجزيرة الضيقة الأبعاد مركزاً لتجارة نشطة ولعبادة أبولون–الدلفي، إله البحار. من كل هذه الجزر التي تحيط بديلوس، كانت الأهم هي باروس، حيث صناعة الرخام الأبيض، وناخوس، أندروس وغيرها. وبعدها، باتجاه آسيا الصغرى، تتدرج جزر سبوراد وأكبرها رودس.

في جنوب غرب بحر إيجة، توجد جزر سيبتر وإجين. في الجنوب، تصل هذه الكثرة من الجزر إلى كريت، أكبرها وأخصبها، والتي كانت موطن حضارة قديمة جداً. وفي شرق كريت، ليس بعيداً عن الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى وسوريا، في البحر المتوسط، تقع جزيرة قبرص، الغنية بمعدن النحاس؛ بالغابات، بالكروم والزيتون.

في أشهر الصيف الهادئة، يفيد البحارة أيضاً من انتظام الريح والتيارات البحرية التي تتجه من البحر الأسود إلى آتيك وبلبونيز. يسر كل هذا إقامة تواصل بين اليونان والشرق الأدنى بلغت درجة متقدمة بالتطور وأفادت اليونان أكثر من الدول الأوروبية الأخرى بكنوز حضارتها.

في البحر الأيوني، بين اليونان وإيطاليا وسيسيليا، ثمة قليل من الجزر: فقط كورسير، لوكاد، سفالينا وإيتيك، قرب شواطئ اليونان الغربية. لذا كانت المواصلات بين هيلاد

وإيطاليا صعبة جداً. لكن اليونان مضطرة إلى استيراد القمح من هـــذا البلـــد ذي التربـــة الأخصب.

يدنو مناخ الشاطئ اليوناني، المعتدل والحار، من المناخ الاستوائي. وفـــي المنـــاطق الجبلية فقط، وبخاصة في إيبيريا، يلاحظ الجليد والعراصف الثلجية. إنه المناخ الذي حـــدد أسلوب حياة اليونان، سكناهم وملابسهم. في البيوت، تلعـــب الباحـــة الداخليـــة، المزنـــرة بالإفاريز التي تحملها الأعمدة وتقي الناس من حر الشمس، تلعب دوراً رئيســـياً؛ وكـــانت الصروح العامة والمعابد محاطة بالأروقة والأعمدة. والقمصان الصوفية أو الكتانية ألبســـة لليونان، لكنهم عندما يخرجون يلبسون فوقها معطفاً صوفياً بدون أكمام. وينتعلون الأخفاف، المبطنة بالفرو في الشتاء. وكجميع سكان الأبيض المتوسط، كان قدماء اليونـــان قنوعيـــن بطعامهم. يتكون غذاؤهم أساساً من منتوجات الطحين، البقول، الزيتـــون، الجبنـــة، التيـــن اليابس، السمك المملح، المستورد بكميات كبيرة من مملكة البونت ***Pont***.

لاتتمتع اليونان بمساحات واسعة لبذر الحبوب (شعير، ذرة، دخن). أوســـع الســـهول موجودة في تساليا، بيوتيا، لاكونيا ومسنا. والقيظ (تبلغ الحرارة ٤٠°) وجفاف الأنهار، لقلـــة المطر، تشكل عقبة أخرى في وجه الزراعة. ثم، في أغلب أقسام اليونان، أخذت زراعـــة الكرمة والزيتون، التي تتطلب عناية واسعة وإعداد أرض على سفوح الهضاب، والـــري، أخذت الاهتمام الملحوظ. إجمالاً، ووفرت أفضل الشروط الطبيعية مناطق شـــرق اليونـــان القاري، المغطى بالأحراج، بالشوح، بالسنديان والكستناء؛ في الوديان ينمو السور، الغـــار الجبلي الذي لايلائم سوى تربية الدواجن.

وتربة اليونان غير خصبة، لكنها غنية بمواد البناء ومختلف المعادن. كانت لاكونيـــا غنية بمعدن الحديد؛ أوبي (منطقة شالسيس) وقبرص بمعدن النحاس؛ في الأتيك، تســـتخرج شرائح الفضة؛ وفي تراس (وادي سترمون) يستخرج الذهب. وتحتضن أتيـــك، كورنثيـــا، أوبي وبيوتيا، الفخار بكميات ضخمة،موظفة في صنع الأواني الفاخرة. ليـــس بعيـــداً مـــن الأتيك، في جزيرة سيوس، كان يوجد أوكسيد الرصاص لطلي الفخار. ولقد أفضى كل هـــذا إلى تطور مبكر بالحرف التي، كما الزيت والخمر، لم تكن تستخدم في البلد، بـــل تصـــدر وتبدل بالقمح وباقي المواد الغذائية الهامة (لحم مملح، سمك، إلخ).

هكذا، رغم ضيق أبعادها ومناهلها الطبيعية، تمتلك اليونان كل الشروط الضروريـــة

لتطورها التاريخي: وضع وسيط بين آسيا الصغرى وشبه الجزيرة الإيطالية، بحر يوائـــم العلاقات مع شرق وجنوب البلدان المتحضرة وكل مايبعث على تطوير المهن والتبادل.

الفصل الثاني والعشرون

الحضارة الإيجية

الاكتشافات الأثرية في القرنين ١٩و٢٠

لايعرف اليونان القدماء الشيء الكثير عن الماضي البعيد لبلدهم. يفترض توسيديد وطنه مسكوناً بشعوب غريبة يسميها "بيلاسج"، "كارمن" و"ليجير". ونسب لهم منشآت حجرية ضخمة، سميت "العملاقة" (أي التي بناها العمالقة). تتحدث الخرافات عن دولة عظمى بحرية لملك كريت مينوس وقصره الواسع، اللابريث، وملك مسينا أغامنون الذي شن حرب طروادة.

لم يكن العلماء الأربيون أبداً أحسن معرفة حتى الربع الأخير من القرن ١٩. إنما في العام ١٨٧٠ و١٨٨٠، تمت اكتشافات هامة فيما يخص العهود القديمة الكلاسيكية: فقد نشر عالم الآثار الألماني المعروف هنري شلمان في العام ١٨٧٤ كتاباً بعنوان "عهد طروادة القديمة وفي العام ١٨٧٨ و١٨٨٦، ظهرت عدة كتب أخرى: مسينا، إيليون، طروادة وتيرانث. ولقد قال هذا العصامي والكاشف الجلود للكنوز التي كانوا يسخرون منه بشأنها، قال إنه كشف طروادة هوميروس، مقابر ومواد ثمينة في مسينا، تعود أصلاً إلى زمن أبطال الإلياذة والأوديسة.

لكن تبين حالاً أن هذا العالم لم يحترم جيداً مكتشفاته. فعالم الآثار دوربفلد، الذي كان أكثر الناس شكاً بعمل شلمان، قرر أن ينهض لمساعدته في بداية ثمانينات القرن الماضي. ودل فيما بعد (١٩٠٢)، أن شلمان كان قد خدع في تقويماته التاريخية وأن لقاه تعود إلى عصر أقدم بكثير، لايعرف عنه العلم شيئاً حتى آنئذ. إذ أثبتت مكتشفات شلمان وجود، في الألفين ٣و٢ قبل الميلاد، في جنوب شرق أوربا، حضارة تشبه بألقها وعظمتها حضارات الشرق الادنى.

ولقد ظهر أن ماستخلصه دوربفلد غير قابل لنقاش، عندما دل في بداية القرن ٢٠

عالم الآثار الانكليزي آرثر إيفانس بتنقيباته في جزيرة كريت أن شلمان ودوربفلد لم يعطيا شيئاً عن المواطن الرئيسية لهذه الحضارة، التي كانت عالية القيمة في كريت ذاتها، وأنها أعظم وتتجاوز حتى حضارات ميزوبوتاميا والنيل. وفي مؤلفه ذي الأربعة مجلدات "قصر مينوس"، يعرض إيفانس نتائج ثلاثين سنة من التنقيب. وبمتابعة التنقيب، يتحدد في التاريخ الإنساني دور هذه الحضارة قبل-الهيلينية، المسماة "إيجية".

على ذلك نشير أن هذه المعطيات الحديثة لم يستوعبها العلم التاريخي أبداً. ولم يوضع بعدُ تأريخ مقبول بشكل عام. والتأريخ الأشهر هو الذي يقترحه إيفانس. إنه يميز ثلاث حقب مينوين (نسبة إلى اسم الملك الخرافي مينوس) تتناسب تقريباً، في الزمن، مع الإمبراطوريات الثلاث التي مرت على مصر: ١) منوين القديم (٣٠٠-١٠٠ قبل الميلاد)، ٢) منوين الوسطى (٢١٠٠-١٥٨٠)، ٣) منوين الحديثة (١٥٨٠-١٢٠٠). لكن أغلب الأخصائيين، وقد قبلوا هذا التقسيم فيما يخص كريت التي كانت على اتصال مع مصر، يستخدمون باقي مناطق الحضارة الإيجية دورية خاصة، توازي الأولى. هكذا، لليونان القاري، ثبتت القسمة الهلادية القديمة، الوسطى والحديثة (أو مسينا). فحضارة اليونان الجزيرية -نسبة إلى جزيرة- تسمى حضارة العمالقة.

المرحلة الأولى من الحضارة الإيجية في اليونان *Le chacolitique en Grece*

لدراسة التاريخ البدائي لبلدان حوض إيجة، نطرق باب علم الآثار المعتاد (النقش على الحجر، عصر البرونز، عصر الحديد الأول). فالنقش على الحجر (٣٠٠-٢١٠٠ قبل الميلاد) هو المرحلة الأولى للحضارة الإيجية. ومركزها في أرخبيل الجزر العملاقة التي تشكل نوعاً من الجسر عبر بحر إيجة. لكن أرضها أوسع بكثير: ويكتشف أيضاً فيكريت (طبقات منوين سفلى)، في بلوبونيز (هيلاد القديمة) في اليونان الوسطى، على الشواطئ الغربية لآسيا الوسطى (طبقات سفلى من طروادة، تسمى "طروادة الأولى"، "طروادة الثانية"، ضيعة ثرمي في جزيرة لسبوس). كانت هذه الحضارة نتيجة الثقافات عالية التطور في العصر الحجري الأعلى التي عاشت طويلاً في حوض بحر إيجة. في تلك الحقبة الزمنية كانت الادوات الحجرية هي المسيطرة، إجمالاً. لكن صناعتها أتقنت إلى أعلى درجة: صنع بعضها من حجر نادر، السبج[1]، وتبدو كنصل حاد. لم تصادف طبقات السبج

---

[1] – حجر زجاجي أسود.

إلا في جزيرة ميلوس، إحدى جزر العمالقة. وجد هنا سابقاً مزرعة صغيرة (فيلاكوبي *PhylaKopie*)، كان سكانها يستخرجون السبج، يصنعونه وينشرون هذه الأدوات، الثمينة جداً في تلك الحقبة.

عدا الحجر، يبدأ استخدام المعدن، أولاً النحاس، ثم البرونز البدائي (المتضمن تقريباً ٩% من القصدير). مع أن البرونز والنحاس مايزالان نادرين لايكفيان إلا لصنع بعض الأسلحة (بلطات بدائية، بدون ثقب، خناجر) وبعض الحلي (دبابيس شعر). وللتزين، يستخدم أيضاً الذهب: وفي إحدى الطبقات القديمة لطروادة (طروادة الثانية)، اكتشف شلمان كنزاً من ثمانية آلاف مادة ذهبية (سميت تحكماً "كنز بريام"، نسبة إلى ملك طروادة الوارد في الإلياذة). باختصار، كنا مانزال في عصر النقش: على النحاس والحجر، حيث كان استخدام المعادن في بداياته وتهيمن فيه الأدوات الحجرية.

تثبت لنا التقنية وجود نظام اقتصادي واجتماعي في بداية تطوره.؟ والاهتمام الأساس، استناداً إلى علم الآثار، الصيد، التدجين الضيق، حرث الأرض بالمنكاش والمقايضة البدائية المترافقة باللصوصية والقرصنة. (من هنا أتى تكديس الثروات مثل "كنز بريام". والأواني المنزلية الضخمة الفخارية وغير المتقنة تصنع باليد، بدون تدوير، والمشربيات كانت بأشكال غريبة من الجرار والأباريق –منقار الطير– وأبراش بوجوه بشرية ("إجانات جبهية")، أكواب مزدوجة، إلخ. لم يكن طلي الفخاريات قد عرف بعد، بل رسوم هندسية فقط.

كان الناس يعيشون عامة في بيوت دائرية أو بيضوية، بقية واضحة من الخص لكن هذه المساكن كانت واسعة جداً (حتى ٣٠٠م٢)، فيها عشرة محال وتؤوي عدة تعاونيات، حتماً من نفس العشير. وكانت القبور أيضاً جماعية: "نواويس" العمالقة، قبور حجرية بشكل صندوق، وكانت الأقبية الدائرية العملاقة الكريتية تضم أحياناً حتى ١٠٠ هيكل عظمي.

لكن يجب أن نعرف أن نظام العشير كان يتفكك. كانت فيلا كوبي *PHYLA KOPIE*، في جزيرة ميلوس، مدينة حقيقية بشوارع مستقيمة، وأعمال الاستحكام والمناعة. تظهر الطبقات السفلى في طروادة (طروادة الأولى والثانية) عن وجود مساكن محصنة جداً، تمتاز عن المجموع بثرائها. أضخمها صروح طروادة الثانية. إنها ثكنة أو قلعة مخيفة ذات أسوار عملاقة، مبنية على متراس من آجر الفيضانات. مسلح بالخشب. والأسوار مجهزة

بباب منيع بمهارة. ويمكن الباب السري المدافعين من أن يباغتوا المهاجمين من الخلف. في وسط الثكنة أو الحصن، ينهض بيت القائد المدعم، بباحته المبلطة. يفضي دهليز طويل إلى قاعة واسعة، في وسطها موقد دائري. إلى جانبه مسكن أضيق، خصص على الأرجح للنساء. والقائد المقيم في مدينة كهذه ليس شيئاً بسيطاً، بل مستغل رعاياه، غير القادرين على النضال ضد هذه التحصينات التي بنوها بأيديهم.

في أيامنا هذه، لايمكن للأسف أن نعرف شيئاً محدداً عن أصل هذه الرعايا التي عاشت على ساحل بحر إيجة. فاليونان،كما أشرنا، يتحدثون عن الرعايا المتأصلة على ضفاف آسيا الصغرى -كاريان، بلاسج وليليج -الذين سكنوا قبلهم بحر إيجة كله. وقد تأكد أن السكان الإيجيين من عصر النقش على الحجر كانوا قد أتوا من آسيا الصغرى، بدلالة طبيعية المواد الأثارية والمعطيات المواقعية[1] (أسماء الجبال، الأنهار والبقاع القائمة حتى الآن في كثير من مناطق اليونان، مثل: بارناس، سفيز، لاريسا، كورنث، إلخ). مع ذلك، تبقى القضية معلقة.

عصر البرونز

لقد وسمت المرحلة الثانية من الحضارة الإيجية بتفتح عصر البرونز في جنوب-شرق أوربا، يقابل ازدهاراً مماثلاً في مصر (الامبراطوريتان الوسطى والحديثة) وحضارة ميزوبوتامي. إن هذه الحقبة الواقعة بين ٢١٠٠-١٤٠٠ قبل الميلاد، هي أوج الثقافة الكريتية (مينوين الأوسط والنصف الأول من مينوين الحديث، حسب إيفان).

كانت كريت آنئذ صلة وصل بين البلدان المتحضرة في العهود القديمة. وضعها الجغرافي الموائم متمايز بأرسطو في "سياسته". ويصيغ هومير ذات الفكرة في هذه العبارات البينة، البليغة:

ثمة في وسط البحر الواسع
جزيرة اسمها كريت
رائعة وخصبة، معطاء، وغاصة بالسكان،
تلتحق بها ٩٠ مدينة جميلة
سكانها لايتكلمون اللهجة ذاتها

(أوديسة، أغنية ١٩، ١٧٢ ومابعد)

---

[1] - دراسة لغوية أو تاريخية لأصل أسماء المواقع الجغرافية.

وفي الحقبة ذاتها، يجب أن نشير إلى سبب آخر لانطلاقة كريت: كانت لكل الحضارات الشرقية للعهد البرونزي مركزاً وسيطاً بتجارة القصدير. يأتي القسم الأكبر من هذا المعدن الضروري لصناعة البرونز من الغرب، من شبه الجزيرة الإيبرية، وكريت التي تراقب النقل، فتمسك هكذا مفتاح الصناعة الأساس في الشرق- الأدنى. تحتجز منه ماتشاء وتصنع البرونز نفسه (كان النحاس يستورد من قبرص. فلم تكن كريتإذن تلعب دور الوسيط فقط، بل دور المنتج أيضاً.

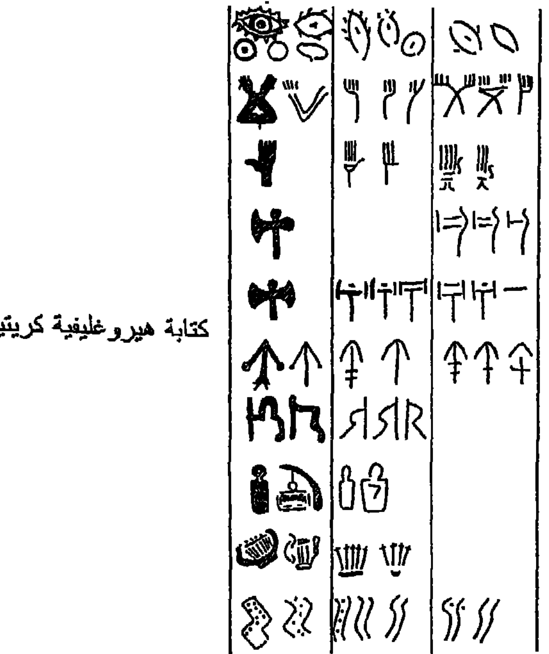
وبلغت تقنيتها واقتصادها مستوى استثنائياً. احتل التعدين المقام الأول: صنعوا من البرونز بلطات متقنة مزدوجة، خناجر، سيوفاً طولها متر، دقيقة، صقيلة، حادة، وحلي النصل بالذهب حسب الفن الدمشقي. وتحلي كؤوس وقطع ذهبية وفضية وتزين المنحوتات بدقة لاقرين لها. ولقد اكتشفوا السبيل لصنع أسلاك معدنية، نتيجة هذا صارت الحلزنة الدافع المفضل للتزيينات الكريتية.

وكانت الصناعة الهامة الأخرى هي السيراميك، استخدمت بسعة دولاب الخزاف والفرن المتقن. بأناقة الأشكال والرسوم التزينية، لم يحتضن الشرق الأدنى كله مشربية أجمل من المشربيات الكريتية؛ والتي تصدر أيضاً إلى مصر، سوريا وأبعد نحو الشرق. وكان النسيج متطوراً جداً هو الآخر، بدلالة ثياب النساء المعقدة الملونة والمحلاة بالرسوم.ولابد من الإشارة إلى رسوم الأختام. والخواتم التي تزين أصابع الأرستقراطيين، والأطواق المعلقة التي تثقل أعناقهم، أذرعهم، أرجلهم وصناديقهم.

تطور الزراعة ثابت بالخوابي الضخمة العارمة بالقمح، بالخمر وزيت الزيتون. وبقايا المرافئ والورشات وأحواض السفن، وكثير من صور المراكب تشهد على إبحار متطور وتجارة عابرة نشطة. وبصدد النقود، كانوا يستخدمون سبائك نحاسية بشكل جلد الثور أو بلطة مزدوجة، بأبعاد وأوزان مختلفة. وكانت كريت تتاجر مع بلدان بعيدة جداً.

وكانت العمليات الاقتصادية والتبادلات التجارية مدونة بدقة بكتابة متطورة. كانوا يكتبون على صفائح من الفخار، بحروف هيروغليفية. وفيما بعد (حوالي العام ١٧٠٠) ظهرت الكتابة السطرية *A*، التي تحولت بعدئذ إلى الكتابة *B*. لكن ولا واحدة من الاثنتين حلت رموزها تماماً. فأنتريك وشادويك لم ينجحا، في العام ١٠٥٣، إلا بحل رموز *B*، الأحدث، ولم نعرف تماماً معاني النصوص الكريتية القديمة التي نمتلكها اليوم.

والنظام الاجتماعي، في هذا العهد، تطور جداً على أثر تطور حاد بالقوى المنتجة.



كتابة هيروغليفية كريتية من الخط A وB

يتضح هذا بجلاء في تعاون العشير في المنشآت والمدافن. البيوت صغيرة، مستطيلة، مخصصة لأسرة واحدة. والمدافن، القبور المفردة أو أقبية الأسرة، لها الصفة الفردية. يظهر كل هذا تفكك نظام العشير واقتسام المجتمع إلى طبقات. وثمة الكثير من إمارات عدم المساواة بالثروة. وفي المدن (غورينا، بالايوكاستور، بسيرا، وغيرها)، يتألف الوسط من بيوت جميلة ذات طابق واحد ونصفية، حيث يسكن النبلاء، ثم تأتي شوارع محاطة بمساكن أكثر تواضعاً، وفي القرى الكثير من الأكواخ، أو المساكن المتداعية. وكان استغلال الفقراء واضحاً جداً ويترجم على الأغلب بعبودية ناتجة عن عدم وفاء الدين، كما في بابل ومصر. في الرسوم، نرى صوراً غريبة للخدم الذين صاروا عبيداً. ومن الممكن أيضاً العثور على معلومات تخص العبيد في بعض النقوش الكريتية.

وتعد تشكيلة الطبقات الاجتماعية في كريت الانتقال إلى دولة مركزية. بداية، كان هناك عدة ممالك صغيرة تتحد بالتدريج بامبراطورية عظيمة وعاصمتها كنوسس، في شمال

الجزيرة. وكانت الامبراطوريات الكريتية تمتلك أيضاً أراضي في جزر بحر إيجة وفي جنوب شبه جزيرة البلقان. يديرها حكام يفرضون عليها الضرائب.

وعلى رأس الدولة الكريتية، ملوكٌ كهنةٌ حملتهم الأرستقراطيةُ إلى السلطة. ولقد حفظ لنا الموروث التاريخي اليوناني اسم مينوس، أحد أعتى أباطرة كريت. بل يفترض أنه ليس إسماً شخصياً، بل لقب الملوك الكريتيين. وفي أيامنا، رفعت الأنقاض من قصر كنوسس العظيم ونظف ليصير مقراً لهم. إنه لصرح واسع، ذو طابقين، يشغل مساحة من الأرض تبلغ ٢ هكتار تقريباً. فيه عدة مئات من المحالّ -قاعات فخمة، غرف وملحقاتها- نضدت بمهارة حول باحة واسعة. من غرف الأبهة، لم تُصَنْ إلا اثنتان: قاعة العرش وقاعة الحوض-الحمام؛ واختفى الباقي مع الطوابق المهدمة. لكن الطابق الأرضي، المكاتب وغرف الخزينة مازالت بأحسن حال، و١٨ بيت مؤونة تختزن الخوابي، الورشات الملكية والسجون. وعثر أيضاً على مدرج مسرح مخصص لـ ٥٠٠ مشاهد. وكان في القصر تمديديات ماء، وأقنية، تؤمن الراحة والأبهة النادرة. وتعطي جداريات أروقته مجموعات فخمة وتكشف مشاهد من مصارعة الثيران التي كانت تأخذ حيزاً في قصر لابرانث عن البعد الحقيقي لخرافات اليونانية في فن عمارة ديدال *DEDALE*١ والبطل ثيزيه، والأميرة أريان والهريب مينوتور٢.

كانت الامبراطورية الكريتية تعيش وفق نهج بيروقراطي متطور يشبه نظام مصر. ينقسم الموظفون إلى قادة، مراقبين، أمين خزينة وملاحظين، يضعون على أكتافهم رموزاً (قدماً، باباً، عيناً، إلخ). وكانوا موزعين إلى مديريات: مسلحة، بحرية، تموين، إلخ. ويشكل العسكريون ميليشيات مصنفة حسب السلاح. ويحتل الدور الهام محاربون يحملون سلاحاً ثقيلاً ويركبون العربات؛ وكان عندهم للتنقل شبكة طرق مبلطة. وكان الدين هو الوسيلة الأخرى لتأمين طاعة الناس. كانوا يقنعون الشعب بضرورة تكريم الإلهة-الأم، خالقة الجنس البشري، ملكة الرجال، والحيوانات والنباتات وزوجها أو ابنها العظيم الذي (يصور

---

١ - معماري يوناني باني قصر لابرانت في كريت حيث وضع مينوتور. وحبس نفسه بناء على أمر مينوس لكنه هرب بصنع لنفسه جناحين من ريش وشمع.

٢ - وحش نصفه إنسان ونصفه ثور، ابن بازيفاي.

غالباً بشكل ثور). كان الملوك ممثليها على الأرض، الأمر الذي يعطيهم القداسة والعظمة.

إنما في كريت كما في مصر، لم يستطع الموظفون، ولا الجيش، ولا الكهنة أن يسحقوا مقاومة الشعب المستعبد. فمن حين إلى آخر، كانت تنشب التمردات والهيجانات. انبعثت إحداها، حسب إيفانس وبعض المختصين الآخرين.وفي مصر، في وقت واحد،في كريت، في نهاية الامبراطورية الوسطى، حوالي ١٧٥٠ قبل الميلاد. واحتل المتمردون القصور الملكية في كنوسس، وفوستوس وغيرها ودمروها، وردت الحكومة على هذه الأحداث بطبيعة أكثر ديموقراطية. لكن هذا لم يدم طويلاً: فلم تتأخر الأرستقراطية في استعادة موقعها وإعادة البناء بأبهة وعظمة أكثر. وحسب فرضية أخرى، انهارت القصور الكريتية في العام ١٧٠٠ على أثر هزة أرضية عاتية، آثارها بادية في مختلف نقاط الحوض الإيجي.

إن الطبيعة المنغلقة، المعادية للشعب وللحضارة الكريتية كانت السبيل الأساسي لدمارها، في أنها لغمت مقاومتها للمعتدين الدخلاء. هكذا، تثبت المعطيات الأثرية أن هجرات القبائل الرعوية، منذ الألف الثالثة، وجدت على المجرى الأسفل لنهر الدانوب في ثراس وفي اليونان الشمالي، ذات مستوى ثقافي رفيع (في العصر الحجري الجديد الأعلى مع إتقان تعدين النحاس). وفي أواسط الألف الثالثة احتلوا تساليا وأقاموا فيها منشآت حصينة (دميني مثلاً *DIMINI*)، الأمر الذي يثبت انتقالهم إلى أسلوب حياة أكثر استقراراً إذ اتسع دور الزراعة في اقتصادهم. وربما كان هؤلاء هم أسلاف اليونان القدماء.

وانطلاقاً من العام ٢٠٠٠، تتقدم القبائل اليونانية، التي كان بعضها من الآشوريين، الأيونيين، من تساليا نحو وسط اليونان وبلبونيز، كما تشير الطبقة الكثيفة من الرماد وبقايا المحال المنهوبة ووجود على هذه الأرض عدد كبير من مزارعهم، المعروفة بخزفها الأصيل، المزدان بالشرطان. وقد أفضى غزو الآشيين في حوالي العام ١٧٠٠ إلى انتزاع الأراضي الكريتية القارية وولادة، في هذه البقاع، مزارع آشية كان سكانها ملتئمين في قبائل وعشائر تقدم ثقافتهم خليطاً من الحضارة الآشية والكريتية. سماها العلم، اتفاقاً، "الحضارة المسنية (١٧٠٠-١١٠٠) نسبة إلى حاضرتها مسينا في أرغوليد ***ARGOLIDE***، واعتبارها بنفس الوقت المرحلة الأخيرة من الثقافة الإيجية والمرحلة الأولى من الثقافة اليونانية.

الفصل الثالث والعشرون

أخلاق اليونان القديمة ونظامها الاجتماعي

الأخلاق، النظام الاجتماعي

كان الآشيون، في أيام استقرارهم، يعيشون النظام المشاعي البدائي. وكانت القبيلة تنقسم إلى بطون تشكل قاعدة التنظيم الاجتماعي: يضم كل بطن عدة أفخاذ. بداية، كان الفخذ تعاونية اقتصادية تدير العمل في الأرض ومنها الدولاب؛ وفي الوقت ذاته، كان يمثل منظمة عسكرية بأعضائه الذكور. وفي الحياة العائلية، تستمر بعض بقايا الأمومة، تشهد على هذا الأساطير؛ ويظهر هذا في بعض العادات القديمة التي عاشت حتى العهود اللاحقة: هكذا، صانت العلاقات الأسرية في إسبارطا في العهد الكلاسيكي بقايا الزواج الجماعي. وكانت اتحادات البطون تسمى قبيلة؛ كان سكان آتيك وآثينا موزعين على أربع قبائل والسبارطيون: ثلاث قبائل؛ أما عدد البطون، حسب الكتاب اليونان الذين يقولون إن في إسبارطة ٢٧ بطناً وفي آتيك ١٢ بطناً، معلومات مشكوك بها. فالعدد على الأرجح أكثر من هذا بكثير. وعلى رأس كل بطن، زعيم منتخب.

الحضارة المسينية *MYCENIENNE*

في اليونان الوسطى وبلوبونيز، اصطدم الآشيون برعايا أصليين أقدم بكثير، قبل - الهلينية، كانوا قد خضعوا لنفوذ الثقافة الايجية الواسعة، وأقاموا في الحاضرات الموجودة: في مسينا، في تيرانت (أرغوليد)، في آثينا وبعض قصبات آتيك، في بيلوس، في آتيب وغيرها. أباد الآشيون جزئياً أبناء البلد أصحاب الحضارة الأسمى وانصهروا مع من بقي منهم، واقتبسوا منهم أشكالاً اقتصادية أرقى: انتشار البرونز لصنع الأسلحة والأواني المنزلية، وطرقاً جديدة في البناء، وزراعة متقنة (بذر القمح، الشعير، الفول، العدس والزيتون). ومهن مثل صنع الفخار، السباكة، الحدادة وصناعة الذهب التي أخذت بُعداً بعيداً؛ انفصلت الصنعة عن الزراعة وصارت فرعاً مستقلاً في مجال الإنتاج. وبدأ نظام

المشاعية البدائي لدى الآشيين يتفكك: صارت نبالة الدم، المغتنية والوطيدة، حوالي القرن ١٦ قبل الميلاد، صارت تدريجياً الطبقة المسيطرة. ومن القرن ١٦-١٤ قبل الميلاد، بني في مسينا، وتيرانت، ورشوفين قصوراً فخمة محاطة بجدران منيعة تسمى "العمالقة"؛ وفي تيرانت، مثلاً، يبلغ سمك هذه الجدران، المبنية بالصخور الضخمة، ٢٠م. واشتهر "باب ليون" في مسينا، في العهود القديمة.وكانت قصور مسينا أضيق من قصور كريت. ولاتشبه عمارتها عمارة كريت، لأن قسمها الرئيسي هو "*MEGAROM*"، مسكن واسع فيه موقد، غير موجود في كريت. ومن جهة أخرى، تكشف الجداريات والأعمال الفنية الأخرى أن قصور مسينا رافدة للحضارة الكريتية. ومقابر نبلاء مسينا (والأقبية العميقة) والقاعات الضخمة القائمة على الصخور، أصيلة جدا. فقد عثر، على الهياكل العظمية، كمية من الأغراض الذهبية: أقنعة، أكاليل، زنانير وحلي؛ والأروع، هو السيوف البرونزية ذات المقبض الذهبي الدقيق الصنع. إن القصور المنيعة والمقابر البهية تشهد على اقتسام طبقي للمجتمع المسيني. وامتلاك النبالة العسكرية عددا من العبيد الذين أسروا في الحروب والذين يكلفون ببناء الصروح "العملاقة".

وكان بسطاء الناس، أعضاء المشاعات، سكان الضيع الفقيرة، يفقدون تدريجيا حصتهم بالأرض، يسقطون في تبعية النبلاء أو يتحولون إلى محاربين لصالحهم يجوبون على ظهر السفن الجزء الشرقي من البحر المتوسط. وقد أفاد البحارة المسينيون من خبرة الكريتيين.

اختار الآشيون الكتابة الكريتية. وفي العام ١٩٣٩، وفي الخمسينيات، لدى تنقيب بيلوس في مسينيا،جمعت المئات من الرقم الفخارية المغطاة بالكتابة الكريتية *B*؛ وثمة علماء سوفيات وأجانب يعملون على حلها (انظر) صفحتي ٣٠٧،٢٩٧). تتضمن هذه النصوص معطيات حول العلاقات الاقتصادية والاجتماعية (بخاصة فيما يتعلق بالعبيد واستخدامهم في العمل بالقصور). وفي الخمسينات عثر على صفائح تشبه صفائح مسينا.

وحوالي العام ١٤٥٠ قبل الميلاد، احتل الآشيون جزيرة كريت ودمروا قصور ملوك كنوسس، وبعيد هذا، قطن الآشيون والقبائل تمت لهم بالقربى في بعض الجزر رودس، قسم من قبرص) والساحل الشمالي-الغربي من آسيا الصغرى. ولقد استوحيت هذه الأحداث طبعا من أسطورة حرب طروادة (حوالي العام ١١٨٠ قبل الميلاد)، الواردة بعبقرية في

إلياذة هوميروس. هكذا، تذكر، قبائل، قادة وأبطال من قصائد هومروس: مثلاً، "أكيـــاوا"-آشيون، "أكاغامونا"-ربما كان أغاممنون.

اجتياح الداريين. العصر الهوميري. بداية عصر الحديد

نقرأ في وثائق شرقية من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى جانب الآشـــيين أســماء جماعات أخرى قبلية يونانية، مثل الـ"جافان *JAVANS*": الأيونيـــون. وحوالـــي ١١٠٠، تحرك اتحاد قبلي كبير من الداريين الآتين من شمال غرب شبه جزيرة البلقـــان، تحـرك باتجاه الجنوب. تغلغل هذا الحشد المقاتل الأقل حضارة من الآشيين، في القـــرن ١١ قبـل الميلاد في اليونان الأوسط وبلبونيز. اقتحم الداريون أرغوليد واستولوا على مسينا والمراكز الأخرى. اختلطوا بالرعايا المحليين واستبعدوا قسماً منهم. دمرت مسينا وفقدت إلى الأبـــد أهميتها السياسية والثقافية. واجتاح داريون آخرون لاكونيا، لكن بعد صراع طويل وضــار. وهنا، في وادي أوراتس، ولدت فيما بعد، في القرن التاسع، دولة إســـبارطة. وقســم مـــن الآشيين الباقين، التحفوا الجبال صعبة المسالك في شمال ووسط البلبونـــيز، أي المنـــاطق المسماة فيما بعد أركاديا وأشايا *ARCADIA ET ACHAIE*.

لم يعان قسم من أرض اليونان القارية والجزيرية، بخاصة آتيك، موطـــن الأيونييـن وعدد كبير من الجزر الإيجية، من الاحتلال الداريني. ومرحلة الأيونيين في شبه جزيـــرة البلقان غير محدودة.

إذن في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، تشكلت الجنسية اليونانية القديمة. وانقســـمت إلى مجموعات قبلية: أيونية، دارية، آشية وأيولية، التي تتكلم كل منـــها لهجتـــها الخاصـــة وتمتاز بتطورها الاقتصادي، الثقافي والخلقي.

نجم عن غزوة الداريين إلى حد ما انخفاض المستوى الثقافي: توقف بناء القصـــور، وسقطت التجارة والصناعة والفن في هاوية الانحطاط. وانحسرت العلاقات الاجتماعيـــة. توطد العشير من جديد، وتراجع استخدام عمل العبيد. نجـــم هـــذا بســـهولة، لأن مراكـــز الحضارة الميسينية كانت محاطة بالقبائل التي تعيش عهد الأبوة. وفي ذات الوقـــت، تعلـم اليونان استخدام السلاح الحديدي (السيوف، والقذائف -الحراب- الســـهام وأدوات حديـــدة أخرى؛ وبدأت صناعة الحديد، المقتبسة من آسيا الصغرى بالتطور. واستعاد إيقـــاع نمـــو القوى المنتجة تسارعه.

إلى هذه الحقبة من الزمن تنسب روائع الفن الشعبي في اليونان القديمة: الإلياذة والأوديسة، القصائد الملحمية المنسوبة إلى هومروس، الشاعر الأعمى الخرافي. تعكس هذه القصائد مشاهد من الحياة الثقافية والاجتماعية في الحقب المسينية وبعد المسينية (من القرن ١٢-٨ قبل الميلاد).

تشغل الالياذة والأوديسة أحد أهم الأمكنة في الأدب العالمي؛ فمن الطبيعي أن مسألة معرفة متى، أين وكيف ظهرت هاتان الملحمتان، تهم الحضارة الإنسانية. ففي القرن الثالث قبل الميلاد، كان بعض علماء اليونان يشك بوجود هوميروس. وبعد ألفي عام، في نهاية القرن ١٨ وبداية ١٩، طرح العالم الألماني فريدريك أوغست وولف من جديد، بكل حدة، مسألة هوميروس باعتباره ناظم الالياذة والأوديسة. وفي كتابه معلومات تمهيدية عن هوميوس (١٧٩٥) يؤكد وولف أن هذه القصائد ولدت عفواً من أغان شعبية ملحمية. لكن "الموحدين"، خصوم وولف (منهم شيللر وغوته) يشيرون إلى ان الوحدة الفنية في أشعار هوميروس تفترض شاعراً عبقرياً . واليوم، يرى أغلب الاخصائيين أن القصيدتين كتبتا فعلاً، إجمالاً، بقلم كاتب نابغة (هومروس؟) في نهاية القرن ٩ أو بداية القرن ٨ قبل الميلاد؛ لكنه لم يفعل أكثر من أنه جمع بمهارة وأرابة في كتاب واحد أعمالاً فولكلورية (ملاحم مغناة خلال عصور بحناجر شعراء "منشدين").

تعكس أشعار هوميروس عدة قرون من حياة اليونان القديمة. نقرأ فيها (بخاصة الإلياذة) قصص أحداث، نماذج ومشاهد من أيام ازدهار المسينيين، الذين سبقوا الاجتياح الدوري. ويعود موضوع الإلياذة نفسه إلى أوج المسينيين وأسبقيتهم في أثناء الحملة ضد طروادة التي شنها الآشيون المتحالفون تحت قيادة آغاممنون، ملك المسينيين "الغني بالذهب" (في حوالي العام ١١٨٠ قبل الميلاد. تستدعي هذه القصيدة حرب طروادة، أو بالضبط أحد فصولها الأخيرة: الهزيمة الساحقة التي ألحقها الآشيون بالمدافعين عن "طروادة العظيمة". لكن المضمون الأساس للإلياذة يميز اليونان بعد الاجتياح الداري وحتى بداية القرن الثامن قبل الميلاد يونان "عصر هوميروس". هكذا، ذكر فيها السلاح الحديدي كثيراً ولم يكد يذكر السلاح البرونزي لندرته. فنستخلص أن الحديد كان قد عرف وانتشر، لكن الشاعر يصف الزمن الذي كان فيه هذا المعدن زمناً غريباً. وتشير الأوديسة إلى عودة أبطال طروادة، وإلى الحياة اليومية لزمن السلم. هنا، يكرر الحديد ثلاث مرات أكثر مما في الالياذة، إنما

نصادف هنا النحاس والبرونز أكثر أربع مرات من الحديد. أخيراً، تتحدث بعض المقاطع، عن تشكيلة المجتمع العبودي، المنقسم إلى طبقات، أي أنها تخص مرحلة لاحقة.

عاش المجتمع "الهوميري" من القرن ١١-٩ على قاعدة الاقتصاد الطبيعي، أي أن سكان كل ضيعة ينتجون كل مايستهلكونه. أساس الاقتصاد التدجين: الدابة هي وحدة القيمة. مثلاً مرجل ضخم من النحاس يساوي ١٢ ثوراً، شابة عبدة-أربع ثيران. وللزراعة، في الشعر، المقام الثاني: وكأنهم لايملكون سوى المحراث الخشبي الذي لايعمل إلا في الأرض الطرية، والوديان الغرينية؛ إذن الزراعة في حالة متطورة: يبذرون الحنطة الرومية، الشعير، ويزرعون البقول والبساتين المثمرة. والصناعيون، الطبقة الوسيطة التي تميز الحراث ومنتجي المواد المباعة في السوق، غير موجودين بعد. يشار إلى مهنيين يعملون بناء على طلب، عمال الفخار،صناع الجلود، الحدادون، البناؤون، وصناع الذهب، الشعراء المنشدون، نذيرو الحرب، يشغلون جميعاً وضعاً كريماً ويسمون "من يعمل من أجل الشعب" (الصناع). والإله هيفا ستوس الذي يعمل في محل حدادة وفرن له، بسندانه، ومطارقه، يبدو الممثل الرئيس لمهنة الحدادين.

العلاقات المتبعة والتجارة والنقود غير موجودة. إنما عدا وصف هذه الحياة المنعزلة عن العالم الخارجي، تحكي الأشعار قصصاً عن البحار البعيد؛ والأوديسة نفسها تسرد تجوال وتطواف أبطالها. وأوليس تتحدث هنا عن سفرها إلى مصر؛ وثمة حكايا أخرى عن رحلات بحرية، على رأسها الأعمال التجارية. في اليونان-هوميروس، لم تكن المدينة، بصفتها مركز صناعة وتجارة، قد وجدت بعد؛ فالأشعار لا تصفها أبداً، سوى مقطع واحد في الأوديسة حيث، مملكة *PHEACIENS* "المغرمين بالمجذاف"، نرى مرفأ تجارةفعلياً.

هي ذي الحقبة الأخيرة من العهد الهوميري التي وصفت في هذه الأغنية الأوديسية.

والمجتمع الهوميري مؤسس على العشير لكن هذا يتفكك، لأن الأرزاق المنقولة وحتى البيوت ملكية خاصة؛ فقط استمرت الأرض ملكاً للمشاعة، المنقسمة إلى أسهم يتمتع به من تلقاه مدى الحياة. لذا لوحظ فرق واضح في الثروة. شيوخ العشير يحوزون عدة أسهم،واسمهم يعني "من بتصرفه كثير من الأرض".

والنبالة الغنية والمتنفذة تشغل، بعامة، وضعاً متميزاً. إنها تمتلك عقارات منتزعة من عقارات المشايعين يسميها هوميروس "*TEMANAS*". وتشهر أشعاره فقط الحياة الهادئة

والواقعات المسلمة لهذه النبالة. في أيام السلم، يعيش الأرستقراطيون بأسر كبيرة في أملاكهم، يخدمهم العبيد. فعلاً، لم يكن عدد العبيد كبيراً، ولايمكن وصفهم بـ"ملكية حية" كما قال أرسطو فيما بعد. نبلاء هوميروس يقاسمون عبيدهم حياتهم. هكذا، *NAUSICAA* "ذات الذراعين الأبيضين"، ابنة النبيل *ALCINOUS*، تغسل الغسيل على البحر مع عبيدها؛ و*EUMEE*، عبد-راعي الخنازير، هو رجل ثقة لدى *ULYSSE*، إلخ. لكن العبيد في المجتمع الهوميري يمثلون الشريحة الخادمة في هذا المجتمع، جنين الطبقة العبدة القادمة.

وتفكك مجتمع العشير ثابت أيضاً بالفرق الواضح في قلب المشاعة. فأشعار هوميروس تصف الوضع الحزين للأعضاء الذين فقدوا عقاراتهم ويخدمون النبلاء؛ وثمة أيضاً مسألة المهاجرين واللصوص المسلوبين النار والمكان، بل كل الحقوق.

لم يكن المجتمع قد انقسم إلى طبقات فليس ثمة دولة؛ ولم تفقد التنظيمات الإدارية والقضائية بعد صلاتها المباشرة مع الشرائح الشعبية ولاتعبر فوقها. السلطة الوليدة تتركز شيئاً فشيئاً في يد الملاك المنحدرين من نبلاء الدم؛ "ومجالس الشيوخ"، المجتمع حول الملاك، يتكون من ممثلي الأرستقراطية. لكن جمهرة الناس البسطاء، أعضاء المشاعات، يحفظون حقوقهم. والنبلاء (بخاصة في أيام الحرب) يهتمون بالناس، ويقيمون وزناً لإرادة الجنود البسطاء وهم مضطرون للاجتماع من أجل اتخاذ القرارات الهامة. يسمي ماركس وانجلز هذا النظام "الديموقراطية الحربية. فالديموقراطية العسكرية هي إذن التي تميز العلاقات السياسية والمرحلة الانتقالية بين المجتمع البدائي ومجتمع الرقّ المنقسم إلى طبقات، الذي تلاه.

انبثاق دين الآلهة الأولمبيين

ظهرت الإيدولوجيا الدينية في الحقبة الهوميرية. وخلق الفن الشعبي ليس فقط أغانٍ ملحمية، بل أيضاً "أساطير"، خرافات تتعلق بالآله، بأنصاف-الآلهة وبالأبطال. وتعبر الأساطير عن عدة مفهومات في قوى الطبيعة وفي موقف الناس من هذه القوى في مختلف العصور من حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. إجمالاً، الأساطير من مصدر ديني.

نصادف غالباً، في الأساطير اليونانية آلهة بأشكال حيوانية. يؤكد هذا أن هذه المعتقدات تعود إلى حقبة مختلفة عن المجتمع الطبقي، إلى الإيدولوجيا الطوطمية للأزمنة الغابرة. هكذا، كانت عبادة الأفاعي التي تمثل القوى الشيطانية (لذا سميت هذه العبادات

"*CHTONIENS*" من الكلمة اليونانية *CHTOM*، الأرض)، كانت منتشرة جداً منذ أقدم العصور. يمثل "*ERECHTEE*"، بطل ونصف-إله لآتيك، بصورة تنين ضخم يسكن الكهوف الصخرية في الأكروبول التي كان يحميها. وفي آثينا، عاشت طويلاً عادة تقديم القرابين على منحدرات الأكروبول لهذا التنين المحسن. وبني باسمه وعلى مجده، في وسط الأكروبول، الهيكل أو المعبد المسمى "*ERECHTEION*".

وكان أبولون "المشرق" أو فويس، إله الشمس، كان أيضاً مرتبك صميمياً بعبادة ثعبان ضخم، يقيم في كهف عميق من برناس قرب ديليف. ومن هنا لقب "بيتيان" المعطى لأبولون ولقب بيتس المعطى لآلهات المعبد، التي تأتي العجائب. وبعد أن قتل بيتيون بضربةسهم، بنى أبولون معبده في هذا المكان؛ وهو نفسه، وقد أخذ شكل دلفين، يسبح في البحر. ويظهر لبحارة كريت، ويطلب أن يبنوا له قرب هذا الهيكل معبداً. لذا سمي هذا المكان "دلف" وهو نفسه "دلفيني". عدا دلف يوجد في اليونان محال كثيرة ترتبط بعبادة أبولون-دلفيان.

وتمجيد الذئب ترك هو الآخر آثاراً عديدة، وأمكنة عبادة عدد كبير من الآلهة الأحدث تحمل اسم *Lycee* (مثل ليسي آثينا). الآلهة المعبودة هنا تسمى "الذئب" (مثلاً، زيوس ليسيان، أبولون ليسيان) كورثة أو أخلاف للعبادات التي تركوها. والبومة كانت تعتبر في آثينا طائراً مقدساً؛ وفيما بعد صار وصف آثينا "بعيون بومة"، الإلهة التي تحمي آثينا. وعبادة النباتات انتشرت واسعة في اليونان القديمة. وفي دودان بايبيريا كان يوجد وسيط للوحي[1] شهير؛ كان يوجد هنا سنديانة ضخمة، عمرها مئات السنين حتى اعتقدوا أن زيوس يسكن فيها. "يتنبأ"، الكهنة بالمستقبل حسب حفيف أوراقها.

وآثار الإحيائية، البارزة جداً في ذروة نظام العشير، تضاف إلى هذا الأساس الأقدم. وبالنسبة لليونان، تتجسد الطبيعة بكائنات نصف-بشر ونصف حيوان: بشر بأفخاذ تيس، أو مقدمة حصان ومؤخرة بشر، وحوريات البحر بذيل سمكة. وأرواح الغابات كانت حوريات الغابات، وأرواح البحار كانت آلهة أمواج سمكية الشكل، إلخ. كان الناس يعتقدون أن العلاقات الجيدة فقط مع هذه "الأبالسة" يمكن ان تؤمن للإنسان حياة سعيدة وأمينة (فلسفة

---

[1] - كاهن او كاهنة عند الاغريق يعتقد أن الإله يجيب بواسطته عن سؤال حول أمر من أمور الغيب.

السعادة *EUDEMANISME*) والموقد البيتي يعتبر مقدساً، لأنـــه كـــان مرتبطـــاً بعبـــادة الأسلاف. ويزين هذا الموقد بالأزهار، وتعامل شرارته بعناية، وترمى فيه أعشاب عطـــرة. الخطيبان، وحديثو الولادة، يقدمون له، والمنفيون يلجؤون إليه. وتمجيد الأسلاف، المرتبـــط صميمياً بعبادة الموقد المنزلي، كان واسع الانتشار في اليونان،حتى في الزمن التــــاريخي. والوثائق التي وصلتنا تزودنا بشواهد كثيرة.

وتقديس ديمتر *DEMETER*، الأرض المرضع، أخذ مدى واســـعاً. ففـــي ايلوزيـــس (البقعة الأخصب في جزيرة أكيل)، صارت واحداً من أهم مراكز هذه العبـــــادة، ظـــهرت أسطورة خطف ابنة ديمتر، كوري *CORE* (تجسيد تجديد الربيع)، من قبل قـــوى الظـــلام العائشة في أعماق الأرض. كانوا يعتقدون أن الطقوس المعقدة والغامضة وحدها (الأسرار، الطلاسم) تستطيع إقناع ديمتر، الحزين والهائج، أن لايحرم الأرض من طاقتها المنتجة.

مع تفكك نظام المشاعية وتوطيد أرستقراطية الدم العسكرية، يظهردين جديد ومعقـــد، دين آلهة الأولمب، سادة السماوات، "سكان الأعالي" و"ملوك العالم"، الذين يفـــترض أنـــهم يقيمون فوق جبل الأولمب. كانوا أعضاء "عشير إلهي"، يشبهون نبلاء الأرض،وكانوا قـــد اقتسموا الكون؛ ونضيف أن الأرض تبقى ملكهم المشترك. الآلهة الكبار هـــم ثلاثـــةأخوة: "زيوس إله الرعد، إله الغيوم"؛ بوزيدون، إله البحر، واديثوس، إمبراطور جهنم.

المظفر بوزيدون يجيب:

نحن ثلاثة أخوة، أبناء كرونوس وريا:

زيوس، أنا، أدينوس، الثالث الذي يحكم جهنم.

قسم العالم إلى ثلاثة أقسام، لكل امبراطوريته.

حصتي، عندما أجرينا القسمة،

أن أسكن أبدا البحر المزبد؛

ولأدينوس مملكة الظلمات؛

ولزيوس، السماء الواسعة في الأثير وبين الغيوم؛

لكن الأرض تبقى للجميع، وكذلك

الأولمب العالي".

(الإلياذة، النشيد ١٥، ١٨٦ وبعده).

ثم يأتي الجيل الأصغر من الآلهة، أبناء زيوس. كان هفاستس، ابن زيوس وهيرا، إله النار، والحدادة وحامي فنون صناعة المعدن. الـ"مشرق" أبولون أو فوبس، إله الشمس، يجوب السماء على مركبته النارية، وأرتمس، إلهة القمر، ملكة الغابات والحيوانات المتوحشة، القناصة التي لا تتعب، كانوا أبناء زيوس والإلهة ليتو. وهرمس، ابن زيوس والحورية مايا *MAIA*، كان الرحالة الأبدي، بشير زيوس، سيد السواح وقائد أرواح الموتى لدى إله الجحيم. بعد هذا، إله الحرب الدامية، آثينا، الإلهة الذكية، حامية المدن، وأفروديت، ابنة زيوس وديونس، إلهة الحب والجمال، مع ابنها إيروس، الخبيث والمتمرد، يشكلون أيضاً جزءاً من الآلهة الأولمبيين. ولقد اقتبس كثير من هؤلاء الآلهة من معتقدات الرعايا قبل الهلينية، مثل، أرتمس، لإلهة الحيوانات، وأفروديت ذات "الشعر الذهبي" التي حسب بعض الأساطير، ولدت بأعجوبة من زبد البحر كانت ممجدة بخاصة في جزيرتي قبرص وسيثير، اللتين خضعتا لتأثير قوي مينوي وشرقي. وقد خلقت اليونان نفسها باقي الآلهة. وأعطاهم الشعراء المنشدون شكلاً يلائم ذوق وروح النبلاء القريبين منهم. لذا كان آلهة الأولمب ليس فقط إنسانيي الشكل، بل يمتازون بهيئة "أرستقراطية". يعيشون حياة البطالة والبذخ في قصورهم الذهبية، كما تستقر الأرستقراطية السماوية تنغمس بالرحيق والكوثر الإلهين اللذين يعطيان الخلود، ويصغون إلى الأغاني العذبة من الحوريات. على ذلك، المنازعات والمشاجرات تكثر بينهم كما هي عند نبلاء الأرض. وإن أتى الآلهة من حين إلى آخر لمساعدة الملوك، الذين هم شفعاؤهم، كما حدث مع أوليس، يتأملون بالـ"رصانة الألمبية" آلام الناس البسطاء. في يوم آخر قرر زيوس إغراق كل الناس؛ لكن اثنين فقط أنقذهما بروميته، ومن هذين الاثنين تتجدد البشرية. التي خرجت من حياة البؤس والحيوانية بفعل النار التي سرقها من السماء بروميته نفسه. عاقب زيوس بقسوة التيتان المتمرد، بربطه إلى صخرة قفقاسية وبإرسال نسر له كل يوم، طيره المفضل، لينهش الكبد الجريح.

استناداً إلى هذه الأسطورة نرى "ديناً أولمبياً" جديداً أو "دين ويوس" يتوطد في اليونان جزاء نضال حاد. وخرافات عديدة عن "تيتان" عن "عمالقة" وأبطال مقدسين تعطي فكرة واضحة عن هذا الصراع. كان البطل المفضل لدى الشعب هو هرقل الذي عاش حياته بخدمة أورستيه، الملك الفظ والجبان؛ بشراسته الغريبة، كان هذا الشجاع المقدام يجسد قوة الطبقات الشعبية، التي ترهب النبلاء. ينفذ ١٢ عملاً صعباً. وفيما بعد، يباع عبداً، يخدم

ملكة ليديا أومفال التي تلبسه ثياب امرأة ليقوم بأعمال نسائية. كانت صورة هرقل، رمز الكادح التعس، عزيزة غالية لدى عامة الناس.

أسطورة آنيته *ANTEE*، ابن الأرض، الجبار الموهوب يستمد بأساً فريداً من ملامسة الأرض، هي الأخرى إبداع فن شعبي. تعكس هذه الخرافة وعي المزارعين ببأسهم ودورهم.وتعبيراً، على الأرجح، عن نزعة أرستقراطية، تقص هذه الأسطورة معركة فريدة بين أنيته وهرقل، الذي يخنق خصمه برفعهِ ليعزله عن أمه (الأرض).

هكذا تجد مختلف مراحل تطور النظام الاجتماعي القديم وأشكال النضال الايدولوجي البسيط، تجد منعكسها في أساطير ومعتقدات اليونان. وفيما بعد، في زمن المجتمع العبودي المتطور، يتحول آلهة الأولمب إلى مدافعين عن مختلف عناصر الحياة السياسية. آبولون، مثلاً، صار حامياً للكهنة والمقدسات؛ بوزيدون–حامي البحارة، هرمس–حامي التجار. وعلى نطاق واسع تداول الدين رجال الأدب والفن في اليونان القديمة ليدعموا ويوطدوا أيديولوجيا الرق والعبودية.

الفصل الرابع والعشرون

بعض الطبقات الاجتماعية والدولة في اليونان (القرن ٨-٧ قبل الميلاد)

المجتمع اليوناني وفق هزيود[١]

يتميز عصر ما بعد هوميروس بتبدلات عميقة في اقتصاد اليونان ونظامها السياسي. إذ تسارع تفكك النظام المشاعي البدائي بعد تحول، في بعض المناطق، الأرزاق والأسهم العقارية إلى ملكية خاصة أسرية.. وبدأت الأسر المرتاحة تنفصل أكثر فأكثر، واستغلالاً لتميزها الاقتصادي، راحت تحتكر وسائل الإنتاج الأساسية في المشاعة العشيرية: الأرض، الحيوانات والعبيد. وشرع المزارعون الأحرار يسقطون شيئاً فشيئاً في أتون التبعية للنبلاء، وراح يزداد عدد المضطرين للتخلي عن أرضهم والتسيب عبر الوطن بحثاً عن عمل.

يرسم الشاعر هزيود لوحة معبرة عن تحكم نبلاء الدم بجمهرة المنتجين (نهاية القرن الثامن-بداية القرن السابع قبل الميلاد). كانت بيوتيا، بلد الشاعر، منطقة تضم عدداً كبيراً من الاقطاعات الفلاحية الصغيرة. مجد هزيود، المالك الصغير، العمل الفلاحي. "العمل، أياً كان، لايعيب الإنسان: العار والشنار في التبطل".

وفي قصائده "الأعمال والأيام"، يرسم متعاطفاً شرط حراث فقير، سقط بين يدي غني مالك عقاري ومرابي. كانت بيوتيا تعيش في هيمنة ثلاثين نبيلاً عقارياً يصفهم هزيود "أكلة الهدايا"، " الشريحة الظالمة"، أغنياء بالأرض، بالحيوان والعبيد. وفي قصيدة "الباز والعندليب" يثير اضطهاد الناس المساكين. يأخذ البازُ العندليبَ بين مخالبه، ويخاطبه:

---

[١] – شاعر يوناني، ولد في أسكرا حوالي أواسط القرن الثامن قبل الميلاد، ناظم أشعار تعليمية: الأعمار والأيام، ونسب الآلهة.

أيها البائس، لمَ تصرخ؟ أنت من فصيلة
أقوى منك. ستذهب حيث آخذك،
كونك مغنياً ماهراً مخملياً
ومنك، حسب رغبتي، سأجعل وجبة أو أطلقك
حراً
مجنون من يقاوم من أقوى منه:
لن يظفر وإلى الخجل يضيف
المعاناة (شعر ٢٠٥-٢١٠)

كان هزيود بعيداً عن التفكير بنضال سياسي من الطبقات الفقيرة، وليس له سوى أن يهدد "الملوك أكلة الهدايا". يقول: إن العقوبة الإلهية ستضرب المستبدين والقضاة الجائرين، على ذلك، يرى أن الظلم منتصر حتى في السماء. وفي قصيدة أخرى، "نسب الآلهة"، يقدم زيوس كطاغية سماوي، ينزل بالجبار بروميثه، صديق الناس، أفدح الأوصاب.

هكذا تدل أشعار هزيود إلى المرحلة التي تلت عهد هوميروس، بخاصة تفكك المجتمع الأبوي وولادة تشكيلة العبودية؛ مجتمع منقسم إلى طرفين متعاديين: طرف المسيطرين، أي الملاك الكبار أصحاب العبيد، المرابين، "والبسطاء غير الخالدين" المستغلين من قبل الآخرين؛ البؤساء، المحرومين من أي حق، الذين يعيشون أشبه بالعبيد. كما تبدو الحياة لهزيود قاسية وظالمة؛ يقول إن الـ"أرض" مترعة بالمتاعب والآلام، وكذلك البحر.

هي ذي العلاقات الطبقية التي توطدت في القرنين ٨و٧ قبل الميلاد ليس فقط في بيوتيا، بل أيضاً في كل مناطق اليونان.

أولى الحاضرات اليونانية

في هذا العهد ولدت الحضارات، المدن-الدول العبودية التي تجمع حولها وتضم الأرياف المحيطة. كانت هذه الحاضرات نموذجية من أجل تطور اليونان اجتماعياً. سمي هذا التطور الانصهاري ("تجمعاً").

ترافق تشكل الحاضرات مع رواج التجارة والحرفة التي انفصلت عن الزراعة. بنيت أغلب هذه الحاضرات، التي عرفت في القرن الثامن، على الشاطئ. هكذا كانت مدن إيونيا مثل ميليه، ومدن الجزر المحاذية لآسيا الوسطى: ميتيلين، سامس، ثم إيجن في خليج

سرونيك، آثينا، كورنث، ميغار، شلس وغيرها.وكانت المدن العبودية الأكثر نموذجية تمتد على طول الطرق البحرية الرئيسة، من الشرق إلى الغرب، الأمر الذي يشير إلى الصلة بين تطور العبودية ورواج التجارة والمواصلات البحرية. يكتب ك.ماركس: "في العالم القديم، أفضى العمل التجاري وتطور رأس المال البضاعي دوماً إلى اقتصاد الرق؛ حيث، حسب وجهة انطلاقه، يمكن أن يفضي إلى تحول بسيط في نهج الرق الأبوي المتوجه نحو إنتاج فضل القيمة.

وظهر في الوقت ذاته الشكل القديم للملكية العقارية: فقط، مواطن الحاضرة يقدر أن يمتلك أرضاً داخل الحاضرة.

كانت الحاضرة مركز استغلال عم العبيد والفقراء. فنبلاء الدم حولوا كل ما فيها من مؤسسات أبوية إلى أدوات لسلطتها. استبعدت رؤساء أو شيوخ العشير لتقيم الـ"أولغارشية" مكانهم، أي سيطرة بعض الأسر النبيلة. أما دور المجالس الشعبية فقد تراجع إلى العدم. بل هو من الآن لعبة بقدم الأرستقراطية.

هكذا استبدلت المشاعة الأبوية إلى مجتمع متناحر، منقسم إلى طبقات؛ والسلطة التي كانت سابقاً وظيفة إدارية بحتاً، تتجاوب ومصالح الكل، صارت أداة سطوة السلطات العشيرية القديمة. لكن الملاك العقاريين النبلاء حافظوا على بعض الأشكال الأبوية (عشائر، بطون، قبائل) كوسائل بين يدي المضطهِدين "وبالتالي، استخلص أرسطو واصفاً النظام الأرستقراطي في أتيك في القرن السابع والسادس قبل الميلاد، ... العبودية هي التشكيلة الأكثر معاناة واضطهاداً للناس البسطاء.

الفصل الخامس والعشرون

الاستعمار اليوناني في القرن الثامن حتى السادس قبل الميلاد

أسباب حركة التوسع وخصائصه العامة

أثار استعمال شواطئ البحر المتوسط، البروبونتيد وبونت – أوخن (بحر مرمرة والبحر والأسود) تبدلات ضخمة في بنية الدولة، والعلاقات الاجتماعية، والأعراف والعادات في اليونان.

إن تأسيس مستعمرات هللينية على أرض واسعة كهذه ذو أسباب اقتصادية، اجتماعية وسياسية. وغزو الأراضي على يد نبلاء الدم، انتزاع ملكية صغار الفلاحين، نمو الشرائح المهنية والتاجرة التي تختلف مصالحها مع مصالح أرستقراطية السلطة–، كل هذا بعث صراعا اجتماعيا شرسا. والشرائح الاجتماعية المعدمة أو المقهورة في هذا الصراع كانت مكرهة على ترك الوطن وترحل لتغامر في المستعمرات. والعنصر الهام الآخر هو أن كثيرا من أقاليم اليونان القاحلة كانت بحاجة لاستيراد القمح، الأمر الذي أفضى، منذ القدم، إلى أن تقيم مدن كورنثيا، ميغار، إيجن، شالسس علاقات مع المناطق الغنية بالقمح خارج الأرض اليونانية البحت. وفي بداية الاستعمار، توافد المهاجرون إلى المستعمرات، وأعطوا هذه الحركة صفة زراعية. ثم تطلب ازدياد المهن ورواج التجارة أسواقا جديدة لتصريف المنتوجات المتنامية أبدا التي تنتجها الحرف والعبيد البربر الذين صاروا اليد العاملة الرئيسية في الإنتاج اليوناني المتسع. وقد أسست المستعمرات حيث كان السكان الأصليون أنفسهم قد خلقوا مراكز تداول بين القبائل.

كانت هذه المستعمرات (يسميها اليونان أبويكيا: بعيدا عن البيوت) مستقلة عن المتروبول[1] (المدينة–الأم) وشكلت دولة خاصة بها. ولم تكن المستعمرات والمتروبول

---

[1] – أي الدولة بالنسبة لمستعمراتها.

متصلين سوى بالآلهة والتقويم المشترك، غالبا بتسمية الموظفين، التقسيم إلى قبائل، وأيضا بعض إمارات الاحترام: "كما يحترم الأبناء الآباء كذلك تحترم المستعمرات المتروبول، كتب دنيس هلكارناس (منتصف القرن الثالث). طبعا صارت المستعمرات شيئا فشيئا أسواقا رائعة ومراكز آمنة لتجارة المتروبولات، بخاصة إذا كانت هذه الأخيرة قد اشتركت بتأسيسها. في هذه الحالة، يعين المتروبول مسؤولا لتنظيم المستعمرة. كان مكلفا بإعادة توزيع حصص الأرض بين المعمرين؛ وهو أيضا الذي يرسي النهج الحكومي، إلخ.

كان الاستعمار يمتد بثلاثة اتجاهات: غربا، جنوبا وشمالا شرقا. كان يصدر من مختلف مدن شبه جزيرة البلقان، من يونان آسيا الصغرى ومن جزر الأرخبيل. وكانت المتروبولات الأهم هي: ميليت، كورنثيا، ميغار، شالسس في أوبيا.

المستعمرات الغربية

حسب الرواية، بعد حرب طروادة شرع اليونان باستعمار الجزء الغربي من البحر المتوسط. لكن المصادر الموثوقة تشير إلى تغلغل اليونان في إيطاليا وسيسيليا، لم يبدأ إلا في القرن الثامن. كان عدد المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا كبيرا، بحيث عمد القدماء هذه المنطقة باسم اليونان الكبرى. كان اليونان قد انشدوا إليها للطف مناخها، خصوبة أرضها، غنى مراعيها، كثافة الغابات التي تقدم الخشب لبناء البواخر.

كانت أقدم مستعمرة على الشاطئ الغربي هي كومس، أسسها شلسزينيو أوبيا. اتسعت كومس واغتنت بسرعة. وخلقت بدورها مستعمرات عديدة، أهمها نابولي.

في نهاية القرن الثامن، على الشاطئ الغربي لخليج تارانتو، ولدت سيباري ***Sybaris***. جعلها خصب التربة النادر وطرق المواصلات الملائمة تزدهر وتعمر بالسكان. اشتهر أهلوها ببذخهم وكياستهم. وصارت كلمة "سيباري" اسما مشتركا يعني: الشهوانيون. وفي نفس الحقبة ظهرت كروتون، مزاحمة وخصمة سيباري، لتمتعها بمرفأ رائع وشروط ليست أقل ملائمة للزراعة. حافظت على أسبقيتها حتى ظهرت تارنتو، التي أسسها حسب الخرافة السبارطيون، أيضا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. كان الترانتيون يزاولون التدجين، الزراعة وصيد السمك، ويتاجرون بالصوف، اللحم المقدد والسمك.

كانت سراكوز أهم مستعمرة يونانية أسست في سيسليا على يد الكورنثيين في بقعة غنية بالقمح، قرب أفضل مرسى على الساحل الشرقي. اتحدت مع العديد من المستعمرات:

ليونتين، كاتان، تورومن، مسينا، إلخ. وعلى ساحل سيسيليا الجنوبي انبعثت أغرجانت، الشهيرة بزيتونها. أقام الكورنثيون في جزيرة كورسير، التي قدمت مرفأ هبوط إلى الطريق الغربي. اغتنت كورسير بسرعة واضحة، وبعد بعض الوقت، امتلكت أسطولا تجاريا يحسب حسابه.

في نهاية القرن الثامن تغلغل يونان فوسيا (مدينة من آسيا الصغرى) في ثغر روما، حيث أسست مسيليا (اليوم مرسيليا). من هنا، مد الفونسيون نفوذهم التجاري على كل ساحل ميديا الفرنسية وشرق إسبانيا؛ وظهرت هنا عدة جزر يونانية. واحتكر المسيليون ملاحة السواحل وأقاموا علاقات مباشرة مع بريطانيا البعيدة التي جلبوا منها القصدير.

على ذلك، فقد اصطدم الاستعمار الغربي بمقاومة الفينيقيين. لم يستعمر اليونان سوى الساحل االشرقي والجنوبي من سيسيليا، بينما كان الغرب بين يدي فينيقي قرطاجة الذين كانت مستعمراتهم في مالطا، سردينيا وغيرها. وفيالعام ٥٣٥ قبل الميلاد، بعد معركة وحشية في ألاليا، قرب شواطئ كورسيكا، أوقف القرطاجيون حلفاء الأوتروسك تقدم اليونان نحو الغرب.

بينما كان الاستعمار الغربي حتى القرن السادس ذا صفة مسالمة، عارضت الدول القديمة في جنوب شرق البحر المتوسط، بشعبها الواسع الفقير والمتمدن، واجهت اليونان بمقاومة ضارية. مع ذلك، تأسست مستعمرتان على الساحل الشمال-إفريقي: نوكراس في مصر وسيرين في ليبيا. كان اليونان يستوردون من مصر القمح، الملح، المرمر، الخزف، البردي، العطور، الأدوية، البهارات، العاج، الأبنوس وكثيرا من الزيوت. كانت سيرين غنية بالحبوب: شوفان وشعير. ويطلعنا نقش اكتشف حديثا، يعود إلى عشرينات القرن الرابع قبل الميلاد، أن سيرين صدرت خلال ثلاث سنوات قرابة ٢٩ ألف طن. عدا القمح، صدرت السلفيوم، النبات الطبي الذي كانت الدولة تحتكر بيعه. وشيئا فشيئا، ظهرت مدن صغيرة حول سيرين، مشكلة بلدا برأسه.

مستعمرات سواحل ثراس، بروبونتد وبونت-أوكسن

كان الاستعمار اليوناني المتجه إلى الشمال والشمال الشرقي يمتد على سواحل الدردنيل، بحر مرمرا والبحر الأسود.

في بداية القرنين الثامن والسابع، شخص العديد من المستعمرات في شبه جزيرة

شلسديك، التي كان أبناء شلسيس قد بنوا أكثرها (ومن هنا أتى اسم هـذه المنطقـة. وتبـع الكورنثيون الشالسديان وأسسوا بوتيديا. وفي بداية الطرق التجارية التي تقود إلـى داخـل ثراس، إلى مضائق البلقان والدانوب، ولدت أبدير ومارونيه.

لكي لا تترك الأفضلية التجارية لليديا، أمن الملزيان مواقع لهم فـي مؤخـرة دولـة الليديين ، سكنوا على الساحل الشمالي الغربي من آسيا الصغرى وتقدموا شيئا فشيئا نحـو الشمال، من جهة هلسبونت وبروبونتيد. أقاموا سيزيك، مرفأ على الساحل الجنوبي لبحـر مرمرا الذي كا محاطا بمستعمرات ميليزية. والساحل الشمالي لبروبونتيد كان محتلا مـن المغاريين الذين، بتأسيس سلسدوان في مدخل بوسفور ثراس، استلموا مفتاح بونت-أوكسن. وعلى الساحل المقابل، عند مخرج هلسبونت، أرسوا بيزانسيا (في منتصف القرن السابع).

كانت ميليه هي التي لعبت الدور الأول في إحياء شواطئ البحر الأسـود. والقرنـان السابع والسادس، عهد تغلغل الملزيين في المناطق البونتية، كانا قد وسما بازدهـار ميليـه التجاري والصناعي. وكثير من الملزيين مخروا البحر الأسود. وفي النصـف الأول مـن القرن السابع، بنى الملزيون على ساحله الجنوبي مدينتيـن تجـاريتين هـامتين: سـينوب وترابزونت. صارت سينوب بسرعة من أهم مدن البحر الأسود. كان مرفأن تحت تصرفها وكانت تتاجر بالخشب، زيت الزيتون والسمك، وبسرعة أيضا بنت لنفسها عدة مسـتعمرات (كوتيورا، كرازونت وغيرها). وحازت هرقليا، التي بناها الميغار في منتصف الطريق بين بيزانس وسنوب، أهمية كبرى.

في النصف الأول من القرن السادس، شخصت مستعمرات أستريا وتومس وأبولونيـا على الشاطئ الغربي، في جنوب الدانوب. وخـلال ١٥٠ عامـا (مـن القرنيـن السـابع والخامس) ظهرت ثلاثة مواطن أساسية للاستعمار الهلليني على الساحل الشـمالي للبحـر الأسود. الأول أولبيا، يقع على الشط الأيمن من هباني. وفي القرن السادس قبـل الميـلاد، بنى تيراس على الشاطئ الأيمن من ليمان دنستر، ومدن مملكة البوسفور المقبلة، بانتكـابي ومنغوريا من جهتي مضيق كيريت. وفي القرن الخامس، ظهرت شرسنير فـي الطـرف الجنوبي لشبه جزيرة توريد. كانت هذه المدن قد بنيت على الساحل أو جـواره. وكـانت طرق المواصلات التي شقت فيما بعد تمتد على ضفاف الأنهر الكبرى: دانوب، ونسـتر، بوج، دنيبر. وكانت آخر نقطة من الشمال الشرقي تقع على نهر الدون الذي حملت اسمه.

وفي شرق البحر الأسود، في كولشد، وجدت عدة مستعمرات: فازيس، ديوسكوريا وغيرها.

ببناء مستعمراتهم في شمال البحر الأسود، كان اليونان يتابعون أهدافا تجارية. فثروات هذه البلاد الطبيعية، في رأسها القمح، السمك، ثم المواشي، العسل، الشمع، والملح، كانت تشد المعمرين إليها. وقد لعب ساحل البحر الأسود دورا كبيرا كسوق للعبيد يمون اليونان القارية والأرخبيل. أخيرا، خلق تصدير السمك الرائج مراكز للصناعة السمكية، مثل سنوب وبانتكابيه؛ فليس صدفة أن تحمل بعض نقود بونت-أوكسن صور السمك وأن تكون أقدم نقود أولبيا سمكية الشكل. وبالمقابل، كانت اليونان تصدر إلى المستعمرات الخمر وزيت الزيتون، ينقلونه بقوارير خاصة ضيقة الأسفل، والنسيج، والحلي، والأسلحة، والخزف وسواها. على ذلك، لم تتأخر هذه المدن عن صنع، بمساعدة السكان الأصليين، مختلف المواد لكي لا تستوردها من المتروبول.

النتائج الاجتماعية والاقتصادية للاستعمار

لقد ساهم الاستعمار إلى حد بعيد بتطور اليونان اجتماعيا وسياسيا. فالمدن اليونانية، وقد صارت مراكز البلاد الاقتصادية، كانت تحاط بضواحي تجارية ومهنية. وقد تسارعت عزلة الحرفة عن الزراعة. هرعت الحرف إلى المدن، وتطورت الصناعات بوتيرة عالية، بخاصة التعدين، الخزف والنسيج. وتشكلت شريحة من التجار وصانعي الأسلحة ، ثم من المرابين. ومنذ القرن السابع، كان لدى اليونان نقود معدنية. ضربت إيجن ومدن أخرى الدراخما الفضية وأوبول[1] النحاس على السندان: سلحفاة لإيجن، سمكة مجنحة لكورنثيا، وبومة لأثينا. تخسب المبالغ الضخمة على الطريقة الشرقية: ١٠٠ دراخما تساوي مين، ٦٠ مين تسمى تالان، رغم أن هذه الوحدات النقدية غير متداولة في اليونان. فظهرت شريحة تجارية جديدة، تجمع الفضة أو النقد. وتطور الإنتاج الحرفي في عدة مدن مثل ميليا، رودس، سامس إيجن، ميغار كورنثيا وأثينا، وكانت هذه السلع معدة للتصدير.

صارت مراكز التجارة والمهن أيضا مراكز للرقيق. ولما كان مردود العمل منخفضا جدا والتقنية بدائية، أخذ عمل العبيد أهمية قصوى. وكان الرقيق ينهل ليس فقط من دمار

---

[1] – وحدة وزن ونقد في اليونان القديمة.

وفقر الشعب اليوناني بحصر الكلمة (استخدام لقاء الديون)، بل من الحروب، ومن اللصوصية واستيراد العبيد الأجانب. في هذا العهد، لم يكن التاجر يختلف عن القرصان، وغالبًا ماتنتهي الصفقة بتعرية اسر المشترين السذج، ثم يباعون عبيدا. وصار استغلال الأجانب الأسرى الشكل المهيمن في عملية النخاسة في المدن الهللينية.

لقد لاءمت العلاقات الاقتصادية والتجارية الممارسة عبر كل مناطق البحر المتوسط ودفعت تطور الحضارة اليونانية. وكان مستوى الحياة المادي والثقافي غالبا أعلى في المستعمرات منه في اليونان بحصر الكلمة. كما أفادت اليونان القارية من مدن آسيا الصغرى، بخاصة مدن أيونيا التي كانت على اتصال مباشر مع الشرق، فيما يتعلق بالثقافة المصرية، البابلية والآشورية. ويكفي أن نذكر أن الأبجدية الأيونية، المستقاة من الشرقيين (من الفينيقيين على الأرجح) التي أتقنها الأيونيون فقط، استخدمت في العالم اليوناني كله. كما أن الشرق علم اليونان صب التماثيل من المعادن، الأمر الذي ساهم بتطوير فنونهم التشكيلية. وفي إيونيا نظمت انطلاقا من الأغاني القديمة القصائد الـ"هوميرية" التي انتقلت فيما بعد إلى المتروبول وانتشرت في المستعمرات الغربية. وشهدت إيونيا وإيوليا ولادة القصيدة الغنائية، وعوامل العلم والفلسفة اليونانية (انظر الفصل ٣٣).

كان أسلوب حياة البذخ التي سيعيشها المعمرون يلائم عمارة مدنهم، المبنية بمخطط متناسق، بشوارع عريضة ومستقيمة تتقاطع بزاوية قائمة (مثلا، اغرجانت، سلنانت، شرسونيز). وفي المستعمرات أنشئت أعظم صروح العصر، مثل معبد بوزديون الرائع في بوستوم.

الصراع الاجتماعي في اليونان في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. الاستبداد.

لقد أفضت الانطلاقة القوية لقوى الإنتاج في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، في الحاضرات المتطورة، إلى العديد من التبدلات الثورية التي وضعت نهاية لنظام العشير وشرعت مجتمع العبودية المنقسم إلى طبقات.

ففي كورنثيا، ميغار، سسيون، آرغوس، ميليت، وفي جزر لسبوس وسامس، والجزر الإيطالية والسسلية، كان يدور صراع ضار ي بين مختلف شرائح المجتمع، نجمت عنه عدة انقلابات. يعود الدور الأهم بهذه الحركات الثورية إلى الشرائح الجديدة، الحرفية

التجارية، من سكان المدن، لكن القوة الرئيسة كانت في كل مكان شريحة الفلاحين، التي كانت تعاني الأمرين من نير النبلاء. فطرد شرائح كاملة من السكان مصادرة الأرزاق وإعدام قادة الأحزاب المنهزمة صار أمرا عاديا في عدة مدن، بخاصة في أيونيا. في إحدى مراثيه، يقارن الشاعر الميغاري ثيونيس، نصير الأرستقراطية، المدان بالنفي، يقارن مدينته -مسقط رأسه- بسفينة تغرق: "التافهون الحقيرون "هم الذي يحكمون، الخبثاء يبعدون الطيبين. إني أخشى على المركب من الغرق." وكان يدعو إلى سحق المتمردين بدون رحمة: "اسحق جمهرة الشعب البائس بعقب حذائك، اجعله يحس بوخز الدبوس، أو لسعة السوط، وقيده إلى نير ثقيل".

هناك، حيث كان الحزب الشعبي ينتصر ويقلب الأرستقراطية، كانت تنتقل السلطة إلى يدي قائد هذا الحزب الذي، في هذه الحال، كان يصير، حسب تعبير اليونان، مستبدا. المستبدون يكبحون النبلاء، يوزعون أرضهم على الفقراء، يساندون انطلاقة المدن والتجارة، يساهمون بازدهار اقتصاد العبودية باستيراد جماهير العبيد الأجانب.

كان مستبدو المضيق (سسيون، كورنثيا وميغار) ومستبد سامس، بولكرات، الأشهر بين الطغاة. وفي سسيون، كان المستبد أوثاغوراس، الطباخ السابق، كما نقرأ فيالسن، قد أسسوا أسرة أرثغوريدس التي حكمت ١٠٠عام (من ٦٧٠-٥٧٠). اضطهدت هذه الأسرة نبلاء سسيون؛ استبدلت الأسماء الرسمية لثلاث قبائل أرستقراطية بألقاب ساخرة (قبائل الخنازير، الحمير والخنوص القذر)، ألغوا عبادة البطل الأرستقراطي أدراست وأقاموا مكانها الإله الريفي ديونسوس ودافعوا حتى عن الأناشيد التي تشطب أشعار هو ميروس التي تمجد النبلاء. واتبع الطاغية الكورنثي سبسلوس وابنه بريائدر (٦٥٧-٥٨٥) سياسة أجرأ. قلبا سيطرة الأولغارشية الأرستقراطية، وعلى رأسها أسرة بكشيادس، وصادروا أملاك النبلاء الواسعة ليوزعوها على الفقراء المدقعين الذين تحرروا من الاستعباد. وجهز براندر كورنثيا بأسطول قوي ومرافئ رائعة؛ وحاول حفر قناة في برزخ كورنثيا، لكي تمر التجارة بين بحر إيجة والبحر الأيوني في مدينته. وبلغت صناعة المعادن والسارميك الكورنثية مستوى عاليا جدا. وفي دلفيا، عرضوا، لمدة طويلة، كشيء غريب، "علبة سبسلوس" قدمها أبناؤه وهي عبارة عن نموذج رائع من عمل الحرفيين الكورنثيين. وفي هذه الحقبة احتلت كورنثيا كورسير، الجزيرة التي يعبرها الطريق إلى إيطاليا، وأسست عدة

مستعمرات، إحداها بوتيديا، على شبه جزيرة سلسديك. وفي ميغار، ثياجين قـاد (حوالـي العام ٦٣٠ قبل الميلاد) تمردا شعبيا نجم عنه مذبحة مواشي تخص النبلاء ووزع ما بقـي حيا. ولما صار دكتاتورا لميغار، تياجين سعى لإثارة صراع آخر في مدن أخرى (في أثينا مثلا).

لكن المستبد الأكثر شهرة كان بولكرات دي سامس. يذكره هـيرودوت كمتمـرد ".. احتل سامس على رأس عصيان"، ضد الأرستقراطية (٣، ٣٩، ١٢٠). وفي أثناء حكومته في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، وضع حدا لسيطرة كبار الملاك العقاريين فـي سـامس وألغى بدون رحمة كل محاولاتهم لاستعادة السلطة. يقول هيرودوت أن بولكـرات "كـان بالفعل اليوناني الأول.. الذي فكر وحلم بإمبراطورية البحار" (٣، ١٢٢). ولهذا الهدف، خلق أسطولا من ١٠٠ مركب وجيشا متطوعا؛ "احتل كثيرا من الجزر وكثيرا من مدن القـارة"، وعقد حلفا مع فرعون مصر أمسيس ***Amasis***. ولقد ظفر بولكرات بأعمال كبيرة: وأمـر ببناء رصيف كبير وحفر قناة من أجلها فتح نفقا من سبع مراحل (أكثر مـن ١كـم، عـبر الجبل، وشيد معبدا "الأعم بين المعابد" (٣، ٦٠). ودعا إلـى قصـره الشـاعر أنكوريـون والطبيب ديموسيد من كريتون، لكنه نفى من سامس فيثاغورس، لسان–حال النبلاء.

رغم التقدم الاقتصادي والثقافي، المشروط إلى حد كبير بالاسـتعمار، ثمـة فـروق واضحة في تطور مختلف أقاليم اليونان: فضلا عن المناطق والحاضرات المتقدمـة التـي ساهمت بسعة بالحياة الاقتصادية الجديدة وتبدل العلاقات الاجتماعية، ثمة أجزاء أخرى من اليونان، مثل لاكونيا، تساليا، وكريت، حافظت على الأخلاق شبه الأبوية. ففـي القرنيـن السابع والسادس، كانت أتيك، وعاصمتها آثينا، نموذج البلـدان المتطـورة، بينمـا كـانت إسبارطة تمثل الأقطار المتخلفة.

الفصل السادس والعشرون

إسبارطة

الأصول

الدولة الإسبارطية واحدة من أقدم دول اليونان القديم. تأسست في القرن التاسع، فلم تعرف سوى القليل من تطور القوى المنتجة وتفكك نظام العشير والاجتياح الدوري للمجتمع الآشيني البلبونيزي. فقد أشرنا آنفا أن قبائل الدوريين اجتاحت في العام ١١٠٠ قبل الميلاد إيبيريا في أرغوليد وفي لاكونيا عن طريق بيوتيا ومضيق كورنثيا.

لم تجد هذه الأحداث انعكاسها إلا في الخرافات التي تناولها بعض الكتاب اليونان وأثبتتها البحوث الأثرية الراهنة. والمصادر المتعلقة بالحياة اللاحقة لاسبارطة فقيرة هي الأخرى: نجد بعض المعلومات لدى تيرتي *Tyrtee*، الشاعر الغنائي في القرن السابع قبل الميلاد، ثم لدى ثوسيديد (الكتاب الأول، ١٠١-١٠٣، ١٢٨، ١٣٤؛ الكتاب الرابع، ٨)، بخاصة في بحث خنوفون "جمهورية إسبارطة ولدى بلوتارك: في سيرة ليكورغ، ليذاندر وآجزلاس. يجب أن نعامل عمل خنوفون بحذر، لأنه مؤلف رجعي يمجد نظام إسبارطة الأولغارشي. أما حياة ليكورغ، التي كتبها بلوتارك، فهي خرافية وغاصة بالخيال المجنح.

تمتد لاكونيا، الوادي الخصب، التي يرويها أوارتس، بين تايجت وبارنون وتتطاول على جزء من مصب هذا الأخير. اتصالها بالبحر سيء، لأن الساحل محروم من المراسي الملائمة.

قبل الغزو الدوريني، كان سكان لاكونيا يعيشون الحياة الواردة في شعر هوميروس. فهنا نجد المدينة القديمة أمليكا، أحد مراكز الحضارة الميسينية. ولقد عثر علماء الآثار حديثا على المقام الغني الخاص بقائد نبلاء الآخيين المحليين. عاش هذا المسكن حتى نهاية العهد الميسنس وازاله الدوريون في نهاية القرن الحادي عشر. كانت درجة الرقي الاجتماعي للرعاة الدوريين أخفض من درجة الآخرين، لكنهم كانوا يمتلكون منظمة

عسكرية ضاربة، فرضت وجودها حياة القبائل الرحل وكثرة الغزوات، التي سهلت لهم فتح لاكونيا. أعلن الدوريون ملكية مشتركة للأرض المحتلة والفلاحين الذين يعمرونها وقسموها إلى أسهم متساوية حسب عدد الأسر: كان السكان حوالي ١٠٠٠٠ وقرابة ٢٠ هكتارا لكل منهم. وشكل الغزاة الشريحة السيدة، محافظين على النظام المشاعي ليؤمنوا سيطرتهم على الرعية المغزوة. وفي القرن التاسع أنشأوا في النقطة الأوسع من الوادي مركزهم العسكري، المسمى إسبارطة أو لاسدمونيا، وسموا إسبارطيين. كانت إسبارطة تضم خمس مزارع غير محصنة؛ فهي مخيم قتال دائم، ومن هنا تمكن السبارطيون أن يحكموا فلاحين، أكثر عددا بكثير من الفاتحين.

بعد أن وطدوا وجودهم في لاكونيا، بدأ السبارطيون في النصف الثاني من القرن الثامن غزو مسينا، البقعة الخصبة والكثيفة السكان، الواقعة في غرب سلسلة تايجت. ونتيجة حربين طاحنتين، لا نعرف عنها سوى الخرافات، اجتاح الاسبارطيون في القرن السابع قبل الميلاد مسينيا[1] وحولوا سكانها إلى أرقاء. ادخر الأرقاء المسنيون للغزاة حقدا أزرق ووضعوهم في موقف الخائف دوما من العصيان. نشب أهم عصيان في العام ٤٦٤قبل الميلاد. استغل الأرقاء زلزالا كنس إسبارطة كلها تقريبا وهجموا على الإسبارطيين الذين لم يتيسر لهم سحق مقاومة العصاة المنتشرين في جبال إيثوم عصية المسالك. تسمى انتفاضة الأرقاء هذه "الحرب المسينية الثالثة".

النظام الاجتماعي والأخلاق

لقد تشكلت الدولة الإسبارطية نهائيا في آخر القرن السابع، بعد أن اجتاح الداريون لاكونيا ومسينا. يصف العلم الحديث نظامها الاجتماعي بالـ"رقيقي" ليشير إلى الفرق بين استغلال الأرقاء واستغلال العبيد، الفرق الناجم عن عمق مخلفات المشاعية البدائية، ومع هذا، إلى الطبيعة القاسية لعلاقات العبودية.

كان سكان إسبارطة منقسمين بوضوح إلى ثلاث فئات اجتماعية: إسبارطيون، برياك وأرقاء. تعيش كل واحدة، على بقعة منعزلة عن غيرها، الأمر الذي يميز جدا الطبيعة البدائية للدولة.

---

[1] – في اليونان جزيرتان متشابهتا الاسم: *Messenie* و *Mycenie*.

الإسبارطيون هم الطبقة السيدة التي لا تمارس سيادتها على الأرقاء إلا كتعاونية فوق تعاونية أخرى. رغم أن كل سهم يحرثه الأرقاء يخص أسرة إسبارطية، فهذه الأسرة تسكن في إسبارطة وليس على ملكها؛ (الإقطاعي يسكن في دمشق وملكه في أقصى الغوطة)؛ رأس الأسرة لا يدير أبدا اقتصاده، لا يوجه الأرقاء؛ ليس له أن يعتبرهم ملكه ولا يستطيع أن يطردهم، أو يبيعهم أو يقتلهم. هذه هي الدولة –الإسبارطيون منظمون ليحكموا– هم من يسود. وليس للإسبارطيين أن يحرثوا الأرض، ولا أن يمارسوا التجارة أو الحرفة. كل ما يتعلق بالأرض محرم عليهم. هم موقوفون للفن العسكري. على ذلك، تجني الأسرة الإسبارطية حصة من موسم السهم (على الأرجح النصف). ملكية السهم ومن يحرثه وراثية: لايمكن بيعه، ولا أن يوصى به ولاتركه أو التخلي عنه لأي كان، عدا ابن رأس الأسرة.

البرياك هم أحفاد آشيي لاكونيا المحتلة وهم (حوالي ٣٠ ألف إنسان. وهم الناس الأحرار الذين يملكون عقارا ومالا منقولا. لكنهم محرومون من الحقوق السياسية ولا يتزوجون من السبارطيين. يسكنون أرضا خاصة بهم، وحدها. أساسا في منحدرات الجبل والساحل الشرقي والجنوبي، حيث يوجد الكثير من الضيع. يتمتع البرياك باستقلال يراقبه السبارطي. يمارس حراثة الأرض، والحرفة والتجارة ويدفع ضريبة للسبارطيين. البرياك ملزمون بخدمة الجيش، لكنهم يشكلون فيه وحدات قائمة برأسها. والخدمة العسكرية تبهظهم أكثر فأكثر، أي بمقدار نقص عدد السبارطيين المتمتعين بالحقوق المدنية. وهذا أحد أسباب غضبيهم المتنامي.

يشكل الأرقاء جمهرة الناس المغلوبين والمستخدمين، وهم حوالي ٢٠٠ ألف أبقاهم المنتصر على الأرض التي صارت تخص الدولة.. تزرع كل سهم عدة أسر من الأرقاء الذين بعملهم، يغذون المالك وأسرته. وأهم مايميز الرقيق عن العبد في الدول اليونانية الأخرى، هو أنه ملك الدولة، "عبد عام"، كما يسميه المؤلفون القدماء؛ فضلا عن هذا، ورغم ارتباطهم أساسا بوسيلة الإنتاج –الأرض– يحتفظون بنوع من الاستقلال الاقتصادي فيشبهون الأقنان. يزرعون أرض المالك السبارطي بأدواتهم ويعطونه نصيبا معينا عينيا: قمح، خمر، جبن، وزيت. وبعد أن يأخذ المالك حصته (النصف)، لايكفي مايتبقى قوت الفلاحين الضروري، ناهيك عن الضائقة في المواسم الماحلة. وبعكس عبيد الدول الأخرى، يشن الأرقاء هنا حربا بصفتهم حراسا، مرافقين، حمالين وخدم. دعا شظف حياتهم الشاعر

السبارطي تيرتي *Tyrtee* (القرن السابع) أن يشبههم بالحمير الحاملة فوق طاقتها *surcharges*.

وتجنبا لنشوب التمردات والزيادة الخطرة في عدد الأرقاء، يتخذ السبارطيون تدابير قاسية (*les cryptios*) في كل عام يلجؤون إلى اضطهاد وقمع بل إبادة أبرز المتمردين، أجرأ الأظناء. تجوب الفصائل السرية، المؤلفة من شباب السبارطيين، المكلفة بمهمة خاصة، تجوب البلد لمراقبة وإرهاب الناس. في النهار، تكمن هذه الفصائل قرب القرى، وفي الليل تذبح الأرقاء. لم تبد أية دولة قديمة هذا التوحش مع العبيد. يظهر هذا الواقع سعار التناحر والصراع الطبقي في إسبارطة.

من جراء هذا، ارتدت الأخلاق السبارطية طبيعة فريدة. كل الرجال البالغين ملتزمون بالجيش الدائم، فظ الانضباطية المستعد أبدا للهجوم. وكل إسبارطي من العشرين إلى الستين يذهب كل يوم إلى الثكنات ويشترك بالتمارين القتالية. كل أبناء المدن المتمتعين بالحقوق المدنية يشكلون روابط تمتلك كل منها مكانا يجتمع فيه أعضاؤها ويتناولون وجبة مشتركة؛ لايغادرون هذا المكان، بل ينامون غالبا في المهاجع نفسها ويأتون مسلحين. وحسب هذه الروابط يعبأ الناس في وحدات محاربة. فهم ملزمون أن يكونوا أعضاء في الرابطة. والتعيين الشهري للوجبة المشتركة يتألف من كمية معينة من طحين الشعير، الخمر، الجبن، والتين.

تتدخل السلطات السبارطية أوسع تدخل في حياة الناس الخاصة: تهتم بالزيجات، بتربية الشباب. تفرض خضوع الأفراد خضوعا مطلقا لمصالح الطبقة. على الأزواج أن يربوا أولادهم ، الذين سيكونون الدعامة الأكيدة لاسبارطة العبودية، تربية صحية وجادة. يبقى الأولاد عند ذويهم حتى الربيع السادس عشر. بعدها تتكفل به الدولة وتعبئه في فصائل خاصة تحت مراقبة مدرسين تتعهدهم الدولة.

في التربية والتعليم، يعود المكان الأول للتمارين الرياضية: قتال، ركض، رمي القرص والرمح أو الحربة، إلخ. للمساهمة بالتطور البدني للأبناء. ليخشوشنوا، يلزمونهم بالمشي الحافي والجسم العاري تقريبا في كل الفصول؛ بحيث يكفلون استقامتهم، براعتهم وخضوعهم.

التعليم الابتدائي قصير إلى أدنى حد. يحضر الفتيان عادة الوجبة المشتركة واجتماعات يتحدثون فيها عن الشؤون والمآثر. يألفون الحديث عن أفكارهم وأمانيهم كجنود. وتربية

السبارطيين الأخلاقية منسجمة مع الفن العسكري. وفي أثناء التمارين الرياضية، والوجبات المشتركة والمعارك الحربية ينشدون أناشيد ظفر الوطن والمواطنين الأمجاد. وفي ربيعهم الرابع عشر، يتبع المراهقون المحاربين الراشدين عبر البلاد، ليعتادوا حياة الخيام والحرمان. وفي ربيعهم العشرين، ينخرطون في العمل العسكري التام وينتسبون إلى الروابط. وتستمر خدمتهم حتى الشيخوخة.

وتربية البنات تنسجم أيضا مع مهام الدولة الهادفة الإعداد الجيد لأمهات المستقبل لجيل سليم. في الملاعب والمعاهد الرياضية، تخضع البنات كالصبيان للتمارين الرياضية فضلا عن الرقص، الموسيقى والغناء. في الدول اليونانية الأخرى تعيش النساء منعزلات، بينما في إسبارطة يبربين كتربية الرجال، حيث يتمتعن بقسط وافر من الحرية واحترام مواطنيهم. يشهد هذا الوضع على مخلفات عهد الأمومة المعروف.

النظام السياسي

كان النظام السياسي في إسبارطة مغرقا في البدائية. وحسب الخرافة، كان قد أقره روح دلف الأعجوبي ووضعه بين يدي المشرع ليكورغ الأسطوري.

كان يقود الدولة ملكان بالوراثة. كان لهما الدور الأعظم، لكن أثرهما في السياسة ضئيل. وفي زمن السلم، تقتصر سلطتهما على التسوية الشرعية للميراث، الاشتراك بمجلس الشيوخ وممارسة مهام كهنة زيوس. وفي زمن الحرب، يقودون الجيش، وخلف حدود البلاد، يتوليان سلطة غير محدودة.

يشكل الملكان جزءا من مجلس الشيوخ المؤلف من ٣٠ شيخا، انتخبوا حتى الممات من الأرستقراطيين الذين بلغوا الستين من العمر. ومجلس الشعب المكون من السبارطيين الذين أتموا الثلاثين ربيعا، يصدق قرارات مجلس الشيوخ الرئيسة، بخاصة المتعلقة بالحرب والسلم أو يرفضها، دون حق بالمناقشة.

. وتدور الانتخابات وتتخذ القرارات في مجلس الشعب، حسب تعبير أرسطو بصورة "تافهة": بدون اقتراع، بالصياح الذي يكشف عنه الموقف السلبي أو الإيجابي من هذا الترشيح أو القرار أو ذاك. وإن كان الصخب والصياح غير معبر، ينقسم الحضور إلى طرفين.

لكل من مزارع إسبارطة الخمس مراقب، ذو سلطة مطلقة، عين على الأرجح في بداية القرن الثامن قبل الميلاد، بهدف اتقاء أو خنق تمردات الأرقاء. وهذه وظيفة سنوية. وكمحصلة لحكم القلة المبتزة، ينتخب المراقبون من الأوساط الأرستقراطية الأكثر تحفظا.

تطال مراقبتهم الملك وأعضاء مجلس الشيوخ. إنهم هم الذين يقودون بالفعل سياسة الدولة. يعلنون منذ وصولهم الحرب على الأرقاء وحتى لهم الحق بمحاكمة وإدانة بالموت الملوك المتهمين بالرغبة في تغيير النظام القائم. يأتي المراقب إذن ليتوج حكم الأقلية السبارطية، ودكتاتورية الطبقة المتوحشة ودعامة الأرستقراطية في اليونان.

في هذه الشروط، كان محالا أي تبدل متطور إلى هذا الحد أو ذاك: التجارة بالغة البدائية، وكنقد يتداولون بارات من الحديد، كان دخول الاجانب إلى البلد ممنوعا. لهذا السبب، حسب قول بلوتارك، لم تكن البواخر الغربية تدخل موانئ اسبارطة. تنفق الدولة من الضرائب المضروبة على البرياك -الطبقة الثانية- ومن المناهل الاستثنائية وأسلاب الحرب. كانت الخزينة فقيرة، لأن المداخيل تدفع غالبا عينا.

كانت المؤسسة العسكرية في إسبارطة هي القوة الضاربة في اليونان كلها. كل إسبارطي محارب مقدام في تمام الجاهزية. جنود المشاة المسلحين حتى أضراسهم يعتمرون خوذة، يرتدون درعا، يحملون رمحا أو حربة وترسا دائريا صغيرا، هم أقوى سلاح في الجيش مدعوون للتمسك بمواقعهم حتى آخر لحظة. في أثناء المعارك الحربية، يمشي الجيش إلى العدو بهدوء وبطء، بصفوف متراصة، وعلى صدح الموسيقى. وسلاح المشاة السبارطي لايقاوم، وندرة أولئك الذين نجحوا في تدارك هجماتهم، لكنهم ضعيفو الخبرة بالحصار ولايعرفون الاستيلاء على المدن بغتة. وبحرية إسبارطة قليلة الشأن.

في نهاية القرن السادس، سقطت بلوبونيز كلها تحت هيمنة اسبارطة. وفي حوالي العام ٥٣٠ تشكلت الجامعة البلوبونيزية التي ضمت أيضا كورنثيا، سيسيون، ميغار وجزيرة إيجن. وكان آرغو، صاحب الدور الأبرز في بلوبونيز، ومشاعات آشي ***Achaie***، في الشمال، القوة الوحيدة التي لم تنضم إلى هذه الجامعة. ورغم أن القضايا العامة نجمت عن لقاء الحلفاء، المنعقد في إسبارطة، كانت حكومة إسبارطة بالفعل هي التي سوت القضايا المتعلقة بالجامعة.

لقد اقتبس النظام الرجعي الإسبارطي الاقتصاد، الحياة السياسية والاجتماعية من بلوبونيز ومن اليونان كلها، وكبح تطورها. وخوفا من التبدلات، دعمت اسبارطة دوما العوامل الرجعية والأشكال البالية من العلاقات الاجتماعية في دول اليونان الأخرى. ولئلا تفقد تفوقها القتالي، كانت تعارض بكل السبل الوحدة مع الدول الأخرى، إذن التطور اليونان السياسي.

الفصل السابع والعشرون

أتيكيا في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد

سيطرة أرستقراطية الدم

بعكس إسبارطة، قدمت أتيكيا للقرنين السادس والخامس مثال الدولة اليونانية العبودية المتطورة. يخولنا تاريخها متابعة تشكل حاضرة العبودية، سقوط أرستقراطية الدم، تجاوز مخلفات نظام العشير وظهور الشكل الأرقى لدولة العبودية: جمهورية العبودية الديموقراطية.

بين يدينا مناهل ثرة لدراسة تاريخ أتيكيا القديم. ملاحظات متفرقة تصادف لدى هيرودوت وثوسيديد، لكن المعلومات الأوفى يزودنا بها "بناء آثينا" لأرسطو و"حياة تيزي" و"حياة سولون" بقلم بلوتارك. أخيرا، أمكن جمع وثائقية غنية في أثناء تنقيبات أثرية، بخاصة في مقبرة ديبلون وسراميك، وعلى أغورا أثينا.

أتيكيا شبه جزيرة صخرية ممتدة في البحر مساحتها ٢٥٠٠ كم٢. مغطاة بالجبال الكلسية؛ محرومة من الماء والنبات في كثير من البقاع. يدعى شمالها الشرقي العالي، وغير القابل للزراعة، الهضبة. وساحلها (الإقليم البحري) ليس خصبا أبدا، لكنه ملائم جدا لأعمال البحر. خير أقسام أتيكيا السهل المركزي، بيديون. واقعة على طول المجرى المائي الهام والوحيد، لنهر سفيز، الذي ينضب هو الآخر في الصيف، والسهل المركزي محاط بالجبال من ثلاث جهات ويغمره البحر في الجهة الرابعة-الجنوب الغربي. في هذا السهل، على ٧كم من خليج سرونيك، توجد آثينا. كانت ثروة أتيكيا الطبيعية الفضة في لوريون، الرخام في بانتليك وهميت، وكذلك أجود الآجر التشكيلي، المستخدم كثيرا في صناعة الفخار.

في البداية، كان الشعب يعيش عشيرا في مزارع محصنة، حفظت أسماؤها بالتتابع: أشارن، ايلوزيس، كولونيا، فالير، ماراتون، إلخ. كان بعضها مراكز للبطون أو الأفخاذ. وبحسب تطور العلاقات والمبادلات، تغلب المبدأ الإقليمي وشيئا فشيئا تصير أتيكيا بلدا واحدا مركزها أكبر معقل: أكروبول آثينا. هنا يوجد قصر باسيليس، الذي حرره علماء الآثار، والمقابر الهامة: أرشتيون والباريتون. غير بعيد من هنا، على تلة آريس، كان يقوم مجلس الشيوخ، وعلى سفوح تلة أخرى، بينكس، كان يجتمع مجلس الشعب. تنسب الرواية دور التوحيد للملك ثيزي: "ألغى المجالس والمحاكم وجمع كل المواطنين في المدينة الحالية، وأقام مجلسا واحدا ومسكنا واحدا للقضاة"، يكتب ثوسيدسد (المجلد الثاني، ١٥،٢).

وفي الوقت ذاته، كما يقول بلوتارك (ثيزي، ٢٥)، انقسم الناس إلى ثلاث شرائح: نبلاء، مزارعون صغار، وصناع. كان النبلاء أرستقراطيين أغنياء بالأرض والماشية، تشكل الشريحتان الأخريتان الشعب الأكثر فأكثر استرقاقا. وعدا السكان الأصليين، كان يوجد كثير من العبيد والأجانب المقيمين في آثينا، أحرار شخصيا، لكنهم محرومون من الحقوق المدنية.

بقدر تطور التبادل وصيرورة المنتوج بضائع، يتسع دور حراثة الأرض من قبل الأفراد وتوطد الملكية العقارية الخاصة. يحتكر النبلاء أخصب أراضي البيديون ويحولون أراضيهم الواسعة إلى إقطاعات. بالقرصنة وقطع الطرق يأسرون العبيد للعمل في الأرض ويستخدمون بالربى المزارعين وبلادهم. على أثر هذا التطور، "صارت كل الأرض بتصرف عدد ضئيل من الناس"، يكتب أرسطو، وكل الشعب يخدم الأغنياء: "...كان الفقراء، بنسائهم وأبنائهم عبيدا للأغنياء. كانوا يسمون "زبائن" و"سداسيون" أي يحصلون على ٦/١ منتوج الأرض" (بناء روما، المجلد الثاني).

كان السداسيون على الأرجح الملاك الصغار المدنيين الذين رهنوا أرضهم لدى كبار الملاك، لذا وضعوا على أرضهم حدودا تدل إلى مبلغ الدين. وكفائدة يدفعون ٦/٥ المحصول. وهكذا صارت مدينة آثينا والأكروبول، معقلها، مركز تجمع النبلاء الذين يحكمون كل رعية أتيكيا.

لقد وقفت مبادئ النظام العشيري القديم حجر عثرة في وجه اغتناء ملاك العبيد وتشكيل الدولة. وفي القرنين الثامن والسابع، حددت السلطة الملكية في أتيكيا ثم استبدلت

بتسعة حكام أوليين (أرشونت) منتخبين من الأرستقراطية ويمثلون السلطة التنفيذية العليـــا. وفي منتصف القرن الثامن، كانت مدة الأرشونتية عشرة أعوام. وبدءاً مـــن العـــام ٦٨٣، صارت عاماً واحداً. يرأس الجميع الأرشونت الذي يعطي اسمه لسنة حكومتــــه؛ يراقــب الشؤون الداخلية، يحل الخصومات العائلية، يهتم بوصاية الأرامل واليتـــامى. الأرشـــونت الثاني، هو القيصر، يمارس الوظائف الدينية التي كانت للملك سابقاً. الثـــالث، هـــو قـــائد الجيش، يشرف ويدبر الشؤون العسكرية. والأرشونتية الستة الأعضاء الآخـــرون، الذيـــن يحملون اسم الأرشونت المشرع، يسهرون على تنفيذ القوانين ويقاضون مواطنيهم. ويعقـــل مجلس الشيوخ، المؤلف من الأرشونت السابقين، السلطة التشريعية؛ وكذلك الجهاز الأعلـــى للقضاء والمراقبة. السلطة إذن بين يدي النبلاء الذين يفيدون منـــها مـــن أجـــل اســـتقرار سيطرتهم السياسية، بينما الشعب، حسب تعبير أرسطو، لايملك أي حق" (بناء آثينا، المجلـــد الثاني، ٢).

أولى حركات شعب آثينا. تمرد سيلون. قوانين دراكون

إن تطور المهن والتجارة في أتيكيا، وكذلك في الحاضرات اليونانية الأخـــرى، أفـــرز فئات شعبية جديدة، مكونة من تجار وصناعيين، لا يتلاءم وضعهم السياسي مـــع دورهـــم الاقتصادي. وقد صارت أثينا، وباقي مدن اليونان الكبرى، ليـــس فقـــط مركـــزاً للأســـر الاستقراطية المتنفذة، بل أيضاً مركزاً للتجار، وصغار الصناعيين، والحانوتيين والأجـــانب الأحرار شخصياً *meteque* (سيراميك، ميليت، وغيرها)، التي حازت أهمية جعلتها فـــي القرن السابع حصوناً. كان صناع الفخار الأثنيون قد ابتكروا طلاء أسود وبدأت مشـــوبياتهم المزخرفة تزاحم مشربيات كورنثيا. وبدأ استثمار طبقات الفضة في لوريان، وكـــان مرفـــأ آثينا في فالير قد صار مرس بالغ الحيوية.

كانت أرستقراطية نبلاء روما تحتقر هذه الجماعة التي تعيش مـــن التجـــارة والمـــهن المتنوعة. مع ذلك، كان النبلاء قد تحولوا إلى حلقة من كبار الملاك الذين أغناهم الربـــى. وقد مارس البعض منهم القرصنة. بينما انخرط آخرون، مثل أسرة ألكميونيد ونسل أســـرة الكودريد الملكية، وسولون، في التجارة. لكن الغالبية أفادوا مـــن دورهـــم المـــهيمن فـــي المنظمات الاجتماعية السابقة، بطون وأفخاذ، من أجل احتلال أراضي المشاعات التي لـــم تقسم بعد، واحتكرت أسهم أعضاء العشير الآخرين، واستخدمت أكـــثر فـــأكثر المســـاديين

المدنيين جاعلة منهم عبيداً أو خدماً. "كان عامة الناس خدماً لدى القلة...، وكان النير الأثقل يحمله العبيد"، يكتب أرسطو (بناء آثينا، المجلد الثاني، ٢) بصدد العلاقات الاجتماعية في أتيكيا الريفية في القرن السابع.

لقد كبح هذا الشكل البدائي جداً من العبودية بشأن الدين، كبح تطور القوى المنتجة. وترتب على سكان الريف، عوض من أن يزداد التناقص على أثر بيع المدنيين المملقين وأبنائهم للأجانب بيعاً جماعياً، الأمر الذي أثار حزن ورثاء بعض المعاصرين، مثل سولون. وبدأ الشعب يحتل أكثر فأكثر مكان الطليعة في مقاومة الفلاحين غير المنظمة، الناشبة بين "النبلاء والعامة" حسب تعبير أرسطو (بناء أثينا، المجلد الثاني،١)، كان شعب المدينة يبغي التحرر من الملاكين العقاريين الكبار ويجهد في تبديل شكل الاستثمار البدائي الذي تمارسه النبالة فيحول أحرار آثينا إلى عبيد، إلى ناظم أرقى: استغلال العبيد المستورد من الخارج. فأخذ استخدام العبيد الأجانب دوراً هاماً في النشاط الاقتصادي لسكان المدن، في ورشات الحرف والمشاريع التجارية.

تطلعنا الرواية على شكل أولي لهذا الصراع في أتيكيا: محاولة الآثيني سيلون قلب سلطة النبلاء وتنصيب مستبد في آثينا (في حوالي العام٦٣٠). كان سيلون من أصل نبيل ومعروف كنجم في الألعاب الأولمبية. اعتمد في حركته على ابن حميه المستبد ميغار ثياجين. وفي أثناء الاحتفال بأحد الأعياد، احتل فجأة الأكروبول بمعونة ثلة من تلامذته. لكنه سرعان ما طوق بالنبلاء الذين كتلوا "جمهرة الحقول" المرتبطة بهم. نجح سيلون بالهرب، ولجأ أنصاره إلى معبد آثينا. وبعد أن أضناهم الحصار والجوع، قبلوا الاستسلام بشرط أن يكسبوا حياتهم. لكنهم ما أن خرجوا من مأواهم حتى ذبحوا. واعتبرت مسؤولة عن هذه المذبحة أسرة الألشمونيد الشرسة. إن أنصار سيلون، الذين انضموا بالصدفة إلى أعداء الألشمونيد واتهموا بحنث اليمين وارتكاب المحرمات. فنفوهم وعظام موتاهم نبشت ورميت خلف الحدود.

رغم التفصيلات الخرافية لهذه القصة التي رواها ثوسيديد (المجلد الأول،١٢٦)، فإن مؤامرة حيكت لاحتلال السلطة المستبدة في آثينا في تلك الحقبة. ولقد فشل سيلون لأنه لم يؤمن دعم ومساندة جماهير الريف التي آزرت الملاكين الكبار على خنق التمرد الذي لم يعده سكان المدن إعدادا جيدا.

تعتبر هذه المحاولة المهيضة في أتيكيا بداية حقبة طويلة من الاضطراب. كان النبلاء يثيرون هذه الاضطرابات لأنهم فسروا لصالحهم عادات العشير، غير المذكورة في أي مصدر ولم تنقل إلا شفاها. إن أول المطالب التي طرحها الشعب في نضاله من النبلاء هي إذن سن قانون مكتوب ملزم للجميع، يحكم العلاقات القضائية في المجتمع العبودي الوليد.

وخوفا من تحول غضب الشعب إلى تمرد، اضطرت الأرستقراطية أخيرا إلى التسليم وتكليف الأرشونت دراكون (العام٦٢١) الاهتمام بسن هذه القوانين. اشتهرت "قوانين دراكون" بقسوتها، لأنها أساسا مجموعة من عادات العشير البدائية. أي خرق بما فيها سرقة فاكهة أو بقول) كان يعاقب بالموت. يقول ديكاد (خطيب أثيني في القرن الرابع) إن دراكون كتب شريعته "ليس بالحبر، بل بالدم". على ذلك، كانت تقدمية، لأن وضع قانون ملزم للجميع يحد إلى حد ما تحكم النبلاء. كانت الشريعة المنقوشة على قطع حجرية معروضة في الأغورا، على مرأى الجميع، الأمر الذي يضع المحاكمة تحت مراقبة العامة.

اصلاحلت سولون

لم تسو شريعة دراكون أبدا وضع الشعب الريفي وصغار الفلاحين المستخدمين. بل كانت تأزيما وتأريثا للصراع وإفساح المجال لانتفاضة فعلية. كان الصراع قاسيا "وتواجه الطرفان (الشعب والنبلاء) مدة طويلة"، يقول أرسطو _بناء أثينا، المجلد الخامس،٢). يجب إذن إصلاح النظام السياسي والاجتماعي في آثينا لوضع حد للشقاق والنزاع. كان يوجه الحركة الشعبية حزب التجار المعتدلين، الذين نجحوا بتسمية الشاعر الشهير سولون حكما عاما. وأمام الطبيعة المهددة لوضع الجماهير الثائرة، كلف سولون، في العام ٥٩٤، بإجراء اصلاحات اجتماعية وسياسية.

سولون سليل أسرة نبيلة مفتقرة. اضطر للعمل بالتجارة منذ فتوته، الأمر الذي قربه من شعب المدينة. ومراثيه، التي أدانت الجشع والغطرسة الأرستقراطية، قربت منه الناس. وبناء على إلحاحه ومساهمته فتحت جزيرة سلامين التي تخص ميغار وأغلق المرفأ الأثينين في فالير.

بصفته أرشونت -حاكما أول- يقول سولون "...فتح سلسلة مايسمى ثورات سياسية، وهذا يكون بإلغاء الملكية[1]". بدأ نشاطه بـ"تخفيف الحمل": رفع من الحقول حدود الرهن،

[1] – ف.أنجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص١٠٧.

ألغى الديون، الرهونات، وحرر كل المدنيين المحولين إلى العبودية. واشترى على نفقة الدولة كل الناس المباعين للغريب كعبيد. وللمستقبل، يحرم الدائن من كل حق شخصي على المدين أو، كما يقول أرسطو، "حرر سولون الشعب في الحاضر والمستقبل بمنع الإقراض بارتهان الأشخاص". (بناء أثينا، الكتاب الرابع،١). ولتحسين وضع المدينين، قام بإصلاح نقدي استبدل النظام النقدي الإيجيتي بالنظام الأوبي: ١٠٠ دراخما جديدة، بسعر الفضة، لاتساوي إلا ٧٣ دراخما قديمة، الأمر الذي قلص الديون ٢٧%. ثم نظمت حرية الوصية وتمليك أرزاق الناس الذين لم ينجبوا أولادا، التي كانت تعرقلها حتى آنئذ حقوق ملكية العشير والأسرة. كانت كل هذه التدابير موجهة ضد النبلاء وتهدف تحرير الفلاحين.

في واحدة من قصائده، يتحدث سولون عن إصلاحه. لا أخشى أن تلومني على هذا الإصلاح أم الأولمبيين المقدسة، الأرض السوداء، التي انترعت منه الحدود المنتشرة في كل مكان؛ عبدة سابقا، حرة الآن. أعدت إلى أثينا، إلى الوطن الذي أسسته الآلهة، أناسا بيعوا ظلما إلى هذا الحد أو ذاك، منهم من نفي بسبب الضرورة الرهيبة..، وغيرهم كانوا هنا يرسفون بقيود سادتهم الرهيبة، لقد حررت كل هؤلاء". (ارسطو."بناء أثينا"، الكتاب ٢،١٢).

لقد عززت تدابير سولون الاقتصادية اللاحقة تطوير التجارة والمهن. منع تصدير المواد الغذائية (عدا الخمر وزيت الزيتون). وأوضح استبدال النقد الإيجني بالنقد الأوبي أيضا توجه السياسة التجارية والاستعمارية لأثينا، أي نحو إيونيا والمضائق الموصلة إلى البحر الأسود. وبشهادة بلوتارك، شجع سولون بكل الوسائل المهن وجذب إلى أتيكيا الحرفيين الأجانب. وسن القانون الذي يخول الابن عدم طاعة أبيه إن هو لم يعلمه مهنة. وقوانين أخرى تمنع التقتير، وتحظر الترف المفرط والنفقات غير المنتجة التي يبذرها النبلاء في أثناء الزواج والمآتم، وسواها.

كان الإصلاح السياسي أهم تدابير سولون، إذ يقضي على حصر السلطة بنبلاء الدم وسن مبدأ دافع الضريبة[1] أو "*timocracie*"، حسب تعبير القدماء: لا يتعلق اشتراك المواطن بالحياة السياسية بأصله، إنما بملكه، بمدخوله وبالشريحة التي تصنفه فيها ثروته.

إذن صنف المجتمع حسب دافع الضريبة بأربع شرائح: تضم الأولى الناس الأغنى،

---

[1] – نظام سياسي يقضي بأن يكون المواطن دفع ضريبة ليحق له الاقتراع.

أولئك الذين يجنون من أرضهم على الأقل ٥٠٠ عبوة من المنتوجات الزراعية (العبوة= ٥٢،٣ ليتر؛ عبوة الشعير=دراخما واحدة). ويدعون (ملاك الـ٥٠٠ عبوة). لهؤلاء فقط الحق بأن يشغلوا المناصب الأهم (أن يكون حاكما أول=*archantes*)، وبالتالي دخول مجلس الشيوخ. الشريحة الثانية مؤلفة من أبناء المدن الذين يساوي دخلهم السنوي ٣٠٠-٥٠٠ عبوة، يحملون لقب فارس، لأنهم يقدرون أن يؤدوا الخدمة العسكرية على حصان. يستطيع الفارس أن يمارس وظيفة ثانوية (مفتش أسواق، مفوض شرطة) وغيرها. والمواطنون الذين يتراوح دخلهم يمكنهم من اقتناء زوج ثيران. عليهم أن يذهبوا إلى الحرب بأثقل الأسلحة. وهم الجمهرة الأساسية من المزارعين الصغار. وكممثلي الشريحتين الأوليين، يحق للشريحة الثالثة دخول مجلس الـ٤٠٠ الذي تشكل في أيام سولون وإلى محكمةالجنايات. وبقية الرعية (مياومون وفلاحون فقراء)، تشكل الطبقة الرابعة. لا يحق لهم دخول مجلس الشعب ومحكمة الجنايات وأن يقترِعوا، لا أن يقترَعوا.

وبالتالي خضعت المنظمة الحكومية إلى تبدلات جوهرية. صحيح أن الأرشونت كان منتخبا من بين أغنى الناس ودوما من القبائل التي يقدم كل منها عشر مرشحين؛ فمن ٤٠ رجلا يختار بالقرعة تسع حكام. لكن الأمر الهام بخاصة، هو إعادة مجلس الشعب إلى الوجود، يشترك فيه كل مواطني أتيكيا، وينتخب كل موظفي الدولة الآثينية.

ليس أقل أهمية التجديد في حقل القضاء. ولكي يتمكن الشعب من التدخل بالقضاء يجب أن يختار قضاة للمحاكم لتدير شؤون الحق المدني والحق الشخصي. هكذا صار مجلس الشعب، مجلس الـ٤٠٠ ومحكمة الجنايات الجهاز الجديد في بناء أثينا.

هكذا نرى أن النظام الذي أسسه سولون لعب دورا كبيرا تقدميا: "هنا إذن دخل عنصر جديد تماما في البناء: الملكية الفردية. فحقوق وواجبات مواطني الدولة تقاس حسب سعة ملكيتهم العقارية، وبقدر زيادة نفوذ الطبقات المالكة، كان يستبعد الجهاز القديم القائم على قرابة الدم[1]".

فضلا عن هذا، فقد فتح إلغاء الشكل البدائي للاستعباد الناتج عن عدم القدرة على وفاء الدين، بابا واسعا لشكل أرقى من استثمار عمل العبيد: استثمار الأسرى المجلوبين من

---

[1] – ف. انجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة.

الخارج. "عوضا عن استغلال مواطنيهم بطريقة فظة، استغلوا بخاصة العبيد والزبائن اللاأثينيين"، يكتب انجلز. بهذا الصدد.[1]

لكن سولون، النبيل الأصل والمنتسب من حيث وضعه الاقتصادي إلى أوساط أغنياء المدينة، ولمصلحتهم أنزل ضربة قاصمة بنبلاء الدم، لم يلغ كل مخلفات نظام العشير. أبقى، مثلا، المسند الرئيس للنبلاء: أملاكهم العقارية الواسعة، وترك لهم النفوذ السياسي على الأفخاذ والبطون القديمة حيث كان النبلاء يلعبون دور المهيمن. وفي الوقت ذاته قاوم بصلابة مطالب الجماهير التي ألحت على إصلاحات جذرية، بخاصة إعادة التوزيع العام للأرض.

طغيان بزسترات *pisistrate*

كان قدر سولون كقدر رجال السياسية غير الحذريين الذين يبحثون عن تجنب التدابير لناجزة والوقوف منها تماما في الوسط: لم يسو حسابه مع أغنياء الأرض ولم يرض تماما رغبات الفئات الدنيا من المواطنين. "ظن الحزب الديمقراطي أنه واصل إلى قسمة جديدة عامة، وتصور النبلاء أنه سيترك ذات المنظمة تعيش أو يبدل فيها بعض الشيء. لكنه عارض الطرفين". (بناء أثينا، الكتاب ١١،٢).

لقد ألزم الغضب الشعبي سولون على الدفاع عن نفسه من كل الجهات، حتى ليهتاج كذئب بين رهط من الكلاب"، كما يقول عن نفسه. طبعا، سرعان مانشب الصراع، أقوى مما سبق. وبعد أربع سنوات، لم يستطع الآثينيون أن ينتخبوا الأرشونت الأول، وتكرر الأمر بعد أربع سنوات. وفي العام ٥٨١، حاول الأرشونت دامازياس عبثا أن يحتل السلطة.

لكن خبرة الأعوام السابقة كانت قد جعلت الصراع أكثر منهاجية. وفي تلك الحقبة، يروي أرسطو في كتابه "بناء أثينا أن ثلاثة أحزاب ولدت. البديون *les pediens*، حزب أرستقراطي يقوده ليكورغ، يضم سكان سهل بديون الخصب حيث أملاك الأغنياء؛ كان يدافع عن مصالح أغنى المالكين ويعمل لعودة النظام القديم. الحزب الثاني، البارليون *les paraliens* (منطقة بحرية)، كان قادته الالسمونيد *les Alcmonides*، واحدة من أعتى

---

[1] – نفس المصدر.

أسر آثينا، كان قد قبل النظام الجديد ومثل مصالح الأوساط التجارية والصناعية في الساحل. كان قائد هؤلاء ميغاكلس *Megacles*، أحد أعضاء هذه الأسرة. حزب معتدل إجمالاً، لكنه لا يبتعد عن الإطار الذي أرساه سولون. والحزب الأوسع كان حزب الدياكريين *Diariens* (الجبليين) الذين يسكنون شمال-شرق هضبة دياكر من أتيكيا، على تربة قاحلة، ضم الفلاحين سيئي النصيب من الأرض، الغاضبين مما لم يحدث لدى توزيع الأرض، مثل الفلاحين، الرعاة، المياومين، بل كل الشعب الكادح. وكان الحزب الأكثر ديموقراطية، الذي يتمنى انقلاباً كاملاً. كان على رأسه بيزسترات الذي، رغم أنه من علية النبلاء، كان قد قطع صلته بالأرستقراطية وسعى إلى مساندة الشعب ودعمه.

ليست معروفة بشكل دقيق طريقة نجاح الدياكريين في العام ٥٦٠ في تحقيق النصر ولاكيف صار بزسترات حاكماً مستبداً، ورئيساً للدولة الآثينية. القصص التي وصلتنا ذات صبغة طريفة ولابد أن تكون صادرة عن خصوم بزيسترات. استناداً غلى هيرودوت "جرح /بزسترات/ نفسه وجرح بغاله، ثم رمى نير هذه البغال في الساحة، وهرب من خصومه الذين أرادوا قتله بينما كان يتنزه في الحقول، ووجه نداء إلى الشعب ليحميه.." كان مجلس الشعب واثقاً بكلامه وسمح له بأن يحيط نفسه برجال مسلحين". على ذلك، كما يقال، زاد عدد حراسه بشكل كبير، واحتل في ٥٦٠ الأكروبول وصار مستبداً طاغياً.

أياً كان الأمر، فقد اصطدم ظفر الحزب الديموقراطي في مجيء بزسترات بمقاومة ضارية من قبل الأحزاب المعادية التي اتحدت ضده وطردته بعد جولتين من المعارك. استمر إبعاده الثاني عشر سنين. نفي بعد السقوط الأول لكنه بقي على اتصال مع رواده من دياكريا وجمع أسباب الصراع، مستغلاً مناجم الذهب من تلة بانجيه، في ثراس، وتحالف في الوقت ذاته مع الدول المعادية لآثينا، بخاصة إرتريا واوبي. وبعد أن اطمأن للقوى العسكرية ودعم الفلاحين، أبحر بزسترات في العام ٥٤١ إلى خليج ماراتون، وتحدى أعداءه في معركة بالين، واحتل أثينا تقريباً بدون قتال وبقي سيدها حتى مماته (٥٢٧).

اتسمت حكومة قائد الدياكريين بهزيمة ارستقراطية الدم بشكل ناجز. نفي الكثير من النبلاء، وقتل من بقي، وصودرت أراضيهم. هدفت تدابير بزسترات إلى تقوية اقتصاد الفلاحين بخاصة ودعم الميلشيا المسلحة، الركن الرئيس لسلطته. دون أن يحقق إعادة اقتسام الأرض الذي طلبه الفلاحون، وزع مع ذلك على العناصر الفقيرة عددا كبيرا من

الأملاك التي صادرها من النبلاء، وادخل نظام رصيد الدولة لصالح الفلاحين في حياتهم وخفف العبء الضريبي على الفئات الأفقر، على حساب الشرائح المرتاحة، واضعا ضريبة ١٠% على الدخل. كان أحد التدابير الأهم تعيين قضاة متنقلين ومحاكم من المشاعات الريفية –*demes*– التي تحل الخصومات الدقيقة. لكنه، ممثلا لمناطق أخرى، لم يستطع أن يعتمد كليا على دعم الدياكريين، فسعى للتحالف مع الباليان: لا بل تزوج ابنة قائدهم ميغاكلس. وإرضاء للتجار والصناع، جهز أسطولا عظيما للحرب والتجارة، لتروج التجارة العابرة مع الخارج. وفي أيام بزسترات، جهد الآثينيون لطرد الميليزيين من منطقة البونت *pont*، مصدر القمح الرئيس الذي تحتاجه أتيكيا. وأسس لهذه الغاية نقطة تمركز على مضائق الدردنيل، بعد أن استولى على مدينة سيجي *Sigee*. وفي نفس الوقت، تمتنت العلاقات بين الآثينيين ومصر. وهكذا نرى بزسترات، وهو يطور التجارة الخارجية، توجه نحو مستقبل سياسة آثينا الاستعمارية وشيد قواعد الانطلاق البحري لدولة آثينا.

وصدر أيضا إلى أعمال البناء الواسعة. بنى هيكلا "طوله مائة قدم" في أثينا، على صخرة الأكروبول؛ وشرع بتمديد الماء والخزانات الضرورية لهذه المدينة التي تفتقر للماء. وأحيت أعمال هامة عامة (نظمها مستبدون آخرون مثل بولكرات دي اسمس) العديد من الصناعيين والعمال. وفي أيام بزسترات، صارت أثينا مركزا للثقافة الإغريقية. فقد عرف الحاكم المستبد كيف يشد إليه كبار الشعراء، مثل أناكريون *Anacrean*. وكلف ثلاثة من الباحثين بجمع شتات الإلياذة والأوديسة ووضع نص واحد. وإرضاء للشعب، كان يقيم كل عام احتفالين تمجيدا للإله الريفي ديونزس. وفي أثناء هذه الاحتفالات تقام في أثينا أعظم التمثيليات المسرحية.

حوّل نشاط بزسترات هذا أثينا إلى مركز ثقافي هام ومنحها المقام الأول بين الدول اليونانية. وحازت المدينة شهرة دولية. إذ ساهمت الشروط المناسبة لتطوّر التجارة والمال بارتقاء العبودية، النظام التقدمي في ذلك العصر. "فالتجارة، الصناعة، والمهن الفنية، الممارسة على نطاق يزداد اتساعا بعمل العبيد، صارت فروع نشاط بارز [١]"

لكن توفر القمح المستورد بسعر مناسب وجلت مجموعات من العبيد الأجانب لم يتأخر حتى انعكس انعكاسا محبطا على الاقتصاد الفلاحي.

---

[١] – ف.انجلز. أصل الأسرة، الملكية الفردية والدولة.

سقوط البزستراتيين. اصلاحات كلستين *Clisthene*

مات بزسترات عن عمر مديد في العام ٥٢٧، تاركا السلطة إلى أبنائه الثلاثة: هيبياس، هيبارك، وتسالوس الذين اضطروا لمواجهة صعوبات كأداء داخلية وخارجية. وبعكس أبيهم الذي كان بسيطا جدا في علاقاته مع الشعب، دلوا أنهم فوقيون وأجلاف. ولتأمين بذخ بلاطهم، كانوا يفرضون الضرائب على كل شيء في المدينة: طوابق المنازل، على الزوايا البارزة خارج البناء، وسوى ذلك.

كانت أوضاعهم بالغة القلقلة بسبب تعثر العلاقات الخارجية. كان الفرس قد أخضعوا شواطيء آسيا الصغرى، أعدموا حاكم سامس بولكرات *Polycrate*، حليف أثينا، اجتاحوا مصر وأخذوا المضائق المؤدية إلى مملكة بونت *Pont*(٥١٣). وهكذا عزلت أثينا عن شط البحر. ومن جهة أخرى، كانت تعاني من ضغط إسبارطة المتزايد، التي تحمي بحيوية الأرستقراطية في صراعها مع حكم الاستبداد وألجأت النبلاء المبعدين عن أتيكيا.

فندرك تماما، في هذه الظروف، رغبة نبلاء الأرض في التمرد ضد حكام آثينا. إذ حاكت مؤامرة بقيادة أرستقراطيين، هارموديس وأرستوجتون. كانا، كما يبدو، خصمين شخصيين لأحد أبناء بزسترات، هيبارك، الذي أهان أخت هارموديس. حدثت المحاولة في أثناء الاحتفاء بعيد بناته العظام، لأن المتآمرين اعتمدوا على مساندة الجمهور. مع ذلك لم يقتلوا سوى هيبارك. نفق هارموديس في ساح المعركة، أوقف أرستوجتون وأعدم فيما بعد. وبعد هذا أقيم لهما نصبان في آثينا وظفرا بلقب "شهداء الاستبداد".

وبعد أربعة أعوام من موت هيبارك، نفي هيبياس لعلاقته باجتياح إسبارطة المسلح (٥١٠). نجح السبارطيون باحتلال أثينا وأعادوا إليها الأولغارشية الأرستقراطية، وأقاموا عليها إزغورس، قائد المهاجرين. وخلال سنتين (٥١٠-٥٠٨) احتلت الحامية الإسبارطية الأكروبول وانتشر الإرهاب في أثينا. لكن رجوع الأولغارشية لم يعمر طويلا: فانتفاضة شعبية مخيفة جمعت الدياكريين إلى البارالبين بقيادة كلستين زعيم البارليين أحد ألسميونيد. طرد السبارطيون، ووزعت أراضي أوبي والأرستقراطيين على المعمرين الأثينيين.

إنتخب كليستين أرشونت أول، وشرع في ٥٠٦ بنشر الديموقراطية في النظام الأثيني، آخذا بالاعتبار الدور المتنامي للجماهير في حياة البلاد الداخلية.

كان هذا الاصلاح يرتبط صميميا بتنظيم جديد، وحدات مستقلة، مؤلفة من قرية أو

قريتين أو ضيعة من أتيكيا. كان كل حي من أثينا يشكل وحــــدة، وللوحــدات مجالســها، موظفوها،أراضيها وحتى أعيادها، على رأسها حاكم، منتخب لعام واحد، يحكــم الشــؤون المحلية ويأخذ لائحة برعيته. يسجل الشباب الذين بلغوا الثامنة عشرة على لوائح ويمنحــون الحقوق المدنية. يعين المجلس العام نسبة أعضاء الوحدة الإدارية للمواطنية الآثينية وينفــذ المعلومات المعطاة بشأنهم. ولقد صارت هذه الوحدات منظمات في غاية النشـــاط الإداري المحلي، حيث يمارس كل الأثينيون تدريبهم المهني.

الإصلاح الهام الآخر لكلستين هو النهج الانتخابي، النابع من التقسيم الجديد لمواطنـــي أثينا إلى قبائل. القبائل الأربع من العشير الموجود منذ القدم وأحصاه سولون وصانه، تلغــى باعتبارها دوائر وتبدل بعشر قبائل إقليمية، ضمت كل منها في البداية عشر وحدات. لكـــن هذه القبائل لاتشكل أقاليم كاملة: ولكي تمثل كل منها المناطق الرئيسة الثلاث مـــن أتيكيــا، تضم عدة وحدات إدارية من المركز، من الساحل ومن الجبال. تتكون كل قبيلـــة إذن مـــن ثلاثة أقسام تسمى ترتي أي (ثلث) ليكون العدد الإجمالي ثلاثين. فنرى أن كل قبيلة مؤلفـــة من مواطنين من مختلف المهن والشروط؛ أما الأسر النبيلة الكبرى التي كانت قد انتســبت كليا إلى قبيلة معينة ولعبت فيها دورا مهيمنا، في الانتخابات، كانت قد تفتتت. فتقلصت إلى العدم القوة الرئيسية لأرستقراطية الدم ولغمت تقسيم المواطنين السابق إلى ثلاثة مراتـــب، تألفت حسب مناطق أتيكيا الثلاث. فحازت القبائل فضلا عن الطبيعة الإقليمية، وحدة البنية.

جدد كلستان أيضا تنظيم المؤسسات المركزية في الدولة، بوضعها علـــى ســلم كــل المجتمع العبودي. فمجلس الأربعمائة لسولون، صار المجلس الأعلى للدولة الأثينية، بعد أن أضيفت إليه مائة عضو. تنتخب القبيلة ٥٠ عضوا، ولكل وحدة إدارية في عدد من المقــاعد يتناسب مع كبرها. وكان مجلس الخمسمائة المنظمة الإداريـــة الرئيســية لآثينـــا. يجتمـــع باستمرار، يناقش خمسون من أعضائه بالدور القضايا العاجلة، طيلة ١/١٠ السنة؛ يحمـــل مندوبون عن هذه القبيلة أو تلك، خلال هذه المدة لقب حاكم.

كان مجلس الشعب، المؤلف من كل الأثينيين المتمتعين بالحقوق المدنية، الســلطة الفعليـــة العليا للدولة، التنظيم الديموقراطي العبودي الأعلى. يجتمع المجلس ثلاث أو أربع مـــرات بالشهر، برئاسة أحد الحكام، المتغير باستمرار. ومجلس الشعب يراقب ويوجه نشاط مجلس الخمسمائة؛ فكان في أساس سيادة أثينا التعاونية. أما سلطة مجلس الشـــيوخ والأرشـــونت،

كانت محدودة. لم يعد الأرشونت الأول يقوم الخزينة، بل عشرة خازنين يختارون كل عام، واحد لكل قبيلة. ينهض بالشؤون الحربية مجمع الاستراتيجيين، الذي ينتخب أعضاءه العشرة، كما انتخب عشرة خازنين للخزينة. يقودون محاربي قبائلهم. ولا يحتفظ قائد الجيش بسوى بامتياز تشريفي هو رئاسة مجلس الاستراتيجيين واحد من أهم مؤسسات الديموقراطية الآثينية.

أخيرا، ولاستبعاد أي احتمال لقلب النظام القائم، بإصلاح الاستبدادية ***les tyramie***، مثلا، أو تجديدها، أدخل كلستان ***l'ostracisme***، أي نفي المواطنين "الخطرين"، أي أظناء التخطيط المدمر. مورس هذا التدبير بالشكل التالي: في بداية العام، يضع مجلس الخمسمائة بين يدي مجلس الأمة مسألة معرفة إمكانية تطبيق الـ ***ostracisme***= نفي الخطرين. فإن أعطت غالبية الأعضاء جوابا بالإيجاب، تعقد جلسة أخرى، فيستطيع الحاضرون أن يسجلوا على قوقعة أو كسرة خزف الاسم الذي يراه خطرا على الدولة. ويقبل الاقتراع إن صوتت غالبية الستمائة لنفي المتهم. وبعد ١٠ سنوات، يعود المبعد إلى البلاد ويمارس حقوقه.

لم ينشر كلستان، ممثل التجار الأغنياء ومالكي العبيد، أي قانون لمصلحة الفقراء. إنما كانت مواقفه كلها تخص العلاقات السياسية وبنية الدولة. وكان العبيد الذين يشكلون الشريحة الأوسع من رعايا أتيكيا، والذين يؤسس عملهم الحياة الاقتصادية للمجتمع الأثيني، والمحرومين من أي حق، كانوا في طليعة ضحايا هذا الجهاز الذي دبجته ديموقراطية العبودية. كما حرم من الحقوق السياسية النساء والعناصر الخدمية والمضطهدة في المجتمع

أنهت إصلاحات كلستان في أتيكيا مرحلة التحولات الاجتماعية والسياسية، التي دامت قرابة مائة عام لتفضي إلى تشكيل الطبقات الاجتماعية والدولة. والتبدلات المقصودة، التي نجمت في أثينا في القرنين السابع والسادس، لا تعود حصرا إلى كلستان ومن سبقه، سولون وبزسترات. فقد وقف عند خلق رويدا رويا نهج ذكي من مؤسسات العبودية وتشريع محصلات الحركات الاجتماعية، التي وضعت حدا لمخلفات نظام العشير. ولقد كانت القوة المحركة هي الطبقة الأخيرة في الهرم الاجتماعي، بخاصة الفلاحين الشريحة التي تصارع نبلاء الدم الذين يهدفون استخدامهم. لكن الفلاحين عرفوا كيف يدافعون عن شرطهم الدقيق ليصيروا منتجين أحرارا وينخرطون في المجتمع المستعبد.

حدثت تطورات مشابهة في باقي حواضر اليونان المتطورة، لكنها لم تدرس بالتفصيل، لعدم توفر الوثائق.

الفصل الثامن والعشرون

الحروب الميدية وتشكل الاتحاد البحري الأثيني

بواعث الحروب الميدية وأهدافها

في القرن الخامس قبل الميلاد بلغت اليونان أوجها بفضل النتيجة المظفرة للحروب الميدية التي تتابعت خلال النصف الأول من القرن كله. خلق هذا النصر شروطا لانطلاق الحضارة والاقتصاد اليونانيين.

ليس لدينا الكثير من المصادر حول هذا العصر. والشاعر أخيل *Eschyle* الذي، كما هو معروف، اشترك هو نفسه في معركة سالامين، لايقدم في تراجيديته "الفرس *les perses*"، سوى مقاطع من هذه الحرب. وإلى هذه المصادر، يجب أن نضيف بعض صفحات تاريخ هيكاتيه لميليه وكثيرا من النقوش (بخاصة نقش حاكم سراكوز جيلون بمناسبة مجد ظفره في هيمير، ومسلة نقش عليها اسم كل الدول التي اشتركت بالدفاع).

لكن المجموعة الرئيسية من المعلومات حول الحروب الميدية هي "قصص" هيرودوت التي تروي أحداث ٥٠-٦٠سنة بعد انتهاء القتال. هدف هذا المؤلف، حسب قول هيرودوت، هو: "..صيانة أعمال الناس والبربر من النسيان، وبعيدا عن كل هذه الأمور، تطوير البواعث التي دفعتهم إلى شن الحرب". لكن هيرودوت لم يكن بعيدا عن الذاتية، بل هدف (من الكتاب نصرة الأثينيين كمنفذي هيلاد *Hellade*، اليونان القديم.

ثمة مصادر أخرى عامة لدراسة هذه الحقبة من الزمن هي "المكتبة التاريخية "لديودور سيسيليا وسيرة ثمستوكل، أرستيد، سيمون وبركليس، التي كتبها بلوتارك. لكنها، وقد ظهرت طبعا بعد الأحداث المدروسة، تستمد قيمتها من توثيق الأعمال التاريخية السالفة، التي لم تصلنا ابدا. وبالتالي، معلوماتنا في موضوع نصف القرن هذا ناقصة بشكل ملحوظ. أملنا في أن توسع معارفنا أرشيفات برسبولس، عاصمة سلاطين الفرس، المكتشفة حديثا، وتزودنا بمعلومات جديدة.

كان سبب الحرب التوسع المستمر والمنهجي للإمبراطورية الفارسية نحو الغرب. فقد ضمت في أيام داريوس الأول أراض شاسعة تمتد من الهند إلى بحر إيجة ومن القفقاس إلى مصر. كانت هذه الإمبراطورية مجموعة من الشعوب المتنافرة وحدها الغزو، عديمة الوشائج، متباينة في مستوى ثقافتها ومصالحها واهتماماتها. وكان الذهب الآتي من المناطق والأقاليم المحتلة، بشكل ضرائب، لا يتحول فقط إلى نقد، بل يكدس في المشربيات الفخارية التي تبقى عشرات السنين في أقبية القصور الملكية.

كانت الأرستقراطية الفارسية تجهد في إخضاع واستغلال الشعوب المجاورة، وإلحاق الأراضي والعبيد. وكان المستشارون الملكيون، القادة العسكريون ومئات الموظفين الذي يديرون الأقطار الملحقة يصيرون شريحة اجتماعية حاكمة، مستفيدين مباشرة من هذه السياسة.

وكان التوسع مدعوماً من طرف أرستقراطية العبودية وتجار النخاسة لشرق البحر المتوسط، بخاصة في فينيقيا. وكانت بعض الأوساط التجارية والصناعية من المدن اليونانية في آسيا الصغرى، المنذهلين بمناسب الأسواق الشرقية، يتعاطفون مع الفرس. واجتياح فينيقيا، ليديا وسلسلة من حواضر آسيا الصغرى، جعل من الفرس دولة ضاربة عاتية بحرية، مدعومة بحلف هجومي مع جمهورية قرطاجة: فإن مشى الفرس إلى الغرب، توجب على الأسطول القرطاجي أن يهاجم سيسيليا لمنعها من مؤازرة يونان البلقان.

بدأ غزو الفرس لأوربا في العام ٥١٣، يوم هاجم داريوس الأول السيثيين[١]، ليخضع الساحل الشمالي من البحر الأسود. لكنه لم يستطع أن يقهرهم. وبعد عدة معارك فوق أرض مولدافيا الحالية، انسحب السيثيون، جارين وراءهم في السهب الصحراوي الواسع جيش العدو الجرار (٧٠٠ألف رجل، إذا صدقنا الشهود). فلم يستطع الفرس أن يقاوموا هؤلاء الفرسان المهرة الذين يهاجمون فجأة ويضربون في الحال وينسحبون، مدمرين في دربهم الآبار، مناهل المياه والنبات. أنهكت هذه الاشتباكات المستمرة جيش داريوس، الذي لم يرَ نهاية لهذه الورطة القاضية في الصحراء، فرغب في مفاوضة السيثيين. لكن محاولته باءت بالفشل. فتراجعت القوات الفارسية، المتعبة، خائبة.

---

[١] – شعب من أصل إيراني، شكل دولة في سيثيا، لكنها تفككت في النصف الثاني من القرن الأول ق.م.

رغم الفشل في سيثيا، احتل الفرس شاطيء هلسبونت، المناطق القريبة من ثراس، بيزانسا، وشالسدوان، الأمر الذي فتح لهم دربا إلى مملكة البونت[1]. فانقطعت أية صلة بين اليونان والساحل الشمالي للبحر الأسود، وانتقلت التجارة مع هذه المنطقة من أيدي الأثينيين، الميغاريين ومدن من آسيا الصغرى إلى أيدي التجار الفينيقيين. واحتل الفرس عدة جزر شاطئية من آسيا الصغرى (شيو،ساموس، إلخ). وأخضعوا لسبوس، وقطعوا، في نفس الوقت، العلاقات التجارية بين مدن آسيا الصغرى واليونان البلقانية.

وفي العام ٥٠٠، بدأ الفرس تقدمهم نحو اليونان القارية. حاولوا احتلال أكبر جزيرة في سيكلاد، ناكسوس الغنية والخصبة. كان موجه هذه الحملة حاكم ميليت، أرستاغوراس، الذي اشتراه العدو. لكن الأسطول الفارسي لم ينجح في انتزاع ناكسوس، الأمر الذي دفع أرستوغوراس، حسب رأي هيرودوت، إلى خيانة ملك الفرس وإثارة ضده في العام ٤٩٩ المدن الإيونية التي كان نير المحتل قد أبهظ كاهلها: ففي حملة داريوس على السيثيين، حاول البحارة الأيونيون تدمير الجسر الذي أقامته قواته على الدانوب وإهلاك جيشه. لكن المنتفضين، غير القادرين، حسب رأيهم، على النصر بوسائلهم الخاصة، استنجدوا بدول اليونان القارية. وهكذا نشبت الحرب الميدية.

وضح ضعف اليونان وتشتتها منذ البداية. إسبارطة، المشغولة بإعداد الحرب ضد أرغوس وغير المتعاطفة أبدا مع أيونيا، الأرقى منها، رفضت دعم ومساندة أرستاغوراس؛ وكورانثيا ومدن يونانية أخرى حليفة إسبارطة ومصالحها المحلية تفرض عليهم القتال المشترك، لم تازر هي الأخرى المتردين. بينما أرسلت أثينا فقط، التي كانت الهيمنة الفارسية البحرية تهدد مصالحها، أرسلت عشرين مركبا للمتمردين. وبعثت مدينة أرتريا خمسة مراكب إلى أوبيا، التي تتاجر مع ميليت. لكن عدم كفاية المساعدة الأثينية اتضح بالصراع الشرس الذي دار بين الشرائح المتضررة من التوسع الفارسي وبين الذين تكمن مصلحتهم في علاقات طيبة مع هذه الإمبراطورية لاستمرار التجارة مع آسيا. وأيضا، رغم النجاح الأول (احتلال سارديا)، وبسبب عدم كفاية المساعدة الفعالة من اليونان الأوربية، انعزل المتمردون عزلا تاما.

---

[1] – مملكة في شمال شرق آسيا الصغرى، استقلت عن الفرس في العام ٣٠١ق.م.

هزم الفرس اليونانيين في البر، أمام ايفيس *Ephese* (٤٩٨). ثم طلبوا سفنا من مصر وفينيقيا الحليفتين، لمتابعة الحرب على البحر. وقرب جزيرة لادس، على ضفاف ميليت، ذاق اليونان هزيمة ماحقة (٤٩٤)، الأمر الذي مكن الفرس من تطويق ميليت (مركز التمرد) برا بحرا واقتحامها. دمرت المدينة ومن بقي حيا أسر أو بيع عبدا. واحتل الفرس بيزانسا مرة أخرى. وهكذا احتلوا في العام ٤٩٤ مواقع مفتاحية في التجارة والإبحار إلى آسيا الصغرى واستعادوا سلطتهم في أيونيا.

أولى حملات الفرس ضد اليونان

تذرع الفرس بوجود سفن يونانية وأريترية في معسكر الأيونيين، لشن هجوم على اليونان القارية. وفي صيف٤٩٢، سارت إلىاليونان أولى الحملات الفارسية بقيادة مردونيوس، صهر داريوس الأول. تقدم الجيش برا وبحرا، عبر هللسبونت، ثراس ومقدونيا.

لكن الأسطول الفارسي غرق في رأس أثوس، في أثناء عاصفة عاتية. حسب هيرودوت، كانت الخسائر حوالي ٢٠ ألف رجل. أما جيش البر، فقد ذاق خسائر فادحة عندما حاول سحق مقاومة البريجس، القبيلة الثراسية التي أرادت أن تحول دون عبور الفرس. ومردونيوس نفسه جرح واضطر بعد لأي أن يتخلى عن متابعة العمليات. ومع ذلك، كان للحملة نتيجة هامة: احتل الفرس ساحل ثراس الغني واستطاعوا أن يقيموا فيه نوعا من الجسور المتحركة تساعد القوات على العبور في حملة قادمة إلى اليونان.

لم يكن فشل مردونيوس حادا ليثبط تصميم الفرس على التوسع. فأرسل داريوس إلى كل مدن اليونان سفراء مكلفين بالمطالبة "بالأرض والماء". انتهت بعض دول اليونان ذات النظام الأولغارشي التي تخشى الانتفاضات الشعبية، منها ثيساليا، بيوتيا، إيجين، وأرغوس، انتهت إلى الاعتراف بتفوق الفرس. لكن أثينا وإسبارطة رفضتا بوضوح دون أن تخشى قتل المسافرين. وفي بداية القرن الخامس، تشكل في أثينا حزب سياسي سمي "البحري"، بقيادة ثمستوكل تمكن أن يوسع قاعدة اقتصادية لأثينا باحتلال طرق تجارية وأسواق. فأراد الحزب أن يخوض صراعا حاسما ضد الفرس، بخاصة اجتياح بعض المضائق، كونها هامة جدا للتجارة مع ساحل البحر الأحمر وثراس لتصدير بخاصة منتوجات صناعية، مقابل القمح. فإغلاق المضائق كان سيضر كثيرا بهذه المكاسب.

ونهضت شريحة اجتماعية أخرى، بقيادة الثري والنبيل ملتياد، حاكم ثرسونيز السابق، وتركها بعد الاحتلال الفارسي، لتنضم أيضا إلى الصراع ضد الغزاة. لكن ملتياد، باعتباره مدافعا عن مصالح المالكين العقاريين، اهتم بصيانة الأرزاق والالتزام بحرب دفاعية.

وهكذا كانت شرائح التجار والصناعيين، بإشراف وتوجيه ثمستوكل، والمالكين في الأرياف بقيادة ملتياد، في أثينا، وفي إسبارطة، قررت الأرستقراطية الحاكمة المقاومة والتصدي. في الوقت ذاته، كان الغزو الفارسي في نظر الشعب الاثيني نازلة فادحة ودفنا للديموقراطية. فكان الاثينيون إذن أمام حرب وطنية، دفاعا عن البلاد والحضارة. من هنا أتى التوازن الوطني الذي أنهض مختلف فئات السكان في أثينا.

في العام ٤٩٠، بعد ١٨ شهرا من الغزوة الأولى لليونان تقريبا، شرع الفرس بحملة أخرى. كانت خطة داريوس، هذه المرة، الإبحار إلى اليونان الوسطى، واليونان الشمالية كانت كلها تقريبا بين يديه. كان داتس، القائد العسكري المحنك يقود الأسطول الضارب، بينما كان الجيش بإمرة الشاب الأمير آرتافيرن، حفيد داريوس. وقد لعب هيبياس، المبعد من آثينا والذي يأمل، بمساعدة الفرس، العودة حاكما إلى هذه المدينة التي ما تزال تضم العديد من أنصاره، لعب دور المستشار في قيادة هذه الحملة.

إتجه الفرس مباشرة إلى سيكلاد وأبحروا إلى ناكسوس واجتاحوها. ثم وصلوا إلى أرتريا ودمروها. وبناء على رأي هيبياس، أبحروا إلى شرق أتيكيا، قرب سهل ماراتون، المفتوح من جهة البحر، والمغلق بالجبال من كل الجهات. العدو باغت الأثينيين. وتبين أن وضعهم أسوأ من حال الإسبارطيين، المعادين لنظام كلستين، لكن هؤلاء لم يسارعوا إلى النجدة. وأعلنوا أنهم، احتراما للعادات، لن يباشروا الحرب إلا والقمر بدرا. لكن بلاتيا، المدينة البيوتية، المجاورة لأتيكيا أرسلت، وحدها، ألف جندي. فاضطر الأثينيون إلى استنفار كل الرجال، حتى العبيد. بداية، فكروا أن يعتصموا خلف جدران المدينة، لكنهم بناء على إلحاح المالكين والكادحين قرروا المسير إلى ماراتون؛ على مرأى العدو. كان يتألف جيشهم من ١٠ آلاف رجل مشاة ثقيل السلاح، وألف مسلح من بلاتيا وسرايا خفيفة، وكان ملتياد، قائد الحزب الزراعي، يقود عمليا كل القوات كأحد الستراتيجيين وثمة أريستيد، قائد محنك آخر في هذا الحزب. استحكم الأثينيون قرب هضبة بانتيليك، في مجال ضيق، منيع على الخيالة ويحمي طريق آثينا.

ليس لدينا معرفة دقيقة بعدد الجيش الفارسي. وحسب هيرودوت، كان الأسطول يضم ٦٠٠ سفينة، لكنه رقم مبالغ جداً. وفي كل حال، كان عدد الفرس أكبر بكثير من خصومهم وقد يكونون ٤٠ الفاً. لكن مشاتهم كانت مؤلفة من عناصر متنافرة، غير منسجمة، مجندة من مختلف المناطق المحتلة.

وضع ملتياد جيشه في أرتال طويلة، بحيث دعم الجناحين وأخلى الوسط أو المركز. أغلق منافذ الوادي الضيقة، فحرم الفرس من نشر خيالتهم، الذين عادوا إلى البواخر، تاركين المشاة وحدهم. استغل الأثينيون هذا الوضع الجيد، نزلوا من الجبل انقضاضاً وفتحوا معركة ماراتون الشهيرة.

في أثناء العراك، خرق العدو وسطهم، لكن الجناحين دخلا اللعبة في وقت معاً، مهددين بالوصول إلى مؤخرة الفرس المنخرطة في عمق الوضع الأثيني. أخيراً اضطر العدو إلى التراجع نحو السفن. تابعه اليونان حتى الشاطئ، لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء إلا على سبعة مراكب فقط. وكما يروي هيرودوت: "نفق في هذه المعمعة من الفرس، حوالي ٦٤٠٠ رجل؛ ومن الأثينيين ١٩٢" (١١٧،٦). مع ذلك، بعد أن جمع الفرس أكثر قواتهم على ظهر البواخر، قصدوا أثينا على عجل؛ واعتماداً على مساندة أنصارهم في نفس المدينة أملوا أخذها من جهة البحر بهجمة مفاجئة. لكن الجيش الذي حمى وادي ماراتون، اجتاز بمسيرة انقضاضية ٣٠كم تفصله عن المدينة. وبينما كان الأسطول الفارسي يدنو من فالير، مرسى أثينا الرئيسي، كان مظفرو ماراتون قد دخلوا في السور، بحيث ان الفرس خوفاً من مواجهة ثانية، بقوا على متن مراكبهم وانطووا باتجاه آسيا.

وهكذا هزم الأثينيون هجوم الفرس الأول (لم يأت الاسبارطيون إلا بعد فوات الأوان)، وبخاصة علىأ يدي فلاحي أتيكيا -الزوجيت- الذين كانوا يشكلون نواة أو قلب الكتيبة. وصار ملتياد، القائد الأعلى، البطل المظفر. ورفع له مواطنوه نصباً قرب القبر المشترك للمحاربين الذين سقطوا في ماراتون (مايزال الضريح قائماً حتى اليوم). فجهد ملتياد، المتمتع بشهرة طبقت الآفاق، في دفع حزبه إلى حرب هجومية. اقترح خلق أسطول من ٧٠ مركبا وإرسال حملة إلى الجزر الباقية تحت حكم الفرس. وعلى رأس جحفل هاجم ملتياد جزيرة باروس وطلب من أهليها ضريبة من مائة طالان[1]. لكن الحصار فشل ورجع

---

[1] – وحدة وزن في اليونان القديمة تساوي من ٢٠-٢٧كغ، أي هذا الوزن ذهباً أو فضة.

ملتياد خائبا. ومثل أمام القضاء، وأدين بتأدية ٥٠ طالان غرامة ومات بعيد هذا الحكم متأثرا بالجراح التي أصابته في أثناء حصار باروس.

أما رئيس الحزب البحري ثمستوكل، رجل الأعمال والسياسي البارع، راح يسعى لتدمير النفوذ السياسي للأسر النبيلة. فأعد مخططا واسعا لبسط نفوذ أثينا البحري. سهل إنجاز المشروع استثمار حقول الفضة في أتيكيا، التي أنفقت، بناء على اقتراح ثمستوكل، في بناء أسطول لايقهر، وإدارة وتحصين المرافئ. وسحقت مقاومة حزب المزارعين بنفي قائده أرستيد، وبجهود ثمستوكل، وضع الأثينيون في الماء ٢٠٠ مركب ثلاثي المجاذيف خلال عامين.

حملة خرخس

في العام ٤٨٠، أي ١٠أعوام بعد معركة ماراتون، بلغت الحرب ذروتها. مات داريوس في العام ٤٨٤، وخلفه أحد أبنائه، خرخس. ترافق تبدل الملوك هذا بفتن داخلية دامية، إحدى نماذج الاستبداد الشرقي، كالانتفاضات الخطرة التي قمعها خرخس في مصر وبابل. فضلا عن هذا، فقد وعى جيدا أن يونان أوربا كانوا أعداء شرسين ورهيبين، فأعد لهم بعناية حملة جديدة. وليضمن حرية العمل لأسطوله وتجنب خطر غرقه قرب رأس أثوس، حفر خرخس قناة عبر البرزخ الواصل بين شبه جزيرة أكتيا ولابر. أنجز المشروع بفن مدهش بمطرقة وإزميل المصريين والفينيقيين، فكان عريضا يتسع لعمارتين كبيرتين محاربتين. وبني في ثراس من مخازن التموين التي غصت بالماشية والأعلاف. وأقيمت الجسور فوق أنهر ثراس وحتى فوق مضيق هللسبونت. وجند خرخس خلال أعوام جيشا جرارا اتبع تدريبا نوعيا في كابادوسيا، التي صارت مركز تجمعه. "كل هذه الحملات، وغيرها كثير، لا تستطيع ان توازي هذه وحدها"، يكتب هيرودوت.

كانت استعدادات الفرس القتالية قد ألزمت مدن اليونان بالاستعداد لمقاومة العدو مقاومة عامة. كان فقدان الوحدة السياسية، كما أشرنا، نقطة ضعف اليونان. إذ كان لكل مدينة مصالحها. والجوار المباشرون –اسبارطة وأراغوس، أثينا وإيجين، المدن البيوتية من تسبيا وبلاتيا وثيبيا وغيرها– كانت تعيش كرها متبادلا. وعدة دول، مثل أرغوس، تساليا وثيبيا، كانت تطمح إلى الحياة وتبدو مستعدة لدعم الفرس ليصمدوا. وحسب هيرودوت، "إن أولئك الذين أعطوا الفرس الماء والأرض كانوا واثقين أن ليس ثمة ما يدعوهم لإغضاب

البربر، وكان من لم يعطهم، بالعكس، غارقين في الإرهاب، ولا تملك اليونان مراكب كافية لمقاومة الفرس، والناس راغبون عن الاشتراك في الحرب، لكنهم مضطـــرون للخضـــوع للميديين" (الكتاب ٧، ١٣٨).

كان الأثينيون بقيادة ثمستوكل أبطال الوحدة المتحمسين. وكانت الفئـــة الحاكمـــة فـــي إسبارطة، رغم عدم رضاها عن أثينا الديموقراطية، كانت واعية أيضا ضرورة التضـــامن، لأن الإسبارطيين ما كانوا قادرين على مواجهة الفرس في البحر. وشـــكلت دول يونانيـــة أخرى حلفا دفاعيا. وفي خريف العام ٤٨١، اجتمع ممثلون عن أثينا، إســـبارطة، إيجيـــن، أوبيا وغيرها من الدول علىالبرزخ، في معبـــد بوزيـــدون ***Poseidon***، وأقســـموا يميـــن الإخلاص للاتحاد الجديد. انضمت إليه ثلاثون دولة، لتعبر عن المحاولة الأولـــى لمنظمـــة لكل الإغريق. واعلن السلم الشامل بين الدول المتحالفة، التي أعلنت أيضا العفو الشامل عن المجرمين السياسيين. ولعلة تفوقها العسكري المعترف به من الجميع، كلفت اسبارطة بقيادة القوات البرية والبحرية.

وفي خريف ٤٨٠، كرر الفرس خط سير مردونيوس، منطلقين مـــن الشـــمال نحـــو اليونان، البعض على طول شواطيء تراسيا، برا، والآخرون بحـــرا. يبـــالغ هـــيرودوت بوضوح بعدد جند خرخس. وكما قال، كان المشاة وحدهم ١٧٠٠٠٠٠ جندي، والكل، بمـــا فيهم القباطنة، المذخرون، النساء، إلخ، ٥٢٨٧٣٢٠. ويضم الأسطول ١٢٠٧مراكب. بينمـــا يدعي بعض المؤرخين المعاصرين أن خرخس لا يستطيع أن يرسل إلى آسيا أكـــثر مـــن ٢٦٠٠٠٠ قاتل. أيا كان الأمر، كان هذا، لذلك العهد، مشروعا فريدا من حيث الفكرة ومـــن حيث المدى: فرس، آشوريون، عرب، ليبيون، هنود وشعوب أخرى انطلقت بالتتابع ضـــد اليونان الدولة الصغيرة.

كانت بداية الحرب بائسة بالنسبة لليونان. اهتموا قبل كل شيء بحاضراتهم، فلم يهيئوا عملهم جيدا، فلم يقدروا ان يوقفوا العدو عند الحواجز الطبيعيـــة التـــي تقدمـــها السلاســـل الجبلية. تقدمت القوات الحليفة بداية نحو تساليا، أقبل الفرس واحتلوا معبر تامبيا بين جبـــال الأولمب وأوسا ***Ossa***. لم تكن المعنويات في تساليا مستقرة، واعتبرت القيادة الاســـبارطية هذا الموقف غير مطمئن، وسار الجيش اليوناني مباشرة إلى الحاجز الثالث، الذي يشـــكله البرزخ الذي يفصل اليونان الوسطى عن البلوبونيز. وسقطت تساليا بحقولها الخصبة بيـــد

الخصم. لم يكن مضيق ترموبيل، مفتاح اليونان الوسطى، محميا بأكثر من ٣٠٠ مقاتل إسبارطي، بقيادة ليونيداس. تقول الأسطورة إن خائنا من أبناء البلد قاد الفرس بمعابر الجبال إلى مؤخرة خطوط اليونان. قاتل الفصيل الإسبارطي بشجاعة وأبيد كله بما فيهم قائدهم ليونيداس.

وأخليت اليونان الوسطى بدورها، فدمرها الفرس ونهبوها. واحتل خرخس على رأس جيشه البري، وخرب بدون شفقة بيوتيا وأتيكيا. لم يوفر سوى المدن البيوتية، بناء على أمر الكسندر، ملك مقدونيا الذي انتقل إلى العدو، متعاطفا مع الفرس. وبعد نهب معابد أثينا وقتل الناس الذي لجأوا إلى الأكروبول، حرق الغزاة المدينة. ولقد جند كل القادرين على حمل السلاح في أيتكيا، في الجيش البري والبحري، بينما أخلي على عجل النساء، الأولاد، الشيوخ والعبيد إلى جزيرة سالامين.

كان الأسطول هو الذي أنقذ اليونان في هذا الموقف الحرج. ففي أثناء معركة ترموبيل، حقق الأسطول اليوناني، الذي كان يحمي خاصرة سرية ليونيداس، ظفرا مؤزرا، بإنزاله الهزيمة بالأسطول الفارسي قرب رأس أرتميزيوم. وبعد مغادرة اليونان الوسطى انسحب نحو جزيرة سالامين.

ألح الإسبارطيون على بقاء الأسطول بعيدا عن خليج سالامين نحو السبرزخ، حيث تمركزت القوات الحليفة البرية، المكلفة بالدفاع عن البلونبزنيز. ولقد بدأوا ببناء جدار على عجل عبر البرزخ، ليمنعوا الجيش الفارسي من التغلغل أبعد. لكن هذا الانسحاب كان يعني الأثينيين التخلي عن وطنهم. وبناء على إلحاح ثمستوكل فقط، وهو القائد الأعلى للأسطول اليوناني (الذي يمثل أكثر من نصف البحرية اليونانية كلها)، أمكن تقرير خوض معركة ضد الفرس في مضيق سالامين. وذهب ثمستوكل حتى تهديد الحلفاء: "إن لم تصغوا لي، لن نتأخر عن اخذ عائلاتنا وننتقل إلى إيطاليا، في سيريس، وهي لنا منذ وقت طويل وحيث يعلن الوحي ان علينا أن نبني مستوطنة. وآنئذ، تتذكرون قولي هذا!" (هيرودوت، ٨، ٦٢). على أفرض أنه أنبأ خرخس بانطلاق قريب للأسطول اليوناني وأن هذا طوق سالامين من الجنوب، بدون علم اليونان، بطريقة إغراقهم في المضيق. وفي صباح الغد، دارت معركة قرب سالامين قررت مصير الحرب الميدية. أنزل الأسطول اليوناني، المؤلف من مراكب غير كبيرة تتحرك كيف تشاء في المضيق الأليف، دون هدنة ولا مهادنة، ضربات قاسية

بالأسطول العدو. بالمقابل اصطدمت العمارات الفارسية القاسية الثقيلة، المتزاحمة في هـذا الساحل الضيق، وغرقت إثر هذه الواقعة. وبعد ان جمع خرخس فلول أسطوله،اتجه إلـى آسيا الصغرى؛ وأكره أيضا على لملمة أكثر سراياه، التي يستحيل تموينها بدون بواخـر. بقي ٥٠ ألف يوناني تقريبا، بقيادة ماردونيوس، اضطروا هم أيضا لدى اقتراب الشـتاء أن ينسحبوا إلى تساليا الخصبة.

يرسم الشاعر أخيل، الذي اشترك شخصيا بمعركة سالامين، يرسم لوحة أخـاذة فـي تراجيديته "الفرس":

".. اختلط الحابل بالنابل. يبذل أسطولنا
أول جهد؛ لكن مراكبنا، العديدة جدا،
المتزاحمة في المضيق، لا تقدر أن تساعد
بعضها؛ مجانيف تحطمت؛ واليونان، المهرة
بالمناورة، يضربونهم من كل صوب، ويغرقونهم
أيعيدونهم على أعقابهم؛ يختفي البحر تحت
الحطام والموتى؛ وتغطي الجثث الشطآن
والصخور. والأسطول كله يولي الأدبار
مبلبلا مشتتا."

(أخيل، "الفرس"، ٤١١ وبعدها)

اليونان ينتقلون إلى الهجوم. اتحاد ديلوس البحري

لقد أقنع نصر سالامين اليونان أن اتحاد الدول يقدر ليس فقط أن يطرد الفرس خـارج أرضهم، بل أيضا متابعة الحرب حتى النصر النهائي، لاسيما فـي نفـس العصـر، فـي سيسيليا، يوم هزم جيلون حاكم سيراكوز قرب هيمير القرطاجيين حلفاء الفرس. وأيضا في صيف العام ٤٧٩، يوم دخل ماردونيوس من جديد أتيكيا، ترك الجيش اليوناني استحكامات البرزخ وانتقل إلى الهجوم. وشغل الجيش اليوناني الذي وحد قلوب ٥٠ ألف رجل (قرابـة ١١٠ آلاف حسب هيرودوت)، بقيادة المحافظ بوزانياس السبارطي، شغل في أيتكيا مواقف جديدة على سفوح سثرون التي تشرف وتتحكـم بـدرب أثينـا. فرضـت القـوة علـى ماردونيوس أن يتراجع إلى بيونيا، بعد أن دمرت أتيكيا مرة أخرى. نصب معسكره قـرب

بلاتيا لكي تقدر خيالته أن تناور في سهل بيوتيا الواسع. وهنا أمام بلاتيـــا، جـرت أكـبر معارك هذه الحرب؛ دامت عدة أيام. وكما في مراتون، كان تفوق السرايا الثقيلة اليونانيـــة واضحا. تفرد الإسبارطيون، مشوا إلى العدو بسور لا يخـترق، بينمـا احتـل الأثينيـون معسكرا منيعا. ماردونيوس ذاته مات في المعركة، الأمر الذي دب الهزيمة العامـة فـي الجيش الفارسي. ثم أتى دور ثيبيا، التي كانت نقطة استناد لمردونيـوس؛ أخـيرا، دخـل الحلفاء شاليا على أجداث ومخلفات العدو. تقول الرواية إن ثلة صغيرة فقط مـن الفـرس بقيادة المرزبان أرتباز استطاعت الهروب عن طريق مقدونيا وثراسيا. وهكـذا تحـررت اليونان القارية كلها.

وفي الوقت نفسه، طرد الأسطول اليوناني الفرس من بحر إيجة. وفي صيـف العـام ٤٧٩ نفسه، دارت معركة بحرية قرب رأس ميكال، نقطة تمركز البحرية المعادية. كـان الفرس قد سحبوا بواخرهم إلى الساحل، خشية الاصطدام باليونان. ثـم أبحـر الأسـطول اليوناني، بقيادة ملك اسبارطة ليوتشداس والأثيني خانثبوس (والد بريكلس)، وطوقوا المواقع الفارسية وأحرقوا المراكب التي لم تتعرض لخطر الإبحار. ألزم هذا النصر جزر ثاسوس، ساموس، لسبوس وشيو أن تفك ارتباطها مع الفرس وتنضم إلى الاتحاد الهلليني.

وهكذا أفضت معارك سالامين،ميكال وبلاتيا إلى انعطاف حاسم. برهنت أن التمسـك بالحرية كان قوة قمينة بتخطي، في الساعة الحرجة، التفكك الداخلي في الـدول أو بعـض الفئات الاجتماعية، باسم الآمال المشتركة للشعب اليوناني.

بعد هذا خلقت الحرب الميدية جامعة أخرى للدول اليونانية، بقيادة أثينا هـذه المـرة، وأضيق من السابق. فبعد النصر المؤزر الباهر لميكال، انسحب الأسـطول المتحـد نحـو هللسبونت ليعزل الفرس عن أوربا. لكن مراكب ليوتشداس البلوبونيزية تركـت الأثينييـن لتعود إلى اليونان. أما هذه الأخيرة، التي كان همها الأول التمون المنتظـم بقمـح بونـت، تابعت العمل في البحر. فحاصر الأسطول الأثيني، الذي انضـم إليـه الموجـودون فـي الجزيرة، قلعة سستوس في المكان الأضيق من هللسبونتو، وبعد شهرين من التطويق، أجبر الحامية الفارسية على الاستسلام. وفي العام ٣٧٨، عقد تحالف بين المدن اليونانية من آسيا الصغرى والجزر من جهة أخرى، سمي تحالف ديلوس الدفاعي. كان هذا التحالف جامعـا مدن بحرية مهمتها تقديم الرجال والبواخر للحرب ضد الفرس. والحاضرات الصغيرة غير

القادرة بوسائلها الخاصة على بناء سفن، كان لها الحق أن تدفع سنويا مبلغا معينا (الدينا لائحة ببعض النقوش). وفي جزيرة دالوس، قرب معبد أبوللون، كان الصندوق المشترك، الذي ضم ٤٦٠ تالان (قرابة مليون روبل-ذهب). هنا اجتمع المجلس الاتحادي. كان الحلف يملك أرضا واسعة، يشمل حتى ٢٠٠ حاضرة.

كان الأثينيون هذه المرة يقاتلون الفرس بمعنوية أعلى وأمل أمتن ويحققون نجاحات أوسع وأهم. وفي العام ٤٧٠، طرد الجنرال اليوناني سيمون العدو من شواطئ تراسيا. فالتحقت بسيمون كل المدن اليونانية المرتبطة بالفرس. وتصدى اليونان للفرس في بامفيليك، على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، عند مصب أورمدون (٤٦٨). أخيرا فتحت كل الطرق التجارية والجزر شواطئ بحر إيجة أبوابها أمام التجار اليونان. لا بل جهد الأثينيون في التغلغل في الأرض الفارسية. وفي العام ٤٥٩ قررت أثينا مؤازرة مصر المتمردة ضد الفرس وأرسلت لها خيرة بواخر أسطولها. على ذلك نجح الفرس في قمع تمرد المصريين، ودمروا تقريبا كل الأسطول اليوناني (٤٥٤). وبعد خمس سنوات، ٤٤٩، لاقى أسطول أثيني آخر، بقيادة سيمون، لاقى الفرس قرب قبرص، أمام مدينة سالامين. انتهت المعركة بظفر الأثينيين وطرد نهائي للفرس من شرق البحر الأبيض المتوسط.

كان تفوق اليونان بديهيا، وأكره الفرس في العام ٤٤٩ على عقد السلم، المعروف في التاريخ باسم سلم كالياس ***paixde callias*** (السفير الأثيني الذي مهر المعاهدة في سوز ***Suse***، عاصمة ملك الفرس). بعد الحرب الميدية، شرعت المناطق الغنية في آسيا الصغرى،وبحر إيجة والبحر الأسود، شرعت ثغورها أمام اليونان الذين غرسوا فيها التجار الشرقيين. وبلغ الرواج الاقتصادي، والتفتح السياسي والثقافي لليونان في النصف الثاني من القرن الخامس، نقطة الأوج.

الفصل التاسع والعشرون

قمة الاقتصاد العبودي في اليونان

الاقتصاد في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد

حتى في أوجه، في القرن الخامس، لم يشكل اقتصاد اليونان كلا متكاملا. البلاد، كما هو معروف، تتكون من عدة دول ومناطق مستقلة تختلف بوضوح من حيث النهج الاقتصادي. وفي عدد من بقاع اليونان، بقي أسلوب الحياة القديم ساري المفعول. ابيبريا،أركانانيا وإتوليا كانت أقاليم رعوية. وفي تسايلا، بيوتيا، لوكريد، فوسيد وفي جزر بلوبونيز، كانت زراعة الأرض هي المهيمنة. المكان الأول بين الأمصار الزراعية يعود إلى تساليا، التي تصدر حتى مما يفيض عنها من القمح؛ وكانت تربي الكثير من الأنعام بخاصة الخيول. وفي اليونان الوسطى، تنسب الملكية الزراعية إلى بيوتيا. كان فلاحو بيوتيا هم الممونون العاديون للسوق الأثيني، حيث يبيعون نتاج حقولهم، السمك والطرائد. وفي اليونان الجزيرية، تتميز أوبيا بخصوبتها.

كانت الأقطار الزراعية والرعوية متخلفة من الزاوية الاجتماعية والسياسية. فحسب شهادة ثيوسيديد، كان الأكانانيان والأتوليان يعيشون في القرن الخامس كما في أيام هوميروس: يحملون أبدا أسلحتهم، تخطف النساء وتسبى، ولم يعرفوا بعد استخدام العبيد. وفي عدد من الاقاليم، كان يوجد مختلف أنواع العلاقة البدائية للشعب الريفي مع الملاك العقاريين. وفي إسبارطة، كما نعرف، كانت أراضي الحكام -السبارطيين- محروثة بتعب الأجراء المستعبدين وكان شرط هؤلاء يذكر بشرط......تساليا... كريت، .....أرغوليد.

وبعكس المناطق الزراعية، كان العديد من الحاضرات مثل أثينا، كورنثيا، أيجين، ميغار، ميليت وغيرها قد صارت قبل الحروب الميدية مراكز كبيرة للتجارة والصناعة. وبعامة، كانت أراضيهم غير ملائمة لزراعة الحبوب. وفي أتيكيا، مثلا، كانوا يزرعون بخاصة المزروعات التي تحتاج الكثير من العناية: الكرمة والزيتون. وقد ولد نقص القمح

رعية ريفية فائضة تسعى الى المهن، الى التجارة، محتاجة لتصدير منتوجها الصناعي واستيراد المواد الغذائية، والمواد الأولية والعبيد.

وكانت المهن والصناعات في الحاضرات متطورة في القرن الخامس. يشير بلوتارك الى النجارين، النحاتين، صناع النحاس، البنائين، الجواهرجية، صناع العاج، الرسامين، المزخرفين، المرصعين، الحبالين، الحائكين، الدباغين، مرممي الطرق، الخ.

الى هذه اللائحة نضيف الفرانين، الحلوانية، الأسكافية، البراذعية وغيرهم. وفي المدن الكبيرة مثل أثينا، كان يوجد أحياء كاملة تعمر بأناس من نفس المهنة، كانت ميليت مثلا، للحلوانية، الأسكافية، البراذعية وكانت سيرلميك حي الفخارين. وكانت بعض المدن مشهورة بهذه البضاعة أو تلك. وكانت أثينا وكورنثيا مختصتين بصناعة السلع المعدنية، الأسلحة بخاصة، المفروشات، الحياكة، والفخاريات. وكانت مشربيات كورنثيا المطلية المصنوعة للتصدير منذ القرن الثامن تصل حتى ايتروريا. وفي أثينا وكورنثيا كانوا يهتمون أيضا بتعمير السفن.

وفي القرن الخامس ق.م. كان يوجد في أثينا ورشات صغيرة، يعمل فيها أفراد الأسرة كلها، يساعدهم غالبا عبد أو عبدان، وأحيانا أكثر.

لم يكن أجر الصناعي يتجاوز دراخما واحدة في القرن الخامس ودراخمتين في القرن الرابع. وكان الفقراء يأوون ألى أكواخ تصعب تسميتها بيوتا: غرفة واحدة طولها عدة خطوات، بجدران من الخشب أو بعض الحصى الممزوج بالفخار وأرض صخرية ممهدة. كان الجدار الأساسي غالبا صخرة واحدة، ترتبط به الجدران الأخرى. بين السطح والسقف كان يقوم مسكن صغير يسكنه أصحابه أو يؤجرونه؛ يصعد إليه بسلم.

والمهنة في اليونان القديمة، لم تكن ابدا معتبرة عملا مشرفا. "إن المهن كلها عمل حقير، يكتب خنوفون ("اقتصادي"،٤،٢)، ومن الأكيد والطبيعي أن ينظر إليها في المدن بازدراء ومهانة". وينسب الكثير من الاحتقار للأجراء المشتركين أيضا بالإنتاج، مع أن عددهم كان ضئيلا.

وبعد الحروب الميدية، بخاصة في القرن الرابع ق.م، راح يظهر إلى جانب الورشات الصغيرة، مشاريع تنمو باستمرار تستخدم عبيدا. كان أغلب مؤسسيها أجانب أحرارا. يعلل ظهور هذه المشروعات نمو التصدير من اليونان باتجاه المحيط. كان دموستان قد ورث

عن أبيه ورشة يعمل فيها ٣٢ عبدا في صنع الأسلحة. ويتحدث أيضا عن ورشة أخرى لصنع أسرة ينام عليها ٢٠ عاملا أعطيت لأبيه رهنا. وكان خطيب ليزياس يمتلك ورشة لصنع الدروع والتروس تستخدم مائة عبد. ويمتلك ورشة أخرى من نفس النوع تنتج مصابيح، آلات موسيقية وسواها. ونلمس هنا بداية تقسيم تقني للعمل. وفي ورشات التعدين، البعض يطرق الحديد، وأخرون يشحذون، وغيرهم يسقون المعدن. وورشات السيراميك تستخدم، عدا صناع الفخار، رسامين ودهانين لتزيين الأواني المنزلية. لكن الصناعات اليونانية لم تستخدم في القرنين الخامس والرابع الآلات. فما كانوا يعرفون آنئذ إلا التقنيات البدائية: العتلة، البكرة، مسن أو رحى، وغيرها، العاملة أساسا بقوة الإنسان العضلية.

وكمثل على سلع منتشرة في كل اليونان وخارجها، نذكر صناعات الفخار. ففي القرن الخامس، انتج هنا المشربيات الرائعة المزدانة بصور على خلفية سوداء شديدة المقاومة، يبهر جمالها العين حتى اليوم. والقدور المصنوعة من الفخار المشوي كانت تحمل أحيانا شارة شيخ الورشة وشارة مفتش السوق، اللذين يتحليان بالكفاءة المحلية. على إحدى هذه القارورات نقرأ النقش التالي: "أوتميدس صنع هذه المشربية خيرا مما لن يستطيع صنعها أفرونيوس" (أحد المزاحمين).

بينما كانت السلع المصنوعة ماتزال تستخدم العبيد والعمال الاحرار، لم يبق لصناعة المناجم أو المقالع كيد عاملة سوى العبيد. تشهد على هذا مناجم لوريون الشهيرة، في جنوب أتيكيا، التي تخص الدولة وتؤجرها للأفراد. كانت تبلغ حتى ٤٩م عمقا. من هذه الآبار، تذهب أروقة أفقية، مقطوعة في صخور صلبة، حيث ينتشر معدن الفضة. كان كل رواق يحفره عامل يعمل ١٢ ساعة،ويتتابع العمل ٢٤ ساعة ولايعطي إلا ١٠م في الشهر. وكان المعدن، الذي يفصل بالمعزقة والرفش، يكوم في سلة تسحب نحو الآبار عبر الرواق؛ كان ينهض بهذه المهمة الأولاد والمراهقون، ارتفاع الرواق متر واحد. يرفع المعدن بالسلال الكبيرة، بواسطة ملفات يدوره هؤلاء العبيد أنفسهم، ثم يجرش بحجر الرحى ومطارق حديد ثقيلة. ثم يغسله الفتيان والنساء في أحواض رخامية بماء جار، لتخليصه من الرصاص. ويصنع الفونت بأفران واسعة. نأخذ من هذا سبائك، يربطها المسنون والصبيان حزما ويرسلونها إلى أثينا على ظهور البغال. كان الرصاص يضغط بصفائح سميكة،

يحمل خاتم مالك العبيد. ولجلب الفحم، وخشب التدفئة وإرسال معدن لوريون، شقوا طرقا وبلطوها.

كان تطور المهن يترافق مع رواج التجارة. فالتجارة الداخلية، بخاصة على أرض صلبة، بين مختلف دول اليونان في شبه جزيرة البلقان، بحاجة لمدى واسع. وكانت التجارة المحلية أساسا تجارة سلعية، تجارة سوق. كان ممثلوها النموذجيون الباعة الجوالين، الحانوتيين، باعة المفرق، والفلاحين. وكان لكل مدينة مكان في السوق، الأغورا، الذي يشكل مركزها أو وسطها، تتجمع حوله الصروح العامة والمعابد. وثمة رف خاص لكل بضاعة: سمك، جبن، فخاريات، خمر- إلخ. ومكان خاص للنخاسة. وفي هذا الميدان العام، من المدن الكبرى ، يزاول المبادلون والمرابون القابعون وراء مكاتبهم، كل أنواع العمليات المالية: يتلقون الفضة مكدسة، يكلفون بإرسالها إلى طالبها، وإجراء الصفقات، وغيرها. كانت الفوائد عالية: ١٨% بشكل عام، وفي حال الارتياب أو الاظطراب التجاري، تصل إلى ٣٦%.

كانت المراكز التجارية والصناعية الكبرى في اليونان القديمة تشترك بتجارة البحر الخارجية، لأنها بحاجة للقمح، خشب البناء واليد العاملة (العبيد). وبعد هزيمة الفرس، استعادت اليونان اليد الطولى في بحر إيجة ومضائق بونت-أوكسن. وقد أضعف سحق القوات البحرية الفارسية بصورة غير مباشرة الفينيقيين، حلفاء الفرس والمزاحمين السابقين لعمارة السفن اليونانية. وتجدد التبادل بين اليونان ومستعمراتها في آسيا الصغرى، وكذلك التجارة مع الشرق، مصر، شلسدوك، تراسيا، مقدونيا وبخاصة مدن ساحل البحر الأسود. وكانت مراكب التجارة اليونانية تبحر باتجاه اليونان-الكبرى، نحو سيراكوز، وتتصل كمبانيا، أوترّاريا و، أيضا إلى الغرب، شواطيء الغول ***Gaule*** وايبيريا.

أثينا، مثلا، كانت تجلب من ساحل البحر الأسود، مصر وسيسيليا القمح، الماشية، السمك (المدخن، المملح، والمجفف)، الجلود، الفرو والصوف. وتستورد البرونز الأوترّاري، البردي ونسيج الكتان من مصر. والسجاد الباذخ والعطور من الشرق. والعاج من إفريقيا. وتستقبل شرائح العبيد، بحيث كانت عاصمة أتيكيا الديموقراطية، في القرنين الخامس والرابع ق.م مركز نخاسة هيلاد (اليونان قديما) الكبرى.

ومقابل البضائع المستوردة، تصدر اليونان زيت الزيتون، العسل، الرخام، الرصاص،

الفضة، السلع المعدنية، النسيج، والفخاريات. وقد كشفت اللقى الأثرية سعة التجارة الأثينية ومراكز التجارة والصناعة اليونانية الأخرى. ووجدت السلع اليونانية حتى في خـــاركوف، فورونيج وسمولنسك.

وبعكس التجارة الداخلية الصغرى، كانت التجارة الخارجية الضخمة تأتي بمرابح هائلة (حتى ١٠٠% مما يحمل المركب). ومنذ القرن الخامس ق.م. تطورت التجـــارة اليونانيـــة بحيث أصبحت عابرة: فبعض البضائع، كالقمح، تأتي إلى البيريه لتباع بدورها في الخارج. لذا كانت المدينة التجارية والصناعية ملزمة بتوفير لنفسها مرفأً مجهزاً. كان اهمها مرفـــأ بيريه (الواقع على عدة كيلومترات من اثينا). تشكل جزيرة بيريه ثلاث مراسي يســـتخدم اثنان منها لإرسال السفن الحربية. والثالث في الغرب، هو البيريـــه ذاتـــها، حيـث مرفـأ التجارة. بين المخازن والمستودعات المتواصلة، كان ثمة صرح يسمى (ديغما–العـــرض)، حيث تعرض البضائع وتقوم سوق المال. كان ثمة جدران تزنر المرافيء الثلاثة والبيريـــه ذاتها المتصلة بأثينا بالـــ"جدران العالية الطويلة". وكان في كورنثيا، إفيز، ديلـوس، رودس، سيراكوز وغيرها، مرافئ رائعة.

نما الانتاج وعزز حياة الرعايا التي كانت على علاقة بالصناعة والتجارة: صنـاعيون، وسطاء، مياومون، عمال أرصفة ومستودعات، بحـــارة، أصحـــاب مشـــروعات، تجـار ومرابون. ورغم التناقضات فيما بينهم، كان ثمـــة علاقـــات مشـــتركة: تطـــور التجـــارة والصناعة. وبخاصة ، ترافقت الانطلاقة البحرية للدولة الأثينية مع السيطرة علـــى الـــدول اليونانية الأخرى. بالنسبة للتجار، فتحت هذه الغزوات أسواقاً جديدة ووسعت نفوذ الدولـــة المالي؛ وبالنسبة لبعض شرائح الشعب، ترجمت إلى امتلاك أراض في المناطق الملحقـــة، وتوزيع النقد والخبز، التوظيف في المراكز العامة وازدياد الطلب على اليد العاملة، بخاصة في الأسطول. وبكلمة، تكون لكل الناس الأحرار مصلحة فـــي اســـتغلال العبيـــد وســـحق مقاومتهم؛ هذا مع اختلاف حجم هذه المصلحة.

كان صناعيو المدينة وتجارها أوسع تعلقا من الفلاحين بسياســـة الحكومـــة الداخليـــة والخارجية وتموجاتها. وكان يهم أيضا سكان مدينة أخرى مثل أثينا أن تحكم الجمهوريـــة نفسها. فضاقت أثينا بسكانها النشطاء، الخبراء بالسياسة، بعكس الريف الواسع، مما أفضـــى إلى أن يحتل أبناء المدن سلطة الريف وأرضه.

العبودية في اليونان في القرنين الخامس والرابع ق.م

كانت دول الطليعة في القرنين ٥و٤ تعيش اقتصادا عبوديا راقيا. جمع كاتب أثينـــي، من القرن الثالث للميلاد، قد جمع في أعماله السابقة التي لم يصلنا منها شـــيء، معطيـات حول ألوف العبيد التي كانت بحوزة بعض الدول: "كانت كورنثيا مزدهـــرة لأنـــها كـانت تمتلك٦٤٠ ألف عبد... حسب الإحصاء الذي جرى في الأولمبياد ١١٧ (العـلم ٣١٢ق.م)، كان سكان أتيكيا يعدون ٢١٠٠٠ مواطن أثيني، ١٠٠٠٠ أجنبي حر، ٤٠٠٠٠٠ عبـــد..." وينقل أرسطو في "دستور إيجين أن هذه كانت تمتلك ٤٧٠٠٠٠عبدا" (أثيني،٦، ٢٧٢ب). أن بعض العلماء الحاليين يشكون بهذه الأرقام. فبعض الحسابات المعقدة تجعلهم يخلصـــون أن عدد الأحرار في أتيكيا، مثلا، بما فيهم الأجانب الأحرار، كان آنئذ يســاوي تقريبـا عــدد العبيد؛ ويرى آخرون أن العبيد أكثر. فإذا ما فكرنا أن جزءا فقط مـــن النـــاس الأحـــرار يقومون بعمل منتج وليس عندهم عبيد، النسبة الأولى -عبد واحد لحر واحد- تكفي لتـــأكيد الفكرة القائلة إن العبيد كانوا في اقتصاد أثينا للقرنين الخـــامس والرابـــع، هـــم المنتجـــون الرئيسيون. وليس لنا أن ننسى أن حقل عمل العبيد كان يتسع أبدا.

وككل مجتمع عبودي، لم تكن قوة عمل العبيد في اليونان بضاعة ولم تتـــم حيازتـــها بالإستئجار، بل بطريق غير اقتصادي: الإكراه، القهر والعنـــف. والعبـــد، حســـب تعبـــير اليونان، ليس سوى "جسد" سلعة، أداة إنتاج بسيطة، نوع من إنسان آلي. تماما كــــالأدوات والبهائم، كان العبد ملكية مطلقة لمالكه، له أن يبيعه، يشتريه، وحتى يقتله.

وكان المصدر الرئيسي للعبودية استيراد الأجانب الأسرى، القرصنة والحرب. وسكان سوريا، فريجيا، ليديا وأقاليم أسيوية أخرى، من بلاد البونت (السيث)، تراسيا، ومصر كانوا يشكلون أغلب عبيد اليونان. كانت معاهدة المساجين أحد أهم الفروع المربحة وأهم مــــواد التجارة. ففي شيو، ساموس، إيفيز، كان يوجد أسواق نخاسة واسعة، حيث يمكن شراء مـــن القراصنة ثلل كاملة من الأسرى ليعاد بيعهم في دول اليونان القارية. وفي ثراســـيا، كـــانوا يستبدلون العبيد بالملح: كان الأمراء التراسيون يتحاربون دوما فيما بينهم ولايعدمون أبـــدا مساجين لهذه المبادلة. وكانوا يشترون في ثراسيا عبيـــدا فـــرادى؛ يقـــول هـــيرودوت أن التراسيين "كانوا يبيعون أبناءهم للأجانب". وقد لاحظ بوليب، بصدد البلاد البونتيـــة، أنـــهم "بين الأشياء الضرورية يقدمون الماشية وكمية كبرى من العبيـــد بنوعيـــة أعلـــى كثـــيرا"

(٣٨،٤، ٤). وأبناء العبيد واللقطاء ويصيرون أيضا عبيدا. فضلا عن هذا، ثمة عادة في كل اليونان تخول الأهل بيع أبنائهم. وفي أثينا، يلجؤون إلى هذا في حالة واحدة: يقدر الأب أن يبيع ابنته الساقطة. ويطبق الاستعباد على المدينين المعسرين: في أثينا، ألغي الاستعباد لقاء عدم وفاء الدين في أيام سولون، لكنه بقي في الأقاليم الأخرى من اليونان. وأخيرا، كان الاستعباد يعوض عن عقوبة تقضي بها المحاكم: في ليسيا (آسيا الصغرى)، لقاء عقوبة السرقة، وفي أثينا، لقاء عقوبة الربى بالمواطنية –أي حرمان الإنسان من مواطنيته مقابل الربى أو اكتساب المواطنية مقابل الربى، إلخ.

كان سعر العبيد متبدلاً. من لايعرف سوى الأعمال العادية يساوي ٢ أو ٢,٥ مين[1] وأولئك الذين يعرفون مهنة ما ٣-٤ مين. والعبيد الندماء أو يليقون بالـ"الأفراح" ١٠، ١٥، ٢٠ مين. إذا ما صدقنا الوثائق، نرى أن عبداً مشرفاً=٤٠ ميناً.

كان عمل العبيد موظفا كثيرا في الورشات الحرفية، المناجم والمقالع. وأحيانا يكلفهم صاحبهم بفتح ورشة على نفقته.والعبد المكلف بدفع أجور عنده عبيد يعملون تحت إشرافه وهم تحت تصرفه فعلا، رغم انتسابهم القانوني إلى مالكه. وفي بعض الحالات، يؤجر العبد المشرف كعامل لدى الأفراد، بخاصة لدى الصناعيين الأحرار، ويؤدي قسطا من مرتبه لسيده. وقد يشتري المالكون عبيدا بالحصة ٣٠٠-٤٠٠ فردا ليؤجرهم بالتالي لأشخاص آخرين عليهم أن يعيدوهم بالأجل المحدد. هكذا كانت تحاز اليد العاملة في مناجم لوريون.

وكان استخدام العبيد في المزارع أيضا ظاهرة منتشرة. فالملاك العقاريون الكبار وحتى الفلاحون المرتاحون يشترونهم ليجعلوهم يعملون في الاستثمارات.

ومألوف أيضا أن يعمل العبيد خدما. أسرة مرتاحة تملك ٥أو٦. والناس الأكثر تواضعا يكتفون بواحد. فمنزل أسرة غنية عالم مغلق، أي مكتفية ذاتيا، عندها طاحونتها ، فرنها، نولها، وصناعيوها. وكان الصناعيون المشرفون ملزمين بالعمل في بيت السيد لدى أول نداء.

أما عبيد الدولة فيشكلون عينة قائمة برأسها. كان في أتيكيا فوج من العبيد السيث *Scythes* (ألف رجل) يخدمون في جهاز الشرطة. المبلغون، الناسخون، المحاسبون،

---

[1] – مائة دراخما لدى قدماء اليونان.

وعمال النقد كانوا عبيدا عموميين. يعملون لمصلحة الدولة، يتمتعون بحرية واسعة، وأحيانا بشيء من الاحترام.

لا ينظر القانون إلى العبد نظرة إنسان. فأي هفوة أو ضرر أو إهانة تجاه السيد تعرضه للضرب المبرح، دون حساب عدد الضربات. كانت القاعدة أن يعامل العبيد بقسوة: "كل كلمة، أو تقريبا، موجهة للعبد تعتبر أمرا، يقول أفلاطون. لايجوز بخاصة المزاح مع العبد؛ رجلا كان أم امرأة".

وفي الدول الكثيرة العبيد، كان الخوف من التمردات يكبح تحكم مالكي "الأدوات المتكلمة". هكذا، كان قتل عبد في أثينا معاقبا كجنحة.

والعبد المساء إليه من قبل صاحبه أو سيده يقدر أن يحتكم إلى حق "الملاذ"، يلجأ إلى معبد تيزي أو محراب أومفيد. تقضي العادة ببيعه إلى مالك آخر. لكن الواقع، لاتقدم المعابد ملجأ آمنا. لايمكن استعادة العبد بالقوة، بل يمكن قسره بالجوع أو بالنار على ترك ملاذه. وكان مصيره معلقا آنئذ بالكاهن الذي يقضي بصحة دعواه.

مختلف أوجه نضال العبيد

كان كل هذا يفضي إلى نضال شرس طبقي. " حر وعبد، شريف وعامي، بارون وقن، سيد محلف ورقيق، وبكلمة، مضطَهَد ومضطهِد، في تناقض مستمر، خاضوا حربا دائمة، أحيانا خفية وأحيانا مفتوحة... كتب ماركس وأنجلز في بيان الحزب الشيوعي. والشكل الأكثر انتشارا لهذا النضال الخفي للعبيد ضد سادتهم أو بالأصح أصحابهم كان هو مايسميه هؤلاء "كسل". يعبر هوميروس عن الفكرة هكذا:

هي ذي عادة الخدم، ما أن يغيب سادتهم أو
يضعفوا أو يفقدوا سلطتهم، حتى يتوانوا ولا
يفكرون أبدا بالقيام بواجبهم".
(أوديسا، نشيد١٧، ٣٢-٣٢١)

ولما يتحدث مؤلفو الزمن القديم عن طريقة تعامل العبيد، يذكرون قبل كل شيء التدابير التي يجب اتخاذها ضد توانيهم.

وكان ثمة وجه آخر للنضال هو الأبق. لنكون فكرة عن توافر هذه الظاهرة، يكفي أن نعرف أن ثمة أخصائيين مهنتهم البحث عن الآبقين. وشاهد آخر تقدمه الأختام والأطواق

التي تميز العبيد عن الأحرار وتجعل هربهم أصعب. يقع البحث عن العبيد الهاربين وإعادتهم على عاتق السلطلت؛ ويكافأ من يعيد عبدا هاربا. يهرب العبيد فرادى أو جماعة. وأثناء الحروب، يستغلون ضعف الدولة وينتقمون من سيدهم ويأبقون جمهرة. لما احتل الأثينيون، في العام ٤٢٥، مرفأ بيلوس في مسينا، وكان أرقاؤهم السبارطيون يهربون، خشوا، حسب ثوسيديد، "من ان يعم التمرد كل المنطقة؛ كانوا إذن في غاية الاستنفار" (٤، ٤١، ٣). وفي العام ٤١٣، عندما احتل السبارطيون ديسيليا في أتيكيا، "أبق أكثر من ٢٠ ألف عبد، أكثرهم حرفيون". (ثوسيديد، ٧، ٢٧، ٥).

كان الشكل الأرقى لنضال العبيد ضد مضطهديهم هو العصيان. وفي القرنين الخامس والرابع، اتخذت تمردات العبيد في اليونان صفة عفوية. كان العصاة يهدفون تحرير أنفسهم، دون أن يفكروا بتحطيم نظام الرق واستبداله بآخر.

ولقد كان أول تمردات العبيد في اليونان وأقدمها في أراغوس في العام ٤٩٤. هيرودوت هو من يخبرنا هذا (٦،٨٣). كان السبارطيون قد هاجموا وذبحوا أغلب الأرجيين. "أما مدينة أراغوس، فقد خلت من الناس، حتى أن العبيد احتلوا كل الإدارات العامة. حتى كبر أبناء المدينة وصاروا بسن الرشد. آنئذ عاد هؤلاء إلى أراغوس واستعادوا سلطتهم وطردوا العبيد الذين، بعد هزيمتهم، احتلوا تيرنث بقوة السلاح. وعاش الطرفان هنا ردحاً من الزمن في أتم وفاق؛ ثم أتى إلى العبيد عرّاف، كليادروس، أصله من فيغالي أركاديا؛ أقنعهم هذا الرجل بنمهاجمة ساداتهم. وهنا نشبت حرب عاشت مدة طويلة؛ وبعد لأى، استطاع الأرجيون، بعد مشقة، النصر". يشير هيرودوت على الأرجح إلى عصيان رقيق أراغوس، الذي يشبه أرقاء اسبارطة.

وفي العام ٤٦٤ نشب تمرد كبير قاده أرقاء اسبارطة ومسينا. وحسب بلوتارك، هزة أرضية حدثت في أسبارطة "في العام لتنصيب أرشداموس ملكاً". عم المدينة الاضطراب. "أرشداموس، الذي داهمه الخطر، حدس ما يخشى... قرع جرس النفير، كما لو كان العدو على أبواب المدينة، لكي تسارع الرعية لإحاطتهم بأسلحتهم.. فسارع العصاة من كل أنحاء الريف لذبح الاسبارطيين الذين نجوا من الهزة الأرضية؛ لكن عندما رأوهم مسلحين ومستعدين للمعركة، تراجعوا إلى المدن المجاورة، التي يدافع أهلوها عنها، دعمهم المسينيون، الذين من جهتهم هاجموا السبارطيين، وبدأوا ضد لسدمون حرباً مكشوفة."

بلوتارك. سيمون، ٢١). هكذا بدأت الحرب المسينية الثالثة التي دامت قرابة عشر سنين.

كان العبيد يشتركون غالبا بنضال مختلف شرائح الناس الأحرار، وهذا يساوي عندهم التحرر. وفي أثناء الصراع الذي نشب، في العام ٤٢٧، بين القلة والديموقراطية في جزيرة كورسير، "أرسل طرفا الصراع خلف العبيد في الأرياف واعدين إياهم بالحرية. انضم الغالبية إلى الشعب" (ثوسيديد، ٣، ٧٣).

دور العبودية في تطوير الاقتصاد اليوناني

يطرق العلم البورجوازي الحياة الاقتصادية في العصور القديمة بطرق مختلفة، لكنها دوما خاطئة. نقف عند وجهتي نظر متعارضتين: ك.بوشر وإد.ماير.

حسب بوشر، مرت الحياة الاقتصادية الأوربية في ثلاث محطات بارزة. الأولى هي محطة الاقتصاد الطبيعي المغلق أو "الخدمي" للعصور القديمة، حيث تستهلك المنتوجات في أرضها؛ كان هذا اقتصادا بدون تبادل، ليس بحاجة للتجارة. منتجوها الرئيسيون هم العبيد. واقتصاد المحطة الثانية "مديني" للعصر الوسيط، يتم بالتجارة، هو الآخر؛ تذهب منتوجاته مباشرة من المنتج إلى المستهلك، من الحرفي الحر إلى الزبون. والمحطة الثالثة اقتصادها "وطني" حديث، تجتاز منتوجاته عدة منظمات قبل الوصول إلى المستهلك؛ هوذا "عصر دوران المنتوج"، عهد التجارة المتطورة والمنتوج الضخم المبني على الأجرة.

إن هذا الوصف التبسيطي للحياة الاقتصادية في العصور القديمة متعارض مع ما نعرف عن الصناعة والتجارة في مناطق اليونان المتقدمة. وخطأ بوشر المنهاجي هو اعتبار التبادل و المعيار، العنصر الأساسي، بينما يجب الانطلاق من تباين أساليب الإنتاج وعلاقات الإنتاج التي تلائمها.

ونظرية ماير أمر آخر تماما، لكنها خاطئة هي الأخرى. يبالغ بدرجة تطور الاقتصاد القديم ويحدثه. حسب هذا الباحث، يبدأ تاريخ العصور القديمة بالإقطاع، "عصر وسيط قديم ". والمرحلة التالية، عند ماير، تعكس رأي بوشر، لأنه يضع في المقام الأول الدول ذات العلاقات الاقتصادية المتطورة، ويشبه ذروة الاقتصاد القديم بنهج الأجر في أروبا الغربية للقرن الثامن عشر ويتحدث عن "رأسمالية قديمة". ويدلل ماير أن دور العبيد في إنتاج ذاك الزمن كان أضأل مما يفترض بعامة، فإلى جانب الكادحين العبيد كان يوجد عدد كبير ينتسب إلى الناس الأحرار.

إنه مفهوم خاطيء بقضه وقضيضه. فمن المعروف أن تطور المجتمع اليوناني لم يبدأ بعلاقات إقطاعية. أما في الأوج الاقتصادي للعصور القديمة، لم يكن الفلاحون ولا الحرفيون المحرومون من المصادر قد صاروا أجراء، بل بائسون يعيشون من أرباح عارضة، عالة على الدولة. فليس ممكنا الحديث عن دور مهيمن للمأجورين في أوج الاقتصاد القديم. فالذي كان مهيمنا هو كدح العبيد، وعددهم يتزايد.

ففي القرنين الخامس والرابع ق.م. كان اقتصاد العبودية في بعض دول اليونان قد بلغ مستوى معينا من التطور، وكان هذا بالتأكيد ظاهرة تقدمية. إننا "...ملزمون أن نقول، يكتب أنجلز، إن دخول العبودية في ظروف آنئذ تقدم كبير، حتى ولو ظهر قولنا متناقضا وشاذا". فالعبودية هي فقط التي جعلت قسمة العمل ممكنة بين الزراعة والحرفة إلى حد بعيد، ثم، أن تكون الحضارة اليونانية[1] *l`Helle`nisme* ذروة العالم القديم.

على ذلك، كان مجتمع العبودية، المبني على العمل الإلزامي، محكوما بالجمود التقني. يصدر السبب الرئيس لهذه الظاهرة من أن العبد، كما يقول ماركس... "يعامل معاملة الحيوان وأداة العمل البعيدة جدا عن أن تساويه، ومن أنه إنسان. ولكي يحرم من هذه المتعة، يعامل ككائن مغفل *con amore*. وأيضا، مبدأ اقتصادي، مقبول في أسلوب الإنتاج هذا، استخدم أدوات العمل الأصلب والأثقل، لأن فظاظتها ووزنها يجعلانها تعيش طويلا[2]". ولتأمين الحاجات المتزايدة للمجتمع من المواد المصنوعة ، والتقنية بدائية، وبالتالي، إنتاجية العمل منخفضة جدا، ليس ثمة سوى وسيلة واحدة: زيادة عدد العمال ليتناسب مع حاجات المجتمع. والنمو المستمر لجيش العمال بالقسر غير الاقتصادي، أي بالحرب وبكل أنواع الإكراه، كان إذن الشرط الحتمي لتقدم الإنتاج القديم، مادام الناس الأحرار يتملصون من العمل اليدوي، المعتبر غير مشرف. "حيث العبودية هي الشكل المهيمن في الإنتاج، يصير العمل نشاط العبد، وأمرا معيبا لدى الناس الأحرار[3]." إذن أو الخلاصة، سيفضي نهج عبودية الإنتاج إلى عرقلة تطور القوى المنتجة، ويخضع المجتمع القديم لأزمة مستديمة.

---

[1] – ف.انجلز، أنتي دوهرنغ، الجزء الثاني، الفصل الرابع، ص٢١٣.

[2] – ك.ماركس. رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الأول، ص١٩٦.

[3] – ف.أنجلز، جدلية الطبيعة، أرشيف ك.ماركس وف.أنجلز، العام ١٩٢٥، ص٨٦.

الفصل الثلاثون

انطلاق الحركة الديموقراطية في اليونان بعد الانتصار على الفرس

اليونان الظافرة

لقد أثارت الحروب الميدية حماساً ملتهباً لدى الجماهير الشعبية. إليكم هذا المثل الساطع: بعد اجتياح خرخس، لم تعد أثينا أكثر من خرائب. وصار يجب إنشاء دفاعات للمدينة. اشترك في هذا كل الأثينيين، شيباً وشباباً وأنجزوا العمل خلال شهر واحد. وأعيد بناء الأسوار بطول ٩كغ، ٣,٥م ارتفاع و٦م سماكة، على أحسن وجه وبأقصر وقت. ما كانوا يستخدمون الملاط. بل كانت الحجارة تقص بكل عناية وإتقان وكأنها متلاصقة.

فقد وسم عصر الحروب الميدية بصراع سياسي حاد في بعض الحاضرات، لأن الحرب أوقدت النار تحت التناقضات بين مختلف فئات الطبقة المستعبدة. شمل أتيكيا، نيوتيا، اسبارطة وباقي دول البلوبونيز، ومستعمرات اليونان سيراكوز، أولبيا، هيراكلي البونت.

ففي بيوتيا، استبدلت سلطة أرستقراطية الدم بسلطة الملاك العقاريين وأغنياء المدجنين الذين لاينتسبون للأشراف. استعرت معاقبة الأرستقراطية البيوتية، أنصار الفرس، التي بدأت بتحالف اليونان بقيادة السبارطي بوزانياس، قاهر بلاتيه. حاصر بوزانياس ثيبيا وطلب تسليمه الخونة الأستقراطيين وأعدمهم.

حكم بوزانياس اسبارطة ما دام ولي العهد بلإستوناكس قاصرا، وقاد مقاومة الطبقة المهيمنة السبارطية ضد الحزب المحافظ بقيادة الأفوريين، بهدف حرمان الأفورات من تفوقها وممارسة سياسية معادية لتوطيد سيطرة اسبارطة في اليونان، لزيادة عدد المدنيين المتمتعين بالحقوق المدنية، بإضافة شريحة ممن اقتطع أو استأجر أرضا. ولتحقيق هذا

المشروع، اعتمد بوزانياس على الفرس؛ وبشهادة ثوسيديد: "وعد الأجراء والأرقاء بالحرية والبورجوازية إن تمردوا معه وآزروا كل خططه (١، ١٣٢،٤) وضع الأفوريين حداً لهذا النشاط. فاتهم بوزنياس بالتعامل مع الفرس، وأعدم. وبعيد هذا، في العام ٤٦٤، تمرد الأرقاء (الحرب المسينية الثالثة المشار إليها أعلاه).

وفي أراغوس، جوار لاكونيا، أفضى التطوير الديموقراطي بعد الحروب الميدية إلى ظفر الديموقراطيين وتوطيد أركان السلطة الديموقراطية. وامتد هذا إلى المدن اليونانية في المستعمرات. رأت سيراكوز سقوط الحكام المستبدين (حوالي العام ٤٦٠ق.م). واستقرار النظام الديموقراطي الذي عاش أكثر من ٥٠ عاما. وفي هراكلي البونت والمدن اليونانية الأخرى على ساحل البحر الأسود، استبدلت الحكومة الأرستقراطية بحكومة ديموقراطية.

النضال السياسي في آثينا في العام ٤٧٠-٤٦٠

يقدم تاريخ أثينا في القرن الخامس ق.م. وقد انبسطت الديموقراطية وبلغت شأوا عاليا، أسطع مثل للصراع المظفر لديموقراطية العبودية. ففي أثينا، أشرف ووجه الصراع بين ظهراني الطبقة المستعبدة حزبان: الحزب الزراعي المحافظ الذي يشكل الفلاحون وصغار الملاك غالبيته. لاأحد يجهل الصراع الشرس الذي دار قبل معركة سالامين بين الحزبين بشأن طريقة تنظيم الدفاع ضد الفرس الذين كانوا يعدون حربا جديدة في البحر والبر. كان زعيم الحزب الزراعي، أرستيد، متأثرا بالإبعاد. وكانت الأوساط البحرية، بإمرة خانثيوس ثم ثمستوكل، قد أنجزت برنامجها وبررته من وجهة النظر البحرية. لكن أتيكيا قد دمرت. وفي الريف، أغضبت سياسة الديموقراطية الناس، الذين رغبوا في العودة إلى الأيام السابقة، إلى "عادات الآباء"، أي عهد سولون يوم كان القمح مقياس الغنى.

كان يوجه الحزب الديموقراطي أو البحري التجار، المصدرون، تجار السلاح، ملاك الورشات البحرية، وشيوخ المشاريع. كان أغلب أعضائه من الحرفيين، أبناء المدينة الفقراء، من الكادحين الذين يهتمون بأعمال البحر والذين يسكن أغلبهم في البيريا: ربابنة، مجذفون، حمالون، معمرو سفن، موظفو مرافئ وبقية "متسولي البحرية"، كما يسميهم خصومهم السياسيون.

رفع الحزب الديموقراطي شعارين: *isononia* و*ise`goria*، يعني الأول المساواة

بالحقوق المدنية (حقوق متساوية بإدارة الأرزاق، الميراث، وغيرها) والثاني، المساواة بالحقوق السياسية (حق متساوي في التصويت الإيجابي والسلبي). وكانت سياسة الديموقراطيين الخارجية عدوانية؛ فتطور التجارة والصناعة يتطلب توسيع الدولة اليونانية، إلحاق أراض ومرافئ الغير، بناء مستعمرات ومستوطنات. وسمت هذه الحقبة بالعدوان بين اسبارطة وأثينا والإعداد للصراع من أجل الهيمنة في اليونان. فيحاول الديموقراطيون توحيد الدول في وجه الأحلاف الأرستقراطية التي تواكبت حول أسبارطة.

إن احتدام النضال بين الحزب الزراعي والبحري يسم النصف الأول مما يسمى "الخمسينية" (مرحلة مابين اجتياح خرخس في العام ٤٨٠ وبداية حرب البلوبونيز في العام ٤٣١ق.م.

فقد لعب ثمستوكل، قائد الحزب الديموقراطي دورا بارزا في نهاية أعوام ٤٩٠ حتى نهاية أعوام٤٧٠. إذ كانت شخصيته بالذات نموذجية لرجال الأعمال الجدد الذين يوجههم. لم يكن من علية القوم ولم يحصل على تربية طيبة، وبلغ المجد بقوة مواهبه فقط. يشير ثوسيديد أنه كان قادرا على الخروج من كل المآزق وعنده لكل معضلة حل. "دلل ثمستوكل بطريقة مدهشة على دور الطبيعة الكبير... وبفضل بصيرة متقدة، ودون سابق إنذار، كان يتخذ قرارا حكيما، يكتب ثوسيديد (١٣٨،١).

كان سيمون، قائد الحزب الزراعي والذي خرطه في حقل السياسة أرستيد، من النبلاء الأثينيين: كان ابن ملتياد، قاهر ماراتون، ومن جهة أمه، حفيد أولوروس، ملك ثراسيا. أرستقراطي غني، عدو الديموقراطية والحوار يحتال على الشعب ليس بأعماله فحسب، بل بدروبه الملتوية. "فخلق من بيته محجة مشتركة لكل الناس..." (بلوتارك، سيمون، ١٢)، كان يقيم العديد من الولائم. ولقد هدم جدران حدائقه ليخول كل الناس أن يذوقوا ثماره. كان رجل سياسة محنكا وقائدا دربا.

وفي العام ٤٧٠، تفوق الحزب الزراعي المحافظ. وقائد الديموقراطيين، ثمستوكل، أدين ظلما بالإبعاد(٤٧١)، وما أن نفي، حتى استضرى خصومه وراءه، واتهموه بالـ"ميدية". فوضعته محكمة أثينا خارج القانون. استسلم ثمستوكل للفرس، ومات عندهم بعد عدة أعوام.

رسميا، لم يحدث أي تغيير في النظام الأثيني، لكن دور مجمع الحكماء اتسع جدا.

فكان لهذه المؤسسة البالية الحق في الاعتراض على القرارت التي يتخذها مجلس الشعب، إن بدا لها أن هذا المجلس يناقض القوانين. وكان مجلس الحكماء يسهر أيضاً على حقوق المواطنين ويدين الجرائم. وفي العام ٤٦٠، عاد الدور الرئيس في أثينا إلى سيمون. ولقد قلنا سابقاً أن سيمون قاد اليونان في معركة أورمدون (٤٦٨). وحقق النصر، وعلقت العمليات الحربية لمدة سبع سنين (حتى ٤٦١).

وفي نهاية الستينات، استعاد الحزب الديموقراطي نشاطه حتى أن أنصار سيمون اضطروا لإخلاء المكان لخصومهم. كان السبب المباشر لسقوط سيمون هو اقتراحه دعم السبارطيين ضد الأرقاء المتمردين في العام ٤٦٤. ورغم معارضة مجلس الشعب، أرسل الفصيل التأديبي إلى مسينا. تلقى السبارطيون النبأ بغضب وصرفوا الجنود الأثينيين، خوفاً من أن يدعموا الأرقاء عوضاً من أن يساعدوهم هم. أثار هذا الحدث غضب أثينا. فأقيل الستراتيجي سيمون وحكم عليه بالنفي.

إصلاحات إيفيالت

في نهاية الستينات من القرن الخامس، استعاد الديموقراطيون الراديكاليون السلطة. تولى الدور الأول إيفيالت، قائد "فقراء البحرية". لم يقوم عمل هذا الرجل بشكل عام كما يجب. فلم يكتب أحد من مواطنيه حياة هذا الديموقراطي "المتطرف"، صاحب المناقب الفذة، ولانعرف عنه سوى القليل. هو ابن سوفوندس، سليل أسرة أرستقراطية أفل نجمها. كان "أيضا أنزه من أن يكرس للدولة" (أرسطو، دستور أثينا، ٢٥، ١). قريب من شرائح المجتمع الأفقر، كان إيفيالت صديق المساكين الذين رأوه محاميا لهم ("*Prostate de demos*"). في نظره، الشعب هو السيد الفعلي للدولة. كان أعداء الديموقراطية يكرهونه، وانتقدوه "لأنه أعطى الناس كل الحرية، وأترع لهم الكأس فسكروا" أفلاطون. حارب إيفيالت بكل قوته مختلسي ومبذري أموال الناس. وفي العام ٤٦٢ أقام عدة دعاوى على موظفين مختلسين ومحتالين. ولم يوفر حتى أعضاء مجلس الحكماء، مهيئا الرأي العام وإعادة تشكيل هذه المؤسسة. وقد انتزع مجلس الشعب، برئاسة إيفيالت، من مجلس الحكماء، حق إلغاء القوانين التي شرعها الأكليروس. فضلا عن هذا فقد مجلس الحكماء حق معاقبة الإخلال بالواجب؛ وأعطيت هذه الشؤون مجلس الخمسمائة ومحكمة الجنايات. وأخضعت للمراقبة الشعبية أعمال الموظفين من مختلف الأصناف. ولم يبق لمجلس الحكماء سوى مقاضاة القتلة والجرائم الدينية.

ومن المرجح أن محكمة الجنايات كلفت في هذه الحقبة بحماية الدستور. وكان الجميع يتمتع بعد قسم اليمين، أن يعلن أن الاقتراح الذي درسه مجلس الشعب يكبح القـــانون. ثــم تنتقل القضية إلى محكمة الجنايات. وإن رأت المحكمة أن الحق إلى جانب المعارض، يغرم الذين استنوا مشروع القانون، وفي حالات استثنائية يدانون بالموت. وإن كان الاعـــتراض غير وجيه أو غير سديد، تحمل الطرف الآخر الغرامة. اسم هذه المؤسسة: مؤسسة شـكوى ضد خرق القانون أو اتهام ضد من خرقه.

تمنع هذه المؤسسة أعداء الديموقراطية من الاستفتاء على الدســتور. وبـــهذا تؤمــن الحماية القضائية للاستقرار.

ولقد نجم عن إصلاحات إيفيالت انطلاق الحركة الديموقراطية. كثيرا مايدعى مجلــس الشعب للاجتماع، ويضاعف مجلس الخمسمائة نشاطه. كانت إصلاحات إيفيالت الاجتماعية كثيرة، لكن الزمن لم يمهله لإنجازها. كان النبلاء يكرهونه. وفي العام ٤٦١ ذبح في الليــل بمكيدة جبانة. ولم يعرف المجرمون. إنه على الأرجح ضحية أعدائه السياسين أو أذنابهم.

الفصل الواحد والثلاثون

حكومة بيركلس

إمبراطورية أثينا البحرية (٤٥٠-٤٤٠)

بعد اغتيال إيفيالت، بقي الحزب الديموقراطي في الحكم بـإدارة بـيركلس، تلميـذه وزميله. في الأعوام الخمس عشر الأولى، مارس الحزب سياسة إمبريالية أساساً. كـانت هذه المدة حقبة حروب مستمرة تشنها جمهورية أثينا على الدول اليونانية (بخاصـة علـى الجامعة البلوبونيزية) وعلى الفرس، لتصير امبراطورية بحرية وترسي الهيمنة اليونانيـة. فبعد موت إيفيالت لم يعد الشعب الفقير هو سند الديموقراطية الأثينية، بل ممثلو الشـرائح الوسطى المرتاحة.

لقد أثار النزاع التجاري بين أثينا وكرنثيا حرب البلوبونيز. استقر الأثينيـون علـى شواطيء خليج كورنثيا الذي يفتح لهذه المدينة دروب الغرب البحرية. وفضلاً عـن هـذا وضعوا حامية في ميغار التي انفصلت، في العام ٤٦٠، عن بلوبونيز، لتنضم إلى أثينا. كما هددت الحامية الأثينية كورنثيا من الشمال.

شنت كورنثيا اعتداءات دامت بشكل متقطع من ٤٥٩-٤٤٥. فشل الكورنثيـون بعـد دخول إسبارطة المعركة. تصدى السبارطيون للأثينيين في تنفرا (بيوتيا) في العـام ٤٥٧، لكن الأخيرين بقيادة ميرونيد، انتصروا بدورهم على البيوتيين واحتلوا كل بيوتيـا تقريبـاً ولوكريد وفوسيد. تخطى تولمدس الذي يقود الأسطول الاثيني بلوبونـيز، هـاجم شـطآنها وحاصر سيكيون. وأرسل الأثينيون حملة بحرية أخرى بقيادة بيركلس، إلى خليج كورنثيـا. وأخيراً وقعت كل اليونان الوسطى تقريباً تحت الرقابة الأثينيـة. وتحـالفت تسـاليا مـع المنتصرين.

وفي الوقت ذاته (٤٦١-٤٥٤)، شنت أثينا الحرب على مصر التي كانت قد انتفضـت ضد النير الفارسي. وتلبية لطلب قائد المتمردين، الليبي أنهاروس، أرسلوا لهم ٢٠٠ مركب

ثلاثي المجاذيف. ولج الأسطول الدلتا، وبمساعدة المصريين المتمردين، طوقــت ممفيــس. على ذلك، آل المشروع إلى نكبة: غرقت كل المراكب و٣٥ ألف رجل، أكثرهم أثينيـــون. وبعد هذه الهزيمة، أجبر الأثينيون على وقف القتال لمدة خمس سنوات بمعاهدة مع الجامعة البلوبنيزية.

تجددت المعارك في العام ٤٤٨، لكن ليس لصالح أثينا. فالفصيل الأثيني الذي أرســل لمقاتلة البيوتيين بقيادة تولمدس هزم شر هزيمة وأبيد تقريباً في كورونيـــا (٤٤٧)؛ سـقط تولمدس في ساح القتال . وتحررت بيوتيا، ثم لوكريد وفوسيد. وتمردت أوبيا، التي كــانت جزءاً من التحالف الأثيني. واقتحم السبارطيون أيتكيا ودمروها.

ومرة أخرى اضطر الأثينيون توقيع السلم مع الجامعة البلوبونيزية، ولمدة ثلاثين عاماً هذه المرة (٤٤٥). بموجب هذه الـ"معاهدة لثلاثين عاماً" حافظت كــل الأطــراف علــى ممتلكاتها قبل-الحرب والتزمت بعدم الانضمام إلى الجامعات الأخرى وعدم دعم أي عضو في إحدى هذه الجامعات، إن تمرد ضد الدولة القائدة. وتخلت أثينــا عــن فتوحاتــها فــي بلوبونيز وميغار.

كانت نتيجة الحرب بشأن التفوق في اليونان فاجعة بالنسـبة لأثينـا. بتـأثير النكبـة المصرية. ولامبالاة اليونان بقواتهم، أفضى إلى هزيمتهم المتتابعة أمام عدة خصوم. علـى ذلك، فقد نجحوا بمسعى مندوبهم كالياس بعقد مع الفرس معاهدة سلم لصالحهم، في العــام ٤٤٩، حرم الفرس من الإبحار في بحر إيجة.

وفي أثناء حروب ٤٥٩-٤٤٥، لم تعد العلاقات بين أثينا وحلفائها، كما كــانت فــي حلف ديلوس. فلم تعد حلف دول متساوية، بل صارت حلفاً بين أتبـــاع ودولـــة مهيمنـــة. ومحاولات بعض الحلفاء (مثل، ناخوس وثاسوس) الانفصال عن الجامعة في العــام ٤٦٠، قمعت بالقوة. فدولة أثينا تمتلك كل المناهل التي أسهم بها الحلفاء. وفي العام ٤٥٤، نقلــت الخزينة الاتحادية من ديلوس إلى أثينا. وقد طلبت حكومة أثينا من حلفائها دعـــم القــوات البرية والبحرية لإرسالها ليس فقط لمقاتلة الفرس، بل أيضاً ضد الدول اليونانية الأخـــرى. فضلاً عن تدخل الأثينيين في شؤون الحلفاء الداخلية: قسموا الأرض التابعة للجامعة إلـــى خمس قرعات يحكمها أساقفة. ووظف مواطنون أثينيون في بلدان حليفة. وكانت مؤسساتهم مستعمرات زراعية وحربية. كان كل معمر ملزماً بالخدمة العسكرية؛ وكانت كل مسـتعمرة

بالمحصلة حامية تكمن مهمتها الأساسية في الحفاظ على طاعة الحلفاء. إذن، فقد حلف ديلوس طبيعته كجامعة طوعية بين بلدان مستقلة ومتساوية. فتحول إلى إمبراطورية لأثينا، وصار أعضاؤه ملحقات بها.

إننا نجهل تفصيلات سبعة عشر عاما من الصراع السياسي بين التجمعات الزراعية والعسكرية (الديموقراطية)، الصراع الذي بدأ في العام ٤٦٢، أي منذ وصول الديموقراطيين. يمكننا فقط أن نؤكد أنه كان ضاريا وتحول إلى مصلحة الديموقراطيين. تسنم سيمون رئاسة المعارضة. عاد من المنفى حوالي ٤٤٥، ومات بعيد هذا. وتلاه ثوسيديد، ابن مليدياس (ليس المقصود المؤرخ ثوسيديد). لكنه نفي هو الآخر في العام ٤٤٤ أو ٤٤٣، ومنذئذ سيطر الحزب الديموقراطي تماما حتى العام ٤٣٠. ومثل بيركلس، القاضي المتجدد الانتخاب، الذي تسنم السلطة خلال ١٤ عاما، حقبة معروفة باسم "حكومة بيركلس".

حكومة بيركلس

بيركلس، ابن خانسيبوس، وسليل أسرة أرستقراطية غنية، من جهة أمه أحد أحفاد كليستين. بعض أصدقائه شعراء وفنانون موهوبون: الفيلسوف أنكسفور الذي لامس المادية عن قرب، سقراط، الشاعر التراجيدي سوفوكل وهيرودوت، "أب التاريخ"، الذي عاش في أثينا في هذه الحقبة والنحات فيلياس وكثير غيرهم. كان بيركلس يتمتع بنفوذ عميق في مجلس الشعب. وكان يعتبر خطيبا مفوها. وحيد عصره في فن الحديث أو القص، وكاتبا ذائع الصيت. في ساح القتال، كان يقود الجيش بحنكة وبطولة. وهو القائد الكميت، مع انه أصغر من سيمون.

في حياته الخاصة، كان يدل أنه تقدمي، دون فكرة مسبقة. تزوج من أسبتزيا، إمرأة نبيهة من ميليت، يقال إنها كانت عاهرة. كانت جميلة، ذكية، ومثقفة. في قلب حمى الحياة السياسية، عرفت كيف تحيط نفسها بأوعى رجال عصرها. وكان أشهر أصدقاء بيركلس يرغبون في خوض نقاشات معها. كانت امرأة جديرة، صديقة طيبة ورفيقة أريبة لرجل الدولة هذا.

لم يكن بيركلس يمثل أقصى يسار الحزب البحري (الديموقراطي)؛ بل وسطه. كان يدافع عن مصالح الشرائح الوسطى في المجتمع: التجار المرتاحين، أصحاب الدكاكين،

الصناعيين، الملاك العقاريين الطليعيين الذين يمارسون في أرضهم زراعة كثيفة، فلاحين أحيوا الأرض التي دمرها الفرس لتعود تواكب متطلبات السوق، والذين اهتموا بالتجارة الخارجية.

هكذا يتحدث ثوسيديد عن بيركلس كرجل سياسي فيقول: "بفضل رقيه الشخصي، وعمق آرائه، ونزاهته غير المحدودة، كان بيركلس يمارس في أثينا نفوذاً لايجارى. بقي حراً وهو يقود الناس... وبكلمة، استمرت الديموقراطية باسمه؛ إنما بالفعل كانت حكومة المواطن الأول" (ثوسيديد،٢،٦٥).

ولحماية وحدة طبقة العبيد، عمل بيركلس وحكومته لإرضاء جزئياً، وعلى نفقة الدولة، المطالب المالية والسياسية لفئات المجتمع الدنيا. وتنسب لبيركلس مؤسسة الأجر لممارسة الوظائف الانتخابية، تدفع باليومية. والقضاة، مثلاً، يتقاضون ٢أوبول١، الحكام ٤، وأعضاء مجلس الخمسمائة، ٥أوبول. ليس هذا كثيراً؛ إذ كان الحرفيون يتقاضون أحياناً أكثر من هذا؛ هكذا، يتقاضى "المقلعجي" دراخما واحدة، أي ٦ أوبول في اليوم. لكن بالنسبة للأسعار القائمة، لاتبدو هذه الأجور قليلة.

ففي العام ٤٥٧، اختير أحد العوام لأول مرة حاكماً، ثم فتح الباب لتولي كل الوظائف. وبمعنى آخر، مؤسسة الأجور هي التي أعطت الطبقات غير المالكة إمكانية مزاولة حق الانتخاب.

وعينت أجور للجنود، للملاحين وللضباط. المجذف، مثلاً، يقبض دراخما في اليوم، الضابط يقبض الضعف أو ثلاثة أضعاف. وكانوا يمارسون نهج التوزيع المباشر على مداه. ويقبض المواطنون نقوداً (من ٢أوبول إلى دراخما واحدة) ليشتروا مقاعد في المسرح، ويقدرون أن ينفقوا هذا المبلغ كيف شاؤوا. وكان يحدث أن يوزع الخبز مجاناً ("هبات" مصر والبوسفور). وفي أيام بيركلس، وزعت أراضٍ شاسعة على من يحتاجها، خارج أتيكا مبدئياً في الدول التي تشكل جزءاًمن الامبراطورية البحرية. كان لهذه المستعمرات التي قلصت عدد الناس الذين لايملكون أرضاً أهمية استراتيجية وتجارية أيضاً. معروف أن أكثر من ١٠ آلاف أسرة حازوا نصيبهم.

---

١ – وحدة وزن ونقد في اليونان القديمة.

كما شرع بركلس بأعمال ضخمة عامة بهدف تشغيل العاطلين عن العمل والمحتاجين، وغير هذا من الأهداف. كانت الأعمال عالية الثمن جدا: كـــل *partheon* يســاوي ٧آلاف تالانت. يذهب القسم الأكبر من المبلغ للفنانين، البنائين، الصناعيين، الحجارين واليدالعاملــة البسيطة. لقد ساعدت كل هذه المبادرات الفلاحين المرهقين (سكان المســتعمرات، مثــلا)، وعمال الأسطول وشرائح أخرى.

دستور أثينا

لقد ارتدى دستور الديموقراطية العبودية في أثينا في هذه الحقبة شكله الأتم. الســلطة العليا بيد مجلس الشعب المسؤول عن عدد كبير من المسائل. كما يدرس ويحل كل القضايـا المرتبطة بحكومة الدولة.

يختار مجلس الشعب برفع اليد عشرة قضاة مكلفين بمهام خاصة (قيادة الجند، الدفــاع عن حدود أتيكيا، تعمير السفن، إدارة بيري *piree*،إلخ). ويتم توزيع هذه المهام برفع اليــد أيضا. يراقب مجلس الشعب نشاط القضاة. إن اتصف ســلوك أحدهــم بالصفــة الظنيــة، "تقاضيه المحكمة التي... تثبت العقوبة أو تعين مبلغ الغرامة."أرسطو، دستور أثينا،٦٣،٣).

وينتخب قادة الجيش، والأشخاص المهتمين بتربية الشباب (١٨-٢٠) أبناء المواطنيـن المتمتعين بالحقوق المدنية، وتدريبهم عسكريا، وبرفع اليد أيضا. ويسمى مجلــس الشــعب موظفي المال، ومفتش الري، إلخ. يفضل الأشخاص الأكفا، ويستبعد الأغنياء القادرين على تجنيب الدولة الخسائر الناجمة عن خطئهم. ويراقب مجلس الشعب بســهولة كــل ممثلــي السلطة، لأن جهازه ضخم وله الحق في مقاضاة كل من اعتبر جانيا.

ويضطلع مجلس الشعب أيضا بالمهام التشريعية. لكل عضو الحق في إعداد مشــروع قانون. ويشترك المجلس كله بمناقشة هذه المشروعات التي، بعد قبولها لدى المجلس، تحال إلى مجلس الخمسمائة. وبعد هذا يدرس مجلس الشعب مرة ثانية المشروع الذي لم يصــادق عليه مجلس الخمسمائة، مع مراعاة رأي هذا الأخير. وبعد انتهاء النقاش، يطرح القـــانون على التصويت للمرة الثانية ويصير مبرما، ولايصير ساري المفعول إلا بعد تصديقه مــن لجنة خاصة في محكمة الجنايات. أفضت هذه السنة وسنة الشكوى من خــرق القــانون أو اتهام من خرقه، إلى توطيد النظام الديموقراطي.

وليس مجلس الخمسمائة وهو أحد أجهزة الدولة أقل أهمية. ينتخب أعضاؤه بالقرعــة.

تقدم كل وحدة إدارية مرشحيها نسبة لعدد السكان، بحيث يكون لكل قبيلة ٥٠ ممثلا. ونادرا مايجتمع المجلس بنصابه الكامل. تقسم الدولة كان إلى ١٠ ولايات، حسب عـــدد القبـــائل. وخلال السنة، يجتمع الولاة كل بدورها ويبقون مجتمعين أكثر من شـــهر (٣٦-٣٩يومــا). جعلت هذه العادة من المجلس مؤسسة تعمل باستمرار. يمتلك المحافظون مسكنا خاصبا بهم، ويأكلون على حساب الدولة. وفي كل يوم ينتخبون رئيسا جديدا. وفي القرن الخامس كـــان يرأس هذا الرئيس مجلس الخمسمائة ومجلس الشعب. ويستلم مفـــاتيح بيـــت المـــال ودار المحفوظات (الأرشيف)، وكذلك خاتم الدولة.

يجسد مجلس الخمسمائة الدولة في العلاقات الدبلوماسية؛ وهو الذي يستقبل الســـفراء ويقدمهم لمجلس الشعب. ويتمتع بحق مفتوح في توقيف المجرمين الكبار وتسليم شـــؤونهم للمحكمة أو لمجلس الشعب، إن كانت عقوبة جريمتهم تتجاوز صلاحية محكمة الجنايـــات. يضبط المجلس آراء الأعضاء. فمن حقه تحقيق الحقوق المدنية وتدقيقها وكذلـــك منـــاقب الأعضاء والولاة. يراقب الولاة تنفيذ قرارات مجلس الشعب ويسوسون اقتصـــاد الدولـــة، يفتشون الأعمال العامة، يسهرون على تربية الشـــباب، يجيبـــون عـــن حالـــة الأســـطول ومستلزماته. وفي المدن، يمارس الولاة مهام الأمن ويدعون أعضاء المجلسين للاجتمـــاع، ويقررون جدول أعمال جلساتهم. إن مجلس الخمسمائة ليس فقط الهيئة التنفيذيـــة لمجلـــس الشعب، بل أيضا مكتبه.

بعد تأسيس منظمة تضبط عدم خرق القانون وتتهم مـــن خرقـــه وإصـــلاح مجلـــس الشيوخ، أخذت محكمة الجنايات أهمية واسعة في أثينا. وفي أوج الديموقراطية، انتخـــب الهلياست٢ بالقرعة. كانوا ستة آلاف(ستمائة لكل قبيلة)، منهم ألف عضو احتياط، ويـــوزع الخمسة آلاف، بالقرعة أيضا، في اللجان القضائية. في أثنـــاء الجلســـات، يتكلـــم المتـــهِم والمتهَم، وبعدئذ يقترع الهلياست اقتراعا سريا، بواسطة حجـــارة صغـــيرة: حجـــر ســـليم للتبرئة، وحجر منقوب للاتهام.

في هذه الحقبة الزمنية، كانت المؤسسات القديمة، مثل كلية الولاة ومجلس الشيوخ، ما تزال قائمة، لكنها فقدت أفضليتها. كانت مهد الولاة الرئيسة تدقيـــق الشـــؤون القضائيـــة ورفعها إلى المحاكم. ويهتمون أيضا بالشؤون الدينيـــة (تنظيـــم الاحتفـــالات، وواجبـــات

---

٢ – من تجاوز عقده الثالث وأراد أن يترشح.

الاكليروس، إلخ). ومنذ إصلاح إيفيالت، صار مجلس الشيوخ ينهض، كما قلنا، بمهام المحكمة التي تحاكم القتلة والفوضويين ومنتهكي الحرمات.

كان هذا هو نظام أثينا في القرن الخامس ق.م. كانت أثينا "...دولة ذات شكل كلي الإتقان: الجمهورية الديموقراطية..[3]" كانت هذه الديموقراطية العبودية خطوة إلى الأمام بالنسبة للدول الأرستقراطية المتخلفة في اليونان واستبداديات الشرق. فقد عكس الدستور الأثيني نظاما اجتماعيا جديدا كان، بالنسبة لعهده، تقدميا.

لكن لايجوز أن نبالغ بأهمية الديموقراطية القديمة، التي كانت ديموقراطية رقيق. ففي هذا المجتمع، كان السكان الأحرار يشكلون شريحة صغيرة من الرعايا العاملة، فالمنتجون الأهم والأوسع هم العبيد. ولم يتمتع هؤلا بأي حق سياسي، وكانت تضطهدهم مؤسسات الدولة التي كانت تحارب كل طيف مقاومة يبدونها. وفي أتيكيا، حيث يناهز العبيد عدد الأحرار، كانوا محرومين أيضا من أي حق إنساني. فالنساء اللواتي يشكلن قرابة نصف المجتمع الحر، وكذلك الأجانب الأجراء، لم يكونوا أحسن حالا من الزاوية السياسية. والمحصلة، كان سدس أو سبع سكان أتيكيا فقط أصحاب حقوق.

كان دستور أثينا يغدق على المدينة على حساب حرمان الريف. كان مجلس الشعب يقيم كل صباح على بنيكس[4] في أثينا. وكان التجار، الحانوتيون، المأجورين، الميناوومون وباقي المدينيين يستطيعون حضور هذه جلسات. أما الفلاحون، بشكل عام ماكانوا ممثلين أولا يرسلون إلى الجمعية سوى عدد صغير من المندوبين، لأن الحضور يخسرهم يومين أو ثلاثة أيام، تكون أحيانا في أحرج أيام العمل الزراعي. لذا ماكان يتجاوز عدد المشتركين ألفين أو ثلاثة آلاف، من أصل ٣٥ ألف مديني حر في أتيكيا. ولابد من ذكر نقيصة أخرى في الديموقراطية اليونانية: حسب القانون، كان جميع رعايا الحاضرة مخولين استلام أي وظيفة في الدولة، ولما كانت هذه الوظائف غير مأجورة، فلم يدخلها سوى الأغنياء. ورغم أن بيركلس عين أجورا للمحلفين لم يكن أعضاء مجلس الخمسمائة والولاة والستراتيجيون مأجورين والحصيلة توظيف الأغنياء.

---

٣ -ف.أنجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة. ص١١.

٤ - هضبة في غرب أثينا، حيث تجتمع الجمعية الوطنية.

السياسة التوسعية لديموقراطية أثينا العبودية

كانت ديموقراطية اليونان، البعيدة عن اتباع أهداف تحررية، تتوق إلى التوسع، إلى استغلال عبيد جدد وحلفاء جدد.

وكانت أثينا تأخذ مداخيلها من مرتبات الجمرك، المرفأ، السوق، العدالة، التجارة، النخاسة، الرسوم المفروضة على الأجانب، والأملاك العامة. وكانت بعض حاجات الدولة تؤمن من الطقوس الدينية، التي كان يؤديها الأغنياء. وكانت على أنواع: *la trierchie*، مثلاً، أي التزام تجهيز مركب حربي؛ *choregie*، مبلغ ينفق لتطويع وإعالة جوقة تنشد في التمثيليات الدرامية، وسواها. وفي حال الضرورة، يفرض مجلس الشعب ضريبة خاصة، يؤديها سكان المدينة الذين يتجاوز دخلهم ٢٠٠٠ دراخما. على ذلك، لم يكن الدخل القومي ٤٠٠ تالنت يكفي لتغطية نفقات الجمهورية المتزايدة. ولتعديل الميزان، الميزانية الفدرالية (قرابة ٦٠٠ تالنت بالعام) تنصهر نهائياً مع خزينة أثينا التي تمتلك موارد مشتركة وتنفقها على رعاياها.

في أيام بيركلس، تقلصت عدوانية السياسة الخارجية لأثينا بعض الشيء، إنما بقيت سياسة امبريالية تستدعي حرباً دامية جديدة. كان "العدوان السلمي" لبيركلس يتميز بالأهداف التالية: ١) تعزيز القدرة البحرية لأثينا بتوسيعها بالطريق الدبلوماسي (اتفاقات، وغيرها)؛ تأكيد نفوذها في شرق وغرب عالم اليونان (بونت-أوكسن،إيطاليا، سيسيليا) بمعاهدات تحالفية. لم تكن هذه السياسة تدعم التجارة والطاقة الحربية لأثينا فقط بل أيضاً لاستمرار تفوقها في العالم الهلليني.

وهكذا، بعد معاهدة السلم مع الفرس، احتل مستعمرون شرسونيز من ثراس، ليموس وأمبروس، الأمر الذي فتح بونت-أوكسن وسوق ستريمون في ثراس، الإقليم الغني جداً بثرواته الطبيعية، وكذلك أراضي وحدات إدارية فدرالية، خنقت محاولات تمردها على يد حملات تأديبية. قاد بيركليس إحداها شخصياً. وقد رفض حكام ساموس وساطة أثينا في نزاعها مع ميليت. فأتاها بيركلس على رأس ٤٠ مركباً ثلاثي المجاذيف، قلب السلطة وزرع في ساموس نظاماً ديموقراطياً. وعندما عاد المعمرون الذين تمكنوا من الهرب إلى ساموس بمساعدة الفرس لاستعادة النظام القديم، هاجم بيركلس مجدداً هذه الجزيرة وبعد تسعة أشهر من الحصار،أكره المتمردون على الاستسلام. وأعيدت الديموقراطية. فاضطر الساميان لتحطيم استحكاماتهم، وتسليم أسطولهم ودفع الضريبة.

وفي العام ٤٣٧، توجه جحفل ضخم من الأثينيين بقيادة بيركلس نحو بونت-أوكسن. هدفت هذه الحملة الديبلوماسية فرض هيبة القوة الأثينية وضم المستعمرات اليونانية في حوض البحر الأسود إلى فدرالية أثينا البحرية، لم تكن النتائج بسيطة: فقد ألحقت سينوب بالاتحاد الفدرالي، وكذلك نيمفي (مدينة صغيرة على البوسفور السومري)، وعدة مستعمرات على الشاطئ الغربي لبونت-أوكسن. وعلى أرض بعض التحالفات (بخاصة سينوب) أقيمت مستوطنات. وهكذا امتلكت الإمبراطورية الأثينية نقاط ارتكاز على شط البحر الأسود.

ولترسيخ نفوذها في إيطاليا التي تتاجر معها منذ زمن بعيد، أقامت أثيناء بمبادرة من بيركلس، مستعمرة ثوريوا، ليس بعيدا عن سيباريس، التي خربها الكروتونيات. وانتسبت هذه المستعمرة ليس فقط لأثينا بل لمجمل العالم الهلليني. وأرسل إليها معمرون من مختلف مناطق اليونان، كثير منهم رجال مشهورون: الفيلسوف أمبدوكل، من أغرمنت في سيسيلياءالفيلسوف بروتاغورس من أبدير في ثراس، والمؤرخ هيرودوت من هلكرناس. اشترك بروتاغروس بإعداد شريعة للحاضرة الجديدة. ووضع المعماري الشهير هبوداموس مخططا للمدينة بشوارع مستقيمة، تتقاطع بزاوية قائمة، بحيث يتوزع الضوء على كل المباني. كان مؤسسو المدينة يظنون أنهم بنوا مدينة-دولة نموذجية.

فيما بعد انفصلت ثوريوا عن أثينا وقبلت قضية خصومها. ردا على هذا، وقع بيركلس اتفاقات مع جزر زازينت وسفالينيا مع مدن ساجيت وليونتنوا في سيسيليا، مع ريجيون ونابولي في إيطاليا، أخيرا مع جزيرة كورسير (٤٣٣). بهذه الطريقة، أمنت أثينا طريقا للتجارة مع الغرب.

لقد لاقت خطة بيركلس في توطيد الهيمنة الأثينية على كل اليونان تعبيرها في سياسة تضم كل الهلليين. حاول عقد مؤتمر لكل اليونان توخى حل القضايا التالية: ١)خلق خزينة لهيلاد لترميم، حسب مخطط محدد، كل معابد اليونان التي دمرت في أثناء الحروب الميدية؛ ٢) قمع القرصنة ٣) حماية السلم بين دول اليونان.

لكن المؤتمر لم يعقد، بسبب معارضةإسبارطة. وبعيد هذا، اقترح بيركلس تعميم عبادة إيلوزيس *Eleusis* وان تنفق أولى ثمار موسم كل البلاد الهيللينية على الإلهات الأيلوزية ديميتر وكورا. وهكذا تلتزم كل حاضرات اليونان بأفضلية العبادات الأثينية. لكن

واحدة لم تقبل الاقتراح. ففشلت كل محاولات أثينا لتدعيم نفوذها السياسي عن طريق ترسيخ هيمنتها الدينية.

وفي "قرن بيركلس" بدت أثينا عاجزة عن فرض هيمنتها السياسية على اليونان، لكن نفوذها التجاري بلغ الأوج. إن سيدة البحر، أثينا، تصير المركز التجاري لليونان، وبيريا مرفأها الأغنى.

أثينا، المركز الثقافي للعالم الهلليني

في أواسط القرن الخامس، صارت أثينا أيضاً المركز الثقافي للعالم الهلليني. "كان عصر بيركلس قمة تفتح وازدهار اليونان... يقول ك.ماركس. كان يأتي أثينا من الدول الهللينية الأخرى العلماء، الشعراء والفنانون: الفيلسوف أنكساغور من كلازمين (أيونيا في آسيا الوسطى)، السفسطائي بروتاغورس، ابن إبدير في ثراس، السفسطائي غورجياس ابن ليونتنوا في سيسيليا. وديموكريتس ابن أبدير، الفيلسوف المادي الكبير ابن العصور القديمة، الذي زار كل الأرض اليونانية، وعاش أيضاً في أثينا. هيرودوت ابن هلكرناس، "أب التاريخ"، حيث حصل على حق المواطنية. والشاعر بندار والنحاس ميرون، مبدع "دسكوبول"، الاثنان الأخيران من بيوتيا، عاشا طويلاً في عاصمة أتيكيا؛ وفيدياس، سقراط، أخيل، سوفوكل، أوربيد، أرستوفان، المؤرخ العظيم توسيديد، ابن أولوروس، الممثل الكبير للثقافة الهللينية، كانوا قد ولدوا في أثينا.

لم يكن الفن الأثيني في أوج ازدهاره حكراً على صفوة الأغنياء مالكي العبيد. ففي "عصر بيركلس"، كان يحتفل في أثينا بأربعين عيداً في العام (كان أهمها الأعياد العظيمة لكل الأثينيين، والديونيز والينبيين). فضلاً عن الأعياد الدينية، كان ثمة احتفالات فنية، ومباريات رياضية. ولقد حازت هذه الأخيرة من أيام برسترات الصفة الوطنية–القومية، بخلاف المنافسات العسكرية البحت التي كانت تجري في أيام شريحة من النبلاء. هكذا، كان الديونيز يقيمون تمثيليات مسرحية تدوم ثلاثة أيام. وكتب سرفوكل، أخيل، وأروبيد تراجيديات لهذه الأعياد، وكتب لها كراتنوس،ارستوفان وغيرهما من كتبة الملهاة. وتصدر لجنة من عشرة أعضاء أمراً بالأوسمة. كان الأغنياء يضطلعون بالإنفاق على هذه التمثيليات، وكان هذا نوعاً من الدخل. فيخضع مضمون الأعمال الفنية لنوع من المراقبة غير المباشرة من قبل الأغنياء.

إن أعمالاً إنشائية ضخمة صنعت من أثينا واحدة من أجمل مدن اليونان. لقد حظـي مرفأها، البيري، بتحصينات لاتطال، من حواجز وأرصفة جديـدة. وأهـراءات ومخـازن للقمح. بين "الجدران الطويلة" التي انتهت في العام ٤٥٥ والتي تصل مرفأ بـيري بأثينـا، أنشيء، بأمر بيركلس، جدار ثالث، يحصن المدينة والمرفأ تحصيناً أبدياً. وصار الأكروبول بعد الترميم مركزاً دينياً وثقافياً.

صارت مداخل المعابد، العمل التحصيني الذي يوصـل إلـى الأكروبـول، تصـير مجموعة أعمدة رائعة تتصف بالزهد والرزانة، ملتصقة بأروقة تزدان جدرانـها برسـوم ومنحوتات تستدعي الماضي الماجد لمدينة أثينا، تمثل إحداها معركة مراتون. وفي داخـل الأكروبول، بين الصروح، امتدت المروج، وبسـقت الأشـجار، والأنصـاب المرمريـة والبرونزية وإلى يسار المداخل، على قاعدة عالية، انتصب تمثال لأثينا (الحامية). الإلهـة تتقدم مسلحة، تأخذ بيدها رمحاً ترى نهايته اللامعة من بعيد وتقود البحـارة إلـى المرفـأ (البيري).

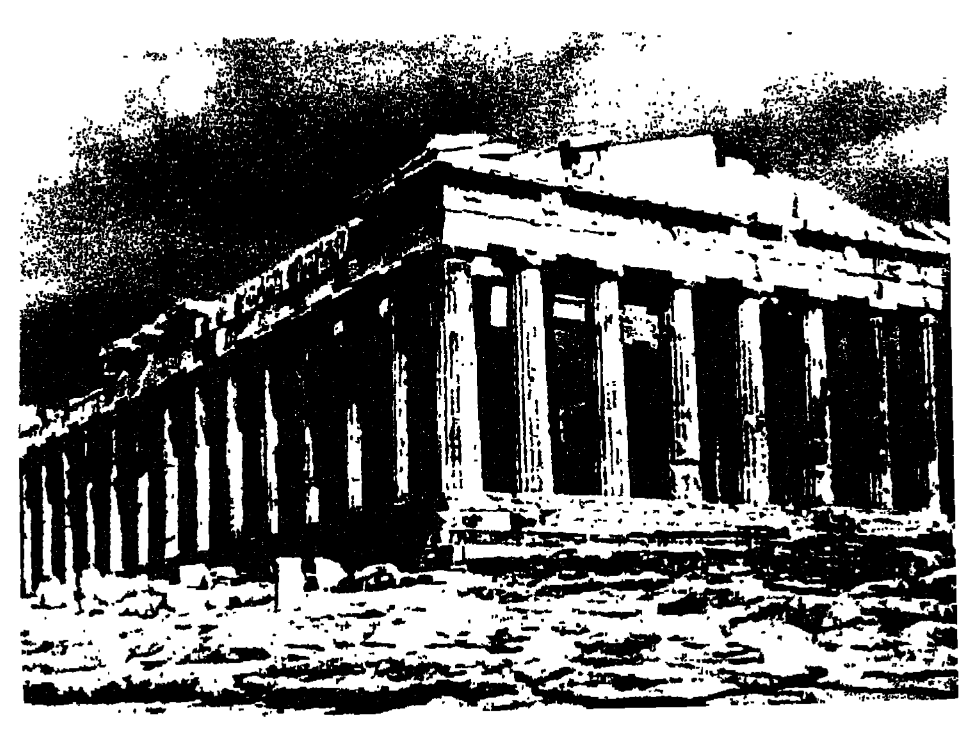
لكن الآبدة الأبرز في أثينا هي البارثيون ***Parthenon***، إبـداع المعمـاريين إكتنـوس وكلكراتس، بني حسب الأسلوب الدوري[٥] العظيم، المغتني بعناصر أيونيـة تسـاير أذواق المواطنين الجدد. وبكلمة كان المظهر الذي تفرضه الصروح الدورية يرمز إلـى الطاقـة المنيعة للجمهورية الأثينية.

وحسب التقليد الأيوني. وبعض الزخارف والمنحوتات البارزة التي أبدعها فيديـاس- النحات الشهير. وفي داخل المعبد، ارتفع نصب عاجي وذهبي، من عمل فيدياس. لتكويـن فكرة عن أبعاده (١٤م)، يكفي أن نعرف أنها تضع على راحة يدها اليمنى صورة للنصـر بقامة إنسان. يشكل هذا النصب جزءاً من ثروة الدولة (إنه يساوي قرابة ٢٠ مليون روبل- ذهب). وأقاموا مؤخراً في الأكروبول إرشتي ***Erchtee***، (ملك خرافي لأتيكيا) ومعبداً آخر، أصغر، هو معبد الظفر، الاثنان طرفتان من الأسلوب الإيوني. وعلـى السـفح الجنوبـي الشرقي للأكروبول، بني الأوديون ***Odion***(معبد الغناء)، للمباريات الصوتية. هـوذا رأي بلوتارك حول الآثار التي بنيت في أيام بيركلس: "ماكان ينتهي كل من هذه الأوابـد حتـى

---

٥ – أسلوب استخدم في بناء وزخرفة المعابد اليونانية، والمتصف بالزهد والرصانة.

يأخذ بروعته طبيعة القدم؛ على ذلك إنها الآن تجسد الطـــلاوة والألـــق الحديـــث، روعـــة الشباب، حيث تتألق هذه الزهرة الجديدة التي تحافظ على انفعالات الزمن!" لكن الكل غـــال جدا. البارثيون، مثلا، يساوي كما قلنا، ٧آلاف تالانت، أي سبع مرات ميزانية الدولة. لقـــد توجب على الدولة الحليفة لآثينا أن تغطي كل هذه النفقات، الأمر الذي كان يسعر غضبها.



البارثيون (القرن الخامس قبل الميلاد)

الفصل الثاني والثلاثون

حرب البلوبونيز

أسباب النزاع. حرب أرشداموس[6]

على ذلك، كان ازدهار أثينا عرضيا مؤقتا: إن حربا جديدة ضارية بين امبراطورية أثينا البحرية والجامعة البلوبونيزية (٤٣١-٤٠٤) وضعت حدا لذلك الازدهار. شملت هذه الحرب، المسماة البلوبونيزية، تقريبا كل اليونان وحتى بعض الدول الأخرى: مقدونيا، تراسيا وإيران. يشير ثوسيديد أن هذا النزاع أثار حركة واسعة بين أغلب الشعوب وأنه كان الأعمق من كل ما سبق. فتناحرات الحياة الاجتماعية والسياسية في الدول اليونانية تسارعت وتفاقمت بوضوح في أثناء الـ٢٠ سنة من هذا النزاع الأهلي وأفضت باليونان إلى أزمة حادة.

كان وراء حرب البلوبونيز أسباب سياسية واقتصادية عميقة جداً أعلنت أزمة في مختلف الدول لابل في مجمل المجتمع الإغريقي. يجب أن نذكر، أولاً، ألا مهرب ولابد من التصادم بين أثينا واسبارطة، كنتيجة لنزاعهما من أجل الهيمنة. لقد طمعت إسبارطة بنجاحات أثينا، بخاصة حينما حاولت الدولة الأثينية بسط نفوذها ليس فقط في البحر، بل أيضاً على اليونان القارية. كان التطاحن من أجل وسط اليونان قد أثار الحرب الأولى، انتهت بصلح الثلاثين سنة أو صلح بيركلس: يتخلى الأثنيون عن بسط نفوذهم على القارة وتعترف الجامعتان بحدودهما السابقة. طبعاً، ليس لهذه التسوية أن تحل نزاعاً حاداً بين دول تساند أنظمة لا لقاء بينها. فبينما كانت أثينا تعزز الديموقراطيين، كانت سبارطة تبني نظاماً أرستقراطياً رجعياً. كل منهما يهدم قاعدة الآخر ويسعّر التناحرات السياسية.

فالنزاع بين أثينا وسبارطة عقد الصراع التجاري الأثيني مع كورنثيا وميغار اللتين

---

٦ – أحد ملوك اسبارطة.

تشكلان جزءا من الجامعة البلوبونيزية. وصارت كورنثيا عدوة أثينا الأعند والأشرس، بعد شروع أثينا ببسط نفوذها على مدن الشاطئ الغربي لشبه جزيرة البلقان، الواقعة على الطريق بين إيطاليا وسسيليا. ولما كانت التجارة قد أخذت مدى أوسع منذ الحروب الميدية، تفاقم الخصام على الأسواق الغربية. وكان الباعث الأهم لحرب أثينا ضد الجامعة البلوبونيزية هو بالضبط التزاحم التجاري بين أثينا من جهة، وكورنثيا وميغار من جهة أخرى.

كانت الذريعة الأولى للحرب تدخل أثينا في صراع كورسير وكورنثيا من أجل "أبدا من" مدينة الأدرياتيك الغنية السوق. ساندت أثينا كورسير وأرسلت أسطولها ضد الكورنثيين، وكانت النتيجة الأساسية لهذا الدعم انضمام كورسير، الشهيرة بثرواتها وأسطولها، إلى الاتحاد البحري الأثيني. فاتسع الصدام بين أثينا وكورنثيا. وتبدت الذريعة الثانية أيضا في كورنثيا. كان سبب التصادم مدينة بوتيديا في شبه جزيرة شلسديك. فقد وجدت كورنثيا نفسها مضطرة للانضمام إلى الفدرالية البحرية، الأمر الذي صعد النزاع بين آثينا وكورنثيا. وقد جعل ارتباط بوتيديا المزدوج منها حلبة الصراع، المتمثل بالمطالب الأثينية التي، خوفا من ضياع بوتيديا، تتجلى في رفض الموظفين الكورنثيين وتدمير الاستحكامات التي تحمي المدينة من جهة البحر.

ردا على هذا، انفصل البوتيديون عن الاتحاد، بتشجيع من الكورنثيين، وحذا حذوهم حلفاء أثينا في شلسديك وتمردوا. فسير الأثينيون قوات ضخمة برية وبحرية. وكانت الذريعة الثالثة للحرب قرار الجمعية الوطنية الأثينية (٤٣٢)، منع الميغاريين، حلفاء كورنثيا، من عبور مرافيء الاتحاد، الأمر الذي ينزل بتجارة كورنثيا ضربة قاصمة.

طلب اللاسدمونيون، بسبب شكاوى حلفائهم، أن يرجع الأثينيون عن قرارهم ودعوا لاجتماع ممثلي دول الجامعة البلوبونيزية. وكان الكورنثيون أضرى أعداء أثينا في هذا النزاع. ادعوا أن "استبداديت"ها تهدد كل اليونان ودعوا إلى الحرب من أجل "إنقاذ الهللينيين وتحريرهم من النير الأثيني. وقد وقف أكثر أعضاء الجامعة إلى جانب الحرب: استعادة استقلال الهللينيين من استعباد الأثينيين، كان هذا شعار النزاع؛ استغلت إسبارطة المزاج القتالي لحلفائها، وأرسلت إنذارا نهائيا إلى أثينا باسم الجامعة البلوبونيزية.

وفي أثينا، حث بيركلس، الستراتيجي الأول ورئيس الدولة، مواطنيه على عدم ترك

الساحة البلوبونيزية وعلى إعلان الحرب. يرى البعض أنه كان مدفوعا بدوافع شخصية. ففي تلك الحقبة احتد التناقض ضد بيركلس. فطالب الديموقراطيون الأكثر راديكالية، بإشراف كليون ، مالك إحدى المدابغ، بزيادة أجور الموظفين وإعانات الدولة، وكذلك بسياسة غزو أكثر حزما وإصرار. وكان خصم بيركلس أيضا اليمين الذي يريد الصلح مع إسبارطة وتقليص التدابير المتخذة لصالح الشعب. فما أن تزعزعت مواقع بيركلس، حتى بدأ الهجوم لنزع الثقة منه. حتى أصدقاؤه، النقاش وقائد الأعمال فيدياس، والفيلسوف أنكسغور وحتى زوجته، أسبزي افتروا عليه وقاضوه. ربما كان بيركلس يعمل بدافع شخصي، من بين الدوافع، لكن الأساسي هو أن الديموقراطية الأثينية، التي تدافع عن مصالحها، اهتمت بإلغاء مزاحمة كورنثيا وميغار، وتطور التجارة والصناعة وبالمحصلة أرادت الحرب. لذا لم ينتظر مبعوث إسبارطة الجواب وغادر أتيكيا وهو يعلن: "سيكون هذا اليوم عند اليونان يوم حلول أفدح الآلام." (ثوسيديد، ٢، ١٢). فسعرت الأوساط المتنفذة الأثينية النزاع، عوضا عن البحث والسعي.

كانت خطة هجوم بيركلس تقوم على القتال في البحر، مستفيدا من تفوق أثينا البحري؛ أما أرض أتيكيا، لم يهتم بالدفاع عنها ورأى خطأ خوض معركة في البر مع البلوبونيزيين رغم أن جيشهم كان أضخم من جيشه. "إن ما يجب أن يحزننا، ليس خسارة البيوت والأرض، بل الرجال"، يقول بيركلس في خطاب استشهد به ثوسيديد (١، ١٤٠-١٤٤). فقد أهمل تماما مصالح الشرائح الزراعية وبنى آمالا عراضا على الطاقة البحرية للاتحاد. معتمدا على ضعف العدو في البحر وافتقاره للنقد . لكنه لم يحدس المضاعفات الداخلية والخارجية التي ستعطي الأحداث دورا غير متوقع.

سميت المرحلة الأولى من الحرب (٤٣١-٤٢١) حرب أرشدموس؛ نسبة لاسم ملك إسبارطة. بدأ النزاع باعتداء الاتحاد البيوتي على بلاتيا، حليفة آثينا. احتل العدو المدينة لأن الأرستقراطية فتحت له أبوابها. ومنذ هذه المعركة، راح ينجم بكل وضوح تعقيد المواقع القتالية والصراع الاجتماعي الحاد، الذي وسم الحرب كلها. فقد بدأ تدخل البلوبونيزيين بقيادة الملك أرشدموس بغارات مدمرة على أتيكيا. كان هذا في وسط الصيف، وكان القمح ينضج. دمر الغزاة المحصول، اقتلعوا الزيتون والكرمة، ونهبوا البيوت. احتل سكان الريف المدينة بناء على اقتراح بيركلس، وأخليت البهائم من الجزر. وفي هذا الوقت، كان

الأسطول الأثيني يعمل في البحر ويسبب النكبات للبلوبونيزينيين. وقاتل جزء من المراكب (١٠٠ مركب ثلاثي المجاذيف) على طول شواطيء بلوبنيز، فدمروا السواحل وشلوا التجارة الكورنثية؛ وحاصر لواء آخر بوتيديا في شلسديك. وبقي الأثينيون لبعض الوقت متفوقين.

لكن وضع الأثينيين المتجمهرين في أثينا راح يسوء من يوم إلى آخر. كان الخطأ في إهمال مصالح الريف. والمدينة تغص بالسكان، واللاجئون يقطنون الأكواخ، في الساحات العامة، في أبراج الاستحكامات وحتى في المقابر.

كان تدمير التراب الوطني، المرئي من أعلى الأكروبول، يغضب الشعب (بخاصة الفلاحين) الحاقدين على صانعي الحرب، لكن بيركلس، إخلاصا لخطته، كان يمنع الأثينيين من الانتقال للهجوم. تفاقم الوضع، انتشر الطاعون الوافد من مصر بسرعة عبر المدينة. رسم ثوسيديد لوحات رهيبة لهذا الوضع (٢، ٤٧-٥٤). كان الناس يموتون في الشوارع، حتى ناءت المدينة بالجثث التي لم يتوفر الوقت لرفعها. وانهال الغضب الشعبي علىبيركلس، الذي اعتبر مسؤولا عن كل النكبات. فدعم الريفيون بنشاط أنصار وقف المعارك. حاول بيركلس تحييد هذهالمساعي، بإقناع مواطنيه بأن عليهم أن يتغاضوا عن القلق الشخصي من أجل سلامة الدولة. يبدو أن مصلحة الدولة بمجملها كانت أهم لدى المواطنين من ازدهار بعض الأفراد في دولة في حالة انحطاط (ثوسيديد،٢،٦٠)، لكن الغضب كان يستعر ونفوذ بيركلس يتراجع. وفي العام ٤٣٠، لم يجدد انتخاب بيركلس الذي مارس مهامه كقائد استراتيجي، ومات بالطاعون في العام نفسه. يبرهن سقوط بيركلس أن سياسته المعتدلة لم تعد ترضي الأثينيين في حال استعار التناحرات بين السكان المدنيين الراديكاليين وأبناء الريف المحافظين. عامان بعد موت بيركلس، كان كليون يقود الشريحة الردكالية، التي لها الأغلبية في الجمعية الوطنية. وكان يقود المعتدلين نيسياس، أحد أغنياء العبيد.

لقد قدمت لنا شخصية كليون بشكل هازل. يعلل هذا بداية أن ثوسيديد، أرسطو، بلوتارك،أرستوفان الذين وصفوه لنا، كانوا معتدلين ولايتعاطفون مع الديموقراطية الراديكالية. ثوسيديد يسمي كليون "المواطن الأسفه". وأرستوفان،في ملهاته، الفرسان، تمتع بأمر وصف عيوبه؛ ورأى أرسطو "أنه أفسد الشعب أكثر من أي شخص آخر بنزقه وحدة

مزاجه". على هذا، فقد كان قائدا مستقيما واسع النشاط والحيوية بين شريحته الديموقراطية اليسارية، التي كان لسان مصالحها.

أما نيسياس، خصمه، كان يتمتع بدعم الأغنياء والأرستقراطيين. يصنفه بعض المحافظين مثل أرسطو بين أفضل قادة أثينا السياسيين. لكن بلوتارك، العدو الأزرق لكليون، يشير لدى مقارنته بنيسياس،أن هذا الأخير كان خائفا، يسهل ثنيه عن الإقدام، متطيرا، بدون مواهب متفردة. ترجع شعبيته إلى سلوكه الذرائعي.

لقد خاض الحزب الراديكالي، بقيادة كليون، الحرب بألمعية وجرأة. وشن الأثينيون عمليات في البر والبحر.

وبقيادة قائد قادر، ديموستين، احتلوا بيلوس، الجهة البحرية من مسينا، لتحريض فقراء مسينا على الانتقال إلى حزبهم. وبولوج هذه المنطقة الآهلة بالفقراء بخاصة أنزل الاثينيون ضربة إلى النقطة الأكثر حساسية في الدولة السبارطية. لذا سارع السبارطيون إلى محاصرة بيلوس عن طريق البر، ومركزوا فيها أسطولهم، واحتلوا جزيرة سفاكتري، الواقعة قبالة بيلوس، وأرسلوا إليها أكثر من ٤٠٠ جندي. ووجه إليها الأثينيون أيضا أسطولهم، الذي تصدى للبلوبونيزيين. استلم كليون نفسه القيادة، وطوق سفاكتري بمساعدة ديموستين، وفرض الاستسلام علىالسبارطيين، وأخذ الجنود الموجودين في الجزيرة رهائن، ووضع شرط علىالبلوبونزيين عدم مهاجمة أرض أتيكيا، وإلا ذبحت الرهائن. وبدأ كليون العائد إلى أثينا مكللا بالمجد، سياسة هجومية واسعة المدى: احتل المرفأ الميغاري والنيسيا، وجزيرة سيثير، وأرسل حملة غازية إلى سيسيليا. لكن هذه العمليات كانت تتطلب نفقات ضخمة. فتوجب رفع الضرائب على أعضاء الاتحاد (٦٠٠-١٠٠٠تالنت). فتشوشت العلاقة بينهم، الأمر الذي كان شؤما على دولة أثينا. وفي العام ٤٢٧، انفصلت ليسبوس بمساعدة اللاسدمونيين عن الاتحاد. واضطرت مدينة متلين، مركز التمرد على الأثينيين، على الاستسلام أما القوات الأثينية بعد حصار طويل. ولم يستطع الأثينيون أن يجمعوا حلفاءهم إلا بالإرهاب.

وفي العام نفسه، نشب عراك مرير بين الأرستقراطيين والديموقراطيين في جزيرة كورسير. كان وراء هذا العراك الكورنثيين الذين، ليفصلوا كورسير عن أثينا، دعموا الأرستقراطية. ونشبت معارك دامية في الشوارع، اشترك فيها النساء والعبيد. "لقد أرسل

كلا الطرفين رسلا إلى الأرياف ليدعموا العبيد واعدين إياهم بالحريـــة، وانضـــم أغلبـــهم الشعب"، كما يقص ثوسيديد (٣،٧٣). وتسعر الصراع الطبقي في الدول المتحالفة، بتشجيع البلوبونيزيين.

قد أثار انقضاض الأثينيين على البلوبونيز تعقيدات داخلية في ســـبارطة. ولتحويـــل انتباه العدو، دعمت اسبارطة، من جهتها،التمردات بين أحلاف أثينا. وبهذا الـــهدف وجـــه السبارطيون الحرب إلى الساحل الشمالي من بحر إيجة. حيث يوجد عدد من مدن الاتحاد، كان أهمها بوتيديا، أولينث وأمفبولس؛ كان البلوبنيزيون يأملون تفكك حلفاء أثينا. ولم يكونوا خاطئين. فقد تحقق مشروعهم بغزو المستعمرات الأثينية على شواطيء تراسيا، بفن قتـــالي حاسم وماهر، بقيادة الشاب السبارطي برازداس. وعلى رأس فوج من المتطوعين اجتـــاز بجسارة بيوتيا، وثيساليا وتمردت على أثينا مدن شلسديك.

تمت الأحداث الحاسمة لهذه المعمعة أمام امفبولس، المستعمرة الأثينية التي انتقلت إلى العدو. احتل برازداس المدينة بمساعدة أبنائها. كان المؤرخ ثوسيديد هو الذي يقود آنئذ (في العام٤٢٤) اللواء الأثيني قرب شواطئ ثراسيا. ولم ينجح بالحفاظ على المستعمرة، الأمـــر الذي جعل أثينا تنفيه. وتضع محله كليون قائد الجيش الأثيني، لتصليح الوضع. وفي العـــام ٤٢٢، انتهت معركة امفبولس الضارية بهزيمة قاسية للأثينيين (قضى فيها القائدان كليـــون وبرازداس). واتسع مدى التمرد في البلدان المتحدة.

أثارت الهزائم العسكرية الرأي العام الأثيني ضد حزب الحرب ووسعت نفوذ حـــزب الصلح، نيسياس. وفي العام ٤٢١ عقد صلح نيسياس الذي رسخ الوضـــع الراهـــن. وفـــي ملهاته "الصلح"، التي كتبت في نفس العام، يرفع أرستوفان عاليا فرحـــة الحيـــاة السـلمية؛ وعوض الرمح "الملعون"، ليؤخذ المعول لغرس الكروم والزيتـــون. إن إهمـــال مصـــالح الفلاحين وبعض الحلفاء كان السبب الرئيس في هزيمة الديموقراطية الأثينية طيلة المرحلـــة الأولي من الحرب.

المرحلة الثانية من الحرب البلوبونيزية

وقعت حملة سيسيليا الكبرى وحرب دسيليا لأن صلح نيسياس لم يكن متينا. فلم يحـــل التناقضات الأساسية لما قبل الحرب. ولم تنفذ شروط المعـــاهدة: احتفـــظ كـــلا الطرفيـــن بالأراضي المغتصبة الواجبة الإعادة لأصحابها. ثم، وقف المجتمع الأثيني المدمر نفســـه،

فضلا عن الصناعيين والتجار، إلى جانب تجدد المعارك. أمل كثير من الناس التخلص من ورطته عن طريق الغنائم والأسلاب التي تأتي بها معركة مظفرة فيما وراء البحار.

ولقد لعب أحد ذوي بيكلس، ألسبياد، وقد صار على رأس الأوساط العدوانية لديموقراطية أثينا الرقية، دورا هاما في حياة أثينا السياسية انطلاقا من العام ٤٢٠. كان ألسبياد شابا موهوبا ورفيع الثقافة.

ولقد أكسبتهُ ثروته، ظرافته، مروءته، تسامحه وفتنته الشخصية الغريبة، شعبية لا مثيل لها. لكن انعدام الاهتمام والتدقيق، والقدرة على التلاؤم مع الظروف وتغيير السلوك حسب الثوب الذي تلبسه الأمور، كلفه كل هذا لقب "الحرباء"[٧]. بنيت سياسة ألسبياد كلها على مشروعات الفتوحات الواسعة، التي تفرز المغامرة. فتبنى خطة جريئة لاحتلال مناطق غنية بالقمح في غرب البحر المتوسط: سيسيليا، إيطاليا وقرطاجة. وافق على هذا المشروع الأثينيون الشرهون للتوسع، الطامعون منذ زمن بثروات سيسيليا من الحبوب وغيرها.

استخدم سيسيليا حمايتها من اضطهاد سيراكوز ذريعة لحملة عليها. وأفاد منها ألسبياد لتحريض الأثينيين. وفي كل مكان، في الشوارع، في ميادين الرياضة، كان الكلام يدور حول سيسيليا فقط؛ رسمت خرائط لهذه الجزيرة، وليبيا، وقرطاجة. ورغم معارضة خصوم ألسبياد، وبينهم نيسياس، حصل الحزب الديموقراطي من الجمعية الوطنية على الموافقة بتنظيم حملة سيسيليا بقيادة ألسبياد، نيسياس ولاماشوس. وتجهيز أسطول ضخم وجيش جرار (١٣٤ مركب ثلاثي المجاذيف، ٤٠سفينة نقل وقرابة٢٠ ألف مقاتل).

لكن الصراع المرير بين الأحزاب في أثينا انعكس شؤماً، منذ البداية، على مسار الحملة. فعشية الانطلاق، مزقت صور الإله هرمس، حامي المسافرين، الموزعة على مفارق الطرق. لم يكن هذا في نظر اليونان الأسبقين مجرد تدنيس وانتهاك للحرمات، بل نذير شؤم. تحرص بعضهم أن خصوم ألسبياد، أنصار حكم الأقلية المتحكمة، كانوا والغين في العملية. ورغبة منهم في استبعاد الحملة، نشروا شائعة تقول إن الفاعل هو ألسبياد نفسه، تلميذ "الفلاسفة الملحدين"، وألحوا على إحالته إلى القضاء. لكنهم لم يقدروا أن يصلوا إلى غايتهم في الحال، لأنهم خشوا القوات المخلصة كلياً لألسبياد.

---

[٧] – التقلب والتلون.

غادر الأسطول رسمياً البيري بالتاريخ المحدد. وما أن وصل إلى سيسيليا، حتى بـدأ ألسبياد العمليات القتالية. لكن باخرة تصل، تحمل أمر عودته إلى أثينا ليقاضى: اتـهم الآن بالتآمر على الديموقراطية. لكنه في الطريق، فرّ إلى اسبارطة. أفضى كل هذا إلى تفكـك الجيش وانبعاث الفوضى مما هدد بالفشل لفقدان الجاهزية القتالية.

بعد رحيل ألسبياد، استلم نيسياس القيادة العليا. أبحر هذا بنجاح إلى سيراكوز، حاصر أولا المدينة، بألمعية معاكسة لطبيعته، وحاول صعود الجدران بأضيق وقت. ضحك الحـظ للأثينيين حتى أن السبارطي جلبوس استسلم في سيراكوز مـع قـوات المـدن السيسـيلية الأخرى، التي تقلد الدفاع عنها. وساعدت كورنثيا السيراكوزيين. وفي العـام ٤١٣ عـزز الأسطول الأثيني بـ ٧٥مركب ثلاثي المجاذيف، بقيادة دمستين، الذي لمـع نجمـه فـي بيلوس. لكن وصول القوات من إيطاليا وبلوبنيز زاد من قدرة سيراكوز على المقاومة وفاقم في وضع الجيش الأثيني، فقرر الستراتيجيون العودة إلى أثينا. يتحدث توسيديد عن دراميـة وضع الجيش الأثيني المحاصر في سيراكوز. فبعد محاولة الأسـطول العابثـة أي خـرق صفوف العدو وحرق مراكبهم، أراد الجيش الانسحاب إلى داجل الجزيرة. وأجبرهم تفـوق العدو العددي والجوع على الاستسلام. وانتهت حملة سيسيليا إلـى نكبـة رهيبـة: دمـر الاسطول والجيش، استعبد من بقي حيا وأرسل إلى المقالع، وأعدم الاستراتيجيون (٤١٣).

وفي أتيكيا بالذات، خضع الأثينيون إلى نازلة شنعاء: كان السبارطيون قـد احتلـوا ديسيليا، المركز الستراتيجي الهام جدا، الواقع في شمال-شرق أثينا. وهكذا عزلت المدينـة عن الجزء من أتيكيا وأوبيا الذي يمدها بالمواد الغذائية. لقد تصرف العدو هكذا بناء علـى إلحاح ألسبياد الذي، بعد أن لجأ إلى اسبارطة، كان يتحرق ليثأر لوطنه. حتى الآن، كـانت الغزوات البلوبونيزية قصيرة الأمد. إنما هذه المرة، تشبثوا بسيسيليا، ولم يغادروا أتيكيا، بل دمروها وشلوا اقتصادها. أكثر من ٢٠ ألف عبد أثيني، أغلبهم أصحاب مهن، انتقلوا إلـى العدو. وتأثرت الصناعة وكل الاقتصاد الأثيني العبودي بهذه الخسائر.حث هـذا الوضـع الأثيني الحرج اسبارطة على مضاعفة نشاطها في البحر لكبح هيمنة الاثينييـن البحريـة. لبناء أسطولهم، أهمل السبارطيون مصالح اليونان وعقدوا حلفا مـع الفـرس، مـن أجـل الحصول على معونات مالية. توجه ألسبياد إلى آسيا الصغرى، حيث تيسر لـه أن يعقـد صلات صداقة مع المزربان تسافيرن. ونجح بضم أيونيا إلى أثينا، لكن السبارطيين، الذيـن

لم يثقوا به، أرسلوا مكانه قائد الأسطول ليزاندر. كان هذا الأخير رجلا موهوبا وبدلوماسيا محنكا، ماكرا؛ كان يقول حيث لاتستطيع أن تحصل على لبدة الأسد، ارتد جلد ثعلب. أفسد ليزاندر أساليب ألسبياد. فتنت لهجته وعباراته الخنوعة سيروس، حفيد ملك الفرس، فوعده بإعطائه كل ما يريد. أفاد ليزاندر من خطوته لدى هذا الأمير لزيادة المعونات المالية الممنوحة لسبارطة لخلق أسطول بلوبونيزي ضارب، يهيمن في بحر إيجة.

عجل كل هذا في وهن عزيمة الدولة الأثينية التي لاقت هزائم قتالية. أهمها تفكك الحلف الأثيني، الذي عزل مدن آسيا الصغرى وكل الجزر تقريبا. وكانت خسارة حلفاء مثل سيو، لسبوس ومبليت شديدة الأثر. الأمر الذي قلص كثيرا دفق الخيرات، وبلغت الأزمة المالية نسبا مهددة.

لقد هزت النكبات التي ضربت أثينا موقف الديموقراطية ودعمت معسكر الخصم. وانفلت الصراع السياسي بعنف لم يعرف من قبل. فقد صارت الجماعات السرية الأولغارشية، التي أقسم أعضاؤها على قلب النظام الديموقراطي، الحلقات الرئيسية في هذا الصراع. وفي العام ٤١١ نجحت، بمساعدة الجيش والأسطول، بانقلاب أولغارشي وانتخبت عشر ولاة، وال لكل ولاية ، لايقل عمر كل منهم عن ٤٠ عاما. وكلف هؤلاء الولاة بإعداد دستور جديد. وبانتظار هذا، أقيم :"نظام الأباء"، وكما يقول الأولغارك: صار مجلس الأربع-مائة، المكون حصرا من أعتى الرجعيين، الحاكم الأعلى للدولة. وحسب ثوسيديد، "كان هذا المجلس يحكم بصورة استبدادية"، بتعذيب واضطهاد الديموقراطيين بدون رحمة. ألغيت مؤسسة سماع شكوى خرق القانون التي كانت تحمي القواعد الديموقراطية، وألغيت الوظائف المأجورة. لكن تبين أن هذه الأولغارشية المتطرفة غير مستقرة. فبعد أربعة أشهر من الحياة، اعدم فرنكوس، انتفون وغيرهما، أكثر الألغاركيين حماسا وشطب من الوجود مجلس الأربعمائة.

كان الدستور الذي أعده الولاة يسلم السلطة لخمسة آلاف "شخص سلاحهم ثقيل". أي إلى الشرائح الوسطى من الشعب. كان ثرامين يكره الديموقراطية التي أتت بدولة حكمت العبيد والفقراء الذين، كما يقول، "كانوا مستعدين لبيع البلد مقابل دراخما" لكن ثرامين لم يكن يحب الأولغارشية أيضا. إنما كان ممثلا نموذجيا للشرائح الوسطى المرتاحة، إنسانا متقلبا، يحدب على التسويات، لقب بـ"كوثرن" (حذاء تستعمل فردتاه للقدمين). (خنوفون، الهللينيون، ٢، ٣، ٣٠).

لكن النظام المعتدل أو الوسط أثار أيضا الغضب بين شرائح ديموقراطية واسعة. كان بحارة ومجذفو الأسطول الموجودون آنئذ قرب جزيرة ساموس، الشريحة الأكثر تنظيما. ولما كان الأسطول بدون قائد كفء يربح ثقة الطواقم، قرر استدعاء ألسبياد من آسيا الصغرى, قبل، أملا بتحقيق رغبته العارمة في العودة إلى الوطن. ومرةأخرى، غير مبادئه.

كانت المهمة الأساسية للأثينيين في هذه المرحلة من الحرب، التي دشنها ألسبياد، تقوم في تحرير هلسبونت وطريق ساحل البحر الأسود من البلوبونيزيين. فقد عمقت انتصارات ألسبياد العظيمة قرب أبدوس وسزيك نفوذ أثينا في البحر، وأكرهت بعض المدن التي انفصلت على العودة لتكمل الإمبراطورية الأثينية. وأفضت انتصارات ألسبياد القتالية إلى سقوط حكومة الـ ٥٠٠ (في العام ٤١٠) وإعادة النظام الديموقراطي. في هذه الحقبة لعب ألسبياد دورا كبيرا في إدارة الدولة، لكن نجاحات أثينا وانتصاراتها كانت أمرا عارضا. فقد استمرت إسبارطة تعزز وضعها على نفقة العجم. كان سيرس يساعد بسعة القوات السبارطية؛ إلى ذلك، كان لزاندر قد ركز بين يديه قيادة الجمعيات الالغارشية السرية التي يقضي بواسطتها على الديموقراطية. كان موقف ألسبياد غير مستقر، لأن الأوساط الحاكمة كانت تعيقه بكل السبل. دون أن يتخذ ضدهم أي تدبير. وبعد هزيمة بسيطة، تراجعت سلطته حتى في الأوساط التي هللت له حديثا. فاضطر إلى مبارحة أثينا وعاش ردحا من الزمن في منفى تطوعي، على ضفة هلسبونت. ثم ذهب إلى فارس، بأمل دعم مليكها. لكن هذا أمر، على الأرجح بأمر من لأزندر، بقتله في الطريق.

لقد نجم عن الصراع الضاري بين الأحزاب في أثينا تقلبات في سياستها الخارجية والداخلية.فالأحداث المرتبطة بمعركة الأرغنوز، غير بعيد عن لسبوس (٤٠٦)، كانت متفردة في بابها. حوصر الأسطول الأثيني في مرفأ متلين. لملم الأثينيون آخر مصادرهم، وجهزوا ١١٠ مراكب وجندوا كل الرجال القابلين للتجنيد، بما فيهم العبيد. لكن عاصفة منعت الستراتيجين الأثينيين من مساعدة المراكب المشتتة ودفن الموتى. الأمر الذي خول الرجعيين، أعداء الستراتيجين، رفع دعوى لمقاضاة المنتصرين وإدانتهم بالموت (كان ابن بيركلس أحد المدانيين). وعند عقد الجلسة، ندم الأثنيون، حسب خنوفون، وقرروا محاكمة أولئك الذي ضللوا الشعب. طبعا، كانت هذه الأزمات تضعف الوضع المتفاقم في دولة أثينا.

وكانت المعركة التي دارت في العام ٤٠٥ قرب أغوس-بوتاموس (نهر العنزة) في هلسبونت حاسمة واستنفدت نصر الجامعة البلوبونيزية. خسر فيها الأثينيون كل أسطولهم تقريبا. ثم ظهر الأسطول البلوبنيزي، بقيادة لزندر، قرب بيريا وبدأ محاصرة الأثينيين بحرا وبرا. طلب المحافظون عقد الصلح، وشرع الديموقراطيون قانونا يدين بالموت أي اقتراح من هذا النوع. لكن الجوع والأمراض المتفاقمة أزم وضع المدينة المحاصرة، فاستسلمت أثينا في العام ٤٠٤. وقع الصلح بشروط قاسية جدا على الأثينيين الذين توجب عليهم:

١) تسليم كل أسطولهم، عدا ١٢ حارسا؛

٢) هدم التحصينات ("الجدران الطويلة")؛

٣) حل الاتحاد البحري؛

٤) دفن الديموقراطية.

تفتتت الطاقة القتالية الأثينية؛ وأفل نجم الإمبراطورية البحرية الأثينية؛ وقمعت الديموقراطية اليونانية. فالتناقضات الأساسية، الملازمة للنظام العبودي القديم، تبدت بخاصة في أثينا، التي بلغت درجة عالية من النضج. ولم تعد طبقة العبيد تجد مصلحة في دعم آثينا التي تستغلها.

مهما كانت نتيجة الحرب البلوبونيزية فاجعة، فلم تستطع قهر النظام الديموقراطي في دولة أثينا. صحيح أن سلطة أثينا انتقلت في العام ٤٠٤، بناء على طلب لزاندر، إلى أيدي لجنة الغارشية، بأعضائها الثلاثين، الملقبين "الثلاثون الطغاة"، برئاسة كرتياس، الأرستقراطي الحقود، وثرامين. حكموا الدولة بالإرهاب، بإهمال الشريعة وتنظيم حملة فعلية لطرد وملاحقة رواد الديموقراطية، وذبح أحيانا، خلف هذه الذريعة، رجالا أغنياء لاحتلال أرزاقهم. لم يبق أحد مطمئنا على حياته. وتقلص عدد سكان المدينة إلى ٣٠٠٠؛ وكان القانون الذي شرعه الطغاة يخولهم إعدام أي مديني لاينتسب إلى هذه الطغمة. لكن سرعان ماشبت النزاعات بين الطغاة. ثيرامين، الأكثر اعتدالا، شطبه كرتياس من قائمة الـ٣٠٠٠ مديني وحكمه بالموت. إن دعوى ثيرامين، يكتب خنوفون، تقدم دليلا فاضحا على التحكم والعنف الذي ساد في أيام الثلاثين (الهلينيون، ٢، ٣؛ انظر ليزياس، خطابات،١٢،١٣).

على ذلك، لم يدم النظام الألغارشي سوى ثمانية أشهر. كان الديموقراطيون

المهاجرون قد كتلوا، بزعامة ثراسبول، قواهم في طيبة، ومن هنا هاجموا أتيكيا. واحتلـــوا بالتتابع البيري، أثينا وإلوزيس، حيث حاول فلول الألغارشيين، الـــهاربين مـــن أثينـــا، أن يعتصموا. وهنا ساهمت الصراعات الداخلية التي تمزق إسبارطة في ســـقوط الطواغيـــت الثلاثين. ولقد أقلق تنصيب لزندر، الذي كان آنئذ يـــرأس مصـــائر الأثينييـــن، الأوســـاط السبارطية الحاكمة. فعمل ملك اسبارطة بوزانياس على مصالحة الديموقراطية الأثينيين مع الالغارشيين المعتدلين، بدون معرفة لزندر. وهكذا عادت الديموقراطية الأثينية فـــي العـــام ٤٠١ تماما وبأشكالها السابقة، لكنها فقدت كل أسباب وإمكانيات أن تصير القوة السياســـية المسيطرة والعامل الرئيس في توحيد اليونان.

فهرس الجزء الأول

من منشورات دار علاء الدين التاريخية

* مغامرة العقل الأولى

فراس السواح

* الحدث التوراتي

فراس السواح

* آرام دمشق وإسرائيل

فراس السواح

* الأسطورة والمعنى

فراس السواح

* بدايات الحضارة

عبد الحكيم الذنون

* سويداء سورية

مجموعة من المؤلفين

* أضواء على الثورة السورية الكبرى

عطا الله الزاقوت

* السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين

ت سالم العيسى

* صرح ومهد الحضارة السورية

مفيد عرنوق

* المصادر التاريخية في الأندلس

ت نايف أبو كرم

* أميرات سوريات حكمن روما

ت خالد عيسى

* الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى

فضل عبد الله الجثام

* بيو غرافيا حية لمشاهير الحكام في العالم

ت خالد أبة الليل

* أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة

عبد أحمد عبد الكريم السعدي

* لغز عشتار

فراس السواح

* دين الإنسان

فراس السواح

* جلجامش

فراس السواح

* التاو

فراس السواح

* الرحمن والشيطان

فراس السواح

* من هم الموحدون الدروز

جميل أبو ترابة

* العادات والتقاليد في محافظة السويداء

عطا الله الزاقوت

* سلسلة الأساطير السورية

ت مفيد عرنوق

* كليوباترا وعصرها

ت يوسف شلب الشام

* الفكر الإغريقي

ت محمد الخطيب

* تاريخ اليابان

ت يوسف شلب الشام

* الحضارة بين النعمة والنقمة

إحسان البني

* التراث من منظور مختلف

عبد الغفار نصر

* الاقتباس والجنس في التوراة

خالص مسرور

* الأسطورة في بلاد الرافدين

........................عبد الحميد محمد

* إله الشمس الحمصي

........................ت إيرينا داوود

* البلدان النامية-مشكلات العلاقات الاقتصادية

........................ت د ماجد علاء الدين

* تاريخ القانون في العراق

........................عبد الحكيم الذنون

* الديانة الفرعونية

........................ت نهاد خياطة

* دراسات حول الأكراد

........................ت عبدي حاجي

* الشركس في فجر التاريخ

........................برزج سمكوغ

* حدث ذات مرة في سورية

........................سمير عبده

* المسيحيون السوريون خلال ألفي عام

........................سمير عبده

* السريانية العربية

........................سمير عبده

* الإيديولوجية اليهودية

........................مفيد عرنوق

* تيارات الفلسفة الشرقية

........................محمد حسن

* دراسات في الفلسفة الأوروبية

........................سليمان حسن

* التشريعات البابلية

........................عبد الحكيم الذنون

* العولمة والتبادل الإعلامي

........................د صابر فلحوط

* من أنساب العرب العاربة

........................صالح هواش المسلط

* أساطير في أصل النار

........................ت يوسف شلب الشام

* هل هبط آدم في القفقاس

........................محمد عمر بغداي

* الحضارات القديمة

........................ت نسيم واكيم اليازجي

* الجنس في العالم القديم

........................ت فائق دحدوح

* الديانة الزرادشتية

........................نوري إسماعيل

* شريعة حمورابي

........................ت أسامة سراس

* طقوس الجنس المقدس

........................ت نهاد خياطة

* موسوعة تاريخ القفقاس والجركس

........................محمد جمال صادق ابه زاو

* معجم الأساطير

........................ت حنا عبود

* صراع بين الحرية والاستبداد

........................فارس الحناوي

* تجارة الأسلحة في الخليج العربي

........................رحيم كاظم محمد الهاشمي

* الإثنولوجيا

........................محمد الخطيب

* الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية

........................ت سالم العيسى

* دراسات في المكتبة العربية التراثية

........................عادل فريجات

* الخيول الأصيلة في الصحراء العربية

........................أحمد غسان سبانو

* المعراج والرمز الصوفي

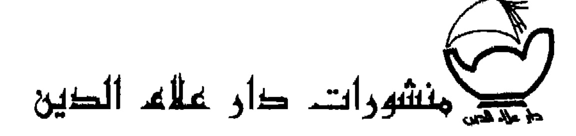
........................د. نذير العظمة

إشراف: ف. دياكوف س. كوفاليف

الحضارات القديمة

الجزء الثاني

ترجمة نسيم واكيم اليازجي



دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ - ١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي والإخراج الفني: سلام أبوكرم.

التدقيـــق اللغوي الأستـــاذ: صالح جادالله شقير.

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨

هاتف:- ٥٦١٧٠٧١ فاكس : ٥٦١٣٢٤١ -

تقـــديم

في الجزء الثاني من تاريخ الحضارات القديمـــة نســتمر بإطلالتنـا علـى المرابـع البكر لحضارات الأقوام والشعوب القديمة والتي كان لهـا الـدور البـارز في تشـكيل الخارطة الحضارية.. حيث تناول الجزء الأول من هذا الكتـاب الموضوعـات التاليـة: المجتمع البدائي، القطيع البدائي، النظام المشاعي البدائي وتفككـه وتشـكل الطبقـات والدولة، حضارات الشرق: سومر، أكاد، بـابل، الحضـارة المصريـة، الإمبراطوريـة الحثية، فينيقيا، فلسـطين، آشـور، إيـران، الهنـد، الصـين، الاقتصـاد العبـودي والحركات الديمقراطية، الحـروب والتحالفـات.. إلخ.

ويأتي هذا الجزء ليكمل البحث في معارج هـذه الحضـارات مـروراً بالحضـارة اليونانية، والهيلينية، والرومانية، والصراع بين روما وقرطاجة وأبحـاث أخـرى تتعلـق بنفس الموضوع وتغنيـه.

وقد راعينا الاستمرار بـترقيم الصفحـات متسلسـلة ومرتبطـة بـالجزء الأول، لإيماننا بوحدة الموضوعات ووحدة الكتـاب.

الفصل الثالث والثلاثون

الحضارة اليونانية في القرنين الخامس والرابع ق.م

مدرسة، مسرح، فنون تشكيلية

"...نحن ملزمون، في الفلسفة وفي كل المجالات الأخرى، أن نرجع باستمرار إلى منتوج هذا الشعب الصغير، الذي أمنت عبقريته ونشاطه الشامل في تاريخ ارتقاء البشرية مكانا ليس لأي شعب آخر أن يدعيه[٨]"، يكتب أنجلز. وفي الحق، وحتى الآن، لم نستطع الانقطاع، في بعض النواحي، عن الإفادة من الانجازات الهللينية: إن نقاشينا ومعمارينا يقبسون نماذج أعمالهم من اليونان الأقدمين. ومؤسسو الماركسية اللينينية، الذين أولوا عنايتهم بعمق لأعمال الفلاسفة، الديالكتيين والماديين اليونان، عارضوا غالبا "جبابرة الفكر" الأسبقين بالفلاسفة البورجوازيين.

إن الديموقراطية العبودية كانت التربة التي بعثت كنوز الحضارة الهللينية، التي قبست أمداءها المتميزة. فحياة أثينا الثقافية والسياسية، الأبعد عن أن تكون قمة حلقة مغلقة للصفوة، كانت تهتم إلى مدى بعيد بالشرائح الشعبية. على هذا، كان أغلب الناس الأحرار يعيشون من تعب الرقيق. وطبقات العبيد، خالقي القاعدة المادية للتطور الثقافي، كانت بذاتها محرومة من كل خيراتها. والقوى المبدعة للديموقراطية العبودية لم تكن متجهة نحو المكتشفات العلمية وابتكار أدوات ووسائل إنتاج جديدة؛ بل كان همها الوحيد تقدم الفنون والفكر المجرد.

إن تربية وتعليم النشء كانا يلعبان دورا هاما في حياة اليونان الثقافية. وفي أثينا والحاضرات الديموقراطية الأخرى، كان الأولاد يربون في البيت حتى الربيع السابع؛

---

[٨] – ف.أنجلز. ديالكتيك الطبيعة، ص٥٢.

وحتى الربيع الرابع عشر، كان ثمة مدارس خاصة، يتلقون فيها المعرفة الأولية المتوسطة بأجر متواضع: حيث يتعلمون القراءة، الكتابة والحساب، ويتلون عن ظهر قلب مقاطع أدبية، أكثرها من هوميرس. ويبدؤون بالموسيقى. كان العلم الابتدائي واسع الانتشار. وماتزال موجودة الوسائل اليدوية لذلك العصر، لوحات مقاطع لتمارين القراءة. وفي القرن الخامس ق.م. كان سكان أثينا كلهم يعرفون القراءة والكتابة.

يتم المراهقون من ١٥-١٨عاما، في كليات يمولها أفراد الدولة. ويمارسون الرياضة وألعاب القوى. وفي المعاهد الرياضية، يمارس الفتيان تدريبا عسكريا، لكي يتيسر لأغلبهم مكان بين المواطنين المجندين. لكن ليس الإعداد العسكري هو المهيمن في تربيتهم، بخاصة في أيام بيركلس. وفضلا عن ملاعب الرياضة وألعاب القوى، كانوا يهتمون بالتطور الروحي، الأدبي والفني لدى طلابهم، وكانت كل حياة المواطنين الأثينيين تخضع لتأثير النشاطات التربوية المنظمة. وليس سكان أثينا فقط، بل كل الناس الأحرار تقريبا يقضون وقت راحتهم في الأمكنة العامة: تحت السرادق، في الشوارع، حيث يتحدث الفلاسفة والخطباء وتدور مناقشات حيوية، وفي الجمعية الوطنية، حيث تخطب الشخصيات. عشرات آلاف المشاهدين يلتئمون في المسارح، التي كانت أيضا مدرسة كبرى للفن والسياسة.

فمنذ فجر تطوره الثقافي، برهن الشعب اليوناني عن موهبته بإبداع ملاحم هوميروس. وفي حوالي نهاية القرن الثامن أو بداية القرن السبع، ظهر في بيوتيا هزيود، أول شاعر وصلنا اسمه وشعره. ومع الاحتفاظ بشكل الملحمة الشعبية، عكست أعمال ويوميات ونسب الآلهة لهزيود تفرد الكاتب وأهدافه الاجتماعية والسياسية، وهي أهداف المزارعين. ودلل في الوقت ذاته أن تطلعات أخرى، غريبة عنه، غزت هيلاد: البحث عن السعادة والثروة في الرحلات البحرية الطويلة، والتماس مع البحر الصاخب.

في بداية القرن السابع، تقريبا في حياة هزيود، عرفت هيلاد وجوّدت القصيدة الغنائية التي تغني الأحاسيس الودية. وفي القرنين السابع والسادس، أنجبت الحواضر المتطورة: ميغار، متلين في جزيرة لسبوس، شيو، أثينا، بل ثيبس وإسبارطة، الأكثر تخلفا، عشرات الشعراء الموهوبين. ولقد اتسق هذا التفتح السريع للآداب والكلمة الحلوة مع حقبة الانطلاق الاجتماعية، السياسية والاقتصادية في هيلاد، حقبة تشكل الحواضر العبودية. وقد

كان عمل بعض الشعراء الغنائيين: أرشلوك، سولون ثغوني، تربـــاندر، تـــيرتي، إلـــخ.، صدى النضال الجتماعي والسياسي؛ وقد أغنى آخرون: شافو، أنكريـــون، الحـــب وفرحـــة الحياة. كما أعاد الشعراء الغنائيون طريقة صياغة الشعر وأبدعوا تدابير عديـــدة، اتبعـــها شعراء من أكثر البلدان. وكان عمل الغنائيين اليونان يستلهم القصيدة الشـــعبية والأغنيـــات الفولكلورية.

وقد انبثق عن حياة الشعب والفولكلور أيضا إنجاز آخر للثقافـــة الهللينيـــة: المســـرح والأعمال الدرامية. كان المسرح، المولود الأثيني، في القرن السادس ق.م، ينهل من الأعياد الريفية على مجد ديونيزيوس، الإله المعبود، فتعقد الرقصات والأغاني احتفاء مجيء هـــذا الإلهـــ الماثل في جمع من التيوس؛ إن هذا انعكاس للطوطمية التي نلقاها فـــي احتفـــالات دينية يونانية أخرى.

كان المغنون المتزيون بجلود التيوس ينفذون "تراجيديات"، أي "أغاني تيوس"، تتحدث عن أهواء ومنازع ديونيزوس؛ كان الغناء يترافق مع الحركات، والإيمـــاءات، والرقـــص. وشيئا فشيئا أخذت هذه الأغاني شكلا محددا، أعطاها الشاعر والمغني أريون، في القـــرن السابع، شكلها النهائي،وعرفت باسم "قصائد المديح". وكان ثمة المغني الأول الـــذي ينفـــذ قصيدة المدح، وترد عليه الجوقة. كان هذا الحوار الشكل الأول للتمثيل المسرحي. وفيمـــا بعد، في العام ٥٣٠، أدخل تسبيس،أول كاتب دراماتيكي، الممثل. وهكذا ولد جنـــس أدبـــي جديد، ينفذه عدة أشخاص على مرأى مشاهدين وورث اسم تراجيديـــا. فوجـــدت الجوقـــة ودخلت المسرح اليوناني بصفة شخصية.

ظهر المسرح في الأعياد الريفية؛ ثم قدمت مجموعات ملتزمة ومنتظمة مسرحيات في المدينة حيث أقيم للمشاهدين منصة خشبية، كبرت لتصير أخيرا صرحا منيعا شبه الســـيرك المعاصر. ومنذ القرن الرابع ق.م. بنيت المسارح بالحجارة. وكانت منشآت آبدة، واســـعة في الغالب، معدة لاستقبال عشرات ألوف المشاهدين. مدارج نصف دائريـــة، قائمـــة فـــي منحدر هضبة، مقطعة بمحاشي شعاعية.

كانت الصفوف السفلى أي الأمامية، المخصصة للوجهاء، فخمة الصنع. وفـــي الأســـفل، ترك فناء دائري، التخت، لتجول الجوقة، وخلف التخت، ثمة مشـــهد، منصـــة ذات مداخـــل، وديكورات، وآلية معقدة لتقديم الأعمال غير الطبيعية: انطلاق الأشخاص،حلول الآلهة، وغيرها.

كانت التمثيليات تعرض عدة مرات في العام، في أثناء الأعياد الشعبية، وتستمر لأيام عديدة، في أوقات متناوبة. تعرض كل مرة عشر مسرحيات. ويستمر العرض من الصبح حتى مبيت الشمس. كان هذا عبارة عن منافسة. لكل مجموعة من المسرحيات، يختار حكم محلف يميز المنتصر والجائزة: إكليل.

كان الشعراء الأولون التراجيديون لايكتبون إلا مناجاة من ممثل واحد واجوبة الجوقة. ثم وجد شكل آخر: الحوار المزدوج بلعبة الممثل. كان مضمون المسرحية أدبياً واسع المدى، في أي موضوع. وقد ظهرت في القرنين الخامس والرابع آلاف التراجيديات والملاهي تعالج بتوسع قضايا الحرية ومآل الحياة البشرية؛ والدولة والواجبات الحضارية؛ الحب، الواجب الأسري، حق السعادة الشخصية وسوى ذلك.

لانعرف سوى عدداً صغيراً من اعمال ثلاثة تراجيديين كبار في القرن الخامس: أخيل، سوفوكل وأوربيد؛ وأعمال أخرى كثيرة لم تصلنا سوى مجزأة مبعثرة. كتب أخيل (والي ٥٢٥-٤٥٦) قرابة ٩٠ تراجيديا لم تحفظ منها سوى تسع. إحداها، الفرس، وهي أسطورة برومتي، الجبار الجسور الذي سلب النار من زيوس ليعطيها للناس والذي ربط من اجل هذا إلى صخرة في القفقاس. وقد أحييت ثلاثية أورستيا شخوص ملحمة هوميروس؛ عبر الصراع الدامي الذي يخوضونه، يدل أخيل إلى الشؤم الذي يهيمن على الناس وأمامه الآلهة بالذات عاجزون؛ يجسد التشاؤم الفكرة الغامضة حول قوة الصعود الاجتماعي الذي لامهرب منه ولامفر منه ولامقاوم له.

في أعمال أخيل ولأول مرة، يتدخل ممثلان يأخذان أدوار الذكور والإناث. وفي أيام أخيل كان تمثيل الممثلين وفاقيا. وبعدئذ، ادخل سوفوكل وأوربيد ممثلا ثالثا جعلت تمثيل المشاهد أكثر واقعية. كانا يعيشان في "قرن بيركلس"، الذي كان يتميز بازدهار كل فروع الحضارة الأثينية وبانطلاقة الحياة الاجماعية والسياسية. وأبدع سوفوكل (حوالي ٤٩٦-٤٠٦ أكثر من ١٠٠ تراجيديا حفظت منها سبع بشكل جيد أشهرها أوديب ملكا وأنتيغون). الموضوع المهيمن في هذه التراجيديات هو الصراع بين الفرد والمجتمع. الخسارة الحتمية لمن يخرق القانون الاجتماعي. استبعد الآلهة، وصار الناس، بطباعهم ومنازعهم هم الذين يهمون سوفولكل: "ثمة قوى كثيرة عاتية في العالم، لكن ليس في الطبيعة أقوى من الإنسان"، من أناشيد الجوقة في أنتيغون. وشخوصها، المقدمون بشرا من لحم ودم، يشدون التعاطف الحار من عشرات آلاف المشاهدين.

وأوربيد (حوالي ٤٨٠-٤٠٦)، من أتراب سوفوكل، ينهل موضوعه من الحياة الحقيقية، شديدة التنوع، بالغة الحساسية والفعل والتعبير. ومثل سوفوكل، يقبس موضوعاته من الخرافات الهللينية القديمة. لكن أبطالها، معالجون بحيوية كاملة، يعيشون هموم حياة أثينا في زمن بيركلس. هكذا، في "المبتهلون"، يلقي ، الملك الخرافي تيزي،خطاباً في أفضليات الديموقراطية ومكاسبها؛ وفي "ميدي"، يثير الشاعر مسألة الحقوق الإنسانية للمرأة. وفي ١٨ تراجيديا لأوربيد وصلتنا سالمة، نعيش مع الواقع الحي مجسداً بفن مسرحي.

وجنس مسرحي آخر، الملهاة، هو أيضاً أصيل في أثينا. ومثل التراجيديا، ولد في ديونزي؛ كوميديا (من كلمة *comos*) تعني تقريباً "أغنية فلاح جذل أو ثمل". كانت جوقات فرحة تغني مقاطع هجائية وفاحشة ضد أشخاص رفيعي المقام إلى هذا الحد أو ذاك. كان كتاب الملهاة يستخدمون نفس شكل الحوار الذي ورد في التراجيديا الأولى، لكن المضمون الضاحك والهجائي-الساخر تطلب نموذجاً جديداً من المشاهد والأعمال الأدبية. وفي القرنين الخامس والرابع، وجد في أتيكيا عشرات الشعراء "الهازلين"، كان العديد منهم شعراء عباقرة. لم تصلنا أعمالهم إلا قطعاً مبددة، بعض هذه الأجزاء طويل؛ لغة واحدة (١١على ٤٤) مسرحيات رائعة لأرستوفان، الذي عاش في نهاية القرن الخامس وبداية الرابع، سليمة كلها. عكست هذه المسرحيات بأسلوب واقعي هازل الحياة الاجتماعية والسياسية لأثينا لمدة تقارب الأربعين عاما. وقد سخرت بعناد من رجالات سياسية وقادة عسكريين كبار، مثل كليون في "الفرسان"، وشعراء (أوربيد في "الضفادع")، وفلاسفة (سقراط في "الغيوم")، وأحزاب وبرامج سياسية؛ حتى الشعب، سيد أثينا، يبدو هنا في شكل عجوز ممسوس ومضحك. وتحفظ كوميديات أرستوفان الرقة مع الفلكلور الذي بعثها، وتعكس، فيما تعكس، أسلوب الحياة وهموم الفلاحين ومصالحهم التي أهملتها الحرب بفظاظة. وأعمال أخرى ("الأشارنيون"[٩] "الصلح"، "الفرسان") هي احتجاج على الولع والافتتان بالحرب الذي يعبر عنه المدينون؛ كتبت بلغة الشعب العذبة ولاينقصها السفه والسخرية الماجنة. وملحمة هوميرية تلهب المسرح أثناء التمثيل، لكن العوام لم يروا في هذا الهزل سوى متعة قدمت بعمل فني فقط: فوراء صيغة هازئة قارصة، تطرح الكوميديات قضايا كبيرة ثقافية، اجتماعية وسياسية.

---

٩ - كوميديا لأرستوفان يحول فيها الشاعر بسخرية أنصار الحرب ضد اسبارطة.

ولقد بلغت فنون هلاد التشكيلية في هذه الفترة "الكلاسيكية" (القرنين الخامس والرابـع) مستوى مدهشا. فثمة منحوتات صارت نماذج للأجيال القادمة. وحوالي نهاية القرن السادس أبدعت في أثينا مجموعة *Tyramactones*؛ في أثناء اجتياح خرخس أخـذت إلـى فـارس وانتجها مرة اخرى في بداية القرن الخامس كرتياس ونزيوتـس. إنـها المنحوتـة، التـي صورت مأثرة هرموديس وأرستوجتون[10]، تجسد فكرة الحرية المدنيـة. ويعكـس عمـل ميرون العبقري الحياة في كل تنوعها: تمثل تماثيله بواقعية تامة مشاهد ريفية (مثلا، بقـرة تخور)، والأحاسيس الأنفذ (أثينا ومرسياس)؛ ويمثل نصب *son Discobale* مصارعا شـابا منتعشا بانطلاقة متينة، بحيث تبرز كل عضلاته، حية ومرنة. بعكس تماثيل البلوبونـيزي بولكليت، مثل *le Diadumene* (الذي يتشح بعصابة، علامة الظفر) أو الـ*Amazone*، وهما منحوتتان ساكنتان، بلا حياة، وفيدياس، صديق بيركلس، أبدع أعمالا فذة: التمثال العمـلاق زوس في أولمبي، وتماثيل أثينا بروماشوس وأثينا برثنوس في أثينا. كان فيجياس مدرسـة، وصار تلامذته من بعده فنانين موهوبين، نحتوا بإشرافه إفريزات الباريتيون، بطول ٢٧٦م.

إن هيلاد وبخاصة أتيكيا تمتاز أيضا بإتقان فن العمارة، حيث أُبدعت صروح واسـعة عمومية. فالمعابد، التي بنيت لغايات سياسية فضلا عن أهداف دينيـة كـانت المؤسسـات الأضخم في اليونان. وآبدة الأكروبول، التي أبدعت في أيام بيركلس بـإزاميل فريـق مـن الفنانين العباقرة، هي الأثر المعماري الهلليني الأبرز. والمعبد المشيد في جزيـرة إجيـن تمجيدا وتخليدا للنصر على الفرس، ومعبد زيوس ومعبد بوزدونا تشهد حتى أيامنـا علـى عظمة فن العمارة الإغريقي. إن لليونان أساليبها الخاصة التي صارت فيما بعـد الجـزء المتمم لهذا الفن. أهم هذه الأساليب وأقدمها هو مايسمى الأسلوب الدوري، المتميز ببسـاطة وكثافة وقور، تلمس في أبعاد وديكور الأعمدة وفي نسب الصرح العامة. وبعد هذا، ظـهر في القرنين السادس والخامس، في مدن إيونيا التجارية الأسـلوب الأيونـي ذو الأعمـدة الأرشق والمتوجة بتيجان أنيقة محلزنة. والباريتون مزيج من الأسلوبين الدوري والأيونـي. وفي القرن الرابع، هل الأسلوب الكورنثـي، الأكـثر تصنعـا، المتمـيز بكـثرة وغنـى المقرنصات. إن شواطيء الأبيض المتوسط والأسود تغص بمخلفات المعـابد المرمريـة، المبنية وفق هذه الأساليب الثلاثة.

---

[10] – تآمر ضد الطاغية هبياس.

الفلسفة والعلم

لايقل دور اليونان الأسبقين في تطور الفلسفة والعلم. الفلسفة (باليونانية، حب الحكمة)، وفي المعنى الذي ننسبه نحن الآن للكلمة، هو من مواليد هيلاد. فمواطنو الحاضرات المتطورة في أيونيا استوعبوا مبكرا التراث الثقافي للشرق. كان هذا التراث يشمل الفكرة العلمية التي تجهد في تعليل ظاهرات الطبيعة؛ ففي الشرق، خلق الصراع الطبقي شروط موقف ناقد تجاه المعتقدات التي تغرسها الشريحة الحاكمة في المجتمع: الكهنةوالنبلاء. كانت بابل ومصر تمتازان بتقدم واضح في الرياضيات، والفلك والعلوم الطبيعية. وعندما حل في أيونيا محل نبلاء الدم تجار جسورون مغامرون، رسخوا علاقاتهم التجارية بفعل الاستعمار، وتعززت وثبة فكرية جريئة. وكانت ميلين، حاضرة إيونيا الرئيسة، الوطن الأول لفيلسوف إغريقي هو ثالس *THALES* (حوالي العام ٦٠٠)، أبو المفهوم المادي العفوي. وكواحد من أبناء أسرة من التجار الفطنين، أدرك كل تنوع الطبيعة والحياة كموضوعة واحدة تسير ذاتها؛ ورأى، كل ماهو موجود ليس أبدا من عمل الإله، بل يصدر عفويا عن عنصر أولي هو الماء. وانشغل أيضا بالأرصاد الجوية والفلك، واشتهر بحدسه في كسوف الشمس في ٢٨أيار٥٨٥. إن ثالس هذا هو مؤسس الفلسفة المادية.

تلاميذه ومتمموه، المنتسبون إلى مدرسة ميليت، يطورون ويعمقون نظريته الفلسفية والعلمية. ويؤكد أنكسمين *Anoximen* أن الطبيعة الحية والميتة أيضا، تطورت انطلاقا من الهواء، الذي ولد تكاثفه الأجسام الصلبة والسائلة، بينما ظهرت النار بعد تخلخل الهواء. ويعلمنا أنكسماندر *Anoximandre* أن المادة، التي يشير إليها بتعبير "لانهائي"، أساس العالم: ويفترض أنها أعطت الحياة للكائنات الحية. وكون "الإنسان نتيجة أولية للحيوانات الأخرى"، استبد، على مستوى ما، النظرية التطورية لدارون.

لكن التطور الباهر للمبادئ المادية في مدرسة ميليت، الناجم عن الصياغة الثورية للحاضرة العبودية، اصطدم بمقاومة النبالة المندحرة. وترجمت هذه المقاومة بظهور الفلسفة المثالية، سليلة المجتمع المتستر للنبالة الرجعية التي كانت تصارع حركة الشعب والنظام الديموقراطي المتنامي.

كان فيثاغورث (النصف الثاني من القرن السادس ق.م) أب الفلسفة المثالية. هرب من جزيرة ساموس بعد انتصار الشعب الذي جلب إلى السلطة المستبد بولكرات، فوجد ملاذا

له في كنف النبلاء حكام كروتون، الجزيرة الواقعة في جنوب إيطاليا. وفي كروتون، حينما استبدل الشعب الثائر النظام الأرستقراطي النظام الديموقراطي، شكل فيثاغورث مع تلامذته ومتابعيه جمعية سرية انتشرت في كل هيلاد ووضعت هدفاً لها النضال بدون رحمة ضد الديموقراطية.

لم تحفظ أعمال فيثاغورث. ومن الجدير بالذكر أن مواهبه في تطوير الرياضيات أمر لايقبل الجدل. إنما هو نفسه وأتباعه بخاصة، وضعوا للعالم مفهوما مثاليا. انطلاقا من أن كل شيء يمكن أن يقاس ويعبر عنه بالأرقام، اعتبروا العدد الجوهر المقدس للكون. واحد، اثنان، ثلاثة، سبع، عشر صارت، عندهم، القوى الغامضة والغيبية التي تموسق العالم، وهي وراء انسجامه واتساقه.

كان الفيثاغورثيون يظنون أن نظريتهم للأرستقراطية فقط، فهي وحدها من يفهمها ويعالجها وهي التي تعينهم على حكم جماهير الناس.

لقد انعكس هذا الصراع بين المفهومين المادي والمثالي في النهج الفلسفي لعبقرية هراكليت ابن إيفيز[11] (نهاية القرن السادس وبداية الخامس ق.م). يضع هراكليت أسس المفهوم الجدلي للعالم. لم يصلنا شيء من أعماله أبدا، عدا مقاطع قصيرة معدودة وأحكام مبعثرة. على ذلك، وحسب هراكليت، كل مافي الوجود في حركة وتشكل. ومن مقولاته: "الكل يسيل"؛ "لاأحد يستحم مرتين في ذات النهر"؛ "من الضروري أن نعرف أن الصراع هو الصح والحكمة، وأن الكل يولد في الصراع حسب قانون الحتمية غير القابل للتفادم". ولقد قوم كلاسيكيو الماركسية نظريته عاليا. يعلق لينين على مقولته "العالم، وحدة الكل، لم يخلقه إله ولابشر، بل كان، وسيكون نارا لاهبة أبدا تتقد وتنطفيء حسب قوانين.." فيقول: "استهلال رائع للمبادئ الجدلية[12]".

إنما بلغ الفكر العلمي والفلسفي اليوناني ذروته مع ازدهار الديموقراطية العبودية، في أعمال ديموقريط العديدة، التي لانملك منها هي الأخرى سوى أجزاء متناثرة. لقد ساهم

---

[11] – مدينة قديمة من أيونيا، على شط بحر إيجة. كانت مركزا كبيرا ماليا وتجاريا منذ القرن السادس ق.م. كان فيها معبد لأرتمس معتبرا واحدة من أعاجيب الدنيا السبع، حرقه أروسترات؛ بنى القديس بولص كنيسة هذه المدينة في العام ٥٤م، وقد أدان المجمع الديني في العام ٤٣١م. نستوريس–المترجم.

[12] – لينين، "الدفاتر الفلسفية"، المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٥، ص٢٧١.

ديموكريت (حوالي ٤٦٠-٣٧٠) بتقدم كل فروع المعرفة لزمنه: كتب مقالات في الفلك (أسباب الظاهرات السماوية)، في الفيزياء (أسباب الظاهرات الجوية) أسباب الظاهرات الأرضية، وغيرها)، في البيولوجيا، في الرياضيات (حول تماس الدائرة والكرة، حول الخطوط والأجسام غير المعقولة، إلخ)، في الجغرافيا، والفن (الإيقاعات والهرموني، والقصيدة، وسواها)؛ ونحن مدينون له بأعمال في التاريخ، في الزراعة، والفن العسكري. وبناء على معارفه الموسوعية وضع نظريته الفلسفية: كل الموجودات تتألف من جزيئات صلبة وغير قابلة للقسمة ("الذرات" باليونانية). وتنوع شكل الذرات وتوضعها يشترط تنوع الكون وتباينه؛ والكائنات الحية، ومنها الإنسان و"روحه" تتألف من ذرات، هي الأخرى. لكن إلى جانب عدد لاينتهي من الذرات، ثمة فراغ بدون حدود، العدم، الذي يمكن الذرات من الحركة المستمرة، مبدأ كل حركات وتبدلات الكون. والطبيعة كلها، والمشاعر، والحواس، وأفكار الإنسان تنجم أيضاً من حركات الذرات. وأيضاً طور ديموقريت النظرية المادية المطابقة لفكرِه، لكنه صب جهده في تعليل مجمل الظاهرات بأفعال آلية، فكان مادياً آلياً.

فضلا عن هذا، اهتم ديموقريط بفاعلية بقضايا الحياة الاجتماعية والسياسية، كما تثبت عناوين مؤلفاته. ففي أعماله التاريخية، كشف أصل المجتمع المتحضر في زمانه. نبذ بصرامة دعوى "العصر الذهبي". في الماضي البعيد، كان الناس يعيشون شظف الحياة الحيوانية؛ علمهم البؤس أن يعيشوا جماعة، وبالتدريج، خلقوا شروطا جيدة؛ كان أستاذهم الآخر هو الطبيعة التي يحاول الناس نسخ ظاهرتها، وتقليدها في حياتهم اليومية. وطرح ديموقريط أيضا قضايا تتعلق بحياة الدولة وبنيتها.

ولقد ضمه هذا الوجه الفاعل الحي إلى تيار واسع علمي وفلسفي لهيلاد في النصف الثاني من القرن الخامس، كان يدرس قبل كل شيء الحياة الاجتماعية والسياسية. سمي ممثلو هذا التيار *Sophistes* (الحكماء) الذي حوله خصومهم السياسيون والعلميون إلى لقب ساخر: " *le sohisti queurs* أي السفسطائيون-المتحذلقون". وبينما كان الفلاسفة الماديون منكبين على إجلاء حياة الطبيعة ورد فعلها ورد فعل الإنسان، طرح الحكماء أسس العلوم الاجتماعية. كانت أثينا النصف الثاني من القرن الخامس، التي كانت تتوافد إليها مختلف حاضرات هيلاد، حقل نشاطهم الأول. كتب بروتاغروس ابن أبدير *d'Abdere* مؤلفات

"أصل النظام السياسي"، "بنية الحياة (الاجتماعية) في العهد القديم" و *ses lois thouroi* هي النموذج الأولي للنظام الاجتماعي والسياسي المثالي من وجهة نظر الديموقراطية العبودية، وحسب بروتاغروس، النظام الاجتماعي مبني على قانون هو نفسه للجميع، لأن كل الناس متساوون من حيث طبيعتهم. فمن البديهي أن تثير لديه مشروعية العبودية ووجود الآلهة الشكوك "أنا لست جديرا أن أقول إن كان (الآلهة) موجودين أم لا"، يقول بحذر.

وقد طور وتابع سوفيست عديدون أفكار بروتاغروس. فدرسوا بخاصة قضية الدولة. واعتبر بعضهم (برودكوس، مثلا) الدولة قوة عظيمة إيجابية بينما أعلنها آخرون (أنتيفون) مصدر كل الآلام ومصيبة الحياة البشرية. وهكذا، نادى أنتيفون أن الحياة الاجتماعية يجب أن لاتكون مشروطة باستبدادية الدولة، بل بوحدة الوضع الأخلاقي والسياسي للقلب والعقل. وهكذا وضع بعض السوفيست نظرية ظهور الدولة على قاعدة اتفاق بين مؤسسي أول دولة. وفيما بعد، بخاصة في القرن الثامن عشر (روسو)، أخذت هذه النظرية مداها الأوسع.

بالتأكيد ليس صدفة أبدا أن يتزامن نشاط السوفيست مع ذروة الديموقراطية العبودية في أثينا. لم يكتف السوفيست بكتابة أعمالهم في هدوء غرفة العمل، إن صح التعبير؛ بل تدخلوا كخطباء فاعلين ودعاة حيويين لمبادئهم. ولقد اندمجت هذه النظرية الجديدة في كل مجالات الحياة الثقافية لهيلاد. كما عكس مؤرخا العصر الكبيران، هيرودوت وثوسيديد عكسا رائعا في أعمالهم نظريات السوفيست؛ إن تراجيديات أوربيد (ارجع إلى ماورد أعلاه) تزخر بأفكار هؤلاء الحكماء التي، بواسطة المسرح، تغلغلت في أوساط الشعب. والاستحقاق الأوسع يخص السوفيست في خلق فن الخطابة وإعداد طرق المناقشة والجدال، التي تمكن من إثبات الطروحات ودحض ما لدى الخصوم. هكذا طرحت أسس المنطق، العلم الذي يعلمنا التفكير الصحيح انطلاقا من الأطروحات المحددة التي تواجهنا.

يصل بعض السوفيست، في نقدهم اللاذع لكل ما قبله الزمن بعامة، إلى نشر مذهب تشاؤمي كامل، إلى إنكار الضوابط الأخلاقية وتبرير المذهب الفردي بمغالاة عدائية، الأمر الذي شد إليهم كره الأوساط المعادية للديموقراطية، الأولغارشية. استخدم منظروهم طرق وأساليب السوفيست لمصارعتها بسلاحها. كان سقراط واحدا من ألد أعداء السوفيست، الذي لم يترك كتابا مكتوبا وكان متحمسا لمبدأ أفلاطون، تلميذه.

اتهم سقراط السوفيست بالشكلية الجوفاء، بالافتقار للقناعات السياسية والعلمية، وعدم السعي سوى إلى هدف واحد هو المماحكة والنصر الشفهي على نقيضهم.

هؤلاء ليسوا حكماء يقول سقراط: إنهم يتاجرون بالحكمة، وليس لهم إلا إفساد تلامذتهم بالارتياب. وهو الأخر، شكك بإمكانية معرفة العالم الخارجي ("أنا اعرف أنني لاأعرف شيئا")، وطالب بمعرفة الذات ("اعرف نفسك بنفسك"). ويؤكد سقراط أن المناقب السامية للمواطن، الضرورية لحكم الدولة، تؤخذ بالتربية والتعليم: فليس إذن كل مواطن يقدر أن يشترك بإدارة الدولة، بل فقط ذاك الذي تلقى إعدادا وافيا بالغرض. إن هذه العينة الأخيرة من المواطنين، كانت بالفعل مهملة لدى الديموقراطية الأثينية، الـ"صفوة" – الأرستقراطية– يجب، بكل حمية ونشاط، أن يصلحوا أنفسهم، أن يتحدوا ويرسخوا مواقعهم السياسية في المجتمع. وفي العام ٣٩٩، في أثناء حملة متطرفة من الصراع السياسي والاجتماعي، ادين سقراط بالموت كعدو لدود للديموقراطية: واتهم حتى، وليس بدون أساس، بتخريب الشباب سياسيا.

تشهد فلسفته على أزمة الديموقراطية العبودية في أثينا. تفاقمت هذه الأزمة بعد خسائر قتالية وتدهور القدرة العسكرية البحرية لأثينا في نهاية حرب البلوبونيز. يومئذ انفصلت شريحة الأغنياء مالكي العبيد، التي كانت تمارس نفوذا ملحوظا على الحياة الاجتماعية، السياسية والثقافية في البلاد، انفصلت عن الجمهرة الشعبية. وفي تلك الحقبة ازدهرت الفلسفة المثالية، تاركة وزنا ثقيلا على الفلسفة والعلم الماديين. ودخل الصراع بين الماديةوالمثالية مرحلة جديدة. وابتكر غني نبيل أثيني، أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧)، نهجا ناجزا للفلسفة المثالية، التي تعتبر حتى اليوم أساسا ونموذجا للفلاسفة المثاليين الرجعيين. أدخل أفلاطون إلى الفلسفة مفهوما بل "فكرا". ادعى أن العالم الأرضي غير واقعي، وهو ليس، سوى منعكس شاحب، ظل عالم واقعي، عالم الـ"أفكار"، لايعرفه الإنسان إلا معرفة تقريبية. عالم الأفكار ليس ماديا: ليس ثمة بيوت، موائد، ولاأجسام بشرية، ولا جبال، ولابحار، ولاأي شيء ملموس، بل فقط "أفكار"، جوهر غير مادي لكل الموجود المادي. يشبه أفلاطون الإنسانية بسجين في كهف، وجهه إلى الجدار، فلا يرى سوى ظلال العالم الخارجي الذي أنارته الشمس.

وحسب أفلاطون، فقط الناس الكاملون من يقدر أن يدنو من الحقيقة. فيجب إذن

خلق مجتمع يحمي النخبة، إذن، ضرورة تربية وعلم الأخيار، الذين هم الحكماء. وهم الذين يجب أن يكونوا حكماء") وأن يوجهوا كل الحياة الاجتماعية الخاصة للمواطنين بواسطة منفذين خاضعين لإرادتهم، يسميهم أفلاطون "محاربين". إن المحاربين، الذين يربون تربية عسكرية جادة، خليقون أن يعيشوا في نظام جماعي مثالي. يستثنى الحكماء والمحاربون من أي عوز مادي. والجمهرة الكادحة التي تخلق كل المناهل المادية في الدولة؛ وهي، الرازحة تحت وزر الهموم والاهتمامات الحياتية، يجب أن تكون بعيدة عن الحكم والحكومة.

إن دولة أفلاطون "المثالية" هذه المعارضة كليا لكل الانجازات الديموقراطية الهللينية؛ المرتكزة على سيطرة أقلية أرستقراطية مقاتلة، تذكر بالطبقة الحاكمة في إسبارطة. فمن الطبيعي، أن يحدب أفلاطون، العدو السياسي لديموقراطية أثينا، على السبارطيين ويؤيدهم. ولقد ارتبطت الفلسفة المثالية منذ ظهورها، بالإيدولوجيا الرجعية، المعادية للشعب والعلم.

وأرسطو (٣٨٤-٣٢٢)، تلميذ أفلاطون، استوعب، مثل ديموكريت، كل مجالات المعرفة. لكنه، بعكس هذا الأخير، كان ميالا إلى المثالية، وهكذا، يعكس أزمة حضارة العبودية، المشار إليها أعلاه. تتجلى جدارة أرسطو في أنه منهج المعارف العلمية. وبتبحر نابغي وازن المعطيات المحققة في مختلف المجالات وأسس عدة فروع علمية. وسمى "*physique*" العلم الذي حافظ على هذا الاسم حتى اليوم؛ وهو أيضا الذي كتب أول "*botanique*"، علم النباتات (عشب: *botane*)؛ ووضع أول المقولات في قوانين الفكر التحليلي، الكلي، إلخ) وأرسى العلم الهام الذي هو المنطق، مستفيدا من خبرة الحكماء: *sophistes*؛ ونحن مدينون له بـ"*la politique*" -السياسة- التي تدرس طبيعة الدول ومختلف أشكالها، والأخلاق، وعلم البيان، وعلم الشعر، وأعمال أخرى كثيرة. وهكذا أبدعت أو، بالحري، نظمت أعمال أرسطو عددا من فروع العلم التي استمر تطورها إلى اليوم.

ففي الـ"سياسة"، يقدم بالتفصيل نظريته في الدولة، ملخصا أبحاث أسلافه الكثر الذين هم السوفيست، بالتأكيد. إن أرسطو هو لسان حال إيدولوجيا العبودية المحددة جيدا. وقد رأى أن الدولة تتألف من ضيع، وتقسم الضيع إلى أسر وتضم الأسرة الزوج، المرأة، الأبناء وبعض العبيد.

لايعيش المجتمع المتحضر بدون عبيد. "العبد هو خير أشكال الملكية وأجود الأدوات"،

يقول أرسطو. على ذلك، اضطر للوقوف إلى جانب الأجوبة المسندة التي يقدمها خصوم العبودية، وأخذ الجدال معهم حيزا هاما في مؤلفاته. ورأى، في كل حال، أن الإنسان حر بطبيعته. وقال، كل البرابرة عبيد بالولادة.

ويمحص أرسطو كل أشكال نظام الدولة التي يراها ممكنة؛ يميز منها ثلاثة "مشروعة": الملكية، الأرستقراطية والجمهورية، وثلاثة "منحطة": الدكتاتورية، الألغارشية والديموقراطية. ويولي نظرية انقلاب الدولة اهتماما خاصا ويدرس بدقة أساليب الحذر منها. أخيرا، يصمم دولة مثالية يجب أن تكون حاضرة مغلقة، أساسا زراعية. شريحة عمالها محرومة من حق المدينة. ولمكا كان أرسطو عدوا واضحا لديموقراطية العبودية الأثيني، لذا مال إلى إسبارطة التي رأى نظامها قريبا من المثال.

إجمالا، كان أرسطو متأثرا جدا بأزمة ديموقراطية عبودية أثينا؛ وكان خصما لمؤسسات الدولة الواسعة، وللتجارة والحرف المتطورة، وللمدن الكبرى ذات السكان الحريئين والنشطين سياسيا.

إن تأثير أرسطو على تطوير الحضارة العالمية ضخما. فحتى نهاية القرن الخامس عشر، تمتعت مبادئه العلمية بمدى واسع لايجادل. أما الطرح الأساسي لـ"سياسته"، التي تقول إن الأسرة هي خلية الدولة، كانت مؤيدة دائما من المنظرين البورجوازيين.

كنا ميزنا، في الفصل الذي يدرس المناهل، المستوى الرفيع للعلم تاريخيا في اليونان.

ويميز ف.أنجلز، ويثمن عاليا الدور الرئيس للعلم والفلسفة اليونانيين، وبخاصة ممثليها مثل هيراكليت وديموكريت، ويقول: "هانحن إذن نعود لنوافق مؤسسي الفلسفة اليونانية الكبار، التي رأت أن الطبيعة كلها، من الأصغر حتى الأكبر، من حبة الرمل إلى الشمس، من وحيدة الخلية إلى الإنسان، تكمن في ولادة وموت أبديين، بغدق لاينقطع، في حركة وتبدل دونما توقف. مع فارق أساسي أن ماكان عند اليونان استبصارا عاما، هو عندنا خلاصة بحوث علمية وتجريبية بح وبالتالي، يظهر أيضا بشكل أو صيغة بالغة الدقة والوضوح[١٣]."

---

[١٣] – ف.أنجلز. ديالكتيك الطبيعة.

الفصل الرابع والثلاثون

اليونان في النصف الأول من القرن الرابع ق.م

الأزمة في اليونان. سيطرة إسبارطة

لقد أنزلت حرب البلوبونيز ضررا بالغا باليونان. يكتب توسيديد (١، ٢٣)، "دامت الحرب مدة طويلة، وخلقت مصائب لم تعانها اليونان في حقبة من الزمن أبدا. أباد لم تحتل المدن وتدمر هكذا أبدا؛ ولا هذا العدد من المبعدين، أو القتلى في المعارك أو في وسط التمردات... هزة أرضية زعزعت دفعة واحدة هذه المساحة الشاسعة من الكرة الأرضية، في بعض البلدان جدب قاحط ، بعده الجوع؛ وآفة أقسى أيضا، خربت ونكبت جزءا من اليونان، الطاعون؛ مصائب مريعة انضمت إلى آلام هذه الحرب."

استهدفت أثينا وحاضرات أخرى متطورة تشكل جزءا من امبراطوريتها البحرية، بشكل فريد. حتى إسبارطة المنتصرة خرجت من الحرب متعتعة، بسبب انحطاط نظامها السياسي والاجتماعي الروتيني-النمطي الذي لم يعد يتلاءم مع متطلبات الحياة. فالطبقة الحاكمة من السبارطيين راحت تتراجع وتتقلص، بسبب خسائر الحرب وخراب الأسر، التي فقدت أرضها. والسبارطي المدمر، الذي انتقل إلى صفوف الطبقة الدنيا، فقد صفته كمقاتل. تشكلت جماعات معادية للتآمر على النظام القائم، بمشاركة نشطة من الجماهير المدمرة. وفي العام ٣٩٩، أخذت مؤامرة بقيادة سنادون -أحد المدمرين- مدى خطيرا. أملوا تمرد كل الشرائح المدمرة، ووزعوا عليهم كل الأسلحة المتوفرة، حتى البلطات، السفافيد والمناجل، بغية ذبح الملاكين العقاريين وتبديل النظام السبارطي. لكن المؤامرة قمعت بوحشية (انظر خنوفون، "الهلنيون"، ٣، ٣، ٤-١١).

على ذلك، بقيت إسبارطة، يومئذ، القوة الكبرى، الوحيدة في الحلبة الدولية؛ ماتبقى من هيللاد سوى عدة حواضر، دول صغيرة مستقلة بلغ الصراع الاجتماعي فيها ذروته. فبعد

حرب البلوبنيز، اشتد سعار الاستثمار العبودي. واستأثرت واحتكرت التجارة والصناعة فئة من العبيد المعتقين. واستبعد الاستخدام الواسع للعبيد الفلاحين الأحرار.

أفضى تدعيم الاستغلال إلى تباين واضح في الثروة بين السكان؛ وفي أثينا وأراغوس وحاضرات أخرى، ظهر بين مموني الجيش وتجار القمح والمرابين، الأغنياء مالكو العبيد الذين يشترون الأرض، ويبنون قصورا منيفة بأسلوب العمارة الكورنثي. تطلع هؤلاء الوافدون إلى إدارة الدولة. ومن جهة أخرى، ازداد عدد الفقراء، كان أغلبهم ملاكا عقاريين صغارا مدمرين. "سابقا لم يكن ثمة مدينيون يحتاجون الضروري ويطلبون الحسنة في الشوارع، يشوهون المدينة، كما يكتب إزوكرات، أحد أعيان السياسة؛ والآن، البائسون أكثر من المالكين. يبحثون فقط عن تأمين قوت يومهم."

ألهبت هذه التناقضات العميقة أوار الصراع السياسي والاجتماعي في داخل الحاضرات. وتصدت الفئات الفقيرة في وجه الأغنياء وتعد الثورة؛ وأطلق الشعار الممهد التالي: "إعادة توزيع الأرض وشطب الديون". وفي العام ٣٩٢، اغتال فقراء كورنثيا عددا كبيرا من "صفوة" أرستقراطية المدينة. وفي العام ٣٧٠، نشبت انتفاضة مماثلة في أراغوس: قتل الفقراء بالعصي قرابة ١٥٠٠غني ووزعوا أرزاقهم. وتدفق "حملة العصي" إلى مدن بلوبونيز الأخرى؛ وحسب قول أزوكرات،" ماكان الفقراء يفكرون إلا بنهب الفقراء".

.في الوقت ذاته، يبرز الميل الطوباوي لتبديل جذري في العلاقات الاجتماعية، بوضع الحياة المادية تحت رقابة الدولة. هذا ما نادى به خنوفون في مقولته "الثروة". وطرح الأمر ذاته بإلحاح ووضوح في كوميديا أرستوفان "جمعية النساء"، وقدمت على مسرح أثينا في العام ٣٩٢. الشخصية الرئيسة براكساغورا، قائدة النسوة، على فرض أنهن استلمن السلطة في أثينا، حيث تعرض برنامج نشاط هذه الحكومة النسوية: "الأرض أولا وخيراتها ستكون ملك الجميع كذلك الأرزاق الفردية الأخرى. ثم من هذه الثروة المشتركة، نحن النساء سنغذيكم، وسنوجه الاقتصاد ونفكر بكل شيء... سنقدم للكل كل شيء وبوفرة: الخبز، النقود، العنب، الأسماك، الحلوى، الأحصنة الخشبية، الحرير، الكستناء.." ومن الجدير بالذكر أن براكساغورا تبني هذه الحياة الرغدة من عمل العبيد، الذي، كما ترى، يجب أن يكون عاما أيضا".

هذا كله تعبير عن تناقضات في أحشاء الطبقة الحاكمة. في هذه الحالة، قد يفضي النضال الاجتماعي، على الأغلب، إلى إعادة توزيع الأرزاق المنقولة وغير المنقولة والعبيد. ويجد العوام مخرجا آخر: مهنة الجندي التي تعدهم بالاغتناء عن طريق أسلاب الحرب. فتلقى كل مواطن هلليني تدريبا عسكريا؛ وكان فن الحرب الأكثر إتقانا في هيلاد. وانخرط فقراء اليونان في جحافل الدولة التي تحتاجهم. وصارت اليونان المصدر الرئيس للمتطوعين إلى بلاد البحر المتوسط. وكان السوق الأكبر لهؤلاء رأس تينار، في جنوب لاكونيا.

لقد أقامت اليونان اتصالات وثيقة مع الفرس وبعض حكامهم. هكذا، حاول سيروس، حاكم آسيا الصغرى وأخ الملك ارتاخرخس، في العام ٤٠١ق.م. تسنم السلطة على رأس جيش جرار يضم ١٠ آلاف متطوع يوناني. وحقق الجيش اليوناني النصر على القوات الفارسية في كوناسا، قرب بابل، لكن سيروس، مدعي العرش، قضى في المعركة. وقام اليونان بانسحاب قاس عبر شرق قفقاسيا حتى ترابزونت، على البحر الأسود وخنوفون الذي كان يقود المتطوعين ترك مذكرات مؤثرة حول هذه المسيرة الماجدة وحول البلاد التي اجتازها.

عبرت الحياة السياسية في اليونان حقبة من الاضطهاد والحروب الداخلية. فقد أثار متطوعو سيروس اليونان نزاعا بين اسبارطة وفارس. ولتوطيد وضع مهيمن في اليونان، جندت كل قوات هيللاد، بذريعة الدفاع عن حاضرات آسيا الصغرى. لكن هذه الحملة اليونانية، التي بدأت في العام ٣٩٧ بإمرة ملك اسبارطة أجلاس، كانت عبثا. وقد أفاد منها كل اليونان خصوم إسبارطة. وصار خصمها الرئيسي طيبة، المدعومة من أثينا، ثم أراغوس وكورنثيا. وأقام الفرس حلفا مع أعداء إسبارطة، وقبلت دول اليونان العون من عدو الأمس. فتمكنت أثينا من إقامة تحصينات بالنقود الفارسية، سميت الـ"أسوار الطويلة"، التي وصلتها ببيريا. ووضع قائد الأسطول اليوناني كانون بإمرة ملك فارس، الذي عهد له بسفنه.

. كشفت "حرب كورنثيا" (٣٩٥-٣٨٧) عن ضعف اسبارطة. إذ استسلمت القوات البلوبونيزينية، بإمرة ليزاندر وبوزانياس، في بيوتيا. لكن الشقاق بين القادة العسكريين أفضى إلى هزيمة هاليارت في العام ٣٩٥. وسقط ليزاندر، وأعدم بوزانياس فيما بعد (فقد

اتهم بجريمة التواني، فالهزيمة فموت ليزاندر). وأمام الخطر المحدق، بعث الحكام إلى أجزلاس، في آسيا الصغرى، أمرا بالعودة العاجلة إلى هيللاد.

بينما كان أجزلاس يعود إلى البر، سحق كانون في العام ٣٩٤، على رأس ألوية أتيكية-فارسية، قوات إسبارطة وحلفائها في سنيد. وأتم حلف أثينا، طيبة، أرغوس وكورنثيا دفع السبارطيين إلى مضيق كورنثيا وبيوتيا، حيث ولجت قوات أجزلاس. وفي القطاعين، ميني وكوروني (ربيع وخريف٣٩٤)، انتصر السبارطيون. لكنهم لم يعرفوا كيف يستغلون هذا الظفر: وبقي برزخ كورنثيا بيد الديموقراطيين المتحالفين: أثينا،أراغوس وكورنثيا.

أرسل الجنرال الأثيني إفكرات، الماهر في الدفاع، أمر قتال جديد، متمما القوات ثقيلة السلاح بقوات مشاة خفيفة لتزج في المناورات السريعة. لقد فرض هذا الإصلاح القتالي فقر المواطنين، الذين لايستطيعون تأمين السلاح الثقيل. وهكذا وجدت سبارطة نفسها منعزلة في جزيرة بلوبونيز.

فسارع الفرس بجرأة وتدخلوا في شؤون اليونان. وأرسلتإسبارطة المحرجة قائد أسطولها الحربي أنتلسدس إلى الفرس طلبا للعون (٣٩٢). وفيمابعد (٣٨٧)، التقى مبعوثو سبارطة بمبعوثي أثينا في سوز، بقيادة كانون *Canon*. رضي السبارطيون الاعتراف بسيادة ملك الفرس على بلادهم وكل هيللاد. وقبلوا بخاصة ضم وإلحاق كل الحاضرات اليونانية في آسيا الصغرى إلى الامبراطورية الفارسية. ولما ألح كانون على استقلال هيللاد، بما فيها حاضرات آسيا الصغرى، زجه الحاكم الذي برأس المفاوضات في السجن كخائن للملك، ومات فيه.

أخيرا نقل الحاكم تربازو إلى ممثلي هيللاد إرادة مليكه: "يرى الملك أرتخرخس العدل في أن تلحق به مدن آسيا، وكذلك جزر كلاميز وقبرص، وان تبقى مدن اليونا، صغيرة وكبيرة، مستقلة، ماعدا ليمنوي، أمبروس وسيروس التي ستكون، كما في الماضي تابعة لأثينا. وإن رفضت بعض الدول هذا الصلح، سأشن عليها الحرب، بالإتفاق مع من يرضى، في البر والبحر، بمراكبي وكنوزي". بمسعى سبارطة ، طرحت فارس كسيدة الوضع وفرضت قانونها على اليونان. فلا أثينا ولاطيبة ولا أي حاضرة يونانية تستطيع، في هذه الشروط، أن تصادم فارس المتحالفة مع إسبارطة ومابقي من هيللاد. وقد وضع صلح أنتالسداس، أو صلح الملك، الذي تم في العام ٣٨٧ اليونان عمليا تحت الهيمنة الفارسية،

الأمر الذي لم يستطع داريوس وخرخس تحقيقه بالسلاح. "لم يكن ثمة صلح، بل خيانة وشتيمة لليونان" كتب بلوتارك (أجزلاس، ٢٣).

لقد جنت اسبارطة ثمن هذه الخيانة بحق اليونان كلها حق ممارسة بنود "صلح الملك". وبديء بإخضاع حواضر بلوبنيز المعادية لإسبارطة؛ كانت مالتيني، أهم هذه الحاضرات، قد أبيدت. وأولت سبارطة اهتماماً فريداً لخصومها،أثينا وطيبة، وأولينيث التي تطورت حديثاً في شبه جزيرة شالسديك وجمعت حولها عدة حواضر مجاورة. وفي العام ٣٨٢ نظمت اسبارطة غزوة ضد أولينيث و، في الطريق، احتلت غدراً كادمي، قلعة طيبة، ووضعت فيها حامية دائمة, وأقام السبارطيون في طيبة نظاماً إرهابياً، وسقط اسمنياك،أشهر ممثلي الديموقراطية في طيبة، ضحية هذا الأرهاب. وهاجر العديد من الديموقراطيين الطيبيين إلى أثينا للإعداد لتحرير بلادهم من العبودية. وفي كانون أول ٣٧٩، ولجت جماعة من هؤلاء المواطنين، بقيادة بلوبداس وبلباس راقصات، في أثناء إحدى الاحتفالات إلى مسكن ضباط سبارطيين وأصدقائهم وذبحوهم. كما طرد متمردو طيبة الحامية السبارطية وعقدوا حلفاً مع أثينا. حاولت سبارطة عبثاً قمع التمرد لأنها أرثت الحقد العام باستبداديتها العسكرية المنفلتة.

الاتحاد الأثيني البحري الثاني. ازدهار وانحطاط طيبة

في هذا الوقت، بدأت الديموقراطية الأثينية من جديد تجمع حولها الحواضر البحرية وتحالفهم. وفي العم ٣٧٨، مهر الاتحاد الثاني البحري الأثنين بمعاهدة حفرت نصوصها على شريحة ضخمة من الرخام، ماتزال سليمة. بنيت هذه الجامعة على مبادئ المساواة.

"يستطيع اليونان والبرابرة القاطنين في البر وأبناء الجزر غير الخاضعين لملك الفرس الانضمام إلى الاتحاد. يبقى كل المتحالفين مستقلين ويحكمهم مجلس دائم من المندوبين، مقره أثينا ولايرتبط بمنظمات الدولة الأثينية الديموقراطية. وكان هذا المجلس أيضاً مؤسسة قضائية عليا. تضمن الجمعية الوطنية قراراته. يشترك المتحالفون بخزينة يحدد مبلغها المجلس، عوض الضريبة التي فرضتها امبراطورية أثينا البحرية والتي كانت تبعث غضب الأحلاف.

تضم هذه الجامعة الثانية أقل من الحواضر (حوالي ٧٠) من امبراطورية أثينا للقرن الخامس التي كانت تعد أكثر من ٢٠٠ حاضرة. وتخالفها بوضوح من حيث استقلال

ومساواة أعضائها. على ذلك، كانت أثينا تمارس أحياناً على حلفائها تدابير جبرية تثير اضطرابات سياسية عنيفة وتعرض صلابة الاتحاد للخلخلة.

لكن إسبارطة التي لم تشأ التسليم بفقدان هيمنتها، شرعت في البر والبحر حرباً ضد الحلف الأثيني. الذي كان مظفراً حيثما كان؛ وقد أكره قادته العسكريون الموهوبون، تيموثي وشابرياس، سبارطة أن تبدأ مفاوضات (في العام ٣٧٤)، كانت حصيلتها الاعتراف بالحلف الأثيني وتفوق سبارطة في جزيرة بلوبونيز. لكن سبارطة قطعت المفاوضات وحاولت مرة أخرى أن تسحق الاتحاد الأثيني. وألحقت كورسير، الجزيرة بالغة الأهمية من حيث الاستراتيجيا والتجارة. وقد أفضى هذا الصراع الشاق إلى هزيمة سبارطة. وفي العام ٣٧١ أرسل ملك الفرس إلى هيللاد وفداً عرض "وساطته" لعقد الصلح. وقد أدت مفاوضات سبارطة إلى ترسيخ هيمنة أثينا في الاتحاد وحقوقها في الساحل الشمالي لبحر إيجة. ورضيت سبارطة بسحب حامياتها التي كانت قد أرسلتها إلى خلف حدودها. وهكذا تقلصت إلى العدم دعاوى سبارطة في التفوق على هيللاد.

في هذه الحقبة تدخل في المعركة بعد انقلاب ديموقراطي قوة جديدة هي طيبة، تطلب الاعتراف بهيمنتها في بيوتيا. ردت سبارطة هذه المطامع. وغادر المندوب الطيبي، الديموقراطي البارز والمواطن المتحمس، المؤتمر علانية. وعلقت المفاوضات. فسارع السبارطيون، الذين يتطلعون أبداً إلى السيطرة، إلى إرسال حجافل من قواتهم إلى بيوتيا. لكن طيبة أبقت الكثير من مواطنيها في الأرياف، فتمكن إيامنونداس من إعادة تشكيل جيش بيوتي. وخلق قوات صدام ("لواء مقدس") وأبدع أسلوباً جديداً بالمعارك: هجوم الجنود بالرتل المائل. وفي معركة لوكتر (٣٧١)، خرق الجيش الطيبي، بعد أن وضع جؤجؤ السفينة إلى أمام، كما المركب ثلاثي المجاذيف، صفوف العدو. وتلقت القوات السبارطية، المعتبرة لاتقهر، الفشل ويقتل قائدها، الملك كلونبروت. بدل هذا الحدث علاقات القوى في هيللاد. فإلى جانب أثينا، يعود المكان المهيمن إلى طيبة التي جمعت حولها بيوتيا والعديد من الحواضر. وفضلاً عن هذا، وفي جزيرة بلوبنيز، تصدى أركادي لسبارطة. وخشية من بيوتيا، تقربت أثينا من السبارطيين.

وقد أنزل إيامنونداس باسبارطة ضربة قاسية: اجتاح لاكونيا حتى الخليج؛ ولم يعد الأرقاء والأجراء يخشون سادتهم، خاصة بعد أن اجتاز إيامنونداس مسينا وأعلن حريتهم.

وأعانهم على تنظيم دولة، لعبت منذئذ دوراً هاماً. وفقـدت سـبارطة أغلـب حاضراتـها ورعاياها المستغلين. وتفككت الجامعة البلوبونيزية، وصارت أركاديا دولة مستقلة عاصمتها مغالوبوس (الـ"مدينة العظمى")، التي بنيت لتكون عاصمة.

وهكذا، في ستينات القرن الرابع، تشكلت أربع مجموعات سياسية في هيللاد: باسـم مجموعة طيبة وأثينا. وخسرت سبارطة تفوقها. لكن هذه المجموعات لم تدم طويلاً، بسـبب التنازع بين طيبة وأثينا على الهيمنة. ضمت طيبة جزءاً من الحاضرات الهللينية، والبـاقي تحالف مع أثينا وسبارطة. واتقّد الصراع الداخلي الذي نشب في أركاديا. ودارت معركـة بين الجامعتين في العام ٣٦٢ في مانتيني. ظفرت طيبة وسقط إبامنونداس. وقف حلفاء أثينا السابقون ضد طيبة وانكفأت جامعة طيبة عن لعب دور هام. في هـذا الظـرف، أفضـت تناحرات مستعرة إلى تفكك الحلف الثاني البحري الأثيني. فاضطرت أثينا إلى بذل النشـاط السياسي في البحر، الذي كان يتطلب مناهل ضخمة وسلطة وطيدة. لذا اكتسبت هيمنتها في الحلف طبيعة الاستبداد واليد الحديدية. فعبرت حاضرات شيو، رودس، كـوس، إرثـري، وغيرها عن ميولها المعادية لأثينا وتركوا الاتحاد. ولم تثمر معارك أثينـا الداميـة ضـد حلفائها السابقين ("حرب بين الحلفاء") وفي العام ٣٥٥ لم يكن حلف أثينا الثاني يضم سـوى ٣٠ حاضرة.

وفي العام نفسه، رغم عدة محاولات للصمود والتكاتف، وجدت هيللاد نفسها مفككـة مقطعة الأوصال: في الشمال، كانت مقدونيا تشد الخناق أكثر فأكثر على ترسـاليا؛ وكـان العديد من أمصار اليونان المركزية تمارس سياسة مستقلة؛ وكان يتتابع صراع ضار فـي بلوبونيز بين الأقاليم التي تستقل؛ وكانت الأقاليم–الجزر الشاطئية منعزلة سياسياً. وكـانت رغبة القوى الديموقراطية بتوحيد هيللاد تصطدم بمقاومة مراكز ضخمة معادية (أثينا. طيبة وأولينيث) من جهة، ومن جهة أخرى بقوى أوليغارشية أنشط مما كانت في القرن الخامس، كانت سبارطة موطنها الدائم.

وأيضاً، حوالي منتصف القرن الرابع، اجتاحت اليونان كلها أزمة سياسية حادة، بـدت خانقة. إذ كانت اليونان المجزأة مطرح تدخلات واسعة بشؤونها من قبل الفرس.

الفصل الخامس والثلاثون

الطاقة المتنامية لمقدونيا وحملات الاسكندر الكبير

بدايات السيطرة المقدونية في اليونان

حوالي نهاية حرب البلوبونيز، تبدأ مناطق جديدة، كانت متخلفة، مثل مقدونيا، أيبيريا، أركاديا، تلعب دورا هاما.

كانت مقدونيا بلدا جبليا واسعا. يقع في شمال غرب جزيرة البلقان؛ يحدها من الجنوب والجنوب الغربي ايبيريا، ترساليا وشبه جزيرة شالسديك؛ ومن الشرق، تجاورها بلاد الثراس، واتحدتا في القرن الرابع؛ ومن الشرق قبائل هلريان العدوانية. كان المقدونيسون يتكلمون لهجة يونانية، لايفهمها الهلينيون.

كانت الجبال الغابية والسهل الخصب محرومة من الثغور على البحر، الأمر الذي أخر تطورها التاريخي. استمر المجتمع القبلي فيها حتى القرن السادس. كان اهتمام الناس الرئيس التدجين (بخاصة الأحصنة) وزراعة الأرض؛ وكان الصيد في الغابات التي تغطي الجبال مدرسة رائعة للحرب عند المقدونين. ترتبط التجارة والحرف كليا بالمدن اليونانية لسالسديك.كانت العبودية بعامة ذات طبيعة أبوية. ولكل منطقة قبلية نبلاء بالولادة، يلعبون الدور المهيمن ويمتلكون أراض مترامية الأطراف.

حافظ النظام السياسي طويلا على السمات الديموقراطية الحربية. وكان الملوك المقدونيون يحكمون حسب مبدأ الاستبداد؛ مع أن سلطتهم كانت محدودة وغير مستقرة؛ يضطلع المجلس "الوراثي" (أسرة الملك) بالدور الرئيس، المجلس الذي يضم ممثلي الأرستقراطية العسكرية والعقارية. وكان ثمة أيضا جمعية وطنية شعبية من النموذج القديم، الذي يجمع كل المحاربين.

وحوالي الربع الأخير من القرن الخامس، بالاستناد إلى حرب البلوبونيز بخاصة، تبدأ مقدونيا بالخروج من عزلتها الاقتصادية، بتبادل البضائع مع اليونان، الذي أخضعها للتأثير المتنامي للاقتصاد والزراعة الهللينية. وقد أرسل ملك مقدونيا أرشلايس (٤١٣-٣٩٩) المدعي أنه حفيد هراقل، عرباته إلى الألعاب الأولمنية ودعا أوربيد إلى قصره. وقد بنى له مهندسون يونان ثكنات لكي يصد هجوم التراس؛ وكان القادة اليونان يدربون جيشه.

تطورت الوحدة العسكرية والسياسية المقدونية بخاصة في أواسط القرن الرابع، في عهد فيليب الثاني (٣٥٩-٣٣٦ق.م) المعتبر مؤسس الدولة المقدونية.

تلقى فيليب الثاني تربية جدية في اليونان (كان مدة طويلة رهينة في طيبة، في بيت أبامنونداس). كان رجل سياسة محنكا يعرف كيف يستخدم، لخدمة مصالحه، القوة العسكرية، البدلوماسية والإفساد. في عهده، دخلت مقدونيا في الحلبة الدولية، وسعت كثيرا حدودها وأضحت الدولة الأقوى في شبه جزيرة البلقان.

بداية شكل فيليب جيشا موحدا، بينما كان قبله لكل منطقة متطوعة شعبية؛ وتوصل إلى مركزة هذه الوحدات في عاصمة المملكة (بيلا)، تحت قيادة الملك العليا. اقتبس الصيغة اليونانية، وخلق الكتائب المقدونة الشهيرة، المتضمنة ١٦ صفا من الجنود المتراصين. كانت العناصر مسلحة بسيف ورمح بطول ٥م تقريبا. وبوضعها على أكتاف جنود المقدمة، تشكل هذه الرماح قنفذة فعلية من الحديد. ويجعل تنفيذ المناورات الدقيق والأريب من الكتيبة جسدا مقدودا من كتلة واحدة. وجند فيليب بين الحرس خفيف السلاح سلاح خيالة ثقيلا رائعا. فكانت الكتيبة، وقد حمى الخيالة مجنبتها، قوة قوية على أرض واحدة.

وكان التنظيم المالي تدبيرا آخر هاما لفيليب في بناء الدولة المقدونية. استخدم احتياطيه من المعادن الثمينة، التي كبرت عن طريق فتح المناطق الذهبية ومدن تراسيا الغنية؛ وصك النقود؛ فتداول الناس نقد فيليب الذهبي إلى جانب النقد الهلليني الفضي.

خلقت إصلاحات فيليب القتالية والمالية أساس جهاز الدولة البدائية، الأقل اعتمادا على اضطهاد واستثمار الجماهير الكادحة والأكثر اهتماما بالسياسة الامبريالية اللصة.

كما أفاد فيليب من الأزمة الحادة السياسية والاجتماعية التي أضعفت دول اليونان، واكتسب هنا العديد من الأنصار الذين لم يروا مخرجا سوى السيطرة المقدونية على هيللاد. أساسا، كان الأغنياء هم الذين يعانون من الاضطرابات الاجتماعية، من المتطلبات الباهظة

(الشعائر)، ومن المصادرات فراحوا يحلمون بدولة قوية تقمع الجماهير. وكان ثمة من يرغب في وحدة اليونان بقيادة مقدونية لدحر الفرس. كان فيليب يهتم كثيرا بأنصاره، فيكسبهم. لكن أغلب الشعب في أثينا والمدن الأخرى، دلل على موقف متصلب من فيليب ودعم القادة الديموقراطيين (ديموستين، هيبريد وغيرهما) الذين كانوا يقاتلون بدون هوادة ضد فيليب ويطرحون برنامج وحدة سياسية لهيللاد على قاعدة ديموقراطية.

تفاقم هذا الصراع بين الأحزاب المقدونية واللا-مقدونية بخاصة في أثينا.

كان قادة الحزب المقدوني: الخطيب إشين، الكاتب إزوقراط، الخطيب ورجل السياسة أوبول. وكانت أهدافهم متباينة. إزوقراط، وقد صار أستاذ الفصاحة، كان يبغي اتحاد اليونان بزعامة أثينا، لشن الحرب على الفرس. وعلى هذا الموضوع أوقف خطابه الشهير، حيث ناصر أثينا. لكن يأس إزوقراط من وحدة اليونان بدون عون خارجي، جعله يرى في فيليب موحد ومنقذ اليونان الأكفأ. وفي رسالة إلى فيليب ينصحه بقيادة اليونان متحدين، لمصارعة الـ"بربر". وهكذا، لم يكن فيليب في عينيه سوى أداة نضال ضد الفرس. وعندما وعى أن الملك المقدوني صار مضطهد الهللنيين، انضم إلى صفوف الذائدين عن الحرية وانتحر بعد هزيمة شيروني. أما أوبول وإشين فقد تعكر موقفها فقط من فيليب وأثروا على سياسة أثينا لصالحه.

لكن الحزب اللا-مقدوني، كان بزعامة ديموستين. وكونه ابن صانع سلاح، وقائد الحزب الديموقراطي في أثينا، جعله يوقف حياته على النضال ضد ال"بربري المقدوني وأغراضه غير المشروعة". وقد سميت خطاباته الشهيرة، العامرة بالغضب والغل ضد فيليب، "الفيليبيات".

لكن الصراع السياسي في أولنيث، وفي المدن التابعة لشالسديك وشواطئ ثراسيا، أعطى فيليب فرصة إخضاعها لسلطته. ولقد استدعى هذا العمل الذي ضرب تجارة أثينا مع البحر الأسود، تدخل أثينا. قدمت الحرب المقدسة (٣٥٦-٣٤٦) للمقدونيين ذريعة التدخل في شؤون اليونان. فاحتل الفوسيديون الأراضي[1] الموقوفة لأبولون دالفيا. وبذريعة الدفاع عن مصالح المقام، تصدت تساليا وبيوتيا للفوسيديين. بداية، هزم التساليون، فطلبوا

[1] - سكان الإقليم اليوناني الواقع بين تساليا وبيوتيا، شمال خليج كورنثيا -المترجم-.

مؤازرة فيليب. واستمر القتال لكنه لم يحمل النصر لأحد. وفي العام ٣٤٦، عقـد صلـح، بتأثير إشين، أوبول وفيلوقراط، أنصار في أثينا، ضمن فتوح مقدونية في اليونان وثراسيا.

أثارت هذه الأحداث نشاط الحزب اللا-مقدوني في أثينا.وبمبادرة ديموستين، تشـكل حلف للدفاع عن الاستقلال دول اليونان الوسطى، بقيادة أثينا وطيبة. وكسب الأثينيون حـق الإبحار بقواتهم إلى شواطئ ثراسيا. واستمر صراع فيليب ضد هذا الهجوم عدة سـنوات بدون نتيجة. الأمر الذي دعاه فيليب، مستندا إلى أنصار مقدونيا، أن يقذف قواته محاربـة اليونان الوسطى. جرت المعركة الحاسمة في العام ٣٣٨، بشـيروني فـي بيوتيـا. كـان الأثينيون على رأس الجيش اليوناني. رتب المقدونيون قواتهم الرئسية في الأجنحة، وقـاد المجنبة اليسرى ابن فيليب، ألكسندر، ١٨ عاما. "كانت الموقعة طويلـة وصعبـة، يكتب ديودور، لأن المواطنين اليونانيين كانوا يقاتلون يائسين". وأقيم فيما بعد، في أرض القتـال نصب كبير لأسد. يقول بوزانياس، كاتب ورحالة من القرن الثاني، إن هذا الأسد الحـامي وضعه أهل طيبة فوق قبر مشترك، رمزا ليقظة وجرأة أولئك الذين سـقطوا دفاعـا عـن الحرية الهلينية.

وسم هذا النصر والمؤتمر الهلليني لكورنثيا، بداية حقبة طويلة للسيطرة المقدونة فـي اليونان. ولقد التزم مندوبو كل الدول اليونانية (عدا إسبارطة التي لم تشترك بالمؤتمر أبـدا) الاعتراف بسيطرة مقدونيا وقبول تنظيم اتحاد بقيادتها. ومن جهته، ضمن فيليب حق الدفاع عن مصالح الأغنياء ملاك العبيد: وأعلنت الملكية الخاصة حقا مقدسا: ومنع تقسيم الأرض مجددا، وإلغاء الديون، ولاتحرير العبيد بقصد قلب الدولة. وأخيرا قرر المؤتمر، بـاقتراح من فيليب، إعلان الحرب على الفرس "ثأرا من تدنيس المقابر الهللينية". كاد فيليب أن يكون لسان حال اليونان كلها، لكنه بالفعل شرذم الدول الديموقراطية خدمة للأولغارشية.

لم يستطع فيليب أن يحقق حملة ضد الفرس. فقد اغتيل في العام ٣٣٦، في أثناء قمـة الإعداد للمعركة، خلال الاحتفال بزفاف ابنته. دبر هذا الاغتيال ممثلو النبالة الغنيـة فـي مقدونيا-العليا، الغاضبون من سياسته المركزية التي تضر حقوقهم. كما تم هذا بالتآمر مـع الفرس. وربما كان ثمة خيط من خيوط الاغتيال يشده أهلوه، زوجتـه أولمبيـاس، وابنـه ألكسندر، وريثا العرش.

امبراطورية اسكندر المقدوني

الاسكندر المقدوني (٣٣٦-٣٢٣) واحد من ألمع شخصيات العهود القديمة. ولقد تركت عظمة إمبراطوريته الممتدة من بحر إيجة حتى حوض الهندوس ومن صحراء ليبيا إلى بحر كسبيان، بين أوربا وآسيا، وقصر مدة حكمه التي خلالها حقق كل فتوحاته، تركت أثرا لايمحي من ذاكرة معاصريه وجعلته بطل أساطير عديدة.

. من المصادر الرئيسة لتاريخ الاسكندر، يجب ذكر أعمال كاتبي اليونان بلوتارك وآريان وأعمال المؤلف اللاتيني كانت كور (القرن الأول ب.م). نعثر في التاريخ القديم، إلى جانب أمثلة شخص الإسكندر، تقويمات شديدة العدوانية. هكذا، يستند آريان في مؤلفه على ذكريات مرافقي جيوش الاسكندر المعجبين به، بينما ينهض كانت كور ضد تعظيم شخصية الفاتح أو الغازي المقدوني. كما نعثر على أحكام مناقضة جدا لدى المؤرخين المعاصرين: دروزان، مثلا، يضعه في موضع المثال بينما يقدح به بيلوش.

تسنم الاسكندر العرش وهو في العشرين من عمره. وقد جعلت منه التربية اليونانية التي تلقاها على يد فيليب رجلا مثقفا. وأرسطو، الذي كان مربيه في العام ٣٤٣ حتى ٣٤٠، لم يكتف بإعطائه معارف واسعة، بل رباه على حب الحضارة الهللينية وهيمنتها على اليونان كلها وكانت المطامع الإمبريالية تزكم أنوف محيط فيليب. الأمر الذي أفضى إلى استعار مطامع ومطامح الاكسندر.

كانت بدايات ملكه بالغة الصعوبة وتطلبت من الملك الشاب الجرأة والصلابة. بدأ بتصفية الحساب مع متآمري النبل المقدوني وكل ذويهم القابلين للادعاء باستلام السلطة. ثم خنق متمردي تراسيا وإيلريا. وكانت إشاعة موته الكاذبة أمارة عصيان الدول اليونانية. وفي طيبة، أخذت صفة الجدية التامة. وبسرعة البرق، ظهر الاسكندر في بيوتيا، احتل طيبة، دمرها، وباع أهلها عبيدا.

بعد أن انتهى من خصومه في اليونان، أعد الأسكندر حملة الفرس التي داعب مشروعها أباه. لم يكد جيش الكسندر إلى آسيا (٣٣٤) كبيرا (٢٠ ألف عنصر مشاة. ٥آلاف فارس و١٦٠سفينة). لكن فارس في عهود سلاطين تلك الأيام كانت تشبه بالفعل تمثالا عملاقا ذا أرجل من آجر. الشعوب مرهقة بالضرائب، ومختلف الالتزامات (بما فيها الخدمة العسكرية)، يطغى عليها الحكام، فتتمرد ضد النير الفارسي. كانت حركة التحرر

واسعة وقوية جدا في مصر. والجيش الفارسي، مهما كان قادرا وضاربا، فهو يفتقر للروح القتالية. كان مؤلفا أساسا من قوات جندها الولاة تقاتل مكرهة. وكان المرتزقة اليونان، الذين يبلغ عددهم عشرين ألفا، كانوا قوة فعلية فاعلة. لكن لايمكن الركون إليهم كليا في حرب ضد مواطنيهم. أخيرا حاول الولاة الفرس أنفسهم التمرد وخلع الأسرة المالكة. والأسرة المالكة نفسها عاجزة، عاطلة. وكانت الملكات وحاشيتهن يلعبن دورا هاما في القصر. واشتهر أحد عناصر الحاشية، المحظي الخصي باغراس، بتسليم العروش بالتتالي لملوك يقتلهم بعد التتويج؛ لكنه قتل خيرا بطعنة من صنيعته الرابع، داريوس الثالث كودومان.

وفي العام ٣٣٤، بعد أن حشد قواته في آمفوليس (على شاطيء ثراسيا)، مشى الكسندر إلى هللسبونت. كان الجيش المقدوني يعد عدة قرعات هللينية (قرابة ٧آلاف عسكري). وبعد اجتياز هللسبونت، انقضت القوات المقدونية على طلائع الفرس قرب غرانيت (نهر يصب في برونتد). ويحتل الكسندر بسهولة مدناً يونانية في آسيا الصغرى، استسلم أكثرها بدون قتال، على اعتبار هؤلاء الفاتحين محررين. لكن ميليت وهلكارناس قاومتا ولم تسقطا إلا بعد معارك ضارية. عالج الكسندر المدن المحتلة بطرق متباينة: في بعضها يقنع بقضيته شرائح الشعب الديموقراطية، وفي مدن اخرى، يستند إلى الكهنوت ، (في إفيز، مثلاً، حيث كان يوجد معبد أرتميس الشهير). وفي حالات، يعقد صلات قربى مع بعض الشيوخ الأعيان. هكذا، في كاريا، اختارته الأميرة آدا.

وفي العام التالي، مشى جيش الاسكندر لفتح جنوب البحر الأبيض المتوسط. وعندما ولج ثغور طوروس، "أبواب سوريا"، هاجمه الجيش الفارسي اللجب، بقيادة داريوس الثالث من الخلف. وقرب ضيعة إسوس، نجح الاسكندر، بهجوم مفاجيء من كتيبته وخيالته الثقيلة، بنشر الفوضى في صفوف الخصم المتراصة وأنزل به هزيمة ساحقة. هرب داريوس، تاركاً وراءه عسكره وعتاده، بما فيها درعه وعربته. وسجنت الأسرة المالكة التي ترافقه. أكرهت هذه النكبة داريوس على التفاوض من أجل الصلح. ويجيب الاسكندر برسالة غطرسة، يطلب فيها استسلاماً بدون شرط ولاقيد ويعلن نفسه "سيد آسيا".

ثم، غزا الجيش المقدوني جبيل، صيدا وصور، كانت جبيل جيدة التحصين ولم تحتل إلا بعد ستة أشهر من الحصار. وبهذه الحملة ضم الاسكندر إلى سلطانه فينيقيا كلها. وبعد

أن وطد سلطته في شاطئ البحر المتوسط، دخل مصر، حيث استقبله الشعب محـررا. إن تأليه الفرعون في مصر العليا والسفلى، جعل الاسكندر يسعى أولا إلى كسب تأييد الكهنـة. ويقدم العبادة الورعة للآلهة المصريين ويسافر ليحج عبر صحراء ليبيا، أمام معبد أمـون، ليحصل على بركة الإله العظيم. حياه الكهنة كابن لأمون (أي فرعون مصـري) وسـيدوه على إمبراطورية العالم.

سعى الاسكندر إلى ترسيخ المفاهيم الإغريقية في البلدان الملحقة ليرسي فيها فتوحاته. ففي ممفيس، مثلا، نظم مباريات رياضية وموسيقية بمشاركة اليونان المدعوين لهذه الغاية. وأسس مدينة الاسكندرية، في غرب الدلتا، لنفس الهدف. واختار الاسكندر المكان بنفسـه. ووزع إدارة مصر على عدة أشخاص. لئلا يعطي السلطة لحاكم واحد.

هكذا حقق الاسكندر، في بحر ثلاث سنوات تطلع النبالة الإغريقية-المقدونيـة فـي احتلال ساحل البحر المتوسط. كان الاتحاد الأثيني يحلم بهذا منذ عهد بركليـس؛ وتحـدث ديموستين في خطاباته عن سيرة هيللاد الموحدة في العالم.

على ذلك، كان عليه أن يوطد سلطته في البلدان الواسعة الملحقة، الأمر الذي تطلـب وقتا طويلا. يقول برمنيون، المرافق السابق لجيوش فيليب للاسكندر، لدى اطلاعـه علـى شروط الصلح التي اقترحها داريوس بعد موقعة إسوس: "أقبل، لو كنت الاسكندر". ومـاذا أجاب الاسكندر: "وأنا أيضا، لو كنت برمنيون".

باستخدام الثروات المصرية والمواصلات البحرية الحرة مع هيللاد ومقدونيا، مشـى الاسكندر، في العام ٣٣١، إلى ميزوبوتاميا عبر سوريا. هنـا قـرب الضيعـة الآشـورية غوغملا، على دجلة، دارت معركة أهم من كل معارك الحملة. كان الفرس قـد جـهزوا جيشا لجبا، بدت القوات الأغريكو-قدونية أمامه ضئيلة. لكن افتقار القوات الفارسية للوحدة، وكذلك فوضى وجبن داريوس الذي ترك جنوده في أوج المعارك، أمنت نصر الاسـكندر. خسر الفرس الكثير من عناصرهم، وسحقت قدرة امبراطوريتهم. دخل الاسـكندر بـابل، حيث استقبله الشعب محررا. إن الاحتلال المتلاحق لعواصم الامبراطورية الفارسية: سوز، برسبولس، اسباتلن، وضع بين يديه الثروات الخيالية من الكنز الامبراطوري (١٥٠ ألـف تالنت). وحسب بعض المراجع، احرق القصر الملكي في برسبولس، العاصمة السابقة.

لقد وضع موت داريوس[1] نهاية السلاطين الأشمنيد ومكن الاسكندر من إعلان نفسـه

---

[1] – كان قد لجأ إلى ضفة نهر كاسبيين وقتله غيلة بيسوس، والي باكتريان، في بارثيا.

خليفة الملك العظيم. آنئذ غير سياسته تجاه الفرس: دعم الأرستقراطية، قبل البزة الشرقية، اتبع الاحتفاء الأسيوي وأراد تقليده.

لكن مقاومة أبناء البلد، المقدامة خاصة في باكتريان وسوجديان، كبحت تقدمه نحو الشرق. على ذلك استولى الاسكندر على هذه المناطق في العام ٣٢٩، بحجة الانتقام لاغتيال داريوس. فهاجم البكتريون والساجديون، بقيادة سبيتامين، رفيق جيوش بيسوس، ماراً بكندا (سمرقند) وذبحوا فيها الحامية المقدونية (٢٠٠٠جندي). انضمت قبائل الماساجيت والساس المجاورة إلى المتمردين. أنهى الاسكندر التمرد بالترهيب والترغيب (القوة والدبلوماسية: هكذا، تزوج روكسان، ابنة أحد الأعيان البكتريين وحول العرس إلى مظاهرة سياسية فعلية. وشيد في أمكنة استارتيجية هامة، ميادين حصينة سميت كلها الاسكندرية، تطورت سريعاً. تقع أحدها، اسكندرية إيشاتيه (لينينباد)، في الطرف الشمالي من إمبراطوريته.

بعد إخضاع سوجدان وباكتريان، انطلق الاسكندر إلى الهند. وعلى رأس جيش جرار (مؤلف من مقدونيين، يونان وأسيويين) اجتاز المضائق ونزل في البنجاب (وادي الهندوس).كلفت عوائق هذه الحملة حياة آلاف الجنود ودواب الركوب. وفي طريقه تابع الاسكندر بناء الحصون والميادين المنيعة. وقد جعل الصراع المستمر بين الحكام الهنود، الذي استغله جيداً، جعل الغزوة أسهل. وبعد أن اجتاز الهندوس والهيداسب، قاتل ملك الهند الغربية، بوروس (آنئذ رأى المقدونيون لأول مرة فيلة المعركة). وهنا أسس الاسكندر مستعمرتيه الأخيرتين، نيكايا وبوكفاليا (سميت هكذا كذكرى بوسفال، حصان الاسكندر المفضل، الذي قتل في إحدى المعارك)، وذهب أبعد، حتى هيغار، هادفاً احتلال وادي الغانج. لكن هذه الحملة الطويلة والقاسية قد أنهكت الجيش. فتنامى الغضب حتى لدى الضباط الكبار، فأكره على العدول عن سياسته الشرقية ومشروعه "في جعل حدود اليابسة تخوماً لامبراطوريته" (أريان). فتفجرت المؤامرات بدءاً من العام ٣٣٠ بين الجنود و(الشباب المقدونيين). تصدى الاسكندر لهذا الوضع بتدابير حازمة، دون تردد بقمع مقربيه؛ وهكذا سقط بارمنيون، ملازمه ومعاونه، وفيلوتاس، ابن هذا الأخير، قائد الخيالة. وقتل كليتوس، صديق الاسكندر الذي تجرأ على الاحتجاج على سياسته الشرقية ودعم الفرس، قتل بضربة رمح من يد الملك في أثناء إحدى الاحتفالات.

وفي معسكر هيفاز، رفضت كل القوات،بما فيهم الضباط، متابعة الحملة. وبعد قضاء ثلاث ليالي تحت الخيمة، في عزلة مطلقة، أمر الاسكندر بتشكيل أسطول صغير على ضفة هيداسب، من أجل اجتياز الهندوس حتى المحيط الهندي. بدأ الانسحاب في العام ٣٢٦، وكان صعبا جدا. وعند الوصول إلى دلتا الهندوس، كلف الاسكندر نيارك بمتابعة الطريق البحري (غير المسبور آنئذ) حتى الخليج العربي، بينما عاد هو نفسه عن طريق البر مع مابقي من جيشه، مجتازا صحارى جيدروزيا اللاهبة. وانتهت الحملة في بابل (٣٢٥).

في أثناء الحرب، وكذلك بعد وقف القتال، حاول الاسكندر بطريقة بدائية أحيانا صهر اليونان والفرس في بوتقة واحدة. كان يشجع الزواج المختلط: ففي يوم واحد، تزوج ١٠٠٠٠جندي يوناني من بنات فارسيات. واتخذ الاسكندر زوجتين له، حسب عادات الملوك العظام، أميرتين فارسيتين. فراح نفوذ النبل الشرقي ينمو في الإدارة، في القصر وفي الجيش. ومن الجدير بالذكر ان الاسكندر كان في الوقت ذاته ينشر الهيلينية لدى الفرس؛ وتعلم ٣٠٠٠٠ ألف شاب فارسي من المقدونيين فن الحرب والعادات واللغة.

لكن سياسة الاسكندر هذه كانت تصطدم بمعارضة أقوى فأقوى. وفي العام ٣٢٤، في أوبيس، على دجلة، نشب تمرد الجند فعلا. قمعه الاسكندر بدون رحمة وأعدم ١٣ قاصرا، وشرع بتشكيل جيش جديد يسود فيه العنصر الفارسي. ومع ذلك التزم بإعطاء المقدونيين الامتيازات، بوعدهم بوضع أميز من وضع الفرس. وفي بابل، عاصمة امبراطوريته الواسعة، بدأ تنظيم هذه الامبراطورية وأعد حملة جديدة باتجاه الغرب، وآنئذ مات بالبرداء في العام٣٢٣.

لقد كان لفتح الامبراطورية الفارسية أهمية كبرى، لأنها أفضت إلى تقارب اقتصادي وثقافي بين الغرب والشرق. ولعب تأسيس عشرات المدن الجديدة ("الاسكندرية") دورا واسعا وعميقا في هذا التقارب، لأنها صارت مراكز تصهر الغريكو-مقدونيين بأبناء البلد الأصليين وتبادل المنجزات الثقافية. يقول ك.ماركس إن "انطلاقه اليونان الخارجية الواسعة تتزامن مع عهد الاسكندر".

على ذلك، يجب أن لاننسى أن غزو الشرق أفضى إلى تدمير الامبرادطورية الفارسية، وإلى إقامة هيمنة جديدة، مؤسسة استعباد شرس للسكان الأصليين على يد الغريكو-مقدونيين؛ لكن هدم فارس لم يصحح شروط الجماهير الشعبية. فقد تلى نير

الامبراطورية الفارسية المهتريء استغلال أمكر وأقسى، مارسه المحتلون. وفي الوقت ذاته، كانت إمبراطورية الاسكندر الشاسعة وإمبراطورية الفرس تتشابهان في صدور الاثنتان من فتح عدة دول تقع على مختلف المستويات الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية.

على ذلك، لم تحل الطبيعة غير المستقرة والوقتية لإمبراطورية الاسكندر المقدوني دون ظهور علاقات جديدة اجتماعية وسياسية، تمثل محطة جديدة في تطور المجتمع العبودي. وهنا شيد عالم هلليني جديد على أنقاض هذه الإمبراطورية.

الفصل السادس والثلاثون

الدول الهللينية

تفكك امبراطورية الاسكندر

لقد وشمت حملة الاسكندر الشرقية بداية مرحلة سميت هللينية دامت حتى فتح آسيا الصغرى ومصر من قبل الرومان.

تمثل الهيللينية أشكالا أكثر تطورا في مجتمع الرقيق الإغريقي، الذي يشمل أقاليم عديدة من الشرق، بينما ساهمت البلدان الشرقية، المرتبطة بدائرة الاقتصاد والثقافة الأوسطيين، في تقدمها. وفوق أرض امبراطورية الاسكندر نهضت دول مستقلة عظيمة، توفر خليطا عجيبا من المباديء الشرقية والإغريقية. أي سلطنات مركزية من نموذج شرقي، شريحتها الحاكمة مؤلفة من اليونان، المقدونيين ومن الأرستقراطية المحلية الهلينية؛ كانت هذه، بوضعها المتميز، تعارض جمهرة السكان الأصليين المضطهدين من قبل الفاتح الأجنبي أيضا. فاستغلال الشعوب وحروب النهب تسمح للحكام الهللينيين بخلق قاعدة مادية لمهام ضخمة يمارسونها في الحياة الاقتصادية والثقافية. فآسيا الصغرى، آسيا الوسطى، المنطقة العربية، الهند، الصين كانت كلها تتاجر مع بلدان أوسطية. وفي بعض الدول الإغريقية حيث أخذت الحياة المادية مدى واسعا جدا، تطور العلم اليوناني كثيرا ومارس نفوذا واسعا على المستوى التقني.

لقد ساهمت العلاقات الاقتصادية بين بلدان الشرق واليونان في تفاعل ثقافاتها.

فالمراجع الرئيسة لتاريخ البلدان الإغريقية هي المعطيات الثرة لعلم الآثار، المتطور بفعل الحفريات المحققة في الزمنين الحاضر والمعاصر، والنقود حاملة رسوم الحكام الإغريق وكل أنواع النصوص. في مصر، اكتشف كم من ورق البردي، تشكل دراستها فرعا خاصا لعلم: *papyrologie* أي دراسة البردي.

قد عثرنا على معلومات حول الحقبة الهللينية عند مؤلفين قدماء مثل بوليب (التاريخ

العام)، ديودور سيسيليا (مكتبة التاريخ)، سترابون (جغرافيا)، بلوتارك (حيـــاة فوسـيون، أومين، دمتريوس بوليورست)، آبيان (الشؤون السورية).

بعد موت الاسكندر، اختصم قواده بضراوة بشأن السلطة. فالافتقار لوريث شـــرعي حرم الاسكندر من خليفة مباشر. لعب الجيش الدور الأهم في تعيين الحاكم. وبعـد جدال عنيف كان يهدد بنشوب نزاع مسلح، سمي فيليب الثالث أريديه، أخ الاسـكندر، المعتـوه، ملكا. لكن السلطة انتقلت عمليا إلى بيردكاس، أحد رفاق الاسكندر ومقربيه، الـذي سـمي وليا. وبعيد هذا، عندما وضعت أرملة الاسكندر روكسانا وليدا، سمي هذا أيضـا عـاهلا. وسمي قادة الاسكندر الآخرون ولاة في مختلف الولايات: بتولميه، ابن لاغـوس، اسـتلم مصر؛ أنتغونوس، فريجيا الكبرى في آسيا الصغرى؛ لزماك، ثراسيا. لكنهم لم يرغبوا فـي الاعتراف بوحدة الدولة ولابسلطة الولي الأعلى. ولقد كانت الحقبة التي تلـت الاسـكندر دموية بالحروب بين الحكام، بداية بين "ديادوك"، ورثة الاسكندر، ثم بين "أبيغون". خلفائهم.

كان أول نزاع بين بيردكاس وبتولميه. وليبرز دوره، استولى بتولميـه علـى جثـة الاسكندر التي أراد البعض أن يدفنها في مدينة الأموات الملكية في مقدونيـا. هـاجم فـي سوريا قافلة الجثمان وأعاد جدث العاهل إلى مصر، ليدفنه في عاصمته، الاسكندرية. أكـره هذا العمل ومكائد بتولميه ضد بيردكاس أن يشرع هذا الأخير بتجريد حملة على مصـر. لكن هذه القوات تاهت بين فروع النيل المستنقعية، حيث نفق الكثير من المقـاتلين؛ فـأعد ضباطه الذين يكرهونه لغطرسته وفظاظته، مؤامرة وقتلوه.

بعد وفاة بيردكاس، انتقلت الولاية إلى أنتباتروس. كانت الولايـة تفـترض وجـود امبراطورية متكاتفة متحدة، لكن هذه الدولة العظمى كانت بالفعل تزداد تفككا. سـلوكوس، وقد صار والي بابل، دخل في كوكبة الديادوك واشترك بنزاعهم المستمر. وبعيد هذا، دعـم وأكد أنتغونوس وولده دمتريوس بوليورست سيطرتهما في آسيا الصغرى، في سوريا، فـي فينيقيا وفي اليونان. خلق دمتريوس، القائد المحنك والمهندس العسكري، أسـطولا رائعـا واشتهر بآلات حصاره، البروج المتحركة ذات الطوابق التي بلـغ ارتفاعـها ٥٠م والتـي تستدعي الإعجاب التام. لقب دمتريوس بوليورست (فاتح المدن).

أخيرا، وبعد ٢٠ عاما من موت الاسكندر، أفل نجم امبراطوريتـه نـهائيا. تحـالف بتولميه، سلوكوس، لزماك، كاساندروس ضد أنتيغوس دعي السطة العليا. استعرت الموقعة

الحاسمة في العام ٣٠١ قرب إيسوس، في فريجي العظمى. كان سلوكوس المساهم الأكبر في نصر الحلفاء، باستخدام قرابة ٤٠٠ فيل، تلقاها من ملك الهند تشاندراغوبتا عرفانا بالجميل لأنه تخلى له عن ممتلكاته في الهند. سقط أنتيغونوس في هذه المعركة، هرب ابنه إلى إيفيز، حيث كان أسطوله. نجم عن معركة إيسوس، المعتبرة معلما في التاريخ الهلليني، تشكيل ثلاث دول "هللينية" عظمى: مصر، سوريا، مقدونيا، يحكمها آل بتولميه، آل سلوسيد وآل أنتغونيد. لكن هؤلاء الأخيرين لم يوطدوا وضعهم في مقدونيا واليونان إلا بعد صراع ضار جديد. ومنذئذ، قدم تاريخ الدول الهللينية، التي ولدت على أرض امبراطورية الاسكندر المقدوني، خصائص ناجمة عن تركيبتها وبنيتها.

مملكة آل بتولميه

لقد حافظ أحفاد بتولميه، أبناء لاغوس، على حكم مصر حتى الغزو الروماني (في العام ٣٠ق.م). فمن جهة، كانت حكومة مصر الهللينية مؤسسة على المبادئ الموروثة من الأزمنة السابقة: سلطة ملكية مستبدة، مركزية محكمة في كل مجالات الحياة، جهاز بيروقراطي متطور. بقي التقسيم الإداري على حاله السابق: استمرت مصر العليا والسفلى بنوماتها-قبائلها وتنظيمها المشاعي أو المشترك. ومن جهة أخرى، رأينا ظهور خصائص جديدة. هكذا، كان جهاز الدولة مكون من اليونان والمقدونيين حصرا، الأمر الذي أحال ابن البلد إلى مرتبة أدنى. وجعل النهج الإداري من السكان الأصليين شريحة مضطهدة، مستغلة.

كان آل بتولميه يعتبرون مصر ملكية خاصة لهم. كان الملك مالك سيادة الأرض، التي قسمهاالأكبر مجاله: الـ"أراضي الملكية" يحرسها مزارعون صغار بالوراثة، الـ"المزارعون الملكيون". وما كان يميز وضع هؤلاء المزارعين في مصر الهللينية، هو انهم ماكانوا أحرارا في نشاطهم الاقتصادي. كان هذا النشاط يسوى بدقة، بتحديد طبيعة وكمية المزروعات المسموح بزراعتها. لم يكن الفلاح قادرا على تغيير الضوابط المكتوبة وكان يلتزم بأداء غرامة ضخمة في حال العكس.

لم تكن أدوات الإنتاج ملك المزارعين؛ فالسلطات المحلية تزودهم بالمواد، كالقمح والدواب. يدفعون كل شيء عينا، وفضلا عن هذا يقدمون جزءا من المحصول باسم ضريبة الدخل ومتطلبات متفرقة. وأحيانا يؤدي الحارث أكثر من نصف ما ينتج. واقتصاد

هؤلاء "الفلاحين" موضوع دوما تحت رقابة الموظفين. وتقوم بدقة حقول القمح والحصاد. ولم يكن المزارعون الملكيون مخولين مغادرة الأرض.

فضلا عن الأراضي "الملكية"، كان ثمة أراض "ممنوحة" يمكن استعادتها لكنها متقلة بالضرائب والمراقبة. جزء منها يهبه الملك للمعابد والسادة. مثلا، عثر على أرشيف ضخم من ورق البردي لزينون، مسجل ملكية كبير موظفي أبولونيوس. تشير الوثائق أن هذا الأخير تلقى هذه الإقطاعة من ٣٠٠٠ هكتار هدية من بتولميه الثاني فيلادلفا. يضم قسم كبير من الإقطاعة ملكيات "المزارعين الملكيين"، الذين يهبون أبولونيوس، كمزارعة، حصة كبيرة من الموسم. وكانت مساحة أخرى من الإقطاعة يحرثها عبيد ومأجورون. هنا كان يشيد قصر السيد، مع الكثير من الخدمات التي تؤمن له الحياة الرغدة الهنية.

كان قسم آخر كبير من الأراضي الموهوبة للجنود، للبحارة الرواد وللضباط. بداية تعتبر كمنحة مؤقتة، لكنها شيئا فشيئا تصير وراثية.

كل الثروات الطبيعية: مناجم وفحم، معادن وملح، ومقالع وسواها، تخص الملك أيضا. ونفس المركزية تميز الصناعة، التي كانت فروعها الأهم، مثل إنتاج الزيت والنسيج، حكرا ملكيا. ويكلف المزارعون العامون بشراء المواد الأولية بالسعر الذي حددته الدولة. أي بيع آخر معاقب بصرامة. والمواد الأولية المخزنة في مخازن الدولة ترحل فيما بعد إلى المشاريع الملكية. وكان الزيت أيضا ينتج في مشروعات تخص المعابد. لكن ورشات عصر الزيتون تعمل شهرين فقط، وهي برقابة الموظفين. وماتبقى من العام، كان مختوما بالشمع الأحمر. وكانت كل معاصر الزيت مسجلة. وكانت المناسج والمنسوجات منظمة أيضا، مع أقل من التقييدات. قسم كبير منها يخص مشروعات المعابد، الشهيرة بإنتاج منسوجات فخمة. وفروع الصناعة الهامة الأخرى: إنتاج الملح، الجعة، الزجاج، البردي، كانت أيضا حكرا جزئيا. وكانت كمية العمل والأجر مسواة بدقة. كان أغلب العمال أناسا أحرارا، لكنهم يعيشون أسوأ الشروط: مرتبطون بقبيلتهم، وليس لهم الانتقال إلى قبيلة أخرى إلا بإذن، ومن يخالف يعاد بالقوة. ويؤدي غرامة باهظة.

كانت التجارة محتكرة هي الأخرى. تذهب المنتوجات إلى المزارعين العامين وإلى الموظفين، منظمي التجارة الملكية. والحؤول دون المزاحمة الأجنبية، أقاموا حواجز جمركية لعرقلة استيراد البضائع.

كانت التجارة الخارجية تحتل مكانا هاما في اقتصاد مصر الهللينية. كانت البلاد تصدر، إلى الدول الأوسطية، المنسوجات، البردي، الزجاج وبخاصة القمح. ومنذ بداية القرن الثالث، فيما يخص تصدير القمح، أقصت مصر مزاحميها: ثراسيا وأقاليم آسيا الصغرى. وكان المستورد يتضمن بخاصة مواد الترف للشرائح الحاكمة. ومن المنطقة العربية، تستورد العطور، الذهب، الحجارة الثمينة؛ ومن الهند، العاج، المركبات الملونة، العطارة والرز؛ ومن الصين، الحرير.

كان الدرب التجاري البري يعبر الجزيرة العربية وجنوب سوريا؛ والطريق البحري، عبر البحر الأحمر. لذا أوصل آل بتولميه قناة النيل إلى البحر الأحمر التي حفرت بأمر الفرعون نيشايو. كانت مراكب النقل تتسع حتى ٣٠٠ طن. وكان آل بتولميه يمتلكون آنئذ أقوى أسطول تجاري. وكانت دروب القوافل نشطة بشكل ملحوظ. وكانت كل التجارة الضخمة حكرا على الملك،وكانت كل وسائل النقل (السفن، المطايا) مسجلة ومستخدمة في التجارة الملكية.

فتطور العديد من المدن بشكل كبير. صارت الاسكندرية مدينة ذات أهمية عالمية، واحتلت المقام الأول. وصفها سترابون في كتابه "الجغرافيا". كانت مدينة ضخمة، بنيت حسب تخطيط معماريين يونان: دنوكرات دي رودس وسوسترات دي كنيد. يقطعها شريانان، وفيها شوارع عريضة ومستقيمة (طول الشارع الرئيسي ٦كم). البلاط، التقنية وإضاءة الشوارع، والحدائق، الأروقة، المسارح، ميادين الخيل والملاعب، تشكل كلها خواص مدينة هللينية غنية وجيدة الإدارة. وكان حي القصور الملكية يتميز برونق فريد. كان هذا الحي يشغل ثلث المدينة. وكان كل ملك يبني قصرا، يباري روعة سابقيه. رياض، حدائق آهلة بالحيوانات النادرة، مسابح فخمة، مساكن لزرافة من الخدم قرب مقام العاهل. وهنا تشاد المقابر الملكية، حيث ترقد جثة الاسكندر. وفي الحي ذاته، أقيم المتحف والمكتبة الرائعة الشهيرة. كان متحف الاسكندر ميدانا شاسعا للعلم والفنون.والعلماء، المقيمون والمتغذون على حساب الملك، يعلمون، كما في أثينا، تحت الأروقة والمماشي الظليلة. كانت المكاتب عامرة بعشرات آلاف المخطوطات. جهاز ضخم ينسخها ويدرسها. كان آل بتولميه يتباهون بثقافتهم ورعاية الفنون والعلم. وفي هذا المجال، نشهد ذات المركزية والرقابة التي عرفناها في الحياة الاقتصادية. شبه باحث قديم المتحف بقفص يعيش فيه

العلماء كما الطيور. (أتيني ٤٠١ Athe'ne'e).

كانت عظمة وأهمية الاسكندرية الاقتصادية تتبدى في مرفأيها، رائعي الترتيب والإدارة. كانت المنارة، المبنية فوق صخرة في جزيرة فاروس، واحدة من معجزات العهد القديم. كانت برجاً ضخماً علوه أكثر من ١٠٠م، مكسوّ بالرخام الأبيض. في قمته، تؤرث في الليل نار خشبية ينتشر ألقها في الأفق البعيد، بفعل مرايا معدنية. يشهد هذا الصرح، الذي كلف ثروة ضخمة -٨٠٠ تالانت- على غنى آل بتولميه الأسطوري ومدى قدرتهم البحرية.

كان سكان الإسكندرية رعاياها الأصليين. خلاف الغريكو-مقدونيين والمصريين، كنا نلقى الفرس، السوريين، العرب، اليهود وسواهم، وهذا ما يثبت مرة أخرى الأهمية العالمية لهذه المدينة. كانت منقسمة، حسب المبدأ العرقي، إلى عدة أحياء مستقلة.

ومن حيث المجتمع والسياسة، كان التمييز بين أبناء البلد الأصليين وبين الآتين الجدد غريكو-مقدونيين هو السمة الأبرز. فالبلد (شورا)، الآهلة بابن البلد، تقابل المدينة (بوليس) حيث يضطلع بالدور الأول اليونان والمقدونيون والمعمرون الآخرون. كان الملك سيدّ البلد المطلق، يملك هذا بحق الفتح. وكان السلاطين مؤلهين كما في مصر القديمة، تصاهر أشكال سلطتهم الاستبداد الشرقي. كانوا يحكمون بعون موظفين، أكثرهم مقدونيون ويونان. على رأس الإدارات المركزية يقبع رجال المال، الذين بين أيديهم كل فروع إدارة خزينة الدولة. كان الموظفون يوهبون الأراضي ويتمتعون بكل أنواع الامتيازات.

والجيش، المكون من مرتزقة غريكو-مقدونيين، كان دعامة الملك وسنده. وآل بتولميه، شعوراً منهم بعلاقتهم بالتشكيلات المقاتلة، راحوا يغدقون عليهم الهبات. وقد حموا أيضاً الاكليروس المصري لأهميته الاقتصادية. كانت المعابد تملك أراض شاسعة، ومشاريع صناعية وعبيداً. وكان الكهنة وكذلك العناصر العسكرية والبيروقراطية معفيين من الضرائب. والشرائح المرتاحة من أبناء البلد الأصليين، الذين استخدمتهم الحكومة فيما بعد كسلطات محلية (مثلاً، أمراء قبائل)، والمزارعون العامون المتمتعون أيضاً بالامتيازات، كانوا جميعاً قد اغتنوا بسرعة واندمجوا بإرادتهم بالحضارة الهللينية.

كان "المزارعون الملكيون" يشكلون جمهرة الرعية. ولما كانوا مرهقين بالضرائب والالتزامات، مشلولين بتقييد دقيق لنشاطهم، كانوا مرتبطين كلياً بالمزارعين العامين،

بالمراقبين وبالموظفين من كل نمط وصنف. وكانوا يستغلون عمل العبيد في الزراعة والصناعة. وكانت معاملة العبيد متطورة جدا: كانوا مستوردين بخاصة من النوبة.

كان جهاز الدولة المصرية الهلليني يبهظ كاهل جماهير الناس. كان منظمة تنهال على استنزاف الشرائح السفلى من الرعية الأصلية، لدعم سلطة الفاتحين الغريكو-مقدونيين، والأكليروس والنبلاء، ولتأمين حياة الرغد والترف لبلاط آل بتولميه وحاشيتهم الضخمة. ولم يستفد من تطور التقنية والتجارة، ومن كل إنجازات الثقافة سوى شرائح المجتمع العليا.

كانت سياسة آل بتولميه الخارجية تهدف إلى تحصين حدود امبراطوريتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط، أولا في حوض بحر إيجة ثم بسط سلطتهم على فينيقيا وسوريا، وأقاليم الشرق التي توحدها التجارة البحرية والبرية. في الفترة الأولى من حكم آل بتولميه، كانت مصر تملك سيرين وعدة جزر في بحر إيجة (كريت، جزر السيكلاد، قبرص لسبوس، ساموس، ساموثراس) وأيضا فينيقيا، فلسطين، وجنوب سوريا. كان بتولميه الثالث إيفرجيت (٢٤٦-٢٢١) يتفرد بسياسة الغزو. فمشى إلى فتح آسيا الصغرى، واحتل ساردس وبابل.

تصدى لطمع آل بتولميه في بحر إيجة وسوريا الأنتيغونيد وسلوسيد. دافعوا بنجاح عن مصالحهم في آسيا الصغرى حتى نهاية القرن الثالث. وفي العام ٢١٧، صرعت قوات بتولميه الرابع في فلسطين، قرب رافيا، الملك السوري أنتيوشوس الثالث الأب.

لكن مصر تراجعت منذ القرن الثاني وفقدت هيمنتها في العالم الهلليني. ومن أجل الحروب المستمرة التي كانت تخوضها، كان عدد المرتزقة الأجانب غير كاف بوضوح.وباستثناء اضطرار الملوك لمواجهة المقاومة الدائمة التي تضطلع بها الشرائح المضطهدة، أضعفت البلد النتائج الشؤم لسياسة آل بتولميه الداخلية، المبنية على استعباد الشعب الضعيف. ولقد تبدى النضال الطبقي العارم بالتمردات المستمرة،وبخاصة، بهجرة الفلاحين الجماعية؛ وهكذا تبلبلت حياة مصر واضطربت. فضلا عن هذا، زعزعت أسس الإمبراطورية الفتن والخلافات في قلب العائلة المالكة، التي كانت تفضي إلى انقلابات دموية على جهاز الدولة. فقاد استعار النضال الاجتماعي والسياسي إلى انحطاط البلد.

انتهى تاريخ مصر الهللينية في ثلاثينيات القرن الأخير قبل الميلاد، عندما انتحرت كليوباترا، آخر ملوك بتولميه، بعد هزيمة أكتيوم واحتلال الإسكندرية من قبل الرومان، الذين ضموا مصر إلى إمبراطوريتهم.

دولة السيلوسيدس *Seeleucides*

كانت إمبراطورية السيلوسيدس مجمع شعوب عديدة وبلدا متنافرا، تشكل الجزء الأسيوي من سلطنة الاسكندر.وكانت جغرافيا هذه المناطق في غاية التنوع: وديان خصبة وأنهار غنية، جبال، صحارى وسواحل. كانت الشعوب التي تسكنها من مستويات متباينة اقتصاديا وثقافيا، منذ الوجود الرعوي البدائي حتى الحياة الحضارية في المدن الشهيرة. وكان السيلوسيدس يطلعون بمهمة صعبة الإنجاز: خلق من هذه البلدان والشعوب كلا منسجما. هذا ماكان يميز مملكتهم عن مملكة بتولميه، المتحدة من وجهة النظر العرقية والجغرافية.

يجب أن نشير أن دروب التجارة إلى الشرق (نحو الهند، آسيا الوسطى، والجزيرة العربي) تعبر مملكة السيلوسيدس وإلى الغرب (نحو البحر المتوسط). كانت دروبا نهرية وبحرية، كالفرات والخليج العربي، وشبه ممرات قوافل. كان السيلوسيدس قد ورثوا المدن التجارية القديمة (بابل، دمشق وغيرهما) ومسالك التجارة التي شقتها فارس؛ وكان التطور السابق قد خلق إذن شروط التبادل النشط بين الشعوب. وقد حدد هذا منذ البدء القاعدة الاقتصادية لإمبراطورية السيلوسيد، بحيث منح تطور الصناعة والتداول المدن دورا كبيرا.

واستمرارا لسياسة الاسكندر، تغلب السيلوسيدس على قرابة ٤٠٠ مدينة أخرى. رغبة في جعلها سدا منيعا لحماية الدولة. صار بعضها مراكز تجارية وصناعية ذات أهمية عالمية، مثل سيلوسيا على دجلة، وبخاصة انطاكية على العاصي، عاصمة الامبراطورية. فضلا عن هذه المدن، كان ثمة العديد من التجمعات العسكرية سميت *Katoikia*، كانت أحيانا تتحول إلى مدن، مثل ثكنة دورا-أوروبوس على الفرات. وكانت المراكز الحضارية اليونانية هذه تدعم النفوذ السياسي للأولغارشية الغريكو-مقدونية وتشكل جزرا هيللينية في محيط أبناء البلد الأصليين.

واستنادا إلى تنوع أشكال الاقتصاد، التي تميز دولة السيلوسيدس، والعدد الكبير من المدن حيث تمارس الحواضر الإغريقية إلى جانب سلطة الملك العليا، كان صعبا على القيادات مركزة الحكومة كما فعل آل بتولميه. وهنا أيضا، كان الغريكو-مقونيون يتمتعون بوضع متميز ويسيطرون على أبناء البلد عوض الفرس. كانت السلطة الملكية مؤلهة،وكانت عبادة الملك رسمية. وكان الملك نفسه هو الذي يسمي الكهنة للممارسة

عبادته. كان السيلوسيدس يقولون إنهم سلالة الإله اليوناني أبولون، لكنهم في الوقت ذاته كانوا يدعون أخذهم السلطة من الإله البابلي بل-مردوك. ومن هنا أتى ازدواج سلطة السيلوسيدس. كان الملك يملك جهازا ضخما من الموظفين لجباية الضرائب، بإشراف أحد المختصين؛ أي ممارسة نهج معقد وذكي،بهدف استنزاف الرعية.

غير أن المركزية كانت أضعف مما في مصر. يملك الملك أكثر الأرض، لكن مساحات شاسعة ترك للمعابد، للمدن وللأفراد. وفي حقل الصناعة والتجارة، إلى جانب احتكار الملك لهما، كانت تتطور مشروات خاصة.

كانت المدينتان الرئيستان أنطاكية وسليسيا، صلة وصل بين الشرق والغرب. أهم مدينتين بعد الاسكندرية. وكانت أغلب مدن اليونان تتمتع بالاستقلال. لها مجالسها وجمعياتها الوطنية، وموظفوها المنتخبون، ومعاهد للمراهقين، ودور رياضة وحلبات لألعاب القوى.

كان السيلوسيدس يولون المعابد أهمية أولى، جاهدين في كسب الدين لدعم نفوذهم بين الرعية. عدا أنهم كانوا يخططون لتوطيد أركان امبراطوريتهم بخلق منظمة عسكرية ونهج إداري واحد. فقسموا الدولة إلى ٧٢ ولاية، يحكمها رجل استراتيجي-محنك بالشؤون الحربية؛ وأدخلوا إليها نهجا نقديا وتقويما وحيدا، ومنذ العام ٣١٢ بدأ الـ"عهد السيلوسيدس". ورغم كل هذا، لم تكن دولتهم قوية ولامستقرة. كانت الشعوب هنا تتطلع إلى الحرية. وكان النير الضريبي وعسف الموظفين يفضي إلى تعميق وتوسيع التيارات الانفصالية. بلغت امبراطورية السيلوسيدس أوج امتدادها في عهد سيلوكوس الأول نكاتور (المنتصر، ٣١٢-٢٨٠) الذي بسط حدوده من آسيا الصغرى حتى الهند وملك على سوريا وفينيقيا. لكن التفكك بدأ في عهود أحفاده المباشرين. خسر أنطوشوس الثاني (٢٦١-٢٤٧) باكتريان وبارثيا. وبجهد مضن جمع أنطيوشوس الثالث العظيم دولة كانت عند حد التبدد.

قاد هذا العاهل صراعا مستمرا ضد مصر. نجح مؤقتا في احتلال فلسطين وفينيقيا. لكن تدخل روما وضع حدا لدولة السيلوسيدس. فبعد هزيمة أنطيوشوس (١٩٠ق.م) أمام الرومان في مانيزيا، صارت سوريا عمليا محمية لروما؛ وأخيرا، في العام ٦٤، تحول مابقي من الإمبراطورية إلى أقاليم رومانية.

إن الصراع الطويل من أجل استقلال فلسطين في عهد أنطيوشوس إيفان (١٧٥-١٦٤)، مثال على مقاومة الشعوب المضطهدة.

كان سبب هذه الحركة هو منع العبادة العبرية والأغرقة المفروضة من قبل أنطوشوس إيفان؛ ويهوذا، ابن ماثاثياس، الملقب ماكابي (طبعا من الكلمة اليهودية ملكبيت، المطرقة)، ترأس الحركة الشعبية، التي استعرت بنضال حاد ضد العناصر الارستقراطية التي كانت قد ألحقت بالمضطهدين الأجانب. كانت القدس مركز الصراع. بداية، هزم المتمردون، وأعمل الملك مذبحة هائلة: قتل الرجال، وبيعت النساء والأطفال عبيدا، ودمرت جدران القدس. لكن مقاومة اليهود لم تسحق، اتسعت الحركة وبلغت شرائح يهودا التاجرة والحرفية. وفي العام ١٤٢، استرجع سيمون ماكابي (أخ يهودا) القدس وأرسى الاستقلال. استمر الصراع، لأن السيلوسيدس لايمكن أن يعترفوا بخسارة القدس. لكنهم لم يستطيعوا احتلالها مجددا.

امبراطورية الأنتغونيد *Antigonides*

بعد موت أنتباتروس (٣١٩)، احتل مقدونيا كساندروس الذي وضع أنصاره على رأس كل الدول اليونانية. وهكذا، عادت سلطة أثينا إلى دمتريوس دي فالير الذي حكم معتمدا على الحامية المقدوينة. مارس مبادىء أرسطو، فقضى على ديموقراطية أثينا، وفرض الضرائب واحتل ثروة الفئات الغنية. واعتبره الأثينيون طاغية.

كان دمتريوس بوليورست، ابن أنتيغونوس، "محرر" الأثينيين وباقي اليونان. ظهر في العام ٣٠٧ في البيري مع أسطوله وأعلن بواسطة البشير أن أباه كلفه بتحرير الأثينيين وإعادة إعمال القوانين السابقة. طرد من أثينا دمتريوس دي فالير وأعاد الديموقراطية. مجده الأثينيون بل عظموه. وهبوا لقب الملك لأنتيغونوس ودمتريوس، رفعوا لهما الأنصاب، خلقوا قبيلتين جديدتين باسمهما، إلخ. لكن دمتريوس لم يستطع في هذه الحقبة أن يستولي على اليونان كلها. فدعاه أبوه إلى آسيا الصغرى ليقاتل ورثة الاسكندر المتحالفين. وبعد هزيمة انتيغونوس ودمتريوس استطاع قرب إبسوس فقط، أن يستعيد موقعه بفتح مؤزر لليونان، وعاد في العام ٢٩٧. احتل دولا يونانية وصار ملك مقدونيا (٢٩٣).

كانت حكومة دمترويس في هيللاد (٢٩٣-٢٨٨) استبدادية جامحة جرجت كلبيته اليونان. هكذا، عندما كان العاهل يعيش في أثينا، كان يسكن البارتينون؛ وأعاد لمحظييه المال المنهوب من الناس تحت اسم ضرائب، إلخ. وقد أثارت إقامة دمتريوس في شبه

جزيرة البلقان مقاومة الملوك الهللينين الآخرين. ونشبت نزاعات مع فيروس، ملك إيبريـــا؛ أما بتولميه، سلوكوس ولزماك، فقد تحالفوا من جديد ضد دمتريوس. وفـــي العـــام ٢٨٨، اقتحم لزماك وبيروس مقدونيا من الجهتين المتقابلتين واحتل بتولميه أثينا. ترك دمـــتريوس في اليونان ابنه أنتيغونوس غوناتاس، وعاد بأسطوله إلى آسيا الصغرى، حيث هـــزم فـــي صراعه ضد سلوغوس، واضطر أن يستسـلم فـــي العـــام ٢٨٦. واضطـــر أنتيغونـــوس غوناتاس، الذي تسنم العرش بعد موت أبيه (٢٨٣)، أن يخوض معركة ضاريـــة ضـــد آل غالاتس (٢٧٩) الذين دخلوا البلاد ووصلوا دالفيا. أسس أنتيغونـــــوس غوناتـــاس (٢٨٣-٢٣٩) أسرة الأنتيغونيد المقدونية. ووطد سيطرة مقدونيا في شمال ووسط اليونان، ووضـــع حاميات مقدونية في نقاط استراتيجية رئيسة: بيريا، منيشيا، كورنثيا، دمترياد، إلخ.

كان أنتغونوس غوناتاس، الذي تربى بروح الفلسفة الإغريقية، تلميذ الرواقيين؛ أحـــاط نفسه بالعلماء والشعراء اليونان. واستنادا إلى قوة النفوذ الإغريقي وغياب الاستبداد، لم تكن سلطة الإنتغونيد ملكية؛ فقد حافظت على طبيعة السيطرة. وفي صراعهم من أجل الهيمنـــة على حوض بحر إيجة، اصطدم الأنتغونيد بآل بتولميه وآل سيلوسيدس. فضلا عـــن هـــذا، توجب على ملوك مقدونيا أن يرأسوا قبائل الشمال والشرق الذين كانوا يهاجمون ممالكهم.

ومنذ نهاية القرن الثالث، يبدأ تغلغل روما في البلقان، وبعد صراع طويل، صـــــارت مقدونيا في العام ١٤٨ ولاية رومانية.

مملكة برغام *Pergame*

ولدت هذه الدولة في منطقة برغام، بناها أحد خلفاء الاسكندر (لزماك)، وبفعل وضـــع سياسي ملائم، نالت استقلالها في العام ٢٨٣. أوقف الملك أتـــال (٢٤١-١٩٧) المنتصـــر على الغالات، وسعه في آسيا الصغرى وعزز تحصين مملكة برغام. استغل ملوك أســـرة الأتاليد بمهارة الصراع الدائم بين آل بتولميه وآل سيلوسيدس ومارسوا سياسة ذكيـــة مـــع روما. بلغت مملكة برغام ذروتها في النصف الأول من القرن الثاني. كان هذا يوم تحولـــت روما إلى دولة متوسطية وصارعت مقدونيا وأنتوسشيوس في سوريا. كانت روما بحاجـــة لمن يؤازرها في الشرق، لذلك كافأت بسخاء ملك برغام أومين الثاني لقاء المساعدة التـــي قدمها، بإعطائه قسما كبيرا من آسيا الصغرى. أراض خصبة، مراع غنية، غابات، معادن، مرافيء عديدة مزدهرة، كانت كلها بمثابة عناصر مناسبة ليزدهر اقتصاد برغام. حـــازت

بعض فروع الصناعة فيها شهرة عالمية. كان ديباجها وأصوافها ذائعي الصيت في الحوض المتوسط؛ وسميت مواد الكتابة المصنوعة من جلد العجول أو الخراف "*parchemin*"، نسبة إلى مكان إنتاجها الذي كان برغام. وكان أسطول ضارب يؤمن علاقاتها مع رودس، أثينا وديلوس.

كانت مملكة برغام التي تتضمن العديد من المدن، تشبه كثيرا الدول الإغريقية الأخرى. إذ كان ملوكها يحاولون أيضا احتكار فروع الاقتصاد الرئيسة. لكن تباين البلاد (سكان أصليون ومدن يونانية متطورة) منعت تحقيق مشروعاتهم. وفيما يخص الملكية العقارية، والصناعة والتجارة، كان فيها، إلى جانب ملكية الملك، ملكية المعابد والأفراد. ولقد أرث الاستغلال الوحشي للعبيد، للفلاحين والناس الأحرار المستخدمين في الورشات الملكية والخاصة، النضال الطبقي وألهب، في العام ١٣٣-١٣٠، عصيانا في أرستونكوس.

من وجهة النظر الحضارية، لعبت برغام، أحد أصغر الممالك الإغريقية، دورا هاما جدا. فقد أراد ملوكها أن يشتهروا بحماية الفنون والعلوم. وكمعجبين بالثقافة الإغريقية، كانوا يدعون إلى قصورهم العلماء، الفنانين، وبنوا المكتبة الرائعة التي فاقت من بعض الزوايا، مكتبة الإسكندرية. وكان الملوك أنفسهم يرعون معهد ألعاب القوى في برغام، حيث يربى الناشئة، بعد أن وضعوه تحت مراقبتهم المباشرة. وكان الملوك يدعمون الدين الإغريقي. ولقد تفرد ملوك الإغريق بتسمية كبار الكهنة واستخدموا الدين لتعزيز سلطتهم، بربطه بعبادة الملك.

كانت برغام شهيرة، بين المدن الهللينية، بجمالها وانتظامها. وكان معبدها الضخم الرائع، الذي شيد لتمجيد زيوس، أبهى آثارها وأجملها.

في منتصف القرن الثاني سقط الأتاليد في ربقة الرومان، "حماتهم"، الذين صاروا سادة البلاد الفعليين. ترك أتال الثالث، الذي رأى عدم جدوى المقاومة، والذي خاف من تفاقم الصراع الطبقي، ترك مملكته للرومان. وفي العام ١٣٣، تحولت برغام إلى محمية رومانية باسم "الإقليم الأسيوي".

رودس

في العالم الهلليني احتلت جزيرة رودس مقاما متفردا. بموقعها بين آسيا الصغرى، سوريا، مصر والدول اليونانية البحرية والبرية، كانت وسيطا في غاية الأهمية بين المراكز

الهلينية. انتقال الدروب التجارية نحو جنوب بحر إيجة، وانتصار الاسكندر الكبير على صور، والمركز التجاري السابق للساحل الفينيقي، جعل رودس، في القرن الثالث، مرفأ بحريا هاما ونقطة انتقالية في غاية الأهمية. كانت البضائع الرئيسة القمح، الخمر، والعبيد تعبر مرفأها. وكان عبورها يتجاوز عبور أهم المرافئ اليونانية، يوم كانت في أوجها. وكانت رودس شهيرة أيضا بأعمال المراباة. وبين مدينيها، بعض الملوك الأجانب.

ونظرا لضيق مساحتها وعدم كفاية مناهلها الطبيعية لتغذية رعيتها، كانت رودس تعيش من التجارة. لذا خاضت نضالا ضاريا ضد القراصنة لتأمين البحر، وكان صراعها كبير الأهمية في تمتين الروابط البحرية بين الدول الهللينية. وكان تعمير السفن الحربية يقع على كاهل المواطنين الأغنياء الكبار. وكان بحارة رودس معروفين بحنكتهم.

واهتماما منهم بتوطيد وحدة الدول الهللينية، الضرورية لتطوير علاقاتهم الدولية، قبل سكان رودس سلسلة من القوانين الناظمة لتجارة البحار. ومن حيث المظهر الخارجي، كانت المدينة تثبت ازدهار الدولة. يكتب سترابون: "إن مدينة الروديسيين تتجاوز بمرافئها، شوارعها، أسوارها وصروحها العامة الأخرى باقي المدن". لكن مجدهم، كان يتبدى في تجهيز أحواض سفنهم؛ فلم يسمحوا للأجانب بدخولها، لكي يصونوا سر أطقمها.

من حيث السياسة، كانت رودس جمهورية تجارية، فسلطتها في يد ثلة مغلقة من الأرستقراطية المتاجرة. فكانت ولاية ألغارشية منفردة. الجمعية الوطنية، المجلس والولاة هم عناصر السلطة. الدور الرئيس بيد ستة حكام منتخبين لستة أشهر من أعضاء المجلس. والسلطة الحربية تخص قائد الأسطول. وكبار الموظفين جميعا من محتد أرستقراطي.

بدأ انحطاط رودس في منتصف القرن الثاني ق.م، يوم دعم الرومان، بعد أن صاروا سادة البحر المتوسط، تفوق جزيرة ديلوس، بمنحها حق التجارة الحرة، المعفاة من الجمارك.

بكتريان، سوجديان، خوارزم

كما تدل أعمال علماء الآثار السوفيات، بخاصة أعمال س.تولستوف، كانت آسيا الوسطى، لاسيما خوارزم، واحدة من المناطق الأقدم في الحضارة الإنسانية. فعند غزو آسيا الوسطى، اصطدم الاسكندر المقدوني بالعديد من القبائل الزراعية والرعوية. وفي امبراطورية السيلوسيدس، كان دور أراضي آسيا الوسطى وشعبها يزداد أهمية. وفي العام

٢٥٥، أعلن الوالي ديودوت نفسه عاهلا على باكتريان وسوجديان. في تلك الحقبة، كان تطور اقتصاد وثقافة هذه البلدان الواقعة بين المجرى الأوسط لنهر إيساكرت وأوكيس (اتلسير-داريا والأموداريا) قد بلغ مستوى عاليا: إذا ما صدقنا الكاتب الروماني جوستان، "كانت تسمي بلد المائة مدينة". وحسب معطيات علم الآثار الحديث، كان هذا الإقليم يغص بالمدن، وكان بعضها مدنا كبيرة. كانت مساحة باكترس (اليوم بلكاه) ١٦كم٢. ولقد ضرب ديودوت النقود؛ وتشهد نقود هذا البلد الغريكو-باكترين، التي وصلتنا، على تقدم تقني فذ.

في عهد ديودوت وأحفاده المباشرين، بقيت البلاد في علاقات ثقافية واقتصادية مع نواة ميزوبوتاميا-السورية من إمبراطورية السيلوسيدس. إنما بدأ الانحطاط السياسي لهذه الامبراطورية، أيام نمو دولة آسيا الصغرى الحدثية السريع. وفي العام ٢٢٧، استلم السلطة القائد العسكري اللامع أوثديم، اليوناني الأصل، وبعون القبائل الأصلية (الساس *Saces*)، خاض صراعا ضد السيلوسيدس أنطيوشوس الثالث. كانت دولته تشمل آسيا الوسطى، من بحر كاسبيين *Caspienne* حتى حدود الصين، تقريبا كل إيران والأراضي التي تتاخم المجرى الأسط والأدنى من أمو-داريا وتنبسط حتى السهوب والمناطق شبه-الصحراوية. وكان الشعب المزارع يعيش في ضيع ضخمة منيعة، ذات فن معماري رفيع. اكتشفت أوابدها ودرست في خوارزم على يد س.تولستوف، الذي سمى تلك الحقبة من تاريخ آسيا الوسطى "حضارة الكانغي *civilisation de Kangui*". كان مركز هذه المملكة العظيمة مدينة سمرقند، التي كان ريفها غاصا بالسكان ويفيد من شبكة واسعة من الأقنية. كانت حديقة واسعة، "لؤلؤة إيران"، كما يقول الكاتب أبولودور. وكان وادي فرغانا، وهو جزء من دولة أوثديم، مزدهرا هو الآخر. وكانت الممالك مقسمة إلى مقاطعات إدارية، إيالات، وتضم أيضا أمصارا شبه-مستقلة. وكان في أمو-داريا بحرية حربية. وقد أقامت الدولة الغريكو-باكترة علاقات اقتصادية مع الصين والهند من جهة، ومع ميزابوتاميا وسوريا من جهة أخرى. وكانت البعثات تنطلق إلى سيبيريا الغنية بالذهب.

من المرجح أن التنقيبات الجديدة ستطلعنا على العلاقات الاجتماعية والكثير من الظاهرات الهامة من الحياة السياسية التي عاشتها هذه الدولة المحطة الأهم للثقافة الإغريقية من آسيا الوسطى، اكتشفت حديثا على يد علم الآثار السوفياتي.

عدا الدول الهللينة المذكورة، كان ثمة دول أخرى. كان أهمها البارثي والبونت التي يرتبط تاريخها بخاصة بتاريخ روما.

الفصل السابع والثلاثون

اليونان الهللينية

بعد موت الاسكندر المقدوني، اشرأبت آمال التحرر من النير المقدوني لدى كل الدول اليونانية. وترأس أثينا هذه الحركة العارمة الشاملة. وتحول التمرد إلى حرب لامية (٣٢٣-٣٢٢)، باسم مدينة لاميا، في تساليا، حيث حوصر انتباتروس، حاكم مقدونيا، لكن النزاع، الذي كان بداية لمصلحة اليونان، انتهى بنصر مقدونيا وذبح العصاة. وتوطدت سيطرة مقدونيا من جديد، وأدين ديموستين، الذي اضطر إلى ترك أثينا بالموت غيابيا، وتجرع السم يائسا.

على ذلك، لم تسحق مقاومة أثينا الضارية. بل نشبت حرب جديدة بقيادة الأثيني كرومونديس، في أواسط القرن الثالث. وانتهى النزاع بهزيمة اليونان أيضا. وخنقت الديموقراطية الأثينية. ولم تعد أثينا تلعب الدور الرئيسي في النضال من أجل استقلال وتحرير كل هيللاد. وبعد اندحارها، انتقلت السيادة في تاريخ اليونان إلى دول أخرى.

كانت أزمة الاقتصاد العبودي عميقة جدا في دولة متطورة مثل أثينا. وقد نجم تبدل الطرق التجارية نحو الجنوب الشرقي عن أهمية الشرق الأدنى المتنامية؛ وظهور المراكز الجديدة (الاسكندرية، رودس، وغيرها) التي احتلت طرقا دولية؛ وتفاقم الصراع الاجتماعي بين الجماهير البروليتارية والفئات الغنية، وأفضى كل هذا إلى تأخير دول اليونان القارية، المزدهرة سابقا. وبالمقابل، كانت الدول الأكثر تخلفا، حيث التناحرات الداخلية أقل بروزا، كانت أكثر استمرارا وأكثر تصميما على النضال الدائر.

اضطلع بالدور الأهم في حياة اليونان للقرن الثالث ق.م. اتحادات المدن، بخاصة اثنتان: الجامعة الإيتولية والجامعة الآشية. استطاعت الأولى (حوالي العام ٣١٤)، التي عززها التطور الحرفي والتجاري، أن تطرد احتلال الغالات في العام ٢٧٩. وضمت أيتوليا، بعض مناطق اليونان الوسطى، بخاصة دالفيا، وجنوب تساليا ومدنا أخرى.

والجامعة الآشية التي كانت تضم، عدا آشيا، مدن اليونان الأهم: سسيون، كورنثيا، ميغار، احتلت أخيرا القسم الأعظم من بلوبونيز.

بخلاف الاتحادات السابقة، كان المتحدون متساوين بالحقوق والاستقلال في شؤونهم الداخلية. وكان يوجد في الجامعتين، مؤسسات عامة للسلطة: ١)الجمعية العامة، تجتمع مرتين في العام، ويمكن أن يشترك فيها كل أعضاء التجمع المتحد؛٢)المجلس المنتخب، وهو المؤسسة الدائمة؛ ٣)الحاكم، المنتخب أيضا، رئيس السلطة العسكرية والمدنية.

يصدر الخلاف بين الجامعتين من حيث تكونهما. فبينما تضم الجامعة الآشية المدن الكبرى التجارية، مثل كورنثيا أو ميغار، تضم الجامعة الإيتولية الصفة الأكثر ديموقراطية حيث تهيمن المبادئ الأولغارشية.

اكتسبت الجامعة الآشية أهمية فريدة في عهد الحاكم آراتوس (٢٤٥-٢١٣) الذي حولها، حسب بلوتارك، "إلى جسد سياسي متحد". شغل منصب الحاكم لـ٣٣ سنة وعرف، بدعم من الأولغارشيين، أن يوسع حدود الجامعة، فألحق مدنا كبرى مثل كورنثيا، ميغار وميغالوبولس. وكان لانضمام كورنثيا أهمية كبرى جدا، لأنها، عدا دورها الاقتصادي، كانت تحتل موقعا استراتيجيا من الدرجة الأولى. عقد آراتوس صلات صداقة مع مصر ومقدونيا. وبفضل نشاطه، أخذت الجامعة الآشية وزنا على المدى الدولي وبدأت تتدخل في حياة الدول البلوبونيزية. من الطبيعي أن يثير هذا التوجه الأولغارشي في الهيمنة مقاومة الدول الأخرى، بخاصة الدول الديموقراطية. فقامت علاقات عداء بين التجمعين المتحاربين من أجل السيطرة على اليونان.

كانت إسبارطة وحدها تمسك بيديها الدور الأول. ولقد بدلت العلاقات النقدية وتطور الملكية الفردية تبديلا هاما في القرن الرابع الاقتصاد المتخلف طبيعيا. ولقد سدد الحاكم السبارطي ابتادوس (في حوالي العام ٤٠٠) طلقة الرحمة إلى النظام المشاعي. حسب هذا القانون، يستطيع الإنسان أن يوصي كما يشاء (وحتى أن يبيع) نصيبه من الأرض. وتم، من جهة ، تمركز الأرزاق العقارية بين يدي عدد محدود من السبارطيين (قرابة ١٠٠ أسرة نبيلة)، ومن جهة أخرى، خراب وإفقار وتكبيل بالديون أوسع فئات إسبارطة. وتتبدل الأخلاق فجأة: كما يذكر بلوتارك، وتتحمس النبالة اللاسدمونية لجمع الفضة والذهب. ويحل البذخ والرغد مكان الشظف والتقشف السابق. وتتحول إسبارطة إلى عدد من الأسر فاحشة

الثراء وتصير حاكمية إسبارطة السلاح الرئيسي. وقد اضعف السلطة الملكية أكثر فأكثر خوض معركة بين الشخصيات الجديدة واندحار العائلات القديمة.

ويخلق استعار التناحرات الداخلية وضعا سياسيا متأزما انتهى بانفجار، حثته إصلاحات الملك الشاب آجيس الرابع (٢٤٥-٢٤١).

ربي هذا المصلح ابن التاسعة عشر ربيعا بروح الفلسفة الرواقية التي تجحد دور الأرزاق المادية في الحياة. وكان يعتبر أخلاق إسبارطة القديمة الممثل الأعلى للحياة الاجتماعية ويؤمن بإمكانية تجديد دور بلاده بإعادتها إلى النظام الذي أقامه منذ قرون الخرافي ليكورغ. ففي القرنين الرابع والثالث ق.م. ظهرت فيها أعمال سياسية وفلسفية. واستنادا إلى هذا الادب، اقترح آجيس العودة إلى النظام السابق بتوزيع الأرض على السبارطيين الفقراء والمحرومين من كل الحقوق. وخلق الأساس الزراعي، كان يجب، حسب آجيس، مصادرة من الأولغارشية الحقول التي حازتها رغم شريعة ليكورغ، وتقسيمها بالتالي إلى ٤٥٠٠ حصة أو سهم. وعند عدم وجود إسبارطيين، يكمل العدد بمن تلقى "تربية راقية". وشرع أيضا بخلق ١٥ ألف حصة خاصة بهم. وهكذا رفعت القدرة القتالية السبارطية، المؤسسة على المواطنين المحاربين وليس على المتطوعين. ورغب آجيس في بعث المؤسسات وعادات إسبارطة القديمة، بخاصة تربية الدولة، أي أخلاق التقشف والشظف. لكنه رغب في فرض هذا البرنامج من أعلى، دون إلغاء النظام القائم؛ وفضلا عن هذا، سعى إلى إرساء الوضع السابق. بداية نجح نشاطه. وألغيت سندات الديون. لكن ما أن طالب الشعب بتوزيع الأرض حتى بدأ رفاق نضال آجيس (مثل آجزلاس المالك العقاري الغارق بالديون) مقاومته بحزم وحالوا إبعاد الملك. اقتنع أجيزلاس بمؤازرة الجامعة الآشية له كونها ضد الجامعة الإيتولية. وكان لغياب آجيس نتائج مؤسية على الإصلاح الذي، أمام معارضة وازدواج الرؤساء، لم يفض أبدا إلى توزيع الأرض. احس الشعب بأنه غدر؛ ويئس محرضو الحركة وخاب رجاؤهم. ولما عاد الملك إلى إسبارطة، لم يستطع مصاولة خصومه.ولما هدد من كل الجهات، اضطر أن يلجأ إلى أحد المعابد، فلم يتردد بعض الحكام من القبض عليه وقتله.

لكن هذه المشروعات انبعثت من جديد على يد كليومين، الذي صار ملكا في العام ٢٣٥. لابل كثرت الخطط ونشطت الأساليب. وفضلا عن التدابير الاجتماعية والاقتصادية،

كان ينوي البدء بإصلاحات سياسية: قمع الأولغارشية، دعم نفوذ إسبارطة الخارجي، وبسط هيمنتها على كل اليونان. وبعد تجهيز جيش مرتزقة ضارب، ناصر الجامعة الآشية. وبعد أن دعم وضعه، رجع إلى إسبارطة وقام بانقلاب مستندا إلى قواته. اغتيل الحكام السبارطيون ورميت مفروشاتهم إلى الشارع، إمارة على إلغاء الحاكمية. وأبطلت *la gerousia*. ونفي أنصار الأولغارشية. وأتى ذوو التربية الصالحة والأرقاء ليضخموا صفوف المواطنين. ووزعت الحقول المصادرة إلى أسهم مشتركة. ومثل آجيس، سعى كليومين إلى عودة الأخلاق السابقة وتوطيدها واتبع هو نفسه السنن الماضية. وشكلت مملكته، وقد صارت مركزا ثوريا، خطرا كبيرا على الفئات المالكة في الدول المجاورة، بخاصة على الجامعة الآشية. وفي أركاديا وكورنثيا، تعاطف كل الشعب مع كليومين وأرادوا أن يطلقوا طلقة الرحمة على الأغنياء.

كان أراتوس هو الذي يقود النضال الاجتماعي في إسبارطة. ولقد ضحى باستقلال هيلاد يوم دعا ملك مقدونيا، عدو اليونان المعروف، لمساعدته. يسمي بلوتارك هذه الخطوة "خطوة مدانة من يوناني". فبمساندة انتغونوس دوزون، ملك مقدونيا، دحر كليومين في سلازيا (٢٢١) وهرب إلى مصر. وفي اسبارطة، ألغيت إصلاحاته لتعود إليها الأولغارشية.

ينبع فشل هذه الحركة بخاصة من ان عتق العبيد وإصلاح وضع الارقاء لم يكن أبدا الهدف المباشر للمصلحين. هكذا، حرر كليومين بعض الأرقاء المشرفين على كآخر تدبير ليدعم جيشه في القتال ضد الجامعة الآشية.

تفاقمت الأزمة الاجتماعية في إسبارطة وأحدق الخطر بالأغنياء ملاك العبيد، بخاصة عندما انضم العوام إلى الأرقاء. وفي العام ٢٠٧، قاد نابيس، وقد صار أحد الطغاة المستبدين، المضطهدين المتمردين. وفي عهده، بلغت الصراعات الاجتماعية ذروتها. أعطى العوام والأرقاء حق المواطنة، أبعد الأغنياء ووزع أرزاقهم على المملقين. وسعيا لتعزيز القوات المسلحة، جند العديد من المرتزقة وتحالف مع كريت ليقرصن البحار مع قراصنة كريت.

إن بعض الباحثين القدماء مثل بوليب، بلوتارك أوتيت-لايف، لسان حال الطبقات السيدة، يقدمون نابيس بطريقة مغرضة جدا: كان، باعتقادهم، طاغية فظا وشرها، يحيط

نفسه، حسب بوليب "بالقتلة وقطاع الطرق". ونحن لانملك سوى معطيات. ضئيلة لإعطاء صورة صادقة عن عهده. والمؤكد أنه حقق إصلاحات جسورة وعرف كيف يخلق من إسبارطة دولة عزيزة الجانب، تحترمها مقدونيا وروما.

وبعد خمس عشرة سنة من الحكم، سقط نابيس في العام ١٩٢ في الصراع ضد الجامعة الآشية، الذي أثاره الرومان. قتله غيلة الإتوليون الذين دعاهم هو نفسه لمعونته. وبعد موته، خنقت الحركة الشعبية بوحشية في إسبارطة، التي انضمت إلى الجامعة الآشية وتخلت هكذا عن استقلالها.

في تلك الحقبة، كانت سياسة مقدونيا الخارجية، وكذلك الدول الأخرى الهامة والجامعات الإغريقية، تتعلق بروابطهم بروما. احتل الرومان شبه جزيرة البلقان في نهاية القرن الثالث ق.م. كان الوضع ملائما جدا لأساليب المحتلين. كان تفكك العالم الإغريقي، والحروب الداخلية المدمرة، وتفاقم الصراعات الاجتماعية داخل الدول تفرش البساط أمام التدخل الروماني. وكانت سياسة الرومان تقوم على إذكاء هذا العداء والإفادة منه لإرساء سيطرتهم. فضلا عن أن الرومان كانوا يؤمنون دعم الأرستقراطية اليونانية بتشجيع الأحزاب الموالية لهم.

نجم احتلال الرومان لشبه حزيرة البلقان عن ثلاث حروب مقدونية، دامت متقطعة من العام ٢١٥ إلى ١٦٨. كانت حرب مقدونيا الثانية (٢٠٠-١٩٧) هي صاحبة السهم الأكبر في توطيد السيطرة الرومانية في البلقان. وقد حاول تيتس كونتيس فلامنينوس، الستراتيجي والدبلوماسي الروماني الماهر، تقديم الغزو الروماني كـ"تحرير اليونان" من النير المقدوني. انتهت حملاته الموفقة ضد فيليب الخامس، التي تمت بالاتحاد مع الجامعات الآشية والإيتولية، أثينا وسبارطة، بنصر سنوسفالس (١٩٧). كانت مقدونيا في النزع الأخير، فسقطت هيللاد كلها بيد الرومان. وبعد التمرد الذي أجهض في العام ١٤٦، فقدت اليونان استقلالها نهائيا. وصار استقلالها منذئذ مرتبطا ارتباطا متينا بتاريخ روما، التي لم تكن اكثر من إيالة متواضعة.

الفصل الثامن والثلاثون

الساحل الشمالي للبحر الأسود

الإغريق والسيش *les Grecs et les Scythes*

لقد أغنت التنقيبات في شواطيء البحر الأسود الشمالي، التي أخذت أوسع مدى في النظام السوفياتي، كل عام العلم بكشوفات جديدة. فالعلم السوفياتي يسعى للكشف عن السمات الأصلية لحياة السكان الأصليين وتوطيد تفاعل ثقافة هذه الرعايا والمعمرين اليونان.

شرع اليونان بإبراز قيمة الساحل الشمالي للبحر الأسود في القرن السابع ق.م. كان هذا في بداية عمل تجار إيونيا الذين أتوا ليشتروا القمح، السمك والعبيد، وليبيعوا المنتوجات اليونانية. ومنذئذ تبدأ أعمالهم التجارية، أو وكالاتهم ومكاتبهم، مثلاً، مكتب جزيرة بيرزان (في مصب الدنيبر). ثم، في القرن السادس يبرز الاستعمار المنظم من قبل الحواضر والذي ترجم إلى تعمير مقاطعات جديدة والإقامة فيها.

كان الاستعمار اليوناني على تماس حميمي مع سكان شمال الحوض البونتي[1]، وأهمهم السيث *Scythes*، المقيمون منذ القرن الثامن على الأرض الواسعة بين نهري الدون والدانوب. تكوّن أغلب هذه القبائل من تفكك نظام الأفخاذ والعشير والانتقال إلى المجتمع الطبقي. وعلى سهوب شط البحر الأسود كانت تعيش قبائل الرعاة، وفي منطقة الدانوب كان يعيش الفلاحون. ولدى السيث، وجدت العبودية بشكلها الأبوي وبرزت ملامح الفوارق الاجتماعية. ولقد ساهم التطور الحرفي (مهنة الجلود، الأصواف، الفخاريات) والتجارة (أساساً القمح، الدواب، السمك والعبيد) مع مستعمرات بونت-أوكسن إلى اغتناء أعيان المجتمع السيثي، وبخاصة نبلاء الدم والمقاتلون وأمراء القبائل. فقبورهم تغص بالأسلحة

---

[1] – نسبة إلى مملكة البونت القديمة الواقعة في شمال شرق آسيا الصغرى.

المزدانة بأحلى النقوش وأطقم الخيل الباذخة، وأواني الذهب والفضة، والزينات المتنوعة (الجواهر المعلقة بالعنق، والأساور والخواتم، وسواها). وقد اشتهرت مدن آسيا الوسطى (نكوبول، كيرتش، وغيرها بأفخر القطع الذهبية والفضية، المكتشفة حديثا في تلك المقابر. وكان الفنانون اليونان الذين يصيغونها بناء على طلب، وحسب أذواق أرستقراطية السيث، يزينونها بمناظر الحرب وعادات السيث.

les Kourganes أضرحة يتراوح ارتفاعها بين ١٥-٢٠م، وجد في غرفها السردابية، المتخمة بحاجات بديعة حزينة، فضلا عن زوجة الميت، ومحاربيه، عبيده وأحصنته. كان السيث سليل علية القوم يرغب أن يأتي العالم الآخر مع حرسه الغفير الذي كان يرافقه في حياته. لكن إلى جانب هذه الصومعة الاحتفالية، ثمة قبور لبسطاء القوم. أغراضه المتواضعة -سيفه الحديدي وأوانيه الفخارية عادية الصنع- تشير إلى الفرق البين بالثروة وشروط مختلف الفئات الاجتماعية.

مع تطور المجتمع السيثي وانقسامه الطبقي، كان لابد من تنظيم الدولة، بشكل يتصف بالبدائية. وانطلاقا من منتصف القرن الرابع، كان التجمع السيثي تحت سلطة سلطان واحد، لكن هذا كان بالفعل تجمعا واسعا من القبائل. كان مركزه قرية كبيرة هي كمانكسا، قريبة ممايعرف الآن بنكوبول والتي اكتشفها حديثا علماء الآثار السوفيات. وفي القرن الثالث خضع السيث أكثر فأكثر لاضطهاد السارمات *Sarmates* الذين كانوا يعيشون شرق نهر الدون. أمام هذه المطاردة، تحولت عاصمة السيث إلى القرم؛ حيث ولدت دولة في القرن الثاني، يحكمها ملك سكيلور، وخلفه ابنه بالاك. كان مقامهم في حاضرة السيث (المدينة الجديدة قرب سمفروبول). ولقد كشفت حفريات الأعوام الأخيرة في هذه الأمكنة حضارة غنية. كانت نيلنوف حصنا عجيبا تتخطى تحصيناته متانة مواقع المدن الساحلية. جدرانه من كتل حجرية مملطة بالآجر الممزوج وهو ميزة البنيان السيثي. في أحياء السكن، اكتشف الكثير من الحفر المحتفظة ببقايا القمح، الشعير والدخن، الأمر الذي يثبت وجود زراعة متطورة؛ وتؤكد أكوام عظام الحيوانات الأليفة التدجين الراقي. ويقدم فرن شوي الفخاريات اهتماما واسعا بهذه المادة. وتبرهن السلع العديدة المستوردة من أثينا، رودس، بيرغام، سينوب، مصر ومن المدن البونتية الأخرى على تجارة السيث الرائجة في القرن الثاني ق.م.

اكتشف ضريح في فيلنوف وكان ذا أهمية بعيدة في دراسة الحضارة السيثية للقرن الثاني. كان يتضمن أكثر من ٧٠ رفاة إنسانية والعديد من هياكل الأحصنة. يكشف غنى ووفرة الحلى الذهبية (أكثر من ١٣٠٠حلية) عن بذخ ملوك السيث في تلك الحقبة. ونشير هنا إلى أن فن العمارة، وجداريات الداخل والمقرنصات تقدم العديد من السمات القومية.

لقد لعب التداول في مملكة السيث في القرم دورا هاما، الأمر الذي كان يحث السلاطين والنبلاء على احتلال الشطآن بمدنها البحرية. كما شكل السيث تهديدا للدول اليونانية الكائنة على البحر الأسود.

أولبيا وشرسونيز

كانت أولبيا، شرسونيز وبانتكابيه أهم المستعمرات اليونانية على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود. وأولبيا، إحدى أقدم المستعمرات البونتة، أسسها ميليت في القرن السادس ق.م. تقع عند مصب نهرين: هيبانيس (البوغ الآن) والبورسنين (الدنيبر) اللذين يصلانها بمناطق السيث الداخلية، فاكتسبت أهمية تجارية متميزة في شمال غرب الشاطيء. وهيرودوت الذي زارها، قال إنها "المركز الأهم في حاضرة السيث البونتية". وكانت، أيضا، نقطة انطلاق درب تجاري يذهب بعيدا في الشمال الشرقي، نحو الفولغا وجبال ريفي (الأورال). في أيام هيرودوت (القرن الخامس ق.م)، كانت أولبيا مدينة تجارية حصينة يتوافد إليها العديد من مهاجري هيللاد والأراضي البربرية. كان قومها خليطا، من اليونان والسيث. ففي مقبرتها العامة،كان يوجد منذ القرن السادس قبور سيثية ويونانية.

لكن اليونان، في مرحلة تطور أعلى، كانوا هم أصحاب النفوذ. كان مخطط المدينة، ومنظر بيوتها وكل الهيئة الداخلية إغريقيا. كانت أولبيا مستعمرة عبودية، بمجلس شعبي وموظفين منتخبين. كان أخطر ماتتعرض له حياة هذه المستعمرة هو أنها مطرح تهديد دائم للعدوان من قبل القبائل، لأنها مفتوحة، بدون عائق طبيعي يحميها من جهة السهوب. ثمة وثيقة في غاية الأهمية لمعرفة تاريخها من القرن الثالث. عندما صارت المدينة في وضع حرج، هي قرار الدولة الذي يعظم بروتوجين، ابن أولبيا الغني وذائع الصيت.

تعد الوثيقة انجازاته في المدينة: بنى، على نفقته، الأبراج وجزء من التحصينات، وإعالة أثناء الضائقات التموينية الناجمة عن سلب العدو المناطق الغنية بالمواد الغذائية. تعطي هذه الوثيقة فكرة عن حياة الرعية القلقة.

في القرن الثاني اضطرت المدينة للاعتراف بسلطة ملوك السث. تظهر أسماؤهم على نقود المدينة، المستقلة سابقا. وفيما بعد، في منتصف القرن الأول، على أثر زعزعة المملكة السيثية، احتلها ودمرها الجيت *les Getes* القادمون من المجرى الأسفل للدانوب. عمـــرت جزئيا بعد هذه النكبة، لكنها لم تعد إلى ماضيها المزدهر أبدا.

أما شرسونيز مستعمرة أحدث، انبعثت في الربع الأخير من القرن الخـــامس، علـــى الأرجح في العام ٤٢٢. كان مؤسسوها من أصل هيراكليه (على الشط الشمالي من آســـيا الصغرى) التي كانت مســـتعمرة لميغـــار. وبعـــد نـــزاع صعـــب بيـــن الأرســـتقراطيين والديموقراطيين في هيراكليه، اجبر هؤلاء على الإجلاء والإبعاد. وبنوا شرسونيز في مكان آهل بالقبائل التورية المتخلفة، المعروفة بقرصنتها وضحاياها البشرية للإلهة العذراء. وفـــي أسطورة أفيجيني التي استوحتها تراجيديا "أفجيني في توريد"، يفرض على البطلة الكاهنـــة أن تهلك الغرباء المفاجئين في هذه البحار. كان التوريون يعيشون أيضاً نظام العشير ولـــم يعرفوا العبودية، بسبب ضعف تطور قواهم المنتجة.

يرى بعض علماء الآثار أن شرسونيز بنيت في مكان قصبة توريـــة قديمـــة. وفـــي مقبرتها الجماعية، اكتشف كمية من القبور للسكان الأصليين تتضمن أوانٍ منزلية غير دقيقة الصنع. تقع شرسزنيز في شبه جزيرة هيراكليه (كلمة شرسونيز تعني شبه جزيرة) وتذهب بعيداً في البحر وتمتلك ثغوراً رائعة، وقد استخدمت صلة وصل في تجارة الساحل الشمالي للبحر الأسود (*pont-euxin* قديماً) مع اليونان وآسيا الصغرى.

وكانت نقطة استراتيجية أيضاً: كانت الجبال التي تحدها من جهة البر والوهاد الوعرة تشكل خط دفاع طبيعي جيد. وحتى منتصف القرن الرابع، لم تكن المدينة محميـــة بســـوى تحصينات غير كافية. لكنها، بعد توسع أراضيها ودحر العدو نمت، وبنت جداراناً بكثافـــة ٤م، وأبراجاً آبدة ومرافئ متينة، كشفت عنها التنقيبات حديثاً. دام ازدهار شرســـونيز مـــن القرن الرابع حتى نهاية القرن الثاني ق.م. في ريف شرسونيز كـــانوا يزرعـــون الأرض، ويمارسون التدجين؛ وكانت زراعة الدوالي في الأوج. كانت الفخاريات هي المهنة الأهـــم. تثبت قوارير ذات عروتين وأوانٍ متنوعة وقناديل فخارية تحمل بصمة البلد تعدد إنتاجـــها. وتسمح الأسماء الممهورة على السلع المصنوعة من الطين المشـــوي أن معلمـــي بعـــض الورشات كانوا من السيث، الذين كانوا يشكلون جزءاً من القوم. ولما كانت المنطقة قليلـــة

الخصوبة، لم تستطع شرسونيز أن تصير مركزا لتصدير القمح، كبعض مدن الجهة الشرقية من القرم، لكن تجارتها كوسيط للملح، لسمك، والخمر والزيت، كانت رائجة.

منن حيث النظام السياسي كانت شرسونيز ديموقراطية عبودية. وفي نص اليمين الذي يؤديه مواطنوها، يرد: "لن أخرق الديموقراطية وأحول دون خيانتها وخرقها... سأخدم الشعب وأقدم الخير والفلاح للدولة والرعية". كانت منظمات السلطة العليا مجلس وجمعية الشعب؛ ويقود الستراتيجيون المنتخبون الميلشيات الشعبية.

في تاريخ شرسونيز، يحتل النضال مكانا هاما ضد القبائل الأصلية،وبخاصة السيث. وفي القرن الثاني ق.م، كما أشرنا آنفا، انبعثت دولة سيثية في القرم، كان سلاطينها ونبلاؤها يطمعون بإخضاع المدن البحرية. ولما كانوا غير أكفاء لحماية حرينهم، طلب قادة شرسونيز العون من ملك بونت مثردات السادس. وهزم الجنرال ديوفونت، الذي أرسله، السيث واحتل فيلنوف، عاصمتهم، لكن ملك البونت قبض ثمن دخوله إلى شرسونيز بالقمح والفضة والجنود. دامت هذه العلاقة حتى موت مثردات، في العام ٦٣، وبعدئذ خضعت المدينة لدائرة نفوذ روما. مع ذلك عاشت شرسونيز في عهد الامبراطورية الرومانية؛ وصارت مركزا هاما اقتصاديا وثقافيا في بيزنطة، التي أقامت روسيا كييف علاقات متتابعة.

مملكة البوسفور

عدا المستعمرات الإغريقية المستقلة، تكونت في القرم، مملكة واسعة غريكو-بربرية: هي مملكة البوسفور.

كانت نقطة انطلاقها مستعمرة ميليت، وبانتكابيه (الآن كيرتش)، التي صارت فيما بعد العاصمة. وفي نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع، اشتملت مملكة البوسفور العديد من المستعمرات اليونانية والحاضرات الأصلية في شرق القرم، وشبه جزيرة التامان والمجرى الأسفل لنهر كوبان. كان قومها أصلاء: سيث، ساند، ميوت، إلخ. منذ أقدم الزمن احتل اليونان هذه المناطق التي شدتهم بثرائها: القمح، السمك، والحيوانات؛ لكن العلاقات مع اليونان لم تنتظم إلا في القرن السادس واتضح هذا بتأسيس عدد من المستعمرات: بانتكابيه، تيودوسيا، نيمفي، فاناغوريا وسواها. يبرز مجد هذه المملكة الاقتصادي مع بداية القرن الرابع. ولوقوعها عند حدود العالم الإغريقي والسيث، خدمها البوسفور كوسيط

تجاري. وجعلت وفرة القمح، الدواب والأسماك، جعلت منها واحدا من مموني الدول الهيللينية الرئيسيين. وحوالي منتصف القرن الرابع، عقدت روابط متينة مع أثينا التي كانت تحتكر تجارة قمحها. كان نصف القمح الذي تحتاجه أثينا يأتي من البوسفور. وقد نمى دورها في هذا المجال بخاصة بعد نكبة سيسيليا (٤١٣) التي وضعت نهاية لتوريد القمح السيسيلي. وكانت البوسفور تصدر الكثير من العبيد إلى الأسواق اليونانية.

منذ القرن الخامس صارت دولة البوسفور دولة متحدة، تضم المدن اليونانية الواقعة على ضفتي مضائق كيرتش. وفي العام ٤٨٠، آلت السلطة إلى أسرة نبيلة إغريقية من *Archeanactides*، "حكمت في آسيا على البوسفور السومري" (ديودور). ربما كانت العاصمة آنئذ هي فاناغاريا، الواقعة على الضفة الشرقية للمضيق. دانت المملك بقوتها وجبروتها إلى أسرة السبارتوسيد (بدءا من ٤٣٨)، التي ربما كان زعيمها سبارتاكوس الأول ممثلا للنبل السيثو-ثراسيين المحلي. ولقد أسس السبارتوسيد، بخاصة لوكون الأول (٣٨٩-٣٤٩) وابنه بارزادس الأول (٣٤٩-٣١٠)، مستندين إلى جيش من المرتزقة، امبارطورية شاسعة تبدأ "من تور حتى حدود بلاد القفقاس"، كما جاء في مخطوط لبارزادس (تقريبا من تيودوسيا حتى نوفوروسيسك الحالية. وفي الشمال بلغت حدودها مصب الدون، حيث تقع مدينة تانايس التجارية الضخمة. وفي القرن الرابع كانت "حاكميات البوسفور وتيودوسيا، تسمي ملوك السيند والميوث"؛ عمليا لم تكن القبائل الأصلية مستعبدة فقط، بل أيضا أهل البوسفور اليونان. كانت السلطة فيها وراثية وكانوا يعتبرون أنفسهم سادة الدنيا. كان البوسفور قد صار دولة ضخمة غريكو-بربرية، عاصمتها بانتكابيه.

كانت الطبقة الحاكمة تضم نبلاء البلد وسلالة الملك اليونانية وحاشيته،والأغنياء مالكي العقارات، وتجار القمح،تجار الأسلحة وصانعيها، ومعلمي الورشات. كانت المدن تتمتع بالاستقلال، تنتخب هي نفسها مجالس بلديتها، لكنها تقوم بالفعل مقام العاهل. كان أعيان المجتمع والسلاطين أنفسهم قد تأغرقوا كليا. كانت أسماؤهم يونانية، يحكون ويكتبون اليونانية، يبنون الهياكل والمعابد للآلهة اليونان ويحاطون بسلع صنعت في اليونان. لكن الحضارة المحلية استمرت، تسم بميسمها الأصيل الهللينية البوسفروية. إن الأوابد المميزة لحضارة البوسفور المادية هي الأضرحة، وأهمها على الأرجح "المقبرة الملكية

Kourganes" في نواحي كيرتش. هضبة من الطين والحجارة ارتفاعها ١٧م تعلو قبوا بقبة ذات مراق. يدخل إليها بممشى بطول ٣٦م وقناطر ذات صقالات تجعله يبدو طويلا. إنه لمظهر مهيب فعلا. هذا النوع من القبور يميز السيثيين، مع وجود بين السلع الجنايزية الموضوعة في الأقبية سلع بأسلوب إغريقي.

في نهاية القرن الرابع، وجدت البوسفور في سوق القمح اليوناني منافسا عنيدا: مصر. فانعكس تقلص الصادرات سلبا على مالية الدولة. فاتخذ ملوكها منذ بداية القرن الثالث (سباتاكوس الثالث، بارزادس الثاني) كثيرا من التدابير لحماية هذا المصدر الرئيسي من الدخل. كانوا يرسلون القمح هدية إلى أثينا، ويرسلون إلى مصر، لدى بتولميه فلادلف، سفارات لتسوية قضايا تجارة الحبوب. ولقد أكره نقص المصادر السبارتوسيد على تقليل نفقات تطوع المرتزقة، الأمر الذي أضعف طبعا قدرتهم العسكرية. وفي بداية القرن الثالث، لما ظهر السيث والسارمات في القرم، تعقد موقف البوسفور لأن السيث كانوا ينفذون باستمرار غزوات على أرضها ويفرضون ضرائب باهظة. وأمام استحالة الصمود أمام ضغوط السيث المستمرة، سلم آخر ملوك البوسفور، بارزادس الخامس، في العام ١٠٩ق.م، السلطةإلى ملك البونت متردات السادس أو ياتور. أرسل الملك جنراله ديوفانت إلى شرسونيز لتسوية الأمور.

ترتبط هذه الحقبة من تاريخ البوسفور بحركة اجتماعية ضخمة: تمرد العبيد السيث في الشطر الأوربيمن البوسفور، بقيادة العبد الملكي سوماكوس. قتل المتمردون بارزادس الخامس ورغبوا في الإطاحة أيضا برأس ديوفانت. لكن هذا الأخير هرب منهم ولجأ إلى البونت. صار سوماكوس ملك البوسفور، فضرب النقد باسمه ورسمه وحكم قرابة عام. جيش ديوفانت في البونت قوات بحرية وبرية، أتمها في الشرسونيز وعاد إلى البوسفور. احتل المدن التي كانت بأيدي المتردين، أسر سوماكوس ونفاه إلى البونت، ليقتله هناك على الأرجح. وبعد أن اقتص بوحشية من المتمردين، أخضع البلاد لسلطةمتردات أوباتور وفرض على الرعية ضريبة ٢٠٠ تالانت فضة و١٨ ألف مكيال من القمح. أدار البوسفور حكوم من متردات. للأسف، لايعطي المصدر الرئيس لتاريخ هذه الحقبة -قرار شرسونيز لتمجيد ديوفانت- سوى معلومات مختصرة جدا. لكن أهمية الانتفاضة كانت ولاشك هامة. إنها واحدة من أعظم عصيانات العبيد التي نشبت في هذه الحقبة في العديد من مراكز عالم العبودية.

الفصل التاسع والثلاثون

الحضارة الهللينية

يشغل العالم الهلليني شطرا رحبا من الإنسانية المتحضرة في العالم القديم ويتكون من عدة شعوب كان يسكن أغلبها شرق البحر الأبيض المتوسط وهو الذي، انطلاقا من القرن الخامس ق.م، راح يضيق أكثر فأكثر علاقاته. لقد دمرت فتوحات الإسكندر المقدوني الحواجز السياسية التي تحول دون التبادل الثقافي بين الشعوب، وغرست الحضارة الإغريقية بعمق في الشرق مع مئات ألوف المعمرين الآتين من اليونان. كان هؤلاء المعمرون يقطنون مئات المدن الجديدة التي صارت مستنبتات للثقافة الهللينية.

كانت المراكز الرئيسة للدول الهللينية، مدنا حديثة؛ وتراجعت إلى الصف الثاني حاضرات الشرق القديمة مثل بابل وممفيس؛ وأضحت إنطاكية واسكندرون مراكز عالمية، بكل معنى الكلمة.

كانت هذه المدن تنطبع بطابع التنظيم السياسي لجنسية السكان: كان ثمة أحياء يونانية، يهودية، وغيرها، لكل منها مجلسه ورئيسه الذي يتصل مباشرة مع السلطات العليا.

وكانت الحياة اليومية الثقافية تغلي؛ وتشهد الوثائق (مخطوطات، بردي) نشاطا عارما لمختلف فعاليات المواطنين: جمعيات مهنية، ثقافية،أخلاقية، بما فيها النحل الدينية. إن هذه الأخيرة هامة من أجل دراسة حضارة جماهير المدن. ويدل المظهر الخارجي لمدن الهللينية إلى مستوى مديني رفيع. وكثيرا ما اتحدت مدن يونانية قديمة لتشكل حاضرة واسعة واحدة، ويعاد ترتيب وإدارة الساحات العامة وأحياء الصروح الرسمية، وتوزع المياه الجارية، والينابيع، والمسابح، إلخ. كانت المسارح ومعاهد الرياضة بأبعاد أوسع مما في العهود الأسبق، التي كانت تشد عشرات ألوف المشاهدين؛ إن أوابد معاهد الرياضة تدهشنا بتنسيق مخططاتها. وأخيرا، في كثير من المدن، ظهر نوع جديد من الصروح العامة: المكتبات. لقد تحدثنا أعلاه عن عظمة مكتبة الإسكندرية، وكانت مكتبة بيرغام أقل

أهمية: وباختصار انتشرت المكتبات أحدث في مراكز أخرى من العالم الإغريقي.

ترافق هذا التوسع للحضارة الهللينية مع تبدلات نوعية: فقد تمثل تراث الشرق الثقافي. وأخذت الفروع التي كانت، في الحضارة اليونانية الكلاسيكية، ثانوية، أهمية رئيسة: فقد بلغت التقنيات، العلوم الدقيقة، العلوم الطبيعية، الطب، الجراحة، التشريح مستوى لاسابق له. وبالمقابل، قدمت العلوم الاجتماعية، الفلسفة، الأدب وجزئياً الفنون دلائل الانحطاط، الأمر الذي يعلل تقلص النشاط الاجتماعي والسياسي لدى الجماهير.

فبناء المدن على نطاق واسع، وتطور التجارة البحرية، واتساع الحروب بين الدول الكبرى البحرية والقارية فرض إتقان التقنيات. ولقد حققت التقنية الإغريقية إنجازات مدهشة. فالسفن تقدر على نقل آلاف الناس. وتوفر ساحات السطح الأعلى للمسافرين الراحة التامة.

وفي الفن القتالي، كان المحل الأول للآلات الهجومية والتطويق: المنجنيقات ترمي إلى مسافات بعيدة سهاماً وكتلاً حجرية ثقيلة؛ وكانت أسلحة القذف هذه نوعاً من المدفعية الباردة.

لايمكن إنجاز هذه الأجهزة إلا بناء على مخططات وتصاميم يضعها مهندسون كفء، وجودهم في تلك الفترة أكدته كتابات كتاب العهد القديم.

ينجم هذا التطور التقني عن إنجازات علمية هامة. فقد خلق أوكليد (في النصف الأول من القرن الثالث ق.م) أساس الهندسة المستوية. تتضمن مؤلفاته ومؤلفات الرياضي والفيزيائي العبقري أرخميدس، العديد من مبادئ الرياضيات العالية.

وضع أرخميدس مقولات عديدة: التوازن، تربيع القطع المكافيء، الأجسام العائمة، انعكاس الضوء وغيرها، وبها وضع وطور مبادئ الميكانيك الأساسية، بخاصة نظرية العتلة او الرافعة. وإليه ينسب هذا القول الجسور: "أعطوني نقط ارتكاز، أفجر أو أرفع لكم العالم". وأعد أيضاً نظرية الأشعة الحرارية بواسطة المرايا المسطحة والكروية، ومارسها، إذا ما صدقنا التراث، في أثناء دفاع سيراكوز ضد اليونان (٢١٢ق.م) بحق آلاتهم الدفاعية ومراكبهم. ودرس معاصروه أصعب فروع الرياضيات وهو: نظرية الأعداد.

وليست أقل إعجازاً تطورات علم الفلك. فقد شرع إيرتيوس بقياس أبعاد الكرة الأرضية واستخدم لهذه الغاية الأسلوب المستخدم اليوم: المثلثات؛ واكتشف الرقم الأقرب

إلى الصحيح. وأرستارك دي ساموس، الذي ندين له بقياس " أبعاد ومسافات القمر والشمس عن الأرض"، إذ حدد بدقة الحجم النسبي للشمس والقمر. لكن الأهم هـي الأعمـال التـي تخولنا أن نعي أن كل حركات الكرة السماوية يمكن فهمها، إذا قبلنا أن الشمس هي مركـز مجموعة جرمية والأجرام تدور حولها. ولقد نسي عمل أرستارك العظيم وبعد ١٨٠٠ عـام أعاده كوبرنيك وغاليليه إلى العلم. ووضع الفلكي الشـهير فـي ذلـك العـهد، هيبـارك، ملاحظات لم تعرف قيمتها إلا حديثا.

ليست أقل إعجابا كشوفات الطب الهلليني، بخاصة الجراحة. يكشف هروفيـل فـي كتاباته معارف عميقة في التشريح، اكتسبها بعد تشريح الأحداث. وعمد الجراح هراكليـد دي تارانت، في العمليات، إلى التخدير؛ ولم يعد هذا المكتشف الهام، الذي اهمل تماما، إلـى الممارسة إلا في العام ١٨٦٠، أي بعد أكثر من ٢٠٠٠ عام من الإهمال.

في حقل العلوم الدقيقة. العلوم الطبيعية وبخاصة فن القتال، كان التطور سريعا جدا. وليس خطأ أن نقول هذا في الفلسفة. فقد برز عشرات الفلاسفة شفاها وكتابة في مدن العالم الإغريقي؛ لكن أغلبهم أكمل وطور نظريات الأسلاف، متعمقين بخاصة في قضايا الأخلاق الفردية. كان أشهرهم أبيقور (حوالي ٣٤١-٢٧٠)، تلميذ الفيلسوف المادي ديموقريطـس، الذي تابع أفكارا حول الذرة؛ لكنه درس بعمق حياة الإنسان وأولى عناية كـبرى لجوهـر السعادة البشرية وكيفية تحقيقها. تجنب الأبيقوريون الخوض بنشـاط الحيـاة الاجتماعيـة وعملوا "في ان يحيوا مغمورين" ليبتعدوا عن تشويش عالمـهم الداخلـي (مبـدأ "راحـة الضمير"). تهدف نظريتهم المادية إنقاذ الناس من الخوف من الآلهة ومن المـوت، الأمـر الذي دعا ماركس وأنجلز إلى القول: "كان أبيقور في الزمن السابق الوحيد الذي رغب فـي تنوير الروح والذهن... لذا حافظ على كونه في نظر كل آباء الكنيسة، من بلوتارك حتـى لوثر، الفيلسوف الملحد بكل أبعاد الكلمة[1] *par exellence*.

ويبرز نفس التيار الفردي في مدرسة فلسفية أخرى لذاك العهد: مدرسة الرواقيين.

كان زينون مؤسسها، ابن جزيرة قبرص، المولود بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق.م، وأغلب تلامذته من مدن الشرق الهلليني. قسم الرواقيون الفلسفة إلـى ثلاثـة

[1] – ك.ماركس، الاعمال الكاملة، المجلد ٧، الايدلوجيا الألمانية، باريس ١٩٣٨، ص٨٦-٨٧.

أبواب: الأخلاق، الفيزياء والمنطق. في الفيزياء، يؤكدون وحدة العالم المادية، وعلى أساسها كان عنصر النار الديناميكي. والحياة محكومة ومحدودة بقوانين ثابتة. وهكذا نرى أن فيزياء الرواقيين المشتقة، بداية، من نظرية هراكليت وأرسطو، كانت مادية إلى حد ما. لكن الرواقيين أولوا الأخلاق الدور الأهم: لكي يعيش حياة سليمة وسعيدة، يجب على الإنسان أن ينسجم ضميريا مع قوانين الطبيعة إن هذا الحكم العام العاقل العالمي في حركته المنتظمة، هو الواجب الأول للإنسان. تتمه الفضيلة التي تفضي إلى الحياة السعيدة الفعلية. وبالعكس، خرق هذا الواجب لمنفعة الفرد، لإرضاء نزعاته ورغباته، هو العيب. فلا يمكنك أن تكون سعيدا حقا إلا إذا كنت عاقلا وفهمت الحقيقة وفهمت بالتالي سلام النفس المطلق؛ أحزان هذا العالم لا تنال منه، لأنه يراها عادية. إنه غني في فقره، حر في قيوده، سعيد في مرضه.

كانت آراء الرواقيين الاجتماعية والسياسية غالبا صدى النظريات اللا-ديموقراطية للاكونيي[1] المرحلة السابقة، الذين يعظمون أولغارشية إسبارطة ويكرهون ديموقراطية أثينا. لكن نظريات الرواقيين تتضمن أيضا عناصر من الحق الطبيعي، الأمر الذي قاد روادها إلى القول إن الإنسان قبل كل شيء مواطن عالمي ("كوسموبوليت")؛ في ظل نظام الدولة العبودي ينادي بوحدة الجنس البشري.

لقد انعكس تفكك النظام العبودي على نظرية مدرسة الكلبيين[2]، التي كان مؤسسها أنتثين، "هجينا" كانت نظريته ونظرية تلاميذه (أشهرهم، ديوجين وتلميذه كراتس، معاصرو الاسكندر المقدوني) واسعة الانتشار بين الناس، الأحرار والعبيد. كان الكلبيون، الممثلين المتطرفين لنظرية الحق الطبيعي، ينادون بالبساطة، بحياة قريبة من الطبيعة؛ وكانوا يهزؤون من التعطش للبذخ والثراء، يجحدون سلطة الدولة والمجتمع على الشخصية البشرية. ولإظهار احتقارهم للأعراف عاش ديوجين عاريا في برميل، وسحق عقبته الوحيدة، عندما رأى أنه يقدر أن يخرج منها. لذا لقبه "المجتمع الطيب" بالـ"كلب". من هنا

---

[1] – نسبة إلى مقاطعة لاكونيا.

[2] – نسبة إلى مذهب الكلبية الذي يقول باحتقار العرف والعادة والتقاليد الشائعة والرأي العام، أي الصلف، الوقاحة، والتهكم.

أتى اسم "الكلبيين" الذي أطلق على كل مدرسة رواد أنتثين ومطوريه. لكن العبيد والفقراء كانوا يثمنون نظريتهم، لاسيما أن الكلبيين كانوا يعرفون إعطاءها الشكل المثير للإعجاب والذي يقبل الرموز والمشاهد البسيطة المسلية. لكن هذه النظرية كانت تفتقر لجدول أعمال وتتراجع لتصير بالنهاية دعاية سلمية للفوضوية والفردانية المغالية.

كانت علوم الأدب في العهد الإغريقي واسعة الانتشار، لكنها غير جيدة النوعية (عدا بعض الاستثناءات). وكانت غريبة على المصالح الاجتماعية والسياسية التي كانت تتصدر أدب الحقبة السابقة. وكوميديات مياندر (الأخوة، البطل، وسواها) التي لم يصلنا منها سوى بعض الفصول والمقاطع، وملهاته الفظة، المكتشفة حديثا كاملة، ترسم بأمانة أخلاق المجتمع اليوناني في نهاية القرن الرابع.

ازدهرت القصيدة الغنائية؛ بمواضيعها المفضلة: الانفعالات الشخصية، البحث عن الرغبات الخالصة والهدف إلى حنان الطبيعة، بعيدا عن أتعاب المدينة. كان مركز تجمع الشعراء الغنائيين اسكندرية مصر. وتيوكريت، أحد ألمع شعراء القرن الثالث ق.م، ابن سيسيليا، قضى فيها ردحا رحبا من حياته. كان يكتب غزليات، وقصائد تتحدث عن سحر الطبيعة والأحاسيس التي يستلهمها ابن المدينة التعب. وكشعراء العصر الآخرين، كان تيوكريت يولي الشكل الشعري أهمية كبرى. وقدأثرى نظم الشعر بالتذويق والتجميل.

ويسم نفس الأسلوب المتصنع الفنون التشكيلية. وقد تشكلت مراكز مستقلة للحفر والنقش في الاسكندرية، في جزيرة رودس، في بيرغام وغيرها. وقد نحت ثلاثة نقاشين روديسيين: أجزاندر، أثنودور، وبولدور، مجموعة أثرية، اللاوكوون *le Laocoon*[1]، تمثل احتضار الكائنات البشرية التي خنقتها الثعابين البشرية: التعبير المتألم على الوجوه وتوتر العضلات وبروزها بشكل جعلها طبيعية وواقعية. وفي رودس صنع أيضا من السبرنز نصب لإله الشمس، بارتفاع ٣٠م. وقد أدرج "جبار رودس" بين عجائب الدنيا السبع. تمتاز مدرسة بيرغام للنقش بأستاذيتها. ففي نهاية القرن التاسع عشر، انتشل من ميدان هذه المدينة هيكلا رائعا من المرمر للإله زويس، منقوش على ١٢٠م بنقوش مذهلة تمثل "حرب

---

[1] - أسطورة إغريقية، ابن بريام وهيكوب، كاهن أبولون في طروادة، خنقته مع ابنه حيتان خرافيتان. هذه الواقعة هي موضوع مجموعة شهيرة من النقوش القديمة. القرن الأول ق.م (في الفاتيكان)، المترجم.

العمالقة" (ضد الأرباب). إن هيكل بيرغام واحد من أروع الأمثلة على عظمة الفن الإغريقي، الذي كان له أن ينجو من عاديات الزمن. لقد كان نقش العهد الإغريقي عظيما بالتأكيد، لكنه بالقياس إلى العهد الإغريقي الذي تقدمه، قدم شواهد على الانحطاط: مبالغة بالحركات، ذوق فظ، مذهب طبيعي.

ضمت الحضارة الإغريقية الشطر الأعظم من الإنسانية المتقدمة في حوض البحر المتوسط في القرنين الثالث والثاني ق.م. وقد استمرت حتى القرن التالي، عند انتقال مركز الحياة السياسية باتجاه الغرب، إلى روما. لكنه وهو يتحول شيئا فشيئا ثابر على الوجود في الشرق الأدنى حتى المرحلة اللاحقة من تاريخ البشرية: العصر الوسيط. ولقد أفادت شعوب الشرق منه، العرب خاصة، الأمر الذي منح هؤلاء إمكانية الاحتفاظ لمدة طويلة بالسؤدد الثقافي للعالم الأسيوي-الأوربي.

روما

الفصل الأربعون

مصادر وتدوين التاريخ الروماني

مصدر وتاريخ إيطاليا وروما القديم (حتى القرن الثالث ق.م)

إن دراسة التنظيم الاجتماعي والسياسي لإيطاليا وروما عبر الأزمنة صعبة للغاية بسبب قلة بل ندرة المصادر. بداية يجب أن نلحظ أن أثراً واحداً من الموروث الشعبي الشفهي عن الإيطاليين القدماء لم يصلنا، مثل أشعار هومروس، الغنية بالمواد لإعادة تركيب المجتمع اليوناني من أصوله وبداياته.

والحوليات القديمة الرومانية، التي رتبها علمياً (نيبوهر،أولاً، في بداية القرن ١٩)، قد ضاعت أيضاً. لكننا نعرف أن خططهم ظهرت مبكراً (القرن الخامس–الرابع)، بشكل "تقاويم"، نوع من الجداول الحولية، تدون مع الأيام حيث قامت الجمعيات والحكام، وأحداث وأفعال مجلس الشيوخ. كانت التقاويم تحمل اسم القناصل، المنتخبين سنوياً (لذا سميت لوائحُ القناصل تقاويمَ). حرر هذه المدونات عادة الأحبار، بهدف عملي بحت، لتذكر وقت حدوث هذه الصفقة أو تلك، ومتى بيع أو اشتري هذا البيت، أو ذاك العقار من الأرض، إلخ.

في العام ٣٢٠ق.م. كلف مجلس الشيوخ الكاهن الأكبر، أن يدون تقاويم رسمية، لتعرض على البيت الملكي، ويطلع عليها من يشاء. ومنذئذ بدأت تصدر "جداول الأحبار" سنويا. وعند امتلاء هذه الجداول، توضع في الأرشيف. ولقد شكلت هذه الحوليات والتقاويم، التي لم تصلنا، مع الخرافات وسنن الأسرة، المصادر الأساسية للمؤرخين الأوائل الرومان، ولهذا السبب استمرينا بتسميتهم: الحوليون. لكن المؤلفات هي الأخرى ضاعت.

يجب أن نذكر بخاصة أسفنا على ضياع أعمال "كبار الحوليين"، كما سمي مؤرخو الرومان من نهاية القرن الثالث حتى بداية القرن الثاني ق.م، الذين كانوا على اطلاع مباشر

على تقاويم وحوليات الزمن الغابر، وبخاصة، ضياع التاريخ الروماني الأول المتوالي، الذي كتبه باللغة اليونانية السناتور فابيوس بكتور، معاصر الحرب القرطاجية الثانية.

ومؤسف أيضاً ضياع (عدا بعض الصحاف) العمل التاريخي الأول الذي كتبه باللاتينية ماركوس بوسيوس كاتون المراقب (٢٣٤-١٤٩) حوالي العام ١٦٠ق.م: بعنوان الأصول. عالج كاتون في هذا العمل، كما يشير العنوان، أصول وأول مراحل تاريخ الشعوب والمدن الإيطالية، مستنداً إلى دراسة الحوليات والوثائق المحلية، والمخطوطات القديمة، وأعمال اليونان في تاريخ إيطاليا، وهي الأخرى لم تصلنا. كتب هذا العمل بلغة واضحة ودقيقة، عملية، مجردة من الزخارف البلاغية التي شوهت أعمال المؤرخين الرومان اللاحقين.

عدا بعض الصحاف أو المقاطع لم يبق لنا شيء من "الحوليات الصغر"، اي كتاب نهاية القرن الثاني والنصف الأول من القرن الأول: فالريوس آنتياس، لسينوس ماسر، كوانتوس إيليوس توبرو وغيرهم. ورغم تخميناتهم الجريئة وأحياناً حكاياهم، كمن يحاول نقل علاقات وأفكار الأزمنة الغابرة، التي وصلتهم منذ أيام الرومان، تحظى معرفة أعمالهم بأهمية بالغة. فقد أفادوا بسعة من "الحوليات الكبرى"، ويؤكد لسينوس ماسر أنه "اكتشف" من العهود القديمة "كتباً عن الكتان" (من وثائق الأرشيف طبعاً)، التي لم يستفد منها أحد. ولسنا نملك "الكتب الأربعين عن العهود القديمة لروما"، العمل الجاد للموسوعي ماركوس ترنتيوس فارون (*Varron*) (١١٦-٢٧).

لكنا نسمع صدى هذه الكتب المفقودة في أعمال أوغست، مؤرخ تلك الحقبة، والتي كتبها باحثون مستقلون ومصنفو أعمال سابقيهم. سنتحدث هنا عن ثلاثة مؤلفين من القرن الأول ق.م، حفظت أعمالهم خيرا من غيرها، ومنها نطلع على الأزمنة الغابرة اليونانية والإيطالية: ديودور دي سيسيل ودينيس من هالكارناس، الباحثان اليونانيان اللذان عاشا في روما، وتيت-ليف، احد أبناء مدينة بادو.

كتب ديودور، معاصر قيصر وأوغوست، باليونانية حوالي العام ٣٠ق.م. تاريخا ضخما بعنوان "مكتبة تاريخية". ومن الـ ٤٠ كتابا التي يتضمنها لم يبق سوى الخمسة الأولى، ومن ١١ حتى الـ٢٠، وأجزاء من باقي الكتب. عرض فيها تاريخ مصر، البحر الأبيض المتوسط، الهند، اليونان القديمة ثم روما منذ أقدم العصور. من الطبيعي أن سفرا

بهذا الحجم، لايمكن أن يكون نتيجة بحث إنسان واحد. لم يقدم ديودور سوى تصنيفات مختارة، وملخصات، قريبة جداً من مصدرها الرئيسي، لأعمال تاريخية نوعية. وكما يبدو لنا، فقد كتب النص الذي يستوحيه، وهذا يخولنا أن نقول إنه استعار، بشكل مقنع بعض الشيء،مواد كبيرة الأهمية من هذه الحولية الرومانية القديمة.

ودينيس دالكرناس البليغ، معاصر ديودور،أقام في روما في العام ٢٩ق.م. وألف فيها باللغة اليونانية "عهود روما القديمة" (التاريخ القديم لروما حتى منتصف القرن الثالث) بعشرين كتاباً، بقي لنا منها كاملاً تقريباً الإحدى عشر الأولى، وملخصات من غيرها. تاريخ عمله بالخطابات المفوهة، ونماذج من الفن الخطابي الذي كان يعلمه. لكن دينيس دالكرناس، فضلاً عن فابيوس بيكتور، استقى من مصادر أخرى. بخاصة أعمال الحوليين الصغار، والأهم، أعمال ترنتيوس فارون. وقد صان ديونيس المصادر الأخرى من تاريخ الأدب الروماني الضائع.

أخيرا، العمل الشهير لتيت-لايف (العام ٥٩ق.م) تاريخ روما "منذ تأسيسها حتىأيام أوغوست (العام ٩ق.م) الذي يشكل وثيقتنا الأتم لمعرفة الموروث التاريخي الروماني. ومن ١٤٢ كتابا من هذا العمل الضخم، العشرة الأولى، التي وصلت إلينا غير تامة، موقوفة على أصول روما. ومما بقي لانملك سوى ٢١-٤٥ضمنا، وبعض الأجزاء والملخصات من الكتب الأخرى.

إن تيت-لايف، كمنافسه دينيس، ليس مؤرخا حقيقيا، بل عالم بلاغة وبيان، الذي نشر فصاحته في روما. فتاريخه مزدان بخطب طويلة، مصاغة بفن، يضعها على لسان شخوصه. ولقد أخذ على عاتقه أن "يخلد في ذاكرة الناس مجد أول شعوب الأرض"، وفي الوقت ذاته، الإشارة إلى خطر الانحطاط الأخلاقي البادي في زمنه، أي متابعة التطور الهام في انحطاط الانضباط... الذي جلب أخيرا هذه الأزمات، حيث صار الدواء غير محتمل كالمرض" (تيت-لايف، المقدمة، ٣-٩). إن تيت-لايف إذن في الأغلب مؤرخ أخلاقي ومواطن. وهو يمسك أيضا عن الرجوع إلى المراجع الأولى. يعمل فقط على قص بأسلوب أدبي وأخاذ أحداث الماضي استنادا إلى معلومات تحدث عنها مؤرخون، أسلافه، وهو نفسه يعترف أنه عادة "من رأي الغالبية". رجع بخاصة إلى أعمال "الحوليين الصغار"، فلريوس انتياس، لسيوس ماسر وتوبرون.

فلابد إذن من امتلاك العلم، استنادا إلى النصوص الموثقة، من أجل دراسة العهد

الأقدم من تاريخ إيطاليا وروما. لذا يرى البعض، إخضاع كل هذا الموروث الآثاري "النقد لاذع" جارف، وعدم إمكانية كتابة تاريخ صحيح لروما إلا انطلاقا من القرن الثالث ق.م. لكن مكتشفات أيامنا في مجال الآثار، واللغة، الأثينية والتاريخ المقارن تمكن علمنا أن يجد الضوابط التي تسمح بمراقبة التقليد القديم الروماني وتفتح أمامنا معرفة الماضي الأبعد لروما.

في كتابه "مدخل إلى التاريخ الروماني"، في مجلديسن، (١٩٠٢-١٩٠٤)، كان ف.مودستوف، الممثل الشهير للمدرسة الروسية للتاريخ القديم، واحدا من أوائل من أشار إلى هذه الإمكانية. وقد صار رأيه القائل إن علم الآثار، الأثينية واللغات يفتح أمامنا حقلا شاسعا وغنيا لدراسة أقدم عهود تاريخ إيطاليا وروما، صار في هذه الأيام الرأي المسهيمن في العلم. مع ذلك، لايستند مودستوف إلا إلى أعمال علماء الآثار الإيطاليين للنصف الثاني من القرن ١٩ (أورسي، رغورني، إلخ). فمنذ إذن، اتسع ونما عدد وثائق علم الآثار لقبل التاريخ والتاريخ القديم لإيطاليا نموا ملحوظا. ولقد حملت الحفريات العديدة، التي تجلو المعالم القديمة لأقدم المستعمرات اليونانية في إيطاليا، الجديد والوافر، وبخاصة دراسة حضارة الإتروسك، الشعب الذي لعب دورا بارزا في الأزمنة الأولى من تاريخ إيطاليا.

مصادر تاريخ الجمهورية الرومانية من القرن الثالث حتى القرن الأول ق.م. والامبراطورية

يعيش المؤرخ شروطا طيبة لدراسة العهود الأحدث، عهود عظمة وانهيار الجمهورية وازدهار الامبراطورية الرومانية. طيلة هذه الحقبة، كانت روما في علاقات متينة مع اليونان، التي كانت تمتلك تدوينا تاريخيا عالي التطور، وبتأثيرهما يتشكل ويزدهر الأدب التاريخي الروماني. وقد حفظ من تلك العهود توثيق غزير نقشي؛ ونحن نعرف من الكشوفات الآثارية، الكثير من الأوابد، الحاجات المتداولة وسواها.

بدأ اليونان الاهتمام بالرومان بخاصة بدءا بحروبهم معهم، التي أنتجت وضع اليونان في علاقة عميقة تجاه روما. كلفت هذه الأخيرة بوليب (٢٠١-١٢٠تقريبا) الذي، بعد أن لعب دورا هاما في الجامعة الآشية، التي خربها الرومان، عاش ١٧ عاما في عاصمتهم ، كرهينة، بكتابة "تاريخ روما" الشهير بـ٤٠ كتابا. حسب كلامه بالذات، لقد هدف هذا العمل هدفا أساسيا هو "الإطلاع على الوسائل، ومهارة السلوك، أي كيف أخضعت روما العلم كله

لقوانينها ، خلال ثلاثمئة عام" (بوليب الأول، ١). ناهلا من المراجع اليونانية والرومانية الهامة (بخاصة من فابيوس بيكتور، ومستوحيا حذر وروح توسيديد الناقدة ليضعها في العمل وتحرير الأسباب الأساسية للأحداث، كون بوليب لوحة واسعة تاريخية لكل حوض البحر الأبيض المتوسط، خلال حقبة تمتد من العام ٢٦٤ و١٤٦ق.م. أولى المؤلف خلالها عناية واسعة للفتوحات الرومانية خلال القرنين الثاني والثالث ق.م. ورسم دربسا مشكلا التنظيم السياسي لروما، وجيشها، وذاكرا عددا من الوثائق الدولية ذات أهمية بالغة (مثل المعاهدة المعقودة بين الرومان والقرطاجيين. ورغم أن حكمه على الأحداث هو، بعامة، حكم ساسة زمنه الرومان، يبقى عمله في هذا المجال رفيع القيمة، ومن المؤلم جدا أن الكتب الخمسة الأولى فقط هي التي وصلتنا، بينما لم يبق من ٣٥ كتابا سوى مقاطع وصحاف مبددة.

. بتأثير التدوين التاريخي الإغريقي، بدأت أعمال الحوليين الرومان تبلغ درجة عالية من العناية. كان المؤرخ الروماني الأول الذي انكب على تقليد توسيديد وبوليب هو كسليوس سالستوس كريسبس (٨٦-٣٥ق.م). وسالوست، هذا الظهير المتحمس للقيصر، ووالي نوميدي، الذي تمكن بالسلب والقرصنة تكديس ثروة طائلة، عاش حياة عاصفة. في كهولته انسجب من الحياة السياسية بعد موت القيصر، انصرف كما قال، إلى تدوين تاريخ الشعب الروماني الذي يبدو جديرا بالذكرى". بدأ بربط بعض الفصول، الأبرز والأقرب منه زمانيا، مثل "مؤامرة كاتلينا" و"حرب جوغورتا" التي (كتبت حوالي ٤٣-٤١). تحدث فيها بخطوط رئيسة عن تدمير الأرستقراطية الحاكمة، ولـ "مؤامرة" كاتلينا، النابعة منه، سعى إلى معارضة "قائد الشعب الحقيقي"، ماريوس. وفي "تاريخه"، الأوسع، في خمسة كتب، اقترح كتابة العهد الأبرز في الحركة الديموقراطية، في أثناء السنوات التي تلت موت سيللا (بدءا من العام ٧٨). للأسف، لم يصلنا سوى فصول مبددة من هذا العمل، وهو اهم ماكتب.

إن الخط الأبرز في أعمال سالوست هو أسلوبه في وضع الأسباب السايكولوجية في المقام الأول. ولقد أخذ الرومان يومئذ من اليونان موضوعة المذكرات وادب التراسل، وتراجم الشخصيات والتكاتب الحي بين الأصدقاء حول الشؤون العامة. من هذه الثروة القلمية نملك مراسلة شيشرون إلى أصدقائه (أتيكوس وبروتس بخاصة) ومعارف (بومبي

وقيصر الهامين)، تشكل أحد المصادر عالية القيمة لنحكم على أحداث الفترة الواقعة بين ٦٠-٤٠ق.م، التي احتل شيشرون فيها نصيبا مباشرا. كانت خطاباته العديدة، هي الأخرى، تتسم بالراهنية. وبين المذكرات، يجب ذكر "المذكرات التاريخية" حول حرب الغول ليوليوس قيصر وتلك التي كتبت بعنوان "الحرب الأهلية"، التي أكملها هرتيوس وغيره من مرافقيه. والسير الذاتية لبعض شخصيات التاريخ الروماني (أتكوس، كاتون الشاب)، التي كتبها معاصر قيصر كورنليوس نيبوس (مات حوالي العام ٣٢)، هي، بعامة، سطحية جدا. وبفضل النشاط الذهني المتقد الذي ميز الأيام الأخيرة للجمهورية، استطعنا أن نعرف الكثير من التاريخ الروماني، علما أن الزمن لم يحفظ لنا من هذه الروائع الأدبية سوى القليل. ويحق لنا أن نأسف بشكل فريد ضياع حوليات تيت-لايف العشر، معاصر وشاهد الأحداث التي يدونها في هذا الجزء من السفر.

إن العهود الأولى الإمبراطورية خلقت شروطا قاسية في وجه تطور العلم التاريخي لدى الرومان. فالرجل المعروف، أزينوس بولليون، اضطر أن يترك مؤلفه غير كامل. وأعمال لابينيوس أحرقت بأمر من مجلس الشيوخ، وكذلك عمل كرموتيوس كوردس الذي كتب في أيام تيبير، بروح معادية لأصول النظام الملكي في روما. فضلا عن الأعمال الرسمية لتيت-لايف ودينيس دالكرناس التي كتبت في عهد أوغست، لم يبق لنا، فيما يخص الحقبة الممتدة من جوليان حتى أسرة آل كلود، سوى العمل التاريخي الصغير لفيليوس باتركولوس، بعنوان "التاريخ الروماني" بمجلدين: دون الثاني، حتى العام ٣٠م، الأحداث التي شارك بها المؤلف كضابط في جيش تيبير، حيث يمجد المآثر الحربية ويمدح الفضائل الخاصة معاكسا الرأي العام.

فقط في عهود آل فلوفيان وأنطونين، ومع رسوخ الاهتمام بالرأي العام، ازدهر التاريخ مجددا. فالباحث اليهودي جوزيف (مواليد العام ٣٧، ومات على الأرجح في عهد دومتيان)، الذي انضم إلى طرف الرومان، وسمي، بموافقة ورغبة الإمبراطور، فلافيوس، كتب باليونانية مؤلفات هامة: "تاريخ حرب اليهود ضد الرومان" (٧كتب)، "العهود اليهودية القديمة" (٢٠كتابا)، "سيرة ذاتية"، إلخ.؛ نقرأ فيها أيضا وثائق في التاريخ اليوناني والروماني، تعود بخاصة إلى أيام نيرون، فاسباسيان وتيتوس.

لكن كورنلوس تاستوس (تاسيت) (حوالي العام ٥٥-١٢٠) هو أكبر مؤرخ روماني.

و"حولياته" و"تواريخه"، في ١٦ كتابا، الأعمال الأساسية لمعرفة التاريخ الروماني في القرن الأول الميلادي، كتبت في عهد تراجان، بين ١٠٥ و١٠٧. وبحثـــاه الصغيران، "حياة أغركولا، فاتح بريتان *Bretagne* و"جرمانيا" (بالأصح "أخلاق الجرمـــان" تقدمـا مـاكتب (حوالي العام ٩٨). يتضمنان كثيرا من المعلومات في الحياة والنظـــام الاجتمـاعي عنـد البريتون، الجرمن، الفنلنديين وغيرهم من شعوب أروبا.

إن تاسيت، من أسرة فروسية، كلف مع ذلك بمهام رفيعة في الدولة:قنصل في العـام ٩٧ وحاكم في آسيا في العام ١١٣. كان المعلق على معارضة مجلس الشيوخ في أيامـــه، رفع الجمهورية الرومانية القديمة إلى درجة المثال. ومن أجل هذا سماه أنجلز "آخر ممثلي" الذهن الأبوي العجوز[1].دلل في حولياته أن كل الأباطرة الأوائل غيـــلان متوحشـــة، متعطشـة للدماء،ولايكف عن رثاء الجو المحيط المشبع بالحقارة والتملق،الناجم عن الإرهاب السائد فـــي كل مكان، ففسد الترتيب المشيخي، الذي كان مستقلا وموثوقا. ولهذا أيضا، رغم طرحه روايـــة الماضي بدون غضب ولاتحيز"، امتازت أحكامه بالذاتية، الدرامية المغالية واللهجة الأخلاقية.

لكنه يعرف في الوقت ذاته كيف يعطينا سفراا من اللوحات في الأخلاق الرومانيـــة، وحياة الترف والفسق في القصر، ونفوذ الساسة ورجال الأعمال الدجالين، والوضع الســيء المرهق للجنود، المرميين على الحدود البعيدة، وعن تمردهم، وعن الدهماء الرومانية الرثة الثياب، والشوارع، والمسرح والسيرك، وعن حريق روما الرهيب في العـــام ٦٤، إلـخ. وهكذا يثبت تاسيت أنه رسام أخلاق ماهر، لامثيل له بين مؤرخي العهد القديم. لكن أعماله، هي الأخرى، لم تصلنا إلا مجزأة ومبعثرة. فأكثر من ثلثي العمل ضاع.

تقريباً، مع تاسيت، كتب مؤرخان وكاتبا سيرة، اليوناني بلوتارك والروماني سوتيون، كانت كتاباتهما، بخاصة كتابات الثاني، بشكل ما تنقيحاً وإتماماً لأعمال تاسـيت. فالعلامـة بلوتارك (٤٦-١٢٥)، في شيرونيه (في بيوتيا)، المربي والأخلاقي الشهير، كان واضحـــاً جداً في دراسة قضايا زمنه، الأخلاقية والدينية. لكنه فـــي كتبـــه العديـــدة وفـــي مختلـــف الموضوعات وبخاصة في الأخلاق، كان يستند إلى التوثيق التاريخي الداخز، الأمر الـــذي يشكل استحقاقه الرئيسي في عيون المؤرخين. وفي "الحيوات الموازية" لكبـــار رجـــالات العالم اليوناني والروماني، التي خصها بالحديث عن دور العيب والفضيلة في أعمال وأقدار

---

[1] - اقرأ ف.انجلز "برونو بوير والمسيحية البدائية. كارل ماركس، فريدريك انجلز "في الدين"، ص١٩٧، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٦٠.

هؤلاء الأشخاص، قيمة كبيرة جدا. غالبا مايمتزج بلوتارك ويضيع في تفصيلات حياة أبطاله ويتحمس للنادرة. "نحن لانكتب تاريخا، بل سير وتراجم"، هذا مايقوله، هو نفسه. إنه بتزويدنا بمعلومات هامة مأخوذة من مؤلفات مفقودة، يشير إلى مصدرها، تقدم تراجمه لنا قيمة تاريخية عظمى. ومن جهة الرومان يطلعنا على رجالات دولة الجمهورية (كميل، فابيوس مكسموس، فلامنيوس، آل غراك، ماريوس، سيللا، كراسوس، بومبي، قيصر، شيشرون، بروتس)؛ وفي تراجم الأباطرة، لم يصلنا إلا سيرة غالبا وأوثون.

بينما ينتسب كايوس ترانكلوس (سوتيون) (٧٠-١٦٠تقريبا)، بعكس تاسيت، إلى الناس الراضين عن عصرهم. وكواحد من رعيل الموظفين المدنيين والعسكريين (كان جده يشغل منصبا في القصر، وكان أبوه محامي الفوج)، احتل سوتيون، في عهد أدريان، سكرتير المستشارية الإمبريالية. ومكنته مهامه من دخول الأرشيف السري للقصر، فحدثنا حسب هذه المعطيات عن "حيوات ١٢قيصرا، من جوليان قيصر إلى دومتيان. وفضلا عن استخدامه الكثير من المذكرات، وقصص حاشية البلاط السابقين، دون إثارة ضجيج المدينة؛ يزودنا كتابه هذا بتوثيق وفير حول تاريخ القصر الامبريالي في القرن الأول الميلادي . ويميز عمل سوتيون على اللامبالاة بالمادة السياسية، حس النكتة وتفاصيل الأخلاق المأخوذة من حياة الأباطرة الخاصة. وهو يؤيد النظام الإمبريالي وينتظر منه "قدووم عصر سعادة وهناءة". لكن، على سطحية مفهوم سوتيون، فهو يعكس جيدا أوضاع الفئات الأخرى من المجتمع الروماني، كتلك التي قدمها تاسيت ويصحح نقص قصص هذا الأخير عندما يتحدث عن احداث القرن الأول الميلادي.

وأبين *Appien*، يوناني من الإسكندرية، عاش في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، يمثل وجهة نظر رجال الأعمال والأوساط المثقفة الريفية. كان هذا الرجل الذي امتهن مهنة إدارية هامة- محامي الخزينة الإمبريالية، ثم جابي مالية- كان يرى، هو الآخر، النظام الإمبريالي بعين التعظيم الأبدي. فكتب عملا بنفس طويل، تلبية لرغبة الأرياف: "التاريخ الروماني"، باللغة اليونانية، منذ الملوك حتى عهد ترانجان بـ(٢٤ كتابا)، يكدس فيه كل تاريخ تشكل الدولة الرومانية. مخططه بالغ التعقيد: بعد أن عرض في الكتب الثلاثة الأولى اصول روما وإخضاع إيطاليا، انتقل إلى وصف غزو الرومان وإلحاق مختلف الأصقاع بالامبراطورية، مخصصا لكل منها كتابا برأسه: سيسيل، إيبريا، ليبيا،

مقدونيا، سوريا، إلخ. ومع هذا اضطر أن يوقف بعض الكتب للأحداث الخاصة بروما ذاتها، وتهم كل الإمبراطورية؛ والكتب التي تعالج الحرب مع هانيبال (الكتاب ٧)،كالكتب الخمسة المتحدثة عن الحروب الأهلية منذ آل غراك *Gracques* حتى الثلاثية الثانية، شكلت الجزء الأهم من العمل.

من البديهي أن لوحة بهذه السعة لن تكون عميقة؛ آبين لايسعى إلى المناهل ويكتفي بتوثيق غير حذر. ينتج من هذا أن تجد عنده أخطاء كثيرة بالأسماء، بالتواريخ، وأيضاً من حيث خط تتابع الأحداث، إلخ. على هذا، يبقى سفره، بخاصة مايتعلق بالحروب الأهلية، هاماً جداً بالنسبة لنا. أولاً، لأن آبين أخذ الكثير من المؤلفات التي لم تصلنا، مثلاً، "تاريخ الحروب الأهلية" لأزينوس بولليون، مذكرات سيللا، وأوغست، وغيرها. والأهم، كما أشار انجلز "من كل المراجع القديمة الخاصة بالصراع في أحشاء الجمهورية الرومانية، أبين هو الوحيد الذي يقول لنا بوضوح سبب الصراع ومضمونه، أي الملكية العقارية[1]"، الأمر الذي أكده ماركس ملاحظاً أن آبين "...يسعى إلى إيجاد السبب المادي العميق للحروب الأهلية". ومن هذه الزاوية، يخلو عمل آبين من التوجهات الأخلاقية والبلاغية، فهو سفر رفيع القيمة.

ونذكر أيضاً سفراً عظيماً بـ٨٠ كتاباً هو "التاريخ الروماني"، الذي كتبه بلغته الأم ديون كاسيوس (حوالي ١٥٥-٢٣٥)، اليوناني الأصل، مستشار في مجلس الشيوخ، والي في إفريقيا، سفير في دلماتيا في عهد آل سيفير *Severe*. بدأ بإينيه *Enee* الأمير الطروادي، وتابع، طبعاً، قصته حتى عصره. وصلتنا الكتب ٣٦-٣٩، التي تتحدث عن الأحداث الجارية منذ العام ٦٨ق.م. حتى أيام كلود (٤٥م) تامة. ومما تبقى لم يصلنا سوى أجزاء ومختصرات لاحقة. كان ديون كاسيوس يحاول الاقتداء بتوسيديد وبوليب، لكنه يبقى بعيداً عن واقعية مؤرخي الحقبة الكلاسيكية. كان مشبعاً بإيمان عميق بما فوق الطبيعي، لذا تحدث بالتفصيل عن كل النبوءات وكل المعجزات، ودون أن يسعى إلى إقامة علاقة سببية بين الواقعات، يهتم بالإرادة السامية وقرارات القدر. حروب وأحداث القصر تحتل مكاناً رئيساً في سفره؛ ولايبدو تدخل الجماهير الشعبية إلا بمناسبة التمردات ، كقوة غامضة وفظة يجب قمعها. ورغم انتمائه إلى نبلاء المشايخ، تنحى عن ذبذبات معارضة الإمبراطورية واكتفى بالحلم بمجلس شيوخ يوسع مجالاً للشورى، في ملك أمراء مسالمين

---

[1] – ف.انجلز، لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ص٤٣-٤٤.

وطيبي القلب. على ذلك، وحتى في الحالة المشتتة التي وصلنا بها، ورغم كل الأخطـــاء، يبقى هذا العمل مرجعا هاما لتاريخ نهاية الجمهورية والإمبراطورية في القرنين الأوليين للميلاد.

وأميان مرسليان (حوالي ٣٣٠-٤٠٠) كان آخر عظيم من كتبة تاريخ رومـــا، يـــوم كانت الثقافة بالغة الانحطاط. يوناني الأصل (ولد في انطاكية)، عسكري ممتـــهن، شـــارك بعدة حملات مع الامبراطور جوليان وشاهد الكثير في أثناء رحلاته العديدة. وحوالي العـــام ٣٩٠ ألف سفرا محترما، "التاريخ" في ١٣ كتابا، تعهد بإتمام تاريخ تاسيت. كتب باللاتينية، وبدا كمن يترجم أفكاره من اليونانية إلى هذه اللغة الغريبة، الأمر الذي عتم أسلوبه وشوشه، فهو مليء بالاستطرادات البلاغية. لكنه كان نافذ البصيرة يمتلك موهبة وصـــف المشـــاهد الحربية، التي خاضها مرارا وتكرارا، ومراقبة حياة وأخلاق العديد من الشعوب التي اتصل بها. وكان يتقن الإفادة من المراجع التاريخية ويركب مشاهداته بلوحات بالغة الحيويـــة أو بشخوص معروفة بالانضباط والحكمة. يسعى إلى البقاء محايدا وصادقا ويرى أن إســـقاط الواقعات وإفسادها خطآن متساويان. "المؤرخ الذي يهمل الأحداث مخادع وكذلك الذي يختر عما لم يقع أبدا" (٥،١،٢٩). لاتحدد مهمة التاريخ، في رأيه، بتعداد الواقعات، بل تكمن فـــي جمعها حول الأحداث الضخمة. ولقد قدم بشكل فريد تفاصيل العهد الأقرب إليه والـــ١٨ كتابا (من ١٤-٣١) من سفره التي وصلتنا، تطال فقط ٢٥ عاما، ٣٥٣-٣٧٨.

إن الأعمال الأخرى في تاريخ عهود الإمبراطورية لاتقدم قيمة كبرى، لكن لايجـــوز المرور من فوقها لعدم وجود مصادر أخرى أهم. نذكر بخاصة "تاريخ أبـــاطرة الرومـــان" (حتى ٢٣٨) لليوناني الاسكندراني هيروديان، الذي عاش في روما (حوالـــي ١٧٠-٢٤١). إنه واحد من أندر المراجع التي بحوزتنا حول عهد آل سيفير.

وفي القرن الرابع، كتب أوتروب "ملخص التاريخ الروماني"، في عشرة كتب، يعتـــبر وسطا بين التاريخ الشعبي والوجيز الكلاسيكي. إن هذا المؤلف، المكتوب بلغـــة واضحـــة ودقيقة، يفتقر جدا لأي مضمون. ومجموعة سير الأباطرة للقرنين الثاني والثالث، بقلم ســـتة باحثين، اقتداء بـــ"حيوات" سوتيون، ليست عديمة الفائدة. ونحن لانعرفه إلا بنسخة نهايـــة القرن الرابع، وقد اتخم بالنصوص المدسوسة، والأحداث المخترعة والوثائق المزورة، فـــهو إذن مصدر متهم، لايركن إليه، لكنه المصدر الوحيد الذي بين يدينا، لعدة احقاب من القـــون

الثالث المظلم. هو مجموعة لسير قصيرة للأباطرة حتى قسطنطين، كتب حوالي العام ٣٦٠، بعنوان عام "القياصرة"، منسوبة لأورليوس فكتور، الموظف الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع.

أخيرا، أعمال الباحثين المسيحيين مفيدة كمرشد في دراسة روما الامبريالية. فعالم الكنيسة الكبير أوسيب ابن القيصرية (٢٦٣-٣٤٠) كتب "اول تاريخ إكليريكي" شامل، مستخدما ليس فقط مختلف التقاليد المسيحية وأعمال كتاب الكنيسة، بل أيضا أرشيف الدولة، الذي دخله بفضل علاقات الصداقة مع الامبراطور قسطنطين، الذي كتب سيرته الذاتية. يتضمن تاريخه الاكليريكي إذن كثيرا من المعارف القيمة حول التاريخ المدني، وبخاصة، حول أحداث القرن الثالث (حتى العام ٣٢٤). وفي القرن الخامس (٤١٧)، كتب الأب بولص أوروز، إسباني الأصل، بالروح المسيحية :تاريخه الشامل" منذ آدم حتى العلم ٤١٠م "تاريخ في سبعة مجلدات ضد الوثنيين)، حيث يبذل جهداً لإثبات أن الوثنية كانت حقبة من الحروب الدامية والاضطرابات المستمرة. بينما تسم المسيحية بدء السلام "مملكة الله". و"مدينة الله" للأسقف أوغستين (كتب أيضاً في بداية القرن الخامس) هو أيضاً بالروح عينها.

كلما افتقرت مدونات لتاريخ الروماني، مع انحطاط الحضارة الرومانية، اتسعت الاهمية التي تمثلها لدراسة تاريخ روما الوثائق التي تزودنا بها علوم التاريخ المساعدة:علم الآثار ، النقش، البرديغرافيا[1] والمسكوكات.

إن مجموعة من الأوابد الأثرية من عهد الإمبراطورية الرومانية تعيش على سطح الأرض، وأكثر منها تلك التي تكشفها لنا التنقيبات المتسعة كل يوم. مثلاً، نقوش أعمدة تراجان الرائعة ومارك-أوريل، تمثل بطريقة تامة وبواقعية مدهشة حملات هؤلاء الأباطرة، وأقواس نصر تيتوس وقسطنطين، "الباب الأسود" لتريفوس، وخرائب مجاري المياه، المدرجات، المعابد الرومانية القديمة، التي تحولت إلى كنائس مسيحية (مثل البونيون)، سراديب أموات رومان مع قبورها الكثيرة وجدارياتها ونقوشها الجدارية، تشكل شواهد تاريخية من النمط الأول. ونستقي توثيق بالغ الأهمية لتاريخ الحضارة، الاقتصاد، الأخلاق الرومانية من الحفريات؛ مثل مكتشفات قصر الإمبراطورة ليفيا في روما، دارة أدريان في تيبور، ومدن رومانية: بمبيي، مرسى أوسنتيا، ولامبيسا وتيمغاد في إفريقيا،

---

[1] - دراسة لغوية لمخطوطات البردي.

دورا-أوروبس على الفرات، وعدد ضخم جدا من ميادين الحدود الرومانيـــة، والأبـراج، والطرق الاستراتيجية، إلخ. إذا أهملنا كدسا لايحصى من الأسلحة، من الســلع المتداولـة، والتزيينات، وشواهد القبور، وسواها.

ليست أقل أهمية، إن لم تكن أكثر، الكتابات النافرة أو المنقوشة. يعود أقدمها إلى زمن الملوك: الكتابة المنقوشة على "الحجر الأسود" الذي وجد في فورم البدائـي، وعلـى إنـاء دينوس، وعلى مشبك برونست، إلخ. لكنها نادرة جدا. بدءا من القرن الثالث ق.م، تظـهر شواهد القبور الأولى كتلك المحفورة على قبور آل سيبون، وبدءا من القرن الثاني تظـهر القرارات والشريعة ("شريعة توريا"، ١١١ ق.م). ولاينفك عددها يتزايد بدءا مـن القـرن الأول للميلاد، وهي تشكل أرشيفا غنيا، عارضة زرافـة مـن واقعـات الحيـاة العامـة، الاجتماعية والاقتصادية والحياة الخاصة. يكون بعضها وثائق بالغة الأهمية، كنقش أنسـير ("أعمال أوغست المقدسة")، خطاب كلود إلى ليون، مائدة فيلايا، من أيام تراجان، خطبـة أدريان إلى الجند في لامبيسا، نقش أعمدة الميدان الامبريالي لسالتوس بورنتـانوس، فـي إفريقيا، قرار ديوكلتيان حول الأوسمة، إلخ. و"مجموعة النقوش اللاتينية"، التي بدأت تظـهر في العام ١٨٩٣، تتضمن ١٦ مجلدا ضخما، متصلة بالعديد من الإضافات حيـث تظـهر النقوش المكتشفة حديثا. وقد نشر ف.لاتشيف الكتابات المكتشفة على الساحل الشمالي للبحر الأسود، مع ترجمتها.

وفي أثناء العقود الأخيرة، قدمت دراسة البردي، وأولها المكتشفة في مصر، معلومات قيمة حول تاريخ روما. واكتشفت النص المسمى كركلا ٢١٢، المانح حق المدينة للريفيين، ووثائق عديدة تخص إدارة الأموال في مصر في عهد الرومان، وكومة من وثائق الـترتيب المنزلي وسمة الحياة اليومية: حسابات، رسائل أعمال وعقود، وحتى واجبـات الطـلاب المدرسية. مما أفسح الأمل في اكتشاف بعض المؤلفات التاريخية الضائعة: فقد وجد، مثـلا، عرض جديد لمضمون بعض كتب تيت-لايف.

وتمثل النقود أيضا أهمية كبرى كمصادر تاريخية؛ يمكن أن نجد عليـها ليـس فقـط صورة الأباطرة، بل تمثيلا لصروح وأعمال فنية شهيرة. وتضرب النقود أيضـا احتفـاء بذكرى أحداث هامة، تمجيدا لفصيل أبلى في هذه المعركة أو تلك، إلخ. وخرافاتـهم هـي أحيانا إعلان برنامج: مثلا، بعد انتحار نيرون، ضرب الامبراطور غالبا نقودا تحمل هـذه

الحكم: "حرية الشعب الروماني"، "بعث روما"، وغيرها. إن وزنـــها، عنوانــها ومفــردات أخرى، تخولنا الحكم على حدوث تبدلات في حالة البلد الاقتصادية.

نتاج المؤرخين

بدأت دراسة التاريخ الروماني منذ عصر النهضة. فقد انكب الإنســـانيون، شـــارحو المجتمع البورجوازي الذي يتشكل، بحثا عن سمات طبقتهم، بحمية علـــى دراســـة تنظيـــم الدولة وحق الرومان في العهود القديمة. وفي القرنين السابع والثامن، مع قدوم الاســـتبدادية المطلقة إلى أوربا، انصب اهتمام الباحثين بخاصة على التاريخ السياســـي للامبراطوريـــة الرومانية. وعن هذه الحقبة يتحدث المؤلفان الكبـــيران الأولان: مؤلفـــات الأب تلمونـــت، الفرنسي (تاريخ الأباطرة والمبادئ الأخرى الذين ملكوا خلال القرون الستة الأولى لظـــهور الكنيسة، ١٦٩٠-١٧٣٩، بســـتة مجلـــدات)، والانكلـــيزي جيبـــون (انحطـــاط وســـقوط الامبراطورية الرومانية. ١٧٧٦-١٧٨٨، سبعة مجلدات). رغم أصالة مفهومها، ليست هذه الأعمال بالفعل سوى تجميع لقصص الأقدمين، التي اهتم بها تلمونت وجيبون بثقة ســـاذجة، وصدقاها، بدون أي أثر لروح النقد.

لكن منذ القرن الثامن عشر، بدأت تتكون بفعل ضـــراوة الصـــراع الـــذي تخوضـــه البورجوازية التي تتشكل ضد "النظام القديم"، وجهة نظر جديدة، حادة، تجاه التقاليد القديمة. وقد دلل الإيطالي فيكو في كتابه "مبادئ علم جديد"، المرتبط بالطبيعـــة المشـــتركة للأمـــم (١٧٢٤)، أن الرومان، في بداية تاريخهم، كان لهم، كباقي الشعوب، ماضٍ "ديني" طـــوراً و"بطولي" طوراً آخر، وبالتالي، لم يكن موروثهم الثقافي، حتى القرن الثالث سوى أســـاطير وأوهاماً شاعرية. وكتب الفرنسي بوفور في العام ١٧٣٨ مقالة حول تقلب القرون الخمســـة الأولى من تاريخ روما يقول فيها إن تاريخ روما القديم ليس إلا ابتكاراً لأطمـــاع النبـــلاء الرومان وخطباء متصنعون يسعون لإرضائهم. أفضى هذا التيار الجديد إلى وهب التـــاريخ أسلوباً نقدياً علمياً.

إن أول من مارس ممارسة مثمرة، ليس فقط لتدمير المفهومات القديمـــة والســـاذجة المتكونة حول الماضي الروماني، بل لإعادة كتابة ماضي الشعب الروماني كتابة صحيحة، هو جورج نيبوهر (١٧٧٦-١٨٣١)، رجل الدولة الشهير فـــي زمـــن الإصلاحـــات فـــي بروسيا، ثم أستاذ في جامعتي برلين وبون. وقد طرحت دراسته "التاريخ الرومـــاني" (فـــي

ثلاثة مجلدات) الأسس الجديدة لدراسة تاريخ روما القديم. حاول نيبوهر أن يرجع مصادر الموروث الروماني الغابر في مخلفات العصر الحجري لدى الرومان وفي حولياتهم الأولى. فأعطى قدوة بالدراسة الحصيفة للتقاليد الرومانية ودلل على إمكانية تحرير بعض عناصر الشرعية. وكان أول من أشار، لدى الرومان، منذ فجر تاريخهم، وجود منظمة العشير، الأمر الذي يعتبره انجلز إنجازه الأهم: "كان نيبوهر أول مؤرخ ذا فكرة على الأقل تقريبية..."[1].

وبين عامي ١٨٥٤-١٨٥٦ ظهر "التاريخ الروماني" الشهير لتيودور مومس وهو من ثلاثة مجلدات. ترجم إلى كل اللغات باعتباره علامة بارزة في الدراسات الرومانية، لم يكن مومسن فقط عالماً كبيراً (ينسب له ١٥٠٠ عمل علمي، أبرزها وأهمها عمله الخالد في "الحق العام الروماني"). كما يجب أن نذكر، "دراسات رومانية" وكتابه "النقش اللاتيني"؛ بل كان أيضاً رجلاً سياسياً نشطاً جداً. يقتصر تاريخ روما، الذي يعرضه بالطريقة الأوضح والأكثر تفصيلاً، قبل كل شيء، على الـ"وحدة المفيدة" لإيطاليا التي قسمتها روما، وعلى النصر العظيم لروما على كل الشعوب المتوسطية المتعرضة للانحطاط أو اعتبرت غير جديرة بالتطور، وعلى تأسيس "السلطنة القتالية" على يدي العبقري قيصر. "كان قيصر منذ يفاعته، رجل دولة وكان هدفه أسمى ما يؤمل من أي إنسان". ويمتاز عمل مومسن الكبير كله بالذاتية البورجوازية المتطرفة، بتوجهاته الأخلاقية ومناصرته للحداثة، فنقل أشكال وأفكار المجتمع البورجوازي في زمانه إلى الماضي. نادراً ما شدت اهتمامه الشؤون الاقتصادية، ودور العبيد مهمل تماماً في تاريخه. وقدم انتفاضاتهم كتمردات لاقيمة لها: حتى سبارتاكس "ليس أكثر من قاطع طريق". لهذه الأسباب، لم يحافظ كتاب "التاريخ الروماني" لمومس على أهميته حتى هذه الأيام إلا لسعة وثائقيته، بينما الصرح كله، الذي شيده الباحث، لايصمد أمام النقد.

لكن العلماء الروس في النصف الأول من القرن التاسع عشر أوقفوا أعمالهم على موضوعات معينة من تاريخ روما، لكنا نعثر هنا أيضاً على منعكسات عصرهم، عصر النضال من أجل تحرير الفلاحين في روسيا، وهذا ما يعلل الاهتمام الذي يبدونه بالشرائح

---

[1] - ف.انجلز، "أصل الأسرة، والملكية الفردية والدولة"، ص١٥٥، الطبعة الأولى.

المضطهدة من شعب الدولة الرومانية. فأستاذ الجامعة في موسكو، د.كربوكـــوف (مــات فيالعام ١٨٤٥)، درس المسائل الخاصة بعوام روما القديمـــة؛ وب.كودريافتســكي مؤلــف العمل الشعبي حتى يومنا: "النساء الرومـــان" لوحــات مســتقاة مــن تاســيت (١٨٥٦)؛ وس.اشفسكي أول من أوقف عمله على تاريخ الأريـــاف الرومانيــة المســتغلة بوحشــية وعلاقاتها مع مركز الدولة الرومانية، ونحن مدينون له أيضا بعمل جـــاد جـدا، بعنــوان "سيدوان أبولنير[1]"، "فصل من التاريخ الأدبي والسياسي *de la Gaule* في القــرن الخــامس (١٨٥٥). ورغم أن العهد الذي سبق الإصلاح في روسيا كان عقبة كأداء في وجـــه تقــدم العلم، كانت المدرسة التاريخية الروسية تحلق بجناحين قويين.

إن ظهور أعمال ك.ماركس وف.انجلز (بخاصة رأس المال لماركس وأصل الأســرة والملكية الخاصة والدولة لأنجلز) مارس نفوذاً حاسماً في كتابة تاريخ علمي فعلاً لرومـــا، وكذلك للعصور الأخرى. ولقد قوّم أنجلز عالياً أعمال ماركس في علــــم التــاريخ: "كمــا اكتشف داون قانون التطور في العالم العضوي، اكتشف ماركس قـــانون تطــور التــاريخ البشري، يقول ماركس ثمة واقعة بسيطة، مخبأة حتى اليوم تحت الطمـــي الايدلوجـــي. إن الناس يجب أولاً أن يأكلوا، يشربوا، يسكنوا ويلبسوا، قبل أن يستطيعوا الاهتمام بالسياســـة، بالعلم، بالفن، بالدين، وغيرها... وأن إنتاج مواد الوجود الأولية، تشكل درجـــة فــي ســلم الارتقاء الاقتصادي لشعب أو لعصر ما، وانطلاقاً من هذا تتطور مؤسسات الدولة والمفاهيم الحقوقية، الفن، وحتى الأفكار الدينية لهؤلاء القوم، هنا تكمن العلة، وليس العكس كما فعلــوا حتى الآن". لقد أدخل ماركس إلى علم التاريخ مفهوم التشكيلة الاقتصاديـــــة والاجتماعيـــة "كمجموعة من علاقات إنتاج معينة ووطد فيه مقولة أن تطور هذه التشكيلات هو اســـتطالة أو تطوير التاريخ الطبيعي[2]". ودرس انجلز دراسة معمقة العشير الروماني وكشف تطـــور تشكية الدولة في روما (أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، الفصل الســـادس "العشــير والدولة في روما")؛ وحدد أيضاً الشروط والأسباب الاجتماعية لولادة وانتشـــار المســـيحية (برونو بوير والمسيحية الأولى، تاريخ المسيحية الأولى).

---

[1] – شاعر لاتيني،أسقف كليمونت–فيران. ولد في ليون، بفرنسا.

[2] – ف.ليين، الأعمال، المجلد الأول، المنشورات الاجتماعية، باريس.

لقد جهد "علم" التايخ البورجوازي بداية، في إخفاء، ثم تشويه و"دحض" النظرية التي وضعها ماركس وانجلز (المادية التاريخية)، لكن تفاقم الأزمة الرأسمالية المستمر أجبره، هو الآخر على الاهتمام المتواصل بالظاهرات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية في تاريخ روما القديم، وفي عهود التاريخ الأخرى. فصدرت سلسلة بحوث في تاريخ روما الاقتصادي (التاريخ الزراعي لروما لماركس ويبر، ١٨٩١، مثلا). ونشر مومسن في العام ١٨٨٥ المجلد الخامس من كتاب بعنوان "تاريخ روما"، تتمة لهذا العمل الذي كتب بمستوى مغاير تماما في المجلدات الأولى الثلاثة: يتضمن بالفعل وصفا في غاية التفصيل، ومؤسسا على النقوش، والحياة الاقتصادية والتنظيم الإداري للأرياف الرومانية في أيام الامبراطورية. وكتب ج.سالفيولي كتابا بعنوان "الرأسمالية في العالم القديم" (١٩٠٦). وفي سفره الضخم "عظمة وانحطاط روما" (١٩٠١-١٩٠٧)، اهتم عالم إيطالي آخر هو غيغليلمو فريرو كثيرا بالظاهرات الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ الروماني في القرنين الثاني والأول ق.م. لكن أحدا من هؤلاء الباحثين، الذين تابعوا، مثل مومسن، تحديث التاريخ القديم، نحى ولو قليلا نحو الاعتراف بالطبيعة العبودية للمجتمع الروماني. بالعكس، فقد وقفوا إلى جانب إد.ماير (العبودية في العهود القديمة، والتطور الاقتصادي في العالم القديم)، ورأوا أن عدد العبيد، في القديم، كان مبالغا به، وبشكل عام ليس ثمة أي فرق بارز بين العمل الرقي والعمل المأجور، رافضين هكذا مفهوم ماركس. وتمسك اد.ماير نفسه، ور.بولمان وج.بيلوش؛ بالنظرية التي ترى أن الرأسمالية هي أوج مرحلة التطور الاجتماعي المتنامي من اتساع الحركة الثورية البروليتارية.

كان علم التاريخ الروسي يتابع طريقه الخاص. فقد نشر إ.غريفس، أستاذ في جامعة بطرسبورغ، الذي أقيل في العام ١٨٩٩ كـ"متهم"، لكنه عاد بعد ثلاثة أعوام إلى عمله بناء على طلب الرأي العام، نشر أبحاثه "في تاريخ الملكية العقارية في روما" (١٨٩٩)، العمل رفيع القيمة حيث يصف المجالات النموذجية في أيام أوغست، هوراس وبومبنوس أتيكوس. وأستاذ آخر في نفس الجامعة، عانى أكثر من زميله من العسف الحكومي، وهو ف.مودستوف، مؤلف العمل الهام "مدخل إلى تاريخ روما" (صدر منه الجزءان الأول والثاني، في العام ١٩٠٢-١٩٠٤)، وهو لم يفقد أهميته حتى يومنا هذا. كان مودستوف واحدا من أوائل مؤرخي العالم الذي أشار إلى ضرورة استخدام التوثيق الأثاري الذي يتجمع عندنا الآن، من أجل دراسة العهود الأولى من تاريخ إيطاليا وروما. ووضع أسس مدرسة جدية للتاريخ الروماني، مرتبا تمحيص المراجع مع تمحيص معطيات مختلف

العلوم المساعدة للتاريخ (علم الآثار، النقش، وعلم المسكوكات، وسواها). وكتب مودستوف أيضا "تاريخ الأدب الروماني، قدم فيه الواقعات الأدبية برباط متين مـــع التــاريخ العـــام، الاجتماعي والسياسي لروما. وفي ذات الحقبة صدر "أبحاث في تاريخ السلطة الامبرياليـــة في روما (مجلدان، ١٩٠٠و١٩٠٢) للأستاذ ي.ايريم، و"مختصر التاريخ الروماني" و"بحث في العهود القديمة للدولة الرومانية" (ملازم ١-٣، ١٨٩٤-١٩٠٢) للأســتاذ ي.نيوتشــيل. وقد رفد أساتذة جامعة موسكو ر.فيبر و د.بتروشفسكي دراسة روما القيــاصرة بأبحــاث هامة، مثل "مقالات في تاريخ الإمبراطورية الرومانية" بقلم ر.فيبر (١٩٠٨، الطبعة الثانية، ١٩٢٣) ظهر بعيد ثورة ١٩٠٥، ليقدم لوحة التحولات الاقتصادية والصـــراع الاجتمـاعي الضاري، التي أفضت إلى سقوط الجمهورية وأمارة أوغست. الطروحات هنا قريبة جـــدا من طروحات المادية التاريخية، لكنها تحدث، هي الأخرى، تعصرن المـــاضي رغـم أن الهدف معاد قطعا لهدف المؤرخين الرجعيين، بل لمهاجمة الرأسمالية وليس لإعادة الاعتبار لها. وفي "أبحاث حول تاريخ المجتمع والدولة في العصــــر الوســيط" _١٩٠٧، الطبعـــة الخامسة ١٩٢٢)، يطرح د.بتروشفسكي التاريخ الاجتماعي والاقتصـــــادي للامراطوريـــة الرومانية، خاصة في عهد الانحطاط، متـــأملا مفصـــلا التطـــور الاقتصــادي، وظـــهور الاستعمار ومختلف أنواع القنانة، إلخ. إن كل هؤلاء العلماء الروس لنهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠ غير ماركسيين، في الأغلب، ولم يتبنوا النظرية الماركســـية فـــي التشـــكيلات الاجتماعية والاقتصادية. فكانت أعمالهم في المستوى العلمي أرقـــى مـــن أعمـــال أولئـــك المؤرخين البورجوازيين الغربيين، الذين ينطلقون من وجهات نظر مثالية.

إن أعمال فـ.لينين الكلاسيكية (المادية ونقدية العلم، في الدولـــة، وغيرهـــا) أعطـــت المؤرخين السوفيات توجها واضحا ودقيقا ليصلوا إلى مفهوم ماركسي في الطبيعة العبوديـــة للمجتمع القديم، في دور وأهمية تمردات العبيد وانتفاضاتهم، وفي وظائف الدولـــة، إلـــخ. وباتباع هذه الخطوط التوجيهية، انكب المؤرخون السوفيات على تحقيق وصيـــة انجلـــز: "القيام بدراسة جديدة للتاريخ كله[1]"، وبهذا الصدد، قدموا الكثير في مجال التاريخ الروماني. وفي الربع الأول من القرن العشرين صدر "روما القديمة" (الجـــزء الأول ١٩٢٢؛ الجـــزء الثاني، ١٩٢٣، للأكاديمي س.جبيليف)؛ إن هذا العمل، رغم أنه لايمثـــل ســـوى عرضـــا موجزا، تضمن الكثير من الطروحات الهامة حـــول آخـــر ***parisades*** وانتفاضـــة ســـيث

[1] - نيميك، الأكاديمية الوطنية لتاريخ الثقافة المادية.

البوسفور (حوليات غيميك، ١٩٣٣)، بادئا سلسلة من الأبحاث حول تاريخ انتفاضات العبيد في العهود القديمة، التي لن يوليها العلم البورجوازي أي اهتمام تقريبا. وفي العام ١٩٣٦، ظهر العمل الهام للأستاذ آ.مشولين، بعنوان "انتفاضة سبارتاكوس" الذي درس حركة العبيد في العهود الغابرة لأول مرة دراسة مستفيضة. وفي العم ١٩٣٧ صدرت مجلة "حوليات التاريخ القديم"، تضمنت عددا كبيرا من المقالات لعلماء سوفيات، موقوفة لمسائل التاريخ الروماني، وترجمات لأعمال بحاثة في العهود القديمة، خاصة بتاريخ روما الغابر (القسم الأول للجمهورية، والقسم الثاني للإمبراطورية)، كانت هذه المجلة أول عمل باللغة الروسية يتضمن عرضا تفصيليا من حيث المنهج، كتب بطريقة حية ومفهومة من أوسع الجماهير، لكل التاريخ الروماني حتى سقوط إمبراطورية الغرب. وعلى أبواب خمسينيات القرن العشرين، ظهرت أعمال أخرى هامة في تاريخ روما. نشر ن.ماشكين، أستاذ في جامعة موسكو، مثلا، "تاريخ روما القديم" (الطبعة الأولى ١٩٤٧، الطبعة الثانية، المتضمنة معلومات جديدة هامة، في ١٩٤٩، والطبعة الثالثة في ١٩٥٦)، الذي صار وسيلة تدريس أساسية. وأصدر س.كوفاليف، أستاذ من جامة لينيغراد، في ذات الحقبة :تاريخ روما" (١٩٤٨)، عملا ليس أقل أهمية أو شمولا. العملان معتبران فهرست مرجعا مفصلا. وفي ١٩٤٩، ظهرت الدراسة الوافية لـ ن.ماشكين، "أمارة أوغست"، التي درست الجذور الاقتصادية والاجتماعية والأسباب الرئيسة لولادة الإمبراطورية الرومانية؛ ويثبت المؤلف هنا أهمية الدور الذي لعبته في هذا التطور حركة العبيد المتنامية.

والمؤلف الذي صدر في العام ١٩٥٤، بقلم أو.كودريا فتسيف "الإيالات الإغريقية في شبه جزيرة البلقان في القرن الثاني الميلاد، مساهمة قيمة لدراسة معمقة لتاريخ الشعوب التي كانت تشكل جزءا من الامبراطورية اليونانية. وأوقف عدد من البحوث لعلماء سوفيات على تاريخ الأفكار في المجتمع الروماني. سنذكر أهمها، في منشورات كلية التاريخ من أكاديمية العلوم، كتب س.أوتشانكو، "صراع الأفكار والأحزاب في روما عشية انهيار الجمهورية" (موسكو ١٩٥٢)، و ر.فيبير، "روما والمسيحية البدائية" (موسكو ١٩٥٤)، وأيضا :تاريخ الأدب الورماني"، من منشورات جامعة موسكو، بإشراف الأستاذ ن.دراتاني.

ثمة واقعة مميزة، إذ يلاحظ في أثناء الثلاثين السنة الأخيرة ركود واضح في الإنتاج التاريخي الغربي. وفي عمله الضخم "التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للامبراطورية الرومانية (ظهر بالانجليزية في ١٩٦٢، ثم ترجم إلى الإيطالية والألمانية)، يقول الأستاذ

البطرسبورجي م.روستوفتسيف: في العهود الفاشية، أرتدت أبحاث التاريخ الروماني لباس الدعاية الأشرة للعرقية والعدوان، وفي مثاليه "المسالمون" و"موطدو النظام" يقدم الدكتاتور الدموي سيللا مثلا. يلمس تأثير هذه الأفكار أيضا في أعمال العلماء الفرنسيين، الانكليز والأمريكان. هكذا، عاب كبير مؤرخي فرنسا ج.كركوبينو (وزير في حكومة بيتان)، على سيللا، في الكتاب الذي خصه به، لأنه اعتزل الدكتاتورية طائعا، وأفسح في المجال لقيام الملكية في روما؛ وفي عمل آخر، حول قيصر، أطرى كثيرا هذا الأخير. يذكر كركوبينو والفاشي الإيطالي بيس *Pais* بين من ساهم في كتابة العمل الضخم "التاريخ العام" الذي نشر بإشراف غوستاف غلوتز، وقد ورد فيه تقريبا كل ماينسب لتاريخ الجمهورية الرومانية (١٩٢٦-١٩٣٦). وفي الحقبة ذاتها صدر في انكلترا :تاريخ كامبريدج القديم"، عمل واسع أيضا، خصصت روما بستة كتب منه، (٧-١٢،١٩٢٨-١٩٣٩). إن مجموعة المقالات هذه بسن قلم مؤلفين عديدين، متبايني المناهج العلمية، خالية من أي وحدة فكرية. تعتبر هذه المؤلفات مستندات مرجعية، بفضل ضخامة جهاز التوثيق الذي وضع تحت تصرفها. والطبعة الأخيرة من "الموسوعة العلمية لعلم العهود الكلاسيكية الذي نشر في ألمانيا منذ ١٨٩٤، تحت إشراف بولي-وروفا وكرول، يمكن الرجوع إليه بهذه الصفة.

وقد برز تراجع العلم الرجعي البورجوازي أيضا بعد الحرب العالمية الثانية. لابل اختفى تقريبا بحث المسائل الاقتصادية والاجتماعية من صفحات العديد من المجلات التاريخية الصادرة في أوربا الغربية وأمريكا. وفي الوقت ذاته يحاول تاريخ السياسة الخارجية وبخاصة التاريخ القتالي احتلال المقام الأول. وهكذا يعلن فرانز ألتيم، الأخصائي الشهير بالتاريخ الروماني من ألمانيا الغربية، في مؤلفه "نهاية العهود القديمة" في مجلدين، والمنشور في *Francfart-sur-leMain*، أن العنصر الرئيس في انهيار الامبراطورية هو تسلح الشعوب "البرابرة" بالخيالة المعززة بالأسلحة الثقيلة، الأمر الذي أعجز بل حكم سلاح المشاة الشهير." لكن الأزمة الخارجية فقط تستثير أزمة داخلية"، ويقول ألتيم "الهيمنة أبدا للسياسة الخارجية" ويتبنى واحد من أبرز ممثلي المدرسة التاريخية الإنكليزية، الأستاذ في جامعة لندن سكوللار، يتبنى مقولة إرجاع كل التاريخ الروماني إلى أحداث السياسة الخارجية. وفي كتابه "تاريخ العالم الروماني" (لندن، ١٩٥١)، يسعى جاهدا لتبرير سياسة روما العدوانية، في القرنين الثالث والثاني ق.م، ويصفها "إمبريالية دفاعية"؛ بهذا المعنى اتبع الرومان هذه السياسة لخير البلدان المحتلة، المتخلفة أو فريسة "الاضطرابات

الاجتماعية" (مثل، اليونان في القرنين الثالث والثاني ق.م[1]). وينصب اهتمام مؤرخي العهود القديمة بخاصة في السنوات الأخيرة على قضايا تاريخ الأديان، ومختلف النظريات والتيارات الأسطورية، وأعمال الإمبراطور الفيلسوف مارك-أوريل، أو "*de l'isopostole*" قسطنطين (الذي خصه المرخون البورجوازيون المعاصرون بسلسلة من الدراسات الوافية، تمجده لأنه ناصر الحزب المسيحي[2]). إجمالا، يقدم العلم البورجوازي الراهن كثيرا من البحوث القيمة حول مختلف النقاط المتعلقة بتاريخ روما القديمة، في الفروع اللغوية، الفلسفية، السياسية والفنية، وسواها، لكنه يتخلف بالآراء العامة، المسهبة والصادقة في آن معاً.

على ذلك ليس بميسور المؤرخ السوفياتي أن لايعترف في أي حال بأهمية بحث ودراسة تفصيلية للوثائق التاريخية التي يحققها العلم البورجوازي، بخاصة خلال العقود الأخيرة. ولابد من مواكبة المجلات العديدة، المخصصة لتاريخ الزمن الغابر، الصادرة في الغرب، التي تطلعنا بعامة وبطريقة تفصيلية على آخر الكشوفات في حقل التاريخ الروماني وتنشر تقارير نقدية عن المنشورات الحديثة؛ وهي تصدر أخيراً مقالات واسعة الأهمية حول بعض القضايا الخاصة بالتاريخ الروماني. وثمة فائدة كبرى في الرجوع بهذا الصدد إلى "جريدة الدراسات الرومانية" (لندن)، و"مجلة علم الآثار" (باريس)، ومجلة الدراسات اللاتينية، وجريدة الدراست القديمة (بوردو)، العهود القديمة الكلاسيكية (بروكسل). أخيراً يظهر بطء في البلدان البورجوازية، وبذور فكر علمي ماركسي، أو قريب من الماركسية، وعلم جديد تقدمي. من ممثليه نذكر الانكليزي غوردن شيلد (مصادر الحضارة الأوربية)، والعالم الإيطالي جوليو لوزاتو في (التاريخ الاقتصادي لإيطاليا) والعديد من مؤرخي الجمهوريات الشعبية، مثل كازارو، دانوف، وديكوفسيوس.

---

[1] - نجد دراسة تفصيلية لهذه المؤلفات في "حوليات التاريخ القديم" العدد ١٩٥٤،٢) ص١١١-١١٤ و١٩٥٥، العدد٢ ص١٣٢-١٤٠.

[2] - انظر "حوليات التاريخ القديم" عدد١، ١٩٥٠، ص١٦٦-١٧٦.

الفصل الواحد والأربعون

إيطاليا القديمة

شبه الجزيرة الأبنينس؛ ميزاتها الجغرافية

تقع إيطاليا في شبه جزيرة الأبنينس *Apennins*، محاطة من جهاتها الثلاثة ببحار الأدرياتيك، إلأيوني والتيراني. شمالا، سلسلة الألب الوعرة التي تفصلها عن باقي أوربا. ولقد لاحظ الجغرافي القديم سترابون بحق أن جبال الألب والبحر يشكلان "حصنا حصينا لإيطاليا ضد الغزو. لكن البحر يشكل في الوقت ذاته مسلكا مفتوحا على كل الاتجاهات، سمح منذ القديم لإيطالية بإقامة علاقات مع شعوب حوض المتوسط الأخرى وتمثلت ثقافتها.

الميزة الأخرى لإيطاليا هي طيب مناخها. تتراوح الحرارة في الشتاء، بين +٦° (في كانون الثاني في روما و+١١° في سيسليا، الأمر الذي يسمح للأنعام بالبقاء في المرعى طيلة العام. ومنذ أقدم العصور، عرف الطليان غير الحبوب (شعير، حنطة رومية والذرة البيضاء، وغيرها) زراعة الكرمة، الكستناء والتوت؛ وقد أدخل اليونان والفينيقيون إلى إيطالية، الزيتون، البلح، الرمان (تفاح قرطاجة) إلخ. ومارس لطف المناخ دوره على عدة مناحي من حياة شعوب الطليان القدماء؛ على الثياب (جلباب وقميص) وعلى ابن الجنوب، مثيل البيت اليوناني، المبني حول "باحة داخلية" سماوية، وبحرة في الوسط.

لكن إلى جانب التشابه الذي تمثله الشروط الطبيعية، من المناسب أن نلاحظ الفوارق في البنية الخغرافية بين إيطاليا واليونان. أولاً، مساحة الأرض الإيطالية (حوالي ٣٠٠ألف كم٢ هي على الأقل خمسة أمثال مساحة اليونان، وبالتالي، كان قومها أكثر بشكل ملحوظ. من هنا اتسم كل شيء في إيطاليا "بالضخامة". ثانياً، مع أن شبه الجزيرة الإيطالية هي، كما في البلقان، بلد جبلي، تبقى سلسلة جبال الأبنيوس أقل وعورةً، وأكثر قبولاً للتجاوز، ودعاماتها لا تجزيء إيطالية إلى مناطق منعزلة كما تفعل جبال اليونان الوعرة. ومجاري

المياه الإيطالية تسهل الوصول: البادوس، أو الاردان (الآن البو)، قابلان للإبحار ويجريان نحو الشرق، وكذلك هي أنهار الساحل الغربي: الأرنوس، التيبر والفولترنو. لكن مجاريها السفلى غاصة بالطمي الرملي الذي شكل مستنقعات توسكانيا، الشهيرة بالملاريا، ومصبات نهر أرنو ومستنقعات بونتانس، على ساحل لاتيوم، غيرقابلة للسكن البشري وبناء المرافيء. فالساحل الإيطالي هو، بعامة، أقل قبولا للإبحار من شواطيء اليونان، المجوفة بالخلجان والثغور.

أخيرا بعكس اليونان غير الخصبة والصخرية، شبه جزيرة الأبينس بلد زراعي. وكان كتاب الزمن الغابر يدهشون لخصب التربة الإيطالية. وحوض البو (*Goule cisalpie*) يتميز من هذه الزاوية، وكذلك السهل الغربي، المتضمن أترودي، لاتيوم وكامباني؛ تعطي هذه الأخيرة ثلاثة مواسم في العام. والمراعي الألبية والأراضي المستنقعية عند مصب مجاري المياه، المغطاة بالنباتات الوفيرة، تساهم بازدهار التدجين. حتى سمي البرتيوم *viteliu* (بلاد العجول) ومن هنا كانت على الأرجح كلمة إيطاليا. فالطبيعة الزراعية لهذا البلد أثرت في القديم على مجرى تاريخها الداخلي، الذي لم يكن أساسا إلا الصراع من أجل التربة بين شعوبها المتباينة ومختلف الشرائح الشعبية.

حضارات إيطاليا (قبل التاريخ)

تثبت بحوث علم الآثار أن شبه جزيرة الأبينينس كانت مأهولة قبل جزر البلقان؛ وقد عرفت العصر القديم للحجر. ثمة (مغائر برسوم من عصر الحجر القديم في جبال ليغوري)، بينما لم يعرف هذا العصر في البلقان يومئذ. وعرف العصر الحجري الحديث في شبه الجزيرة كلها، في سيسيليا وسردينيا (بدءا من الألف الرابع قبل الميلاد). يثبت الكثير من مقابر عظام الحيوانات المتوحشة وقواقع الزواحف في أرض محطات العصر الحجري على الأهمية العظيمة للصيد والقنص في تلك الحقبة. فانطلاقا من الألف الثالثة ق.م، يبدأ، إلى جانب الحجر، استخدام النحاس (في صناعة مختلف السلع) (كالنقش علىالحجر)؛ ويلاحظ أيضا بدايات التدجين، وبخاصة الحيوانان الصغيرة (صودفت عظام ماعز، خراف، خنازير، بكثرة في الحفريات.

تمثل عصر البرونز (الألف الثانية ق.م) في شمال إيطاليا الحضارة المسماة الأراضي الخصبة: كان سكانها يعيشون في تجمعات واسعة حصينة ويبنون أخصاصا وتدية فوق

الماء، تكون عادة بشكل منضدة مربعة غير متساوية القوائم. استمر السكان بصناعة أدواتهم من الحجارة، ولكن هذا لم يمنع من تداول العظام والنحاس والبرونز. وفضلا عن الصيد والقنص، اللذين بقيا اهتمامهم الأول، كانوا يمارسون التدجين؛ ويمكن أن نقول أنهم عرفوا الزراعة. وكانوا يحرقون موتاهم ويضعون المرمدة التي تضم الرماد، بصفوف كثيفة. في مدينة الأموات، بعيدا عن السور الذي يحصن تجمعهم.

وفي إيطاليا الوسطى والجنوبية، ارتبطت حضارة عصر البرونز، خلال الألف الثانية ق.م. بالحضارة الكريتو-ميسينية. وهذا مايسمى "حضارة الأبيننس"، وهي أرقى بوضوح من حضارة الأراضي الخصبة. فهي تتميز بمنشآت لتصريف مياه منطقة لاتيوم، وبالأسوار الضخمة والخزف الملون، المشابه للخزف المسيني. وبعكس الذي رأيناه في الشمال، العادة هنا دفن الموتى.

تسم الألف الأولى، في شبه جزيرة الأبيننس، بداية عصر الحديد الأول (حوالي ١٠٠٠عام ق.م) حضارة فيلانوفا، نسبة إلى محلة تقع ليس بعيداً عن بولونيا *Bologne*،اكتشف قريباً منها، في العام ١٨٥٣، آثار مقبرة واسعة تضم أوانٍ فريدة النموذج، تسمى "مخروطية مزدوجة *biconique*". تتميز هذه الحضارة، واسعة الانتشار، بأولى السلع الحديدية، في حقبة يهيمن فيها البرونز. وقد عاشت هنا تجمعات من نموذج حضري؛ فقد أنجز تماماً انتقال الاقتصاد إلى مرحلة الزراعة والتدجين. واختار سكان الشكل الدائري، المصنوعة من جذوع الصنوبر المقشر، وجدران من الغضار، الحياة العائلية باستثمارتها الخاصة. تثبت الكنوز الضخمة على غنى بعض الاستثمارات؛ وتشي قطع الخزف اليونانية والسلع الفينيقية (الزجاجيات، العاج) التي عثر عليها هنا بداية التبادل التجاري مع الجوار. وتتسم حضارة فيلانوفا بانتقال إيطالية نحو مرحلة تاريخية.

مسألة الرعية في إيطاليا البدائية

يفترض أن أقدم سكان شبه جزيرة الأبيننس كانوا الليغور *les ligures* وأصهارهم من الشعوب الأخرى، التي سكنت إيطالية الوسطى والساحلية منذ العصر الحجري الجديد، وطيلة عصر البرونز. وفي بداية الألف الثاني، تبدأ خلف الألب، حركة هجرة شعوب الأمصار الدانوبية والكارباتية، جدود الطليان في الأرجح وإلى هذه العناصر الطليعية تنسب حضارة الأرض الخصبة (انطلاقا من الألف الثاني). تغلغل أول رعيل من حاكم هذا القوم

الآتي، مخترقا الأبيننس، ليحل في الحنوب الغربي من لاتيوم (لاتنـــس)، وفـــي الكامبـــاني والبرتيوم (يكول) (.وفي حوالي ١٢٠٠-١١٠٠ق.م. تدفقت موجة جديـــدة مـــن الشـــعوب المجاورة عرقيا للأولى، الـــ"اومبرو-سبليان" والـــ"أوسك"، من الشمال، لتقيم بخاصة فـــي المناطق الجبلية من الأبيننس. يفترض أن الأمبريين هم مؤسسو حضارة فيلانوفا. وشـــكل البسانتان، السابان، السامنيت واللوكانيان فروعهم الساحلية. وربما انصهر قسم من الســـكان القدماء بالغزاة، الذين رفدوا الآخرين في المناطق الأقل ازدهارا (الليغور، مثلا، اســـتقروا في الجزء الشمالي من الأبيننس، والسيكول في سيسيليا.

وفيما بعد استقرت شعوب أيليريان والتيرانيان أو أيروسك (بدءا من القرن العاشـــر) في شبه الجزيرة، وف يفترة أقرب، احتل السلت أو الغولوا كل الشطر الشمالي؛ لذا ســـمي سهل البوغول سيزالبين (من جهة الألب) قبالة غول ترانسألبين، فرنسا الحالية.

على أثر هذه الهجرات وهذا الاختلاط العرقي، يمكن أن نعـــثر فـــي شـــبه جزيـــرة الأبيننس، في العصر التاريخي، على اثنتي عشرة لغة، مع إهمال لهجات عديدة لمختلـــف الشعوب. وهم يشكلون بدءا من الجنوب، سلسلة من الأراضي الوطنية كان أهمها البرتيوم، لوكاني، أبولي، سامنيوم، كامباني، لايتوم، بيسنوم، الأومبري، ايترووريوغول سيزالبين.

لقد أدهش هذا الموزاييك العرقي القدماء. ويرى في هذا بحاثة العهود القديمة وأغلـــب المؤرخين المعاصرين ومعهم أشهر الأخصائيين السوفيات النتيجة الطبيعية للهجرات التـــي أشير إليها أعلاه. إنما في الإجمال،يبقى أصل شعوب إيطاليا البدائية وعلاقاتها بالحضارات المكتشفة على أرضها، حتى الآن، وإلى مدى بعيد، قضية يجب حلها.

الفصل الثاني والأربعون

إيطاليا في عصر العشير
(من القرن العاشر إلى السابع ق.م)

بقايا عصر الأمومة

في أيام النقش على الحجر وبداية عصر البرونز، وبخاصة في زمن حضارة الأرض الخصبة، عبر الإيطاليون محطة المشاعة البدائية (عصر الأمومة). كان اقتصادهم البدائي (صيد، قنص، تدجين صغار الأنعام، زراعة المعزقة او المجرفة، الذي كان مايزال عمل المرأة) يتطلب تكاتف الجهود في قلب المشاعات التعاونية الضخمة. ويمكن أن ندرك نموذج عصر الأمومة لهذه المشاعات البدائية، ببقايا هذه المنظمة التي نلحظها لدى الإيطاليين بشكل جماعات اجتماعية موجودة منذ أقدم العصور، باسم "أفخاذ" (البطون –أو الأخويات –اليونانية). وهكذا، في الأزمنة التاريخية، كان الشعب الروماني كله مقسما إلى ٣٠ فخذا. يحمل كل فخذ اسم جده (تيتيا، فوتيا، رامنا، إلخ). وكان أعضاؤه يجتمعون من حين إلى آخر إلى ولائم، بقية الشراكة القديمة في الأرزاق والوجبات. وكان شيوخ الأفخاذ، المكلفون بالسلطة الكهنوتية، يسهرون على إبعاد الأجانب عن حيضهم. ثانيا، ثمة عدد من التقاليد (مثل خرافة اختطاف رفاق روملس للسابيات) وهي ذكرى غامضة بعيدة للزواج الجماعي، في زمن مجتمع الأمومة. وثمة أخيرا آثار الطوطمية التي تميز عهد الأمومة في أسماء بعض الشعوب الإيطالية وفي عبادة بعض الحيوانات المعتبرة مقدسة: الأفاعي، الإوز والذئاب، في روما.

الانتقال إلى العشير الأبوي. الليتيوم وأصول روما

لقد أفضى التطور الاقتصادي إلى الانتقال التدريجي من الصيد، القنص وزراعة المعزقة ومركز المرأة، إلى تدجين الحيوانات الضخمة وزراعة المحراث، التي يمارسها

الرجال. مما ساهم بتشكيل وحدات اقتصادية أمتن، تتطلب تكاتف جهود أقل امتدادا من المشاعات القديمة للصيادين والقناصيين. من هنا استبدل عهد المرأة وذروته عصر البرونز بمنظمة الأبوة. وبسبب الشروط الملائمة مبكرا استمر متينا خلال حقبة طويلة. إننا على اطلاع واف حول منظمة المجتمع الأبوي في لاتيوم وبخاصة في روما.

اللاتيوم، سهل مستنقعي وعر(حوالي ٢٠٠٠كم٢)، يشغل وسط شاطيء إيطاليا الغربي. أجداد اللاتين، الذين أقاموا فيه، كانوا على سلم الحضارة بمستوى أدنى من مستوى أسلافهم، ممثلي حضارة الأبيننس. كانت منشآت تصريف المياه كثيرة، والمستنقعات عديدة هنا؛ كان اللاتين منذ الزمن السحيق يعيشون في أكواخ بائسة على التلال، منكبين بشكل رئيسي على التدجين والزراعة في الوديان الأكثر جفافا. لم يكن عندهم مدن، لكنهم كانوا يبنون على ارتفاعات عسيرة مواقع لجوء (استنادا إلى الرواية، كان ثمة منها ثلاثون، مع المناطق الملحقة بها). كان أهمها ألب-لا-لونغ، باعتبارها مركزا دينيا، حيث يلتئم سكان المناطق الثلاثين يوم العيد المشترك لجوبتير اللاتين.

والضيعة اللاتينية الواقعة على الحدود الشمالية لبلاد الأتروسك والسابان، التي بنيت حوالي العام ١٠٠٠ق.م. كانت هي القرية التي سميت فيما بعد روما. كانت سبعة قرى رعوية، مبعثرة في قلب غابة كثيفة والمستنقعات الموحلة، في قمم سلسلة التلال، التي تمتد على طول التيبر. وعلى بعد ٢٠كم من مصبه. وقد شكلوا منذ القديم حلفا "بين التلال السبع"، وقلعة مشتركة، مربعة الشكل، فوق بالاتان. على التلة الأقرب، المسماة فيلليا، بنيت مقبرة مشتركة لأسلاف ("أرباب المساكن") والموقد العام، هو معبد تيستا الدائري، حيث تتقد نار دائمة. بهذه الصور المتواضعة قدم لنا علم الآثار واللغة بدايات روما. وعلى ضوء النقد العلمي الحديث، تنشر الخرافات العديدة والعجيبة حول أصول روما و"بنائها" على يد رومولس وريموس، وكأنها ابتكارات كهنة وثمرة الفرضيات الساذجة للعلم القديم، وبخاصة المؤرخون اليونان للقرنين الثالث والثاني ق.م. إن حسابات البحاثة الروماني فارون، معاصر قيصر، الذي يدعي بثقة أن تاريخ "بناء روما" كان بين ٧٥٤-٧٥٣، تمتعت طويلا بثقة لاتستحقها من المؤرخين السابقين.

تقع القرى التي شكلت روما على التيبر، النهر الكبير والوحيد في لاتيوم الذي يسمح لمراكب البحر أن تصعد حتى أفانتان *Aventin*. فضلا عن هذا النهر، يمر في أسفل بالاتان

"فياسالاريا" القديم الذي يصل إلى مستنقعات الشاطئ المالحة، ومنذ أبعد الأزمنة، بني في هذا المكان، على التيبر، الجسر الخشبي، الذي خصص لحماية جماعة الأحبار المدعوة لأن تصير في المستقبل الهيئة الكهنوتية الرئيسة لروما، وعلى الكرينال، الهضبة المجاورة، اختار تجار السابان مقاما لهم، وبنوا قلعتهم، في قمة صخرة الكابتول، المشرفة على الشاطئ. وبفضل هذا الوضع المعزز، صارت "الهضبات السبع" منذ القرنين الثامن والسابع أقوى نقطة في المنطقة ومركز الاتحاد العسكري والديني لرعايا اللاتين، ووسعت جنباتها؛ واندمج تجمع الكرينال بمدينة "الروابي السبع"، وأخضع ليغور الافانتان بالقوة؛ ثم، حسب الرواية، احتلت ألب-لا-لونج ودمرت، وانتقلت رئاسة الاحتفاء بجوبتير اللاتيني إلى روما البدائية التي بدأت صعودها، والتي، كما يفترض بعض المؤرخين، كانت مذكورة على لائحة المتحدين باسم فيليا *Velia*.

العشير الروماني. باترسيان وكليان.بليبان

يتبدى التنظيم الاجتماعي سهل اللاتيون بشكل أبوي واضح الملامح. فقد كان الشعب الروماني منذ أقدم العصور جمعا من البطون تعيش اقتصاديا في بوتقة مغلقة، أي مشلعات بدائية تنصرف أساسا إلى التدجين. وقد ساهم الاستثمار المشترك للأنعام والمراعي إلى اتحاد هؤلاء الـ"رعاة" في مشاعات أبوية ولذا كانت الأرض ذاتها معتبرة ملكا مشتركا للبطن، رزقه القومي. وكانت الملكية الخاصة، في بداية المرحلة الأبوية، محدودة بفيض الأنعام، والأسلحة والحلي، وأثاث المنزل، وحديقة صغيرة، ٠,٥ هكتار تقريبا. وكانت الأرض العذراء معتبرة ملكا للشعب كله؛ يتوجب على كل أعضاء العشير إحياؤها، ولتكون خاصة بهم كلهم.

ثمة قوة أخرى توحد المشاعة هي التزام أعضاء البطن كلهم بحمل السلاح في أيام الحروب، التي كانت تعتبر آنئذ الشكل المتفرد للنشاط الاقتصادي: غزو الجوار، للاستيلاء على الأسلاب والأنعام بخاصة ودحر غارات الأعداء. والثأر أيضا يدخل في مهام ميليشيا البطون.

وكما في مشاعة الأمومة، كان العامل الأيديولوجي يساهم في تلازم وترابط البطن الأبوي: فكرة الأخوة الحتمية لكل أحفاد جد مشترك، صاحب القبر الأسطوري الذي هو المكان المقدس لكل أعضاء البطن ومركز مدينة أموات العشير وعبادة الأسلاف. ولإثبات

أروماتهم، يحمل كل أعضاء البطن الاسم ذاته، المشتق من اسم جدهم: آل جولي، سلالة إسول، آل كلودي-منحدون من كلوزوس، وهكذا.

الجد أو أب الأسرة يمارس سلطة مطلقة، مع حق الحياة والموت، على كل أعضاء البطن. وفي الزمن الأقدم، هو الذي يقبل الأولاد بين العشير، يبيع البنات زواجا والصبيان عبيدا، يبعد أو يعاقب من يخرق عادات الأسلاف، يمتلك بدون رقابة حرث العشير وضرعه. وكان الزواج الخارجي يتم خطفا أو سبيا أو شراء للخطيبة؛ والنساء الزوجات، باعتبارهن غريبات عن العشير، يحتفظن باسمهن السابق ولايتمتعن بأي حق.

ولقد أفضى تطور القوى المنتجة والأهمية المتنامية للملكية الخاصة، بعد تكديس أسلاب الحرب، إلى فارق في الثروة وتمييز بين الناس، يوصف بعضها بأنه كبير إي (١٠٠ضعف حسب الرواية). وشكل شيوخهم، وأخوة الشيوخ وأبناؤهم، مع ذريتهم، شكلوا بالتالي أرستقراطية دم، ويسمون بأبناء الشيوخ. واستنادا إلى وضعهم المتميز في قلب البطن، امتلك الشيوخ وأبناؤهم الأرض، وهي حتى آنئذ ملك عام، وأرزاقا أخرى، وحتى معبد البطن. ويعبئون أعضاء البطن الآخرين في خانة الموالي، الموضوعين تحت تصرفهم، يأخذون حصتهم من الأرض من الشيوخ ويلتزمون باعتبارهم سادتهم (أي مكان الأب)، وبخدمتهم في البيوت، والذهاب إلى الحرب بقيادتهم، ويساعدونهم على أداء الفدية إن كانوا أسرى، ومعهم بناتهم، إلخ. ويلتزم السادة بمساعدة الموالي على تحقيق العدالة، وبكلمة، هم حماتهم. وكان ثمة أجانب ومحررون أيضا مقبولين كموالي في العشير.

كان هذا الفرق أول إمارة على تفكك نظام العشير.

ودلالة أخرى، أظهرت تطور التفكك الذي كان قد بدأ،هي تشكل شريحة ثانية أدنى، أقل مستوى. أكثر عددا من الموالي: العوام. يختلف المؤرخون في الرأي حول منشأ وشرط هذه الجمهرة من الشعب الروماني البدائي. لكن يبدو جيدا أن العامة تمثل، بأغلبيتها، الرعية السابقة الخاضعة للاتيوم، صاحبة المستوى الثقافي الأعلى من قاهر يهايوم استولى عليها،لكنها نزلت من هذا المستوى بوضوح بعد الفتح. إلى هذاالعنصر أضيف مستوطنون أتوا من نقاط عديدة في إيطاليا. كالعوام، وليسوا منظمة عشائرية، يعيشون في نظام مشترك، بل تحت قبة نظام الاقتصاد الخاص، الأسري. للمرأة في أسرة العوام وضع أكثر استقلالية، وربما كان هذا أحد الأسباب التي حالت دون الزواج بين العوام والأشراف.

فالعوام لايعرفون عبادة الأجداد؛ كانت معبودتهم الرئيسة هي سيريس *Ceres*، إلهة الخصب، التي كانت يرتفع معبدها خارج أسوار المدينة، فوق رابية أفانتان.

كان العوام يعيشون في تبعية مضنية تجاه نظام الأبوة. الذي كان مؤلفاً بعامة من صغار المزارعين، فيه يمارس البعض حرفة صناعية أو شيئاً من التجارة الصغيرة. بدون مراع وبدون أرض صالحة لزراعة، كانوا ملزمين باستئجار أسهم من الأشراف حائزي هذه الأرض؛ ويضيفون إليها أحياناً "مؤازرة" من الحبوب، من الدواب، إلخ. وإن اجدب الموسم، أونزلت بالقوم جائحة مدمرة كالغزو أو المرض، يعود الفلاح إلى حالة المدين المفلس، وبالتالي، بحسب الحق القديم، يصير عبداً لدى الدائن. وإن كان دائنوه كثراً، يقول قانون اللوائح الأثنتي عشرة (٦،٣) "لهم الحق ان يقتسموا جسده، ولاوزر عليهم". فضلاً عن هذا، كان العوام معتبرين، حسب تعبير انجلز "أتباعا"، عليهم تفرض "الضريبة". لايسمح لهم بالاشتراك بأسلاب الحرب، وليسوا من ميليشيا القوم. ويذكر قدماء البلحثين أن العامة كانوا يهوون إلى "شرط الاستعباد" لسلطة الأشراف.

هي ذي السمات التي ميزت المجتمع الروماني، وطبعا المجتمع اللاتيني والإيطالي البدائي، منذ بداية الألف الأولى ق.م؛ المجتمع المتطور من العشير الأبوي، طبقة الأشراف، وظهور الشرائح الاجتماعية المرتبطة بها: كالقاصرين المدمرين، الموالي والعوام "بدون جدود" المهددين أبدا بالرجوع إلى العبودية.

المؤسسات السياسية وحضارة روما البدائية

يمكننا القول بوجود ثلاثة أركان للسلطة، في روما، منذ أقدم العصور: الملك، مجلس الشيوخ، ومجلس الشعب.

لم يكن عاهل روما ملكا بالمعنى الحديث للكلمة، بل بالأصح شيخ قبيلة، يمثل المصالح العامة للعشير. يقود الميليشيا المتحدة. يحاكم المتنازعين ليتقي الثأر، وكان أكبر كهنة المعبودات المشتركة، التي كانت عبادتها تتعلق بظاهرات الطبيعة (فيستا، وغيرها). لم يكن الملك وراثيا، بل منتخبا من شيوخ القبائل ومن "الشعب الروماني".

حسب الرواية، بقي الحكم ملكيا في روما حتى العام ٥١٠ق.م. ومن السبعة المحفوظة أسماؤهم، الثلاثة الأخيرون فقط"، سرفيوس توليوس وتاركين الثاني، يعتبرون شخصيات تاريخية؛ نقرأ أسماءهم في النقوش الأترورية[1]. أسلافهم الأربعة –روملس، الـ"مؤسس"

---

[1] – من أتروريا التي كانت تقع قديما في غربي إيطاليا.

الخرافي للمدينة، نومابومبليس، المعتبر منظم العبادة الرومانية، توليس هوستلس وأنكـــوس مارتيوس- هم من المدى الأسطوري يصدر تاريخ ملوكهم من الخرافة.

وركن السلطة الثاني هو مجلس الشيوخ، أي مجلس قادة القــوم، اذا ســمي الشــيوخ الــ"آباء". وحسب السماع، كانوا مبدئيا ١٠٠، ثم مع قبول عشائر جديدة في المشاعة. ازداد العدد إلى ٣٠٠(عضو لكل بطن).

كانت الجمعية الشعبية في روما مؤسسة قائمة منذ أقدم الأزمنة: الــ"شعب" الذي كان يشكل المشاعة الرومانية يلتئم فيها، منقسما حسب العادة إلى أفخاذ. ومن إجمـــاع الأفخـــاذ يأخذ الملك سلطته وحقه بالقيادة العليا. يدعو الملك الجمعيات إلى الاجتماع، لبحث قضايـــا الحرب والسلم، سن القوانين، قبول عشائر جديدة، إلـــخ. الأشــراف وحدهــم ومواليــهم يشتركون بالاقتراع، و"العوام بدون جدود" مستثنون.

أساسا، كانت روما البدائية ماتزال مجتمعا بدون طبقـــات، وتتصـــف إدارة الشـــؤون العامة بالأبوة، المشاعة وماقبل-الدولة. مع بدء ظهور ترهيصات أو أشكال جنينية لحكومـــة موجهة ضد الموالي وضد العوام التي يتزايد استعبادهم.

كانت زراعة الرومان واللاتين ماتزال بمستوى أولي. وضيعهم مؤلفة من خصـــوص دائرية، مصنوعة من الأغصان، وجدران مطلية بالغضار؛ وكانوا يجهلون استخدام القرص الدائري لصنع الفخار وكانت أنيتهم في الأغلب من خشب؛ يرتدون جلود الحيوانـــات، ثـــم ظهرت حياكة الصوف؛ وكان الحليب ومنتوج الحيوانات المدجنة الأخرى يشـــكل أســـاس غذائهم.

في ديانتهم تسيطر الإحيائية[1] : الاعتقاد بأرواح لا تحصى. كان عندهم مثلا روح المعـــبر *l espritde la porte* وجانوس، روح المدى الزراعي، وبونتيا، وغيرهم. يجـــدر الذكـــر أرواح الأسلاف المتوفين: الآلهة البيتية، أرواح الموتى، أرباب المساكن، وغيرها. ولاتقـــاء أذى هـــذه الأرواح الشريرة وتهدئتها، يلجأ إلى عدة طقوس وحشية، والتأليه، والتعويذات والتضرع. ولقـــد استمر طيف هذه الشعوذات حتى العصور التاريخية.

---

[1] - الاعقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في آن واحد.

الفصل الثالث والأربعون

تفكك مجتمع العشير في روما

(القرن السابع-السادس ق.م)

التقدم الاقتصادي والاجتماعي في لاتيوم وروما. بدايات النفوذ اليوناني

انطلاقا من القرن السابع دخلت روما عصر الحديد الثاني. وفي أثنائه، يهيمن استخدام هذا المعدن. وفي الوقت ذاته انتشر استخدام الدولاب والفرن للفخار، الأمر الذي يثبت أن المهنة الصناعية بدأت تختلف عن الزراعة. ويؤكد نموذج جديد للسكن السردابي بشكل مربع الانتقال إلى الزراعة المستقرة. ويشير متاع المقابر إلى تطور المبادلات (سلع العنبر والعاج من مصادر أجنبية، وصناعة الخزف والزجاج الفينيقية). ويحتل معيار تبادل جديد، بشكل أساور نحاسية بوزن معين، محل الدابة. ويفقد العشير الأبوي بوضوح أهميته لمصلحة الأسرة. وينبيء أحد العناصر المساهمة بتسريع التطورات الاقتصادية أن الساحل الغربي والجنوبي لشبه جزيرة الأبيننس غص بشبكة كثيفة من المستعمرات اليونانية (كومس، ريجيون، سيباريس، هراكليه، تارانت، إلخ)؛ وعلى الشواطيء الشرقية والجنوبية لسيسيليا كانت هذه الشبكة أكثف (كانت سيراكوس أهم هذه الحاضرات). نشر المعمرون اليونان بين السكان الأصليين طرقهم التقنية،بالغة التطور ليومئذ، وأذواقهم وأخلاقهم. وفي إيطاليا الوسطى، لاحظنا مبكرا نفوذ مستعمرة الشالسديين في كومس، ومن هنا أتى الأتروسك، وبوساطتهم حصل اللاتين على أبجديتهم، التي ليست أساسا سوى اشتقاقا من أبجدية شالسس (تنسب أولى النقوش اللاتينيةإلى منتصف القرن السادس ق.م). استنادا إلى العثور في الحفريات اللاتينية على أكوام من بقايا الخزف القديم. كانت أثينا تمارس نفوذا ثقافيا ملحوظا على لاتيوم وروما. وفي بداية القرن الخامس، بني أول معبد، بالأسلوب اليوناني (معبد ديمترسيوس)، فوق تلة أفانتان. يوم أسس فنانو كومس للكابيتول *sa*

ce le bre Louve . وشكل النفوذ الواسع للثقافة المادية والروحيـــة الإغريقيــة المتطــورة بالتأكيد عامل تحريض لتقدم الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في روما.

الأتروسك وحضارتهم

لقد مارس الأتروسك على جيرانهم الشماليين في لاتيوم وروما نفوذا عميقا. ولم يحــل العلم حتى الآن قضية الأتروسك وحتى اسم هذا الشعب لم يستقر: يسميهم اليونان "تــيرين"، ويسميهم المصريون "تورش"، ويسميهم الرومان "توسي"؛ وبشهادة دينيس ابن هالكارنـــاس واستنادا إلى النقش الأتروسك، كانوا يسمون أنفسهم "رازيني". ورغم اكتشاف أكثر من ١٠ آلاف نقش أجنبي، ماتزال لغتهم مجهولة. لا ينتسب الأتروسك في أي حال، إلى الشـــعوب المسماة أيتالوت. يرى هرودوت أنهم من أصول من آســيا الصغــرى، وأغلــب العلمــاء المعاصرون يقبلون هذا الرأي. يرى البعض فيهم معمرين من طروادة هاجروا إلى إيطاليــا الوسطى بعد سقوط هذه المدينة وزوال دولة طروادة من آسيا الصغرى. ولقد عثر بـــالفعل في حضارتهم على الكثير من عناصر آسيا الصغرى، إيجيين أو كريتو-ميسيين.

منذ القرنين السابع والسادس، كانت الصناعة والتجارة تزدهران عند الأتروسك، وكان لهم مدنهم (تاركيني، فييس، كار، فتولوني، وغيرها)، وكان المجتمع الطبقي قد تشكل. يثبت هذه الواقعة وجودفي أتروري أرستقراطية عسكرية وكهنوتية ملاك عبيد وطبعـــا مـــالكي الأراضي، يعيشون وقادة جيشهم في قصور حصينة في قمة الجبال. واستنادا إلـــى بــذخ غرف الأضرحة في القرن السادس، كان اللوكمون يمتلكون ثروات طائلة، لايأتي شــطرها الأعظم من اشتثمار الأرض، بل كانت ثمرة حروب السلب والقرصنة.

كانت شعوب أترروري، أومبري وحوض البو الأوسط، الخاضعين للأتروسك، يعيشون بدرجات متباينة من حيث ارتباطهم بالليكومون: كان بعض هؤلاء الأتباع يســمون لوتــن، وغيرهم، الاكثر خضوعا للاستغلال، يسمون هتيرا. وكان هـــؤلاء النـــاس الخـــاضعين، ملزمين بمختلف الضرائب والسخرات (بناء استحكامات المدن، القصور، قبور اللوكومون، والأقنية، وسواها). وكانت جماهير العبيد تشكل طبقة بنفسها.

لم يصلنا من مؤسسات الأتروسك السياسية سوى القليل من المعلومات. كـــان الملــوك يحكمون بعض المدن، لكن كان ثمة أيضا، ماعرف بـــ"ملك الملوك"المنتخب، علـــى رأس اتحاد المدن الاثنتي عشر الأقدم، يقود جمعيات ممثليهم، وبنفس الوقت الكاهن الأكبر. كـــان

يحيط نفسه بالمجد والسؤدد والرفاهية (السجف والديباج، الخف الأحمر، الكرسي العـلجي)؛ يمشي برفقة اثني عشر حامل فأس-ويحمل حراسه ومنفذو أوامره البلطـة وحزمـة مـن القضبان.

في دين الأتروسك، ثلاثية الألوهية الأسمى: تينيا (جوبتير)، أوني (جونون)، ومنرفا (منيرف) تشغل المقام الأول. تنتظم عبادة هذه الآلهة السـماوية العظيمـة وغيرهـا مـن العبادات الثانوية في ديانة الأتروسك مع الإيمان بمـا لايحصـى مـن الأرواح، الطيبـة والشريرة. للحصول على عون الآلهة وتجنب فجور الأبالسة الشريرين، يسعى الكهنة إلـى السحر والشعوذة. ولتهدئة الآلهة والشياطين، يضحون بالبشر. كـان السـحر والشـعوذة والتعزيم، والتنبؤات الصادرة من طيران الطيور. وفحص أحشاء الحيوانـات، والـبروق والرعود، تشكل فن الكهنة واللوكومون السري. هكذا، بالارتباط مع ظهور الطبقات مضافـا إلى استغلال لايرحم تمارسه الأقلية على الأكثرية، تصان فكرة أن ابن الشعب لايسـتطيع الحصول على رضى الآلهة أو الحماية من شرور الأبالسـة إلا بواسـطة أرسـتقراطيته العسكرية والكهنوتية.

روما في عهد ملوك الأتروسك المظفرين

لقد ألقت كشوفات العلم الأتروري -نسبة للأتروسك- المعاصر، وبخاصةأعمال الآثار الإيطاليين الآن (دوكاتي، بالوتيفو وغيرها) بعض الضوء على تاريخ روما القديم. وقد ثبت منذ الآن، مثلاء، أن الأتروسك أسسوا في القرن السابع ق.م. امبراطوريـة واسـعة تضـم بخاصة اللاتيوم وشطرا كبيرا من كامبانيا. والقرى القديمة على الهضبات السبع، وهي آنئذ تحت قبضتهم، تحولت إلى مدينة من نموذج أتروري، وصارت عاصمة إيالة اللاتين فـي أتروريا. واسم روما بالذات وعلى الأرجح، هو الآخر، من أصل أتروسك. وتحـت نفـوذ المنتصرين، صارت مركزا للصناعة الحرفية والتجارة، وصارت سورا من الجدران وبنوا فيها ارتفاقات المياه؛ ونهض في الكابيتول بالأسلوب الأتروري، معبد لجوبتير في الغـالب "أوبتموس ماكسموس"، جعله الرومان معبدهم الرئيس. والاقتباسات العديـدة، فـي مجـال الحياة، الاقتصادية والأخلاق التي أخذها اللاتين والرومان يومئذ من الأتروسك، سـاهمت بتطورهم المادي (محراث أكثر إتقانا، تقنية المهن والبناء، بيت من نموذج جديـد بسـاحة داخلية، ونقد: الآس النحاسي والأبجدية) وفي مجال الإنتاج (استخدام أوسع لعمل الرقيـق).

حسب الرواية الرومانية، حكم روما في القرن السادس ق.م. ثلاثة ملوك أتروسك: لوسيوس، تركينيوس بريسكس)تركين الشيخ)، الذي تسميه الخرافات الرومانية ببساطة "لوكومون"؛ وقد خلف سرفيوس تاليوس الذي، استنادا إلى جدارية محفوظة حتى الآن والنقش الذي تحمله، ليس إلا المحارب الأتروري مستزنا، الذي قلب تركين الشيخ؛ وأخيرا لوسيوس ترلينيوس التني أو تاركين العظيم، الذي تقدمه الروايات الرومانية كمستبد متوحش، جلاد ومضطهد الشعب. وحسب أي احتمال، كانت سلطة هؤلاء الملوك الثلاثة، المظفرين الأتروسك، ذات الطبيعة الاستبدادية تتميز بوضوح عن سلطة ملوك البلاد السابقين.

في هذه الحقبة حدث، حسب الرواية "إصلاح سرفيوس توليوس". ينسب إلى هذا الأخير سلسلة من التدابير التي اتخذها على التوالي ملوك روما الأخيرون، والتي وصف ف.انجلز طبيعتها ومبدأها، فقال: "إذن، في روما، أيضا، قبل تكنيس ما عرف بالـ"ملكية"، سحق النظام الاجتماعي القديم المبني على وشائج الدم، وحل محله دستور دولة جديد فعلي، مبني على إعادة توزيع الأرض وتباين الثروات[1]".

لاشك أن السبب الرئيس لهذه التبدلات يكمن في استعار الصراع بين العوام،وقد دعمهم تطور الإنتاج، والأشراف الذين فقدوا في عهد الأتروسك كثيرا من هيمنتهم. والنتيجة الطبيعية لهذا الصراع هي تسريع تفكك مجتمع العشير. ومن جهة أخرى، أفضت مصالح السادة الأجانب، هي الأخرى، إلى إهمال حالة الأمور السابقة، لأنهم اعتبروا الأشراف أتباعا لهم، وكذلك العوام البسطاء. إذن، يبدأ التمييز بين الناس ليس حسب الانتساب القبلي بل فقط حسب الثروة. وخلال خمس سنين كانوا يحققون تمزيق الشعب وأرزاقه وانتسابه إلى "الطبقات" الخمس حيث صنف الناس حسب ثروتهم والضرائب التي يدفعونها. وقد نرى في هذا مبدأ تقدميا، لأن المعيار هو الملكية الشخصية وليس الإطار القبلي. كانت الزراعة هي مصدر الحياة الرئيس، فشكل الملكية الأساسي هو الأرض. فمن يملك حصة كاملة (٥هكتارات) يسجل في خانة الشريحة الأولى حسب الإحصاء. وبعد، في القرن الثالث ق.م. نقصت كثيرا قيمة الآس، والسبيكة السميكة من وحدة نحاسية، عادت

---

[1] – ف.انجلز، أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص١٢٠.

إلى التداول وصارت تساوي ١٠٠ألف آس. ويصنف من يملك٤/٣ الحصة (٧٦ ألف آس)، أي مساحة أرضه ٢/١هكتار، يشكلون الشريحة الخامسة. وأولئك الذين لايملكون دعسة عنزة، ومعهم أيضا الحرفيون والتجار يعتبرون "خارج الصف"، ولايحصون إلا "بالرأس"، مع الفقراء المدقعين، الـ"البروليتاريا".

يفيد هذا التقسيم الجديد في إعادة توزيع مختلف المخصصات، الخدمة العسكرية، وأيضا، كما يبدو، لدور الضريبة. فالمدينة، مع أرباضها، كانت مقسمة إلى أربع دوائر. وتوزع المخصصات النقدية والخدمية حسب انتسابهم لهذه "الشريحة" أو تلك. فكل الرعية، الأشراف كما العوام، ملزمون بالخدمة العسكرية، وكل يسلح نفسه على نفقته، تناسبا مع ثروته العقارية. الأغنى يخدم على حصان (أو بالتالي، يشكلون ١٨ مائة)، ومواطنو الطبقة الأولى بسلاح ثقيل كامل (٨٠ وحدة مئوية)، ومن الطبقتين الثانية والثالثة بالسلاح الخفيف (٤٠ وحدة مئوية)، وأخيرا يشكل من لا أرض له والبروليتاريا الوحدات المئوية الخمس خارج الصف، بواقون، عمال سلاح، إلخ). وهكذا يتألف فيلقا الجيش الروماني من ١٩٣ وحدة مئوية.

يخلط هذا التنظيم كل عناصر القوم الروماني القديم، الذين يشكلون شطرا من القبائل أم لا. وحسب التقليد المحفوظ لهذا الموضوع، اعتبر العوام، رغم الأعباء الجديدة كالتزام الخدمة العسكرية التي ما كانوا ملزمين بها، "إصلاح سرفيوس توليوس"،الذي جعلهم يساوون الأشراف بهذا الصدد، على رأس انتصاراتهم على الأرستقراطية الدم واستمروا طويلا في اعتبار هذا الملك "محسنهم".

يمكن أن نرى هذا الأمر منذ الآن البذرة التي أنتجت فيما بعد "الجمعيات الناخبة بالوحدة المئوية". لم يكن لهذه الجمعيات بداية ماكان لها فيما بعد أي تمثيل الشعب، لأن الملوك المستبدين لايتنازلون عن سلطتهم برضاهم.

سقوط سيطرة الأتروسك ونهاية العهد الملكي

يرى المؤرخون الرومان أن سقوط هيمنة الأتروسك كان في العام ٥١٠. رغم أن هذا التاريخ غير دقيق أبدا، إذ لاشك أن الأتروسك طردوا من روما في حوالي العام ٥٠٠ق.م.

بدأ العصيان في الأرجح بانفصال مدينة لاتيوم، بدعم من المستعمرات اليونانية (كومس)، عدو الأتروسك الدهري. اندحر الأتروسك بهذا الصراع وأعلن تمرد في روما،

قادم الأشراف وخاصه الشعب كله؛ فطبقة الاشراف، الغاضبة من انتزاع ميزاتها الوراثية من قبل ملوك الأتروسك، مدعومة بالشعب، الرازح تحت وزر الضرائب والسخرة التي فرضها آخر ملك أتروسكي هوتاركين الثاني، واضطر هذا الأخير إلى الهرب إلى أترووريا، مع رجاله المسلحين.

وهكذا أفل نجم "العهد الملكي" من تاريخ روما وانتهى معه عهد كامل من تطوره الاجتماعي. كان مجتمع العشير قد تبدد وانهار نهائيا: وبدأ عصر جديد، قضى على ماسبق وأسس على أنقاضه مجتمع جديد–طبقي، وبالترابط مع هذه الواقعة، ظهرت أشكال تقدمية للدولة الرومانية.

الفصل الرابع والأربعون

روما في وضع خارجي حرج أول أيام استقلالها (٥٠٠–٣٥٠ق.م)

عسكرة المجتمع والأخلاق

روما وجيرانها في القرن الخامس

بعد انعتاقها من نير الأتروسك، اضطرت روما لمساندة سلسلة من الحروب الباهظة الكلفة ضد جيرانها المباشرين. تذخر أول كتب "التاريخ" لتيت-لايف بقصص عن أهم مآثر الأبطال التي أفرزتها هذه الحروب.

قاتل الرومان قرابة ١٠٠عام (في أثناء القرن الخامس) ضد الأتروسك الذين لم يسلموا طبعاً بخسارة لاتيوم وروما. لكن روما ذاتها انتقلت إلى الهجوم؛ ففي العام ٣٦٠، احتلت مدينة فييس الأتروسكية ودمرت وانتقل خط الدفاع إلى الأمام ٣٠كم خارج سور روما.

بينما كان الرومان يخوضون حروبهم مع الأتروسك، اضطروا طيلة النصف الأول من القرن الخامس، التصدي للهجمات الآتية من الشمال الشرقي ضد لاتيوم من قبل السابيين. ومن الشرق والجنوب، كانت الشعوب الجبلية (الأوك والغولسك) يشنون غزوات مستمرة على سهل لاتيوم، عادة في منتصف فصل الصيف، في أيام الحصاد. فلم تستطع روما الدفاع عن نفسها ضد أعدائها الذين يهاجمونها من كل صوب إلا برفع جاهزيتها القتالية كل عام وأن يحمل الشعب كله السلاح.

في بداية القرن الخامس، حصلت روما على حلفاء بشخص اتحاد أرسيين، جامعة من المدن اللاتينية يرأسها أريسيا، وشعب هرنيك أيضا تحت تهديد العدوان الأتروسكي. وفي العام ٤٩٣، عقدت معاهدة تعاون متبادل مع اللاتين، في الحرب. آزر هذا الحلف الثلاثي، الذي يضم بمتانة شعوبا أخوية، روما في الدفاع عن استقلالها وتوطيده، والمساهمة بنفس

الوقت باستقرار العلاقات العام بين الشعوب، الاستقرار الذي رسم لإيطاليا الوسطى كلها، في بداية القرن الرابع ق.م.

لكن، في أثناء العقود الأولى من هذا القرن، نزلت بشمال إيطاليا ووسطها داهية دهياء أي غزوة السلت أو الغولوا، الذين كانوا قد أقاموا في أوربا الغربية والوسطى من المحيط الأطلسي حتى المجرى الأوسط لابل، فيما بعد حتى مجرى الدانوب الأسفل. وفي نهاية القرن الخامس، احتل عدد من شعوب الغولوا (بوايين، سينومين، إلخ)، بعد أن اجتازوا مضائق الألب، احتلوا سهل البو، الذي جعلوه لاغول سيزالبين. ومن هنا مشى السلت نحو الجنوب، فتحوا أومبريا، وبدأوا باحتلال مدن الأتروسك. -يكتب تيت لايف- "عدو لم يُر قبلاً ولم يسمع به أحد تقدم من شواطيء المحيط وآخر حدود العالم". تقول الرواية إن الغولوا، بقيادة برينوس، (طبعاً، ليس هذا اسم علم إنما تأتي كلمة برينوس بمعنى من أراد قيادة السلت) أبادوا الجيش الروماني عن بكرة أبيه، عند ملتقى نهري آليا والبو، على بعد ١٥كم من روما. ولجأت بعض الشراذم البائسة إلى فييس. و"صار يوم آليا" واحداً من أعتم ذكريات التاريخ الروماني. وبعد ثلاثة أيام من المعركة، احتل الغولوا روما، أحرقوا وذبحوا جمهرة كبيرة من القوم (٣٩٠ ضحية حسب الرواية الرومانية، و٣٨٧ حسب أرسطو). لم يبق واقفاً سوى قلعة الكابيتول، وتوارت الحكومة الرومانية، مع فصيلة خائرة، قاوموا بظفر حصاراً دام ستة أشهر. وحسب الخرافة، لم تخل روما إلا بفدية قدرها ١٠٠٠ ليبرة ذهبية.

تتابعت غارات السلت أربعين سنة أخرى. أنهكت روما وفقدت سيطرتها على لاتيوم واضطرت إلى العودة إلى الصراع لتركيز وضعها. وفي أواسط القرن الرابع فقط كان عندها مايكفيها من القوات لتجيب على الغارة بغارة. وفي حوالي العام ٥٠ من هذا القرن، تمت هزيمة الإيكس والفوالسك نهائياً، واحتل الرومان في تلك الحقبة مدينة كار الأترورية. وانطلاقاً من العام ٣٤٩، أوقف الغولوا أعمالهم في لاتيوم. حلفاء روما واتسعت أرضها حتى صارت ٦٠٠٠كم٢.

مع ذلك، لم تتعرض روما في تاريخها لتهديد ضخم كهذا إلا في الـ١٥٠ سنة الأولى من وجودها مستقلة، وكان هذا بنشر قواتها حتى الحدود الأخيرة التي حفظت لها حريتها وأمنت لها أرضها.

الإصلاحات العسكرية في القرنين الخامس والرابع وبداية هيمنة الجيش الروماني

قطعت الحروب المنهكة، التي استمرت دون انقطاع تقريباً مدة ١٥٠ عاماً، علاقات روما الاقتصادية والثقافية مع جيرانها الذين كانوا يعيشون مستوى عالياً من التطور. فنقص المواد، والحبوب واضح، وتوقف استيراد البضائع من اليونان القارية. وجمد استيراد الصناعيين والتجار، الذين كانوا قد ازدهروا في أيام الأتروسك. بالعكس، كبر دور الملاّك العقاريين والشرائح الزراعية، وقبل كل شيء، برز دور الأشراف الذين سلبوا أراضي الناس –الموالي– وعلى أرض القبائل الجديدة، على طول الشاطئ الأيمن للتيبر، في جنوب روما وحتى قمم الألب، في مستنقعات رونتان، أقام المعمرون ليحرثوا الأرض. ولقاء حرث مستعر، لجأ الرومان إلى تجفيف الحقول المستنقعية، وتحولت لاتيوم كلها إلى بستان مزدهر استمر حتى بداية العصر الوسيط. وحسب الرواية، "لم يتبرم الآباء الشيوخ من حرث أرضهم بأنفسهم أو حفر أقنية تصريف المياه. وكانت "البساطة الريفية" القاسية، وإيجابية أرض بأرض وذهن عملي فظ معتبرة منذئذ إمارات سلفية وفضائل نوعية للشعب الروماني في العهود القديمة.

فضلاً عن هذا، رهن هذا الشعب كل طاقته لدعم نضال مستميت من أجل استقلاله وحريته. يقول أنجلز بهذا الصدد إن الجيش الروماني خلق "... أجود نهج لقتال المشاة ابتكر طيلة العصر، يوم لم يكن العالم يعرف استعمال البارود[1]".

إن كانت نواة الجيش الروماني قد تألفت سابقاً من جحفلين، فهي تضم الآن أربعة، لأن العمليات القتالية جرت على مختلف النقاط المهددة في آن واحد. وتعداد الجحفل الذي تراجع إلى النصف، هو الآن ٤٢٠٠ رجل فقط، على أهبة القتال (سلاح ١٢٠٠ منهم خفيف)، عدا الخيالة، الموسيقيين، مساعدي البنائين وعناصر أخرى خارج الصف. لكن انشطار الوحدة القتالية الأساسية كان يعوض بإلحاق بكل وحدة سوقة مساوية لعدد القوات المتحالفة، وكان سلاح الخيالة يضاعف عادة. فضلاً عن هذا، فالحرب تدور في بلد جبلي ووعر، ضد عدو سريع الحركة، لذا قسم كل فيلق إلى وحدات صغيرة، لإنجاز مهمة

---

[1] – ف.أنجلز "الجيش"، الموسوعة الأمريكية الجديدة، المجلد الثاني، رقم ٤، ١٨٥٨، ص١٢٨.

مستقلة،في كل جحفل ثلاثون فصيلة، ولكل منها بواقها ورايتها. كان الفيلق يشكل جسداً، واضح المفاصل وفي غاية التعقيد، من وحدات قتال صغيرة، تعمل مستقلة، إنما تبعاً لخطة مشتركة، إذن لايشكل الجحفل كله وحدة قتالية واحدة، كالكتائب اليونانية، بل لكل واحدة رقعة معينة مسؤولة عنها، مع الاحتفاظ بفاصل بين الرقعة والأخرى. الخط الأول، من عشر شراذم، مزودة برماح قصيرة، خلفها يصطف في الخط الثاني، بين فرجات الأوليين، عشر شراذم أخرى من جنود مدربين، وأخيراً، في الخط الثالث، شراذم السلاح الثقيل، من أكفأ المحاربين. تخوض هذه القوات المعركة تدريجياً، والصدمة الساحقة من شراذم السلاح الثقيل تبيد العدو الذي أنهكه الخطان الأول والثاني. يقدم تيت،لايف وصفا رائعا لهذا التكتيك عالي الإتقان.

في ذات الحقبة، تبدل سلاح الجحافل، وبخاصة، وبسبب شح المعدن، صنعت أسلحة الدفاع من جلود غير مدبوغة، كثيفة ومقاومة، وادخرت القطع المعدنية لأشد الضرورات. لكن هذا التقتير نفسه ساهم في جعل القوات الرومانية أسرع، أقدر على المسير الطويل والانقضاض على مؤخرات العدو.

وتحسن التسلح الهجومي أيضا. فادخال الزوارق، المسلحة بنفس الوقت برمح وحربة، منتظما بإحكام مع كميات سلاح الرمي بالأسهم والرمح الطويل، كان أهم تجديد. والسيف القصير (٦٠-٧٥سم) ذو حدين ورأس من الفولاذ المسقي، سمح بالطعن كيفما اتفق.

وفي هذه الحقبة أيضا اختار الرومان، لنصب وإقامة معسكراتهم، مخططا متقنا ناجزا ودائما، وهو عبارة عن مربع يخترقه ممران يتقاطعان في الوسط. يحيطه خندق من كل جهاته وسور ترابي متوج بشباك قصبي شد إلى بعضه.

كانوا يسهرون جيدا على معنويات وثقافة الجيش القتالية. وينزلون عقوبات صارمة بمن يخرق الانضباط ويخون الواجب القتالي. ويمتدحون مآثر الشجعان في أثناء الخطابات التي تلقى في اجتماع القوات، ويخصونهم بهدايا وأوسمة.

الجمهورية العسكرية والنبيلة في بداية القرن الخامس ق.م

لقد أفضى الاهتمام الكبير بقضايا الحرب إلى إعادة تنظيم جذري للجهاز الحكومي، بمنحى عسكري شامل وكامل. ومع اختفاء السلطة المطلقة التي كان يمارسها ملوك الأتروسك (احتفظ أحد الكهنة بلقب ملك)، صارت الحكومة "حكومة الشعب" وسميت الدولة

الرومانية لهذا السبب جمهورية. لكن استمرار الحرب جعلنا نفهم بكلمة "شــعب" الشــعب المسلح فقط. ولذا صار مجموع الجيش المؤلف من مئـــات، ليقــرر المســائل العســكرية المطروحة، وبخاصة خوض الحرب أو وقف القتال، وانتخاب الجنرالات السنوي، الركــن الأهم في الحكومة. لم تكن تعقد هذه الاجتماعات إلا مرتيــن فــي العــام، فــي الربيــع والخريف، في معسكر مارس –أذار– (الموقوف لإله الحرب)، الكائن خارج المدينة، علــى ضفة التيبر.

كان القائد الذي يدعو القائد الذي جمعية الناخبين للاجتماع يلقي خطبة يختمها بطــرح السؤال التالي على الشعب: "أتريدون، يا سكان روما، أن تعلنوا الحرب على هذا الشعب أو ذاك؟" ويذكر أيضا الأشخاص المدعويين لممارسة قيادة القوات.

لم يكن يقبل أي نقاش، أو احتجاج، ويحال الأمر في الحال على التصويت.

آنئذ تتقدم القوات ، وكل مائة تعبر عن رأيها وهي مارة (كان ثمة أشخاص معينــون يجمعون الأصوات داخل المئويات). يقترع أولا ١٨ قائد مائة خيال. ("أصحاب الامتيــاز"، هكذا يسمون لأنهم أول من يعطي رأيه. ويأتي بعدهم ٨٠ قائد مائه مشاة (حملــة الســلاح الثقيل). فإن وقفوا إلى جانب الخيالة، تكون الأكثرية قد ضمنت (٩٨قائد مائه). وفي هـــذه الحالة لايستشار قادة الــ٩٥ مائه الآخرون. وفي حال العكس، يستمر التصويت حتى يتخذ قرار ما. وهكذا، نادرا مايستشار قادة المائة الأفقر، ويلعب صوت الأجــور سـلاحا، أي الأغنياء الدور رغم كل شيء، كانت جمعية الشعب هذه، المجندة والمنظمة علــى أســاس المائة، تشكل الشكل الجنيني للديموقراطية العبودية الرومانية. وليــس للجمعيــات القديمــة الفردية سوى حق تأييد القادة المنتخبين إلى مجالس المــدن المشــيخية وتوليــهم، حســب الشعيرة، سلطة العاهل، والوظائف التي آلت إلى الشكلية العابثة.

في الأيام الأولى، ينتخب حاكمان من الأشراف فقط. وهما يشكلان الركن الثاني فــي حكومة الجمهورية الرومانية. يسمى كل منهما حاكم شرعي. وهما قائدا الجيش، مخــولان سلطة غير محدودة في الحياة المدنية. كانا يــنزلان عقوبــة قاسـية بمــن يخــرق "أمــر القاضي"،أي القرار الذي يخول هذين الحاكمين ممارسة مهامهما (كــان الجــاني يضــرب بمقرعة ويقطع رأسه ببلطة). وكانت العقوبة تنفذ على الفور من قبل حامل الفــأس، الــذي يحرس ١٢ قاضيا، حاملا على كتفه بلطة محاطة بحزمة من القضبان. كان حامل الفـــأس

يطوي حزمة القضبان عند اجتماع الجمعية الشعبية، بناء على أمر القـاضي إشـارة إلـى المصدر الشعبي لسلطة القاضي.

على ذلك، ومع تراجع الهجمة العسكرية، وإرساء العدالة، سعوا إلى تقليـص سـلطة القضاة أو الحكام الاستبدادية. كان يحق لكل قاض التدخل بالقرارات التي يتخذهـا قـاض آخر، وهذا مايلزم القاضيان على التصرف بانسجام بين بعضهما. ولذا كان القضاة ملزميـن بالتشاور بين بعضهم ولذلك كثيرا ما سموا قناصل أو (مستشارين)، لكي تـزاح تدريجيـا الصفة العسكرية.

ثمة مؤسسة من عينة أخرى لدى الحاكم، وزراء المال، الذين تتنامى صلاحياتهم لتحد من سلطة القاضي. كان يشغل وزارة المالية بداية وزيران، ثم أربعة اعتبـارا مـن العـام ٤٢١، وكان الأربعة مستشارين لدى القاضي. كان القضاة يسمونهم، ثم، في النصف الثاني من القرن الخامس، صارت هذه الوظائف انتخابية. وكان وزيـر الماليـة مسـؤولا عـن تصريف الشؤون الجنائية والانضباطية، وتوجيه الشؤون الإدارية، مـن حيـث الاقتصـاد والمال بخاصة. ولايتم صرف أو أداء أي مبلغ حتى للمستشار بدون تدخل الوزير. وتطـال صلاحياته أيضا جباية الضرائب، والتعويضات والضرائب الجنائية، لدى بيـع الأسـلاب وأسرى الحرب، وصك النقوش،إلخ. كل هذا، مع الحفاظ على وظائف ملازم المستشـارين، الذين يرافقونهم إلى الحرب ويحلون محلهم عند الإصابة أو المرض، وغيره.

كان التقليص الأهم لسلطة الحاكم هو إحداث مؤسسة تدريجية لممارسة حق من أديـن بالموت في دعوة الجمعية الشعبية للاجتماع. تقول الرواية أن هذه المؤسسة تعود إلى العـام ٥٠٩، لكن الأرجح أن الجمعية الشعبية لم تصبح حقيقة فعلية إلا في حقبة أحـدث بكثـير. وكان حملة الفأس يتخلون عن البلطة لدى دخولهم المدينة، ولايعيدونـها إلـى أكتافـهم إلا عندما يتوجه الحاكم مع الجيش إلى المعركة. على ذلك، في حـال الخطـر الاسـتثنائي، الخارجي أو الداخلي، كانت السلطة المطلقة تعود للقيادة العسكرية العليا لتسمية دكتـاتور، يختار من الأشراف المعروفين بكفاءتهم ونزاهتهم، لستة أشهر فقط، بسلطة كاملة؛ لذا كـان البحاثة اليونان يعرفون الدكتاتور باسم طاغية. وكان العرف يقضي بأن يتمتـع الدكتـاتور بكامل سلطته الاستثنائية قبل انقضاء هذه المدة، إذا كانت الظروف التي استدعت تسميته لم تعد موجودة.

لقد طالت عسكرة الجهاز الحكومي مجلس الشـــيوخ أيضــا: فالحكــام العســكريون السابقون، المدعوون للبقاء حتى انتهاء مهامهم، كانوا يكملون صفوفهم. ولـــهؤلاء الشــيوخ فقط حق الكلام وإلقاء الخطابات واقتراح تدبير ما، في أثنـــاء اجتمـــاع مجلـــس الشـــيوخ؛ والآخرون يتمتعون فقط بحق التصويت الذي يتم وهم يصطفون هنا أو هناك، الأمر الـــذي أفضى إلى السخرية منهم بتسميتهم "سلاح المشاة".

بعد هذه العسكرية لم يتأخر مجلس الشيوخ عن إخضاع كل الحكام لتنفيـــذ قراراتــه. فالجمهورية الرومانية منذ بزوغها، كانت تجسد السيطرة الأرستقراطية العسكرية والأبويـــة لمجلس الشيوخ.

تتضح طبيعة هذا النظام في الاشتقاق العام الذي اختير لتسميته، الـــذي ينـــدرج فـــي معارف الحرب، الأبنية الرسمية والأعمال الرسمية، تحت أربعة أحرف طقسية *S P Q R* (*Senatus papuluque romanus*)–مجلس شيوخ الشعب الروماني. وبهذه البادئة الرمزية، يوضح الحرف الذي يشير إلى مجلس الشيوخ بطريقة شرعية تماما قبـــل الإشـــارة إلـــى الشعب، الأمر الذي يوضح الواقع الاجتماعي للجمهورية الرومانية.

الفصل الخامس والأربعون

القضاء على مخلفات العشير وتشكيل المجتمع الطبقي والدولة في روما

تمرد العوام وبدء التنظيم العامي

تم القضاء على مخلفات نظام العشير في روما كما في اليونان بالطريق الثوري. بعد زمن طويل من "إصلاح سرفيوس توليوس". والمصادر التي تتحدث عن هذه الحقبة من التاريخ الروماني غير كافية أبدا. تطفح أعمال دنيس ابن مدينة هاكرنساس بالاختراعات الخيالية لحوليات وشعراء من الأزمنة السابقة وكذلك التقاليد المزهوة التي تتحدث عن "مآثر" أسلاف الأسر الشهيرة في روما. "فقط يمكن التأكيد، كما لاحظ ف.انجلز حول موضوع بداية هذه الثورة، أن الصراعات بين العامة والأشراف هي السبب[٢]".

كانت الشريحة المهيمنة من "الشعب الروماني"، النبلاء المنظمون من قبائل وعشائر، تسعى لصيانة امتيازاتها السلفية. ولقد استغل سقوط الملكية لتركيز السلطة بيد زمرة من الأسر النبيلة (قبائل فابيا، فاليريا، كلوديا). وكان النبلاء في الوقت ذاته يجهدون لديمومة المشاعة القديمة اقتصاد القبيلة، التي كان يزداد افتقارها للأرض، لأن المراعي وأسهم الأرض القائمة في مجال القبيلة والممنوحة بصورة وقتية لأعضائها ومواليها أخذ مع الزمن صفة الملكية الخاصة، الوراثية وغير القابلة للتصرف. وبالتالي، فقدت مشاعة القبيلة مبرر وجودها الاقتصادي وعمليا تفككت.

في هذه الشروط، تنامى اهتمام النبلاء بالأراضي المشاع، غير الموزعة على القبائل أو امتلكت أثناء الفتح، واتجهوا للدفاع بشراهة عن حقوقهم السلفية واحتكار التمتع بها.

---

٢ – ف.أنجلز. أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ص١١٩.

في هذا الوقت تشكلت شريحة ريفية من العوام المرتاحين وراحت الأسر الغنية العامية (قبائل ليسنيا، منوسيا، سمبرونيا وغيرها) تطلب بإلحاح مشرئب للمساواة بالحقوق السياسية مع الأشراف، والسماح بالزواج بين العوام والأشراف ودخول الحاكمية. وكانت قضية الديون تقض مضجع الشرائح الدنيا العامية. وفي القرن الخامس، هوت جمهرة من العوام، تعيش في أراضي الأشراف، إلى جحيم العبودية بسبب العجز عن إيفاء الديون، وهدد الباقون بالمصير ذاته.

كانت القضية الرئيسة، بخاصة لدى سواد الناس، هي قضية الأرض، أي التمتع بالـ"أرض المقدسة" وإشغال الأراضي الموات بحقوق متساوية مع الأشراف. فكان العلمي إذن، الذي يحمل حكومة الأشراف مسؤولية كل المصائب والأوصاب، على أهبة الاستعداد لدعم المطالب العامة من شريحته القائدة.

ارتدى النضال الذي قاده العوام شكل الانفصال، وكثيرا ما ذكرت في الموروث هجرة وانسحاب العوام. تشير المصادر إلى كثير من هذا (من العام ٤٩٤-٣٤٢). وقد قامت عصيانات خطيرة على الأولغارشية الحاكمة، من قبل سواد الجيش، الذين كانوا يهددون بالتحول إلى تمردات مسلحة. والجيش المنتفض، الذي تشكل منذئذ من العوام أساسا، كان يرفض، في الأوقات الحرجة عسكريا، الذهاب إلى الحرب أويترك مواقعه ويتجه نحو المدينة. وكانت نقطة تمركز العوام الغاضبين دوما في هضبة أفانتان. حيث ينهض معبد الإلهة العامية سيريس (ديمتر)، أي حي مرفأ روما. هنا، كان المنتفضون يشكلون "كتائب مقدسة"، تحت قيادات منتخبة. وبعد الارتباط بأيامين وصيغ لعانية ("الاحتفالات" أو "التضرعات" لسيريس)، كانوا يفدون نحو المدينة، التي يخرجون منها من باب الهضبة *porte colline*، أي الشرقي، ليعسكروا على بعد ٣٠٠٠ خطوة من سور الحاضرة، على التلة التي اتخذت فيما بعد صفة "التقديس". طيلة هذا "الانسحاب"، كانت حياة المدينة الاقتصادية ترتكس، وتهمل حراثة الحقول، ويستولي الجيش على المؤن الموجودة في أراضي الأشراف، الذين كثيرا ماهدمت مساكنهم. ومن هذه الحدود العزلاء، كان العدو يغزو ويدمر وينهب الأرض الرومانية.

كان الأشراف والقادة العسكريون مرغمين على تقديم امتيازات لتوطيد الألفة مع المتردين. كان مجلس الشيوخ يرسل وفدا مؤلفا من أشخاص شعبيين ومحنكين،

وبوساطتهم كان الطرفان يصلان إلى وفاق. وبسلسلة من هذه الامتيازات المنزوعة من الأشراف، كان العوام يتابعون تدريجيا تحقيق برنامجهم.

خلق جمعيات عامية ومنصب محامي شعبي

منذ بداية القرن الخامس، بعد أولى هذه الانفصالات ، ظهرت "جمعيات العوام"، أي الاجتماعات، التي أعطاها الأشراف الحاكمون لكل جماهير الشعب العامي؛ وكانت قراراتهم ذات طابع إلزامي لكل المجتمع العامي. كانت هذه الـ"جمعيات العامة" تقام على أرض المعرض، في أيام السوق الذي يجمع التجار والفلاحين.

من المرجح أنه بعد "الانسحاب الثاني" الذي تنسبه الرواية إلى العام ٤٧١، بدأت القبيلة تجمع الجمعية العامة. ومنذئذ، سميت الجمعية القبلية، التي تطمح للعب دور جمعية الشعب كله.

واستنادا إلى الرواية أيضا. وفي العام ٤٤٩، التزم القنصلان م.فالريوس وم.هورتيوس دعوة كتائب المائة للتصويت على قانون يقر أن الاستفتاء الشعبي له قوة القانون في مواجهة الشعب الروماني. وبالفعل،صار العديد من قرارات الجمعيات القبلية، مثل قانون كانليا في العام ٤٤٥، الذي يمنح الزواج بين الأشراف والعوام، مرعي الإجراء. لكن التحول النهائي لهذه الجمعيات إلى مجالس عشائرية شرعية لم يتم قبل القرن الرابع.

تقول الرواية أن العوام، منذ الانشقاق الأول (٤٩٤)، انتخبوا على التلة المقدسة أول محامي الشعب أو بكلمة أدق حكم العامة. كانت شخصية هؤلاء المحامين "مصونة مقدسة" وكان من يقاومهم يقذف به من أعلى صخرة تربليان، إلى تلة كبتولن. وكانت واجبات المحامين، الذين منذ تلك الحقبة ينتخبون سنويا من قبل الجمعيات القبلية، تكمن بالتدخل لمصلحة العوام ضد أي سلطة للأشراف، حتى الاستشارية، بطريق "اللا-نشقاق"، أو تعارض تدابيرها، إن هي آذت مصالح العوام. وكان المحامي يستطيع إيقاف أي عمل قضائي وعرض القضية أمام سلطته القضائية. يرأس المحامي العام اجتماعات وجمعيات العوام، التي له حق دعوتها، ليتحرر من مقترحاتها. وفي شخص المحامين العامين، يكسب العوام، ضد تحكم الشريف، مدافعين عن السلطات الواسعة بدون استثناء.

كانت هذه السلطات مقيدة بحدود جدية. أولا، لايمارس المحامون العامون الـ*imperium*، أي القيادة العسكرية. ثانيا، سلطة للمحامين العامين محدودة بسور المدينة،

أي لاتمتد إلى الأرياف. وطيلة مدة مهمته السنوية، المحامي العام ملزم بعدم ترك المدينـــة ولا المبيت خارج مسكنه، المفتوح الباب أبدا، بحيث أن أي صاحب حاجة يقدر أن يتوجـــه إليه في أي وقت. وبتسمية الدكتاتور وانطلاقا من لحظة إعلان حالة الحصار،كانت تعلـــق ممارسة السلطة الشعبية.

كان محامو الشعب بداية اثنين. وفيما بعد صاروا أربعة أو خمسة، وأخيرا عشـــرة. وتدريجيا بسطوا سلطتهم حسب أهوائهم (فرض الغرامات والتوقيف، إلخ)؛ لابـــل بـــدؤوا بمراقبة أعمال مجلس الشيوخ؛ وقوفا في الأبواب، أو جالسين على مقاعد يجلبونها معـــهم، يتابعون المناقشات والقرارات. فإن مثلت هذه الأخيرة صفة ضارة أو معادية لأحد العـــوام، ينهض المحامي العام ويقدم اعتراضه.

المجلس العشائري وقانون اللوائح الاثنتي عشر

كان أهم إنجازات الشعب الروماني هو القانون المكتوب. وكان عرف القبيلة: "عـــرف وعادة الأسلاف" يشكل سر طبقة الأشراف، الأمر الذي يفتح الباب واسعاً لتحكـــم قضـــاء المستشارين. ولمعالجة هذا الوضع، عقد مجلس الشيوخ جلسة في منتصف القرن الخامس، بناء على إلحاح هيئة المحامين العامين، من أجل كتابة ونشر القوانين.

حسب الرواية، لم يمارس هذا الإصلاح إلا بعد صراع ضار، حتى الضرب بـــالأيدي المسلحة بين أنصار التقنين وشريحة من الأشراف الراغبة في الحفاظ على الحالة القائمة.

في العام ٤٥٢، انتخبت جمعيات المائة لجنة من عشرة أعضـــاء، منحـــت ســـلطات دكتاتورية، مكلفة بتدوين القوانين. عملت سنتين. وفي العـــام ٤٥١، كـــانت حكـــراً علـــى الأشراف. بينما في العام ٤٥٠ تشكلت من خمسة أعضاء أشراف وخمســـة مـــن العـــوام، برئاسة أحد أشهر ممثلي الأشراف، آنيوس كلوديوس.وكانت حصيلة أعمالها نشر شـــريعة نقشت على اثنتي لوحة برونزية. لم يصلنا هذا الأثر كما هو أصلاً، ولانعرف سوى بعـــض مواده محفوظة كما ذكرت في أعمال القانونيين الرومان للعصور المتقدمة. تمثل أكثر مواده الصفة القديمة وكانت أمنية فقط لنصوص الحق القديم المألوف. ففي أصـــول المحاكمـــات المدنية،مثلاً، لم تكن المحاكمة سوى حكماً بين المتخاصمين، للمدعي حق جلـــب المدعـــى عليه بالقوة ليمثل أمام القاضي، "بوضع السيد عليه" (لوح ١، ومادة١ ومايليـــها). وعلـــى الخصم نفسه أن يقدم شهوده. وفي الحق الجنائي يسود مبدأ القصاص: من ســـبب تشـــويهاً جسدياً يكون عرضة لتشويه مشابهٍ. وعقوبة الموت لمن أحرق أو من نوى تسبيب ضـــرر

بحقل آخر، وبمن سعى "إلى تعزيمة ضد الحصاد" أو "من غنى أغان شـــريرة". وبعـض العقوبات تمثل طبيعة التراتيل الدينية،إلخ.

في الوقت ذاته ثمة نصوص في شريعة الألواح العشرية تستوحي توجهات تقدميـــة، كتلك التي تهدف الدفاع عن الملكية الفردية، وإضعاف تحكم شيوخ القبائل وأنسنة التشـــريع القديم حول الديون. مثل إعطاء المدين مهلة ثلاثين يوما بعد إعلان عدم قدرته على الوفـاء؛ وإن رماه الدائن في الحبس، لايحق له أن يفرض عليـه الجـوع؛ وأن لا تـزن الأغـلال والحديد التي تكبله أكثر من ١٥ ليبرة. ولايجوز أن يسجن المدين أكثر من ٦٠يومـــا؛ بـل يجب أن يساق إلى الميدان، وفي أيام السوق، لا أحد يرغب بشرائه، إلخ.

يجدر الاعتراف بالطبيعة التقدمية لهذه الشريعة، رغم أهمية مخلفات "حـق العـرف" السلفي، التي كانت قد شاخت يومئذ.

خاتمة الصراع بين العوام والأشراف: تسوية الشروط، تشكيل طبقة واحـــدة من مالكي العبيد، تنظيم جهاز الدولة.

بعد المجلس العشاري، تابع العوام، الذين ربما انضم إليهم الموالي، نضالهم الذي كلل بانتصارهم.

بداية ، سنت قوانين لمصلحة الشريحة العليا من العوام. وفـــي العـــام ٤٤٥، أقـرت مبادرة المحامي العام كانوليوس التي تسمح بالزواج بين الأشراف والعوام. وانطلاقا مـــن العام ٤٤٤، عندما احتال العوام على المستشارية، بديء بانتخاب محامين عامين عســكرين مخولين السلطة الاستشارية (عادة عشرة)، يملكون كل مايملكه المستشار، عدا حق دخـول مجلس الشيوخ. وانطلاقا من العام ٣٩٠ وحتى ٣٦٧، حلت المحامات العاميـــة العسـكرية تقريبا كليا محل المستشارية. بين هؤلاء كان لابد من وجود عدد من العوام.

طبعا كان الأشراف يدافعون بعناد عن امتيازاتهم السياسية. وهكذا بديء، انطلاقا مـن العام ٤٤٣، بانتخاب، كل خمس سنوات ولثمانية عشر شهرا، مراقبيـــن، يختـاران مـن المستشارين الممتازين، الذين كانوا مكلفين بمراقبة المواطنين وأرزاقهم، لإعـادة توزيعـها على الشرائح المناسبة. كانت الرقابة العامة تتم أمام الشعب المجتمع في حقل آذار *MARS*. وكانت كل إعلانات الأرزاق تدقق بصرامة وتولى أخلاق المواطنين أهمية قصوى. وربمـا أفضى السلوك الذميم (حياة عابثة، فاسدة، ماجنة،إلخ) إلى تقهقر طبقي. يرفـع المراقبـون

اللوائح لمجلس الشيوخ ويستطيعون ترقين "غير الجديرين". وقد صارت هذه السلطة الواسعة للمراقبين، المتعلقة بمراقبة الأخلاق، بين يدي الأشراف وسيلة قوية لكبح التطور الاجتماعي. فضلا عن هذا، وضعت معرفة كل المسائل الخاصة بالأرض والمناجم العامة، وشق الطرقات، أقنية المجارير، والصروح العامة، إلخ. وضعت أيضا في أيدي المراقبين. ومن هنا ارتبط كثير من رجال الأعمال بالمراقبين، الأمر الذي خول هؤلاء الأخيرين ممارسة نفوذهم على النشاط والسلوك السياسي للعناصر الجريئة من العوام الذين كانوا يشكلون الخصوم السياسيين الأخطر على الأشراف.

لكن الشرائح الأدنى من العوام قد حظيت، هي الأخرى، ببعض المكاسب على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. فقد ازداد توزيع الأرض أكثر فأكثر من الأراضي الملحقة حديثا. هكذا، بعد الاستيلاء على فييس في العام ٣٩٣، قرر مجلس الشيوخ توزيع أراضي هذه المدينة، بمعدل ٧ أسهم للشخص.

في أثناء الأعوام التي تلت غزوة الغولوا التدميرية، في العام ٣٨٧ ق.م، بلغ الصراع أوجه. بل تتحدث مصادرنا بتعابير غامضة عن أعوام كاملة من "الالغارشية". حاول الأشراف عبثا سحق الحركة الشعبية على يد سلسلة من الدكتاتوريات، وفي العام ٣٦٧، ألزم الدكتاتور ومجلس الشيوخ على تصديق مشروع قانون المحاميين العامين: س.ليسنيوس ستولون ول.سكتيوس لترانوس، الذي لأجله أو ضده صارع الطرفان بضرواة منذ عشرة أعوام. قام قانون ليسينيا وسكتيا على ثلاث نقاط أساسية من برنامج العوام: المسألة الزراعية، وقضية الديون والمسألة السياسية. أولا، بفضل هذاالقانون تمتع كل المواطنين الرومان بالأرض العامة، وألغي احتكار الأشراف لهذا المرفق، ووضعت حدود ثابتة. حسب الرواية، ماكان يجوز لأحد أن يمتلك أكثر من ٥٠٠ سهم أو ٥٠٠ رأس ماشية، لكن هذه الأرقام كانت كبيرة جدا وغير متلائمة حتما مع الواقع. ثانيا، كان اهتمام المدنيين ينصب على إلغاء الديون. أخيرا، ألغي منصب المحامي العام العسكري والسلطة الاستشارية وعادوا إلى انتخاب مستشارين سنويين، على أن يكون أحدهما عاميا حتما.

وكانت الحاكمية في الوقت ذاته، بصفتها امتيازا لطبقة الأشراف، منفصلة عن الاستشارية، لتشكيل مكتب قضائي مستقل، مخصص للأشراف. والحكام (بداية كانوا أثنين) يأتون بعد المستشارين أو القناصل. وخلقت أيضا حاكمية جديدة للأشراف، حاكمية قضاة

كراسي العاج (أي قاض بلدي له الحق بكرسي عاجي في مجلس الشيوخ): كانوا مكلفين بتنظيم الأعياد والاحتفالات العامة الخاصة بالعبادة، والحفاظ على الأمن والنظام في المدينة. مع ذلك، وبعد سنتين، في العام ٣٦٥، سمح للعوام بدخول هذه الحاكمية، دون أن يتخلوا عن دخول القضاء المدني وكل المهام الأخرى، بما فيها الدكتاتورية. وفي العام ٣٥٧ حصل العوام الفقراء على تحديد أعلى فائدة للدين ١٠%، وأخيرا ألغى قانون بوتليا العبودية الناجمة عن الدين وحرر المواطنون الرومان الذين رسفوا بقيود العبودية بسبب الدين.

وهكذا كانت نتيجة هذا الصراع الطويل إلغاء أغلب مخلفات مجتمع العشير السابق. ولم يعد الأشراف والعوام يشكلون من الآن سوى طبقة حاكمة واحدة، طبقة المواطنين الرومان الأحرار. ولم يعد يتميز المواطنون فيما بينهم بأرومتهم أو محتدهم، بل بثروتهم ومهامهم. ومنذئذ بدؤوا بتسمية القوم الفقير ساكن المدينة بالعوام،وبخاصة الفقراء المدقعين. وقد بدأت أرستقراطية الصف الجديدة، سليلة الشرائح العليا من الأشراف والعوام، تسمى النبالة أو النبلاء، أي "الجديرة بالصدارة"، "بالشهرة"، وفيما بعد الأفضل، أي، "الأحسن". فكل مواطن روماني، بدون استثناء، له أن يصير نبيلاً، إن نجح ببلوغ الحاكمية العليا.

إلى جانبهم تشكلت الطبقة الخادمة، أي العبيد، المحرومين من حريتهم بإكراه مباشر وغريب على الواقع الاقتصادي: أسرى حرب، أسرى اللصوصية أو القرصنة، إلخ. وفي شريعة الألواح العشر، أشير مراراً إلى العبيد والمحررين. كان هؤلاء الأسرى الغرباء ملكية بكل معنى الكلمة، سلعة لدى المحتل، كأي غنيمة، ثمرة الحرب وقطع الطرق، شيء يمكن استبداله ببيعه وقتله. "رقيق أو أي دابة أخرى"، هو التعبير المعتاد الذي نجده حتى في حقوق العصور المتقدمة الرومانية. مع ذلك يمكن الافتراض أن العبودية كانت منتشرة جداً في روما في القرنين الرابع والخامس، لأن الاقتصاد الطبيعي كان مايزال موجوداً إلى مدى بعيد.

ومع تكون المجتمع الطبقي في روما، انطلق الجهاز الحكومي انطلاقته الأوسع. وكانت السمات الأساسية لدولةالعبودية هذه شكله العسكري وديموقراطيته الصورية.

في هذه الدولة، كانت السلطة معتبرة صادرة من "الشعب الروماني"، من التعاون التام بين المواطنين الرومان الأحرار. ففي كل مسألة هامة كان ضروريا "طلب موافقة الشعب". بينما كانت السلطة الفعلية بعيدة جدا عن السلطة الشعبية. أولا، كانت قرارت الجمعية الشعبية التشريعية ذات طبيعة إدارية عامة فقط، ولم تكن تتخذ إلا بناء على اقتراح الحكام.

وليس لهذه الجمعية أبداً حق التدخل في الشؤون الإدارية وفي السياسة السائدة. ثانياً، حتى الجمعيات القبلية، الأكثر ديموقراطية بين الأشكال الثلاثة للجمعيات الشعبية، لم تكن تمثل سوى مصالح متوسطي وكبار المالكين العقاريين، لأنها تشكلت في القرن الرابع من سبع عشرة قبيلة ريفية وأربع قبائل مدينة فقط،فضلاً عن أن المزارعين الصغار، أي الفلاحين، نادراً ماينزلون إلى روما ليشتركوا في الانتخابات والتصويت. وكانت الجمعيات المئوية دافعة ضريبة الاقتراع مبدئياً وتعطي الأغلبية المطلقة لـ٩٨ مئوية من الشرائح المتوسطة والكبيرة. أخيراً ينحصر دور الجمعيات العشائرية بالمصادقة على قرارات جمعيات المئوية. وهكذا فتح المجال واسعاً لتزوير الإرادة الشعبية. أضف إلى هذا أن الحكام الأعلى، الذي يرعون الأمور، لايعدمون وسيلة لإيجاد أساس ديني لتعليق أو إلغاء أي قرار وحتى حل الجمعية.

كان الحكام يلعبون دوراً بالغ الأهمية في حياة الدولة الرومانية: قنصلان، حاكمان شرعيان ثم الأربعة، مراقبان، كرسيان عاجيان، ٤ وزراء خزينة، ١٠ قبائل من الشعب، قاضيان عامان، أعضاء العديد من الجمعيات والموظفون النوعيون (من أجل ضرب النقود، وحراسة المدينة في الليل، إلخ).

كانت هذه الحاكمية التي تشكل السلطة الحاكمة حكراً على زمرة مغلقة من أرستقراطية الطبقة الجديدة، النبالة، التي تقاوم ضم "موالي جدد" إلى صفوفها. كان النبلاء ينضمون إلى هذه الزمرة باحترام مبدأ مجانية الوظيفة العامة، وحسب هذه القاعدة ليس لأحد أن يشغل مهمة أعلى إلا بعد أن يمر بمهمة أدنى. ولابد من مراعاة وبحزم فواصل الزمن للارتقاء من درجة إلى أخرى وشروط العمر. مثلاً، ألا يقل عمر القنصل عن ثلاثة وأربعين سنة، وأن يمر بكل المراتب السابقة. وهكذا تحولت النبالة الرومانية إلى أولغارشية مغلقة، حيث يقتسم الأعضاء المهام فيما بينهم. وكان صعباً جداً على "رجل جديد" ولوج وسطهم.

إلى ذلك، كان سيد دولة روما الحقيقي هو مجلس الشيوخ. كانت الخزينة بيديه، الأمر الذي ربط الجنرالات به، لأن التموين ودفع رواتب الجيش لايتمان إلا بأمر مجلس الشيوخ. وبمجلس الشيوخ ترتبط أيضاً كل تدابير الشؤون الاقتصادية. وفوق هذا، هو الذي يوزع الوظائف ومراكز السلطة على الحاكم، ويقدر أن يمدد مدة الحكم إلى أكثر من سنة،

باعتباره "قنصل محنك" أو "محام عام نزيه"، يدقق ويصادق على تقـــاريرهم، يمـــيزهم أو يرفض النصر أو الترحيب، وغير ذلك. يستقبل الشيوخ ويرسل السفراء، يصدق أو ينقـــض المعاهدات. لايجرؤ أي حاكم أن يقترح على الجمعية الشعبية أي مشروع قانون دون موافقة أولية لمجلس الشيوخ. ونجح مجلس الشيوخ بسحق سلطة المحامين العامين التي كانت بداية خطرة عليه، وذلك بضمهم إلى صفوفه ليجعل منهم شركاء له.

كانت الطبيعة العسكرية البارزة جدا صفة أخرى للدولة الرومانية، المنظمة السياســية للفلاحين المحاربين، الذين كانوا في وقت معا مقاتلين ومزارعين. وكان الجيش الرومـــاني أساسا فلاحيا، لأن قاعدة المائة، التي بناء على أهميتها يتم تجنيد الفيالق، كانت امتلاك سهم من الأرض. وابن المدينة حتى الميسور، لكن لا أرض له، لايقـــدر أن يخـــدم إلا خـــارج الجيش. وكانت خدمة الخيالة وقفا على مالكي الأرض، أغنى من الفلاحين البسطاء، والذين كانوا يحملون اللقب الماجد "فارس". وأخيرا أخذت حروب القرن الرابع طبيعة صناعية في ذاتها، تهدف إلى حيازة أرزاق مادية بواسطة أعمال هجومية مستمرة ضد الجيران. نجـــم عن هذا أن يبقى كل الحكام الكبار (عدا المراقبين والمحامين العامين) قبل كل شيء قـــادة عسكريين، يمارسون قيادة، ولايستلمون وظائف مدنية إلا استثناء، إلا فـــي أثنـــاء الهدنـــة والفواصل بين الحروب. وكان مجلس الشيوخ نفسه يشكل إن صح التعبير الأركان العامـــة الدائمة للدولة الرومانية. وقد وحددت المرحلة التالية من تاريخه، تاريخ الحروب الإيطالية، ثم الفتوح خارج شبه الجزيرة، مرحلة ولادة الإمبراطورية الرومانية المتوسطية.

الفصل السادس والأربعون

فتح وتشكيل اتحاد روماني - إيطالي

حروب السامنيت. فتح إيطاليا الوسطى

بدءا من القرن الرابع، في جنوب إيطاليا ووسطها، بسبب التطور الملحوظ للقوى المنتجة، تشكلت اتحادات حربية بين الشعوب التي كانت حتى آنئذ تعيش عشائر منعزلة. وفي حوالي العام ٣٨٠، صارت جمعية السامنيت، التي تضم كل الأرض الجبلية، من شواطيء كامبانيا حتى جبل غارغانو والبحر الأدرياتيكي، قوة ضخمة. فقد نزلت فصائل المقاتلين السامنيوت الجبلية المسلحة، بحثا عن المرعى والأسلاب،إلى سهول أبوليا الخصبة واحتلت مدن كامبانيا الثرية، مثل كابو وكاموس. وانضوى العديد من مقاتلي السامنيت كمتطوعين في خدمة المدن الإغريقية (سيراكوز بخاصة) وعادوا إلى الوطن، محملين بالأسلاب، والأسلحة الوفيرة لدى اليونان ومفاهيم في فن الحرب الهلليني. وفي منتصف القرن الخامس، صار السامنيت سادة إيطاليا كلها تقريبا، في جنوب فولتورنو.

لكن توحيد شعوب شبه الجزيرة كان هم دأب روما الأول، لأن بعض المدن الإيطالية، تملك الأرض الأوسع والأكثف سكانا (حوالي ٦٠٠٠كم٢)، وتتمتع بتنظيم اجتماعي وسياسي أرقى نسبة إلى شعوب إيطاليا الأخرى. ولقد أفرز استقرار العبودية ونفوذ العوام المنعمين السياسي في روما، أفرز اختيار سياسة عدوانية. وبفضل التنظيم الرائع للجيش وعسكرة الدولة، خرجت روما ظافرة من سلسلة من الحروب الصعبة وصارت الدولة الأقوى في إيطاليا.

كان أول عمل لسياسة العدوان فتح كابو، وكامبانيا الغنية حتى حدود أرض نابولي (٣٤١). لكن غزو كامبانيا أثار أولى النزاعات المسلحة مع السامنيت. والرواية الرومانية المحاكة حول هذه الصدامات، قدمتها كأول حرب للسامنيت (٣٤٣-٣٤١). ثم انفجرت ضد روما عصيانات في كل المدن اللاتينية، بما فيها حلفاؤها السابقون. وبعد عامين من

الصراع، الذي سمي "حرب اللاتين" (٣٤٠-٣٣٨)، نجحت روما بإخضاع كل مدن اللاتيوم، المحافظة مع ذلك على صفة "الأحلاف اللاتين".

بسبب كامبانيا أيضا، اضطرت روما مرتين لمساندة صراع الرومان إلى السامنيت. وفي أثناء حرب السامنيت الثانية (٣٢٧-٣٠٤ ق.م)، اضطر الرومان إلى نشر قواتهم حتى آخرالحدود. رغم أنهم حاربوا تحت راية ما سمي: "صناعيون وعمال"، عرف الرومان عدة نكسات وعدة هزائم. أهمها نكبة الفورش كودين *Faurches Caudine*، يوم طوق السامنيت الجيش الروماني وأكرهوه على الاستسلام، متحملا شروطا مخجلة: أجبر كل الجنود، أن يمروا عزلا عراة "تحت النير" كما الدابة، عرضة لتهكم وسخرية المنتصرين.

لكن الحرب الأكثر ضراوة كانت حرب السامنيت الثالثة (٢٩٨-٢٩٠)، في أثنائها تكتلت ضد روما كل شعوب إيطاليا الوسطى من أبوليا حتى وادي البو، وانضم إليهم الغولوا. وقد قررت معركة سانتيوم، في أومبريا، بإنهاء القتال بانتصار روما نصرا مؤزرا. دمرت ونهبت سامنيوم بدون رحمة. وفي العام ٢٩٠ كانت إيطاليا الوسطى كلها في قبضة الرومان. انتهت الحرب بقيادة القنصل مانيوس كوريوس دنتاتوس، المفترض أنه استولى على عدد كبير من المدن لم يستطع أن يعدها كلها في تقريره أمام مجلس الشيوخ.

الحرب ضد تارانت وبيروس. إخضاع جنوب إيطاليا

. بعد فتح وسط إيطاليا، حولت الأوساط الحاكمة في روما أهدافها نحو جنوب إيطاليا، حيث كانت المدن التجارية الغنية تحافظ على هيمنتها. وبحجة مؤازرة المدينة اليونانية توريوا ضد اللوكانيان، طردت الحكومة الديموقراطية في أقوى مستعمرة يونانية في الميدي قادة الحزب الأرستقراطي، نصير إبرام حلف مع روما، وأعلنت الحرب. طلبت مساعدة بيروس، ملك إيبيريا، أحد ورثة اسكندر المقدوني، الطامح بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط الغربي. وفي العام ٢٨٠، أبحر بيروس إلى تارانت، على رأس جيش من ٢٠ ألف رجل، محنكين ومسلحين على الطريقة المقدونية؛ وأشرك أيضا ٢٠ فيلا هنديا. وفضلا عن مليشيات المدن اليونانية، ضم بيروس إليه بقايا السامنيت، اللوكانيان والبروتيانن فبلغ تعداد جيشه قرابة ٤٠ألف مقاتل. قاتل، قرب هراكليه، قوات القنصل ب.فالريس لافينوس ووصل إلى أبواب روما. لكن الوقت توفر للرومان ليدعموا السوقات العسكرية من أترووري، وجندوا حتى البروليتاريا، واضطر بيروس أن يقاتل وهو يتراجع إلى أبوليا.

ودارت معركة أخرى في العام ٢٧٩ في أسكولم؛ انهزم فيها الجيش الروماني وتكبد خسائر جسيمة، حتى أن بيروس اعترف بهذا، وقال: "إن كنا حققنا نصرا أخر كبيرا... لقد فقدنا ما لايمكن تعويضه".

استنادا إلى بلوتارك (بيروس،٣٣) كان المعاصرون يشبهون هذا الملك "بمقامر يقود أسعد الضربات لكنه لايعرف كيف يفيد من ثروته". وظنا منه أنه ساد إيطاليا، وعوضا من أن ينهي القتال ضد روما، سارع ليشرع بغزو سيسيليا. صرف هنا ثلاثة أعوام. لم يفعل شيئا سوى كسب أعداء جدد من قرطاجة كانوا قد عقدوا حلفا مع روما. ولما عاد بيروس إلى إيطاليا،في العام ٢٧٥، أنزل به الرومان المتأهبون جيدا هزيمة حاسمة على حدود سامنيوم الجنوبية، قرب بينيغانتن فاضطر أن يعود إلى اليونان حيث قتل في مغامرة جديدة. واستسلمت فلول جيشه، الذين لجؤوا إلى تارانت حيث حوصرت برا على يد الرومان وبحراً على يد الأسطول القرطاجي، (٢٧٢). وهكذا أنجزت روما فتح إيطاليا. ولتوطيد موقعهم في جنوب شبه الجزيرة، قاتل الرومان على الشاطيء الشرقي لكلابر الميدان الأقوى والأمنع لبروندزيوم، الذي انضم إلى عاصمتهم بطريق الحرب، وأسسوا فيه مستعمرات قوية.

الاتحاد الإيطالي في عهد سيطرة روما

أخضعت روما إيطاليا، لكنها لم تنظمها بدولة واحدة. فقد تكونت هي ذاتها على مبدأ المدينة القديمة ("حاضرة")، بشكل جمعيات قبلية مدينية وريفية، فوحدت إيطاليا على نفس المبدأ، بنهج اتحادي شديد التعقيد، استناداً إلى معاهدات فرضها المنتصر.

كانت شروط هذه الوفاقات تختلف، حسب ظروف كثيرة (حزم المقاومة، الموقف المعادي أو بالعكس، الصديق تجاه روما في تلك الأيام، إلخ). كان الشكل الأنسب "اتفاق على قدم المساواة"، ينص على احتفاظ المتعاقدين بكامل استقلالهم، عدا إعلان الحرب ودبلوماسية خاصة. وطبقت هذه الشروط على المستعمرات اليونانية، والعديد من المدن الأتروسكية، وبعض حاضرات لاتيوم، المرتبطة بروما بمعاهدات سابقة. بعكس السلمنيت، اللوكنيان، الابروتيان الذين انتزع منهم ثلث بل نصف أراضيهم، ومنعوا من إقامة أي علاقة خارجية مع الشعوب الأخرى. وحافظوا على عاداتهم وشرائعهم لكن روما اشترطت أن يكون أنصارها من حكامهم المنتخبين من صفوف الأرستقراطية. وعلى الأرض

المصادرة من المنهزمين، أقامت مستعمرات عسكرية، يسكنها مواطنون رومان أو "متحدون لاتين" متميزون. وهكذا، رغم إعطائهم صفة الحلفاء، لم يعاملوا إلا كأرقاء.

بين "الاتفاق على قدم المساواة" وشروط "الحلفاء" الأتباع، ثمة عدد من الدرجات الوسيطة؛ فضلا عن هذا، احتفظت روما بمراجعة المعاهدات لمصلحة الأكثر خضوعا والأكثر حرمانا، لإعطائهم شرطا أفضل، وأحيانانفس حق المدنية الرومانية. ساهمت هذه السياسة "فرق تسد" إلى إرساء سيطرة روما في الحلف الذي أسسته في إيطاليا.

ووزعت أسهما من الأرض في المستعمرات، على الفلاحين الرومان المحرومين. على أن يحق لأغناهم أن "يشغل"، أي يستأجر من الدولة، البقاع غير الموزعة من الأرض المحتلة، وهكذا تشكلت حقول واسعة (للتدجين بخاصة، في جنوب إيطاليا). وهكذا، ندرك أن الشرائح الغفيرة من المجتمع الروماني وحتى شريحة الفلاحين في مجملها ساهمت في الفتوحات، بالنهب، بتدمير وإبادة الشعوب والقبائل الأضعف، وأن الـ"وحدة" ذاتها جعلت من .هؤلاء الأخيرين رعايا روما.

الفصل السابع والأربعون

الصراع بين روما وقرطاجة من أجل الهيمنة على غرب البحر المتوسط

روما في بداية القرن الثالث ق.م

لقد جعل فتح إيطاليا من روما واحدة من أقوى دول البحر المتوسط وواحداً من العناصر الأهم والأبعد نفوذاً في السياسة العالمية لذلك الزمن. في العام ٢٧٣، أرسل ملك مصر بتولميه فيلادلف إلى روما بعثة لتعرض لديها صداقته وتحالفه وفي العام نفسه أبحر السفراء الرومان لأول مرة إلى الإسكندرية، لرد هذه الزيارة .

فضلاً، عن هذا، أمن امتلاك المدن التجارية الكبرى لشبه جزيرة الأبينيين (كابو، نابولي، تارانت وغيرها)، ومنع الحلفاء من التجارة المباشرة فيما بينهم، للتجار الرومان احتكار التجارة الوسيطة لكل إيطاليا. فظهر تعاضد المبادلين الذين، خلاف عمليات النقود، كانوا يهتمون أيضاً بالاعتمادات والربى؛ وتجار المواشي، ومالكو القطعان الوفسيرة التي ترعى تحت رقابة رعاتهم العبيد، في المراعي، أكثروا الحقول العامة، في أبولي، لوكانيا وبرتيوم، والتجار الذين احتكروا التجارة الخارجية وصدروا إلى اليونان بخاصة القديد، الصوف والجلود، التي كانت تتاجر بها سابقاً المدن اليونانية في جنوب إيطاليا.

كان هؤلاء التجار والصناعيون الجدد، وقد وعوا أهميتهم، يسعون إلى توجيه السياسة الرومانية نحو مصالحهم. هكذا، حاول أحد أنصارهم، المراقب أبيوس كلوديوس في العام ٣١٢ أن يؤمن لهم الدور الأهم في مجلس الشعب الروماني: أعاد توزيع سكان العاصمة بين كل القبائل الرومانية، بحيث جعلهم سادة الاقتراع. صحيح أن هذا الإصلاح قد ألغاه خلفاؤه المباشرين، لكن الاضطرابات الشعبية للعام ٢٨٧ أجبرت مجس الشيوخ أن يقر قانون هورتانزيا، الذي بموجبه يتخلى عن حق تصديق قرارات المجالس القبيلية، التي كانت العناصر التجارية والصناعية تمارس عليها مع ذلك تأثيرا متزايدا. فكانت هذه

القرارات منذ صدورها تكسب قوة القانون بدون مصادقة مجلس الشيوخ.

بسبب انطلاقة اقتصادها، تركت روما في العام ٢٦٨ نقدها البرونزي الذي لايلائم إلا المبادلات المحلية، لتختار معيار الفضة المستخدم لدى اليونان. كان ضرب النقد يتـم فـي أقبية معبد جونومونيتا ("المنذرة") ومن هنا كان اسم النقد. وصار الدرهم الفضـي، حـامل صورة الإلهة روما، الوحدة النقدية. لهذا السبب حفر عليه رقم ١٠، وكلمة *denarius* ذاتـها تعني "١٠آس".وفي مصلحة الأوساط التجارية والصناعية، بسّط أبيوس كلوديـوس كثـيراً الأبجدية اللاتينية فجعلها أنسب لتدوين العمليات التجارية، ونشر مولاه سـنيوس فلافيـوس صيغ الأحكام القضائية، التي بقيت حتى آنئذ سر الأحبار.

في النصف الأول من القرن الثالث ق.م. حاز ممثلو هذه الفئة التجارة قوة مكنتهم مـن أن يفرضوا على روما، مباشرة بعد احتلال إيطاليا، أن تدخل في صراع ضد الخصم العنيد في حوض غرب المتوسط،أي المستعمرة السابقة الفينيقية قرطاجـة. ولقـد سـمى لينيـن الحروب الفينيقية أو القرطاجية، من أجل السيطرة على غرب المتوسط، حروباً امبرياليـة قديمة، لأنها نجمت من نزاع المصالح بين الأولغارشيات الاستعمارية والغازية في رومـا وقرطاجة، وسببت استعار التناحر غير المعروف قبلاً، وأفضت إلى دمار ونكبـةالجماهير الشعبية في الدولتين المتحاربتين.

قرطاجة

أسست في القرن التاسع قبل الميلاد، وهي المدينة الفينيقيـة، أو "المدينـة الجديـدة" الشاغلة موقعا مناسبا بشكل استثنائي على شبه جزيرة يفصلها برزخ عن القارة الأفريقية.

لها مرفأ رائع مؤلف من حوضين: خارجي مخصص للتجـارة، وأرصفـة للسـفن التجارية، وداخلي، مجهز لاستقبال ٢٢٠ سفينة حربية، فيه عـدد مـن المسـتودعات أو الأرصفة والترسانات، وبيوتها الطابقية، التي تؤوي الدكاكين والمخازن، كانت محمية، هـي والمرفأ، بسور منيع. يقدر كتاب العهود القديمة (بوليب، سترابون) سكانها بـ ٧٠٠٠٠٠ نسمة، تقدير مبالغ بعض الشيء، كما يبدو.

على أساس اقتصادهم البحري الواسع، كان القرطاجيون قـد أسسـوا امبراطوريـة ضاربة تجارية واستعمارية، تشمل كل شواطيء وجزر البحر الأبيض المتوسـط الغربـي كانت قد فصلت مستعمراتها ووكالاتها في أفريقيا (ليبتس، أوتيل، تالسبوس)، على شـطيء

مراكش الحالي، في جنوب إسبانيا (غادس، وغيرها)، في سيسيليا الغربية (بانورم، دربيان، ليليبي)، في كورسيكا، في سردينيا والبليار. كانت حكومات قرطاجية تدير شؤون الشعوب الملحقة, فبرزخ المشروع، وجرأة ومهارة البحارة الفينيقيين، صبوا في مدنهم ثروات طائلة: العبيد السود، شوائب الذهب، عاج الشاطيء المحيطي لأفريقيا الغربية، تصدير بريتانيا، وعنبر بحر الشمال.كان بوليب يرى قرطاجة أغنى مدينة في العالم.

وللدفاع عن امبراطوريتها وتوسيعها، كانت قرطاجة قد خلقت جيشا رائعا، مكونا جزئيا من سوقات أبناء البلد (لوميد، ليبيان)، جزئيا متطوعين، مجندين من الشعوب شبه البربرية: ليغور، سيلت، سامنيت ("كامبانيان"). كانت هذه الجحافل، بقيادة القرطاجيين مجهزة جيدا ومعززة بعدد كبير من فيلة الحرب. وكانت البحرية الحربية رفيعة الإتقاد. كان القرطاجيون أول من بنى سفنا ضخمة بخمسة صفوف من المجاذيف (الـ"فهود")، أوسع وأسرع بكثير من الثلاثية اليونانية.

في قرطاجة، كانت السلطة السياسية بيد لفيف من الأثرياء مالكي العبيد، من التجار ومالكي الأرض، لأن الزراعة كانت أيضا تلعب دورا هاما في الحياة الاقتصادية لهذه المدينة: كانت تمتد في وادي بغرادس الخصب حقول واسعة تستخدم بخاصة العمل الرقيق. من هنا، طبع الجزء الأكبر من تاريخ قرطاجة الداخلي بالصراع بين الطرفين، التاجر والزراع، الذين لايترددون أمام أي سبيل من أجل الاستيلاء على مراكز متقدمة. يؤكد أرسطو (السياسة، ٢، ٨، ٥-٦) بهذا الصدد أن كل الخدمات كانت تتم في قرطاجة. كان "مجلس الخمسة"، يمارس السلطة الدكتاتورية، إلى جانبه محكمته الرهيبة المؤلفة من "مئة قاض"، الذين كانوا عمليا مرتبطين بالحكام الكبار-"الملكان"، وكان يتألف مجلسهم الأعلى من ثمانية وعشرين عضوا، والقائد العام- كانوا مختارين من صفوف أغنى الأسر (كانت أسرة ماغون أغناها وأوسعها نفوذا). وكان مجلس الشعب مقتصرا على التعبير عن الغضب الشعبي. ولتبرير أعمال حكامهم اللا-نسانية، كان الكهنة يؤججون الشعب: يقدمون للربة تانين (استارتيه الفينيقية)، الأضاحي من العبيد، والمساجين، والمجرمين وتقدم الذبائح لبعل (مولوش)، برمي الجثث في شدق الوثن المعبود المتثائب؛ ويستبدل الأغنياء أبناءهم بأبناء الفقراء (بلوتارك، "في الخرافة"، ١٣). وقد استمرت التضحية البشرية عند القرطاجيين مدة أطول ما لدى باقي الشعوب.

لقد وصل اضطهاد القبائل والشعوب الملحقة حدا لامثيل سابقا له. والضرائب

المفروضة على الليبيين (سكان أفريقيا الأصليين) تعادل نصف دخل الفلاحين. وكان العبيد يشكلون واحدة من أهم سلع الاقتصاد القرطاجي، مما دعا لتلقيب الفينيقيين بـ"مطاردي الإنسان"، وكانت اليد العاملة العبدة مستخدمة أيضاً في كل مجالات أغنياء أفريقيا وسيسيليا.

إذن كانت العلاقات الاجتماعية متوترة جداً في قرطاجة. وفضلاً عن المعلومات التي تصلنا حول الصراع بين الزمر الأولغارشية، يحدثنا الباحثون القدماء عن إضرابات "الرعاع" الكثيرة، أي الكادحين بشرط حر، والعبيد، والجنود.

كانت التناقضات الاجتماعية الداخلية تشكل النقطة العطوب في الدولة القرطاجية المبنية على العبودية. لم تبلغ هذه التناقضات بعدُ أوج احتدامها في روما، آنئذ، بل كانت بنيتها الاجتماعية أكثر تجانساً لبدائيتها.

الحرب الفينيقية الأولى (٢٦٤-٢٤١)

استمرت العلاقات بين روما وقرطاجة علاقات صداقة وتفاهم مادامت العناصر الزراعية مهيمنة في روما ومادام للدولتين أعداء مشتركون في شخص اليونان والأتروسك. لكن مع تطور التجارة الخارجية الرومانية، بدأت هذه العلاقات بالتفاقم. وبدأ التجار والصناعيون الرومان بخاصة يقلقون من طاقة القرطاجين وتنامي دولتهم، فقد كانوا بعد هزيمة بيروس في سيسيليا، قاب قوسين من احتلال الجزيرة كلها. لذا بدأ ميدان روما يضطرب لدى انتشار الخبر الجديد أن المدينة السيسيلية لسينا، المهيمنة على المضيق بين سيسيليا وإيطاليا، سقطت بيد القرطاجيين في العام ٢٦٥ق.م. سابقاً، في حوالي العام ٢٨٠ق.م، احتلت عصبة من المرتزقة السامنيت (الـ"مامرتن" أو أبناء مارس-آذار، كما كانوا يسمون) هذه المدينة، في طريق العودة من سيراكوز. وخوفاً من انتقام طاغية سياكوز، هيرون الثاني، طلب المامرتن عون القرطاجيين، الذين كانوا قد وضعوا حامية في مسينا، وصاروا عملياً سادة المدينة والمضيق.

وتحت ذريعة مؤازرة المواطنين الطليان، في وضعهم الحرج، تدخل أبيوس كلوديوس، ابن الأسرة المتنفذة، وسيد التجار والصناعيين، "في قضية مسينا" ونجح في جعلها حالة حرب. ورغم إرادة مجلس الشيوخ، أوكل مجلس الشعب القنصل أبيوس كلوديوس بـ"إنقاذ" مسينا. قاد هذا الأخير القضية بثورة عارمة وهبته في أوساط مجلس الشيوخ لقب "رأس الأحراج": فرض على القرطاجيين سحب حاميتهم من مسينا، وبدون

إعلان الحرب، خاض عمليات حربية ضد سيراكوز والقرطاجيين. انتقل هيرون على عجل إلى جانب الرومان ودخلت قرطاجة في نزاع مفتوح ضد روما (٢٦٤). يعطـــي بوليـب رواية ألقة وتفصيلية لهذه الحرب في الكتاب الأول من عمله "في التاريخ".

بدأت الحرب بصورة موفقة جدا لصالح لرومان الذين صاروا بسرعة سادة سيســيليا أهم مدن اليونان. ومع ذلك، لم ينجحوا في احتلال حاضرات رئيســية قرطاجيــة منيعــة: بانورم، دريبان وليليبيا، حيث اضطروا لانتظار هجوم القرطاجيين المعـــاكس. والـتزمت روما إذن ببناء أسطول حربي ضارب من ١٠٠ سفينة-فهد. جـــهز الرومـــان مراكبـهم بعبارات عائمة، في أطرافها كلابات، تتشبث بجوانب السفن العدوة، الأمر الـــذي خولـهم القتال على ظهر السفن، لأنهم لم يتكلوا على مناورات بحارتهم غير المحنكين. وبفعل هـذا التكتيك الذي فاجأ القرطاجيين، أنزل القبطان س.دوليوس، على رأس هذا الأسطول، هزيمة منكرة بالبحرية القرطاجية، في مياه جزر ليباري، قرب مييس الجزيرة السيسيلية. فمنحـه مجلس الشيوخ وسام النصر، وعلى شرف هذا النصر البحري الأول، رفع في الميدان العام عمود النصر الحيزومي، وزين بمهاميز السفن العدوة المدمرة.

لكن الرومان بالغوا في تقدير نجاحاتهم. فبعـد إنـزال هزيمــة أخـرى بالأســطول القرطاجي، في رأسإسنوم، قرب ثغر هيمير على الشاطيء الجنوبي لسيسيليا (٢٥٦)، أبحر إلى أفريقيا جيشان قنصليان (حوالي ٥٠ ألف رجل)، ودمرا الأرض القرطاجية المزدهـرة حتى مجرى باغرداس.وأرسل من هذه الحاضرة ٢٠ألف إنسان كعبيد. لكن الجنود الفلاحين الذين تعاني أرضهم من هذه الرحلات الطويلة، الأمر الذي فرض عليهم ألا يـــتركوا فـي أفريقيا سوى ١٥ ألف رجل وأربعين مركبا حربيا بإمرة القنصل م.أتيلوس رغولوس، وهذا بدوره مكن القرطاجيين، بعد تجنيد مرتزقة جدد، من سحق جي رغولوس الصغير.

وليطفح الكيل وتتفاقم المأساة، غرق الأسطول الروماني المؤلف من ٣٦٠ مركبا، فـي أثناء محاولته مؤازرة ما تبقى من قوات روغولوس، قبالة شواطيء سيسيليا فـــي طريـق العودة. وفي العام ٢٤٩ق.م، ولدى محاولة احتلال دريبان، وبعد أعمال قائده الطائشة، وقع لواء القنصل سب.كلوديوس بولشركله بين يدي القرطاجين. وهكذت بلغت خسائر الرومـــان إجمالا ٧٠٠ سفينة-فهد، فاضطروا إلى التنازل عن سيادة البحر.

بدأت السفن القرطاجية باحتلال الشواطئ الإيطالية، وكان عليها أن تبني على الساحل

الأتروري سلسلة من المستوطنات المنيعة.

ومن العام ٢٤٩-٢٤١ق.م، كانت كفة السلاح تميل إذن نحو قرطاجة، وكان الرومان يذوقون أيضا الفشل في سيسيليا. دام حصار دريبان وليليبيا طويلا، ونهض يونان من الحزب الديموقراطي من مدن الشط الغربي لتعزيز حامياتهم. وكان القائد الأعلى القرطاجي أملكار باركا ("البرق") قد قطع كليا مواصلات الرومان، محتلا على جبل إيريكس وضعا منيعا، على أواخر المدن التي يحاصرونها. لم يرسل مجلس الشيوخ نجدات أخرى إلى سيسيليا، لأن الخزينة كانت فارغة. وكان الفلاحون الرومان منذ زمن قد أضنتهم الحرب وخربت وضعهم حتى بدوا وقد ضاعوا.

آنئذ عمر التجار والصناعيون، الذين أثاروا هذا النزاع والذين كانوا في رأس المستفيدين من حصيلته، وسلحوا على نفقتهم، وبالهبات الفردية والاكتتاب التعاوني، أسطولا جديدا من ٢٠٠ سفينة سريعة من نموذج جديد. وفي العام ٢٤١، أبحر القنصل س.لوتاتيوس كاتولوس على رأس هذا الأسطول وأنزل هزيمة نكراء بالأسطول القرطاجي في جزر آغات: أغرقوا ٧٠ مركبا معاديا وأسروا ٥٠، وقطعوا دريبان وليليبيا عن العاصمة، فاستسلما، وخضعت قرطاجة لبدء مفاوضات مع المنتصرين.

بنصوص معاهدة السلام للعام ٢٤١ق.م، التزمت قرطاجة بالتخلي عن ممتلكاتها البرية في سيسيليا وكذلك في الجزر الشاطئية، ودفع غرامة ٤٢٠٠ تالانت خلال عشر سنوات، وإعادة بدون فدية جميع المسجونين الرومان وعدم تجنيد بالتالي مرتزقة آخرين في إيطاليا. وصارت سيسيليا الغربية أول "ضاحية" لروما، وتفتح بحار الغرب من الآن أمام بحرية الحرب والتجارة والمشاريع العسكرية والتجارية الجديدة.

قرطاجة وروما بعد الحرب الفينيقية الأولى

أضعفت هذه الحرب الخاسرة قرطاجة بحيث لم تستطع الإنفاق على انسحاب ٢٠ ألف جندي من جيشها من سيسيليا. ولقد تمرد هؤلاء المرتزقة التائهون على وجوههم _(٢٤١). وانضم إليهم أبناء البلد الأصليون (الليبيون) المستَغلون بشراسة وعبيد المزارع القرطاجية، بحيث بلغ عدد العصاة قرابة ١٠٠ ألف رجل. وبعد احتلال أوتيك، حاصروا قرطاجة.أبادوا عذابا وتنكيلا كل السجناء القرطاجيين، قطعوا أيدي الأغنياء الليبيين، أنصار قرطاجة، وأرسلوهم هكذا إلى هذه المدينة. كان قادتهم، الليبي ماتوس والعبد سباندیوس،

يتمتعون بشعبية واسعة. أدرك أعداء المدينة هيرون ومجلس الشيوخ طبيعة هـــذا التمـــرد الطبقي، فهبوا لمؤازرة الحكومة القرطاجية: بإرسال المؤن، بالسماح بتجنيد مرتزقة جـــدد من الشعوب الإيطالية. دام هذا العصيان ثلاث سنوات وأبيد بوحشية (في العـام ٢٣٨ق.م). وأتت الضربة النهائية للتمرد على يد أملكار باركا، المدافع المظفر عن سيسيليا. قبض على سباندیوس الآتي كمفاوض وأمر بصلبه، وسحق الليبيين والعبيد الذين بقـــوا بـــدون قـــائد؛ وقضى على مقاومة يائسة، قاتل وسجن ماتوس، الذي سلم إلـــى العـــذاب والتنكيـــل فـــي قرطاجة. كتب بوليب "حرب المرتزقة" بالتفصيل، ورآهـــا أشـــرس مـــن كـــل الحـــروب المعروفة، وهذا طبيعي لأنها ارتدت الخاصة الطبقية بكل وضوح.

بعد الانتصار على المرتزقة، كلف أميلكار بإقرار سلطة قرطاجة في محيطها الغربـي وأن يخلق في إيبيريا (إسبانيا) قاعدة قوية إعدادا لحرب جديدة مع الرومان. أنجز أميلكـــار بنجاح هذه المهمة؛ احتل مناجم سيرانيفادا، وبعد إخضاع جبليي إيبيريا، جند منهم جيشا من ١٥٠ ألف مقاتل. وعندما قتل في معركة خاسرة، تابع صهره أسدربال الإعـــداد للحـــرب. وشيد قرطاجة جديدة (قرطاجنة)، فصارت الميدان الأمنع في الدولة الاسبانية. قرابـــة ٢٠ ألف عبد للعمل في مناجم فضة المنطقة. وحذرا من يقظة الرومان، عقد أسدربال معـــهم معاهدة جعلت إيبر حدا لمناطق نفوذ الدولتين: والتزم القرطاجيون بعدم تخطي شمال هـــذا النهر.

في روما، وضع النصر على قرطاجة، الذي أثرى عددا كبيرا من الخاصـــة، علـــى جدول أعمال السياسة الرومانية وفتح أراض جديدة خلـــف-البحـــار. لابـــل رأينـــا بيـــن الأرستقراطية الحاكمة شيوخا تولوا شخصيا التجارة، أو بواسطة المحررين الذين يديـــرون أعمالهم. وهكذا احتلوا في العام ٢٣٨ق.م سردينيا وكورسيكا، اللتين انضمت حامياتهما إلى جانب المرتزقة القرطاجيين المتمردين في ليبيا. واستخدم السادة الجدد الكـــلاب البوليســـية لاصطياد الناس، ومطاردة أبناء الجزر الذين بيعوا فيما بعد عبيدا. وفي العام ٢٢٩، بذريعة مكافحة القراصنة الإيلوبيين، احتل أسطول روماني كورسير، وصفت قوات بريـــة مملكـــة إيليريا، التي تحكمها الملكة تونا، وجعلوها ترسانة أسلحة في شمال شبه جزيرة البلقان.

أورثت هذه السياسة الخارجية للأوساط التجاريـــة والصناعيـــة معارضـــة جمـــاهير الفلاحين ووسعت نفوذ الحزب الشعبي الجديد. تبنى هذا الحزب إصلاح اللجـــان المئويـــة

بحيث يكون لكل طبقة ٧٠ مئوية تصوت. وبالتالي، صارت الطبقة الأولى أقلية، أي لـــها كلها (مع الفرسان) ٨٨ مئوية مقابل ٢٨٥ للطبقات الأخرى (عوضا عـــن ٩٨ ضـــد ٩٥، حسب التوزيع السابق). وهكذا انتقلت قضايا السلم والحرب، أي توجه السياسة الخارجيـــة، وكذلك انتخاب الحكام الكبار، إلى أيدي الطبقة الوسطى. وبدأ صغار ومتوســـطو مـــالكي الأراضي يضعون في السلطة ممثليهم الذين يعملون لحيازات عقارية في إيطاليا والإعمـــار الزراعي. وفي العام ٢٢٣، اقترع المحامي العام الشاب س.فلامنيوس "الرجل الجديد" قانونا يوزع على الفلاحين الأراضي الواقعة شمال بيسنوم، التي يعود فتحها للعـــام ٢٨٠. كـــان المستفيدون من هذا التوزيع كثرا فتوجب تخصيصهم بقبيلتين جديدتين (٣٤و٣٥).

وفي العام ٢٢٣، انتخب فلامنيوس قنصلا وبدأ بتنفيذ خطة فتح الغول سيزالبين بدعـم من الحزب الشعبي بغية طرد وإبادة الغولوا وإقامة على أرضهم مستعمرات رومانية. أعلن فلامينيوس عليهم حربا موفقة انتهت باحتلال مدينتهم الرئيسة مديولنوم (ميلانو)، وتشـــكيل الإيالة الرومانية من غول سيزالبين. وأسس فلامينيوس في حوض البو عـــدة مســـتعمرات (بلاسانتيا، كريمون)، خصص سكانها بأرض واسعة ٣٠ سهما للأسرة. ضمت "فيافلامنيـــا" هذه المستعمرات إلى روما.

في العام ٢١٨، تبنى قائد شعبي آخر، كلوديوس للجمعيات الشعبية قانونا حمل اسـمه، منع الشيوخ من مزاولة التجارة وامتلاك بواخر ضخمة تجارية. مر هذا القانون لكن، بعـــد أن أثار غليانا عاما، رغم أنه لم يوافق عليه في مجلس الشيوخ سوى فلامنيوس.

تحققت في هذه الحقبة من الزمـــن تبـــدلات عميقـــة، صححـــت النظـــام السياســـي والاجتماعي القديم في روما، ليكون في المسار الديموقراطي الأكيد. ولهذا الســـبب نفســـه، أمكن ظهور وسيلة في مجلس الشيوخ، قلعة النبلاء الذين رأوا الأرض تميد تحت أقدامـــهم، لتحويل اهتمام الجماهير الشعبية من الشؤون الداخلية إلى القضايا الخارجية. لذا ســـارعت الدبلوماسية الرومانية إلى بدء الحرب الثانية ضد قرطاجة التي نشبت في العـــام ٢١٨، أي عام إقرار مجلس الشيوخ قانون كلوديا.

. الحرب الفينيقية الثانية (٢١٨-٢٠٨)

في العام ٢٢١ق.م، استغل مجلس الشيوخ موت أستروبال، الذي قتله وطني اســـباني، وفسخ المعاهدة التي عقدها مع هذا الجنرال، وأخذ تحت حمايته المدينة الغريكـــو-إيبيريـــة

ساغونت، الواقعة في جنوب نهر الايبر. وكان هانيبال ابن هميلكار قد سمي وهو في الخامسةوالعشرين ربيعا، قائدا أعلى للجيش القرطاجي في إسبانيا. وقد جعله أبوه يقسم، وهو طفل، أن يكن حقدا دفينا أبديا للرومان. كان هانيبال قد تلقى تربية رائعة على يد أساتذة يونان، وسرعان ماصار قائدا لامعا. ولقد ترك لنا تيت-لايف (٤،٢١) صورة متقنة لهذا الرجل الفريد، تجسد كما يقول، المكر والفظاظة الفينيقية، العدو الأزرق لروما؛ وهذا مايثبته لنا بوليب (٣،١)، الذي كان، مع المؤرخ الروماني، مرجعنا الرئيس لدراسة الحرب الفينيقية الثانية. اختلق هانيبال ذريعة لإعلان الحرب، ومشى إلى ساغونت واحتلها بعد حصار دام ثمانية أشهر ثم باع كل من بقي حيا وأرسل جزءا هاما من الأسلاب إلى قرطاجة لتوزع على الأشخاص المتنفذين. فأرسل الرومان على عجل سفيرا إلى قرطاجة بغية تسليمهم هانيبال كمسؤول عن "العنف الواقع على حلفاء الشعب الروماني". رد "مجلس الشيوخ" القرطاجي بالرفض وأعلنت روما الحرب على قرطاجة (٢١٨ق.م).

اعتمد مجلس الشيوخ الروماني على نصر سريع وحاسم؛ هيأ نزولا في إفريقيا ليهزم قرطاجة. لكن هانيبال أفسد كل خطط الرومان، إذ سار برا إلى إيطاليا (في ربيع ٢١٨)، على رأس جيش محنك، يعد ٩٠ ألف ليبي وإيبيري مشاة، ١٢ ألف فارس وعددا لجبا من الفيلة. اضطر، وهذا صحيح، أن يشق طريقه بالسيف، عبر المناطق غير الخاضعة في شمال إسبانيا، وفتح معبرا بالقوة، والتهديد والترغيب على طول ساحل الغول *la Gaule* الجنوبي. بلغ هانيبال الرون بجيشه بعد أن خسر نصف ملاكه، وليس إلا في نهاية أيلول حتى شرع بعبور جبال الألب العقبة الكأداء، في فصل يجعل المضائق غير سالكة؛ وخسر هنا جمهرة من الجند والمطايا لسقوطهم من سفوح الجبال المغطاة بالثلج. وبعد ١٥ يوما، نزل الجيش في سهول الغول سيزالبين، ولم يبق مع هانيبال سوى ٢٠ ألف جندي مشاة، ٦ آلاف فارس وثلاثة فيلة. لكن السيلت المنضمين إلى روما وقفوا على الفور بإمرتهم. وبعد أن دحر طليعة الرومان في تيسين، اجتاز سهل البو، وعلى ضفاف تريبيان في كانون الأول ٢١٨، هزم جيوش القناصل تيبريوس سامبرنيوس وف.كونليوس سيبيون اللذين سارعا لصده.

أثارت خسارة غول سيزالبين وكل المكتسبات الأرضية الأخرى التي حققها الحزب الشعبي خلال السنوات السابقة، في روما، هيجانا عارما، وتجدد الدفاع عن مصالح الشعب.

وفي العام ٢١٧، انتخب حظي الشعب س.فلامينوس قنصلا، وتلقى رغم أنف مجلس الشيوخ، قيادة الجيش المتمركز في أرتيوم، لحماية طريق روما.

لكن هانيبال قلب المواقع التي يحتلها الخصم في هذه المنطقة الجبلية. ففي أثناء أربعة أيام اجتازت قواته المستنقعات المعتبرة متعذرة الاحتلال من توسكانيا، بثمن باهظ من الرجال والرواحل (نفق آخر فيل وفقد هانيبال عينه)، لكنهم نفذوا أخيرا إلى مؤخرة الجيش الروماني وإلى درب روما الذي فتح أمامهم. سارع فلامينوس لمصاولة العدو، لكنه وقع في الكمين الذي نصبه له القرطاجيون، في المضيق القائم بين بحيرة ترازمين والجبال التي تحيط بها؛ وهنا نفق مع جيشه (٢١٧). لم تكن هذه النكبة الثانية للرومان فقط، بل هزيمة للحزب الشعبي.

على ذلك، عوض أن يسير هانيبال فورا إلى روما، شرع أولا بتمزيق الحلف الروماني. سار ساحل الأدرياتيك كله، تقدم إلى لوكانيا، ثم، عن طريق سامنيوم، نفذ إلى كامبانيا، معلنا أنه محرر الشعوب الإيطالية،وانه أتى ليحطم النير الروماني. في طريقه، كان يحطم بلا رحمة كل المستعمرات والحاضرات الرومانية واللاتينية. ولم يتأخر الدكتاتور كونتس فابيوس، خالق مجلس الشيوخ، عن التحول إلى عدو أزرق للشعب، بسبب تكتيكه الذي أقر بكل حذر ويقظة؛ متجنبا الالتزامات الحاسمة، كان يكتفي بمطاردة العدو، مناورا بموازاته على دروب الجبل، تاركا مزارع المستوطنين الصغيرة لقدرها، في السهل والوديان. مدينا بتكتيه هذا إلى لقبه ("المخاتل").

وفي العام ٢١٦ق.م، انتخب ل.إميليوس بولوس، أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وس.ترنتيوس فارو، ممثلا للحزب الشعبي. أهمل مجلس الشيوخ مطالب الشعب وأمر القناصل بفتح معركة حاسمة. لكن الخلاف كان يسم العلاقة بين القنصلين، وبدأت المعركة بأوضاع ليست لمصلحة الرومان، في وادي أوفدوس، قرب كانس (في وسط صيف ٢١٦). في كانس، سحب هانيبال جزءا من تفوق فروسيته، وبفضل المواقف الحاذقة، حاصر وأباد تقريبا جيشا كاملا من الرومان يعد قرابة ٨٠ ألف رجل. ولم ينج سوى القنصل فارون وبعض جنوده من الحصار.

بعد كانس أضحى وضع روما مأساويا. انتفض الغولوا السيزالبين جماهيريا وأبادوا القوات الرومانية التي كانت قرب أمنيوس. وفي الجنوب، انفصل السامنيت، اللوكانيان،

والبروتيان عن روما. وانتقل عدد ضخم من اليونان الكبرى إلى جانب هانيبال؛ كابو، بالذات، خانت روما. وأبحر جيش قرطاجي من ٢٥ ألف رجل إلى سيسيليا، احتل أغرجانت ودعم الانتفاضة في سيراكوز التي، في العام ٢١٤ق.م، شكلت قضية مشتركة مع قرطاجة. وملك مقدونيا فيليب الخامس، انضم نهائيا إلى هانيبال، وهاجم المواقع الايليرية للرومان. وفي إسبانيا، حطم أسدروبال، أخوهانيبال، جيشين رومانيين بقيادة بوبليوس وسنيوس سبيون. وفي العام ٢١١، شن هانيبال، بمساعدة مادية من قرطاجة هجوما على لاتيوم ووصل حتى روما: قرب باب كوللين، أطلق أول حربة في هذه المدينة، دلالة على حقده. وبدت الدولة الرومانية تشارف على الانهيار.

لكن روما نجت مرة أخرى بفعل تضحية ويقظة شعبها الكادح. فبعد كانس، خمدت المعارضة الشعبية. نهض كل الرجال السليمين بدءا من الـ ١٧ ربيعا، بين الرومان، وبقي الحلفاء مخلصين. وفي العام ٢١٤، امتلكت روما ١٨ فرقة. وجندوا أيضا ٨٠٠٠ عبد متطوع، شكلوا فرقتين. وبرهنت الحكومة الرومانية يومئذ عن يقظة وتبصر كبيرين في التعامل مع قواتها المقاتلة. واعتبر تكتيك فابيوس كونكتاتور في المماطلة نموذجا.

اقتداء به، أوجز القادة الرومان مهمتهم في إبعاد هانيبال عن تحقيق خطته الأساسية: حل الحلف الإيطالي وتوحيد أعداء رومان في حلف آخر؛ وهكذا بعزل جيش هانيبال المنهك، بمنعه من كسب تعزيزات جديدة ومناهل جديدة، حسب الرومان أن يروا هذا الجيش مفككا وغير قادر على خوض حرب طويلة.

تطلب الأمر من روما عشر سنوات، من ٢١٥-٢٠٥، لتحقيق خطتها الآجلة، شديدة التعقيد، والتي ضربت بقسوة اقتصاد إيطاليا. خلال السنوات الخمس الأولى، ٢١٥-٢١٠، نجح الرومان بتوطيد مواقعهم في شبه الجزيرة، خلف خط من المستعمرات المنيعة القائمة على طول مجرى ليريس، ثم التقدم نحو عمق كامبانيا وسامنيوم. وفي العام ٢١١، أخذوا كابو؛ والمدن الأخرى من كامبانيا التي تغيبت وسقطت بعدئذ. وذبح جميع حكام المدن المتمردين أو سلموا للتنكيل، وبيع القسم الأكبر من الناس بالمزاد العلني، ونقل من بقي إلى أتروريا. وتحرك خط الدفاع الروماني بعدئذ إلى حدود آبوليا ولاكونيا، بحيث وجد هانيبال نفسه محاصرا أخيرا في جنوب إيطاليا.

في ذات الوقت أرسلت قوات كبيرة إلى سيسيليا. وعقد القنصل م.كلوديوس مرسلوس

معاهدة مع سكان الجزيرة القدماء، السيكول، الذين كانوا يكرهون اليونان، مستغليهم، ودخل سيراكوز. أدار الحملة ووجهها عالم الرياضيات الشهير أرخميدس، ولم تحتل المدينة إلا بعد حصار دام سنتين، في العام ٢١١: نشر المنتصرون هنا مذبحة رهيبة ونهبوا المدينة. وفي العام ٢٠٩، سحق الرومان نهائيا الجيش القرطاجي المدافع عن سيسيليا واحتلت قاعدته الأساسية، آغريجانت. احتل الرومان سيسيليا وأغلقوا أفق النهوض أمام القرطاجيين. وهوت الحياة الثقافية المتفتحة في هذه المدن إلى سبات ونوم عميقين وتراجعت الجزيرة كلها إلى إقليم روماني زراعي، وإلى حقول واسعة من قطعان العبيد.

في اليونان أخيرا، حقق الرومان نصرا على فيليب المقدوني حليف هانيبال (في أثناء الحرب الأولى المقدونية). اضطر فيليب للتخلي عن مشروع الهجوم على إيطاليا، وفي العام ٢٠٥، عقد صلحا مع روما.

لكن الضربة الأقسى لهانيبال صدرت من المعارك المظفرة التي دارت في إسبانيا على يد الجيش العامل بقيادة قائد في عامه الرابع والعشرين، ب.كورنليوس سيبيون، ابن القنصل الذي قتل في العام ٢١١ في شبه جزيرة إيبيريا. وفي العام ٢٠٩، احتل سيبيون بهجوم عاصف مناجم فضة قرطاجة، ترسانتها الشاسعة، مخازنها وورشاتها الحربية. وشكلت المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد فيما بعد الإقليم الروماني من إسبانيا. على ذلك، لم ينجح سيبيون في منع أخوي هانيبال، أسد روبال وماغون، من السير نحو إيطاليا، بما تبقى لهم من قواتهم، لمد يد المساعدة لأخيهم الأكبر. لكن هذه الإمدادات انتهت إلى عدة مآسي الواحدة تلو الأخرى؛ صرع أسدربال مع جيشه، في معركة دارت في سينا غاليكا في أومبريا، ورمي رأسه في مخيم هانيبال (٢٠٧)؛ وفشل ماغون بمهمته الإبحار إلى ليغوريا. إذ حوصر في خليج تارانت، فحرم من أي أمل بتعزيز جيشه، ولم يعد هانيبال مصدر خطر لروما.

بعد ١٣ عاما من الحرب، تمكنت الحكومة الرومانية من العودة إلى مخططها الأول الهجوم المباشر على قرطاجة. وفي العام ٢٠٥، انتخب سيبيون قنصلا وكلف بهذه العملية. رغم أن مجلس الشيوخ رفض الأسس، بحجة خواء الخزينة، تمت الحملة الإفريقية، بفضل المساهمات التطوعية من الأغنياء الرومان وحلفائهم. فقد جذب طعم الغنيمة العديد من الالتزامات السباقة.

بعد أن أرسل جيشه من سيسيلا إلى إفريقيا، على ظهر مائة مركب نقل، أبحر

سيبيون إلى أوتيك وبدأ بتدمير وادي باغراداس، أهراء قرطاجة الرئيس، لإرغام المدينة على الاستسلام جوعا. وبفعل تغيب ملك النوميد، ماسنيسا، الذي انتقل إلى جانب الرومان، كان سبيون يقود سلاح خيالة محنكا، وكان مجلس الشيوخ القرطاجي قد أرسل الرسل إلى سبيون، لمناقشة عقد الصلح، لكن مجلس الشعب الذي رفع رأسه مجددا، قرر استدعاء هانيبال وكلفه الدفاع عن مسقط رأسه.

كان هانيبال ينتظر هذه الدعوة منذ زمن: كان يدرك أن عودته إلى قرطاجة بمبادرة شخصية، غير مبررة بسبب إخفاقه. في كروتون جمع فلول قواته على متن بعض المراكب، متجنباً لحسن الحظ الأسطول الروماني (٢٠٣ق.م). وفي أفريقيا، جهز قواته مجنداً المرتزقة وجزئياً من النوميد، خصوم مسينسا. واستناداً إلى عدم ثقته بالنصر، اقترح هانيبال الصلح على سيبيون، لكن هذا الأخير رفض العرض.

بدأت المعركة الحاسمة، في العام ٢٠٢، قرب زاما، جنوب قرطاجة، وانتهت بنصر مؤزر للرومان، بفضل تفوقهم بالخيالة، مع ذلك حاول هانيبال خرق تجمعهم، موجهاً إلى هذه النقطة ٨٠ فيلاً. استسلم مجلس شيوخ قرطاجة بقضه وقضيضه إلى معسكر سيبيون، الذي قبل خوض المفاوضات. كانت شروط السلم (٢٠١) التي أملاها قاسية جداً. ألاّ تحافظ قرطاجة إلا على جزء صغير من المواقع في أفريقيا، وليس لها أن تعلن الحرب على جيرانها إلا بإذن من الحكومة الرومانية، وعليها أن تسرح جيشها، وتدمر كل أسطولها المحارب، عدا ١٠ من ثلاثيات المجاذيف، وكل فيلته؛ والتزمت قرطاجة بإعادة كل المغانم التي كسبتها أثناء الحرب، وإعادة كل المساجين والفارّين؛ وبقاء الجيش الروماني في أفريقيا حتى الجلاء عنها؛ أخيراً فرض المنتصر غرامة باهظة ١٠ آلاف تالانت. ولتأمين تنفيذ شروط المعاهدة، يحق لسيبيون انتقاء ١٠٠ رهينة من أبناء أنبل الأسر القرطاجية لإرسالهم إلى إيطاليا. ومنذئذ فقدت قرطاجة جبروتها بل حريتها، لأن الرومان لم يتخلوا عن التدخل بشؤونها الداخلية، الأمر الذي أكره هانيبال على الهرب إلى الشرق ليحل في كنف الملك السوري أنطيوشوس، ليستدرجه إلى خوض صراع جديد ضد روما.

احتفظت روما بنصرها على عدوها الأخطر. وسيبيون الذي جلب من أفريقيا ١٣ ألف ليبرة من الفضة، صار الشخصية الأولى في الدولة، ووهب لقب الظافر الـ"أفريقي". لكن حربا لخمسة عشر عاما على أرض إيطاليا ذاتها سببت خسائر فادحة اقتصادية. اكثر

من نصف الرومان سقطوا صرعى: حسب إحصاءات العام ٢٢٠، كانوا ٢٧٠٠٠٠، وفي إحصاء العام ٢٠٧، لم يعدوا سوى ١٣٧١٠٨ رجل ملزمين بخوض الحرب.

كانت الخسائر التي نكبت الشعوب الإيطالية أقسى وأدهى، لأن سكان ٤٠٠ مدينة، وأيضا مناطق كاملة، صرعوا بالسيف، جزئيا سيف هانيبال، وأيضا ببعثات الرومان الانتقامية: كان الرومان قد باعوا كل سكان كابو وتارانت كعبيد، وأبادوا تقريبا كل سكان بروتيوم، إحدى المدن التي بقيت مدة أطول، والأعند إخلاصا لهانيبال. حتى في الحواضر التي هرب سكانها من أوار الحرب وأهوالها، انخفض مستوى حياة الناس كثيرا بسبب إهمال الأرض، والسوقات المستمرة، ضرائب الحرب الباهظة، التهاب الأسعار وجنونها (سعر الملح تضاعف، مثلا)، انخفاض قيمة النقد، إلخ. وغزت أسراب من اللصوص وقطاع الطرق إيطاليا، باذرة حيثما حلت الرعب والانحطاط الخلقي.

إنما في ذات الوقت، لابل بعد الحرب الفينيقية الأولى، تنامى ازدهار الشرائح العليا من المجتمع الروماني، وبخاصة فئات الصناعة والتجارة. فقد ورث التجار الرومان كل الصفقات والعلاقات التجارية من كابو، تارانت وسيراكوز. وبفضل المصادرات لأملاك الحلفاء غير المخلصين، كبرت مساحة الأملاك العامة وكانت كلها تقريبا قد سقطت بين يدي طواغيت الأعمال الذين وظفوا بنشاط في الزراعة فوائد أرباح وأسلاب الحرب وغنائمها. اما الشعب، الذي لم يقتسم شيئا، فقد اشتروه، في أثناء أعوام ١٩٠ و١٨٠، بتأسيس مستعمرات جديدة في مكان المدن المدمرة في كامبانيا وبروتيوم، وفي غول سيزالبين (موتينا، بارما، بونونيا). واختفى حزب الشعب المستضعف وفاقد الاعتبار لمدة طويلة عن المسرح السياسي وعزف عن معارضته تحكم الأثرياء الرومان المندفعين. لهذه الأسباب، اتبعت السياسة الرومانية، في العقود التي تلت النصر على قرطاجة، بدون عقبات، الدرب الذي أشارت إليه النبالة المغتنية والـ"فرسان" الذين بني ازدهارهم المتزايد أبدا على مكاسب الحرب ومداخيل المستعمرات. وما أن احتل حوض البحر المتوسط الغربي، حتى بدأت الشرائح المسيطرة في روما، دون وضع حدود لتعطشهم للتوسع، وعلى الفور، بغزو الشرق.

الفصل الثامن والأربعون

بداية الهيمنة الرومانية على الشرق

الحرب المقدونية الثانية

لقد نجحت روما بفرض تفوقها (ثم هيمنتها) على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، بشكل أسهل مما حققت فتح الغرب: توطد التفوق الروماني خلال عقد من الزمن (٢٠٠-١٩٠)، بينما كلفها قهر قرطاجة ٦٣ سنة علما أن هذا النجاح تحقق بسبب العلاقات الدولية القائمة آنئذ. كانت قرطاج وحدها تحتل موقع السيد في الغرب في القرن الثالث، إما في الشرق نشب صراع مستمر بين مدن مستقلة وتحالفاتها (جامعات بيوتيين، آشيين، ايتوليين)، الدول الصغيرة العديدة والدول الكبرى الإغريقية (مقدونيا، سوريا، مصر). فضلا عن صراع طبقي عارم كان يضعف قدرتها على المقاومة الخارجية. كانت هذه المصادفة تخول روما أن ترد ليس فقط بالسلاح، بل أيضا بضرب هذه الدول ببعضها، بدبلوماسية ماهرة.

بفعل هذين السبيلين، صرعت الأولغارشية العسكرية والرقية لروما مقدونيا بأربع سنوات، فورا بعد الحرب الفينيقية الثانية. كان سبب اشتعال الحرب المقدونية الثانية (٢٠٠-١٩٧) مؤازرة الملك فيليب الخامس هانيبال؛ فضلا عن توسيع جبروته شرع بتشجيع الاضطرابات في البلاط المصري، بغزو الممتلكات المصرية في آسيا (كاريا وليديا) واحتل مدنا من هللسبونت سستوس وأبيدوس، وسكلادس. وعندما، لهذا السبب، اجتمعت رودس، بيرغام وأثينا ضده، طلبت مساعدة روما، رأى الحزب الحاكم في هذه المدينة أن الريح مؤاتية للتدخل في شؤون الشرق. اصطدم مجلس الشيوخ، وهذا صحيح، بمقاومة حاسمة من طرف مجلس الشعب؛ ورفضت جمعيات الشعب الناخبة، فكرة إعلان الحرب على مقدونيا، واعتبرتها مغامرة جهنمية من قبل القادة العسكريين المتعطشين للنهب، لم يمر الاقتراح إلا بالاقتراع الثاني، وبعد احتجاجات عنيفة.

في أثناء السنتين الأوليتين من الحرب، حاول جيش روماني صغير حوالي ٢٥ ألف مقاتل عبثا اختراق اليونان الشرقي عن طريق إيلليريا، بينما كان فيليب يحاصر أثينا ويدمر ضواحيها. وفي العام ١٩٨، أرسل الرومان إلى اليونان، كقائد أعلى ت.كينكتيوس فلامنيوس، رجل السياسة الشاب والمحنك، المعروف بإعجابه بالثقافة الإغريقية ("تصير الهللينية"). عرف هذا المندوب كيف يقنع اليونان أن هدف الحرب كان "إنقاذ الهيلليniين من النير المقدوني". عبر الايبيريون أولا من جهة فلامينوس؛ اليونان الوسطى كلها والبلوبونيز. دل الأدلاء الإيبيريون فلامينوس إلى معابر في الجبال، عبرها قاد جيشه إلى تساليا، حيث تقوم سلسلة من التلال تحمل اسما رائعا، سينوسيفال (رؤوس الكلب)، وحقق النصر على فوج فيليب المقدوني الماجد. التمس هذا الأخير بخجل من مجلس الشيوخ صلحا جعلت نصوصه مقدونيا فجأة كيانا من الدرجة الثالثة: أعلنت كل المدن والأراضي اليونانية التي تحتلها مقدونيا حرة ومستقلة، ومنع على ملك مقدونيا تكوين جيش أكثر من ٥٠٠ رجل وأكثر من خمسة مراكب حربية؛ والتزم أخيرا بدفع تعويض من ١٠٠ تالانت. وهكذا قضي على هيمنة مقدونيا في اليونان، المستمرة ١٥٠ سنة، وسيطرتها في البحر المتوسط الشرقي.

في أثناء الاحتفالات الإثمية *sthmiques*[1] للعام ١٩٦، أعلن فلامنيوس رسميا حق كل شعوب الحاضرات اليونانية في أن تعيش بـ"دون ضرائب، ولا حامية، بل تحكم نفسها حسب شرائعها" (بوليب، ١٨، ٢٩). لكن الحماس الذي أثاره هذا الإعلان لدى اليونان، تلته عاجلا خيبة الأمل. لأن، فلامنيوس، بالاتفاق مع لفيف من مجلس الشيوخ، راح يضطهد الأحزاب الديموقراطية ويستبدل حكوماتها بحكومات أولغارشية، يرتبط وجودها بمساندة روما لها خوفا من شعوبها.

كان تدخل الرومان حاسما بشكل استثنائي في إسبارطة. نظم فلامنيوس حملة تأديبية ضد "طاغية" هذه الحاضرة، نابيس، الذي طرد منها الأغنياء ووزع أرزاقهم على العبيد، والفقراء والجنود المرتزقة. أجبر بانيس على عقد الصلح، والتزم بعودة المنفيين، وبرجوع

---

[1] – احتفالات يونانية تقام في كرنثيا كل ٤ (ثم سنتين) سنوات على مجد بوسيدون، إله البحر لدى اليونان.

العبيد المحررين إلى ربقة مالكيهم، وتسريح الجيش، وتدمير الأسطول وبأداء غرامة من ٥٠٠ تالانت. وبعيد هذا قتل، عاد المهاجرون الرجعيون إلى إسبارطة، وقاموا بتنظيم الأولغارشية واقتصوا بشراسة من أنصار الديموقراطية.

أيضا بعد عودة الفصائل الرومانية في العام ١٩٤ق.م، استمرت روما بالتدخل بالشؤون الداخلية للدول اليونانية، ناشرة الأولغارشية في كل مكان ومثيرة، بالتالي، حقد الأوساط الديموقراطية.

الحرب ضد انطيوشوس الثالث السوري

إن الوضع المهيمن الذي احتلته روما في اليونان جعلها في خصام مع أكبر دولة هيللينية، سوريا، التي كان يحكمها أنئذ أنطيوشوس الثالث الكبير. وهذا الأخير الذي كان يحلم بإعادة بناء إمبراطورية الاسكندر، استغل ضعف مقدونيا ليحتل، في آسيا الصغرى والدردنيل، مدنا وأراض كانت خاضعة سابقا لآل بتولميه وفيليب. كان أنطيوشوس يستعد للحرب ضد روما، بنشاط مستعر منذ أن آوى هانيبال، الهارب من قرطاجة،وأضحى روح حزب الحرب في سوريا (١٩٥).

كما صرح أنطيوشوس بدوره أن هدف الحرب ضد روما كان "عتق اليونان"، ووعدته بعض اليونان (الجامعة الايتولية)، الأكثر غضبا من سياسة روما في البلقان، بتقديم المساعدة لكل هيللاد.

على ذلك، عندما أبحر أنطيوشوس، في العام ١٩٢، إلى اليونان الوسطى، مستندا إلى هذا الدعم، لم ينشب التمرد العام ضد الرومان. والجامعة الآشية، بيرغام ورودس، التي كانت تخشى عدوانا سوريا، وقفت نهائيا إلى جانب روما. وللغاية ذاتها، قدم بتولميه الخامس، ملك مصر، للحكومة الرومانية إعانات مالية ضخمة. ودخل جيش روماني من ٢٥ ألف رجل إلى تساليا وانضم إلى الجيش المقدوني. التهبت المعركة الحاسمة في ترموفيل (١٩١ق.م)؛ انهزمت القوات السورية وأجبر أنطيوشوس على الانسحاب إلى آسيا الصغرى. ثم حطم أسطول روما، بيرغام ورودس، الذي كان يقاتل موحدا في عدة لقاءات، وكان الأسطول السوري –وقسم منه بقيادة هانيبال– في بحر إيجة، الأمر الذي مكن الرومان من نقل المعركة إلى أرض آسيا الصغرى. أوكلت الحكومة هذه المهمة إلى قاهر قرطاجة الشهير، بوليوس كورنليوس سيبيون الأفريقي، رغم أنه رسميا بإمرة أخيه،

لوسيوس كونليوس سيبيون، قنصل العام ١٩١. اجتاز الجيش الروماني إيبيريـــا، مقدونيـــا وثراسيا، وتخطى الدردنيل، وبعد أن ضم قوات بيرغام، سار إلى ساردس حيث كان ملـــك سوريا قد حشد جيوشه. ودارت معركة طاحنة واحدة قرب مانيزيا (بين ساردس وسميرن)، في كانون أول ١٩٠، قررت مصير آسيا الصغرى. رغم أن الرومان قاتلوا واحـــدا إلـــى ثلاثة، فقد بددوا قوات أنطيوشوس وأوقعوا بها الهزيمة؛ لأن تلك القوات التي كانت تتـــألف من جمع من الشعوب والأمم المتنافرة كإمبراطوريته؛ فقد وضعوا كتفا إلى كتف، اليونـــان، والعرب الممتطين الجمال وخمسين فيلا هنديا.

بعد مانيزيا، انتقلت كل الحاضرات اليونانية في آسيا الصغرى إلى سلطة الرومـــان، الذين استولوا على ساردس، حيث أتى رسل أنطيوشوس يطلبون الصلح من سيبيون. كانت شروط هذا الصلح قاسية جدا على سوريا؛ إذ أجبرت على ترك كل ممتلكاتها فـــي آسـيا الصغرى حتى سلسلة طوروس، ودفع غرامة ثقيلة ١٥٠٠٠ تالانت، وتسليم كـــل الفيلـــة، تدمير كل الأسطول عدا ١٠ مراكب والاعتراف بالحماية الرومانية. وأعطيت الأراضـــي التي انتزعت من أنطيوشوس في آسيا الصغرى إلى بيرغام ورودس. كما أعطت حـــرب سوريا ١٩٢-١٨٨ روما الهيمنة التامة على شرق البحر الأبيض المتوسط، وبـــدأ ســفراء الدول الشرقية، أثناء المفاوضات ينادون الرومان بـ"سادة العالم" (بوليـــب، ٢١، ١٦، ٨). على ذلك، ولتأمين سيطرتها على الشرق، استخدمت روما أساليب جديدة خلاف مـــا كـــان في الغرب: لم تقلص روما البلدان الملحقة مؤقتا إلى أقاليم، بل تركـــت لـــهم حكومتـــهم، وأقامت بينهم نهجا متوازنا. وهكذا غذت دبلوماسيتها المحنكة العداوة والتفرقة بيـــن هـــذه الدول التي راحت تسودها.. وهكذا، كان صوتها سيدا حيثما سمع، إذ وجهت سياسة الـــدول الشرقية المعقدة، في فلك أهدافها وخدمة مصالحها.

الفصل التاسع والأربعون

سحق حركات التمرد الوطني وترسيخ السيطرة الرومانية على البحر الأبيض المتوسط

الحرب المقدونية الثالثة (ضد بيرسيه[1] Persee)

لقد عاشت روما حوالي خمسين سنة في حرب ضارية لسحق مقاومة الجماهير الشعبية في الدول والبلدان المحتلة. وفي أثناء أعوام ١٨٠ و١٧٠، طبعت الأحزاب الديموقراطية اليونانية بكل وضوح بمعاداة الرومان، بسبب حمايتهم للأوساط الأرستقراطية والبلوتوقراطية في اليونان. وبدأت كل الأنظار تصب على مقدونيا، المكروهة بعامة حتى آنئذ، وعلى مليكها بيرسيه. وريث فيليب الخامس، الشاب ذو الهيئة الأخاذة، الماكر والضعيف، والذي كان إلى ذلك "أهلا بقوته الجسدية، لملاقاة العقبات بهمة نشطة" (بوليب، ٢٥، ٣، ٤). كان الجميع يرونه قائد الصراع ضد النير الروماني.

جند بيرسيه جيشاً من ٣٠ ألف مقدوني و١٠ آلاف مرتزق، وألزم السكورديك والبستارن، من شعوب الدانوب، على قتال شمال إيطاليا؛ عقد لقاءات مع الديموقراطيين اليونان، وسوريا وقرطاجة. ورودس، الحليف الأمين حتى آنئذ للرومان، خذلتهم أيضاً. لكن أومين فقط، ملك بيرغام، الذي استمر يخشى بعث مقدونيا، كان يطلع روما على هذا التحالف الذي تشكل ضدها. وفي العام ١٧١، أعلن مجلس الشيوخ للمرة الثالثة الحرب على مقدونيا.

أما بيرسيه، خشية من دعوة جماهير اليونان للقتال، اكتفى إجمالاً بالدفاع عن أراضي مملكته. وفيما بعد، في معركة دارت رحاها في الميدان الحصين المقدوني، بيدرا، حاصر قنصل العام ١٦٨، ل.إميليوس بولس، الجيش المقدوني، الذي أباده الرومان عن بكرة أبيه خلال ساعة واحدة. كان بيرسيه قد هرب بجبن، دون انتظار نتيجة المعركة، ليحط رحاله

[1] – آخر ملك مقدوني، ابن وخليفة فيليب الخامس.

في جزيرة ساموثرات، لاجئاً إلى أحد المعابد. واستسلم للمنتصرين بعد أن تركه الجميع. فأرسل إلى روما، حيث مات أسيراً.

تفككت الدولة المقدونية إلى الأبد وقسمت إلى أربعة أقاليم مستقلة. صادر الرومان املاك التاج، أغلقوا مناجم الذهب والفضة وفرضوا على الشعب ضريبة باهظة. والدول اليونانية التي تعاطفت مع بيرسيه عوقبت بإجراءات دموية. ففي إيبيريا، دمر الرومان وسلبوا ٧٠ مدينة، وباعوا ١٥٠ ألف من السكان عبيداً. وطافت بعثة من ١٠ أعضاء من مجلس الشيوخ، بمساعدة ممثلي النبالة المحلية، أنصار روما، في أرجاء اليونان، بحثاً عن "خائني الدولة". وأعدم من عبئ من أجل الاستقلال، ونفي الأغنياء إلى إيطاليا. لم يبق من جامعة الأشيان *Acheenne*، سوى حوالي ١٠٠٠ إنسان بينهم مؤرخ المستقبل، بوليب، الذي اضطر أن يعيش حوالي ٢٠ سنة رهينة في روما). وانتزعت أملاك رودس على ساحل آسيا الصغرى، وأنزل الرومان ضربة بتجارتها، بخلق مرفأ حر في جزيرة ديلوس (١٦٧)، وأعطى لأثينا. وسرعان ما أضحت ديلوس مركز تجارة بحر إيجة كله. وفي الوقت ذاته ازداد ارتباط الدول الهللينية بروما. وفي سوريا، اكد خليفة أنطيوشوس الثالث، أنطيوشوس الرابع، أن "قرارات مجلس الشيوخ بالنسبة له مثل قرارات الآلهة". وكان ملوك مصر يأتون إلى روما بضعة وتذلل يطلبون عون مجلس الشيوخ.

إن هذه السياسة الماكرة التي تمارسها أولغارشية الرومان العبودية في الشرق لم تكف، في أعوام ١٦٠و١٥٠ق.م، عن تفعيل دورها المسيطر في العلاقات الدولية لحوض شرق البحر المتوسط. لكنها في الوقت عينه كانت تورث كره الرومان لدى كل شعوب الشرق، وتهيء بهذا اختراقا عاما جديدا.

التمرد في اليونان (١٥٠-١٤٦). الحرب ضد من انتحل شخصية فيليب *pseudo philippe* وضد الجامعة الآشية *acheenne*.

كانت مقدونيا، التي سحقتها روما بدون رحمة، قد صارت الموطن الرئيس لحركة التحرر. ونشبت فيها انتفاضات ضد الحكومات الأرستقراطية التي تفرضها روما منذ السنوات السابقة، بينما نهضت مقدونيا كلها في العام ١٥٠ وتراصت حول مغامر، أندرسكوس، ابن فراء من آسيا الصغرى أدعى أنه فيليب ابن بيرسيه. أمن أندرسكوس دعم بيزنطة والحاضرات اليونانية الأخرى، ووضع قادة ثراسيا تحت تصرفه عدة سوقات. وعلى رأس جيش لجب، صرع الجحافل الرومانية التي مشت لملاقاته ودخل تساليا. لكن الحاكم الروماني كوانكتيوس ميتلوس، الذي أرسلته روما بقوات ضخمة، أوقف تقدمه في اليونان الوسطى وحصره في مقدونيا.وأخيرا بفعل خيانة أحد ضباط أندرسكوس، تلستس،

الذي، انتقل وكل خيالته إلى العدو في أحرج الأوقات بعد أن اشتراه الجنرال الروماني، وحقق ميتلوس نصرا مؤزرا على خصمه، في بيدنا (١٤٩). سجن المغامر أندرسكوس وأعدم في روما، ولقب ميتلوس بـ"ابن مقودنيا". وفقدت مقدونيا، إبيريا وإيلليريا ماتبقى من استقلالها، وتقلصت إلى إقليم، في حكومة حاكم روماني (١٤٨). لكن طيلة ٥٠سنة، بعد سحق تمرد أندرسكوس، انبعث ماكرون كثر في مقدونيا، ونشبت انتفاضات في أمكنة مختلفة.

في وسط اليونان وجنوبها، انفجرت الانتفاضة الشعبية في العام ١٤٧. كان مركزها الجامعة الآشية. وبعيد انتصارهم على بيرسيه، سارعوا إلى حل هذه الجامعة، فاصلين عنها ما استطاعوا من المدن. وضد روما نشب عداء ضار لدى الآشين. وبعد هزيمة فيليب-الدعي أعد دياوس وكرتولايس، قادة الحزب الديموقراطي، العصيان على الملأ، "داعين في كل مكان مجلس الشعب". وأخذ نشاط الجماهير "والصناعيين والأتباع" انطلاقة لم تعرفها الجامعة الآشية. "إذ كانت كل المدن فريسة تعصب مخيف، -كما قال بوليب، نصير روما، كانت كورنثيا هكذا أكثر من أي مدينة أخرى دون تمييز طبقي" (٣٨، ٨-١٠). ومن بلبونيز ربحت الحركة بيوتيا، منطلقة من طيبا، مركزها الرئيس.

حاول كرتولايس دعم انتفاضة بيوتيا، لكن ميلوس، مصلح مقدونيا، الذي واصل جمع الشمل، صرعه. فلجأ شعب طيبة كله إلى الجبل لئلا يقع بين يدي الرومان. صرع كرتولايس، اتخذ وديوس الذي استلم القيادة مكانه، تدابيراجتماعية جذرية، لدعم المقاومة الشعبية. قرر إلغاء الديون وإسقاط الضرائب المتأخرة؛ حرر المساجين وعبأ جميع القادرين على حمل السلاح. أعتق ١٢ ألف عبد، وشكل منهم وحدة للدفاع عن كورنثيا، مركز الانتفاضة. وفرض على المواطنين الأثرياء مساهمات قاسية لتسوية ميزانية الحلفاء المدمرة، الأمر الذي أغرقهم، "يقول بوليب"، في الوهن والذعر".

عمت الحركة أرجاء بلبونيز، الأمر الذي ألزم الرومان بإرسال جيش آخر إلى اليونان، بقيادة القنصل مومميوس، مدعوما بسوقات كريتية، برغامنية وغيرها. حقق المتمردون بداية بعض النجاح، لكن ضخامة قوات مومميوس أنزلت بهم هزيمة نكراء. صرع ديوس، وهجم مومميوس على كورنثيا واستباحها وأحرقها. ذبح السكان الذكور الراشدين، والنساء والأولاد والعبيد الذين أعتقهم ديوس، بيعوا بالمزاد في العام ١٤٦ق.م.

دمرت كل المدن التي اشتركت بالعصيان ، وحظر على أهليها حمل السلاح. ألغيت المؤسسات الديموقراطية واستبدلت بمؤسسات مئوية وأولغارشية. حلت كل الجامعات وفرضت الضريبة على بلاد الإغريق كلها. وألحقت اليونان الوسطى الجنوبية بولاية

مقدونيا، باسم أشاي *Achaie*. حافظت إسبارطة، أثينا ودلفيا على شيء من الاستقلال الوهمي، احتراما لماضيها المجيد.

كانت هذه التدابير الاضطهادية على الأرجح من صنع موميس، القائد الأعلى للجيش المحتل، ولجنة مجلس الشيوخ. لكن السلطات الرومانية كانت تدعم الأغنياء. إذن لاتقع مسؤولية تجميد مابقي من استقلال اليونان على السلاح الروماني بل أيضا على كبار مالكي العبيد في البلاد، الذين يشكلون الشرائح العليا من المجتمع اليوناني، والذين خانوا شعبهم وسعوا بالاحتلال الروماني إلى ضمان النظام القائم وكل النظام المبني على الاستعباد ضد تهديد الثورة الاجتماعية.

الحرب الفينيقية ونهاية قرطاجة (١٤٩-١٤٦)

نهضت قرطاجة من جديد بعد الحرب الفينيقية الثانية، وانطلقت تجارتها الشرقية انطلاقة ملحوظة، بخاصة مع مصر ومع مملكة البونت *pont* على البحر الأسود. ولقد أزعجت مزاحمة التجار القرطاجيين كثيرا رجال الأعمال الرومان وتجارهم، الذين كانوا بقيادة م.بورسيس كاتون. كانت خطاباته كلها في مجلس الشيوخ تنتهي بهذه الكلمات: "في نهاية المطاف، يجب تدمير قرطاجة". لذا أصرت حكومة الرومان على منع ملك النوميد ماسنيسا من احتلال المواقع القرطاجية رويدا رويدا على الساحل الإفريقي، لأن ماسنيسا كان منذ العام ١٥٠ قد صار سيد ١٢٠ ضيعة ومدينة في ليبيا. وأتت محاولة قرطاجة للدفاع عن أملاكها ذريعة للرومان لإبادة خصمها القديم التاريخي. وأبحر جيش جرار إلى أفريقيا، وفسر القرطاجيون الإنذار، التهديد بخوض الحرب، بأن دمروا مدينتهم بأيديهم وقبعوا في أعماق أراضيهم، على بعد ١٥ كم على الأقل من الساحل، أي التخلي عن التجارة البحرية والتحول إلى شعب مزارع. وجوابا على هذه المطالب شب تمرد شعبي. ذبح عددا من أعضاء مجلس شيوخ قرطاجة كانوا يستكينون أمام روما ويتذللون، وأعتق العبيد وراح الشعب، بنشاط محموم، يصنع السلاح، يعمر السفن ويرمم الحصون؛ وعبيء جيش كبير يؤمن المؤونة للمدينة. واستلم قيادة الدفاع رجل محنك، هو أسد روبال.

طيلة عامين (١٤٩-١٤٧)، أثبت المهاجمون عجزهم عن كسر بطولة مقاومة الشعب القرطاجي. وكان أثر الأسلحة الرومانية نافلا جدا بل مشبوها. فاتفق حزب التجار والصناعيين آنئذ مع الأوساط العسكرية والأرستقراطية على تسليم القيادة العليا في أفريقيا لأبرز ممثلي رجال الحرب، الرجل الجدير والمثقف، بوبليس كورنليس سيبيون إمليانس (ابن بول إميل)، الذي اختاره ابن سيبيون الأفريقي). ولقد بدل نشاط هذا الأخير تبديلا جذريا موقف قرطاجة. احتلت كل الأحياء السكنية في المدينة، وأغلق البرزخ المعزول

بالخنادق والمساتر الترابية، فجاع المحاصرون، وأخيرا حطم الجيش القرطاجي في معركة سقط فيها قرابة ٨٥ ألف مقاتل.

وفي ربيع العام ١٤٦، بدأ سيبيون هجوما رهيبا من مركز المدينة ومن ثكنة قرطاجة أو قلعتها، حيث كان قد لجأ كل من بقي من السكان.

أمر سيبيون بإحراق وتدمير العمارات الضخمة ذات الطوابق الخمسة ليتوفر له ساح معركة حر. دام الهجوم ستة أيام بلياليها دونما توقف، وفي اليوم السابع تمكن الرومان من احتلال بيرسا، قلعة قرطاجة.

خضعت قرطاجة لاقتحام وحشي، أدانه بوليب نفسه، رغم أنه معتاد على تأييد الرومان. دمرت المدينة حتى جذورها، وأعلن مكانها "مقدسا" (منع تشيد أي مبنى). ذبح بالسيف كل الناس تقريبا، وبيع من بقي عبيدا. وخول الجنود سرقة الخاصة، وثروات الصروح العامة، وأضيفت غنائم المعابد إلى الخزينة الرومانية. وشكلت أرض قرطاجة، عدا الشطر المتروك للحليف نوميديا، الإيالة الرومانية في إفريقيا، وبعد تدمير كل المدن تقريبا، تحولت كلها إلى إقليم زراعي، وصارت المزارع القرطاجية حقولا شاسعة للنبلاء الرومان. واستراحت الأولغارشية الرومانية من مزاحمة قرطاجة.

التمرد في إسبانيا. فيرياث وحرب نومانس.

اصطدم الغزو الروماني أيضا بمقاومة ضارية في إسبانيا، حيث استمر الصراع المسلح قرابة مائتي عام[1].

بعد الحرب الفينيقية الثانية، احتل الرومان في إسبانيا (أبريا) شريطا ساحليا ضيقا، في جنوب وشرق البلاد، من البرينيه إلى جبل طارق. كانت هذه الأرض تشكل بيتيك وتوردتانيا (اليوم غرناطة والأندلس)، المناطق الأخصب، الأغنى بالمعادن الثمينة والأرقى في إسبانيا. كان الأمر عكس هذا في وسط، غرب وشمال شبه الجزيرة، المأهولة بأحرار ومحاربي قبائل كربتان، سلتبير، لوزتيان، وغيرهم، الذين مايزالون يعيشون وفق النظام القبلي. وهنا أيضا اصطدمت مشاريع الفتح الروماني بمقاومة عنيدة؛ وبخلاف جيرانها في ميديا، لم تخضع هذه الشعوب لفقدان استقلالها، فالتهبت التمردات باستمرار.

كان تمرد لوزتانيا شارة بدء حرب التحرر، "حرب النار" كما يسميها المؤرخ اليوناني (بوليب، ٣٥،١). كان راعي لوزتاني بسيط، اسمه فيرياث، الذي كشف عن قيادة ماهرة

---

[1] إقرأ أبيان. التاريخ الروماني. الكتاب السادس، إيبريكا.

ويقظة وصار بطلاً إسبانياً، ورروح ومنظم هذا التمرد. وفي وقت ما، في حوالي العام ١٣٥، كان وضع الرومان في إسبانيا حرجاً جداً فاضطروا لعقد صلح مع فيرياث لصالح هذا الأخير تماماً: إذ سمي فيرياث "صديق الشعب الروماني" وبقيت كل الشعوب المتمردة في الأراضي التي احتلتها.

لكن مجلس الشيوخ رأى أن هذه المعاهدة "غير لائقة أبداً للشعب الروماني". فالقائد العام للجمهورية في إسبانيا،أمر بذبح فيرياث أثناء نومه بسيف خونة جندهم هو (في العام ١٤١، و١٣٩ حسب مراجع أخرى). ثم أحرق جيش روماني جبار لوزتانيا في عهد دسموس بروتس وأهرق دم سكانها، لا بل احتل غاليسيا، "عند حدود العالم". وفي العام ١٤٠، كان الرومان سادة الشطر الغربي من شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث بدؤوا يؤسسون المستعمرات.

إن حرب نومانس (١٤٣-١٣٣)، في بلد محاربي سلتبير، على المجرى الأعلى لداريوس (دورو)، تقدم نموذجاً مبهراً عن البطولة التي كان يجترحها سكان إسبانيا القدماء دفاعاً عن استقلالهم. وأحد حلقات هذا النضال، التي تخجل المعلومات الرومانية، هي هزيمة القنصل س.هستلوس مانسنوس في العام ١٣٧، بعدها اضطر لعقد صلح ذليل. أدانه مجلس الشيوخ لأنه خضع للنومانتان (الذين رفضوا استقباله)، وألغيت المعاهدة التي عقدها. ولترسخ نفوذها، أرسلت الحكومة الرومانية لمصاولة النومانتان المقاتل المظفر القرطاجي، سيبيون إميليان، قنصل العام ١٣٤. أحاط سيبيون نومانس بخط التفافي، معزز بالأبراج، ودمر ضواحي المدينة. ولأول شارة تعاطفية مع النومانتان، من قبل سكان محلات مجاورة، كان المحاصرون يقطعون اليدين، ويقود سيبيون شخصياً حملات التأديب. وانتهى المحاصرون بالاستسلام بعد ان أضناهم الجوع. وسقط الكثير منهم في أثناء الاستسلام.

أمر سيبيون ببيع من بقي حياً، حطمت المدينة، وتوزع الجيران أراضيها. لكن هذه التدابير البربرية لم تهديء أحرار إيبريا إلا لبعض الوقت؛ وبعد نصف قرن، شب تمرد جديد، ليس أقل عنفاً.

وقد واجه الرومان أيضاً مقاومة ضارية من طرف الأمم "البربرية" الأخرى، في إيبريا، دلماسيا، غول ولغوريا. فرأوا أن أي تصرف مشروع، كالحليلة والمكر والتصنع، وخرق الوعود، والاتفاقات والمعاهدات، ترغيب ورشوة بعض القادة لإرهاب الآخرين، النهب، ونفي وإبادة الشعوب. كان هذا هو المسلك الدامي الذي مشاه الرومان "للسيطرة الشاملة" تسويغاً لبناء " امبراطورية جبارة رومانية".

الفصل الخمسون

انطلاقة الامبراطورية الرومانية العبودية في القرنين الثالث والثاني ق.م

الولايات وطرق الاستغلال في روما

كانت الفتوحات الرومانية في القرنين الثالث والثاني قد حققت أعمق الثورات في كل مجالات الاقتصاد الوطني. فالتطورات السلمية في الزراعة، التدجين، الصناعة الحرفية والتجارة، المستندة بمجملها إلى عمل المنتجين الصغار الأحرار. أبعدتها إلى المقام الثاني حروب الفتوح والاقتصاص المستمرين. فالقوة الغاشمة للسلاح، للغنائم وكل مكاسب الحرب الأخرى، كانت قد صارت المصدر الرئيس لاغتناء الأفراد وكذلك الدولة.

صارت "إيالاتها" عند روما الغرض الأساسي لاقتصاد الغنائم. في تلك الحقبة، كانت كلمة "إيالة" لاتطلق إلا على البلدان غير الإيطالية، "المكتسبة بالنصر"، المعتبرة "غنيمة للشعب الروماني"، مع كل المال الحي أو الجامد، الأراضي والأرزاق، الحيوانات والناس. وفي العام ١٣٠، كانت هذه الإيالات تسعا: ستا غربية -سيسيليا، سردينيا، كورسيكا، الغول سيزالبين، أفريقيا، وثلاثا شرقية- إيلليريا، مقدونيا (مع أشاي) وآسيا (مملكة برغام القديمة).

منذ أن يصير الرومان سادة هذا البلد أو ذاك، حتى يقع تحت نهب منظم. وما أن تنفذ السكان أمر تسليم ذهبهم وفضتهم للخزينة الرومانية، حتى يسارع الجند إلى سرقة ما تبقى. مع ذلك، لم يمارس هذا العمل-السرقة- سوى نصف الجيش، يكتب بوليب، ويبقى النصف الآخر على أهبة الاستعداد. الجنود المعنيون للنهب يلتزمون بجلب الغنائم إلى قيادتهم، والمحامون العامون يوزعون، ليس فقط على من بقي كاحتياطي، بل أيضاً على من كان يحرس الخيم، والمرضى". (بوليب، ١٠، ١٦). حصة الأسد تذهب للضباط، وبداية للأمراء، منهم والقناصل والحكام، وكذلك للحكام العسكريين في الإيالات الذين يسميهم

مجلس الشيوخ من هؤلاء الأخيرين (بعد انقضاء ولايتهم)، ويمنحون لقب "والي"، و"حاكم"، وسلطة غير محدودة.

بعدئذ، كل المناجم، المقالع، السبخات المالحة، الورشات البحرية، المؤسسات المرفأية غير المنقولة، وأحياناً السهول الشاسعة، وبساتين الزيتون وكل المثمرات، والغابات، تصادر لمصلحة الدولة. وتباع كل هذه الأرزاق بالمزاد العلني، تحت مراقبة رجال الإحصاء والأطباء، الذين يسمون في روما "العشارون". والسكان، أو بالأصح من بقي، يتوجب عليهم ضريبة متوسطها عشر مدخولهم. يتغير مقدارها سنوياً بسبب العقود التي يعقدها رجال الإحصاء مع العشارين المكلفين بالتغطية. وأحياناً، كما في سيسيليا، تكون الضريبة عينية لإهراءات روما.

أخيراً، يرفع حكام الولايات الاحتجاجات والابتزازات التحكمية الأخرى. وإلى مداخيل الحكومة الرومانية، المقدرة بواسطة رجال الصحة، يجب أن نضيف الغرامات المفروضة على الدول المندحرة، التي تحافظ مؤقتاً على استقلالها. مثلاً، في العام ٢٠١، التزمت قرطاجة بدفع ١٠ آلاف تالان، أنطيوشوس السوري ١٥ ألفاً، فيليب الخامس المقدوني ١٠٠٠ والايتوليون ٣٥٠ تالان، إلخ.

إن سيلاً ضخماً من الثروات: الفضة، المعادن الثمينة، الأعمال الفنية، أرزاق وبضائع من كل نوع، تسيل نحو روما من كل البلدان الملحقة.

مناهل العبودية. عدد العبيد؛ سعرهم

كان تجمع اليد العاملة العبدة يتم بنفس الطرق الإضافية-الاقتصادية، بنفس أساليب اللصوصية والإكراه والابتزاز في الأرزاق المادية المصادرة. كانت هذه هي السمة النوعية لتطور العبودية كأحد أشكال الإنتاج.

كانت روما من هذه الزاوية في وضع متميز. فقد احتلت المناطق الأكثر تقدماً من وجهة نظر الاقتصاد والأكثر تمدناً في حوض البحر المتوسط، حيث انتظم الإنتاج شكل أفضل مما كان في إيطاليا، مع يد-عاملة أمهر.

وبفعل قرب البلدان المحتلة، لم يكن نقل العبيد يشكل عقبة قاسية. لذا كان رجال الغنائم من الشرائح الجديدة من المجتمع الروماني يهدفون إلى تحويل جماهير سكان البلاد المحتلة إلى خدم وتركيز العبيد في إيطاليا. فأضحى العبد المنتج الهدف الرئيس، وبدءاً من هذا العهد أخذ توظيف اليد العاملة المستعبدة انطلاقته القصوى.

هكذا كان القانونيون الرومان يحددون المصادر الرئيسة للعبودية: " يولـــد أو يصـــير عبداً". وبالفعل، أعطى تكاثر اليد العاملة العبدة (بالولادة) نسباً كبيرة. وكان العبيـــد الذيـــن يولدون في البيت يسمون ربيعيين وكان ثمنهم عالياً. فهم معتـــادون منـــذ الطفولـــة علـــى الاستسلام والخنوع. على ذلك، في الحالات الأغلب -يصير عبداً- من يهوى لسبب ما من الشرط الحر إلى الشرط العبد. لذا كان أناس هذه الفئة يسمون بعامة في روما ("الأسرى").

يصنف في هذه العينة أولاً المدينون المعسرون. فقانون بوتليا *poetelia* للعـــام ٣٦٠ لايخص إلا المواطنين الرومان. وعبيد الدَيْن العائشون بين الطليان، محرومون مـــن حـــق الحاضرة الرومانية، وفي الولايات، استخدم العشارون بسعة هذا الأسلوب لإخضاع النـــاس إلى شروط الرق. وثانياً، يصير "الأيتـــام" عبيـــداً، الأطفـــال المتخلـــى عنـــهم، اللقطـــاء والمسروقون، الذي كانوا يعتبرون ملك من يغذيهم. وكان هذا أيضاً قدر الرجال الأحـــرار الذين يقعون في أيدي قطاع الطرق والقراصنة ويبيعهم خاطفوهم.

لكن حروب القرنين الثالث والثاني المستمرة تقريباً، كانت ترمـــي باستمرار إلـــى الأسواق العريضة بقطعان المساجين، المستمرين، مصدر الرق الأساسي. يكفي أن نذكر أن بول-إميل، فاتح إيبريا، أخضع للعبودية ١٧٠ألف إنسان من ٧٠ مدينة من هذه البلاد.

صارت تجارة الرقيق شكلاً من الاقتصاد الأليف الأكثر ربحاً. وكان طواغيت تجـــار اللحم البشري يتابعون الفصائل العسكرية ويشترون مباشرة في المخيمات مساجين الحرب، الذين يبيعهم وزراء المالية للأفراد، "تحت التاج" وكان هؤلاء التجار أنفسهم يشترون مـــن خدم الامبراطورية الأسرى، الذين يقعون في أثناء الغزوات والحـــروب الداخليـــة بـــأيدي الملوك "البرابرة"، المرتبطين بعلاقات سلمية مع روما.

كانت قد تشكلت عدة مراكز ضخمة، متخصصة بهذا النوع من التجارة (مسينا عنـــد مصبات الرون، أكيليا على الشاطئ الشمالي للأدرياتيك، ومن شرشونيز توريك). وقام أهـــم الأسواق في جزيرة ديلوس، حيث يباع، استناداً إلى سترابون، في بعض الأيام حتـــى ١٠ آلاف عبد. وفي روما ذاتها، على رصيف ال"طريق المقدس" عند كعب الكابيتول، افتتـــح بصورة دائمة، معرض للعبيد، حيث تباع الدواب. كان سعر العبد المخصـــص للأعمـــال العسيرة أو الكبيرة ٢٠٠٠ سسترس، والعبد المتعلم بـــ ٨٠٠٠، والطبـــاخ المـــاهر حتـــى ١٠٠٠٠، إلخ.

بصورة دقيقة لايمكن معرفة عدد العبيد الإجمالي في روما وإيطاليا، في القرن الأول، لكنه كان يتجاوز في الأغلب عدد الناس الأحرار. ولم يكف هذا العدد عن الازديـــاد مـــع الزمن، وفي أيام الامبراطورية، كان كثير من الأغنياء يملك ٢٠٠٠٠عبداً، "حشـــود مـــن الأقنان وقطعان من الرقيق"، كما يقول شيشرون مداعباً. انتشر تداول هذه الملكيـــة حتـــى صار للعبيد الموصوفين أنفسهم عبيد. وصارت العبودية أساس الإنتاج.

أشكال وطرق استغلال العبيد

بعلة انطلاقة الاقتصاد السلعي، بلغ استغلال اليد العاملة الرقيقة عند الرومان تطـــوره الأبعد والأتم. يعرّف فارون *Varran* العبد بـــ "أداة ناطقة"، ليميزه عن الـــ" أداة المجـــترة" وعن الـــ"أداة الصامتة أو الصماء". وكان المالكون الرومان، خشية المـــوت، الـــهرب أو التشويه، وغيره مما قد يصيب هذه الـــ"أداة الناطقة"، لايكتفون فقط بالبحث عن انتزاع أكبر ربح ممكن، بل استهلاك نفقات حيازتهم بأقصر مدة ممكنة. ينتـــج مـــن هـــذا أن الكـــدح المطلوب من العبيد يدفع إلى أبعد حدود طاقتهم الجسدية.

كان هذا الاستغلال الذي لايرحم يثقل قبل كل شيء على العبيد الزراعيين، الذين كانوا يشكلون جمهرة العبيد الرومانيين. وفي علاجه للزراعة، التي كتبت في العام ١٦٠، يطلـــب كاتون من المسؤولين زيادة أعباء العبيد، دون مراعاة الوقت ولا يوم العطلة. مرتـــان فـــي العام فقط، بمناسبة أعياد رأس السنة ونهاية السنة، يتحرر العبيد من العمـــــل. والاقتصـــاد الدقيق الجزئي، الذي يمكن من انتزاع من العبيد ليس فقط فضل-القيمة، بـــل جـــزء مـــن الإنتاج الضروري لاستمرار حياتهم، كان شكلاً إضافياً من الاســـتغلال. وهكـــذا يبقونـــهم جائعين أبداً. كان وسطي تعيين العبد الشهري ٢٥-٣٠كغ من الحنطـــة الرومانيـــة، التـــي يدقونها بأنفسم في جرن، ويصنعون منه خبزاً أو يأكلونه بشكل عصيدة، ونصف ليتر مـــن زيت الزيتون وحفة من الملح (كاتون في الزراعة، ٥٦-٥٩). ويشربون عصـــير العنـــب الحامض الممدد كثيراً بالماء، يغلى خمسة أيام، ويحـــرك باســـتمرار بعصـــى (المرجـــع السابق،١٠٤). ويستلم العبد لعامٍ كاملٍ كنزة، ومعطفاً قصيراً لسنتين. وتنتزع منهم ثيابـــهم الرثة ليصنع منها أغطية. ويتلقون قبقاباً خشبياً لعامين. وفي حقـــول سيســـيليا الواســـعة، وصف ديودور نفسه هذا النظام "بالسفاهة، والجشع المنقطع النظير، والخبث تجاه العبيـــد، والخداع الحقير". فكان أغلب العبيد في سيسيليا مضطرين لسرقة غذائهم وثيابهم.

كان العبيد خاضعين لاستغلال لايرحم أيضاً، في مختلف صناعة الاستخراج وصناعة التحويل، في المناجم، والمقالع، وصناعة الآجــــر، والزيــوت، والطواحيــن، والأفـــران، وورشات السيراميك والنسيج. ففي تجارة الطحين، مثلاً، كان يوضع في رقبة العبيد أطواقاً حديدية لئلاً يلتهم بفمه قبضة طحين، في أثناء العمل (بلوب، الأسرى، ٣٥٧). وفي الحديث عن عمال المناجم في مصر، يقول ديودور: "لايرتاح لاالمرضى، ولا المشوهون، ولاالنساء نظراً لضعفهم. الكل يعمل بدون استثناء، تحت السوط حتى يقع أخيراً، وقد هــــدّه التعـــب" (ديودور،٣، ١٢و١٣).

لايمكن، طبعاً تسخير العبيد بهذا الشكل إلا بوسائل الاضطهاد والإرهاب اللاإنســـاني. وكان الضرب بقبضات اليد في الوجه كثيراً ما يؤدي لقلع الأسنان أو العينين، وهو المعاملة المتداولة. يشير الكتاب القدماء كثيراً إلى العصي والسياط، والأكف المحروقـــة، بـــالحديد المحمى حتي الاحمرار، للسارقين، والألسن-للثرثارين، في عداد العقوبات التي يتعـــرض لها العبيد؛ والناجون كانوا موسومين بأحرف: هارب. والأقل طاعة، العبيد "السيئون"، كانوا يرسفون بسلاسل الحديد ويوضعون في سراديب، أو يكلفون بتدوير حجر الرحـــى، وفـــي المقالع؛ وأخيراً وهذا الأدهى، كانوا يصلبون.

كان وضع عبيد المدن لدى أغنياء الرومان يختلف كثيرا عن وضع العبيد العاملين في الإنتاج. بين البوابين، والحجاب، والطباخين، والموسيقيين، إلخ. وبين خادمات الســـيدات، كان يوجد عدد، تشبه أعمالهم السيئة. على ذلك، كان صاحب مالك العبيد، الـــذي يعتنـــي كثيرا بذويه او أصدقائه، قاسيا جدا معهم.

العبد غير موجود بنظر القانون الروماني

لضمان هذا النظام الإرهابي والتحكمي المتسلط، عرف رجال القانون الرومان كيـــف يضعون صيغا عميقة التعبير: "العبد ليس إنسانا"، نقرأ هذا في اللوائح (١،١٤، ٤). يحـــدد المشرع كايوس هذا النص قائلا: "العبيد، حيوانات وسلع أخرى". _مجموعة القوانيـــن، ٧، ١، ٣ فقرة١١) والمشرع الروماني الشهير أولبيان يعبر بصورة أوضح: "العبد أو أي دابة". (مجموعة القوانين، ٦، ١، ١٥، الفقرة٣).

بهذا الحكم الأساسي، يعطي القانون الروماني سلطة غير محدودة لمالك العبد، مشـــبها إياه بشيء ما، دابة. فللمالك عليه حق الموت والحياة.؟ وأن يزيد بكل الوسائل مدخول عمله قدر الإمكان.

ينجم عن هذا أن العبد كان محروماً من أبسط الحقوق المدنية. وحتى اسمه السابق يختفي عند تحرره، ويفرض له لقب مستعار، تماماً كتلك التي تعطى للحيوانات، كمثل سيروس، سيتوس، ليديا، حسب أمته الأصلية، أو هكتور، أجاكس، هياسنس، نرسيس حسب أبطاله الأسطوريين، إلخ. وثمة نقوش كثيرة على القبور تمكننا من وضع قائمة حقيقية بألقاب العبيد هذه.

فضلاً عن هذا، لايعطي القانون الروماني العبد حق الزواج والأسرة. فليس بينهم سوى مساكنة مؤقتة، حسب إرادة وأمر المالك؛ فمن أجل اعتبارات الاقتصاد العائلي كان المشرف ملزماً أن يتزوج المرأة الخادمة. وكان أولاد هذه المساكنة ملك صاحب الأم، وليس لأهليهم عليهم أي حق.

لايعترف القانون للعبد بأي حق في التملك. وكل ما قد يدخره العبد يستطيع السيد أن ينتزعه. أحياناً، يضع هذا الأخير بتصرف العبد ملكاً ما، أدوات مهنية، مثلاً، ليبسر له فتح ورشة، تاركاً له حق التمتع بجزء من المردود. لكن، بحسب نظرية المشرعين الرومان، "يولد الوفر ويموت بإرادة السيد"، ومايربحه العبد، أو وفره، يمكن أن ينتزع منه في كل لحظة.

أخيراً ليس العبد مسؤولاً عن أعمال أمام المحاكم. والتعويض الناجم عن ضرر ألحقه العبد بشخص ما، يؤديه السيد، الذي يستطيع التملص بتسليم العبد إلى الجهة المتضررة. وكانت القضية تعرض لزاماً أمام القضاء ويكون العبد شاهداً، وإذا خرج من هذا الاستجواب مشوهاً أو مات، يتلقى السيد تعويضاً نقدياً.

هكذا تشكل، في الامبراطورية الرومانية، بدءاً من القرن الثاني ق.م، مجتمع أخذ فيه العبد يتطور وينمو بشكل غير معروف في العالم القديم.

الفصل الواحد والخمسون

ظهور المزارع الكبيرة
وطرد طبقة الفلاحين من الأرض

تشكيل حقول واسعة في إيطاليا تحرثها يد عاملة أجيرة

اغتنى النبلاء، وأوقف الفرسان فائض مصادرهم النقدية واليد العاملة الأجيرة لحيازة الأملاك الواسعة في الأرياف، ليحرثها العبيد. وكان الفرسان الذين يفضلون الاهتمام بالربا وجباية الضرائب، كانوا يوظفون شطراً من أموالهم في الصناعة والتجارة. على ذلك، كانت السلع الصناعية تصنع في ورشات صغيرة، وتصدر إلى الأسواق الأقرب، والتاجر لايستطيع، بالتالي، التدخل في هذا إلا لمشترٍ قليل الأهمية. وليس للتجارة الرومانية أيضاً، وبخاصة التجارة البحرية، سوى طابع الوساطة ولايتيسر لها أن تزاحم تجارة شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط. ولقد وقفت الأعمال التجارية الرومانية والإيطالية، عديمة الخبرة، ومهارتهم وعلاقاتهم مع زملائهم الشرقيين (اليونان، آسيا الصغرى، السوريين، الفنيقيين، واليهود)، عند إعادة بيع بضائع الشرق، واقتصرت التجارة البعيدة على سوريا والاسكندرية. إذن كانت التجارة، بعامة، عملاً تحف به الصدامات والأخطار، وقلة الشرف.

بالعكس، كانت حيازة الأرض السبيل الأنسب، الآمن وحتى الـ"أشرف" لجني المردود. فامتلاك الحقول الواسعة يشبع جشع الأشراف: وفي شخص العديد من المعمرين، المزارعين، صغار المالكين، حاضرات الجوار، التي تشكل زبن الغني العقاري، كان يحوز ناخبين تحت تصرفه، وتجعله الانتخابات يرسم درجة جديدة في سلم هرمية الحكام، وتؤمن له المقام المناسب في حكومة الولاية، وتزوده، بالتالي، بجني غنائم كبيرة.

في (الحروب الأهلية ١،٧) يصف ولادة هذه الممتلكات العقارية الواسعة. يقول: في أيام الخضوع لإيطاليا، كانت الأراضي المحتلة منقسمة إلى عينتين: ١)الأراضي المحروثة،

التي أفرزت، ليتم توزيعها على المحرومين الرومان، لافرق إن بيعت أو أجرت؛ ٢)الأراضي البور، تمثل المساحة الأوسع، وتشكل "الملك العام"؛ لكل من يرغب يقدر أن يحتل قطعة منها، على أن ينقذ الدولة سنويا مبلغا قد يصل إلى ١٠/١ المحصول من المزروعات و ٥/١ الثمار؛ وكانت المخصصات المطلوبة من المستثمرين تحسب بنسبة معينة. كانت هذه الأحكام تهدف إذن إلى إرضاء الفلاحين الصغار. "وكانت النتيجة مع ذلك معاكسة تماما: فالأغنياء، وقد احتلوا الشطر الأكبر من هذه الأرض الموات، وتأسيسا على التقادم الزمني المكسب يكون الأمل لديهم أنها لن تنتزع منهم، فراحوا يضمون إلى أراضيهم حصص جيرانهم الفقراء، إما بشرائها نقداً، أو احتلالها بالقوة، بحيث في نهاية المطاف، يصيرون أصحاب مزارع واسعة".

لكن هذه المزارع لم تتشكل عن طريق شراء، بل باحتلال الأملاك العامة.

فبسبب الاهتمام المتزايد الذي يوليه للزراعة شيوخ العائلات الكبيرة والأغنياء، شهدنا في إيطاليا ازدهار الأعمال الزراعية. وفضلاً عن الترجمات (أبحاث القرطاجي ماغون وعلماء الزراعة اليونان، مثلاً)، ظهرت مؤلفات عديدة مبتكرة حول الزراعة. إن أعمال م.بورشيوس كاتون (حوالي العام ١٦٠ ق.م)، م.ترانتيوس فارون (حوالي العام ٤٠) ول.جونيوس كولوميل (أواسط القرن الأول ق.م) وصلتنا كاملة.

يقدم بحث كاتون "في الزراعة" اهتماماً فريداً، فيما يدلنا إلى المزارع الضخمة يومئذ حيث نشأت. فشكل الزراعة الذي تبناه كاتون هو مشروع زراعي ذو طبيعة تجارية: "على المالك أن يسعى لأن يبيع أكثر ما يمكن وأن يشتري أقل ما يمكن". لذا، عند شراء عقار ما، ليس صحيحاً أن تهتم فقط بخصوبة التربة، بل أن تتأكد أن بجانبها تعيش مدينة كبرى، بحر، نهر قابل للإبحار أو درب جيد ومطروق" من أجل نقل وبيع البضاعة. وفي الحقول جديدة النموذج، أبعدت زراعة الحبوب إلى الصف الثاني، وعلى سؤال: ماهي الزراعات المربحة وغير المربحة؟ يجيب كاتون: "أولاً، الكرمة، لأخذ الخمر الكثير، ثانياً: بستان مروي لزراعة البقول، ثالثاً: "حقل صفصاف لجدل السلال"، ورابعاً: حقل زيتون، وخامساً: مرعى، سادساً: أراضٍ قابلة للزراعة، سابعاً غابة". (كاتون، ١، ٧) وفي الحقول الواقعة قرب المدن، البستنة خير الزراعات، بسبب الحاجة الدائمة لمنتوجها.

هكذا، في القرن الثاني، بدأت الحقول تنظم بغية البيع بالجملة في الأسواق؛ وفقد استثمارها طبيعته المغلقة والرتيبة.

كان العامل الرئيسي وعملياً المشرف على الحقل هو مختار عادة من العبيد المطيعين الأمناء، المزارعين الجيدين والمتعلمين. تأتي بعده، امرأة متزوجة وطباخة، وهي عادة زوجته. تسهر على حفظ النظام في الاستثمارة، تهيء غذاء العمال والمؤونات، إلخ...

يتألف الجهاز العامل أساساً من العبيد، ويشهد حساب اليد العاملة الأجيرة.لوحدة مساحة محروثة (مثلاً ١٤ عاملاً لمائة مسكبة من الكرمة، حسب كاتون وخبراء آخرون، سازوما) إن عبيد الفيللا كانوا مرهقين بشكل مهين. مع أنهم لاينفذون إلا الأعمال المتداولة ذات الخاصة المنتظمة إلى هذا الحد أو ذاك. وفي الأعمال العاجلة جداً، نجدة الحصاد مثلاً، يجبرون على استخدام العمال الأحرار، الذين يتلقون أجرة عملهم ٨/١ أو حتى ٥/١ المحصول. وفي قطاف الزيتون، يتفق مع قادة كبريات رابطات عمال المقطوعية. وكانت الأراضي غير الملائمة للعمل أو تقع في أمكنة موبوءة تؤجر للمعمرين، للفلاحين الفقراء الأحرار، الذين يحرثونها مع عائلاتهم. وكانت عقود الخمس سنوات تجدد لنفس المدة.

وبحث كاتون أيضاً شاهد قيّم، فيما يدل أن العمل الزراعي كان يشكل آنئذ قمة خبرة الأجيال المتعاقبة. وتتلخص نصائحه في موضوع الحراثة السريعة، في استخدم عدة أنواع من الأسمدة، تطعيم الأغراس الغضة، إلخ.

فيما يخص الأدوات، كانوا يستخدمون في القرن الثاني، وبعده، أدوات ري ضخمة وبدائية، نفس سكة الحديد، ذات المعازق، مناجل ومقابض حديد، مستخدمة منذ أيام الملوك. الجديد في هذا المجال الـ *trapetum*، نوع من المكبس الزيتي، وحجرا رحى يحركها حمار (كاتون، *ch*، ١٠)، وكانوا مايزالون يعصرون العنب بأقدامهم ويطحنون - الحبوب بالأجران الحجرية. هنا يظهر بالتأكيد هذا الظرف الفريد للعمل المأجور الذي يحدده ماركس هكذا: "العبودية، وسوء المعاملة والمبدأ الاقتصادي، المطبق في أسلوب الإنتاج هذا، يتلخص باستخدام أدوات عمل صلبه وثقيلة لئلاً تتلف[1]". فالاستثمارة الضخمة التي تستخدم اليد العاملة الأجيرة كانت، بالتالي، تتخبط في نفق تقني مغلق وكان تطورها يصطدم بحاجز منيع لايمكن تجاوزه ولاعقلنته.

لكن الأمر الأخطر على مالكي العبيد هو أن هؤلاء لن يكتفوا بتخريب سراً أدوات

---

[1] - ماركس. رأس المال، لكتاب الأول، المجلد الأول. ص ١٩٦.

وحيوانات العمل. بل قد يتحول غضبهم إلى اضطرابات مكشوفة بالقوة وتفضي إلى سرقة وتدمير الحقول. فالتكهن المخيف لهذا التوقع يستشف بوضوح من كلام كاتون: "كن يقظاً مع الجوار ولاتترك عبيدك يخالطونهم. وإن كان جوارك طيبين معهم، الأسهل لك أن تبيع ما يجب بيعه واستئجار عمال... وإن حدث مكروه، لا يرضي الله، سيسارعون بطيب قلب للدفاع عنك" (الفصل٤). إن كاتون يخشى، كما يبدو، من تسمية سريعة لهذه الداهية، التي يقض توقعها كالكابوس مضجع كبار الملاكين العقاريين ويجعل رؤوس أموالهم الموظفة في الأرض في مهب الريح.

. حرمان الفلاحين الرومان والطليان من الأرض؛ وظهور "الدهماء المدينية".

"الاستثمارات الضخمة خسرت إيطاليا"، يلاحظ بلين، في القرن الأول. وبالفعل، دمرت الحروب المستمرة في القرنين الثالث والثاني والضرائب الاستثنائية الباهظة التمويل، وتوسع توظيف اليد العاملة الأجيرة في الزراعة، وفيض القمح الرخيص من البلدان المحتلة، دمرت كلها الاستثمارات الصغيرة وخلقت في إيطاليا شروطاً ملائمة لانتزاع ملكية عدد كبير من المزارعين. ولقد استغل كبار الملاكين الدمار العام للفلاحين الرومان والطليان، إما بشراء من الفقراء الأسهم المجاورة لأراضيهم أو بنزعها بالقوة (آبليان، الحروب الأهلية١، ٧). ويشير بلوتارك إلى أن الأغنياء استعدوا لاستئجار، بواسطة بعض السوقة، أسهم الفقراء من الأرض التي انتهوا إلى احتلال شطرها الأكبر، وكان الفقراء أيضاً قد طردوا من أراضيهم".

كان هذا الحرمان الفلاحي يتطور بصورة عشوائية في مختلف أصقاع إيطاليا وعلى كل حال لم يكن قد تم بعد. كانت مناطق التدجين في ميدي (بروتيوم، لوكانيا، أبوليا) هي الأكثر تضرراً. أما في كامبانيا، لونيوم وأتروريا، ثمة العديد من الاستثمارات الصغيرة، تهزل وتترنح، ولدى السامنيت، البلجيان والمارسيس، كانت الاستثمارات الفلاحية ماتزال سليمة، وفي هذه الأصقاع الجبلية، لم تتوسع الاستثمارات الكبيرة أبداً. أخيراً، في شمال إيطاليا، كان الغول السيزالبين، منطقة ملكيات ريفية صغيرة ومتوسطة؛ وكان المعمرون الطليان واللاتين، الذين أخذوا أكثر من ٣٠ سهماً من أرض الغولوا المبادرين أو المطرودين، يعيشون براحة وهناءة في هذه البقعة الخصبة.

على ذلك، فقد تراجع عدد الاستثمارات الفلاحية في القرن الثاني: كان عدد أبناء

المدينة، في عمر الدعوة لحمل السلاح، الذين يملكون حسب صنف المائة ملكية عقارية قد تقص ٢٠ ألف بين أعوام ١٦٩ و١٣٥، وبقوا لايقلون عن ٣٠٠٠٠٠.

من هؤلاء المحرومين، الذين نزعت منهم حصتهم العقارية، بقي البعض في البلاد، بصفة مستوطن مزارع، وصار الآخرون مياومين، يعملون بأجر نقدي، أو بنصف أجر. لكن أرباح هؤلاء العمال الزراعيين كان ضئيلاً جداً وموسمياً فقط. فليس مدهشاً أن يكون فكر البروليتاريا الزراعية معادياً لكبار الملاكين، وأن يحلموا باقتسام حقولهم وأرزاقهم الأخرى.

لكن، منذ نهاية القرن الثالث، هاجرت جماهير الريفيين المدمرين والمملقين إلى المدينة، بحثاً عن أسباب الحياة. وعمل البعض مهنيين؛ وفي القرن الثالث، فتح في روما العديد من المخابز،والمصابغ، وأحواض لدعك الجوخ أو الجلد وحوانيت لصنع الأحذية. وبدأ آخرون أعمالاً تجارية صغيرة أو فتحوا نزلاً أو مطعماً. وثمة من عمل في البناء، في البحر، في العتالة، إلخ.

لكن الغالبية لم تجد أعمالاً دائمة ومحددة، فعاشوا مشردين، معوزين وطفيليين. كانت هذه الجمهرة من خاويي البطون تقضي يومها في الساحات العامة والأسواق بحثاً عن عمل مؤقت يكسبهم فلساً أو اثنين، ليبتلعوا ما بقيت. الكوميديون التعساء يستأجرون منهم "مصفقين"، والمرشحون للوظائف الانتخابية يقدرون أن يشتروا منهم عدد الأصوات الضروري، وشكل منهم الأغنياء ماشاؤوا من الأتباع والموالي.

في روما والمدن الإيطالية الكبرى الأخرى تشكلت شريحة من المعدمين، كان يسميهم المعاصرون باحتقار الدهماء المدينية. واستخدمت اليد العاملة الرقيقة الرخيصة في كل فروع الاقتصاد الموجودة في ذلك العهد، منعت الدهماء المدينية من أن تصير طبقة من المأجورين الأحرار وحكم عليها بحياة البطالة والجوع دون وسيلة حياة أخرى سوى الربح العارض وإحسان الأغنياء. والنتيجة الطبيعية لهذه الشروط، أن تفقد الدهماء المدينية أهلية العمل ورغبة العثور على عمل دائم. لذا كان ماركس، الذي سماهم "بطالة الأنذال" الرومان، يفرق بين البروليتاريا العمالية في أوربا الجديدة: و"البروليتاريا الرومانية التي كانت تعيش على حساب المجتمع، بينما يعيش المجتمع المعاصر على حساب البروليتاريا

الجديدة[1]". ففي حركة روما الاجتماعية لم تكن الدهماء المدينية، بعكس البروليتاريا المعاصرة، لم تكن قوة مجابهة وثورة، بل كانت تلعب دوراً ضاراً بشكل استثنائي، لكبح التقدم الاجتماعي.

---

[1] – ك.ماركس، ١٨ بروميير للويس بونابرت، باريس، دار النشر الاجتماعية الأممية ١٩٢٨، ص٢٢.

الفصل الثاني والخمسون

الثورة الثقافية في روما منذ نهاية القرن الثالث حتى بداية القرن الثاني

لقد ترافقت التبدلات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن تحول روما إلى امبراطورية عظمى عبودية بحر-أوسطية مع تغير ليس أقل عمقاً بكل أوجه الحياة الرومانيـــة، ثـورة حقيقية في حقل الحضارة المادية والروحية.

قبل كل شيء، صارت روما مدينة ضخمة، من حيث امتدادها، ومـــن حيـث عــدد سكانها. تدفق الناس في أرجاء إيطاليا كلها، وتوافد إليها الأجانب ليقيمـــوا فيــها، يونـــان، سوريون ويهود بخاصة. وأضحت عاصمة كل عالم البحر المتوسط. شيدت فيها صـــروح عامة رائعة وبيوت خاصة، رصفت الشوارع بالحجارة، وبلطت الاسواق والميادين، أقيمت سدود جديدة على التيبر. إنما في الوقت ذاته، وحتى من حيث المظهر الخـــارجي، كـانت روما تشهد بصورة جلية التناقضات العميقة التي كانت في أســـاس هــذه الامبراطوريـــة الشاسعة التي خلقتها. فإلى جانب أكواخ الدهماء القذرة، بدأ المقاولون يبنون بيــوت ســكن رخيصة أحيانا من ثلاثة طوابق، عدا القبو. بنيت بالآجر على هيكل خشبي، فتنهار أحيانـــا تحترق كثيرا. كانت الطوابق تجهز بسلالم ضيقة وتقسم إلى حجرات صغيرة محرومة مـن أسباب الراحة، حيث تتكدس الأسر الفقيرة. والقمامة، المرمية في الأدوار والشوارع، كانت تشكل بؤرا عفنة تنشر الأوبئة. وبجوار هذه الأكواخ الوسخة، تدفقت الأحياء حيـث يشـيد الإغنياء الجدد داراتهم (بخاصة في البالاتان، وهي الأصل لكلمة قصـــر *palais*"، حســب النمط الهلنستي، بأعمدته وحدائقه ونباتات الزينة المعرشة والمقلمة بأشكال فنية. فيها الشقق المريحة، غرف الحمام، بلاط الموزاييك، الجدران المغطاة بالرخـــام الثميـن واللوحـــات الجدارية، الأثاث المذهب، والعاج، إلخ. إن الـــ"دارات المدينية" للأرستقراطية الرومانيـــة، المشهورة في كل الأنحاء بروعتها (مثل تيبور واليوم تيفولي) ومحطات الاستجمام تتمـــيز

بترف باذخ. لقد ترك النبلاء الرومان أنفسهم يغرقون في الملذات الجسدية. دونما تردد أمام أي نفقة للاحتفال حيث يعيش المدعوون الشراهة والنهم المنفلت والسكر بدون حدود. ولقد اختفت نزاهة وتقشف الأخلاق القديمة: بثيابها المتواضعة التي كانت ترتديها النساء المهيبات، وحل محلها السجف والفرو والديباج، وأتى أسلوب المظلة ومراوح ريش الطاووس، والتسريحات النسائية المبتكرة. آنئذ بدأت شهرة النمش، ومذابح الحيوانات المتوحشة من اجل جلدها وشعرها، والمصارعات الدامية، صارت مشهدا عاما مألوفا. حتى ذلك العهد، لم تقبل هذه المقاتل إلا في المآتم، كواحدة من مخلفات الضحايا البشرية.

لكن مع هذه العيوب الغريبة بدأت تنتشر أيضا القيم الثقافية للحضارات الأجنبية اليونانية بخاصة. "اليونان الأسيرة، كما لاحظ هوراس فيما بعد، غزت قاهرها المتوحش وفتنت بالفنون الريفي لاتيوم" فمنذ بداية القرن الثاني ق.م صار المربي اليوناني الملحق الضروري لكل بيت روماني.

بتأثير هذا الشغف بالهيلينية بدأت تتشكل ثقافة جديدة رومانية منذ نهاية القرن الثالث وحتى بداية القرن الثاني ق.م.

إن المربي العبد يوناني الأصل، نيرانتان ليفيوس أندرونيوس هو أيضا أبي الأدب الروماني؛ فقد ترجم إلى اللاتينية أوديسة هوميروس (حوالي العام ٢٤٠ق.م) وكتب بالأسلوب اليوناني أولى الكوميديات والتراجيديات الرومانية.

لكامبانيا، المطبوعة تماما بالطابع الإغريقي، تدين روما بشاعرها الثاني سنيوس نافيوس، كاتب أول قصيدة ملحمية لاتينية "الحرب الفينيقية" (بسبعة كتب). وترجم نافيوس كوميديات وتراجيديات يونانية وكتب ("أثواب النبلاء"، هكذا سميت لأن شخوصها كانوا يرتدون، على الطريقة الرومانية قفطانا. في أحد أعماله، نقرأ هذه العبارة: "لقد أحببت الحرية أبدا وأبدا وضعتها فوق المال". كان نافيوس، الطامح لأن يصير "أرستوفان الرومان"، يسخر من عيوب بعض الرجال العتاة، الأمر الذي كلفه حريته فرمي في السجن؛ والطرد من روما، والموت في المنفى (حوالي سنة ٢٠٠).

ونفس الروح الديموقراطية تشف من أعمال بلوت (تيتوس ماسيوس بلوتوس، حوالي ٢٥٤-١٨٤)، مهاجر فقير من أومبريا.

فبعد أن جرب، جميع أنواع المهن في روما، صار بلوت، الذي دخل المسرح بشخص

خادم، صار هو نفسه كاتب كوميديات شعبية بحتة (وصلنا منها ٢١ ملهاة). انتقل أثرها إلى اليونان، لكن مع الإدعاء أنها تسخر من "أخلاق الرومان" تفسح في المجال أنها ليست غريبة على روما. فقريحتها الساخرة تستوحي بخاصة بعض مظاهر المجتمع الروماني الجديد،: من حيث العسكرة المظفرة في (الجندي المتبجح)، والتعطش للثروة في (القدر) وفي الوقت ذاته يشيع حماسا ملتهبا تجاه الفقراء والعبيد العدو ستيشوس *stichus*.

لكن الرجعية السياسية، التي بزغت في روما في النصف الأول من القرن الثاني، كان لها شعراؤها أيضا.كان انيوس كالابري الأصل، الذي وصل إلى روما في العام ٢٠٤، الشاعر الغنائي للأرستقراطية الرومانية؛ وكان يسخر على المكشوف من "نافيوس الفظ" ويطنب في إطراء سيبيون الإغريقي. وفي شعره، كان يمجد الأبطال الرومان، من إينى *Enee* حتى فابيوس ماكسموس، "المماطل"، ويكره الشعب. لكنه تحدث أيضا، شعرا عن نظريات الفلاسفة الماديين والعقلانيين اليونان (ابيشارم وأفيمير). مات في العام ١٦٩، حاصلا على حق ابن المدينة. ولقد رفع له آل سيبيون نصبا في مقبرة أسرتهم.

ابن أخ أنيوس، اشتهر الشاعر والرسام باكونيوس (٢٢٠-١٣٠) بتراجيدياته التي اقتدت بأخيل، سوفوكليس وأوربيد، لكن الشعب ظل غير مبال بأعماله. وهو لم يهتم بأعمال الشاعر الكوميدي بوبليوس أفير، احد أنصار الاتجاهات الأرستقراطية (حوالي ١٩٠-١٥٩)، الذي حرره عضو مجلس الشيوخ ترانتيوس لوكاموس. وفي كوميدياته (كلها ست)، كان ترانس شارحا أذواق وروح النخبة المستنيرة من المجتمع الروماني. وهو صاحب هذا القول الذي صار مثلا: "أنا إنسان: إنساني لاشيء غريب علي".

الفنون الجميلة بدأت تزدهر، بفضل الروائع الكثيرة المقتبسة من المدن اليونانية، والداخلة إلى روما بخاصة بواسطة بول-إميل (١٦٨) ول.موميوس (١٤٦). ومنذئذ انتشر أسلوب الأعمال المختارة، ولما كانت الأصول لاتفي بالطلب بديء بنسخ النماذج اليونانية (أبولون بلغدير واحد من هذه الأعمال). كانت لوحات المعارك هي أهم ما طلب من الرسامين اليونان. ثم صار للرومان رساموهم. ومنذ العام ٣٠٤، أبدع أحد أحفاد فابيوس بريشته صورة لمعبد "الخلاص"، ومن هنا أتى لقب بيكتور الذي انتقل إلى ذريته.

اشتهر الشاعر باكوفيوس أيضا باللوحة التي رسمت في معبد هرقل. من كل أعمال القرنين الثالث والثاني لم يصلنا للأسف سوى شطر صغير من قبر يعود للقرن الثالث. مع

أننا نعرف الكثير عن النحت والنقش الروماني لذلك العهد. وقد ولدت عادة صب قالب شمعي لقناع المتوفين، عادة إبراز سيمائهم، في الحجر أو الرخام، مع الإلحاح على الشبه الدقيق، مع كل تفرداتهم وحتىعيوب الوجه. ومن هنا كان فن الرسم النصفي الروماني بواقعية أخاذة. ومن أنصاب رائعة من ذلك الزمن لم يبق سوى بعض البقايا من البازليك[١] الإملياني *basilique emilienne*، الذي أقيم في العام ١٧٩.

وبتأثير الفلسفة اليونانية تغيرت المفاهيم الساذجة السالفة أيضا، على الأقل في أعلى مراتب المجتمع. كان لسيبيون إمليان صديق هو الفيلسوف اليوناني بانتيوس الذي، كالمؤرخ بوليب، كان يرافقه في حملاته. فكان انصار الموروث الروماني القديم، المصطفون خلف كاتون، عاجزين عن منع تغلغل أفكار الفلاسفة اليونان. وكذلك كان عبثا تصرف أعضاء مجلس الشيوخ الذين نفوا غير مرة الفلاسفة اليونان من إيطاليا.

بدأ التأريخ الروماني يتطور بدءا من نهاية القرن الثالث. فكتب عضو مجلس الشيوخ فابيوس بكتور حوالي العام ٢٠٠ أول تاريخ روماني، منذ تأسيس المدينة حتى زمنه، استنادا إلى التسلسل التاريخي الرسمي، وتقاليد الأسرة والمصادر الأخرى. كان هذا العمل الذي يقترح أن يدل اليونان إلى جبروت الدولة الرومانية، قد كتب بلغتهم. وكتب "أغلب الحوليين" الآخرين، الذين أتوا بعد فابيوس، ل.سانسيوس، المانتوس (مقاتل في الحرب الفينيقية الثانية) وبستونيوس ألبنيوس (حوالي العام ١٥٠)، كتبوا أيضا باليونانية. بينما كتب كاتون باللاتينية "أصوله"، التي وصلنا أجزاء منها. سرد في هذا التاريخ ولادة روما وأولى عهودها، والعديد من الحاضرات الأخرى، مستندا إلى التسلسل التاريخي، والنقوش والآثار الأخرى.

يقول، معارضا المبالغة في الأهمية التي ينسبها المؤرخون للرجال العظام: "ليس القنصل بول هو من صرع بيرسيه، بل الشعب الروماني".

كان من الطبيعي أن تبدأ العلوم الطبيعية والرياضية بالازدهار أيضا في روما، في هذا العصر. فبدون معارفهم بالرياضيات، بالميكانيك، لما استطاع المعماريون والمهندسون الرومان أن ينجزوا أعمالا ضخمة (البازليك، أقنية الري، الجسور)، وأن يعمروا سفنا من

---

[١] – مبنى روماني مستطيل في أحد طرفيه جزء ناتيء نصف دائري-المترجم.

مجاذيف خماسية، إلخ. لكنا لانعرف اسم أي رياضي، فيزيائي أو ميكانيكي روماني من ذلك العصر. معروف فقط أن ضابطا رومانيا تنبأ بكسوف الشمس في العام ١٦٨.

كما تمت ثورة عميقة في مجال الدين. فمنذ القرنين السادس والخامس ق.م. مع تطورات الزراعة، بدأت الإحيائية البدائية تتبلور في عبادة الآلهة التي ترأس أعمال الحقول. واحتلت قوى الطبيعة، المؤثرة في عمل الفلاح أهمية واسعة: إذ صارت لدى الرومان "الآلهة الأبوية". فكان فيفكتور وربارتور، إلهي الحرث، أنستور، إله البذر، بروسربين، إلهة الإنبات، فلورا، إلهة الإزهار، ماتورا، إلهة النضج، إلخ. كان يرأس هذه الآلهة العديدة سيدة الفلاحين ثلاثية الآلهة (كلية الخير، كلية العظمة): جوبتير، إله السماء، العاصفة والمطر، وفيما بعد إله الخمر، مارس، إله الحقول، والأعمال الزراعية وفي الوقت ذاته إله الحرب أما كيرينوس، لم تحدد مهامه بعد بوضوح.

كان الخط الأهم في هذه العبادة العامة الرومانية هو خاصية العقلنة العميقة ، العادية، وفي غاية النفعية. فبرفع الصلاة لهذا الإله أو ذاك، مسعى لإقامة علاقة معه تعاقدية، إلزامية لكلا الطرفين: عطاء بعطاء (*do at des*) يكون الانطلاق من هذه الفكرة إن كانت كل الصيغ المتوجبة في إتمام العمل الديني مراقبة بدقة وكل الشروط مصاغة بوضوح، وهكذا يتم الضمان الذي تلتزم به الآلهة، هي الأخرى، وتقدم التزاماتها. إن هذه الصياغة الطقسية للعبادة الرومانية القديمة يجب أن تطمئن المزارع الصغير، عبد ارتباطاته، الذي كان بعامة روماني من الزمن الغابر.

إنما منذ عهد السيطرة الأتروسكية، مع انطلاقة المهن والتجارة في روما، وإقامة علاقات أمتن مع الأجزاء المجاورة في إيطاليا، أخذ عدد متزايد أبدا من "الآلهة الجدد الأجانب مكانا في الدين الروماني.

إن جونون ومنيرفا اللذين أتت عبادتهما من أتروريا، مع جوبتير، يشكلون "ثلاثية الكابيتول، وصاروا الآلهة العليا للبانتيون[١] الرسمي. وحوالي العام ٥٠٠، بدأ تعبد اليونان لهرقل وتابعيه ديونسوس وبوللوكس، أبولون وأرتميس (ديانا)، يتغلغل في روما. وتعبد ديميتر وتابعيه ديونسوس وكوري، الذين سموا الآلهة الرومانية القديمة المقابلة، سيرس،

---

[١] – مجمع الأرباب عند القدماء –المترجم.

ليبر وليبرا، وفدت من سيسيليا، وهذا ما يعلل شراء القمح المستمرة من هذه الولاية لكفاية حاجات روما. ومعبدهم المبني في العام ٤٠٦ على رابية أفانتان، وصار قلعة للدهماء، بني على النمط الإغريقي، وكان التعبد فيه مشهورا " على الطريقة اليونانية *a'la grecue*"، ومع راهبات يونانيات: في ذات الوقت، انتقلت عبادة أبولون إلى روما، طبعا من كومس – إحدى المستعمرات اليونانية ، و"كتب العرافة" وفدت كمجموعة إرشادات من النبيات الشهيرات اليونانيات.

كان الدين الروماني يقدم بالتالي، في منتصف القرن الثاني، من اغرب العناصر القديمة والجديدة. كانت الشرائح العليا من المجتمع قد صارت لامبالية، بل متشككة بقضية الدين. ورجال دولة هامون، في ممارسة وظائفهم، يتهكمون على الملأ على تكهنات (س.فلامنوس، مثلا). وفي أوساط الشعب، في روما كما في إيطاليا، شكلت عدة طوائف يونانية (أورفست، ديونزياك، إلخ)، أخويات سرية، على نمط كاهنات باخوس اليونان، التي تهودت أو تراجعت عن الوثنية.

كان الشيوخ الرومان ينجحون أحيانا، وهذا صحيح، بإثارة ردود فعل وحشية عارضة ضد هذه الهرطقات، مثل دعوى بكشنال للعام ١٨٦، التي قضت على سبعة آلاف إنسان. لكن أي تدبير بوليسي لم يكن قادرا على صرف الناس عن تحطيم نير دين الدولة. فلم تعد الحكومة الأولغارشية الرومانية تملك هذا الكابح الروحي الذي كان يشكل أحد سبل السيطرة على الفئات السفلى من الناس الأحرار.

الفصل الثالث والخمسون

بدء الحركة الثورية لدى العبيد

المتمردون العبيد في إيطاليا في أثناء النصف الأول من القرن الثاني ق.م

كان تأسيس امبراطورية عبودية واسعة، وما ولدت من علاقات اقتصادية واجتماعية، قد خلق في روما وفي الولايات، في بداية القرن الثاني ق.م. جملة من التناقضات الاجتماعية الحادة.

الأولى، التناقض الأساسي، كان التناحر بين العبيد وسادتهم، الذي احتدم بخاصة منذ بداية القرن، بسبب تنامي استخدام اليد العاملة الرقيقة.

فمنذ العام ٢٠٠، ومع مضاعفة الحقول الكبرى، أخذت حركة الرقيق طابع التمردات المحلية بسعة هامة، اشترك بها مئات بل ألوف العبيد، لكن على مدى إقليمي محدود نسبيا. الانفجار الأول من هذا النوع أشار إليه تيت-لايف (٣٢-٢٦)، حوالي العام ١٩٨، في المستعمرة الرومانية سيتيا، من لاتيوم. كانت هذه المستعمرة المقر الرئيس لمجموعة رهائن قرطاجية من عائلات متميزة، كانوا يعيشون فيها عيشة البذخ، وكانوا محاطين بعدد ضخم من عبيدهم، طبعا الإفريقيين. كان هؤلاء الأخيرون قد وضعوا هنا لمهاجمة، في يوم عيد، المسرح، حيث يجتمع سادتهم مع سكان سيتيا الأحرار. وبعد ذبح الموجودين، اقترحوا الوصول إلى مرفأ سيرسيوم المجاور، ليحتلوا سفنا تحملهم إلى وطنهم. فشلت المكيدة، لأن الخونة وشوا بهم إلى سلطات العاصمة. جمع حاكم روما ٩٠٠٠جنديا، ووصل في الوقت المناسب إلى سيتيا: سلم عدد كبير من العصاة على الفور للتعذيب، وأسر فيما بعد الـ ٥٠٠ الذين هربوا. إن مؤامرة عدد من الرجال الشجعان، يعينون لحظة المبادرة، ويرسمون العودة إلى الوطن، والخيانة المفضية إلى فشل المشروع، -هي الشروط المميزة لعشرات الانفجارات من هذا النوع.

يذكر تيت-لايف (٣٣،٣٦) انتفاضة أخرى أضخم، نشبت في العام ١٩٦، في

أترووريا، إحدى الولايات التي يهيمن فيها كبار الملاك الريفيين. كان المتمردون قد نجحـــوا بتشكيل جيش حقيقي، ألزم السادة بإرسال جيش كامل لمقاتلتهم. انــــهزموا نتيجـــة معركــــة نظامية، قتل أكثرهم أو سجن، صلب قادتهم، عوقب الآخرون أو أعيـــدوا إلـــى ســـادتهم. المقصود هذه المرة عصيان جاد حاسم جدا بأبعاده، في الجوار المباشرة لروما.

وفي العام ١٨٥، انتفض رعاة أبوليا ولم يقمعوا إلا بعد جهد: "كانوا يغـــيرون علـــى الطرقات والمراعي العامة" (تيت-لايف، ٢٩،٣٩)، وقد استطاعوا عزل الميدي وألزمـــوا اللواء التأديبي المرسل لقمعهم أن يرحل عن تارانت. وبعد سحق العصيان، أعـــدم الحـــاكم يوستوميوس ٧ آلاف عبد متمرد، لكن الحكم لم يستطع أن يقضي على الجميع لأن "عـــددا كبيرا منهم قد هرب"، واستمروا يقاومون بضراوة. وسلم الباقي للتعذيـــــب، فضـــلا الأذى الضخم الذي لحق بمالكيهم لخسارتهم كمنتجين.

لقد أثرت عصيانات العبيد، في بداية القرن الثاني، على أقاليم عديـــــدة، وفـــي هـــذه الانتفاضات، كانت مقاومة الجماهير الرقيقة أكثر فأكثر جرأة وتلازما، رغم محافظتها على الطابع المحلي، إنما في النصف الثاني من القرن الثاني، نشبت حركات بعنف لامثيل لـــــه، شمل ولايات بكاملها وهدد بالتحول إلى حريق شامل. هكذا كانت تمردات عبيد سيســــيليا، أتاكيا وإقليم آسيا، التي زعزعت بعمق كل العالم الرقيق.

تمرد عبيد سيسيليا الأول (١٣٨-١٣٢). تمرد أرستونكوس في برغام

كان تمرد العبيد الأول، في سيسيليا، الذي دام ٧سنوات كاملات، كم قال أوروز "ذبالة مشتعلة نشرت حريقا في أمكنة عديدة". "أبدا لم تنشب انتفاضة عبيد تماثل التي انفجرت في سيسيليا"، يكتب ديودور (٢،٣٥، ٢٥)، مرجعنا الرئيس في هذا الحدث.

كان نهج الاستثمارات الضخمة التي احياها العبيد ذا جذوة قديمة في سيسيلا حيث بدأ يتطور منذ أيام الاستعمار اليوناني والقرطاجي. وإلى سيكيل *Sicules* الأصلييـــن أضــــاف اليونان جموعا من العبيد المستوردين واشتروا الكثير من العبيد السوريين، العمال المـــهرة والحراث الطيبين.

"كان في سيسيلا ما لايحصى من العبيد، يقول ديودور، حتى أن الناس الذين يسمعون هذا القول يرفضون تصديقه ويرون أنه يبالغ". ولما سقطت سيسيليا بيد الرومان، لم يطـــرأ على هذه المجالات الواسعة من اليد العاملة العبدة سوى تبديل السيد. ("كان أغلب مـــالكي

العبيد فرسانا رومانيين"، يكتب ديودور)، لكنهم استمروا في التطور متبعين الخط ذاته.

كان عبيد سيسيليا ضحايا استثمار بربري، حتى في الزمن القديم. كانت حبوب، وخمر، وزيت زيتون الحقول السيسيلية، المصدرة إلى روما، والمدن الإيطالية الأخرى، وعن طريق كورنثيا، تباع في بلوبونيز، بأرباح ضخمة. وكان المالكون يدفعون إلى التوفير في نفقات الإنتاج ليوزعوا ما استطاعوا الغذاء والثياب إلى عبيدهم الذين كانوا يتحولون إلى قرصنة الدروب ليؤمنوا عيشهم.

وفي الوقت ذاته، كان نهج الزراعة الضخمة يؤطر العبيد في تنظيم مختص، يدفعهم بسهولة لان يصيروا ثوريين، ليناضلوا ضد سادتهم المكروهين.

بدأت الحركة في سيسيليا أيضا بمكيدة بين العبيد الذين يعملون في حقل المالك الكبير داموفيلوس الذي اشتهر بهذا الاسم وكذلك زوجته ميغاللس لقسوتهم الشاذة مع العبيد. كانت اراضي داموفلس تقع في الشطر الأخصب من سيسيليا، قرب هينا.

كان العصاة بداية قلة، حوالي ٤٠٠، لكن قائدهم كان يشبه إنسانا نابعا من الناس. كان سوريا اسمه أونوس ("المضحي"، لقب نموذج للعبد)، مهرجا مأخوذا من لدن أحد كبار السادة العقاريين في المنطقة، وعرف كنائب "للإلهة السورية العظمى". اختار العبيد أنسب وقت، الحصاد على أشده في العام ١٣٨، فصل تجمعهم في الحقول، فاجأوا مدينة هينا بالسلاح ووقف إلى جانب عبيد المالكين الذين سلكوا معهم سلوكا إنسانيا. وأعادوا إلى كاتان تحت الحراسة ابنه داموفلس، الذي كان قد توسط لصالحهم.

توبع مثال هينا مرارا في مدن سيسيليا الشرقية الأخرى. وفي أغريجنب، مركز إنتاج الزيتون، كان على رأس التمرد سائس الخيل كليون، الذي كان قد انصرف في فتوته للصوصية في جبال توروس، وجمع حشدا من ٥٠٠٠ رجل. وانتفض العبيد أيضا في مسينا، ليونتيوم، كاتان وتورومانيوس. وصل عدد المتمردين، حسب ديودور، حتى ٢٠٠ ألف رجل. وكان موقف الدهماء المعسرة في المدن منذرا بالخطر. "كان الناس المساكين، يقول، دون إبداء أي تعاطف مع الأغنياء، يبتهجون"؛ "رجال من العامة، عبيد يغزون الأرياف، ويحرقون الدارات".

كانت حاشية الحكام على رأس القوات المحلية عاجزة عن كبح هذه الحركة التي احتلت سيسيليا الشرقية كلها، ولم يستطع جيشان أرسلا من إيطاليا أن يقمعوها. حكم العبيد

العصاة لأربع سنوات الشطر الأعظم من كل سيسيليا، حيث أسسوا دولتهم، وعاصمتها هينا، وحيث عاشوا، حسب قول ديودور، "في ازدهار تام".

كان تنظيم دولة العبيد هذه يثير الفضول بشكل استثنائي. كان يقدم ترتيبا مبتكرا لنظام عاهلي وديموقراطي. كان العصاة وبينهم كثير من السوريين قد "انتخبوا" قائدهم أونوس، ملكا باسم أنطيوشوس، الذي اشتهر بعدة ملوك من الأسرة الحاكمة السورية، التعبير الساذج عن سلطتها المطلقة وجبروتها. إنما، رغم أن هذا "الملك" المنتخب كان يرتدي، حسب العادة، ثوب الملوك ويعتمر تاج الملوك، وله "ملكه"، لم يكن أبدا عاهلا على النمط الهلليني. "باعتباره ملك دولة المتمردين، جمع أونوس مجلس الشعب"، يقول ديودور. وكانت تعمل إلى جانبه أيضا محكمة شعبية، تقيم في المسرح، أكثر أعضائها من المتمردين؛ كانت تشكل إن صح التعبير صيغة أخرى من الجمعية الوطنية، من طبيعة قضائية. كان إلى جانب الملك "مستشارية" مؤلفة من أبرز الشخصيات بين العبيد: السيسيلي كليون، الذي رفع إلى جنرال أعلى، وأخوه كومانوس، واليوناني النابغة آشيوس، وكثر غيره. كان أكثر ما يفاجئ مالكي العبيد، هو حلول الوئام بين هؤلاء الأخيرين، ورغم أنهم من أمم عديدة، اعترفوا طوعاً بسلطة أونوس.

ما يشد الانتباه أيضا التدابير الاقتصادية التي اتخذتها "مملكة العبيد" هذه، الأمر الأهم –يؤكد ديودور بدهشة (٣٥،٢،٤٨)،– هو أن العبيد العصاة، يهتمون بالمستقبل بحكمة، لم يحرقوا الدارات الصغيرة، لم يحطموا الأدوات ولاالمؤن التي كانت بين أيديهم ولم يمسوا بسوء أولئك الذين استمروا يحرثون أرضهم"، حالمين طبعاً بالعودة هم أنفسهم إلى شرط الفلاحين الصغار الأحرار والمستقلين، بعد توزيع الاستثمارات الضخمة. وفي المدن، "أمر اونوس بعدم إيذاء صناع الأسلحة، الذين أرسلوا إلى العمل، بسلاسل الحديد"، من أجل حاجة جيش المتمردين.

كان خطأ الحركة الأخطر، الذي سلمها إلى هزيمة محتمة، هو طبيعتها الدفاعية، وعجزها عن الخروج من الإطار المحلي وإقامة علاقات مع الأماكن الأخرى لتمرد العبيد التي تفجرت في نفس الحقبة في الامبراطورية الرومانية. يتحدث ديودور عن مؤامرة من ١٥٠ عبداً في روما، وعن حركة انبعثت في أتيكيا، اللتين شارك بهما قرابة ألف عبد، من المتمردين في ديلوس وغيرها.

أهمها، حركة أرستونكوس، نشبت في العام ١٣٣ في برغام، التي كانت منذ مدة قريبة "الولاية الأسيوية". ذكرها ديودور، سترابون، وبعض كتاب روما الآخرين اللاحقين ، وبعض النقوش التي تتحدث عنها وصلتنا. يقول ديودور إن آسيا "شهدت أحداثا كتلك التي شبت في سيسيليا" والخوف من العبيد الذين دفعتهم استبدادية سادتهم إلى آخر الشوط أغرق حاضرات عديدة في كوارث دهياء". وإلى عبيد بيرغام انضم "غير-المالكين"، العمال الأحرار في الورشات الضخمة الملكية لصناعة السجاد والرق[1] *Parchemin* وكذلك الفلاحون، والمزارعون الصغار في الأطيان الملكية. كان على رأس الحركة أرستونكس " سارق السلطة الملكية تعسفا" (كان الأخ غير الشرعي لأتال الثالث *Attale*III، الذي أوصى بمملكته للشعب الروماني). كان أرستونكوس قد وعد المتمردين بإقامة في برغام هليوبوليس المثال ("مدينة الشمس")، محققا فكرة الرواية الطوباوية الشعبية جدا في ذلك الزمان، التي كتبها بهذا العنوان إيامبولوس. وصف هذا الأخير، "هليوبوليس"، جزيرة خيالية سعيدة، يعيش الناس فيها بمساواة، بأخوة وحرية تامة؛ حيث كان يعمل الجميع بمحض إرادتهم من اجل الخير العام ويوقفون أوقات فراغهم للأفراح المتوفرة للجميع، بهجة الطبيعة، والفنون والعلوم (إقرأ ديودور، ٢، ٥٥-٦٠).

تيسر لأرستونكوس أن يقنع شريحة ضخمة من المملكة القديمة في برغام، رغم أنهم توحدوا ضد كل القوى التي تهدد سطوتها الثورية الاجتماعية الناشبة: مدن آسيا الصغرى الثرية، على رأسها إفيز، نيكوميد، ملك بيثيني ومستشار بوليوس كراسس، المرسل من روما على رأس جيش جرار. أرستونكوس هزم كراسس المندحر في معركة ضد المتمردين "أبناء مدينة الشمس".

إن طبيعة هذه الحركات المشتتة، الجبارة بذاتها، خولت روما أن تهزمها الواحدة بعد الأخرى.

ففي العام ١٣٢، تولى القنصل بوبليوس روبلوس، الذي اشتهر في روما بقسوته، القتال الحاسم ضد مملكة العبيد في سيسيليا. وبعد حصار طويل، لما ألزم الجوع المدافعين

---

[1] – من Peregame، حيث أقيم لأول مرة، كما يقال، أول مصنع للجلود المعدة لكتابة المخطوطات أو الطباعة. وأخذ ألقاب النبلاء: الألقاب لاتزيد قيمة الإنسان –المترجم-.

الذين يبلون مقاومة يائسة، بأكل لحوم بعضهم، احتل بخيانة تورمنيوم، أحد الشوارع المتمردة الرئيسة. كان المساجين، والمعذبون، يرمون من أعلى الصخور. "مشى روبليوس ضد هينا... وهذه أيضا لم يستطع أن يأخذها إلا بالخيانة، لأن موقعها جعلها منيعة" (ديودور،٣٥، ٢، ٢٢). وقتل كليون وهو يحاول الهرب. حوالي ألف رجل من النخبة، كانوا حرس الملك أنوس، دافعوا عنه حتى آخر رجل منهم، و"أمام النهاية الحتمية، قتلوا بعضهم بسيوفهم". ومات أونوس في سجن روماني. يقول أوروز إن ابليوس قتل في هينا أكثر من ٢٠ ألف عبد.

في العام ١٣٠، انتهت روما من قمع تمرد أرستونكوس.أكره هذا الأخير، الذي هزمه أسطول إفيز، على الانسحاب إلى الداخل، حيث حاصرته قوات القنصل بربينا، التي ضمت قوات ملك بيتيني وكابادوس. وسحقت الانتفاضة. سجن أرستونكوس وأرسل إلى روما حيث جندل في سجنه (١٢٩).

تمرد العبيد الثاني في سيسيليا(١٠٤-١٠١ق.م). تمرد سوماكس في البسفور

رغم القمع والاضطهاد البربري، شبت انتفاضة ثانية عامة للعبيد في سيسيليا بعد ثلاثين سنة، واستمر أوارها ثلاث سنوات.

بدأ التمرد في العام ١٠٤، مدفوعاً بالأعمال غير العادلة للوحش حاكم سيسيليا، لسينوس نرفا، الأعمال التي أججت حقداً عارماً لدى العبيد. بناء على أمر مجلس الشيوخ، الذي سببته شكاوى الولايات والملوك المتحالفين، بدأ نيرفا حملة، تهدف إلى البحث عن العديد من الناس الأحرار الذين هووا إلى حمأة العبودية لعسرهم عن وفاء الدين، والذين كانوا يعيشون في "عائلات" رقيقة لدى كبار الملاكين وفي السراديب؟ وبعد أن حرر حوالي ٨٠٠ من بينهم. استعبدوا ظلماً وأيقظ الأمل لدى العديد من العبيد الآخرين، أقفل الحاكم البحث بعد أن اشتراه المالكون. وبالتالي راح يسعى إلى قمع الحركة التي انبعثت من جديد، محرضا على المتمردين قطاع الطرق السيسيليين. فرد العبيد بتمرد مفتوح. امتدت هذه الانتفاضة الثانية بخاصة في الشطر الغربي من الجزيرة. كان مركزها ضواحي ليليبيا، حيث نصب العبيد أثينيون قائدا، وهو مولى في واحد من أكبر استثمارات المنطقة. وفي نفس الوقت، قرب هراكليه، في أنحاء جبل كابريون، جمع سوري اسمه سلفيوس، عراف

وساحر، حوله قرابة ٢٠ ألف عبد متمرد. كان التمرد هذه المرة ذا طابع زراعي بحت: لم ينجح المتمردون باحتلال أي مدينة، لأن عبيد المدن، عوضا من أن ينضموا إلى المتمردين، ساعدوا سادتهم في الدفاع عن مدينة مورغانتيوم.

توجب إذن على التمردين أن يبحثوا عن مكان يجعلونه عاصمة لهم، واختاروا جبل تريكالا.

أقاموا هنا قصرا ملكيا، إلى جانبه كان يوجد ميدان خصص لمجالس الشعب. انتخب سلفيوس ملكا، باسم "تريفون:، لكن القائد الحقيقي كان الجنرال أتينيون، رجل ذو طاقة ثورية عجيبة، حفظ الرومانيون ذكراه كأخطر عدو. واقتداء بأميلكار، نظم الحرب من أنصار من مختلف المشارب، مدمرا مخازن الرومان، قاطعا دروب الاتصال في كل سيسيليا، مبيدا فصائل كاملة. وأمره: "احفظ البلاد كملكك الشخصي ، بدوابها وأرزاقها"، يستحق الإعجاب. وكان أتينيون يسعى بكل قواه للحؤول دون سرقة المزارع الضخمة،لأنه لم يضم إلى قواته إلا الرجال الأشداء وأمر الآخرين بالانصراف إلى أعمالهم العادية. كما اهتم بتموين جيشه.

أخذت الحركة مدى واسعا جعل ديودور يقول إن سيسيليا كلها كانت ضحية الـ"فوضى". شغرت المحاكم، انقطعت الصلات بين المدن، ولم يعد الموظفون يهتمون إلا بالاغتناء تحت جنح الاضطرابات الدائرة. كان لصوص المدينة يسرقون ويهربون.

لكن ذات الضعف والوهن الذي سبب فشل التمرد الأول رأيناه هذه المرة أيضا: نقص المبادرة الخاصة الأساسية الدفاعية للتكتيك. الأمر الذي مكن الحاكم لسنيوس لكولس من طرد المتمردين بداية من شرق سيسيليا، ثم تمزيق قواتها في معركة نظامية، ومحاصرة تريوكالا. لكنه لم ينجح في إبادة الحركة. ففي العام ١٠١، اضطرت روما لإرسال جيش قنصلي بقيادة مانيوس أكيللوس. وبعد موت سالفيوسن صار أتينيون "ملكا". تقول الخرافة إن مانيوس هو القاتل، بمعركة فردية، بحضور الجيشين الأمر الذي أفضى إلى هزيمة العبيد. وسقطت تريوكالا بعد مقاومة يائسة. وكان القمع هذه المرة وحشيا بشكل متفرد؛ جماهير لاتحصى علقت على الصلبان أو عذابات أخرى؛ وأرسل ألف منهم إلى روما حيث أجبروا على إبادة بعضهم، في السيرك، كما المصارعين.

وضعت سيسيليا منذ الآن تحت نظام إرهابي دائم، ليبقى العبيد في خوف مستمر. في

أيام شيشرون كان العبيد ما يزالون ممنوعين من حمل السلاح، أو الموت لافوري عقابا؛ "كل قرارات وأحكام الحاكم تتابعت لاستمرار عزل العبيد من السلاح" (شيشرون، "المصابيح"، ٥، ٧). والواقع أن عبيد سيسيليا بعد ثلاثين سنة، أيام عصيان سبارتاكوس، ماكانوا بعد قادرين على حمل السلاح.

ولقد تزامنت الانتفاضة السيسيلية الثانية طبعا، من حيث الزمن، مع تمرد سوماكوس، على رأس عبيد سيث من مملكة البوسفور، التي ربما كانت صداها البعيد. وهي غير معروفة إلا في نقش وجد في شرسونيز، لمجد ديوفانت، القائد مثردات السادس أو باتور، ملك البونت. كان ديوفانت أكره ملك البوسفور، بارزادس، على الاعتراف بتابعيته لمثريدات، لكن هذه التابعية أغضبت موالي بارزادس، فحمل عبيد سيث السلاح، بقيادة سوماكوس. قتل بارزجاس، هرب ديوفانت ونجا، وسمي سوماكوس ملكا على البوسفور. وجدت نقود تمثل قسمات هليوس، الجبهة محاطة بتاج ذي إشعاعات: فحلم "مدينة الشمس" لم يكن غريبا إذن عن هذه الحركة. لكن بعد سنة أشهر، كما يقول النقش، وصل ديسودور من (البونت، في آسيا الصغرى) مع جيش بري وبحري، وانطلق من مدينتنا (شرسونيز)، بعد ان أبحر على متن ثلاثة مراكب نخبة من أبناء المدينة، واحتل تيودوسيا وبانتكابي (كيرش). وعاقب مقاتلي التمرد، وسوماكوس، قاتل الملك بارزادس، وقد سقط بين يديه، أرسله إلى مملكة ميتريدات وهكذا أقام سلطة ميثردات أوباتور.

تثبت موجة تمردات العبيد التي جابت الامبراطورية الرومانية النضال الطبقي، العنيف والضاري، الذي كان يمزق مجتمع العبودية. لكن هذه التمردات تكشف أيضا بخاصيتها المحلية والمنعزلة، عن ضعف حركة العبيد.

الفصل الرابع والخمسون

الحركة الديموقراطية
في روما وإيطاليا (١٥٠-٩٠)

عهد الإصلاحات؛ الأخوان غراسك

بالتوازي مع تمردات العبيد، كانت تتطور باتساع مستمر حركة الفئات السفلى من الناس الأحرار، في المدينة والريف. كانت هذه الحركة الديموقراطية، أوكما يقال في رومان حركة "الشعبيين"، استمراراً لحركة فلاحي النصف الثاني من القرن الثالث، التي كانت قد شبت بدءاً من المنتصف الثاني للقرن القادم.

كانت تساهم بهذه اليقظة، أولاً، الأسباب ذاتها للاضطراب الديموقراطي،-لدى طبقة الفلاحين، من أجل انتزاع الأرض الذي تتابع على اشده، وحياة "الدهماء المدينية البائسة"، لكن تطورات حركة العبيد، المحرضة بمثالها الجماهير الشعبية الحرة بدعم مطالبها بصورة أنشط، استمرت أيضاً تلعب فيها دوراً هاماً. ولقد استطاعت انتفاضة سيسيليا أن تؤثر بشكل مباشر على تجديد نشاط الحركة الديموقراطية في إيطاليا، في ان هذه الولاية، المدمرة بتوحش، كفت لفترة عن أن تكون أهراء روما، الأمر الذي حرض رفع أسعار القمح. وبالتالي، تفاقمت أيضاً من جهة شروط حياة جماهير المدن، ومن جهة أخرى، تأكيد بشدة رغبة الفلاحين الذين انتزعت أسهمهم من الأرض باستعادة ما فقدوه. فكانت مسألة القوت والمسألة الزراعية قد أخذتا الأولى والثانية، احتداما وراهنية بشكل متفرد.

وكان ثمة مسائل أخرى مرتبطة بمسائل إدارة الامبراطورية والولايات. ففي العام ١٤٩، أقر مجلس الشعب قانونا لإحداث "لجنة بحث في تعسف السلطة" الذي تمارسه حكومات الولايات. وبعد ١٠ سنين، ١٣٩، سن قانون الاقتراع السري كتابة في جمعيات الناخبين.

وهكذا أعد برنامج واسع من التدابير الديموقراطية. وانطلاقاً من العام ١٣٠ أحيي الميدان العام بوضوح: وفدت إليه شرائح واسعة من المستعمرات والبلدات البعيدة، كان الخطباء يلقون خطابات ملتهبة، وغطيت جدران البيوت والآثار الجنائزية بشعارات تدعو إلى الدفاع عن مطالب الشعب بشكل أجرأ. ودارت نسخ من الرسائل بين أنصار الإصلاح (نعرف، مثلاً، رسائل كورنيليا، أو الأخوين غراسك)، وتداولها بين الناس، وقد شكلت نوعاً من مكتب أو مصلحة لتدبير هذا الهجاء والانتقادات السياسية، الساخرة أحياناً.

ليس بميسورنا أن نحكم للأسف على هذه الأحداث إلا من أعمال بلوتارك (حياة تبريوس وكايوس غراكشوس) وآبيان (الحروب الأهلية، الكتاب الأول، فصول ٧-٢٧). لكن هذين المؤرخين، اللذين عاشا في الحقبة الامبريالية، أوردا أحداثاً غير مألوفة وغامضة القسم الأكبر من ابتكار الشخصي بحت، إلى جانب التراجم أو السير الذاتية، مرجئة إلى المقام الثاني دور الجماهير الشعبية.

لقد بلغت الحركة الديموقراطية نقطة الأوج مع انتخاب إلى منصب المحامي الشعبي، في العام ١٣٣، تيبريوس سمبرونيوس غراكشوس، الشاب الغني النبيل الروماني. كان نزاع عنيف مع مجلس الشيوخ، بشأن مسألة شخصية قد وضع الطموح تيبريسو في صفوف المعارضة الشعبية. كان هذا الانتقال طبيعياً لأنه تزوج من سمبرونيا ـخت نسيبه إمليان، وكان مركز نوع من الرابطة السياسية التي تحلم بعودة "الأخلاق القديمة" بإحياء الزراعة الصغيرة وجيش الفلاحين الروماني السابق. ولقد حاول أحد هؤلاء "الشيوخ الرومان" س.ليليوس بعث مسألة أراضي الحقل العام.

لما صار تيبريوس محامي الشعب، أحيى ، غير عابيء بغضب مجلس الشيوخ ونقمته، مشروع القانون المعادي للنبلاء، محاولاً تسوية احتلال أراضي الأملاك العامة. يثبت بلوتارك (تيبريوس غراشوس، ٩) بوضوح أن القانون كان عادياً ومعتدلاً جداً". يكتب أبيان (الحروب الأهلية، ١، ١١)، كان يهدف أساساً إلى زيادة كدح المواطنين الرومان وليس راحتهم". يتفق بلوتارك وأبيان على تأكيد أن تيبريوس غراشوس كان قلقاً بشكل استثنائي لرؤية إيطاليا تختنق العبيد مجدداً، فأثار "ماكابده حديثاً، في سيسيليا، مالكو هذه المنطقة من قبل عبيدهم... وذكر أن الحرب التي اضطر الرومان لخوضها في هذه الجزيرة ضد هؤلاء المتمردين لم تكن سهلة ولاسريعة، بل طالت واستطالت..." (أبيان ، الحروب الأهلية، ١، ٩).

لم يكن مشروع تيبريوس غراكشوس بالفعل سوى دعوة إلى تنفيذ نصـــوص قـــانون ليسينيا وسكستيا، للعام ٣٦٧، حول أراضي الأملاك العامة، مع بعض الشروح والتعديلات، التي تصون بخاصة مصالح كبار المالكين. "إن هؤلاء الناس الذين يستحقون العقاب لعـــدم طاعتهم، والطرد بعد دفع الغرامة التي امتلكوها خارقين نص القــانون، يجــب عليــهم أن يرفعوا أيديهم، ودفع ثمن الأرزاق التي حازوها بدون وجه حق، وأن يتركوها للمواطنيـــن الذين يحتاجونها ليعيشوا". (بلوتارك، تيبريوس غراكشوس، ٩).

يقترح المشرّع تحديد حق حيازة الأراضي من الملك العام بـــ ١٢٥هكتــاراً علـــى الأكثر، إنما مع تصحيح يسمح ، بطريقة خفية، بتكبير هذه الحصــــة إلـــى ٢٥٠هكتــاراً: وبالفعل يقدر كل مستلم ،إن كان عنده ولدان أن يحوز لكل منهما ٦٢,٥هكتاراً. مازاد عـــن هذا يعاد إلى الملك العام، لكن تعويضاً منصفاً تقدمه الخزينة للمالكين السابقين لقاء إصـــلاح هذه الأرض التي تركوها أو الأبنية التي بنوها عليها. والأرض التي استعادتها الدولة يجـب توزيعها بـــ ٣٠ مسكبة لكل فلاح فقير، بأتاوة مقسطة، وبشكل أبدي. وكانت لجنة خاصـــة من ثلاثة أعضاء مكلفة بالإشراف على إعادة توزيع الأملاك العامة.

"مهما كان هذا الإصلاح بسيطاً، فقد أرضى الشـــعب"، كتــب بلوتـــارك (يـــبريوس غراكشوس، ١٠)، لكنه اصطدم بمقاومة ضارية من قبل كبـــار مرابـــي الأرض العامـــة. وبتحريض منهم، عارض المحامي الشعبي ماركوس أوكتافيوس، المـــالك الكبـــير، إقـــرار القانون وحال دون مروره.

أمام هذه المقاومة، لم يكن ممكناً تحقيق إصلاح تيبريوس غراكشوس إلا بتبني مســبق لتعديلات دستورية هامة. فاقترح تيبريوس على مجلس الشعب اعتقــــال المحـــامي العـــام أوكتافيوس "باعتباره عاملاً ضد مصالح الشعب" (أبيـــان، الحروبـــي الأهليـــة، ١، ١٢)، وانتخاب شخص آخر كمحامٍ عام أكثر اهتماماً بواجبات مهمته. وهكذا دخل المبدأ الجديـــد جذرياً، الغريب على الدستور الروماني القديم للمراقبة الشعبية على الحكام الشرعيين: فـــي روما كان كل الموظفين العامين غير قابلين للعزل حتى نهاية الأجل الذي انتخبوه له. ولمـــا لم يكن ثمة قوانين مكتوبة جذرية، كان يمكن ان يفضي اقتراح تيبريوس إلى تخصيـص أي حاكم بإرادة مجلس الشعب.

لذا لم يتم هذا إلا بعد امتلاء الصدور نفوراً وغـــلاً. ترجـــى طويـــلاً، وباســتمرار

أوكتافيوس أن يرفع اعتراضه. وحتى ، بعد أن أقرت سبع عشرة قبيلة الأولى اقتراحه بالإجماع، من أصل خمس وثلاثين، أوقف تيبريوس الاقتراع وترجى أوكتافيوس من جديد أن يعدل عن موقفه، لكن الإصرار والرفض العنيد جعله يعود ثانية إلى التصويت حتى النهاية.

أقيل أوكتافيوس، وانتخب أحد أنصار تيبريوس محاميا عاما مكانه؛ وأقر الشعب مشروع قانون إعادة توزيع الأملاك العامة، الذي قدمه مجددا تيبريوسوصار بحكم القانون. وانتخبت جمعية زراعة، اشترك فيها غراكشوس نفسه، وأخوه الأصغر كايوس، في سن ١٨ عاما، وحموه أبيوس كلوديوس، من مؤسسي القانون. يدل بلوتارك وأبيان أن مصلحا معتدلا مثل تيبريوس، فقط تحت ضغط الضرورة، يضطر لاتخاذ أعمال حاسمة،أثارت استنكار وحقد النبلاء.

لكنه أثار انفجارا رهيبا بين الـ"متفائلين" بسبب التدابير التي اتخذها فيما بعد (استدعتها، هي الأخرى، مقاومة النبلاء) لتقليص صلاحية مجلس الشيوخ في إطار الإدارة المالية والمحلية. ولما طلب الأعضاء الزراعيون الثلاثة تحديد الاعتمادات الضرورية لإتمام مهمتهم، عين لهم مجلس الشيوخ، بناء على تقرير المالك الكبير بوبليوس سيبيون نازيكا، الحبر الأعظم والعدو الأزرق للإصلاح، أجرا زهيدا هو ٩ آس في اليوم. وليحصل على النقود، اقترع تيبريوس عن طريق مجلس الشعب قانونا ثالثا "حول إدارة الإقليم الأسيوي". وبذريعة أن هذا الإقليم وصية من الملك أتال للشعب الروماني شخصيا. رفع مجلس الشيوخ يده عنه، وتحولت إدارته إلى مجلس الشعب، ووضع دخله بتصرف لجنة الإصلاح الزراعي، كان يجب اقتطاع مبلغ من هذه العائدات، لتغطية النفقات الأولى لإحياء الأرض الموات. بفعل هذه التدابير، استطاعت اللجنة بعد لأي أن تمارس عملها، ونعرف أنها خلال السنوات التالية، وزعت حتى ٧٠ ألف سهم، من الأملاك العامة التي زادت بما استعادتها من مغتصبيها (ولقد عثر على أنصاب تحمل نقوشا وكتابات للأخوين غراسك).

لكن حقد النبلاء ومجلس الشيوخ على المشرع الذي كبل سلطتهم الدهرية كان قد بلغ أقصى الحدود. فرموه بشلال من الأحقاد وسعوا إلى طرق مجربة مثل طمعه بالعرش ، يقولون: ليس ثمة مبرر ليتمتع مرة أخرى ويصير رجلا متميزا" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٣). ولم يتردد المدافعون عن النظام الأرستقراطي في التآمر المباشر على حياته: كان النبلاء مستعدين لكل أنواع العنف من أجل صيانة سطوتهم.

وقعت النكبة عندما طلب تيبريوس منصب المحامي العام مرة ثانية، في العام ١٣٢. جرت الانتخابات في شروط ليست في مصلحة تيبريوس، لأن مجلس الشيوخ خرق العادة وحدد التاريخ في فصل الصيف، عندما يكون "أبناء الحواضر في الحقول... مشغولين بأعمال الحصاد" (أبيان، الحروب الأهلية، ١٤،١) لكن أبناء المدن أولوه دعمهم الكبير، وصدق الاقتراع لصالح ترشيحه. لكن بفعل مكر بعض محامي الشعب الذين عارضوا إعادة انتخابه، تحول الاقتراع إلى مجابهة وجها لوجه. اشترك مجلس الشيوخ، الذي يقيم غير بعيد عن الميدان العام *Forum*، في معبد إلهة الأخلاص؛ بهذه المشاجرة. تسلح أعضاء مجلس الشيوخ بقوائم الطاولات والمقاعد والطنافس، وخلف الحبر الأعظم، الذي لايقف الشعب في وجهه احتراماً له، شقوا طريقاً إلى حيث يجلس غراكشوس وقتلوه مع ثلاثمائة من أخلص أنصاره. وحسب بلوتارك، رميت جثته المشوهة بحقد في التيبر، وكذلك جثث رفاقه. "لكن حقدهم وانتقامهم لم يقف هنا: فقد حكموا على بعض أصدقائه بالنفي دون اللجوء إلى أي قضاء، وجندلوا كل من استطاعوا العثور عليه". (بلوتارك، تيبريوس غراكشوس، ٢٤).

يلاحظ أبيان بحق أن الـ"قوانين في روما، بدءاً من هذا الزمن راحت تترك مكانها لصوت الواقع وأفعال العنف" (الحروب الأهلية، ١، ١٧) والمسؤولية تقع في هذا على كاهل النبلاء أنفسهم، الذين ماكانوا يختارون شكلاً سياسياً آخر إلا الذي يؤمن سيطرتهم دون مشاركة أحد، بل ينبذون كل "حق" وكل "عدالة أو مساواة" ما أن يبتعد جدول أعمال الإصلاح عن مصالحهم. قضى تيبريوس غراكشوس نحبه لأنه لم يعِ أن هذه المبادىء ذات قوة نسبية فقط. ربي على "احترام القانون"، فكان يعتقد بسذاجة بإنجاز الإصلاحات بطريق السلم والدستور.

كان هذا مصير، بعد اثنتي عشرة سنة، أخيه الأصغر كايوس غراكشوس، الذي رغب في السير على دربه وإتمام مهمته. كان خطيباً كبيراً، وكانت فصاحته المتقدة تشد الجماهير الشعبية. انتخب محامياً عاماً ١٢٣، أي بعد عشر سنين من مصرع أخيه البكر مصرعاً مأساوياً. على ذلك رأى كايوس غراكشوس عدم إمكانية قيادة الشعب بطريق أكثر حسماً: كان فعلاً المتمم المباشر لبرنامج وتكنيك تيبريوس المعتدل، لكنه سعى إلى توحيد جميع العوامل المعادية لمجلس الشيوخ والنبلاء، ليعطي قرارات مجتمع الشعب السلطة المطلقة،

وعلى الأقل كما اعتقد، قوة لاتقاوم. وليكسب لقضية الشعب كل خصوم مجلس الشيوخ، وقف كل جهوده على برنامج تام من المطالب الديموقراطية، فانتخب محامي الشعب لسنتين متتابعتين (١٢٣-١٢٣)ق.م.

عند الفلاحين تم البرنامج الزراعي بالتدريج. استعادت لجنة إعادة التوزيع، المعلقة، نشاطها، وانتخبت إلى جانب كايوس أحد أصدقائه، المستشار فلفيوس فلاكوس، رجل نابغة وجسور مثله. سُن قانون عسكري يحسن شروط حياة خدمة الفلاحين من هذا العبء الباهظ.

وأقر قانون ثالث، كبير الفائدة لطبقة الفلاحين، برنامج واسع لفتح الطرق، والأعمال العامة المباشر بها في كل إيطاليا يجب أن تقدم أرباحا دسمة لصالح ابن الريف الضعيف. كما وجدت الكثرة من أبناء الحواضر مصالحها. ويلاحظ أبيان أن غراكشوس فتح هذه الورشات، "يهتم بأغلب العمال والكادحين من كل الشرائح". وببناء أهراءات واسعة عامة في روما، لتعبئة الحبوب المستوردة من وراء البحار، وتنفيذا لـ"قانون الحنطة" الذي أتى به غراكشوس للاقتراع وأقر، استفاد سكان المدن من توزيع القمح شهريا، بسعر معقول ٦,٣٣ آس لـ(٨,٧ ثمنية من الطحين)، بواقع ٥ ثمنيات للمواطن. حسن هذا التدبير كثيرا من شروط حياة الشعب البسيط. واهتم كايوس غراكشوس كثيرا بكسب الفرسان لمعارضة مجلس الشيوخ: مرر لهذه الغاية الـ"قانون القضائي"، بموجبه يؤخذ القضاة من الفرسان وليس كما في السابق من مجلس الشيوخ. وبقانون خاص "في إدارة الإقليم الأسيوي"، وسع ملاك الفرسان وأعطاهم بعض الامتيازات، التي تقيهم من مزاحمة التجار الشرقيين الذين ينافسونهم جباية الضرائب في هذا الإقليم الغني، واحتكار مشاريع الدولة، إلخ. وقدم مشروع استثمار الأقاليم في مصلحة جماهير المواطنين الرومان، وشرع ببناء (باسم جونونيا) مستعمرة على انقاض قرطاجة؛ وطرحت أيضا قضية حق ابن المدينة للحلفاء اللاتين والإيطاليين.

بفعل هذه التدابير، حسب عبارة أبيان، "انقلبت حتى أسس الدولة الرومانية" (الحروب الأهلية، ١، ٢٢). لم يصن مجلس الشيوخ سوى سلطته الأخلاقية، إنما القوة والنفوذ كانا بيد الفرسان والشعب. تعددت مجالس الشعب جدا، وكثيرا ما أشار الخطباء إلى أن النظام الأرستقراطي استبدل بالديموقراطية. وهم يلقون خطبهم في الميدان العام، كانوا يديرون

ظهرهم لمجلس المشيخة، حيث يقيم أعضاء مجلس الشيوخ، ليخاطبوا الشعب (بلوتـــارك، كايوس غراكشوس، ٥). إن دور هـــؤلاء القـــادة، المحــامين العــامين، وبخاصـــة، دور غراكشوس، كبير فورا. توزعوا فيما بينهم بالقرعة مصير تنظيـم مســتعمرات مــا وراء البحر، ونهض غراكشوس، فضلا عن هذا بإدارة الشؤون المتعلقة بالمســـتعمرات: "كـــان يمشي محاطا بلفيف من المقاولين، المهنيين، السفراء، الرجال المحليين، جنــود وعلمــاء، محدثا كلا منهم بود وترحاب" (بلوتارك، ك.غراكشوس، ٦). لقد صـار محـــامي الشـــعب الحاكم الأول في روما.

على ذلك، كان كايوس غراكشوس يزدري مكانة مجلس الشيوخ والنبلاء، التي ماتزال قوية، جوزة تكسر الاسنان. ولقد سعى النبلاء، حسب كلمة بلوتارك، لإبعاد النـــاس عــن غراكشوس إلى وعود كاذبة تماما بل مخادعة، واستسلموا إلى حمأة الديماغوجيا. كان أحــد زملاء كايوس غراكشوس في مؤسسة المحامي العام، ليفيوس دروسوس، "يترك لمجلـــس الشيوخ ممارسة منصبه كمحام عام" (بلوتارك، ك.غراكشوس، ٨). اقترح تأســيس حتــى اثنتي عشرة مستعمرة في إيطاليا، رغم عدم توفر الأرض، فلم يكن مشروعه إذن ســوى محاولة ديماغوجية لكسب عطف المواطنين بوعود جوفاء. وحين اقترح غراكشـــوس إعطــاء حق المواطنة للحلفاء الإيطاليين، نصح القنصل فانيوس نفسه، رغم انه مــن أنصــاره، نصــح الشعب عدم الاقتراع لصالح القانون لأن الآتين الجدد سيقاسموننا القمح والميادين في الفوروم.

كان لهذه الحملة الحاقدة أثرها: فقد كايوس غراكشوس نفوذه وحظوته لدى الشعب: لم ينتخب ثالثة إلى منصب المحامي العام، ونجح الطرف الأرستقراطي بتمرير قنصل رجعي عتيق، هو لوسيوس أو بيميوس. ورفض مجلس الشعب حق المواطنة للحلفاء وقرر مجلــس الشيوخ خطر بناء مستعمرة على "أرض قرطاجة الملعونة". وعلى أثر صدام حدث فـــي الشارع بين أنصار وخصوم غراكشوس، قتل في أثنائه واحد من حاملي فؤوســـه، اســتغل أوبيكيوس الحادث في مجلس الشيوخ، مدعيا أن أعداءه يحرضون على ذبـــح الموظفيــن العامين. تشبث مجلس الشيوخ بغبطة بهذه الذريعة، ووظف أوبيميوس فـــي ســلطة غــير محدودة، وانطلق هذا الأخير إلى اضطهاد الحزب الشعبي بتوحش. لكن فولفيوس فلاكوس، الأجرأ والأصلب من غراكشوس، سلح رجاله واحتل آفاتـــان، المركـــز القديـــم لحركـــات الدهماء. واقترح على الأرجح، ولو متأخرا، دعوة الشعب إلى التمرد. لكـــن، كمـــا يقـــول

بلوتارك، لم يشأ غراكشوس أن يتسلح، وخرج من بيته، بثوب القضاة، وكالعادة، ذهب إلى الميدان العام، ليس معه سوى خنجر صغير في نطاقه "بينما يحقق الخبثاء العدالة بالحديد والعنف". "لم ير أحد كايوس يقاتل"، رغم أنه متميز بالبسالة. هاجمت قوات أوبيميوس الآفاتن. قتل غراكشيوس وفولفيوس فلاكوس أثناء الفوضى والانكسار واشترى رأسيهما المبتورين بوزنهما ذهبا (في العام ١٢١). ثلاثة آلاف "شعبي صرعوا في أثناء المجازر الوحشية التي تتالت، وتوقفت الحركة الديموقراطية إلى حين بسبب الانتقام غير المعروف الذي بدأه النبلاء، متحررين من خوفهم بعد النصر.

هكذا انتهى العهد، الإصلاحي الأول، من الحركة الشعبية في روما، المحكوم عليه بالإخفاق بسبب التكتيك الحذر جدا والمعتدل جدا الذي مارسه قادته،وسياستهم التصالحية والتوافقية. بعكس قادة حركات العبيد، أولئك الذي قادوا الشعب كانوا رجال مواجهة، "رفاق طريق" بمعنى ما، من أرومة نبيلة، والذين لم ينقطعوا أبدا عن إيدولوجيته. بهذا بدلا من دفع الحركة إلى الأمام كانوا يكبحونها. كانت المحصلة الأولى لنشاطهم إبراز الدرس السياسي الذي نجم عنه، أي بالاصلاحات التشريعية التي سنها مجلس الشعب، يستحيل سحق سلطة الأرستقراطية الوطيدة التي لاتتردد أمام أي وسيلة للدفاع عن سلطتها. إن الأخوين غراكشوس ساهما رغما عنهما بتسعير النضال السياسي وإيقاظ الوعي السياسي لدى الجماهير الشعبية، التي انتقلت إلى تكتيك أرفع وأصلب عودا.

ماريوس: محاولة دكتاتورية عسكرية ديموقراطية

بعد موت كايوس غراكشوس، حكمت روما رجعية شرسة خلال عشر سنين. وضع المنتصرون في خدمة ظفرهم لتوطيد وضعهم أراض مغتصبة من الأملاك العامة وتوقعوا كل محاولة تهدف توزيعا جديدا. وبحسب قوانين بابياوتوريا اعتبرت كل الأراضي المحتلة والاسهم التي وزعتها اللجنة الزراعية ملكية خاصة لمن كان قد تمتع بها، وحلت اللجنة. بناء على هذا الواقع تتابعت حركة رفع اليد، التي كان الفلاحون ضحيتها، من جديد، كما أشار أبيان (الحروب الأهلية، ١، ٢٧): "حاز الأغنياء من جديد حصة الفقراء، أو انتزعوا بالقوة، تحت مختلف الذرائع"، الأمر الذي كان يلهب هياج المملقين.

سارع النبلاء المنتصرون لاستغلال جبروتهم وليغتنوا بالطرق الأكثر تكالبا وسفاهة: أبدا لم يمارس الابتزاز، الاختلاس، شراء الضمير العام على يد الحكم، بهذه الوقاحة

والانحطاط. وكانت العائدات الاحتيالية توفر حياة بذخ لامثيل لها يعيش المبتزون فوق مستواهم، لئلا يبقوا وراء الآخرين. وإن اضطروا للاستدانة، بحثوا عن مصادر غير مشروعة للإثراء.

بدأ تفكك النبلاء الحاكمين ينعكس على وضع روما الخارجي. فرغم سعة مواردها المادية والحرب، عجزت الجمهورية، خلال ست سنين (١١١- ١٠٥) أن تضع حدالمليك آبق مثل جوغورثا *Jugurtha*، بعد أن ذبح ذويه وسلب ثرواتهم، كان يدمر منهاجيا الجنرالات أبناء النبلاء الكبار الرومان، الذين أرسلوا ضده عدة حملات كان على رأس إحداها -لوسيوس أو بيميوس هذا الذي قمع بوحشية أنصار كايوس غراكشوس.

كان هؤلاء الجنرالات المباعون يتظاهرون بمحاربته؛ لكنهم كانوا يقدمون لجوغورثا، عند الضيق فرص النجاة، يعيدون له من سجن من أتباعه والسلاح والفيلة التي استولى عليها. زار جوغورثا مرة روما حيث استخدم كل مواد التخريب وقال وهو يرحل: "مدينة للبيع، من يشتري!" كانت شعبيته واسعة جدا لدى السكان الأصليين من شمال إفريقيا الذين يكرهون الفاتحين الرومان بحيث هددت الولاية الإفريقية.

وفي العام ١٠٩ أرسل ضد جوغورثا رجلا نزيها، ومن أسرة نبيلة، كوانتس كاسيليوس، ميتليوس، الذي أنزل بخصمه هزيمة قاضية على ضفاف ميتول، لكن الأمور تمت بتهاون وغفلة فلم ينجح ميتلوس بتحقيق نصر حاسم. والمؤرخ الروماني سالستيوس كرسبس، معاصر يوليوس قيصر، قص بالتفصيل هذه الفضيحة "حرب جوغورثا"، الذي كشف الانحطاط الأخلاقي، وعجز وضرر الأولغارشية المشيخية المفككة، المشتتة.

في الشمال لم يكن الوضع أفضل. بداية، طيلة الأعوام ١٢٠، كان الرومان قد أتموا شؤونهم بتفوق واحتلوا الغول الترازالبين الغنية. وفي العام ١١٨، بعد نصرهم على الأولبروج والأرفيرن، أسست مستعمرة رومانية هامة في مكان مدينة ناربون، المدينة القديمة المحصنة، وولاية جديدة ولاية غول نربونيز، فوق الارض الواسعة الكائنة بين الألب والبرينيه. لكن بعد العام ١١١، خضعت نربونيز لغزوة مدمرة على يد السامبر،الشعب الجرماني، الذي ضم قبائل من العرق السلتي-تونون، أبرون وتغورين. وبعد أن صرع ثلاثة قناصل ومشرع، أباد سنة ١٠٥ جيشين كبيرين قرب أروزيو (أورانج)؛ يوم سقط ٨٠ ألف روماني، كما في معركة سانس الشهيرة.

ساهمت هذه الظروف كلها ببعث حركة ديموقراطية جديدة وتكاتف قوى المعارضة: الفلاحون، فقراء المدن والفرسان. على ذلك، واستنارة بفشل التكتيك الدستوري الذي اتبعه الأخوان غراسك وأكثر فأكثر اغتياظا من تجاوز وتحكم المنتصرين، كان الشعبيون الآن يمتلكون وضعا أرسخ: كانوا يبحثون عن جندي مندفع وجدير، واحد منهم، يوقف النكبات والهزائم في ساح المعركة ثم، بنفس السبل القتالية، يحقق الإصلاحات الداخلية.

وجدوا هذا الرجل في كايوس ماريوس، محامي عام سنة ١١٩، ابن فلاح من المدينة اللاتينية أربنوم. كان ريفي التصرف وقليل الثقافة، أدهش الشعب ببساطته كجندي، بطريقته في مخاطبة الناس وأيضا بمواهبه الطبيعية وجرأة طروحاته الديموقراطية. وسرعان ما صار ماريوس معشوق الشعب. مؤلفا من فرسان، تجار، مهنيين وفلاحين، باسم ماريانست -أنصار ماريوس- دعم ترشيحه إلى كل الانتخابات ورفعه إلى أرفع الأمجاد. وبعد أن مارس مهمة الحاكم، خدم ماريوس كمحافظ في اسبانيا. ثم أوصى لمتلوس في نوميديا، وفي العام ١٠٧، انتخب قنصلا، مع تكليف عاجل لإنهاء الحرب ضد جوغورثا. بدءا من هذا العام، وبفعل شعبيته المتنامية، أعيد انتخابه ست مرات متوالية، الأمر الذي لم يحدث بعد في روما. هكذا فتح هذا العهد لست سنوات خلالها ساد في روما الديموقراطيون الماريانيست، الملتفون بحميمية حول قائدهم الجديد.

بفعل المتطوعين الذين انضموا جمهرة إلى جيشه، أنهى ماريوس خلال ستة أشهر، حوالي خريف ١٠٦، بمعركتين نظاميتين، الحرب ضد جوغورثا التي تركتها الحكومة الأرستقراطية تجرجر ست سنوات. وبعد ستة أشهر، نجح لوسيوس كونليوس سيلا، وزير مالية ماريوس بالقبض على جوغورثا في أثناء حملة جريئة على مؤخرات العدو. تابع القائد الأبق الذي اقتيد إلى روما، وعليه كل الشارات الملكية، ظفر ماريوس، وأعدم في أسفل الكابتول.

في العام ١٠٤ كلف ماريوس بالقيادة العليا للحرب ضد السامبر والتولون، الحرب التي كانت موضع اهتمام فريد لدى العناصر الديموقراطية، لأن الولايات المهددة كانت بالضبط هي الأهم عند الجماهير الشعبية، وبخاصة، الغول السيزالبين بمستعمراتها الزراعية؛ على ذلك كان الرعب مخيما على روما. لذا أعد ماريوس بكل عناية هذه المعركة خلال عامين.

وفي هذه الفترة، على الأرجح، أنجز إصلاحه الحربي الشهير الذي دون منذ زمن بعيد في برنامج الحزب الديموقراطي (كما تثبت بعض تدابير ك.غراكشوس). من جهة ليخفف عبء الخدمة العسكرية، بدأ الجيش يتقاضى راتبا منتظما، فضلا عن تزوده بالسلاح والطعام على نفقة الدولة، الأمور المذكورة في قانون كايوس غراكشوس. كان المشاة يتقاضون ١٢٠٠ آس في العام، وضعفهم، ٢٤٠٠آس، لقائد المائة، و٣٦٠٠آس للفارس. ومن جهة أخرى، عدل منهج التجنيد لمصلحة الفلاح. ولتشكيل الأفواج، وجه دعوة أولا للمتطوعين، الذين يأتون زرافات، تضم بخاصة العناصر غير المالكة ولاعمل لها عند بروليتاريا المدينة، وهذه كانت فقط لإتمام الصفوف، وعند الحاجة، يسعون إلى التجنيد. وهكذا تحولت الميليشيا الشعبية القديمة إلى جيش محترف ومرتزق، بالفعل، لم يتحول بعد إلى جيش دائم. ومن وجهة النظر التقنية، أنجزت إصلاحات هامة أيضا: خلقت وحدة جديدة تكتيكية مستقلة: كتيبة مؤلفة من ثلاث فصائل أو أكثر. وكل فوج مؤلف من عشر كتائب، ٣٠فصيلة، ٦٠ مئوية، ببنية منتظمة ودقيقة. ودعما لسلاح الأفواج المحاربة: ضم عددا كبيرا من آلات الحرب، والقوات "القدوة" وغيرها.

فضلا عن هذا كانت هذه الإصلاحات ذات نتائج اجتماعية ضارة: تقليص تسليح السكان المدنيين، وإبعادهم عن الحياة العسكرية، الإغضاء عن عادات القتال، بينما كانت تولد يوجد إلى جانب وخارج جماهير المواطنين قوة مسلحة رهيبة من الجنود المحترفين المهرة بفن القتال. إن هذا الفصل بين الجيش والشعب يسفر عن أصداء مدمرة لدى كل أقنية الحركة الديموقراطية في روما.

في العام ١٠٢، أتم ماريوس استعداداته، وعلى رأس جيش ضارب، خاض الصراع ضد السامبر وحلفائهم. وفي معركة دامت يومين قرب أكس، المستعمرة الرومانية الصغيرة في شمال ماسيليا، تحدى حشود التوتون، الذين حاولوا غزو إيطاليا من الشمال، ثم بعد أن احتل غول سيزالبين، مشى لمواجهة السامبر، الذين تغلغل أكثرهم هنا عن طريق ممرات الألب. وآلت المعركة الضارية التي دارت في حقول فيرسيل (غرب ميلانو) إلى إبادة هذه الأمة. سقط أكثر المقاتلين؛ سجن ٦٠٠٠٠ وبيعوا كعبيد، ووقع كذلك ٩٠ ألف توتون وغيرهم في أيدي الرومان.

وبينما كان ماريوس ينتصر على السامبر والتوتون، أنجز معاونه، القنصل مانيوس

أكيلييوس مهمته، في العام ذاته مع التمرد الثاني لعبيد سيسيليا، الأمر الذي أفضى إلى اتساع شعبية ماريوس بشكل لامثيل له: فسمي "منقذ روما"، "رومولس الثاني"، وتوقع منه الناس إصلاحات اجتماعية جريئة. قاد هذه الحملة بعبقرية نادرة واحد من أقدر قادة الحزب الديموقراطي ل.أبليوس ساتورنينوس، محامي عام مرتين (١٠٣ و١٠٠)، وهو الذي قدم يد العون غير مرة لماريوس في الانتخابات. وفي العام ١٠٠ق.م، قدم ساتورنينوس مشروعا ضخما أعده مع ماريوس كان يشكل تطورا لتشريع الأخوين غراسك الزراعي. نص على إقامة عدد كبير من المستوطنات في الأقاليم وأولا في غول نربونيز التي أخليت من السامبر والتوتون، ثم أيضا في إفريقيا، سيسيليا ومقدونيا. وأعطاء ١٠٠ جوجورا للأسرة، أولا الجنود، ثم المحنكون ورفاق سلاح ماريوس، ثم على المواطنين الرومان، وأخيرا حتى على حلفائهم الإيطاليين. ولئلا يصير هذا القانون إلى ما صارت إليه إصلاحات الأخوين غراسك، طلب من مجلس الشيوخ أن يقسم يمينا على تنفيذه.

نوقش المشروع في مجلس الشعب في جو متوتر جدا. كان الشعبيون أنفسهم منقسمين بشأنه. كان مدعوما بحزم من أبناء الأرياف، وبخاصة، الإيطاليين، الذين خدموا مع ماريوس وبإمرته وكانوا لأول مرة على قدم المساواة الحقوقية مع الرومان. تجمعوا بأعداد ضخمة في روما، بدعوة من سعاة بريد خاصين، بمبادرة أبوليوس ساتورنينوس. وفي روما بالذات، بالعكس، كان الشعب المعتاد على سيطرة إيطاليا، ضد المشروع "لأنه يؤمن مصالح الإيطاليين". يكتب أبيان أن معركة حقيقية دارت في الميدان العام ***Forum*** حول صناديق الاقتراع بين أبناء الأرياف الطليان وأبناء المدن (أبيان، الحروب الأهلية،١، ٢٩-٣٠).

عدا ***les optimates***، المعارضون طبعا، كان الفرسان خصوم المشروع الرئيسيين هم؛ وبالفعل كان مشروع رفع قيمة "أملاك الشعب الروماني" بالاستثمار على نطاق واسع، واستجلاب حشود من المواطنين الرومان والطليان، كان تماما في غير مصلحة المزارعين العاملين والمرابين الذين يشكلون الصف الفروسي. وعداوة الفرسان للكتلة الديموقراطية وانشقاقهم عنها ألزم ماريوس، الذي شكل ثروة واتحد مع النبلاء بزواجه من أخت يوليوس قيصر، على تغيير موقفه. وكان ماريوس أصلا، متحالفا بشكل صميمي، قبل هذا الزواج، مع الجناح اليميني من الحركة الديموقراطية، الذي شكله الفرسان، وبعد الزواج مال إلى تفاهم وصلح مع مجلس الشيوخ. وهكذا ساهم بتسريع تفكك الحزب الديموقراطي وتشجيع

سحب الثقة من قائده، بين الأعضاء الأكثر تطورا ونشاطا في هذا الحزب.

لقد نتج عن انتخابات العام ١٠٠ أزمة حاسمة. تراجعت شعبية ماريوس، حتى أن الشعبيين دعموا ترشيح الحاكم س.سرفلس غلوسيا، إلى مجلس الشيوخ الخطيب المتألق واحد أبرز أنصار ساترنينوس. ومع أبيليوس، انتخب محاميا للشعب المغمور ل.إكتيوس، العبد السابق الذي عرف انه ابن تيبريوس غراكشوس. كان النبلاء والفرسان قد قدموا مرشحيهم الذين استقبلهم الشعب بالعصي، وقتل ميميوس، أحد مرشحي النبلاء، بهذه الطريقة. وتحول الصراع الانتخابي إلى تمرد مسلح حقيقي، بمساندته نجح أبيليوس ساترنينوس، غلوسيا، ابن غراكسوش المزيف "والريفيون" بدعم من جنود ماريوس، من احتلال الكابيتول. فأعلن مجلس الشيوخ أن الدولة في خطر، وكتب إلى القناصل الديموقراطيين ماريوس وفالريوس فلاكوس لاتخاذ تدابير استثنائية، كفتح الترسانات، وتسليح كل "المواطنين الطيبين" وقمع التمرد.

وبشهادة شيشرون، "مجلس الشيوخ كله... ووراءه الفرسان، حملوا السلاح، وانضم إليهم كل الحكام، وكل شباب علية القوم بالولادة" (من أجل رابيريوس السابق، ٢٠-٢١)، وأحيطوا، طبعا، بأتباعهم، بمواليهم ومن أعتقوا من العبيد. وأرسل رماة نبال كريتيون، جمهرة مرتزقة للهجوم على الكابيتول. وعندما استسلم المحاصرون، لم يشأ ماريوس، الذي نفذ قرار مجلس الشيوخ على مضض، أن يموت أنصاره السابقون فاكتفى بحبسهم في مبنى مجلس الشيوخ. لكن أبناء الأسر النبيلة، الذين رأوا في هذا العمل حيلة بل خديعة، صعدوا إلى السطح، ونزعوا القرميد، ورجموا الأسرى، وكان أبيليوس بينهم: كان قاتل هذا المحامي العام الفارس الشاب المدعو رابيريوس.

بعد هذا القمع الثالث للحركة الشعبية وهذه المجزرة لقادتها، سقطت الحركة في سبات لعشر سنوات. فقد خسر ماريوس نصاعته الشعبية، بعد أن تراجع عن مواقفه فانسحب مؤقتا من الحياة الشعبية وسافر بحجة زيارة معابد الشرق. لكن الأمر لم يكن أكثر من هدأة واستراحة، سبقت انفجارا أشد هولا، زعزع هذه المرة ليس فقط روما، بل كل إيطاليا وحتى الأقاليم. عرفت هذه المرحلة الثالثة من الحركة الديموقراطية في تاريخ روما باسم الـ"حرب اجتماعية".

الحرب الاجتماعية في إيطاليا وانتفاضة أقاليم الشرق

لقد شد النضال الاجتماعي إلى فلكه جماهير من الشعب الإيطالي تزداد أبدا. وبالفعل كان ينيخ على الحلفاء الطليان وزر الخدمة العسكرية في الجيش الروماني، بينما كانوا محرومين من توزيع القمح ومن استئجار الأرض. ولقد أجبر غضبهم المتنامي قادة الديموقراطية الرومانية، كايوس غراكشوس، فولفيوس فلاكوس وأبيليوس ساترنينوس على طرح "القضية الاجتماعية"، أي توسيع حق المواطنة للحلفاء الطليان.

بدءا من السنة الأولى من القرن الأول، تأهب الطليان أنفسهم للنضال الواسع المكشوف. وفي التسعينات رأينا، تحت اسم "إيطاليا"، تشكل حلف سري، يمد فروعه في كل اتجاه، ويتواصل أعضاؤه بواسطة سعاة البريد، ويتبادلون الرهائن، ويكدسون السلاح والمناهل لكي يرفعوا علم التمرد على روما.

إن مبادرة ديماغوجية صاخبة من المحامي الشعبي م.ليفيوس دروسوس الابن، ابن عدو كايوس غراكشوسن سنة ١٩، حتمت عليهم التصرف أخيرا. وكان دروسوس، ممثل الفرع النبيل، المعتدل والميال إلى الامتيازات، يسعى لرفع سلطة ونفوذ الأرستقراطية المحطمة باختيار بعض المصالحات الجزئية. ولإتمام التوافق العام وتهدئة الخواطر، اقترح بداية إصلاحا واسعا في مجلس الشيوخ والمحاكم. فمجلس الشيوخ يجب أن يتألف من ٣٠٠ عضو من النبلاء و ٣٠٠ عضو من الفرسان، ومنهم يجب اختيار القضاة. وفضلا عن هذا، ولجعل الجماهير الشعبية أكثر قبولا لفكرة هذه الحكومة الجديدة المختلطة، لابد من توزيع القمح بسعر منخفض على مؤسسات المستعمرات الجديدة في إيطاليا وسيسيليا، واقترح أخيرا منح حق المواطنة لكل الحلفاء الطليان، بتسجيلهم في القبائل العشر الجديدة التي وجدت لهذه الغاية. لكن مشروع دورسوس لم ينتج سوى إثارة الغليان لدى كل شرائح المجتمع الروماني والطلياني، حيث لا أحد يريد، سوى محركي هذه الإصلاحات، سماع الحديث عن توافقات ومصالحات. فاضطر دروسوس، مثل الأخوة غراسك، إلى السعي إلى سبل أكثر ابتكارا: القيام باتصالات مع المنظمات السرية لدى الشعوب الإيطالية، وتبادل معها أيامين المؤازرة المتبادلة. ثم، لما ضرب في عتبة بيته، راح يضطهد منظماتهم، فنشبت الانتفاضة المبيتة منذ زمن.

بدأت في أسكولوم، عاصمة بيسنوم، التي قتل حاكمها وهو يحاول قمع أحد مراكز

الحركة. ثم انتقلت بسرعة إلى شعوب الجوار (مارسس، بلنيان)، وكل منطقـــة ســامنيوم الجبلية، حيث يعيش، فضلا عن الشامينيت، عدد كبير من الغولوا الآتين من شمال إيطاليـا، وتقريبا كل كامبانيا، أبوليا، لاكونيا وكلابر، بلاد يعمرها قوم ضخم من الفلاحيـــن، بـدأت تحس بالفعل أنها مهددة بتوسع الاستثمارات الشاسعة.

انضم إلى المتمردين عدد كبير من العبيد الزراعيين، الهاربين من الأملاك الكـــبرى، وشكلوا حملات كاملة. ولم تلتحق المستعمرات الرومانية المحصنة إخلاصاً لقادة حامياتـها. ولما احتل السشامنيت الضيع الرومانية: كامبانيا، نولا، ستابيا، منتورن، ســاليرن، وقـف المعمرون العسكريون والعبيد فوراً إلى جانبهم وذبحوا الضباط التابعين للعـــائلات النبيلـة الذين رفضوا الاقتداء بهم. وحدث نفس الأمر في أبوليا، حيث كان المتمرديـــون يعملـون بقيادة جوداسللوس.

ارتدت الانتفاضة خواص الحرب الداخلية الضارية التـــي سـميت فـي الحوليـات الرومانية الحرب الاجتماعية. لم يكتف المتردون بتشكيل جيش نظـــامي مـــن ١٠٠ ألــف رجل، على النمط الروماني، وضعـــوا بقيـادة *deux imperotors*، المارســي كوانتـس بومبديوس سيلو والسامنيت ك.بابيوس موتلوس، بل أسسوا حكومة فدرالية إيطالية. أخـــذت عاصمة لها كورفنيوم، عند البلجيان، حيث يقوم مجلس شيوخ من نـــواب كـل الشـعوب المتمرد، وكلفوا ١٢ حاكماً بالشؤون الإدارية والقضائية، وحيث ســتلتئم جمعيـة شـعبية إيطالية. وضرب نقد فدرالي يحمل كلمة "إيطاليا"، وصورة الثور، مرافق الفلاح ومسـاعده، ناطحا بقرنيه الكلابة الرومانية المتوحشة المحطمة.

في أثناء ١٨ شهرا الأولى من هذه الحرب (٩٠-٨٩)، تقدم المتمردون بوضوح علـى الجيوش الرومانية المرسلة ضدهم. وتعرض القنصل ب.روتليوس لوبوي، لهزيمة رهيبـة وسقط صريعا في ساح المعركة.وصرع زميله لوسيوس جوليس قيصر. وكانت روما ذاتها عرضة للخطر: إذ وصلت المعركة إلى تخومها المباشرة.

تفاقم وضع الجمهورية لأنها كانت مضطرة لدعم حرب صعبة جـدا فـي الشـرق. وأسفرت الحرب الاجتماعية لسنة ٨٩، عن انتفاضة عمت كل أقاليم الشرق تقريبا. وعلـى شواطيء البحر الأسود تشكلت دولة إغريقية جديدة وقوية، سميت دولة البونـــت ***le pont***. ولدت هذه المملكة في كبادوسيا الشمالية، منذ القرن الثالث، لكنها وصلت ذروتها في عـــهد

مثريدات السادس أوباتور (١١٤-٦٣) وكانت تمتد آنئذ على كل جنوب أوكسن.

كانت تضم في تلك الأيام ارمينيا الصغيرة، كولشيد، مملكة البوسفور التي تسنم مثريدات عرشها بعد قمع تمرد سوماكزس بقيادة معاونيه ديوفانت ونيوبتوليم. وكانت المدن اليونانية على الشط الغربي، أستريا، تومي، ممزامبريا، أبولونيا، أيضا تحت رقابة مثريدات وصكت نقودا تحمل صورته[1].

كان هذا العاهل يرعى جيشا من ٣٠٠ ألف رجل وبحرية حربية من ٤٠٠ مركب، يمتطي متن قسمها الأكبر القراصنة. استغل مثرديات صعوبات روما في إيطاليا، وشن عليها حربا شعواء في العام ٨٩. هزمت قواته بدون صعوبة قواتهم المدعوة على عجل، واحتلت بيثيا والإقليم الروماني في آسيا؛ واحتل أسطوله بقيادة أرشلايس مضائق وجزر بحر إيجة (عدا رودس)، وغز اليونان عن طريق تراثيا ومقدونيا.

استقبلت الشعوب المرهقة بأسلاب واضطهاد الإدارة الرومانية وعشاريها في كل مكان مثريدات وأعوانه كمحررين؛ وانتفضت أثينا قبل وصول قواته. ورغبة في كسب المزيد من تعاطف الشعب، أعلن مثريدات ببياناته الإصلاحات الضخمة الاجتماعية التي كان ينوي تحقيقها في البلاد المتحالفة معه: إلغاء الديون، اقتسام الأرض وعتق العبيد، وبناء على أوامره ذبح الموظفين، المرابين والتجار الرومان في كل مكان وبمساعدة السكان النشطة. صرع في المعركة حوالي ٨٠ ألف؛ وزعت أملاكهم وعتق عبيدهم. وكان مثريدات على علاقة وطيدة مع المتمردين الرومان، الذين وعدهم ان يسارع لمؤازرتهم.

لقد جعلت الأزمة النقدية التي لاسابق لحدتها، والناجمة عن الحرب الاجتماعية وفقدان الأقاليم الشرقية الغنية، جعلت وضع روما في الويل والثبور. صكت الحكومة النقود الفضية بتغطية ثمنها فقط واختفت النقود ذات العيار الصحيح. طالب الدائنون بإلحاح شديد تسديد ديونهم على الفور. ولتخفيف حمل المدينين، اقترح الحاكم أولوس سامبرنيوس أزليو تأجيل الديون المستحقة، لكنه قتل في أثناء إضراب الدائنين الساخط.

وهكذا، حوالي العام ٨٠ق.م، بلغ الصراع الاجتماعي في روما وممتلكاتها ذروته.

---

[1] - خص أبيان هذا الملك بالفصل ١٢ من عمله "التاريخ الروماني" وهو بعنوان "Mithridatica".

الفصل الخامس والخمسون

بداية الدكتاتورية العسكرية العبودية. سيلا

قمع تمرد الحلفاء الإيطاليين

في هذا الوضع المفجع مارست روما لأول مرة، على نطاق واسع منهاجا جديدا في التجنيد، أبدعه ماريوس. تطلبت الحرب قوات جرارة، --١٨ لواء على الأقل حسب بعض المراجع- والسوقات الفلاحية غير مؤمنة. فلجؤوا بسرعة إلى المرتزقة والمتطوعين؛ واستأجروا كتائب كاملة من البربر (غولوا ونوميد)، وبدأوا لأول مرة بتطويع المحررين. لكن جماهير المتطوعين كانوا من عامة الناس، مشدودين إلى الأجور وآمال السلب. ولتدفع رواتب المرتزقة، صادرت الحكومة ثروات المعابد وعائداتها المكدسة منذ أقدم الأزمنة في الهياكل الرومانية. وأخذ الجيش الروماني من الآن الطابع المهني التام وغير الشعبي، الأمر الذي يدل إلى سلوكها في أثناء هذه الحرب الداخلية: كانت المدن الداخلية تنهب،تماما كالمدن الغريبة، ويباع سكانها عبيدا. والجنود لايقدرون عاليا إلا القادة الذين،هم بعيدون عن منع هذا التجاوز المفرط، كانوا هم أنفسهم يشتركون فيه.

لقد حاز لوسييوس كونلوس سيللا شهرة مدوية في أثناء هذه الحرب. حفيد أسرة ضخمة مواطنة مدمرة. ذكي ومثقف، مغامر سياسي يهتم فقط بمكسبه الشخصي وكان مؤمنا بنجمه إيمانا عميقا، وكان سيللا ممثلا نموذجيا لأرستقراطية ذلك العهد المفككة (اقرأ بلوتارك، سيللا). كان في قيادة حملة تأديبية ضد الطليان، سعى بكل السبل إلى شراء الجند، مغريا إياهم بمنح نقدية، مغمضا عينيه عن بعض السرقات؛ الأمر الذي أكسبه شعبية واسعة.

بهذه الجحافل وهؤلاء الجنرالات توصلت روما، في العام ٨٩، إلى تحقيق النصر تحت راياتها. أباد سيللا، في كامبانيا، قرب نولا جيشا ضاربا بقيادة لوسيس كليانتس، أحد أشهر قادة المتمردين، الذي صرع في التحام مع ٥٠ألف رجل من قواته. ثم، بعد أن تغلغل

سيللا في جبال سامنيوم، تحدى جيش السامنيت، واستولى من الحركة على ميدان بوفيانوم المنيع، حيث كانت عاصمة الحلفاء. وأخضع سنيوس بامبيوس سترابو، قنصل عام ٨٩، معشوق آخر للجند، بلد سابان وبسنوم. وهزم قائد حملة الإبادة الثالثة متيلوبيوس ولوكانيا اللتين تعرضتا "لمذبحة رهيبة" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٤٦-٥٣).

مع ذلك لجأت روما إلى الدبلوماسية التي وظفتها بنشاط في بذر الشقاق بين صفوف الحلفاء. ومن العام ٩٠، مثلاً، صرح مجلس الشيوخ أن روما ستمنح حق المواطنة لكل الإيطاليين الذين ظلوا مخلصين لها ولم ينضموا إلى المتمردين (قانون يوليا). وأعطى قانون بلوتيا-بابيريا، في العام ٨٩، لنفس الغاية، حق المواطنة لكل المتمردين الذين يلقون السلاح خلال شهرين، الأمر الذي أفضى أيضاً إلى تفكك الجامعة الإيطالية. كان الأكثر ميلاً إلى الصلح من "الحلفاء" هم ممثلي الأغنياء والفئات العليا، الذين رضوا بالمساواة المدنية مع الرومان، والجدير بالذكر أن المدن الكبرى، حيث يقيم الأغنياء "المفاوضون" الطليان، قد بقوا تماماً خارج التمرد لابل أعادوا سفنهم التجارية للرومان للمساهمة في سحق التمرد. صحيح أن الإيطليين، مسجلون في ١٠ قبائل تكونت حديثاً (يقول البعض إنها ثمانية)، الأمر الذي قضى على نفوذهم السياسي. لم يكن هذا الامتياز قليل الأهمية. فباستثناء السامنيت اللوكانيان والمارسيس الذين لم يصالحوا، ألقى الطليان كلهم سلاحهم في العام ٨٨ وقبلوا الإلحاق والخضوع.

على ذلك، كانت الحرب الاجتماعية ذات مدى بعيد في إيطاليا. فقد تحول التحالف السابق رومانو-إيطالية إلى دولة موحدة، وضع سكانها الأحرار على قدم المساواة، على الأقل بصدد الحق المدني. وصارت كل المدن الإيطالية قادرة على تشكيل بلديات من النمط الروماني وأضحت روما عاصمة الدولة الإيطالية. فضلاً عن ازدياد عناصر الأحزاب المناضلة: وسع النبلاء الطليان صفوف *optimate* والفرسان، بينما شهد الدهماء الرومان نمواً ملحوظاً وتوطيداً بواسطة ممثلي الفئات السفلى من المدن المتحدة.

الانقلاب العسكري الأول ورد الفعل في روما لسنة ٨٨ق.م

لقد خول الصلح الإيطالي حكومة روماأن تباشر الحرب ضد مثريدات وتصدر إلى قمع تمرد الولايات الشرقية. كانت كل القوات جاهزة منذ نهاية الحرب الاجتماعية قد تحشدت في نولا، وكامبانيا، لتشكيل "جيش ضارب للرق"، موقوف على العمل في اليونان

وآسيا. وكانت قوات سيللا التي تميزت بتفرد في الحرب الاجتماعية تشكل القسم الأعظم من العناصر، وقد تلقى سيللا بعد ترفيعه إلى مجلس الشيوخ لهذه الغاية من قبل حزب المشايخ في العام ٨٨، قيادة الحملة إلى الشرق.

لكن المسألة الشرقية كانت تهز بشكل استثنائي الأوساط التجارية والمرابين، الرومان والإيطاليين، الذين يملكون في هذه المنطقة عشرات المشاريع وبخاصة في الولاية الآسيوية. لم تقبل هذه الفئات أن يستخدم سيللا، "نصير ومرؤوس الـ*optimates*، بعد أن ينتصر على مثريدات"، سلطته كقائد عام ليحرمهم احتكار شؤون آسيا. وبالغوا أيضا بإلحاح أن قيادة جيش الشرق لماريوس، الذي كان نصيرهم. كانت هذه أيضا رغبة الشرائح الوسطى والدنيا من المواطنين الطليان الجدد، الذين يكرهون سيللا وجنوده بسبب فظاظتهم. أضف إلى هذا أن جمهرة من الطليان تأذت كثيرا ودمرت في أثناء الحرب الاجتماعية ترغب في أن تسند إليهم مهمة ما في هذه الحملة الواعدة بأسلاب دسمة.

بشكل عام، أحيت حرب الشرق صراع الشرائح في الـ*Forum*، حيث اتسع مدار الحزب الديموقراطي وعزز بمنح حق المواطنة لجمهرة من الـ"أحلاف" السابقين. وليس سوى تحديد الحقوق السياسية للمواطنين الجدد بتسجيلهم في القبائل العشر المكونة حديثا قد عرقل هيمنة العناصر الديموقراطية.

وصارت مسألة المساواة الكاملة بين المواطنين الجدد والقدماء وتوزيع الأولين على القبائل الخمس والثلاثين الأصلية هي القضية الأساس.

وقدم مشروع قانون بهذا المعنى في العام ٨٨ من قبل أحد أنصار ماريوس، الشاب ومحامي الشعب الجريء والديموقراطي بوبليوس سلبسيوس روفوس. كان القانون يمثل أيضا إصلاحا دستوريا عميق الأهمية، محولا طابع مجلس الشعب من روماني بحت إلى إيطالي، بل حاز العنصر الإيطالي فيه الهيمنة. أثار هذا التدبير ، بحق، هياجا لم يعرف بعد في روما، في كل الأحزاب؛ وفي الجمعيات الأولية واللقاءات الشعبية حيث كان المشروع قد رفض، بدأت العصي والحجارة دورها، ولإرجاء الاقتراع، سيعلن القنصلان المنتميان إلى الجناح الأرستقراطي، سيللا وكوانتس بامبيوس روفوس، موعدا جديدا ويبعدوه كل الذين ذكروا دعوة مجلس الشعب الذي يجب ان يبدي رأيه في القانون. مع ذلك أقر قانون سلبسيا ووزع الحلفاء السابقون على كل القبائل الرومانية. وبعيد هذا سن مجلس

الشعب قانونا ينزع من سيللا قيادة جيش الشرق، وسمي مكاركوس مكانه.من هنا، أعطى حق تنفيذ سوقات جديدة، الأمر الذي يحقق رغبة المتمردين السابقة.

لكن خصوم الديموقراطية الواعين تماما الأهمية الحاسمة للحركة، كانوا مستعدين لاتخاذ التدابير الأكثر تطرفا من أجل اتقاء تجميد سلطتهم. وهرب القنصلان سيللا وباميبوس روفوس، من روما بعد أن رفضا الطاعة لما اقترعه مجلس الشعب. عاد سسيللا فورا إلى نولا، حيث وجد جنوده فدفعهم إلى تمرد مكشوف، أما الألوية المعسكرة حول هذه المدينة أعلنت موقفها ضد الحكومة الجديدة. ورجم محامو الشعب الذين أرسلهم ماريوس، وطلب المتمردون من سيللا أن يمشوا على رأسهم إلى روما.

زاغ سيللا عن أي اقتراح أو توافق، وبعد أن احتل كل الأبواب، بدأ هجوما مركزيا على العاصمة، حسب كل قواعد فن القتال. كان الناس يساندون الديموقراطية، وأرسل ماريوس مبشرين يعدون بعتق كل العبيد. ولاقى جيش المتمردين إذن في روما مقاومة يائسة.

يصف بلوتارك (سيللا، ١٢) معركة الشوارع الرهيبة التي دارت آنئذ، فيقول:

"يصعد الناس العزل من السلاح إلى السطوح ويمطرون سيللا بكسرات الآجر والحجارة التي تمنعه من التقدم وترده على أعقابه حتى الأسوار. ويظهر سيللا فجأة في هذا الوقت، وبعد أن رأى ما حدث،، ينادي جنده ليرموا بالنار إلى البيوت، وهو نفسه أخذ مشعلا ملتهبا، ومشى في المقدمة ويأمر رماة السهام قذف السطوح بنبالهم المشتعلة".

سحقت مقاومة تشكيلات الدفاع التي اتخذها الديموقراطيون على عجل، قتل سلنسيوس، ونجى ماريوس وبعض القادة المنهزمين وسقطت روما بيد سيللا وجنده (٨٨).

كان هذا النصر ذا مغزيين. بداية، كان نصرا لجيش جديد على حكومة مدنية: دل الجيش أنه لم يكن درع الدولة الرومانية ولا حامي سيده، وأن إرادته أكبر وزنا من إرادة مجلس الشعب، ومجلس الشيوخ وباقي المؤسسات الحكومية العادية.

وثانيا، إن ما جرى كان نصرا للحزب الرجعي، نصر حزب الأعيان الذي قرر عدم التراجع أمام أي سبيل. كانت أولى التدابير التي اتخذها سيللا تهدف إلى تدمير التنظيمات الديموقراطية وتجميد كل مؤسسات الدولة التي تعبر عن إرادة الشعب. ومنذ صباح احتلال المدينة، دعي الناس المروعون للقاء "مجلس الشعب" الذي تحت ضغط المنتصرين المباشر

سن دستورا جديدا، حرم الشعب من أي دور سياسي ومن أي سلطة. ألغيت قوانين سولبسيوس، وانضم الحلفاء من جديد إلى القبائل العشر المجتمعة.قلص دور المواطنين إلى المرتبة الثانية. وكانت الجمعيات الانتخابية، الأكثر ديموقراطية، ممنوعة، وبقيت فقط المليشيات المئوية، حيث تسود الطبقة الأولى، المؤلفة من الأغنياء. وتراجعت أهمية مؤسسة محامي الشعب إلى العدم، لأن هؤلاء المحامين حرموا من أهم سلاح لديهم، حق الاعتراض. وأخيرا، أدخل إلى مجلس الشيوخ ٣٠٠ عضوا من أنصاره واعتبره الجهاز الأعلى في الدولة. وفرض إحالة كل اقتراح إلى أن مجلس شيوخ وهو من أتباع سيللا، قبل ان يعرض على مجلس شعب تابع وعاجز كالمليشيات المئوية (انظر أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٥٩).

وهكذا عادت الحياة السياسية في روما أربعة قرون إلى الوراء، وانتهت أول محاولة من الديموقراطية المتحدة تبغي إعادة تنظيم الدولة الرومانية على قاعدة إيطالية، انتهت بهزيمة نكراء.

حكومة ل. كورنليوس سينا

على ذلك، كان انتصار الرجعية الأرستقراطية الأول وهما عارضا. إذ اضطر سينا وجيشه أن يغادروا روما في الحال لبدء معركة الشرق، حيث تتوسع رقعة التمرد أكثر فأكثر. كان شعب روما يكره سيللا ونظامه: رفض مرشحوه لمنصب القنصل، وفي العام ٨٧، اختار الشعب عوضا عنهم شخصيات بعيدة جدا عن تحقيق مشاريع ووجهات نظره: تنيوس أوكتافيوس، من عائلة كبرى لكن من طبع سهل العريكة، ولوسيس كونيلس سينا، نصير ماريوس وسلبكوس فعلا. "يذكر أولئك الذين يعتقد أن انتخابهم يؤذي سيللا كثيرا ويذله"، بلوتارك (سيللا، ١٤).

بعيد هذا جرت محاولة رفع دعوى ضد سيللا وإعادة العمل بقوانين سلبسيوس. ولما انتهت بمذبحة شعبية، شنها أنصار سيللا وأتباعهم المسلحين، في ذلك اليوم، إذا استخدمنا عبارة شيشرون، "كان الفورم غاصا بالضحايا وبركة من دماء مواطنينا" (حوالي ١٠ آلاف قتيل)، غادر القنصل الديموقراطي كورنليوس سينا روما مع ستة من محامي الشعب وحشد جيشا لقتال أنصار سيللا. قدمت له مدن الحلفاء المال. وهكذا فعل الكثير من الوجوه، أعداء الهدوء والجمهورية، تركوا روما ليقفوا إلى جانب سينا". (أبيان، الحروب الأهلية، ١،

٦٦). وانضم إليه كل قادة الديموقراطية، ، كينتوس سرتوريس، كايوس ماريوس الشاب، ابن ماريوس، وابن أخيه م.ماريوس غراتديانوس هربا من الموت. وماريوس نفسه عاد من ملجئه في أفريقيا وشكل فيإروري جيشا ثانيا انضوى تحت رايته سكان المدن والريف "الرعاة والحراثون الأحرار" (بلوتارك، ماريوس، ١١).

بفعل انضمام جماهير العوام، في الريف والمدينة، أخذ البرنامج الديموقراطي لتلك الحقبة طابعا راديكاليا مؤكدا. لم يكتف قادته كجدول أعمال الحزب: العدالة التامة في الحقول لكل المواطنين، بل كانوا مستعدين لتحريك سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية (قانون زراعي، قانون الديون). ولأسباب تكتيكية ذهبوا حتى أعتقت أعداد ضخمة من العبيد الذين شاركوا في القضية، دون أن يقصدوا إلغاء العبودية من الأساس.

في أترورري، جند ماريوس "تكنات كاملة من عبيد الريف"؛ وسينا، منذ مذبحة المواطنين الرومان على يد ال*optimates*، في العام ٨٧، دعا العبيد لمؤازرته، الأمر الذي اتخذه مجلس الشيوخ ذريعة ليحرمه من وظيفة القنصل. ولما تم انضواء جيشي سينا وماريوس مع بعضهما، دخلا العاصمة وقطعا وصول المؤونة "...أرسل سينا مبشرين إلى المدينة، ليعدوا بالحرية العبيد الذين أتوا إليه بدافع ذاتي. فانضم عدد ضخم إلى هذا المعسكر". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩٦). وهكذا بدأ العبيد يلعبون دورا هاما في النضال السياسي، الأمر الذي أخاف بعض الشعبيين.

فاضطرت حكومة سيللا شديدة الرجعية أن تستسلم بعد محاولات مقاومة بسيطة؛ فعاد الدستور السابق والسلطة الديموقراطية إلى روما. وانتخب القائدان الشعبيان البطلان قنصلين للعام ٨٦، س. ماريوس للمرة السابعة وسينا للمرة الثانية؛ ولما مات ماريوس بعد شهر واحد، انتخبت مكانه شخصية حزبية وجيهة، هو ل.فالريوس فلاكوس. واعتبر بيت سيللا عدوا، فدمر، وصودرت أرزاقه. وأعلن أصدقاؤه، من الجناح المغرق في الرجعية، أعداء الوطن وأعدموا؛ وصودرت أملاكهم ودمرت بيوتهم. وعرضت رؤوسهم في الميدان العام، إلى جانب منصة إلقاء الخطب. لم يعدم منهم سوى حوالي خمسة عشر زعيما.

غير أن قادة الديموقراطية كانوا بعيدين عن إظهار نفس الاعتدال تجاه العبيد المحررين حديثا، كجنود سنا، الذين كانوا يسعون للانتقام من سادتهم السابقين. "إن سينا الذي منعهم عدة مرات من تكرار الجريمة دون ان يستفيد،طوقهم في ليلة ليلاء وذبحهم عن

آخرهم على يد جيش من الغولوا". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٧٤) تكشف هذه الواقعة عن الوجه الحقيقي لهذه الطبقة من هذه الديموقراطية القديمة العبودية. واتخذت تدابير جريئة في الحقل السياسي لخمس سنوات، دون انقطاع، ٨٦-٨٢، كانت القنصلية بيد قادة الديموقراطيين، البعض متنفذون والآخرون جسورون. انتخب سينا ثلاث مرات متتالية، حتى موته، في العام ٨٤ق.م. واستلم سنيون كاديوس هذا المنصب ثلاث مرات. كان هذا عودة للنهج الذي أرساه ماريوس بين العام ١٠٦-١٠٠، توكيل طويل للقائد الديموقراطي، وفي العام ٨٢، سمي كايوس ماريوس الثاني، ابن ماريوس القديم، قنصلا مع بابريوس كاربون، رغم أنه كان في عامه ٢٧، ولم يستلم أي وظيفة في هرم الحكم. لكن ل.فلاكوس، قنصل العام ٨٦، حقق واحدة من أماني الناس، شرع قانونا يلغي ٤/٣ الديون، بما فيها الأجور، الحمل المرهق للمدقعين. سحب النقد قليل القيمة من التداول واستبدل بقطع عالية العيار، وصار محقق هذا الإصلاح، الحاكم م.ماريوس غراتديانس، حسب تعبير شيشرون "الإنسان الأعز لدى العامة. وفي العام ٨٤، أقر بناء مستعمرة كابو الهامة بمبادرة م.جونيوس بروتوس؛ وكان الشعبيون، يتأهبون، بوضوح، لتحقيق برنامجهم الإصلاحي الزراعي.

لقد خضعت الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة إلى تحول راديكالي، تطبيقا وتنفيذا لمطالب الإيطاليين، لأن هؤلاء الأخيرين شكلوا من الآن السند الأساسي للديموقراطية الرومانية. فأعيد تشكيل الحاضرات الإيطالية على نمط البلديات الرومانية ووزع المدينيون الجدد على كل القبائل التي يحكمها حكام منتخبون، وانتخب إلى مجلس الشيوخ ١٠٠ عضو وكذلك أعيدت مجالس الشعب. وتم هذا في الأرياف حيث أدار "أعضاء البلدية" المنتخبون الشؤون المشتركة. أخيرا جهز جيش جديد للشرق وأرسل، بقيادة القنصل فلاكوس، واحتل الولاية الأسيوية. اجتاز فلاكوس إيبيريا ومقدونيا، عدوتي روما، واتجه إلى البوسفور وخاض عمليات كللت بالنصر ضد متريدات على الأرض الأسيوية. أبدا لم تحقق حكومة روما، التي صارت إيطالية فعلا، حركة بهذه الجرأة، والإبداع والنتائج.

الحرب ضد متريدات. الحرب الأهلية الأولى ودكتاتورية سيللا

لكن خصوم الديموقراطية الرومان والطليان ماكانوا نائمين. كانوا يهاجرون زرافات، ليلتحقوا بجيش سيلّلا العامل في اليونان. كان سيللا وقواته في وضع صعب، وهذا صحيح.

واعتبر سيللا عدوا للوطن، فلم يتلق من روما أي دعم بالعدة أو الرجال، وكان فلاكوس مكلفا بقتاله وقتال ميثرديات وإجباره على الخضوع للحكومة الديموقراطية الرومانية.

في هذه الحال، كانت اليونان كلها تحارب، كان أوسطول ميثريدات راسيا في بيريا، بقيادة خير قائد، أرشلاوس. وكان جيش البونت البري، -أكثر من مائة ألف رجل، وكواكب خيالة عديدة، وعربات حرب، وغيرها- يتقدم عبر ثراسيا، مقدونيا وتساليا، لمد يد المساعدة له. وربما بدا وضع سيللا وجيشه الذي يضم خمسة جحافل، متروكا مهملا من حكومته بالذات، بلا رجاء ولا أمل.

هنا ظهر بصورة متألقة الدور المستقل الذي لعبه الجيش وقادته. قرر سيللا، القائد العام، والمبعدون الرجعيون، الملتجئون إليه، إهمال حكومتهم الرومانية وجعل الحرب ضد ميثريدات الشأن الأهم.

للحصول على المال، فرضوا الرسوم تحكما على الأقاليم اليونانية المستمرة بإخلاصها لروما، تساليا وإيتوليا، ونهبوا الهياكل الشهيرة في أولمبيا ودلفيا وجردوها من ثرواتها المقدسة. والبدائع القديمة الذهبية والفضية أحالوها إلى أجزاء وصهروها ليصكوا منها نقودا ويضعون عليها رأس سيللا عوضا من رأس الإلهة روما. وزعوا بكرم وفوضى هذه المناهل الثرة على الجند، الذين سموا سيللا السعيد: "امبراطورا". حشد سيللا وأنصاره في صفوفهم حشدا من المرتزقة اليونان المستعدين للانضمام إلى جانب أي طرف، فقط من أجل الغنائم. وأرسل سيللا المحتاج لأسطول إلى شرق البحر المتوسط مساعده ل.لسنيوس لوكوللس، ليستأجر مراكب القراصنة الكريتيين، السيلزيين والفينيقيين، ولكنهم لم يتفقوا.

قاد سيللا بعناده المعروف حصار أثينا والبيريا، مركز التمرد في اليونان، رغبة في الانتهاء من هذا الحصار قبل وصول جيش البونتيك من الشمال. ولما أضنى الجوع أثينا، سقطت، "مذبحة رهيبة دون رحمة بدأت.. لم يوفروا امرأة ولاطفلا، أمر سيللا بقتل الجميع عشوائيا" (أبيان، ميثريداتيكا، ٣٨). وسلمت هذه المدينة، الغاصة بالكنوز الغنية، للنهب، وخضعت بيريا للمصير ذاته، فأحرقت ودمرت. ثم، خلال معركتين نظاميتين في بيوتيا وشيرونيا وأرشومين، هزم سيللا، الذي عزز جيشه وصار عشرون جحفلا، هزم جيشين جرارين بونتيين، مطهرا هكذا اليونان كلها من قوات ميثريدات. وعن طريق شواطيء ثراسيا، عبر إلى آسيا، حيث وجه ضربة قاصمة بمثيريدات، الذي خارت قواه نهائيا.على

هذا، لم يعد سيللا وأصدقاؤه الرجعيون يهتمون بمثيريدات، بل بمستقبل جيش الديموقراطية الرومانية في آسيا والوضع في روما. وليطلق يديه ويحرر موقفه اشترى سيللا الحاكم أرشلايوس، وعن طريقه عقد معاهدة مع مثريدات، في العام ٨٥؛ في داردنوس على هللسبونت[1]. التزم ميثريدات بموجبها بدفع تعويض ألفي تالانت، ولقاء هذا، حافظ تماما على مملكته البونت كلها، مع لقب "صديق وحليف الشعب الروماني".

بعد توقيع هذ الصلح المذل لروما مع عدوها الأزرق، مشى سيللا ضد الجيش الروماني في آسيا، وطوقه في ضواحي برغام. رفض جنود هذا الجيش، الذي يمزقه الشقاق منذ زمن، ان يقاتلوا قوات سيللا وانضموا إلى جانب هذا الأخير، لاسيما بمكافأة مرتزقته. وهكذا خسرت روما هذه الولاية الأسيوية من جديد، وصار سيللا سيدها، مع مجلس شيوخ غير شرعي، شكله الرجعيون. تحملت هذه المنطقة الغنية نفقات مدمرة لصيانة عسكر سيللا وعانت ابتزازا واغتصابا لم يعرف لها مثيل: اضطرت أن تدفع الضريبة المتخلفة طيلة سنوات الحرب الخمس وتعويضا من عشرين ألف تالان، أي أكثر بعشر مرات من تعويض ميثريدات.

بعد أن أنهى شؤونه في الشرق، مشى سيللا إلى روما، في العام ٨٣ق.م، بجيشه وأسطوله الجبار. ولدى انتشار خبر إبحاره من برزوديوم، هبت إيطاليا كلها، ملتفة حول الحكومة الديموقراطية الرومانية: وخلال أيام تشكل جيش جرار للدفاع عنها، يعد استنادا إلى البعض ٢٠٠ كتيبة، واستنادا إلى آخرين حتى ٤٠٠ كتيبة (من ٢٠-٤٠ جحفلا)، بقيادة ١٥ جنرالا، حسب رواية سيللا نفسه.

اضطر سيللا وقواته إلى نضال دام سنة ونصف لسحق هذه المقاومة.

يرجع نصر سيللا وانصاره بهذه الحرب الأهلية القاسية، ٨٣-٨٢، إلى جملة من الظروف الملاءمة لحزبه في تلك الشروط. فمنذ نزوله في برونديزيوم، بدأ جيش سيللا يكبر بسوقات جهزتها على نفقتها العائلات الرومانية الكبيرة، كانت تتوافد نحوه من كل صوب. وانضم إليه متللوس بيوس،أشرس صانع صلح في الحرب الاجتماعية، بكل جحافله. والتحق به الشباب الأرستقراطي بحماس غامر. وقاد إليه الشاب ماركوس

---

[1] - الاسم القديم للدردنيل-المترجم.

مراسوس، الذي قتل أباه وأخاه الديموقراطيان، جمهرة من المرتزقة الأسبان؛ وقدم له الشاب سنيوس بامبيه، الذي يمتلك أملاكا واسعة في بيسنوم، خدماته لسيللا على رأس لواء كـامل، طوع من أتباعه. وبفضل مساندة أغنى الشرائح، صارت خزينة سيللا بما لايقـاس أكـثر جاهزية من جاهزية الحكومة الديموقراطية، التي أرهقتها الاضطرابات لمدة سنوات. استغل سيللا بمهارة هذا المكسب لتفكيك القوات غير المتجانسة، وغير الواثقة بنهوض الجمـاهير الديموقراطية. كان الجنود ينفرون من الذهاب إلى الحملات البعيدة ولا يريدون الدفاع عـن أوطانهم.

قبل إبحار سيللا إلى إيطاليا، حاول سينا أن يتجه لملاقاته في إليريا، لكن قسـما مـن جنوده كانوا قد تمردوا، لحظة الإبحار إلى إنكون، ورجموا بالحجارة هذا القائد البطل مـن الحركة الديموقراطية.

جرت العمليات بصورة مأساوية بالنسبة للديموقراطيين في جنوب إيطاليا: بخسـارة محدودة، نجح سيللا من بدء المعركة أن يهزم قسما كبيرا من قواتها، وأن يحاصر جيـش ماريوس الشاب في برينست، ويجمده حتى نهاية الحرب. كان سيللا قادرا إذن أن يحتل كل إيطاليا الجنوبية تقريبا، وأن يستولي على روما وأن يطرد خصومه إلى شمال إيطاليا، حيث كان يقوم خليفة سينا، بابيروس كاربون، قنصل العام ٨٢، بمقاومة شاقة وصلبة.

من الجميع، كان السامنيت هم الذين قاتلوا بكل حزم وعناد، مدركين جيدا أن شـعبهم الذي لعب دورا جيدا في الحرب الاجتماعية، سيعامل بدون رحمة من قبل سيللا والرجعيين الرومان. فاتجه جيش ضارب من السامنيت بداية إلى برينست، بقيادة بونتيوس تلزنـوس، لإنقاذ ماريوس الشاب، لكنه وقد فشل المشروع مشى بمناورة جريئة مستقيمة الى رومـا، بهد تحريرها من المحتل سيللا. وفي أثناء المعركة الضارية بل المستميتة التي دارت أمـام باب كولين، صد سيللا، لكن كراسوس، بضربة مفاجئة لمجنبة ومؤخرات السامنيت الذيـن خرقوا جبهة سيللا، أنقذ قائده وأنهى المعركة بإبادة العدو. حوالي ستة آلاف سامنيتي كـانوا قد استسلموا وسيقوا إلى السيرك وذبحوا جميعا. وبعد هذا خضعت سامنيوم كلها لدمار كان يذكر بعد قرن بالصحراء.

انتهت هذه الحرب الأهلية الطاحنة أخيرا، في العام ٨٢ق.م. وحل محـل الحكومـة الديموقراطية نظام الإرهاب العسكري المنتصر والرجعيون الرومان الملتفون حوله بعنـاد.

لقد تجاوزت المذابح المخيفة كل تخوف. "نشر سيللا الموت في المدينة" يكتب بلوتارك (سيللا، ٤٠). وأمام الرومان المجتمعين، المرتجفين من الرعب، أعلن بوضوح "أنه لايريد مسامحة أحد من أعدائه". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩٥). كتب لوائحا ونشرها بأسماء من أبعد، ومن قتل. كافأ بسخاء القتلة والجلادين وعاقب بوحشية كل من قدم أي مساعدة للمنفيين. لم يذكر في هذه اللوائح سوى وجوه الحزب الديموقراطي، ومائة من أعضاء مجلس الشيوخ وحتى ١٦٠٠ فارس -لكن حسب تعبير بلوتارك "ليس هذا سوى نقطة في بحر مقارنة مع إجمالي الضحايا". ألوية مسلحة هاجمت إيطاليا، وأبادت سكان المدن الذين سجلوا إخلاصهم للحكومة الديموقراطية؛ حضر سيللا شخصياً الإبادة العسكرية لسكان برينست. ونشرت لوائح المبعدين في الولايات مثل أفريقيا أو بامبيه، المرسلة لهذه لغاية، وبذبح كل الديموقراطيين الذين لجؤوا إليها.

كان ذبح الديموقراطيين يترافق طبعاً مع مصادرة أرزاقهم جملة وتفصيلاً وأراضي الحاضرات كلها. بيعت كل هذه الأملاك بالمزاد العلني، بسعر بخس، وزعه سيللا على غانياته، على مادحيه وعلى الممثلين المتملقين، أو سرقه ضباطه. اغتنى كراسوس بشكل استثنائي، والثروة التي كدسها، بفضل المضاربات من كل نوع، جعلته أغنى رجل في روما. عدا ثمار النهب والغنائم، تلقى جنود سيللا (٢٣ جحفل) أيضاً شطراً كبيراً من الغنائم: تقديراً لما فعلوه وزع عليهم سيللا ١٢٠ ألف سهم من الأراضي المصادرة. ويجب ان نسجل أن سيللا، كما فعل الديموقراطيون، أعتق ١٠ آلاف عبد، من أملاك خصومه، ومنحهم حق المواطنة، وجعلهم أتباعه، وأعطى الجميع صفة المولى. وصار بعض المعتقين من أخصائه وموضع ثقته.

توج سيللا عمله بإبادة ممنهجة لكل إيطاليا الديموقراطية، بدستور العام ٨٢ق.م الجديد، الأكثر رجعية من دستور العام ٨٨ بغية قمع أي محاولة ديموقراطية. بمبادرة من احد أنصاره، فاليريوس فلاكوس، ("قانون فاليريا")، أعلن سيللا دكتاتوراً لمدى الحياة وذا سلطات غير محدودة: بإرادته يغير القوانين، له حق الحياة والموت على كل مديني روماني، ومصادرة الأرزاق والتصرف بها على هواه. وهب أو إعطاء التاج للملوك الحلفاء، وشيد له نصب مذهب في الميدان العام، ، نقش عليه: "كونيليوس سيللا، فيليكس إمبراطور".

كان سيللا وأنصاره يكرهون بشدة المؤسسات التي أسستها الإنجازات الديموقراطيـــة. لذا ألغي من جديد منصب المحامي العام، وجرده من ســـــلاحه، وليفقــد هــذه المؤسســـة اعتبارها، أعلن أن من يزاولها غير جدير بمزاولة منصب قضائي أو تنفيذي آخر؛ انتزعت مكاتب القضاء من الفرسان وأعيدت لمجلس الشيوخ؛ وأبطل توزيع القمح أو الأرض علـــى الشعب نهائيا.

وجهت هذه التدابير بمجملها ضربة قاصمة للحركة الديموقراطية الرومانية والإيطالية لم تنهض من تحتها. انخرطت الدولة الرومانية في طريق جديد، أفضى إلــــى دكتاتوريـــة عسكرية وعبودية.

الفصل السادس والخمسون

أزمة النظام الجمهوري

دكتاتورية سيللا. أولغارشية السلطة (٨٢-٧٠)ق.م

ثمة اتجاه ملائم للمفاهيم الدارجة تماما، لدى مؤرخي أوروبا الغربية المعاصرين (ج.كركوبيتو، ف.شور)، وهو أن سيللا كان المثال والقدرة، والرجل الذي "أنقذ الجمهورية من التعصب الديماغوجي-الذرائعي". يذم فقط "لأنه تخلى طوعا عن سلكته العليا مع أن أحدا لم يطلب هذا منه.

شاعرا بالأمان التام، بين الرجال الذين يرتجفون فرقا أمامه، اعتزل سيللا الدكتاتورية شكلا، في العام ٧٩، دون أن يتنحى فعلا عن أي من الحقوق المرتبطة بهذه المهمة. منسحبا إلى ملذاته في بيته الريفي، حيث "كان يقضي الأيام بالقصف والمجون" (بلوتارك، سيللا، ٤٥)، دبج قوانين لمدن الضواحي، يدعو إليه القضاة والحكام الذين كانوا يجلونه ويمينهم بأيدي خدمه. ولما مات في العام ٧٨، أقيمت له في ميدان مارس، جنازة ملكية. حمل جسده إلى مثواه الأخير، محاطا ببلطات حملة الفؤوس، الموسيقى العسكرية وألفي تاج ذهبي. واكب مجمع الأحبار ومجلس الشيوخ كله محفة التشييع، ودلف رجاله من كل إيطاليا. "... مايزال حامل النعش يخشى، هو بالذات، وجيشه، وأجوبته الموت، كما لو كان مايزال حيا". هكذا يصف أبيان بأسلوب رائع أولى الأحزان الإمبريالية في روما (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٠٧).

مات سيللا، فوجد النظام الجديد الأولغارشي الرجعي، الذي فرضه على روما، وجد نفسه مقطوع الرأس، وبالتالي، غارقا في حالة من الفوضى والعجز التام.حتى عن التفكير بأي انقلاب. أثار موت سيللا انطلاقة استثنائية لعمليات رجال الأعمال والمضاربين من كل نوع. وليس فقط الفرسان وجباة الضرائب، وضامنو بيت المال، والمرابون، ومنظمو الجيوش والغشاشون كانوا خلال وقت قصير ينهارون بسبب الخسائر الناجمة عن هذه

الأزمة في نهاية الثلاثينات، بل أيضا اغتنى بعضهم بشكل فضـــائحي علـــى حســـاب آلام العوام، طيلة هذا العهد القاتم الموسوم بكل أسباب الظلم والعنف والدمار، بين عـــامي ٨٠ و ٧٠. حقل واسع من النشاط فتح أمامهم، في الولايات الشرقية التي أعيد احتلالها، وكبلـــت بوزر التعويضات والعقوبات من كل نوع، تأمين نفقات الجيوش، البيع بـــالمزاد العلنـــي، وبأسعار تافهـــة، للأراضـــي والبيـــوت وبـــاقي الأرزاق المســـجلة. إن هـــؤلاء "النـــاس الأشراف"،كما يدعوهم عادة شيشرون. كانوا يحتقرون بطانة الملك الرجعية البطانة العاملة على استمرار الحياة الرومانية في إطار خانق من الماضي؛ ويحلمـــون بحكومـــة قـــادرة وحربية، أنسب لتطلعاتهم الاقتصادية. فانطلقت نظرتهم الشرهة إلى مصر، سوريا، منـــاطق الفرات، وأيضا، نحو مناطق الهند الخيالية، والصين وأرمينيا والقفقاس. فشنوا حربا ضـــد متريدات الذي فتح لهم درب الشرق.

بهذا الصدد كانت آراؤهم منسجمة مع عدد كبير من أقرب رفاق سيللا، الذين ما كانوا في حياة الدكتاتور، يوافقونه على حلفه المتين مع الرجعيين. هكذا كـــان وضـــع معاونيـــه الشباب سنويس بامبيه، الملقب "الكبير" بسبب نجاحاته العســـكرية، وخصمـــه، لســـنيوس كراسوس، "الغني". كان بامبي، المالك العقاري الثري، يمارس أيضا الربـــا علـــى مـــدى واسع، ويوظف ثروته الطائلة في العمليات المثمرة المالية، في إيطاليا وفي المحميات. ولقد اشتهر كراسوس بمضارباته المريبة، في أيام إبعادات ومصادرات سيللا، التي جنى منـــها الملايين. كان يشتري بسعر بخس الحقول الجيدة، ولايـــتردد عـــن أن يحوزهـــا بـــالعنف والتهديد. وعندما تشب إحدى الحرائق الكثيرة في روما، يأتي إلى مكان الكارثة مع فريـــق من عمال الإطفاء المؤلفين من العبيد ويفتدي بسعر مناسب من المالك المنكوب البيت الـــذي مايزال يحترق وكذلك أملاك الجوار، ويعيد بناءها بأيدي عبيده المعماريين. وبهذه الوســـيلة، يكتب بلوتارك، امتلك قسما كبيرا من روما. كان يحوز عدة مناجم فضـــة، وأراض علـــى علاقة وطيدة مع الكثير من الحراثين الذين يرفعون قيمتها. لكن هذا لاشيء إذا قورن بمـــا يجلبه له عبيده". كان يبحث أيضا عن الشعبية، دون أن يخشى أن يقع فـــي الديماغوجيـــة. كان "الرجل الأمهر في كسب ود الناس بمديحهم"، وكان يخاصم إن شاء بنبـــوغ معـــروف (بلوتارك، كراسوس، ٧).

كان بامبيه، كراسوس ومزاحمهم الكفء إميليوس لابيدوس، والأقـــل شـــهرة منـــهم

يمثلون في حياة سيللا، المعارضة في معسكر الدكتاتور، بين أعوام ٨٠ و٧٠، التقت وجهات نظرهم أكثر فأكثر مع وجهات نظر جباة الضرائب والفرسان لإدانة نهج الحكومة جملة وتفصيلا. وانتقل ليبيد إلى الحزب الديموقراطي وراح يطعن على المكشوف سيللا ونظامه، وفي العام ٧٧، ترأس إضرابا فعليا أرثه بقايا الحزب الماريانى، رغم انه كان آنئذ قنصلا في الحكومة التي أتت بعد الدكتاتورية السيللية. وأقام علاقات مع الديموقراطي الجموح المندفع ماركس جونيس بروتس، الذي دفع إلى التمرد فلاحي الغول السيزالبين: الحركة الحاسمة التي قضت على لبيد بعد استيلاء بامبيه على موتينا، وموت بروتس، الذي أعدم في هذه المدينة.

كان كل الغاضبين على نظام سيللا ينظرون بأمل إلى إسبانيا، حيث بقي قادة من الديموقراطية الرومانية التي خلقت لنفسها ميدانا مربحا منيعا جدا، بفصل الأذكياء الذين تحالفوا مع حركة التحرر الوطني لهذه الولاية. وشكلوا مجلس شيوخ لهم من المنفيين، وحكامهم ووزراء ماليتهم، وجحافل من التمردين الإيبيريين، المسلحين والمدربين على الطريقة الرومانية، بقيادة ضباط رومان من الجزب الشعبي. كان قائد هذه الدولة الديموقراطية رومانو-إيبريين أحد الأصدقاء الموثوقين ورفيق سلاح سينا، كونتس سرتويوس،الضابط الماهر الجريء، المنظم المعروف. سمي محافظا في أسبانيا في عهد سينا وتمكن من معالجة بعض مشاكل سكان الأقليم: قلص الضرائب، أعفى السكان من عسكرة القوات، وخلق مدارس للإيبيريين (بلوتارك، سرتوريوس، ٧-١٤).

كانت كل أسبانيا، حتى إيبيريا، قد نهضت عفويا لدعم سرتوريس، وفي روما، كانوا ينتظرون رؤيتها تمشي إلى إيطاليا، على مثال هانيبال. فقد اضطرت الحكومة الرومانية أن تخوض ضده صراعا ضاريا لمدة ثماني سنوات (٧٩-٧١)، زودت أسبانيا بخيرة قواتها وأكفأ قادتها (كاسليس، بامبيه)، الذين مع ذلك، ذاقوا هزيمة حاسمة. وليس إلا بفعل مؤامرة حبكها أفراد جبناء تسللوا إلى محيط سرتوريس، وذبحوه، نجح بامبيه أخيرا بقمع أسبانيا. حرق بامبيه أرشيف سرتوريس (٧٢)، ليقضي على كل الدلائل الذكية بينه وبين العديد من وجوه روما.

كان عجز الحكومة الأولغارشية كبيرا بحيث مولت الحرب الأسبانية بأموال الخاصة وقادتها "جيوش الخاصة " لبامبيه ومتلوس. وكانت حرب الشرق التي شبت في تلك الحقبة،

مشروعا فرديا (اقرأ أبيان، متريداتيكا، ٦٩ وبعد).أدرك ملك أن معاهدة دردنوس (٨٥) لم تكن سوى هدنة، أعد نفسه بنشاط لصدمة حاسمة، فتمون بالخشب لبحرينه، عمر بواخر، كوم أسلحة وجمع حتى ٢ مليون بود قمح، في مستودعاته الحربية على شواطيء البحر الأسود.

كان تحت تصرف مثريدات أسطول حربي جبار من حاضرات اليونان من ضفاف أوكسن، وكان واثقا من تحالف الشعوب البربرية، الموزعة على القوس الساحلي الواسع، الممتد من شرق القفقاس حتى الدانوب، أي حتى البلقان. كان حليفه ونسيبه تيغران الكبير، ملك أرمينيا المقتدر ، الذي تعد دولة آنئذ ليس فقط كل شرق القفقاس، بل أيضا، سوريا، بحيث كان تيغران يسمى "ملك الملوك"، وفخر بأربعة ملوك يتبعونه. ويأتي أخيرا فراتس الاسم الأقل عتوا لملك فارس، هو الآخر وعده بدعمه، الذي كان ينظر بقلق شديد إلى التغلغل المتزايد لرجال الأعمال، التجار والمرابين الرومان في آسيا.

وعندما خسر نكوميد، ملك بيتيني، الديون التي فرضها على جباة الضرائب، أوصى وهو يموت بمملكته للرومان الذين كانوا يستعدون لوضع اليد عليها، لكن مثريدات سبقهم ودخل المملكة واحتلها (٧٤). انتفضت بيتيني كلها واستقبلته بغبطة، بأمل أن يكسر نير المرابين العاتي والمضاربين الرومان. وولجت شعوب تراسيا ومقدونيا من الجنوب. وغزت بحر إيجة مراكب القراصنة، حلفاء مثريدات، وكان الوضع يذكر بالنكبة التي زعزعت الشرق الروماني قبل ١٥ عاما.

وفي العام ٧٤، أرسلت حكومة روما ضد مثريادات القنصليين، م.أورليوس كوتا ول.لسينوس ليكولس، اللذين لم تستطع إعطاء كل منهما أكثر من إقليم. وبالتالي هزم مثريدات خصمه كوتا على الغوركوتا وطوقه في شالسدوان. إما ليكوس، الذي كان ذراع سيللا الأيمن، اتبع في هذه الحرب أساليب سيده: جند هو نفسه قواته في البلاد وعلى مناهل البلاد وأرزاقها، فاجبر مثريدات على الانسحاب نحو الشرق.وأرسل لمطاردته أسطوله المؤلف في الوطن، في الحاضرات اليونانية للشاطئ الغربي من آسيا الصغرى الذين خشوا ميثريدات ، لأنه خانهم في الحرب السابقة. وجه لوكولس أشرعته نحو الشرق، على طول ضفاف آسيا الوسطى، احتل مدن بيتيني وغزا البونت، وكبر جيشه بنداء جديد للمرتزقة الطامعين بالغنائم، فمشى نحو الشرق، وأتعب قادته من استيعاب حماسته اللصوصية.

دام الخضوع والدمار الممنهج لمملكة البونت المتروكة لقدرها على يد العاهل سنتين (٧٢و٧١). وبدأ القادة القابعين في التكنات المنيعة الانتقال جمهرة إلى جانب لوكوس وابن متريدات نفسه، ماشارس، حاكم البوسفور، بعد أن دعم لمدة طويلة وعن طريق البحر سينوب، عاصمة البونت، التي يحاصرها الرومان، خان أباه وبعث إلى لوكولس تاجاً ذهبياً. وكانت الحاضرات اليونانية الكبرى مثل هركليه وسينوب، التي تدين بازدهارها لوجود دولة البونت القوية التي بناها متريادات، الحاضرات الاطول والأحزم مقاومة، الأمر الذي كلفهم الدمار على يد الرومان (انظر ممنون، تاريخ هاكليه، ٤٧-٥٢).

مع حملة لوكولس، دخلت منطقة البحر الأسود لأول مرة في فلك الإمبراطورية الرومانية. مشت الجيوش الرومانية على سواحل هذا البحر الجنوبية والغربية وشكلت ولايتي بينيني والبونت. اجتاز أخو سفير المشرع، ماركوس لسنوس لوكوس، العامل ضد التراس حلفاء متريدات وضد البسترن، اجتاز البلقان، وصل ثغر الدانوب وأدخل إلى الحلف الروماني المستعمرات اليونانية على ساحل تراسيا، استرا، تومي، كلاتس، أودسس وغيرها (٧٢-٧١)، فارضاً على الحاضرات نيراً غليظاً من التنكيد والغرامات التي لاتنتهي.

إن التهكم والابتزاز، والاغتصاب والعنف الذي مارسه الحكام السيلليين-سيللا، بإشراف مجلس الشيوخ وأتباعهم الكثر، مورس بقسوة أيضاً في الأقاليم الأخرى. ومحافظ سيسيليا، دولابيلا، خليفة الدكتاتور المتوفي، اشتهر، بسلب بلا عقاب أوابد الفن القديم، المعابد والدارات فريدة المثال. فجمع هكذا مختارات ضخمة وثمينة. ومساعدة س.فيرس، فيما بعد محافظ سيسيليا (٧٣-٧١)، عمل أيضاً بنفس الوقاحة والسفه. وبهذه المرافعات الشهيرة *les verrines* (٧٠) وشى شيشرون المدافع عن مصالح جباة الضرائب والفرسان المتضررين من هذه المنافسة، "بمآثر" فيرس في سيسيليا، ليشهر بطريقة محكمة إدارة رجال سيللا.

لقد أسفر النظام الرجعي الذي تركه سيللا لروما عن تخريب حكومة الجمهورية ونصرة العوامل الاجتماعية الأكثر التباساً.

تمرد سبارتاكوس

في هذه الشروط التي تحمل الدمار القريب، هيأت الجمهورية الرومانية العبودية لتمرد

جديد وهائل، بقيادة سبارتاكوس، الذي اكتسح هذه المرة كل إيطاليا (٧٣-٧١)[١] .وفي كتابه الهام في الـ"دولة"[٢]، حدد لينين بدقة وإيجاز هذه الأحداث، فقال: "كان سبارتاكوس بطلا عظيما في واحدة من أعظم عصيانات العبيد، منذ ألفي سنة تقريبا. خلال أعوام كثيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية، المبنية كليا على العبودية والتي كانت تبدو وطيدة الأركان، هزها وزعزها تمرد العبيد الهائل المسلح وحشد، بقيادة سبارتاكوس، جيشا جرارا".

يدعو مؤرخو الزمن القديم، وعيا منهم لأهمية وطبيعة هذه الحركة، عادة، "حرب العبيد" أو "حرب سبارتاكوس"، ويكتب أوتروب، أنها كانت "حربا ربما أصعب من الحرب التي شنها هانيبال". ومن الاهتمام التفصيلي الذي أعطاه سالوست بعد ٣٠ عاما في "تاريخه"، لم يصلنا لسوء الحظ إلا بعض المقاطع العجاف. والكتب الثلاثة (٩٥، ٩٦، ٩٧) التي خصها تيت-لايف لهذا العصيان قد ضاعت هي الأخرى، فمراجعنا الرئيسية تنحصر في شيء من مقاطع بلوتارك في "حياة كاسيوس" (الفصل ٨-١١) وأبيان في "الحروب الأهلية" (١، ١١٦-١٢٠)، إجمالا ليس أكثر مما أعطانا ديودور لتمردات العبيد في سيسيليا. ولايمكننا أن نضيف سوى بعض الجمل المبعثرة، في مختصرات الكتابين ٩٦ و٩٧ لتيت-لايف، وكذلك من كتب فلور، أوتروب، أوروز وكتاب آخرين. ونحن لا نملك نقشا واحدا يتعلق بهذه الأحداث. فقط، جدارية اكتشفت حديثا في بامبي تمثل، على الأقل افتراضا، سبارتاكوس على ظهر جواد، في أثناء صولته الأخيرة ضد الرومان[٣].

بدأت الانتفاضة بمؤامرة، كما كانت تبدأ بشكل عام حركات العبيد، لكن المنتفضين كانوا هذه المرة رجالا اعتادوا امتشاق السلاح: اشترك فيها حسب بلوتارك ٢٠٠ عنصر من مدرسة مصارعين، كانت في كابو. لكن ٧٤ منهم فقط استطاعوا الهرب، وفي أثناء هربهم تسلحوا بسكاكين المطبخ، والسفافيد، والعصي، ثم بأسلحة جلادين كانت لدى موكب

---

[١] – يشير أوزور وأتروتروب بصورة دقيقة إلى العام ٧٣، في عهد قنصلية م.لسنيوس لوكوس وكاسيوس فاريوس.

[٢] – لينين. في الـ"دولة". منشورات باللغة الأجنبية، موسكو ١٩٥٤، ص١٩.

[٣] – لقد جمعت كل المقاطع والصحاف التي بقيت من مؤلفات القدماء حول هذه الحروب، في مؤلف الأستاذ أ.ميشولين "تمردات سبارتاكوس"، م.١٩٣٦.

ما وقع بين أيديهم، وبعض أسلحة الحرب، ولجؤوا إلى مخابئ منيعة في سفوح فيزوف.

لكن هذا الحدث، العادي جداً في ذلك الزمان، كان نقطة انطلاق لحركة محلية عجزت قوى الأمن عن قمعها. بعد الحرب الاجتماعية وحملات سيللا، بامبيه، لوكولس، خنقت إيطاليا العبيد أكثر من أي وقت آخر، والمتمردون السابقون، الإيطاليون، التراسيون،الغاليت، مساجين بعد نضال ضار، هم الذين كتموا حقداً كبيراً على روما وأفعالها الحربية. كان قائد هؤلاء اللاجئين، سبارتاكوس، تراسي الأصل. "كان قد خدم في جحفل ما (في قوات ميثريدات)، وكأسير بيع كعبد" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١١٦)؛ كان رجلاً مميزاً بقوته الجسدية والشجاعة الاستثنائية مضافة إلى حذر ولطف أكبر من ثروته، بكثير ويليق لأن يكون يونانياً لابربرياً" (بلوتارك، كراسوس، ٨). والقائدان الآخران، أونومايس وكركوس، اللذان ينتميان إلى عرق محارب وجموح هو أحد أعراق الغولوا في آسيا الصغرى (الغالات)، كانا أيضاً قد خدما في صفوف جيش مثريدات، في أثناء حربه ضد سيللا. ولم يتردد عدد من نفس المعدن عن الانضمام بحماس كبير إلى نواة التمرد، وهذه سرعان ما كون على سفوح فيزوف وحدة من سبعة آلاف رجل. يؤكد بلوتارك أنهم كانوا يضمون نساء، وبخاصة، زوجة سبارتاكوس، التي كانت من الأمة ذاتها.

يجب أيضاً أن نقيم وزناً للحالة الروحية التي كان يعيشها شعب إيطاليا الحر وبخاصة كامبانيا التي دمرتها الحروب الاجتماعية والأهلية، ومصادرات سيللا، والتي شوشتها نداءات الحرية التي كان يوجهها إلى العبيد قادة الانتفاضة الإيطاليون، ثم الحزب الشعبي. في هذه الحروب الداخلية، كان تجنيد جحافل كاملة من العبيد يتم من كل حدب وصوب؛ والجحيم الذي كان يفصل سابقاً العبيد عن الناس الأحرار من الطبقة السفلى كان قد تقلص بشكل ملحوظ. ويمكن أيضاً أن نصدق أقوال أبيان، القائلة أن فلاحين فقراء، أحراراً، انضموا إلى الحركة، ويذكر ساللوست، أن المليشيات المحلية كانت تنفر وتشمئز من القتال ضد المتمردين: "كان البعض يهرب، لاأحد يعرف إلى أين، رغم الأوامر القاسية؛ وآخرون يرفضون الخدمة بخزي" (تاريخ، ٣، ٦٧، ١). وهكذا اتسعت الحركة جداً، واستطاع سبارتاكوس أن ينزل ضربات قاسية بخصومه،لابل أن يهزم عدة مرات المليشيات المحلية بقيادة الحكام كلوديس، فارنيوس وسفرائهم المرسلين من روما. وقتل واحد من هؤلاء،

كوسنيوس. ووجد الحكام معسكرهم، وحملة فؤوسهم، وخيول القتال وقد خطفها المتمرديون، الذين قاموا بغزوات ارتجالية على مؤخرات القوات الرومانية واستخدموا كل الحيل الحربية (انحدروا دون أن يروا من أعالي صخورهم بواسطة سلالم جدلوها من أغصان الكروم، وهبطوا فجأة على العدو أو الأصح، أقاموا الجثث بمثابة الحرس، وانتزعوا الخيام دون جلبة في جنح الليل.

لكن الانتفاضة أخذت مدى واسعاً عندما ربح سبرتاكوس، على رأس قوة قادرة، ربح من كمبانيا، جنوب إيطاليا، ليعمل في مناطق تدجين لوكانيا وبرتيوم، "يوم انضم إليه من الرعاة العبيد " كل الرجال المحاربين المهرة" (بلوتارك، كراسوس، ٩). وكان قد نجح في تكوين جيش حقيقي، يقدره أبيان بـ ٧٠ الف رجل. كانت كل الأرض الواسعة من متبونتوم على خليج تارانت حتى كونسانتيا في وسك برتيوم كانت تحت سلطة المتمرديين (أوروز، ٥، ٢٤، ٢). عن هذه الحقبة يتحدث أبيان: إن مدينة توريوم كانت النقطة الرئيسة لتجمعهم، حيث يتمون استعداداتهم الضخمة لمتابعة النضال. "احتل الجبال التي تجاور توريوم؛ واستولى على المدينة ذاتها. منع التجار من بيع الذهب والفضة، ومنع أنصاره من أن يشتروا شيئاً من هذا. وماكانوا يشترون سوى الحديد والبرونز، وبثمن مرتفع وكانوا يرحبون بمن يبيعهم هذين المعدنين. بحيث يتجهزون بالضروري فقط؛ وبتسلح جيد كانوا يغزون من حين لآخر الشعوب المجاورة. وتقاتلوا مرة أيضاً مع القوات الرومانية، وهزموها، وعلى حسابها كونوا غنيمة ثرية". (١، ١١٧).

وبفعل عجز وغفلة الحكومة السيللية –سيللا– يبدو أن سبارتاكوس كان يتأهب طيلة عام ٧٣. لم يكن راضياً عن تسلح قواته، فحاول ضبطها. وكانت الغنيمة توزع أيضاً وكان تداول الذهب محرماً. يسجل سالوستر بدهشة ان سبارتاكوس، كان كبيراً "بقواته جسداً وروحاً، يتصرف في الأغلب بقناعة وليس بأساليب الوحشية واللاإنسانية المعروفة في انضباطية الرومان الحربية.

يكتب المؤرخ ذاته، مثلاً أن سبارتاكوس كان يحذر من الإفراط بالعنف الدموي الذي قد يرتكبه العبيد، عند احتلال القرى. كان يمجد تقاليد أتينيون، آمراً "بصيانة البلد كما يصان الملك الشخصي". لكن خلافات حادة، تصل لحد الفرقة والانشقاق، تثور بين القادة بهذا الصدد، ودوماً استناداً إلى سالوستر "قد تنشب حرب فعلية في معسكر العبيد، في موضوع

خطة العمليات". "انشق كريكس وأخوته في المحتد، غولوا وجرمن"، الذين كانت الصناعة العادية تنهب في وطنهم، وأقاموا معسكرهم في أبوليا، قرب جبل غارغانو. وهنا حاصرهم الرومان وأبادوهم.

لكن سبارتاكوس كان آنئذ قوياً بحيث أن حرباً متواصلة ضده صارت، حسب تعبير بلوتارك، "واحدة من الحروب الأكثر كلفة والأخطر" تتحمل روما مسؤوليتها (كراسوس، ٩). كان عليها أن تسيّر ضده كل قواتها القتالية، جيش قنصلي العام ٧٢، ل.يوليوس بوبلكولا وس.كورنليس لانتوس، لكن محاولة تطويقه انتهت بهزيمة محكمة.

وبقي شطر من متاع الرومان بيد المتمردين. يؤكد أوروز بدون التباس أن "القنصلين، بعد أن حشدا قواتهما بدون جدوى، انهزما بعد معركة رهيبة". فضلاً عن هذا، فقد انتقل سبارتاكوس، علىرأس جيش يصل إلى ١٠٠ألف رجل، مسلحين ومجهزين بعتاد غنمه من الرومان، انتقل بحزم إلى الهجوم، لأول مرة في تاريخ الحركة العبودية. من سامنيوس، حيث بدأ القتال الذي تكلمنا عنه، مشى نحو الشمال عن طريق الجبال حتى متينا (قرب سهل البو حيث هزم مشترع غول سيزالبين، ك.كاسيوس لونجينس، الذي حاول أن يسد عليه الدرب.

في الحالة الراهنة واستناداً إلى مراجعنا لن نستطيع أن نعين بطريقة لاتقبل الرد الأسباب التي دعت سبارتاكوس لأن يتوجه إلى الشمال بداية بجيشه ثم يعود به إلى الجنوب. إن بعض المؤرخين القدماء، محاولة منهم للتغلغل في خطط سبارتاكوس، نسبوا إليه الرغبة في الخروج من إيطاليا مع جيشه. "كان سبارتاكوس يثبت أنه كان آنئذ قوياً وجباراً" يكتب، مثلاً، بلوتارك، مقوماً بحق جبروت المتمردين القتالي، لكن، يتابع (لننتقل عياناً إلى الظروف)، فقبل أن ينبهر بانتصاراته، اتخذ تدابير في غاية الحكمة،وبدون أن يزدهي بالظفر على الآلة العسكرية الرومانية، قاد جيشه إلى الألب، مقتنعاً بصحة خطته لكي يجتاز هذه الجبال وأن ينسحب كل إلى بلده البعض إلى الغول، والآخرون إلى ثراسيا" (كراسوس، ٩). (سالوست) ويؤكد بلوتارك مستندا إلى المرجع ذاته أيضا أن مسيرة سبارتاكوس كانت أصلا ذات طابع "انسحابي" إلى خلف الألب والغول، لما وصل أحد القنصلين لسد الطريق عليه، بينما يدفعه القنصل الآخر نحو مؤخراته." (الحروب الأهلية، ١، ١١). لكننا نجد لدى أبيان شاهدا في غاية الأهمية، يثبت أن سبارتاكوس، بعد أن قطع

مضائق الألب، راجع نفسه، وقرر العودة إلى روما: "سبارتاكوس.. [القناصل] ليقهر الواحد بعد الآخر، ويفرض عليهما الانسحاب مشتتين. ولقد قدم سبارتاكوس ٣٠٠ ضحية رومانية قربانا لكريكس. وأخذ بجيشه البالغ ٢٠ ألف رجل مشاة وعلى عجل الطريق إلى روما، بعد أن أحرق كل العتاد النافل، وأعمل السيف برقاب المساجين، وصرع كل دواب الحمل... وقف الكثير إلى جانبه لينضموا إلى جيشه؛ لكنه لم يشأ أن يقبل أحدا". (المصدر السابق) ويؤكد بلوتارك (كراسوس، ١٠، او١١، ١) أيضا وجود هذه الخطة، وكذلك فلور، الذي استقى معلوماته من تيت-لايف (" مزدهيا بانتصاراته قرر سبارتاكوس السير إلى روما").

يعلل مؤرخو هذه الأيام بأساليب متغيرة هذا السلوك الغريب والمتقلب لقائد العبيد المتمردين. يفرض البعض أن سبارتاكوس فقد سطوته ونفوذه على جيشه الذي أراد المتابعة لنهب روما؛ ويؤكد آخرون أن الفيضان منعه من اجتياز نهر البو، أو أن سبارتاكوس خاف مقاومة البلدان الريفية في الغول غرب الألب، أو أخيرا تهيب صعوبات عبور الألب. الفرضية الأقرب إلى المنطق هي أن سبارتاكوس، مدفوعا بتألقه القتالي، وضع خطة السير إلى روما.

وهكذا بدأ جيش العبيد الرهيب التوجه إلى الجنوب. كانت روما تعاني من ضائقة، وكان آخر رفاق سيللا، الذي كان جاهزا آنئذ في العاصمة، ل.لسنيوس كراسوس، "بطل معركة باب الكولين، الذي استلم السطات الدكتاتورية ، قد وضع على رأس قوات الجمهورية، بما فيها فلول الجيشين القنصليين اللذين بددهما سبارتاكوس. كمالك كبير للعبيد يهتم بحيوية بسحق التمرد. تكاتفت معه جمهرة من هذه الفئة، أمام هذا الخطر المحدق أعيد العمل بالتدابير الانضباطية المتوحشة الممارسة في العصور الغابرة: أبيدت الوحدات التي هربت من الجبهة: كانوا يقترعون على عشرات الجنود، ومن يصيبه القدر يقتل. هكذا صرع كراسوس ٥٠٠ رجل دفعة واحدة؛ بل يتحدث أبيان عن ٤٠٠٠ إعدام. فدعي جيش م.كوكولس على عجل من ثراسيا، وجيش بومبيه من إسبانيا.

على رأس القوات الضخمة، المسحوبة من كل إيطاليا، حاول كراسوس سد طريق سبارتاكوس، عند تخوم بسنوم. لكن مناورته التطويقية فشلت: والجحفلان المكلفان بحركة التفافية بقيادة السفير ميموس، تبعثرا فلولا وشراذم، لكن جمهرة من الجند هربت ونجت، بعد أن ألقت السلاح. إنما أبيان يزودنا بهذه الواقعة الهامة: "رغم هذا النجاح، عزف

سبارتاكوس عن مشروعه الأول في السير إلى روما، لأنه أحس أنه لم يتقن بعد فن الحرب، وأن كل هذه الحشود لم تشكل جيشا مناسبا (الحروب الأهلية، ١، ١١٧). وبعد معركة بسنوم، تابع سبارتاكوس إذن سيره نحوالجنوب، مقدرا عبور سيسيليا. وهنا يأتي ما ينقله لنا بلوتارك: "إن سبارتاكوس، الذي اجتاز لاكونيا وانسحب نحو البحر، لدى مصادفة قراصنة سيسيليين، كون مشروع عبور سيسيليا وتخصيصها بألفي رجل؛ كفى هذا العدد لإعلان العبيد الحرب في هذه المدينة، الحرب التي، لم ترمد نارها بعد، لم تكن بحاجة لسوى مشعل بسيط ليلتهب المجتمع كله" (بلوتارك، كراسوس، ١٠(. كان الشطر الأكبر من قواته في شبه جزيرة رجيوم، في طرف بروتيوم، ومن هنا راقب بهدوء أعمال كراسوس ليطوقه: "مد كراسوس من بحر إلى آخر خندقا طوله ثلاثمائة مرحلة، وعرضه وعمقه ١٥ قدما بنى عليه سورا سميكا وعاليا بشكل مدهش" (المصدر ذاته). وعندما تبين أنه لايستطيع الاعتماد على التمرد في سيسيليا، لأن القراصنة كانوا قد خانوا ولم يقدموا المراكب الموعودة، وعبيد سيسيليا، المكبلين بنظام رهيب، لن يجرؤوا على الانتفاض من تلقاء أنفسهم، هجم سبارتاكوس في جنح عاصفة ثلجية من ليل شتوي، على خطوط المحاصرة فوجد نفسه عند مؤخرات العدو. "خشي كراسوس أن لايرغب سبارتاكوس في السير مباشرة إلى روما"، التي كان دربها مشرعا.

لكن في تلك البرهة وصلت الجيوش المدعوة من تراسيا وإسبانيا. الأمر الذي فرض على سبارتاكوس ان يمشي أولا إلى قوات لوكولس، المهيأة للإبحار إلى بروندزيوم، قبل أن يتوفر لها وقت التمركز والانتشار. لكن بروندزيوم، المرفأ الروماني الهام الحربي على البحر الأيوني، كان في غاية التحصين والمناعة من أن يؤخذ من الهجوم[1]. فالتف سبارتاكوس آنئذ حول كراسوس، بحثا عن المعركة الحاسمة. قبيل هذا كان جيشه أصيب بهزة ما لآن جمهرة غاضبة من الجند تخلت عنه، على رأسها كايوس كانكوس (الأرجح أنه من منبت إيطالي) وكاستوس. ولقد دمر كراسوس الاثني عشر ألفا هؤلاء الذين شكلوا وحدة منعزلة. وجرت المعركة الأخيرة بين سبارتاكوس وكراسوس في ضواحي شمال

---

[1] – ليس لسبارتاكوس أبدا أن يفكر بالانتقال إلى اليونان بحرا، لأن نقل جيش جرار كهذا يحتاج مئات المراكب.

لوكانيا. "دام القتال طويلا وضاريا؛ لأن رجال سبارتاكوس كانوا يقاتلون بيأس. لكن سبارتاكوس جرح أخيرا في فخذه بضربة سهم. سقط على ركبته. وبحماية درعه، راح يقاتل أولئك الذين هاجموه، حتى استسلم، هو وعدد كبير شكل حلقة حوله.ومن بقي من جيشه، تشتت وبعد موت القائد تحول إلى فلول. كان عد الصرعى، من جانب الجلادين، لا يحصى. فقد مات هنا ألف روماني. وكان محالا العثور على جثة سبارتاكوس." (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٢).

يقدم بلوتارك رواية أخرى لموت سبارتاكوس: قبل المعمعة، "حينما أتى له بحصانه، انتضى سيفه وقتله: "لقد مكنني النصر أن أجد كفاية من الخيول الطيبة بين خيول أعدائي، وإن هزمت، فلست بحاجة له". وبهذه الكلمات اندفع إلى وسط الأعداء. سعيا للوصول إلى كراسوس،... قطع بيده نطاقين كانا يحيطان جسده. أخيرا، تركه من حوله، بقي وحيدا بين الأعداء، وسقط صريعا لكن بثمن غال جدا" (كراسوس، ١١).

حتى بين قصص كتاب العهد القديم، نشعر بالاحترام العميق لهذا القائد العبد المتمرد، الذي صار بين الشعب بطلا خرافيا. وصار اسمه شبحا مخيفا، لدى كل المجتمع المبني على العبودية، الذي عاش في خوف يقض مضجعه من تمرد جديد من هذا النوع.

سحقت حركة العبيد. وصرع سبارتاكوس. وفلول جيشه التي تبعثرت بين الجبال، أبيدت شيئا فشيئا. صلب كراسوس ستة آلاف سجين في الطريق من كابو حتى روما؛ والعصابات التي تمكنت من الوصول إلى الشمال، أبادها بومبيه، الذي كان يتطاول "باقتلاع جذور هذه الحرب" لكن قضية سبارتاكوس، التي هزمها السلاح، كانت ظافرة خلقيا، وإذا كان مؤرخو العالم العبودي، مثل بلوتارك وأبيان، اللذين عاشا في القرن الثاني بعد الميلاد، يحملون حكما مبصوما بالتعاطف مع شخصية سبارتاكوس، فذلك لأنهم رأوا منذئذ أن أساليب استغلال العبيد الممارسة في أيام كراسوس كان مرفوضة وخطرة. لقد عكس المؤرخون روح الأجيال الجديدة من مجتمع العبودية. التي بدأت ترى أن عمل العبد بعامه لم يعد مجديا وراح ينتقل إلى أشكال أخرى في استثمار الكادحين، -الوفر، الاستيطان. إن هذا التطور البليغ تجاه العبودية لمس منذ تمرد سبارتاكوس وجعل يطلق أهميته التاريخية على حركات العبيد لأعوام ٧٣و٧١: ولقد شرع بالانتقال إلى علاقات أخرى اجتماعية واقتصادية، اكثر تقدما وتقدمية.

آخر حركة للشعبيين في روما. "مكيدة كاتلينا"

لقد تزامن تمرد العبيد مع تجدد نشاط الحركة الديموقراطية في روما. فمنذ العلم ٧٧، حاول الشاب كايوس يوليوس كيزر (تولد ١٠١ق.م) ابن أخ زوجة ماريوس وصهر سينا، الذي نجا بأعجوبة من مذبحة ذويه، وكان يعتبر واحدا من القادة الذين بقوا من الحزب الديموقراطي، حاول التصدي بجرأة لأحد الكواسر من السيسيليين –سيللا–، كورنليس دولابيلا، الصديق الشخصي للدكتاتور. وفي العام ٧٣، عام انتفاضة سبارتاكوس، نصح محامي الشعب الجسور، س.لسنوس ماسر، المؤرخ، الذي درس بعناية التغيرات المفاجئة للنضال بين العوام والأشراف، نصح الشعب، مقتفيا خطى أهليه، أن لايقاتلوا لمصلحة الأغنياء أو ينضموا إلى قضيتهم ورفض الخدمة العسكرية. واستنادا إلى سالوست. هتك أستار نظام سيللا، هذه الـ"عبودية الشاملة، التي جعلت من الشعوب حيوانات". وبعد هذا، وفي العام ٧١، رفع شيشرون،الذي كان ينتمي للديموقراطية، دعوى مدوية ضد اختلاسات فيرس الذي ولاه سيللا على سيسيليا. وقد أصبحت "مرافعات" شيشرون بالفعل بصمة الاتهام لكل النظام الفضائحي وأنزلت به ضربة قاصمة.

وفي العام ٧٠، عبر رجال من أنصار سيللا على المكشوف لضرب الديموقراطية. وبعد النصر على سبارتاكوس وسرتوريوس، وصلوا معا إلى أبواب روما، كل مع جيشه وبهدف القيام بانقلاب لحسابه الشخصي. وهنا تنازعوا تأييد الفرسان والشعب، واعدين بإحياء النظام الذي دمره سيللا. ونجح قادة الديموقراطية الرومانية، مستغلين خصوماتهم، في تحقيق نصر مؤزر: وأملوا على القائدين عقد معاهدة تتجنب الحرب الأهلية؛ فضلا عن هذا، وعلى حساب منصب القنصل الممنوح للاثنين (رغم أن بومبيه مايزال في الرابعة والثلاثين من عمره ولم يحتل أي منصب حكومي كبير، حصل الديموقراطيون على حق عودة الجمعيات العشيرية الانتخابية، والفعالية القبلية بكل مداها، والرقابة: وباشر المراقبون فورا تنقية مجلس الشيوخ، وطردوا ٦٠ من أبرز لصوص الزمر السيللية. ثم حصلوا على إصلاح المحاكم: لم يبق لأعضاء مجلس الشيوخ سوى ثلث القضاة، ومابقي، كما كان الأمر قبل الدكتاتورية، يقسم بين الفرسان وما يسمى اليوم وزير مالية، الذين يشكلون نوعا من صغار التجار، والأمر شديد التميز هو عودة مكاتب استئجار جباية الضرائب إلى آسيا. هكذا، في العام٧٠، أبطل الدستور الكورنيلي كله وأحيي النظام الجمهوري لزمن ماريوس وسينا.

خلال السنوات التالية، تحرك الحزب الديموقراطي، وقد تعلم من هزيمته الحديثة، تحرك بطريقة أكثر انتظاما ووسع برنامجه. وانتسب إلى الحركة النقابات المهنية والجمعيات الشعبية. كانت هذه المؤسسات موجودة في روما منذ زمن سحيق، لكنها كانت تشكل آنئذ رابطات شعبية حقيقية وتكون بشكل ما قاعدة "الحزب الشعبي"؛ وبسبب امتداد حق الحاضرة في كل إيطاليا، ما كان عملها يمارس فقط في روما، بل في بلديات إيطاليا كلها، من هنا كان نفوذها يتغلغل في القرية، في الاستثمارة الفلاحية المرهقة بالديون، بين العمال الزراعيين، في مستعمرات محنكي ماريوسن سيللا، بومبيه، كراسوس، إلخ. كان العدد الأكبر من هؤلاء المعمرين مدمرين ومكبلين حتى أعناقهم بالديون، بسبب عدم أهليتهم، وعدم معرفتهم لشؤون الزراعة ومزاحمات كبار المالكين. وقد اشتركت بالحركة النساء ذوات الذهن المنفتح، مثل شمبرونيا، (من اسرة غراسك)، أرملة م.جونيوس بروتس، قائد تمرد شمال إيطاليا قتل في العام ٧٨، وعدد كبير من الشباب الرومان، منهم يوليوس قيصر الذي قدمت أسرته أنصارا لماريوس وسينا. وفي اللقاءات والاجتماعات غير القانونية الدميوقراطية، كان الحضور يطرح قضية إلغاء الديون ("فتح سجلات جديدة للدائنين") وقضية "القانون الجديد الزراعي" المنصف الذي يؤمن التمتع بالأرض فقط لأولئك الذين يعملون بها حسب العرف القديم. وعدم الشك بالنفوذ الذي تمارسه على الرأي العام الروماني يومئذ النظريات الاجتماعية اليونانية والخطباء والفلاسفة الرواقيون والأبيقوريون الآتون للتعليم في روما.

اهتم المؤرخون القدماء في الحقب اللاحقة (سالوست،مثلا، في مؤامرة كتالينا) وبعده المؤرخون المعاصرون (مومسن بخاصة) بتقديم نشاط الحزب الديموقراطي الروماني في تلك الأيام المضطربة، فقط بمرأى المؤامرات الكارثية لزمرة من الطامعين المتنفذين والأوغاد، جارين وراءهم على عجل لفيفا من الطائشين، المباعين والمجرمين. صفات تليق بهم تماما. لكن هذا لايبعدنا عن الاعتراف بأن الحركة كانت تحمل نقاط ضعفها. قلة الثقة بقواها، انتظار الإنقاذ من منقذ، "سيللا مقلوب"، إن صح القول. فقد أولت الديموقراطية الرومانية الجديدة ماريوس عبادة فعلية. وفي العام ٦٩، كان يوليوس قيصر، كما ينبئنا بلوتارك، يتمتع بشعبية واسعة لدى العامة، وانتخب تلك السنة وزيرا عاما، وأقام مأتما مهيبا لخالته جوليا، أرملة ماريوس، و"تجرأ أن ترافق الجنازة صور لماريوس، لم تظهر منذ

مجئ سيللا سيدا إلى روما، وتعلن ماريوس وأنصاره أعداء الوطن...، لكــن الشــعب... بتأييده شديد الوضوح، يشهد على اختياره وحبه له (المصدر السابق). وبعيد هذا أقام قيصر في الكابيتول أنصابا مذهبة لماريوس وانتصاراته، الأمر الذي استقبل بترحاب حماسي مــن قبل الشعب وأثار في مجلس الشيوخ فضيحة حقيقية.

وبومبيه، الذي اتحد نهائيا مع الجناح المعتدل في الحزب الديموقراطي، سعى بشــوف ليصير "ماريوس الجديد". ولعدم وجود شخصية كفء لهذا المنصب، دعم الحزب الشــعبي الآخرون قير الذي مايزال فتى. ولمداواة الجوع الذي أرهق روما في العـــام ٦٧، والــذي اتضح في وحشية القراصنة ووظف مجلس الشعب، باقتراح من محاسب الشعب أوليـــوس غابينيوس، بومبيه، وأعطاه سلطات غير معروفة. عرف بـــ"دكتاتور البحر" ومهمـــة شــن حرب طاحنة ضد هذه القرصنة، واستلم لثلاث سنين قيادة كل شواطيء البحر المتوســـط، وقيادة كل المراكب والقوات المحتشدة فيه (١٢٠ ألف رجل و٥٠٠ باخرة)؛ ووضع تحـــت تصرفه ٦ آلاف تالانت -مبلغ ضخم- ووضعوا بإمرته٢٥ معاونا. "أبدا، قبل بومبيه، لـــم يستلم أحد هذه السلطة على البحر"، يكتب أبيان (مثريدات، ٩٤).

وعندما انتهى بومبيه من هذه المهمة بجدارة مدهشة -خلال ثلاثة أشهر فقــط- فقــد نظف البحر من القراصنة وأمن المؤونة لروما الجائعة،استلم في العام ٦٦ مهمـــة أوســع منصب أن يحل محل الأرستقراطي لوكولس، المكروه شعبيا لدى الفرسان، لينهي الحــرب مع مثريدات ويسوي أمور الشرق. طرح هذا الاقتراح على مجلس الشعب بمبادرة محـــامي الشعب مانليوس ودعمه قيصر، فأثار غضبا رهيبا لدى الرجعيين.

أعلن هؤلاء عدم صحة استلام رجل واحد سلطات بدون حدود، القــــانون "المعـادي لتقاليد الجدود"، وبعبارة أخرى، الدستور الجمهوري. فاضطر الشعبيون أن يتصـــدوا فـــي الفوروم لشيشرون، الخطيب المفوه. لم يكن خطابه من أوله إلى آخره سوى تقريظ لحبيـــب الشعب الجديد.

واستنادا إلى قانون مانيليا، صار بومبيه السيد الحقيقي لآسيا الصغرى. غزا البونـــت، طرد أولا مثريدات من كولشيد، ثم أجبره على الهرب إلى البوسفور. بعد أن تركـــه حتـــى ابنه، فرناس، مات عدو روما اللدود هذا في العام ٦٣ في بانتكابيه، بعد فشـــل محاولتـــه السير إلى روما بمؤازرة السيث والتراس في شمال البلقان. ومانزال قمـــة الجبـــل حيـــث

القصر الذي مات فيه تحمل الآن اسم "مثريدات". أرسل فرناس جثته إلى بومبيه الذي كافأه بتسليمه حكومة البوسفور.

واضطر تيغران،ملك أرمينيا وصهر مثريدات، وقد هوجم دفعة واحدة من الرومان والبارث، أن يمثل في القيادة العامة لبومبيه ويحصل منه، لقاء فدية من ٦ آلاف تالانت على الصلح، وبقائه بلقب ملك أرمينيا و"صديق الشعب الروماني"، وهذا يعني التابعية والولاء. وفيما بعد شن بومبيه حملة على شعوب ألبانيا (أذربيجان) وإيبيريا (جيورجيا) حليفي مثريدات. لكن صعوبات الحرب، في هذه البلدان الجبلية، فرضت عليهم إنهاء هذه الحملة، مكتفين بإخضاع سكان شرق القفقاس. وعلى السواحل الجنوبية للبحر الأسود، شكل ولايتين جديدتين، بيتيني والبونت. وانطلاقا من روما، اجتاز ما بين النهرين الغربي، فتح مملكة السلوسيد، المنهارة، وحولها أيضا إلى إقليم روماني في سوريا في العام ٦٤. ولملكها الأخير، أنطيوشوس، لم يترك سوى أرض صغيرة من كوماجين، في شرق هذه الحقول القديمة. وفي غلاسيا، كبادوسيا وجودي، نصب ملوكا جددا، مجرد أتباع لروما.

وكانت روما قد وضعت يدها على أراض واسعة، الضفاف الشمالية لمملكة البونت حتى الفرات وتخوم مصر؛ ولم تكن الغنائم أقل روعة وضخامة، لكن بمثل هؤلاء القادة، صنعت الديموقراطية الرومانية بيديها مستقبل سيادتها وسؤددها، معتادة ممارسة سلطة ملكية وغير مستعدة للتخلي عنها.

لكن كراسوس، خصم بومبيه، اتخذ موقفا مغايرا. فلبعض الوقت، كان قد حلم، هو الآخر، بأكاليل غار مارس وداعب مخيلته مشروع احتلال مصر الثرية، بل طائلة الثراء. لكنه، وقد اصطدم بمقاومة حازمة من العناصر المحافظة التي رأت أن وضعها كاف لإمبراطور كبير، التزم بالعمل بوسائل أخرى، أكثر تمويها. اقترب كراسوس إذن من قيصر والقادة الآخرين من الجناح اليساري في الحزب الديموقراطي ولتفتيت سلطة وشعبية بومبيه، في غيابه، راح يمول، من ثروته الطائلة، الحملة الهادفة لإجراء تدابير راديكالية، في الحقل الداخلي.

وبموازرته حقق الحزب الديموقراطي النصر في انتخابات العام ٦٦: وتسمية مرشحيه ب.كورنليس سيللا (الذي، رغم أنه ابن أخ الدكتاتور، كانت آراؤه السياسية مغايرة تماما لآراء عمه) وب.أوترنيس باتوس، إلى منصب القنصل؛ انتخب كراسوس مراقبا،

وقيصر قيما للمدينة. لكن لما خشي مجلس الشيوخ من هيمنة الديموقراطيين في الحكومة شل، بمناورات مبهمة، القنصليين، بتهمة شراء المقترعين وانتخب اثنين من اتباعه، وعقد القادة الحزب الديموقراطي اجتماعا (قيصر، ك.كالبورنيس بيزون، ل.سرجيس كاتلينا) في مسكن كراسوس، حيث احتدم النقاش فوصل إلى مناقشة مشروع انقلاب الدولة.أسفر عن قتل أعضاء مجلس الشيوخ الذين نسجوا هذه المكيدة وتابعيهم، ثم، وقد صار وحيدا، سمي كراسوس مديرا، في أثناء "خلو العرش"، وقيصر كقائد للخيالة؛ وما استتب الوضع، حتى عادت سلطة القناصل الديموقراطيين الذين رقنهم مجلس الشيوخ (سويتون، قيصر، ٩).

ثمة أسباب ما تزال غامضة حالت دون تنفيذ المؤامرة التي حاكها كراسوس (المسماة عادة "أول مؤامرة لكاتلينا" رغم أن هذا الأخير لم يلعب فيها سوى دور ثانوي). شاعت القضية وفشى سرها، لكن نفوذ كراسوس ساهم في خنقها، وكان المتضرر الوحيد هو كالبورنيس بيزون، الذي أبعد منفياً بذنبه إلى إسبانيا.

كل هذا يشهد عودة نشاط العناصر الراديكالية الديموقراطية، المهيأة لمبادرات جسورة. وفي نهاية العام ٦٤، قدم الشاب محامي الشعب سرفليوس رولوس، إلى مجلس الشعب مشروعاً لقانون زراعي واسع المدى. نابعاً من مجموع محامي الشعب: حيازة أراض واسعة وتوزعها على الفقراء على نفقة الدولة؛ تغطي النفقات غنائم الحملات إلى ما وراء البحار، ومنتوج بيع الأملاك العامة والمشاريع الصناعية ومناجم الدولة، إلخ. في الولايات. كانت مدن ومستلحقات الولاية مخولة استرداد ضرائبها النوعية والعينية، وتحويلها إلى مبلغ مالي واحد. ولتنفيذ كل هذه العمليات المالية والزراعية، على مجلس الشعب أن يختار عشرة أعضاء مخولين سلطات إدارية، مالية وقضائية واسعة جداً. كان هذا الإصلاح يعيد، بالتالي، إلى أيدي العشارين تقريباً كل السلطة، وهكذا يبعد مجلس الشيوخ عن الأقاليم، الأموال، والأملاك العامة؛ وهذا يفضي إلى القضاء على تأجير الضرائب وإلى توسيع ملحوظ في الملكية الصغيرة، وتضييق الأملاك الواسعة، المحرومة من اليد العاملة الرخيصة.

وانتشر الصخب إن مشروعاً زراعياً من هذا النوع، يضيق الخناق على الأسر الكبرى، وعلى كبار المالكين، والعشارين -جباة الضرائب- الديموقراطيين المعتدلين أنفسهم. وكما كان قد حدث في العام ١٠٠، قطع الفرسان علاقتهم بالشعبيين. وانتخب

شيشرون، نصير "أشراف رجال الأعمال والمحترمين منهم"، قنصلاً في العام ٦٣، وسمي أيضاً "قنصلاً ديموقراطياً"، ونجح بتشكيل كتلة من أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، ولإفشال مشروع سرفليوس رولوس أمام مجلس الشعب، ألقى ضده ثلاث خطب مصممة بمهارة. ساعياً وراء كل الخيوط الديماغوجية، السخرية، الكذب، والنميمة، والتودد توصل إلى تكتيل عوام المدن ضد المشروع، حتى أجبر مقترح المشروع على سحبه.

ولقد مكنت خطابات شيشيرون (الخطاب الثاني "حول القانون الزراعي"، ٩-١٠) من فهم الاتجاهين اللذين يغلبان في الديموقراطية الرومانية؛ الاتجاه الأول: "سلم، حرية وحياة بدون هموم"، الأمر "الديموقراطي الفعلي" في نظر شيشرون يمثل مصالح الفرسان و"أشراف الناس" بعامة؛ الاتجاه الثاني الدفاع عن مصالح الفقراء، في خدمتهم، كما تعلن هذه الشريحة من الشعبيين، يجب أن توضع كل السلطة وكل مناهل الدولة المادية. كان هذا، لدى شيشرون، نظرية "ضالة" تهدم أسس ليس فقط السلطة بل أيضا رفاهية أو سعادة الشعب الروماني"، وتشكل "شكلا جديدا من المذهب الاستبدادي ولاتقدم سوى "بذر الضيق على الفوروم *Forum* (المصدر السابق، ٨).

كان قائد هذه الشريحة، الخطر جدا في عيون "أشراف الناس"، الحاكم السابق، من العام ٦٥ حتى ٦٣، ل.سرجيوس كاتلينا، الذي كان يجمع حوله عددا كبيرا من أعيان الناس من المجتمع الروماني وأيضا من صف مجلس الشيوخ، الذين كانوا يعانون من أزمة اقتصادية أو من تحكم مجلس الشيوخ. نذكر بخاصة القنصلين اللذين شلهما مجلس الشيوخ في العام ٦٦، أوترونيس باتوس و ب.كورنليس سيللا، والحاكم ب.لانتوس سورا وس.ستغوس ومحامي الشعب ل.بستيا، والفرسان، وكذلك العديد من ممثلي المستعمرات والمستحقات. كان قيصر أيضا قد ربط جزئيا بهذه الفئة، لايلعب دورا هاما، لا يشغل إلا مهام وزير مالية والإشراف على المدن، وكما في الماضي، بقيت هذه الشريحة مع كراسوس. لكن الجمهرة التي تبحث عن مؤازرتها موجودة، باعتراف شيشرون ذاته، وعدوها المخيف في الكثرة الواسعة من المدن والأرياف التي ترهقها وتغيظها الحاجة والعوز (شيشرون، كتلينر الثاني، ٢٠-٢١). ويؤكد سالوس أيضا أن العصيان يربح... العوام في المدن، والشباب في الأرياف، الذي يجرجر حياة بائسة ليكسب قوته بعرق جبينه..، وكل الفقراء بعامة". "إن هذا الوباء الوبيل يطعن أغلب الناس... كل الشعب يتمنى

التبديل بشراهة وجشع، ويصفق لخطط ومشروعات كتلينا" (مؤامرة كتلينا، ٣٦و٣٧).

كان شيشرون يرى في كتلينا وحشا خرافيا، "يتمنى أن يضع الكون كله على النار والدم" (شيشرون، كتلينر الأولى، ٣)؛ أما أصدقاؤه وأنصاره، ليسوا كلهم سوى "عصبة سافلة من الأوغاد التائهين والغارقين في الفجور" (شيشرون، كتلينير الثانية، ١٠) إن هذه المسبات ليست أكثر من التعبير عن الخوف والكره الذي يثيره لدى المالكين الطابع الجذري للحركة. وشيشرون نفسه يخطر بشكل كلبي صديقه بومبيوس أتيكوس أن لايثق بكل مايقوله في خطبه: "أنت تعرف تفجري عندما أتكلم بهذا الموضوع" (شيشرون، رسائل إلى أتيكوس، ١، ١٤، ٤). كتلينا، بالفعل، مثل بومبيه وكراسوس، جندي منشق عن معسكر سيللا إلى معسكر الشعبيين، في الماضي أذيل مثلهما وليس أقل فسقا من الآخرين في حياته الخاصة. ورغم كل شيء لم يغتن بالإبعاد والحرمان، او يغذي أحاسيس عميقة معادية للأولغارشية الحاكمة (سالوست، مؤامرة كتلينا، ٢٠). ومنذ العام ٦٥، كان شيشرون قد سعى للتقرب منه.

واستنادا إلى معلومات المراجع المعادية، الوحيدة التي وصلتنا (خطب شيشرون ومؤامرة كتلينا لسالوست)، كان برنامج هذه الشريحة من الحزب الديموقراطي يتضمن إلغاء الديون، وقانون زراعي جديد وانتزاع السلطة من الأولغارشية. يكتب سالوست بأسلوبه الاتهامي أنهم كانوا قد "وعدوا بمراجعة الديون، حرمان الأغنياء ونفيهم، مناصب الحكم المدنية، البابوية والنهب العام" (مؤامرة كتلينا، ٢١، ٢). وبالفعل، ذات المسائل التي طرحت قبل عشرين عاما في عهد سينا، كانت على جدول الأعمال. إن برنامجا كهذا لايمكن طبعا إلا أن يشد عطف ومساندة الشرائح الدنيا من الشعب الروماني والإيطالي التي كانت راضية عنه تماما مثله مثل برنامج شيشرون وأنصاره، الديموقراطيين المعتدلين والمحافظين.

حاول هذا الجناح الراديكالي من الحزب الشعبي ثلاث مرات أن ينتخب كتلينا إلى منصب المستشار أو القنصل، ليحقق برنامجه، وأخفق في المرات الثلاث، للأعوام ٦٥، ٦٤، ٦٣، بسبب المقاومة المتكالبة ولم يتراجع أمام أي سبيل من الأولغارشية الرجعية وديموقراطيي اليمين المتحالفين معها. وفي العام ٦٣ كان كتلينا أقرب من الآخرين إلى الظفر: جماهير الفلاحين والمعمرين من أتروريا والمناطق الأخرى المجاورة لروما توافدوا

إلى روما ليدعموا ترشيحه، وكان محامي الشعب بستينا قد أعد عوام العاصمة؛ والنساء، الشباب وخاض حملة حاسمة لمصلحة قائد الراديكاليين. وكان الجناح اليساري للديموقراطية في ذلك العام أقوى من كل ما مضى: وحبيب آخر للشعب يوليوس قيصر، كان قد انتخب حبرا أعظم رغم منافسة أمير مجلس الشيوخ كايوس لوتاتيوس كاتوس وطابور كبير من حزب الـ*optimates* بوبليوس سرفليوس ايزوركوس. وفي العام ذاته، انتخب قيصر حاكما للعام ٦٢.

في انتخابات العام ٦٣، وضع الـ*optimates* كل ثقلهم وألاعيبهم ليهزموا كتلينا. اشترى مرشحهم، منافس فيرس، على المكشوف المقترعين حتى أن مناوراته أثارت فضيحة مدوية. بعثت، حتى لدى النبلاء المحافظين، احتجاجات أشراف الناس مثل كاتون، الذي أدانها. وشيشرون، القنصل، غضب من هذاالوضع، ووقف بعنف إلى جانب مورينا ونشر شلالا من النميمة الغريبة ضد كتلينا وأنصاره ووصفه بـ"قاتل مستأجر"، "متآمر، والرمح بيده" (برومورينا، ٤٩). وحصل من مجلس الشيوخ على إعلان حالة الحصار وتأخير الانتخابات لإجبار الفلاحين، المرهقين من انتظار كهذا، على العودة إلى بيوتهم، وفي الوقت ذاته، أغلق هيئات رجال المهن والجمعيات الشعبية. وأخيرا في يوم جمعيات الناخبين (٢٦ تشرين أول ٦٣)، ولإرهاب المقترعين، أحاط ساحة مارس بالقوات وظهر هو نفسه، مدرعا ومحاطا بموكب من أولاد الذوات المسلحين. في هذه الشروط قال بالحرف: "من أراد إنقاذ الدولة من هذا الطاعون انتقل على عجل إلى جانب مورينا" (انظر برومورينا، ٥٢) ولم ينجح كتلينا.

إن فشل الشعبيين لثلاث مرات، محاولين بالطريق الشرعي الاشتراك بالحكومة، هو إذن نتيجة لسلوك انتخابي كريه وضغط الأرستقراطية. فمن الطبيعي جدا أن تدفع هذه الطرق الديموقراطيين المغتاظين إلى السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحا أمامهم، سبيل اللجوء إلى السلاح. وبدأ الـ"كتلينير" (أنصار كتلينا وبرنامجه) الإعداد له، بعد الفضائح الانتخابية للعام ٦٣. واستنادا إلى شيشرون وسالوست، لم تقر خطة التمرد ويبت بها نهائيا إلا في ليل ٦/٧تشرين الثاني، في أثناء اجتماع لقادة الحركة، في بيت أحد المتآمرين م.بورسيس لوكا. ولقد تقرر الإفادة من غضب وإدانة مقترعي الأرياف الذين شكلوا عفويا جماعات متمردة (الأهم كان قد تشكل منذ نهاية تشرين أول في أتروري بقيادة قائد المائة السابق مانليوس)و،

بمساعدة المفوض المرسل من روما، بتنظيمهم في جيش، عليه أن يمشي إلـى العاصمـة. واقتداء بسينا في العام ٨٧ اضطر "القنصل كتلينا"، الممنوع بشكل غير شـرعي مـن أن يحقق مهمته، أن يترأس الموقف. والحاكم لانتوليوس، ومحامي الشعب بسيتا وقادة آخـرون راديكاليون، يسكنون العاصمة، حرضوا العوام. وقد تلقى السيد م.سباريوس مهمة الرجـوع إلى آبوليا، ليدعو فيها الرعاة العبيد إلى الانتفاضة. وعرض اثنان مـن المتـآمرين قتـل شيشرون في صبيحة اليوم التالي بالذات.

كان المقصود تكرار انقلاب العام ٨٧ (شيشرون يسمي كتلينا "سينا الثاني")، بطـرق أخرى، سبيل المكيدة سيئة الإعداد وفي ظروف عامة متباينة تماما إن في رومـا أو فـي الأقاليم. فمنذ ٢١ تشرين أول بالفعل، حصل شيشرون من مجلس الشيوخ علـى القـانون الحربي؛ فجيوش القائدين المسميين، ك.مرسيوس وك.متلوس الكريتي، كانت عند أسـوار روما، منتظرة النصر مهيأة مباشرة لقمع الحركة التي رأت النور في المناطق الإيطاليـة. كان شيشرون قد اطلع على خطة المتآمرين، بفعل شبكة تجسس جيدة التنظيم، ومنذ الثامن من تشرين الثاني، أمام مجلس الشيوخ المجتمع في جلسة غير عادية، فجر "معركة كتلينـا الأولى" الشهيرة، حيث يتباهى بمعرفة كل شيء"، مكرها كتلينا على مبارحة رومـا علـى عجل؛ عوض الجيش الذي يعتمد عليه هذا الأخير، اضطر أن يكتفي، برئاسـة جمهرتـه الصغيرة من فلاحي ماتليوس، المسلحة إلى هذا الحد أو ذاك، والمطوقة بقوات الحكومـة. كان المتمردون قد أخذوا شارة لهم نسر ماريوس الفضي، الذي كان كتلينا يحفظه في بيته.

في جنح الاضطراب الذي خلقته هذه الأحداث، بذر شيشرون الرعـب بيـن سـكان روما، بخطبه المهولة والغاصة بالمبالغات المبتكرة التي ألقاها في الميدان العـام ***Forum***، (ذاكرا وملوحا أن المتمردين، قرروا إشعال النار في روما، في عدة أماكن، وذبح النـاس الطيبين، لتحويل المدينة إلى مغارة لصوص وقطاع طرق). وبناء عليه، أوقف كبار أنصار كتلينا، لانتلوي، ستغوس وآخرين، الباقين في روما، والذين مكنته غفلتهم من القبض علـى التراسل مع نواب الغولوا أولوبروج، المعروف لدى لصوص الحكومة الرومانيـة. وفـي الغد أخرج ملهاته بمحاكمة "أنصار كتلينا" أمام مجلس الشيوخ، غـير المخـول السـلطات القضائية، وخنقهم بحضوره، في سجن مامرتين، في أسفل الكابتول. أرسل القنصل أنطوان ضد كتلينا وقوته المؤلفة من ٣ آلاف رجل (بعكس سينا، رفض أن يضم إلى صفوفه العبيد

الوافدين من كل حدب)، وفي كانون الثاني ٦٢، أكره كتلينا، يائسا من كسر الطوق الحديدي المحكم حوله، على خوض المعركة. بدأ القتال في واد جبلي، قرب بستوريا، (ليس بعيدا من فلورانسا)، صرع كتلينا وأنصاره في التلاحم. وخنقت بؤر الحركة المشتتة في نقاط عديدة من إيطاليا: بروتيتيوم، آبوليا، بسنوم، بسرعة.

لإشهار هذا النصر، أمر مجلس الشيوخ بالتضحية، وبشهر من الأفراح العامة. لكن رغم كل جهوده، لم ينجح بالإجهاز نهائياً على الحركة الشعبية. يتحدث ديون كاسيوس عن الإضرابات المستعرة التي استمر نشوبها في إيطاليا العام ٦٢ و٦١، ضد مجلس الشيوخ؛ وكان عليهم من جديد إعلان الحصار، وإرسال الحكام لقمع السلاح الغاضب في المحميات، وخلع الحكام الكبار (الحاكم يوليوس قيصر، محامي الشعب متلونيبوس) اللذين نهضا، في مجالس الشعب، ينهضون ضد الـ*optimates* (ديون كاسيوس، التاريخ الروماني، ٣٧، ٤٢-٤٤). وشيشرون نفسه اضطر أن يعترف أن الشعب استمر بتمجيد ذكرى كتلينا والاحتفال بذكرى موته في ساح معركة بستوريا (شيشرون. بورفلاكو، ٩٥).

أنهى شيشرون حزينا جداً مدة قنصليته. وفي أثناء الاقتراع على إعدام "المتآمرين" عارض عدد كبير من الشيوخ، على رأسهم قيصر، والتأم اجتماع ضم جمهرة عريضة من الأحرار والعبيد لانتزاع المدانين من أيدي الجلادين. كتب ديون كاسيوس:في نهاية مهمته، كان شيشرون عدو العنف العام "وبعد أن أثبت نفوره في عدة مناسبات، فرضت عليه الجماهير السكوت، عندما أراد أن يدافع عن نفسه... في آخر يوم من قنصليته". (كاسيوس ٣٧،٣٩).

الفصل السابع والخمسون

سقوط الجمهورية

الحكم الثلاثي الأول ونهايته

انتهت حركة عتق الأقاليم، وتمرد العبيد الغريب وحركة الشعبيين بزعزعة أسس الدولة الرومانية. وقد أثبتوا بكل وضوح أن القوة الوحيدة الخليقة بدعم المجتمع العبودي والحفاظ عليه هي: الجيش وقادته المعروفون. لذا، لدى الشرائح السفلى من الشعب. المذهولة بهزائمها، كما في قلب الأرستقراطية التي تتشبث بالسلطة، تلتفت الآمال أكثر فأكثر نحو جندي "منقذ". وأيضاً، خيم رعب هائل على روما، لما علم في خريف ٦٢ أن سينون بومبيه، "العظيم"، أبحر أخيراً مع قواته إلى بروندزيوم. وبدهشة عامة، لم يشأ "سيللا الديموقراطي"، (كما كانوا ينادونه بخوف في الأوساط المحافظة) اقتفاء أثر سلفه وسيده فلم يقم بقلب الدولة بل تصرف بالعكس كمواطن يحترم الدستور: بعد أن كافأ بكرم وأريحية جنوده وضباطه، ترك جيشه وعاد إلى روما،مع لفيف متواضع، ليتلقى أمجاد النصر ويحتل المركز اللائق به وبكفاءاته في المجتمع والحكومة. كمالك لأراض اقتصادية مدمرة، ليست في مصلحة الديموقراطية، التي كان حليفها العارض.

كان بومبيه يخوض زوبعة السياسة الرومانية، وبدا أضعف بكثير مما توقع. وكان خصومه العتاة، لوكولس، كراسوس وغيرهما، يحسدونه، فمجلس الشيوخ يخشاه ويعارضه في كل شيء، بينما تعامله الجماهير الشعبية بلا مبالاة. رغم دعاية أنصاره الديماغوجية أكره على انتظار النصر قرابة العام، ولم يأت النصر إلا في آب ٦١؛ ولم يحصل من مجلس الشيوخ على تصديق التدابير التي اتخذها لتنظيم البلدان المحتلة بأسلحته وتوزيع الأراضي الموقوفة لجنوده.

حاول بومبيه، بحثاً عن حلفاء، التقرب بداية من شيشرون، "أب الوطن"، ليجد في شخصه سنداً في مجلس الشيوخ، لكن شيشرون، الذي كان يقوّم عالياً وشائجه الجديدة مع

الـ optimates، رفض التعاون المقترح، تعاونا ربما جعله يندم كثيرا فيما بعد. فلم يبق أمام بومبيه إلا أن يبحث عن عون لدى قادة الحزب الشعبي وان يعقد كما في العام ٧٠ صلحا جديدا مع خصمه القديم كراسوس ومع قيصر، حبيب الشعب الحديث، الذي تمت حدة نزاعاته المتنامية مع مجلس الشيوخ بديماغوجية أسرة. ففي أثناء السنة العاصفة من حكمه (٦٢)، اعترض بعنف وحسم ضد العقوبات التي كانت مستمرة بطعن أنصار كتلينا ووشى باختلاسات قادة الشريحة الرجعية (كتولوس)، إلخ. حتى حاول مجلس الشيوخ إعفاءه من مهمته، لكن مظاهرة جماهيرية شعبية أكرهته على سحب القرار بعدما نشر.

وهكذا عقد، في العام ٦٠، صلح فريد سري بداية بين الأشخاص الثلاثة الأكثر نفوذا وشعبية في روما: بومبيه، كراسوس وقيصر: وهذا مايدعى "أول حكم ثلاثي". ولقد أشار بلوتارك بحق ان هذا الاتفاق كان بمثابة انقلاب دولة حقيقي "... لقلب الحكومة الأرستقرطية" (بلوتارك، قيصر، ١٣). كان هذا "الوحش ذو الرؤوس الثلاثة"، وهو تعبير فارون المحافظ، يمثل فعلا دكتاتورية تعاونية وخفية.

ومرت التدابير الملائمة للثلاثة من الآن فصاعدا بدون أي عقبة. ودل قيصر، قنصل العام ٥٩، إلى جعلهم يفترعون بمهارة لاسابق لها، بدون اهتمام باعتراضات زميله بيبلوس. لهذا السبب قال الفكهون إن هذا العام كان عام "قنصلية يوليوس وقيصر". لم يدع مجلس الشيوخ وتم العمل بمجلس الشعب.

أقر قانون زراعي قريب جدا من مشروع رولوس: الأموال التي يجلبها بومبيه من الشرق تنفق على شاء الأراضي وتوزع بين معاونيه؛ ومابقى من الملك العام في إيطاليا (وبخاصة في الريف الخصب) وزع أيضا؛ استفادت ٢٠ ألف الأسر كبيرة من هذا التدبير. وصدقت كل القرارات التي اتخذها بومبيه في الشرق ، ورسخ كل الملوك الذين سلمهم عروشا أرسي ملكهم، مثل فيما بعد ملك مصر، بتولميه أوليت، الذي أتى شخصيا إلى روما وسلم الثلاثة المبلغ الضخم، ٦ آلاف تالان مقابل لقب "صديق الشعب الروماني". وحصل الفرسان ورجال الأعمال، المتفاهمون مع كراسوس، على مكاسب ضخمة بتقليص سعر استئجار المزارع إلى الثلث، الأمر الذي أعطى قيصر شعبية واسعة بين رجال المال هؤلاء، وهذا ما عاد عليهم بأقسام أساسية عديدة في مشروعهم. "غضب الفرسان غضبا شديدا من شيشرون، وقطعوا مجددا علاقتهم بمجلس الشيوخ وتوجوا قيصر إلها"، يكتب

أبيان (الحروب الأهلية، ٢، ١٣). فأقام هذا الأخير، بفضل هذه السياسة المحنكة حلفا جديدا من الأنصار، أقوى من الشعب. وغير غافل عن شؤونه الشخصية، بل أمن، منذ أول آذار ٥٩ منصب محافظ، يضم ثلاث ولايات دفعة واحدة، ولخمس سنين: غول غرب الألب، نربونير وإيلليريا.

كان كل هذا يتم تحت ستار إنجاز إرادة الشعب: وبغية وضعه في الصورة، أوجد قيصر مكاتب إعلان لـ"أعمال الحكومة" تلصق على ألواح بيضاء كبيرة في مختلف أحياء المدينة، وتتمها منشورات تتحدث عن أهم الأخبار الصادرة من كل مكان؟ كان هذا بشكل ما أول صحيفة معروفة في التاريخ. وفتحت الروابط الشعبية والنوادي مرة أخرى. وجند عملاءه الثلاثة فيها من نوع المحامي الشعبي كلوديوس، الأصوات الضرورية لتمرير اقتراحاتهم إلى الجمعيات الانتخابية. هذا هو كلوديوس نفسه الذي عمل على اتهام شيشرون، ليميت بدون محاكمة مواطنين رومان، أنصار كتلينا. وفي العام ٥٨، أجبر شيشرون على الذهاب إلى المنفى، ويهدم بيته في البلاط الإمبراطوري. وليرسخوا سلطتهم، عقد الثلاثة فيما بينهم وشائج عائلية: زوج قيصر ابنته جوليا، وهي في الرابعة عشرة، لابن الخمسين بومبيهز وتزوج هو نفسه شابة مثل جوليا، كالبيرنيا، ابنه كالبيرنييس بيزون، الذي سيشغل منصب قنصل في العام القادم.

حكم الثلاثة منسجمين هكذا قرابة ثلاث سنوات، وطيلة هذه المدة، كان المهيمن هو بومبيه، ولم يكن قيصر، إن صح التعبير، أكثر من مدير، لكنه الأنشط والأكفأ في شؤون "الشراكة". على ذلك، لم تكن دكتاتورية الثلاثة هذه، المقنعة بجدول أعمال ديموقراطي، سوى الانتقال نحو الملكية. كان قيصر بمناقبه الشخصية، يتلائم قيصر مع هذا الدور خيرا من بومبيه. كان رجل دولة حقا-خطيبا مفوها، نافذ البصيرة جسورا بالسياسة، كاتبا موهوبا، رجل مجتمع متألقا. وكان في الوقت ذاته كلبيا، لامباليا بأي مبدأ أخلاقي، محتقرا أيضا الأرستقراطية التي ينتمي إليها بالدم، والديموقراطية التي كان قائدها التقليد العائلي، والديني، حبرا أعظم كان حرا تماما في تحقيق أحلامه وخططه المستوحاة من طموح لاحدود له. وليتساوى مع رفاقه في الثلاثية، ماكان ينقصه سوى ثروتهما ومجدهما العسكري، وليتقدم عليهما، كان بحاجة لجيش وقفا على التضحية بالنفس.

إن السنوات الثلاث الأولى من معاون قنصل لدى الغوليين حققت له مايعوزه وأكثر.

استلم قيصر منصبه في العام ٥٨، مباشرة بعد انقضاء وكالته القيصرية، محافظا على وساطة أتباعه المطلعين على كل شؤون روما ومتابعا التأثير فيها. لقد قدم حسابا ليس بدون تذويق على الأرجح، وليس بدون تكتم في بعض الحالات، بالطريقة التي تجعله وفيا بمهمته في أراضي الغول، التي افضت إلى احتلال هذا البلد وتشكيل ولاية أخرى شاسعة وغنية، رومانية، في "إيضاحاته الرائعة حول حرب الغول" (بثمانية كتب لثماني سنين إقامة في غول-كتب الأخير سفيرة أوليس هرتيس).

بسلسلة من العمليات الجريئة والمتوجة بالنجاح، حققها جيش صغير، مؤلف من أربعة ألوية (رفع هذا لعدد فيما بعد إلى ١٠ ألوية)، صار قيصر سيد البلاد خلال ثلاث سنوات.

لكن مشروعه المدعوم بخصب وغنى المنطقة الممتدة بين الألب، الرين والمحيط الأطلسي، التي يسميها الرومان "الغول المشجر" أو "غول شرق الألب" كان ضحية صراع ضار، نتيجة تفكك مجتمع العشير. حرب ضروس ملتهبة أبدا بين العديد من شيوخ القبائل الذين، حسب تعبير قيصر، أعادوا شعبهم "تقريبا إلى عهد العبودية". ولقد أفاد من هذا الوضع جوار شرق الغول، الهلفيت والجرمن، ليشنوا عليهم غزوات مستمرة. وهكذا تمكن الجرماني أريوفست، ملك السويف من احتلال كل الشطر الشرقي من الغول تقريبا، والحشود الهلفيت المتحمسين بدون أمل لاستعادة قراهم الألبنية القاحلة، كانت متلهفة لاحتلال أراض جديدة في المجرى الأدنى لفارون واللوار.

وصل قيصر وهزم الهلفيت وأجبرهم على العودة إلى أرض جدودهم. ثم انتصر على أريوفست وطرد الجرمن إلى ضفة الرين اليمني. وأخضع خلال عامين، رغم مقاومة ضارية، البلجيك، أقوى أمم الغولوا وأكثرها احترابا، المقيمة شمال السين، بينما فعل سفيره بيبيلس كراسوس (ابن أحد الثلاثة) ما فعل معلمه مع الأرمور كان والأكتان، في الغول الغربية. وفي نهاية العام ٥٦، كانت الغول كلها بيد قيصر وسطوة حامياتها رومان، معسكرة في مخيمات منيعة؛ كانت الضريبة السنوية المفروضة على هذه الولاية الجديدة مرهقة (٤ملايين سسترس)[1].

ولقد سرقت كنوز معابد الغولوا التي لاتحصى (كان الكهنة الغاليون يتمتعون بنفوذ

---

[1] – عملة رومانية قديمة -المترجم.

وتأثير استثنائيين) على يد القيصر ومقربيه وعلى يد موجات المغامرين من كل جنس، والوافدين من كل صوب إلى معسكره. عدا الغنيمة، كان الجند يتلقون راتبين وما يشاؤون من مواد المعيشة؛ ولقد وزع عليهم العبيد أيضا. كان قيصر يومئذ مثقلا بالديون بسبب نفقات الحياة الضخمة والهدر بدون حساب والهبات المقدمة للشعب، لأنه كان من كبار الأغنياء ومن أوسع مالكي العبيد. كان يوزع الدراهم، الأغراض الثمينة، العبيد بالألوف على الأعيان المتنفذين، ليوسع عدد أتباعه. وفي العام ٥٥، بدأ البناء، في العاصمة، فورم جديد، المجهز بأفخم الصروح ("فورم جوليان")، وقد كلفه شراء الأرض فقط، لهذا المشروع ١٠٠ مليون سسترس.

إن هذا التفوق هو بذور الانشقاق الأولى بين الثلاثة الكبار. فمنذ العام ٧٥ راح بومبيه يناور ضد محامي الشعب كلوديوس، الرجل الموثوق الأول لدى قيصر ورأس مواليه، بدعم خصمه ميللون وساعيا للتقرب من شيشرون. وبعد ١٦ شهرا من النفي، أعفي هذا الأخير، بناء على اقتراح بومبيه وعاد مظفرا إلى روما. ورغم نفوذ قيصر، كان بومبيه وكراسوس يسعيان أيضا لتقلد مناصب هامة في الأقاليم وجني عون عسكري. وفي العام ٦٥، ولتذليل خلافاتهم وتسويتها، اجتمع قيصر، بومبيه وكراسوس في لوكا، المقر الشتوي لقيصر. كان هذا اللقاء مؤتمرا فعليا لملوك بدون عروش، ولايقل عدد أتباعهم أو مرافقيهم عن ٢٠٠ عضو من مجلس شيوخ. اتفق سادة روما فيما بينهم لإقامة توازن ما. يستلم بومبيه وكراسوس المهام القنصلية في العام القادم (٥٥) ثم المحافظات، بومبيه في إسبانيا، وكراسوس في سوريا. كان قيصر مستمرا لخمس سنين قائدا في الغول. وأعطيت الإدارات المناسبة للأتباع المخصصين الذين يؤمنون ليس بدون مشقة حركية تنفيذ هذا الاتفاق، لأن الانتخابات جرت في شروط عاصفة جدا، بسبب مقاومة الـ*optimates* الضارية (كاتون الابن وغيره).

لقد سوى لقاء لوكا الخلاف وقتيا ، لكن وفاق الثلاثة ظل سائرا نحو تفككه الجتمي. ، فلم ينتظر كراسوس انتهاء قنصليته، حتى سافر إلى ولايته السورية. عطشا شرها للغنائم والانتصارات، التي أشعلتها في صدره أمجاد قيصر" (كراسوس، ١٤). "...بعيدا عن إرواء أطماعه بحكم سوريا والبارث[1]، بل انطلق إلى ألعاب الأطفال أمجاد لوكولس ضد تيغران

[1] – شعوب السيث التي ضمت إلى إيران في أيام حكم الساسانيين –المترجم.

وانتصارات بومبيه على مثريدات؛ وفي آماله المجنونة، كان يرى بكتريان، الهند والبحر الخارجي التابع لأسلحته" (نفس المصدر، ١٦). على ذلك، ما إن وصل كراسوس إلى سوريا حتى انكب على تحضير جدي لحملة الشرق، وسرقة المعابد أيضا (منها معبد القدس)، وابتلاع الفدية من المدن والملوك الحلفاء، واستبدال المال بتقديم قرعات المجندين، وغير ذلك. وبدون استعداد، بدأ العمليات الحربية، وفي صيف ٥٣، على رأس سبعة جحافل، ترك نفسه ينساق وراء البارث في سهول مابين النهرين الغربية الجرداء، حتى وجد نفسه مطوقا قرب كارس (غير بعيد عن غديس) بخيالة البارث ثقيلة السلاح حيث أبيد مع جيشه كله.

في بداية النصف الثاني من القرن الأول ق.م تقلص الثلاثة الكبار إلى اثنين كبيرين قيصر وبومبيه. لكن بومبيه كان يبتعد اكثر فأكثر عن حليفه القديم ويسعى للتقرب من أعدائه، أوساط روما المحافظة، الذين يرون في هيمنة بومبيه، أقرب إلى المصالحة، وأقل ضرراً، مقارنة بهيمنة قيصر "الديماغوجية" المخيفة. ومنذ العام ٥٧، بسبب جوع روما، وبفعل عون شيشرون الكبير، صب بومبيه كل طاقته لتأمين الغذاء للعاصمة. وعوضاً من الذهاب لاستلام حكومته في إسبانيا، كان يدير شؤون هذا الإقليم المدنية والعسكرية بوساطة سفرائه. وفي العام ٥٢، من جراء الصراع الانتخابي الضاري الذي تحول إلى معركة حقيقية في الشوارع بين زمر كلوديوس وميلون المسلحة (كليوديوس قتل ميلون)، وبقيت روما في حاكمية واحدة، وظف مجلس الشيوخ هذه الظروف لتقليد بومبيه سلطات استثنائية، شبه-دكتاتورية: بناء على اقتراح الرجعي المتطرف كاتون، العدو الأول لقيصر، سمي "قنصلاً بدون رصيف" "كان بومبيه آنئذ في قمة قوته في روما، لأنه كان مدعوماً من أعضاء مجلس الشيوخ، دعماً حرم منه قيصر لأنه لم يفعل شيئاً لصالحهم في أثناء قنصليته" (أبيوم، الحروب الأهلية، ١١، ٢٥).

في أوساط روما المحافظة، بدؤوا يتحدثون بصراحة، آنئذ، عن انتهاز الظرف لإصلاح شامل في الدولة، بروح عاهلية مجلس الشيوخ، برئاسة بومبيه. كان هذا الإصلاح هو النظرية التي طورها شيشرون في مؤلفه "ربوبليكا" الذي نشر في العام ٥١. "الحرية بدون كابح، يكتب، تحول بذاتها شعباً حراً إلى عبيد" "وإذا قارنّا أشكال الدولة في حالتها النظيفة، لانرى عيباً في النظام الملكي، بل أنا مقتنع ألاّ بد من وضعه فوق كل الأشكال

الأخرى بدرجات"، بشرط وحيد هو جعل منصب الملك انتخابيا، كما كان ملوك روما الأسبقون وخاضعا لسلطة مجلس الشيوخ. ويجب أن لا ينفر "أب الوطن" من أن يرى هذا المنصب "كمدير" أو "أمير" الجمهورية.

على ذلك كانت "إمارة" بومبيه قصيرة المدة، وهو لم يدم إلا بفضل وضع قيصر الصعب في الغول بين العامين ٥٥و٥٠.اضطر قيصر، بالفعل، إلى طرد غزوة جرمانية جديدة، غزوة أوزبيت والتانكتار الذين، اجتازوا الرين بحشد ضخم، خمسمائة ألف رجل، كما يقال، من شعوب تريفير غطوا أراضي الأرياف الخصبة. نجح المحافظ بطرد قسم من هؤلاء المتدخلين، بفضل حيلة غادرة: جلب إلى معسكره قادة الجرمان، تحت ستار التفاوض، وسقط فجأة على "البربر" الذين كانوا ينتظرون نتيجة المباحثات، وذبح أربعين ألفا. من أجل هذا "الخرق لشرف السلاح الروماني وهذا الاعتداء على الثقة المطعونة" اقترح كاتون على مجلس الشيوخ تسليم "الخؤون" لانتقام الجرمان.

ثم اجتاز قيصر الرين مرتين، ليدب الرعب لدى شعوب الجرمان، وبخاصة، السويف، الذين كانوا يعدون غزوات جديدة. وفي العامين ٥٥ و٥٤، حاول بأسطول ضخم عمر لهذه الغاية، حاول احتلال بروتانيا، "جزيرة ذات مساحة لاتصدق"، راغبا في قطع التعزيزات التي ترد إلى الغولوا. لكنه أخفق هذه المرة (انظر شروحات وتعليقات قيصر، ٤، ٢٠-٣٦و٥، ٨-٢٣).

لكن قيصر وقع في وضع خطر جدا أمام تمرد الغولوا العام الذي نشب في سنة ٥٢. كان على رأس التمرد قائد يقظ محنك من الأرفيرن، هو فرسنجتوريكس، الذي نجح باستنهاض ضد الرومان حتى الحلفاء السابقين: الأدويين، وأعطى التمرد الطابع الوطني فعلا. ذبح العديد من الحاميات الرومانية وشتت الغولوا قسما من خيم الجنود المبعثرين على امتداد هذه البلاد الواسعة. وذاق قيصر نفسه طعم الهزيمة تحت جدران جرغوفيا وتجنب بصعوبة كأداء أن يقبع مكرها في معسكره المنيع. فبعد ان جهز ثلاثة جحافل جديدة، توصل أخيرا أن يحاصر فرسنجتوريكس مع قسم كبير من قواته في أليزيا، لكن الغولوا نهضوا جمهرة (حوالي ٣آلاف رجل لينقذوا قائدهم. فحوصر قيصر نفسه والتزم أن يدافع عن نفسه بين خطين من الخنادق المنيعة، أي المتمردين والمطوقين. وهنا لابد من الاعتراف بمهارة أخصائيي التحصينات لدى قيصر: فهم فقط الذين أنقذوا جيشهم من

ضياع محقق. فقد رفعوا طوقا مضاعفا مستمرا من المعاقل ومن كل نوع: متاريس خشبية محصنة بأبراج، خنادق عميقة، أفخاخ مسلحة بأوتاد حادة الرأس، وجذوع الأشجار وسواها. (قيصر، عليقات على حرب الغول، ٧، ٧٢٠٧٣). وبغطاء من استحكاماته، اقتنص الجيش الروماني اللحظة الملائمة ليمنع بضربة غير منتظرة الجيش من مساعدة الغولوا الذين، من جراء نقص المؤن، لم يقدروا أن يصمدوا طويلا تحت أليزيا. وبعد مقاومة ضارية أجبر الجوع المطوقين على الاستسلام وتسليم فرسنجتوريكس. وهكذا قتل قائد الغولوا عند قدم الكابيتول، بعد أن لاحق على قدميه عربة قيصر المظفرة.

وليس إلا بعد قمع دام خضع له الغول كله، عقابا لهم على انتفاضتهم، تيسر لقيصر أن يصفي حسابه مع بومبيه ومع الحزب الرجعي الذي كان يرفع رأسه أكثر فأكثر في روما. وطرح على مجلس الشيوخ الطلب إلى قيصر أن يقلص قيادته التي دامت طويلا وأن يسمى خلفه. وردا على هذا، طلب بصخب محامو الشعب ج.كوريون، أنطوان وكاسيوس، أن يتخلى بومبيه أيضا عن سلطاته. وهنا أمر القنصلان أميليس باولس وس.كلوديس مرسلس، المنتميان إلى اللفيف الأرستقراطي الأكثر عداء لقيصر، أمرا بومبيه أن يمشي إلى قيصر كعدو، من أجل الدفاع عن الوطن، وتسليمه قيادة كل القوات في إيطالية. دون المبالاة باحتجاجات محامي الشعب الذين أثاروا قضية الاعتداء على شخصية المحامين المقدسة"، هربوا لينضموا إلى قيصر: وهكذا أعطوه ذريعة شرعية ليخوض حربا مكشوفة ضد بومبيه وكل حزب الشيوخ "للدفاع عن حقوق الشعب الأبدية" أو، كما يعلن قيصر نفسه، "...ليؤمن حريته وحرية الشعب الروماني المقموعة من قبل عصبة ما" (قيصر، تعليقات على الحرب الأهلية، ١، ٢٢).

الحرب الأهلية (٤٩-٤٥). دكتاتورية قيصر

سارع قيصر واحتل إيطاليا وروما، قبل أن ينجز بومبيه تجهيزاته. وكان القسم الأكبر من قواته، التي استدعاها من غول غرب الألب، لم يتسن له وقت لوصولها، في بداية كانون الثاني ٤٩، على رأس جحفل واحد، اجتاز فجأة روبكون. التي تشكل تخم إيطاليا وإقليمها، واحتل أرمنوم. وسرعان ما انتشر رعب لاسابق له: "لم يكن الأمر فقط، كما في الحروب الأخرى، رجال ونساء يركضون تائهين في أرجاء إيطاليا. ... وغمر روما نفسها طوفان من الشعوب لاجئة إليها من كل صوب، وباضطراب، في عاصفة هوجاء، لم يكن

ممكنا لأي حاكم التصدي لهذا لا بالحكمة والعقل ولا بالسلطة". أعلن بومبيه مغادرة العاصمة آمرا الحكومة ومجلس الشيوخ اللحاق به، وكذلك "كل أولئك الذين يفضلون على الاستبدادية وطنهم والحرية" (بلوتارك، قيصر، ٣٣) . لكن بومبيه وأنصاره من الأرستقراطية ومجلس الشيوخ، لم يلق أي دعم من الشعب الإيطالي. فالفرسان، العوام، والحاضرات الإيطالية كانوا جميعا وبحزم من حزب قيصر. ورغم المسير الإلزامي الذي باشره إلى الجنوب، عبر أومبريا، بسنوم وبلدان السابان، لم ينجح قيصر في حرمان بومبيه وحاشيته المشيخية والحكام الآخرين، من الإبحار إلى براندزيوم، للوصول إلى الشرق، حيث يعتمد بومبيه على علاقاته القديمة لتنظيم المقاومة. وخلال شهرين صار قيصر سيد إيطاليا كلها، ضاماً إليه القوات المشتتة بدون قائد، احتل روما بدون قتال، واستولى على الكنوز التي تركتها الحكومة وهربت. وبُعيد هذا أعلن نفسه دكتاتوراً (٤٩).

دامت الحرب الأهلية، التي أخذت هذه المرة مدى فريداً، خمس سنين، طالت أرض الامبراطورية الرومانية، وتقريباً كل الأقاليم. لم يكن بميسور قيصر، وهو بدون أسطول ضارب وجحافل جرارة، أن يشرع على الفور بمطاردة بومبيه إلى اليونان، حيث استطاع هذا الأخير أن يحشد قرب براشيوم، إيبريا، أحد عشر جحفلاً، وسبعة آلاف فارس، وقوات كبيرة مساعدة، شُكلت من يونان، ثراس، غالات سيسيليا، كبادوسيين وشعوب أخرى شرقية، وأسطولاً قديراً ينهض إلى ٦٠٠ مركب. في هذه الشروط، بحث قيصر بداية عن خلق قاعدة صامدة في الغرب وأن يحشد فيها قوات على الأقل معادلة. أخذ سيسيليا وسردينيا وأرسل كوريون ليحتل أفريقيا، على رأس جحفلين. فشلت هذه الحملة، لأن كبار الملاك في نوميديا كانوا إلى جانب بومبيه. هلك كريون وكل جيشه، بسيف جوبا، ملك النوميد. وصل قيصر إلى اسبانيا ليثير هذا الإقليم الغربي على بومبيه، واحتلها بعد صولة بسيطة ضد سفراء خصمه، أفرانيوس بتريوس وفارون، الذين انتقلت أغلب قواتهم إليه. وليس قبل العام ٤٨، استطاع أن يسير إلى بومبيه، مع ١٠ جحافل و١٠ آلاف خيال غولوا. وبعد اجتياز صعب لبحر إيجة، في أشد أيام الشتاء، وخسائر عارضة أمام دراشيوم، استغل قيصر غياب قائد محنك لدى بومبيه أو عدة جنرالات يقتسمون القيادة، وتحدى هذا الأخير قرب فرسال (في تساليا). وقبض على جميع أعضاء الحكومة الهاربة تقريباً؛ وعدد كبير، مثل شيشرون، أوقفوا القتال تلقائياً لأن قيصر لم يلجأ إلى النفي والإبعاد بل كان جدول

أعماله "الرحمة والرأفة". أما بومبيه، الذي بحث بعد الهزيمة عن ملجأ في مصـــــر، فقتلـــه أنصار الملك الشاب بتولميه الثاني عشر، القاصر، الذي أراد الانضواء برغبته إلى قـــوات قيصر، والتزم بمشاركة عاهلهم ضد أخته كليوباترا في حربها ضده.

لكن كل هذا لم ينه الصراع. لأن قيصر، المنطلق لمطاردة بومبيه، تدخل في شـــؤون مصر، رغبة في وضع اليد على الكنوز الملكية. وبذريعة الانتقام من ذبح بومبيـــه غـــدرا، الذي دفن ممجدا عسكريا، وعلى ذكراه أقام ضريحا ضخما، قتل عناصر الجريمة، عـــزل بتولميه وأعطى العرش لكليوباترا. أثار تدخل قيصر هذا انتفاضة قادهـــا أنصـــار الملـــك المخلوع، المسماة حرب الإسكندرية، وصلنا عنها بحـــث كتبـــه أحـــد أصدقـــاء قيصـــر الصدوقين، وعرف كتتمة لـــ"شروحات الحرب الأهلية".

إنما اضطر اضطرارا أساسيا أن يقاتل ثلاث سنوات أخرى أنصار بومبيـــه الكـــثر، وحلفاءه، "البومبيين"، في آسيا الصغرى، أفريقيا وإسبانيا. ففي الشرق، بعد موت بومبيـــه، كانت حامية فرناس، ملك البوسفور، واحدة من أمهر وأقدر الذين تابعوا الصـــراع. دخـــل البونت، مملكة أبيه السابقة، صرع دومتيوس، سفير قيصر، وأخذ مدينة أميازس، المواليـــة للرومان، وباع كل سكانها. أجبرت أعماله المتطورة قيصرا أن يجرد له حملة، بغية إنقـــاذ السيطرة الرومانية في آسيا. كانت حملة سهلة، صحيح: فلأول صولة، قرب زيلا، شـــتت جيش فرناس وأكرهه على اللجوء إلى بانتكابي (كيرتش)، حيث قتله أتباعـــه المتمـــردون. وعلى أثر حملة زيلا بعث قيصر رسالة إلى روما من ثلاث كلمات: "*veni, vidi, vici*[1]".

إن هاتين الحربين، حرب الإسكندرية وحرب ضد فرناس، اللتين أبقيتا قيصـــر فـــي الشرق، سمحتا إلى شتات حزب بومبيه أن يخلقوا قواعد متينة في الغرب. ولكي يقمعـــها، شن قيصر معركتين صعبتين وفي غاية الخطورة في أفريقيا (٤٦) وأســـبانيا (٤٥). فـــي أفريقيا، كان على رأس البوميين القنصل لوسيوس سيبيون والحاكم م.بورســـيوس كـــاتون، العدو اللدود للدكتاتور. وبمهارته المعروفة وجه هذا الأخير إلى نوميديـــا ملـــك موريتانيـــا بوكشوس ووجه جنده لمصارعة الفيلة، السلاح الذي ما اعتادوا قتاله. ثم في تابسوس، هزم خصومه شر هزيمة؛ وهلك كاتون وجوبا. وتقلصت مملكة نوميديا إلى إقليم روماني، وفـــي عهد حكومة سلوستس كرسبس، مؤرخ المستقبل.

---

[1]- أتيت، رأيت، انتصرت. جملة مألوفة الاستخدام جدا، للتعبير عن سهولة وسرعة نصر ما -المترجم.

ولقد اضطر قيصر إلى بذل جهود مضنية حتى تمكن من قهر حصن بومبيه الأخير، إسبانيا، حيث لجأ من بقي حيا من حزب "بومبيه الأب" إلى أبنية سنيوس بومبيه وسكتس بومبيه. وتحت تأثير فشله، بدل هذا الحزب لبوسه الأرستقراطية ومال إلى الديموقراطية. تمثيلا لسرتنوس، كان حليفا صدوقا للعناصر الايبرية الأصلية، مجندا بينهم جيشا قويا نظاميا، انضم إليه العبيد. ومثل قيصر، اعترف فيمابعد، بمعركة ماندا الرهيبة، ولإشعال شجاعة جنده، قاتل على رأسهم كجندي، "بعكس المعارك السابقة، حيث قاتل من أجل النصر، سقط من أجل الحياة. لكن بهذا اللقاء أيضا، هزم البومبيون، وأكره قائدهم الوحيد الذي بقي حياً، أن يركب البحر، مع الملتاعين الباقين من قوى الحزب في إسبانيا، ليعيش قرصاناً.

"إن قيصر بعد أن انتهى من الحرب الأهلية، يوجز أبيانْ، أخذ من جديد دربه إلى روما، القادرة والمخيفة كما لم تكن يوماً معه" (الحروب الأهلية، ٢، ١٠٦). يعترف المؤرخ نفسه أن هذا النصر كلفه غالياً جداً: "أمر بإحصاء كل مواطني روما، وكان عدد السكان قد تراجع إلى نصف ماكان عليه قبل الحرب، لكثرة الشقاق الداخلي الذي عانت منه الجمهورية..." (نفس المصدر، ٢، ١٠٢).

خضعت روما مجدداً إلى حكم العسكر، كما في عهد سيللا، إنما بشكل أكثر ليونة. والجند الذين أحسوا القدرة الحاسمة، اضطربوا، عصوا، طلبوا مكافآت واسعة وعدوا بها. كان تمردهم في العام ٤٧، قبل الحملة الأفريقية، خطراً بشكل استثنائي؛ احتشدوا في مضمار مارس، وطلبوا بصخب التوزيع المباشر لـ *donativum* وإجازاتهم. تعرض ساوست، حامل وعود قيصر الجديدة للقتل. وكانت المدينة عرضة للسرقة. لكن ظهور قيصر الذي قدم إليهم بجرأة، وسلوكه الأريب والحازم تجاه المتمردين أنقذ روما من النهب. وبالموازنة بين التهديدات والوعود، عرف قيصر كيف يهدئ حركات الجنود الغاضبة والرهيبة وإعادتها إلى إطار الطاعة. لم يجنوا أقل مما أرادوا وأجبر قيصر أن ينقص إلى النصف عدد المحاصيل التي تراجعت من ٣٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألف. وفي العام ٤٦، تلقى قيصر أمجاد النصر أربع مرات (على الغولوا، ومصر، وفرناس ونوميديا)؛ ولقد وفى قيصر بعهده: "أعطى كل جندي ٥ آلاف دراخما قديمة، ولقائد المائة ١٠ آلاف، ولقائد الألف أو الخيال ٢٠ ألفاً.

ولقد جنت هذه الأبهة الانتصارية، كم ورد في الموروث ٦٠ ألــــف تــالانت نقــدا، و ٢٨٠٠قطعة ذهبية تزن ٢٤١٤ ليرة ذهبية". (أبيان، الحروب الأهليـــة، ٢، ١٠٢). لكــن قيصر افتقر للوقت ليتم توزيع الأرض على أبطاله، بدءا بالرتبة العليا (وزع على ٨٠ ألفا). وراح هؤلاء يعيشون الرغد والرفاهية والقصف والمجون. والشيء الهام الذي اتقاه قيصــر هو النفي، المذابح، والمصادرات، كما في عهد سيللا.

كان قيصر نفسه لايخفي أن سلطته ترتكز أساسا على الجيش. ومثل سيللا، كان لقبــه الرئيس هوالإمبراطور، الذي مارسه كاسمه الشخصي: "الإمبراطور قيصر، أب الوطـــن، الموجه الأبدي" هذا ما نقرأه على النقد الذي ضرب في عهده. وإلحاق ألقاب "أب الوطـــن" و"دكتاتور" يعني أن هذه السلطة العسكرية طالت أساسا كل المجتمع المدني وأن الجمهورية تحولت إلى الأبد إلى ملكية عسكرية.

كانت الدكتاتورية العسكرية المظفرة التي يمارسها قائدها، في الأربعينيات، ذات طابع ليس أقل رجعية ومعاداة للشعب من دكتاتورية سيللا، قبل خمس وثلاثين سنة. رغم أنـــهم كانوا يقيمون صلات مع الديموقراطية. وبالفعل، كان قيصر لمدة طويلة القائد المعترف بـه من الديموقراطية وحزبها، وكان ينتظر منه انقلاب مستوحى من برنامج كتلينا: الأمر الـذي يعلل الذعر الذي تلبس في العام ٤٩ كل العناصر المحافظة وكبار الملاكين، الهاربين مــن إيطاليا مع بومبيه.

لكن تطلعات وآمال الشعب انهارت. ورغم الأزمة الاقتصادية الخانقة التـــي عمــت روما، بنتيجة الحرب الأهلية، اكتفى قيصر بتخفيض فوائد الديون جدا وتقييـــم الرهونـــات بنفس القيم كما في الماضي. وقمع الإضرابات على الفور وبقسوة نموذجية. وفي العام ٤٨، أقيل الحاكم روفوس وأبعد عن روما، لأنه اقترح على مجلس الشيوخ إلغاء الديون. وأعلــن الحصار على المدينة لخنق حركة المتعاطفين مع روفوس؛ وخنق التمرد الذي حاول هـــذا الأخير بعثه في جنوب إيطاليا، بمساعدة ميلون الذي كان قد عــرف منــذ أعــوام سـابقة بديماغوجيته، خنق بالحديد والنار؛ وهلك هذان القائدان في أثناء حملة القمع. وفـــي العــام التالي، ٤٧، حين قدم محامي الشعب ب.كورنيس دولابيلا المطالب ذاتها، التي دعمها بكــل حزم العوام الرومان، الذين أقاموا متاريس في كل الدروب المؤدية إلى الفـــوروم ***Forum***، لمنع مقاطعة الاقتراع، ارتكب معاون قيصر الأول، قائد خيالته، مارك أنطوان وحاكم روما

في غياب الدكتاتور، مذبحة حقيقية في شوارع العاصمة. حطمت قواته المتاريس وشتتت مجلس الشعب، وسقط حتى ٨٠٠ قتيل وقذف بالعديد من الناس من أعلى صخرة تربيين *Tarpienne*. عاد قيصر على عجل، ودلل على عدم الموافقة على ما ارتكب مارك انطوان، وكف عن مطاردة دولابيلا، وأعلن تأجيل الأجور المنخفضة لمدة عام، لكنه بنفس الوقت أغلق كل النوادي والتجمعات الشعبية.

إذ كان يحاول بكل السبل صرف الشعب عن الحياة الاجتماعية والسياسية، بالأعياد والاحتفالات الباذخة المنقطعة النظير، وشد متعاطفيه بكرم بتوزيع المال، القمح، اللحم، الولائم العامة (في إحدى هذه المناسبات، أقيمت ٢٢ ألف مائدة في الهواء الطلق). ولم تعد مجالس الشعب والانتخابات سوى شكليات عابثة: أو يسمي قيصر نفسه الحكام، أحيانا لعدة سنين، أو يخاطب القبائل بالرسائل، طالبا منهم -وهذه الطلبات هي أوامر- أن ينتخبوا مرشحيه. ويبحث فضلا عن هذا عن تحويل الرأي العام عن القضايا السياسية الكبرى مركزا اهتمامه على الشؤون المحلية، وبهذا الهدف ذبح قانونا حول الإدارة البلدية للحاضرات الرومانية، التي توسع حقوقها.

بسط قيصر، ملتمسا الشعبية في الأقاليم حق الحاضرة الرومانية، الذي وهبه دفعة واحدة لسكان غول غرب الألب، بينما تلقى غول شرق الألب، القانون اللاتيني؛ من هنا كانت المستعمرات القديمة العسكرية التي شيدت في المحميات، تحكم نفسها هي الأخرى، لكن الهيمنة بقيت معطاة للشريحة المرتاحة والـ"هادئة" من الناس. على ذلك، لم يبتعد قيصر أبدا عن الفئات السفلى،واستمر يعتبر نفسه قائد الحزب الشعبي.

كان ترسيخ السلطة الملكية يترافق طبعا مع الميل إلى المركزية والبيروقراطية الإدارية. صرح قيصر قائلا: الجمهورية "ليست سوى اسم بدون مسمى و... ليؤخذ كلامي "قوانين". (سويتون، قيصر، ٧٧). كان يهدف أيضا أن يجعل كل مؤسسات الدولة دواليب بسيطة إدارية. ومجلس الشيوخ، المتقلص إلى دور تجمع استشاري -ضم إليه كثيرا من قادة المائة عند انتهاء خدمتهم -نهض إلى ٩٠٠ عضو. وزاد عدد الحكام إلى ١٦، ووزراء المالية إلى ٤٠، و٦ قضاة بلدية؛ وكان المحافظون الخاصون المختارون من بين ضباطه، يسهرون على حفظ النظام في روما. وفي الوقت ذاته، لتوحيد المحاسبة وتسهيل الأعمال الإدارية صك نقد جديد من الذهب وصار العملة المتداولة الوحيدة، ووضع تقويم

جديد، يلاءم المرحلة،لإتمامه شكلت لجنة من الفلكيين الدائمين. تألفت السنة الشمسية، وهي الأساس، من ٣٦٥ يوما وربع اليوم، والأشهر، عدا شباط الذي حافظ على ٢٨ يوما كما الأمر في الدورة القمرية، تكون من الآن، دوريا، ٣٠ و٣١ يوما.

كان قيصر معجبا جدا بأشكال الحكم التي وجدها في الشرق، وبخاصة الملكية الهللستينية، كالتي كانت في مصر، بملوكها المؤلهين، بسلطة غير محدودة، وعظمة البلاط والجهاز البيروقراطي الضخم. جلس في مجلس الشيوخ على عرش من ذهب، وارتدى بزة النصر، والجبهة محاطة بأكاليل من غار، ومعطفا وحذاء أحمر أرجوانيا كمداس ملوك روما السابقين؛ وراح يتذكر باستمرار أصله الإلهي، لأن أسرته تتباهى بانحدارها من فينوس. وبني معبد، أهدي "للمعبود جوليس" أو "جوبتير جوليس"، وخلقت هيئة من الأحبار لتعبده. وملكة مصر، كليوباترا، أتت إلى روما بدعوة منه؛ وتوقع الناس زواجهما الذي يخول قيصر حمل لقب ملك. ولايعود أنصار قيصر يقلقون إن هم توجوا أنصابه بالذهب أو قدموا له الإكليل أمام الملأ. لكن الوقت لم يأت: كان الشعب يتململ من هذه المظاهر العاهلية، وكان على قيصر أن يعزف عن إعلان نفسه ملكا، ريثما يتم إعداد الرأي العام لتقبل هذه البيعة.

وفي العام ٤٥، شرع قيصر الإعداد "لحملة ضخمة إلى الشرق" ضد البارث، الذين كانوا يهددون بدخول أو غزو الأقاليم الرومانية الواقعة على تخومهم. ارتأى، والدرب مشرع، إخضاع الجيت، الذين أسس ملكهم، آنئذ، مملكة جبارة في أسفل الدانوب. بهذه المناسبة، كان أتباعه ينشرون بإلحاح ضجة وإشاعة تقول إن النبوءات القديمة تسند لملك قهر ملوك الشرق. فقط لكن قبل أربعة أيام من قيادة قواته (١٤٥ مارس) ٤٤، قتل قيصر، في مجلس الشيوخ، بأيدي زمرة من المتآمرين الجمهوريين.

وهكذا لم يستطع قيصر إنجاز مهمته وتوطيد النظام "الإمبريالي" العاهلي والعسكري، الذي فرضه على روما، كما أنه كان قد دمر الجمهورية تدميرا كاملا لا عودة له، كما كان الأمر بعد موت سيللا.

انطفاء آخر حركة جمهورية. الثلاثية الثانية، تحريم وإبطال الملكية العقارية الواسعة في إيطاليا

كان منفذو المؤامرة وجوه أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين، وشاغلو أرفع المراكز في الجيش وأقرب المقربين من البومبيين السابقين، ومن عفى عنهم. وكان على رأس

المؤامرة عضوان من أسرة جوليان بروتس الرومانية الثرية: الحاكم ماركوس جوليان بروتس، الجمهوري المتعصب وبنفس الوقت محظي قيصر، حمو ديسموس جونيس بروتس، الذي ولاه الدكتاتور حكومة الغول غرب الألب، والثاني، الحاكم كايوس كاسيس لونجنس، إذا ما أهملنا الحديث عن غيرهما. وكانوا كلهم ٦٠.

لكن موجهيهم كانوا في الصفوف الغفيرة لكبار النبلاء، الذين كانوا يكرهون قيصر. لذا اختاروا، لهلاك هذا الأخير، سور مجلس الشيوخ الذي، كما أملوا، يجب ان يحقق مخططهم في قتل "الطاغية" وإعادة الجمهورية. وبالفعل، لم يقم أي عضو في مجلس الشيوخ بأي حركة للدفاع عن قيصر عندما طوقه القتلة. نجح الاغتيال، ساند أغلب أعضاء مجلس الشيوخ المتآمرين وأعلنوا إلغاء كل القرارات والأوامر التي اتخذها قيصر. ورغب البعض في منع دفن "الطاغية" وطلبوا أن ترمى جثته في التيبر، وفق العادة القديمة. كان خوف المتآمرين الوحيد وأنصارهم الأرستقراطيين الرومان، قيام عمل حربي بقيادة معاوني قيصر الأقرب، القنصل مارك-أنطوان وقائد الخيالة، م.أمليوس، اللذين كانا يقودان كل قوات حامية روما. وللتصدي لهذا الخطر، احتل الجمهوريون الكابيتول وجندوا لحمايته زمراً من المصارعين.

لم يكن "الشعب مهيأ لمتابعة المتآمرين" (أبيان، الحروب الأهلية، ٢، ١١٩). بالعكس طارد القتلة ورجمهم. وبعد عدة أيام من موت قيصر، عندما حمل جدثه إلى الفورم، وتليت على الجمهور وصية الميت، التي تخص كل مواطن بإرث محترم، هجم الشعب المنتفض ودمر بيوت أعضاء مجلس الشيوخ والنبلاء. كان يقود المتمردين محرض ماهر، معتق طبعاً اسمه هروفيل (وتقول بعض المراجع أن اسمه أماتيوس)، المعتبر حفيد ماريوس. كان يعتبر قيصر محامي الفقراء، هلك تحت طعن الأغنياء، بعد أن حض الشعب على ذبح كل أولئك الذين ولغوا في هذه الجريمة وأعضاء مجلس الشيوخ جميعاً. التحق العبيد والمنتفضون بالحركة، التي تعاطف معها أعوان قيصر، المجتمعون في روما بعدد ضخم.

إن الخوف الذي أشاعته هذه الاضطرابات الشعبية قرّب لفترة ما قادة قيصر من الحزب المشيخي وحتى من مغتالي قيصر. وفي جلسة مجلس الشيوخ الأولى، رضي أنطوان وليبيد بعودة الوضع الجمهوري؛ كانت السلطة العليا بيد مجلس الشيوخ والعاهلية بيد الهيئات الانتخابية. وكدليل على الوفاق بين القادة والمتآمرين، سلمهم أنطوان وليبيد أولادهما رهائن. وتخلى القيصريون ليس فقط عن العفو عن القتلة بل سمحوا لهم بالاحتفاظ

بالحاكميات والاقاليم، وضمن مجلس الشيوخ من جهته الصلح التالي: يتخلى الجمهوريون عن رغبتهم في فضح ذكرى قيصر كطاغية، وعن مصادرة أملاكه، وكذلك عن إلغاء كل أعماله وتعييناته. وبعيد هذا، بناء على اقتراح أنطوان، سُن قانون يلغي إلى الأبد الدكتاتورية ويعترف لكل الناس بحق قتل كل مراب جديد.

بعد هذا الوفاق الوقتي والخبيث، انطلقوا إلى قمع الحركة الشعبية. وبأمر من أنطوان،أعدم هروفيل بدون محاكمة. وعندما احتشد أنصاره في ميدان الفورم، أمر أنطوان ودولابيلا، زميله في القنصلية، بتسيير القوات ضدهم. قتل البعض وهم يدافعون عن أنفسهم، وسجن البعض وأعدم (منتصف نيسان ٤٤).

على هذا، أعطى أنطوان مجلس الشيوخ بعض الامتيازات ولنفسه كقنصل حق الإعداد لعودة القيصرية وتسوية الأمور مع خصومه. بناء على طلبه، وعدم رضى مجلس الشيوخ، سماه مجلس الشعب محافظا لغول غرب الألب محل دسموس بروتس، أحد قتلة قيصر. وبذريعة تحويله إلى إقليمه، دعا إليه أربعة جحافل كانت في مقدونيا. فضلا عن وضع اليد على ثروة قيصر الطائلة، بدأ بتجنيد حملات قوية من قادة المائة، تحت ستار الحماية من الديموقراطيين الغاضبين من إعدام أماتيوس. لكن انشقاقا بعث في بنية الحزب القيصري: كان بعض، المحنكين المزودين بأراض، يساندون سياسة عودة الوفاق الوقتي مع مجلس الشيوخ، يؤيدهم أنطوان، ويريد الآخرون عملا أكثر حزما ضد قتلة قيصر ومحرضيهم.وسرعان ما رأى أنطوان خصما خطرا في شخص شاب في ربيعه الثامن عشر، هو أوكتاف، حفيد إحدى أخوات قيصر،كان مقربا إليه قبيل موته، ولهذا السبب سمي كايوس يوليس كيزر أوكتافيانس. كانت ثروته ضخمة، خلاف ما أوصى له به قيصر، أسرة ثرية.

لقد وطد الشقاق بين القيصريين والحرب بين قادتهم وضع الحزب المشيخي. كان شيشرون في مجلس الشيوخ ومجلس الشعب ينفجر ضد أنطوان (*Ses 14 philippiques*). كان التسلح ينشط وضريبة الحرب ترتفع، التي لم تجب منذ ١٢٥ سنة. كلف بروتس وكاسيوس بتجهيز الجيش والأسطول للذود عن الجمهورية، ووضع بإمرتهما كل الحكام الرومان في شرق البحر الأيوني. وكان ينتظر وصول إلى روما آخر أبناء بومبيه، سكتس، والعودة التامة للنظام البومبوي. واتخذ مجلس الشيوخ، حتى تجاه أوكتاف، موقفا مهينا ومعاديا. واستدعى الخوف من بعث الاولغارشية المشيخية تدخل القوة الحاسمة يومئذ،

الجيش. كان الجنود يحاولون منذ زمن، لكن عبثا، التوفيق بين أنطوان وأوكتاف، المفروض عليهم، بنشر سخائه الأريحي ووعوده الحاسمة بمعاقبة قتلة قيصر. وبعد معركة متينا، قرر الجنود أخذ القضية بأيديهم وبعثوا وفدا إلى مجلس الشيوخ: شهر الوفد السيف، وطلب القنصلية لقائده، الذي لم يتم بعد العشرين ربيعا. غضبوا من الرفض وسيروا القوات إلى روما وبدأ القتال في ميدان مارس، فأكره مجلس الشيوخ على الإذعان لرغبتهم. ولإرضائهم، ألغى القنصل الجديد العفو الممنوح لقتله قيصر، وبدأ سلسلة من الاعتقالات والإعدامات بين الجمهوريين ووزع بيد سخية على الجند (٢٥٠٠ دراخما لكل منهم) من مال الخزينة.

في هذا الوقت، تمركز جيش آخر جيش ليبيد، في الغول غرب الألب، وأجبر قائده، المحايد، أن يقف صراحة إلى جانب أنطوان، وهكذا ضم السبعة عشرة جحفلاً بقيادة أوكتاف، الذين رفعوا القناع عن مطلبهم من مجلس الشيوخ.

وفي خريف العام ٤٣، اجتمع القادة القيصريون الثلاثة الكبار في جزيرة رينوس الصغيرة، قرب بونونيا، وبعد مؤتمر لثلاثة أيام، عقدوا فيما بينهم اتفاقاً قرئ على القوات.

قرروا عودة الدكتاتورية العسكرية، ويستلمها أنطوان، لبيد وأوكتاف. وقد منحتهم هذه الدكتاتورية التعاونية، التي تسترت باسم الثلاثية مراعاة لدستور الجمهورية، ممارسة السلطة المطلقة لخمس سنين، حتى أول كانونا الثاني ٣٧. ثم وعلى الفور احتل الثلاثة روما وبعد إعفاء الحكومة، ولتغطيهم مادة شرعية، ضمنوا اتفاقهم بالاقتراع على "قانون"، فرضوه على مجلس الشعب بعد أن أحاطوه بقواتهم. هوذا أصل "الثلاثية الثانية" التي، بخلاف الأولى، كانت ذات طابع رسمي بمعنى الكلمة.

وبعيد هذا، بحجة الانتقام لموت قيصر وإرضاء للجنود، أهرق الدم في أرجاء إيطاليا، ونهبت خيراتها بأمر من الثلاثة الكبار. وعلى مثال سيللا، دبجوا لوائح بالابعاد.وهلك ٣٠٠ عضو من مجلس الشيوخ و٢٠٠٠ فارس،وجمهرة من الأغنياء،منهم شيشرون، هلكوا دون محاكمة وصودرت أرزاقهم. كان الجند يقتلون المبعدين حيثما وجدوهم ويحملون رؤوسهم إلى روما، ليحظوا بالثمن ٢٥٠٠٠ دراخما ويعتق العبد الذابح. ولمكافأة القوات، سلمت لهم ١٨ مدينة الأروع في أيطاليا (كابوا، فينيسيا، بنفانتم، أرمنيوم وغيرها: يطرد السكان، ووزعت البيوت، والأثاث، والأرض والعبيد على جنود الجيش القيصر. وبيعت الأراضي المصادرة بالمزاد وهكذا أغنت هذه العمليات المجزية جدا جمهرة من المضاربين،

والموظفين والضباط القيصريين. ووسع الثلاثة الكبار أنفسهم ثرواتهم، بتسجيل ذويهم في لوائح المنفيين، ليستولوا على أرزاقهم. كان هذا نهبا غريبا، بفضله وزعت أوسع الأملاك وغير شطر كبير من الأرض والأرزاق اسم مالكه (انظر، في الحروب الأهلية، ٤، ٥-١٥، التفصيلات المرعبة التي يعطيها أبيان لهذا الموضوع).

على ذلك، لم يجد الثلاثة الكبار، في نهب إيطاليا، المناهل الكافية لتغطية التزاماتهم تجاه الجنود. فسارعوا بالتالي لبسط نفوذهم على أغنى أقاليم الشرق، التي كان قد سرقها هي الأخرى آخر الجمهوريين الذين كانوا سادة آنئذ. وأعد بروتس وكاسيس، اللذان كانا في مقدونيا جيشا جرارا (١٨ جحفلا)، وسار إلى روما. وبالمقابل مشى أنطوان وأوكتاف على رأس ٢٠ جحفلا، إلى اليونان، وفي خريف العام ٤٢، اصطدموا بقوات بورتس وكاسيس، ليس بعيدا عن أمفبولي، قرب فيليب. دام القتال شهرا كاملا، بشيء من الغلبة للجمهوريين، الأوفر مؤونة والأفضل تسليحا وتنظيما. لكن انتحار كاسيس، الناجم عن فشل جزئي، زعزع القيادة الجمهورية، وفي نهاية تشرين الثاني ٤٢، هزم جيش بروتس شر هزيمة، وخرق بروتس اليائس، جسده بسيفه، وانضمت قواته إلى أنطوان (اقرأ بلوتارك، بروتس، ٣٨-٥٣، وأبيان، ٤، ٥٧-١٣٦).

سجلت معركة فيليب أفول الجمهورية إلى الأبد وترسيخ الدكتاتورية القيصرية. لكن الثلاثية، الباقية الجهاز الأعلى التعاوني في الحكومة الرومانية، وزعت على أعضائها الأقاليم. كسب أنطوان، الذي اعترف له زميلاه بأسبقيته حكومة أغنياء الأقاليم الشرقية، كما ادعى. لإرضاء أطماع الجند، قرابة ٤٠ جحفلا. وتكفل بتنفيذ المشروع الذي بدأه قيصر: الحرب ضد البارث. ووقع الغرب (إيطاليا، غول، اسبانيا) بين يدي أوكتاف، مع مهمة توزيع الأرض على الجنود المحنكين (٢٠٠ سهما، أي ٥٠ هكتارا للرأس). وبدأ أيضا الحرب ضد سكتس بومبيه، الذس احتل سيسيليا، وساد البحر. وأخذ لبيد أفريقيا وثلاثة جحافل.

هذا، وفي نهاية العام ٤٢، لم تكن الدكتاتورية التي أنشأها قيصر قد عادت فقط، بل توطدت بوضوح، بشكل تعاوني، صحيح، وليس بين يدي شخص واحد. كانت الثلاثية الثانية فعلا الدكتاتورية المفتوحة للجحافل، بوساطة حكومة مؤلفة من ٣ جنرالات يتمتعون بأوسع نفوذ وأعمق ثقة لدى الجنود، وبضغط منهم جنوا "تأييد الشعب".

الفصل الثامن والخمسون

أمارة أوغوست

انحلال الثلاثية الثانية. أوكتاف يحتل السلطة العليا

مع ذلك، على مثال الأولى لم تتأخر الثلاثية عن إفساح المجال تدريجياً لدكتاتورية أحد أعضائها. وهذه المرة أيضاً، فرض أحد الثلاثية نفسه، والذي كان يبدو الأقل أهمية وصدارة، لكنه دل على أنه الأمهر، الأكثر تشبثاً والأنفذ بصيرة، والذي عرف كيف يخلق أجود وأصمد سند.

بعد انتصار فيليب، تابع أوكتاف دون توانٍ سياسة النفي والمصادرة ليغمر الجنود بالمكافآت؛ عدا أملاك المبعدين وزع على الجنود أرزاق سكان ست عشرة مدينة من أهم مدن إيطالية، كما رأينا أعلاه كانت (اثنتان من الثماني عشرة حاضرة كانت قد وقعت بين يدي سكستس بومبيه). وأسفرت هذه التدابير عن أزمة اقتصادية رهيبة وفوضى غريبة في إيطاليا. لم يكن المالكون يخفون كرههم "للجلاد" أوكتافيو. وتجلى غضبهم بتمرد واسع نشب في العام ٤١، حرب بيروس (اشتقاق من مدينة أتروريا الواقعة على هضبة صخرية جيدة التحصين أضحت مركز الانتفاضة). كان على رأس الحركة لوسيوس أنطونيس، أخذ أخو أحد الثلاثة الكبار وفولفيا، زوجة هذا الأخير، التي كانت تسعى لنزع الثقة من أوكتاف وتأمين السلطة كلها لأنطوان. لكن أوكتاف أخذ بورس، المحاصرة بثلاثة جيوش: وسلمت المدينة للنهب وأحرقت.وهلك ٣٠٠ عضو من مجلس الشيوخ ووجوه أخرى معروفة من النبلاء أمام معبد "الإله قيصر".

لن يكتب لنظام إرهابي عسكري كهذا طول البقاء. لكن أوكتاف لتوطيد وضعه سعى إلى التصالح مع الطبقة المالكة وأصحاب العبيد في إيطاليا، فقد أصبح هو نفسه مالكاً عقارياً كبيراً، بحيازة الأراضي بسعر بخس، في أيام الإبعادات. فمنذ الثلاثينات، أخذت سياسته وجهة جديدة: بدعم من النواة القيصرية الهامة التي اغتنت مثله، هدف التقارب مع

من بقي من النبلاء الأغنياء الكبار والشرائح المالكة من البلدات الإيطالية. وترجمت هذه السياسة بالهدوء، ثم بإنهاء الإبعادات والمصادرات، والإعفاء عن المنفين والهاربين، وعودة الاستقلال البلدي للحاضرات الإيطالية، الخاضعة حتى آنئذ للحكومة العسكرية (سفراء يمثلون السلطة الحاكمة.

وبدئ بنفس الوقت، في الأوساط المنعمة من المجتمع الإيطالي، بعد فشل حرب بروس، بسياسة سلبية معينة، اتجاهات لامبالية، الاعتكاف في الحياة من أجل التمتع بهدوء بما تبقى من الثروة، والتلائم مع نظام أوكتاف الذي راح يمارس أكثر فأكثر شيئاً من الرحمة والحلم. ساهم بهذا الضباط الذين ارتقوا إلى صفوف مالكي الأطيان والعبيد، والجنود القدماء الذين صاروا معمرين (مستعمرين). كانت السلطة الثلاثية فقط قادرة على حماية حيازات هذه الفئة الجديدة من مالكي الأرض.

لكن واحداً من أسباب التغيير الهامة لصالح أوكتاف انتصر على سكستس بومبيه الذي، من مركزه في سيسيليا، طال إيطاليا الجائعة والمهددة بتمرد العبيد مجدداً. ضم بومبيه، المفتقر إلى الرجال، طوعاً، المبعدين الهاربين والعبيد الذين يشكلون بوضوح عناصر قواته البرية والبحرية. بل كان القائد العام للقوات البومبية المعتق منودور. والثلاثة الكبار الذين كانوا عاجزين عن إنهاء بومبيه اضطروا لعقد اتفاق معه. وفي العام ٣٦ استطاع أسطول أوكتاف بقيادة أغريبا، جنراله البطل، أن يبيد نهائياً أسطول ملك القراصنة هذا، على الساحل الشمالي لسيسيليا. فقد آزر تحالف أوكتاف مع المبعدين المهاجرين إلى هذا الإقليم، ساعد أغريبا على احتلال كل سيسيليا. وكما كتب أوكتاف في سيرته الخاصة، "أعادهم إلى سادتهم، تاركاً لهم الاهتمام بمعاقبتهم"، فقد سجن خلال هذه العملية ثلاثين ألف عبد. وصلب ستة آلاف لم يعثر على سادتهم. واحتفاء بهذا النصر المؤزر في "حرب العبيد"، رفع مجلس الشيوخ لأوكتاف نصباً من ذهب في ميدان الفوروم ومنحه منصب المحامي الشعبي إلى الأبد.

بفعل دعم الشرائح المنعمة في المجتمع الإيطالي والجنود المحنكين المغتنين، أخذ أوكتاف المنصب الأول في الثلاثية.

في العام ٣٦، أبعد منها ليبيد، تاركاً له المهمة الفخرية، كبير الأحبار. وبدءاً من هذا العام، وضع غرب الامبراطورية الرومانية كله مع الجحافل المعسكرة فيه، بين يدي أوكتاف.

كانت العلاقات بين رئيسي الثلاثية،أوكتاف وأنطوان، قد توترت منذ حرب بسيروس. مع ذلك اضطر أنطوان أن يقبل الاتفاق المؤقت والصلح مع أوكتاف، لأن ابن مالك

البارث، باكورس، كان، في العام٤٠، قد خرب الأقاليم الرومانية الغنية في آسيا: سوريا وفينيقيا، فوجودت روما نفسها مهددة بضياع الشرق. انتهى هذا الاتفاق إلى معاهدة وقعت في العام ٤٠ عرفت بمعاهدة بروندزيوم التي اكدت في العام ٣٧ اتفاق تارانت الذي مدد خمس سنوات للثلاثية.

كان الإعداد لحرب قاسية وخطرة ضد البارث قد أجبر أنطوان على البحث عن تحالف متين مع أغنى بلدان الشرق، مصر. لابل تزوج ملكة مصر كليوباترا، وأعطاها لقب "ملكة الملوك"، وأقطع أبناء هذه العاهلة أملاكاً من أقاليم الشرق الرومانية. لكن حملة أنطوان على البارث آلت إلى الفشل: لكنه نجح بعد جهد جهيد في تجنب ما أصاب كراسوس ونقل عبر أرمينيا من تبقى من جيشه (العام ٣٦ ق.م). أفاد أنصار أوكتاف من الوضع بهمارة لمهاجمة أنطوان. وتمت القطيعة في العام ٣٢ق.م. بدأ أوكتاف بانقلاب حقيقي في روما: تقدم من مجلس الشيوخ مع مرافقة ضخمة من جيشه، عزل ٤٠٠ من أعضائه، أنصار أنطوانن وأكره القنصلين على اللجوء إلى هذا الأخير. وبخرق العادة الدهرية، ألزم الراهبات على تسليمه وصية أنطوان (فيما يخص كليوباترا وأولادها)، وتلاها على مجلس الشعب، الذي أقال أنطوان من سلطاته في الثلاثية. وأعلنت الحرب على كليوباترا لأنها استلمت أملاك الشعب الروماني.

بدأ القتال بين جيشي الخصمين عند الشط الشرقي لبحر الأدرياتيك، حيث هيأ أنطوان، في خليج أمبراسيا، قاعدة نزول في إيطاليا، قصد انتزاعها من أوكتاف. من الزاوية القتالية، كان أنطوان أقوى، لكن أوكتاف كان يتمتع بدعم كل المجتمع العبودي الإيطالي-الروماني وحتى اليوناني، والذي وقف إلى جانبه. فضلاً عن هذا كان جنود أنطوان يعانون الجوع، لأن السكان المحليين رفضوا تزويدهم بالمؤن؛ فبدأت الاضطرابات في الجيش. استغلالاً لهذه الظروف، رغم أنه أقل عدداً، أنزل أسطول أوكتاف، بقيادة أغريبا، في الثاني من أيلول ٣١، وفي رأس أكتيوم، هزيمة ساحقة بأسطول أنطوان. هرب هذا الأخير إلى مصر، تاركاً جيشه البري، الذي استسلم، بدون قتال، إلى أوكتاف. وفي العام ٣٠، استلم أوكتاف آسيا، سوريا، فينيقيا، فلسطين وغزا مصر، آخر بلد شرقي مستقل. انتحر أنطوان وكليوباترا، وتراجعت مصر إلى محمية رومانية، لكن بوضع خاص، جعل منها بشكل ما ملكية خاصة لأوكتاف وأسرته.

وفي العام ٣٠، التأم شمل الدولة الرومانية، بعد ١٢ عاماً من التفكك، وأخلت الدكتاتورية العسكرية المكان للملكية التس استلمها أوكتاف. وانفتح عهد جديد، عهد

الإمبراطورية الرومانية.

أوكتاف يجدد تنظيم القاعدة الاجتماعية لحكومته، آخر عشرين سنة من القرن الأول ق.م.

ساد أوكتاف وحده الإمبراطورية الرومانية، لكنه لم يقتف خطى قيصر بل تجنب العودة التامة إلى نظام الدكتاتورية العسكرية أو يختار نظام الملكية المطلقة من النمط الهللنستي. اتبعت سياسته الداخلية ترسيخ دكتاتورية الجيش ومالكي العبيد، دكتاتورية محافظة في إبعادها وأهدافها، لكنها تقي وتصون مراسم الجمهورية. وكانت تستند إلى تحالف كل الفئات المالكة والمستعبدة، ولم يكن العامل العسكري مدعوا لأن يلعب فيها دورا ضد الثواب المناسب، لأجل الدفاع عن مصادر الرفاهية وتوسيعها.

تشكل سيرة أوكتاف الذاتية المنشورة بعنوان "أعمال أوغست المقدسة" مرجعا في غاية الأهمية، للتعرف إلى الخط العام في سياسته الداخلية. وهذه الألواح، المنقوشة في مدخل ضريحه، وصلتنا بشكل نسخ. أتمها نسخة أنسير، ولذا تسمى الوثيقة نفسها غالبا "منحوتة أنسير". والأنسب الرجوع إلى هذا السند بكل حذر، لأن أوغست لايضمنه سوى أعماله الحسنة، بل يبالغ غالبا، وليس بدون تشويه الأحداث.

إن أهم الاستحقاقات التي ينسبها لنفسه، منذ السطور الأولى (الفقرة ٣)، وإليها يعود كثيرا، هو أنه حرر وكافأ جنوده، ويشير بخاصة إلى توزيع حوالي ٣٠٠ ألف سهم من الأرض، وأنفق دراهمه وأسس عددا كبيرا من المستعمرات العسكرية (٢٨) في إيطاليا وفي أرجاء الامبراطورية.

لكن أوكتاف لم يكافيء بكرم فقط، بل عرف كيف يخضع لسلطته كل القوات العسكرية في الدولة. وبعد أكتيوم، قلص أوكتاف في اليونان أيضا عدد الجيش العام، ولم يبق تحت السلاح سوى ٢٨ جحفلا هم الجنود الأقل خطرا والأكثر انضباطا (١٥٠ الاف تقريبا). استمر هذا العدد وما يناسبه من الكتائب المساعدة طيلة عهد أوغست. كان يجب على كل عسكري أن يخدم عشرين سنة، خلالها يكون كل وقته في خدمة الدولة. كان ذهاب أول جيش دائم مرتزق في الدولة الرومانية. يتقاضى الجندي مرتبا سنويا ومخصصات تقاعد (سهم من الأرض أو مبلغ من المال ليؤمن أيامه الأخيرة). كان الجيش يرابط على الحدود، بعيدا عن العاصمة. يعيش الجندي في الثكنة وليس له حق تأسيس أسرة.

كانت هذه القوات خاضعة لانضباط صارم. لم يترك أوكتاف في روما سوى حرسه

الخاص، "قياديه"، أي تسع كتائب في كل منها ١٠٠٠ عسكري، وأفــواج مــن الشــرطة ("كتائب المدينة")، غير قادرة على ممارسة أي ضغط في الشــؤون السياســية. ويمســك أوكتاف بيديه كل إدارة الجيش ويتدخل بكل شاردة وواردة حتى تسمية قادة المائة. ويوقــع دوما بلقب :امبراطور"، جاعلا هذا اللقب مثل قيصر اسمه الخاص.

في نفس الوقت انفصل فجأة عن الفئات الديموقراطية في المجتمع الرومــاني، التــي بحث أوكتاف لديها عن دعم وسند في العامين ٤٤ و٤٣. وفي أعمال شعراء القصر، التــي تعكس الأوضاع الجديدة لحاميهم، ظهر في حوالي العام ٢٧، تعبير مهين للشعب هو "النذل الخسيس"، "حري بالاحتقار والمقت" (هوراس،أناشــيد، ٢، ١٦؛ ٣، ١، ٢). وبعــد هــذا، تراجع الاقتراع على القوانين وانتخاب الحكام في الهيئات الانتخابية إلى شكلية عابثة، ومــن هنا، لم تتأخر الحياة الاجتماعية والسياسية النشطة حتى آنئذ، عن الســقوط إلــى البــلادة. ولخنق أي نشاط، سمم الشعب بترو بكل أنواع النزوات، موفرا له فقط "الخبز والأفــراح". وارتفعت جراية الجندي اليومية من القمح من جديد إلى ٣٠٠ ألف، أي خمــس موديــس[1] للجندي. واستلم أوكتاف بيديه شخصيا تنظيم وصول القمح من الأقاليم. فضلا عن هذا، فــي الفصل الخامس عشر من "أعماله" يعدد ليس بدون تململ توزيع الدراهم على الشعب. ومــن الطبيعي جدا، أن يشرع الجمهور الروماني بتفضيل الحظوات والمسرحيات وهي التعبــير الرهيب عن إرادة العاهل في الهيئات الانتخابية. ومن بين التدابير الهامة الأخرى المتخــذة لتوطيد النظام العبودي، التقييد الذي أضيف إلى حق عتق العبيد. وفــي العــام ١٠، أعيــد العمل بالقانون القديم الذي يحكم بالموت على كل العبيد–الخدم، في حال قتل أو ذبح أي من سادتهم.

تابع أوكتاف تدريجيا سياسته في التقرب من الشرائح العليا في المجتمــــع العبــودي. طهر مجلس الشيوخ، في عدة مناسبات، من عناصر الصدفة، الذين تغلغلوا فيه فــي أثنـــاء الحرب الأهلية. ورفعت ضريبة عضوية مجلس الشيوخ إلى مليون سسترس، منـــها مائـــة ألف فقط على الأقل تعوض بعقار. وصار عدد أعضاء مجلس الشيوخ ٦٠٠ عضوا، يجــب أن يكونوا جميعا قد مروا في واحد من المناصب الحكومية ذات الكرسي العـــاجي، وازداد عدد هؤلاء الأخيرين، بحيث يزداد عدد المتمتعين بامتيازات قنصلية، حكومية، إلخ. أمجـــاد عظيمة وحقوق هامة (صدرية مطرزة ببند عريض من الأحمر الأرجواني، أمكنه شـــرف

---

[1] – عبوة أو وزن روماني.

في المسرح والسيرك، أعلى مقامات الجيش والإدارة الإقليمية) مصانة كلها لهذه النواة الصغيرة العليا والغنية في مجلس الشيوخ. وحددت الطبقة الثانية، الفرسان، بـ٤٠٠ ألف سسترس. فقد لبسوا الصدرة المزركشة بشريط ضيق من الأرجوان، والحلقة الذهبية، مكانهم في المسرح، يلي مقعد مجلس الشيوخ، والوظائف الهامة الإدارية وفي الجيش محفوظة لهم. منهم يختار قادة الحرس الحكومي، والولاة، أي كبار الموظفين المكلفين بإدارة الشؤون الاقتصادية والمالية في المحميات (في الإيالات الصغيرة، يستلمون مهمة الحكام الفعليين)، إلخ. وكان ممثلو النبلاء الأغنياء في البلديات يخضعون من الآن للحاكمية الرومانية، الأمر الذي يفتح لهم باب مجلس الشيوخ.

النقوش الضخمة المهداة لأوغست "المنسق والمحسن" تثبت رضى أوساط هذا النظام الجديد. وكانت النخبة المثقفة آنئذ (هوراس وفرجيل مثلا) تظاهر أوكتاف وتساندنه أيضا.

وهكذا طلق هذا الأخير القوى التي ساهمت باستلامه سيادة الامبراطورية الرومانية: فمن ديموقراطية قيصر السالفة، التي استمرت كامنة تحت الرماد، في أثناء دكتاتورية قيصر، والتي علا اشتعالها لفترة بعد أفكار آذار ٤٤، لم يبق أي أثر لها خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن. وبعد اكتيوم، كان أوكتاف قد صار ممثل ورئيس كل طبقة ومتوسطي مالكي العبيد في إيطاليا، وعلى هذه القاعدة الجديدة، راح يرتفع، ببطء محسوب، صرح عاهلي جديد من نموذج جديد-الامبراطورية.

الإمـــارة

أدرك أوغست جيدا، بعد قيصر، أهمية التقاليد والعادات لدى الشرائح العليا من المجتمع الروماني، فعرف كيف يدبر نوعا من الصلح، "ينستر فيه العاهل حسب تعبير سنيك، بعباءة الجمهورية". أخذ هذا النظام، وهو ليس إلا ملكية متنكرة، الاسم المقبول ظاهريا حتى لدى الجمهويين، "الإمارة"، الذي يعطي الدور الأول في الجمهورية "للمباديء"، أي المواطن الأول، "بسبب يقظته، حلمه، عدالته ورحمته"، كما يعلن النقش المداهن على شرف أوكتاف، المحفور على ترس ذهبي في مجلس مشيخة جوليان، الصرح الحكومي الأول.

بعامة، يعتبر ١٣ كانون ثاني من عام ٢٧ يوم بداية الإمارة. ففي جلسة رسمية لمجلس الشيوخ ألقى أوكتاف في هذا اليوم خطابا أعلن فيه، أن استقرار النظام يجعله يتخلى عن كل سلطاته ويعود إلى حياته الخاصة. وبالتالي، بالفعل، طرح كل استحقاقات الملكية الهللنستية، راغبا عن تسمية "إلها"، مبعدا عن حاشيته كل المظاهر الشرقية في القصور

الإغريقية وقال، على الأقل بالكلام، ليس راغبا بالتخريب، بل بإقامة وتوطيد المؤسسات الجمهورية ثانية.

لكن هذا ليس إلا ملهاة سياسية، حيث يضاف المكر إلى النفاق، لأنه في الجلسة نفسها، "خاضعا" لرغبات مجلس الشيوخ والشعب، رضي بتسنم حكم كل المحميات الحدودية، حيث لم يستتب الأمن بعد، وبشكل عام، كل الأراضي التي تحشد قوات مقاتلة. فحافظ بهذا على سلطاته العامة، مع لقب امبراطور. ورضي مجلس الشيوخ، وهذا صحيح، إعفاءه من حمل إدارة "الممتلكات السابقة الخاضعة (كورسن سدينيا، سيسيليا، أفريقيا وآسيا، برغام)، التي بقيت محميات "مشيخية"، يحكمها محافظون يسميهم مجلس الشيوخ. لكن إلى هذه المحميات أيضا يرسل الإمبراطور وفوده، الحكام، المكلفين بتجنيد القوات،بوضع ضريبة الحرب، وبإدارة أرزاقه، وغيرها، إن هذا الازدواج الظاهري بالسلطة، الموزعة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، خولت أنصار أوكتاف الزهو باحترام المؤسسات الجمهورية.

قد أضيفت فيما بعد إلى هذه السلطات الأساسية امتيازات عديدة أخرى. ففي العام ١٩، استلم أوكتاف "القنصلية الدائمة": الحق باسم عشر فائس (حامل فأس) و، في مجلس الشيوخ الذي يرأسه، الحق بكرسي عاجي بين كرسيي القنصلية لسنة واحدة، حق دعوة مجلس الشعب، إدارة الانتخابات، إصدار الأوامر التي تبدو له ضرورية، إلخ. ومنذ العام ٣٦، صار أوكتاف محامي الشعب الأبدي، وأكد لهذه السلطات لنفسه في العام ٢٣، ضامنا هكذا تستره وحقه في الاعتراض على أوامر مجلس الشيوخ ومجلس الشعب. وبدءا من العام ١٢، أضحى كبير الأحبار ومحافظا على الإشراف على المؤن، منظما خزينته الخاصة الأغنى من خزينة الدولة السابقة، المتروكة لتوجيه مجلس الشيوخ. وكان أوكتاف يضطلع دوريا بالسلطات الضرورية لإنجاز الإحصاء، وتطهير مجلس الشيوخ، إلخ. إن تركيز كل الاستحقاقات بيد واحدة جعله عمليا عاهلا وحده. ولقد جهد أنصار النظام الجديد في خلق انطباع مؤداه أن هذه السلطات لن تمكن أوكتاف من ممارسة التحكم الملكي، بل تمنحه فقط "سلطة" لا تناقش وتجعله "المواطن الأول" في الجمهورية، -مبادئ. وهكذا اعتاد أوكتاف أن يسمى رسميا منذ العام ٢٧. وألحق بهذا اللقب لقبان ساميان آخران: أوغست أي الجليل و"أب الوطن".

سياسة أوغست، المحافظة في الداخل والعدوانية في الخارج

إن الرغبة في الإشارة إلى أنه، في سياسته الداخلية، كان يهدف فقط إلى ترسيخ أسس

المجتمع الاستعبادي وبعث أيام الجمهورية السالفة، تظهر وغيرها بتشجيع أوكتاف على دراسة هذا الماضي، وتاريخه. وهو نفسه يطلع تيت-لايف على اكتشاف الأوابد ووثائق التاريخية. وكان فرجيل مفعما بالأمجاد والمكافآت لملحمته إنياده[1] *Eneide*. وأوفديوس نازو المنكوب اعتمد على قصيدته *Fastes*[2] ليحظى مجددا برضى أوكتاف. وحوالي العلم ٩ق.م. ظهر "علم الآثار الروماني لدينيس ابن هلكارناس.

إن تعظيم الماضي، الذي وجد تعبيره في هذه الأعمال التارخية شبه-الرسمية، انعكس في الاهتمام الذي أبدته حكومة أوغست، بالحفاظ على دور مهيمن "للشعب الروماني القديم". بعكس قيصر، الذي وسع كثيرا دور الحاضرة، نادرا ما ظهر هذا الحق في أيام أوغست، بل فقط بلقب شخصي، لخدمات استثنائية. كان المعتقون مسجلين بين (الأجانب) أو كانوا أشخاصا متمتعين بالحق اللاتيني. فثمة خط فاصل حاسم بين الرومان واللا-رومان، هو إبراز الحق الروماني بالسيطرة واستثمار الشعوب الأخرى.

كما واهتمت الإمارة أيضا بإحياء "الأخلاق القديمة". وسنت سلسلة من القوانين بغية توقير الأسرة الرومانية، التي تعاني التفسخ، بإعادة الاعتبار للسلطة القديمة في الحياة والموت لأب كل أفراد البيت الروماني والعبيد. وإعمالا لـ"قوانين إيوليا"، يستفيد المواطنون الذين أنجبوا ثلاثة أولاد من وضع متميز، في العمل الإداري؛ وتقلصت حقوق العازب: وكانت أرزاق الزوجات الشائنات معرضة للمصادرة (كالعقوبة التي طالت ابنة أوحفيدة أوغست).

كما سعى أوغست لإحياء الروح الدينية، وهي الأساس الآخر للحياة الرومانية السالفة. ويعتبر الورع أساس الفضائل المدنية. رممت المعابد القديمة، وبنيت معابد جديدة في كل مكان، منها "ضريح قيصر المقدس"، في مكان محرقته المأتمية. وأوليت عبادة الامبراطور الحديثة عناية خاصة، لانتشارها بخاصة في المحميات، والمعبر عنها بإقامة معابد لأوغست وأنصاب للإلهة روما.

لم تكن سياسة أوغست الخارجية هي الأخرى سوى تتمة لسياسته روما العدوانية التقليدية. ولقد تم إلحاق روما والغول في عهده. فضلا عن هذا، ساد الرومان، بعد أن

---

[1]- ملحمة لفرجيل بـ١٢ نشيدا (٢٩-١٩ق.م) تأخذ هذه الملحمة نفس المقام لدى الرومان الذي تأخذه الأوديسة والإلياذة لدى اليونان -المترجم.

[2] - قصيدة أسطورية لأوفديوس (بين عامي ٣ و٨ بعد الميلاد)-المترجم.

سحقوا السالاس، الذين كانوا يعيشون في سفوح الألب الجنوبي، الممرات الرئيسية لهذه السلسلة الجبلية (سمبلون وسان-برنار في العام ٢٥). ثم في عهد أبناء أوغست المتبنين، دوروسس وتبريس، غزيت الألب الوسطى والشرقية وأسست محميتان جديدتان، في أعالي وادي الرين والدانوب-الرينيا والفاندلسي[1] (العام ١٥ ق.م). وقبيل هذا، بلغ الرومان السرير الأوسط للدانوب، الذي كان قد صار محمية ببونيا[2] (العام ٩ق.م). وفي ذات الوقت، بعد صراع ضار ضد الجيت والميسيين، وتدمير قواهم المنيعة نجح الجنرالات الرومان بتأسيس مخفر مسيتين في أسفل الدانوب، حيث أسوا مستعمرة ميسيا[3]، التي ضمت المستعمرات اليونانية استرس، تومس وغيرهما. وقد بدأ نفوذ روما ينتشر في كل الشاطيء الشمالي للبحر الأسود، فاضطرت ديناميا، ملكة اليوسفور السابقة الجبارة أن تتزوج ، ملك البونت بولمون، وأن ترفع أنصابا لأوغست، نقش عليها: أوغست "سيد الكون، منقذه والمحسن إليه".

إن هذا النجاح العسكري، على طول الرين والدانوب، لا ينسب فقط للرغبة في "وجود الحدود الطبيعية" ضد العالم البربري، في الشمال كما يقدمه غالبا المؤرخون البورجوازيون المعاصرون، وسعيا وراء تمجيد وتبريد "قضية أوغست". إن نشوب أقسى صراع وأعنفه على الطرف الآخر من هذه الحدود الطبيعية، وراء الدانوب والرين، (على أرض ألمانيا الغربية الحالية)، يدحض هذه الفرضية. ولقد بدأت العمليات الهجومية في هذه المنطقة، العام ٢، بقيادة دراسس، الذي هزم خلال أربع سنوات كل الأمم الجرمانية بين الرين والألب. وبعد موت دروسس، ابن أوغست المتبنى المحبوب (نتيجة سقوطه عن الحصان، عند العودة من إحدى الحملات)، خلفه تيبر، ابن الامبراطور المتبنى الثاني، وبفضل حملاته في العام ٥ق.م. أمسى كل شمال غرب المانيا حتى مصب الألب محمية رومانية، باسم جرمانيا. ولم يبق إلا هزم مملكة الماركومانس العظيمة، الذين يعيشون على روافد الألب، ولهذه الغاية جهز الرومان جيشين جرارين.

لكن هذا التوسع أوقفه التمرد الرهيب الذي شنته شعوب بنونيا ودلماسيا في جنوب بنونيا التي أرسلت إليها كل قوات جيش الدانوب بما فيها جحافل ميسيا. وفي روما، فريسة

---

[1] - شمال سويسرا وبلغاريا الحاليتان.

[2] - في هنغاريا والنمسا الحاليتان.

[3] - في صربيا وشمال بلغاريا الراهنتان.

الرعب، كان ينتظر غزو إيطاليا، فدعي كل الناس القادرين على حمل السلاح لخدمة الوطن، وشكلت أفواج من العبيد، المتطوعين. انصرمت ثلاثة أعوام (٦-٩ب.م) من القتال حتى استطاعت القوات الرومانية، بقيادة تيبير، قمع هذا التمرد.

لكن بعد ثلاثة أيام من إعلان النصر على البانونيان والدلماس، علمت روما بانتفاضة جديدة حازمة حاسمة هي الأخرى انطلقت في جرمانيا. كان أومنيوس، قائد الشيروسك الشاب، قد أباد حتى آخر رجل، بما فيهم جنراله العام ب.كنتليس فاروس، أي جيشا رومانيا من ثلاثة ألوية وتسع تجريدات مساعدة، جارا إياهم كلهم بحيلة حربية إلى غابة توتبرغ- الكارثة[1] (في العام ٩ق.م). ومن جديد أغرق هذا الداهية الدهياء روما في ذهول وإرهاق لايوصف. وأوغست، اليائس، ترك شعره ولحيته أشهرا بدون تزيين، و"كان يضرب من وقت إلى آخر رأسه بالباب، وهو يصرخ: كنتليس فاروس، أعد لي قواتي". (سويتون، أوغست، ٢٣).

لقد ضاعت كل ألمانيا ماوراء الرين، ولم تستطع روما استعادة نفوذها فيها، رغم حملات تيبر وجرمنكوس، ابن دروسس، خلال عامين ١٢ و١٣. بل اكتفوا بالدفاع عن ضفة الرين اليسرى، بحوالي ٨٠ ألف رجل (٨ جحافل)، وسلسلة من المواقع المنيعة، التي أحدثت لحماية الإقليمين الجديدين في جرمانيا العليا والسفلى.

كانت هاتان الضربتان القاصمتان اللتان وجهتهما طليعة العالم البربري إمارات إنذار للصراع القادم، يوم يتحتم زوال امبراطورية روما العبودية.

عندما مات أوغست، في العام ١٤ ب.م. صدر قرار صنفه في صف الآلهة، وسجي جسده مع الأماجد الاستثنائيين في الضريح الذي أعد مسبقاً. وسمي شهر وفاته منذئذ "أوغست" -آب- على ذكراه. لكن كان مستحيلاً توقع عودة هذا النظام السياسي الذي أسس ليبقى أبداً. في كل حال، وفي وصيته، طلب أوغست من أحفاده توفير نفقات السلاح والتسلح واتباع سياسة خارجية مسالمة.

---

[1] – قرب مدينة أوسنابروك الحالية في وستفاليا.

الفصل التاسع والخمسون

الحضارة الرومانية في أيام نهاية الجمهورية وإمارة أوغست

أن نظام الدكتاتورية العسكرية الموضوع بخدمة الدولة العبودية، بإبعاد وبعثرة نشاط الجماهير الاجتماعي والسياسي، مارس تأثيرا سيئا على الحياة الثقافية، الناشطة جدا في أثناء العصر العاصف في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الأول ق.م.

فقد ساهمت نقاشات الفورم الحامية، والدعاوى السياسية، ونشاط المعاهد والجمعيات الشعبية قبل كل شيء بتفتح فن الخطابة. كان الأخوان غراسك خطيبين كبيرين؛ وفي أيام ماريوس اشتهر م.أنطونيس (جد المثالث، قنصل العام ٩٩) ول.لسنيوس كراسس، ببلاغتهم. وبعد هذا سمي كوانتس ورتنسيس هورتلس (قنصل العام ٦٩)، نصير النبلاء، "ملك المنصة"، لكن بتأثير مدرسي البيان في القصور الهللينية، كانت خطاباتهم مدحية، متكلفة، مصطنعة، بينما امتازت خطابات يوليس قيصر، قائد الديموقراطية المعروف، بالعكس، بانسجام مبسط وكانت تشد الجمهور بحماسيتها. لكن الخطيب الأشهر هو ماركوس توليس شيشرون (١٠٦-٤٣ق.م)، الذي تأخذ بلاغته الحضور بين منحيين. كان قد تعلم الخطابة على مدرسي البيان في رودس وأثينا. وكان يعد العدة كلما اضطر للظهور أمام الملأ، ناسجا خطاباته حسب خط صارم، ماهر يأسر الحضور بنبراته المؤثرة. وأغلب خطاباته محفوظ لأنه كان يلقيها ماأن يكتبها. وعرفت عنه إتهاماته ضد فيرس، حاكم سيسيليا الجلاد، وخطابه إعطاء كل السلطات لبومبيه، وتلك التي أعدها وتلاها في القانون الزراعي،و *ses cati linaires et ses*[1] *philippiques*[2] ضد أنطوان. عرض المباديء

---

[1] - اسم اعطى لأربعة خطابات لشيشرون كتلينا، في العام ٦٣ ق.م المترجم.

[2] - خطابات سياسية لشيشرون ضد أنطوان. المترجم.

العظمى لفنه في أبحاثه أوراتور، برتس وغيرهما.

وفي أيام الأخوين غراسك، ولد الهجاء والهزء[1]، كنوع من القصيد الروماني البحت، كنوع من استعراض الأحداث الراهنة، الذي يقدم الفوضى وعيوب الحياة الاجتماعية. بسخريةفي روما، يرون أن "مبتكر الهجاء" الشاعر كايوس لوسيليوس (توفى في العام ١٠٢)، هو ابن المستعمرة اللاتينية سويسا. كان يكتب بلغة بسيطة، "للشعب"، بشكل سداسي المقاطع، الشعر الأكثر حرية يومئذ، ولم يوفر في أهاجيه الأشخاص الأكثر نفوذا.

في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول ق.م. كان المسرح أيضا قد تحرر من منع معالجة القضايا الراهنة. كان الباحثون الجدد، تتنيوس، معاصر الأخوان غراسك، ت.كينتوي آتا، الذي كان في أيام ماريوس وسينا، ول.أفرانيوس، يطرقون بجرأة الموضوعات التي تحرك المجتمع الروماني ويلبسون أشخاصها أثوابا رومانية، ولذا سميت أعمالهم "ملهاة بثوب قاضي أو محامي أو أستاذ. يقدمون للمسرح صغار الناس-صناعيين، فلاحين، -وأحيانا- يسخرون أيضا من طيش وعبث النبلاء. وكان ممثلو الطبقات المتنفذة يتحدثون بكره عن هذا النوع من المسرح.

وكانت الحكايات الشعبية القديمة قد صارت المسرح المفضل لدى الرومان.

وأخيرا حفظت التراجيديا خطوات هامة. كتب أكسيس (المتوفى حوالي العام ٨٥) حتى ٥٠ تراجيديا، في موضوعات مقتبسة من التاريخ والأسطورة اليونانيين لكنها معالجة بشكل مبدع؛ وكان النضال ضد المستبدين، طرد الملوك (بروتس)، والانتفاضات الشعبية، موضوعاته الأثيرة. وكما يفص شيشرون، كانت الجلسات الأهم والسمات الأصح في هذا الفكر الحر، تثير، حتى في عهد الثلاثية الأولى، عاصفة من التصفيق على مقاعد المسرح كلها.

قد جعلت الشروط الجديدة التعلم في غاية الضرورة. وكانت الآداب التي تنشر العلم بقسوة، كانت تعلم في الشوارع، بمبلغ رمزي ٨آس في الشهر، مبادئ القراءة والكتابة والحساب. وكان تعليم الحلقة الثانية يدرس في مدارس "أساتذة القواعد" (الأدب اللاتيني

---

[1] – منذ أبعد الأزمان، سمي الهزء نوعا من القديد المستخدم في القرى، بمناسبة أعياد الحصاد، وتتبيل الأغاني المرحة بالفكاهات.

واليوناني، ومباديء في الهندسة والموسيقى). وكان التعليم العالي من اختصاص أساتذة البلاغة، -أغلبهم يونان مقيمون في روما (يعلمون فن الكتابة والفلسفة). كانت هذه المدارس، وبخاصة "مدارس القواعد"، موجودة أيضا في مدن إيطاليا الأخرى، ومفتوحة أيضا، كما يقول هوراس، للأطفال المعتقين والجنود.

مع بث العلم، كانت مؤلفات الشعر والنثر تكبر باستمرار، وقد ولدت حلقات أدبية، حيث يتلو الكتاب من مؤلفاتهم، قبل أن ينسخوها بعشرات النسخ بواسطة ناسخ عبد لدى الناشرين وتباع في حوانيت كتب الفورم والشوارع المجاورة. وقد قدمت عشرات بل مئات الكتب على المسارح في عهد أوغست، لأنها لاتلائم توجه سياسته الجديدة. ومعلقات قيصر الشهيرة في حرب الغول (٨ كتب) وفي الحرب الأهلية في العامين ٤٩-٤٨ (٣ كتب) هي نموذج هذا النوع من الأعمال الأدبية، مكتوبة للطبقات المنعمة من المجتمع المثقف.

كانت القصيدة الرومانية هي الأخرى في قمة ازدهارها. ومع انحطاط التقاليد القديمة، رفعت الفردية رأسها في المجتمع الروماني، والغنائية، -التعبير عن الأحاسيس الشخصية، ازدهرت. كان الغنائيون الرومان يأخذون القصيدة الهللينية مثلا لتلك الأيام، المنتقاة، المفخمة، التعليمية، المشبعة بالمقارنات والصور الأسطورية. من أعمال هؤلاء الشعراء لم يصلنا سوى شعر ك.فالريس مكتلوس (مات حوالي العام ٥٤)، الذي نجح جزئيا في التحرر من الأسلوب المنمق (الاسكندري)، لغناء أشعار إيقاعية، بدون تزويق أو زخرفة، في الأحاسيس والأفكار الأثيرة، حبه للسبيا (كلوديا) والألم الذي تركته في جوارحه خيانتها. وكان كتول، نصير الجمهورية، يعبر بقصائد ساخرة عن كرهه لقيصر وحاشيته. وإنجاز آخر لكتول هو أنه أول من أدخل إلى القصيدة اللاتينية تناسق الوزن الشعري الأيولي ***eolien***، المقتبس من اليونان. ويمكن، بكلمة، اعتباره مؤسس القصيدة الغنائية الرومانية.

وقدم العلم الروماني أيضا إنجازات هامة. كانت البذور قد انتقلت على يد اليونان الذين راحوا يزورون أكثر فأكثر العاصمة ويقيمون فيها أحيانا. والفيلسوف اليوناني الكبير باناتيس (١٨٠-١١٠)، كاتب أهم بحث في "الواجب"، كان يعيش في كنف سيبيون إمليان. وتلميذه، العالم الشهير بوزدونيس (١٣٥-٥٠(، فيلسوف، مؤرخ، جغرافي وفلكي، زار روما مرارا. وكان أستاذ بومبيه، شيشرون وفارون. ولفيف من أساتذة البيان، الفلاسفة،

الشعراء من درجة أقل كانوا مستقرين في روما، حيث يعلمون الشباب الرومان.

م.ترانتيوس فارو (١١٦-٢٧) واحد من أكبر العلماء الرومان في أواخر أيام الجمهورية. جمهوري مقنع، كان يسمي الثلاثية الأولى "وحش بثلاثة رؤوس" ويشهر سلاحه بيده ضد قيصر. أكره على الانسحاب من الحياة العامة، أوقف ما بقي له من العمر في جمع وثائق حول الماضي الذي كان غاليا عليه. سوالف الشعب الروماني، أعلام الترجمة ، وتسجيلات لمواقع معروفة، للعادات والتقاليد القديمة والدين القديم، أهم أعماله السبعين. وهو الذي حدد "تاريخ تأسيس روما" بين عامي ٧٥٤ و٧٥٣ ق.م.

في نهاية حياته ألف أيضا موسوعة، يعرض فيها أسس كل العلوم المعروفة حتى عهده. لم يصلنا منها للأسف سوى شطر صغير (الربع تقريبا دراسة اللغة اللاتينية وبحث في الزراعة).

شيشرون هو الآخر وضع بصمته في العلم بعدد من المؤلفات، حيث يبسط أفكار اليونان الفلسفية. يكتب بألمعية بشكل حواري، ليخلق فكرته المجردة أكثر قبولا لدى القارئ. وألف أبحاثه "في الجمهورية *les Tusealanes*[١]، في الواجبات، إلخ. منعته انتقائيته تبني إحدى النظريات الفلسفية. ورغم طابعها السطحي، مارست أعماله نفوذا واسعا في ارتقاء الأفكار الفلسفية في روما، خلال قرون. وشيشرون هو واضع علم المصطلحات الفلسفية الرومانية.

لكن ألمع ممثلي الفكر العلمي الروماني في النصف الأول من القرن الأول ق.م، هو الشاعر الكبير تيتوس لولكرتيوس كاروس (لوكريس) (٩٨-٥٥) كاتب أهم وأشهر قصيدة فلسفية "في الطبيعة". حياته مجهولة تقريبا، لكن يفترض أنه ينتمي للفرسان وأنه كان الأقرب إلى الحاكم ميميوس الذي أوصى له بقصيدة، الذي نشره شيشرون بعد وفاة الكاتب.

كان لوكروس واحدا من التلامذة النجيبين لنظرية أبيقور المادية. شعره، وهو في ثلاثة أجزاء، مؤلف من ٦ كتب. الاثنان الأولان يعرضان النظريات المستوحاة من نظريات ديموكريت وأبيقور، في الذرة والفراغ غير المحدود التي يراها مباديء الكون الواقعي الوحيدة. ومن حركة هذه الذرات في الفضاء تولد كل الظواهر وكل حالات

---

[١] – من مدينة توسكلوم، حيث كتب شيشرون كتابا بهذا العنوان (٤٥ق.م) -المترجم.

الطبيعة. ويعالج الجزء الثاني (الكتابان الثالث والرابع) طبيعة "النفس" التي، هي الأخـــرى، مادة كباقي أجزاء الجسم وتموت معه؛ ويدرس لوكريس في هذا الجزء مختلف ظـــاهرات الحياة الفيزيائية، التي تعود هي أيضا إلى مبدئها المادي. أخيرا، في الجزء الثالث (الكتابـان الخامس والسادس) يعطي لوحة ضخمة لأصل العالم،ولادة الحضـــارة ووصفـا لبعـض ظاهرات الطبيعة المريبة أو المخيفة. ومن الشرط الحيوانـــي، ارتقـى الإنســان بجـهوده الخاصة، ودون أي مساعدة من الآلهة، إلى الحياة الحضارية، رغم أنه مازال يعيش شـــر وخير عيوب المجتمع البشري، وبخاصة يعيش جشعا لاحدود له، "النحاس مرذول والذهـب ممجد" (البيت ١٢٧٥). ولوكريس، رائد أبيقور ومتبنيه، يقرظه بخاصة لأنه تجاوز إنسـانية الخرافات القديمة، وصايا العصور المظلمة، الآراء الدينية المسبقة، خوفا من الموت، التـي يعالجها الكهنة والأفكار الخانقة حول الحياة بعد القبر. الدين يلد الجرائم، والضحايا البشرية، ولهذا السبب هو شائن ومقزز في عيني لوكريس.

لكي يتناول نظريته أكبر عدد من الناس، عرضها شعرا، ليحلي عسل القصيد اللذيـذ" الحقائق المجردة. إن عمل لوكريس، الشاهد على الصراع الاجتماعي الضاري الدائر فـي روما، مفعم بإلحاد مناضل، غريب عن روح نظرية أبيقور، التي تطالب "بطمأنينة النفس".

لم يكن لوكريس وحيدا في نشر مفاهيم مادية. فقد كان قيصر أيضا (رغم أنـه كبـير الأحبار) غير غريب على الآراء الإلحادية والمادية. فمن المحتمل أن تكون تلـك الحقبـة عرفت الكلمة الشهيرة: "لن يستطيع عرافان أن يراقبا بعضيهما دون أن يسخرا".

فانطلاقة الحضارة، في السنين الأخيرة من عهد الجمهورية، حددها طيـش الحركـة الاجتماعية التي كانت تدعو إلى الحياة الثقافية للفئات العديدة جدا في المجتمـع الرومـاني والإيطالي. وفي أيام إمارة أوغست، ساهمت العناصر الإيطالية المندمجـة فـي المجتمـع الروماني في إدخالها إلى "العصر الذهبي" لحضارتها. لكن "العصر الذهبي" هذا أوصلـها إلى نقطة الأوج. وعندها هوت حياة الناس الاجتماعية، في عهد الدكتاتورية العسكرية، إلى جحيم البلادة، لم يبق للحياة الثقافية الرومانية سوى موضوع خدمة مصالح الفئات العليـا، المنتصرة، والمساهمة بتنفيذ خططهم. التي أخذت ألقا مبهرا خارجيا وهي تعيش انحدارهـا الداخلي.

لقد ارتدى أوغست أبهة لأنه كسى بالرخام مدينة وجدها آجـرا" والمعـابد العديـدة

والصروح الأخرى، التي شيدت في عهد أوغست، كانت تقصد تمجيد الحكومة الجديدة وترسيخ جبروت روما العبودية، وكثير منها نسب إلى هذا الحدث أو ذاك من حياة الأمير نفسه. ولقد شيد معبد أوبولون الفخم، مثلا في ذكرى انتصار أكتيوم، الذي اعتبر هذا الإله مساهما فيه؛ ومعبد جوبتير تونانت، في الكابتول، لتذكير أن الصاعقة وفرت أوغست وقتلت عبدا أمامه. ويحمل بعض الصروح أسماء أعضاء من أسرته: رواق ليفيا، زوجة الأمير، وبازليك جوليا، ابنته، إلخ. وفورم أوغست الجديد، المبني بالرخام الثمين، يتميز ببذخه وروعته؛ ولم يكن مع ذلك مخصصا للشعب، بل للمحاكم ومؤسسات الدولة الأخرى. وفضلا عن حمامات الحمة الفخمة، بنى اغريبا، صديق أوغست، بانتيون، معبدا دائريا واسعا،وقفا على آلهة كل شعوب الامبراطورية الرومانية المجددة. شيدت كل هذه الصروح بالأسلوب الهلليني،الفخم والمصطفى والذي يعطيها مشهدا متعاظما، باردا ورسميا.

يمتاز النحت في ذلك الزمن بالأكاديمية ذاتها. وكانت الشوارع، الساحات العامة والمعابد المزدانه بأنصاب للأبطال الرومان، قد بدأت بروملس. وكانت تماثيل الأمير كثيرة جدا. أشهر نصب أوغست، هو الذي اكتشفت قرب بريما بورتا، والذي يمثله مدرعا، بوضعية جنرال منتصر، بينما يعرف الجميع انه لم يكن رجل حرب. وعلى شرف أوغست "المسالم"، أقام مجلس الشيوخ "معبد السلام" الضخم، مزدانا بمقرنصات أثرية تقدم الامبراطور وأسرته سائرين على رأس مجلس الشيوخ والشعب. على الآثار الفنية، كالقطع، الحجارة المنحوتة، إلخ، نرى أوغست جالسا بين الآلهة، يستلم وثائق خضوع المحميات. واقعية الفن الديموقراطي الروماني إلا في معالجة الثياب والديكور. الوجوه والسمات مؤدلجة *idealises*: الفنانون يفقدون مع الزمن، حريتهم، وعفويتهم الأخاذة: بل كانوا ملتزمين بالخضوع إلى القانون المفروض من فوق.

حرية التعبير، إبان إمارة أوغست، لم تعد مقبولة في باقي المجالات الثقافية. وتقلص فن الخطابة إلى تمارين عابثة بلاغية. وكان المؤرخون يتحملون مضايقات الرقابة. والقيصري أزنيوس بولليون، الذي لم يستحسن سياسة أوغست تجاه أنطوان، اضطر أن يترك عمله في تاريخ الحروب الأهلية ناقصا. والمؤرخ والخطيب كاسيس سفرس نفي إلى جزيرة كريت، لأنه انتقد بشكل لاذع أعمال أوغست وأتباعه. وأحرقت أعمال ت.لبنوي بأمر من مجلس الشيوخ، لأن مؤلفها من رواد الجمهورية. وتيت-لايف نفسه، لأنه قرظ

بومبيه وسماه أوغست "بومبي". في هذه الشروط، يأخذ التاريخ، مع تيت-لايف ودنيس بن هلكرناس طابعا رسميا. إذ بدأ يشيد بدون حدود بأعمال روما العظيمة وينكر على المكشوف الحركات الشعبية وقادتها (قدم تيت-لابف، مثلا، كل قادة العوام في القرن الخامس والرابع، كصانعي اضطرابات وديماغوجيين).

فقط العلوم البعيدة عن السياسة، مثل الفلسفة والقضاء (القانون المدني)، استطاعت أن تتطور دون عوائق، في عهد إمارة أوغست. وشيوخ علم القواعد اللغوية جوليس هجنوس وفريس فلاكس (مؤلف القاموس) عاشوا في هذا العهد. وفي ذلك العصر تشكلت مدرستان متنازعتان في شؤون القضاء، هما مدرستا أنتستيوس لابيو وآتيوس كبيتو، اللتان انكبتا على تفسير ومنهجة الحق. وبدأت الشريحة المتميزة في المجتمع تتحمس وتنزع إلى الفلسفة.ولم يكن هذا الحماس وبالتالي الشهرة لنظرية لوكريس، بل إلى المدرسة الرواقية، الأكثر انسجاماً مع فكر النبلاء الرومان، فاقدي جبروتهم السالف، لأنها كانت تعلم تلاميذها أن يسلكوا سلوكاً شخصياً يجعل أرواحهم خالدة، هادئة وغير مبالية بالظروف الخارجية.

النشاط الاجتماعي، الذي لاتوظفه الحياة السياسية، تابع نموه في روابط أدبية عديدة التيارات. وصارت المطالعات العامة لأعمال رجال الأدب والمناقشة الأدبية هي الموضة أو الدارجة. وأسمعتنا المعارضة صوتها. وحفظت مثلاً قصيدة بعنوان "اللعنة"، التي ربما كان ناظمها فالريس كاتون، صديق كاتون، ينذر بعقوبات السماء الـ"محارب الملحد" الذي احتل له أرزاقه.

ولما وعت حكومة أوغست أهمية الأدب كقوة اجتماعية راحت تسعى إلى سيادتها أيضاً. فتشكلت روابط أدبية شبه رسمية، حول شخصيات من حاشية النظام تمتلك فيما تمتلك مصادر هامة لتأمين الحياة المادية لمؤلفين كبار تشدهم إليها. هكذا ولد منتدى ش.سللنيوس ماسناس، محافظ روما. وجمع ميسن حوله أشهر شعراء العصر، مثل فرجيل، هوراس، وبوربرس. ونشبت بينهم وبين شعراء المعارضة مجادلة حامية، وبفعل حماتهم الأعلين، نجح الأولون أخيراً بإبعاد خصومهم.

أهم شاعر في عهد أوغست هو ب.فرجليوس مارو (٧٠-١٩)، الذي مارس تأثيرا واسعا ليس فقط على الأدب الروماني بل على الآداب العالمية. ولد فرجيل في ضواحي مانتوا، حيث كان يملك عقارا صغيرا. ورغم أنه تلقى تربية ألقة، حافظ طيلة حياته على

شيء من "الريف"، في مظهره الخارجي، كما في عواطفه ومصالحه. وفي أعماله الأولى، "العرويات"، غنى سحر الريف، مقلداً غزلية تيوكريت المرهفة. وفي أيام الإبعاد، خسر فرجيل حقله، والمساعي التي بذلها لاستعادة حقوقه قربته من بعض الأعضاء المتنفذين في حزب القيصر. وفي بداية الثلاثينات صار صديقاً لرابطه ميسين وبعد سنوات، بناء على طلب ميسين وربما أوكتاف نفسه القلق من انحدار الزراعة الإيطالية، كتب. "زراعياته". إنها قصيدة زراعية في متناول العامة، أوقفت كتبها الأربعة الأولى على الزرع والضرع، زراعة الكرمة، وتربية الطيور والنحل. ونما المشروع وغزرت خيراته في طبيعة زراعية. لكن في هذا العمل، واضح نفوذ حماه الشاعر. وفي مقدمة الكتاب الأول، اهتم فرجيل بإعلان أن قيصر أوكتاف عبادة جديدة تألقت بسرعة في السماء كنجم ساطع. وبالتالي أظهر رغبته في تشييد معبد من مرمر ليوضع فيه نصب للإله الجديد.

كان الطلب الثاني من فرجيل هو نظم القصيدة الملحمة *Eneide*، التي كتبت لتمجيد ماضي روما والجد الأسطوري لأوغست، تروايان إيني *Troyen Enee*. في ١٢ نشيداً من إينيد، يقص فرجيل استناداً إلى التقاليد القديمة وتخيلاته الشخصية، كيف وصل إيني بعد تطواف طويل إلى ضفاف لاتيوم مع ولده إيول *Iule* وجمهرة من المحاربين التروايين، وهو جد أسرة الملوك اللاتان، ومنهم روملس وريموس، مؤسسو روما، معتبرون من نفس الأرومة، وفي "نبوءات" يدخل فرجيل الفصول الماجدة من تاريخ روما الحديث، وأحداثا تخص أوغست وأسرته. لاينسجم الموضوع كثيراً مع الموهبة المسالمة والدمثة للشاعر، غير القادرة على تصور التقوى والورع، والمآثر البطولية، والحروب والمعارك. فضلا عن استمرار تملق وإطراء أوغست وأقاربه بدون حدود وبشكل محنق. يقال إن فرجيل، بعد عمل ١١ سنة في هذه الملحمة، ولم يتمها، أراد، قبل أن يموت، حرق هذا العمل الذي يعتبره شائنا. نشرت إينيد بأمر من أوغست، درست، وكان لها الكأس المعلى في القرن الوسيط والأزمنة الحديثة. لكن العلم المعاصر يرى أن الشاعر الكبير كان قادرا على إعطاء عمل أوفى وأروع لو لم يلزم بمعارضة عبقريته. وقد سمي بلنسكي الناقد الروسي المعروف فرجيل "هوميرس الكابي[١]".

---

[١] – ف.بلنسكي، أعمال مختارة، منشورات ياسية، ١٩٤٨، مجلد ٢، ص٥١١ (منشورات روسية).

بعد موت فرجيل، خلفه كوينتي هورايوس فلاكوس (٦٥-٨)، كبير مغني روما، أميرا للشعراء. كان أبوه، المعتق، قد أعده للأعمال الإدارية، وبعثه ليتم تربيته في أثينـــا. ولقـــد فوجيء هوراس فيها بالحرب الأهلية ٤٤-٤٣ وخدم في جيش بروتس وكاسيس. ولما عـــاد إلى روما بعد العفو الشامل للعام ٤٠، وجد وظيفة ناسخ لدى وزير المال، لأن جنود الثلاثية احتلوا بستان أبيه، و"الفقر الجريء"، حسب تعبيره هو، جعله يهتم بالشعر. وفـــي أعمالـــه الأولى، الإيبود[1] والهجاء، نحس آثار مثالياته القديمة للجمهورية.

قد خولت محاولات هوراس الأولى الارتباط بفرجيل الذي ضمه إلى رابطة ميسين. وفي الأيام الأولى، مع ذلك، استقبل هذا الأخير ببرودة الشاعر المنشق عـــن المعارضـــة. لكنهما شيئا فشيئا عقدا صداقة؛ وتلقى هوراس هدية من ميســـين حقـــلا معطـــاء، وهكـــذا انضوى في وسط سادة روما الجدد. وطرح عليه أوكتاف أن يصير أمين ســـره الخـــاص. وفي أناشيده، يدعو هوراس إلى التمتع بالحياة، وكتب أشعارا فـــي الغـــزل؛ ناســـيا ولعـــه بالجمهورية، فرح بنصر أكتيوم وابتهل أن يعود "قيصر" سالما معافى من هذه الحملة. وفـــي العام ١٧ قرظ هوراس، بناء على طلب أوغست ومدحه "نشيده الدهري"، وفي كتابه الرابـــع من الأناشيد، يطنب ويختال بمآثر أبناء أوغست المختارين، تيبر ودروسس. وفي آخر ســـنة من عمره، كتب هوراس رسائل شعرية إهداء لأوغست، بيزون وأصدقائه الآخرين، فـــي موضوعات في الحياة العادية، أو بالأصح فلسفية وأدبية. وفيما يخص الشكل، كانت أناشـــيد هوراس، قمة القصيدة الغنائية الرومانية، لكننا لانلقى فيها نبرة الحرية الفخـــور؛ ولا هـــذه الأفكار المتقدمة التي كانت تخصب أعمال الشاعر في عهد الجمهورية. إن كارل مـــاركس يرى هوراس شاعرا "فرحا جدا"، رغم نزقه، لكنه يلومه لـــ"زحفه أمام أوغست".

أما مصير الشاعر الثالث الكبير في أيام أوغست، -ب.أوفديس نازو (٤٣ق.م. ١٨م). كان مأساويا بشكل فريد. هو ابن فارس ثري من سولنوم، في بلاد البلنيان، خضـــع لنفـــوذ وبيل من علية المجتمع الروماني المنهارة، التي، تخلت عن الحياة العامـــة وعـــن شـــؤون الدولة، راحت تبذر وتسرف بالإنفاق، وكان أوفيد شاعر الحـــب الطـــائش المبتـــذل. فـــي العشرين من عمره، نشر بعنوان "فخريات" مجموعة من الرســـائل المفـــترض أن ثـــلاث

---

[1] - قصيدة من أبيات متعاقبة قصيرة وطويلة.

بطلات أسطوريات كتبنها لعشاقهن، هن: بريزديس، ديدونيا وميديا. وصاروا فيما بعد أحبابهن، حيث نشر بصدق فريد حبهم لكورين. لكن ظهور "فنه الغرامي" أثار فضيحة مجلجلة في أروقة القصر والحاشية: ففي هذا الشعر الماجن، المحاكي بسخرية الأعمال التعليمية، يعلم الرجال والنساء مختلف أساليب الافتتان والتعلق بالحبيب. وفي العام ٨م، نفي أوفيد إلى مدينة تومس النائية، على الضفاف الغربية، الموحشة يومئذ، للبحر الأسود. وهنا كتب أوفيد "المراثي" والـ *Ponttiqes*[١]، فيها يتلمس عفو أوغست. في هذه الأعمال يفيض الصدق والوصف الريفي المحزن المتأتي عن شظف حياة الشاعر المبعد.

وبوشكين، الذي قدم أوفيد في المنفى بطريقة مؤثرة في قصائده "الغجريات"، راى بحق أن هذه المراثي البونتية تتقدم كل أعمال الشاعر الأخرى. ولقد ترك لنا أوفيد عملين هامين آخرين، التقاويم (وصف شاعري للطقوس والتقاليد المتعلقة بالروزنامة الرومانية)، والـ"تحولات"، حيث يتحدث عن أناس تحولوا إلى حيوانات أو نباتات بإرادة الآلهة، غالبا في أثناء مغامرات غرامية.

لقد أفاد شعراء مشهوورن آخرون، معاصرون لأوفيد، مثل تيبول وبروبري، وحتى الشاعرات، مثل سولبسيا، أفادوا لدى دراستهم هذا النوع من الشعر الغزلي، الفضائحي، حيث يضيع الإنسان في شقوق الحياة الخاصة والمشاعر الشخصية.

---

[١] – قصائد كتبها أوفيد في مملكة البونت القديمة المعروفة بمقاومتها للغزو الروماني.

الفصل الستون

توطيد النظام الملكي. أسرة جوليو-كلوديين الخلفاء المباشرون لأوغست ونضالهم ضد المخلفات الجمهورية. تيبر (١٤-٣٧)

لدى موت أوغست أعيد طرح قضية الملكية، التي لم تتمكن بعد في روما، لأن مبدأ الوراثة، وهو هنا المحول الأساسي، لم يكن قد حسم بعد. فمن حيث الأخلاق والتقاليد الجمهورية في روما، كان هذا جديدا تماما، لا بل يبدو غريبا كليا، غير شرعي، أخرق. لذا اصطدم أول خليفة لأوغست، ابنه المفضل تيبر، منذ بداية أمارته بعداء وحتى بمعارضة حاسمة، في الجيش وبين أهم أسر المجتمع العبودي، الممثلة، في مجلس الشيوخ، الأمر الذي كان السبب الهام في الفصول الدرامية التي تكاثفت في عهد ملكه الذي دام ثلاثا وعشرين سنة (١٤-٣٧). (اقرأ تاسيت، حوليات،١، ١-٦؛ سونتيون، تيبر؛ ديون كاسيس؛ ١، ٥٧-٥٨).

لدى مجيء أمير جديد إلى السلطة، شب تمرد في أضخم جيشين، بنونيا والرين. عامل الجنود الضباط غير الشعبيين معاملة سيئة، وطلبوا في اجتماعاتهم تقليص مدة الخدمة إلى ١٦سنة، وقضية الحكم، والراتب الذي يتقاضاه هؤلاء الأخيرون وطلبات أخرى من هذا النوع. لكن الأساسي، كما يلاحظ سوتيون، هو رفض الجيش الجرماني الاعتراف بأمير لم ينتخبه، وضغطه العنيف على جرمنكوس الذي كان يقوده ليحتل العرش؛ لكنه رد بحزم". (تيبر، ٢٥). وهكذا كشفت تمردات الجند "سر الامبراطورية" الأكبر (تاسيت)، أي أن الجند كانوا في هذا الأمر هم السادة الحقيقيين، وموجهي قدرهم، بل الذين يقررون بخاصة قضية من هو سيدهم. اضطر تيبر أن يرسل إلى بانونيا دروسس، ابنه، الذي نجح بمختلف الامتيازات أن يهديء ويخضع الجمهرة الهائجة من الجنود. لكن هذا لم يحل دون

ذبح القادة الأنشط والأكفأ سرا. وعلى الرين أيضـــا، بفعـل التدابـــير الحاسـمة وبعـض الامتيازات أيضا، هدأ الوضع جرمانكوس الذي، بمخاطرة شخصية، حافظ حتـــى النهايــة على وضع مشروع بالنسبة لتيبر، خاله (انظر تاسيت، حوليات، ٣٣-٥٢).

لكن مجلس الشيوخ سبب لتيبر موضوعات حادة تنذر بالخطر. خارجيا، نشر أعضاء مجلس الشيوخ شائعات مبالغ فيها ومفادها "أن تيبير نفسه، حسـب قـول تاسـيس، كـان لايستسيغ هذا الزحف الخادع أمامه"، وأنه اعتاد لدى خروجه من مجلس المشيخة أن يدلـي بهذه الأقوال المليئة احتقارا: " الله ، كم هيء هؤلاء الناس للذل والمهانـــة!" (حوليـات، ٣، ٦٥). وأمام عدم رضاه عن منحه لقب "أب الوطن"، اقترح مجلس الشيوخ أن يسمي شـهر أيلول "تيبريس" تمجيدا للأمير، وشهر تشرين أول "ليفيوس"، تمجيدا لوالدته، الأمـر الـذي رفضه تيبر بحزم. لكن هؤلاء الشيوخ أنفسهم كانوا يغتـــابون الأمــير ويفـترون عليــه، وينشرون شائعات تحريضية، ويدبجون أهاجي لاذعة بل سامة. تفاقمت الأمـور وحيكـت مؤامرات خطرة في أوساط مجلس الشيوخ: وتعاطف لفيف واسع من نبلاء الدم حتى مـع دجال ماكر، العبد كلمنتوس، الذي روج أنه حفيد أوغست.

كان تيبر يعيش وضعاً خطراً جداً، يشعره بإنذار مستمر، لاسيما أنه كان ذا طبع قاتم، غير اجتماعي ومرتاب أو اتهامي. بداية حــاول أن يـرى الجميـع احترامــه للسـلطات والمؤسسات الاجتماعية. وصرح أنه خادم مجلس الشيوخ وكل المواطنين، ينـــهض لـدى استقبال القناصل، ويقبل حرية النقاش. بل منع أحداً يناديه بلقب "سيد": فهو سيد العبيد فقط، كما يقول، وكان امبراطور الجنود، وأمام مجلس الشيوخ والشعب فهو أمير فقط.

لكن هذا السلوك لم يعد له شعبيته. ورأى مجلس الشيوخ في هذا العمل جبناً وخداعـاً، بل مكراً يكشف الحاقدين. كان يخشى القيام بأي مبادرة، بل راح يعتاد أكثر فـأكثر تسـليم الشؤون الهامة إلى مجلسه الخاص، المكوّن بقسمه الأكبر من رجال لايشغلون أي وظيفـــة عامة، إنما اختارهم لجدارتهم وحنكتهم. وفي الوقت ذاته، كان يغذي في المدينة كرهاً ضـد العوام، الذين كانوا يتململون من إلغاء توزيع القمح وإقامة المهرجانات، وأيضاً ضد رفع أو زيادة الضرائب، التدابير التي اتخذها تيبر مضطراً، بسبب عجز الميزانية. وقد أفضى بــه هذا الوضع إلى إلغاء كلياً التجمعات الشعبية وأعاد كل الوظائف الانتخابيـة إلـى مجلـس الشيوخ. وقد تسارع أيضاً ابتعاد الأمير عن مواطني ونبلاء العاصمة. بعد موت جرمنيـوس

الشعبي جدا في روما، وقد حدث الموت في العام ١٩: وقيل إنه مات مسموما على يد بيزون ، حاكم سوريا من ذوي تيبر. ومنذئذ تحول تيبر، متخليا أكثر فأكثر عن دماثته، في بداية ملكه، إلى طاغية شرس وغريب الأطوار. ليكرهوني، عوض أن يحترموني" (سويتون، تيبر، ٥٩)، كان هذا مبدأه الذي أسند إليه نظاما إرهابيا فعليا. ودعيت الكتائب الحكومية التسع، وهي حاميات في مدن إيطالية عديدة، إلى روما، وتحشدوا في معسكر منيع قائم على أبواب العاصمة (في العام ٢٣م)، وراحوا يهددون السكان المدنيين، وصار قائدهم، محافظ الحاكمية، الشخصية الثانية في الدولة، بعد الأمير.

هذا هو الدور الذي لعبه، من العام ١٧-٣١، ل.إيليس سيجن، الفارس البسيط، الذي عرف كيف يكسب الثقة غير المحددة لتيبر. فقد صار يد الأمير الضاربة، وروما كلها ترتعش تركع أمامه. ويبعث القانون الجمهوري السالف الذي يعاقب على كل إهانة تلحق بعظمة الشعب الروماني"، كان سيجن أحد اولئك الذين خنقوا بالحديد والنار آخر آثار الحرية الجمهورية. اعتقل الناس ، عذبهم وأعدم بعضهم لاتهامات عابثة أو وشايات كاذبة ومغرضة.

كان تيبر يعيش خوفا دائما، فترك المدينة نهبا للذعر والضيق. وفي العام ٢٦، سافر بداية إلى كامبانيا، ثم استقر نهائيا في جزيرة كابري الرائعة، التي يحميها شاطئها الصخري الشاقولي. "بنى فيها ١٢ قصرا، بأسماء وأشكال معمارية مختلفة؛ كان منهمكا كليا بشؤون تستهلك كل وقته، لكنه بعدئذ، استسلم للبطالة المقيتة" (تاسيت، حوليات، ٤، ٦٧). وفي هذا الوقت استدعى تيبر الناس الذين كان قد اتهمهم وعرضهم للموت تحت العذاب الرهيب. وفي العام ٣١، نزلت عقوبة ظالمة بالجبار سيجون، الذي ارتاب تيبرلرغبته في احتلال السلطة العليا. وبحذر دائم، قدم سيجن القيادي الكبير في الحاكمية، للمحاكمة وأدانه مجلس الشيوخ، الذي كان يمدحه حتى الأمس القريب، ثم نفذ الحكم بوحشية، به وبأسرته دون رأفة بطفل أو مراهق أو امرأة.

أخيراء في العام ٣٧، صرعه مقربوه ومحظيوه والمحافظ الجديد ماكرون، روح المؤامرة، بخنقه تحت وسائده، بينما كان في دور النقاهة من مرض خطر. لكن الغضب لم يطل إلا شخص الأمير وليس الأمارة. فقد اعتاد الناس هذا النهج حتى أن الذين كانوا غاضبين من الملك ما عادوا يفكرون إلا باحلال شخص محله. أما الأمارة فقد أخذت طابعا

عاهليا مكشوفا، بفعل استبدادية تيبر، بتجميد الاجتماعات الشعبية، والمركزية والبيروقراطية المتنامية، وسوى ذلك. فالنظام الذي رسخه تيبر لم يكن يخص إلا أوساطا محدودة من طواغيت الحاشية، النبلاء، وجزء فقط من سكان العاصمة. أما المحميات، التي كانت تشكل أساس الإمبراطورية الرومانية، ارتاحت من المعاناة، وعرفت إدارة خيرا من السالفة. كان مبدأ تيبر يقول إن "الراعي الجيد هو من يجب أن يجز أنعامه وليس اللحام" (سويتون، تيبر، ٣٢). ولقد وطد نهج إدارة المحميات بواسطة السفراء والجباة الذين يعينهم الأمير ويخضعهم لمراقبة اللجان الإمبرايالية الحاسمة. كان يبدل على عجل الحكام الفاسدين ويترك الجيدين في مقاماتهم مددا طويلة. غير أن التفكك السريع للمجتمع البدائي واتساع النهج العبودي في المحميات الغربية أثارا أحيانا انفجارات عنيفة من الغضب الشعبي. ففي نوميديا، اضطر الرومان أن يحاربوا ثماني سنوات كاملة ضد الموريين *les Maures*، والشعوب الأخرى الأصيلة، المنتفضة بقيادة نوميد تكفرناس (١٧-٢٤). وفي الغول، في العام ٢٤، دعا جوليس فلورس وجوليس سكروفير، التريفير والأديين إلى التمرد. وصف تاسيت في (الحوليات، ٣، ٤٢) المتمردين "بجماعة بؤساء دمرتهم الديون"، العزل سوى من سلاح الصيد، فقمعوا بسهولة. لكن نبلاء المحميات كانوا إجمالا راضين عن نظام تيبر. كانوا يرسلون وفودا إلى الإمبراطور تحمل له آيات التعظيم الكبير ، يقيمون لهم الأنصاب التي تحمل مدائحهم، ليس بالإطراء البحت والاستجداء، بل خوفا من الحركات الشعبية.

اما سياسته الخارجية، السلمية والحازمة، خلقت الإحساس بسلم دائم، في مصلحة النشاطات الاقتصادية،وساهمت كثيرا، أيضا، بشعبية تيبر في المحميات. خمدت نار الحروب، بخاصة مع الجرمان، والنزاعات مع الجيران (أرمينيا، البارث ، إلخ). سويت بالطريق الدبلوماسي. ويكمننا أن نعتبر أن العلاقات بين المحميات وروما، تحولت، انطلاقا من تيبر، إلى وشيجة أكثر عضوية، على المستوى الداخلي، وصارت الإمبراطورية الرومانية وحدة سياسية أكثر انسجاما والتزاما.

كالغولا (٣٧-٤١) وكلود (٤١-٥٤).

إلى اي مدى تطورت الأفكار والعادات الملكية في روما، في عهد تيبر، وفي الوقت ذاته كم حمل توطيد النظام الجديد من معاناة المجتمع، نقرأ هذا لدى خليفتي تيبر المباشرين. كانت روما قد استقبلت خبر موت هذا الأخير باستبشار وحبور. أراد الشعب

حرمانه من الضريح ورمى جثته في نهر التيبر. تلقى بكل مظاهر الحماس، ابن جرمنكس، كايوس، شابا في الثالثة والعشرين ربيعا، الذي تلقى لقب قيصر، الذي ربطه تيبر بشخصه في أواخر عهده، كواحدة من نزواته. دخلت الجماهير مجلس الشيوخ وأكرهوه على تسمية الشاب كايوس أميرا قيصرا. وقدموا الضحايا كل يوم ابتهالا لصحته وازدهاره، وسموه "شمسا". ولقبه الجنود كالغولا (من *caliqa*– المداس العسكري)، إشارة إلى أنه، وقد ولد في المعسكر، فهو قريب من الجنود. لايفكر بإعادة الجمهورية.

وأكد كالغولا، بتوجيه من مشتشاريه المحنكين، احدهم ماكرون، سلطته وشعبيته بمهارته، في بداية إمارته. أعلن عفوا عاما، وصرح أن ليس ثمة "آذان تستمع للوشاة، وأسرف بتوزيع القمح والاحتفالات، وقدم كل الاحترام لمجلس الشيوخ؛ وأعاد نشر الكتيبات عارضا وضع الدولة وقام بمحاولة لبعث التجمعات الشعبية. وأثبت أيضا بالغ اهتمامه بحاجات المحميات.

لكن كالغولا، المحروم من الخبرة والاتزان (يعتبره البعض مجنونا)، لم يتخلف عن تعظيم نجاحاته الأولى، المحققة بسرعة وسهولة. لم يعتبر أوكتاف أوغست مثالا يقتدى، بل سلفه الأجرأ الدكتاتور يوليس قيصر، وبخاصة التلميذ المخلص لهذا الأخير، مارك– أنطوان. ومثل قيصر وأنطوان، كان مثاله السياسي الملكية المطلقة من النموذج الهلليني، بشكله الأمثل: فراعنة مصر. أحاط كالغولا نفسه بلفيف من القيصريين والأنطونيين الحازمين، الذين لم يرتدوا قناعا جمهوريا مثل أوغست وذبذباته المحترسة، وأرادوا أيضا سياسة خارجية أكثر فاعلية وإضاءة،وبخاصة في الشرق. وقد فكر كالغولا نقل العاصمة إلى الإسكندرية.

لم يتأخر هذا التمصير عن الظهور، لدى كالغولا، بالشكل الأكثر إثارة. فعبادة إيزيس، المحرمة في عهد تيبر، عادت. وعلى متن باخرة جبارة عمرت لهذه الغاية، أتت من مصر المسلة الهائلة، القائمة أبدا أمام كاتدرائية القديس بطرس في روما. وعلى نمط فراعنة مصر، قرر كالغولا تزويج أخته بروزيللا، ولما ماتت هذه الأخيرة فجأة، قرر تأليهها باسم بانتيه (الإلهة الشاملة). وكقيصر، رفع إلى مصاف الآلهة. ارتدى أمام الناس ثوب جوبتير واحتفى بعثنون ذهبي وحمل الصاعقة. وحافظ على قصر فخم، على الطريقة الشرقية، وملاهيها الباذخة. كان هذا يتطلب مبالغ طائلة،أمنتها حكومة كالغولا، بلا حشمة، بمصادرة بلا رحمة كل ما هنالك، بما فيها اغتصاب أموال الأغنياء.

دمرت هذه السبل بسرعة شعبيته العريضة وكل مظهر خارجي. وقد لجأ كالغولا ورواده، هم أيضا، إلى تدابير القمع الكاوية لخنق تململ وغضب العاصمة. وأعيد إلى العمل قانون قدح بالذات الملكية. جلب بعض الضباط المشتبه بهم إلى القضاء أو الذين فقدوا الحظوة وفقدوا معها الحياة. ودارت شائعة تقول: إن الامبراطور المعتوه قرر إعدام كل جنود الجحفل الجرماني الذين اشتركوا، قبل ٥٢ عاما، بالتمرد الذي قمعه والده جرمنكس.

تمادى كالغولا كثيرا. وفي٦ كانون ثاني ٤١ ب.م، بعد أربع سنوات من الحكم، قتله ضباط حرسه، الذين انقضوا عليه، في أحد أروقة القصر المعتمة. كان الرأي العام قد عبيء ضده، حتى قتلوا زوجته وابنته وهي في سنتها الأولى.

مع ذلك، رغم نهايتين دمويتين لمحاولتين هامتين لإدخال العاهلية الإغريقية إلى روما، كانت مخلفات التقاليد الجمهورية ضعيفة جدا في روما عند موت كالغولا، ومنذئذ يجب النظر إلى "الإمارة" كمرحلة أفل نجمها نهائيا واتجه الوضع إلى المذهب الامبريالي المطلق. ولم يكن الصراع يتجه نحو توسيع السلطة، بل نحو أشكال الميراث، ومعرفة من هو الإمبراطور الجديد ومن سيسميه.

على الأرجح، ألقيت في مجلس الشيوخ الملتئم بعد موت كالغولا خطب ملتهبة ضد "الاستبداد. اقترح بعض الخطباء هدم كل المعابد المكرسة لقيصر وأوغست، والعودة إلى المؤسسة الجمهورية. كان أغلبهم يميل إلى الحفاظ على الامارة، بشرط أن يتولاها شخص خليق بها. لكن عجز مجلس الشيوخ عجزا تاما لم يتأخر الكشف عن نفسه: ".. في الغد، تحرك مجلس الشيوخ، العامر بالانقسامات ومختلف الآراء، بلا حزم ولاحسم. طلب الناس المحيطون به بصوت عال سيدا واحدا وسموا كلود" (سويتون، كلود).

كان مرشح "الشعب" آخر ذرية بيت جوليان، الأخ الأصغر لجرمنكس وعم كاليغولا؛ اكتشفه رجال الحكم، قتلة هذا الأخير، بينما كان مختبئا مروعا في واحدة من زوايا القصر المهملة، اقتاده الجنود عنوة إلى معسكرهم وأعلنوه امبراطورا رغما عنه. اخذا بعين الاعتبار أوضاع الشعب والجنود، سلم مجلس الشيوخ بطواعية الأمير الجديد كل السلطات الامبراطورية. وهكذا رغم إرادته، وعملا بمبدأ الوراثة العائلي، صار كلود سيد الإمبراطورية الرومانية، بصفته حفيد أوغست.

حسب رأي كباردارسي ذلك العهد، كان كلود أقل الناس جدارة بهذا المنصب. فقد عرف بطبعه الغريب وتواضع عقله؛ فحتى وصوله إلى كرسي العرش، في الرابعة والخمسين من عمره، كان يعيش حياة بسيطة وبالغة الاعتزال، غير مبال بسوى بدراسة التاريخ (كان تيت-لايف معلمه لبعض الوقت).

لكن عهده الذي دام ثلاثة عشر عاما، لم يكن العهد الذي أفضى إلى توطيد النظام العاهلي. كان كلود يهتم كثيرا بالقضاء، مبديا أحيانا في هذا المجال "طبعا كلي التقلب" (سويتون، كلود، ١٥). وكان تموين روما أهم اهتماماته، فأسرف في تمييز التجار الذين زودوا العاصمة بأسباب غذائها؛ وتم إنشاء مرفأ جديد في أوستي، عند مصب التيبر. وشيد خزان ضخم لجر المياه إلى روما؛ كانت أقواسه ذات الثلاثة طوابق تدهش بضخامتها زوار الريف الروماني، وخلال ١١ عاما حفروا قناة لإخلاء بحيرة فوسن التي سمحت بردم المستنقعات وري وحرث آلاف الهكتارات.

في الشؤون الإدارية العامة، العسكرية والمالية، التي لايفقهها كلود أبدا، فسلمها كلها إلى رجال أكفاء، اختيروا بالأفضلية من بين عبيده الأرفع معرفة وثقافة ومن أعتق اليونان والسوريين. وأوكل إليهم مختلف فروع الإدارة، دون أن ينبهر بعلامات السخرية التي يضعها البعض حول هذا الموضوع، قائلين: "كان الأمير صنيعة عبيده". لقد رمى هؤلاء المعتقين، وهم بدون أصل ولاوطن لهم، لم ينسوا أبدا أن يكدسوا من غنائمهم ثروات ضخمة، رموا بالتدريج مجلس الشيوخ وكل الحكام السابقين إلى الصف الخلفي، وفي هذا العهد وضعوا أسس نهج المركزية الإدارية للحكومة الامبريالية.

ينهل هذا النهج أصله من ولاية أرزاق الأمير الخاصة. لكن الولاية الإمبراطورية بتدمير أمور الثروة الخاصة والدولة، قدرت بسهولة أن تتحول إلى مستشارية حكومية فعلية بمختلف فروعها وخدماتها في المؤسسات الإدارية.

وكان مكتب المحاسبة قد صار وزارة فعلية، وزيرها بالاس؛ يوناني ماهر وموسوعي المعرفة. وكان رئيس مكتب المراسلات سكرتير كلود الشخصي، الذكي والمحنك المعتق نرسيس: كان هذا المكتب مسؤولا عن وزارة الداخلية والخارجية والدفاع، الأمر الذي جعل من نرسيس الرجل الأبعد نفوذا في الإمبراطورية، وهو الذي يحدد سياستها الداخلية والخارجية. وكان العالم اليوناني بوليب يدير "مكتب الدراسات، وكالسيت يدير مكتب

الغزو، المتعلقين بالمحكمة العليا، المكلفة بالنظر في الشؤون ذات الأهمية الاستثنائية ومحكمة النقض. ونذكر أيضا مكتب المنشورات الهجائية" الموجهة إلى الإمبراطور، الذي يشكل، إن صح القول، مستشارية شخصية للأمير. وكان لكل من هذه الخدمات جهاز من كل المراتب، والمعارف، وغيرها، من الرئيس حتى آخر مستخدم، مجندين من المعتقين وينطبق هذا على عبيد الإمبراطور.

كان من الطبيعي تماما أن يضع هؤلاء الرجال الجدد السياسة الرومانية في دروب جديدة. ولقد وزعوا بسعة حق المواطنة، الذي سرعان مامنح لشعوب ومدن بدون تمييز. كان المحميون الأولون الذين اضطر النبلاء لقبولهم في بلدانهم هم الأدويين، الغولوا، ممثلي المحمية التي يشملها كلود برعاية خاصة (ولقد اطلعنا على خطابه في مجلس الشيوخ بهذه المناسبة عن طريق منحوتة محفوظة في ليون). ولتسوية الأمر المشيخي، عززت حكومة كلود تقدم الفرسان وفتحت أمامهم المهمة العسكرية على مداها الأوسع: إذ شغلوا منذئذ كل الملاكات المتوسطة في الجيش-أخذ منهم قادة الكتائب المساعدة وكواكب الخيالة، وحكام الوحدات. وهكذا بدأ تطور التسوية العامة لشعبينه الإمبراطورية: اقتراب أبناء المحميات من الرومان، واختفاء عوائق تحسين شروط الحياة داخل المجتمع.

في عهد كلود، دخلت السياسة الخارجية الرومانية في حقبة من النشاط العارم. وتوسعت الامبراطورية كثيرا. وفي العام ٤٣، شرع جيش جرار (حوالي ٥٠ ألف رجل) بقيادة جنرال محنك، أولوس بلوتيوس، فتح بريطانيا، محاولة كررت مرتين على يد يوليوس قيصر. وأبحر الرومان إلى مصب التاميز، ومن هنا انتشروا في الشطر الجنوبي من الجزيرة. دارت هنا معركة طاحنة، بحضور الإمبراطور، قرب كملودنوم (كولشستر)، المنطقة الغاصة بالبريطانيين. وبعد انتصارهم، جعلها الرومان مركز تحشدهم العسكري وعاصمة محمية بريطانيا الجديدة. وصارت لندن أيضا مدينة رومانية ضخمة (اقرأ في موضوع فتح بريطانيا: سوتيون، كلود، ١٧؛ تاسيت، حوليات، ١١، ٣١-٤٠؛ ديون كاسيس، ١، ٠، ١٩-٢٢).

وحقق الرومان نجاحا مؤزرا على الدانوب والبونت. وسيطرت الجيوش الرومانية، بقوة وهي تتقدم في بانونيا، على مجرى الدانوب الأوسط كله، أي المسافة التي شكلت سلسلة من المواقع المنيعة ومخيمات القوات، -لورياكوم، فندوبونا (فيينا)، كارننتوم _موقع

حصين جدا حيث تتحشد حامية كاملة)، وغيرها. وعلى أسفل الدانوب، أبيدت مملكة ثراسيا في العام ٤٦، وتقلص جنوب البلقان إلى محمية، يحكمها والي روماني. واجتمعت كل الأراضي الواقعة على مصبات الدانوب (دويروشيا) في ميزيا *Mesie*. وصارت هذه المحمية الأخيرة حصن روما عند مفرق طرق غزوات شعوب شرق الدانوب (داشيا، جيت، بسترن، سرمات، غيرها). وأقيمت تحصينات منيعة أيضا على مجرى الدانوب الأسفل سنجدونم (بلغراد)، أوكس، نوفي، وغيرها.

وصلت روما أخيرا إلى ضفاف البحر الأسود القصية. وفي العام ٤٦ب.م، خلع جيش روماني غازي كبير، بقيادة ديديس غاللوس، واصلا إلى بانتكابيه طبعا عن طريق البحر، خلع وأسر وأرسل إلى روما ملك البوسفور متريدات الثالث، عدو الرومان اللدود. وتوج هؤلاء الأخيرون أحد أنصارهم، كونس، الذي دعا في رقيماته إمبراطور روما "المحسن إليه" ودفع تزلفه حتى سمى تيبريسس بوليس كوتيس، وكأنه أحد أتباعه. وتلقت البوسفور حامية رومانية، لتحافظ على خضوع هذه المملكة.

في ذات الحقبة، نصب الرومان على عرش أرمينيا أحد أتباعهم، الأمير متريدات الإبيري، وتمركز في هذا البلد فوج روماني للمراقبة قرب إيريفان. وعادت يهودا *Judee* من جديد محمية رومانية. وأخذوا من مورتانيا محميتين أخريتين. وهكذا عرفت روما عهدا توسعيا جديدا قادها بعيدا عن حدود عالم البحر الأبيض المتوسط.

لم تكف فضائح مجلجلة وألغاز أرستقراطية تقض مضاجع القصر، طيلة حكم كلود. فالمشايخ والنبلاء، غير الفرحين يهمسون ضد الإمبراطور ومعاونيه كانوا يحيكون أحيانا المؤامرات. ففي العام ٤٢، مثلا، حاول سفير دلماسيا، فوريس كمليس سكرابونيانس، تحريض محميته على التمرد، لكن بعد أيام قتله جنده، لأن "إحياء الجمهورية"، وهو هدفه الأول، لم يثر أي صدى عاطفي أو حماسي في الجيش.

كما سبب سلوك زوجات كلود المتواليات -بداية فالاريا ميسالينا، التي اشتهرت بعيوبها، ثم بعد إعدامها (في العام ٤٩)، أتت المتعجرفة الجشعة الشابة *la Jeune* أغريبين، ابنة جرمنكس، أحداثا فضائحية، وعقوبات دامية. دعم باللاس، المعتق اليوناني الذي يدير الأموال، بعد ان سيطر كليا على الضعيف كلود، دعم أغريبين كثيرا فتمادت ولقبت "أوغستا[1]". وبعد أن وضعت على رأس الحرس الامبراطوري أحد تابعيها، أفرانيس

---

[1] - أي الامبراطورة الجليلة.

بورس، أهلكت عددا كبيرا من خصومها ومنافسيها، وأجبرت كلودعلى تبني ابنها من اول زوج لها، سنيس دمتيس أهنباربس، نيرون، ابن الخامسة عشر (في العام ٥١). وسمي "أمير الشباب" وتلقى سلطات المحافظ. وإعدادا لتنصيب ابنها هذا سممت الإمبراطور (في العام ٥٤).

تثبت كل هذه الأحداث، المألوفة في القصور الشرقية والإغريقية، أن روما أيضا، انطبعت في حوالي أواسط القرن الأول الميلادي بطابع العاهلية، رغم استمرار الحاكم الأعلى باسم "أمير" والنظام بـ "الجمهوري".

نيرون (٥٤-٦٨) ونهاية الأسرة الحاكمة يوليو-كلودية.

يشكل حكم نيرون، آخر أميرمن أسرة يوليو كلوديه، الشاهد الأبلغ والأتم على تحول الإمارة إلى عاهلية. ولأول مرة يستلم قاصر تاج روما، ولايدين ابن أغربين بترفيعه إلى الإمارة إلى الثورة في القصر، لأنه بالفعل ليس صاحب ذرة حق بهذا المنصب. شلت أغربين معارضة الأوساط العسكرية المتنفذة بإعدامها على الفور نرسيس، أمين سر كلود، وأعادت الإدارة الدفاعية إلى ديد بورس؛ فأمنت التدابير الأمنية الانتهازية الهدوء بين جماهير العاصمة.

على غرار العاهليات الشرقية، كانت السلطة الفعلية، في عهد أمير شاب عديم الخبرة، بين يدي أمرأة، آغربين أوغستا، أمه، وأنصارها (باللاس، بوراس، سيناك وشركائهم). كان عليهم أن يتملقوا الكبار بعض الشيء، كما ورد في الخطاب-البرنامج الذي دبجه سيناك وألقاه الشاب نيرون أمام مجلس الشيوخ؛ ولقد توطدت قسمة البلد إلى أقاليم، مشيخية وامبراطورية؛ وكان حكم المحظيين وتدخل أهل الأمير بشؤون الدولة قد أدينا. ومع ذلك كان مجلس الشيوخ يعقد جلساته في قصر الأمير لكي تتمكن أغربين، المختبئة خلف ستارة، متابعة المناقشات، وكانت تحضر استقبال السفراء الأجانب.

على ذلك، وبسبب التوظيف الجيد للجهاز الحكومي وبواقع أن نيرون لايبالي أبدا بشؤون الدولة، سميت الخمس السنوات الأولى من حكمه "عهد نيرون السعيد" (٥٤-٥٩). وكان نجاح السياسة الخارجية يترجم حسب تطورات جديدة في التوسع العسكري للإمبراطورية الرومانية، في الشرق، منذ زمن بعيد، يترجم غرض أوساط روما العسكرية والمالية. وهجوم البارث على أرمينيا، التي تعتبرها روما بلدا تابعا، دفع "حملة نيرون

الشرقية"، التي بدأت في العام ٥٧. وبعد ثلاث سنوات من الإعداد الجاد، ولج أرمينيا العام ٥٨، عن طريق كبادوس، جيش روماني لجب، بقيادة قائد محنك، هو دومتيس كوربلون. وبدعم ملك إيبريا (جورجيا) فاراسمان، استولى وأحرق عاصمة أرمينيا السالفة، أرتكسلتا. وانتزعت تغرنسرت، العاصمة الجديدة، على دجلة في العام التالي (٥٩). وطرد الملك تردات (أخ ملك البارث فولوجيز)، ووضع الرومان على عرش أرمينيا تبغران الخامس، الذي عاش ردحا من الزمن رهينة الرومان والذي كان قد هضم وتمثل تماما الثقافة الرومانية. وترك جيش ضخم في أرمينيا لدعمه وحمايته. وارتبطت إيبيريا وشعوب الساحل القفقاسي (موسك) بروما. وفي العام ٦٣، تقلصت مملكة البونت إلى محمية أو إقليم.

وفي وقت واحد، كان جيش كبير، بقيادة سفير ميزيا تيبريس بلوتيس سلفانس، يعمل متبعا ضفة البحر الأسود الشمالية. وبعد إخضاع العديد من الشعوب القاطنة في شمال الدانوب الأسفل (جزء من الدارسيين، السارمات، الروكسلان)، احتلت الجحافل الرومانية تيراس (العام ٥٧)، أولبيا ووصلت شرسونيز، وأنقذت هذه المدينة التي يحاصرها السيث.

تمركز الرومان بمنعة في القرم. وتلقت شرسونيز حامية وصارت قاعدة للواء الروماني. وبعد هزيمة التوريين الأصليين، غطي الشاطيء الجنوبي لشبه الجزيرة بمخافر رومانية منيعة، كان أهمها شاراكس (على بعد ٥ كم من المدينة الحالية يالطا). وكانت البونت قد أضحت بحرا داخليا رومانيا، وحوالي العام ٦٠ خضع كل ساحلها لروما.

لكن مجد نيرون أفل في هذه الحقبة من الزمن تقريبا، ليترك مكانه لبرهة ثماني سنوات من التحكم والفوضى الإدارية. كان نيرون فاسقا منذ طفولته بسبب تربيته في وسط فاسد كقصر كلود. فما كاد يشب في الإمارة، حتى أعطى نزواته كلها الحرية كاملة وجعل من البلاط وشوارع روما مسرحا لقصفه وعربدته، وكل أنواع الفضائح. وتبنى القيصر الشاب المذهب الكلبي لملوك الشرق: كل شيء مباح للعاهل.

كان هذا هو مبعث الخلاف بين نيرون وأمه، فثمة حظية الامبراطور، الفاجرة والفظة بوبي *Popee*، تدفعه للتخلص من أمه أغربين: ولقد أرسل نيرون لفيفا من الحكام لقتل أمه (العام ٥٩). وأعلن رسميا أنها تآمرت على سلطته بل على حياته؛ وصدر قرار خسيس سيجيز تحطيم أنصاب أغربين وسحب نقدها من التداول.

بعيد جيشان القصر هذا، مات بورس (ربما مسموما) وأبعد سنيك وكثير غـيره ممـن أعتقهم كلود وسلمهم مختلف مواقع المسؤولية ليحل محلهم محظيون أطوع وأكثر زلفـى. سلمت الشؤون الحربية للمحافظ الجديد تجلان، الرجل الماجن المنحط، الذي صار حظـي نيرون العاتي، كما كان سيجلن لدى تيبر. ثم أرسلت زوجة الإمبراطور، أوكتافيـا، ابنـة كلود، إلى المنفى، ومنه إلى القبر، وتسنى لنيرون أن يتزوج بوبي التـي، حسـب عبـارة تاسيت "عدا القلب النقي، كان عندها كل شيء: الجمال، الذكاء والثروة".

انطلاقا من العام ٦٠ يبدأ عهد الإنفاق الذي السابق له لتأمين ملاهي البلاط الشـاذة، الأمر الذي سماه سويتون بكل حق "جنون التبذير". تتالت الاحتفالات والقصف من كل نوع ببهرجة لانظير لها. كان خدم القصر يرتدون أغلى الثياب، وانتعلت البغال الفضـة، لكـن الأمر الذي حفر كهفا للخزينة هو المنشآت الصناعية الضخمة الباذخة، وبخاصة، "البيـت الذهبي". هكذا كان يسمى القصر المنيف الذي، بأروقته، حدائقـه، غدرانـه، ومعـارض الوحوش، كان يشغل عدة أحياء في مركز روما بين البالاتان والاسكلان. وبعد أن تم كـل شيء زاره نيرون وقال: "أخيرا تيسر لي أن أسكن كرجل". (سويتون، نيرون، ٣١).

لقد أفضى هذا التبذير إلى فوضى مالية وعجز متأصل ودائم. حتى اضطـروا إلـى تعليق دفع رواتب القوات وتعويضات تقاعد المحنكين. ولتعبئة صناديق الدولة، بدلوا النقـد: لليرة فضية صكوا ٩٦ فلسا عوضا عن ٨٤. وسعوا في الغالب إلى تمويهات وقتيـة فـي المصادرات الضخمة لأرزاق الأغنياء، واتهموا بذم السلطة العليا، بذرائع وهمية وعابثـة. وصادروا أيضا تركات الموتى، الذين "برهنوا على الجحود بالإمساك عن ترك وصية هامة للأمير.

كان سلوك نيرون المخجل موصوفا من الناحيـة الأخلاقيـة لـدى عليـة مجتمـع إمبراطورية الاستعباد الرومانية. كما أن الإمبراطور لم يعد يبالي بشؤون الدولة إلا حسـب نزواته، كذلك فقد النبلاء الرومان أي اهتمام بالسياسة. فاستسلمت هذه الطبقة المنحلة نـهائيا للشهوات الجسدية، إلى ألعاب السيرك والمسرح."في الملاهي والمسارح، ويذكر سـويتون: يقوم أشخاص من الجنسين بأدوار مسلية... ولقد أسس (نيرون) مدرجا خشبيا يقـدم فيـه مشهد المصارعين. وجعل ٤٠٠ عضو من مجلس الشيوخ يصارعون ٦٠٠خيال... واختار مصارعين ضد الحيوانات" (نيرون، ١١-١٢، تاسيت، حوليات، ١٥، ٣٢). وكان نـيرن،

رأس هذه الصفوة الرومانية الفاسقة والمنحطة، يهتم بأكاليل غار الرياضة والمسرح أكثر بكثير من اهتمامه بمملكته. وليس بدون مواهب أدبية وموسيقية اعتبر نفسه طاقة فنية وظهر على المسرح منشدا، مغنيا، موسيقارا، ومعلم فروسية وحتى مصارعا. وأوقف العام ٦٧ كله لدورة فنية في اليونان، حيث اشترك في الألعاب الأولمبية والبرزخية. ولكي يكافئ اليونان الذين قوموا مواهبه جيدا، أعطاهم استقلالهم، وما يزال محفوظا الخطاب الذي ألقي بهذه المناسبة.

لقد أسفرت الفوضى الإدارية والمالية عن سلسلة من النتائج المدمرة في السياسة الخارجية وفي حياة العاصمة والأقاليم. وانتهت حرب الشرق بشكل معيب للرومان. فقد غزا البارث أرمينيا وطردوا ممثل الرومان، الملك تيغران الخامس. والجيش الذي أرسل لمؤازرته بقيادة ل.كزنيوس باتوس، الممالق وعديم الخبرة القتالية، حاصره فرسان البارث قرب رونديا على رافد شرقي الفرات الأعلى ولم ينج إلا باستسلام مذل، متنازلا للبارث عن أسلحته وكل عدده الحربية (العام ٦٢). ولم ينجح كوربلون إلا بتهدئة الوضع جزئيا: إذ تخلت روما عن عرش أرمينيا لمثريدات، أخ ملك البارث فولوجيز.

إن إهمال وقصور المعاونين كان سبب كارثة لا سابق لها فتكت بروما في العام ٦٤: اشرأبت ألسنة الحريق ثمانية أيام والتهمت قرابة عشرة أحياء من ١٤ حيا في المدينة. وأهلكت النار العديد من السكان؛ استغل اللصوص الذعر والهلع وعجز السلطات، فنهبوا البيوت المحترقة. أما نيرون، كان يتأمل من أعلى برج مشهد الداهية الرهيبة، وحسب الشائعات التي دارت آنئذ،قال أبياتا من الشعر في سقوط طروادة. لكنه وقد كان مهتما بتأمين الأراضي الواسعة التي التهمها الحريق، لبناء "بيته الذهبي"، راح الناس يعتبرونه فاعل هذه النكبة المروعة وسموه "مشعل الحريق". الأمر الذي فرض على الحكومة تصعيد قضية "مشعلي الحريق الفعليين". وكان المتهمون الكثر قد أوقفوا ولقوا مصرعهم تحت التعذيب الوحشي. "ألبسوا جلود دواب لجعل الكلاب تفترسهم (في ميدان المصارعة)؛ وربطوا إلى صلبان، أو دهنت أجسادهم بالراتنج اللزج القابل للاحتراق، فصاروا مشاعل تضيء ظلمة الليل". (تاسيت، حوليات، ١٥، ٤٤).

وفيما بعد اعتز مفسرو الكتاب المقدس المسيحيون بمقطع من حوليات شرح بمهارة حيث طرحت مسألة "مشاعل نيرون"، ليقدموا هذه العذابات كـ"أول اضطهاد للمسيحيين".

استغل فلول النبلاء غضب الشعب، وحاكوا مؤامرة في العام ٦٥: اقترح المتآمرون قتل نيرون، في ملعب البهلوانيات أو المصارعة، يوم يأتي لأمر ما، ويرفعون إلى الإمارة النبيل، الغني والشعبي ك.كلبوزنيس بيزون. كان بينهم الكثير من الرجال المعرفوين، مثل لوسان، مؤلف[1] *Pharsale* وأيضا، كما يبدو مرجحا وجود عمه سنيك. لكن بيزون وقادة الحركة الآخرين، بدوا جبناء، مترددين وكشفت المؤامرة. وكانت الاعتقالات، التعذيب، والإعدامات التالية لاتحصى. بيزون، لوسان وسنيك ذبحوا بأمر من نيرون. كان هذا الأخير يحلم منذ زمن بمصادرة الثروة الطائلة التي يكدسها مربيه سنيك، الذي لم يكن فقط أكبر باحث في زمنه، بل فضلا عن هذا، مرابيا جشعا. هكذا أثبتت علية مجتمع روما بكل وضوح تفككها التام وعجزها الكامل عن لعب دور سياسي كبير.

لقد حملت الحركات التي نشبت في الأقاليم ضربة قاصمة لحكومة نيرون المتفسخة. ففي كثير من حالات الابتزاز والعنف المتمادي من قبل الموظفين الرومان على معاوني نيرون الذين، في عجزهم وقصورهم، وعدم ممارستهم سوى المراقبة الباهتة، أثاروا اضطرابات شعبية أخذت شكل انتفاضات خطرة، لأن الأرستقراطية المحلية، الغاضبة من مجرى الأحداث في روما، حاولت تجير هذه الفوضى لمصلحتها. وفي العام ٦٠، تمردت غالبية الأمم البريطانية الخاضعة حديثا مثل إيسينيان، ترينوبانت وغيرها. كانت ملكة الإيسنيان، بواديسي، على رأسهم. استولوا وعلى كملودنم، عاصمة بريطانيا الرومانية ودمروها، ثم لندنيوم (لندن)، ثاني مدينة. ذبح المعمرون والتجار الرومان، مع نسائهم وأطفالهم، بعدد ٨٠ ألفا.

وقد نجح محافظ بريطانيا، سوتنيس بولنس، بجهود مضنية، بعد عودة كل ما لديه من احتياط، بجذب جيش المتمردين إلى أحد المضائق، حيث اضطروا أن يقاتلوا بشروط غير مواتية، وأنزل بهم هزيمة رهيبة. وذبح الرومان بدورهم قرابة ٨٠ ألف بريطاني. ومع هذا ولعشر سنين، كانت تهاجم قواتهم شطر الجزيرة المحتل، لأن بريطانيا بقيت في هياج وغليان دائمين.

---

[1] – قصيدة ملحمية للوسان، ترسم الصراع بين قيصر وبومبيه؛ عمل متألق من الرواقية السامية لكنه كثير التفخيم والتعظيم (القرن الأول الميلادي–المترجم).

كان الاحتجاج في قمته في يهوداء في بداية الستينات. كان الشعب يعيش هنا تحت نير مزدوج: نير الفاتحين الرومان، ونير مستغليهم المحليين، الكهنة والأغنياء؛ انتشرت بين هؤلاء الأخيرين نظرية الفريسيين "دكاترو في القانون"، وهم مفسرو الكتب المقدسة وهم الذين وضعوا الأساس الأيدولوجي للتيوقراطية[1] اليهودية. فضلا عن العشر، كان يتوجب على الشعب بموجبها أن يؤدوا للمعابد بواكير محصولهم من القمح، والثمار، والعسل والدواب للأضاحي.

هربا من الدمار والبؤس، لجأت طلائعهم إلى الشمال، الجليل، حيث تمتد مساحات واسعة غير محروثة على ضفاف بحيرة طبريا. كان أكثرهم ينتسب إلى طائفة الـ"زيلوت *Zelotes*" (أنصار الحرية المتحمسون). وقد صار أجرأهم وطليعتهم "قتلة مستأجرون *sicaires*" (من *sica*= خنجر)، كانوا يزرعون الرعب، بذبح أبغض مستثمري الشعب. كان هذا، في بداية النصف الثاني من القرن الأول ق.م. مصير الكاهن الكبير جوناثان الذي كان مكروها بشكل فريد. وكان الإيمان بمجيء قريب لملك محرر أو "مسيح *mwssie*"، رسول يهوه، واسع الانتشار بين الزيلوت. ومنذ العام ٦م، أعلن يهودي جليلي نفسه "ملكا لليهود"، وشهر السلاح في الجليل؛ وقد كثر هؤلاء المتمردون بالتتابع.

وفي العام ٦٦ شبت انتفاضة دامية منفردة، كانت نقطة انطلاق حرب اليهودية (٦٦-٧٣). كان الوالي الروماني جيسيس فلورنس، باغتصاباته وابتزازاته اللا-مثيل لهان هو من أوقد نارها: تمادى كثيرا بل أرسل وحدة من القوات الرومانية إلى القدس وترك أشقى عناصره يتسابقون إلى النهب الوحشي. فمشى الحاكم السوري ك.سستيس غالوس لمد يد المساعدة لفلورس، مع قوات ضخمة. لكنه لم يستطع أن يحتل المعبد، الذي اتخذه المنتفضون حصنا منيعا لهم. وبمشقة وجهود جبارة أخرج من القدس قواته المحنكة جدا وقد كانت قاب قوسين من التطويق والإبادة.

التهبت نقطة أخرى في نفس الوقت في الجليل حيث يسيطر القتلة والزيلوت، ووجد الشعب البسيط في حنا الجليلي قائدا فذا بطلا. وكان متمردو القدس والجليل على اتصال دائم بواسطة جماعات مسلحة.

---

[1] - حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين-المترجم.

بلبلت هذه الحركة الشعبية الأوساط الحاكمة في القدس فاضطرت بداية أن تظهر تعاطفا معها. لكن القطيعة كانت سريعة جدا، لأن التيوقراطية في السلطة تخشى قبل كل شيء شعبها. ولقد وقف الكاهن الكبير ووجوه الفريسيين ضد قرار إلغاء التضحية اليومية للإمبراطور، معلنا التفاهم مع روما؛ وسال الدم غزيرا في شوارع القدس، التي طرد منها أنصار روما نهائيا؛ وأحرق المتمردون بيت كبير الكهنة وبيوت أعيان ممثلي الإكليرس والفريسيين.

انتقلت قيادة الحركة كليا إلى أيدي الفصيل المتطرف من الزيلوت، وعلى رأسهم جان، سيمون وألعاذر، المستندون إلى الفلاحين، الصناع والعبيد المعتقين. وأعلن التجمع الشعبي الملتئم في المعبد نفسه السلطة العليا. وقسم يهودا إلى ١٢ دائرة، ونظم الإدارة العامة للتمرد، وأرسل ممثليه إلى الجليل والمناطق اليهودية الأخرى.

رغم وجوده على رأس قوات ضخمة، أجبر فلافيس فسبازيانس، المكلف بقمع التمرد، أن يقود العمليات ببطء شديد، متقدما تقدما تدريجيا، مدمرا كل البلدات في طريقه، ومعلقا علىالصلبان كل من وقع بين يديه. وهكذا احتل الجليل، واستولى على مركزي المقاومة الهامين، طبريا وجوتاباتا. وفي الجليل، انتقل أحد وجوه الفريسيين، يوسف، إلى صفوف الرومان، وصار تابعا لفسبازيان، وسمي فلافيس يوسف، واهتم فيما بعد اهتماما كبيرا بالأحداث في كتابه "تاريخ حرب اليهود ضد الرومان". على ذلك، استمرت المقاومة في كل يهودا تقريبا، ودافعت القدس المحاصرة بتشبث استثنائي.

لم يكن الموقف قد اتضح نهائيا في يهودا، حتى نشب في ربيع العام ٦٨ تمرد أخطر أيضا في غول. كان الأدريون، السكانس، والأرفيرن وغيرهم، من بين هذه الأمم الأقوى والأكبر عددا، قد حملوا السلاح، وكان الأدهى لدى حكومة نيرون وجود على رأسي المتمردين السفير الإمبراطوري في الغول، يوليوس فاندكس، الغولوا الأصل. فقد جمع على عجل آلاف الناس. وفي خطاباته وتصريحاته، كان فاندكس يعلن تحت القسم أن هدف التمرد الوحيد هو تحرير الإمبراطورية الرومانية من نير الطاغية وقلب نيرون هذا البهلوان المتوج".

لاقى نداء فاندكس في الحال صدى مشجعا لدى حكومات وقوات الأقاليم الغربية الرومانية الأخرى. ماكان الجنود يعرفون نيرون ولايحبونه. كانوا يغارون من مرافقة الحكام المتمتعين بأناقة السيد الصغير، التي تجريها خدمة الحرس في البلاط واستعراضات

العاصمة. وكانت قيادة الجيش العليا، السفراء والمحافظون يتوقعون التعرض، هم أيضـــا، لمصير كوربلون، مصلح البونت، الذي دعاه نيرون، للانتحار لأنه يحسده علـــى مجـده. وعلى الفور مشى اقتداء بفاندكس سفراء أسبانيا الأقرب وأسبانيا الأبعد، سرفيس سلبسـيوس غالبا وم.سلفيوس أوتون، وكذلك محافظ أفريقيا ل.كلوديس ماســر، الـذي دعـا الجميـع للانتفاض والسير إلى روما. كانت قوات الرين تشكل آنئذ أقوى جيوش روما، التي سحقت ميليشيات الغولوا وقتل فاندكس بسيفه، مقدرا مسبقا قضيته الخاسرة، لكـن هـذه القـوات سرعان ما انتفضت هي الأخرى، ضد نيرون، مطالبة بإلحاح بتنصيب قائدهـا فرجنـس روفس إمبراطورا. وكانت كل المحميات الغربية والقوات المتمركزة فيها، في العـام ٦٨، في حالة تمرد مكشوف.

كانت حكومة نيرون في حالة فوضى وتفكك كاملين. أما هو، كـان يرسـم الخطـط الأكثر وهمية: كان يفكر، مثلا، بالمثول أمام المتمردين، يفتنهم بغنائه وقيثارتـه. وأعطـي الأمر بإعداد الديكورات ودعوة لفيف من الممثلين. لكن مساعديه ذاتـهم خـانوه: وقـف تجللان، بأمل إنقاذ وضعه وحياته، إلى جانب غالبا، وبالوعد بدوام العطايا ، ألـزم الجنـد الحكوميين على إعلان هذا الأخير إمبراطورا. ولم يبق إلا مجلس الشيوخ ليوافـق علـى الانقلاب: أعلن نيرون عدوا للشعب وأدين بالموت. الكل هجر نيرون، فضاع، ولـم يبـق أمامه إلا الانتحار، بعد أن فشلت محاولات الهرب. وصرح وهو يموت: "أي فنان يمـوت في جانحي!".

إن موت نيرون لم يعن فقط نهاية حكم أسرة جوليو-كلوديين التي حكمت روما منـذ حوالي قرن. بل يعني، فضلا عن هذا، نهاية السيطرة التي مارستها روما وشرائح المجتمع الرومانو-إيطالي العليا، على الأقاليم. وكان على الإدارة الإمبراطورية، التي خلقـها هـذا الحكم، من الآن فصاعدا أن تخدم مالكي العبيد في عالم البحر الأبيض المتوسط قاطبة.

الفصل الواحد والستون

الحرب الأهلية للعام ٦٨-٦٩ وتوسع القاعدة الاجتماعية للامبراطورية. حكم أسرة فلافيان

الحرب الأهلية للعام ٦٨-٦٩

كما تم الأمر منذ مائة عام، كذلك اليوم: العنصر الأساسي في الانقلاب هو الجيش. يلاحظ تاسيت بكل حق في هذا الصدد أن "نهاية نيرون... أسفرت عن انفعالات عدة لدى القوات وقادتها؛ لأن أحد أسرار الدولة أذيع: لايمكن إقامة إمبراطور إلا في روما" (التاريخ، ١، ٤).

لكن تركيبة الجيش، في العام ٦٨، لم تعد أبدا كما كانت في أيام قيصر وأوكتاف. كانت إلى حد بعيد إقليمية. وانطلاقا من النصف الثاني للقرن، لم يعد سكان روما والطليان بعامة يخدمون إلا في الحرس الإمبراطوري أو في الوحدات المقيمة في المدن. وتتحشد الفيالق أساسا بين سكان المدن الإقليمية. وكانت القوات المساعدة تمثل طابعا غير روماني ومن أصول عرقية أخرى واضحة المنشأ: تتألف من ممثلي مختلف الأعراق المعادية الشرسة، التي تصون عادة مصالحها القومية؛ كان ثمة وحدات بتافية، أسبانية، تراس، سيسيليين وغيرها. ومن جهة أخرى، كانت تقوم وشائج متينة بين الجنود والسكان المحليين بفعل التجمعات التي تولد في جوار المواقع المنيعة والمعسكرات، وحيث كان يعيش صناعيون، حانوتيون، خمارون وأعمال أخرى لتأمين حاجات الجند. وكانت مستعمرات المحاربين القدماء، المحنكين، تساهم كثيرا بتقريب الجيش من الأهالي المحليين. وهكذا كان لكل جيش روماني شكله الأثني-العرقي وسيماؤه الإقليمية، مع محافظة القادة الرومان على الانضباط الحربي الروماني. وكانت اللاتينية هي اللغة الرسمية، وعبادة الإمبراطور الذي يقام له نصب في مدخل المعسكر الرئيسي وبكلمة أسلوب الحياة الرومانية.

يمكن إجمالاً تقسيم الجيش الروماني إلى ثلاثة تجمعات ضخمة ذات خاصيات ومصالح شديدة الوضوح. بداية تجمع جيش الرين، الأقوى قتالياً، مع ثماني تجريدات محتشدة بخاصة في مناطق الغول، والعديد من ملحقاته الجرمانية. حسب الأصول الجرمانية، تغطي الفيالق عمراتها وبواخرها بجلود الدببة والأوس. ثم يأتي جيش الشرق (ثلاثة فيالق في سوريا، ثلاثة في فلسطين واثنان في مصر)، حيث يخدم في الأغلب رجال من آسيا الصغرى، وغالباً، غالات وكبادشيين شبه إغريقيين. كان جنوده يرتدون الخيتون ويبتهلون لآلهة الشرق: "الشمس غير المرئية" ومثرا *Mithra*. أخيراً، جيش الدانوب، - الذي يضم فيالق ميزيا وبانونيا، يشكل التجمع الثالث. كانت تركيبته الأثنية أصلا من أبناء البلد: بين جنوده الكثير من الغولوا والإسبان، بينما كان التراس، والإغريق هم الأكثر عددا. كان جيش الدانوب على علاقات طيبة مع جيش الشرق، وكثيرا ما مد له يد المساعدة.

كان كل جيش يتشبث برباط جمعي؛ لكل جيش تقاليده، وأعياده واحتفالات انتصاراته السنوية. ويهدف كل جيش الآن تنصيب قائده إمبراطورا، لكي يغدق عطاياه على مساعديه ومحظييه لقد خلف نيرون مباشرة سرفيس سلبسيس غالبا، سفير إسبانيا القريبة، الذي كان أول من انضم إلى تمرد فاندكس والذي نصبته الحاشية الإمبراطورية إمبراطورا لروما. كان أحد الأعضاء الأكثر تميزا في مجلس الشيوخ بالدم والثروة، قائدا فذا ومديرا مجربا (كان في ٧٢ من عمره). منذ قدومه إلى روما، أعلن غالبا نفوذه لدى النظام التحكمي، وأنه "سفير مجلس الشيوخ والشعب". وضرب كلمة "حرية" على النقود. كان غالبا يسعى بوضوح لإرضاء تطلعات الشرائح العليا من المجتمع الروماني والإيطالي، بينما كان قاسيا تجاه الجنود لا بل هدد بإصلاح انضباط الحرس الإمبراطوزي المتهاون.

لهذا بالذات لم يتسن له أن يحافظ على السلطة سوى سبعة أشهر. اشترى أحد مقربيه، الطموح م.سالفيس أوتون، الحاشية الملكية التي أعلنته إمبارطورا في ١٥ كانون الثاني ٦٩؛ وذبح العجوز غالبا ومستشاريه وخليفته المسمى، بيزون، سليل واحدة من أهم الأرومات الأرستقراطية.

لكن اوتون نفسه لم يحكم سوى ثلاثة أشهر رغم الدعم المسعور من الحاشية والعوام الرومان الذين أغدق عليهم بسعة. فقد رفض تجمع الرين طاعته منذ مجيئه، وسمى إمبراطورا أحد قادته، سفير جرمانيا السفلى، أولس فتيليس. كان الأمير القادم سيئا بأوسع

معنى، واحداً من أبرع وأحط متملقي بلاط كلود ونيرون، مشهوراً فقط بجشعه، وقد نجح بشد إهتمام الجند بمحاولاته غير المحدودة. ترك الحدود مكشوفة تماماً، فمشى إليه طابوران من جيش الرين. دارت معركة ضارية في ٤ نيسان ٦٩، في بيدرياك، قرب كريمونا، بين الفيالق الجرمانية التي اجتازت الألب وقوات أوتون الإيطالية: ذاق هؤلاء هزيمة منكرة. وتركوا وراءهم ٤٠ ألف قتيل. وقتل أوتون بسيفه. ودون أن يهتم المنتصرون بدفن قتلاهم انتشروا في أنحاء إيطاليا الأربعة لتنهب كما لو كانت بلداً معادياً. وفرضت التعويضات على من نجى من الدمار. دمرت هذه اللصوصية والمجون الانضباط الذين كان يفاخر به جيش الرين. فتن نجاح الفيالق الجرمانية الجيشين الرومانيين الآخرين الجرارين، المقيمين في الدانوب وسوريا. فتمردوا وأعلنا تيتس فسبازيانس إمبراطورا. ودون انتظار قوات الشرق، خاضت فيالق ميزيا وبانونيا ودلماسيا معركة بقيادة رائد بسيط، سفير الفيلق السابع م.أنطونيس بريمس. وفي صولة ليلية عاصفة، حققت فيالق الدانوب أمام كريمونا نصرا تاما على قوات الرين التي تخلت عن مجدها الغابر. وبعد شهرين في كانون الأول ٦٩ أخذت روما من الهجوم، بعد معركة دامية في الشوارع، خلالها لم يتردد أنصار الإمبراطور فيتيليوس عن حرق معبد "جوبتير أوبتمس مكسموس" الشهير، في الكابيتول، حيث كدس الأرشيف الروماني. قبض الجند على فيتاليس، في أحد أروقة القصر، حيث لجأ، وذبحوه بوحشية.

منح مجلس الشيوخ، خوفا من نفس المصير، فسبازيان، الغائب، موافقته. أرجأ هنا الأخير دخوله ستة أشهر إلى العاصمة، التي كان حكمها تلك الفترة ضباطه، أنطونيس بريمس ولسنيس فريانس، بينما كان هو سفيرا في سوريا. انتهى التمرد العسكري الكبير لعامي ٦٨-٦٩ بنصر مؤزر لجيوش الشرق على العاصمة والحكومة المركزية الرومانية.

الامبراطورية في عهد الفلافيين

أفضت أزمة العامين ٦٨-٦٩ إلى تنظيم جديد عميق لكل نهج الدكتاتورية العسكرية لدولة العبودية. فقد قدم انتصار جيوش الأقاليم ظفرا لعنصر العبد على العنصر الروماني والطلياني، وانتقلت روما إلى مرحلة جديدة وأرقى في الملكية القديمة، استنادا إلى مجتمع العبودية في حوض البحر المتوسط كله، وبخاصة في المدن والعائلات الكبرى الإقليمية. ولم يتخلف عالم العبودية عن الدخول في مرحلته النهائية المتفتحة، الأمر الذي يمكن أن

يسمى "العصر الذهبي" لإمبراطورية (القرن الثاني الميلادي).

تبدى هذا التطور إلى هذا الحد أو ذاك في عهد الفلافيين، الأسرة الحاكمة الأولى التي خلفت أسرة يوليوس-كلودين، والتي مع ذلك لم تحكم روما سوى ٢٧ عاماً (٦٩-٩٦). كانت هذهالأسرة غامضة المنشأ والموقع حتى آنئذ سليلة شرائح وسطى من المجتمع الإيطالي. كان الجد المؤسس لأسرة تيتس فلافيس سبازيانس فلاحاً من بلاد السابان وصار قائد مائة؛ وكان أبوه جابي ضرائب. ولم يرب فسبازيان، في المهنة الإدارية والعسكرية الإقليمية إلا بدافع الحماس والنشاط والدهاء القروي. امتاز عهده (٦٩-٩٦). بروح التكتيك والادخار. مع هذا، لم يكن فسبازيان يهدف أبداً ان يحكم بيد صارمة، ولم يرض أن يتدخل أحد في قراراته، وأكره مجلس الشيوخ ان يمنحه سلطات واسعة جدا، متمتعا بحق إنجاز كل الأعمال التي يراها ضرورية لخير الدولة.

كقائد مجرب، كان أول همومه القضاء على الفوضى في الجيش وإرسال القوات الإيطالية إلى الحدود. وأمن لوحداته المخلصة خير المعسكرات. بخاصة في سوريا، وأرسلت "الفيالق المنهزمة" إلى تخوم الدانوب الخطر: والحاميات الأبعد في الشمال الشرقي آلت إلى حرس نيرون الشخصي، رفعها هو خاصة باسم الفيلق الإيطالي، التي كان جزء منها حامية في قصور توريد المنيعة (في شاراكس قرب يالطا).

ثم لقاء جهد جهيد، قمعت الإمبراطورية الرومانية كل الحركات الانفصالية في الأقاليم وقبل الكل تمرد يهودا. ولقد أفاد متمردو هذه المنطقة من الهدنة ليلموا شملهم ويعززوا موقعهم. كان حنا جسكال الذي نجح في العبور من الخليل إلى القدس على رأسهم منذ ٦٧، كانت هذه المدينة الضخمة ذات الـ٦ آلاف ساكن، المنيعة فقط بموقعها في وسط ممرات ووديان ضيقة وعميقة (وادي يوشافات، مثلا) ومحمية بسور مزدوج مزود بـ١٦٤ برج، كانت مركز المتمردين الرئيسي.

جيش من أربعة فيالق وتجريدة مساعدة بقيادة تيتس بن فازبازيان، شرع بداية بأعمال الحصار الطويلة والمرهقة التي دامت عدة أشهر، وفي آب من العام ٧٠ تيسر للرومان الهجوم. لقد تجدد المشهد المأساوي لسقوط قرطاجة، أخذت أولا المدينة السفلى، ثم المدينة الوسطى بقصرها، وأخيرا المعبد، في قمة جبل موررياح الذي ينهض في وسط المدينة. هلك القسم الأكبر من السكان في أثناء معركة شوارع رهيبة ومن فاته الموت بيع

عبدا أحرق المعبد وقت الهجوم، نهبت المدينة، وعلى أنقاضها أقام الفيلق العاشر الروماني معسكره. ورغم أن النضال استمر في يهودا حتى العام ٧٣، حقق تيتس الذي عاد إلى روما ٧١ نصرا كاسحا، وأقيم أيضا في ميدان فورم قوس المجد لقاهر اليهود، تمثل أفاريزه جنودا يحملون إلى الكابيتول أشياء القدس المقدسة، الهيكل، الأبواق الضخمة، والشمعدان ذا الأغصان السبعة.

قمع التمرد في الغول وعلى الرين ليس بأقل قسوة. نشب هذا العصيان بين أمة الباتاف المحاربة المقيمة في نهر الرين وقد ضمت سابقا جيرانها من الغريزون والكانينغات، كان على رأسي المتمردين يوليس سفلوس، أمير باتافيا، الذي خدم طويلا في الجيش الروماني. احتلت قوات فتليس (حسب تعبير تاسيت) لم يبق على الرين إلا أشباه فيالق) على عجل كل مواقع الرين الحصينة تقريبا. ثم امتدت الحركة إلى الغول حيث أعلن رجلان من كبار عائلات تريفير هما يوليس كلاسكس ويوليس تيرور إمبراطورية الغول المستقلة. اضطر فاسبازيان أن يرسل إلى الرين قائده الفذ بتليس سريانس على رأس قوة ضخمة، ليخنق هذا اللهيب المتأجج، وخوفا من القوات الشعبية وقف النبلاء الغوليون إلى جانب الرومان. "بعد عدة معارك نجح سريانس في إخضاع جرمانيا: أسفرت إحداها عن عدد ضخم من القتلى من الجانبين، وازدحمت الجثث في النهر المار في تلك المحلات"، هذا ما قاله باختصار ديون كاسيس بصدد نهاية هذا التمرد (٣،٦٦).

في العام ذاته قمعت فتنة البونت، التي نجح قائدها المعتق أنيسيت بداية أن نقل جزءا من تجهيزات أسطول البونت إلى منطقته.

انكبت حكومة فاسبازيان على تسوية شؤون أموال الدولة، التي دمرها تبذير نيرون وإسرافه وحروبه الأهلية، وأثار فاسبازيان الذي سعى بالبساطة والتواضع إعطاء المثل بالادخار، أثار غضب وسخرية المتملقين الفاسقين،وهزأهم أيضا من الضرائب الجديدة لتغطية الميزانية الهالكة: ضوعفت بعض الضرائب القديمة ، ووضعت الرسوم حتى على المقابر والقبور وعلى آبار المراحيض وعلى المراحيض،ووضع أمام أنف ابنه تيتس كاره هذا التدبير قبضة من النقود وقال: "النقود لارائحة لها"، لكنها في نفس الوقت آزرت المدن والناس الذين دمرتهم الزلازل والحرائق، ففي روما لإيجاد عمل للشعب قامت أعمال الترميم لإنجاز الكابيتول وبدئ ببناء مدرج فلافيان في مركز المدينة، يتسع لخمس وثمانين ألف مشاهد.

بهذا الصدد، اقتفى فسبازيان سياسة قيصر وكلود، وتوسع بإعطاء حق المواطنة لأبناء المحميات. وبعد منح ابنه الرقابة، أخذ لوائح بأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، وأضاف إليها عددا كبيرا من ممثلي الأسر الكبيرة الإقليمية.

في أثناء حكمه القصير الذي دام سنيتن فقط (٧٩-٨١)، تابع تيتس سياسة أبيه. شقت الطرق من الأقاليم إلى روما، واستمرت الأعمال الكبرى العامة (أنجز الكولزيه)، وقدمت مساعدات واسعة لسكان الريف، الذين عانوا الكثير من ثوران بركان فيزوف الرهيب، الذي دمر بومبيه وكثيرا من المدن، في ٢٤ آب ٧٩.

وثالث الفلافيين، ابن فاسبازيان الأصغر دوميتيان، الذي حكم مدةأطول من مدة حكم ذويه (٨١-٩٦)، مارس بحزم وجسارة السلطة المطلقة بفعل الدعم الواسع الذي لاقاه خارج إيطاليا. لكنه، بالمقابل، كان أكثر منهم تعرضا لعداء أصدقاء الماضي والوشاية، بعد موته المأساوي.

كان طبع دوميتيان صعبا، تسلطيا وحذرا؛ اعتلى العرش بعد موت تيتس المبكر، اتخذ موقف التعاظم والإثارة بخاصة تجاه مجلس الشيوخ، طالبا أيضا أن يسمى "سيدا". وأبعد مجلس الشيوخ إلى الصف الخلفي تماما. واستعبد الفرسان، المتزايدون أكثر فأكثر في مجلس الشورى الإمبراطوري. ولتأمين نفقات الدولة الضخمة، استمرت جباية الضرائب بدون رحمة، باستيفاء الضرائب المتخلفة من كبار السادة وعلية الموظفين المعتادين على الإعفاء من أداء مستحقاتهم، وأنذروا إن لم يؤدوها تصادر ممتلكاتهم دون صخب؛ فراحوا ينادون "دومتيان حيوان جارح" و"مبتز مغتصب". كانت أعمال حكام الإقليم خاضعة لمراقبة في غاية الحزم والحسم. وأظهر دوميتيان، هو أيضاً، تسامحه الكبير في منح حق المواطنية لأبناء الأقاليم؛ إسبانيا كلها تلقت الحق اللاتيني. ولأول مرة، أرسلت الحكومة إلى مدن الإقليم "قيمين"، كان دورهم رعاية سعادة الناس في هذه المدن وتنظيم أموالها، كما كان الأمر في القرن الثاني.

كانت حكومة دوميتيان تسهر بكل عناية على حماية الإقليم من العدو الخارجي. فكل القوات المقاتلة محتشدة على حدود الإمبراطورية الأخطر، إلى الرين والدانوب، المعرضة أبداً لتهديد الغارات البربرية.

على الرين، دل الكات أنهم خطرون بشكل استثنائي. ففي العام ٨٣، أنزل دومتيان،

على رأس ٤ فيالق، هزيمة قاصمة بالشعب الجرماني، خلف معمعة قاسية جدا، في منطقة غابية ومستنقعية البلد الذي احتل هكذا بين الرين والمان مع "الحقول الدكمات" في أعلى الرين، الذي احتله فسبازيان، مساحة واسعة دفاعية، على ضفة الرين اليمنى.وعلى طول ٣٠٠كم، جهزت هذه البقعة بأعمال تحصين مترابطة مع شبكة دروب قتالية وميادين المؤخرة المنيعة. هوذا أصل "المبادر" الجرمانو-رتيان، الخط الدفاعي العظيم، الذي يغلق كل الحدود.

كان الدفاع عن الدانوب الأدنى يتطلب جهودا ضخمة جدا. ونتيجة اضطرابات ٦٨و٦٩، اعتادت أسراب من الخيالة الروكسالان أن تشن غارات خلف الدانوب. تضاف إلى هذه غزوات الداس *Daces* المتزايدة الآتية من تراسلفانيا، منذ أن جمع أحد قادتهم، دكابال، تحت سلطته عددا كبيرا من القبائل. وفي العام ٨٧، أنزل الداس هزيمة نكراء بمحافظ الحاكمية كورنليس فوسكس الذي، على رأس جيش جرار، حاول التغلغل في بلادهم الجبلية والغابية، حتى سرمزجثوذا، عاصمتهم. لقي الجنرال الروماني الهلاك على يد هذا الداهية، مع الشطر الأكبر من قواته. ووقعت كل الأمتعة والأعتدة بين يدي الداس. وذاق الإمبراطور نفسه، الذي كان على الحدود، فشلا مرا، على يدي الداس وحلفائهم الكواد والمركومان. "كان هذا أول هجوم موفق للبرابرة على الإمبراطورية"، كما لاحظ ماركس في عمله "ملاحظات تاريخية[1]" وأكره دوميتيان على عقد مع دكابال معاهدة تنال من مجد روما، إذ اشترى انسجامه بالمال والتزم بتزويد الداس بالسلاح، والمهندسين لتعليهم صنع أجهزة وإقامة استحكامات، مخصصة للعمل ضد الرومان أنفسهم.

إنما في الوقت ذاته بدئ، من الجانب الروماني، ببناء وعلى عجل، على مجرى الدانوب الأسفل، نهج استحكامات دفاعية ليست أقل مناعة مما على الرين. إن هذه الخطوط الحصينة (٦٠ قصرا شامخا مرتبطة بثكنة على اليابسة) هي ما يسمى اليوم "سور تراجان". ولتأمين أصلب دفاع، قسم إقليم ميزي إلى شطرين: الأعلى (صربيا الحالية(والأسفل (شمال بلغاريا ودوبوشجا). وخلق أسطول محارب على الدانوب.

لقد أسهمت هذه الأحداث بتسعير النزاع بن حكومة دوميتيان من جهة والأرسقراطية

---

[1] – ك.ماركس. ملخصات تاريخية. ارشيف كارل ماركس وف.انجلز، المجد الخامس، ص٦.

المشيخية والأوساط الثقافية التي ارتبطت بها (الـ"فلاسفة") من جهة أخرى. وترجم غضبهم بداية إلى طوفان الخنازير البرية، والنكت والقصائد الهجائية الساخطة على الإمبراطور، والتي تذخر بها أعمال كتاب ذلك الزمن، تاسيت، مارتيال وجوفنال. وانطلاقا من العام ٨٠، شرع الغاضبون بحبك المؤامرات؛ رد دوميتيان على هذه التصرفات بنفي العديد من كبار الموظفين، ثم بدأ قطع الرؤوس.

وفي العام ٨٨، وجدت المعارضة ضالتها في شخص شديد الخطورة هو أنطونيوس سارتوننس، سفير جرمانيا العليا، الذي أعلن نفسه إمبراطورا، وحرض على التمرد فيلقين من حامية موغونتايكوم (ميانس)، وعقد حلفا مع الكات، الذين أخضعوا حديثا، وشعوب جرمانية أخرى، واقترح تجديد محاربة روما. ولمنعه من نهب إيطاليا من جديد، اضطر دوميتيان أن يوجه إلى الرين قوات من أسبانيا ذاتها والدخول شخصيا في عراك مع ساتورننس. ولقد حالت كارثة الرين دون انضمام هذا الأخير إلى الجرمان. وهنا وقعت صدمة دامية، قتل ساتورننس، وبدد جيشه فلولا، وتتالت المذابح والإعدامات؛ وتلى المتآمرين الكثير من مجلس الشيوخ الأظناء بتعاطفهم مع قضية سارتونس.

انطلاقا من العام ٩٠، تتالت المؤامرات، ولجأت حكومة دوميتيان إلى الإرهاب. كانت علاقات الدساسين، الجبناء والمبتزين، تمكن من فبركة دعاوى غريبة، أفضت إلى زج كثير من الأبرياء. كان دوميتيان قاسيا جدا مع "الفلاسفة"، لأنه رأى فيهم إيدولوجيي أعدائه: فنفى من روما الأديب الكبير ديون كرزستوم والأبيقوري أبيكتير. واضطهد أيضا اليهود "والمسيحيين" الذين بدأوا ينفصلون عن تجمعاتهم، لأن نظرياتهم أفضت إلى تهويد العديد من الوثنيين من أسر المعارضة النبيلة وحتى البلاط.

في العامين ٩٥و٩٦، ارتدى الصراع عنفا جعل دوميتيان يشعر بأنه وحش مطارد. فلم يعد في طمأنينة حتى في قصره؛ فأمر بإقامة سقوف وجدران زجاجية في الغرف التي يعيش فيها، ليتسنى له أن يلاحظ دوما ما يحدث حوله وخلفه. وفعلا حيكت المكيدة في محيطه المباشر، والإمبراطورة ذاتها، دومتيا لونجينا، ابنة كوربلون، اشتركت فيها، مع محافظي الإمبراطورية وكبار موظفي البلاط. وفي ايلول ٩٦، قتل دوميتيان في غرفة نومه.

كتب سويتون "إن مجلس الشيوخ، كان في قمة الغبطة. واجتمع زمرا ومزق ذكرى الأمير الميت بحقد لا مثيل له. ونزع شعاراته وصوره" (دومتيان، ٢٣).

الفصل الثاني والستون

الإمبراطورية في عهد الأنطونيين

"العصر الذهبي" للامبراطورية الرومانية؛ الأنطونيون الأوائل.

إن العمل الذي بدأه الفلافيون لإعادة تنظيم الدولة لتكون ملكية مطلقة من نمط جديد، مستندة إلى كل شرائح مجتمع العبودية في عالم البحر المتوسط، استعاده خلفاؤهم الأنطونيين (٩٦-١٩٢). فكانت العصور الأكثر تألقاً في تاريخ الامبراطورية الرومانية والمسماة "العصر الذهبي".

والتعبير نفسه لحكم أسرة الأنطونيين اصطلاحي تماما: فقد اعتادوا هذه التسمية لسلسة من الأباطرة الرومان للقرن الثاني، الذين حكموا بالتتابع المباشر: نيرفا (٩٦-٩٨)، تراجان (٩٨-١١٧)، أدريان (١١٧-١٣٨)، أنطونين (١٣٨-١٦١) مارك أوريل (١٦١-١٨٠) وكومود (١٨٠-١٩٢). باستثناء الأخيرين (كان كومود ابن مارك أوريل)؛ كانوا قد سموا باسم جدودهم، الذين اختاروهم من الأشخاص الأشهر والأقدر في محيطهم، وتبنوهم في حياتهم، فخلفوهم في السلطة، وحتى هذا الاسم الجماعي أنطونين، تلقوه بعدئذ، ليس نسبة لأولهم، بل نسبة إلى رابعهم، الذي رأت السلالة انه الأشهر ولقب أنطوان التقي. وعدا نيرفا، الذي ينتسب إلى أسرة قديمة مشيخية رومانية، يمثلون جميعا هذه السمة المشتركة أي النبل الإقليمي، وكانوا جميعا (عدا الأخير، كومود) رجالا من خارج الذرية، منظمين وإداريين رائعين، في مقامهم السني، يحسبون أنفسهم في خدمة الدولة في التفضيل الواسع الذي أخذه هذا التعبير منذئذ. وبمراقبة الأشكال الخارجية للاحترام تجاه المؤسسات الحكومية الرومانية القديمة ومجلس الشيوخ بخاصة، كانوا ملتزمين بوضوح في درب التسلط، الذي كانت الأقاليم قد اعتادته منذ زمن، وحكموا "حكما استبداديا" فعليا، على هواهم. ففي مجال السياسة الداخلية والخارجية، كانوا يسلكون نوعا ما كمؤسسي سلطة طبقة مالكي العبيد في حوض المتوسط كله، وهي السيد الجديد للامبراطورية الرومانية منذ الحرب الأهلية ٦٨-٦٩.

كان أول هذه الأسرة الحاكمة م.كوسيس نيرفا، الشيخ المسن ابن السبعين سنة، استثناء بينهم؛ لقبه الرئيسي في عين أقرانه الذين رفعوا إلى سدة الحكم يأتيه من اشتراكه في ثورة القصر للعام ٩٦، الذي انتهى بدوميتيان. ونيرفا حسب تعبير تاسيت، "وفق ما بدا محالا منذ زمن؛ بين امتيازات الأمير وحقوق الشعب الحر" (حياة أغركولا، ٣). أقسم رسميا أن لايعدم أي شيخ. توقفت دعاوى الطعن أو القدح برأس السلطة، واستمر النمامون وكانت ضحاياهم لاتعوض. واستعادت المنتديات الأدبية نشاطها؛ وفي هذا العصر كتب تاسيت عمله الأول "حياة أغركولا"، حيث يحيي "فجر هذا القرن الهنيء". وقد غمر الشاعر مارتيال نيرفا بالمديح: "هو ليس سيدا، إنما امبراطور وأعدل الشيوخ" (١٠، ٧٢). لكن حكومة نيرفا المشيخية اصطدمت بريبب الجيش العادية، واضطر إلى اختيار وتعيين وريثه، أحد أبرز قادة تلك الحقبة، سفير جرمانيا م.أولبيس تراجانس، الذي تفرد في أثناء قمع تمرد ستورننس. وبعد أربعة أشهر من موت نيرفا، صار تراجان امبراطورا.

كان تراجان (٩٨-١١٧) ابن بيتيك، الإقليم الأسباني الأقرب إلى روما. وكان أول إمبراطور من نبل إقليمي فتح الفلافيون أمامه الباب واسعا للوصول إلى السلطة أو، كما يقول ماركس "... أول غريب يعتلي عرش روما[1]" بفضل بروز طاقاته القتالية والإدارية، مضافة إلى تصرفات بسيطة، مستقيمة ومحبوبة. كان تراجان آنئذ في الثانية والأربعين من عمره، اكتسب شعبية عريضة في أوساط الشعب والجيش ثم، سمي رسميا "خير الأمراء".

في عمله الحكومي، كان تراجان يحاول ترتيب ليبرالية نيرفا وتوفيقها مع استحقاقات السياسة الداخلية والخارجية لدوميتيان والفلافين بعامة. وبرهن على تسامح واسع تجاه الأقاليم، وبخاصة، المدن الإقليمية. في عهده رأينا الإقليميين يرفعون أمام مجلس الشيوخ أو المحاكم العادية دعاوى ضد حكامهم أو أتباعهم، يطالبونهم الحساب عن ابتزازاتهم والامتيازات التي خصوا أنفسهم بها، والقمع والسلب. وتطورت تطورا واسعا مؤسسة الوصاية، التي عرفت في أيام دومتيان: لاتكون التسمية للمدن فقط بل للمنطقة بكاملها. وكان الإمبراطور المطلع على أدق التفاصيل الإدارية الإقليمية، يطلب تقارير معللة ويسجل هو نفسه التدابير الواجب اتخاذها. ومازال محفوظة المراسلة بين تراجان وسفير بثينيا-

---

[1] - ك.ماركس، ملخصات تاريخية. أرشيف ك.ماركس وف.انجلز، مجلد ٥ ص٦ (منشورات روسية).

بونت، بلين الشاب، حيث ناقشا، فيما بينهما، بعض القضايا المحلية، مثل بناء مسابح عامة في أمازيا، وخلق مؤسسة إطفائيين متطوعين في نكوميديا، والنفقات السنوية للبيزنطيين وإرسال رسائل تهنئة لإمبراطور ميزيا وحاكمها.

كانت إيطاليا التي يتفاقم قنوطها مع تناقص استثمار الأقاليم، تسبب، هي الأخرى، كثيرا من المتاعب للحكومة. وقبل غيرها من أجزاء الإمبراطورية الأخرى، راحت تتظاهر فيها علامات تفكك النهج الاقتصادي المبني على العبودية، كما تشهد رسالة بلين الشاب الذي أدان مبكرا جدا استغلال عمل الكادحين الأحرار. وترك التراجع المتزايد في الزراعة الإيطالية قلقا عميقا: ولعلاج هذا التدهور الزراعي، صدر قانون يفرض على الشيوخ توظيف جزء من ثروتهم في صناديق تعاونية، ورصدت الحكومة، لمساعدة صغار ومتوسطي المزارعين، مبالغ معتدلة ٥%، من أموال الخزينة.

اتخت تدابير تهدف دوما عرقلة إقفار إيطاليا. وأحدثت صناديق "التعليم اليتامى حتى السادسة عشرة واليتيمات حتى الرابعة عشرة. وفي روما حيث بدىء بتوزيع هذا النوع من الإعانات منذ بداية عهد نيرفا، كان المستفيدون بحدود خمسة آلاف. وفي عهد تراجان، شمل التعليم الابتدائي كل إيطاليا.وحسب الرقيم الذي وصلنا، من فاليا، سوعد من هذه البلدة الواقعة في شمال إيطاليا ٢٨٠ فتى. واقتفى الأغنياء خطوة الحكومة، وشيدوا الكثير من هذه المؤسسات المجانية في إيطاليا والأقاليم؛ بلين، مثلا، وهب خمسمائة ألف سسترن، كونها، مسقط رأس، واعطى كاليا ماكرينا لترسينا مليون سسترن، واهبا فوائد هذا لمبلغ لتربية ١٠٠ صبي.

تابع تراجان بنجاح واسع سياسة الفلافين الخارجية الخلاقة، الدفاعية أساسا، لأنها كانت تهدف الدفاع عن الأقاليم المعرضية للغزو، لكنها في حال النجاح لاترفض توسيع حدود الإمبراطورية. لقد دخل تراجان التاريخ كآخر منتصر روماني.

مهمتان كبيرتان عسكريتان فرضتا على حكومة تراجان؛ الدفاع عن حدود أسفل الدانوب ضد الداس *Dase*، الذين تتنامى قوتهم أكثر فأكثر، والثانيسة التصدي للحملات الشرقية، على الفرات، حيث كانت إمبراطورية البارث لا تكف عن تشكيل خطر محدق. حقق أهم وأول هذه الأهداف بغزويتن قاسيتين ضد الداس (١٠١-١٠٢ و١٠٥-١٠٦). وبعد الإعداد الضخم، -شق طريق حربي على طول الدانوب، بناء جسر حجري على

النهر بـ"أبواب حديدية"، حشد جيش جرار من ١٢ فيلقا، -بدأت القوات الومانيـة زحفـها المحترس والتدريجي في قلب داسيا. وبعد الاستيلاء على عاصمتها سرمزجتوزا، حـاول دسبال لفت انتباه الرومان إلى مجنبتهم، بغارة تدميرية لميزيا. لكن تراجان نفسـه اتجـه، بالقوات الرومانية المتحركة، لنجدة مواقع الدانوب الأسفل المحاصرة، ثم بدا الهجوم علـى داسيا وأخضعها حتى سفوح جبال الكربات الجنوبية. فانتحر دسبال وقادة الداس الآخـرون، وأباد الرومان جزءا من هذه الأمة، ولجأ من فاته الموت إلى ما وراء الكاربات. وعاد البلد المدمر إلى محمية رومانية، وبناء على دعوة الحكومة توافدت إليها جمهرة مـن إيطاليـا الشمالية، من دلماسيا، وثراسيا ومن آسيا الصغرى، مساهمين بإكسائها باللباس الرومـاني سريعاً. لقد أغرت ثروات داسيا الباطنية، هذه الجيوب الذهبية الشـهيرة، مارسـت جذبـاً فريداً، وفتح عدد كبير من مناجم الدولة أو الخاصة في هذه المحمية.

أتخمت ثروات داسيا الخزينة الرومانية وسمحت بتمويل برنـامج الأعمـال العامـة المكلفة جداً الذي وضعه تراجان. دعم الحصن بثلاثة أسوار حجرية رفعها دومتيـان فـي ميزيا السفلي. وبنى على ضفاف الدانوب الأسفل ميدانين جديدين لفيالقه التي تحرس نقـاط العبور الخطرة. وعلى ضفة الدانوب اليسرى، في مولدافيا وبساربيا، أقام الرومان العديـد من رؤوس الجسور المنيعة على طول بروث، دنستر وسرث التي سميت هـي الأخـرى باسم تراجان. ويثبت اسم هذا الامبراطور الذي يصـادف فـي تقـاليد السـلاف القديمـة اتصالاتهم الاولى مع الرومان في تلك الحقبة.

أعد تراجان بكثير من العناية الحرب ضد البارث الذين، في النزاعات الماضية، كبدوا الامبراطورية الرومانية خسائر كبيرة. فمنذ العام ١٠٥و١٠٦، احتل سفير سوريا كورنليس بالما بمبادرته شبه جزيرة سيناء ومساحات واسعة من الأرض بين فلسـطين والصحـراء العربية، التي شكلت الإقليم العربي الجديد مع مدينتي البتراء وبصرى. من هايتن المدينيتـن يعبر الطريق الكبير الذي يربط دمشق بالبحر الأحمر، وتحميه تحصينات "الحدود العربية". بدأت الحملة ضد البارث، التي كان باعثها كالعادة الخلافات بين الدولتين حول موضـوع أرمنيا التي يرغب ملك البارث تسليم تاجها لابنه، بدأت في العام ١١٤. احتـل تراجـان، حليف ملكي القفقاس في كولشد وإيبيريا (جيورجيا)، كل أرمينيا وولج ما بين النهرين، وهو يعبر مجرى دجلة، استولى على عاصمتي البارث، سلوسيا وستسفون ووصل الـ"محيـط"

أي الخليج العربي. وآنئذ دخلت الإمبراطورية الرومانية بتماس مباشر مع حضارتي الشرق الخالدتين: قبيل هذا، كان الجنرال الكبير الصيني بان تشاو قد سحق فلول هونغ فو واحتل تركستان، وخيمت طلائعه على الضفة الأخرى للخليج العربي. وأسست على أنقاض امبراطورية البارث ثلاثة أقاليم رومانية هي: أرمينيا، ما بين النهرين، وآشوريا. وكثيرا ما حلم تراجان باحتلال الهند.

لكن كما كان الأمر مع الإسكندر المقدوني، فالصعوبات التي تجعل الحملة شبه محالة، لم تتخلف عن ذر قرنها. كانت خطوط التموين والتواصل في ذلك الزمن بعيدة وكأداء. والشعب إجمالا لا يمثل كتلة سلبية يمكن إخضاعها وتمزيقها بسهولة. وإن استقبل اليونان، الكثر في المنطقة، تراجان بحماس، كما فعلوا مع الاسكندر، وأظهر الإيرانيون لا مبالاتهم بنظامهم الاستبدادي، فالعرب واليهود، المشتتون هنا وهناك بعد دمار فلسطين، خاضوا بحزم الصراع ضد الغزاة الرومان. وفي إديس، سلوسيا ومدن أخرى مما بين النهرين، شبت التمردات، التي قمعت بالحديد والنار، وأغرقت بالدماء. وعلى شواطيء البحر المتوسط، في مصر، في بنغازي، في قبرص، نشبت انتفاضات أعنف وأشرس: حيث ذبح الرومان واليونان بعشرات الألوف. واضطر تراجان نفسه أن يعترف أن انتصاراته في الشرق كانت مبكرة جدا، ترك مساعدوه يتمون عمله، وقرر الرجوع إلى روما ومات على درب العودة، في آسيا الصغرى، في العام ١١٧.

أدريان وأنطونين الورع

ب.إيلين أدريانس (١١٧-١٣٨) خلف تراجان. ومن أصل إسباني مثله، كان ادريان، العسكري المحنك، رفيق تراجان ومساعده في كل الحروب. وكان في الوقت ذاته رجلا اتقن ثقافة عصره إتقانا شاملا. "كان أدريان رقيبا على كل ما يشد الفضول" وذا معرفة موسوعية ، وشاعرا، وموسيقارا ورساما موهوبا، ونحاتا معماريا، رحالة لا يتعب، جوالا أبدا ليرى بعينيه كل المناطق الشهيرة. طبيعة متبحرة إلى أبعد حد، يرغب في أن يكون الأول في كل مجال ولايسمح لأحد أن يتفوق عليه بشيء. في السياسة، كان أوتوقراطيا حتى الصميم، يرغب في فعل كل شيء بذاته: "إرادة العاهل هي القانون الأعلى" (دجست، ١، ٤) -كان هذا هو مبدأه الأساسي طيلة فترة حكمه. في تطوافه الدائم في كل الأقاليم، من بريطانيا حتى سوريا ومصر يشعر الآخرين برقابته وسهره الشخصي على الإدارة الإقليمية وأحوال القيادات العسكرية.

أتقن هذا الإداري الصبور والمتسلط نهج الأرستقراطية الإمبراطورية الذي أرسى أسسه كلود ودومتيان. جعل الخيالة شريحة من الموظفين الفعليين، منهم ينتقي أتباعه المتنفذين. لم يعد الإحصاء إلزاميا، ويسمى أدريان أيضا المهام المدخرة لصنف الفروسية، بعد عدة سنوات من الخدمة في الإدارة. ومجلس الإمبراطور، مؤف من أشهر المشرعين، رئاسة المحافظ الإمبراطوري الذي كان في تلك الحقبة عادة، هو الآخر، فقيها كبيرا، يناقش ويعد تقارير لكل الشؤون الهامة، قبل أن تخضع لقرار الإمبراطور. وبأمر من أدريان، يجمع عضو من المجلس، سلفيوس جوليانس، في مؤلف واحد أوامر الحكام مرعية الإجراء، التي تشكل "الأمر الدائم". وبعد اطلاع الامبراطور وموافقته، يصير هذا المؤلف شريعة الامبراطورية الأساسية، التي يدخر الملوك احتكار إتمامها. وتفصلت صلاحية القضاة السالفين-أي الحكام وقيمي المدن، وشكلت محاكم جديدة مؤلفة من موظفي الحكومة، سموا "قضاة"، موضوعيين برقابة محافظ المدينة، الذي يسميه الإمبراطور. يتميز هؤلاء الموظفون حسب تصنيفهم بألقابهم ونعوتهم التشريفية: صاحب سمو، كلي السعادة، نبيل المولد وبتفصيلة الهندام وتسريحة الشعر (زركشة الثوب، وعصبة الجبين، إلخ).

على منوال الفلافيين، رتب أدريان اقتصادا حازما بالأموال. ولهذه الغاية ألغى كليا النظام القديم لتلزيم جباية الضرائب. ونظمت جباية المداخيل الواسعة للإمبراطورية بعناية فردية جدا. ولإدارة هذه المجالات الزراعية الواسعة ، أملى ادريان نهجا خاصا يطور ويحدد التعليمات المعطاة في أيام الفلافيين بهذا الشأن. واستنادا إلى النصوص، كانت هذه الأملاك تؤجر لخمس سنين لمتعهدين كبار، وهم بدورهم يؤجرونها، أسهما صغيرة، لـ"مستوطنين" يؤدون ما عليهم نقدا أو عينا، ويعملون ستة أيام في العام بدون أجر (سخرة) على الأرض التي يخصها المراقب لنفسه. ويحق للجميع إشغال أرض موات لكن بشروط. وتنظم نصوص مشابهة استثمار مناجم الدولة ومشروعاتها الأخرى. يفرض على الحاكم ممارسة رقابة حازمة على العلاقة بين المتعهد أو المراقب وبين المستوطنين، وقد أوجدوا لدى الإدارة المركزية مهمة محامي الخزينة، الذي كان نوعا من الفقهاء، ملتزما الدفاع عن الخزينة الإمبراطورية أمام المحاكم. ويجب أن تتم المراقبة المالية في أجهزة ومؤسسات الحكومة كل ١٥ سنة.

إن سعة عمل أدريان الإداري، الهادف صهر الإمبراطورية الرومانية الشاسعة في كل

عضوي، أسفرت عن إرجاء المهام العسكرية. كانت حكومته تفضل العمل الدبلوماسي الماهر والمرن. هكذا، لإنهاء حرب الشرق، تخلى تراجان عن فتوحاته فيما بين النهرين وانسحب إلى تخوم الفرات القديم، الأمر الذي أغضب كثيرا بعض رفاقه في السلاح بل وأعدام العديد منهم. لكن وعيه للخطر المتفاقم في الخارج، جعله ينظم الجيش بشكل مثالي. خلق تجريدات خفيفة، مؤهلة للاستطلاع والمناوشات على الحدود. وجهز الجيش الروماني لأول مرة، على نمط السرمات والبارث، بألوية من الخيالة الثقيلة، مسلحة بالدروع. وأولى تحصين منطقة حدود الدانوب والرين عناية خاصة وضخمة. وفي بريطانيا، شيد من بحر إلى آخر "جدار أدريان" الجبار، والذي ما يزال قائماً في شمال انكلترا.

كانت القوات المسلحة ضرورية أيضاً لقمع الاضطرابات الداخلية والتمردات التي بدأت تأخذ طابعاً خطراً أكثر فأكثر. وقد قسى أدريان أكثر من تراجان على الشعب اليهودي المتمرد. وتصلف حتى منع إقامة محفل السبت، وأقام في مكان القدس المستوطنة الرومانية إيليا كبتولينا، ورفع معبداً لجوبتير في نفس مكان معبد يهوه. أثار هذا العمل تمرداً جديداً أكثر عنفاً من سابقه، فقد تمرد سكان فلسطين اليهود، بقيادة زعماء كفء - الكاهن ألعازر وسيمون المسمى باركوشبا "ابن النجم"، الذي يراه اليهود مسيحاً ***Messie***، أرسله الله لإنقاذ الـ"الشعب المختار". وفي بداية الخمسينات من القرن العشرين، عثر في كهف مجاور للبحر الميت على رسالة موثوقة من ابن النجم إلى قائد قوة متمردة. استولت الجمهرة الناضبة على إلياكبتولينا، وذبح المستوطنون الرومان عن آخرهم. وتوجب مرور ثلاث سنوات (١٣٢-١٣٥) لقمع تمرد أهالي يهودا الثاني. وبنفس أساليب التقدم البطيء، كان الرومان يبيدون كل من وجدوه في دربهم، حتى أخضعوا هذا البلد البائس للسلطة. وعادت فلسطين صحراء. ومنع من بقي حياً من السكان اليهود زيارة القدس، سوى مرة واحدة في العام. واضطروا لوضع حامية من فيلين جاهزين لاستتباب "النظام" في هذه المدينة، الذي لم يضطرب بعدئذ.

لقد اعتبر عهد أنطونين (١٣٨-١٦١)، خليفة أدريان، لدى الطبقة السامية في مجتمع روما وكل حوض البحر المتوسط، حقبة الازدهار الأولى في الامبراطورية الرومانية، ولدى الامبراطور نفسه الملك المثالي. لهذا السبب بقيت صفة "الورع" مرتبطة تقلدياً باسمه.

مثل تراجان،وأدريان، ممثلي الشريحة العليا من النبل الإقليمي، كان أنطونين أحد

أبناء أسرة أوليس نربون، الغنية والشهيرة، التي امتلكت أطيانا شاسعة في الغول وإيطاليا.

كانت العلاقات طيبة ومستقرة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، المؤلف منذ الآن بمجمله من الأغنياء الإقليميين مثله. عادت إدارة إيطاليا إلى مجلس الشيوخ (في عهد أدريان، كان يحكمها قناصل يسميهم الأمير)، وكان هذا الأخير شريكا بإدارة الأقاليم والسلطة التشريعية؛ ولم يعدم أي عضو من مجلس الشيوخ طيلة عشرين عاما. وكان هم الإدارة الأساسي تسوية أمور المال وشؤون المحاكم. قال ماركس واصفا حكومة أنطونين: "في عهدها ازدهرت المحميات، ووضع حكامها تحت مراقبة حازمة[1]".

لكن الواقعة المتميزة في إنهاك روما المستمر، هي رفض الأمير بعناد أي غزو خارجي. "كان أنطونين يفضل حياة أي مواطن على أن يقتل الف عدو"، كتب أحد كتاب سيرته. وكان يسعى لترسيخ وضع روما بتسليم عروش الدول الحدودية لدمى وإمعات رومانية. وهكذا أعطى عرش البوسفور لرومتالسي، الذي يأتي إلى روما ملتمسا هذا الفضل. وتراجعت الحروب إلى عمليات حدود ضيقة في بريطانيا، حيث وسع الرومان أرضهم ١٠٠كم نحوالشمال، وعلى الرين. وعلى ضفاف البحر الأسود الشمالية، وأجزاء من القفقاس الشمالي، القائمة في مدن البنت الأغريقية، وبخاصة، في أولبا؛ لكن قوات ميزيا الرومانية سارعت لمؤازرة هذه المدينة الأخيرة وحالت دون نهبها.

وفي أمكنة كثيرة تمت أعمال تحصين دفاعية جبارة وبخاصة على الحدود، كـ"جدران أنطونين" (المصانة حتى الآن في بريطانيا). وقد سارع الإمبراطور الروماني، لدى إحساسه بنفاذ ديناميته الدفاعية، وأغلق أهم حدوده، في وجه العالم البربري الواسع المحيط به.

شارفت "حقبة السلام الروماني الطويلة" على الانتهاء؛ وأفل "العصر الذهبي" للإمبراطورية الرومانية في بداية النصف الثاني من القرن الثاني. وبعد موت أنطونين الورع في العام ١٦١، وجدت روما نفسها في وقت واحد أمام امبراطورين، مار أوريل ولوسيس فيرس. ابن الميت المختار. ولقد استبعد الانشقاق بين الحكام هذه المرة بفضل،

---

[1] – ك.ماركس: ملخصات تاريخية، أرشيف ماركس وأنجلز، المجلد الخامس، ص٦ (منشورات روسية).

ولاشك، شخصية مارك أوريل الفذة، هذا "الفيلسوف الملك"، كما دعي في القديم، مؤلف كتاب بعنوان "لذاته"، أعظم آبدة من الفكر الرواقي القديم. ورغم عجز زميله التام، احتمل مارك هذه الثنائية بالسلطة طيلة ثماني سنوات، أي حتى موت لوسيس فيرس في العام ١٦٩. لكن هذا الاقتسام الخطر للسلطة بين إمبراطورين يحكمان معا كثر جدا.

لقد تلا "السلام الروماني" الطويل الذي ميز عهدي أدريان وأنطونين عهد جديد من الحروب، يوم وجدت روما نفسها من الآن في خط دفاعي. إذ كان يمارس ضغط عنيف في وقت واحد على القطاعين الأخطر للحدود الرومانية، الفرات والدانوب. وفي العام ١٦١، غزى ملك البارث فولوجير اعتمادا على قلة خبرة خلفاء أنتونين وعلى البلبلة التي امل وجودها بينهم، غزا أرمينيا، وطرد من العرش صنيعة الرومان، سوهموز، ووضع مرشحه مكانه. ودحرت قوات الحكام الرومان التي حاولت المقاومة في كبادوس وسوريا، وانتشر البارث كالشلال في سوريا. فاضطر حكومة مارك منذ أيامها الأولى تقريبا أن تحشد كل جهودها في تجهيز حملة إلى الشرق دامت أربعة أعوام بالتمام (١٦١-١٦٥). وكانت بداية هذه الحرب سعيدة جدا لدى روما.

نظفوا سوريا وأرمينيا من البارث، وتغلغلوا بقيادة أفديس كاسيس، حتى اعماق مابين النهرين، ومرة ثانية في التاريخ، استولوا على عاصمتي البارث، سلوسي وستسفون (في هذه الأخيرة أحرقوا القصر الملكي). لكن مارك أوريل لم ينجح بتسوية قضية الشرق نهائيا: إذ لم تعد القوات الرومانية تكفي للنهوض بهذه المهمة. فضلا عن جائحة الطاعون التي أضعفتها وانتشرت في أصقاع الإمبراطورية. غطت القوات الجاهزة في الشرق حدود ميزيا، وتفاقم ضغط شعوب شرق الدانوب. لهذا السبب وقع الصلح مع البارث في العام ١٦٦. أخلى الرومان ما بين النهرين، وحافظوا على رأس جسر على ضفة الفرات اليسرى.

وفي العام ١٦٨، اجتازت الشعوب الجرمانية الدانوب: المركومان، الكواد، والفاندال، التي انضمت إلى سارمات-إيازيج، متجهة إلى الإمبراطورية الرومانية التي أضنتها الحرب، والطاعون والجوع. وخرق سور الدفاع الروماني في الأقاليم الشمالية الأربعة: رينيا، نوريك، بانونيا وداسيا. وفتحت عنوة معابر الألب الحصينة ودمرت كل ما وجدت في دربها،وانتشرت في فينيسيا وحاصرت أكيلي. وحشدوا بسرعة كل القوات الجاهزة،

وجندوا بعض المصارعين والعبيد، فاضطر الامبراطوران للتعرض شخصيا لهذا الخطر الداهم الآتي من المركومان. فأجبر مارك أوريل على قضاء ماتبقى من عهده علىالحدود الشمالية، ساعيا إلى دحر المركومان، الكواد والإيازيج إلى وراء جبال بوهيميا والكاريات ليحمي الامبراطورية من هذه الجهة بهذا الحصن الجبلي الجبار وسد طريق الغزاة. وهكذا استقرت القبائل البربرية، الراغبة في خدمة الرومان، على طول الحدود، الأمر الذي أدى إلى انتشار الروح البربرية في الجيش الروماني.

وفي هذه النقطة أيضاً، لم يستطع مارك أوريل إنجاز عمله. بدأ الدفاع الروماني ينذر بالخطر من كل الجهات. وصار الوضع قلقاً في بريطانيا وعلى الرين. وكانت إسبانيا معرضة لغزوات القرصان البربير من موريتانيا. ونشبت انتفاضات واضطرابات في الأقاليم الشرقية. وفي مصر، كان الرعاة المتمردون، الذين لجؤوا إلى الجزر المستنقعية والمنيعة في الدلتا، قد دمروا جيشاً رومانياً ومشوا إلى الاسكندرية، بقيادة الكاهن إزودور. وفي سوريا، كان الحاكم الروماني، أفديس كاسيس، بطل الحرب ضد البارث، قد رفع راية التمرد وأعلن نفسه امبراطوراً. فاضطر مارك اوريل سحب قوات من الدانوب على عجل للتصدي لكاسيس. لكن هذا الأخير، تخلى عنه أنصاره، وقتله ضباطه. وازداد الوضع تعقيداً بموت مارك أوريل بالطاعون، في العام ١٨٠، في فيينا، أمنع نقاط الدانوب، حيث كان يعد حملة جديدة ضد الموكومان.

تفاقمت الأمور أكثر، طيلة ١٣ سنة وهي حكم كومود (١٨٠-١٩٢)، ابن مارك اوريل؛ وتبدى الانحطاط في بلاط السلطة المركزية. وكومود، الرجل الفظ، التركيبة الحية لأبيه، ماكان يرتاح إلا بين المصراعين تاركاً محظييه ومخطياته يحكمون مكانه. مع أن هؤلاء كانوا قد قتلوا عدداً كبيراً من رفاق سلاح أبيه ومزقوا إدارة الامبراطورية. أوقف كومود الحرب ضدالجرمان، بعيد مجيئه، لأنه كان راغباً عن التضحية بمسرات حياته في العاصمة لقاء أي أمر خطر. وفي ٣١ كانون أول ١٩٢، خنقه ندماؤه في غرفة نومه.

هكذا انتهت أسرة الأنطونيين و"العصر الذهبي" للامبراطورية، كاشفا عن إمارات الضعف السياسي لنذير شؤم. ولاحت في الجو بوادر أزمة أكثر خطرا في وضع الدولة الداخلي. كانت هي التي حددت، الانهيار، إجمالا.

الفصل الثالث والستون

العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في القرن الثاني الميلادي

أعراض الأزمة

لقد نجم الضعف المتمادي في الإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الثاني، في شطره الأبرز، عن فقر إيطاليا، مركزها الدائم. لم يكن الاقتصاد الإيطالي متطورا، لأنها اعتادت الحياة على ثمار نهب الأقاليم. ولم يتكون فيها، كما في اليونان والشرق. مراكز مهنية ضخمة. بل استمرت صناعة الخزف الفني القديم في أريتيوم، وحتى الأتروسك، مزدهرة لبعض الوقت، في القرن الأول، وكذلك غزل الصوف في مدن شمال إيطاليا وصناعة بعض المعادن، الآتية من اليونان (البرونز والحديد، والفخار والآجر في كامبانيا (في كيمس وبومبيه، مثلا). لكن هذه الورشات الصغيرة كانت تخدم بخاصة الزبون المحلي، وماعدا صناعة الفخار في أرتيوم، استبعدت أيضا في القرن الثاني أمام منتجات ورشات الغولوا، ولم تعد تلقى منافذ تصريف خارجية.

في القرن الثاني، انتقلت الزراعة الإيطالية من الازدهار إلى البوار: وكان الأباطرة قد تراجعوا ليكرهوا أعضاء مجلس الشيوخ على شراء الحقول واضطروا للنضال ضد محاولات تطوير المراعي على حساب الحبوب والأشجار المثمرة. كان بلين الشاب، معاصر تراجان، يشكو باستمرار في رسائله خراب المالكين الصغار والمزارعين، وينسبه لـ"سوء الزمن". ويرثي الانخفاض العام لقيمة الأرض: إن الحقل الكبير الذي كان سعره لا يقل عن ٥٠٠ ألف سسترن، هو الآن بأقل من ٣٠٠ ألف.

رغم صدور عدد من القوانين لدعم الأسر عديدة الأفراد، لم تكف نسبة المواليد عن الانحدار، واضطر كل أباطرة أسرة أنطونين إلى بسط أكثر فأكثر نهج "المؤسسة الغذائية". وفي المجتمع الرومانو-إيطالي، برزت اللامبالاة السياسية، والسهرب من التزاماتها

الاجتماعية، وبخاصة، الخدمة العسكرية، وتقهقر الحياة الخاصة، والكل يترافق بانحطاط أخلاقي عميق، وتسييب معنوي رهيب. وبالتالي، عزفت روما، يعني إيطاليا، عن تبوء مركز الصدارة، أمام أمصار الإمبراطورية الرومانية الشاسعة. ولم تعد سوى طفيلي أعجف، يقبع في أعلى مستويات الشراهة.

بالعكس، في الأقاليم، في أيام الأنطونين، أدركت الحياة الاقتصادية والثقافية أوجها. وكان الشرق قد أبل من أضرار سيللا، لوكيلس، بومبيه، قيصر، بروتس وكاسيس الرهيبة. وبعثت إلى الحياة مجددا المراكز الصناعية والاقتصادية في بيثينيا، بيرغام، سوريا ومصر، بمهنها الباذخة المتطورة-كالأنسجة والسجاد. أوراق البردي، والعطور والخزف الفني،وغيرها.

نمت بل ازدهرت صناعة الخمور في جزر بحر إيجة، والزيتون، والزراعة الصناعية، لكن الأقاليم الغربية بدأت تزاحم الشرق. ففي الغول وفي جرمانيا الغربية (على شواطيء الموزيل)، حدد اتساع استخدام اليد العاملة العبدة انطلاقة اقتصادية واسعة: تحول الكثير من الأرض إلى زراعة الكروم وعبثا أمر دومتيان بقلع نصف الاشجار لأن لاتزاحم مصانع النبيذ في غول وموزيل مثيلاتها في إيطاليا. وفي غول، بخاصة في الميدي، وضفاف الرين، ولدت أيضا مراكز ضخمة للصناعة الحرفية: تعدين، نسيج، خزف، زجاج، التي انتشرت منتوجاتها في كل أوربا الوسطى، وبريطانيا وأسبانيا. وأضحت أقاليم الدانوب، وبخاصة، بانونيا وميزيا، أهراءات روما الجديدة، التي لاتقل وفرة عن سيبيليا. وخطى التعدين خطوات واسعة في إسبانيا، حيث استخرج بكميات كبيرة الذهب، الفضة، النحاس، الرصاص والقصدير. وكانت نوريك[1] شهيرة بحديدها، وداسيا بذهبها. وأنشيء عدد كبير من المدن العظمى: لندن، نربون، ليون، تريف، فيينا وغيرها في أفريقيا. وارتفع عدد منها إلى مصاف المستعمرات الرومانية، وحصل سكانها على حق المواطنة، وصار غيرها بلديات، وثالثا كغالبية الحاضرات اليونانية، كانت تتمتع بالاستقلال وتعتبر "أحلافا" أو "كأحرار".

وتكرس العديد من الأقاليم ومدنها العظمى للمبادلات الاقتصادية المتزايدة ازدهارا،

---

[1] -إقليم قديم في الامبراطورية الرومانية يقع بين الدانوب والألب الكرني-المترجم.

مستبعدة إيطاليا المفتقرة والمنحطة، لا بل عابرة إلى توسط المفاوضات، مع رجال الأعمال الرومان. وكانت التجارة الخارجية كلها بين يدي تجار إقليميين. وبدأ التجار اليونان والسوريون أسفار عمل طويلة إلى الهند وسيلان، بمساعدة الرياح الموسمية التي اكتشفها بحارتها؛ ووصل البعض إلى الصين. وأتوا بالتوابل، والحجارة الثمينة، والأنسجة الهندية والحرير الصيني. كان التجار الغولوا يهبطون إلى الرين والدانوب؛ وعبر نهر الفستول كانوا يصلون إلى البحر البلطيقي واسكندنافيا. ولقد عثر على مخابئ نقد رومانية على المجرى الأسفل لنهر دفينا الغربي، حوالي ريغا، في جزيرة غوتلاند.

بفضل ممارسة الاستقلال البلدي، المدعوم أكثر فأكثر، خيمت حياة سياسية متوثبة في مدن الإقليم، كما تشهد العديد من المخطوطات؛ تذكر هنا الحملات التي تسبق انتخاب قضاة المدن (قادة العشرة، قيمو المدن، أمناء بيت المال)، ونشاط مختلف التجمعات المهنية (الهيئات)، تواتر المؤتمرات لممثلي الأقاليم كلها، المدعوة للاجتماع بحجة إرسال إمارات الإخلاص للإمبراطور، ومناقشة المتطلبات المحلية وإطلاع السلطات على شكاويهم ورغباتهم. أشهرها التجمعات الإقليمية في لودنم (ليون)، حيث كان يلتئم نواب مختلف مناطق الغول، وتجمعات الوفود من خمس مدن (المدن اليونانية الخمس الواقعة على شواطئ البونت الشمالية) في تومس، التي تنظم الاحتفالات العامة، والألعاب، وسواها. إذ كانت المدن قد اعتادت أن تعيش حياة مستقلة، وقد ذرت قرنها هنا تيارات انفصالية قوية: وتوارى كل اهتمام بنشاط الحكومة المركزية.

إلى جانب رموز التفكك السياسي هذه، بدأنا نلاحظ بدءا من النصف الثاني للقرن الثاني إمارات بالغة الدلالة على كساد وانهيار الاقتصاد المبني على اليد العاملة العبدة. "لقد أفل زمن العبودية السالفة... ولم يبق أي شارة تستدعي بقاءها.."، كما دل أنجلز.

في القرنين الأول والثاني، كان يمكن أن نلحظ، بخاصة في الأقاليم، تطورا ملحوظا بوسائل الإنتاج. فقد ظهر في اليونان وشمال إيطاليا عربة ذات عجلات وسكة محراث عريضة، وفي الغول استخدمت الحاصدات، وانتشرت طواحين الماء، وفي الورشات بدأوا باستخدام الرافعات، الآجر المشوي بعناية وحتى الإسمنت أو الملاط. وعرفت أدوات المهن أيضا تحسينات هامة، كما تشهد التنقيبات الأثرية، وبخاصة، تنقيبات بومبيه. وبدأت اليد العاملة تشكل عقبة في وجه أي عقلنة للانتاج، والحفاظ على استخدام الأداة الأكثر بدائية،

الأمر الذي كان يخلق حالة تنافي تقدم وسائل الانتاج. ففي زمن أرسطو، حسب قوله هـو، "كان العبد أفضل شكل للتملك"، وفي القرنين الأول والثاني، صار امتلاك العبد أحد الأشكال الأخطر والأسرع زوالا. ولقد شرعوا تمردا متناميا أبدا ضد سادتهم. في الأرجح تراجعت التمردات عما كانت في القرنين الثاني والأول ق.م: فالإدارة الحازمة وأمن الامبراطورية اليقظ كانا يخنقان مواطن التمرد منذ أول شرارة. هكذا، في عهد تيبر، في العام ٢٤، بدأت ترتسم حركة عبيد في أبوليا، قادها حاكم في المعاش، ت.كورتسيس. فأرسل على الفوج فوج ضارب من روما، بقيادة أحد محامي الشعب، "قبض واقتاد زعيم الحركة ومساعديه الكبار ليلقوا عقابهم" (تاسيت، الحوليات، ٤، ٢٧). لقد نشبت ولاشك انفجارات صغيرة أخرى من هذا النوع، لكن مراجعنا رأتها غير جديرة بالإشارة.

في عهد الامبراطورية، كان العبيد يعبرون عن حقدهم وكرههم لسادتهم بخاصة بقتل هؤلاء الأخيرون والوشايات المستمرة، الكاذب اكثرها، طبعاً، والتي تعرضهم إلى إرهاب الطغاة مثل نيرون، دومتيان، كومود وتضعهم في أقسى حالات الإنذار الدائم. والمثل الروماني "كلما كثر العبيد كثر الأعداء" كان دائراً في هذه الفترة.

أخيراً "نوعية" العبيد ذاتها قد ساءت: هم الآن "برابرة"حقيقيون: جرمن، سرمات، داس، إلخ. لأن نهج استعباد الشعوب المتحضرة صار من مخلفات الماضي، كانت الأقاليم قد صارت أعضاء بحقوق متساوية في المجتمع الروماني. وانقطعت سبل وفرة العبيد، أي العمال الموصوفين. فشرعوا يعتنون بهم ويحاولون استخدامهم بطريقة اكثر تعقلاً: ترك الكثير منهم حراً يعمل في الخارج لقاء أجر أو مرتب: وأعطوهم وفراً، بشكل قطعة أرض، حانوت، ورشة، وأعتقوهم، مع إبقائهم في عهدة السيد، وأعفي هذا الأخير من رعايتهم أو الاحتفاظ بهم.

تبدلت بالتالي النظرة إلى العبيد وحتى طريقة معاملتهم. فمنذ أواسط القرن الأول الميلادي، أمر كولميل "الرأفة بالعبيد". ولم يعد السيد يأنف من الحديث معهم وحتى ممازحتهم. كان سنيك يؤكد أن العبودية غير طبيعية، معادية للطبيعة والحرية حقهم؛ "أنت والعبد من طبيعة واحدة"؛ "عبيد، هم هؤلاء! لا، إنهم ناس، رفاق حياتنا، أصدقاؤنا المتواضعون". رد أدريان وأنطونين قرارات تمنع السادة من قتل عبيدهم؛ وحرم أيضاً بيع الزوجين كل على حدة؛ وأعطي العبد حق الوصية، إلخ. لا باعث لهذه الإنسانية، طبعاً،

سوى الرغبة في الحصول على أكبر فائدة من العبيد بتحسين شروط حياتهم.

في الريف بدأ الاستيطان يتسع جدا ويمهد للعبور إلى أشكال جديدة لاستغلال المنتجين المباشرين "كان المستوطنون طليعة أقنان القرن الوسيط"[1]، كتب أنجلز، منطلقا من أن وسائل الإنتاج كانت بعهدة المنتجين أنفسهم. كان هؤلاء المستوطنون من أصول عديدة: عبيد مقيمون في الأرض، برابرة أتوا يعيشون على الأرض الرومانية،وبخاصة، جماهير من أحرار المدن، استأجروا أسهما ومزقا من أراضي الحقول الشاسعة. وقد قبل مالكو الأطيان الوفيرة نهج المزارعة الضيقة ولم يحرثوا سوى الجزء الأصغر من أراضيهم عن طريق العبيد. وفي القرن، كانت المزارعة بعامة تتم بأجر عيني (حوالي ١/٣ المحصول)، وكانت العادة تنتشر أكثر فأكثر في الأقاليم طلب عمال مرتبطين بأرض مزروعة بل أيضا مستوطنين أحرارا، سخرة لمصلحة المالك، الذي كان قد أجر جزءا كبيرا من الحقل وبالتالي يؤجر من الباطن إلى فلاحين صغار. هذه السخرة، الخفيفة في البداية (٦أيام بالسنة) تقسو بالتدريج، جراء تحكم وتعسف كبار الملاك وأغنياء المزارعين المستأجرين؛ وتزداد أيضا الأتاوات والمداخيل، بخرق العقود والنصوص الشرعية؛ وبحجة ديون متخلفة، كان المستوطنون في غالب الأحيان يمنعون من ترك سهمهم في نهاية الأجرة، ويقترب شرطهم أكثر فأكثر من العبيد الأقنان.

يمكن تصور هذه الحالة بوضوح، بفضل مخطوط أو رقيم مفصل كشف في الإقليم الأفريقي في العام ١٨٧٩، وهو عبارة عن عريضة مرفوعة إلى الإمبراطور كومود من مستوطني حقل سانس برنتانس الإمبراطورية (الذي سمى الرقيم باسمه)، ليشكوا عسف وكيد المزارعين المستأجرين والموظفين الذين يحمونهم. "ارحمونا، يكتبون للأمير، وتفضلوا وأمروهم بأمركم السامي أن لا يطلبوا منا أكثر مما نص عليه القانون إدريان وأوامر ولاتكم، أي بثلاث مرت وأن لانقتلع نحن، فلاحيكم، من أراضيكم، ونخضع لكيد مستأجري حقول الخزينة". وأجاب الإمبراطور على هذا الاسترحام: "... على المستأجرين أن لايطلبوا منهم ظلما وعسفا، وأن لا يخرقوا الأصول الثابتة"، لكن هذا الأمر، الذي لم يكن أكثر من أمنية، معتدلة جدا، بقي بدون مفعول، طبعا، وتتابع استعباد المستوطنين بدون توان أو تهاون، بل بإيقاع متسارع أبدا.

---

[1] – ف.أنجلز. أصل الأسرة والملكية الفردية والدولة، ص ١٣٩.

وهكذا وعلى أبواب القرن الثاني الميلادي، قارب "العصر الذهبي" لإمبراطورية الاستعباد بكل وضوح نهايته، واتضحت أكثر رموز الأزمة الاقتصادية والاجتماعية العميقة التي ستسفر عن الانهيار التام للنهج الذي أسس على ظهر العبيد والعبودية.

الفصل الرابع والستون

الانحطاط الثقافي. ظهور المسيحية

الحضارة في القرن الثاني الميلادي

يسمى عهد أنطونين أحيانا "قرن النور". ليست هذه العبارة صحيحة إلا إذا نظرنا نظرة سطحية لتطور الحضارة الرومانية وانتشارها على بقعة واسعة جدا.

صارت روما بالفعل في ذلك العصر المدينة الأعظم والأجمل من كل مدن حوض البحر المتوسط أو، كما كان يقال بحرارة آنئذ "في العالم" آهلة وراقية (كانت حضارتا الهند والصين غير معروفتين جيدا لدى اليونان والرومان). كان المظهر الخارجي لروما قد تغير كثيرا بعد حريق عامي ٦٤-٦٩. كان آل فلافيس قد أنجزوا أعمال ترميم باهرة. وفي عهد آل أنطونين الأول، بني فورم نيرفا الرائع وفورم تراجان، المحاطان بأبهة مدهشة، ومنها مكتبة أولبيا المتميزة بديكورها الفريد. هنا كانت تنهض مسلة تراجان الجبارة، وقد علاها نصب ذهبي للإمبراطور يشكل الضريح قسما منه: داخل القاعدة حفظ رماده في مرمدة ذهبية، وكان جذع المسلة مزدانا بمنحوتة رائعة تمثل حملته ضد الداس. وكان أدريان قد أعاد بناء البانتيون ببذخ لا سابق له؛ وبنى، هو الآخر ضريحا ومد جسرا على التيبر لوصله بالمدينة. وليحتفي بذكرى انتصاراته على ماركومات والسرمات، كان مارك اوريل، مثل تراجان، نصب مسلة أخرى ارتفاعها ٣٠ م، (لكن نصب الامبراطور استبدل برسم لرسول). وكان الأعيان، اقتداء بالإمبراطور، قد بنوا مقامات في المدن رائعة ودارات في الريف. كانت شوارع روما مبلطة تحفها السواقي من الجانبين؛ والينابيع التي تزين الميادين تنضح الماء المجلوب من بعيد بالأقنية.

وكان ذوق اللياقة والرفاهية منتشرا بسعة في الأقاليم بواسطة الأعمدة، وأغنياء التجار، والموظفين والعسكريين الرومان. وكانت أقاليم الغرب والشمال الأكثر قبولا للرومنة: أسبانيا، غول الجنوبي، جرمانيا الرينانية، وأقاليم وسط وأسفل الدانوب. وفي

شوارع مدن الإقليم يدور العابرون تحت أروقة على النمط الروماني، وشيدت الكاتدرائيات والأقنية، والصهاريج، والأحواض والينابيع، والحمامات والمدرجات والسيركات. عشرات المدارس فتحت، تدرس اللغة والأدب اللاتينيين (هذه الحياة المدرسية مقدمة بشكل حي نشط على المنحوتات التي عثر عليها في تريف). كان أساتذة البلاغة يأتون ليعلموا فن البلاغة والفصاحة للشبيبة الإقليمية. وكانت الاجتماعات العامة، حيث تلقى الخطب وتقرأ أعمال الشعر والنثر، من بنات التطور؛ وكانت تؤجر أوسع الأبنية لهذه الغاية. وكانوا يرسلون الدعوات للعلماء ورابطاتهم. وكانت اللغة اللاتينية تسمع حيثما توجهت،وليس بدون أخطاء صرفية-نحوية.

لكن بدءا من منتصف القرن الأول الميلادي، تحقق في الأوساط العبودية للإمبراطوية الرومانية انحسار واضح جدا بالنوعية، في كل المجالات الثقافية. يعلل هذا قبل كل شيء بفعل استرخاء النهج الإمبراطوري الذي يقسم المجتمع إلى أغنياء، مالكي العبيد: يسبحون برغد العيش، وإلى جانبهم شريحة لا تملك شيئا "ومحرومة من كل حقوق الدولة مع أنها حرة، كذلك العبيد لا يملكون أي حق أمام سادتهم"[1]. إن الإمبراطورية تقمع كل تعبير عن الشؤون الاجتماعية، بخاصة إذا صدر عن الشعب. هذا هو سبب الاضطهاد الشرس الذي تعرض له فيدر *phedre*، كاتب الحكايات الأسطورية في حكم أسرة جوليو-كلوديين. (وصلنا منها ١٣٥، وفي حياته نشر خمسة كتب)، يترجم فيدر، المعتق المسكين، بشكل استعاري، احتجاج الطبقة السفلى، المقموعة في روما، وكرهها"للعتاة والمتجبرين" في نظام الأباطرة الدموي، وعسف محظييه المفضلين، وبخاصة سيجان ***Sejan***. كانت حكايات فيدر واسعة الانتشار بين الناس المساكين، ونجد ذكرا لها في النقوش الأثرية لجدران بومبيه.

لقد أسفر نير الإمبراطور الثقيل عن نشر، حتى بين أوساط سادة هذا المجتمع العبودي، روح تبلد الذهن، إطفاء كل اهتمام بالشؤون العامة وتحريض بالعكس على شراهة المتع الجسدية الأخس. كان في كل مجالات الفن، الشكلية، الذوق السطحي والأسلوب المصطنع، على حساب الأساسيات. هكذا كانت تراجيديات سنيك الغامضة والمهذارة،

---

[1] – ف.أنجلز. "برونو بوير والمسيحية البدائية". ك.ماركس وف.أنجلز، "في الدين" ص ١٩٦، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٦٠.

مربي نيرون-أوديب، أغاممنون، ميدي، فيدر، إلخ... التقليد البلاغي للنماذج اليونانية الشهيرة؛ وبمقتضى التطير الذي كان يغمر كل المجتمع الروماني يومئذ، كان العنصر التراجيدي واضح جدا في هذه الأعمال المفعمة بالمجازات البغيضة والمشاعر المفرطة. ومثل آخر على التشدق المنتفخ نجده في "المديح الدعي" لتراجان، المليء بالمداهنة الخسيسة، التي كتبها بلين *Pline* الابن، الغني والموظف الكبير، صديق الأمير. فكان تملقه وإطراؤه، خلال القرون الثلاثة التالية، نموذج الكثير من المسرحيات الأخرى من هذا النوع، أي تقريظ الأمير-الملك. ومجموعة رسائل الكاتب ذاته (١٠ كتب)، عمل من قيمة أدبية أخرى نهائيا، رغم ان أسلوبها ما يزال توفيقي ومصطنع، رغم أهميتها من حيث الأساس وتشكل سيماء وثائق تخولنا الحكم على الواقعات الاقتصادية، والطرق الإدارية، والثقافية في حياة وأخلاق المجتمع الروماني في بداية القرن الثاني. والكتاب العاشر، المتضمن مراسلة بين بلين وتراجان، يقدم أهمية فريدة.

وقد تحول فن السخرية والهزء، وهو النوع المهيمن منذئذ في الأدب الروماني، تحولا ملحوظا. اضطر الساخرون إلى التخلي عن نقد السياسة الراهنة، كما فعل بجرأة لوسليس سابقا، وكذلك كاتول، في هجائياته، وهوراس أيضا في أول سخرياته، واكتفوا بنقد عيوب مختلف الأوساط الاجتماعية، وأحيانا لبعض الأفراد، وفضح بعض الواقعات الماجنة في الحياة الخاصة، وتمزيق الأخلاق العامة. بهذه الروح أتى فالريس مرتيالس (حوالي ٤٢-١٠٢)، من إسبانيا إلى روما حيث عاش في كنف وجوه القوم، وكتب في عهد دومتيان وتراجان هجائيات عديدة (١٢ كتابا)، فيها الكثير من السطحية، لكنها على ذلك قارصة: خلف السخرية، لم يهاجم بعمق لكنه يحسب انه يصف بنوع من الحسد سلوك المتملقين الماجن، وبعامة، حلقات من أعيان العالم الروماني؛ يأخذ غالبا هدفا لسخرياته معلميه السالفين الذين خالطهم وخالفهم. ويهزأ أيضا من المعتقين المغتنين، من الأطباء الدجالين، من المحامين ذائعي الصيت، من الخمارين المحتالين، ومع ذلك كان مستعدا لأن يزحف أمام الأغنياء، ليظهرهم "معلمين طيبين"، كراما مع الفقراء المعدمين. وكان مارتيال ماهرا بوصف حياة هؤلاء البؤساء. وبعد ٢٠ سنة، خضع دسمس جونيس جفنالي (حوالي ٥٥-١٢٧) إلى نقد أقذع وأخشن، في الـ١٦ أهجية، وزعزعة المجتمع الروماني. وجوفنال، المالك الريفي الصغير، الذي عاش لهذه الظروف في وضع أكثر استقلالية من مارتيال،

يفضح بلا تردد حياة الأغنياء والأعيان العابثة، والمنهل الجرمي لثرواتهم، وتملقهم ومداهنتهم الكبار بشكل مخجل، وقسوتهم مع ضعاف الناس وأخلاقهم الهابطة. وفي أهجيته السادسة الشهيرة، يشخص جوفنال انحلال أخلاقية نساء علية المجتمع الروماني، فظاظتهن غير الانسانية مع نساء عبيدهم، اللواتي يتحملن إزعاجاتهن وتطيرهن وباقي العيوب. ويذكر جوفنال بأسى عميق الحياة المتضورة التي يعيشها فقراء روما، المتخمة بالذل والضعة. لكنه لايدعوهم للاحتجاج بصورة نشطة بل يكتفي بنصحهم بمغادرة بأسرع وقت هذه الحياة المدمرة والبحث في القرية عن حياة أهدأ وأكرم.

فالحياة، الأخلاق، الأذواق الادبية، مفهوم عالم الشرائح الوسطى والسفلى للمجتمع الروماني في القرن الثاني مكتوبة على الشكل الأروع في رواية خيالية رائعة بعنوان "التحولات" (أو الحمار الذهبي). كاتبها، أبولي (منتصف القرن الثاني–بداية القرن الثالث ميلادي) مواليد أفريقيا، فيلسوف من التيار الأسطوري وعالم البلاغة، دار كل العالم ورأى كثيراً من الأشياء، يقص مغامرات الشاب لوسيس، المتحول حماراً بقوة السحر. هذا ما خول أبولي، ناقلاً بطله من سيد إلى آخر، أن يبسط أمامنا رواقاً من الرسوم واللوحات الشخصية تمثل الشرائح الاجتماعية الأكثر تبايناً، ويرصع قصته بكمية من الأحداث المتباينة والأنباء الأسطورية كقصة في الحب والروح ***Amour et psyche*** الشهيرة) وتتبيل كل هذا بقصص من الأحداث الاعجازية، الافتتان، العبادات الأسطورية والتعزيم. على ذلك تنتهي الرواية بأعجوبة: يستعيد لوسيس الشكل الإنساني، برعي بعض فسلات الورد من تاج الكاهنة إيزيس الذي يمشي على رأس موكب على شرف الآلهة. وتتناوب عناصر الهزء أو السخرية، الخيالية والأسطورية كارثياً مع مشاهد غزلية لمعالجة واقعية تماماً ترضي أذواق الناس الأكثر تبايناً، الأمر الذي أسهم بشعبية واسعة لهذه الرواية في مجتمع يبحث عن إخلاء البشاعات الواقعية من العالم الخيالي والأحاسيس الحية.

لكن أبرز ما يميز هذا العصر المنحدر ثقافيا هو طرد من المسرح الأعمال الجادة، التراجيديا والكوميديا، الباحثة في الراهنية، وإحلال محلها هذه الهزليات الماجنة المسماة "إيمائيات"، أغلبها فاحشة محظور تداولها، و"عالم الجان" الزاهي أو الفخم والفارغة من المعنى. وصار السيرك وسباق العربات يشغل الآن الموقع الأول، وكان المجتمع الروماني المتحمس لهذه المشاهد أو المسرحيات التي قسمت جمهور السيرك منذ عهد كالغولا إلى

مشارب، -"البيض"، "الحمر"، "الزرق"، و"الخضر"، حسب لون قبعات حوذييهم المفضليـن؛ وهكذا كانت المبارزات ومعارك المصارعين في المدرجات. وانتشرت ألعاب المصارعـة ليس فقط في الأقاليم الغربية المرومة، بل أيضا في الشرق، حيث كـانت تسـود الثقافـة الهللينية التي كانت تجهل قبل الآن هذه التنويعات الدموية.

إنما في الشطر اليوناني من الامبراطورية الرومانية، كان هذا الانهيار الثقافي، رغـم كل شيء أقل بشاعة. فهو مازال ينجب كتابا كبارا: بلوتارك (٤٥-١٢٥) تقريبا، هنا كتـب "حيواته الموازية" و"أعماله الخلقية"؛ وعالم البلاغة الشهير ديون كرزستوم (نهايـة القـرن الأول- بداية القرن الثاني الميلادي)، في ترحاله المستمر، اعطى دروسا في المدن اليونانيـة التي زارها؛ والرواقي إبكتيت (حوالي ٥٠-١٢٥)، (عبد أعتقه عبد)، كان يدهـش بعمـق أبحاثه الأخلاقية وقوة إقناع حكمه وأقواله المأثورة. وكان التفوق الثقافي اليوناني ماثلا فـي عيون الصفوة الرومانية، ومارك أوريل كتب +أفكار" باليونانية، متوجها إذن إلى اليونانيين قبل غيرهم. وديون كاسيس (حوالي ١٥٥- ٢٣٥)، السيناتور الروماني والمعجـب جـدا بروما القديمة، كتب أيضا باليونانية أبدته "التاريخ الروماني" بـ٨٠ كتابا.

لكنا في الوقت ذاته، نلحظ في كل الإنتاج الثقافي يومئذ انحطاط الفكر العلمـي؛ فقـد اختفت الثقة في ان العقل البشري قمين بكشف الأستار وقوانين الطبيعة، الأمر الذي نقـرأه واضحا لدى ممثلي المادية اليونان، ديموقريط وأبيقور، وأرسطو الفيلسوف، فـي قصيـدة "الطبيعة"، والمفكر الروماني لوكرس، معاصر شيشرون وقيصر. ونرى عودة للمعتقـدات التي رميت منذ زمن والقوى الأسطورية التي لاتدرك. وفي نهاية الجمهورية، كان الأحبـار الرومان الكبار، (مثل قيصر) يسخرون هم أنفسهم من هذه الآراء، التي لم تبق آنئذ، بشـكل خرافات فظة، إلا لدى الشرائح غير المستنيرة من عامة الناس. أما الآن، مـع الانحطـاط الثقافي، انبعثت مجددا، ووجدت تربة مهيأة وأنصارا متحمسين لها حتـى فـي الأوسـاط المثقفة، إنما فقدت منذ الآن أي هدف قابل للحياة، والإيمان بها ذاتها والقوة الملازمة لها.

الاهتمام بالمعجز، بالغيبي، بأمور الآخرة، واضح لدى سـويتنس ترانكللـس (٧٥-١٦٠) في تابه "حياة ١٢ قيصرا" حيث تختلط وثائق حياة الأبـاطرة الأوليـن، بـالتخمين، بالحدس وبالأعجوبي. توسديد وبوليب يعتبران هذه الاشياء "هزليات عابثة"، لكـن الطلـب كثر جدا على هذه الحماقات في المجتمع الروماني للقرن الثاني الميلاي، وكـثر السـحرة

المشعوذون، المنجمون، وقدسوا بسرعة في روما حتى أن الحكومة الإمبراطورية اتخـــذت ضدهم عدة تدابير حازمة في عدة ظروف؛ أبعدتهم، قتلتهم، محاولة عبثا وقف انتشار هـــذه الجائحة الأسطورية. لكن أكثر الأباطرة وعيا تركوا الداء يسري: كلود، مثلا، دشن رسـميا مدرسة إلهية، واهتم أدريان جدا بالتنجيم، بل وبالسحر والتعويذ.

بهذه الحالة الروحية والذهنية استقبل المجتمع الروماني بحمـــاس إصــلاح أوغسـت الديني ورغبته في بعث الإيمان الروماني السالف. لكن البديهي أنه، إذا أحيـــى المجتمـع بغبطة إصلاح الدين، معتبرا إياه الوسيلة الأنجح لكبح المواقف والأوضاع المحرضة لـــدى الجماهير الشعبية، فقد ترك الشعب نفسه يفتتن ويضيع في أبحاث دينية، حيث كـــان يجـد بديلا لنشاطه السياسي السابق. فقد التحق ممثلو العائلات الكبيرة بتشوق إلـــى الأخويـات الدينية التي أقامها أوغست: "الأخوة أرفال"، الـ"لوبيرك"، ال"تيتيان" وغيرهم، الذين أعــدوا التقديس للشعائر الأكثر بدائية: تلاوة بل وإنشاد الصلوات بلغة قديمـــة وكليــة الغمـوض، رقصات وحشية، "النطاطون"، أي البعد عن الرصانة، بأذناب ذئاب معلقة بالخصر، إلـسخ. وعبادة الأباطرة عبادة "أوغست وروما"، "عبقرية أوغست"، "ألهة أوغست"، لم تنجح أبـدا. وبالـ"تأليه"؛ لترفع لهم المعابد في روما وبخاصة في الأقاليم، وفي كل مدينــة مــن مــدن الكهنة المختارين من بين الأسر الأكثر تميزا–وتخصص عبادتهم بمؤتمرات إقليمية لتوجـه لهم الصلوات والأضاحي الرسمية. وبنيت الكليات الأوغســتية علــى حســاب المحتفيـن الأغنياء، بخاصة. وفي المراقي تنصب أنصاب للأباطرة، وتنحت الشواهد واصفة إيـــاهم ب"المحسنين والمنقذين".

على هذه التربة المعدة سلفا انتشرت بسهولة الأساطير الشرقية التي تغلغلت من كـــل جنب في شرائح المجتمع الروماني. كان عندهم الكثير من المفاتن حتى أن رموزهم كـــانت تؤكد لروادها كشفها أسرار الكون وحياة ما بعد الموت، ومعنى الحياة وسبل تحقيق الغبطـة الأبدية، الموعود بها من يرفع الصلوات والطقوس المنصوص عنها. ومنـــذ أن صـــارت مصر إقليما رومانيا، انتشرت عبادة إيزيس، "سيدة الكون"، "ملكة السموات" "الممتلئة نعمـة والمسارعة للنجدة"، انتشرت بسعة في روما، وفي عهد كالغولا، وجدت حماية خاصة فـــي القصر. وفي عهد كلود، نجحت نجاحا هائلا العبادة الأصلية لآسيا الصغـــرى، "أم الآلهـة" سيبيل، ومساعدها أتيس، الذي مزقته الوحوش ثم بعث ثانية ليفـدي البشـــر، وفـــي عـــهد

الفلافيين، حمل جنود الجيش السوري المنتصر إلى روما والأقاليم العبادة الإيرانية لمـــثرا *Mithra* "قاهر الموت"؛ وظهرت محارب هذا الإله آنئذ في روما وبخاصة فـــي حاميــات الرين والدانوب (ميانس، كرننتوم وغيرها من الميادين الرومانية الحصينة الهامة). والعبادة السورية "للشمس غير المرئية" حظيت أيضا برواد كثر. وأخيرا، بعد تشتيت اليهود، وبعـد هدم القدس، عرفت وحدانية اليهود وطوائفها، انتشارا واسعا جدا.

في كتابه "مساهمة في تاريخ المسيحية البدائية"، حدد أنجلز بأســلوب آســر "البلبلــة الروجية" السائدة آنئذ في العالم القديم. فيشير إلى أن الناس في روما واليونان، بل في آسـيا الوسطى، في سوريا ومصر، كانوا يقبلون بدون نقد خرافات مختلف الشعوب، مع مساهمة تامة بالاحتيال على التقوى والورع والسحر البحت؛ عصر سيادة صنع المعجزات، تمجيــد الرؤى، الترهات، طفرة الروحانيات، التقديس، طرق صنع الذهب، القبلانية[1] وكل أنـــواع السحر الأخرى.هذا هو الوضع الذي ولدت فيه المسيحية. ظهرت بين ظهراني شريحة من الناس تصغي، قبل كل شيء، بشراهة إلى خيالالتها الما-ورائية أو الغيبية.

ظهور المسيحية وتاريخها في القرنيين الأول والثاني

ولدت المسيحية وانتشرت بداية في الأوساط الاجتماعية السفلى والمســتغلة، الشــعب "المضطهد والمعذب"، الناس الأحرار المدمرون وعلى ابـــواب فقــدان حريتـــهم، صغــار المهنيين، البروليتاريين والعبيد.

كانت الجماهير الشعبية العبدة، المضطهدة والمدمرة اقتصاديا والقابعـــة فـــي بــؤس الإمبراطورية الرومانية، قد بحثت في البدء، في القرنين الثاني والأول ق.م. عن مخرج في النضال المكشوف، وفي التمرد. لكن فشل كل الانتفاضات دل أن مقاومة السلطة الرومانيـة كانت دون جدوى. لذا ولد لدى الشرائح السفلى وانتشر بسرعة انتظار "المنقذ السماوي" من آلام وتعاسة الأرض.

كان هذا الأمل قد تبدى بقوة فريدة في يهودا بعد الآلام والمعاناة، فنزعوا في القـــرن الأول إلى الخلاص الأعجوبي الذي يجب أن يأتي من "ملــك اليـــهود"، المســيح *Messie*، المرسل من الله، وكذلك في آسيا الصغرى حيث تعيش عدة مستعمرات يهودية. وعلى ذلك،

---

[1] - تفسير اليهود للتوراة صوفيا ورمزيا حسب التقاليد كما كان يفعل الأقدمون.

آمن السكان الأصليون في هذه المنطقة بآلهتهم المنقذة أو العبادات واسعة الانتشار: يذكر، مثلا، إله هرمس ترسمجيست (ثلاثي العظمة)، إله التدجين والزراعة عند اليونان القدماء، المفروض أن يأتي لينقذ أتباعه. وكان ثمة عبادة أخرى لإله الفريجيين سابوزيس *Sabozios*، إله الزراعة القديم شبيه ديونيزيوس *Dyonisos* اليوناني، الذي كان يعتبر فاديا. وفي الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية، ظهر الكثير من الأنبياء المتعصبين الذين شدوا عددا كبيرا من الأنصار وأسسوا طوائفهم مدعين مجيء "المخلص". كانت إحدى هذه الطوائف اليهودية نواة المسيحية.

إن أقدم عمل نملكه من الأدب المسيحي هو "رؤيا يوحنا" (٦٨ أو ٦٩م). كان كاتبها احد المبشرين بمجيء المسيح (باليونانية: كرستس)، اسمه جان *Jean*، من جزيرة بانمس. يتوجه إلى أعضاء الكنائس السبع (مشاعات) في آسيا الصغرى، الذين ينتظرون قدوم كرست *Christ*، لكنه من اليهود فلم يصر بعد مسيحيا.

في رؤيته، يقص يوحنا كيف كشف له أن "نهاية العالم" قريبة،وأن كريست "حمل الله" سيدين العالم الخاطئ "في الدينونة الأخيرة". ستحل العقوبة قبل الكل على بابل، ال"فاجرة الكبرى"، الجالسة على متن حيوان ذي سبعة رؤوس، والتي تشن حربا على "القديسين"، أي على المؤمنين؛ هذه الفاجرة هي روما، والسبعة الرؤوس هم الأباطرة. وكريست على رأس جيش الأصحاء سيصرع الحيوان وكل رواده في نار جهنم، ثم يخلق سماء جديدة وأرضا جديدة وسيبني قدسا جديدة. آنئذ يبعث الأصحاء إلى حياة جديدة وسيفتح مملكة كريست السعيدة، اللا-نهاية لها أو الأبدية. وفي رؤيا جان تتموج أيضا نبرة حربية، والحماس الشديد للصراع.

وانتشر الـ"خبر الطيب" بقرب مجيء المخلص بين مئات المهاجرين، الحجاج والدعاة (الرسل) واستقل بغبطة بين كل "المضطهدين والحزانى"، عبيد وفقراء المدن،وبخاصة، النساء.

لم تتخلف الحركة اليهودية، البسيطة بداية، عن أخذ طابع شعبي عريض، أولا في الأقاليم الشرقية حيث تسود اللغة اليونانية (آسيا الصغرى، سوريا مصر، ثم في الأقاليم الغربية (أفريقيا الرومانية).

في بداية القرن الثاني ظهر أدب واسع شفوي ثم مكتوب: أقوال وأمثال سائرة.

رسائل، "رؤى أو تجليات" تتبادلها الكنائس فيما بينها-أعمال زاخرة بالحكايات الهزلية والخرافات المتنوعة. وفي الثلث الأول من القرن الثاني انتشرت بين المؤمنين بيسوع أسطورة تقول: إن يسوع "ملك السموات" كان قد أتى إلى الأرض، بشكل إنسان متواضع وباسم يسوع الناصري، قرية صغير في فلسطين، وعانى شخصيا أو بالجسد كل الآلام وكل أوصاب فقراء الناس. وفي هذا الموضوع كتبت أناجيل عديدة، صارت أربعة منها مقبولة فيما بعد والأكثر انتشارا -أناجيل مرقس، متى، لوقا، يوحنا.

تقول الأناجيل: إن يسوع ولد، في عهد اوغست، في أسرة نجار جليلي، يوسف النجار، من زوجة هذا النجار، "مريم العذراء" ومن "روح القدس"". عاش مغمورا ثلاثين عاما، ثم شرع يتنبأ ويفعل الأعاجيب. كان يشفي بالكلمة، يقيم الموتى، يجتمع حوله فقراء الناس وأبسطهم يكرز بهم بالتواضع والمحبة؛ والتأمت حوله عصبة من التلاميذ. اعتبره كهنة القدس وممثلو السلطة الرومانية عاصيا، وأدانته المحكمة العليا بالموت على الصليب. صدق بلاطس البنطي، حاكم يهودا حكم المحكمة وصلب يسوع، لكنه قام في اليوم الثالث وكان، بالتالي، أول إنسان يقهر الموت. ثم صعد إلى السماء، بعد أن وعد بالنزول ثانية في الحال إلى الأرض ليدين الأحياء والأموات، وليقيم مملكته الأبدية. إن هذه الرواية الإنجيلية أسطورة، لأن العناصر الأسطورية واضحة فيها، أولا، وثانيا لأن المصادر التاريخية لذلك العصر، لا تحوي أي إشارة توحي بهذا.

كانت الكنائس الأولى منظمة على مبدأ المساعدة المتبادلة: يعيش أعضاؤها كما في معسكر في العراء، بانتظار "نهاية العالم" القريبة. على رأس هذه المخيمات يعيش ال"شيوخ" (الكهنة)، يساعدون "الشمامسة الإنجيليين"، وأفقر الناس الأحرار، العبيد يمكن ان يصيروا كهنة. يتحدى المسيحيون الأغنياء ويقولن "أسهل على الجمل أن يدخل ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السموات". ولم يكن مسموحا للأغنياء دخول الكنائس إلا إذا وزعوا أرزاقهم على الفقراء.

في بداية الدعوة،كان المسيحيون يجتمعون سرا في المقابر السردابية، المسماة ديماس)، في قبو الكنيسة يدفنون موتاهم، كما كانت تفعل النقابات المهنية وغيرها من (الشعب الصغير). وعلى قبورهم، كانوا ينحتون بالملقط او المقص رموز آمالهم: النعجة، الراعي الطيب، الخمرة أو السمكة (باليونانية ------ تشكل حروف هذه الكلمة اسما

متشابك الحروف تعني "يسوع المسيح، ابن الله، المخلص"). كانت هذه اللقاءات موقوفة على قراءة الـ"رسائل" والأناجيل، ثم يدخل أحد الحضور في غيبوبة (حلول روح القدس عليه) ويرسل بعض كلمات التقوى والنبوءات. كان الوثنيون يقبلون في الكنيسة بعد أن يغسل ماء "المعمودية" كل ذنوبهم السابقة، وينتهي الاجتماع بوليمة متواضعة من خبز وخمر تقام عند الفجر.

منذ البدء، كان الدين المسيحي الجديد، يكرز بالخضوع والتسليم. وكان تأثيره شؤماً منذ المرحلة الأولى لتطوره، لأنه حول الجماهير الشعبية عن النضال ضد المضطهدين، ليزجهم في حقل الأحلام.

قد أفضى الطابع السلبي للكنيسة منذئذ بالضرورة إلى زعزعة المسيحية وتفككها، متخلية عن كونها دين الكادحين، المضطهدين، المعوزين والعبيد، لتكون ديناً كباقي الأديان في المجتمع الطبقي، أداة ضغط طبقي وسنداً للطبقات السائدة. وفي الوقت ذاته تبدلت التركيبة الاجتماعية للكنيسة. إلى جانب الفقراء دخلها الأغنياء، ودفعوهم إلى الصفوف الخلفية. أغرقوا الناس بهباتهم: صار بعض أعيان النبلاء سادة الكنائس المسيحية كلها (أسرة متالوس النبيلة، مثلاً، أو مارسيا، محظية الامبراطور كومود.

في أثناء القرن الثاني، تسارع هذا التطور وفي بداية القرن الثالث، تعرضت طبيعة الكنائس المسيحية إلى تحول جذري. كان بعضها قد صار مالك اطيان ضخمة، بيوت للإيجار، وميزانيات ومبالغ ضخمة من المال. وأن تكون كاهن كنيسة عمل مربح، حتى أن بعض المخاتلين والمغامرين ارتدوا هذا الثوب، مستغلين سذاجة البسطاء (اقرأ "موت برغرنس بقلم لوسيان دي ساموزات). في المواعظ، بدأت تسمع ملاحظة جديدة: قيل فيها إن العبيد يجب أن يخضعوا للسادة، لأن كل سلطة آتية من الله. وراح يظهر موظفون كبار الـ"أساقفة" الذين كانوا يسهرون على كنائس المحافظة كلها، مرتبطين بمركز المنطقة (متروبوليت)، التي أضحت مقام هذه السلطة الدينية السامية.

بدون أمر الأساقفة لا يستطيع الاكليروس المنتخب ممارسة مهمته، إدارة المعمودية ورئاسة الصلوات المشتركة. وبدأ أساقفة المدن الكبرى اسكندرون وأنطاكية، وأساقفة رومة فيما بعد، يتمتعون بسلطة فريدة. إذ تضاعفت الطقوس، المقتبسة من الأديان الأخرى. وصار العماد والتناول "أسرارا لغزية"، تشبه الألغاز التي يمارسها متعبدو سيبيل أدونيس؛

ومن عبادة الإله مثرا أخذ أساس خرافة ولادة يسوع في مغارة. وتعميم النظريات الرواقية، وبخاصة، رواقية سينيك، التي سماها أنجلز "كفيلة المسيحية"، مكن من إقامة نهج أخـــلاق مسيحي يرتكز إلى مباديء الضعة والصـــبر. ولقـــد حـــاول فيلـــون اليـــهودي، الكـــاتب الإسكندراني (بداية القرن الأول)، الذي رآه انجلز "أب المسيحية"، التوفيق بيـــن اليهوديـــة والفلسفة اليوانانية؛ وهو الذي أوحى بالنظرية المسيحية التي ظهرت في القرن الثاني، فـــي "فعل". الملائكة، الوسيطة بين الله والناس، والـــ"روح الدنس"، إلخ.

في القرن الثالث بدأ الأساقفة يجتمعون بمجمعات كنسية، ليقرروا أي اقتراحـــات وأي نظريات يجب ان تكون مقبولة بشكل دائم وإلزامية وأي منها يجب إدانته ورفضه. وهكـــذا من الأدب المسيحي الغزير لم يعترفوا إلا بالأناجيل المذكورة أعلاه، و"أعمـــال الرســـل"، ورسائلهم الواحد والعشرين ورؤيا يوحنا.واعتبرت الكتابات الأخرى أعمالا "مزورة" يجـــب تحريم استخدامها؛ وبشكل عام، كل خروج عن "النظريات الصحيحة" أعلن أخطاء مؤذيـــة، ومنها ما اعتبر إجراميا يجب معاقبته: انتزاعه من مجمع المؤمنين،أو حتى تحريمه.

كانت نتيجة هذا النشاط الأسقفي والمجامع الكنسية حشد التجمعات المسيحية المشـــتتة حتى آنئذ في منظمة متينة تضم كل الإمبراطورية الرومانية، لم تتخلف عن تشـــكيل قـــوة اجتماعية هامة. لكنها حوت في جنباتها تيارات متباينة متعادية خاضت منذ إذ صراعا حادا وضاريا. لم يستطع الكثير من الناس، بخاصة الفقراء، الخضوع للنهج الجديـــد التســـلطي المفروض على المؤمنين ودافعوا عن حرية البحث والتقصي. فكانوا لهذا في المضطـــهدين وأعلنوا "ملحدين" وفصلوا من الكنيسة.

كانت البدعة التي لاقت نجاحا باهرا هي بدعة المونتانست، أو تلامذة مونتانس،أحـــد المبشرين المتعصبين من فريجي، الذي كان عند مريديه "روح القدس المجسد" وسيط بيـــن الله والبشر). وماكانوا يعترفون بأي تراتب إكليركي، بأي قـــانون إلزامـــي، بـــأي طقـــس وضعي. كانوا بحرية التبشير السالفة كرمى لمن يعتقد أن "روح القدس" زاره. انتشر مذهب مونتانس بخاصة في أفريقيا الرومانية، حيث وجد بين أنصاره واحدا من كبار كتاب نهايـــة القرن الثاني وبداية القرن الثالث، ترتليان (ولد في قرطاجة وصـــار كاهنـــها). يديـــن لـــه الانتشار الواسع للإيمان المتعصب: "أعتقد هذا لأن هذا محال، غير معقول". وفي مؤلفاتـــه العديدة، أدان ترتليان العلم، الذي كما يرى جعلته الأناجيل بدون جدوى، ويؤكد أن عبـــادة الأوثان لا تقوم فقط بتمجيد صور الآلهة الوثنيين، بل تكمن في كل شكل فني يهدف لتمثيل

الأمور الأرضية. ولقد أمر بالصوم الدائم لأن آدم سقط في الخطيئة بسبب تفاحة.

كانت الهرطقة، الأكثر انتشارا بين المسيحيين المثقفين والمطلعين على الفلسفة الهللينية الغنوطوسية أي المعرفة. كان الغنوطوسيون يبحثون عن توفيق النظرية المسيحية مع "الحكمة الوثنية". ونجم من هذا خليط غريب من الفيثاغورسية. الأفلاطونية والعناصر الأخرى المتباينة.وقد حاول الغنطوسيون إن يتصلوا بشكل مجدي مع "القوى الغيبية، بواسطة عمليات سحر واستدعاء الأرواح. وكانوا بهذا الخصوص أسلاف "مستدعي الارواح"، "وخيماويي" القرون الوسطى.

في القرنين الأول والثاني الميلاديين، أوحت المسيحية، بشكلها الأرثوذكسي أو تظاهراتها الهرطوقية، الارتياب والحذر للطبقات الوسطى في المدن، لكل الريف تقريباً وموظفي الامبراطورية ذُبح المسيحيون أكثر من مرة، ونسبت إليهم كل الكوارث الطبيعة، -القحط، الطوفان، قلة المطر، وسواه. وفي كثير من الأعمال الأدبية المصانة حتى الآن (مثل، "الأقوال الصحيحة" لسلسس و"موت برغرنس" دي لوسيان) حملة شعواء ضد المسيحية التي لُفظت كما تُلفظ أغلظ الخرافات أو المعتقدات الباطلة. يسخر سلسس بخاصة من النظرية المسيحية في "نهاية العالم" والدينونة الأخيرة: "أليس عبثاً فكر هؤلاء الناس القائلين عندما يوقد الله النار، كالطباخ، ستشوى كل البشرية، أما هم وحدهم سيبقون، سليمين، وليس فقط الأحياء بل سيبعث من مات منذ زمن بعيد بلحمه وعظمه -إن هذا لتركة جيدة للشعر!" فالمسيحيون يرون حتى الفلاحين في مقدمة أعدائهم، ومن هنا أتت كلمة "وثني" لتشير إلى عدم الإخلاص بشكل عام[1]. وكان العاهل وولاته يرون في المسيحيين عناصر سيئة، يرتابون بالاحتجاج والمساهمات ، لم يساهموا بعبادة الإمبراطور. وتراجان، في رسالته إلى بلين، أمر بمعاقبة المسيحيين الذين رفضوا بوضوح التضحية عن روح الأباطرة، لا بل في عهد مارك أوريل، نزلت عقوبات قاسية بأشخاص متحمسين للدين الجديد. على ذلك، كان اضطهاد المسيحيين في القرن الثاني قصير المدة، وإجمالاً، كانت الحكومة الرومانية في "عصر التنوير" متسامحة دينياً.وسرعان ما نمت المسيحية ومنذ نهاية القرن الثاني، بدأت تمثل قوة اجتماعية جبارة ساهمت بدمار مفهوم العالم القديم.

---

[1] - فلاح=*paysam*، وثني =*paien*

الفصل الخامس والستون

أزمة القرن الثالث والإمبراطورية الرومانية بين عامي ٢٣٥-٤٧٦

استبدادية آل سيفير (١٩٣ – ٢٣٥م). أزمة القرن الثالث

أسفر التفكك المتزايد لمجتمع العبودية عن فوضى تدريجية في الجهاز الحكومي للإمبراطورية الرومانية. وفي الوقت نفسه نما الوضع العسكري كما كان في أثناء الثلث الأخير من القرن الثاني (بخاصة حروب مارك أوريل ضد البارث والماركون)، ونمت بشكل استثنائي أهمية العناصر العسكرية، وأعطوا الدور القائد في الدولة الأمر الذي أثار سلسلة من الانقلابات العسكرية والحروب الأهلية.

إن هذا العهد من الانقلابات فتحته القوات الإمبراطورية المنحلة والفاسقة. فبعد اغتيال كومود، أتى إلى الحكم إمبراطوران خلال ستة أشهر: ب.هلفيس برتنكس وم.ديريس جوليانس. كان الاثنان محاربين جيدين، إداريين محنكين لم يأتيا إلى الحكم إلا بشراء الحرس، وعد هلفيس برتنكس بـ ٣٠٠٠ لير لكل منهم، وديريس جوليانس ضاعف المبلغ، أي ٦٢٥٠ لير. "العاصمة والإمبراطورية الرومانية بيعت بالمزاد، كما في السوق أو في الحانوت"، كتب ديون كاسيس (التاريخ الروماني، ٧٣، ١١).

حسداً من نجاح رفاقهم في العاصمة والغنائم التي حصلوا عليها، شرعت القوات المحتشدة في الأقاليم، هي الأخرى. بتنصيب قادتهم أباطرة.

الجيش السوري أعلن س.بسينيس نيجر، والجيش في بريطانيا د . كلوريس ألبتس، وفيالق الدانوب والرين ، سفير بانونيال . سبتميس سفرس . حرب قاسية (١٩٣ – ١٩٤) شبت كالحريق في أرجاء الإمبراطورية. في شرقها كما في غربها. لكن جيش الدانوب، بقيادة سبتيم سيفير، دحر خصومه ، واستولى على روما وأسس بعد أن وصل إلى العرش، الأسرة التي حملت اسمه (١٩٣ – ٢٣٥).

كان سبتيم سيفير (١٩٣ – ٢١١) أول إمبراطور جندي. ابن مدينة قرطاجة (المستعمرة الفينيقية ثم الرومانية في شمال إفريقيا) –من أعمال لبتس ماجنا *L eptus Magna*– ويتكلم اللاتينية بنبرة هلينية، متحمس لهانيبال مولع به، فكان إذن غريباً تماماً عن روما. ضرب بيد لا ترحم الارستقراطية الرومانية، التي وقفت إلى جانب خصومه: أبيد عدد كبير من أسر الأعيان؛ ومكنته المصادرات الوحشية، كما في أيام منافي سيللا والثلاثية الثانية، من إشباع خلصائه. ضوعف راتبهم، وصار من حق الجندي البسيط أن يدخل صف الضباط. وسرح سبتيم سيفير الفصائل الإمبراطورية المشكلة في إيطاليا، وألف حرساً جديداً، اختاره من صفوة جيوش الأقاليم، بحيث صارت روما تغص، كما يشكو ديون كاسيس، بخليط من العسكر، بسيماء غابية تتكلم لغة البربر المتمردين بطريقة فظة (٧٢ ، ٢) وخول الجندي الزواج، وأذن للقوات المعسكرة على الحدود بامتلاك قطعة أرض، ليعيش كل مع أسرته وفي موطنه، ولا يأتي إلى الثكنة إلا من أجل التمارين القتالية. "أرض الجند، وتقدر أن تهمل من بقي"، هذا مع علمه لأولاده .

على ذلك، شرع سبتيم سيفير بوضع الجيش في خدمة سياسة خارجية حازمة. شن حملة موفقة على البارث (الذين احتل الرومان عاصمتهم سلوسيا وكلزفون؛ ثلاث مرات)، وسع كثيراً الممتلكات الرومانية خلف الفرات ومات في أثناء حملته على بريطانيا. لكن التمردات العسكرية التي توقفت مؤقتاً في عهد سبتيم سيفير، تجددت على أشدها في عهد خلفائه. كان ابنه ماركوس أورليس انتونس، لقب كركلاُ (٢١٢ – ٢١٧)، حسب تعبير مومش، (صورة هزلية لأبيه): قزم حقيقي من حيث القامة، هزيل، فاسق وشرس. خاض كركلا مشروعاً خطراً في الشرق، بغية ضم ليس الهند فقط بل والصين وتجاوز اسكندر المقدوني. لكنه ما كاد يبدأ الحملة حتى قتله أحد ضباط حاشيته.

كانت الشؤون الداخلية توجَّهُ بإشراف أم كركلا، المرأة الذكية ،الإمبراطورة جوليا دومنا، يساعدها خيرة المشرعين من زمن (بابريان ، مثلاً). وهذا ما يعلل شهرة مرسوم كركلا في عهد أسوأ الأباطرة، المرسوم ٢١٢ الذي أعطى حق المواطنة لسكان كل الأقاليم. نص المرسوم :(أمنح كل الناس غير – الرومانيين الساكنين على أرض الإمبراطورية. عدا البربر المقيمين كمستوطنين، حق المواطنة الروماني وكل الأشكال المستقرة من المؤسسات البلدية). كان هذا القرار تتويجاً لكل سياسة الإمبراطورية

الرومانية، الهادفة إعطاء حق المواطنة إلى أكبر عدد ممكن من الأقاليم. لكن كبح الجنود صار منذ الآن محالا. فالجيش السوري نصب قاتل كركلا، ماكران(٢١٧ - ٢١٨) إمبراطورا، لكن سرعان ما نجحت جوليا مازا، أخت جوليا دومنا، بشراء هذه الفصائل السورية ونصبت حفيدها، فاريس أفتش باسيانس، ابن الرابعة عشر ربيعا، والذي اعتبر ابن كركلا الشرعي. كان هذا الفتى كبير كهنة الإله السوري الغبال*AL -Gabale* (*Baal*)، وفرض الكثير من الخرافات على جيش الشرق، فلقبه جنوده إلغبال. وبعد صراع سري قصير المدة خان الجند ماكران وقتلوه، عاد إلغبال بأبهة وعظمة إلى روما، برفقة الحجر الأسود "المقدس"إميز *Emese* وأشياء أخرى آسيوية مقدسة. لم يكن الكسول والماجن يهتم إلا بالتضحية "لإلهه الأكبر، تاركاً تدبير كل الأمور لجدته جوليا مازا وأمها جوليا سمياس، اللواتي أعطيتا ألقاب "أوغست""، "أمهات المعسكرات ومجلس الشيوخ" واللواتي حكمن بواسطة محظييه.

في العام ٢٢٢، قتلت الحاشية الإمبراطورية إلغبال وأمه سامساس، ورموا جثتيهما في التيبر. لكن جوليا مازا، المتآمرة، نجحت بجعلهم ينصبون حفيداً آخر لها هو ألكسيان، في الثانية عشر ربيعاً، واعتبر هو الآخر ابناً شرعياً لكركلا. بدأ الإمبراطور الجديد حكمه باسم م.أورليس سفروس ألكسندر أو، كما ينادى عادة، الكسندر سيفير (٢٢٢-٢٣٥).

سعى ألكسندر سيفير وأمه جوليا ماميا إلى التقرب من مجلس الشيوخ وأدخلوا إلى الحكومة خيرة المشرعين (أولبيان، مثلاً، الذي سمي محافظ مقر الحاكم). اهتم المشرعون بتحسين أعمال المحاكم، والإدارة، وشؤون المال. لكن جهودهم كانت تفتقر الحسم والفعالية. وكانت دسائس البلاط الدائمة تعرقل أو تعطل كفاح رجال الدولة، وكان الوضع العام مزعزعاً جداً. التمردات تنشب في الأقاليم، المرابون يظهرون عند التخوم القتالية. وفي روما نفسها تمرد الحكام وقتلوا رئيسهم أولبيان.

أماالسياسة الخارجية لن تكون في هذه الشروط إلا سيئة. وفي الشرق، انبثقت مملكة الفرس الجبارة على أنقاض إمبراطورية البارث، وهدفت إعادة عاهلية الاشمنيد القديمة بالتدريج، لداريس وخرخس. ولما استولى الفرس على مابين النهرين الرومانية وكبادوسيا، صارت حملة الشرق بقيادة الكسندر سيفير ضرورية، لكنها فشلت (٢٣١-٢٣٣). ولما وصل الإسكندر، الميال للسلم الكتبي، إلى الرين،مدفوعا من أمه حتما، وبدأ

كقائد غير جدير حملة ضد الجرمان، قتله الجنود العصاة وأمه جوليا ماميا، في خيمتهما، وأعطوا الإمارة إلى قائد المرهقين، مكسمين، ابن ثراسيا، الراعي السابق، ذي القد العملاق والقوة الهرقلية، ضابط خارج من الصف والمحبوب جداً بينهم (٢٣٥).

انطلاقا من هذه الحقبة فتحت في الإمبراطورية الرومانية أزمة سياسية حادة دامت أكثر من ثلاثين سنة (٢٣٥-٢٦٨). ومكسمين، الذي يسميه كاتب سيرته "أثينيون الثاني وسبارتاكوس الثاني"، الذي أباد منهجيا الأغنياء والوجهاء، لكي يوزع ثرواتهم على جنوده، لم يعد إلى روما، بل استمر يخوض في الشمال صراعا لارجاء له ضد الجرمان، والإيازيج والداس. ومنذ ٢٨٣، كانت الارستقراطية التي تكرهه، قد أثارت ضده في بحر عام واحد أربعة أباطرة اختارتهم من مجلس الشيوخ، غورديان الأول والثاني في أفريقيا، بالبان وبوبيان في رومال ذاتها. لكن الأربعة ذبحهم الجند خلال أشهر، والولاة، الغاضبون من ماكسمين، اختاروا إمبراطورا فتى ابن ١٣ عاما، غورديان الثالث، حفيد غورديان الأول. دامت هذه الحقبة من الانقلابات العسكرية أكثر من ١٥ عاما، تتالى خلالها على روما ١٠ أباطرة.

تسجل الـ١٥ عاما التالية ٢٥٣-٢٦٨، عهد تفكك تام للإمبراطورية الرومانية. إمبراطوران، على الأرجح، حكما اسما في روما، اختارهما الجند هما: فالريان (حتى العام ٢٦٠ وابنه غاليان. وقد قدم كل إقليم إمبراطوره، لذا سمى مؤرخو العهود القديمة هذا العصر "عصر الثلاثين من الأسر المستبدة. وفي الغرب، تشكلت "إمبراطورية الغولوا"، كانت جزءا منها جرمانيا، الغول، بريطانيا، واسبانيا. حكمها لعشر سنين قائد روماني اسمه بوستمس، بجيشه، وإدارته ونقده وتجاهل كليا الحكومة الرومانية. وسوريا وآسيا الصغرى ومصر انفصلت أيضا لتشكل مملكة جديدة، كان على رأسها حاكم تدمري، سبتموس أودناس الذي سمي "الأتوقراطي" و"قائد الشرق". ولما مات في العام ٢٦٧، اختارت هذه المملكة الواسعة أرملته زنوبيا. في أقاليم الدانوب، أعلن بعض الطامعين أنفسهم أباطرة، وفي أثناء الصراع ضد أحدهم أريلوس، الذي سار إلى إيطاليا ووصل ميلانو، قتل غاليان بيد ضباطه (٢٦٨).

إن شلل السلطة المركزية والاقتطاعات المستمرة من قبل القوات المكلفة بحماية الحدود جعلت الوضع الخارجي للإمبراطورية الرومانية كارثيا. هوجمت تخومها في كل

مكان، وانقضت الشعوب البربرية، التي ماتزال تعيش مرحلة المشاعة البدائية، من كل صوب، كطوفان لا يقاوم، على العالم العبودي في حوض البحر الأبيض المتوسط. والفرانك المحاربون، مسلحين ببيلطاتهم الغريبة، حطموا التحصينات الرومانية على المجرى الأسفل والأوسط لنهر الرين ودخلوا الغول الوسطى. والألمان، شعب جرماني آخر، ما أن سادوا رينيا ومضائق الألب،حتى انحدروا إلى إيطاليا وفي العام ٢٦١، وصلوا أبواب ميلانو.طردهم غاليان لبعض الوقت، لكنهم جددوا غزواتهم في العام ٢٧٠ ودخلوا هذه المرة إيطاليا الوسطى. وهددوا روما.

على الدانوب الأسفل، كان الوضع أخطر.إذ تشكل في هذه المنطقة تجمع واسع من الشعوب الجرمانية، السارمات، التراث ربما هم السلاف –الأولون. كان أكثرهم ديناميه الغوت، المهاجرون من ضفاف البلطيق، هكذا سمي جميع أعضاء هذا النوع من التحالف. وانطلاقاً من ٢٣٠، بدأ الغوت ينهبون ويدمرون منهاجياً كل ساحل البحر الأسود؛ استولوا على استريا وتيرا، خربوا أولبيا، غزوا بين الـ٢٥٠ و٢٦٠ مملكة البوسفور والتوريد. على فليكاتهم المحفورة من جذوع الأشجار، وسفن أسرت في مدن البوسفور وأمكنة أخرى. ربحوا البحر، وثغوراً على الدنيبر، والبوغ والدانوب، نهبوا حاضرات بتنبا وبفلغونيا الثرية وتغلغلوا في بحر إيجة عن طريق هللسبونت حتى المركز القديم للحضارة اليونانية، إفيز وأثينا. وقد أسهمت الثروات الطائلة التي كدسها قادتهم في أثناء هذه الحملات اللصوصية في ولادة أسلوب منتقى سمي "الغوتيك" الذي استخدموه في تزيين عدة خيولهم بالصفائح الذهبية لأهداف تخيلية، المرصعة بالأحمر الروماني، والستراكواز والطلاء عديد الألوان.

بدأ الفرس هجوما غاضبا على الفرات. وفي العام ٢٦٠، أباد سابور، عاهل إمبراطورية فارس الجديدة (الذي جعل مجددا بيرسبوليس عاصمة)، أباد جيش الإمبراطور فالريان. أسر هذا الأخير وأجبر أن يحني ظهره ليدوسه العاهل عند صعوده إلى الحصان؛ وأرسل ضباطه وجنوده ليحفروا قنوات على ضفاف دجلة. واحتل الفرس أنطاكية، العاصمة، أغنى مدن سوريا، ونهبوها.

وكما الحروب الأهلية المستمرة، قضت غزوات البرابرة المدمرة، والجوع والجائحات على شعب الإمبراطورية حتى نضبت قواته المقاتلة، شرعوا، للدفاع عن

حدودهم ضد البرابرة، يجندون برابرة آخرين، ملحقين بالجيش الروماني. وصار هذا السلوك، الذي بدأ مع مارك أوريل، نهجاً متبعا، في الأعوام الرهيبة التي تلت موت الكسندر سيفير. كان هؤلاء "الحلفاء" يستلمون أراض ليقيموا عليها، بشرط تلبية دعوة الخدمة الالزامية وإعداد أولادهم لها.

ثمة عينة أخرى من المستوطنين العسكر، مقيمون في منطقة الحدود، سموا "ليت *Letes*". وهكذا بدأ البرابرة برضى الحكومة الرومانية، التغلغل زرافات على أرض الإمبراطورية، حتى في المناطق الايطالية أصلا، مساهمين بربرتها في ظل علاقات اقتصادية على كل الإقليم. دمرت غزوات البربر والأعمال القتالية كل احتياطات المؤن، وصار محالا القيام بالبذر والجني في الوقت المناسب. والمغتصبون، لدى احتلالهم منطقة ما، يمنعون على الفور أي تصدير، ليغذوا جيدا ويجهزوا جنودهم وقطعت القرصنة البحرية على يد "الغوث" وغزوات الفرس المتتالية كل طرق التجارة الكبرى بين المراكز الرئيسة الصناعية والتجارية في الشرق. وتحولت المدن الخاوية، بسبب هجرة السكان إلى الريف، إلى أمكنة لجوء وثكنات وأحيطت على عجل بالدفاعات. ولنقص الوسائل، استخدموا لرفع أنقاض الصروح العامة، حجارة القبور والآثار الأخرى ذات القيمة الفنية العظيمة أحيانا. ووهنت حياة البلديات التي كانت متألقة؛ وبسبب الفقر العام، انقطعت المساهمات التطوعية بنفقات النفع العام، ولم يكف وزر الضرائب عن قصم الظهور؛ وصارت وظائف قادة العشرة والسلطات البلدية باهظة الثقل بشكل استثنائي، مليئة بالارباك وشرع الكل يبحث عن التهرب من الأعباء العامة. ويرغم الزيادات المنفلتة بالضرائب، كانت خزينة الدولة خاوية أبدا. وكثيرا ما استحال على الناس دفع الضريبة. كانت الدولة تعيش أساسا من صك النقود غير المغطى فافتقدت المعادن الثمينة وكان لابد بالتالي من التزوير وتخفيض قيمة النقد أكثر فأكثر، أي ما يعرف اليوم بالتضخم النقدي. في عهد كركلا بدؤوا بصك قطعة ذهبية، أخف من القطعة السابقة بـ١٧%. فاختفت على الفور القطع السليمة. فوضع في التداول نقد جديد، سمي "أنتونينسانس"، واعتبر يساوي ٢٠/١ من (أورو *aureus*)، لكن قيمة الفضة فيه أقل بالفعل بـ٥٠% مما يجب أن يكون.

تفاقمت الأمور بعدئذ: صكت نقود فضية، كانت بالفعل نحاسية ٥%، ثم ٢% فقط من المعدن الثمين). فلم يعد الشعب يقبل النقد إلا بالوزن، مفضلا على ذلك النقد النحاسي

الصغير، لأنه أقل تزويراً وينطلق من نهج المقايضة البدائي. وهوت المبادلات التجارية بالفضة إلى درك الكساد وحلت محلها المبادلات العينية.

بعثت شروط الحياة غير المقبولة حركات عاتية لدى الطبقات السفلى. وفي العام ٢٣٨، اندلعت في أفريقيا انتفاضة من العبيد والمستوطنين، مكنت كبار المالكين من النهوض ضد الإمبراطور-الجندي ماكسمين، الكريه، لصالح مرشحهم إلى العرش غورديان الأول. قمعت الانتفاضة بوحشية على يد الفيالق الأمنية لماكسمين، المعسكرة في إقليم نوميديا المجاور. وفي مصر أخذت حركة رعاة البقر مدى واسعاً. وانطلق المعوزون يبحثون عن ملجأ في انسحابات رعاة البقر المنيعة، مخبئين في أهوار القصب ومستنقعات النيل، حيث خرجت حظائرهم ضد المراكز الإدارية والحاميات الرومانية. وأثبتت الحكومة الإمبراطورية عجزها عن صد رعاة البقر طيلة القرن كله.

كانت مناطق الغول منذ نهاية القرن الثاني فريسة اضطرابات مستمرة سببها العبيد، المستوطنون، فقراء المدن، والجنود الفارون. كتب المؤرخ هورديان: "كان هؤلاء المجرمون يهاجمون كبريات المدن، يقتحمون السجون، يأخذون من الأغلال المعتقلين أياً كانت جريمتهم، يعدونهم بالطمأنينة والأمان والعودة إلى المجتمع" وكان كومود مضطراً أن يشن صراعاً صلباً ضد هؤلاء "المشردين"، كان على رأسهم لبعض الوقت جندي فار جسور ومنظم جيد اسمه مترنس. وفي أثناء فترة الفوضى السياسية في القرن الثالث، ازداد عدد هؤلاء "الفاسقين" و"قطاع الطرق" وفي حوالي العام ٢٧٠، شكل العصاة، الفلاحون، المستوطنون والعبيد الزراعيون تجمعات ضخمة. كانوا بقيادة محنكة، إليان وأماندس، الذين أخذا ألقاب الأباطرة، وصكا النقود، وغيرها. وسقطت بين أيديهم أوسع وأهم مجالات السلطة، اقتسما وأتباعهم الأرض، الأنعام والوسائل. وكانت غول الريف كلها بين يدي المتمردين. "تحول الحراث إلى جندي مشاة، والراعي إلى خيال"، هذا ما يشكو منه شاهد عيان. لم يبق خارج حصونهم سوى المدن الكبرى، مآوي الأغنياء. على ذلك، في العام ٢٧٠، تمكن الباغود من احتلال، بعد حصار دام ٧ أشهر، مدينة أوعستودنم (أوتون)، عاصمة الأديين السالفة، بفضل رد شطر من جيش "الإمبراطور" الغولوا تيترکس، الذي انتقل إليهم. أما الأغنياء والنبلاء ذبحوا، اقتسمت أرزاقهم، وصارت المدينة رمادا.

في كل مكان كان العبيد ينتفضون وينضمون إلى أية حركة تمرد. ومنذ عهد سبتيم سيفير، كان يعمل في إيطاليا فصيل الصعلوك بوللا، المؤلف من ٦٠٠ رجل، كلهم تقريبا عبيد الإمبراطور. كان لهؤلاء الصعاليك أنصار في كل مكان. تصورهم الخرافات حماة الشعب. وقدم العبيد جهدا كبيرا في تمرد مستوطني أفريقيا، وفي حركات رعاة البقر في مصر وابلاغود في غول. وعلى أبواب العام ٢٦٠، حسب كاتب سيرة الإمبراطور جوليان، كان في سيسيليا "نوع من حرب العبيد". تكاتف العبيد مع المستوطنين والشرائح الأخرى المضطهدة من الشعب الروماني واستقبلوا بالأحضان الغزاة البرابرة، باعتبارهم محرريهم ومعتقيهم من نير الأغنياء الرهيب والموظفين الغيلان. قاد الجبليون الألمانس في شعاب الألب، تتبعهم جماهير العبيد عند انسحابهم من إيطاليا. ولما اجتاز الـ"غوت"، الذين يعدون ١٥ ألف مقاتل، بقيادة زعيمهم الفذ كنيفا، الدانوب وغزوا البلقان غزوة تدميرية، شكل الفلاحون والعبيد بشكل عفوي كواكب من الفرسان والمشاة، وانضموا إليه فنجحوا باحتلال واحدة من أبرز مدن مقدونيا، فيليبو-بوليس. وعندما حاول الإمبراطور دسيس الانضمام إليهم وإعادة الغنائم لهم، قبل أن يعبروا الدانوب ثانية، هزم ال"غوت" الجيش الروماني وأبادوه في دوبروشا. هلك دسيس أثناء القتال، مع ابنه البكر الذي ضمه إلى الإمبراطورية (حزيران ٢٥١).

لقد أسفرت أزمة القرن الثالث عن تجدد نشاط النضال الطبقي، لاسيما في الإمبراطورية الرومانية نفسها، المؤسسة على العبودية، التي وجدت نفسها في حالة من التفكك التام والعميق.

المحاولات الأخيرة لإصلاح إمبراطورية العبودية. ديوكلتيان وقسطنطين

كانت الأوساط المهيمنة الرومانية في وضع يمكنها من بذل جهد أخير لتأخير تفكك مدمر لاقتصاد العبودية وانهيار الإمبراطورية. ففي أثناء الأعوام العاصفة من القرن الثالث، كانت المدن تعاني من الأزمة الاقتصادية ومن غزوات النهب المتوالية. فاختفى الكثير من الاستثمارات الزراعية الصغيرة والمتوسطة. وبالعكس، ليس فقط عزبات الأسر الكبيرة نهضت بسرعة، بفضل غنى مالكيها، بل نمت أيضا على حساب الملكيات الصغيرة. كما ازداد كثيرا عدد الاقطاعات الشاسعة. لأن عصبية من الضباط امتلكتها بالحيازة؛ فقد عرفوا كيف يستفيدون من الخصومات الداخلية بين الطامعين بالامبراطورية

والمغامرات العسكرية لجني الثروة وتعزيز شريحة مالكي الأرض الكبار. الأمـــر الـذي يعلل رفع ملاكات قيادة الجيوش بخاصة قيادة الدانوب، في أثناء السنوات الســبع عشـرة التي تلت موت غاليان، لوائح بكبار القادة الأفذاذ، الذين توصلوا إلى إنقاذ الوضع ولو إلــى حين.

كانوا كلهم تقريبا منحدرين من أبسط المستوطنين العسكر في إيليريـــاء، ولـذا سـموا بعامة الأباطرة الايليريين. وكانوا كلهم قد وصلوا إلى أرفع درجات الـتراتب العسـكري، وحازوا كلهم إقطاعات ضخمة وحكموا، بالتالي، بالتواصل المتين والتأييد الكامل مع كبـار المالكين الطليان والإقليميين. ولمصلحة هذه الأوساط الاجتماعية انتزعوا مـن مرؤوسـيهم بدون رحمة كل ما يمكن أن يفضي، وبدون تردد، إلى إرسال فصائل كاملــة مـن الجنـد لتنفيذ أعمالا عاجلة في إقطاعات كبار المالكين. لقاء هذا، جنى الأباطرة الايللريين بعـض الاستقرار العام، في المجالات الداخلية والخارجية. لكن عهدهم، عادة، لـم يكـن طويـلا: فكثيرا ما ذبحوا بخنجر جنودهم وضباطهم.

كان أشهرهم أورليان (٢٧٠-٢٧٥)، الملقب "اليد الحديدية" لقوته الهرقليـــة وطاقتـه الاستثنائية وإرادته التي لا تفل. أنقذ روما من غزو الألمانس، تحدى الـ"غوت" والفـــاندال وطرد إلى خلف الدانوب كل أعداء روما الخطيرين؛ واحتل هكذا غنائم لا تحصى وأخـــذ جمهرة من الأسرى، الذين حلوا محل النواقص من العبيد والمســتوطنين علــى الحـدود. وقمع أورليان بوحشية حركات العبيد والمستوطنين. وكرر هذا في الأقـــاليم، فــي مصـر بخاصة، دمر تدمر (٢٧٢)، اقتاد إلى الأسر الملكة زنوبيا وابنها؛ وعادت الغول المنشـــقة إلى الحظيرة، بعد أن اعترف إمبراطورها تتركس، أحد أحفاد بوستيمس الذي، خوفا مــن تطور حركة الباغود، اعترف طوعا بسلطة أورليان، الذي، لهذا السبب، دعي "المصحـــح الموحد".

على هذا، كان الصلح والتوحيد مهمين جدا واستقبلا بحرارة. توجب مغـادرة داسـيا وإخلاؤها من المستوطنين الرومـــان علـــى شـــاطيء الدانـــوب الأيمـــن، تـأمين خدمـة الإمبراطورية، وإحلال على الأرض الرومانية البحت فاندال، باستارن، شــبه الوحـوش، وبرابرة آخرين، وتوجب تحصين روما بحماس عاجل ورممــت الاســتحكامات والقـــلاع الضخمة وبروج أورليان. وكوسيلة تخلص من العقبات المالية، ضربت النقـــود المـزورة

رفض الجمهور قبولها وتداولها، فشبت انتفاضة في روما، لهذا السبب، في العام ٢٧٣. أرثها عمال صك النقود، وسرعان ما دعمتهم كل شرائح السكان الفقيرة.

يشهد سقوط سبعة آلاف جندي من القامعين، عل جبروت ومدى هذه الحركة الشعبية، أو هذا الـ"عصيان النقدي"، كما يسمى عادة. تقلصت الإمبراطورية بشكل رهيب، وتضايقت، وهبط مستوى ثقافة سكانها، لكن تفككها التام والنهائي أرجئ إلى حين.

خمدت الأزمة السياسية، خلال العشرين عاما من حكم ديوكلتيان (٢٨٤-٣٠٥). وايلريان هو الآخر، الابن المعتق، الذي مر بكل المراتب الحربية، عديم اللباقة والثقافة، رفعه إل العرش الضباط الأمراء في جيش الشرق بعد ذبح سلفه نومريان وقتل بيده منافسه آبير. وسوى بجرأة قتالية، وعاجلة، القضايا الإدارية الراهنة والمعقدة، واضعا في المقام الأول شؤون الدفاع وتنظيم المؤخرة.

لكنه لم يعد إلى روما بل اختار مقراً له مدينة نكوميديا، على بحر مرمرة، الملائم جداً للسهر على الدفاع عن الحدود الرومانية الأكثر تهديداً، الدانوب والفرات. ولحماية الغرب، اختار شريكاً، "أوغست" آخر، مكسميان، رجلاً من بلاده، ضابطاً فذاً ومحنكاً. اتخذ مكسميان عاصمة له ميلانو التي تحمي معابر الألب من جهة جرمانيا والغول، مؤمناً هكذا الاتصال بخط الرين الدفاعي. كان "كل أوغست" يلحق به معاوناً يسمى قيصر؛ ديوكتيان أخذ غالاريس (الذي أقام أدارته في سيرميم، على نهر الساف *Save*، أحد روافد الدانوب)، ومكسميان أقام إدارته في تريف *Treves*، على نهر موزيل). وزج كل أوغست ابنته من قيصره، مهيئاً هكذا خلفاء له: وقرر قتالياً أن يتنازل "كل أوغست" بعد عشرين عاماً، لخليفته. وهكذا استقرت حكومة أربعة قادة عسكريين، كان بينهم وشيجة تفاهم واعتراف بديوكلتيان، الأعمر والأقدم بالخدمة، واعتبرت السلطة عامل ترجيح في حال الشقاق.

لقد أعطت هذه القسمة للسلطة لبعض الوقت النتائج المرجوة، من وجهة نظر الشرائح العليا في المجتمع الروماني. توصل الإمبراطوران والقيصران في مدة قصيرة نسبياً إلى التغلب على عدد كبير من المغتصبين الذين استمروا بالظهور وعلى التمردات الشعبية. وتحدى مكسميان الباغود ودمر مخيمهم الرئيس القائم على نهر المارن في بلد آل

باريزي (٢٨٦). وبالعذابات والإعدامات الجماعية، أعيد "الهدوء" إلى الغول. وجمد قسطنطين كلود محاولة قائد الأسطول الروماني في الشمال، كروزيس، الذي بغى أن يخلق امبراطورية في بريطانيا.وردت أيضاً هجمات الجرمان،الإيازيج، الكارب والفرس. ومكن الانتصار على الفرس من استعادة حامية أرمينيا وتنصيب فيها أحد أتباع روما، تسردات الثالث. ومن جديد أحكم إغلاق الحدود بنهج دفاعي منيع وأقوى من أي وقت مضى.

لكن لترسيخ هذه النجاحات العسكرية، توجب تحقيق تبدلات هامة جداً اجتماعياً واقتصادياً في كل شروط العيش والحياة الاجتماعية الماضية. ومن أجل تحقيق التحالف الجماعي بطريقة أو بأخرى والعمل الأكيد لمصلحة الحكومة المركزية من كل سكان الأقاليم الرومانية الذين لا يشكلون سوى تكتل مجرد من أي تواصل، وجب السعي إلى نهج استبدادي، مجرب في الشرق منذ زمن. وقضي بدون وازع على كل ما تبقى من الحقوق المدنية، كالحرية الفردية أو الاستقلال البلدي. بدأ الأمر بسلسلة تدخلات عنيفة بسلطة الحكومة في الحياة الاقتصادية وتخفيض قيمة النقد المهلك للناس: بسبب افتقاد الذهب (كانت مناجم داسيا قد ضاعت)، تراجعت قيمة النقد الذهبي إلى الثلث. ودنير الفضة، الذي تدنى بشكل رهيب في أثناء القرن الثالث، تحول رسمياً إلى شبه نقد نحاسي. فاختفى الذهب على الفور، وطارت قيمته طيراناً مجنوناً أو لاتعرف له بلغة البشر تسمية؛ كما يصف القرار ٣٠١.

ولقد حرضت هذه الحالة حكومة ديوكلثيان على خوض صراع ميئوس منه ضد المضاربة، التي رآها سبب هذه الظاهرات الاقتصادية. يقول القرار ٣٠١، الذي تحدثنا عنه: يعرض نفسه لعقوبة الإعدام كل من احتكر، او روج لرفع الأسعار، ويوصم بعار "الجريمة غير المحتشمة"، "اللص الماهر الذي يضخم ثروته عشرة أضعاف مما يثير الحنق والغضب".

وبموجب القرار ٣٠١، ثبتت الأسعار لكل السلع الغذائية، والأنسجة، والجلود، والمعادن وعربات النقل، والتجهزات ومواد أخرى، وكذلك الأجور لمختلف صنوف العمال من المياوم الزراعي حتى مهنيي كل المستويات. والموجهون، وحراس المواشي، وحملة الماء، ومنظفو المجارير لا يتقاضون أكثر من ٢٥ دنير نحاسي في اليوم، إن كانوا مطعمين. البناؤون، الحطابون، النجارون، الحدادون، الخبازون، الآكلون على مائدة

صاحب العمل يضاعف لهم الأجر، أي ٥٠ دنيرا؛ والفنان الدهان أو الرسام ١٥٠ دنيرا؛ المحامي، الذي ينظم دعوى ويوجهها إلى من يلزم ٢٥٠ دنيرا؛ معلم المدرسة الابتدائية ٧٥ دنيرا للتلميذ الواحد والشهر الواحد. استاذ اللاتينية، اليونانية والهندسة ٢٠ دنير؛ أستاذ الأدب (البلاغة والفصاحة) ٢٥٠ دنيرا، إلخ. "من يخالف هذا الأمر يعرض رأسه"، بهذا التهديد الصريح ينتهي التدخل المفصل لهذه الوثيقة التاريخية الهامة.

كما كان متوقعا منه، لم يأت القرار إلا بتأزيم الفوضى الاقتصادية، وسرعان ما أبطله قسطنطين، خليفة ديوكاتيان.

أمام فشل هذا التجديد المالي والاقتصادي، اضطرت الحكومة إلى اللجوء الصريح إلى نهج الإعانات العينية ونهج الأعمال الإلزامية. وصار المحصول السنوي المساهمة الرئيسة. وبوجب التحصيل، لجأوا كل خمس سنوات إلى إحصاء الناس العام، وكل رأس، حسب حالة أرزاقه، تفرض عليه رسوم لمختلف المساهمات العينية، التي تقررها الحكومة لخمس عشرة سنة. والمزارعون يدفعون من المحصول السنون حبوبا، خمرا أو زيتا، أو لحما وسواه، والمالكون الكبار يجيبون، عن الإقطاعات التي يسكنها منتجون مباشرون بصفة مستوطنين، بالتخالص الشامل والمنتظم لهذه المساهمات. ولايدفع ضريبة نقدية إلا التجار ومهنيو المدن، وكذلك العوام من كان في المدن، لكن هذه الضريبة لم تعد تلعب دورا هاما في ميزانية الدولة. وبالتالي، نفقات إعالة حاشية قصر مكسكيان، المقيمة في ميلانو. وصار الإمبراطور الروماني أشبه بهذا الصدد بسلاطين فارس السالفين أو دولة الفراعنة.

ولتأمين تغطية مساهمات كل سكان الإمبراطورية، ربطوا بمهنتهم وصناعاتهم: موظفو الدولة، التجار وحوانيتهم، المهنيون بورشاتهم ونقاباتهم. الابن يتابع صنعة الأب. والحكام، والخوارنة، كما يسمون اليوم، لا يستطيعون تغيير مهنتهم: كانوا ملتزمين بالسهر على ما أداه الناس بانتظام عن كل المخصصات العينية وكانوا مسؤولين بكفالة صارمة، عن كل تأخير. والعمال الريفيون من كل العينات، مزارعون أحرار، مستوطنون وحتى العبيد ثابتون على حصتهم من الأرض، كانوا أكثر ارتباطا بالقنانة. كانوا جميعا مسجلين على قوائم الإحصاء ومرتهنين لضريبة عينية على الرأس اسمها ضريبة الأعناق. وكان المستوطنون قد فقدوا حق مغادرة الأرض. والهاربون، أحرارا كانوا أم عبيدا، يلتقطون

ويعادون مكبلين بالحديد إلى أرضهم وسيدهم. وعلى كبار الملاكين، وبخاصة، على أولئك النبلاء المشيخيين، الملقبين بالـ"أنقياء"، تفرض الحكومة واجب الدفاع عن منطقتهم والسهر على سكانها. وكانوا مكلفين بتحصين بيوتهم، التي كانت تتحول إلى قصور منيعة فعلية، وصيانة قطعان ماشيتهم وتزويد الجيش بالمجندين، المأخوذين من أتباعهم. وكانوا مكلفين أيضاً بفتح أسواق في إقطاعاتهم، وتنظيم التجارة والسهر على تنفيذ لائحة الأسعار، وممارسة حتى وظائف العدالة والأمن، وسواها.

كان جهاز "بيزنطة الرومانية"، كما اتفق على تسميتها بدءاً من عهد ديوكلتيان يذكر بملوك الشرق المستبدين، الذين كانوا على ذلك نسخة مقصودة. كان العاهل يتصرف كإله نزل إلى الأرض. وينادى "المقدس"، والـ"سيد" ويخاطب بصفة الجمع للشخص الثاني *Vous*. يظهر بالطيلسان الشرقي، والرأس محاط بالغار الذهبي. يثبت على هذا التاج أشعة ذهبية منطلقة إلى كل الجهات، كما أشعة الشمس (أورليان هو الذي ابتكر هذا). منذ اعتلائه العرش، تطلبت المراسم السجود بين يديه على الركبتين، قرب قدميه ليقبّلا. كان مقامه مسمى "القصر المقدس"، ومجلسه الأعلى، المسمى آنئذ (اجتماع)، سمي منئذ (لقاء يبقى حضوره واقفين)، لأن أحداً لا يجرؤ على الجلوس بحضرة شخص الإمبراطور "المقدس". سلطته، النابعة من "السيادة" غير محدودة، ولذا سمي هذا الشكل من العاهلية أو الأصح الاستبدادية التي وصل إليها الإمبراطور "هيمنة".

كان المساعدون المباشرون للإمبراطورية محافظ الحاكمية (في عهد ديوكلتيان كانوا اثنين: واحد لكل أوغست وعدة حكام آخرين، على رأس الخدمات الإدارية المركزية، مع جهاز كبير من الموظفين والناسخين. ولتسهيل الإدارة، قسمت الإمبراطورية إلى ١٠٠ إقليم عوضاً عن ٤٧ بصورة تقلص الحافز الأرضي لحكامها من مختلف الصنوف: محافظون، مصححون ورؤساء الحامية، حسب سعة وأهمية الإقليم بسبب صعوبات النقل، ورداءة الطرق، وسوى ذلك. والأقاليم، الأقل مساحة، اجتمعت في ١٢ أسقفية، دوائر إدارية، أكثر اتساعاً. على رأس الأسقفيات وضع "ممثلو محافظ الحاكمية"، مرتبطون مباشرة بهذا الأخير. وكانت السلطة العسكرية، المستقلة أبداً عن السلطة المدنية، بين يدي قادة الفرق الإقليميين؛ كان قسم كبير من الجيش حاميات في الأقاليم، لصيانة واستقرار النظام والأمن، بينما لم يترك لمواكب الإمبراطورية سوى أفواج محترفة من "حرس-

الحدود". بسبب بعثرة هذه القوات، تقلص عناصر الفرقة إلى ١٠٠٠رجل، وكبر عدد الفرق كثيرا: كان عندهم حتى ١٧٥ فرقة؛ في القرن الرابع. كانت هذه التدابير تهدف إلى تنظيم مراقبة متبادلة لمختلف السلطات الإقليمية وتجعل ظهور المغتصبين أكثر صعوبة. يخبر المكلفون أو الأتباع الخاصون الذين يجوسون الإمبراطورية كلها، بالتفصيل الحكومة المركزية عن الطوارئ والمفاجآت. كان هذا التكاثر في الوظائف يفرض حملا جديدا على الناس.

وكما الاستبداد الشرقي، فتشت العاهلية الرومانية عن سند إيدولوجي في الدين. كان أورليان قد حاول تجديد وبعث الدين الوثني القديم بدعاية نشطة لعبادة الشمس. ودعم ديوكلتيان ما استطاع، بهدف إلباس السلطة الإمبراطورية الدعامة الدينية، إحياء عبادة جوبتير، الذي أعلن نفسه ابنا له. ولهذه الاعتبارات اضطهد المسيحيين بوحشية في العام ٣٠٣، معتبرا إياهم مدنسات تعرقل قداسته وتهدم الأسس الإلهية لسلطته. طرد المسيحيون من الجيش، حرمت اجتماعاتهم، دمرت بيوت عبادتهم وأحرقت كتبهم. وأهلك العديد من كهنتهم وأساقفتهم، وفرض على مؤمنيهم التضحية للآلهة السابقة، تحت طائلة التعذيب. هذا ما دعي في تاريخ المسيحية، "الاضطهاد الأعظم"، واعتبر بعده كل العنف الذي تعرض له المسيحيون مرارا على يد أباطرة آخرين أمرا بسيطا.

كان منمم عمل ديوكلتيان، لتحويل الإمبراطورية الرومانية إلى وضع استبدادي من النمط الشرقي، قسطنطين، الابن الطبيعي لقيصر قسطنطين كلور (هيلين، أم الإمبراطور الجديد كانت خادمة بسيطة في حانة للعسكر). كان يذكر أورليان بقوته البدنية الاستثنائية. وفي العام ٣٠٥، لما تخلىديوكلتيان، المخلص للمبدأ الذي وضعه هو بالذات، حول مدة خدمة الأباطرة تخلى رسميا عن العرش وفرض على شريكه مكسميان أن يقتدي به، ولما كان القيصران على رأس عملهما، غالريس في الشرق وقسطنطنين كلور في الغرب، دار صراع رهيب بين القيصرين الجديدين والأوغستين.

وهكذا فتح عهد آخر من الفوضى الدموية. في أثنائها تذابح الخصوم بوحشية، وهلكت النساء بهذه المناسبة والأولاد وأنصار المدحورين. أخيرا، بقي قسطنطين منتصرا على كل منافسيه، أو الذين أرسلهم إلى العالم الآخر، وصار في العام ٣٢٣ سيد الإمبراطورية الرومانية الوحيد، وبعد تجربة ١٨ عاما من الحروب الداخلية، تخلى عن

نهج الولاية الربعية الذي أقامه ديوكلتيان. وأخذ نظام العاهلية المطلقة بين يدي قسطنطين شكله الأتم والأنجز.

ولدعم وتوطيد نهائي لهذا النظام الاستبدادي، غادر قسطنطين روما إلى غير رجعة، وفي العام ٣٣٠، أعلن رسميا بيزنطة، المدينة اليونانية القديمة عاصمة للإمبراطورية. وبعث فيها مجلس شيوخ في مقام الحكومة، لم يتخلف عن إحاطة نفسه بأروع الصروح الحكومية، والمعابد الآبدة، سمي أكثرها باسم قسطنطين: مدينة قسطنطين. قاطعا الصلة بوضوح، بهذا التصرف وفي غيره، مع التقاليد القديمة، وأنجز قسطنطين بجرأة، جملة من القرارات والمراسيم، إذ فرض نظام الخدمة على كل الناس، ووضعه بتصرف الدولة. وبعد تأمين سلطتهم، عاد الحق عمليا إلى السادة في جلد العبيد حتى الموت، كتدبير "إرشادي". سمح للآباء أن يبيعوا أبناءهم. وحرم بحزم، ليس فقط المستوطنون المكبلون بالحديد (القانون ٣٣٢)، بل أيضاً الكهنة، المهنيون والتجار ممن تركوا أعمالهم ومكان إقامتهم الدائم. وكان عدد الموظفين يربو بدون توقف، ولم يعد الجهاز الإداري أكثر من إداة وحشية لاضطهاد لا يحتمل، ينيخ بغلظة على كاهل الجميع.

كان قسطنطين المتطير، قليل الثقافة يبحث متحمساً عن سند ودعم سلطته في الدين، متبعاً في هذا، وبكثير من الجرأة أيضاً، منحى أسلافه. ومهما قست حكومات ديوكليان وخليفته غالريس وأحد القياصرة الجدد، مكسميان دييا *Daia*، فقد بدا محالاً استئصال المسيحية. التي صارت قوة اجتماعية جبارة وجيدة التنظيم. كان في كل مدينة عدة تجمعات مسيحية، بأساقفتها، كهنتها، وشمامستها، وتمتلك مصادر غنية. في الإدارة، كما في الجيش، كان الكثير يدافع عن المسيحيين ويتبنى طروحاتهم: وفي قصر ديوكلتيان بالذات تعاطفتا معهم زوجته بيسكا وابنته فاليريا. وقيصر قسطنطين كان يحترمهم، ولاينفذ قرارات ديوكلتيان ضدهم على أرض الغول وبريطانيا، الخاضعتين لسلطته. وأجبر الإمبراطور غالريس أيضاً في العام ٣١١ أن يضع نهاية "لاضطهادهم".

منذ مجيئه، انخرط قسطنطين في هذا الطريق ووجد دوما سندا قويا حول الكهنوت المسيحي، في نضاله الطويل والعنيد ضد منافسيه. لذا، منذ العام ٣١٣، بعد انتصاره على مكسانس (ابن مكسمين)، الذي سيده على إيطاليا، أصدر بالاتفاق مع لوسنيس، الذي كان آنئذ شريكه في التاج، قرار ميلانو الذي يعطي الحرية كاملة لجميع المتعبدين في كل

الأديان، بما فيها المسيحية. وقبلت التجمعات الدينية أن تساهم ببناء الصروح المدمرة، وإصلاح الأراضي والأطيان التي صودرت في أيام الاضطهاد الأكبر. وما صار قسطنطين عاهلا مطلقا، حتى شرع يعامل الكنيسة المسيحية على خير وجه، وأعفى وزراءها من التعويضات والسخرة. وقدم قصره لاتران هدية لأسقف روما. ومع أمه هيلين، اهتم ببناء معابد مسيحية في فلسطين، بيت لحم، غولغوتا والقدس. رغم أنه لم يهتد إلى المسيحية إلا على فراش الموت، وأنه حافظ حتى النهاية على لقبه كحبر أعظم وبنى أيضا بحماس شديد معابد للآلهة السالفين في عاصمته، واعطى الكنيسة المسيحية وضعا متميزا فعلا. وكان هذا الوثني، اهتماما منه بوحدة الكنيسة، يعطي توجيهات تخص مختلف قضايا الكهنوت، ولذا حضر مجمع نيقيا في العام ٣٢٥، الذي كان مسرح مناظرات لاهوتية حامية حول: هل الابن "يشارك الآب في الجوهر" أم "يشبه الآب"، وحيث أعد أعقد "رمز إيماني"، المعروف برمز نيقيا.

وهكذا تحولت الكنيسة المسيحية إلى وسيلة جديدة وقوية بيد السلطة الإمبراطورية. وانصب الاضطهاد منذ الآن على البدع والهرطقات الدينية كجرائم على أمن الدولة، توقع ضررا بالأيدولوجيا الرسمية؛ وبعد مجمع نيقيا، أبعد قسطنطين وسجن كـ"متمرد" كاهن الإسكندرية أريس الذي، مع أنصاره الـ"أريين"، تجرؤوا أن يدعموا، في القضايا الدينية، وجهات نظر أخرى لما تبناه الإمبراطور وذاك المجمع المطيع الخاضع له. لكن، وقد عدل الإمبراطور رأيه، استدعي أريس من المنفى، وأرسل مكانه خصمه الأسقف أتاناس، زعيم غالبية "اباء" نيقيا. وأضيف إلى أشكال الاضطهاد الحكومية الممارسة، بالتالي، الاضطهاد الديني، وهكذا رأى الشعب انطفاء آخر أشعة الحرية.

احتضار وسقوط إمبراطورية العبودية الرومانية

كانت الـ ١٥٠ سنة الأخيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية أعوام احتضار مؤلم. ففي كل أمصار العالم العبودي للبحر المتوسط الملتئم تحت هيمنتها، كان يتتابع، بعد موت قسطنطين (٣٣٧)، تفكك النهج الاقتصادي المبني على استغلال الكدح العبودي وخور طبقة مالكي العبيد، مترافقا مع تجدد مستمر لنشاط الحركة الثورية لدى الشرائح السفلى والغزوات البربرية؛ وكان يتشكل في الوقت ذاته، في الأقاليم الإمبراطورية، دول عديدة، تخضع لتجمعات مسيطرة أخرى ونظام آخر لم يعد عبوديا. كان هذا النظام الأخير، وهذا

صحيح، مستمر منذ سنين طويلة، لكنه عوضا من أن يشكل أحد أسس التقدم الاجتماعي صار منذ زمن عقبته الرئيسية؛ وإلى جانبه، كانت أشكال أخرى من العلاقات الاجتماعية تزداد أهمية.

قد اتسع وتسارع انهيارالنظام العبودي في أثناء القرنين الرابع والخامس. ولقد حولت القرارات الحكومية التي تخص عادة هذا الإقليم أو ذاك، شيئا فشيئا، على كل أصقاع الإمبراطورية، المستوطنين إلى "عبيد الأرض" من الأب إلى الابن،ومالكي الأرض إلى "سادتـ"هم و"حماتهم" الطبيعيين. وبديء باعتبار أرزاق المستوطنين الشخصية ملكا لسادة التراب، وحرم الزواج بين المستوطنين ومن يعتبر حرا بالقانون. على ذلك. كان اهتمام الحكومة الرئيسي بحجم المساهمات الزراعية العينية، وبخاصة، ضريبة الأعناق، وأيضا بمختلف أنواع السخرة المتوجبة للدولة، لشق الطرق وترميمها، والنقل والورشات العامة، وغيرها، الأمر الذي أدى ليس فقط إلى قمع هرب المستوطنين بل اشتداد القسوة عندما يطرد السادة المستوطنين من الأرض. كان هؤلاء الأخيرون معتبرين دافعي خراج، "مرتبطين بالقنانة الزراعية"، كعبيد الأرض، لكن ليس لسادتهم؛ بيعهم بدون الأرض،ولابيع الأرض بدونهم ولا انتزاعها منهم بأي شكل.

كانت الدولة تسعى إلى تحديد المداخيل التي يدفعها المستوطنون إلى المالكين (ثلث المحصول عادة)، لتتجنب عجز المستوطنين المرهقين عن دفع المساهمات المتوجبة للدولة التي تشكل طبعا ثلثا آخر من إيرادها. وهكذا تساوى "عبيد الأرض" (قانون ٣٦٦)، مع المستوطنين. لم يتحسن وضعهم، وهذا صحيح. إلا قليلا، استنادا إلى شهادة كاتب كنسي في بداية القرن الرابع، القديس يوحنا فم الذهب؛ يقول: "كانوا يعاملون المستوطنين كالبغال أو الحمير، بل الحجارة، ولايسمح لهم بالتألم أو الشكوى". إجمالا، كان وضع مستوطني القرنين الرابع والخامس أقرب إلى وضع العبيد منه إلى وضع أقنان عهد الإقطاع.

بنفس الطريقة كان المهنيون مرتبطين إلى ورشاتهم. كانوا جميعا خاضعين للإحصاء وملتزمين أن يدفعوا للدولة مداخيل عينية. وقد أجبروا على تشكيل روابط متحالفة بكفالة متضامنة. وكان لفروع الإنتاج الأهم للجيش، والقصر والإدارة بشكل عام (المناجم، السلاح، البناء، النسيج) مشاريع الدولة الضخمة حيث يعمل العبيد، المدينون، والعمال

الأحرار. وكان محرما على هؤلاء وبحزم ترك مهمتهم؛ وكنا من يعمل بشؤون التسلح موشومين بالحديد المحمي. وكان أبناء الجند منذ السادسة عشرة من عمرهم يسجلون في قوائم الخدمة العسكرية، ويوضع وشم على ذراع هؤلاء المجندين. والمعدمون، واللصوص، وبشكل عام، الأحرار قانونا، بدون مهنة محددة، كانوا يوضعون تحت وصاية أولئك الذي كانوا قد "ذكروا بطالتهم" أو أرسلوا إلى بيوت العمل، "لأن لا يبقوا عبئا على الأرض".

كان كل المالكين الصغار. العائشين في المدن ويملكون قطعة أرض من ٢٥ دونما، مسجلين بين المشيخيين؛ مشكلين الشريحة العليا من سكان الريف، يشغلون مناصب قضائية بلدية، ويكلفون بإعادة توزيع الضرائب والمخصصات المطلوبة من المدن. كان وضعهم قد انهار فراح كل منهم يهرب كما يستطيع من مهامه الشرعية: التحق أكثرهم بالجيش، تزوجوا من عبيد، ليسجلوا بين هؤلاء الأخيرين، إلخ.؛ لكن المعوزين والفارين هؤلاء كانوا يطاردون، ليعادوا بالقوة إلى شرطهم المسجل بالولادة أو بالثروة.

تبرز هذه اللوحة من الفقر والاستعباد، بتناقض واضح، الثروة والسلطة التي يجنيها بعض الأفراد من الشرائح العليا، وبخاصة، حاشية القصر، وندماء الأباطرة ومتملقيهم، وقادة الجيش، وكبار المالكين العقاريين من نبلاء مجلس الشيوخ. والأرض، وقد صارت القيمة الكبرى، دفعت الأغنياء والقادرين المتنفذين المتسلطين إلى السعي بكل السبل لتوسيع أطيانهم، التي تنامت بنسب لا سابق لها. إن الدارات الحصينة الباذخة ذات القاعات البهية، المبلطة بالخزف، المجهزة بالتدفئة المركزية، وحدائقها ذات الأشجار المقلمة بأشكال خيالية، وأحواض السمك والحقول على مد النظر، حيث تعمل "قطعان العبيد" وصفت بحماس بأقلام الشعراء، بخاصة أوزون (القرن الرابع)، في قصيدته موزيل *Moselle*، وسيدوان أبولينير (القرن الخامس) في كتابه "رسائل". إن هؤلاء الأشخاص "الشهيرين"، الذين أدركوا الحياة جيدا، كانوا يحولون مجالاتهم إلى أشكال الدول المستقلة، حيث يتهربون من تنفيذ القرارات الإمبراطورية؛ يسعون إلى إعفاء أنفسهم وذممهم من أداء الضرائب، آخذين لخدمتهم الشيوخ الهاربين ويشدون إلى أرضهم مستوطني الآخرين. يكرهون القصبات والقرى المحيطة على اللجوء إلى حمايتهم؛ وكان الناس الأحرار في التجمعات الريفية المجاورة والفلاحون الصغار مكرهين على التسليم بملكيتهم لهم

ولأرزاقهم، التي منحت لهم وقتيا، لتحمي من اغتصاب أتباعهم وكيد الجنود والموظفين الإمبراطوريين. لقد ناضل أباطرة القرنين الرابع والخامس ضد هذا الشكل من منح الأرض، وهدد بمصادرة أرزاق أولئك الذين يعطون حمايتهم كأولئك الذين يسعون إليها، لأن هذا النهج يضر بمداخيل الخزينة، ويرى السادة أنفسهم أقوى من الدولة المركزية ولا يبالون بتعليمات الحكومة. ولقد ساهمت الحماية كثيرا بتوسيع أرزاق الكنيسة لأن كبار الموظفين الإكليركيين، بفضل وضعهم الممتاز، شرعوا، هم أيضا، بتقليد السادة الكبار من الوجهة الروحية. إذ تطوعوا لحماية كل "الضعفاء" وأراضيهم وأرزاقهم الأخرى، التي لا تترك لهم إلا كامتياز مجاني" بشرط تأدية مختلف الخدمات والمخصصات لصالح شفيعهم الروحي.

لقد وضع جشعهم للسيطرة ممثلي الشرائح العليا، وكبار مالكي الأرض، الوقتيين والروحيين، في مواجهة دائمة مع السلطة المركزية وأجهزتها المحلية، سادة ومشرفي الأقاليم، وكلاء الأسقفيات وأتباعهم الكثر. من هنا انبعث فيما بعد النظام الإقطاعي، مع التجزئة والتقسيم الذي يميزه. فكلما توطدت هذه القوى المبعدة عن المركز، ضعفت السلطة المركزية، وضاعت جهودها لحماية استمرارية ووحدة هذا المجتمع المتفكك المعارض لتوجهاتها التوحيدية.

فضلا عن هذا، وبعد قسطنطين، نادرا ما وجدت السلطة المركزية، وضاعت بين يدي شخص واحد. فموت قسطنطين قسم الإمبراطورية، وكأنها ملكه الشخصي، على أولاده الثلاثة وحفيديه. كان بكر هؤلاء القياصرة، الأجلاء، قسطنطين الثاني، في العشرين من عمره، والأصغر في الرابعة عشرة. فالصراع الدموي بين الأخوة، الذي كان المحصلة الطبيعية عن هذه الوصية، تأزم أكثر بظهور عدد من الطامعين والمغتصبين، دام ١٦ عاما وانتهى في العام ٣٥٣ بظفر أصغر أبناء المتوفى، قسطنطين الثاني. وسرعان ما نهض ضده ابن عمه جوليان الذي نجح بتوطيد السلطة دون اقتسام خلال سنتين (٣٦١-٣٦٣). وضد تجبره وتحكم نبلاء الأرض الكبار، سعى جوليان إلى عون الشرائح الوسطى وفقراء المدن.

لكن الصراع الأشرس ضد الكهنوت الكنسي المغتني ومحاولته اليائسة، لبعث الوثنية اللاغية، أفضت إلى فوضى أعمق من كل الاضطرابات التي حدثت في عهد كل الأسر

المستبدة. لقبت الكنيسة بـ"أبوستا*Apostat*" هذا المدافع الأخير عن الدين الوثني القديم والثقافة السابقة الدنيوية. فبعد موته (هلك في إحدى الحملات الفاشلة ضد الفرس)، تجزأت السلطة حوالي ٢٠ عاما، خلالها حمل التاج أحيانا فتيان بل أطفال، مثل غاليان (في الرابعة) وفالانتيان (في الثانية).

ولآخر مرة اجتمعت الإمبراطورية بين يدي تيودوسيسن رجل الحرب (٣٧٩-٣٩٥). فقد قسى جدا ضد المغتصبين وضد الاضرابات الشعبية. وفي تسالوميك، دفع الجنود إلى السيرك وقطعوا رأس سبعة آلاف مواطن، انتقاما لأحد قادتهم، قتل في هذه المدينة. وكذلك، صارع بدون رحمة ضد مخلفات عبادة الأوثان؛ أمر بتحطيم المعابد المعجزة، مثل ساربيم في الاسكندرية وحظر تحت طائلة الموت الطقوس، والأضاحي والاحتفالات الوثنية. وبحث بحماس عن رعاية وعطف الأساقفة وشخصيات الكنيسة الأعيان، راغبا في أن يجد في تأثيرهم على الناس دعما للسلطة الإمبراطورية المزعزعة. وهكذا خضع بتذلل للإدانة القاسية التي أنزلها به مطران ميلانو، أمبرواز عقابا له على مذبحة ميلانو، وتحمل بصبر عقوبة الحرمان المؤقت. لكن تيودسيس على فراش الموت، رأى جيدا، هو الآخر، أن يقسم الإمبراطورية الرومانية بين ولديه القاصرين: أركاديس إمبراطورا في الشرق وهونوريس إمبراطورا في الغرب. وسمى بربريين وزيرين لرعاية الشابين: وضع الغولوا روفن إلى جانب أركاديس وفاندال سيتلكون إلى جانب هونوريس ومنذئذ صار شعار النسب الإمبراطوري نسر برأسين. وانطلاقا من هذه الحقبة (٣٩٥)، قسمت الإمبراطورية فعلا إلى شطرين شطر غربي وآخر شرقي، سمي فيما بعد الإمبراطورية البيزنطية.

في هذه الحالة من الانحطاط التام والانهيار الكامل الشامل، تلقت الإمبراطورية الرومانية طلقة الرحمة من القوى الثورية التي كانت تعمل ضدها بزخم ما يزال يتسع ويتسع. إن الحركات الشعبية في نهاية الإمبراطورية الرومانية لم تدرس جديا حتى الآن، لكن يمكن مع ذلك ملاحظة نمو هذه الحركات حيثما توجهنا.

ولقد كانت رهيبة بخاصة في الجزء الغربي من الإمبراطورية حيث كانت الملكية الزراعية مزدهرة بشكل فريد. وفي العامين ٣٦٨-٣٦٩، كانت بريطانيا مسرحا لاضرابات مدعومة من الجنود بسبب تأخر دفع رواتبهم، جعلت الاضطرابات العنيفة

الجزيرة كلها فريسة الجبليين السكوت والبيكت (الإكوسيين)، المستقلين عن روما. وبعد جهود مضنية استطاع "الكومت" (القائد الحربي) تيودسيس، والد الإمبراطور أن يقمع الحركة الشعبية والتصدي لهجمات السكوت. وفي ذلك الوقت، شبت من جديد في منطقة الغول كلها انتفاضة الباغود، التي ظلت مهملة لبعض الزمن، ولم تجد من يذكرها، بعد الهزيمة التي ألحقها بها مكسميان شريك ديوكلتيان بالإمبراطورية.

في نهاية القرن الرابع، امتدت هذه الحركة إلى إسبانيا، وفي منتصف القرن الخامس، أخذت نسب الحرب الفلاحية الجبارة. وفي الوقت ذاته "امتشق السلاح كل العبيد تقريبا وانضموا إلى الباغود"، كما يفيد كاتب حوليات معاصر.

وفي الإقليم الإفريقي في نوميديا وموريتانيا بخاصة، انتشرت، في العام ٣٤٠ حركة طورا يخفيها الرماد، ثم تشب مجددا، سميت حركة "المصارعين" (أبطال الله) أو "المشردون"، كما يسميهم أصحاب العقارات. وكان الريفيون، وقد عاشوا البؤس حتى الثمالة، يشكلون "تجمعات واسعة من الرجال والنساء الهائمين على وجوههم"، حسب تعبير أوغستان، أحد كتاب بداية القرن الخامس. وكان العبيد الفارون يلتحقون بهم أو كما يقول أوغستان ساخرا" يضعون أنفسهم تحت حمايتهم". وكان المصارعون يعتبرون المسيحيين "الحقيقيين"؛ وكانوا سيصفون بالخيانة والمكر أولئك الذين يظلون خاضعين للسلطات، ويسمون الأغنياء أبناء الشيطان. كانوا ينهبون الملكيات الكبيرة، يحرقون الدارات، يذبحون مالكيها، ولا يوفرون أعضاء الإكليرُس المغتنين ويدمرون الكنائس. ما كانوا يكتفوا بضربنا بالعصي والسيوف، يقول أوغستان بل يخربون لنا أبصارنا بالكلس والخل، بقسوة لا سابق لها، يسرقون بيوتنا، وبجيوشهم الجرارة يجوبون البلاد باذرين الدمار، النهب والحرائق". وتنضم هذه الشرائح المعدمة إلى قطعان البربر الراحلة أبدا ويخوضون مع القوات الحكومية معارك منتظمة حقيقية. وفي العام ٣٧٢، دمر شيخ البربر فيرمس، زعيم إحدى هذه الحركات، عددا من المدن على ساحل موريتانيا، استولى على قيصرية وطلب من الإمبراطور أن يشركه بالسلطة. فأرسل إليه مخمد فتن بريطانيا، تودوسيس، المرفع إلى رتبة سيد الفروسية، وليس إلا بعد سنتين من القتال الضاري استطاع أن يعيد "الأمن" إلى أفريقيا، كما فعل في الجزيرة.

وانطلاقا من العام ٣٧٥، يصير وضع الإمبراطورية الرومانية أكثر فأكثر مأساوية.

تيار جديد من البربر يتخطى الحدود، نتيجة ما عرف بهجرة الشعوب الكبرى. ومن حدود الصين الغربية تتوافد إلى السهوب الأوربية مجموعات القبائل من الهان (هيونغ-نو)، التي صارت سيدة الحوض الشمالي للبحر الأسود، من الدون حتى الكاربات. وخضعت لهم الشعوب التي سماها الكتاب "الغوت"، لكن مجموعة أخرى من الوزغوت أو الغوت الغربيين، طردوا من موطنهم القديم، اجتازوا الدانوب وأقاموا عند تخوم الإمبراطورية. وأكرهوا الحكومة الرومانية أن تخلى لهم ميزيا *Mesie* وشطرا من تراسيا وأن تقبلهم بصفة حلفاء. ولقد تمرد الحلفاء الجدد غير الراضين عن النظام الإمبراطوري وتنكيد ومضايقات الموظفين: شبت انتفاضة جبارة، دعمها مستوطنو البلد، وعمال مناجم تراسيا والعبيد. أبادوا جيشا رومانيا قرب أندرنوبل، وهلك الإمبراطور فالانس في المعركة (٣٧٨).

تمكن الإمبراطور تيودوسيس من تهدئتهم لبعض الوقت بإعطائهم أراض جديدة في تراسيا ومقدونيا، لكن بعد موته، عاد الوزغوت إلى القتال. وبقيادة ملكهم ألاريك، نهبوا شبه جزيرة البلقان، ثم التفتوا نحو الغرب، مشوا إلى إيطاليا تغلغلوا في نفس الوقت، من جهة الشمال، في الفاندال والبرغوند، سالكين مضايق الألب. استطاعت قوات ستلكون، جنرال إمبراطورية الغرب هونوريس أن تحمي إيطاليا من غزوة البربر، بفضل العم الآتي من بريطانيا، الغول والرين. لكن ستلكون، ضحية المكائد النموذجية في القصر الروماني الممزق هلك على يد هونوريس وانصب على البلد طوفان حقيقي من البربر. توقف الوزغوت في إيطاليا، وفي العام ٤١٠، طوق ألاريك روما. توافد العبيد إلى جيشه في كل إيطاليا، تمرد عبيد روما، فتحوا له الأبواب، وبالاتفاق مع الغوت، أخضعوا المدينة إلى نهب رهيب وأحرقوها. مع ذلك، أخلى الوزغوت إيطاليا، وفي طريقهم نحو الغرب، أقاموا في أكتانيا على ضفاف الغارون وشمال إسبانيا. وجنوب شبه الجزيرة احتله الفاندال، الذين عبروا من هنا إلى إفريقيا، التي راحت ضحية حرائق التمردات الشعبية، واحتلوا قرطاجة. في غضون ذلك، كان شمال الغول قد سقط في أيدي الفرانك، وكان شطرها الغربي قد احتله البورغوند.

وبدءا من العام ٤٥٠، صار وضع الإمبراطورية أكثر خطورة: تغلغل السهون، في عهد أتيلا، الملقب "ذراع الله"، تغلغلوا حتى الغول، لكنهم ردوا على أعقابهم بقوة الفرانك

الجيدة التنظيم، والوزعوت والبورغوند، المقيمون في البلد، بقيادة الجنرال الروماني إتيوس (معركة حقول كتالونيك، على ضفاف المارن، ٤٥١)، انقضوا على شمال إيطاليا، ونهبوا حتى أتروريا ذاتها. وفي العام ٤٥٥، احتلت روما مرة ثانية ونهبت بدون رحمة بقيادة فاندال جنسريك الآتي من أفريقيا عن طريق البحر مع عصاباته المقاتلة. بعد نهب روما هذا، لم يبق في المدينة سوى سبعة آلاف قاطن: كان آخر الأباطرة قد كفوا منذ زمن عن اعتبارها عاصمة واختاروا مقاما لهم رافين، المحمية ذات المستنقعات غير السالكة. وكانت إيطاليا كلها تغص بالبربر: كانت قواتهم المرتزقة هي قوة الأباطرة المقاتلة الوحيدة. وفي العام ٤٧٦، رأى قائد أحد هذه الجيوش البربرية، مصفي التركة، أو دواكر، أن الغرب لم يعد بحاجة لإمبراطور: فأرسل الشعارات الإمبراطورية إلى القسطنطينية، وأقصى الإمبراطور الصغير روملس أوغستول إلى إحدى دارات كامبانيا وأعلن نفسه ملك إيطاليا. لذا اعتبر العام ٤٧٦ عام سقوط إمبراطورية الرومان العبودية الغربية. وانتقلت السلطة كليا إلى زعماء من مختلف الأمم الجرمانية.

وقد وقعت أحداث مماثلة في النصف الشرقي من الإمبراطورية، حيث كان السلاف، مع العبيد والمستوطنين، هم الذين لعبوا في القرنين الرابع والخامس دور حافري قبر الإمبراطورية. كانوا معروفين لدى تاسيت باسم فينيد. وفيما بعد بديء بذكر أمة سلافية أخرى: الأنت. شكلوا جزءا من تحالفات الشعوب التي يسميها الباحثون اختصارا الغوث، ثم الهانس. وفي القرن الرابع ظهرت لأول مرة كلمة سلاف تحت سن قلم المؤرخ الإغريقي بروكوب، في كتابه "تاريخ حروب جوستينان".

كتب بروكوب بالتفصيل غزوات السلاف المستمرة، الذين "يعيشون على مساحة كبيرة من ضفاف إستر (الدانوب)، في الجهة الأخرى من النهر". ورغم جهود الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥) لإعادة بناء خط دفاعي للدانوب، "ظل الدانوب أبدا ممرا للبربر، والأرض الرومانية كلها مفتوحة لغزواتهم" (٣، ١٣). "في إيليريا وفي كل تراسيا، أي في اليونان كلها، من البحر الأيوني حتى ضاحية بيزنطة؛ منذ بدء عهد جوستنيان في االمبراطورية الرومانية، كان الهانس، السلاف، والأنت، في أثناء غزواتهم المستمرة، يكبدون سكان هذه المناطق آلاما لا تطاق. أعتقد أن كلا من هذه الغزوات كلفت الرومان مائتي ألف قتيل وسجين، بحيث صارت البلاد أشبه بصحراء سيسيا *Scythie* (بروكوب، تاريخ سري، ٨، ٢٠).

بعيد هذا، في عهد خليفة جوستنيان، في نهاية القرن السادس، لم يعد السلاف يكتفون بهذه الغزوات الدورية، بل بدؤوا يتجولون جماهير في شبه جزيرة البلقان كلها. هذا ما يثبته في عمله "تاريخ الإكليروس" جان إيفيز، مؤرخ آخر من القرن السادس، مشكلا صدى للضائقة التي سيطرت في الأوساط الحاكمة في الإمبراطورية: "بعد ثلاث سنوات من موت جوستان وبعد عهد تيبير (في العام ٥٨١)، غزت أمة السلاف اليونان الكبرى – هيلاد– كلها، وتسالونيك، وأقاليم تراسيا، واستولت على مدن عديدة وحصون حصينة، حارقين ناهبين ومسيطرين على كل البلد، حيث تقيم منتصرة، كما على أرضها بالذات... يدمرون، يحرقون، يسرقون البلد حتى جدران السور (من القسطنطينية)؛ واختطفوا قطعان الامبراطور وغيرها من الغنائم. وهكذا عندما وجدوا، واستقروا وسرقوا الأقاليم الرومانية، فاغتنوا، ادخروا الذهب والفضة، وقطعان الأحصنة وأكوام الأسلحة. وتعلموا بل أجادوا خوض الحرب خيراً من الرومان، الذين كانوا حتى الأمس القريب فظين، وما كانوا يجرؤون على الخروج من غاباتهم وسهوبهم (٦، ٢٥) وصحيح أيضاً أن شطر الإمبراطورية الشرقي عرف، خيراً من الغرب، أن يتلائم مع الظروف الجديدة ويعيد تنظيم واستثمار اليد العاملة العبدة في الاقتصاد الإقطاعي: وهكذا عاشت بيزنطة القرن الوسيط قرابة ألف عام، حتى ١٤٥٣، عام احتلال الأتراك القسطنطينية.

هكذا تم، في منتصف الألف الثاني الميلادي، أفول النهج المؤسس على العبودية. وانطلاقاً من نهاية القرن الثاني، تباطأ بوضوح تطور التفكك الاجتماعي بسبب وجود دكتاتورية الشرائح العسكرية الاستعبادية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية. لكن هذه الإمبراطورية ، بقمعها الحركات الثورية للعبيد، للمستوطنين، وفقراء المدن، والتضحية لصد غزوات "البربر" بكل أرزاق الطبقات الشعبية، وبكل الإنجازات الثقافية السالفة، لم تكن تفعل سوى تكتيل ضدها كل القوى الثورية وأعدائها الخارجيين، الذين صفوها نهائياً، وغيبوا نجمها، وكل النظام الاجتماعي الذي بنته.

فهرس الجزء الثاني

من منشورات دار علاء الدين التاريخية

* مغامرة العقل الأولى

..............................فراس السواح

* الحدث التوراتي

..............................فراس السواح

* آرام دمشق وإسرائيل

..............................فراس السواح

* الأسطورة والمعنى

..............................فراس السواح

* بدايات الحضارة

..............................عبد الحكيم الذنون

* سويداء سورية

..............................مجموعة من المؤلفين

* أضواء على الثورة السورية الكبرى

..............................عطا الله الزاقوت

* السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين

..............................ت سالم العيسى

* صرح ومهد الحضارة السورية

..............................مفيد عرنوق

* المصادر التاريخية في الأندلس

..............................ت نايف أبو كرم

* أميرات سوريات حكمن روما

..............................ت خالد عيسى

* الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى

..............................فضل عبد الله الجثام

* بيو غرافيا حية لمشاهير الحكام في العالم

..............................ت خالد أبة الليل

* أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة

..............................عبد أحمد عبد الكريم السعدي

* لغز عشتار

..............................فراس السواح

* دين الإنسان

..............................فراس السواح

* جلجامش

..............................فراس السواح

* التاو

..............................فراس السواح

* الرحمن والشيطان

..............................فراس السواح

* من هم الموحدون الدروز

..............................جميل أبو ترابة

* العادات والتقاليد في محافظة السويداء

..............................عطا الله الزاقوت

* سلسلة الأساطير السورية

..............................ت مفيد عرنوق

* كليوباترا وعصرها

..............................ت يوسف شلب الشام

* الفكر الإغريقي

..............................ت محمد الخطيب

* تاريخ اليابان

..............................ت يوسف شلب الشام

* الحضارة بين النعمة والنقمة

..............................إحسان البني

* التراث من منظور مختلف

..............................عبد الغفار نصر

* الاقتباس والجنس في التوراة

..............................خالص مسرور

* الأسطورة في بلاد الرافدين

....عبد الحميد محمد

* إله الشمس الحمصي

....ت إيرينا داوود

* البلدان النامية-مشكلات العلاقات الاقتصادية

.......................ت د ماجد علاء الدين

* تاريخ القانون في العراق

....عبد الحكيم الذنون

* الديانة الفرعونية

.............................ت نهاد خياطة

* دراسات حول الأكراد

....ت عبدي حاجي

* الشركس في فجر التاريخ

....برزج سمكوغ

* حدث ذات مرة في سورية

....سمير عبده

* المسيحيون السوريون خلال ألفي عام

..............................سمير عبده

* السريانية العربية

....سمير عبده

* الإيديولوجية اليهودية

....مفيد عرنوق

* تيارات الفلسفة الشرقية

....محمد حسن

* دراسات في الفلسفة الأوروبية

....سليمان حسن

* التشريعات البابلية

....عبد الحكيم الذنون

* العولمة والتبادل الإعلامي

.............................د صابر فلحوط

* من أنساب العرب العاربة

....صالح هواش المسلط

* أساطير في أصل النار

....ت يوسف شلب الشام

* هل هبط آدم في القفقاس

....محمد عمر بغداي

* الحضارات القديمة

....ت نسيم واكيم اليازجي

* الجنس في العالم القديم

....ت فائق دحدوح

* الديانة الزرادشتية

....نوري إسماعيل

* شريعة حمورابي

....ت أسامة سراس

* طقوس الجنس المقدس

....ت نهاد خياطة

* موسوعة تاريخ القفقاس والجركس

....محمد جمال صادق ابه زاو

* معجم الأساطير

....ت حنا عبود

* صراع بين الحرية والاستبداد

....فارس الحناوي

* تجارة الأسلحة في الخليج العربي

....رحيم كاظم محمد الهاشمي

* الإتنولوجيا

....محمد الخطيب

* الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية

....ت سالم العيسى

* دراسات في المكتبة العربية التراثية

...................................عادل فريجات

* الخيول الأصيلة في الصحراء العربية

....أحمد غسان سبانو

* المعراج والرمز الصوفي

....د. نذير العظمة

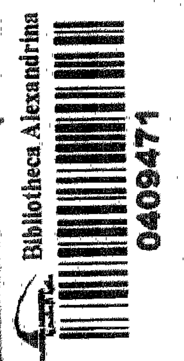
هذا الكتاب

في الجزء الثاني من هذا الكتاب يزيدنا المؤلف غزارة علمية، وغنى معرفي إذ يلقي الضوء على الجانب الحضاري والصراع بين الطبقات المستغلة والمضطهدة بكونه العامل الأساس للتطور، ويتابع المؤلف خط هذا الصراع صعوداً وهبوطاً عبر تلك الحضارات، ويرصد الثورات والتمردات ضد الظلم والاستبداد.

يبدأ هذا الصراع من حرب البلوبونيز حتى أزمة القرن الثالث والامبراطورية الرومانية بين عامي ٢٣٥-٤٧٦ وما بينهما من صعود حضارات وهبوط أخرى.

الكتاب ذو قيمة تاريخية واجتماعية وثقافية عليا لكل دارسي التاريخ والعلوم الإنسانية، ولكافة القراء.

الناشر



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١

فاكس: ٥٦١٣٢٤١